

مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة التراث القومي

مختارات قومية لمحمد عزة دروزة

محمد عزة دروزة

مختارات قومية

لمحمد عزة دروزة

GIFTS 2006

The Swedish Institute

Alexandria



مركز دراسات الوحدة العربية

مختارات قومية لمحمد عزة دروزة

محمد عزة دروزة

تحرير : ناجي علوش

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» ـ شارع ليون ـ ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤ ـ برقياً: «مرعربي»
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي. فاكسيميلي: ٨٠٢٢٣٣

الطبعة الأولى

بيروت: آذار/مارس ١٩٨٨

المحتويات

تقديم

يسر مركز دراسات الوحدة العربية أن يقدم مختارات الأستاذ محمد عزة دروزة، ضمن إطار مشروع المركز لتقديم تراث رواد الفكر القومي ومفكريه.

ولقد كان الأستاذ محمد عزّة دروزة واحداً من أعلام المشروع القومي الوحدوي، ومن أبرز المناضلين القوميين العرب.

ويأتي هذا الكتاب ثانياً، بعد تقديم أعمال المفكر القومي الكبير الأستاذ ساطع الحصري؛ وبعد ما لاقته من اهتمام لدى القراء العرب في كل الأقطار العربية.

والمركز بإصدار مختارات الأستاذ محمد عـزّة دروزة، يؤكد حرصه على نشر هذا التراث وتقديمه للقراء العرب، تكريماً لهؤلاء الاعلام، وتعريفاً بفكرهم ونضالهم، وفي سبيل دراسة الاتجاهات القومية دراسة معمقة، تسمح بفهمها، وتساعد على تعميق الوعي بالمشروع القومي الوحدوي.

ولقد ضم هذا الكتاب مختارات فقط من كتابات الأستاذ دروزة، لأن أعماله كثيرة، ولأنها تتخطى اهتمامات المركز، المباشرة، إلى ميادين أخرى كتفسير القرآن والجهاد والمرأة في القرآن والسنة. . . . الخ.

إن معظم هؤلاء الأعلام لم يلقوا حقهم من الاهتمام والتكريم؛ إذ إن بعضهم قضى في ظروف صعبة كالذين أعدموا عامي ١٩١٥ و١٩١٦. وبعضهم لم يجد من يهتم به بعد وفاته. ولذلك ظل تراث معظمهم مجهولاً، وإن كان الكثير منه قد طبع في وقته. إلّا أنه نفد، وغاب عن الأنظار، حتى من رفوف المكتبات العامة.

وستساعد إعادة طبع هذا التراث على توفير المادة للباحثين، كما ستساعد على بلورة فهم متكامل، يتيح لنا فرصة دراسة المشروع القومي دراسة أعمق وأشمل من ذي قبل.

ويسرنا أن نتسلم ملاحظات القراء العرب المعنيين بهذا المشروع.

مركز دراسات الوحدة العربية

مقدّمة
ملاحظات ضروريّة

١ ـ ضَمّت هذه المختارات نصوصاً كاملة، لأننا حين اخترنا، راعينا أن نحافظ على ترابط النص. ولم نحذف من المتون إلا قصائد متفرقة، وكشفاً بصحف عصر النهضة، من كتاب **نشأة الحركة العربية الحديثة** وقد أشرنا في مقدمة كل نص إلى الحذف، حيث وقع، لا عندما شمل مقاطع أو أسطراً، بل عندما شمل أيضاً فصولاً وأقساماً.

٢ ـ أبقينا الهوامش التي وضعها المؤلف، كما جاءت في النصوص، وحسب أرقامها، أما الهوامش التي وضعناها، فقد أثبتنا في نهايتها كلمة «المحرر»، إذا جاءت في نهاية الصفحة. أما سائر الهوامش فقد رأينا أن تثبت في نهاية المختارات من كل كتاب. وحين خفنا اختلاط أرقام هوامش المؤلف بهوامشنا، رقمنا هوامشنا بالرقم الأوروبي (العربي) للتفريق بينهما.

٣ ـ اعتاد المؤلف أن يذكر مراجع كتبه الأساسية في أول الكتاب أو آخره، دون أن يشير للناشر أو سنة الصدور، أو الطبعة. كما اعتاد أن يشير إلى المراجع، حيث حصل اقتباس، وفي نهاية كل فصل أحياناً. وقد تركنا هذه المراجع، كما وردت، ولم نحاول أن نبحث عن مراجعه أو نثبت المعلومات عن ناشريها وسنوات صدورها، لأن هذا صعب التحقيق. فليستَ كل مراجعه في مكتبته. وهناك كتب كثيرة، كان يستعيرها من المكتبة الظاهرية أو غيرها. ثم إن بعض المراجع طبع أكثر من طبعة، وهذا ما جعلنا نعزف عن البحث في هذا الموضوع. ولقد اخترنا مراجع للموضوعات المهمة، وحددنا الناشر وسنة الصدور، ليتمكن القارىء من مراجعة القضايا التي يرى مراجعتها.

٤ ـ وتحدث المؤلف عن كثير من أعلام الأشخاص والأقوام والمدن والمواقع والمعارك والحوادث التاريخية والجمعيات الأدبية والعلمية والسياسية، وقدم تعريفات لبعضها، ومعلومات عن بعضها الآخر، ولكنه لم يعرّف بها كلها، ولأنها كثيرة جداً، فقد كان التعريف بها عملاً معجمياً موسوعياً، يحتاج إلى وقت كبير جداً، لا يسمح به الوقت المخصص لهذه المختارات.

ولذلك اضطررنا لتركها، كما تركها المؤلف، آسفين.

٥ ـ وحاولنا جهدنا أن نصحح ما وقع في النص من أخطاء مطبعية، وأن نزوده بالشكل: (الفواصل والنقط)، ولكنا تجنبنا تصحيح الأخطاء اللغوية، حتى لا نتدخل في النص(*).

٦ ـ وقد رتبنا النصوص حسب مواضيعها، لا حسب تاريخ صدورها، وإن كنا قد راعينا تاريخ كتابة النص، عند إدراجه، ضمن الموضوع.

٧ ـ وآثرنا، عند كتابة المقدمة، أن نبدأ من سيرة الرجل ومؤلفاته، ثم أن نحاول تحديد دوره القومي. وقد نالت سيرته ومؤلفاته اهتماماً ملحوظاً، لأن المعلومات عن سيرته ومؤلفاته ليست معروفة، ولأن حياته ومؤلفاته سجل نضالي قومي.

(*) تلبية لرغبة المحرر، عمدنا إلى عدم تصحيح بعض الأخطاء اللغوية الواردة في النص، حفاظاً منا على تاريخيته. مركز دراسات الوحدة العربية.

مدخل
محمد عزة دروزة : تجربة كبيرة في العمل القومي العربي

ناجي علوش (*)

محمد عزة دروزة، اسم معروف لدى قطاعات من المثقفين العرب. إلا أن المعرفة محدودة لأسباب عدة منها:

- إن سيرة الرجل لم تدرس، ولم تعمم. وإذا استثنينا كتاب حسين عمر حمادة المعنون: **محمد عزة دروزة**، والصادر قبل وفاة المناضل الكبير سنة ١٩٨٢[١]، فإننا لا نجد أثراً يعرّف بالرجل وسيرته وفكره. ثم إن كتاب عمر حسين حمادة لم يعمم، بسبب ظروف التوزيع التي يعيشها الوطن العربي، ومنذ بداية هذا العقد بخاصة.

أما مذكرات الرجل، فما زالت مخطوطة، ما عدا جزء واحد طبع ووزع في دمشق، على نطاق محدود أيضاً[٢].

- إن كتب محمد عزة دروزة، طبعت في مراحل مختلفة، بدءاً من سنة ١٩١١، كما سنرى. ولقد طبع بعضها ووزع أكثر من مرة، ولكن أكثرها اختفى من الأسواق، منذ فترة طويلة، ولم يعد طبعها. وما زال بعضها موجوداً في بعض الأسواق العربية، إلا أنه قليل[٣].

- إن دور الرجل السياسي ظل فعالاً حتى النكبة، ثم خفت، نتيجة النكبة والمرض من جهة، وتحولات الظروف العربية من جهة أخرى. ومع أن محمد عزة دروزة قدم أعمالاً مهمة، خلال المرحلة التالية (١٩٤٨ ـ ١٩٨٤)، إلا أن هذه الأعمال قدمها مناضل التزم بيته، في مرحلة استأثرت فيها قوى جديدة، لا تقيم اعتباراً لتراث أو تاريخ أو دور ثقافي.

- إن الحركة القومية التي تدافعت في الخمسينات، وحكمت في الستينات، لم تلتفت إلى الرواد، سيان منهم الذين استشهدوا سنة ١٩١٦، أو الذين ظلوا أحياء كعلي ناصر

(*) عضو مجلس أمناء مركز دراسات الوحدة العربية والأمين العام لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين سابقاً.

الدين[٤]، ومحمد عزة دروزة. وكانت طموحات الحركة القومية ومعاركها اليومية، تشغلها عن قادة المراحل السابقة وأفكارهم وكتبهم.

ولذلك كان محمد عزة دروزة معروفاً، وغير معروف، لأن اسمه لم يكن سهلاً أن يغيب، ولكن حقيقة دوره منذ سنة ١٩٠٨، في ميداني السياسة العملية والنظرية، كان غائباً، وأفكاره كانت محصورة في كتب لم يهتم أحد بتعميمها. ولولا جاذبيتها الخاصة، ومادتها التاريخية والسياسية، وحاجة القارىء العربي إلى مثلها، لما وصلت إلى أحد.

وفي السادس والعشرين من تموز/يوليو ١٩٨٦، يمر عامان على وفاته، ومع ذلك، فإن مذكراته لم تطبع، وكتبه العديدة، سيان التي لم تطبع من قبل، أو التي طبعت ونفدت، لم تجد طريقها إلى القارىء. كما أن هذا الوطن العربي الكبير، بحكوماته ومنظماته وأحزابه، لم ينظم له احتفال تكريم، أو ينشىء لجنة لتخليد ذكراه، أو يطبع له كتاباً على أساس غير تجاري(*).

وهذه محاولة لتكريمه من جهة، وللتعريف بجانب مهم من فكره، وهو الجانب القومي الذي رصد له حياته. أما الجوانب الأخرى: اسهاماته السياسية، دوره في كتابة التاريخ العربي، دوره في كتابة تفسير القرآن[٥]، دوره التربوي. . . الخ، فنتركها لدارسي فكر الرجل الكبير، آملين أن يظهروا في هذا العصر المشغول بإشكالاته وبلبلاته.

- ١ -

لقد أعفانا الأستاذ محمد عزة دروزة عناء البحث في سيرته، ذلك أنه دوّن هذه السيرة في المذكرات، وقدم خلاصة سيرته ومؤلفاته بشكل مختصر لمن لا يجد وقتاً لقراءة المذكرات.

ولما كان الرجل مؤرخاً، فقد قدم للباحثين مادة مهمة تساعدهم في أبحاثهم، وتغنيهم عن كثير من المقابلات والمراجعات.

ولسوف نعتمد أساساً على الخلاصة التي أعدّها، والمذكرات التي تركها، لأن الهدف من هذه الدراسة، ليس سيرته، ولا مؤلفاته، بل دوره القومي. وهذا هو الجانب الذي سنتوسع فيه. أما سيرته ومؤلفاته، فسوف نقدمها بإيجاز كبير، حتى لا تطغى على الجانب الذي قررنا أن ندرسه في تقديم مختاراته القومية.

١ ـ سيرته

ولد الأستاذ محمد عزة دروزة ليلة السبت الحادي عشر من شوال، سنة ١٣٠٥ هـ، أي أواخر حزيران/يونيو، وأوائل تموز/يوليو سنة ١٨٨٧ م في مدينة نابلس في فلسطين(**). ووالده

(*) أصدرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ملفاً خاصاً بعنوان: «المؤرخ العربي محمد عزة دروزة» في: المجلة العربية للثقافة، السنة ٦، العدد ١٠ (آذار/ مارس ١٩٨٦).

(**) يبدو أن خطأ ورد في اليوم أو التاريخ. لأن الحادي عشر من شوال يوم اثنين، وليس يوم سبت، وهو يوم =

عبد الهادي بن درويش بن إبراهيم بن حسن دروزة، من أسرة تعود إلى عشيرة الفريحات بكفر نجة من لواء عجلون. أما والدته، فهي مسعودة بنت بدوي بن إبراهيم دروزة. وقد نزحت الأسرة إلى نابلس في القرن العاشر أو الحادي عشر الهجري. وكان والده، يتعاطى تجارة الأقمشة، كما كان جده كذلك، وكان لوالده محل في خان التجار. ويروى المُترجم له أنه اطلع على وثيقة تصف أحد أجداده، خضر بك دروزة، بأنه فخر التجار. وتعود الوثيقة إلى سنة ١١٧٠ هـ. أما لقب دروزة، فيرجّح أنه لحق بالعائلة لامتهانها الخياطة. أما عدد أفراد الأسرة فبلغ سنة ١٩٨١، نحو ستمائة نسمة، موزعين بين نابلس وعمان ودمشق والعراق والسعودية والمهجر.

بدأ الأستاذ محمد عزة دروزة دراسته في مدرسة الشيخ محمد زعيتر الإبتدائية الحكومية، أو شبه الحكومية، من سنة ١٨٩٥ حتى سنة ١٨٩٨. وكان يمضي الصيف في كُتّاب الشيخ إبراهيم الدرويش، حين تعطل المدرسة التي كان فيها. وفي سنة ١٨٩٨ دخل المدرسة الرشيدية، وتخرج منها سنة ١٣٢١هـ/ ١٩٠٢ م، وكان منذ السنة الثالثة الأول في صفه، مع أن رفيق التميمي نازعه في السنة الأخيرة على المرتبة. إلا أن والد رفيق أرسله ليدرس مع اخوته في الآستانة، فحافظ محمد عزة دروزة على مرتبته، ذلك أن ظروف والده المالية، لم تسمح بإرساله إلى الآستانة، أو إلى أي مكان آخر لإتمام دراسته، ولذلك بدأ العمل، وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة.

بدأ حياته العملية في دائرة البرق والبريد العثمانية، فتعلم بعد تخرجه من الثانوية الضرب على آلة البرقيات واستقبالها وأعمال البريد الأخرى. وعُيِّن، منذ سنة ١٩٠٦ في دائرة البرق والبريد، وتنقل في أماكن مختلفة من بلاد الشام، حتى انتهى به الأمر سكرتيراً لديوان المديرية العامة في بيروت، حتى سقوط السلطنة العثمانية، وعندما رحلت الإدارة العثمانية عن بلاد الشام، تنقّل محمد عزة دروزة بين بيروت ودمشق وعمان ونابلس. ولكنه لم يعمل إلا فترة قصيرة كاتباً في ديوان الأمير عبد الله سنة ١٩٢٠. وأصبح سنة ١٩٢١ مديراً لمدرسة النجاح في نابلس، وظل كذلك، حتى سنة ١٩٢٦. ثم انتقل مديراً لأوقاف نابلس (١٩٢٨ ـ ١٩٣٢)، ثم عين مديراً عاماً للأوقاف الإسلامية (١٩٣٢ ـ خريف ١٩٣٧). وفي خريف ١٩٣٧ استولت الإدارة البريطانية المحتلة على إدارة الأوقاف، وأبعدت العاملين فيها، من العاملين في الحركة الوطنية. ولم يعد الأستاذ محمد عزة دروزة بعد ذلك إلى الوظيفة.

إلا أن الانقطاع عن الدراسة، والاضطرار للعمل لم يصرف الرجل عن دوره الوطني، ولا عن متابعة الدراسة، ومحاولة الاضطلاع بدور سياسي ثقافي. ولقد امتزجت هنا حياته السياسية بحياته الثقافية، فكان مؤرخاً وسياسياً ومحرضاً ومؤلفاً.

= الثاني من تموز/ يوليو. وعليه فقد يكون ميلاده يوم الحادي عشر ليلة الأحد ـ صباح الاثنين، أو يوم العاشر من شوال، مساء السبت صباح الأحد. انظر: محمد مختار باشا، **كتاب التوفيقات الإلهية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية**، دراسة وتحقيق محمد عمارة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، مج ٢، ص ١٣٦٤ ـ ١٣٦٥.

بدأ الأستاذ محمد عزة دروزة نشاطه السياسي بالانضمام إلى نادي جمعية الاتحاد والترقي، وكان هذا النادي واحداً من نواد عدة، أسست بعد إعلان الدستور، سنة ١٩٠٨، في العاصمة، وكل مدن السلطنة. وقد أسهم سنة ١٩٠٩ بتأسيس فرع لحزب الحرية والائتلاف المعارض لحزب الاتحاد والترقي: واختير أمين سر لهذا الفرع. كما أسهم سنة ١٩١١ في إنشاء الجمعية العلمية العربية، وهدفها إنشاء مدارس عربية تعلّم باللغة العربية، لأن مدارس السلطنة كانت تعلم العربية بالتركية[٦]؛ وتعاون مع جمعية بيروت الإصلاحية، حين أنشئت سنة ١٩١٢. كما تعاطف مع العاملين من أجل عقد المؤتمر العربي الأول، في باريس، سنة ١٩١٣[٧].

وفي سنة ١٩١٤ عمل على تكوين فرع لحزب اللامركزية، مع نفر من رجال نابلس القوميين، إلا أن إعلان الدولة حالة الطوارىء، جمّد نشاط الفرع عملياً[٨].

وفي سنة ١٩١٦، التقى دروزة بالدكتور أحمد قدري في عوجة الحفير، وهناك انضم إلى حزب العربية الفتاة[٩].

وما لبثت العربية الفتاة ان قررت توسيع إطار عضويتها، فأنشأت حزب الاستقلال سنة ١٩١٩، وكان الأستاذ دروزة من مؤسسيه.

وفي منتصف تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩١٨ انتقل الأستاذ محمد عزة دروزة إلى فلسطين، بعد أن اضطر مندوب الملك فيصل للانسحاب من لبنان، تحت الضغط الفرنسي. وكان مشروع الوطن القومي الصهيوني، قد أخذ يشغل الجماهير في فلسطين، بعد الاحتلال البريطاني لها، فأسهم الأستاذ دروزة مع رجال نابلس، بتكوين الجمعية الإسلامية ـ المسيحية، وانتخب سكرتيراً لها. وحين عقد أول مؤتمر عربي وطني في فلسطين، أوائل كانون الثاني / يناير سنة ١٩١٩، انتخب الأستاذ دروزة سكرتيراً له[١٠].

وحين انعقد المؤتمر السوري، (أواخر حزيران /يونيو ـ أوائل تموز/يوليو ١٩١٩)، حضره محمد عزة دروزة ضمن ممثلي نابلس، واختير سكرتيراً له. ثم ما لبث المؤتمر أن تحول إلى مجلس تأسيسي، واختار لجنة لوضع الدستور، فانتخبت دروزة سكرتيراً لها. وقد وضعت اللجنة مشروع الدستور المذكور[١١].

وفي دمشق، ومع الدعوة لانعقاد المؤتمر السوري، التقى دروزة برجال العربية الفتاة مجدداً، وكانوا القوة الرئيسية في حكومة فيصل. ولقد انتخب عضواً في هيئتها المركزية، ثم سكرتيراً لها. وكان بحكم موقعه هذا، على صلة بالقوى العاملة على إزعاج الفرنسيين في شمال سوريا وسواحلها، وإزعاج البريطانيين في العراق[١٢].

وفي هذه الأثناء اتفق الأستاذ دروزة مع بعض رفاقه، على إنشاء الجمعية العربية الفلسطينية واختير سكرتيراً لها، من أجل التهيئة للنضال في سبيل فلسطين في كل المجالات، كما شارك في تأسيس جمعية فتى فلسطين. وكانت هذه جمعية سرية هدفها القيام بعمليات مسلحة.

وحين احتلت القوات الفرنسية أقضية البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا التابعة للإدارة السورية، تألفت لجنة وطنية عامة، حيث كان له دور مهم فيها.

وبعد سقوط الحكم الفيصلي في ١٩٢٠/٧/٢٣، غادر إلى فلسطين، وما لبثت المحاكم الفرنسية أن حكمت عليه بالإعدام، مع من أصدرت أحكاماً بحقهم[١٣].

فعاد الأستاذ دروزة إلى سكرتيرية اللجنة الإسلامية ـ المسيحية التي صار اسمها الجمعية العربية الوطنية، وظل سكرتيراً لها حتى سنة ١٩٣٢، إضافة إلى أعماله الأخرى.

وفي فلسطين انغمس في النشاط السياسي العام، فشارك في المؤتمرات الفلسطينية، وكان عضواً في لجانها التنفيذية ما بين ١٩٢١ ـ ١٩٣٢، ولذلك أتهم وحوكم أكثر من مرة.

وقامت سنة ١٩٢٨ جمعية باسم جمعية الشبان المسلمين في نابلس، فانتخب رئيساً لها، واختير سنة ١٩٣١ عضواً في اللجنة التحضيرية للمؤتمر الإسلامي، ثم عضواً مؤسساً فيه، وسكرتيراً أولاً له[١٤].

واتفق الأستاذ دروزة، مع رفاقه رجال الحركة العربية الذين توافدوا لحضور المؤتمر الإسلامي، على عقد مؤتمر قومي عربي يجدد نشاط الحركة القومية، ويضع لها ميثاقاً. وقد عقد المؤتمر في القدس، في منتصف كانون الأول/ ديسمبر، على هامش المؤتمر الإسلامي سنة ١٩٣١، واختار لجنة تحضيرية لمؤتمر قومي عام، لم يعقد بسبب وفاة الملك فيصل، وظروف الحركة القومية آنذاك[١٥].

وفي سنة ١٩٣٢ أسهم في إنشاء حزب الاستقلال في فلسطين الذي رفع شعار مقاومة الانكليز، باعتبارهم أصل الداء. وكان عضواً في لجنة الحزب التنفيذية، حيث اشترك في صياغة بيانات الحزب التعبوية، وفي التظاهرات التي قامت سنة ١٩٣٣، فشج رأسه في تظاهرات يافا، وصدر عليه حكم لمدة عشرة أشهر، لكنه خرج بكفالة هو وعدد من زملائه، وحين اعتقل عوني عبد الهادي الأمين العام للحزب، حل محمد عزة دروزة مكانه لفترة[١٦].

وحين أعلن الإضراب الكبير سنة ١٩٣٦، أسهم محمد عزة دروزة في العمل من أجل الوحدة الوطنية، فانبثقت اللجنة العربية العليا التي كانت تضم كل الأحزاب والوجاهات تقريباً. وصار الأستاذ دروزة عضواً فيها، وسكرتيراً لها، عند اعتقال عوني عبد الهادي الأمين العام لحزب الاستقلال، وسكرتير اللجنة[١٧].

وكان من نتيجة تعاظم المد الوطني، ودور الأستاذ محمد عزة دروزة فيه، أن اعتقلته السلطات البريطانية، مع كثير من الوطنيين، مدة ثلاثة أشهر.

زار بغداد والرياض، مع وفد لشرح السياسة البريطانية، وإفهام العاصمتين سبب مقاطعة اللجنة العربية للجنة الملكية البريطانية[١٨]. ثم شارك في مؤتمر بلودان، سنة ١٩٣٧، مندوباً عن اللجنة العربية العليا، فاختير سكرتيراً عاماً له[١٩]. وكان من قرارات المؤتمر إنشاء لجنة

للدفاع عن فلسطين في العراق، فذهب الأستاذ دروزة للمشاركة في إنشائها. وفي هذه الأثناء انفجرت الثورة في فلسطين، فاتخذت السلطات البريطانية قرارات عزلت بموجبها رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، والأستاذ محمد عزة دروزة، واعتقلت أعضاء اللجنة العربية العليا الموجودين في فلسطين، ومنعت أعضاء اللجنة الذين في الخارج من العودة.

وحين تمكن الحاج أمين الحسيني من مغادرة فلسطين إلى لبنان، التقى به الأستاذ محمد عزة دروزة، واتفق معه على تسلّم سكرتارية اللجنة المركزية للجهاد في سوريا، ومهمتها «إدارة وتموين وتمويل حركة الثورة» من دمشق.

وفي حزيران/يونيو، سنة ١٩٣٩، اعتقله الفرنسيون في دمشق وحكموا عليه بالحبس لمدة خمس سنوات، وبدفع غرامة خمسة آلاف فرنك، ولم يفرج عنه إلا أوائل سنة ١٩٤١، اثر هزيمة فرنسا. فغادر إلى تركيا، خوفاً من أن يقع في أيدي القوات البريطانية التي غزت سوريا. ولم تتركه السلطات البريطانية هناك، فلاحقته، حتى اضطرت السلطات التركية لنفيه إلى الأناضول.

وعاد الأستاذ دروزة إلى سوريا، بعد استقلالها، سنة ١٩٤٥، وكانت قوة بريطانية في انتظاره بمحطة حلب، وظلت المخابرات البريطانية تراقبه، وهو في دمشق.

وأعيد سنة ١٩٤٦ تكوين اللجنة العربية العليا، باسم الهيئة العربية العليا، واختير عضواً فيها. وكان يمثل الهيئة العليا في اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، ولدى حكومتي سوريا ولبنان. ولكنه ما لبث أن استقال من الهيئة، وان ظل مواظباً على نشاطاته في كل الميادين.

واشتد عليه المرض، خريف سنة ١٩٤٨، وأجريت له جراحة في المرارة. وأثّر ذلك فيه، فاعتكف في منزله. ولذلك لم يستطع أن يحضر المؤتمر الوطني الذي عقد في غزة، والذي أعلن قيام حكومة عموم فلسطين[٢٠].

ودعا، بعد قيام ثورة ٢٣ تموز/ يوليو، إلى إنشاء حزب، يتبنى الدعوة للوحدة العربية، فلم يلق تجاوباً.

وحين انطلقت المقاومة المسلحة سنة ١٩٦٥، أسهم في تكوين جمعية رعاية أسر الشهداء ومجاهدي فلسطين.

٢ ـ مؤلفاته

للأستاذ محمد عزة دروزة انتاج وفير ومتنوع. يمكن أن نصنفه إلى ثلاثة أصناف:

أ ـ الكتابات الصحفية

وهي كثيرة، بدأها بكتاباته في جريدة الحقيقة البيروتية التي أصدرها كمال عباس، عقب إعلان

الدستور[٢١]. ثم أسهم الأستاذ محمد عزة دروزة بتحرير جريدة الاخاء العثماني التي أصدرها في بيروت محمد شاكر الطيبي[٢٢].

وكان، وهو يدير مدرسة النجاح، يكتب مقالات اجتماعية وتربوية وأخلاقية، ينشرها في مجلة الكشاف في بيروت[٢٣]، ومجلتي، المرأة الجديدة[٢٤] والزهراء في القاهرة[٢٥].

وإلى جانب ذلك كان يكتب مقالات سياسية في صحف فلسطين، وبخاصة الجامعة العربية[٢٦] والعرب[٢٧].

وظل يكتب في الصحف العربية، حتى سنة ١٩٨٠، حين لم يعد بصره يسمح له بذلك، فأخذ يملي أحاديث أذاعية.

ولم يُشَرّ إلى كتاباته في الصحف حتى الآن، مع أنه جمع بعضها ونشره، في كتاب في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية، ومن وحي النكبة. وجمع بعضها ولم ينشره.

ب ـ الترجمات

ـ رفائيل لامارتين[٢٨]: ترجمه عن الإفرنسية ولم يطبع، لأن مترجماً آخر كان قد سبق إلى ترجمته وطبعه في لبنان.

ـ القسم النظري من دروس التربية لكو مبيره[٢٩]، وقد صدر منه سنة ١٩٢٧ ملحقاً لمجلة التربية التي كان ساطع الحصري يصدرها في بغداد، ثم صدر في كتاب مستقل.

ـ بواعث الحرب العالمية الأولى: وهو كتاب مترجم عن الافرنسية إلى التركية، وقد ترجمه عن التركية، خلال منفاه في تركيا. وطبع سنة ١٩٤٦، وصدر عن دار الكشاف ببيروت في ١٤٩ ص.

ـ تاريخ الدعوة الإسلامية لأرنولد توماس[٣٠]، ترجمه عن التركية وهو في تركيا، ولم يطبع، لأنه كان قد ترجم من قبل.

ـ نظام الاثينيين لأرسطو: ترجمه أيضاً عن التركية، وهو في تركيا ولم يطبع، لوجود ترجمة سابقة له (ترجمة طه حسين سنة ١٩٢١).

ج ـ كتب في التاريخ والتاريخ العربي

(١) كتب في التاريخ

ـ **دروس التاريخ المتوسط والحديث**: كتبه للصفوف الإبتدائية سنة ١٩٣٢. وقد أصدرته المطبعة السلفية بالقاهرة، ثم مكتبة عرفة بدمشق، كما طبعته مطابع دار الأيتام الإسلامية بالقدس.

- **دروس التاريخ القديم**: كتبه للصفوف الإبتدائية أيضاً، سنة ١٩٣٣، وصدرت طبعته الأولى عن المطبعة السلفية، ثم طبع مرتين في مطابع دار الأيتام الإسلامية في القدس، ودرس كسابقه في مدارس فلسطين والأردن الوطنية الخاصة.

- **تركية الحديثة**: كتبه خلال منفاه في تركيا، ويتضمن الكتاب عرضاً لحالة الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، والحركة الكمالية عسكرياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً. وقد صدر سنة ١٩٤٦ عن دار الكشاف في بيروت في ٣٥٥ ص.

(٢) كتب في التاريخ العربي والإسلامي

- **مختصر تاريخ العرب والإسلام**: ألفه سنة ١٩٢٣ في ثلاثة أجزاء ليكون كتاباً مدرسياً:

الأول: في تاريخ العرب قبل الإسلام وسيرة الرسول والخلفاء الراشدين والأمويين.

الثاني: في تاريخ العرب في الأندلس والدولتين العباسية والفاطمية.

والثالث: في تاريخ الدول العربية والإسلامية إلى العصر الحاضر.

وقد طبعت الجزءين الأول والثاني المطبعة السلفية ثلاث مرات سنة ١٩٢٣ - ١٩٢٨. أما الثالث فما زال مخطوطاً.

- **دروس التاريخ العربي**: من أقدم الأزمنة إلى الآن، كتبه سنة ١٩٣٢، طبع عشر طبعات حتى سنة ١٩٣٩. ودُرِّس في المدارس الوطنية بفلسطين وشرق الأردن ومدارس العراق.

- **عصر النبي وبيئته قبل البعثة**: كتبه، خلال اعتقاله في سجن المزة سنة ١٩٣٩. وقد أصدرته دار اليقظة سنة ١٩٤٦، ثم طبع مرة أخرى، سنة ١٩٦٤ في ٨٤٨ ص.

- **عروبة مصر قبل الإسلام وبعده**: كتبه سنة ١٩٦٠، وصدر في حلقتين، سنة ١٩٦٠ و١٩٦١، عن لجنة التأليف والنشر القومية في الجمهورية العربية المتحدة، وفي سلسلة كتب قومية برقم ٨١ و٨٩. وأصدرته مجدداً المكتبة العصرية، سنة ١٩٦٣ في ٢٠٠ ص.

- **سيرة الرسول**: أصدرته سنة ١٩٤٩ المكتبة التجارية الكبرى في القاهرة في جزءين، عدد صفحاتهما ٧١٠ ص، ثم أعادت طبعه دار احياء الكتب العربية في القاهرة، سنة ١٩٦٥ في جزءين صفحاتهما (٨٣٠): وطبع طبعة جديدة ثالثة سنة ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م في مطابع الدوحة الحديثة على نفقة أمير قطر، بمناسبة المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية تكريماً للمؤلف، وكأحسن ما كتب في السيرة النبوية.

- **تاريخ الجنس العربي في مختلف الأدوار والأطوار والأقطار**: كتبه سنة ١٩٥٦، وصدر تباعاً عن المكتبة العصرية، ما بين ١٩٥٨ - ١٩٦٤ في ثمانية مجلدات. ولدى أسرة المؤلف مخطوطات لثلاثة مجلدات أخرى.

- **العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي**: صدر عن دار اليقظة سنة ١٩٥٩ ـ ١٩٦١ في ثلاثة مجلدات. وأعادت طبعه المكتبة العصرية في تسعة مجلدات حيث أضيف له الجزء التاسع عن إمارات جزيرة العرب.

د ـ كتب حول الإسلام

- **الدستور القرآني في شؤون الحياة**: ألفه عندما كان في سجن المزة سنة ١٩٣٩، مع الكتابين الأخيرين المشار إليهما. وقد أصدرته دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، سنة ١٩٥٦ في ٦٠٤ ص. ثم صدر في جزءين، بعد أن نقّحه المؤلف، وجمع بين القرآن والسنة، وصار عنوانه: الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة. وقد أصدرت الطبعة الثانية دار احياء الكتب العربية أيضاً.

- **التفسير الحديث**: كتبه خلال منفاه في تركيا. وقد أدخل عليه تنقيحات وتصحيحات، وصدر عن دار إحياء الكتب العربية في اثني عشر جزءاً، بلغت صفحاتها ٣٥٧٦ ص، ما بين ١٩٦١ ـ ١٩٦٣. وهناك طبعة جديدة، ستصدر عن المكتبة العصرية، في خمسة آلاف صفحة.

- **القرآن المجيد**: كتبه خلال منفاه في تركيا، ليكون مقدمة لكتاب التفسير، وأصدرته المكتبة العصرية.

- **القرآن واليهود**: كتبه سنة ١٩٤٩، وصدر عن مكتبة الحضارة الإسلامية سنة ١٩٤٩، وفي ١٦٨ ص.

- **القرآن والمرأة**: كتبه سنة ١٩٥٠، وأصدرته المكتبة العصرية في ٦٤ ص من القطع الصغير.

- **المرأة في القرآن والسنة**: وسع سنة ١٩٦٦ الكتاب السابق، وجمع فيه القرآن والسنة، وصدر عن المكتبة العصرية سنة ١٩٦٧ في ٢٦٠ ص. وأعيد صدوره سنة ١٩٨٥ عن دار الجليل بدمشق.

- **القرآن والضمان الاجتماعي**: كتبه سنة ١٩٥٠، وصدر سنة ١٩٥٠ عن المكتبة العصرية في ٣٤ ص.

- **الإسلام والإشتراكية**: كتبه سنة ١٩٦٦. وصدر سنة ١٩٦٨ عن المكتبة العصرية في ٢٥٠ ص.

- **القرآن والمبشرون**: أصدره المكتب الإسلامي في دمشق، سنة ١٩٧٢ في ٤٦٨ ص، وأعاد طبعه في بيروت سنة ١٩٧٩.

- **القرآن والملحدون**: وهو رد على كتاب نقد الفكر الديني لصادق جلال العظم. أصدره المكتب الإسلامي سنة ١٩٧٣ في ٤٣٠ ص. وأعادت نشره دار قتيبة في دمشق سنة ١٩٨٠.

- **الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث**: كتب من وحي حرب رمضان ١٩٧٣. وأصدرته دار اليقظة في دمشق، سنة ١٩٧٥ في ٤٣٢ ص.

- **كتاب القواعد القرآنية والنبوية في تنظيم الصلات بين المسلمين وغير المسلمين**، صدر سنة ١٩٨٢ عن دار الجليل.

هـ ـ كتب حول اليهود

- **تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم**: كتبه سنة ١٩٥٦. وأصدرته مطبعة ومكتبة مصر سنة ١٩٥٧ في ٣٣٤ ص. ثم أصدرته اللجنة القومية للتأليف والنشر في ثلاث حلقات سنة ١٩٦١. وقد نقحه المؤلف، وأدخل عليه رسالة القرآن واليهود، وصدر عن المكتبة العصرية سنة ١٩٦٩، بعنوان: «تاريخ بني إسرائيل واليهود وأحوالهم وأخلاقهم من أسفارهم ومن القرآن» في ٥٦٠ ص.

- **الجذور القديمة لسلوك وأخلاق وأحداث بني إسرائيل واليهود واستطراداً إلى الموقف الحاضر**: كتبه سنة ١٩٦٨، وصدر سنة ١٩٦٩ عن مكتبة أطلس في دمشق في ١٠٠ ص.

- **العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث**: صدر في جزءين عن دار الكلمة في بيروت سنة ١٩٧٩ الأول في ٢٥٦ ص والثاني في ٢٩٠ ص.

و ـ كتب حول فلسطين

- **مأساة فلسطين**: كتبه سنة ١٩٥٩، وصدر عن دار اليقظة في دمشق، في ١٣٢ ص.

- **جهاد الفلسطينيين**: أصدرته الهيئة العربية العليا، سنة ١٩٦٠، في ١٠٦ ص.

- **قضية الغزوة الصهيونية**: أصدرتها مجلة الوعي الإسلامي في الكويت ملحقاً لها سنة ١٩٧٠ في ٧٠ ص.

- **في قضية فلسطين والوحدة العربية، ومن وحي النكبة ومعالجاتها**: تضم مجموعة من مقالاته حول القضية الفلسطينية، وهي المجموعة الأولى من مقالاته التي كتبت سنة ١٩٤٨. صدر عن المكتبة العصرية سنة ١٩٧٣ في ٥١٢ ص.

- **عبرة من تاريخ فلسطين القديم**: مقالات نشرت في صحف دمشق ١٩٧٥ ـ ١٩٧٧، أصدرتها المكتبة العصرية، سنة ١٩٧٨ في ١٢٠ ص.

- **صفحات مغلوطة ومهملة من تاريخ القضية الفلسطينية، وحركة المقاومة العربية فيها، وصلتها بالحركة القومية العربية**: وهو رد على كتاب د. أنيس صايغ (القضية الفلسطينية والقومية العربية) الذي نشره مركز الأبحاث سنة ١٩٦٦. أصدرته المكتبة العصرية، سنة ١٩٧٩ في ٧٦ ص.

- **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها**: صدر في جزءين سنة ١٩٥١، عن المكتبة العصرية، وأعيد طبعه سنة ١٩٥٩. وكان هذا العمل جزء من كتاب **تاريخ الحركة العربية الحديثة**، ثم أفرد في كتاب مستقل.

ز - حول الحركة العربية الحديثة

- **حول الحركة العربية الحديثة**: انجزه خلال النفي في تركيا، وأصدرته المكتبة العصرية في ستة أجزاء، ١٩٥١ - ١٩٥٣.

- **مشاكل العالم العربي**: كتبه سنة ١٩٥١ للمشاركة في مسابقة أعلنت عنها الجامعة العربية. وأصدرت الكتاب دار اليقظة العربية في دمشق، سنة ١٩٥٢ في ٢٧٠ ص.

- **الوحدة العربية**: اشترك في مسابقة أعلنت عنها الجامعة العربية، سنة ١٩٥٤، فاعتذرت الجامعة عن الكتاب، فأصدره المكتب التجاري، سنة ١٩٥٨ في ٧٢١ ص.

- **نشأة الحركة العربية الحديثة**: قام المؤلف بتوسيع القسم الأول من كتاب حول الحركة العربية الحديثة، وأصدرت الكتاب المكتبة العصرية، سنة ١٩٧٢ في ٥١٦ ص.

هذه أعماله المطبوعة. ويبقى أن نشير إلى أنه كتب عدداً من المسرحيات التي مثلت في المدارس، ولم يطبع منها إلا وفود النعمان على كسرى أنوشروان التي كتبها رواية سنة ١٩١١، وعاد فحوّلها إلى مسرحية لتمثل في مدرسة النجاح، بعد عمله فيها. ثم أعيد طبعها سنة ١٩٨٤ في الأرض المحتلة. ثم هنالك مخطوطات كثيرة أشار إليها في النبذة التي كتبها عن حياته، وأشار لها أيضاً حسين عمر حمادة في المرجع الذي أشرنا إليه.

ويتضح من سيرته أنه انغمس في العمل الوطني، حتى خارت قواه، بعد النكبة. ولقد اضطلع بدور المعبىء والمنظم والقائد، وشارك في الحركة القومية بفعالية، كما شارك في النضال القومي في فلسطين. وأسهم، إلى جانب ذلك، بدور تربوي، من خلال مدرسة النجاح، وكتبه التي ترجمها وألفها.

وكانت مؤلفاته العديدة عطاء ثراً في ميادين نضاله المختلفة، أسهم من خلالها بوعي قومي وتاريخي، وشارك في بلورة خط سياسي قومي وتحريري، ودافع عن الإسلام وقيمه، وعن الوطن والشعب. ولقد ظل وفياً لقيمه، حتى مات، ولم يعرف عنه أنه ضعف، أو اختار الراحة والدعة، أو بحث عن غير القضية.

ولما كانت حياته ومؤلفاته بهذا الغنى، وكانت المختارات منصبة على دوره القومي، فإن القسم الثاني من المقدمة، سيتناول هذا الموضوع، دون القضايا الأخرى.

- ٢ -

نحن إذاً، أمام رجل، أعطى للحركة القومية نفسه، فشارك نظرياً، وشارك عملياً. كتب

وناضل، أرّخ وعمل، نظرّ وعبأ، وخاض النضال السري والعلني.

لقد بدأ حياته العملية صغيراً. فهو يحدثنا أنه بدأ يكتب في الحقيقة البيروتية، بعد إعلان الدستور، أي بعد سنة ١٩٠٨. ولقد نشر روايته **وفود النعمان على كسرى أنو شروان** سنة ١٩١١. ومنذ ذلك الحين، وهو يكتب. ولقد كتب، كما لم يكتب أي من زملائه رجال الحركة العربية الأولى. وإذا استثنينا منهم من أعدموا سنة ١٩١٦ كعمر حمد والعريسي والشهابي(٣١)، أو ماتوا صغاراً كالقاسمي(٣٢)، فإن إسهاماته في ميدان الكتابة التاريخية والسياسية، تفوق اسهامات كل زملائه الآخرين الذين شاركوا بالنشاط العملي اليومي مثله، أو الذين أسهموا في الكتابة أكثر مما أسهموا في النضال. ولذلك فإننا أمام رجل كبير، أعطى في ميدان الكتابة كثيراً. وهو هنا فذ بين أقرانه. وإذا كان عمره الطويل قد ساعده على العطاء أكثر في ميدان الكتابة، فإن جلده والتزامه بالقضية القومية، وابتعاده عن مطالب الحياة وملذاتها، قد أهّلته أيضاً لمثل هذا العطاء.

أما في النشاط العملي، فقد أعطى مثلاً مشابهاً، إذ إنه، ومنذ انغمس في العمل السياسي سنة ١٩١٨، برز دوره في كل النشاطات التي شارك فيها. ولم يحد من نشاطه التزامه بوظيفة مدير مدرسة النجاح، أو عمله في المجلس الإسلامي الأعلى.

ولقد كان معنياً بالتأصيل، كما كان معنياً بالإسهام في الحركة السياسية الراهنة. ولذلك حاول أن يؤسس مفاهيم وقيماً تربوية. ولو حاولنا أن نرصد كتاباته الأولى، لوجدناها تتجه اتجاهاً تربوياً أخلاقياً. ولذلك فإنه يشير إلى أولى كتاباته في صحيفة الحقيقة قائلاً: «وكان يتناول فيها شؤوناً متنوعة في الأخلاق والاجتماع والسياسة»(٣٣). أما روايته الأولى: **وفود النعمان على كسرى أنو شروان**. فإنه يشير إليها قائلاً: «وكانت بسبيل تسجيل الوعي العربي القومي، وما أخذ يثور في صدور شباب العرب من المطامح القومية، والرغبة في النهضة العربية، وتبوأ المكانة اللائقة بهم كأصحاب أمجاد عريقة في تاريخ العرب والإسلام»(٣٤). ولا تختلف حال روايته **السمسار** التي كتبها سنة ١٩١٣، عن حال روايته الأولى. وقد هدف هو، كما يقول، من الرواية: «إلى شرح أساليب اليهود، وإغراءاتهم، والتنبيه على خطر السماسرة الذين كانوا يساعدونهم على مآربهم»(٣٥).

ونجده في العقد التالي، وبعد سنة ١٩٢٠، معنياً بترجمة دراسة لكومبيره حول **دروس التربية**. كما نجده يكتب سنة ١٩٢٥ كتابه: **مختصر تاريخ العرب والإسلام في ثلاثة أجزاء**، ليكون كتاباً مدرسياً. ويتبع ذلك، سنة ١٩٣٢ بكتابه **دروس التاريخ العربي سنة ١٩٣٢**.

وكان خلال هذه المدة، يلقي في مدرسة النجاح كل أسبوع محاضرة، كما يقول «في الأخلاق والاجتماع»(٣٦)، طيلة خمس سنوات. وكان، كما يقول أيضاً «وأثناء عمله على رأس مدرسة النجاح» يكتب «مقالات عديدة اجتماعية وتربوية وأخلاقية، نشرت في مجلات الكشاف في بيروت، والمرأة الجديدة والزهراء في القاهرة»(٣٧).

ولذلك، كتب سنة ١٩٢٥ أيضاً كتابه: **مختصر تاريخ العرب والإسلام في ثلاثة أجزاء**

ثم كتب سنة ١٩٣٢ كتابه: **دروس التاريخ العربي**. وقد كتبهما، ليكونا كتابي تدريس. ولا يخفى من أسلوبهما أنه كان معنياً بتربية النشء، وأنه كان معنياً بتلقين النشء احترام أمتهم، والاعتزاز بأمجادها. ولكنه كان رجلاً مسلماً مؤمناً، وكان مقتنعاً بالعلاقة التي لا تنفصم بين العرب والإسلام، ولذلك لم يفصل بين العرب والإسلام، إلا قبل الإسلام. وهو ما سنعود إلى بحثه فيما بعد.

محمد عزة دروزة الراهن المعاصر، رجل مسكون بالتاريخ، ويدروس التاريخ. ولذلك فهو معني أن يؤسس في العرب وعياً تاريخياً. وأن يربط بين وجودهم الراهن، ووجودهم التاريخي. وعليه فهم ليسوا أبناء العرب الفاتحين فقط، إنهم سلالات الآكديين والكنعانيين والآشوريين والبابليين والمصريين القدماء... الخ، وهذه الأرض هي أرض هؤلاء الأقوام، ينساحون فيها، في مراحل التاريخ المختلفة، ويبنون الممالك والدول. وهذه اللغة العربية التي نكتبها ونتكلمها، هي من نسل لغات هذه الأقوام. ولأن محمد عزة دروزة مقتنع بذلك، كتب كتابه **تاريخ الجنس العربي**، ليقنع غير المقتنعين بهذه الحقيقة. ولم يكن أحد من القادة القوميين، أو المنظرين القوميين، قد عني بهذه القضية عنايته.

لقد اهتم، في تلك الفترة، ساطع الحصري بالتربية، وكرس حياته من أجلها[٣٨]. وكان الحصري يرى «أن الأمة كائن اجتماعي، يتصف بالحياة والشعور. حياة الأمة بلغتها وشعورها بتاريخها»[٣٩]. ولكن الحصري لم يكتب تاريخاً للأمة، قبل الإسلام وبعده، أما دروزة فقد فعل.

وإذا كان غير دروزة قد أشار إلى علاقة العرب بما يسمى «الشعوب السامية»، كما فعل زكي الأرسوزي، حين اعتبر الأمة العربية «ينبوع الشعوب السامية كافة»[٤٠]، فإننا نستطيع أن نؤكد أن دروزة هو الوحيد من المناضلين القوميين الذي قدم لنا دراسات تاريخية في ذلك.

وكان علي ناصر الدين قد أشار لموجات جزيرة العرب قبل الإسلام[٤١]. وأشار لذلك محمد فريد أبو حديد[٤٢]. ودرويش المقدادي[٤٣]. ولكن محمد عزة دروزة لم يكتف بالاشارات، بل تناول ذلك في كتابه **تاريخ الجنس العربي**، وفي كتب أخرى[٤٤].

ولقد وعي درورة هذه الحقيقة، ولذلك راح يبحث عن مراجع أساسية في هذا المجال، فلم يجد إلا مرجعين عربيين مختصين في تناول الموضوع، أولهما: **العرب قبل الإسلام**» لجورجي زيدان[٤٥]. والثاني: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** لجواد علي[٤٦]. وهذان المرجعان ليسا للحصري أو غيره من قادة العمل القومي ومنظريه الرئيسيين.

ونستطيع أن نقول: إن دروزة، حاول أن يقدم لنا هذا التاريخ في تواصله، فكتب لنا **تاريخ الجنس العربي**، **والعرب والعروبة في حقبة التغلب التركي**: **وحول الحركة العربية الحديثة**، **ونشأة الحركة العربية الحديثة**. كما كتب الكتب العديدة الأخرى التي أشرنا إليها.

ولكن «وعيه التاريخي» لم يكن اتجاهاً إلى الماضي فقط، بل كان محاولة للبحث عن أساس مكين لمستقبل مشرق. وهكذا فالماضي عند دروزة أساس للحاضر، وقاعدة للمستقبل،

إنه ليس بحثاً عن آثار انقطعت صلتها بالحياة.

ولهذا لم يعد دروزة إلى الماضي، ضمن إطار مشروع لكتابة تاريخ مضى. ولم يكن يبحث في الماضي عن اكتشاف مجهول، إنما كان يفعل ذلك، وهو يعبىء من أجل مشروع قومي معاصر.

كانت مطامح الأمة تشغله، وآلامها ترهقه، وآمالها تحفزه، فطرح مشروعاً قومياً راهناً معاصراً، يستند إلى وعي تاريخي، ولم تشغله عظمة الماضي عن مطامح الحاضر، ولا آمال المستقبل.

ولقد اعتنى بالواقع الراهن، كما اعتنى بقضايا التاريخ، فكتب الجزء السادس من حول الحركة العربية الحديثة، وجعل له عنواناً فرعياً «فصول في حاضر العربية ومستقبلها ومشاكلها ومعالجاتها». ثم أعاد كتابته، وسماه **مشاكل العالم العربي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية**. ثم كتب كتاب **الوحدة العربية**، ليطرح مشروعاً قومياً معاصراً، يستند إلى وعيه التاريخي. وكتب الكثير من المقالات التي تتناول قضايا اجتماعية وسياسية راهنة.

ولعلنا لا نغالي، إذا قلنا، إن وعيه التاريخي، كان جزءاً أساسياً من مشروع معاصر، هو مشروعه القومي. وإذا كان قد غاص في التاريخ بحثاً عن الأصول، فإنما فعل ليؤسس مشروعه الراهن، وليوطد أركانه بالتاريخ. ولما كان موضوع وحدة الأمة شاغله الرئيسي، فقد ذهب يبحث عن أركانه، ومنها التاريخ.

ومن يقرأ كتب دروزة، يعرف أن الراهن عنده تاريخي، وإن الأمة كائن تاريخي، تتكون تاريخياً. وهو يرى أن وعي هذه العملية التاريخية ضروري للمشروع العربي المعاصر.

إلا أن الانغماس بالتاريخي، والانشغال بالراهن، لم يجعله يقبل دور المؤرخ والمنظر فقط، بل اختار إلى جانب ذلك، دور المناضل القومي. ولذلك اختار أن يكون عضو جمعية سرية كالعربية الفتاة، وأن يسهم في تأسيس حزب الاستقلال، وأن يشارك في المؤتمر السوري، ويخوض تجربة قيام الحكومة العربية في دمشق (١٩١٨ - ١٩٢٠) [٤٧]. وحين أحبط الهجوم الفرنسي هذه التجربة، عاد إلى فلسطين، ليخوض تجربة النضال فيها، ضد المشروع الصهيوني - البريطاني. وهناك شارك في تأسيس المؤتمرات الوطنية، وقيادة النضال الشعبي، حتى أصبح عضو اللجنة العربية العليا، ثم الهيئة العربية العليا. كما أسهم خلال هذه المرحلة في تأسيس تجربة سياسية متفردة هي حزب الاستقلال[٤٨].

ولكن نضاله في فلسطين لم يخرجه من المشروع القومي، ولذلك شارك في الدعوة لمؤتمر قومي سنة ١٩٣١، ودعا إلى تكوين حزب قومي، إثر قيام ثورة ٢٣ تموز/ يوليو. ثم عاد فأكد ذلك في كتابه عن **الوحدة العربية**[٤٩].

ولقد توقف عن النشاط العملي، بعد مرضه، سنة ١٩٤٨. إلا أن هذا لم يمنع قلمه من

الخوض في القضايا القومية، مذ ذاك حتى قبيل وفاته؛ بحيوية عالية. وأن يحث المعنيين على العمل للوحدة، وأن يدعو لتأسيس حزب قومي.

وقد عَرّضه هذا لمخاطر السجن والتشريد والقتل، من أيام العثمانيين إلى أيام الانتداب. فقد نجا من مشانق جمال باشا سنة (١٩١٥ ـ ١٩١٦). وحكمه الفرنسيون بالإعدام عند دخول دمشق سنة ١٩٢٠. وتعرض أكثر من مرة للموت في تظاهرات فلسطين[٥٠]، واتهم وحوكم أكثر من مرة. واعتقل سنة ١٩٣٩ في دمشق وحكم. ثم خرج من السجن، فاختار المنفى، كما بيّنا. وحين عاد، كانت الشرطة البريطانية في انتظاره بمحطة حلب.

ولقد ظل كل حياته السياسية، وحتى موته، متمسكاً بالأهداف القومية، ومنها تحرير فلسطين، ولم يضعف أو يهن، أو يتنازل عن خطه السياسي.

وحين انطلقت المقاومة المسلحة، سنة ١٩٦٥، أيدها، وساعدها بما يستطيع.

إنه واحد من الرجال القلائل من أبناء جيله الذين حفظوا شرف الالتزام القومي والسياسي، فلم يتحولوا لخدمة الأنظمة والطبقات الحاكمة التي خانت هذا الخط، ولم يتخلوا عن أهدافهم حتى يومهم الأخير. وعلى الرغم من المرض، فقد ظل يعطي عطاء ثراً حتى يوم وفاته.

ـ ٣ ـ

ومحمد عزة دروزة صاحب رؤية قومية للتاريخ العربي. والعرب، بالنسبة إليه لم يولدوا مع الإسلام، ولم يوجدوا به، بل وجدوا قبل الإسلام بآلاف السنين. ولذلك، فإن كتابه: **تاريخ الجنس العربي** محاولة لتأصيل هذه الحقيقة وتأكيدها.

ولذلك قسم الأستاذ دروزة التاريخ العربي إلى مرحلتين رئيستين:

الأولى: ما قبل العروبة الصريحة.

والثانية: العروبة الصريحة.

وإذا كانت الأولى تمتد امتداد حضارات وادي النيل والرافدين، فإن الثانية تبدأ قبل الإسلام بحوالى ألف عام.

وتقوم رؤية محمد عزة دروزة هذه على الأساسين التاليين:

١ ـ إن الأقوام التي سكنت الوطن العربي بحدوده الطبيعية كما سنقدمها، اعتماداً على تحديد دروزة الجغرافي، اقوام عربية. وهذه الأقوام تسكن الوطن العربي، منذ القديم. ومع أن دروزة لا ينفي فكرة وجود أقوام أخرى في هذه الأرض، فإنه يرجح غلبة الأقوام العربية[٥١].

ويعترض دروزة على تسمية هذه الأقوام بالساميين، أو الجنس السامي، ويرى أن تسميتها بالجنس العربي أصح(٥٢).

ويسند علاقات هذه الأقوام بعضها ببعض، بتأكيد وحدة «اللغات السامية»(٥٣)، ومنها اللغة المصرية القديمة(٥٤). وهو يرى أن اللغات السامية لغة جماعة بشرية واحدة(٥٥).

إن دروزة يربط سكان الوطن العربي بهجرات الجزيرة العربية، مؤكداً ذلك في مواقع متعددة من كتبه. وهو يتبنى فكرة هجرة سكان وادي الرافدين إلى الجزيرة العربية بسبب الطوفان في كتابه دروس التاريخ العربي. ثم عودة هؤلاء إلى الهجرة شمالاً بسبب الجفاف(٥٦). لكنه يعود فيطرح هذا الاحتمال، من بين احتمالات أخرى في كتابه الجنس العربي(٥٧).

وتسمية الجنس العربي، لا تعني عنده وحدة العرق أو الأصل السلالي. فهو يؤكد أن هذه الهجرات اختلطت بدماء من كان قبلها(٥٨). وقد اتحد الطراء الشرقيون والغربيون مع العرب(٥٩). وعلى الرغم من أنه يجعل وحدة الدم عاملاً من عوامل تكوّن الأمة(٦٠). فإنه يعود فيؤكد: «ويظهر من كل ما تقدم كذلك، أننا لا نبني نظريتنا في القضية العربية على أساس وحدة الدم والجنس والدين فقط. وإنما نبنيها أيضاً على الأساس القومي المفهوم، والمعتبر الآن بصورة عامة، وهو وحدة الوطن واللغة والمصلحة. وإذا كنا أشرنا، إلى منبت العروبة الجنسية، ومهاجرها القديمة، أو إلى قدم التاريخ الذي انسبك في طياته سكان موطن العرب في قالب واحد، أو إلى شمول الدين الإسلامي لأكثرية هؤلاء السكان، فإننا فعلنا هذا بسبيل التدليل على قوة عناصر القضية العربية ومميزاتها»(٦١). وهو ما نبّه إليه في مقدمة كتابه الجنس العربي قائلاً: «إننا حينما نقول «الجنس العربي» لا نقصد المعنى الفني الدقيق الذي يتميز به جنس بشري عن آخر بخصائص جسمية في الدرجة الأولى. مما كاد أن يكون غير قائم، منذ الأزمنة التاريخية المعروفة، بسبب ما حدث من هجرات الأمم وتمازجها»(٦٢).

إن هذه الوحدة التاريخية قبل الإسلام وبعده، يعطيها محمد عزة دروزة اهتماماً خاصاً، وجهداً كبيراً. ولما كانت مرحلة ما قبل الإسلام، قد أهملت، أو حظيت بإشارات عابرة، حتى في دراسات حديثة عن الهوية القومية(٦٣)، فإن جهد محمد عزة دروزة يأتي متفرداً في هذا المجال، لدى دراسة جهود المنظرين القوميين.

وبناء عليه فإن محمد عزة دروزة، يدرس وحدة تاريخ هذه الأقوام، ولا يقبل بالدراسات التي اختطها المستشرقون، والتي حرصت أن تدرس الأقطار والأقوام واحداً واحداً. ولقد استفاد محمد عزة دروزة، من كل ما اكتشفه المؤرخون، مستشرقون وغير مستشرقين، من عوامل الوحدة، كما يظهر في كتبه.

٢ ـ إن الوطن العربي واحد جغرافياً، وإن حدوده حدود طبيعية، وإن الوطن يمثل وحدة جغرافية وطبيعية تامة(٦٤). ويرى دروزة ان الوحدة كانت دائماً: «هدفاً من أهداف حركات الجنس العربي ودوله وحروبه، من أقدم أزمنة التاريخ، كنتيجة من نتائج الوحدة الجغرافية للبلاد التي نشأ فيها العرب، أو هاجروا إليها واستقروا فيها»(٦٥).

لقد بحث دروزة عن عوامل الوحدة في الوطن العربي والتاريخ العربي، وأكد عليها، داحضاً كل محاولات التفرقة والتقسيم فيها. وكان في ذلك يرد على المدارس التي قسمت الوطن، وجزأت التاريخ، كما يردّ على التجزئة المعاصرة.

وحاول دروزة في كل ذلك، أن يستند إلى المراجع العلمية، وأن يقدم الأدلة والشواهد العلمية. فهو لا يريد أن يؤلف تاريخاً، بل أن يكشف عوامل الوحدة في هذا التاريخ، والسمات الموحدة في هذه الأمة.

إن هذه الرؤية القومية للتاريخ العربي، في مختلف مراحله، مدرسة فكرية وسياسية، لم تنل بعد ما تستحق من اهتمام. ولم يحاول أحد أن يدرسها من قبل. وهذه أشارات أولى، لمن يريدون ارتياد هذا العالم الجديد.

وعلينا أن نقرر أن محمد عزة دروزة رائد مؤسس في هذا الميدان، وانه تخطى جورجي زيدان وجواد علي، لا في المعلومات التي قدمها، بل بربط هذه الرؤية القومية بالمشروع القومي الوحدوي. ولذلك، فإنه يستحق أن يسمى شيخ المؤرخين القوميين، ومبلور الرؤية القومية للتاريخ العربي، وأن يدرس على هذا الأساس.

- ٤ -

العرب أمة واحدة، وهم ليسوا كذلك اليوم، ولا بانتشار الإسلام، بل قبل ذلك كثيراً، وفي رأي الأستاذ محمد عزة دروزة فان «هذه الوحدة متوافرة في الوطن العربي منذ أقدم الأزمنة إلى الآن». ويضيف: «فمهما تختلف آراء الباحثين في منشأ الجنس العربي، قبل وحوده في جزيرة العرب، فمعظمهم متفقون على أن الجزيرة، منذ أن صار البشر يحيون نوعاً ما حياة مدنية وسياسية واجتماعية، ويخلفون آثارهم فيها لمن بعدهم، مما يحسب بدء التاريخ الإنساني والمدني القديم، كانت مأهولة بجماعات متشابهة في الملامح والطبائع، تتكلم لغة واحدة، وإن تعددت لهجاتها، وإن الأقوام التي سميت خطأ بالأقوام السامية، وسجلت نشاطها السياسي والحزبي والاجتماعي والعمراني والفكري العظيم في جنوب الجزيرة وشمالها، ثم في البلاد المجاورة للجزيرة، أي بلاد العراق والشام ووادي النيل، هم من هذه الجماعات»(٦٦).

وهو هنا يختلف مع النظرية الماركسية في نشوء الأمم التي تربط نشوء الأمم بنشؤ الرأسمالية. وإن كان لا يناقش ذلك فيما قرأنا من كتبه. كما أنه يختلف مع الذين يربطون الأمة العربية بالإسلام. ويذهب الأستاذ دروزة إلى أن هنالك ظروفاً طبيعية واجتماعية، جعلت وضع العرب يكاد يكون فريداً. وهو يقول في ذلك: «ولقد كانت العوامل الطبيعية والاجتماعية، مثل الجفاف، وشح الماء والقحط، وقلة الكلأ، والمنازعات القبلية، تعمل عملها في جزيرة العرب، منذ الأحقاب السحيقة في القدم، فتحفز جماعات من سكانها، إلى الانسياح إلى الأقطار المجاورة جنوباً وشمالاً، قبل بروز العروبة الصريحة. ثم ظلت هذه العوامل التي هي ظاهرة طبيعية واجتماعية من ظواهر الجزيرة، تعمل عملها دوراً بعد دور، بعد بروز العروبة الصريحة قبل الإسلام وبعده، وما تزال، فيكون في هذا التلاحق المتواصل المتحد في طبيعته وحوافزه ومجراه، الدليل على وحدة الأصل والجنس والمنشأ، بين سكان الجزيرة والأقطار المجاورة لها، ويكون

فيه وسيلة مثمرة إلى توثيق الصلات والروابط والوحدة بين القلب والأطراف، وتجديد دم الجنسية العربية، وحيويتها وطابعها، مما لا يكاد يكون له مثيل في الدنيا»(٦٧).

ولقد مرت هذه العملية، في رأي محمد عزة دروزة، بدورين:

الأول: دور العروبة غير الصريحة: وفي هذا الدور: «لم يكن (العرب) قد عرفوا فيه باسم العرب». «ولم تكن اللغة العربية الفصحى التي يمثلها القرآن، أو التي كانت في سبيل التطور نحوها لغة لهم فيه». أما أهل الدور الأول فهم: «الموجات الأولى التي انساحت من جزيرة العرب إلى وادي النيل وأثيوبيا وبلاد الشام والعراق وعمرتها، ثم سكان جزيرة العرب القدماء».

الثاني: دور العروبة الصريحة: «وهو الدور الذي عرف فيه (العرب) بهذا الاسم، وغدا لهم علماً جنساً، وغدت اللغة العربية الفصحى، أو التي كانت بسبيل التطور نحوها، لغة له». «أما أهل الدور الثاني، فهم القبائل والدول العربية التي كانت تعيش في جزيرة العرب وأطرافها، ثم في بلاد العراق والشام، قبل الإسلام ببضعة قرون، ومن جاء بعدهم مطبوعاً بالطابع العربي الصريح»(٦٨).

وهذا يتضمن أن الدور الأول، حمل ملامح الدور الثاني وسماته، ولكن العروبة ظهرت في الدور الثاني صريحة. وبهذا يكون الدوران متكاملين وإن اختلفت التسمية. وكما أن اللغة العربية هي مخاض هذا التطور اللغوي الطويل الذي يبدأ من الأكدية إلى الأشورية والبابلية واليمنية الجنوبية والكنعانية، إلى الآرامية فالعربية، فإن الأمة العربية هي مخاض تطور قومي طويل، يبدأ من هذه الأقوام التي تكلمت هذه اللغات، وينتهي بالعرب.

هنا نجد دروزة مختلفاً، مع الذين اعتبروا العرب، عرب شمال الجزيرة، والذين اعتبروا الأقوام الأخرى، المشار إليها، من سكان وادي الرافدين والنيل والشام والمغرب، وسائر أجزاء الوطن العربي، أمماً مختلفة. فالعرب هم «سلالة» هؤلاء الأقوام كلهم، والعروبة الصريحة طور في هذا التطور الطويل.

ولما كان دروزة هو أول من استخدم هذا المصطلح: العروبة الصريحة والعروبة غير الصريحة، فيمن قرأنا لهم، فإنه يضعنا أمام قضية سجالية. حول التسمية أولاً، والموضوع ثانياً.

فمن حيث التسمية: هل يجوز أن نقول: العروبة الصريحة، والعروبة غير الصريحة. ومن حيث الموضوع: هل العرب الصرحاء، اسماً لا جنساً، هم «سلالة» الأقوام المشار إليها؟

إن المراجع التي درسها الأستاذ دروزة، تؤكد هذه الحقيقة. ولقد أكدتها الدراسات التي لم تتح لمحمد عزة دروزة أن يقرأها، وبالتالي، فإننا نميل إلى ترجيح رأيه(٦٩).

أما من حيث التسمية، فيبدو الأمر منطقياً، لأن سكان الوطن العربي الحاليين هم «سلالة» هذه الأقوام، وحصيلة هجراتها وصراعاتها واختلاطها، كما أن العربية هي نتاج لغاتها(٧٠). ومع ذلك، فإننا نرى ضرورة طرح هذه القضية للمناقشة الواسعة، وتمحيص أركانها، لكشف مواضع قوتها وضعفها.

وما دامت الأمة العربية قائمة وموجودة، فما عوامل تكوينها؟ هل هي العوامل التقليدية التي تحدث عنها ستالين في كتابه[٧١]؟ أم هي عوامل أخرى؟

هنا يجيبنا الأستاذ محمد عزة دروزة إجابات محددة، ولكنها تختلف أحياناً في تعبيراتها. فهو في كتاب الوحدة العربية يحدد عوامل الوحدة بصيغتين:

الأولى: تجعلها قائمة في اللغة والتاريخ والوحدة الروحية الدينية. والوحدة الثقافية والتشريعية والاجتماعية، ويقدم لذلك بقوله: إن الوحدة الجنسية ليست شرطاً[٧٢].

والثانية: تجعل العرب أمة واحدة... «يجمع بينها التاريخ واللغة والمصلحة والدم والمعتقد»[٧٣].

ولكنه يطرح الموضوع في أماكن أخرى بأسلوب آخر. فهو في كتابه: **نشأة الحركة العربية الحديثة** يرى أن: «الفكرة القومية الحديثة، قامت على أساس وحدة اللغة والموطن والعواطف والتاريخ والمصلحة». ويرى أيضاً أن: «القضية القومية العربية احتوت عناصر القضايا القومية. بل إن هذه العناصر فيها أقوى، من الوجهة النظرية، منها في كثير من القضايا القومية الحديثة، وبخاصة الأوروبية». ويضيف: «فالوطن العربي الحاضر هو نفسه منبت أو موطن الجنس العربي، ومهاجر موجاته التاريخية...»، «والدم العربي الأصلي ما يزال حياً متمثلاً إلى الآن في جزيرة العرب التي يتصل سكانها بسائر سكان مواطن العرب الأخرى...»، «واللغة العربية اليوم هي نفس اللغة العربية، منذ ألف وخمسماية سنة على الأقل...»[٧٤].

ثم يقول في مكان آخر: «هذا إلى ارتكاز القضية العربية إلى وحدة تاريخية، ووحدة روحية، ووحدة ثقافية، ووحدة تشريعية، ووحدة اجتماعية، ووحدة اقتصادية، اشتملت الوطن العربي الكبير، منذ أكثر من ألف عام، دون انقطاع حقيقي، بحيث ظل سكانه يعيشون في جو تاريخي وروحي وتشريعي واجتماعي وثقافي ولغوي واقتصادي واحد تقريباً. ولم يكن من شأن ما كان يقوم من مظاهر وسلطات ومنازعات ونزعات متباينة، وغزوات خارجية أحياناً، أن يخلق تبايناً حقيقياً في ذلك بوجه الإجمال»[٧٥].

ويحاول دروزة أن يوضح ذلك في أكثر من مكان. ويظهر من إيضاحاته أنه مقتنع: «ان البحث العلمي الحديث لا يجعل الوحدة الجنسية العنصرية من المقومات الرئيسية للوحدة الوطنية والسياسية. فقد توطدت هذه الوحدة في بلاد، لا يجمع بين سكانها أصل جنسي وعنصري واحد». ولكنه مقتنع أيضاً: «ان مثل هذا الركن، إذا توافر في بلاد ما، كانت الوحدة التي تقوم فيه أقوى وأشد تماسكاً من الوحدة التي لا تتوافر فيه، لأن في توافرها تتوفر وحدة الميول والطبائع والتقاليد على اختلاف أنواعها».

وهو مقتنع، إلى جانب ذلك، بأن: «هذه الوحدة متوفرة في الوطن العربي، منذ أقدم الأزمنة إلى الآن»، كما ذكرنا[٧٦].

وقد يوحي هذا أنه يؤكد صفاء العرق، ولا سيما أنه يشير إلى وحدة الدم، من بين عوامل الوحدة. ولكن الذي يقرأ كتاباته، يجده يشير إلى نقيض ذلك. فبعد أن يقول: «وهكذا تكون الوحدة الجنسية متوفرة بقوة وشمول في الوطن العربي الكبير، منذ أقدم أزمنة التاريخ إلى الآن»؛ يستدرك: «نقول هذا، ونحن نعرف أن في مختلف أنحاء الوطن العربي، جماعات تمتّ إلى غير الجنس العربي، وان دماء

غير عربية تجري في عروق كثير من سكانه. منهم من يتصل وجوده فيه بالأحقاب القديمة، حيث كانت موجات وغزوات آسيوية وإفريقية وأوروبية، تطرأ على بعض أجزائه، وتستقر فيه. ومنهم من يتصل وجوده بالأحقاب الحديثة. غير أن هذا ليس من شأنه أن ينقض ما قررناه، من توافر الوحدة الجنسية، وشمولها لجميع الوطن العربي»(٧٧).

وهكذا لا يعود صفاء العرق وارداً، وإن ظل الحديث عن الوحدة الجنسية متواتراً. ويصبح معنى الوحدة الجنسية وحدة الجماعة العربية، «سليلة» الأقوام العربية المختلطة دماؤها بدماء أخرى غير عربية.

وحين قرر الأستاذ محمد عزة دروزة أن يعدد عوامل الوحدة أعطى الاهتمام الرئيسي لأربعة:

الأول: اللغة. وفي رأيه أن الوحدة اللغوية: «من أهم أركان الوحدة ومقوماتها... وقد كانت الأساس الأقوى لوحدة كثير من الدول قديماً وحديثاً. ولو لم يكن بين سكانها وحدة دينية أو جنسية أو تاريخية، حتى لقد شبه بعض الباحثين اللغة بحياة الأمة». «وركن الوحدة اللغوية متوفر في الوطن العربي الكبير بسعة وقوة وشمول، فاق كثيراً، مما في دول كثيرة، تحققت لها وحدتها». فهناك ٩٤ بالمائة من سكان الوطن العربي، يتكلمون العربية و٦ بالمائة لا يتكلمونها. ومصير هذه «الأقلية» أن تتعلم العربية عندما يعمم التعليم. ولا يفوت الأستاذ دروزة أن يؤكد: «أن الوحدة اللغوية ـ العربية، كانت قائمة نوعاً في الوطن العربي، منذ أقدم الأزمنة»(٧٨).

الثاني: التاريخ المشترك. وهو ما يسميه أستاذنا الوحدة التاريخية السياسية. وهو يرى أن هذه الوحدة كانت دائماً هدفاً من أهداف حركة الجنس العربي، كما أشرنا. ويضيف: «وقد كانت تتوفر وتتحقق كلياً أو جزئياً، في مختلف حقب التاريخ القديم والمتوسط، بل والحديث، بقطع النظر عن الحوافز والأساليب». ويتوسع الأستاذ دروزة في بحث هذه القضية(٧٩).

الثالث: الوحدة الروحية الدينية: «والوحدة الدينية أو الروحية متوفرة في الوطن العربي، بأقوى مظهرها، وأوسع مداها، حيث يدخل في نطاقها معظم سكان الوطن العربي، أو بتعبير رقمي ٩٣٪ منهم». وإن كانت الوحدة الدينية أو الروحية، «قد لا تكون»، كما يقول الأستاذ دروزة «ضرورية لقيام الوحدة السياسية أو ركناً من أركانها...» في الحياة الحديثة. وعلى الرغم من ذلك، فهو يرى: «أن توفر الوحدة الدينية والروحية في وطن ما، يجعل قيام الوحدة بين أبنائه وأجزائه أيسر تحقيقاً، وادعى إلى التواثق والترابط بين أبناء الوطن وأجزائه».

ولا يرى دروزة مشكلة في وجود النصارى من جهة، «فليس بين الإسلام والنصرانية تناقض في الأهداف والدعوة بالنسبة للحياة ومثلها. وكلاهما نابعان من نبع واحد». ومن جهة أخرى، فهناك ما يجمع بين مسلمي العرب ونصاراهم، وهو «الدم العربي الصريح في كثير من النصارى من ناحية، والتاريخ واللغة من ناحية أخرى...»(٨٠).

الرابع: الوحدة التشريعية والثقافية والاجتماعية: وهو يرى أن هذا الركن متوافر: «بسعة

وشمول أيضاً». لأن التشريع: «كان منذ أربعة عشر قرناً، ولا يزال، واحداً في أصوله وفروعه، لأنه مستمد من أصول الشريعة الإسلامية». ولكن هذا ليس الجانب الوحيد من جوانب الوحدة الاجتماعية، فهو يرى أيضاً: «سكان الوطن العربي، يتشاركون منذ آماد طويلة، وإلى درجة كبيرة، في معظم عادات الزواج والأعراس والمآدب والمآتم والمعاشرة والتعامل والبيع والشراء واللهو والزينة والرياضة والسمر، والحياة والعمل والمعيشة والأكل والشرب، في المدن والقرى، وتقاليدها ومراسمها وأساليبها، كما يتشاركون في الأذواق والعواطف والأساليب الدينية ووسائلها...». ولا يقصر الأستاذ دروزة ذلك على المسلمين لأن: «هذا التشارك، ليشمل في كثير من مظاهره نصارى العرب أيضاً، نتيجة للوحدة التاريخية واللغوية والجنسية التي عاش الفريقان في ظلها. إلى جانب بعضهما آماداً طويلة».

ثم: «إن شيئاً من هذا التشارك، يمتد إلى ما كان جارياً من عادات وتقاليد ومراسم وأساليب قبل الإسلام أيضاً، لأن أسبابه قائمة فيما اجتمع فيه أبناء الوطن العربي، من وحدة تاريخية ولغوية وجنسية».

وينطبق هذا على: «الوحدة الثقافية والفنية، وخاصة بعد الإسلام»[٨١].

الأمة إذاً واحدة، ليست موضوع نقاش. ووجودها قائم. والعملية التاريخية لتكوينها وتطورها تأخذ مجراها، رغم كل الحالات الطارئة، من غزوات الحثيين والفرس، إلى غزوات الأحباش والروم، إلى غزوات الفرنجة، ومن الاحتلال العثماني إلى الاحتلال الأوروبي الحديث.

والأمة قائمة رغم التجزئة، والعوائق الأخرى التي تقف في سبيل وحدتها. وما يتوافر من عوامل الوحدة القومية، في أية أمة، يتوافر أكثر منه في الأمة العربية.

ولكن ما علاقة العروبة بالإسلام؟ وكيف يمكن أن نوفق بين حرص دروزة على إبراز عملية التكون التاريخية لوجود الأمة العربية قبل الإسلام، واهتمامه الشديد بالإسلام والدراسات القرآنية؟

يقرر دروزة هنا ما يلي:

أولاً: ان عملية تكون الأمة العربية بدأت قبل الإسلام بكثير، وان العروبة الصريحة اكتملت قبل الإسلام بحوالى ألف عام، كما هو ثابت تاريخياً، مع أنه يرجح أن يكون ما أثبتته الاكتشافات التاريخية، قبل تسعمائة سنة من الميلاد، قد اكتمل قبل ذلك[٨٢]. وبالتالي فلا لبس لديه في العلاقة التاريخية بين العروبة والإسلام.

ثانياً: إن العرب سادوا بالإسلام. ولذلك: «فإن سمة الإسلام قد غدت حقاً سمة العرب». ولكن هذه السمة في نظر دروزة: «لم تعن ولا يمكن ان تعني أن الذاتية العربية قد زالت، أو يجب أن تزول، أو يمكن أن تزول بها، فهي مستمدة من واقع ذاتي قائم لا يجوز المكابرة فيه بتميزها في اللغة والخصائص والموطن. وهذا شأن كل الأمم التي تدين بالإسلام».

وهكذا فإن الأمة أمة، والدين دين والعرب عرب بالإسلام، والإسلام لا يلغي هويتهم

القومية، كما لم يلغ هوية الأمم الأخرى التي اعتنقت الإسلام. وهناك أمم تعتنق الإسلام، وهي تحتفظ بهوياتها القومية.

والإسلام دين للناس كافة، ولكن بينه وبين العرب علاقة خاصة، ولذلك فإن دروزة يذكرنا بالحديث المشهور: «إذا ذلت العرب ذل الإسلام». ويبني دروزة على ذلك أن المتأصل: «في تاريخ الإسلام يجد أن العزة والقوة والحيوية، إنما كانت تتحقق بمعناها النافذ في أي قطر، امتد إليه الإسلام، حينما يكون العرب هم أصحاب السلطان وحملة رايته. أو حينما تكون العروبة طابع أصحاب السلطات وحملة رايته». وبالمقابل، فقد كانت سيطرة الأقوام غير العربية عامل ضعف للعرب بخاصة، وللمسلمين بعامة.

ثالثاً: إن: «الدعوة العربية لا تأخذ قوتها ومداها، إلا إذا تلازمت مع الإسلام». ولذلك، فإن دروزة، بعد أن يذكر ما تحقق بالإسلام يقول: «وكل هذا يظهر خطورة واجب الدعاة إلى القومية العربية بالتزام الإسلام عقيدة وصفة وصبغة»[٨٣]. ومع ذلك، فإن دروزة، يطرح قيام دولة قومية، ضمن إطار حدود الوطن العربي، ولا يطرح قيام دولة إسلامية، ضمن إطار العالم الإسلامي؛ فيما يطرح.

إلا أن هذا لم يمنع الأستاذ محمد عزة دروزة، من أن يكرس جهداً مهماً للدراسات الإسلامية، كما تظهر قائمة مؤلفاته، وكما تكشف مقالاته وأحاديثه.

وهنا يضعنا محمد عزة دروزة أمام أسئلة عديدة، مثلاً: هل كان يريد تحقيق وحدة عربية ببرنامج إسلامي؟ وما هو هذا البرنامج؟ وهل تتحقق الوحدة العربية لتكون أساس وحدة إسلامية؟ وكيف؟ ولقد أجاب؛ من قبل في كتابه **مشاكل العالم العربي** قائلاً: «إننا لا نقصد بما قلناه عن شأن العرب في العالم الإسلامي، أننا نتطلع إلى جامعة إسلامية سياسية عامة، أو خلافة إسلامية سياسية عامة يكون العرب على رأسها. كما أننا نعرف أن مجال ذلك مسدود اليوم. ولا يقاس الأمر بما كان عليه وضع السلطان الإسلامي عامة، والسلطان الإسلامي العربي خاصة، في سالف الدهر»[٨٤].

ولكن علينا أن نلاحظ أن الفقرة المهمة التي تتعلق بعلاقة العروبة والإسلام، والواردة في كتاب **نشأة الحركة العربية الحديثة**، أضيفت في الطبعة الثانية، الصادرة سنة ١٩٧١، ولم تكن في الطبعة الأولى كما يشير المؤلف[٨٥].

وفي هذا الوقت كان الأستاذ محمد عزة دروزة، قد انقطع عن النشاط السياسي، منذ مدة طويلة، كما أن الحركة الإسلامية كانت قد صارت فعالة بينما كانت الحركة القومية، تشهد بداية ضعفها. ومن المؤكد أن هذه الظروف تركت آثارها في الرجل الذي كان في الأساس مسلماً مؤمناً، ومقتنعاً بالإسلام، وكتبه خير شاهد على ذلك.

لقد كان دروزة مقتنعاً أن وحدة العرب هي الأساس، وأن قيام وحدة العرب، يوحد المسلمين. ولكنه طرح برنامج وحدة عربية، ولم يطرح برنامج وحدة إسلامية. وإن كان قد دعا إلى قيام «رابطة الشعوب الإسلامية، على أسس تعاونية، سياسية واقتصادية وثقافية وعسكرية» ورأى في ذلك: «كل الخير للعرب خاصة، وللمجموعة الإسلامية عامة»[٨٦].

ولقد دأب محمد عزة دروزة، انطلاقاً من كل ذلك، يدعو للوحدة العربية الشاملة، ويعمل من أجلها. فقد بحث الكثير من القضايا المتعلقة بالوحدة، وطرح الكثير من المسائل القومية، وعالج ما لم يعالجه كل القوميين، فتناول ضرورة الوحدة والعوائق التي تقف في سبيلها وأهدافها، كما تناول طريقة تحقيقها، وناقش موضوع الوحدة والاتحاد، وقدم ميثاقاً اتحادياً.

وسنحاول في هذه العجالة، أن نقدم أفكاره في كل هذه الميادين بالقدر اللازم من الاختصار.

يرى دروزه في الوحدة ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية وإسلامية وإنسانية.

- فمن الناحية السياسية: يرى الأستاذ محمد عزة دروزة « أن كل واع سليم التفكير، يعترف بقرارة نفسه، أنه لن يكون للعرب كيان محترم قوي، إلا بالوحدة الفعلية، لا الأدبية والروحية فقط. ويعترف أن العرب سيظلون عرضة للازدراء والنفي والاستغلال، ما داموا لا يجتمعون في وحدة فعلية وشاملة ». هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن وقائع التاريخ أثبتت: « على أنه لم يصب العرب وهن، أو يقع عليهم بغي وعدوان، يندحرون أمامهما، في أي ظرف من ظروفهم، إلا حينما كانت وحدتهم منفصمة أو واهنة، ودولهم وإماراتهم عديدة ومتنابذة ومتكايدة، وقواهم منقسمة موزعة، ولم يكونوا أقوياء مزدهري الحضارة والعلم والعمران، نافذي السلطان، مرهوبي الجانب، مخطوبي الود، في أي ظرف من ظروفهم كذلك، إلا حينما كانوا متحدين في دولة واحدة: جيشهم واحد، واقتصادهم واحد، ونظمهم واحدة ».

وهذه الوحدة، لا تستند إلى عواملها الذاتية فقط، بل تستند إلى سياق سياسي عالمي. لأن العالم يتجه اليوم إلى التكتل، وهذه الشعوب فيه، تبحث عن أشكال من الوحدة، على أسس سياسية. وهو « مما يزيد من قوة تلك الضرورة، والحافز عليها ».

ويقدم الأستاذ محمد عزة دروزة أمثلة على مضاعفات الوحدة والانقسام من التاريخ العربي الإسلامي[٨٧].

- ومن الناحية العسكرية: إن مركز الوطن العربي الممتاز، وثرواته الظاهرة والباطنة، وبخاصة الثروة النفطية الهائلة، تجعله موضع أطماع القوى الطامعة، وتصارع القوى المتصارعة. « وكل هذا يبرز ضرورة الوحدة العربية، فهي السبيل الوحيد إلى قوة العرب، أصحاب هذا المركز العالمي الممتاز وغدوهم جبهة موحدة قوية، لتدرأ عنهم أطماع الطامعين والمستغلين والمتشادين »[٨٨].

- ومن الناحية الاقتصادية والاجتماعية: « فإن مصالح العرب الاقتصادية والاجتماعية، تجعل الوحدة ضرورة مبرمة لهم أيضاً. بل إن القوة السياسية والحربية، ليست في الحقيقة إلا نتيجة من نتائج الازدهار الاقتصادي الاجتماعي الذي يمد الذين يقوم عندهم بأسباب القوة والحيوية والنشاط، كما لا يخفى »[٨٩].

- ومن الناحية الإسلامية والإنسانية: يرى الأستاذ دروزة أن نصوص القرآن ربطت الإسلام بالعرب والعرب بالإسلام. « فإذا ما قام العرب بهذا الدور العظيم الذي بينه لهم القرآن، غدت

مبادىء الإسلام دين الإنسانية العام. . . وبذلك يعلو قدرهم بين الأمم، ويكونون، كما وصفهم القرآن، خير أمة أخرجت للناس. . . وفي هذا ما فيه من خدمة إنسانية جليلة، وتحقيق للرسالة الإسلامية في الوقت نفسه »(٩٠).

وقد دفعه إيمانه بالوحدة، وقناعته بضرورة تحقيقها، إلى بحث العوائق التي تقف في سبيلها. وأوصله بحثه في ذلك، إلى تحديد العقبات التالية:

ـ العقبات الخارجية أو الاستعمار: « ودولتا فرنسا وانكلترا، هما صاحبتا معظم صفحات هذا التاريخ الأسود الطويل في الوطن العربي. . . وهما اللتان ترسمتا، وما تزالان تترسمان العدوان عليه، وإضعافه وتجزئته واستغلاله. وتعطيل أية حركة تهدف إلى جمع شمله ووحدته، والوقوف في وجه أي تقدم وازدهار له ». ولكن بريطانيا وفرنسا ليستا وحدهما، « فلإسبانيا جزء منه، وهناك الولايات المتحدة الأميركية التي أخذت تساهم في تسويد هذا التاريخ، كما أن السرطان اليهودي الخبيث الذي هو من مضاعفات البلاء الانكليزي. ولتركيا الحديثة سهم ما في هذا السجل، على ما سوف نشرحه فيما يلي من المباحث »(٩١).

ـ العقبات الداخلية وهي: الاقليمية والاعتبارات الطائفية والشخصية والأسروية؛ جمود الوعي العربي وسلبيته وعدم عمقه؛ عقبات داخلية أخرى، مثل اختلاف أنظمة الحكم، والتفاوت بين سكان الأقاليم، والأبعاد الشاسعة التي تفصل بين الأقطار(٩٢).

أما العقبة الأولى، فيتم التغلب عليها بالكفاح: « فقوة الروح القومية، وفكرة استقلال الشعوب، وحقها في الحياة الحرة المستقلة، واستنكار الاستعمار، والسيطرة العدوانية الاستغلالية على البلاد والشعوب الأخرى. ومناوأته في البلاد التي ابتليت به، كل ذلك آخذ بالنمو والاتساع، وهو اليوم شامل لآسيا وأفريقيا معاً. . . ». وليس العرب خارج اطار هذه الحركة الواسعة. « ونظرة إلى تاريخ هذا الكفاح، وأطواره في مختلف أنحاء الوطن العربي، كافية للتأكد من قوة حيوية العرب، وروحهم القومية النضالية، واستعدادهم للاستمرار في كفاحهم، وتحمل ما يقتضيه من شدائد. . . إلى أن تكتب لهم الغلبة، ويقوضوا طاغوت الاستعمار في بلادهم ».

وكذلك العقبة الثانية، وهي اليهود، كما يسميها الأستاذ دروزة، فإن إمكانية التغلب عليها واردة. وبعد أن يناقش الأستاذ دروزة موازين القوى وتطوراتها، يصل إلى الكيان الصهيوني، وإن كان عقبة في سبيل الوحدة، فإنه لا يستطيع أن يمنع: « قيام وحدة أو اتحاد بين الدول العربية كمرحلة أولى. . . وهذا سيكون من أقوى الوسائل إلى اجتثاث تلك الجرثومة الخبيثة، وإزالة خطرها وعارها ».

أما نشاط أمريكا، واعتبارات فرنسا، وعداء تركيا، فلا يعتبرها عقبات حقيقية(٩٣).

هذا فيما يتعلق بالعقبات الخارجية، وأما العقبات الداخلية، فهو يقترح حلولاً لها، واحدة واحدة. وهو يقترح لمعالجة جمود الوعي إزالة الأمية وتطور التعليم والتوجيه القومي، وبناء تنظيم شعبي يتغلغل في أوساط الجماهير، « وخاصة إذا اشتدت الدعوة إلى الشبان المثقفين بالاقدام على الاضطلاع لبعث التنظيم الشعبي المتغلغل، وبث فكرة الوحدة ومقوماتها وضرورتها وفوائدها، والعقبات الداخلية والخارجية في طريقها، بين مختلف الطبقات، وعلى أوسع نطاق ممكن. واستجابوا إليها بجد وجلد وتضحية. . . »(٩٤).

أما الطائفية، فيقترح لمعالجتها، توحيد التعليم، وجعله قومياً وذلك: « بإلغاء التعليم الطائفي، وجعل التعليم مشتركاً، منذ درجاته الأولى، فلا يكون في الدولة إلا تعليم قومي واحد، ومدارس قومية واحدة، تضم أبناء الطوائف على اختلافها، وتسود فيها الصبغة القومية البحتة؛ وفقاً لمنهج ثقافي عام »[٩٥].

ويرى أن الاقليمية « مهما يكن أمرها، فإن اتساع نطاق التعليم وشموله، وما ينشأ عنهما من اتساع نطاق الوعي القومي، وتبدل صفته، سيكون عاملاً قوياً في التغلب عليها »[٩٦]. وهو يشير إلى مؤتمرات المحامين والأطباء والطلبة العرب، وأثرها، كما يشير إلى « ان ثورة مصر المباركة واندفاع مصر بعدها بقوة في تيار الحركة العربية القومية، ونشاط رجال الثورة في مختلف الميادين، وانتصاراتهم على الدول الغربية، وسياسة التحرر والحياد الايجابي التي قادتها مصر وسورية... والحركات النضالية التي قويت في شمال أفريقيا، وصمود مصر وسورية للمؤامرات والدسائس التي قامت بها الولايات المتحدة... بالإضافة إلى ما كان من سعة انتشار التعليم، وتبادل الزيارات والمؤتمرات المتنوعة التي أخذت تنعقد في مختلف أنحاء الوطن العربي، والنشاط الذي تقوم به المنظمات القومية. كل هذا كان عاملاً في الهاب العواطف القومية، وتوسيع نطاق الوعي القومي وترسيخه، واخراجه من جموده، وإضعاف النزعات الاقليمية والطائفية والشعوبية »[٩٧].

ويتناول الأستاذ دروزة العقبات الأخرى. فاختلاف أنظمة الحكم، يتم التغلب عليها بالوحدة الاتحادية، وما بين الأقطار العربية من تفاوتات، موجود داخل القطر الواحد. وهذا التفاوت: « ليس أصلاً طبيعياً في جبلة الجنس العربي »[٩٨]، « ولا يصح أن يكون مبرراً لعدم شمول الوحدة العربية لمختلف الأقطار العربية، أو دعوى تعذر الانسجام بينها »[٩٩]. واتساع المساحة لا يقف عائقاً لأن هنالك بلاداً: « أوسع بكثير من بلاد العرب، أو مثلها أو قريبة منها، وفيها من العوارض والمعالم والأبعاد مايماثل ما في بلاد العرب »[١٠٠]. ومع ذلك، فإن هذا لم يمنع قيام دولة موحدة فيها، كالاتحاد السوفياتي والصين والولايات المتحدة الأمريكية.

ولا ينسى أن يضيف أن: « وسائل الاتصال العصرية، قد طوت المسافات، وقربت الأبعاد »[١٠١]. ويضيف: « ولقد كانت بلاد العرب، بجميع مساحاتها هذه، وحدة في أدوار تاريخية عديدة، قبل الإسلام وبعده، على ما مر شرحه في فصل سابق. بل كان ينضم إليها أقطار عديدة أخرى، من غير الأقطار العربية، بحيث كانت مساحة الدولة، تقرب من مساحة روسيا »[١٠٢].

وما دام الموضوع موضوع حديث العقبات الخارجية والداخلية، فلا بد من أن نشير إلى أن الأستاذ دروزة لم يكن يرى، أن علينا الانتظار لتذليل كل هذه العقبات، قبل أن تتحقق الوحدة، لأن هذا: « يعني انتظار عشرات السنين، كما يعني عدم ادراك كون الوحدة هي الكفيلة بمعالجة كثير من العقبات الداخلية والخارجية، بحيث يصح أن يقال بحق ان هذه العقبات تظل قائمة، ما لم تقم الوحدة »[١٠٣].

نحن إذاً لا نستطيع أن نتغلب على العقبات إلا بالكفاح وبالوعي والتعليم والتوجيه القومي، وبناء التنظيم المتغلغل شعبياً. ونحن قادرون على ذلك، لأن شعبنا مستعد للتضحية، ولأننا نعمل ضمن إطار حركة تحرر عامة، في آسيا وأفريقيا.

وبحث الأستاذ دروزة، إلى جانب هذا كله، قضيتين مهمتين، لم يولهما المثقفون العرب

أي اهتمام، إذا استثنينا د. نديم البيطار. وهما: كيف كانت الوحدة تتحقق في الماضي، وكيف يمكن أن تحقق الوحدة العربية الآن؟

ما يتعلق بالقضية الأولى، قدم الأستاذ دروزة فكرته عبر دراسة التاريخ العربي، وقدم ملخصاً عنها في كتاب الوحدة العربية. وفي هذا الملخص استخلص ما يلي:

١ ـ كان التوحيد يتم على مراحل. فيوحّد أولاً اقليمان، ثم تمتد حركة التوحيد إلى الأجزاء الأخرى. ويمكن هنا ضرب أمثلة عديدة من التاريخ العربي القديم والمتوسط، وحتى الحديث. والمترجَم له، يضرب أمثلة كثيرة.

٢ ـ كان التوحيد يجري على أساليب متنوعة، وبصيغ مختلفة، من الوحدة التامة، إلى الصيغ الاتحادية. وكان الأسلوبان في كثير من الأحيان يلتقيان.

٣ ـ وكان الحافز على الوحدة، وهو المطمح الشخصي أو الأسروي، ولكن: « كثيراً ما كان يمتزج بالمطمح الوطني أو القومي أو الديني »(١٠٤).

٤ ـ « وكانت هذه الحركات تقوم في الدرجة الأولى على القوة الحربية ». إلا أن هذا لا يعني اغفال « المساعي السياسية والاقناعية بالفائدة العامة التي تجنيها البلاد وأهلها من الاتحاد »(١٠٥).

وهذا القسم، من كتابات محمد عزة دروزة مهم. لأنه يدرس فيه قضايا الجغرافية التاريخية للوحدة. ولكنه لا يتطرق إلى بحث الأصول الاجتماعية للمطامح الشخصية والأسروية. كما أنه لا يحلل السمات الرئيسية في الجغرافية التاريخية للوحدة في الوطن العربي... علاقة الوحدة بالهجرات، أو الفيضان السكاني، وانتقال قوى الوحدة من اقليم إلى آخر لاستكمال العملية الوحدوية.

أما القضية الثانية فقد قدم لها دروزة بفصل موجز، عنوانه: «كيف تحققت وحدة الأمم الأخرى في العصور الحديثة»(١٠٦)، ولم يشر في هذا الفصل إلا إلى وحدتي ألمانيا وايطاليا. على الرغم من أنهما تمتا في القرن الماضي، وفي ظروف مختلفة عن ظروفنا. كما أن هناك وحدات تمت في هذا العصر، وفي ظل ظروف أقرب لظروفنا، مثل وحدة الصين والهند وفيتنام. وهو بذلك تجنب بحث موضوع قيادة العملية الوحدوية، ومن هي القوى ذات المصلحة فيها. ولماذا اختلف أسلوب تحقيق وحدة ألمانيا وايطاليا والهند، عن أسلوب تحقيق وحدة الصين وفيتنام.

وبعد هذا كله، كيف ستحقق الوحدة العربية المعاصرة؟

إن الأستاذ دروزة، يلخص لنا القوانين التاريخية في هذا المجال في ثلاثة: « ١) القوة الحربية التي تتحرك بالمطمح الشخصي... » و « ٢) القوة الحربية التي تتحرك بالمطمح الشخصي والحافز الديني... » و « ٣) القوة الحربية والمساعي السياسية التي تتحرك بالمطمح الشخصي والحافز القومي معاً... »(١٠٧).

ويرى الأستاذ دروزة أن الطريقة الثالثة، قد تكون: «الأكثر انطباقاً على حالة الأمة والبلاد العربية اليوم»[١٠٨]. كما يرى: «ضرورة تبني احدى الدول العربية الدعوة إلى الوحدة، وحمل رايتها». وهو يرشح مصر وسوريا لذلك، موضحاً كيف راهنت الحركة القومية على العراق الفيصلي في البدء، وكيف كان هو من دعاة هذا الاتجاه[١٠٩]. إلا أن وجود دولة تتبنى الوحدة لا يكفي، فهناك حاجة ماسة لوجود جهاز شعبي. «ومهما يكن من أمر، فإن الحاجة إلى جهاز قومي، يتفرغ للدعوة إلى الوحدة، ويعمل في سبيلها، ويقوم بمختلف المساعي والاتصالات في مختلف أجزاء الوطن، ومع مختلف هيئاته الشعبية والحكومية، تظل شديدة كحاجتها إلى دولة تتبناها، حيث يكون الجهاز عضداً شعبياً لهذه الدولة»[١١٠].

ويقترح الأستاذ دروزة ثلاث صيغ لسد هذا الفراغ:

الأول: «أن يأخذ المكتب الدائم لمؤتمر الخريجين الجامعيين على عاتقه ذلك، ويتفرغ له».

الثاني: أن تتألف لجنة في البرلمان السوري من كل الاتجاهات لخدمة هذه الغاية.

الثالث: أن تتألف «لجنة الوحدة العربية» في مصر أو سوريا، من عدد غير كبير من القوميين البارزين، وتختار مكتباً دائماً، وتكون فروعاً في الأقطار.

ولقد سعى الأستاذ محمد عزة دروزة إلى بناء هذا التنظيم، بعد النكبة، وعلى أساس الدعوة لاتحاد سوريا والعراق. ثم تبنى الدعوة لوحدة سوريا ومصر، وشجعه على ذلك قيام ثورة الثالث والعشرين من يوليو (تموز). واتصل من أجل ذلك بالعديد من زملائه في الحركة القومية، ومنهم أحمد قدري وبهجة الشهابي وعبدالقادر الميداني وغيرهم. ولكن الجهود لم تؤد إلى تحقيق هذه الغاية[١١١].

وعلى الرغم من قناعة محمد عزة دروزة بالوحدة الكاملة، واصراره عليها، طوال حياته، فإنه كان يرى أن الظروف لا تسمح بتحقيق الوحدة الشاملة، ولذلك دعا إلى الاتحاد، وقدم مشروعاً اتحادياً.

ولقد كان يرى في الاتحاد خطوة على طريق الوحدة، ولم يكن يراه حلاً نهائياً، ولا كان يعتبره مشروعه، إنما كان يلجأ إليه، لزيادة التفاعل القومي، ورد المخاطر الخارجية.

ومن هذا المنطلق أيد مشروع الاتحاد بين سوريا والعراق في أوائل الخمسينات، وأيد مشروع الاتحاد بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٦، وأيد وحدة مصر وسوريا سنة ١٩٥٨، معتبراً أنها تجاوزت كل ما كان متوقعاً. وظل وفياً للوحدة، عند حدوث الانفصال، حتى انه قاطع زميلاً عزيزاً عليه، مثل شكري القوتلي، لأنه أيد الانفصال، سنة ١٩٦١[١١٢].

- ٦ -

وبعد هذا كله، كيف كان موقف محمد عزة دروزة من طبيعة السلطة، وعلاقة السلطة بالجماهير والنظام الاقتصادي؟

إننا هنا، في وضع لا يسمح لنا بالخوض في كل هذه القضايا، ولكننا نجد من الضروري أن نقدم إشارات لا بد منها.

أولاً: ان الأستاذ دروزة أعلن قناعته، بأن «الحالة السيئة» التي وصفها، «لا يمكن اصلاحها إلا بحركات انقلابية جريئة...»(١١٣) وكان يتحدث عن الحركات الانقلابية في سوريا (١٩٤٩ - ١٩٥٢) وثورة ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢ في مصر.

ثانياً: ان النظام الذي يؤيده لدولة الوحدة هو النظام الجمهوري اللامركزي. وهو يرى أن: «القول بأن النظام الملكي أضمن للاستقرار قول جزاف». لأن «الخلاص من الرئيس المنتخب، إذا ظهر فساده، أسهل بكثير من الخلاص من الملك». أما المركزية «فمن شأنها، أن تشل البلاد، وتعرقل حركتها الاقتصادية والعمرانية، بسبب سيطرة المركز، وما تؤدي إليه، من مطل وإهمال، وما قد تفسح له من مآرب ومحاباة وشهوات...»(١١٤).

ثالثاً: ان النظام الذي يؤيده نظام برلماني، ولكنه يؤيد «الحياة النيابية المحدودة التي تسمح للحكومات بسلطات واسعة...» وذلك هو: «الأفضل الآن، بسبب حاجة البلاد العربية إلى الاستقرار، والاسراع في الخطوات الاصلاحية والتجديدية». ويعزو ذلك إلى كون الحياة النيابية في بلادنا مسخ مشوه. ولذلك فإنه يرى من: «الأفضل أن يكون النظام النيابي جامعاً بين حق رقابة الأمة على السلطات التنفيذية، وبين تمتع هذه السلطات بصلاحيات واسعة...»(١١٥).

رابعاً: ان هذا النظام يجب أن يكفل: «حرية الرأي والنقد والنشر والاجتماع والعمل»... وهذه: «يجب أن تكون في كل حال مطلقة إطلاقاً تاماً لا يقيدها إلا حرية الغير، وحقه وكرامته والمصلحة القومية العليا»(١١٦).

وكان قد أوضح موقفه هذا من الحريات في الخطوط العامة لمشروعه الاتحادي، فضمّنه بندين، يشير في أولهما إلى هذا الحق بالصيغة التالية:

«يضمن الاتحاد لجميع المواطنين، في الدول الأعضاء الحريات والحقوق الشخصية التي تكفلتها شرعة حقوق الإنسان العالمية، أو التي جرى العرف عليها، وأقرتها دساتير العالم». وتقول الثانية: «يضمن الاتحاد لجميع الأديان والمذاهب في الدول المتحدة تقاليدها الخاصة، وأنظمتها العائدة لأحوال اتباعها الشخصية، على أن لا يتنافى ذلك مع الوحدة القومية، ومصلحة الدول المتحدة»(١١٧).

خامساً: ان النظام الاقتصادي الذي يدعو إليه، هو النظام الاشتراكي، لأن: «الاشتراكية المعتدلة الوطنية، هي خير المناهج». وهو يعني بالاشتراكية المعتدلة التي: «تهدف إلى إزالة أو تخفيف الفروق العظيمة بين الناس في الثروة والملك والمراتب الاجتماعية، وحق الاستمتاع بنعم الله في كونه على التساوي، والمساواة التامة الفعلية في الحقوق والواجبات العامة، وسيطرة الدولة على المرافق والمنشآت العامة التي لها مساس بمصالح الجمهور وحياته... والحيلولة دون استغلال العمال والفلاحين واضطهادهم وارهاقهم، وتوفير أسباب العلم والصحة والعمل، والحياة المعقولة لكل الطبقات، وكفالة العاجزين عن الكسب من الشيوخ والأطفال والمرضى...»(١١٨). وهو يقبل بالاشتراكية هذه، ولكنه لا يقبل الشيوعية، لأنها تتنكر

« للكرامة القومية والمصلحة القومية والتقاليد القومية » ولأنها تحارب: « الملكية والحيازة إطلاقاً. . » ولأنها أيضاً تسخّر: « الفرد تسخيراً شديداً. . . »[119]. وفوق هذا، فإن الاشتراكية التي يدعو إليها، هي ما ينص عليها القرآن[120].

وبهذا يكون محمد عزة دروزة متقدماً على أبناء جيله من رواد الحركة القومية، ومواكباً لحركة الأجيال التالية، ولقد شغلته قضية الوحدة، ولكن آلام الجمهور كانت تشغله[121] وكان يشغله مشروع إصلاحي اجتماعي[122].

- ٧ -

ولا بد لنا، قبل أن نصل الختام، من وقفة مع محمد عزة دروزة في دوره الفلسطيني. فالرجل ولد في فلسطين، وعاش أيام طفولته وشبابه ومعظم كهولته فيها. فمنذ ١٨٨٧، حين ولد، إلى سنة ١٩٣٧، حين غادر فلسطين في جولة، ولم يعد، فترة خمسين عاماً طويلة. قضى معظمها في فلسطين. ما عدا سنوات بين ١٩٠٨ و ١٩١٨ قضاها في بيروت والنبك (سوريا) وحوالى سنة قضاها في دمشق (أوائل حزيران/ يونيو ١٩١٩ - ٢٣/ ٧/ ١٩٢٠). وقضى من هذه السنوات الخمسين سنواته الأولى ١٨٨٧ - ١٩٠٦ في نابلس، وكذلك السنوات (١٩٢٠ - ١٩٣٧).

وكان خلال هذه الحقبة الطويلة، لا ينقطع عن نابلس، حتى وهو خارجها لوجود أهله فيها، ولأن الحدود في ظل الامبراطورية العثمانية كانت مفتوحة، ولم تكن سوريا أو لبنان أقطاراً مستقلة.

ولذلك، فإنه في مذكراته يخص صفحات طويلة لوصف نابلس: مدارسها وحماماتها وعاداتها، كما يذكر أصدقاءه وزملاءه فيها، ممن حافظ على مودتهم أيام النضال[123].

ولم يكن غريباً، أن يعود إلى نابلس، بعد مغادرة بيروت، سنة ١٩١٨، وأن يستقر هناك، حتى يطرد من عمله، ويمنع من العودة سنة ١٩٣٧.

فكيف كان موقفه النضالي في فلسطين؟

هنا أيضاً نكتشف الأبعاد القومية النضالية لشخصية محمد عزة دروزة. وقد تجلى ذلك فيما يلي:

أولاً: ظل محمد عزة دروزة، وهو منهمك في النضال، كل أشكال النضال، يرى قضية فلسطين قضية عربية. لأن الصفقة التي تمت بين الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية، جاءت نتيجة لسياسة الامبراطورية البريطانية التي كانت: « ترسم تشميل هيمنتها على بلاد العرب، وإبقاءها مجزأة ضعيفة لضمان نفوذها، واستغلالها لثروات هذه البلاد ومركزها، فانعقدت الصفقة بينهم (أي الصهيونيين) وبينها (أي بريطانيا) على تنفيذ ذلك بالحديد والنار »[124]. ولذلك فإن الأستاذ دروزة يعتبر وعد بلفور: « أشد الضربات وأوجعها، وأبعدها نكاية وأثراً في كيان العرب وأهدافهم ». وهي ضربة:

« وجهها الانكليز للعرب وحركتهم القومية الحديثة ». وفلسطين بالنسبة له « عقدة الصلة بين الأقطار العربية الشمالية والجنوبية... واتصال هذه الأقطار ببعضها اتصالاً لا تقاطع فيه، من أهم مميزات القضية العربية وعناصرها »[١٢٥].

وهدف هذه السياسة البريطانية ـ الصهيونية: « قلع جذور العرب وهدم كيانهم في فلسطين العربية أولاً، وفي امتدادات تلك الحدود المجاورة لها بعد ذلك... ونشوب صراع شديد ومديد بين العرب واليهود، وحفز هؤلاء إلى الحيلولة، دون قيام كيان عربي قومي وموحد، ودون أي تقدم عربي في ميادين السياسة والاقتصاد والصناعة والتجارة... »[١٢٦].

فلسطين، إذاً، جزء من الوطن، وعقدة الوصل بين جناحيه، وقيام الكيان الصهيوني مكيدة امبريالية موجهة للعرب كلهم، لا للفلسطينيين منهم. ولقد ظل هذا الموقف ثابتاً لدى أستاذنا، فلم يتغير، ولم يتبدل، حتى بعد قيام المقاومة الفلسطينية، وغلبة الاتجاه القطري فيها. وسنجد هذا واضحاً في كل أعماله، من سعيه لبناء حزب قومي، كل حياته، إلى تأييده المستمر لدعوات الوحدة[١٢٧].

ويبدو هذا واضحاً في الكلمة التي ألقاها في القصر الجمهوري بدمشق، عندما ذهب للتهنئة، بالوحدة، مع جمع من اخوانه الفلسطينيين، بتاريخ ٥/ ٢/ ١٩٥٨. قال في هذه الكلمة:

« إن فرحة أبناء سورية الجنوبية يا فخامة الرئيس الجليل مزدوجة. فهي من جهة فرحة العربي الذي يرى في الوحدة السبيل الصحيح الوحيد إلى مجد العرب وكرامتهم وعزتهم وتكاملهم وازدهارهم وانخساء الطامعين والكائدين عنهم، وزوال الحواجز المصطنعة التي تشل نشاطهم، وتضيق آفاقهم... ».

« وهي من جهة أخرى، تحمل لهم البشرى بقرب انهيار المسخ الذي قام في أراضيهم... »[١٢٨].

في الوحدة، عند محمد عزة دروزة، مجد العرب، وبها تحرير فلسطين. وهذه القناعة لم تفارقه كل حياته.

ثانياً: ولكن محمد عزة دروزة، لم يكتف بالدعوة للوحدة، وبالنضال من أجلها. بل قام بدور نضالي في فلسطين، فأسهم منذ البدء، بتأسيس الجمعيات الإسلامية ـ المسيحية، وشارك في المؤتمرات الوطنية، كما بيّنا. ولما أقنعته التجربة أن الحركة الوطنية بحاجة إلى حزب سياسي، بسبب تفككها وتناقضها وعجز قياداتها، بادر، هو ونفر من الاستقلاليين القوميين، إلى إنشاء حزب الاستقلال العربي، سنة ١٩٣٢، حيث كان من أبرز أعضائه.

وكان الهدف من إنشاء الحزب السعي للخروج من حالة التفكك والتنافر، و «تكثيف الجهود» والعمل «في نجوة من التشادّ المنغص المعطل»، لتحرير الحركة الوطنية من فتورها، وتوجيه النضال، ضد الانكليز، باعتبارهم «أصل الداء ورأس البلاء»، وعدم الاكتفاء برفع شعار محاربة الصهيونية[١٢٩].

وجاء في قانون الحزب: المادة ٣ ـ مبادىء الحزب.

١ ـ استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً.

٢ ـ البلاد العربية، وحدة تامة لا تقبل التجزئة.

٣ ـ فلسطين بلاد عربية، وهي جزء طبيعي من سوريا.

وكان من أهداف الحزب:

١ ـ العمل على تحقيق المبادىء الواردة في المادة السابقة، بما يستطيعه بنفسه، وبالاشتراك مع الهيئات الاستقلالية في الأقطار العربية.

٢ ـ الاحتفاظ بأراضي البلاد ومنابع الثروة للعرب.

٣ ـ إلغاء الانتداب ووعد بلفور.

٤ ـ إقامة حكم عربي برلماني في فلسطين.

٥ ـ إنهاض البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً(١٣٠).

ولم يعش الحزب طويلاً، إذ إنه توقف عن العمل، بعد حوالى سنتين. ولكنه أسهم في تطوير الحركة الشعبية، وتأجيج الحماسة لمواجهة الاحتلال البريطاني: منذ أواخر سنة ١٩٣٣ (١٣١).

لقد كان مع الجبهة العريضة دائماً، وضد التهاتر والتنافر داخل صفوف الجبهة الوطنية. وكان يدعو إلى الوحدة دائماً، وينتقد الأساليب التي تعرّض الوحدة الوطنية للتفكك. وكان من أسباب إنشاء حزب الاستقلال، البحث عن صيغة عمل متماسكة.

ولقد بذل الأستاذ دروزة جهوداً مهمة لتكوين اللجنة العربية العليا، سنة ١٩٣٦. واستقال سنة ١٩٤٧، من الهيئة العربية العليا، لعدم موافقته على أساليبها(١٣٢).

وكان، خلال هذه الفترة (١٩١٩ ـ ١٩٣٧) يعمل مديراً لمدرسة النجاح، ثم مديراً لأوقاف نابلس، وبعدئذ مديراً عاماً للأوقاف في القدس، وهو يشارك في كل النشاطات السياسية. وكان يسهم أيضاً في كتابة الكتب التربوية، والمقالات السياسية والاجتماعية في الصحف.

لقد كان دائباً لا يهدأ، وعاملاً لا يكل.

وحين منع من العودة إلى فلسطين، واصل نشاطه بلا كلل من دمشق، فظل يكتب وينظم، ويقوم بالمهمات السياسية والإدارية، بلا تردد أو توان.

ثالثاً: وحين قامت المقاومة، سنة ١٩٦٥، أيدها، ودعا إلى تأييدها. وأقام علاقات مع فصائلها، ولكن دون أن يصبح طرفاً في خلافاتها. ولقد ظل، حتى لحظاته الأخيرة، مع التحرير. ولذلك أكد في أكثر من برقية من برقياته إلى بعض الرؤساء على: «تحرير جميع الأرض المغتصبة، وطرد المعتدين منها. وتحقيق حقوق الشعب العربي الفلسطيني كاملة في وطنه السليب». وكان في أحيان أخرى يقول: «حتى يتم النصر الأكبر، وتتحرر الأرض المحتلة وجميع فلسطين...»(١٣٣).

لقد خاض محمد عزة دروزة في فلسطين غمار العمل التنظيمي والسياسي، واعتنى بنشاط الجماهير، من العريضة، إلى التظاهر، إلى الاضراب، إلى العمل المسلح. ولكنه كان يرى التحرير في الوحدة القومية. ولذلك رفع رايات النضال القومي في فلسطين.

وبعد... هل وفينا الرجل حقه؟

إنها مجرد إشارات، على الطريق. وستزيد المختارات التي نقدمها من معرفة القارىء العربي بالمناضل القومي الجليل. ولكن الرجل، لن يعرف جيداً، حتى تنشر كل أعماله، وحتى يقوم المؤرخون بدراسات كتاباته التاريخية، والمنظرون القوميون أطروحاته القومية، والمفسرون تفسيره، والساسة والمفكرون السياسيون نهجه السياسي، والمربون نشاطاته وأفكاره التربوية.

من ينشر كتبه المنشورة وغير المنشورة؟

لم يقدم أحد حتى الآن على نشرها، إلا في حدود ضيقة. لأن المذكرات التي خلفها، والتي اقترح أن تكون ثلاثة وعشرين جزءاً، لم ينشر منها إلا جزءان، ولذلك اقترحنا أن تتكون لجنة من مريديه، ومن مناصري فكره القومي، تتولى جمع الأموال اللازمة لنشر مؤلفاته، والإشراف على جمعها وتدقيقها وطبعها. ونأمل أن يعلن تكوين هذه اللجنة، قبل الاحتفال بذكرى ولادته المئوية، في حزيران/ يونيو من سنة ١٩٨٧.

على كل حال: إن هذه المختارات، ستسد ثغرة، ولكنها لن تحل مشكلة التعرف على الرجل الكبير، وتجربته القومية الكبيرة.

هوامش المدخل

(١) حسين عمر حمادة، **محمد عزة دروزة،** سلسلة احياء التراث الثقافي الفلسطيني (بيروت: اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين؛ دار قتيبة، ١٩٨٢)، ط ٢ (دمشق، ١٩٨٣).

(٢) محمد عزة دروزة، **مائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ - ١٤٠٤ و١٨٨٧ - ١٩٨٤** (الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار والمركز الجغرافي الفلسطيني، ١٩٨٥)، وقد صدر الجزء الثاني سنة ١٩٨٥.

(٣) أعادت المكتبة العصرية طباعة كتاب **تاريخ الجنس العربي، والعرب والعروبة في حقبة التغلب التركي،** ونشرت دار الجليل كتاب: **المرأة في القرآن والسنّة،** عام ١٩٨٥.

(٤) علي ناصر الدين (١٨٨٨ - ٢٩/ ٤/ ١٩٧٤): مناضل قومي، ولد في قرية بمريم، قرب حمانا، والده محمود ناصر الدين، درس في الكلية العثمانية في بيروت لصاحبها أحمد عباس الأزهري. غادر سنة ١٩١٢ إلى باريس، وانتقل منها إلى إفريقيا. عاد مع إعلان الثورة العربية لتحرير الوطن، واعتقله الفرنسيون بعد احتلال لبنان ونقل إلى أرواد. أصدر صحيفة المنبر سنة ١٩٢٢، فأغلقت قبل أن تكمل عامها الأول. نفي إلى فلسطين سنة ١٩٢٤، حيث ظل إلى سنة ١٩٢٨، وهناك كتب في جريدة الكرمل المعادية للصهيونية. عاد إلى لبنان، ثم نفي إلى فلسطين ثانية.

شارك سنة ١٩٣١ في المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس، وفي الدعوة للمؤتمر القومي العربي. اعتقله الفرنسيون سنة ١٩٣٩، وظل مسجوناً إلى سنة ١٩٤٣. أسهم سنة ١٩٤٧ في إنشاء جيش الانقاذ، وأسهم في معارك عديدة في فلسطين، ولكنه، بعد ١٩٤٨، أصيب بمرض مقعد. أنشأ سنة ١٩٥٥ دار الحكمة ليعيد كتابة التاريخ العربي، ولكن المرض منعه من مزاولة العمل. وكان قد أنشأ، بعد الاحتلال الفرنسي عصبة تكريم الشهداء التي ما زالت موجودة.

من كتبه: **قضية العرب** (صدر ثلاث مرات ١٩٤٦، ١٩٥٥ و١٩٦٣)، **وهكذا كنا نكتب** (١٩٥٢)، وهو يضم مجموعة من مقالاته المنشورة بين ١٩٢٤ - ١٩٤٦. وله كتب وكراسات أخرى وترجمات. عرف بالتزامه القومي وترفعه الخلقي. انظر: عصبة تكريم الشهداء، **المجاهد علي ناصر الدين: صفحة مشرقة من التاريخ القومي العربي الحديث.**

(٥) أخبرنا زهير دروزة، ابن المترجم له، ان رسالتين كتبتا في جامعة الأزهر حول تفسيره القرآن، ولكنا لم نطلع عليهما.

(٦) عبد الغني العريسي وفؤاد حنتس، في: **المفيد،** ١١/ ١١/ ١٩١١، و ٢٩/ ١١/ ١٩١١. وفي عدد ١١/ ١١، حديث عن «شاب من شباب نابلس، يحق لكل عربي متنور أن يفخر بمثله، كيف وهو ذلك الشاب المفكر عزة دروزة الذي يسعى سعياً حثيثاً لإحياء اللغة العربية، وبث روح الوطنية، وينبه الشبيبة للعلم، ويحرض كبار القوم لافتتاح المعاهد العلمية...». ويشير كاتب المقالة إلى أن «محمد عزة دروزة، جمع بعض متنوري التلامذة النابلسيين» ومثلوا «رواية وفاء العرب الشهيرة» ويضيف: «وقد أثرت كلمات وأفعال ذلك الفتى الغيور المتثبت في نفوس بعض متنوري كبار قومه، فنهضوا وشكلوا جمعية وطنية لتقوم بالمشاريع الخيرية، وصمموا على افتتاح مدرسة أهلية راقية...». وجاء في عدد ٢٩/ ١١: ان المنتدى الأدبي في الأستانة الذي كان مركزاً من المراكز القومية، قد قرّر توحيد التعليم في البلاد العربية، ومنها نابلس، من أجل هذا الغرض. وكان انشاء اللجان العلمية، ضمن هذا الاطار. ويشير الأستاذ دروزة في مذكراته أنه لا يذكر ذلك. انظر: دروزة، **مائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات،** ١٣٠٥ - ١٤٠٤ و ١٨٨٧ - ١٩٨٤، ص ١٨٤ - ١٨٥. ويشير الأستاذ دروزة إلى الحصول على رخصة المدرسة، سنة ١٩١٠ (المصدر نفسه، ص ١٨٣)، كما يتحدث عن إنشاء الجمعية وعن تمثيل الرواية التي يظن أنها رواية السجين (ص ١٨٤)، وربما كانت مسرحية أخرى غير التي كتبت عنها **المفيد.** وقد يكون

الأستاذ دروزة نسي التاريخ والرواية، لأن خبر المفيد منشور سنة ١٩١١، وليس سنة ١٩١٠، كما جاء في المذكرات.

(٧) دروزة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٧. ويشير الأستاذ دروزة أنه كتب برقية نابلس للمؤتمر العربي الأول، ولكن أشير عليه ألاّ يضع اسمه فيها لأنه موظف حكومة. يقول في المذكرات: «وكانت برقية نابلس موقعة بتوقيع رفاقنا الأربعة. وأنا الذي كتبتها وأسجل هذا للواقع. وقد ألحوا علي بعدم توقيعها، لأني كنت موظفاً». (ص ٢٠٣).

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

(١٠) عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ط ٩ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥)، ص ١٠٤. انعقد المؤتمر الأول في ٢٧/ ١ ـ ١٠/ ٢/ ١٩١٩. ضم المؤتمر ٢٧ مندوباً وجاء في تقرير دائرة الاستخبارات البريطانية أن ١٢ منهم كانوا من انصار الوحدة العربية، وكان أبرزهم السيدان عزة دروزة ويوسف العيسى. المصدر نفسه، ص ١٠٤ ـ ١٠٥. انظر أيضاً لمحمد عزة دروزة: القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات (صيدا: المكتبة العصرية، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠)، ص ٣٥ ـ ٣٦، ومائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ ـ ١٤٠٤ و١٨٨٧ ـ ١٩٨٤، ج ٢، ص ٣٥ ـ ٣٧، وص ٤١ حول الاتجاه القومي في المؤتمر المشار إليه أعلاه.

(١١) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٠، ط ٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢)، انظر حول المؤتمر السوري، ص ١٠٤ ـ ١٥٧، ونص الدستور، ص ٢٩١.

(١٢) جاء ذلك في النبذة التي كتبها عن نفسه، والتي أشرنا إلى أننا سنعتمد عليها (ص ٦)، كما في: حمادة محمد عزة دروزة، ص ٢١، ودروزة، مائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ ـ ١٤٠٤ و ١٨٨٧ ـ ١٩٨٤، ج ٢، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(١٣) حول حكم الإعدام، انظر: النبذة التي أشرنا إليها (ص ١٢)،وحمادة، المصدر نفسه، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(١٤) حول المؤتمر الإسلامي، انظر: دروزة، المصدر نفسه، ص ٧٩ ـ ٨٦؛ الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢، وناجي علوش، المقاومة العربية في فلسطين، ١٩١٧ ـ ١٩٤٨، ط ٣ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٥)، ص ٥٧.

(١٥) حول المؤتمر العربي، انظر: دروزة، المصدر نفسه، ص ٨٧ ـ ٨٩؛ الكيالي، المصدر نفسه، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤، وعلوش، المصدر نفسه، ص ٥٩.

(١٦) حول حزب الاستقلال، انظر: دروزة، المصدر نفسه، ص ١٠٣ ـ ١١٠؛ الكيالي، المصدر نفسه، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٨، وعلوش، المصدر نفسه، ص ٦٢.

(١٧) حمادة، محمد عزة دروزة، ص ٢٨.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٢٩.

(١٩) حول مؤتمر بلودان، انظر: دروزة، مائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ ـ ١٤٠٤ و١٨٨٧ ـ ١٩٨٤، ص ١٨٣ ـ ١٨٥، والكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧.

(٢٠) حمادة، المصدر نفسه، ص ٢٩ ـ ٤٠.

(٢١) الحقيقة: أسسها أحمد عباس الأزهري، وصدرت في ٦ شباط ١٩٠٩. انظر: فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج ٤، ص ١٠.

(٢٢) الاخاء العثماني: أصدرها محمد شاكر الطيبي في ١٩/ ٨/ ١٩١١. انظر: المصدر نفسه، ص ١٢.

(٢٣) الكشاف: مديرها المسؤول محمود أحمد العيتاني. أصدرها مقر الكشاف العام في بيروت. وهي مجلة شهرية مصورة، سنتها عشرة أشهر.

(٢٤) المرأة الجديدة.

(٢٥) القاهرة.

(٢٦) **الجامعة العربية**: يومية، صاحبها ومحررها منيف الحسيني، صدرت في ٢٠/ ١/ ١٩٢٧. كانت جريدة الحزب العربي. انظر: يوسف خوري، **الصحافة العربية في فلسطين، ١٨٧٦ ـ ١٩٤٨** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية؛ اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين)، ص ٥٨.

(٢٧) **العرب**: أسبوعية صدرت في ٢٧/ ٨/ ١٩٣٢، صاحبها ومحررها عجاج نويهض، كانت لسان حال حزب الاستقلال، وتوقفت سنة ١٩٣٤. انظر: المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٢٨) الفونس ماري لوي دي لامارتين (١٧٩٠ ـ ١٨٦٩): شاعر وروائي فرنسي، اشتغل بالسياسة، نشر سنة ١٨٢٠ أول ديوان له بعنوان «خواطر شعرية». كان معتدلاً يؤمن بمبادىء الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والسلام العالمي ولم ينتسب إلى حزب. صار رئيساً للحكومة المؤقتة. نافس نابليون الثالث ثلاث مرات على رئاسة الجمهورية ففشل، وقرر اعتزال السياسة. من آثاره **اعترافات** (١٨٤٩).

(٢٩) جبرائيل كمبايره COMPAYREG (١٨٤٣ ـ ١٩١٣): ولد في مدينة آلبي في فرنسا. دخل دار المعلمين العالية وصار معلماً للفلسفة في المدارس الثانوية ومعلماً للتربية في مدارس المعلمين والمعلمات. ثم عيّن مدرساً لتاريخ التربية في جامعة تولوز. ترك التعليم سنة ١٨٨١ واشتغل بالسياسة. فاز مرتين في الانتخابات ولكنه فشل في المرة الثالثة سنة ١٨١٩، فعاد لعمله، وصار مديراً للمعارف، ثم مفتشاً عاماً للمدارس الثانوية حتى سنة ١٩١٣. من مؤلفاته: **تاريخ المذاهب التربوية في فرنسا** (١٨٧٩)؛ **تطور الطفل العقلي والخلقي**؛ **فن التربية**؛ **أصول التدريس**؛ **علم النفس**؛ **تاريخ التربية**، و**أصول إدارة المدارس**. ويشير أبو خلدون (ساطع الحصري) في مقدمة الكتاب، إلى أن الكتاب ترجم «بشيء من التصرف». انظر: جبرائيل كمبايره، **القسم النظري من كتاب دروس في فن التربية**، نقله عن الفرنسية بشيء من التصرف محمد عزة دروزة (نشر محلقاً بمجلة التربية والتعليم (١٩٢٨)، ص (أ) و (ب)).

(٣٠) أرنولد توماس (١٨٦٤ ـ ١٩٣٠): مستشرق بريطاني، درس في كمبردج وعمل أستاذاً للفلسفة بجامعة عليكرة في الهند. أول أستاذ في قسم الدراسات الشرقية بلندن. تتسم كتاباته عن تاريخ الإسلام بالحياد والانصاف. من كتبه: **دعوة الإسلام** (١٨٩٦). انظر: محمد شفيق غربال، **الموسوعة العربية الميسرة** (دار الشعب؛ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٥)، ص ١٢٥.

(٣١) ـ عمر حمد (١٨٩٣ ـ ١٩١٦): من شهداء الحركة القومية. أصله من مصر، ولد في بيروت، ودرس في الكلية الإسلامية. عمل ضابطاً في الجيش العثماني وفرّ مع العريسي والشهابي. ألقي القبض عليه في مدائن صالح، وأعدم في السادس من أيار ١٩١٦. له ديوان شعر، ومقالات صحفية. انظر: غربال، المصدر نفسه، ص ١٢٣٧، وأدهم الجندي، **شهداء الحرب العالمية الكبرى** (دمشق: مطبعة العروبة، ١٩٦٠)، ص ١١٥ ـ ١١٧.

ـ عبدالغني العريسي (١٨٩١ ـ ١٩١٦): مناضل قومي. ولد في بيروت، ودرس في الكلية الإسلامية، ثم ذهب إلى فرنسا لاستكمال دراسته (١٩١٢ ـ ١٩١٣)، أصدر المفيد (١٩٠٩ ـ ١٩١٥) مع فؤاد حنتس، ثم عارف الشهابي. كان من قادة العربية الفتاة، ومن أبرز المشاركين في المؤتمر العربي (١٩١٣) في باريس. ألقي القبض عليه أعدم سنة ١٩١٦. انظر: غربال، المصدر نفسه، ص ١٢١٠؛ عبد الغني العريسي، **مختارات المفيد**، جمعها وقدم لها ناجي علوش (بيروت: دار الطليعة)، والجندي، المصدر نفسه، ص ١١٨ ـ ١٢٠.

ـ عارف الشهابي (١٨٨٩ ـ ١٩١٦): مناضل قومي. ولد في حاصبيا، ودرس في دمشق والآستانة. احترف المحاماة. من مؤسسي العربية الفتاة وقادتها. اشترك مع عبد الغني العريسي في إصدار **المفيد**، بعد وفاة فؤاد حنتس. ألقي القبض عليه مع عمر حمد والعريسي في مدائن صالح وأعدم في ٦ أيار سنة ١٩١٦. انظر: غربال، المصدر نفسه، ص ١٠٩٧، والجندي، المصدر نفسه، ص ١٢١ ـ ١٢٥.

(٣٢) صلاح القاسمي (١٣٠٥ هـ ـ ١٣٣٤، ١٨٨٧ ـ ١٩١٦): ولد بدمشق، وتربى في كنف أخيه العلامة جمال الدين القاسمي. أسهم في تأسيس جمعية النهضة العربية، وكان أمين سرها. درس الطب وسافر إلى الحجاز، وتوفي في الطائف سنة ١٩١٦ قبل إعلان الشريف حسين الثورة.

(٣٣) حمادة، محمد عزة دروزة، ص ٤٧، ودروزة، مائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ - ١٤٠٤ و١٨٨٧ - ١٩٨٤، ص ١٤٢ و١٨٨.

(٣٤) حمادة، المصدر نفسه، ص ٤٨.

(٣٥) دروزة، المصدر نفسه، ص ١٩١.

(٣٦) حمادة، المصدر نفسه، ص ٥٠. وكان يرى ضرورة أن يكون «للتربية الأخلاقية والاجتماعية والتنظيمية والروحية حيز كبير في المناهج والتنظيمات المدرسية». انظر: محمد عزة دروزة، مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية (دمشق: دار اليقظة العربية، ١٩٥٢)، ص ١٣.

(٣٧) النبذة التي كتبها عن نفسه (ص ٢٣)، وحمادة، المصدر نفسه، ص ٥١.

(٣٨) وليام د. كليفلاند، ساطع الحصري: من الفكرة العثمانية إلى العروبة، تعريب فكتور سحاب (بيروت: دار الوحدة، ١٩٨٣)، ونعيم عطية، «معالم الفكر التربوي في البلاد العربية في المئة سنة الأخيرة،» ورقة قدّمت إلى: الجامعة الأميركية في بيروت، هيئة الدراسات العربية، الفكر العربي في مائة سنة، بحوث مؤتمر هيئة الدراسات العربية، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٦، منشورات العيد المئوي (بيروت: الجامعة، ١٩٦٧)، ص ٣٩٧ - ٥٦٧. وفي البحث اهتمام بساطع الحصري تربوياً.

(٣٩) كليفلاند، المصدر نفسه، ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٤٠) زكي الأرسوزي، المؤلفات الكاملة، مج ١ (١٩٧٢)، ص ٢٢١ - ٢٢٢، وسليم ناصر بركات، الفكر القومي وأسسه الفلسفية عند زكي الأرسوزي، ط ٣ (١٩٨٤)، ص ٢٠٦.

(٤١) علي ناصر الدين، قضية العرب، ط ٣ (بيروت: منشورات عويدات، ١٩٦٣)، ص ٥١.

(٤٢) محمد فريد أبو حديد، أمتنا العربية (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥)، ص ٣٨ - ٣٩.

(٤٣) درويش المقدادي، تاريخ الأمة العربية، ط ٣ (بغداد: مطبعة المعارف، ١٣٥٣هـ)، ص ٨ - ٩.

(٤٤) محمد عزة دروزة: دروس التاريخ العربي من أقدم الأزمنة إلى الآن، ط ٥ (حيفا: المكتبة الوطنية العربية، ١٣٥٣هـ)، ص ١ - ١٢؛ مختصر تاريخ العرب والإسلام، ٢ ج (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٩٢٣)، ج ١، ص ١٧ - ١٨؛ الوحدة العربية (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٧)، ص ٣٠ - ٣١، ونشأة الحركة العربية الحديثة (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، ١٩٧١)، ص ٢٠ - ٢١.

ملاحظة: اكتشفنا، خلال المراجعة، ان الأستاذ محمود كامل المحامي، قد تناول علاقة العرب بالأقوام «السامية» في كتابه: الدولة العربية الكبرى، ط ٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٦)، وقد تناول الموضوع في مقال له نشر سنة ١٩٤٥. ويقدم الأستاذ محمود آراء العديد من المؤرخين الأجانب بهذه القضية، كما فعل الأستاذ محمد عزة دروزة.

(٤٥) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام (بيروت: المكتبة الأهلية).

(٤٦) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٩ ج (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨ - ١٩٧١)، ج ١.

(٤٧) حمادة، محمد عزة دروزة، ص ١٥ - ٤٦.

(٤٨) أشرنا إلى ذلك في مكان سابق.

(٤٩) دروزة، الوحدة العربية، ص ٥٥٣، وكان قد انتقد ضعف التنظيم أكثر من مرة (ص ٣٩٧ و٣٨٣). يمكن أيضاً مراجعة كتابه: مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ص ٨٤.

(٥٠) حمادة، المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٥١) محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، ٦ ج (صيدا: المطبعة العصرية، ١٩٥٩)، ج ١، ص ٩.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٧، ودروزة: نشأة الحركة العربية الحديثة، ص ٢٠، و الوحدة العربية، ص ٢٦.

(٥٣) دروزة، تاريخ الجنس العربي، ص ١١ - ١٢.

(٥٤) المصدر نفسه، هامش ص ١٣ .

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٦ .

(٥٦) دروزة، **دروس التاريخ العربي من أقدم الأزمنة إلى الآن**، ص ٤ .

(٥٧) دروزة: **تاريخ الجنس العربي**، ص ٢٠ ، **ومختصر تاريخ العرب والإسلام**، ص ١٧ .

(٥٨) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٤٣ .

(٥٩) دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة**، ص ٢٦ .

(٦٠) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ١٤٤ .

(٦١) دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة**، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٦٢) دروزة، **تاريخ الجنس العربي**، ص ٨ .

(٦٣) عبد العزيز الدوري، **التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤)، ص ١٦ ـ ١٧ .

(٦٤) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ١٣ .

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٥٨ .

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٢٦ .

(٦٧) المصدر نفسه، ص ٣٠ .

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٤٧ .

(٦٩) لم تتوافر للأستاذ محمد عزة دروزة الكتب التي صدرت باللغات الأجنبية، وخاصة الألمانية والإنكليزية والفرنسية. لأنه لا يقرأ الإنكليزية والألمانية، ومع أنه يقرأ الفرنسية، فإنه لم يشر إلى مراجع في هذا المجال. ثم أن الكتب التي ترجمت في السنوات العشر الأخيرة، لم تثبت بين مراجعه.

(٧٠) حول اللغات السامية، انظر: رمضان عبد التواب، **فصول في فقه اللغة العربية** (القاهرة: مكتبة الخانجي؛ الرياض: دار الرفاعي، ١٩٨٣)، ص ٣٨ ـ ٦٣ .

(٧١) جوزيف ستالين، **الماركسية والمسألة القومية**.

(٧٢) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٢٦ .

(٧٣) المصدر نفسه، ص ١٤٤ ، ودروزة، **مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية**، ص ١٤ .

(٧٤) دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة**، ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٧٦) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٢٦ .

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٤٣ ـ ٤٤ ، ودروزة، **مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية**، ص ١٤ .

(٧٨) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٥٠ ـ ٥٧ ، والهامش ص ٥٢ . ويجدر بنا أن نقرأ مقال الأستاذ محمد عزة دروزة حول العامية والفصحى في: **الزهراء** (لمنشئها محب الدين الخطيب)، مج ٣ (١٣٤٥ هـ)، ص ١١٦ ـ ١٢٣ .

(٧٩) دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٥٨ ـ ٧٤ ، والهامش ص ٥٨ .

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٧٦ ـ ٨٣ .

(٨١) المصدر نفسه، ص ٨٤ ـ ٨٨ .

(٨٢) دروزة، **تاريخ الجنس العربي**، ج ١ ، ص ١٧ .

(٨٣) دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة**، ص ٣٩ ـ ٥٥ .

(٨٤) دروزة، **مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية**، ص ٦٣ .

(٨٥) دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، هامش ص ٣٩.
(٨٦) دروزة، مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ص ٦٤.
(٨٧) دروزة، الوحدة العربية، ص ٩٠ - ٩٧.
(٨٨) المصدر نفسه، ص ٩٨ - ١٠١.
(٨٩) المصدر نفسه، ص ١٠٢ - ١١٠.
(٩٠) المصدر نفسه، ص ١١١ - ١١٥، والاقتباس ص ١١٢.
(٩١) المصدر نفسه، ص ١٥٤ - ٣٣١، ومنذر معاليقي، «محمد عزة دروزة في صراع العرب والأتراك، ومن خلال كتابه: نشأة الحركة العربية الحديثة،» الكاتب العربي، السنة ٤، العدد ١٣ (١٩٨٥)، ص ٧٥ - ٨٤.
(٩٢) دروزة، المصدر نفسه، ص ٣٤١ - ٤٠٢.
(٩٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٦ - ٥٤٥.
(٩٤) المصدر نفسه، ص ٥٥٠ - ٥٦٢، والاقتباس ص ٥٥٣.
(٩٥) دروزة، مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ص ٢٦.
(٩٦) دروزة، الوحدة العربية، ص ٥٥٨.
(٩٧) المصدر نفسه، ص ٥٥٨، والاقتباس ص ٥٦٢.
(٩٨) المصدر نفسه، ص ٥٦٣.
(٩٩) المصدر نفسه، ص ٥٦٣.
(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٥٦٤.
(١٠١) المصدر نفسه، ص ٥٦٤.
(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٥٦٥.
(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٥٦٨.
(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٥٧٠. وكان نديم البيطار قد حاول استخلاص قوانين الوحدة في التاريخ، انظر: نديم البيطار، من التجزئة. . . . إلى الوحدة: القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٧٩).
(١٠٥) دروزة، المصدر نفسه، ص ٥٧١.
(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٥٨٠.
(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٥٩٩.
(١٠٨) المصدر نفسه، ص ٦٠٠.
(١٠٩) المصدر نفسه، ص ٦٠٢.
(١١٠) المصدر نفسه.
(١١١) محمد عزة دروزة، مخطوط بعنوان الجزء الواحد والعشرون من المذكرات أو «في سبيل القضية الفلسطينية والوحدة العربية ومن وحي النكبة وفي سبيل معالجتها»، مج ٢، ص ١١.
(١١٢) المصدر نفسه، مج ٢، حول مقاطعة شكري القوتلي، ص ٥، واتحاد سورية - العراق، وسورية - مصر، ص ١ - ٢٥.
(١١٣) دروزة، مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ص ١٥٥.
(١١٤) المصدر نفسه، ص ١٦٥.
(١١٥) المصدر نفسه، ص ١٦٣.
(١١٦) المصدر نفسه، ص ١٦٤.
(١١٧) دروزة، الوحدة العربية، ص ٦٢٣.
(١١٨) دروزة، مشاكل العالم العربي: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ص ١٦٤.

(١١٩) المصدر نفسه، ص ١٦٥ .

(١٢٠) المصدر نفسه، ص ١٦٤ .

(١٢١) المصدر نفسه، ص ١٤٨ .

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ٤٩ .

(١٢٣) دروزة، **مائة عام فلسطينية: مذكرات وتسجيلات، ١٣٠٥ ـ ١٤٠٤ و١٨٨٧ ـ ١٩٨٤ .**

(١٢٤) محمد عزة دروزة، «قصة غزو فلسطين: من قبل بني إسرائيل واليهود قديماً وحديثاً،» **مجلة الوعي الإسلامي**، العدد ٦٧ (١٣٩٠هـ)، الملحق ص ٣٣ .

(١٢٥) دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات**، ج ١، ص ٢٣ .

(١٢٦) المصدر نفسه، ص ٢٥ .

(١٢٧) محمد عزة دروزة، **في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية ومن وحي النكبة ولأجل معالجتها: رسائل ومقالات وبحوث ومقابلات وتعقيبات، بيروت، ١٩٤٨ ـ ١٩٧٢** (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧٣).

(١٢٨) المصدر نفسه.

(١٢٩) دروزة، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها: تاريخ ومذكرات وتعليقات**، ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(١٣٠) المصدر نفسه، ص ٣٠٩.

(١٣١) المصدر نفسه، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

(١٣٢) دروزة، النبذة التي أشرنا إليها سابقاً، (ص ٢٢)، والمصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٨ .

(١٣٣) دروزة، **في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية ومن وحي النكبة ولأجل معالجتها: رسائل ومقالات وبحوث ومقابلات وتعقيبات، بيروت، ١٩٤٨ ـ ١٩٧٢**، ص ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٣، و ٢٨٤ .

القِسمُ الأوّل
نحوَ رُؤيةٍ قوميّةٍ للتاريخ العربيّ

هذا الكتاب

صدر هذا الكتاب **دروس التاريخ العربي، من أقدم الأزمنة حتى الآن** سنة ١٩٣٢. ويشير ثبت مؤلفات مؤلفه الذي حصلنا عليه من ابنه الأستاذ زهير، أن الطبعة الأولى أصدرتها المطبعة السلفية في القاهرة.

ولقد طبع هذا الكتاب عشر مرات، آخرها سنة ١٩٣٩ بمطبعة الترقي والناشر مكتبة عرفة بدمشق. ويشير ثبت المراجع إلى أن الكتاب طبع بدار الأيتام الإسلامية في القدس.

وأمّا النسخة التي اعتمدناها، فقد سجّل في أعلى صفحتها الثانية، أنها طبعت خمس طبعات:

الطبعة الأولى	١٣٤٨ هـ
الطبعة الثانية	١٣٥٠ هـ
الطبعة الثالثة	١٣٥٢ هـ
الطبعة الرابعة	١٣٥٣ هـ
الطبعة الخامسة	١٣٥٣ هـ

وهذه الطبعة طبعت بمطبعة الصداقة بدمشق، وأصدرتها المكتبة الوطنية بحيفا، لصاحبها محمود عيسى الصفدي وشركاه. ولقد سجّل في صفحتها الأولى أنها «طبعة متقنة ومصححة».

وعلمت من الأستاذ زهير دروزة أن الكتاب لم تدخل عليه تعديلات، إلاّ السطر الذي حذف في الطبعة المخصصة للعراق ص (٢١٠)، وقد أجرينا التصحيح الملائم في هذا السطر، لأن المؤلف اعتمد تصحيحه.

(المحرر)

الفَصْــلُ الأوّل

« دُروسُ التَاريْخ العَـرَبي من أقـدَم الأزمِنَة حَتى الآنَ[٧] »

(النَصُّ الـكَامِل)

دروس التاريخ العربي

من أقدم الأزمنة إلى الآن

مرتب بأسلوب فني حديث

«فيه كثير من القصص»

«ومزين بعدد عظيم من الصور والخرائط»

مؤلفه

محمد عزة دروزة

الطبعة الأولى سنة ١٣٤٨
الطبعة الثانية سنة ١٣٥٠
الطبعة الثالثة سنة ١٣٥٢
الطبعة الرابعة سنة ١٣٥٣

(الطبعة الخامسة)
طبعت بنفقة
المكتبة الوطنية العربية بحيفا
(لصاحبها)
محمود يوسف عيسى الصفدي وشركاه
صندوق البريد (٨٣٣) تلفون (٦٧١)
(وهي طبعة متقنة ومصححة)
ثمن النسخة ١٢٠ ملا فلسطينياً

«مطبعة الصداقة بدمشق»

أهم مصادر الكتاب

تاريخ ابن الأثير	
تاريخ أبي الفداء	
الأغاني	
تاريخ العرب قبل الإسلام	لجرجي زيدان
مصر قبل الفتح العثماني وبعده	للاسكندراني
أشهر مشاهير الإسلام	للعظم
حياة صلاح الدين	
تاريخ عمرو بن العاص	
محاضرات الخضرى	تاريخ الدول الإسلامية
محمد علي باشا	للأيوبي
تاريخ فلسطين	لطوطح والبرغوثي

«بسم الله الرحمن الرحيم»
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي العربي العظيم

الفصل الأول
أصل الساميين وانتشارهم الأول ـ موطن العرب وتفرقهم قبل الإسلام

الدرس الأول
جزيرة العرب وسكنى الساميين فيها

ـ ١ ـ

انظر أيها الفتى إلى الخريطة التي تجدها أمامك!

تر شبه جزيرة كبيرة، من غربها البحر الأحمر ومن شرقها بحر الهند وخليج العجم، ومن جنوبها بحر الهند، وهي متصلة من شمالها ببلاد فلسطين وسوريا والعراق.

إن هذه القطعة الكبيرة من الأرض هي (جزيرة العرب). وهي في قارة آسيا في الجنوب الغربي منها. وهي الأرض التي سكن فيها العرب منذ الأزمنة القديمة، ولا يزالون يسكنون فيها إلى اليوم.

ـ ٢ ـ

لا بد أنك تتساءل عن المكان الأول الذي جاء منه السكان الأولون إلى هذه الجزيرة. إن بعض العلماء يقول انهم جاؤوا إليها من بلاد العراق. فما هو السبب الذي حملهم على ترك العراق والهجرة إلى هذه الجزيرة يا ترى؟ وهل من السهل أن يترك الإنسان وطنه ويذهب فيتوطن في بلاد أخرى؟

كلا. فإن الوطن عزيز جداً على الإنسان. فلا بد أن يكون حدث أمر مهم جعل هؤلاء الناس يتركون وطنهم ويأتون إلى هذا الوطن الجديد.

انظر إلى هذه الخريطة مرة ثانية تجد أن في العراق نهرين كبيرين. اسم أحدهما «دجلة»

واسم ثانيهما «الفرات». ولا بد أنك تعرف أن العيون والأنهار يكثر ماؤها في أيام الشتاء، وأحياناً يفيض على وجه الأرض. وهذا مشاهد في بلادنا، ومثل ما يقع عندنا يقع في كل محل طبعاً.

وقد فاض هذان النهران في الأزمنة القديمة فيضاناً عظيماً فحصل من هذا الفيضان طوفان أغرق أكثر الناس الذين كانوا في العراق، وقد خاف الذين لم يغرقوا أن يأتي عليهم طوفان ثان فيغرقهم، فرحل بعضهم إلى جزيرة العرب وحلوا فيها واتخذوها وطناً جديداً لهم.

فهؤلاء هم أصل سكان جزيرة العرب، ويعرفون في التاريخ باسم «الساميين» لأن اسم جدهم الأعلى «سام» ولبعض العلماء أقوال أخرى في أصل الساميين ستطلع عليها حينما تكبر وتقرأ الكتب التاريخية المفصلة.

- ٣ -

إن جزيرة العرب قريبة من خط الاستواء كما ترى في الخريطة، ولا بد أنك قرأت في دروس الجغرافية أن الطقس في خط الاستواء وما يقرب منه حار جداً لذلك كان طقس جزيرة العرب شديد الحرارة، قليل المطر، وفيها فوق ذلك صحارى رملية لا ينبت فيها زرع ولا شجر.

وأحسن المواقع فيها هو الساحل ولا سيما القسم الغربي الجنوبي منه لأنه جبلي ومرتفع، وأظن أنك تعرف أن طقس الجبل أبرد من طقس السهل وأكثر مطراً. فلما رحل الساميون ظلوا في رحلتهم إلى أن وصلوا إلى هذه المواقع فرأوها معتدلة الطقس نوعاً ما. فحلوا فيها وسموها «اليمن».

الدرس الثاني

انتشار الساميين الأول

- ١ -

إن الساميين حينما حلوا في جزيرة العرب لم يشتغلوا بالزراعة. وإنما عاشوا في أول أمرهم عيشة البدو.

أتدري كيف يعيش البدو؟ إن البدو لا يشتغلون في الغالب بزراعة ولا صناعة، ولا يسكنون في بيوت حجرية وإنما يعيشون في البادية. ينامون في بيوت مصنوعة من الشعر، ويعيشون من مواشيهم «أي غنمهم وجمالهم» يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويلبسون جلودها وصوفها. وينتقلون من مكان إلى مكان طلباً للماء والعشب. لأن مواشيهم تحتاج إلى مراع ترعى فيها. وفي أطراف بلادنا بدو يعيشون اليوم مثل هذه العيشة.

فالساميون عاشوا في جزيرة العرب في أول أمرهم كذلك. وكانت قبائلهم كما هي حالة البدو اليوم تنتقل من مكان إلى مكان، وتنصب خيامها في المكان الذي تجد فيه ماء وعشباً.

وتصعد في الصيف إلى الجبال أو تذهب إلى الأراضي المرتفعة طلباً للهواء البارد، وتنزل في الشتاء إلى السهول أو تذهب إلى الأراضي المنخفضة حيث يكون الطقس دافئاً.

ـ ٢ ـ

هل تظن أن أرضاً صغيرة تكفي لنزول قبائل بدوية متعددة؟

كلا! فإن كل قبيلة تحتاج إلى أرض واسعة يكفي عشبها وماؤها لجميع أفراد القبيلة ومواشيها. لذلك فإن قبائل الساميين حينما كثرت بالتناسل أخذ بعضها يتفرق عن بعض. لأن الأراضي التي كانت نزلت فيها أصبحت لا تسعها. وبمرور الزمن نسي أحفاد الساميين مصيبة الطوفان التي أصابت أجدادهم. فصار بعضهم يرحل من الجنوب إلى الشمال، ويصل في رحلته إلى جهات العراق والشام وفلسطين.

وقد رأى الراحلون أن هذه البلاد جميلة الموقع، معتدلة الطقس، وافرة العشب، كثيرة المياه فأحبوها، وفضلوها على بلادهم، وعزموا على البقاء فيها وعدم الرجوع إلى وطنهم «الجزيرة».

الدرس الثالث

تابع انتشار الساميين الأول

ـ ١ ـ

كانت بلاد العراق والشام التي جاء إليها بعض القبائل السامية مسكونة عامرة. لأن البلاد المعتدلة الطقس يسكنها الناس ويعمرونها قبل غيرها. فصار الساميون يختلطون بسكان هذه البلاد ويقلدونهم في عاداتهم وأعمالهم.

وهذا شيء طبيعي. فالبدوي ينام على الأرض والمدني ينام على السرير. والبدوي يجلس على الأرض والمدني يجلس على الكرسي والبدوي لا يعرف إلا اللحم والمرق واللبن والمدني يعرف أنواع المآكل والفواكه والخضراوات والحلويات. والبدوي يلبس لباساً بسيطاً ليس هو أكثر من قميص طويل فوقه عباءة، ومنديل ملفوف على رأسه كالعمامة أو مدلى على أذنيه ومربوط بحبل هو العقال، والمدني يلبس أنواع الملابس والثياب القطنية والصوفية والحريرية ملونة بالألوان الجميلة. والبدوي لا يزرع ولا يتاجر ولا يشتغل في الصناعات وإنما يقضي أوقاته بركوب الخيل وصيد الحيوانات، ولكن المدني يزرع ويتاجر ويشتغل في الصناعات. فلو جاء بدوي إلى المدينة وأراد أن يعيش فيها، فإنه يكون مضطراً إلى نسيان عادات البادية شيئاً فشيئاً وتعلم عادات أهل المدينة. ولجميع الأشياء الموجودة في المدينة وغير الموجودة في البادية أسماء. فالبدوي الذي يعيش في المدينة يأخذ بتعلم هذه الأسماء ويستعملها فتتغير لغته شيئاً فشيئاً.

- ٢ -

لقد حدث مثل هذا للساميين الذين استقروا في بلاد العراق والشام وفلسطين. فإنهم أخذوا ينسون عاداتهم شيئاً بعد شيء، ويقلدون السكان المتمدنين ويستعملون الأشياء الجديدة التي رأوها عندهم ويتعلمون أسماءها، وبذلك نشأت فروق بينهم وبين اخوانهم الذين فارقوهم في الجزيرة وبمرور الزمن صاروا أمماً جديدة وصار لهم في التاريخ أسماء جديدة أهمها:

البابليون والآشوريون والكلدانيون في العراق.

الفينيقيون والكنعانيون والآراميون والعبرانيون في سوريا وفلسطين.

أما القبائل التي بقيت في جزيرة العرب فإنها عرفت أخيراً باسم «العرب». وبما أن جميع هذه الأمم تفرعت عن الساميين الأصليين فإنها تسمى عند المؤرخين باسم «الأمم السامية».

- ٣ -

إن سكان بلاد فلسطين والعراق والشام ولبنان ومصر وتونس والجزائر ومراكش والسودان المصري واليمن ونجد والحجاز يتكلمون اليوم اللغة العربية. ولكن اللغة العامية في كل بلاد تختلف عن الأخرى بعض الاختلاف، فلو ذهبت اليوم إلى تونس، أو إلى مصر مثلاً، لصعب عليك فهم كلمات كثيرة ولرأيت اللهجة تختلف عن لهجتنا. ولكن بما أننا جميعاً نقرأ كتاباً كريماً واحداً وهو «القرآن» ونضبط لغتنا عليه، وعندنا مدارس وجرائد وكتب مكتوبة باللغة العربية الفصيحة، فإن ألفاظنا عربية في جميع هذه البلاد، ولا يلبث الإنسان أن يعتادها، ويتعلم ما كان جديداً فيها، ويفهم لهجتها.

ومثل هذا تقريباً لغات الأمم السامية، فقد وقع فيها بعض الاختلاف، غير أن اختلافها كان أكثر، لأنه لم يكن عندهم كتاب كريم مثل القرآن يقرأه الجميع ويضبطون لغتهم عليه، ولم يكن عندهم مدارس وجرائد وكتب مثل ما عندنا اليوم، بل لم يكونوا في بدء أمرهم يقرأون ويكتبون، على أن كثيراً من الألفاظ والأفعال متقارب جداً في اللغات العربية والعبرانية والآشورية والآرامية والكنعانية، والذي يعرف العبرانية أو السريانية يعرف هذا التقارب، ويجمعها جميعاً «اسم اللغات السامية»[1].

الدرس الرابع
موطن العرب وتفرقهم قبل الإسلام

- ١ -

لقد عرفت من الدرس الأول أن الجهات التي كان يمكن سكناها أكثر من غيرها في جزيرة العرب هي الجهات المرتفعة والجبلية أو سواحل البحر.

دقق نظرك الآن في الخريطة! تجد من هذه الجهات ما يوالي ساحل البحر الأحمر من جهته الجنوبية وهو المعروف ببلاد اليمن، ومنها ما يوالي ساحل البحر المذكور من جهته الشمالية، وهو المسمى بلاد «الحجاز وتهامة».

إن قبائل العرب التي استقرت في الجزيرة انتشرت في هذه الجهات في أول الأمر. وقد عرفت القبائل التي انتشرت وسكنت في القسم الشمالي بالقبائل «العدنانية» نسبة إلى جد قديم لها اسمه «عدنان» وقد عرفت القبائل التي انتشرت، وسكنت في القسم الجنوبي بالقبائل «القحطانية»، نسبة إلى جد قديم اسمه «قحطان».

- ٢ -

لو سألت أباك عن أصل القرى لأجابك انهم من البدو، أتريد أن تعرف كيف يصير البدوي قروياً؟ تأتي قبيلة من البدو فتنزل أرض ذات مياه وافرة وتربة قابلة للزراعة. فيسوقها الجوع أحياناً إلى زرع هذه الأرض فتزرعها. والزرع لا يحصد حالاً. وإنما يحتاج إلى عدة شهور فتستقر القبيلة قرب زرعها تحرسه، وتنتظر أوان حصاده، فلا تلبث أن ترى هذا العمل أكثر فائدة من رعي المواشي وصيد الحيوانات. لأن الزراعة إذا أغلت أعطت ربحاً كثيراً فتواظب على هذا العمل. ثم ترى أن المطر يزعجها في بيوت الشعر فتبني بيوتاً من الطين ثم من الحجارة فتتكون القرية.

هكذا صنع بعض القحطانيين. فإن اليمن كانت أغزر ماء وأحسن تربة من غيرها، فأخذوا يشتغلون في الزراعة ويبنون القرى ثم المدن. وهكذا أخذوا ينتقلون من البداوة إلى الحضارة.

- ٣ -

وقد قلت الأمطار في بعض السنين فقلت غلة الأرض. وكادوا يهلكون جوعاً، ففكروا في طريقة مفيدة لحفظ مياه المطر، وعدم ضياعها سدى، ليستفيدوا منها حينما تقل الأمطار. وكانت بلادهم جبلية. ويوجد أودية بين الجبال. فخطر لبالهم أن يبنوا جدارين بين كل جبلين متقاربين، فإذا جاء الشتاء، وسالت السيول من فوق الجبال، تجمعت مياهها في الوادي الذي يكون مسدوداً بالجدارين، وبقيت فيه إلى حين الحاجة. وكانوا يسمون هذا «سدا». وقد بنوا سدوداً كثيرة تخزن فيها مياه الأمطار والسيول العظيمة. وجعلوا في الجدران التي بنوها نوافذ متعددة ليفتحوها واحدة بعد واحدة، فتنزل منها المياه. وأشهر هذه السدود وأعظمها هو «سد مأرب» الذي كان مبنياً قرب إحدى مدن اليمن الكبرى المسماة «مأرب». وقد تحسنت زراعتهم بفضل هذه السدود، فأصبحوا في رغد ونعيم. مروجهم خضراء، وحدائقهم غناء، ومياههم وافرة.

الدرس الخامس

تابع موطن العرب وتفرقهم قبل الإسلام

- ١ -

إذا كان لك بيت أو حوض ماء وحصل فيه شيء من الخراب وأهملت تعميره حالاً فإن الخراب يزداد وحينئذ يصعب تعميره.

والسدود تحتاج إلى تعمير مستمر، لأن المياه تخرب بقوتها البناء وتحفر الأرض بانحدارها. وقد أهمل القحطانيون سدودهم وتهاونوا في تعمير ما يخرب فيها. فازداد الخراب يوماً بعد يوم وأصبحت لا تحفظ الماء لأنه كان يخرج من المحلات التي خربت. أما سد مأرب فقد خرب بعد ميلاد سيدنا عيسى بنحو (٤٠٠) سنة.

- ٢ -

لما أخذت السدود تخرب صار يحصل عند القحطانيين قحط وجوع في بعض السنين. وصار بعضهم يضطر إلى ترك بلاده، والبحث عن جهات أخرى أحسن طقساً، وأكثر ماء لئلا يموت جوعاً. ولا يرضى بالموت جوعاً إلا العاجز الكسلان. فصاروا يتوجهون إلى الأنحاء الشمالية، كما فعل أجدادهم الساميون من قبل. فرأوها جميلة الطقس، كثيرة المياه، خصبة التربة وأخذوا ينزلون فيها. غير أنهم في هذه المرة ظلوا على صلة بجزيرة العرب أكثر من الذين هاجروا قبلهم، فلم تتغير عاداتهم ولغتهم كثيراً وظلوا عرباً. ومع ذلك فإن لهم في التاريخ العربي أسماء يعرفون بها وهي:

اللخميون والكنديون	في العراق
الأنباط	في جهات البلقاء ومعان ومداين صالح
التدمريون	في جهات حلب وحماه وحمص
الغسانيون	في جهات الشام وحوران

الفصل الثاني
دولة سبأ وحمير ـ الأحباش والفرس في اليمن

الدرس السادس
دولة سبأ وحمير

ـ ١ ـ

لقد مر بك في الدرس الرابع أن القحطانيين بسبب قابلية بلادهم «اليمن»، انتقلوا من البداوة إلى الحضارة، وانهم بنوا السدود والقرى والمدن.

إنهم حينما كانوا بدواً يعيشون قبائل قبائل، كان لكل قبيلة أمير أو شيخ تطيع أوامره وتخضع لأحكامه، وتسير تحت قيادته ولوائه. وكان لكل بضع قبائل رئيس، هو شيخ المشايخ أو أمير الأمراء. فتطيع أوامره المشايخ وقبائلها، ويكون حكمه نافذاً فيها.

فلما انتقلوا من البداوة إلى الحضارة، وصاروا يسكنون في القرى والمدن، تبدلت عاداتهم البدوية، فصار لهم دول لها ملوك وحكام ومحاكم وجنود. وكان ملك الدولة يقيم في أكبر مدينة من المدن فتكون عاصمة للدولة. ويكون في المدن الأخرى حكام ينوبون عن الملك.

ـ ٢ ـ

من أقدم الدول التي أسسها القحطانيون في اليمن دولة تعرف في التاريخ باسم «دولة سبأ» لأن ملوكها كانوا يقيمون في مدينة عظيمة اسمها «سبأ».

وكان تأسيس هذه الدولة قبل سيدنا عيسى باحد عشر قرناً (القرن مائة سنة)، وقبل سيدنا محمد بسبعة عشر قرناً. وهذه الدولة هي التي اعتنت ببناء السدود، وتحسين أمور الزراعة في بلاد اليمن.

وكانت التجارة في زمن هذه الدولة رائجة، فكانت البضائع تنقل من بلاد الهند وبلاد الحبشة بحراً بواسطة المراكب اليمنية إلى موانىء بلاد اليمن، ثم ينقلها التجار على قوافل الجمال إلى مصر والشام والعراق.

وكان ملوك هذه الدولة محبين للعمران، فبنوا قصوراً عديدة، وزخرفوها، والذي يذهب اليوم إلى بلاد اليمن، يرى آثار هذه القصور وغيرها.

ومن ملوك هذه الدولة ملكة اسمها «بلقيس». وقد كان ملكها في عهد ملك النبي سليمان ملك اليهود في فلسطين. وقد كان سليمان ذا شهرة واسعة في الحكمة والعقل. وقد أراد أن يبني في القدس معبداً، فاحتاج إلى ذهب وفضة لتزيين المعبد. فقال له وزراؤه ان بلاد اليمن غنية، وفيها معادن للذهب والفضة، فأرسل سليمان يطلب من الملكة بلقيس مقداراً من الذهب والفضة. ولما سمعت الملكة بحكمته وقوته، أحبت أن تزوره، وأن تهدي إليه ما طلب من الذهب والفضة، وأن تعقد معه رابطة الصداقة. فجاءت إلى فلسطين بموكب عظيم، وحملت معها هدايا فاخرة. وقد استقبلها الملك «سليمان» بحفاوة كبيرة وأنزلها منزلاً رحباً. وهداها إلى عبادة الله، وكانت من قبل تعبد الشمس هي وقومها.

الدرس السابع
تابع دولة سبأ وحمير

- ١ -

إن دولة سبأ لم تبق قوية. فإن ملوكها وحكامها صاروا يرتكبون أغلاطاً كثيرة ويظلمون الأهالي. فصار الأهالي يكرهونهم، ويتمنون زوالهم، وضعفت الرابطة بينهم وبين الشعب. وكان بين القبائل التي تحكمها دولة سبأ قبيلة قوية اسمها قبيلة «حمير». وكان أميرها طموحاً إلى العلى. فلما رأى أن ملوك دولة سبأ وحكامها أصبحوا مكروهين ثار عليهم ليخلص البلاد من ظلمهم.

فالتفت حوله الناس وساعدوه فأسقط دولة سبأ. ونادى نفسه ملكاً، فصارت دولته تسمى الدولة «الحميرية». وقد كان تأسيس هذه الدولة قبل ميلاد سيدنا عيسى بنحو قرنين، وقبل سيدنا محمد بنحو ثمانية قرون.

- ٢ -

إن ملوك الدولة الحميرية كانوا في أول أمرهم ميالين إلى الحروب، فكانوا يهتمون لترتيب الجيوش، ويقودونها ويغزون بها البلاد الأخرى ويخضعونها لحكمهم، فعظم شأن دولتهم، وأصبحت أكثر أنحاء جزيرة العرب تابعة لهم.

وقد كان ملوك هذه الدولة ورعاياها يعبدون الأوثان، فجاء بعض اليهود إلى بلادهم

واطلعوا الملك «ذانواس» على ديانتهم، فأحبها، وفضلها على ديانته، فترك ديانته وصار يهودياً، فتبعه بعض القبائل وصاروا يهوداً مثله.

وفي أواخر عهد هذه الدولة خرب سد مأرب العظيم، وقد ظلت دولة حمير حاكمة في بلاد اليمن نحو سبعة قرون، ثم غزاها الأحباش، وأسقطوا حكمها. وسأحدثك بقصة ذلك في الدرس الآتي(٢).

الدرس الثامن
الأحباش والفرس في اليمن

- ١ -

أريد أن أحدثك في هذا الدرس بقصة «الأحباش» في بلاد اليمن، وكيف أسقطوا دولة حمير.

هل تعرف شيئاً عن الأحباش؟ إن لونهم أحمر. وهم يسكنون في قارة أفريقية. وبلادهم تمتد إلى ساحل البحر الأحمر مقابلة لبلاد اليمن. وكانت ديانتهم النصرانية.

لقد كان الأحباش يتاجرون مع أهل اليمن. فلما عرفوا أن بلاد اليمن غنية، أخذوا يطمعون فيها، ويحدثون أنفسهم بالاستيلاء عليها. وقد غزوها مراراً، ولكنهم لم يتمكنوا في أول الأمر من نيل مأربهم، لأن ملوك الدولة الحميرية كانوا أقوياء منتبهين.

وكان يوجد في بلاد اليمن جماعة من النصارى يعيشون فيها أحراراً، فلما صار ملوك حمير يهود، أخذ كهان اليهود يحرضونهم على قتل النصارى، أو طردهم من البلاد. فأخذ ملوك حمير يضايقون النصارى، ويشدون عليهم. فاستجار النصارى بالأحباش، لأنهم من بني دينهم. وقد اتفق أن وقعت فتن بين الحميريين. فاغتنم الأحباش الفرصة وغزوا بلاد اليمن. وانتصروا على الحميريين، واسقطوا دولتهم. وكان ذلك قبل سيدنا محمد بنحو مائة سنة، وبعد ميلاد سيدنا عيسى بنحو خمسمائة سنة.

- ٢ -

ومما ساعد الأحباش على الفوز أفيالهم. فإن بلادهم ملأى بالأفيال، وهي قوية جداً. وكان الأحباش كثيراً ما يصطادونها، فيقتلونها أحياناً، ويخلعون أنيابها ويبيعونها بثمن غال، لأنها من أحسن أنواع العظم، ويسمى بـ «العاج» وأحياناً يستبقونها ويدربونها على الحرب، ويركب المحاربون على ظهورها ويرشقون خصومهم بالنبال.

وقد اخذ الأحباش إلى بلاد اليمن جملة من الأفيال. فخافت منها خيل العرب وجمالهم ونفرت. فارتبك جيش الحميريين وانهزم.

- ٣ -

إن حكم الأحباش في بلاد اليمن دام نحو ستين عاماً. وصار لهم فيها ملوك، ومن أشهر ملوكهم فيها «أبرهة». وقد رأى هذا الملك العرب يحجون «الكعبة» في مكة ويقدسونها. فخاف أن يتفق أهل اليمن وأهل الحجاز على الأحباش. فأراد أن يفرق بينهم، ويمنع أهل اليمن من الذهاب إلى مكة في الحجاز. فبنى كنيسة كبيرة، ودعا أهل اليمن إلى اعتناق الدين المسيحي والحج إلى الكنيسة، بدلاً من الكعبة، فرفض العرب، وصاروا يضعون الأقذار في الكنيسة، كرها في الأحباش وملكهم. فعزم أبرهة على غزو بلاد الحجاز، وهدم الكعبة التي يقدسها العرب.

وقد جمع جيشاً كبيراً وقاده بنفسه. وأخذ معه عدة أفيال، ولكنه فشل في غزوته. إذ ابتلى الجيش بطاعون أهلك عدداً كبيراً منه، فاضطر أبرهة إلى الرجوع خائباً. وكانت غزوة أبرهة في العام الذي ولد فيه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ويوافق ذلك سنة (٥٧٠) من ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام.

ومن لطيف ما يروى أن الملك أبرهة أستأجر رجلاً من العرب اسمه «أبو رغال»، ليكون دليلاً للجيش على الطريق، فغضب العرب منه غضباً شديداً، لأنه خان أمته، وساعد عليها عدوها. وقد مات هذا الرجل قرب مكة، فرجم العرب قبره وصاروا يوصون أولادهم برجمه، ويقصون عليهم قصته. ولا يزال العرب يرجمون قبره إلى الآن، جزاء خيانته لبلاده وأمته، ومساعدته عدوها عليها.

الدرس التاسع

تابع الأحباش والفرس في اليمن

- ١ -

صعب على الحميريين أن يذهب ملكهم، ويستولي الأحباش الأجانب على وطنهم. فصاروا يغرسون في أولادهم كره الأحباش، وأمنية طردهم من البلاد.

ومما يروى، أنه كان في بلاد اليمن شاب من أمراء الحميريين، اسمه الأمير «سيف بن ذي يزن»، نشأ على كره الأحباش، وأمنية طردهم ونيل الحرية والاستقلال لبلاده. وكان له أصدقاء وانصار كثيرون. كانوا يجتمعون دائماً، ويفكرون في طريقة الخلاص من الأحباش وانقاذ الوطن. فلما انكسر جيش الأحباش في الحجاز، ورجع إلى اليمن مهزوماً خائباً، رأى الأمير ورفاقه أن الفرصة سانحة، لأن عدوهم قد ضعف. ولكنهم كان ينقصهم ضباط ماهرون، وسلاح مثل السيوف والحراب والأقواس والنبال والدروع والرماح. وقد كان بين الفرس والروم عداء. وكان الأحباش حلفاء للروم، لأنهم من بني دينهم، فقرر الأمير «سيف» وبعض رفاقه الذهاب

إلى بلاد الفرس وطلب مساعدة ملكهم، ليعطيهم ما يحتاجون إليه من السلاح والضباط، ثم تهيأوا للسفر سراً، وأخذوا من المال والجمال ما يكفيهم، وخرجوا خفية عن الأحباش.

- ٢ -

لما وصلوا إلى بلاد الفرس، رأوا ما أذهلهم من قوة الحكومة وعظمتها، فاعتقدوا أن ملك الفرس إذا ساعدهم استطاعوا أن يحققوا آمالهم، فذهبوا إلى قصره، وطلبوا مواجهته، وقصوا عليه قصتهم، ورجوه أن يساعدهم. فأبى في بادىء الأمر تلبية طلبهم، لأن بلاده بعيدة عن بلادهم.

وقد خرج الأمير ورفاقه من حضرة الملك مستائين. ففكروا في طريقة تجعل الناس يهتمون لأمرهم، فلبسوا أحسن ثيابهم، وتقلدوا سيوفهم، وألبسوا عبيدهم الثياب المزركشة، وأخذوا يمشون في الشوارع بهذا الموكب، ويلقون سبائك الذهب والفضة على الأرض.

فعجب الناس لأمرهم، وسألوهم عن سبب رميهم هذه السبائك الثمينة على الأرض فأجابوهم قائلين: وما قيمة هذه الأحجار؟ إن جبال بلادنا ملآنة بها وإننا جئنا نطلب من ملككم مساعدتنا على طرد الأحباش من بلادنا فأبى.

فاستعظم السامعون ثروة اليمن، ومالوا إلى مساعدتهم. وشاع الخبر بين الناس.

- ٣ -

وقد انتشر خبر الوفد العربي، وبلغ الملك ما يقوله الناس، فجمع وزراءه واستشارهم. فأشاروا عليه بإرسال جيش من المسجونين بقيادة بعض الضباط، فيكون قد خلص البلاد من المسجونين، وساعد وفداً استجار به. ففعل الملك بما أشاروا به عليه. ولما وصل جيش الفرس إلى بلاد اليمن، انضم إليه عدد كبير من أهل البلاد، وحاربوا الأحباش وانتصروا عليهم، وطردوهم من البلاد. وحينئذ انتخبوا الأمير سيف ملكاً عليهم.

وبعد مدة مات الملك سيف، وانقرض نسله، فاستبد الفرس في حكم بلاد اليمن بمساعدة جيشهم. وظلوا حكاماً فيها إلى أن بعث النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وقوي الاسلام، فسقط حكم الفرس عن اليمن، ودخل في الحكم الإسلامي العربي[٣].

الفصل الثالث
الدول العربية خارج الجزيرة
الأنباط ـ التدمريون ـ اللخميون ـ الغسانيون

الدرس العاشر
الأنباط

ـ ١ ـ

قرأنا في الدرس الخامس، أن بعض القبائل القحطانية أخذت تهاجر إلى الانحاء الشمالية بسبب الجوع والقحط وتستقر فيها. وإن من هذه القبائل من استقر في جهات «البلقاء ومداين صالح ومعان»، وصاروا يعرفون باسم «الأنباط».

وقد تحضر الأنباط تدريجياً، وبنوا المدن والقرى. ومن أهم المدن التي أنشأوها مدينة «بطرا» في وادي موسى، وهي بين «الكرك ومعان».

ولو تيسر لك الآن أن تزور هذه المدينة العربية، التي لا تزال آثارها باقية، لدهشت دهشة عظيمة. لأنك سترى آثار مدينة عجيبة من عجائب الدهر، منحوتة في الجبال ذات الطبقات الملونة بالألوان الصفراء والحمراء والزرقاء. شبابيكها وأبوابها وسلالمها من الحجر. وحينئذ تشهد أن الأنباط، وهم من أسلافك العرب، كانوا أصحاب همة عالية، وإرادة قوية.

ـ ٢ ـ

إن مدينة بطرا كانت على طريق القوافل التجارية التي تسير بين بلاد الشام والحجاز ومصر، وبسبب ذلك كثر سكانها، وعظمت ثروتها، وأصبحت مدينة تجارية مهمة.

وعلى نحو ما عرفت من تأسيس الدولة في اليمن، حينما انتقل أهلها من البداوة إلى الحضارة، أسس الأنباط دولة في بلادهم. وجعلوا مدينة بطرا عاصمة للملك، وتعرف بالتاريخ بـ «دولة الأنباط العربية». وذلك قبل ميلاد سيدنا عيسى بنحو أربعمائة سنة، وقبل سيدنا محمد بنحو ألف سنة.

وقد مر على هذه الدولة دور كانت فيه قوية عزيزة الجانب، ومن أشهر ملوكها الملك «الحارث الثالث»، اشتهر بالعدل والعقل وحسن التدبير. وقد جاء إليه أهل سوريا مستغيثين من ظلم اليونان الذين كانوا قد فتحوا بلادهم، فأرسل جيشاً استولى على مدينة «دمشق الشام»، وغيرها من المدن، وأعلن نفسه ملكاً عليها. كذلك فإن ملك اليهود في فلسطين، طلب منه المساعدة في حروب بينه وبين أعدائه في فلسطين، فساعده.

- ٣ -

إن الرومان فتحوا بلاد سوريا وفلسطين قبل سيدنا عيسى بنحو مائة سنة. ولا بد أنك قرأت ذلك في دروس السنة السابقة(*). وقد زار قواد الرومان مدينة بطرا فدهشوا من ثروتها وعمرانها، وطمعوا في الاستيلاء عليها. وقد أرسلوا الجيوش لفتحها، فكانت في بادىء الأمر ترتد عنها مقهورة. ولكن ملوك الأنباط تهاونوا أخيراً، وانهمكوا في الملذات، فاغتنم الرومانيون الفرصة، وتمكنوا من اسقاط الدولة العربية، والاستيلاء على بطرا وغيرها من بلاد الانباط، وجعلها تابعة لحكمهم وسموها (الولاية العربية). وظلت تحت حكمهم إلى أن جاء العرب المسلمون بعد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فاستولوا عليها، وأسقطوا حكم الرومان عنها.

ومن جميل ما يروى عن وطنية أهل بطرا وابائهم الذل والخضوع للأجانب، أنه لما حاصر القائد الروماني مدينتهم مرة، أرسلوا إليه يسألونه عما يبغي، فقال لهم: أريد ملك المدينة، وخضوعكم لحكم الرومان. فأجابوه: «إننا لن نقبل أن نكون عبيداً أذلاء. فإما أن ترحل عنا، وإما أن نخرب المدينة، ونحرق أموالنا ونقتل أولادنا ونساءنا، ثم نخرج خرجة الموت، ونظل نحاربك إلى أن نفنى، أو نفنيك ونفني جيشك. ولا نجعلك تظفر منا بشيء أحياء وأمواتاً» فاندهش القائد من جوابهم ووطنيتهم. واضطر إلى الرجوع عنهم، وتأجيل فتح المدينة إلى فرصة أخرى[٤].

الدرس الحادي عشر

التدمريون

- ١ -

إن بعض القبائل القحطانية استقر في جهات حلب وحماه وحمص. ثم تحضروا وبنوا قرى ومدناً مثل ما صنع الأنباط من قبلهم. وأهم مدينة كانت لهم هي مدينة «تدمر»، ولذلك يسمون في التاريخ باسم «التدمريين».

(*) ليس معروفاً إلى ما يشير هنا. فنحن لا نعرف له كتاباً آخر حول الموضوع. ربما كان يشير إلى الدراسة المدرسية العادية. (المحرّر)

ولو تيسر لك أن تزور هذه المدينة لأدهشك من عمرانها مثل ما يدهشك من عمران بطرا. غير أن تدمر ليست منحوتة في الجبل، وإنما هي مبنية بناء ولكن بناءها عظيم وضخم. فيها الأعمدة الرخامية الهائلة، وفيها الحجارة الضخمة. وعلى جدرانها نقوش جميلة. وكل ذلك يدل على القوة والمهارة.

وقد كان بعض العرب يظن أنها من بنايات الجن نظراً لضخامتها وفخامتها.

وها أنت ترى بقايا الرواق العظيم في تدمر، ومنها تستبين شيئاً من عظمة المدينة وعمرانها.

- ٢ -

كانت تدمر أيضاً في طريق القوافل التجارية. لذلك كانت غاصة بالسكان، ذات ثروة عظيمة، وحركة تجارية قوية، وكانت في بدء أمرها خاضعة لحكم الرومان، اثر استيلائهم على سوريا. وكان يتولى الحكم فيها شيوخ من العرب تحت حماية الرومان، وذلك بعد ميلاد سيدنا عيسى بنحو خمسين سنة، وقبل سيدنا محمد بنحو خمسمائة سنة.

وقد ظهر من نسل أمراء تدمر فتاة قوية النفس اسمها «الزباء»، كانت تركب الخيل منذ صغرها، وتحمل السلاح، وتذهب إلى صيد السباع في البرية. وهذه عادة كان يعتادها بعض النساء العربيات. فيتمرن على ركوب الخيل، واستعمال السلاح، والمحاربة إلى جانب الرجال.

فلما كبرت هذه الفتاة صعب عليها أن ترى بلادها تحت سلطة الرومان، وقد تزوجت بأمير تدمر، وأخذت تتمرن على أعمال الملك، مثل ما تمرنت على الفروسية. وقد مات زوج الزباء في حياتها، وانتقلت الإمارة إلى ابنه، وكان صغير السن، فصارت تحكم هي بدلاً عنه. وأخذت تقوي جيشها، وتحصن مدينتها، استعداداً للخلاص من نير الرومان.

واتفق أن قامت في بلاد الرومان فتن، شغلتهم بعضهم ببعض، فاغتنمت الزباء هذه الفرصة، وأعلنت استقلال بلادها. ولم تكتف بذلك بل أرادت أن تحرر سائر بلاد سوريا ومصر من حكم الرومان، فجمعت جيشاً كبيراً من العرب، وقادته بنفسها، وحاربت جيوش الرومان التي كانت موجودة في سوريا وفلسطين ومصر، وغلبتها، واستولت على جميع هذه البلاد، وجعلت نفسها ملكة عليها.

وقد استاء الرومان من جرأة الزباء. فلما سكنت الفتن بينهم، جاء قوادهم بجيوش عظيمة، مجهزة بأحسن السلاح، وأعلنوا الحرب على الزباء من جهة، وخدعوا بعض القبائل وفرقوها عن الملكة من جهة ثانية. فضعفت الزباء، ولم تستطع أن تقاوم جيوش الرومان فانهزمت من أمامهم. ولكنهم قبضوا عليها أسيرة. ويروى أنهم قيدوا يديها بسلسلة من الذهب، وأرسلوها إلى عاصمتهم «روما». وقد ماتت في روما بعد مدة قليلة من شدة الحزن على وطنها واستقلاله. وكان استيلاء الرومان على تدمر سنة ٢٧٢ بعد ميلاد سيدنا عيسى(٥).

الدرس الثاني عشر

اللخميون

- ١ -

«اللخميون» هم القبائل القحطانية التي هاجرت من بلاد اليمن، واستقرت في بلاد العراق، كما مر بك ذلك في الدرس الثاني.

وقد تحضروا هم أيضاً، وأسسوا مدينة كبيرة اسمها «الحيرة»، وبنوا حولها قرى كثيرة. ثم صارت لهم دولة تعرف في التاريخ باسم «دولة اللخميين»، ويقال لها «دولة المناذرة» أيضاً، لأن اسم أكثر ملوكها «المنذر».

وكانت مدينة الحيرة عاصمة ملكهم. ولذلك بنوا فيها القصور الجميلة، وانشأوا الحدائق الغناء، تجرى من تحتها الأنهار. ومن أشهر قصورهم قصر «الخورنق»، وقصر «السدير». وكان تأسيس هذه الدولة بعد ميلاد سيدنا عيسى بنحو مائتين وخمسين سنة، وقبل سيدنا محمد بنحو ثلاثمائة وخمسين سنة.

- ٢ -

كان ملوك هذه الدولة موالين لملوك الفرس، لأن بلادهم مجاورة لبلاد الفرس. وكان الفرس والروم يتزاحمون على حكم بلاد سورية وفلسطين ومصر. فكان الفرس يستعينون بملوك الحيرة في حروبهم مع الروم. وكان هؤلاء يساعدونهم، ويحاربون في جانبهم. وممن اشتهر من ملوك الحيرة في مساعدة الفرس الملك المنذر الأول بن النعمان، حتى خافه الروم، وصاروا يلقبونه بلقب «الأسد العربي». وقد ساعد هذا الملك ملك الفرس يزدجرد، حينما ثارت رعيته عليه، وأرادت خلعه، فانتصر له الملك المنذر، وساعده على البقاء في الملك.

وقد بلغ من نفوذ ملوك الحيرة أن صارت جميع بلاد العراق والحجاز تحت حكمهم، وأن احتازوا من الأموال والمواشي ما لا يقع تحت حصر.

- ٣ -

وقد اعتنق بعض ملوكهم الديانة النصرانية. وما يروى عن سبب ذلك قصة جميلة أريد أن أقصها عليك. فقد كان لأحد ملوكهم، واسمه «المنذر بن امرىء القيس» في السنة يومان: يوم (بؤس) ويوم (نعيم). وكان من عادة العرب أن يفدوا على ملوكهم ويطلبوا منهم الأعطيات. وكان إذا جاء هذا الملك طالب في يوم (نعيمه) اعطاه ما طلب. وإذا جاءه في يوم حزنه أمر بقطع رأسه.

وقد كان خرج للصيد مرة، فانقطع عنه جماعته. ورأى من بعيد بيت شعر فذهب إليه، فوجد فيه بدوياً مع زوجته وأولاده. وكان جائعاً، فطلب منهم أن يطعموه، ويدلوه على الطريق.

فأكرموه بذبح جمل من جمالهم. لأن من عادة العرب إكرام الضيف. وبعد أن أكل واستراح، أرشده البدوي إلى الطريق، فشكره الملك على معروفه وعرفه بنفسه. وأمره أن يأتي إلى الحيرة ليكافئه ففرح البدوي فرحاً عظيماً.

وبعد مدة جاء البدوي إلى الحيرة ودخل على الملك وعرفه بنفسه. واتفق أن كان ذلك اليوم هو يوم حزن الملك. فحزن وقال له: لا بد من قطع رأسك. ولكن لك علي معروفاً فاطلب مني ما تريد غير العفو.

فطلب البدوي أن يمهله الملك سنة كاملة، وأن يعطيه خمسمائة ناقة. فقبل الملك على شرط أن يقدم له كفيلاً. فنظر البدوي إلى وجوه رجال الملك، واختار منهم رجلاً تلوح عليه أمارات الشهامة والمروءة، واستجار به، ليكفله فقبل الرجل، لأن من عادات العرب أن يجيروا من يستجير بهم، ولو كان في ذلك الموت.

أخذ الرجل حينئذ النياق وذهب إلى أهله، فلما انقضت السنة، وجاء اليوم المعين لم يحضر البدوي، فأمر الملك بقطع رأس الكفيل. وبينما الجلاد يتأهب لتنفيذ أمر الملك تصاعد غبار من بعيد، فطلب الكفيل من الملك إمهاله إلى أن يظهر ما وراء الغبار، وبعد قليل انجلى الغبار، وظهر الرجل، فإذا هو البدوي المعهود.

ففرح الكفيل وعجب الملك ورجاله من مجيء البدوي. وسأله عن السبب الذي حمله على المجيء، وهو يعرف أنه إنما يأتي إلى الموت. فقال له «الوفاء» فسأله من أين تعلمت ذلك؟ قال له: من ديني. فسأله عن دينه. فقال له: النصرانية (وكان ذلك قبل ظهور الإسلام بزمن طويل) فاعتنقها، وأمر رجاله باعتناقها أيضاً، وصار يبني في بلاده الكنائس والأديرة، فانتشرت الديانة النصرانية في الحيرة. وكان الملك وقومه يعبدون من قبل الأوثان.

- ٤ -

إن دولة اللخميين هذه دامت نحو أربعمائة سنة. وانقرضت بعد ظهور النبي محمد عليه الصلاة والسلام(٦).

الدرس الثالث عشر

الغساسنة

- ١ -

إن الغساسنة هم أيضاً من القبائل التي هاجرت من اليمن. جاءت فاستقرت في بلاد «حوران». ثم تحضرت تدريجياً وانشأت القرى والمدن.

ومن المدن التي أسسها الغسانيون «بصرى الشام» و «أزرع» و «بصرى الحرير» و «السويداء».

وقد صار للغسانيين دولة وملوك بعد أن تحضروا. وكانت مدينة بصرى الشام عاصمة لملكهم. فزينوها بالقصور الشاهقة والبنايات الجميلة. وكان تأسيس الدولة الغسانية بعد ميلاد سيدنا عيسى بنحو ثلاثمائة سنة، وقبل سيدنا محمد بنحو ثلاثمائة سنة أيضاً.

ولا تزال آثار الغساسنة في مدن حوران باقية إلى الآن. ولو تيسرت لك زيارتها، لرأيت كثيراً من آثار معابدهم وقصورهم، وبناياتهم شاهدة على حضارتهم وعمرانهم. وها أنا أنقل لك صور بعض نقوش جميلة على جدران قصورهم التي خلفوها من بعدهم.

- ٢ -

حينما ظهر الغسانيون وقووا، كانت بلاد سوريا تحت حكم الرومان، فأراد الرومان أن يستفيدوا منهم في منع عرب البادية من غزو سوريا، وفي حروبهم مع الفرس، وحلفائهم اللخميين. لذلك صادقوهم وأكرموهم، وعينوا لهم المرتبات، فأصبح الغسانيون حلفاء للروم. وقد ساعدوهم كثيراً، وحاربوا من أجلهم بني جنسهم اللخميين مراراً.

ومن أشهر ملوك الغساسنة «الحارث الأكبر»، و«الحارث بن شمر». وقد دعاهما الروم إلى عاصمتهم القسطنطينية، وأكرموهما فيها كل الإكرام، وألبسوا «الحارث بن شمر» تاجاً مرصعاً بالجواهر الغالية، ولقبوه بلقب الملك.

وقد كان الغسانيون نصارى، لأن حلفاءهم الروم كانوا نصارى، فقلدوهم في ديانتهم، وكانوا من قبل يعبدون الأصنام.

- ٣ -

إن دولة الغساسنة دامت ثلاثة قرون، وآخر ملوكهم هو «جبلة بن الأيهم». وقد أسلم في زمن الخليفة «عمر بن الخطاب»، ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى القسطنطينية ويروى عن ذلك قصة أرويها لك وهي:

جاء جبلة إلى «المدينة المنورة» لزيارة الخليفة. وكان يلبس ثوباً مزركشاً يجره على الأرض، مثل عادة ملوك الروم، وبينما كان سائراً في الشارع، داس بدوي على ثوبه بدون قصد. فما كان من جبلة إلا أن لطمه على وجهه لطمة شديدة كسرت أسنانه، فذهب البدوي واشتكى إلى الخليفة. وقد كان عمر عادلاً محباً للحق والمساواة بين المسلمين، لا فرق عنده بين الملك والعامي.

فأحضر الخليفة جبلة وقال له: يجب عليك أن تسترضي البدوي، أو تحكم القصاص منك؟ فقال له جبلة: كيف تعاملني مثله، وأنا ملك وهو بدوي حقير؟ فأجابه: إن الدين الإسلامي جعل جميع المسلمين أخوة متساوين، لا فضل للملك على غيره. فطلب جبلة إلى الخليفة أن يمهله إلى الغد فأمهله، فلما جاء الليل هرب جبلة من المدينة، وظل هارباً إلى القسطنطينية، حيث احتمى بملك الروم[٧].

الفصل الرابع
طرق التجارة الأولى في جزيرة العرب
الملاحة الأولى في البحار ـ التجارة بين العرب والهند وشرق افريقيا في الزمن القديم

الدرس الرابع عشر

ـ ١ ـ

دقق نظرك أيها الفتى في خريطة جزيرة العرب مرة أخرى! تجد أنها من جهة الجنوب الغربي قريبة إلى شرق أفريقيا، وخصوصاً بلاد الحبشة وأنها من الجهة الجنوبية والشرقية واقعة على شواطيء بحر الهند، وانها من جهة الشمال متصلة ببلاد العراق والفرس والشام وفلسطين ومصر.

إن هذا الموقع الجغرافي يجعل جزيرة العرب طريق التجارة بين البلاد الجنوبية والشمالية، لاسيما والبحر الأحمر لم يكن ينفذ إلى البحر الأبيض المتوسط كما هو اليوم. لأن قناة السويس فتحت في هذا الزمن. فكان لا بد لمن يريد أن يشتغل في التجارة، و(نقل) البضائع بين بلاد الهند وبلاد الحبشة، وبين العراق والشام وفلسطين ومصر، من المرور بجزيرة العرب، وشواطئها، والاستعانة بتجارها وقوافلها ومراكبها البحرية.

ـ ٢ ـ

وبسبب ما تقدم اشتغل العرب في التجارة، وكانوا يقومون بالاسفار التجارية براً وبحراً، بين البلاد المجاورة لهم في الشمال والجنوب والشرق، منذ الأزمنة القديمة.

وقد كان للعرب اليمنيين مراكب بحرية يستعملونها في أسفارهم. وقد رأيت صورة لها في الصحيفة (١٩) من هذا الكتاب. وهم الذين كانوا ينشؤنها، لأن الأمم التي تعيش في السواحل تكون بطبيعتها ميالة إلى الملاحة والأسفار البحرية. ولا بد أنك تذكر من الدروس التي قرأتها في السنة السابقة أن الفينيقيين[٨] كانوا ماهرين في الملاحة، لأنهم كانوا يسكنون سواحل سورية[٩].

- ٤ -

أما البضائع التي كانوا يجلبونها من بلاد الحبشة، فهي العاج «أنياب ـ الفيل» وجلود الحيوانات. وكان الفينيقيون واليونان يصنعون من العاج أمشاطاً جميلة، ويبيعونها بثمن غال. وكانوا يجلبون من بلاد الهند الحرير وخشب الصندل «هو خشب متين إذا حرق كانت له رائحة ذكية» والبهارات.

وأما ما كانوا يجلبونه من بلاد الفرس والشام ومصر، فهو الأسلحة والآنية والمنسوجات الحريرية والكتانية، والمصنوعات المعدنية، وأدوات الزينة مثل العقود والأساور والخلاخيل.

الدرس الخامس عشر

تابع ـ طرق التجارة، والتجارة العربية الأولى

- ١ -

إن المراكب البحرية اليوم، حينما تذهب في أسفارها، تسير في وسط البحر، ولا ترسو إلا في الميناء الذي تريده. وليست مضطرة إلى محاذاة السواحل في سيرها. فهل تظن أن العرب في أول عهدهم بالملاحة كانوا يسيرون كذلك؟ طبعاً كلا. لأنهم كانوا مبتدئين، ويجهلون طرق البحر. لذلك كانوا مضطرين إلى محاذاة السواحل في سيرهم، فكانت مراكبهم حينما تخرج لأسفارها البحرية التجارية، تدور أولاً حول شواطىء جزيرة العرب، ثم تذهب إلى الشمال، فتدور حول شواطىء الخليج العجمي، ثم تذهب إلى الشرق، إلى أن تصل إلى بلاد الهند، محاذية للشواطىء، وغير مبتعدة عنها.

أما من البر فقد كان العرب ينقلون البضائع على قوافل من الجمال، فيكون في القافلة مئات من الجمال سائرة بعضها وراء بعض. وكانوا يسمونها قطاراً، ونحن اليوم نسمي مركبات السكة الحديدية قطاراً، تشبيها بقطار الجمال، لأن الواحدة تأتي وراء الثانية.

وكانت القوافل تسير من اليمن إلى الشمال في طريق ساحل البحر الأحمر إلى الحجاز، ومنها إلى بلاد الشام ومصر. وتسير من بلاد الحجاز في طريق نجد إلى العراق، ومنها إلى بلاد الفرس. وكانت القوافل التي تذهب إلى مصر كثيراً ما تمر بفلسطين. وتذهب محاذية للساحل، مارة بمدن عسقلان وغزة والعريش وغيرها.

- ٢ -

ولم يكن عرب اليمن وحدهم يشتغلون في التجارة، بل كان أهل الحجاز أيضاً، وخصوصاً أهل مكة، يقومون بأسفار تجارية، فيذهبون في الشتاء إلى اليمن، ويسمونها رحلة الشتاء، وفي الصيف إلى الشام وفلسطين والعراق، ويسمونها رحلة الصيف، فتعود عليهم أسفارهم التجارية بالأرباح الطائلة.

كذلك لما هاجرت قبائل العرب إلى بلاد الشام والبلقاء والعراق ، واستقروا فيها ، اشتغلوا في التجارة ، لاعتيادهم ذلك في بلادهم . وبنوا مدنهم في طرق القوافل التجارية ، مثل «بطرا وتدمر والحيرة» ، فكانت هذه المدن مراكز تجارية مهمة ، تقام فيها الأسواق ، وتعرض فيها البضائع المتنوعة . وكان ذلك من أسباب ثروتها وغناها ، كما مر تفصيل ذلك في الدروس السابقة[١٠] .

الفصل الخامس
قصي وقريش

الدرس السادس عشر

- ١ -

هل تذكر أين كانت منازل الشعب العدناني؟

لقد مر بك أن العرب كانوا شعبين كبيرين: الشعب القحطاني، وكان يسكن الأنحاء الجنوبية من جزيرة العرب. والشعب العدناني، وكان يسكن بلاد الحجاز وتهامة - أي القسم الشمالي من جزيرة العرب - الموالي لسواحل البحر الأحمر.

إن البلاد التي سكنها العدنانيون ليست مثل اليمن، ذات طقس معتدل، ومياه وافرة، وتربة خصبة. ولكنها كانت ذات مكانة دينية عظيمة، لأن فيها الكعبة التي يقدسها المسلمون ويتخذونها قبلتهم في الصلاة، وهي غرفة كبيرة مبنية بالأحجار الضخمة. وقد كان العرب قبل الإسلام يقدسونها، ويسمونها بيت الله، ويأتون إلى زيارتها والتبرك بها. وقد وضعوا فيها في بعض الأحيان أصنامهم.

وقد استقر قسم من القبائل العدنانية حول الكعبة، وبنوا مدينة «مكة»، فانتقلوا بذلك من البداوة، وصاروا يعيشون عيشة المدينة.

- ٢ -

إن أهم القبائل العدنانية التي استقرت في مكة وحواليها، واتخذتها وطناً لها، هي قبيلة «قريش». وقد كان لهذه القبيلة حرمة في نظر العرب بسبب سكناها قرب بيت الله الذي كانوا يقدسونه.

وكانت قبيلة قريش مؤلفة من بطون عديدة، ولم يكن لها زعيم قوي تلتف حوله، وتأتمر

بأمره فظلت قواها متفرقة مدة من الزمن. غير أنه بعد ميلاد سيدنا عيسى بأربعمائة سنة، وقبل سيدنا محمد بنحو مائتي سنة، نبغ منها رجل عظيم اسمه «قصي بن حكيم». وكان على جانب عظيم من العقل وسداد الرأي، فأخذ يؤلف بين بطون قبيلة قريش، ويبين لهم فائدة الاتحاد، وما ينتج من القوة، وضرر التفرقة وما تؤدي إليه من الضعف. فعظموا هذا الرجل، لأنه كان يرشدهم إلى ما فيه خيرهم، وجعلوه رئيساً عليهم، يأمر فيطيعون، ويحكم فيقبلون.

- ٣ -

لقد كان ظهور قصي ورئاسته في قريش بدء عهد جديد للعدنانيين عامة، ولقبيلة قريش خاصة. لأنهم أصبحوا بفضله متحدين أقوياء، وزادت حرمتهم في نظر سائر العرب.

وقد خشي قصي أن تتفرق بطون قريش بعد موته، فرتب أمورهم ترتيباً يجعل الوفاق مستمراً بينها، إذ جعل لكل بطن من البطون عملاً خاصاً به في الكعبة وموسم الحج. فصار أحد البطون موكلاً بمفتاح الكعبة، وآخر موكلاً بسقاية الحج، وآخر موكلا بضيافة زوار الكعبة، وآخر موكلاً بقيادة الجيش. وهلم جرا.

كذلك حثهم على العمل والاشتغال في التجارة، لأن بلادهم ليست زراعية، وأحدث لهم رحلتي الصيف والشتاء، فكان ذلك سبباً في ازدياد ثروتهم، وتحسن حالتهم. وصاروا يذكرون زعيمهم هذا بكل خير وثناء، لأن الزعيم في أمة إذا سعى في خيرها وراحتها وسعادتها تذكره أمته بالخير والثناء.

وقد ازدادت قريش بإصلاحات زعيمها قوة ومكانة بين قبائل العرب، وظلت محتفظة بمكانتها وقوتها إلى أن ظهر منها سيدنا محمد النبي العربي العظيم، فازداد بذلك شرفها وفخرها، وعلا مقامها واسمها.

الفصل السادس

أسرة النبي صلى الله عليه وسلم ـ رسالته تفصيل حياته

الدرس السابع عشر

ـ ١ ـ

اعلم أيها الفتى أن النبي العربي «ابن عبدالله صلى الله عليه وسلم» هو من قبيلة قريش التي مر ذكرها، ومن نسل قصي بن حكيم زعيم قريش الأكبر، فهو «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي».

وكانت أسرته تعرف بـ «آل هاشم» نسبة إلى جده هاشم. وكان هاشم هذا سيداً من سادات قريش وكرمائهم، مشهوراً بإقامة الولائم واطعام الناس في أيام الجوع. وكان يذبح في الوليمة خمسين جملاً، وأحياناً مائة جمل، ويدعو إليها جميع الناس. وكان تاجراً ماهراً يخرج بنفسه للأسفار التجارية. وقد مات في غزة، بينما كان ذاهباً في قافلة تجارية إلى مصر. وقبره معروف فيها.

ووالد النبي هو «عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم» مات بينما كانت أمه حاملة به. أما أمه فهي «آمنة بنت وهب» من بني «زهرة» أحد بطون قريش أيضاً.

ـ ٢ ـ

كان جده عبد المطلب سيداً جليل القدر في قريش، وهو الذي حفر بئر زمزم التي هي الآن في حرم مكة قرب الكعبة. ومما يروى عن السبب الذي حمل عبد المطلب على حفر البئر أنه رأى في منامه شخصاً وقوراً ذا لحية بيضاء يأمره بحفر البئر. فلما أصبح أراد أن ينفذ الأمر، فعارضه رجال قريش. ولم يكن له أولاد كبار يساعدونه ويمنعون المعارضة. فنذر أنه إذا رزقه الله عشرة أولاد، وكبروا وساعدوه على حفر البئر، أن يذبح أحد أولاده قرباناً حسب عادة العرب في ذلك الوقت.

وقد حقق الله أمنيته فصار أولاده اثني عشر، وكبروا وساعدوه على حفر البئر. فجاءه الرجل الوقور ذو اللحية البيضاء في منامه. وأمره أن يوفي بنذره، ويذبح أحد أولاده قرباناً لله. فلما أفاق جمع أولاده وقص عليهم القصة، فقالوا له ينبغي أن تفي بنذرك لله، فاقترع بيننا واذبح من تقع عليه القرعة. ففعل بما قالوا، فوقعت القرعة على عبد الله والد النبي. فلما هم بذبحه جاءه أقاربه وطلبوا منه أن يحفظ دم ابنه، وأن يذهب إلى الكاهنة يستفتيها لعلها تجد طريقة له. وقد كان العرب إذا وقعوا في مشكلة ذهبوا إلى الكهان والكاهنات يستفتونهم فيما يفعلونه. وكان الكهان من الناس الأذكياء يتظاهرون بعلم الغيب ويفسرون الأحلام، ويداوون الأمراض.

فذهب عبد المطلب إلى الكاهنة وأخذ معه ابنه عبد الله، وقص عليها القصة، فقالت له لا تذبحه واقترع بينه وبين عشرة جمال، فإذا أصابت القرعة ابنك فاقترع بينه وبين عشرين جملاً، ثم لا تزال تزيدها عشرة عشرة إلى أن تصيب القرعة الجمال. فاذبحها وفرق لحمها على الفقراء فيتقبلها الله فدية عن ابنك.

فرجع عبد المطلب وأخذ يقترع بين ابنه وبين الجمال، إلى أن بلغت الجمال المائة، وحينئذ أصابتها القرعة، فذبحها وحفظ بذلك دم ابنه.

الدرس الثامن عشر

«تابع ـ أسرة النبى صلى الله عليه وسلم ورسالته» «وتفصيل حياته»

ـ ١ ـ

إن سيدنا محمداً ولد في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الأولى لحرب الفيل التي وقعت بين الأحباش وأهل مكة، ويصادف هذا العام سنة ٥٧٠ بعد ميلاد سيدنا عيسى.

وقد ولد في حضانة جده عبد المطلب. لأن والده توفي قبل أن يولد. ثم ماتت أمه وعمره ستة أعوام، ثم مات جده وعمره ثمانية أعوام، فكفله عمه أبو طالب، شقيق والده.

وقد كانت دلائل الذكاء والنجابة بادية على ملامح السيد الرسول عليه السلام منذ صغره. فكان عمه يحبه محبة عظيمة، ويستصحبه معه في أسفاره التجارية. فلما شب وترعرع اشتهر بين قومه بالصدق والأمانة ورجاحة العقل وكرم الخلق، فأحبه جميع الناس وقد كانوا يسمونه الأمين.

ـ ٢ ـ

ومن جميل القصص التي تروى عنه أن أهل مكة أرادوا أن يجددوا بناء الكعبة، وكان في أحد جوانبها (حجر أسود)، وكان العرب يقدسونه، ويعتقدون أنه نزل من السماء. فلما أرادوا وضع الحجر في مكانه، وقع خلاف بينهم، لأن كل زعيم أراد أن يكون له الشرف بوضع هذا

الحجر المقدس بيده، وكادوا يتقاتلون، فكلفهم أحد العقلاء أن يحكموا شخصاً بينهم، فاتفقوا على أن أول شخص يأتي يكون حكماً بينهم.

واتفق إن كان أول القادمين سيدنا محمداً، فقالوا هذا الأمين. وقد رضينا بـه حكماً. وقصوا عليه قصتهم، ففكر في إرضائهم جميعهم لئلا يقع بينهم خصام وحسد، فطلب أن يأتوه بثوب كبير متين، فلما جاؤه به وضع الحجر وسط الثوب، وكلف كل زعيم أن يمسك طرفاً من أطرافه، ثم أمرهم أن يرفعوه معاً ففعلوا. فلما ارتفع الثوب، تناول محمد صلى الله عليه وسلم الحجر ووضعه في يده الكريمة في مكانه. فأرضى بعمله الجميع، وأقروا له بسداد الرأي، وحسن التدبير.

- ٣ -

وكان في مكة امرأة قرشية ذات ثروة طائلة اسمها «السيدة خديجة بنت خويلد»، سمعت بأخلاق محمد صلى الله عليه وسلم وأمانته، فكلفته بأن يشاركها في التجارة، فقبل. لأنه كان يحب العمل والكسب الحلال. وسافر في أسفار تجارية بضع مرات، فكسبت التجارة أرباحاً طائلة. وقد أعجبت السيدة خديجة بأخلاقه، وصدقه، فعرضت عليه أن يتزوج بها. وكـانت أرملة توفي عنها زوجها، فقبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتزوج بها.

- ٤ -

وقد كان في صغره يترفع عن عبادة الأصنام، لأن عقله أبى عليه أن يعبد شيئاً لا يضر ولا ينفع، وكان يبتعد عما هو رديء من العادات والأعمال مثل شرب الخمر، ولعب القمار، وذبح القرابين للأصنام.

وكان في كل سنة يصعد إلى جبل اسمه «جبل النور» قرب مكة ويقيم في غار فيه اسمه «غار حراء»، يتأمل في ملكوت الله، وعظمة الكون، ويفكر في ضلالة قومه، وسخف اعتقاداتهم وعباداتهم.

فلما بلغ من العمر أربعين عاماً، أوحى الله إليه بالنبوة، وأمره أن يدعو الناس إلى ترك عبادة الأصنام، وعبـادة الله وحده لا شـريك لـه، وعمل الخيـر والمعروف والتخلق بمكـارم الأخلاق، وصار ينزل عليه الوحي بالآيات القرآنية الشريفة.

وكان ذلك في شهر رمضان عام (٦١٠) من ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام، بينما كان في غار حراء حسب عادته في كل سنة[١١].

الدرس التاسع عشر
تابع رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وتفصيل حياته

- ١ -

قام النبي عليه السلام بأمر ربه، وأخذ يدعو الناس إلى الدين الإسلامي، ويتلو عليهم آيات القرآن الكريم التي كانت توحى إليه، فلم يؤمن به في أول الأمر إلا عدد قليل من الرجال والنساء، منهم زوجته السيدة خديجة، وصديقه أبو بكر الصديق، وابن عمه علي بن أبي طالب، وصهره عثمان بن عفان.

أما سائر قريش فإنهم قابلوا كلامه بالاستهزاء. وصاروا يصفونه أحياناً بالمجنون، وأحياناً بالشاعر، وأحياناً بالكاهن. وأخذوا يؤذونه بطرق كثيرة، فتارة يرمون عليه التراب، وتارة يضعون في طريقه الشوك، وتارة يلقون عليه الأقذار. وكانوا كذلك يؤذون أصحابه الضعفاء أذى شديداً، فيقبضون على العبيد منهم، ويعرونهم من ثيابهم، ويربطون أيديهم وأرجلهم، ويطرحونهم على الرمال المحرقة حين اشتداد الحر.

- ٢ -

إن النبي عليه الصلاة والسلام لم يبال بهذه الصعوبات والشدائد، ولم تضعف همته، لأنه كان شريف الأخلاق، يرى من الشرف أن يتحمل الأذى في سبيل مبدئه المقدس، وإرشاد الناس إلى طريق الخير والصلاح. ويعرف أن من يطلب الوصول إلى الغايات العالية، يجب أن يتحمل الصعوبات والأخطار، لأن النجاح في الأمور العظيمة لا يتيسر بسهولة. ولذلك استمر في دعوته متحملاً هو وأصحابه الأشراف الأذى والجفاء.

ولما رأى أهل مكة أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال ثابتاً في دعوته، جاءوا إلى عمه أبي طالب وقالوا له: إننا لم نعد نطيق أن يستمر ابن أخيك في نسبة الضلال إلينا، وشتم أصنامنا، فإذا كان يريد مالاً أعطيناه حتى يكون أغنى الناس. وإذا كان يريد رآسة انتخبناه رئيساً علينا فنطيعه بما يأمرنا به. وإن كان في عقله مرض أنفقنا عليه الأموال الطائلة في مداواته. وطلبوا منه أن يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، ويطلب منه أن يكف عن شتم أصنامهم، وتوبيخهم في الآيات القرآنية.

فلما انصرفوا جاء النبي فكلمه عمه بما قاله أهل مكة، فبكى عليه السلام وقال «والله يا عماه إنني لست طالب مال، ولا راغباً في ملك ولا رآسة، وليس بي مرض. وإنما أريد لقومي الخير والهدى. والله لو وضعوا القمر في يميني والشمس في شمالي ما تركت دعوة ربي، فإذا كنت لا تريد أن تحميني فأنت وشأنك ولي رب يحميني.

فلما رأى عمه صدق لهجته، وشدة تأثره، ضمه إلى صدره، وقبله وشجعه، ووعده بالحماية من كل عدوان ما دام حياً.

الدرس العشرون

تابع رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وتفصيل حياته

- ١ -

لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل مكة لا يستجيبون لدعوته، أخذ يدعو قبائل العرب التي تأتي إلى الحج كل سنة. ومن جملة من دعاهم قبائل اسمها «الأوس» و«الخزرج». وكانت تسكن في «يثرب» أي «المدينة المنورة». فكان يجتمع برجالها ونسائها، ويتلو عليهم الآيات القرآنية الكريمة. ويبين لهم فوائد الدين الإسلامي. فرأوا كلامه معقولاً، ولهجته صادقة، ودعوته شريفة. فصدقوا به وآمنوا برسالته. وبايعوه تحت شجرة قرب مكة ووعدوه بالمساعدة والنصر إذا هو خرج من مكة، وجاء إلى المدينة، وأقام بينهم. فتشاور النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في الأمر، فقبلوا أصحابه أن يلبوا دعوة أهل المدينة، ولو كان في ذلك ترك وطنهم وأقاربهم. وقالوا له: نحن مستعدون لتضحية وطننا وأهلنا في سبيل الله ودينه. وحينئذ عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة من مكة إلى المدينة، وأمر أصحابه بالهجرة فئة بعد فئة، لئلا يشعر بهم أهل مكة، ويشتدوا في أذاهم. أما النبي عليه السلام فقد اتفق مع صديقه أبي بكر على الهجرة معاً، فأعدا جملين قويين للركوب. وجملاً ثالثاً للزاد والماء، لأن الطريق بين مكة والمدينة طويلة، والماء فيها قليل جداً. وأرسلا الجمال إلى جبل قريب من مكة لتنتظرهما.

- ٢ -

وأحس أهل مكة باتفاق النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل المدينة، وبعزمه على الهجرة إلى مدينتهم هو وأصحابه. فخافوا من ازدياد قوته، وانتشار دينه واسمه، إذا هاجر إليهم، فتضعف مكانتهم الدينية، فعقدوا اجتماعاً في «دار الندوة»، وهي ناد لهم يجتمعون فيها للمذاكرة في ما يقعون فيه من مشاكل ومصائب، فقرروا قتل النبي صلى الله عليه وسلم في داره، ولكنهم لم يجدوا شخصاً واحداً يتقدم إلى قتله منفرداً، لأنه كان من عادة العرب إذا قتل شخص شخصاً آخر أن تحارب عشيرة المقتول عشيرة القاتل حتى تأخذ ثأرها.

فاقترح عليهم أحد الشيوخ المحنكين أن ينتخبوا من كل عائلة من عائلات قريش شاباً قوياً، فيجتمع هؤلاء الشبان، ويهجمون على النبي صلى الله عليه وسلم، ويضربونه بسيوفهم معاً، وحينئذ لا يقدر «آل هاشم» على محاربة جميع العائلات، ويرضون بـ «ديته»، أي يأخذون مالاً وجمالاً مقابل دمه.

فوافق المجتمعون على هذا الاقتراح، وانتخبوا الشباب. وصار هؤلاء يترقبون النبي صلى الله عليه وسلم ليقتلوه.

- ٣ -

ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المؤامرة، تشاور هو وأبو بكر وابن عمه علي في الأمر، فاقترح علي أن يلبس النبي ثيابه وعمامته، وأن يلبس هو ثياب النبي وعمامته، وأن يخرج النبي ليلاً هو وأبو بكر فيختفيا في إحدى مغاور الجبل يومين أو ثلاثة أيام، وأن ينام علي في فراش النبي. فإذا اجترأ الشباب ودخلوا إلى البيت وضربوا من في الفراش فيكون هو المضروب، ويفدي النبي صلى الله عليه وسلم بدمه، فلم يقبل النبي في بادىء الأمر بهذا الاقتراح، خوفاً على حياة ابن عمه. ولكن البطل علياً أصر على رأيه، فقبل النبي صلى الله عليه وسلم أخيراً، وشكره على تضحيته. وفي إحدى الليالي خرج النبي مع أبي بكر، وكان لابساً ثياب علي وعمامته، فظنه الجاسوس الذي كان واقفاً بباب الدار أنه «علي». وهكذا نجا النبي صلى الله عليه وسلم من المؤامرة، وذهب هو وأبو بكر إلى خارج مكة مشياً، واختفيا في الغار.

أما الشباب القرشيون، فإنهم تجمعوا بباب الدار، وانتظروا خروجه، وبعد مدة خرج البطل علي بن أبي طالب، ولم يروا النبي صلى الله عليه وسلم ، فأدركوا حينئذ أنهم انخدعوا. وقد أرسلوا أناساً يلحقون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويقتلونه، أو يرجعونه من الطريق، ولكنهم لم يظفروا بشيء.

الدرس الواحد والعشرون
تابع رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وتفصيل حياته

- ١ -

مكث النبي عليه الصلاة والسلام هو وأبو بكر في الغار مختفيين ثلاثة أيام ومن جميل ما يروى: ان النبي كان نائماً مرة في الغار على ركبة أبي بكر فخرجت حية من وكرها، فداس أبو بكر عليها برجله، دون أن يحرك نفسه لئلا يزعج النبي صلى الله عليه وسلم. فأخذت الحية تلدغه وهو صابر لا يبالي والدموع تتساقط من عينيه من شدة الألم، فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم وسأل أبا بكر عن سبب بكائه، ولما علم بالمسئلة كبر أبو بكر في عينه وازداد قدره. لأنه أراد أن يفديه بنفسه لشدة محبته له.

وكانت السيدة «أسماء» بنت أبي بكر تأتيهما بالزاد والماء إلى الغار سراً، وتخبرهما بأسرار أهل مكة، وقد أخبرتهما أن أهل مكة استاؤوا جداً من الخدعة التي انخدعوا بها، وانهم أرسلوا أناساً يبحثون عنهما في الطريق.

- ٢ -

بعد انقضاء ثلاثة أيام ركب النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الجملين اللذين كانا أعداهما، وسارا في طريق المدينة إلى أن وصلا سالمين.

وقد استقبل أهل المدينة النبي صلى الله عليه وسلم بحفاوة كبيرة، خرج رجالهم ونساؤهم فاستقبلوه من خارج المدينة، وهم ينشدون الأناشيد وعاهدوه على المساعدة التامة والنصر المبين، لذلك فإن النبي سماهم «الأنصار». وقد سمى إخوانه القرشيين الذين تركوا وطنهم وأقاربهم وأملاكهم وهاجروا معه من مكة باسم «المهاجرين».

وتعد حادثة الهجرة من أعظم الحادثات في تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم، والإسلام، لأنها تدلنا على أن النبي وأصحابه ضحوا بوطنهم وأقاربهم وأموالهم وخاطروا بحياتهم في سبيل الدعوة الإسلامية، ولأن الإسلام بعدها قوي قوة كبيرة، وكانت بدء عظمة الإسلام والعرب، لذلك فإن من واجب المسلمين والعرب أن يحترموا تاريخ الهجرة، وأن يعيدوا أول السنة الهجرية الذي هو أول شهر المحرم، وأن يقتدوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأشراف في تضحيتهم وقوة إرادتهم ومخاطرتهم.

وتصادف الهجرة النبوية لعام (٦٢٢) من ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام.

الدرس الثاني والعشرون
«تابع رسالة النبي صلى الله عليه وسلم» وتفصيل حياته

- ١ -

لما استقر النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة، كان أول عمله إزالة العداوة والبغضاء من بين قبيلتي «الأوس والخزرج». لأن هاتين القبيلتين كانتا متعاديتين، وكانتا تتحاربان حيناً بعد آخر فلما هاجر النبي، ووصل إلى المدينة، أحبت كل قبيلة أن يكون من حزبها، ليكون عوناً لها على عدوتها. ولكن النبي جمع رؤساء القبيلتين، وخطب فيهم، وأفهمهم أن الإسلام جعل المسلمين اخوة، فلا يجوز أن يكون بينهم عداوة وبغضاء، وأن في اتحادهم قوة للإسلام ولهم، فقنعوا بكلامه، وتصالحوا ووعدوا بنسيان ما بينهم من الأحقاد.

ثم آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين الأنصار والمهاجرين، ليكون جميع المسلمين إخواناً متحابين يداً واحدة وقلباً واحداً. وقد عامل الأنصار إخوانهم المهاجرين معاملة حسنة جداً، فصار كل أنصاري يعطي لأخيه القرشي قسماً من ماله وأرضه وعبيده وفرشه، فتسلى المهاجرون بمعاملة إخوانهم، ونسوا بهم وطنهم وأقاربهم.

- ٢ -

بعد أن آلف النبي صلى الله عليه وسلم بين الأوس والخزرج، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وأصبح المسلمون أقوياء باتحادهم واخوتهم، أخذ يدعو قبائل العرب إلى الدين الإسلامي، ويعلم المسلمين مكارم الأخلاق كالصدق والأمانة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

والنظافة وقول الحق، وينهاهم عن الرذائل كالسكر والقمار والسرقة والكذب وأذية الناس والنفاق والغش وشهادة الزور والغيبة والنميمة. فأخذ العرب يلبون دعوته، وينضمون إلى لوائه، ويدخلون في دين الله أفواجاً، لأنهم رأوا في دعوته، وفي أقواله الصدق وفي أفعاله مكارم الأخلاق. وأخذت أخلاقهم تتحسن وعاداتهم تستقيم، وغلظتهم تتبدل إلى رقة ولطف.

- ٣ -

لما قوي أمر النبي عليه السلام وكثر عدد المسلمين، فكر في إخضاع أهل مكة، وهدايتهم إلى الطريق الحق، وقد وقعت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم حروب متعددة لأنهم ظلوا يؤذون المسلمين، وانتصر النبي وأصحابه أخيراً وفتحوا مكة وطهروا الكعبة من الأصنام.

وقد أسلم أهل مكة حينئذ، فعاملهم النبي صلى الله عليه وسلم بالحسنى، فكسب قلوبهم وجعلهم يحبونه ويخدمونه ويتفانون في سبيل إرضائه، ويعاونونه في نشر الدين الإسلامي، وتوحيد قوى العرب وصفوفهم.

وكان فتح مكة بعد هجرة النبي عليه الصلاة والسلام بثمانية أعوام وفي سنة (٦٣٠) من ميلاد عيسى عليه السلام.

ويعدّ فتح مكة أعظم حادثة في تاريخ الإسلام بعد حادثة الهجرة، لأنها جعلت العرب يستسلمون للنبي صلى الله عليه وسلم، ويدخلون في دينه. لأن أهل مكة كانوا محترمين عند العرب، فلما رأوهم خضعوا للنبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا، خضع له سائر العرب وأسلموا أيضاً.

الدرس الثالث والعشرون

تابع رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وتفصيل حياته

- ١ -

من الحادثات المهمة التي حدثت للنبي عليه الصلاة والسلام في المدينة حروبه مع اليهود. من أين جاء اليهود إلى المدينة يا ترى؟

لا بد أنك تذكر من دروس التاريخ القديم التي قرأتها في السنة السابقة أن اليهود كانوا مستقرين في فلسطين، وأنه وقع بينهم وبين الأشوريين، ثم بينهم وبين اليونانيين والرومانيين حروب انكسر فيها اليهود. فصار الحكام الجديدون يضطهدون اليهود، ويعاملونهم معاملة قاسية، يمنعونهم من عبادتهم، ويخربون لهم معابدهم ويعذبونهم، وينفونهم. وقد كان بين اليهود وأهل الحجاز تجارة وصداقة، فهرب قسم كبير منهم إلى بلاد الحجاز ليتخلصوا من الظلم.

وقد استوطنوا جهات المدينة، وصاروا يشتغلون في الزراعة والصناعة والمداينة بالربا. وعاشوا مع العرب مدة طويلة، حتى انهم أخذوا ينسون لغتهم العبرانية، ويتكلمون اللغة العربية. وصار منهم شعراء وخطباء بهذه اللغة.

وقد كان العرب يحترمونهم احتراماً دينياً، لأنهم أهل كتاب سماوي هو «التوراة» وكانوا يأتون إليهم ويسألونهم عن أخبار الأنبياء والسماء والملائكة ويوم القيامة والجنة والنار. ولا بد أنك تذكر أن بعض كهانهم ذهب إلى اليمن، وأن الملك «ذانوس» اعتنق الديانة اليهودية.

- ٢ -

لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، عاهد اليهود على أن يكونوا أحراراً في دينهم. لأن الدين الإسلامي لا يأمر بإكراه أحد على ترك دينه. ولكن النبي صلى الله عليه وسلم اشترط عليهم أن لا يفسدوا بين العرب ولا يتجسسوا على المسلمين، ولا يؤذوهم ولا يحرضوا أعداءهم عليهم.

غير أن اليهود لما رأوا ازدياد قوة النبي، صلى الله عليه وسلم، وانتشار دينه، وتوجه العرب إليه دونهم، خافوا منه على مركزهم، فغدروا بعهدهم، وأخذوا يعاكسون الدعوة الإسلامية، ويفسدون بين المسلمين من أهل المدينة، ويتجسسون على المسلمين وينقلون أخبارهم لأعدائهم القرشيين، ويحرضونهم عليهم. وأخذ شعراؤهم ينظمون القصائد ضد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وكان للشعر والشعراء في ذلك الوقت تأثير كبير مثل تأثير الجرائد في أيامنا هذه.

فرأى النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه أن بقاء اليهود أقوياء في بلاد العرب مضر بالدين الإسلامي وبمصالح العرب وقوتهم، فحاربوهم وطردوهم من المدينة وما حولها، واستولوا على أملاكهم وقراهم وبساتين نخلهم، ولم يبق من اليهود إلا الضعيف الذي لا يقدر على شر، وبذلك أمن النبي صلى الله عليه وسلم شرهم وفسادهم، وحافظ على وحدة العرب وقوتهم.

الدرس الرابع والعشرون

تابع رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وتفصيل حياته

- ١ -

في السنة العاشرة من الهجرة، مرض النبي صلى الله عليه وسلم بالحمى، وتوفي في المدينة، وكان له من العمر ثلاث وستون سنة. ويصادف عام وفاته عام (٦٣٢) من ميلاد سيدنا عيسى.

وقد دفن في غرفته التي توفي فيها في مسجده الشريف. لأن الغرف التي كان يسكن فيها

النبي صلى الله عليه وسلم وزوجاته كانت متصلة بالمسجد، ولم يخلف من النسل إلا ابنته السيدة «فاطمة»، وهي زوجة الإمام علي ووالدة الإمامين «الحسن والحسين». أما بقية أولاد النبي، صلى الله عليه وسلم، فقد ماتوا في حياته. ولذلك فإن كل الأشراف أولاد النبي صلى الله عليه وسلم، إنما ينتمون له عن طريق ابنته السيدة فاطمة.

- ٢ -

قضى النبي عليه الصلاة والسلام بعد نبوته ثلاثة وعشرين عاماً. منها ثلاثة عشر عاماً في مكة وعشرة في المدينة. وقد جاهد في أثنائها في سبيل الله ونشر الدين الإسلامي جهاداً عظيماً. وبذل كل قواه في هداية العرب وتوحيد كلمتهم. وتحمل كل عناء راضياً مرتاحاً. لأنه إنما كان ينفذ أمر ربه ويؤدي واجبه. وقد أقر الله عينه في حياته، إذ إنه لم يمت حتى كان الدين الإسلامي منتشراً في أكثر أنحاء جزيرة العرب.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام متحلياً بجميع الفضائل التي أمر الناس بها كالصدق والأمانة والحلم والكرم والعدل، والوفاء والعفو والنظافة، وحسن المعاملة، وعمل الواجب، والاعتراف بالحقيقة، والانتصار للحق. ومتجنباً لجميع النقائص التي نهاهم عنها كالكذب والخيانة والغلظة والغدر وحب الباطل. وهذا ما حببه للناس، وجعلهم يصدقون برسالته، ويستجيبون لدعوته، لأنهم رأوا أفعاله مطابقة لأقواله، ولم يروه يطمع في مال ولا ملك ولا جاه. فالإنسان الذي يأمر بشيء يجب أن يفعله قبل غيره. وإلا فلا يكون لكلامه تأثير في الناس.

- ٣ -

أما الدين الإسلامي فأساسه واضح في القرآن الكريم. والقرآن الكريم هو كلام الله المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة الوحي وفي الأحاديث الشريفة التي هي كلام النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، والتي كان يحدث بها المسلمين رجالا ونساء في المسجد أو في الخطب أو في الحروب. وفي القرآن الكريم والأحاديث الشريفة قواعد كثيرة، إذا سار الإنسان عليها كان من أحسن الناس أخلاقاً، وأكثرهم هناء وعزة وقوة.

فمن الآيات الكريمة:

«لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا» «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي» «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» «ولله العزة ولرسوله والمؤمنين».

ومن الأحاديث الشريفة:

«المسلم من سلم الناس من لسانه ويده» «من حسن إيمان المرء تركه ما لا يعنيه».

«النظافة من الإيمان» «إذا ذلت العرب ذل الإسلام» «لا يكمل إيمان أحدكم ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١٢].

الفصل السابع
الخلفاء الراشدون

الدرس الخامس والعشرون
أبو بكر الصديق

- ١ -

لما توفي النبي عليه الصلاة والسلام حار المسلمون في أمرهم. وتذاكروا في ما يجب عمله، فقر رأيهم على انتخاب رئيس لهم، يقوم مقامه، وخشوا إذا لم يفعلوا ذلك أن يتشتت شملهم، وتتفرق كلمتهم، ويقع الفساد بينهم.

وقد وقع اختيارهم على أبي بكر الصديق، ليكون رئيساً لهم، وخليفة النبي صلى الله عليه وسلم فيهم. لأنه كان رجلاً فاضلاً عادلاً محبوباً، كبير العقل كثير الإحسان واسع الصدر.

وقد خطب في المسلمين بعد انتخابه فقال:

«أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فاعينوني، وإن أخطأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت، فلا طاعة لي عليكم».

وهذه خطبة جميلة جداً. تدل على قوة عقل أبو بكر وعدله ومحبته للحق ومصالح المسلمين. وتدلنا أيضاً على واجب الملك نحو رعيته، وواجب الرعية نحو ملكها.

ومن جميل ما يروى في تعفف أبي بكر عن أموال المسلمين أن زوجته اشتهت مرة أكل الحلو. فطلبت من زوجها ذلك فقال لها: ليس لدينا مال نشتري به. فقالت له: انا أوفر من نفقتنا

في بضعة أيام، ونشتري به، فأذن لها بذلك. فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء قليل من المال. فلما أبلغته ذلك وأعطته المال ليشتري به الحلو، أخذه ورده إلى بيت مال المسلمين، وقال لزوجته: لقد ظهر لي أنه يمكننا أن نوفر شيئاً مما هو مرتب لنا، فليس لنا فيه حق. ثم انقص من راتبه الشهري بمقدار ما وفرته زوجته.

ووقع بين أبي بكر ورجل آخر خلاف. فخرجت كلمة من أبي بكر كسرت قلب الرجل. فندم أبو بكر ندماً كبيراً، وقال للرجل قل لي مثلها فأبى الرجل. فذهب أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، واعترف بذنبه، وقال له إني لن استريح ما لم يقل هذا الرجل كلمة مثل كلمتي، أو يغفر لي إياها. فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم، وأحضر الرجل، وكلمه في ذلك. فقال الرجل إني أكره أن أقول لأبي بكر سوءاً. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إنك على حق في ذلك، فإن الإنسان لا ينبغي أن يقابل الشر بمثله. ولكن أبا بكر اعترف بخطئه، وندم عليه، فيحسن لك أن تصفح عنه. فصفح الرجل، وهو يتعجب من كرم نفس أبي بكر.

وقد كان أبو بكر غنياً صاحب ثروة، أنفقها جميعها في سبيل نصرة الله، ونصرة النبي صلى الله عليه وسلم، حتى انه لم يبق لنفسه ما يلبسه ولا لبيته ما يأكله إلا القليل. ويروى أنه كان، وهو خليفة، إذا اتسخ ثوبه، لبس العباءة، وأقام في بيته، حتى يغسل الثوب وينشف، ثم يلبسه لأنه ليس عنده ثوب آخر.

وقد ظل أبو بكر في الخلافة سنة وثلاثة أشهر، وتوفي سنة ١٣ للهجرة النبوية، وسنة ٦٣٤ للميلاد المسيحي. ودفن في مسجد النبي عليه السلام في المدينة المنورة، وقرب قبر النبي(١٣).

الدرس السادس والعشرون

تابع الخلفاء الراشدون

عمر بن الخطاب

- ١ -

لما مرض أبو بكر مرض الموت، أوصى بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب وهذا هو الخليفة الثاني من الخلفاء الراشدين. وسيدنا عمر مشهور بالعدل والشجاعة وحسن التدبير.

ومن جميل ما يروى عن عدله، انه جاء إليه رجل من مصر، وهو خليفة. فقال له: إني عائذ بك من الظلم. فأجابه: قد جاءك الانصاف، فما هي قصتك يا رجل؟ فقال له الرجل: لقد تسابقت مع ابن الوالي فسبقته، فلما لحق بي أخذ سوطه وجعل يضربني، ويقول لي «كيف تسبقني، وأنا ابن الأكرمين»؟

فكتب عمر إلى الوالي يأمره بالحضور إلى المدينة، هو وابنه. فلما قدما أمر عمر الرجل

المصري أن يأخذ السوط، ويضرب ابن الوالي أمامه وأمام أبيه. فأحب المصري أن يعفو عن خصمه فرفض عمر. فتناول المصري السوط، وأخذ يضرب ابن الوالي، وسيدنا عمر يقول له: «اضرب ابن الأكرمين - اضرب ابن الأكرمين» ثم قال لأبيه: كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!

- ٢ -

ووقف عمر مرة خطيباً وقال أيها الناس إنما الخليفة رجل مثلكم يخطىء ويصيب. فمن رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه. فقام رجل وقال: لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا. فقال عمر. الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر.

وأرسلت زوجة أحد الملوك مرة إلى امرأته عقداً من اللؤلؤ هدية. فلما بلغه ذلك أخذه ووضعه في بيت مال المسلمين. وقال لزوجته، لو لم تكوني زوجة الخليفة، لما جاءتك الهدية.

وبلغه مرة أن أحد أبنائه شرب الخمر. وفي القرآن الكريم نص على من يشرب الخمر. فأمر بجلد ولده فمات تحت الجلد. ولم تأخذ الخليفة بولده رأفة ولا رحمة في سبيل تنفيذ أوامر الدين.

إن سيدنا عمر بقي في الخلافة عشرة أعوام تقريباً. وقد مات مقتولاً سنة ٢٣ - هجرية - و ٦٤٤ ميلادية. أما الذى قتله فهو رجل فارسي اسمه (فيروز) قتله انتقاماً منه، لأن العرب فتحوا بلاد فارس في زمنه، وقضوا على ملك الفرس. وقد دفن في المسجد النبوي في المدينة المنورة، قرب قبر أبي بكر الصديق[١٤].

الدرس السابع والعشرون
تابع - الخلفاء الراشدون
خلافة عثمان بن عفان

- ١ -

بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب انتخب المسلمون عثمان بن عفان خليفة. وقد كان سيدنا عثمان سخياً كريماً. انفق أكثر ثروته في سبيل الله ونشر الدين الإسلامي.

كان النبي صلى الله عليه وسلم، قرر أن يرسل جيشاً إلى «تبوك» لمحاربة بعض أمراء الغساسنة، لقتله أحد رسل النبي. وكانت تلك السنة سنة قحط وجوع في المدينة. ولم يكن في بيت مال المسلمين ما يكفي لتجهيز الجيش. فحزن النبي حزناً عظيماً. فجاء عثمان إلى النبي وقال له: «فداك أبي وأمي يا رسول الله، ماذا يحزنك؟» فقال له: «يحزنني أن لا أقدر على تجهيز الجيش وإرساله إلى تبوك. وأخاف إذا لم أرسله أن تضعف كلمة الله ودعوة نبيه».

فقال له عثمان: «إني أتبرع بجميع ما أملك في سبيل الله وتجهيز الجيش». فسر النبي صلى الله عليه وسلم سروراً عظيماً. وجهز الجيش من مال سيدنا عثمان.

ويروى أن ما تبرع به بلغ أربعين ألف دينار، وخمسمائة فرس، وخمسمائة جمل بعددها.

- ٢ -

إن سيدنا عثمان لبث في الخلافة نحو اثنتي عشرة سنة، ومات مقتولاً، وذلك سنة ٣٥ للهجرة النبوية، وسنة ٦٥٦ للميلاد المسيحي.

أما سبب قتله فهو أن بعض المسلمين اتهموا سيدنا عثمان بمحاباته لأقربائه، وتعيينهم في الوظائف، وترتيب رواتب لهم من مال المسلمين وقد ثار عليه الذين اتهموه في المدينة، وحاصروه في بيته ثم دخل عليه بعضهم وقتله.

إن هذه الفتنة قد سببت للمسلمين ضرراً عظيماً وشراً مستطيراً. لأنها أوقعت بينهم العداوة والبغضاء. وسوف أقص عليك شيئاً من ذلك في دروس آتية[١٥].

الدرس الثامن والعشرون

تابع ـ الخلفاء الراشدون

خلافة علي بن أبي طالب

- ١ -

بعد قتل عثمان بن عفان اختلف المسلمون. وقد انتخب الذين هم في المدينة علياً بن أبي طالب خليفة. وقد اشتهر سيدنا علي بشجاعته وسعة علمه.

ومما يروى في شجاعته أن قريشاً أتت مرة إلى المدينة لمحاربة النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه. ومن عادة العرب أن يتبارز شجعانهم في الحروب أمام الجيش. فبرز أقوى فرسان قريش، واسمه «عمرو بن ود العامري».

وكان هذا مشهوراً بين جميع القبائل بالشجاعة والمهارة في المبارزة.

نزل هذا الفارس إلى الميدان وأخذ يصرخ: «هل من مبارز؟ هل من مناجز» أنا الفارس الكرار والبطل المغوار. أنا عمرو بن ود العامري!

فلما سمع الناس باسمه، لم يجرأ أحد على النزول لمبارزته. وكان علي بن أبي طالب لا يزال شاباً، وغير مشهور كشهرة عمرو. ولكنه تقلد سيفه، ولبس درعه، وركب حصانه، وخرج لمبارزة الفارس.

- ٢ -

لما رأى عمرو علياً قال له: من أين أيها الفتى؟ وكيف تخاطر بنفسك وتخرج لقتالي وأنت لا تزال حديث السن. اشفق على شبابك وارجع إلى أمك. فأجابه: أنا علي بن أبي طالب. ولسوف ترى مني اليوم الأهوال، ولن ترجع إلى قبيلتك إلا ملطخاً بدمك.

فغضب الفارس من كلام الإمام علي وبدأ بمبارزته. وقد ضرب الإمام بسيفه ضربة شديدة فدخل السيف في درع الامام ولم يخرج، وحينئذ ضربه الإمام علي بسيفه ضربة شديدة أطارت رأسه. فكبر المسلمون حينئذ وهتفوا للإمام حتى ارتجت الأرض من تكبيرهم وهتافهم.

- ٣ -

كان الإمام علي عالماً بأصول الدين الإسلامي، واقفاً على أسراره حتى يروى عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال في حقه «أنا مدينة العلم وبابها علي بن أبي طالب». ولما ولي الخلافة، لم يأخذ من بيت المال إلا ما هو ضروري جداً له، وكان لا يتنعم في مأكل ولا ملبس، وقد مات هو الآخر مقتولاً سنة ٤٠ للهجرة، و ٦٦١ للميلاد المسيحي، بعد أن لبث في الخلافة نحو خمسين سنة. وسأذكر لك قصة قتله في درس آت.

- ٤ -

هؤلاء الأربعة «أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، هم الخلفاء الراشدون. وقد دامت مدتهم نحو ثلاثين سنة، وقد سماهم المسلمون بهذا الاسم الطيب لأنهم كانوا يقتدون بالنبي صلى الله عليه وسلم في أعمالهم وأخلاقهم. ولم يكونوا يهتمون إلا لمصحلة المسلمين وخيرهم، ونشر الدعوة الإسلامية في أقطار الأرض، والمحافظة على الشريعة وأحكامها والزهد في المال وعدم الالتفات لأشخاصهم وراحتهم. وهذا ما جعل المسلمين إلى اليوم يحترمونهم، ويعترفون لهم بالفضل، ويعتبرونهم أحسن ملوك المسلمين وأرشدهم.

وفوق هذا فلم يوص أحد منهم بالخلافة من بعده لأولاده، أو أحد أقاربه، مثل ما يفعل الملوك اليوم، لأنهم كانوا يعتقدون أن رآسة المسلمين يجب أن تكون في أحسن المسلمين أخلاقاً، وأقواهم إرادة، وأشفقهم على الرعية، وأبصرهم في الأمور. وهذا لا يتيسر إلا إذا كان المسلمون أحرار، ينتخبون رئيسهم انتخاباً بدون مجاملة ولا محاباة.

إن العرب في زمن الخلفاء الراشدين قد قاموا بأعمال عظيمة، وفتحوا بلاداً واسعة، وبدأوا في تنظيم ملكهم، وهذا ما سأحدثك عنه في الدروس الآتية[١٦].

الفصل الثامن
«الأعمال التي تمت في عهد الخلفاء الراشدين»

الدرس التاسع والعشرون
حروب الردة واخضاع المرتدين

- ١ -

كان بعض القبائل يظن أن النبي لا يموت. وكان بعضها يظن أن الإسلام ينتهي أمره بموت النبي. فلما مات رجعت هذه القبائل عن الدين الإسلامي، وارتدت إلى أديانها القديمة، حيث كان بعضها يعبد الأصنام الحجرية وبعضها يعبد النجوم. ثم امتنع بعض القبائل أيضاً عن إطاعة الخليفة أبي بكر ولم يقر له بالرئاسة، ورفض أن يدفع لبيت مال المسلمين زكاة المواشي والزرع، ظناً منه أنها جزية، والعربي يأنف أن يدفع الجزية، لأن الجزية ضريبة يدفعها الضعيف للقوي والمغلوب للغالب.

وقد ظهر كذلك في بعض أنحاء الجزيرة أربعة رجال وامرأة قاموا يقلدون النبي، صلى الله عليه وسلم. فادعوا كذباً أنهم أنبياء ينزل عليهم الوحي من السماء. وأخذوا يدعون قبائلهم إلى الايمان بهم، وعدم اتباع خليفة النبي عليه السلام.

- ٢ -

اهتم الخليفة أبو بكر بهذه الحوادث اهتماماً عظيماً، وجمع رؤساء المسلمين، وشاورهم في ما يجب عمله. فرأوا أنهم إذا تركوا المرتدين سرى عملهم إلى غيرهم. وإذا لم يهتموا للأنبياء الكاذبين أثروا في القبائل، فيضعف حينئذ أمر الإسلام والمسلمين بعد أن جاهدوا هم والنبي، صلى الله عليه وسلم، مدة طويلة في تقويته واعلاء شأنه. فقرروا محاربة القبائل المرتدة

والممتنعة عن الزكاة، والأنبياء الكاذبين، إلى أن تعلو كلمة الله، وترجع هذه القبائل عن غيها، إلى طريق الحق والصواب.

وبينما هم في المشاورة، قام «خالد بن الوليد» أحد أبطال المسلمين وشجعانهم، وقال: إني أقدم نفسي لهذا الجهاد. وأعاهد الله أن أسل سيفي هذا ـ وسل سيفه ـ فلا أغمده حتى تهدأ هذه الفتنة، ويرجع الإسلام إلى قوته وعزه، أو أموت شهيداً، فأقضي واجبي نحو الله ودينه.

ففرح المجتمعون فرحاً عظيماً من كلام خالد، لأنهم يعرفون فيه الشجاعة والقوة. وقد شكره الخليفة وقال له: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سماك «سيف الله المسلول». وإني منذ الآن، قد عينتك قائداً لجيوش المسلمين في هذه الحروب.

ـ ٣ ـ

هل تحب أن تعرف لماذا سمى النبي صلى الله عليه وسلم خالداً باسم: «سيف الله المسلول»؟

إن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان أرسل جيشاً من المسلمين لتأديب بعض القبائل التي كانت تعتدي على قوافل المسلمين في بلاد الشام. وعهد بقيادة الجيش إلى «زيد بن حارثة»، وأوصى بالقيادة «لجعفر بن أبي طالب»، إذا قتل زيد و «لعبد الله بن رواحة»، إذا قتل جعفر. فإذا قتل عبد الله فالجيش ينتخب له قائداً.

فلما ذهب الجيش قابله العدو بعدد عظيم، ووقعت بين الجيشين حرب شديدة، قتل فيها القائد الأول زيد، فحل محله جعفر، وحمل الراية وتقدم أمام المسلمين، فلم يلبث أن قتل أيضاً. فتقدم القائد الثالث عبد الله، وحمل الراية فقتل هو الآخر، فانتخب المسلمون «خالداً بن الوليد» للقيادة.. فرتب الجيش ترتيباً جيداً. ووضع الشجعان الأقوياء في مقدمة الصفوف، وكان الأعداء أكثر عدداً من المسلمين، فأحاطوا بهم من كل جانب. ولكن خالداً لم ييأس، وأخذ يهجم على الأعداء هجوم الأسود. وكلما انكسر في يده سيف أخذ غيره، إلى أن فتح الطريق أمام الجيش. وخرج وإياه من الحصار سالماً، ورجع إلى المدينة بعد أن كاد الجيش يفني عن آخره. ولما قص خبر الواقعة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، تهلل وجهه إعجاباً ببطولة خالد، وقال لأصحابه «إن الله سل هذا السيف على أعدائه، ولن يقهر جيش هو فيه». وصار يلقب منذئذ «سيف الله المسلول».

واحب أن أقول لك إن هذه الحرب وقعت قرب مدينة معان في شرق الأردن، وتعرف هذه الحرب في كتب التاريخ العربي بغزوة مؤتة[١٧]. وان جعفر بن أبي طالب مدفون في جهة الكرك، وله قبر معروف.

ـ ٤ ـ

إن خالداً بن الوليد قاد جيشه، وأخذ يحارب المرتدين والأنبياء الكاذبين حرب الأبطال،

ووقعت بينه وبينهم معارك شديدة انتهت بانكسارهم ورجوعهم للدين الإسلامي، وطاعة الخليفة وأداء الزكاة. أما الأنبياء الكاذبون فقد تخلى عنهم أتباعهم، لأنهم كانوا يعدونهم باسم الله بالإنتصار على المسلمين، فلم يتحقق وعدهم، وقد قتل بعضهم في الحروب، وثاب البعض الآخر ورجع إلى الصواب(١٨).

الدرس الثلاثون

«تجهيز الجيوش وإرسالها للفتح»

- ١ -

إن النبي عليه السلام كان يفكر في نشر الدين الإسلامي في الأقطار المجاورة لجزيرة العرب، وهي سورية وفلسطين ومصر والعراق، وبلاد الفرس، ولكنه لم يتيسر له ذلك في أيام حياته.

فلما انتهى الخليفة أبو بكر من أمر المرتدين، وأصبحت جزيرة العرب جميعها تدين بالدين الإسلامي تحت لواء خليفة النبي، صلى الله عليه وسلم، فكر في تنفيذ فكرة النبي، وإرسال الجيوش إلى الأقطار المذكورة، لفتحها، ونشر الدين الإسلامي، وسلطان العرب فيها.

كيف كانت حالة هذه الأقطار يا ترى؟

إن سورية وفلسطين ومصر كانت في زمن سيدنا أبي بكر تحت حكم دولة «الرومان البيزنطيين»، التي كانت عاصمتها «القسطنطينية». وكان القسم الأعظم من سكانها متديناً بالدين المسيحي الذي كان هو دين الدولة المالكة. وكان يوجد في فلسطين عدد كبير من اليهود والسمرة بينهم وبين النصارى عداوة وبغضاء. وكان أهل المدن على اختلاف مذاهبهم يئنون من ظلم دولة الرومان، لأنها كانت تأخذ منهم ضرائب كثيرة، وتدخل في أمورهم الدينية، وتساعد بعضهم على بعض. وكثيراً ما كان يقع مذابح بين أصحاب المذاهب المختلفة من المسيحيين. وكذلك كانت الحال بين اليهود والنصارى.

وكانت المدن والأراضي القريبة إلى البادية، مثل شرق الأردن، وبلاد حوران وبادية الشام المحاذية لحمص وحماه وحلب مملوءة بالقبائل العربية. ومنهم كثيرون نصارى كالغساسنة الذين مر بك ذكرهم.

أما العراق فقد كان في ذلك الوقت تحت حكم دولة الفرس، وكان ممتلئاً بالعرب أيضاً، ومنهم كثيرون متدينون بالدين النصراني من عهد ملوك المناذرة، ولا بد أنك تذكر ذلك لأنه مر بك في درس سابق. وقد كانت دولتا الفرس والرومان في حالة سيئة، لأن زعماءها كانوا في نزاع وحروب في ما بينهم، كل واحد منهم كان يزاحم الآخر، ليكون هو صاحب النفوذ والحكم في الدولة.

- ٣ -

لما علم المسلمون أن الخليفة عزم على تجهيز الجيوش وإرسالها للفتح والجهاد فرحوا فرحاً عظيماً، لأنهم كانوا قد سمعوا منه في خطبته يقول: «لا يدع أحد منكم الجهاد، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل» ولأنهم سيذهبون إلى نشر الدين الإسلامي، وفتح بلاد مملوءة بإخوانهم العرب، فتطوع كل من يقدر على حمل السلاح من المسلمين، سواء منهم سكان المدن، مثل مكة والمدينة والطائف، أو القبائل التي تعيش تحت الخيام وبيوت الشعر. واصطحبوا ما عندهم من أسلحة بيضاء كالسيوف والرماح والحراب والدروع والمغافر «طاقية حديدية تلبس في الرأس» والأقواس والنبال، من نوع ما ترى في الصورتين. وأحضروا ما عندهم من خيل وجمال وبيوت شعر. ومنهم من أخذ معه نساءه وأولاده، لأن البدوي حين ينتقل من مكان إلى مكان، ينتقل مع نسائه وأولاده، كما علمت ذلك من الدروس السابقة. ولأن النساء العربيات متمرنات على أعمال الحرب، مثل تضميد الجراح، وتمريض المرضى، ونقل الماء للمحاربين، وتشجيعهم بالزغاريد والأهازيج «النشائد الحربية». فكنت ترى خارج المدينة الجموع العظيمة، والحركة الشديدة، كأن القيامة قائمة.

- ٤ -

وقد اختار الخليفة البطل «خالداً بن الوليد» لقيادة جيش العراق. والأبطال «أبا عبيدة بن الجراح» و«عمراً بن العاص» و«يزيد بن أبي سفيان» و«شرحبيل بن حسنة» لقيادة جيوش الشام وفلسطين.

ولما تم الاستعداد خرج أبو بكر وكبار الصحابة لتوديع الجيوش وقوادها. ثم جمع القواد وكبار رجال الجيوش، وخطب فيهم يحمسهم ويقوي نفوسهم، ويعد الشهداء منهم بالجنة، والمجاهدين منهم بعظيم الأجر والثواب. ومن جميل ما وصاهم به قوله لهم «لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

الدرس الواحد والثلاثون

فتح العراق

- ١ -

كان البطل خالد بن الوليد أول البادئين في العمل. فإنه حينما وصل إلى العراق، دعا القبائل العربية إلى مناصرته قائلاً لهم: إن العز الذي يناله العرب المسلمون يعزهم. وإنهم إذا انكسروا، فذل ذلك يلحق بهم. فلبى دعوته كثير من القبائل، وأسلموا، ودخلوا في الجهاد تحت لوائه.

وقد توفق إلى فتح قسم كبير من بلاد العراق، وإسقاط حكم الفرس عنه، وإدخاله تحت حكم العرب المسلمين في مدة قصيرة. ومما استولى عليه مدينة «الحيرة» التي كانت عاصمة دولة المناذرة العربية.

- ٢ -

وقد كان خالد يدعو الناس إلى الدين الإسلامي، فمن أسلم أصبح له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم. لأنه يكون قد اعتنق دينهم، وأصبح أخاً لهم. والقرآن الكريم يقول: «إنما المؤمنون اخوة». ومن أبى أن يسلم كلفه بدفع الجزية للمسلمين. ودفع الجزية دليل الخضوع للمسلمين، وعدم معاداتهم. ولم يكن يحارب إلا من يظهر للمسلمين العداء، ويرفض دفع الجزية. وقد طلب كثير من أهل المدن والقرى العراقية الأمان والصلح، على أن يبقوا على دينهم، ويدفعوا الجزية. فكان خالد يقبل منهم، ويصالحهم، ويرتب عليهم جزية زهيدة.

- ٣ -

وبينما كان خالد في العراق جاءه أمر من الخليفة يأمره بأخذ قسم من الجيش، والذهاب به إلى بلاد الشام، لمساعدة جيش المسلمين. وقد عينه الخليفة رئيساً لقواد الجيوش الشامية. فرتب خالد أمور العراق، ووضع فيها جنداً لحمايتها، وعين حكاماً من المسلمين لتدبير شؤونها، ووكل عنه قائداً ماهراً، وعزم على السفر إلى سورية ببقية الجيش.

وقد خشي خالد أن يتأخر عن مساعدة جيوش الشام، إذا سار في الطريق المعتادة، لأنها طويلة جداً. وقال في نفسه: ربما كان المسلمون في ضيق شديد، وأنه من الواجب علي أن أسلك طريقاً قصيراً. وكانت طريق الصحراء هي أقصر الطرق. ولكن قلة الماء في الطريق كانت عثرة في سبيله.

وأخيراً فكر بطريقة مدهشة: أعطى أمر بأخذ عدد عظيم من الجمال، وبسقيها ماء كثيراً، وبتحميلها ماء كثيراً كذلك.

أتدري ماذا قصد بفعله هذا؟ إن الجمال إذا شربت ماء كثيراً، خزنت في بطنها ما يزيد عن حاجتها إلى وقت آخر. فقال: أسقي الجند من الماء الذي على ظهور الجمال. واذبح الجمال شيئاً فشيئاً. فأسقي الخيل من الماء المخزون في بطنها. وبذلك ننجو من العطش. وبهذه الطريقة سار هو وجيشه على ظهور الخيل مسرعين، سالكاً أقصر الطرق في الصحراء. واستطاعوا أن يصلوا إلى بلاد الشام في مدة قصيرة سالمين(١٩).

الدرس الثاني والثلاثون

فتح الشام

- ١ -

لما وصل خالد إلى جهات الشام، وجد الجيوش الإسلامية مستولية على بلاد البلقاء وحوران، ومعسكرة عند نهر «اليرموك». ووجد جيوش الرومان أيضاً معسكرة عند هذا النهر. وكان عدد هؤلاء أضعاف عدد الجيوش الإسلامية، وكانت عددهم ومؤونتهم أوفر.

فلما علم المسلمون بوصول خالد، فرحوا فرحاً عظيماً، وبشر بعضهم بعضاً، لأنهم كانوا يحبونه، ويعرفون مقدرته في الحروب.

وقد اجتمع خالد مع القواد ورؤساء الجيوش، وتذاكروا في ما يجب عمله. وقد خطب فيهم خالد قائلاً: «إنكم لترون الروم، وقد جمعوا لكم كل ما يقدرون عليه من الجند، وعدد الحرب. وهم قريبون من مدنهم ومعسكراتهم، ونحن بعيدون عن أهلنا، وخليفتنا. فليس لنا إلا أن نتعاهد على الاستماتة في الحرب. إننا إذا حاربنا مستميتين وانتصرنا في هذه المعركة على الأعداء، فقد انتصرنا على الروم نهائياً. وإذا فشلنا فقد فشلنا نهائياً. وخير لنا أن نموت ونفنى جميعاً من أن نفشل. فالفشل ذل وعار، والعربي لا يرضى بالذل والعار. وأنا أول من يعاهدكم على الاستماتة في الحرب.

حينئذ تحمس الحاضرون وصاحوا بصوت واحد: ونحن كذلك يا أبا سليمان. وقام الجميع، وتحالفوا على الثبات والاستماتة في الحرب في المعركة القابلة.

- ٢ -

وفي الصباح امتطى خالد صهوة جواده، وأخذ يرتب الجيوش ترتيباً جديداً، على نمط ترتيب الرومان. فجعل لها ميمنة وميسرة وقلباً، وعين لكل قسم منها قائداً من أبطال القواد.

ومن جميل ما وقع، أنه بينما كان خالد يرتب الجيش، جاءته السيدة «خولة بنت الأزور» ومعها بعض النساء، وطلبن منه أن يجعل للنساء نصيباً في شرف الجهاد في هذه الحرب. وكانت خولة مشهورة بالشجاعة، فشكر خالد النساء على غيرتهن. ورتبن أقساماً: قسماً محارباً بقيادة خولة، وقسماً لتضميد الجراح ومعالجة المرضى، وقسماً لتحضير الماء والطعام، وقسماً لتشجيع المحاربين بالزغاريد والأناشيد.

وقد أخذ خالد هو والقواد يطوفون بين المجاهدين، ويحمسونهم ويذكرونهم بالآية الكريمة «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين».

ومما يروى أنه سمع رجلاً من العرب يقول: ما أكثر الروم وأقل العرب، فصرخ به خالد

وقال له: بل قل ما أقل الروم وأكثر العرب، فإنما الكثرة بالشجاعة والثبات وليست بالعدد.

- ٣ -

بعد ذلك وقف خالد أمام الجيش، وصرخ صرخة عظيمة «الله أكبر الله أكبر»، وهجم بجواده على جيش الرومان. فتبعه العرب مكررين «الله أكبر الله أكبر»، وهجموا هجمة واحدة عظيمة، ارتجت الأرض منها. وقد هلعت قلوب الرومان من هتاف العرب وحماسهم. وكانت بين الجيشين معركة حامية جداً، استمات فيها العرب، وأظهروا من الشجاعة والبطولة ما يعجز عن الوصف.

وكان خالد في مقدمة الصفوف، وكلما رأى كتلة قوية من العدو هجم عليها، وشتتها، وأعمل السيف في رقاب رجالها. فصار فرسان الروم وجنودهم يجفلون منه، كما تجفل الغنم من صولة السبع. وقد كسر في يده في ذلك اليوم عدة أسياف، وقتل من تحته بضعة أحصنة.

ولم يأت آخر النهار، حتى كان جيش الرومان على آخر رمق، ولم يعودوا يقوون على الوقوف أمام العرب، فولوا الأدبار، وركنوا إلى الفرار، فتبعهم العرب. فألقى الرومان أنفسهم في نهر اليرموك، فمات منهم الألوف، ووقع في يد العرب منهم ألوف من الأسرى أيضاً، عدا من مات في المعركة، من العدد العظيم.

- ٤ -

وقد أظهر النساء، لا سيما «خولة» بطولة عجيبة، فكن يصلن على الأعداء صولات هائلة، ويخترقن صفوفهم بقلب لا يهاب الموت. وما أجمل منظر النساء الأخريات إذ كان منهن من يضمد جراح الجرحى، ومنهن من يداوين المرضى، ومنهن من ينقلن الماء ويهيئن الطعام، وجماعة وقفت تزغرد حاملة أطفالها على يديها لتريهم الحرب القائمة.

ويروى أن بعض الجبناء انهزموا أثناء المعركة، فما وصلوا إلى خيام النساء، حتى هجمن بعمدان بيوت الشعر، وصرخن في وجوههم. فخجلوا وعادوا إلى المعركة.

وتعد معركة «اليرموك» من أعظم معارك الفتح الإسلامي، لأنها كسرت همة الرومان، وأوقعت الرعب في قلوبهم. وكانت سبباً في خروجهم من سورية إلى الأبد. وعلينا نحن العرب أن نقدس ذكرى هذه المعركة، لأن بلادنا العزيزة سورية وفلسطين أصبحت بعدها عربية. ولن تزال كذلك إلى الأبد.

أما تاريخ هذه المعركة فهو سنة ١٣ هجرية، وسنة ٦٣٦ ميلادية[٢٠].

الدرس الثالث والثلاثون

تابع فتح - فتح الشام

- ١ -

بعد انتهاء معركة اليرموك جمع القواد الأسلاب والغنائم التي تركها الأعداء، فإذا هي كثيرة جداً، لا تكاد تقع تحت إحصاء. فأفرز رئيس القواد خالد بن الوليد خمسها وأرسله إلى المدينة. لأن القانون الديني يأمر بفرز خمس الغنائم لبيت مال المسلمين. وقسم الباقي على الجنود المجاهدين رجالاً ونساء، كما أمر الله ونبيه. وقد أعطى الفارس ضعف حصة الراجل، حسب حكم الشريعة الإسلامية، لأن جهده أكثر، وعمله أعظم.

- ٢ -

وبينما كان جيش المسلمين على نهر اليرموك، يستعد للتوغل في بلاد الشام، جاء الخبر من المدينة بوفاة الخليفة أبو بكر، وتولية «عمر بن الخطاب» مكانه. وجاء كتاب إلى القائد «أبي عبيدة عامر بن الجراح» من الخليفة الجديد، يخبر بأنه عينه رئيساً للقواد، بدلاً من خالد بن الوليد.

فدعا أبو عبيدة، خالداً وبلغه أمر الخليفة. وقد أراد أبو عبيدة أن يسليه، ظناً منه أن يكون تأثر من تعيينه مكانه. فقال له خالد: «إنما أنا جندي من جنود المسلمين. وسواء علي أكنت رئيساً أو مرؤوساً، ولن تجد مني إلا خدمة مخلصة، وطاعة تامة. كنت آمرك فتطيعني، وأنت اليوم تأمرني فأطيعك. وسأكون بيدك سيفاً تضرب به الأعداء».

فعظم البطل خالد في عين أبي عبيدة وسائر القواد، لأن في كلامه هذا دليلاً على عظمة نفسه، وطيب سريرته. فالنفس الكبيرة لا يهمها المنصب، وإنما يهمها أن تقوم بواجبها.

- ٣ -

وقد تشاور القواد فيما يجب عليهم أن يفعلوه بعد أن انتهوا من معركة اليرموك، فقرروا أن يذهبوا إلى فتح (دمشق الشام)، لأن بقية جيش الروم قد انسحب إليها، وتحصن فيها.

فرتب أبو عبيدة الجيش، وعين خالداً بن الوليد قائداً على قسم منه. وتقدموا جميعاً نحو دمشق. فلما جاؤها وجدوها مقفلة الأبواب، ووجدوها ذات أسوار حصينة. فقرروا حصارها والتضييق على الروم فيها.

وقد كان الأهالي يكرهون الروم، ويتمنون خروجهم من بلادهم، لما كانوا يرونه من حكامهم وقوادهم من الظلم والجور. وبينما كان خالد بن الوليد محاصراً في جهة من جهات

دمشق وقع أمامه سهم. فتناوله، وإذا عليه ورقة ملفوفة، ففتحها فوجد فيها ما معناه: «إن الروم منهمكون هذا المساء في عيد لهم، فاستعدوا، لمهاجمة الباب».

- ٤ -

فرح خالد فرحاً عظيماً، وأبقى الخبر سراً مكتوماً، لئلا ينتبه الروم. فلما جاء المساء، انتخب عدداً من الشجعان، وقص عليهم الخبر، وقال لهم: إني أريد أن أضع سلالم من حبال، وأتسلق على السور، ثم أنزل للمدينة، وأفتح الأبواب للجيش، فمن منكم يشترك معي؟

فأجابوه جميعهم بلسان واحد: نحن جميعنا معك، وطوع أمرك. فشكرهم، وأمرهم بالاستعداد. ثم أرسل إلى القواد، وأعلمهم بما هو عازم عليه. وطلب منهم أن يكونوا مع جنودهم على استعداد تام. وأوصاهم بالكتمان، وعدم الصياح، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

وقد صنع خالد سلالم الحبال، وعلقها على الحائط بالكلاليب الحديدية التي في رأسها، وأخذ يتسلق عليها، هو والشجعان الذين اتفقوا معه. فلما وصلوا إلى أعلى السور، وجدوا الخفراء نائمين من السكر فذبحوهم، ثم نزلوا إلى الباب ففتحوه، وصرخوا: (الله أكبر، الله أكبر) فجاوبهم الجيش بالتكبير، وتقدم الجند نحو الباب، فلم يشعر الروم إلا والمسلمون يقتحمون الباب، ويدخلون المدينة. فهلعت قلوبهم، وأسرعوا إلى الفرار من المدينة. وحينئذ خرج الأهالي، وطلبوا الأمان، فأعطاهم رئيس القواد أبو عبيدة الأمان. وهكذا استولى العرب على هذه المدينة العظيمة، وذلك في السنة ١٥ هجرية.

وقد كان «قيصر» الروم في حمص. فلما علم بسقوط دمشق في يد العرب، انقطع أمله من سوريا. ويقال إنه صعد على ربوة عالية، وصاح وعيونه تفيض من الدمع: «سلام عليك يا سوريا الجميلة، وداعاً لا لقاء بعده». ثم انسحب إلى عاصمته (القسطنطينية)، بعد أن أمر الجيش بالمقاومة بقدر الإمكان(٢١).

الدرس الرابع والثلاثون

تابع - فتح الشام

- ١ -

بعد أن فتح المسلمون دمشق الشام، قسم أبو عبيدة جيشه إلى قسمين، قسم أرسله بقيادة خالد بن الوليد إلى حمص وحماه وحلب، وما جاورها من بلاد سورية الداخلية. وقسم أرسله بقيادة يزيد بن أبي سفيان إلى بيروت وطرابلس وصيدا وصور. وما والاها من بلاد سوريا الداخلية.

وقد جاهدت هذه الجيوش جهاداً عظيماً، وكانوا كلما لقوا جيشاً للروم هزموه، بعد أن

يقتلوا منه قسماً كبيراً. وكلما جاؤا إلى مدينة، وانهزم منها الروم، سارع أهلها إلى التسليم، وطلب الأمان والصلح، والموافقة على دفع الجزيرة. وكان المسلمون يتقبلون ذلك منهم، ويجيبونهم إلى مطالبهم، ويعقدون معهم الصلح على جزية معتدلة، وشروط سهلة. ويعطونهم الحرية في أديانهم ومذاهبهم ومعابدهم وأملاكهم وتجارتهم ومعاملاتهم، ويحمونهم من العدوان، فتمسك بهم أهل البلاد، وأحبوهم، وصاروا يتقربون إليهم، ويفضلونهم على الروم الذين هم بني دينهم.

ـ ٢ ـ

ومن جميل ما يروى من محبة الأهالي للفاتحين العرب، ان الروم تجمعوا قرب حمص، وأرادوا أن يهاجموا المدينة، ليردوا عنها المسلمين. واضطر القائد إلى الخروج من المدينة للاستعداد للحر. فأرسل إليه القائد العام يقول له: يجب أن تدعو أهل المدينة وتقول لهم إن جزيتكم مردودة إليكم، لأننا مضطرون إلى الخروج من المدينة. وربما لا نقدر الآن على حمايتكم. فدعا القائد رؤساء البلدة، وأخبرهم بذلك، فأجابوه: إننا نفضلكم على الروم، وان الجزية لكم في عنقنا، ولو خرجتم الآن عن مدينتنا.

ـ ٣ ـ

بعد أن أتم المسلمون فتح بلاد سورية، أقام خالد بن الوليد في مدينة حمص. وقد مات ودفن فيها، وله كلمة جميلة جداً قالها وهو على فراش الموت، يجدر بكل فتى أن يحفظها، وأن يكتبها، ويعلقها في بيته ليتذكرها، وليتذكر الرجل العظيم الذي قالها.

فلقد جمع أولاده وأصدقاءه وقال لهم:

«شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء».

فللّه ما أعظم نفس هذا البطل الذي استهان بالحياة في سبيل المجد. ولا شك في أن جسماً ليس فيه موضع شبر، إلا وفيه طعنة رمح، أو ضربة سيف، لجسم يضم نفساً عالية كبيرة. وهذا هو السبب في أننا ما نزال نذكره، ونذكر أعماله بكل احترام وتعظيم.

ـ ٤ ـ

هل تحب أن تعرف كيف كانت ادارة البلاد الشامية بعد فتحها؟

إن الخليفة عمر بن الخطاب عين القائد الكبير «أبا عبيدة» حاكماً عاماً على سورية، وأمره بالعدل والإحسان والرأفة بالأهالي. وجعله مستقلاً في أمور البلاد الإدارية، فأخذ يعين الحكام الثانويين والقضاة والقواد. ويوزع الجنود لحماية البلاد بحسب اللزوم، ويجبي الجزية

والضرائب الأخرى، ويقسم الغنائم بين المحاربين، ويرسل حصة بيت مال المسلمين إلى العاصمة، وهي «المدينة المنورة».

وكانت الضريبة المرتبة على الأهالي زهيدة جداً بالنسبة لما كانت عليه في زمن الرومان. وقد استثني منها الشيوخ والطاعنين في السن، والنساء والأولاد، ورجال الدين من سائر الأديان. وهكذا زال عن الأهالي الظلم والشدة اللتين كانوا يقاسونهما من الحكام السابقين. وصاروا يستأنسون بالفاتحين الجدد، ويحبونهم، ويتعلمون لغتهم العربية، ويعتنقون دينهم الإسلامي.

وقد رأى العرب الفاتحون أن بلاد الشام متمدنة، وأن أهلها متنعمون في الملبس والمأكل والمسكن والأثاث، فصاروا يقلدونهم، ويتنعمون بالحياة مثلهم، لأن الدين الإسلامي لا يمنع أهله من التمتع بالطيبات مع الاعتدال(٢٢).

الدرس الخامس والثلاثون
فتح فلسطين

- ١ -

أتدري من هو القائد الذي فتح بلاد فلسطين؟

«إنه عمرو بن العاص». فإن الخليفة «أبا بكر»، حينما عين قواد الجيوش الشامية، عين «عمرا بن العاص» قائد للجيش الذي يفتح فلسطين. فلما انتهت واقعة اليرموك، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً مبيناً، أخذ «عمرو» جيشه، وزحف على فلسطين، لأن نهر اليرموك على حدودها، قرب حمامات «الحمة».

وأول الوقائع التي وقعت بين المسلمين والروم واقعة «بيسان». لأن هذه المدينة أول مدينة في طريق الجيش العربي، وكانت كبيرة عامرة أكثر مما هي اليوم. وقد كان التوفيق حليف العرب منذ أول عمل، إذ إنهم توفقوا إلى فتح هذه المدينة بدون صعوبة كبيرة. فأخذ الروم يهربون من أمامهم وهم يتقدمون، وأخذ الأهالي يسارعون إلى عرض الطاعة، وطلب الصلح، والدخول في حماية المسلمين، وأمانهم مثل ما كان يفعل أهل سورية. ففتح المسلمون بعد بيسان بسهولة مدن طبريا وعكا وحيفا وجنين ونابلس ويافا واللد. وأخذ الروم المنهزمون يتجمعون في مدينة يقال لها «أجنادين»، ولا يعرف اليوم أين تقع هذه المدينة بالتحقيق.

- ٢ -

كانت «أجنادين» مدينة حصينة ذات أسوار ضخمة. فأقفل الروم أبوابها، وعزموا على الدفاع عنها من وراء الأسوار. فحاصرها المسلمون مدة طويلة، وضيقوا على من فيها. فأرسل القائد الروماني، ويسميه مؤرخو العرب (الأرطبون) إلى قائد المسلمين، يطلب منه وفداً

لمفاوضته، لعله يستطيع الاتفاق معه. ففرح القائد، وأحب أن يذهب بنفسه، لعله يكتشف طريقة سهلة لفتح المدينة، إذا لم يتفق مع الروم.

وقد وكل عنه وكيلاً، وأخذ معه بضعة أشخاص من القواد، ودخلوا المدينة، فأخذهم الحرس وأدخلهم على الأرطبون. فسألهم هذا عن قصدهم من المجيء إلى بلاد فلسطين، وحصار المدينة. وقال لهم إنه مستعد لإعطائهم قمحاً وثياباً، إذا كانوا يريدون، على شرط أن يعودوا إلى بلادهم، ويتركوا فلسطين.

فأجابه عمرو «إننا لم نأت لتأخذ قمحاً وثياباً. إنما أتينا لنبشر بالدين الإسلامي الذي يأمر بالخير ومكارم الأخلاق والتوحيد. فنحن ندعوكم إليه. فإذا اسلمتم أصبحتم إخواننا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا. وإذا أبيتم، نطلب منكم أن تدفعوا لنا الجزية، فإذا دفعتموها كنتم أحراراً في دينكم وبلادكم، ونحن ندافع عنكم، ونحميكم. فإن لم تقبلوا، فليس بيننا وبينكم إلا السيف».

- ٣ -

ومما يروى أن الأرطبون لما سمع هذا الكلام القوي اعتقد أن رئيس الوفد هذا هو القائد الأكبر فنوى له الغدر. وأرسل ينبه على الجند بأن يقتلوا الوفد قبل أن يخرج من المدينة. ثم قال للوفد كنا نحب أن نتفق معكم ونكرمكم، لو كنتم تنزلون عن هذه المطالب العظيمة.

وقد أحس القائد بالغدر في عين الأرطبون، فقال له: إن قائدنا الأكبر لم يفوضنا إلا بما قلناه لكم. فإذا شئتم أرسلناه إليكم غداً مع رؤساء الجيش لتتفاوضوا معهم لعلكم تتفقون.

فانخدع الأرطبون، وفرح وقال في نفسه: الأحسن أن أنتظر حتى يأتي القواد الكبار، فأقتلهم. ثم قال لعمرو: لا بأس: أرسلوا لي غداً قائدكم الأكبر، مع رؤساء جيشه. وقولوا له إني مستعد لاكرامهم والاحتفاء بهم. ثم أرسل إلى جنده يأمرهم بالكف عن قتل الوفد.

وهكذا نجا عمرو ورفاقه بدهائه وحسن تدبيره، وخرجوا من المدينة سالمين. وكان في ذهابه قد اكتشف محلاً ضعيف التحصين. فلما رجع هاجمه وتوفق إلى فتح المدينة. فلم يكن من الأرطبون وجيشه إلا أن انهزموا عنها وتركوها للعرب [٢٣].

الدرس السادس والثلاثون

تابع - فتح فلسطين

- ١ -

لم يكن على العرب بعد فتح أجنادين إلا فتح القدس. وكانت تسمى «إيليا». فزحفوا عليها وحاصروها حصاراً شديداً، فتضايق سكانها من الحصار. فذهب وفد منهم إلى قائد الروم

وقال له: لقد تضايقنا من حصار المدينة، وكاد ينفد منا الزاد. فإما أن تدفعوا عنها الحصار، وإما أن نرسل إلى المحاصرين فنصالحهم على ما صالحهم عليه سائر المدن. فطلب القائد منهم أن ينتظروا أسبوعين. فإذا لم يأته مدد فعلوا ما شاؤا.

وقد مضى الأسبوعان، ولم يأت المدد. فأرسل الأهالي وفداً إلى قائد العرب، وقد كان الوفد يحمل علماً أبيض علامة على المسالمة. وكان من العادة أنه لا يجوز قتل من يحمل العلم الأبيض، لأنه يكون مستسلماً. ومن العار أن يؤذي الإنسان المستسلم. والمثل العامي يقول «من سلم لك بذبحه لا تذبحه».

وقد دخل الوفد على القائد العام، فخاطبه رئيس الوفد قائلاً: «لقد أرسلنا بطريقنا صفرونيوس، ورؤساء المدينة لنطلب الصلح. ونحن مستعدون لدفع الجزية، وتسليم المدينة لكم. ولكنا نشترط أن يستلم المدينة خليفتكم بذاته، وأن يعطينا هو ورقة الأمان، والصلح بخط يده».

فوعدهم عمرو بن العاص بإخبار الخليفة بالأمر. ثم أرسل إليه رسولاً بذلك. ففرح عمر بن الخطاب فرحاً عظيماً. وحمد الله على دخول هذه المدينة المقدسة في حكم المسلمين صلحاً وأجاب طلبهم. فجاء إلى القدس، فاستقبله الأهالي بالترحيب، وخرج البطريق لاستقباله، وسلمه مفاتيح المدينة، وأخذ منه كتاب أمان بخط يده.

وقد عاهدهم الخليفة في كتاب الأمان، على أن يكونوا أحراراً في دينهم ومعابدهم، آمنين على أموالهم وأملاكهم. وفرض على الذكور البالغين جزية سنوية زهيدة.

وكان أهل القدس اشترطوا أن لا يسكن اليهود معهم في القدس، لما كان بين النصارى واليهود من العداوة والبغضاء. فقبل الخليفة شرطهم، وأمر اليهود بالخروج من المدينة، والسكنى في المدن الأخرى.

أما جيش الروم، فإنه انسحب من فلسطين إلى مصر، نادباً سوء حظ الدولة الرومانية التي انتهى حكمها في هذه البلاد، بعد أن دام نحو خمسمائة سنة فورث هذا الحكم العرب الذين ظلوا حاكمين. وصارت البلاد في حكمهم عربية، ولن تزال كذلك إلى الأبد إن شاء الله.

أما تاريخ فتح القدس، فهو العام السابع عشر للهجرة النبوية، والعام ٦٣٨ للميلاد المسيحي.

- ٤ -

بعد أن دخلت فلسطين في حكم المسلمين، قسمها الخليفة إلى مقاطعتين أو لوائين. مقاطعة جنوبية، وجعل مركزها الرملة. ومقاطعة شمالية، وجعل مركزها طبريا. وعين القائد «عمرو بن العاص» حاكماً عاماً عليها، وأوصاه بالعدل والرأفة في الأهالي، وعدم المداخلة في شؤونهم الدينية، والشخصية، وعدم إرهاقهم بالضرائب، وبحمايتهم من كل اعتداء.

فاتبع الحاكم العام وصايا الخليفة، وسار بالبلاد سيرة عادلة. وقد عين لها حكّاماً وعمّالاً وقضاة من المسلمين الذين عاملوا الأهالي معاملة الرأفة والعدل. فكان فرح الشعب عظيماً من هذه المعاملة، وأخذ يتقرب من الفاتحين ويتعلم لغتهم ويتدين بدينهم. وأخذت البلاد تنقلب رويداً رويداً إلى بلاد عربية إسلامية، فلم تمض مدة طويلة، إلا وأصبحت كذلك(٢٤).

الدرس السابع والثلاثون

فتح القطر المصري

- ١ -

بعد أن رتب عمرو بن العاص أمور فلسطين وأصبحت تسير سيراً حسناً. استأذن الخليفة بالزحف على القطر المصري وفتحه، لأنه كان يعرف ما فيه من ثروة وعمران.

ولعمرو بن العاص قصة جميلة عن سبب معرفته بالقطر المصري، قبل الإسلام، أحب أن أقصها عليك: قيل إن عمراً كان خرج في تجارة، هو وبعض تجار الحجاز إلى فلسطين. وجاؤا إلى القدس. وكانوا يتناوبون المناظرة على القافلة. وفي يوم من الأيام، كان عمرو صاحب النوبة، فجاء إليه راهب قبطي من أهل اسكندرية، وكان آتيا إلى القدس للزيارة، وكان الحر شديداً فأصابه العطش، فاستسقى عمراً فسقاه حتى روي، ثم قعد ليستريح فنام مكانه. وبينما كان نائماً خرجت أفعى عظيمة من حفرة في جانب الراهب، واقتربت منه وهمت بلدغة، فرآها عمرو بن العاص فجاء إليها وقتلها. فلما استيقظ الراهب، ورأى الأفعى مقتولة إلى جانبه، سأل عمراً عن قصتها، فأخبره بها، فأقبل على عمرو، وقبل رأسه وقال له: «لقد أحياني الله بك مرتين، مرة من العطش، ومرة من الأفعى». ورجاه أن يذهب معه إلى مدينة الإسكندرية، ليكافئة، فقبل وذهب معه، بعد أن شاور رفاقه.

وقد رأى من عظمة مصر وثروتها، وكثرة عمرانها، ومدنية أهلها، ما أعجبه. فلما يسر الله له فتح فلسطين، رأى أن يغتنم الفرصة، ويزحف على القطر المصري، ويفتحه أيضاً.

- ٢ -

بعد أن أذن الخليفة لعمرو بن العاص، سار بجيشه عن طريق غزة والعريش، فاستولى على العريش وما حولها بسهولة. لأن جيش الروم كان قد انسحب منها وتجمع في العاصمة. وهكذا دخل جيش العرب أرض مصر، وأخذ يستعد للحرب والفتح.

وقد أراد «المقوقس» والي مصر أن يفهم شيئاً عن قصد العرب، ويعرف ما هم عليه من القوة، فأرسل وفداً إلى معسكرهم ليتفاوض مع قائدهم.

وقد قال عمرو للوفد ما قاله «للأرطبون» في أجنادين وقد مر بك ذلك في الدرس الرابع

والثلاثين وقد رجع الوفد، وأخبر المقوقس بما رأى وسمع. فطلب من رئيس الوفد أن يصف له المسلمين، فقال له:

«رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة. والتواضع أحب إليهم من الرفعة. وأميرهم كواحد منهم. لا يعرف رفيعهم من وضيعهم. ولا السيد منهم من العبد. وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد. يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في الصلاة».

فكان هذا الوصف مما زاد في هيبة المسلمين في قلوب الأقباط. وقد فكر المقوقس في مصالحة العرب وأخذ الأمان منهم، ولكن قواد الرومان لم يقبلوا، وأصروا على الحرب.

الدرس الثامن والثلاثون

تابع ـ فتح القطر المصري

ـ ١ ـ

بعد أن رفض قواد الروم المصالحة مع العرب، استعد الفريقان وتحاربا. وقد وقعت بينهما معارك متعددة استمات فيها المسلمون وكانوا يحاربون حرب الأبطال. وانتهت بانتصارهم وانكسار جيوش الروم. عند ذلك أرسل الأقباط وفودهم إلى المسلمين يطلبون الأمان، ويقدمون الطاعة. وقد قبل عمرو منهم ذلك، فأعطاهم الأمان ورضي منهم بجزية زهيدة، يدفعها كل رجل بالغ سنوياً: واستثنى منهم النساء والأولاد والعجز والمسنين ورجال الدين. وقد فرح المصريون فرحاً عظيماً بخلاصهم من الروم الذين كانوا يعاملونهم بالشدة، ويأخذون منهم الضرائب الثقيلة، ويتدخلون في دينهم، والذين كانوا يحرقون بطاركتهم الوطنيين، ويجبرونهم على إطاعة البطاركة الغرباء.

وقد ساعد الأقباط المسلمين على الروم، وأخذوا يتقربون من العرب، ويمتزجون معهم، ويتعلمون لغتهم، ويعتنقون دينهم.

وقد بنى عمرو بن العاص مدينة «الفسطاط» وجعلها عاصمة له. ولا تزال آثار هذه المدينة قائمة إلى الآن. وفيها جامع اسمه «جامع عمرو» باق إلى الآن أيضاً. والحكومة المصرية تعتني به. وملك مصر يذهب للصلاة فيه في آخر جمعة من رمضان من كل سنة، احياء لذكرى بانيه العظيم. ويجب على كل عربي إذا ذهب إلى مصر، أن يزور مدينة الفسطاط وجامعها، ليتذكر بطولة العرب وعظمتهم.

ـ ٢ ـ

إن لتسمية المدينة التي بناها عمرو باسم «الفسطاط» قصة جميلة وهي:

«إن عمراً كان له خيمة كبيرة اسمها «الفسطاط». وكانت منصوبة وسط خيام الجيش. فلما أتم فتح القلعة المصرية التي كانوا يسمونها «قصر الشمع»، والتي كان فيها المقوقس، وهي قريبة من الفسطاط، وأراد أن يذهب إلى الاسكندرية، أمر بتقويض (خلع) الخيام. فلما جاؤوا يقوضون فسطاطه، رأى الحمام قد فرخ في أحد جوانبه. حينئذ أمر الجنود بأن لا يقوضوا الفسطاط شفقة على الأفراخ. فبقي منصوباً إلى أن فتح الإسكندرية، ورجع ليقيم بمصر، ويرتب أمورها. ثم أمر ببناء قصر له، وجامع للصلاة، وببناء بيوت لقواد الجيش ورؤسائه في المكان الذي تركوا الفسطاط فيه، وسموا هذه المدينة الجديدة الفسطاط».

ولا شك في أن عمل عمرو بن العاص هذا أمثولة لنا، يجدر أن تكون لنا درساً بليغاً للرفق بالحيوان.

أما فتح الاسكندرية فقد تم سنة ٢١ للهجرة النبوية و ٦٤١ للميلاد المسيحي. وكانت هي عاصمة الروم في القطر المصري. وأظن أنك تذكر أن الذي بناها هو الإسكندر الكبير، فإن ذلك مر بك في دروس التاريخ القديم التي قرأتها في السنة السابقة[٢٥].

الدرس التاسع والثلاثون
فتح بلاد فارس

- ١ -

حينما فتح البطل خالد بن الوليد بلاد العراق، اجتمع رؤساء الفرس وتشاوروا في أمرهم. فقالوا: إننا إذا تركنا العرب يستقرون في العراق ويحكمونه، طمعوا فينا وغزوا بلادنا، وإن من الواجب علينا أن نتحد، وننبذ الفساد والتفرقة، ونتفرغ لدفع العدو عنا.

وقد اتفقوا على انتخاب ملك جديد يطيعونه، وعينوا بطلاً من أبطالهم اسمه (رستم) قائداً عاماً. وأخذوا يستعدون لطرد العرب المسلمين، ويحرضون أهل العراق الذين صالحوهم، على نقض الصلح معهم والثورة عليهم.

- ٢ -

لما رأى قائد المسلمين الذي وكله خالد استعداد الفرس وحركتهم العظيمة، أخبر الخليفة عمر بن الخطاب بذلك، وأخبره أيضاً أن بعض أهل العراق، نقضوا العهد وثاروا على المسلمين.

فجمع أمير المؤمنين، «لقب الخليفة»، رؤساء الصحابة، وأخبرهم بالأمر، وخطب فيهم قائلاً: «إن الفرس أمة عظيمة وقوية، وإننا إذا لم نهتم لمقابلة استعدادها باستعداد مثله، لا تلبث أن ترجع إلى العراق، وتطرد جيشنا، وربما غزت بلادنا لأخذ الثأر، وإني أرى أن أذهب بنفسي، وأن آخذ معي جيشاً كبيراً، فيه جميع رؤساء العرب وأبطالهم، فماذا ترون»؟

فأجابوه بأن الرأي الصواب هو أن يبقى في المدينة، ويرسل جيشاً كبيراً مع أحد القواد العظام، حتى إذا احتاج إلى مدد، كان معتمداً على الخليفة من ورائه.

فرأى الخليفة أن هذا الرأي صائب. فأخذ به، واعترف أنه أحسن من رأيه، وأرسل يعلن النفير العام، ويطلب من جميع القبائل موافاته بالرجال.

وقد عين «سعداً بن أبي وقاص»، أحد كبار قواد العرب وعقلائهم، قائداً عاماً للجيش، وأوصاه بتقوى الله والإخلاص في الجهاد، والوفاء بما يعاهد عليه العدو، سواء كان هذا العهد منه، أو من أحد المسلمين.

- ٣ -

لما وصل سعيد بجيشه إلى العراق، بدأ بترتيب أموره ترتيباً محكماً. ثم أرسل إلى قائد الفرس الأكبر (رستم) وفداً برئاسة أحد عقلاء العرب «المغيرة بن شعبة»، يدعوه إلى الإسلام. فإن لم يقبل دفع الجزية. وإلا فإن السيف يكون الحكم بين الفريقين.

وقد ذهب وفد المغيرة يحمل العلم الأبيض حسب العادة. وأرسل خبراً إلى رستم أنه آت لمقابلته من طرف قائد العرب الأكبر.

فأمر رستم جنده وقواده بأن يتقلدوا أسلحتهم ويلبسوا ثيابهم المزركشة، ويصفوا أفيالهم التي أتوا بها للحرب، كل ذلك لإيقاع الرعب في قلوب أعضاء الوفد ثم أمر بإدخالهم عليه.

ولكن المغيرة ورجاله مروا بين صفوف الجند وقوادهم، دون أن يعبأوا بما رأوا. لأنهم كانوا أقوياء القلوب شديدي الإيمان.

وقد صغر هذا الوفد في نظر الفرس في أول الأمر، لأن رجاله كانوا يلبسون ثياباً بدوية بسيطة، ولم يكن معهم من عدة الحرب غير سيوفهم مغمدة في أجفان قديمة. وقد ظن الفرس أن هذه الهيئات تدل على نفوس أصحابها، ولكنهم غيروا ظنهم، وداخلهم الروع والفزع، حينما رأوا ما فعل الوفد، وسمعوا ما قال.

فإن الوفد حينما دخل على رستم وجده جالساً على عرش عال من الذهب، ووجد القواد والحجاب واقفين وقوف الخضوع والاحترام، فظل يسير إلى أن وصل قرب العرش، ثم صعد رئيسه المغيرة بسرعة، وجلس في جانب رستم، وجلس رفاقه على الكراسي المذهبة التي حوله. وقد اندهش الحجاب من جرأة الوفد، وهجموا عليهم، وأنزلوهم من على الكراسي، وأنزلوا المغيرة رئيسهم عن العرش. وكان في المجلس أناس كثيرون، قد أتوا ليروا ما يفعل الوفد وما يقول. .

حينئذ وقف المغيرة وصاح بصوت جهوري قائلاً:

«لقد كانت تبلغنا عنكم العقول، ولا أرى قوماً أقل عقلاً منكم، انا معشر لا يستعبد

بعضنا بعضاً، ولا فرق فينا بين رئيس ومرؤوس وأمير وصعلوك وقائد وجندي، فظننت أنكم مثلنا، فإذا بعضكم أرباب بعض، وطبقاتكم الرفيعة تستعبد طبقاتكم الوضيعة. ولقد علمت اليوم أنكم ستغلبون على أمركم، وعما قريب سترون مهلككم».

- ٤ -

إن الفرس حينما سمعوا كلام المغيرة، اندهشوا، وأخذ بعضهم ينظر في وجوه بعض، لأنهم رأوا أناساً أقوياء القلوب، أقوياء العقول والكلام. وقد أراد المغيرة بهذا القول أن يحرض الجند والعوام على القواد الكبار، فيفهمهم أنهم مستعبدون، وأنه يجب عليهم أن يرفضوا ذلك، وأن العرب آتون ومعهم الحرية والمساواة والاخاء بين الناس.

ولما سأله رستم عما جاء بالعرب إلى هذه الديار أجاب:

جئنا نطلب ما وعدنا الله بمثل أرضكم وأموالكم، ان أبيتم أن تسلموا، وتقروا لله بالوحدانية، ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة.

فقال رستم: وإن قتلتم قبل ذلك؟ فأجابه المغيرة: من قتل منا دخل الجنة.

فقال له رستم: وإن أبينا أن نسلم؟ فأجابه المغيرة: تدفعون الجزية عن يد وأنتم صاغرون. . . فاغتاظ رستم من هذا الجواب الشديد وقال له:

«كيف تجرؤون على مخاطبتنا بهذا الكلام، وقد كنتم لنا عبيداً وخدماً. وليس عندكم ما تأكلون ولا ما تلبسون»؟

فأجابه المغيرة: «ذلك حالنا قبل أن يهدينا الله وينير قلوبنا، أما اليوم فنحن الأقوياء وأنتم الضعفاء. ولسوف ترون مصداق كلامنا، إذا وقعت الحرب وتطاحنت الجيوش».

فلم يسع رستم إلا أن يصرف الوفد، وأن يأمر بالاستعداد للحرب.

الدرس الأربعون

تابع - فتح بلاد الفرس

- ١ -

لقد وقعت بين جيوش الفرس وجيوش المسلمين معارك عديدة، وكان النصر في عاقبتها للمسلمين، وأعظم معركة وقعت بين الفريقين معركة القادسية، فقد حارب الفريقان فيها حرباً هائلًا. وقد أظهر العرب بسالة عظيمة، فانتصروا انتصاراً مبيناً. وانهزم الفرس هزيمة فظيعة، وفيها قتل قائدهم الأكبر رستم، واستولى العرب على رايتهم المقدسة.

وقد استعان الفرس في هذه المعركة بالأفيال، فنفرت منها خيول العرب في بادىء الأمر،

ولكن العرب أخذوا يصوبون سيوفهم ونبالهم إلى خراطيم الأفيال، فلم تلبث الأفيال أن نفرت وتراجعت، وأخذت تدوس جنود الفرس. فكانت عليهم وبالاً وشراً.

- ٢ -

ومثل ما فعل نساء العرب في حرب اليرموك، فعلن في هذه الحرب أيضاً، فكان منهن من يضمدن جراح الجرحى، ومنهن من يداوين المرضى، ومنهن من يهيئن الطعام ويحملن الماء. ومنهن من كن يباشرن الحرب. وقد اشتهرت في هذه الحرب «أروى بنت الحارث»، كما اشتهرت في اليرموك «خولة بنت الأزور». فقد جعلت خمارها مرة لواء، فقلدها بعض باسلات النساء، وخرجن على الخيول يردن الحرب، وقد التقين بكتلة من المسلمين تحارب الفرس، فكبرن وهجمن وكن سبب النصرة.

ومعركة «القادسية» تعد مثل معركة اليرموك في الفتح الإسلامي. فإنها كانت من أعظم الأسباب في انكسار همة الفرس، ووقوع الرعب في قلوبهم من العرب، كما وقع الرعب في قلوب الروم قبلهم.

- ٣ -

لقد تقدم المسلمون بعد معركة «القادسية»، وأخذوا يستولون على بلاد الفرس ناحية بعد أخرى. يكسرون جيوشهم مرات متوالية. ثم حاصروا مدينتهم «طيفسون» التي يسميها العرب «المدائن»، ففر ملكهم «كسرى يزدجرد» منها، وتركها لهم. واستولوا على ما فيها من كنوز ثمينة، وذخائر عظيمة أو أموال طائلة. وكان ذلك في العام السادس عشر للهجرة النبوية، وللعام ٦٣٧ للميلاد المسيحي.

وقد اجتمع في أيدي المسلمين من الغنائم ما لا يقع تحت حصر، وما يزيد أضعافاً مضاعفة عما وقع في أيديهم في فتوح الشام. وقد قسم القائد «سعد بن أبي وقاص» هذه الغنائم بين المجاهدين، بعد أن فرز خمسها لبيت مال المسلمين، فكانت حصة الواحد ثروة كبيرة جعلت المسلمين جميعهم أغنياء.

وقد أرسل القائد خمس الغنائم مع وفد إلى المدينة، ليسلمه للخليفة عمر بن الخطاب، وأرسل هجاناً ليسرع، ويبشره بالفتح والنصر المبين. . .

ومن جميل ما يروى: أن الهجان لما وصل إلى قرب المدينة المنورة، قابله شخص كان قاعداً تحت شجرة من النخل، عليه ثياب بسيطة، وعباءة مرقعة، فحياه الهجان بالسلام فرد عليه، ثم سأله: من أين آت؟ فأجابه إني آت من العراق حينئذ نهض الرجل، وأخذ يمشي مع الهجان، ويسأله عن حال المسلمين، والهجان يقص عليه أخبار الفوز الذي ناله المسلمون، وكثرة الغنائم التي استولوا عليها، ولم يزل الرجل يسأل، وهو ماش، والهجان يجيب وهو راكب إلى أن وصلا إلى باب المدينة. وحينئذ قابلهما أناس آخرون، وأخذوا يسلمون على الرجل الماشي باحترام، ويلقبونه بكلمة «أمير المؤمنين» فإذا هو الخليفة «عمر بن الخطاب».

وقد استحى الهجان، وقال للخليفة: رحمك الله يا أمير المؤمنين، لماذا لا تعرفني بنفسك، فقد اتعبتك وعفرت وجهك بالغبار. فأجابه الخليفة: «بل يرحمك الله أنت، وما ضر ابن الخطاب أن يمشي ميلاً، وأن يعفر وجهه بغبار بعير: وقد قابلتم الأعداء، وقاسيتم الأهوال، وعرضتم أنفسكم للموت».

- ٤ -

ولما تسلم الخليفة ما أرسله سعد من الأموال، دهش وفرح فرحاً عظيماً بما فتح الله على المسلمين وأحرزوه من النصر المبين، ويروى أنه صعد المنبر وخطب المسلمين قائلاً:

«أيها المسلمون لقد أتانا أموال لا تعد ولا تحصى، فمن شاء كلنا له كيلاً، ومن شاء عددنا له عداً».

وقد عين الخليفة القائد سعداً حاكماً عاماً على البلاد المفتوحة، وأمره بالعدل والرفق والمساواة بين الناس والوفاء بالعهود.

وقد رتب سعد أمور البلاد ترتيباً حسناً، وعين ما يلزم من العمال والحكام والقضاة، وبنى مدينة «الكوفة» واتخذها عاصمة له[٢٦].

الفصل التاسع
«تنظيم الملك العربي - أهل الذمة والموالي - النظام المالي -»

الدرس الواحد والأربعون

- ١ -

لقد علمت أيها الفتى من الدروس السابقة أن العرب المسلمين فتحوا في برهة قليلة أي في سبع سنين، بلاد الشام ومصر وفلسطين والعراق وفارس، وادخلوها في حكمهم، وطردوا عنها ملوكها وحكامها، فاتسع بذلك الملك العربي اتساعاً عظيماً.

ماذا تظن أنه يجب على المسلمين أن يفعلوا لحفظ هذا الملك الواسع وإدارته؟ لا شك في أنك تقول: يجب عليهم أن ينظموه في نظام جيد، وأن يرتبوا حالته المالية والعسكرية والعدلية ترتيباً حسناً، لئلا يقعوا في الارتباك والتشويش. فإن المهارة لا تكون في فتح البلاد فقط، بل في حسن إدارتها وحفظها.

- ٢ -

هذا ما فكر به الخليفة عمر بن الخطاب ورؤساء المسلمين، فإنهم رأوا من الضروري أن يرتبوا أمور هذا الملك. فعين الخليفة لكل قطر من الأقطار حاكماً عاماً من قواد العرب وعقلائهم، وجعل هؤلاء الحكام مستقيمين في الأمور الداخلية، أي في تعيين الحكام الصغار والعمال والجباة والقضاة، وجعل الجيش وقواده تحت أمرهم، يرسلونه إلى المكان الذي يرون إرساله إليه ضرورياً ومفيداً.

وقد أمر أمير المؤمنين الحكام بالعدل والإنصاف وحسن المعاملة مع الرعية. وعين مفتشين ليطوفوا البلاد حيناً بعد آخر، ويتحققوا من أعمال الحكام والقضاة والعمال إذا كانت عادلة، أو غير عادلة، ويسألوا الأهالي إذا كانوا مستريحين متمتعين بحريتهم أو لا. وقد مرت بك قصة المصري الذي اشتكى ابن عمرو بن العاص إلى الخليفة، وكيف أن الخليفة أخذ له بحقه.

ومن جميل ما يروى أنه بلغ الخليفة أن عمرو بن العاص والي مصر أصبح ذا أموال طائلة، وتجارة واسعة، فأرسل أحد المفتشين إليه وحاسبه على هذه الأموال، وأخذ منها نصفها لبيت المال، لأنها صارت له بسبب كونه والياً على مصر.

- ٣ -

وقد توزع أهالي البلاد المفتوحة فريقين: فريق اعتنق الدين الإسلامي. وهؤلاء يعرفون في التاريخ باسم «الموالي»، لأنهم ليسوا عرباً، بل هم مسلمون موالون للعرب. وكانوا مساوين لهم في الحقوق، وإخوانهم في الدين. وفريق بقي على دينه القديم، ودفع الجزية، وهؤلاء يعرفون في التاريخ باسم «أهل الذمة»، ومعنى هذا الاسم أنهم في ذمة المسلمين وحمايتهم. وقد رضي المسلمون منهم ذلك، ولم يجبروهم على ترك دينهم والدخول في الدين الإسلامي، لأن القرآن الكريم يقول: «لا إكراه في الدين». وقد كان الخليفة يوصي دائماً بحسن معاملة أهل الذمة، ويمنحهم الحرية التامة في أديانهم ومذاهبهم وكنائسهم وعاداتهم. ويعامل بالقسوة كل من يخالف وصيته في حقهم.

ومن ألطف ما يروى عن رأفة الخليفة عمر بن الخطاب بأهل الذمة، أنه رأى شيخاً طاعناً في السن يتسول بباب المسجد. فسأله عن اسمه فأجابه: «إني من أهل الذمة» فبكى عمر وقال: «أخذنا منك الجزية قوياً وأضعناك ضعيفاً. إن الله ليسأل عمر عن هذا». ثم أمر أن يقيد اسمه في دفتر بيت المال. وأن يعين له ولأمثاله رواتب يتقاضونها كل شهر، تكفيهم ذل سؤال الناس.

الدرس الثاني والأربعون

تابع - تنظيم الملك العربي - النظام المالي

- ١ -

إن الخليفة عمر بن الخطاب رتب أيضاً الجيش ومالية المسلمين ترتيباً حسناً، فضبط اسماء المجاهدين، وقيدها في دفاتر خاصة. وعين لكل منها راتباً شهرياً، بحسب جهاده وعمله. وأمر بتوزيع هذه الرواتب بصورة منتظمة، لكي لا تضعف همة الجنود، أو يشتغلوا بما يلهيهم عن الاستعداد للدفاع عن البلاد. فكان بهذا العمل للدولة جيش على استعداد دائم للدفاع عن البلاد المفتوحة وحمايتها، واخماد الثورات وتأمين الأمن والنظام فيها، وسمي هذا الترتيب باسم «ديوان الجند».

ثم ضبط واردات الدولة ونفقاتها، وجعل لذلك دفاتر خاصة، لتسجيل كل ما يرد على بيت المال، وكل ما يخرج منه. وسمي هذا باسم «ديوان بيت المال».

- ٢ -

أما الواردات التي كانت تدخل إلى بيت المال فهي:

١ ـ الزكاة: وهي حصة بيت مال المسلمين من مواشي المسلمين وزرعهم حسب نص الشريعة الإسلامية. وتسمى حصة الزرع (عشراً) كما هي معروفة إلى اليوم. لأن لبيت المال واحداً من العشرة من الناتج.

٢ ـ الخراج: وهو حصة بيت المال من واردات الأراضي المفتوحة بالسيف والحرب. وهذا كان يؤخذ من البلاد المفتوحة حرباً فقط. أما البلاد المفتوحة صلحاً فلا.

٣ ـ الجزية: وهي ضريبة شخصية تؤخذ عن كل ذكر بالغ من أهل الذمة، مقابل حريتهم وحمايتهم. وكانت الجزية تؤخذ حسب شروط الصلح، ولم تكن تتجاوز الدينارين سنوياً. فإذا أسلم الذمي رفعت عنه، فأصبح لا يدفعها. لأن المسلم لا يجوز أن يدفع جزية.

٤ ـ خمس الغنائم: وهو حصة بيت المال من الغنائم التي يغنمها المجاهدون في الحروب. وقد عرفت مما مر بك من الدروس أن القواد كانوا يفرزون خمس الغنائم، ويرسلونه إلى الخليفة في المدينة المنورة.

ـ ٣ ـ

أما نفقات الدولة فكانت:

١ ـ رواتب الولاة والحكام والقضاة وسائر العمال والجيش والقواد.

٢ ـ ثمن معدات الحرب: مثل الخيل والجمال والسيوف والرماح والأقواس والنبال والدروع والجانيق (المنجنيق، هو آلة تدفع الأحجار الكبيرة بقوة إلى مسافة بعيدة وتساعد في هدم الأسوار حين الحصار).

ولم تكن البنادق والرصاص والمدافع معروفة في ذلك الزمان.

٣ ـ مرتبات فقراء المسلمين والذميين وعاجزيهم.

أما الباقي فإنه يحفظ لحين الحاجة، تحت يد ناظر يسمى «أمين بيت المال».

وقد كان الخليفة يراعي في النفقات جانب الاعتدال والحق، بالنسبة لنفسه وبالنسبة لسائر الناس.

ـ ٤ ـ

إن الخليفة لم يكتف بتنظيم المالية والجندية فقط، بل أحدث تنظيمات كثيرة مفيدة للملك العربي:

فمن الأمور التي أحدثها «البريد» ـ البوسطة ـ فقد رتب أشخاصاً وخيلاً وهجنا تذهب في مواعيد معينة من بلد إلى بلد، تحمل رسائل الحكام والعمال والجيش. لم يكن أصحاب الرسائل يدفعون أجرة مثل اليوم لدائرة البريد، بل كان ذلك مجاناً على حساب الدولة.

ولم يكن للمسلمين سكة «عملة» خاصة. فقد كان العرب قبل الإسلام، ولا سيما في بلاد الحجاز يتعاملون بالدراهم الرومية والفارسية، مثلما كنا نحن نتعامل في فلسطين بالعملة المصرية وبالذهب العثماني أو الفرنساوي أو الإنكليزي. فأمر الخليفة بأن ينقش على الدراهم والدنانير الأجنبية كلمات عربية إسلامية مثل «الحمد لله، الله أكبر» و «لا إله إلا الله» و «محمد رسول الله». وكان الدرهم من فضة، والدينار من ذهب، وربما يساوي الدرهم في عملتنا اليوم «خمسين ملا أو شلنا». أما الدينار فإنه يساوي نحو اثني عشر درهماً.

ولم يكن للمسلمين تاريخ خاص، فكانوا يؤرخون كتبهم وصكوكهم بالحوادث العظيمة التي كانت تقع فيقولون مثلاً، «ولد فلان في السنة الأولى أو في السنة العاشرة من حرب الفيل». ونحن أحياناً نفعل مثلهم، فنقول مثلاً: «تزوج فلان في أيام الحرب» أو «مات فلان قبل الزلزلة بشهر». فأمر الخليفة بجعل السنة التي هاجر فيها النبي عليه السلام أول السنين التاريخية. لأن حادثة الهجرة من أعظم حوادث تاريخ الإسلام. فصار للمسلمين تاريخ خاص، هو (التاريخ الهجري) فيقولون مثلاً: «في اليوم العاشر من شعبان للسنة العشرين من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم». ثم اختصرناها أيضاً فصارت: (١٠ ـ ٢٠٨ هـ) وأظن أنك لا تجهل أن أول السنة الهجرية هو أول شهر المحرم، وهو عيد عند المسلمين.

ـ ٥ ـ

إن المسلمين اقتبسوا كثيراً من هذه التنظيمات عن الروم والفرس، لأن العرب لم يكن عندهم في البادية نظام للملك مثل ما كان عند الروم والفرس. ولم ير الخليفة العظيم بأساً في تقليد الأجانب في ما فيه خير وفائدة. وقد سار الخلفاء الراشدون على هذه الأنظمة. ثم ارتقت واتسعت في عهد الدولة العربية التي أتت بعد عهد الخلفاء الراشدين. فسيدنا عمر بن الخطاب هو «مؤسس الملك العربي الإسلامي»[٢٧].

الفصل العاشر
(الأمويون - تسيس الدولة الأموية وعظمتها)

الدرس الثالث والأربعون

- ١ -

الأمويون هم ملوك (الدولة الأموية) وهي دولة عربية عظيمة حكمت البلاد الإسلامية بعد الخلفاء الراشدين.

وسميت هذه الدولة (الدولة الأموية) لأن ملوكها ينتسبون إلى (أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي)، وهم من قبيلة قريش، ومن أقارب النبي عليه الصلاة والسلام. لأن هاشماً جد النبي صلى الله عليه وسلم وعبد شمس جد بني أمية أخوان أبوهما (عبد مناف).

وقد كان لبني أمية في مكة عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم قوة ونفوذ. وكان رئيسهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم (أبا سفيان) كان ضد الدعوة وكان رئيساً من رؤساء قريش، وقائداً في حروبها.

- ٢ -

إن مؤسس (الدولة الأموية)، هو (معاوية بن أبي سفيان)، جعله النبي صلى الله عليه وسلم، حينما أسلم كاتباً من كتابه. ولما ذهبت الجيوش إلى فتح بلاد الشام، وكان قائداً من القواد. وكان حينئذ شاباً. ولما كان أخوه يزيد بن أبي سفيان يفتتح الأقسام الساحلية من سوريا، أرسل إليه عمرو بن العاص قائد فلسطين يطلب منه نجدة لفتح مدينة قيصرية وهي الآن قرية قرب مدينة حيفا نسميها «قيسارية». وكانت في ذلك الوقت مدينة عظيمة وحصينة. فأرسل يزيد جيشاً بقيادة أخيه معاوية، فأتى وحاصرها حصاراً شديداً، إلى أن توفق إلى فتحها، وطرد الروم عنها.

وقد كانت بوادر الذكاء والفطنة تلوح على وجه «معاوية» منذ صغره. وكانت أمه «هند» تحضه دائماً على السعي ليكون سيداً عظيماً، وزعيماً خطيراً.

ومما يروى أنه رآه في صغره أحد عقلاء العرب مع أمه فقال لها:

«إن ابنك هذا سيصبح سيداً في قومه!»

فقالت أمه: ثكلته ـ أي عدمته ـ إن لم يسد غير قومه..

وكان يزيد أخو معاوية حاكماً على بلاد الشام بعد وفاة أبي عبيدة. فلما مات يزيد، عين الخليفة «معاوية» حاكماً عاماً على بلاد الشام، وبقي حاكمها بقية زمن عمر بن الخطاب، وطول مدة عثمان بن عفان.

ـ ٣ ـ

ربما تتساءل وتقول: كيف استطاع معاوية أن ينشىء الدولة الأموية، وأن يكون ملكاً لها؟ فها أنا أقص عليك قصة ذلك:

لما تولى عثمان بن عفان الخلافة بعد عمر بن الخطاب، قرب إليه أقاربه من بني أمية ـ لأنه هو من بني أمية ـ وولاهم الأعمال، وأعطاهم مالاً كثيراً. فرأى المسلمون عمله هذا مخالفاً لما كان عليه أبو بكر وعمر، فأخذوا ينتقدونه. وانتشر الاستياء بينهم، ثم اتسعت الفتنة شيئاً فشيئاً. وأخيراً انقلبت إلى ثورة، وهجم بعض الثائرين على بيت الخليفة، وذبحه فيه. ثم ذهب الثوار، وبايعوا «علياً بن أبي طالب بالخلافة».

فلما وصل الخبر إلى «معاوية» استاء لقتل ابن عمه، وظن أن للامام علي يداً في ذلك، فعصاه ولم يعترف بخلافته. وقد رأى نفسه قوياً في بلاد الشام، لأنه مضى عليه فيها نحو عشرين سنة، وأصبح له أنصار وأشياع كثيرون. كان يجود عليهم بالمال، ويكرمهم إكراماً زائداً، فطمع في أن يكون خليفة، لا سيما وهو ينتسب إلى العائلة «الأموية» التي كانت صاحبة الزعامة في قريش، قبل ظهور النبي، عليه الصلاة والسلام. ويرى نفسه أهلاً للملك والخلافة. ويروى أنه جمع أهل دمشق في المسجد، وأتى بقميص «عثمان» الذي كان يلبسه حينما قتل، وكان ملطخاً بالدم، وصعد المنبر، ونشر القميص على مرأى من الناس، وصار يبكي، ويتهم «علياً» بمقتل عثمان. فتهيج الناس وتحمسوا، وقرروا محاربة (علي) واتباعه.

الدرس الرابع والأربعون

تابع ـ تأسيس الدولة الأموية

ـ ١ ـ

لقد حدث بين «علي بن أبي طالب» وبين (معاوية بن أبي سفيان) فتنة، وانقسم المسلمون إلى حزبين. حزب مع علي، وحزب مع معاوية. ووقع بين الحزبين حرب في مكان قرب حلب اسمه (صفين). وأخيراً (قتل علي) من قبل أحد الفدائيين، فضعف حزب علي، وقوي حزب معاوية فبايعه الناس بالملك والخلافة.

وقد جعل معاوية عاصمة ملكه (دمشق الشام)، بدلاً من (المدينة المنورة) التي كانت عاصمة الخلفاء الراشدين. لأن دمشق الشام كانت في وسط البلاد الإسلامية الواسعة، ولأنها كانت مركز قوة معاوية.

ومن أعظم الذين ساعدوا معاوية في حركته إلى أن صار خليفة (عمرو بن العاص) فإنه التزم جانب معاوية، وكان يشير عليه بآراء صائبة، كانت من أسباب نجاحه.

وقد اشار عليه مرة برأي كان سبباً في انكسار قوة (علي) في الحرب. فإنه لما وقعت حرب صفين بين جيش معاوية وعلي، رأى عمرو بن العاص أن جيش علي أقوى من جيش معاوية. فأشار على معاوية بأن يأمر جيشه برفع المصاحف على الرماح، والصراخ بأننا نريد كلام الله حكماً بيننا. ففعل الجيش بما أمر به معاوية، فانقسم جيش علي إلى فريقين: فريق يقول بوجوب قبول حكم القرآن، وعدم محاربة المسلمين، وفريق عرف الحيلة وأراد أن يمنع قبول التحكيم. وقد كاد جيش علي يتقاتل بعد هذا الانقسام، فاضطر علي إلى توقيف الحرب، وبذلك ضاع عليه انتصاره وفوزه على جيش معاوية.

- ٢ -

إن ملك الدولة الأموية دام نحو تسعين سنة، أي من سنة ٤١ هجرية إلى سنة ١٣٢ هجرية. وهذا التاريخ يصادف من سنة ٦٦١ إلى سنة ٧٥٠ ميلادية. وولي الملك من العائلة الأموية في هذه المدة أربعة عشر خليفة. وكانوا يسمون خلفاء أيضاً، ويلقبون بلقب «أمير المؤمنين». وكان الواحد منهم حين ينتقل إليه الحق بالعرش، يستحضر وجوه المسلمين والقواد والحكام فيبايعونه بالخلافة.

وقد اتسع الملك العربي، وقوى نفوذ العرب في هذه الدولة كثيراً، كما ستعرف ذلك من الدروس الآتية.

وتعد الدولة الأموية أقوى وأكبر دولة عربية إسلامية. ولو طالت مدتها أكثر من هذه المدة القليلة، لعملت أعمالاً أعظم، ولقوي نفوذ العرب أكثر.

- ٣ -

لا شك في أنه يحق لنا أن نعد (معاوية) الذي أنشأ هذه الدولة من أعاظم الرجال. فقد كان على جانب عظيم من الكرم والعقل وحسن السياسة ومسايرة الناس، حتى انه مرة قال: لو كان بيني وبين رعيتي شعرة لما انقطعت. فعجب السامعون، وقالوا له: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ فأجابهم: ارخي إذا شدوا، وأشد إذا أرخوا. فحبب نفسه بهذه الصفات والأخلاق إلى الرعية، وكان سبباً لوجود دولة قوت مجد العرب والإسلام قوة كبرى.

ولكن اتظن أنه من المعقول أن تعظم الدولة الأموية وتقوى، لو كان معاوية فقط هو الملك العظيم من بين ملوكها، أو لو كان معاوية وحده هو الذي اشتغل في تشييد هذا الملك، ولم يكن

له رجال مساعدون من عقلاء العرب؟

كلا لعمري. فإنه لو لم يكن غير معاوية عظيماً، لارتبكت البلاد بعد موته، وإن الملك لا ينجح إلا بمساعدة الرجال العقلاء ومشاورتهم. وهذا هو الواقع، فقد كان ملوك عظماء غيره من ملوك هذه الدولة مثل (عبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، وهشام بن عبد الملك، وكان لهم مساعدون عظماء مثل (زياد بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، والحجاج بن يوسف، وموسى بن نصير، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم، وطارق بن زياد، وعقبة بن نافع) فنجحت الدولة الأموية، وأصبحت ذات مجد خالد وعز عظيم. وسوف ترى في الدروس الآتية ما أداه هؤلاء الرجال العظام من الخدم الكبرى للعربية والإسلام[٢٨].

الدرس الخامس والأربعون

تابع ـ الدولة الأموية وعظمتها

فتح شمال أفريقيا ـ اسبانيا ـ ووسط آسيا والهند

ـ ١ ـ

ذكرت لك في الدرس السابق أن المملكة العربية اتسعت في عهد الدولة الأموية كثيراً، لأن رجالها العظماء فتحوا بلاداً وأقطاراً جديدة، وادخلوها تحت حكمهم.

فمن الأقطار التي فتحوها في شمال إفريقيا بلاد البربر، وتسمى اليوم بأسماء (طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش). وأشهر القواد الذين اشتهروا في فتح هذه البلاد القائدان العظيمان (عقبة بن نافع وحسان بن النعمان).

فقد ظل (عقبة) يجاهد ويفتح بلاد البربر، حتى وصل إلى ساحل البحر الأتلانتيكي، الذي كان قبلاً يسمى (بحر الظلمات). ولما وصل إلى شاطىء هذا البحر، خاضه بحصانه مشهراً سيفه، وخاطب ربه قائلاً:

«رباه، وعزتك وجلالك. لولا هذا البحر لظللت مستمراً على الجهاد، في سبيل اعلاء الأمة العربية والإسلام».

ـ ٢ ـ

إن عقبة أسر ملكاً من ملوك البربر اسمه (كسيله)، فتظاهر هذا الملك كذباً بالإسلام، فأطلق عقبة سراحه، لأنه اعتبره أخاه في الدين ووثق به. وبينما كان عقبة راجعاً بجيشه، تقدم الجيش، وبقي عقبة مع فئة قليلة من رجاله متأخرين عنه مسافة طويلة. فلم يشعر إلا وكسيله هاجم عليهم مع رجاله. فتشجع عقبة ومن معه، ودافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال. ولما تضايقوا

كسروا أجفان سيوفهم، وقتلوا خيولهم. وهذه عادة من عادات العرب، لئلا يفكروا بالفرار، وليحاربوا حرب الموت. ثم هجموا على كسيله ورجاله الهجمة الأخيرة، وما زالوا يحاربون حتى سقطوا جميعهم شهداء. وقد عصى البربر بعد قتل عقبة، وخرجوا على حكم العرب.

ولما علم الخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان) بما وقع لعقبة ورجاله حزن حزناً عظيماً. وأقسم ليأخذن بثأرهم من البربر. وأرسل القائد (حسان بن النعمان) بجيش عظيم. فحارب البربر حرباً شديدة، وقتل (كسيلة)، واخضع البربر مرة أخرى، بعد أن قتل رؤساءهم، وعدداً عظيماً من محاربيهم.

- ٣ -

ومن البلاد التي فتحها العرب أيضاً بلاد إسبانيا، وتعرف في تاريخ العرب باسم (الأندلس). أما القواد العظام الذين قاموا بفتح هذه البلاد العظيمة من (أوروبا)، فأهمهم (موسى بن نصير، وطارق بن زياد).

وها أنا أقص عليك ما فعله هذان القائدان، لتذكرهما دائماً بالخير، وتفاخر بهما.

كان موسى بن نصير حاكماً عاماً على بلاد البربر، وكان يسمع أن بلاد الأندلس بلاد عظيمة الثروة، جميلة الطقس، وافرة الخيرات، فطمع في فتحها وإدخالها في حكم المسلمين.

واتفق أن وقع خلاف بين أمير من أمراء تلك البلاد وملك إسبانيا، لأن الملك «رودريك» كان عاتياً باغياً، خطف ابنة الأمير «يوليان»، واعتدى على شرفها. فأخذت الأمير الحمية، وغضب لعرضه غضباً شديداً. وأقسم أن ينتقم من الملك. وقد كاتب القائد العربي «موسى بن نصير»، وحرضه على غزو مملكة «رودريك»، ووعده بالمساعدة. ففرح موسى لهذه الفرصة، وجهز جيشاً وأرسله بقيادة أحد قواده «طارق بن زياد».

- ٤ -

ركب طارق وجيشه المراكب البحرية بنفوس طماحة إلى الفتح والفوز، وقلوب لا تهاب الموت: وظلوا سائرين في البحر إلى أن نزلوا في ساحل الأندلس في جانب المضيق الذي سماه العرب «مضيق جبل طارق»، تعظيماً للقائد (طارق بن زياد)، كما يسمون اليوم الشوارع والمدن بأسماء عظماء الرجال.

وبعد أن نزل طارق بجيشه إلى الساحل، أرسل الكشافة ليكتشفوا حالة البلاد. فلما رجع الكشافون، أخبروه أن «رودريك» هيأ جيشاً عظيماً، يبلغ أضعاف جيش العرب واستعد لمقابلتهم.

فجمع طارق قواد الجيش، وشاورهم في الأمر وقال لهم:

«أيها الأبطال! يجب أن لا تهمنا كثرة العدد، لأننا إذا فررنا من أمامه، كان في ذلك عار علينا، وضعف لقوة المسلمين».

فصادق القواد على كلام قائدهم، وعاهدوه على الحرب إلى أن يموتوا. حينئذ أمر طارق بحرق السفن التي نقلت الجيش، حتى لا يفكر أحد من الجند في الفرار من وجه العدو، وجمع جيشه وخطب فيهم قائلاً:

«أيها الجنود الشجعان! أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم. وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. وقد استقبلكم العدو بجيشه وأسلحته وقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا قوت لكم إلا ما تستخلصونه من أيديه، وإن امتدت بكم الحرب على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم. وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية. وان انتهاز الفرصة فيه لممكن أن سمحتم لأنفسكم بالموت».

ـ ٥ ـ

حينئذ تحمس الجنود، وعاهدوا قائدهم على الموت، ولقد صدقوا في عهدهم. فإنهم هجموا على جيش (رودريك) هجمة الأبطال، وحاربوا حرباً تشيب لهولها الأطفال. وكان طارق في مقدمة جيشه، يبحث عن ملك الاسبان (رودريك)، فلما رآه هجم عليه وبارزه، وضربه ضربة شديدة كانت القاضية عليه. وحينئذ انهزم جيشه، وتم النصر للعرب.

وقد تقدم طارق بعد انهزام جيش رودريك في داخلية البلاد، وأخذ يفتحها، وكان أهلها يسارعون إلى قبول دفع الجزية، والدخول في صلح المسلمين وذمتهم، وقد كان هذا الفتح سنة ٩٠ للهجرة، و ٧١١ للميلاد.

وقد أرسل القائد طارق يبشر القائد الأكبر «موسى بن نصير» بما تم له من الفوز، فجاء موسى إلى الأندلس، وأكمل فتح البلاد، ورتب أمورها، فأصبحت جزءاً من المملكة العربية الإسلامية[٢٩].

الدرس السادس والأربعون

تابع ـ الدولة الأموية وعظمتها

فتح بلاد الترك وبلاد السند

ـ ١ ـ

من البلاد التي فتحت في زمن الدولة الأموية بلاد «الترك والسند». وتقع هذه البلاد وسط قارة آسيا. فانظر كم كان العرب أقوياء النفوس، طموحين إلى المجد، وكأنهم كانوا يريدون أن يفتحوا جميع العالم...

إنهم بعد أن استقروا في بلاد الفرس، رأوا أن يتقدموا إلى الشرق ليستولوا على ما فيه من بلاد، وينشروا فيه الدين الإسلامي والراية العربية.

ففي زمن «الوليد بن عبد الملك»، تهيأ جيشان عربيان عظيمان بأمر «الحجاج بن يوسف»، الحاكم العام لبلاد العراق والفرس. أحدهما بقيادة القائد «قتيبة بن مسلم»، وثانيهما بقيادة القائد «محمد بن القاسم».

أما قتيبة، فإنه تقدم بجيشه إلى بلاد الترك، فوقف الترك في وجه العرب وقفة شديدة، ليدافعوا عن بلادهم. والترك مشهورون بالقوة والصبر في الحرب. ولكن قتيبة وجيشه استبسلوا في حربهم وتغلبوا عليهم، وفتحوا بلادهم واحدة بعد أخرى. وكان قتيبة كل ما فتح بلدة بنى فيها مسجداً، وأبقى حامية من الجند العربي. وقد ظل في سيره فائزاً منصوراً إلى أن وصل إلى حدود (الصين). ومن أهم المدن التركية التي فتحها مدينة (سمرقند) التي جعلها عاصمة البلاد المفتوحة. وكان فتحها عام ٩١ للهجرة و ٧١٢ للميلاد.

- ٢ -

وقد خوفه بعض القواد من الصينيين وكثرة عددهم، وشدة بأسهم. فتحمس، وأقسم بأنه لا بد أن يطأ أرضها، ويختم على رقاب ملوكها، ويأخذ الجزية من أهلها. ثم أرسل وفداً إلى ملك الصين الأكبر، يدعوه إلى الإسلام أو دفع الجزية، وإلا فليستعد للحرب. فلما وصل الوفد، وبلغ الملك الرسالة، عجب من قوة نفس العرب وقال للوفد:

«قولوا لقائدكم إن ملك الصين يعلم قلة عددكم وحرصكم على الحياة. وإن الأحسن له أن ينصرف ويعود إلى بلاده، لئلا أبعث إليه من يهلكه ويهلك جنده».

فقال له رئيس الوفد العربي: «أيها الملك، إن من كان أول خيله في بلادك، وآخرها في منابت الزيتون (يعني فلسطين)، لا يكون قليلاً، وإن من يترك بلاده ويغزوك في بلادك، لا يكون حريصاً على الحياة. وإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل: ولسنا نكره الموت أو نخافه».

فلما سمع ملك الصين هذا الجواب، رأى المسايرة أفضل له، لئلا تنفتح عليه باب من الشر لا يقدر على سده. لا سيما وقد بلغته أخبار انكسار جيوش الترك فقال لرئيس الوفد: ما الذي يرضي قائدكم إذا؟ فأجابه: «إنه أقسم أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم على ملوككم، ويأخذ الجزية منكم إذا لم تسلموا». وكان من العادة أن يضع الغالب في رقبة المغلوب طوقاً من حديد، ويختمه إشارة إلى خضوعه.

فقال الملك: إننا نخرجه من يمينه. نبعث إليه من تراب أرضنا فيطأه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختم رقابهم، ونبعث إليه بهدية من الذهب والفضة يرضاها. ثم أمر حجابه بأن يملأوا بضعة صحاف (صحون) من ذهب بالتراب، وأن يحضروا أربعة غلمان من أبناء الملوك، وأن يهيئوا هدية نفيسة من حرير الصين وذهبها وفضتها، وأن يسلموا جميع ذلك إلى الوفد ليقدمه إلى

القائد العربي «قتيبة»، فتسلم الوفد الهدية وعاد بها إلى قائده. فاكتفى قتيبة بهذه الطاعة، وأعاد الغلمان إلى آبائهم، ورجع إلى «سمرقند» عاصمته في بلاد الترك.

- ٣ -

أما محمد بن القاسم فإنه تقدم إلى بلاد «السند» التي هي غربي بلاد الهند. وقد هزم الجيوش التي كانت تقف في وجهه، وفتح البلاد التي كانت في طريقه، حتى وصل إلى حدود بلاد الهند. وكان يبني في كل مدينة يفتحها مسجداً، ويضع فيها حامية من الجند العربي للدفاع عنها، ويرفع الراية العربية خفاقة عليها، ويرتب على أهل البلاد جزية يدفعونها سنوياً، إذا بقوا على دينهم.

وكانت هذه الفتوحات التي قام بها محمد بن القاسم عام ٩٣ للهجرة و٧١٥ للميلاد[٣٠].

الدرس السابع والأربعون

البعوث العربية إلى بلاد الأناضول وفرنسا

- ١ -

لم يكتف العرب بما فتحوا من البلاد. بل كانوا لا يرون في الدنيا أقوياء غيرهم، وأنها يجب أن تكون تحت حكمهم. وأهم ما كانوا يفكرون فيه أن يفتحوا عاصمة دولة الروم، وهي «القسطنطينية». لأن هذه الدولة هي التي بقيت واقفة أمامهم. وكانت تحاربهم حيناً بعد آخر. وقالوا إننا إذا استولينا على عاصمتها، وقضينا عليها، لم يبق في الأرض دولة واقفة أمامنا. فنكون أسياد العالم.

كانت بلاد الأناضول «آسية الصغرى» هي الطريق إلى «القسطنطينية». ولذلك فإن العرب رتبوا جيوشاً تغزو بلاد «الأناضول» في الصيف، وأخرى تغزوها في الشتاء. وقد سموا هذه الجيوش «الصوائف والشواتي». وكانت هذه الجيوش تغير دوماً على بلاد الأناضول، وتستولي على أقسام كثيرة منها. فأوقعت الرعب في قلوب الروم، وازعجتهم إزعاجاً شديداً.

وقد اشتهر قائد اسمه (عبد الله البطال) في هذه الغزوات، حتى صارت فرائص الروم ترتعد من ذكر اسمه. وكانت النساء يخوفن أولادهن به.

- ٢ -

لم يكتف العرب بهذه الغزوات السنوية. فإنهم أرسلوا حملات عسكرية برية وبحرية على القسطنطينية. وكانت أول الحملات حملة أرسلت في زمن «معاوية بن أبي سفيان». وقد وصلت هذه الحملة إلى القسطنطينية وحاصرتها، وحاربت جيش الروم. ولكنها لم تتمكن من فتح المدينة. ثم أرسلت حملة ثانية في زمن «سليمان بن عبد الملك»، فوصلت أيضاً قرب

القسطنطينية وحاصرتها. فاستمرت في حصارها سنة ونصفاً. حتى انها زرعت الأراضي التي احتلتها وحصدت ما زرعته. ولما رأى الروم شدة حصار العرب، وكثرة ما عندهم من المؤونة والذخيرة، أرسلوا أحد أمرائهم إلى قائد جيش العرب، وعرض الرومي على القائد أن يسلمه القسطنطينية، واشترط أن يكون ملكاً عليها تحت نفوذ العرب. وقد اتفق القائد العربي معه على ذلك. فحسن حينئذ الأمير الرومي للقائد أن ينتقل من مكان إلى آخر ليتمكن من تسليم المدينة. ولما أراد القائد أن ينقل المؤونة والذخيرة أقنعه الرومي بأن لا خطر عليها، فأبقاها في مكانها. ولما عاد الأمير الرومي إلى المدينة، أرسل جنوداً رومية، ونقل ذخيرة الجيش العربي، واستولى عليها. فلما أصبح الصباح علم القائد العربي بالحيلة التي دبرها الرومي عليه، فندم ندماً شديداً على إركانه للعدو، واضطر إلى ترك الحصار والرجوع إلى بلاد الشام. لأن مؤونته قد فقدت منه. ولا يمكن للجيش أن يبقى مدة طويلة بدون مؤونة كافية.

- ٣ -

لم يقتصر العرب على غزو بلاد الروم وعاصمتهم في الشرق. بل طمعوا في غزو بلاد فرنسا وإيطاليا من الغرب، عن طريق الأندلس، ليستولوا على جميع أوروبا، كما استولوا على آسيا وأفريقيا. لذلك فإنهم رتبوا حملات عديدة غزت بلاد فرنسا وإيطاليا، واستولت على مدن فرنساوية كثيرة.

ومن أعظم القواد الذين جاهدوا في بلاد فرنسا (عبد الرحمن الغافقي). فإن هذا القائد العظيم كان حاكماً على بلاد الأندلس، وكان بطلاً من الأبطال، يحب الجهاد، وتوسيع المملكة العربية الإسلامية. فكان يخرج المرة بعد المرة، ومعه جيش من المجاهدين الشجعان، فيغزو بلاد فرنسا، ويضايق أهلها، ويغنم منهم الغنائم الوفيرة.

وقد ذهب امراء بلاد فرنسا إلى الأمير الكبير واسمه (شارل مارتل)، وافهموه أن المسيحيين في خطر من المسلمين. وكذلك ذهبوا إلى روما واستغاثوا بالبابا الذي كان يعتبره المسيحيون رئيس ديانتهم الأعظم، فأخذ البابا يحرض الأمراء المسيحيين على قتال المسلمين العرب.

وحينئذ هاج امراء وملوك فرنسا وإيطاليا وألمانيا، وتحمسوا، وخافوا على بلادهم. واتفقوا يداً واحدة ضد جيوش المسلمين، وهيأوا جنوداً لا تحصى، وانتخبوا (شارل مارتل) قائداً عاماً.

- ٤ -

لقد قاد شارل مارتل الجيوش الأوروبية المسيحية. وذهب إلى محاربة المسلمين. وكان جيشهم بقيادة (عبد الرحن الغافقي). وقد كان هذا الجيش أقل بكثير من جيوش المسيحيين الأوروبيين. ولما رأى المسلمون العرب كثرة عدد أعدائهم تعاهدوا على الثبات. وتعاهد عبد الرحمن وقواده على أن يكونوا في مقدمة الجيش، ليتشجع الجنود ويستميتوا.

وقد اشتبك الفريقان فى معركة حامية جداً، وبينما عبد الرحمن يصول ويجول، وينقض

على جيش شارل مارتل انقضاض الصاعقة، أصابه سهم في جبهته، نفذ إلى مخه فوقع قتيلاً، عندئذ انكسرت همة الجيش العربي، واضطر إلى الانسحاب والعودة إلى الأندلس.

وتسمى هذه الواقعة واقعة (بواتيه) نسبة إلى مدينة فرنساوية بهذا الاسم. وقد حصن الإفرنج في ما بعد حدود فرنسا، والجهات الجبلية الشمالية من بلاد إسبانيا، ورتبوا فيها العصابات لتحارب العرب دائماً، وتمنعهم من التقدم.

وقد أهمل العرب أمر هذه العصابات، ولم يهتموا لسحقها، فقويت في ما بعد، وكانت شراً على العرب والأندلس، وستعرف ذلك في دروس آتية[٣١].

الفصل الحادي عشر
الخوارج والشيعة وأئمتهم ـ الإسماعيلية

الدرس الثامن والأربعون

الخوارج

ـ ١ ـ

هل تظن أن جميع الناس يكونون راضين عن الحكومة؟ لا لعمري، فإن الحكومة لا يمكن أن ترضي جميع الناس، ولا بد أن يكون منهم من يكرهها، ويطعن فيها، ويتمنى زوالها، ويعتقد أنها غير عادلة، أو أنها على غير الحق. ومنهم من يمدحها ويحبها، ويعتقد أنها على حق وعدل.

وقد كان الناس على مثل هذه الحالة في زمن «علي ومعاوية»، وفي زمن «الدولة الأموية». فكان منهم من يكره «علياً»، ومنهم من يكره معاوية، والدولة الأموية. ومنهم من كان يكره علياً ومعاوية والدولة الأموية معاً. ومنهم من كان يحب علياً ويكره معاوية والدولة الأموية، أو يحب معاوية والدولة الأموية ويكره عليا. وكل حزب كان يكره أحداً من هؤلاء، كان يسعى ضده، ويتمنى زواله. وكل حزب كان يحب أحداً من هؤلاء، كان يسعى له ويحب بقاءه، وزوال عدوه. والناس الذين كانوا لا يحبون علياً ويفضلون عليه معاوية، هم الذين حاربوا مع معاوية.

وكذلك الذين كانوا لا يحبون معاوية، ويفضلون عليه علياً، هم الذين حاربوا مع علي.

ـ ٢ ـ

بقي هنالك الحزب الذي كان يكره علياً ومعاوية والدولة الأموية معاً. إن هذا الحزب كان كلما سنحت له الفرصة يخرج عن طاعتهم، بحجة أنهم لم يكونوا عادلين، وسائرين حسب أوامر الله ووصايا النبي، وكانوا يثورون ضدهم ويقاتلون جنودهم. واسم هذا الحزب «الخوارج»

لأنهم خارجون عن طاعة علي ومعاوية، ثم ظلوا خارجين عن طاعة الدولة الأموية.

إن أول ظهور هذا الحزب كان ضد الخليفة علي بن أبي طالب. لأنه قبل طلب جيش معاوية الذي رفع المصاحف على الرماح بتدبير عمرو بن العاص. ولا بد أنك تذكر ذلك من الدرس الثالث والأربعين. وقد قاتلهم علي بعد رجوعه من حرب صفين، وشتت شملهم في واقعة تعرف في التاريخ بوقعة النهروان.

وقد اجتمع ثلاثة من هؤلاء الخوارج في حرم (مكة المكرمة) في إحدى الليالي، وتحادثوا في حال المسلمين والحروب الواقعة بينهم. فاعتقدوا أن زعماءهم على ضلال. وأن الفساد الموجود بين المسلمين، إنما هو بسبب معاوية وعلي وعمرو بن العاص. فتحالف الثلاثة على أن يقتل كل واحد منهم واحداً من هؤلاء الزعماء الثلاثة في ليلة واحدة اتفقوا عليها، وهي الليلة السابعة عشر من شهر رمضان وقت صلاة الصبح. وبذلك يخلصون المسلمين من أسباب الشر والفتنة.

وقد بر هؤلاء الفدائيون بيمينهم. فهيأ كل منهم حربة مسمومة، وهجم أحدهم في الليلة المعينة على الامام (علي) في مدينة (الكوفة)، وطعنه بالحربة وهو في الصلاة فمات منها. وهجم ثانيهم على (معاوية) في (دمشق) وطعنه أيضاً. ولكنه لم يمت، لأن الطعنة جرحته جرحاً بسيطاً فقط. أما (عمرو بن العاص) الذي كان في مصر فقد اتفق أنه كان مريضاً، فوكل عنه وكيلاً ليصلي صلاة الصبح إماماً مكانه. فطعن الفدائي هذا الوكيل وقتله. وبذلك نجا (عمرو) من القتل.

- ٣ -

إن حزب الخوارج قوي في زمن الدولة الأموية. وأخذ يثور على حكام الدولة وملوكها. ويعتقد أنه على حق. وان الأمويين ظالمون. وكان رجال هذا الحزب يحاربون جيش الأمويين حرب الأبطال. وقد كان المائة منهم يهجمون على الألفين والخمسة آلاف ويغلبونهم أحياناً.

وقد اهتم عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي لمحاربة هذا الحزب وإبادته. لأن ثوراته كانت تضر في الدولة وتزعجها وتشغلها عن فتح البلاد. بل كانت سبباً لإضعافها أحياناً. وقد استضعفها الروم وأخذوا يغزون البلاد الإسلامية. لأنهم رأوا المسلمين ودولتهم مشغولين بالحروب الداخلية وبمقاتلة بعضهم بعضاً.

وأكثر ما كان يقوم حزب الخوارج بثوراته في بلاد العراق والفرس، ومن أعظم الرجال الذين اشتغلوا في إخماد ثورات الخوارج، وقتل رؤسائهم الحجاج بن يوسف والي بلاد العراق والفرس. وقد قتل منهم خلقاً كثيراً. وخلص الدولة والبلاد من شرهم، ومنهم القائد العظيم المهلب بن أبي صفرة، فقد أبلى في حربهم البلاء الحسن(٣٢).

الدرس التاسع والأربعون

تابع ـ الشيعة وأئمتهم ـ الإسماعيلية

ـ ١ ـ

قلت لك في الدرس السابق إنه كان من المسلمين حزب يحب علياً وأبناءه وعائلة النبي عامة. إن اسم هذا الحزب هو حزب (الشيعة). لأنه كان يتشيع لعلي وأبنائه وعائلة النبي. ويعتقد أنهم أصحاب الحق في الملك. وان الأمويين أخذوا الملك غصباً. وحرموا عائلة النبي من حقوقها وظلموها. وكان هذا الحزب يكره الأمويين ودولتهم كرهاً شديداً. ويتمنى زوالهم ورجوع الملك إلى عائلة النبي صلى الله عليه وسلم بدلاً منهم.

وقد كان قسم كبير من العجم والفرس من هذا الحزب. أما الذي جعل الفرس يكرهون الأمويين، فهو أن الأمويين كانوا سبباً في قوة العرب وعظمتهم. وكانوا يختصون العرب بالوظائف والأموال دون سائر المسلمين من غير العرب، فقويت نفوس العرب في زمن الدولة الأموية، وأخذوا يرون أن الدولة دولتهم، وأنهم أعلى وأشرف من الموالي المسلمين الذين هم من غير العرب، وقد استكبروا عليهم، حتى انهم لم يكونوا يزوجونهم بناتهم، ويعدون ذلك عيباً وعاراً.

ـ ٢ ـ

وفي زمن الحجاج بن يوسف كان قسم كبير من الكتاب والموظفين في بلاد العراق من الفرس أنفسهم. لأنهم كانوا يكتبون دفاتر الدولة باللغة الفارسية. فرأى الحجاج أن من العار على العرب أن تكتب دفاتر دولتهم بغير لغتهم. فأمر بعض كتاب العرب بأن يتعلم طريقة كتابة الدفاتر. وبعد أن تعلموها عين كتاباً عرباً بدلاً من كتاب الفرس. فأصبحت دفاتر الدولة تكتب باللغة العربية. وقد فرح العرب بهذا التبديل، وحذا الولاة في بلاد الشام ومصر حذو والي العراق، فزاد هذا العمل في كره الفرس للدولة الأموية، وأخذ رؤساؤهم يكاتبون رجال بني هاشم عائلة النبي، عليه السلام، ويعدونهم بالمساعدة في استرداد الملك من الأمويين.

وقد ذهب كبار رجال هذا الحزب إلى مكة بنية الحج في الظاهر، لعلهم يجدون رجال بني هاشم، ويتحدثون معهم، فاجتمعوا إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ـ والعباس هذا هو عم النبي ـ وعاهدوه على بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل نقل الملك من الأمويين إليه. وعاهدوه بالخلافة سراً، لأنهم كانوا يخشون الحكام الأمويين قبل أن يقوى حزبهم.

ولما عاد هؤلاء الرجال إلى بلادهم، أخذوا يبشرون باسم الخليفة الهاشمي الجديد بين الفرس، ويحرضون ضد الخليفة الأموي، ويجمعون الزكاة ويرسلونها إلى خليفتهم الجديد الذي كانوا يسمونه الإمام. ولما مات محمد بايعوا ابنه محله. وظل أمرهم سراً إلى أن قوي حزبهم فأسقطوا الدولة الأموية. وصاروا يبايعون خلفاءهم علناً.

- ٣ -

إن حزب الشيعة ليس فرقة واحدة. فقد كان فريق منهم يكره الأمويين، ويريد الخلاص من حكمهم، ونقل الملك إلى أحد عائلة النبي صلى الله عليه وسلم. وهؤلاء هم الذين نجحوا وأسقطوا الأمويين وبايعوا العباسيين بدلاً منهم.

وكان قسم منهم يتشيع للإمام علي وأبنائه خاصة. وهؤلاء لم يرضوا بالعباسيين حينما صاروا خلفاء، فظلوا على تشيعهم. وكانوا ضد العباسيين ولم يعترفوا بخلافتهم. وقد كان هؤلاء يعتقدون أن الإمام علياً وأبناءه أفضل البشر وقد بايعوا مرة في السر إماماً من أبناء علي اسمه (اسماعيل)، فعلم بذلك حاكم العراق، فأمر بالتفتيش عنه والقبض عليه ليقتله. فاختفى اسماعيل في إحدى مغاور الجبل. ثم لم يعرف عنه شيء، «فاعتقد رجال هذا الحزب أنه بقي حياً موجوداً مختفياً في الغار، وأنه لا يراه الناس الآن تكريماً له. وأنه سيظهر يوماً من الأيام باسم (المهدي)، وأنه أجرى الله في الغار عينين واحدة من عسل وأخرى من ماء، ويسمى هذا القسم من الشيعة باسم (الإسماعيلية)»[٣٣].

الفصل الثاني عشر
حالة البلاد والأهالي في زمن الدولة الأموية

الدرس الخمسون

- ١ -

لا بد أنك لاحظت فروقاً كثيرة بين عهد الخلفاء الراشدين، وعهد الدولة الأموية. فالخلفاء الراشدون كانوا ينتخبون انتخاباً من عائلات متفرقة، وليسوا من عائلة واحدة. أما الأمويون فإن جميع خلفائهم كانوا من عائلة واحدة. فكان الملك ينتقل فيهم من الأب إلى الابن، ومن الأخ إلى الأخ، وأحياناً من ابن العم إلى ابن العم. وكان الخلفاء الراشدون لا يتنعمون في مأكلهم وملبسهم ومسكنهم، ولا فرق بينهم وبين سائر المسلمين في المدينة. وكانوا زاهدين في الدنيا، لا يهمهم إلا صالح المسلمين ورضاء الله تعالى.

أما الأمويون فقد كان مظهرهم مظهر الملوك الكبار يتنعمون في المأكل والملبس. وكان لهم الخدم والحشم، وكان لهم الحجاب على أبوابهم، فلا يدخل أحد عليهم إلا بعد الاذن. وكانوا يسكنون في القصور العظيمة، المزينة بالزينات البديعة والحدائق البهجة.

ولم يكن الخلفاء الراشدون يعطون شيئاً من المال لأحد، إلا بالاعتدال والاستحقاق. ولكن الأمويين كانوا يجودون بالأموال على أنصارهم ومساعديهم. وكان يدخل على الملك الأموي الشاعر فيمدحه بقصيدة فيعطيه العطايا الكثيرة. ولم يكن في زمن الخلفاء الراشدين دوائر حكومة واسعة، ولا سكة، ولا ثياب رسمية يلبسها الملوك والحكام والموظفون. ولكن الأمويين وسعوا دوائر الحكومة، وضربوا السكة العربية، فصار لهم ولعمالهم ثياب رسمية مطرزة بالذهب. فما هو سبب هذا التغيير الذي حدث يا ترى؟

- ٢ -

اعلم أن أكبر أسباب ذلك هو اختلاف المكان والزمان. ولا بد أنك تذكر مما مر بك من

الدروس السابقة أن هناك فرقاً بين حياة البدوي وحياة المدني. فالخلفاء الراشدون كانوا في المدينة وكانت المدينة وسط البادية والبدو. لذا كانت حياتهم، وحياة العرب معهم، حياة ساذجة قريبة من حياة البدو. وكان أكثر عهدهم قد انقضى بالفتوح والحروب، وهذه الحروب كانت تشغلهم عن التنعم في الحياة. ثم لم يكن في يد العرب أموال وثروة تساعدهم على النعيم والرفاه.

ولكن الأمويين اتخذوا دمشق الشام مركزاً لهم وعاصمة لحكومتهم. ودمشق هي في وسط بلاد متمدنة في شمالها مملكة الروم، وفي جنوبها مصر. وكانت هذه البلاد قبل أن تدخل في حكم العرب تحت حكم الفينيقيين، ثم اليونانيين ثم الرومانيين. وكان في مصر الفراعنة العظام قبل اليونانيين والرومانيين. وكل هذه الأمم كانت متحضرة، وكان بين حياة أهلها وبين حياة البدو في البادية فرق كبير. فكان سكان هذه البلاد يشتغلون بالزراعة والتجارة والصناعة، ويبنون القصور الشاهقة، وينشئون الحدائق الغناء، ويتنعمون في الحياة، فيلبسون الحرير والديباج المطرز بالذهب والفضة. وكان لملوكها الخدم والعبيد والقصور والحجاب والكتاب والوزراء والسكة والمدارس والمعابد والكنائس والمكتبات. لذلك فإن الأمويين، ومعهم العرب، حينما استقروا في هذه البلاد، رأوا أهلها معتادين مثل هذه الحياة الناعمة المدنية، فأخذوا يقلدونهم. وقد بدأ العرب بهذا التقليد، منذ كان معاوية والياً على الشام، في زمن عمر بن الخطاب.

والأمويون هم الذين بنوا الجامع الأموي في دمشق، والمسجد الأقصى، ومسجد الصخرة الشريفة في القدس. وهذه المساجد تعد من اجمل وأفخم البنايات العربية.

ومن لطيف ما يروى أن عمر بن الخطاب جاء مرة إلى الشام للتفتيش عن حالة البلاد والرعية، فخرج معاوية وكبار رجاله لاستقباله، وكانوا لابسين ثياباً حريرية، مطرزة بالذهب، فلما رآهم عمر أخذ يذر عليهم التراب ويقول لهم: «ما أسرع ما فتنتكم الدنيا» فقالوا له: «يا أمير المؤمنين نحن في بلاد اعتاد أهلها أن يروا ملوكهم وحكامهم بمثل هذه الأبهة والعظمة، ولا يمكننا أن نحفظ هيبتنا في نفوسهم إلا بما ترى». فعذرهم الخليفة.

- ٣ -

كما أن العرب قلدوا أهالي البلاد المفتوحة في بعض العادات. فإن أهالي البلاد المفتوحة قلدوا العرب أيضاً في أشياء كثيرة. إذ أخذوا يتعلمون اللغة العربية، ويعتنقون الديانة الإسلامية، ويصلون ويصومون ويزكون ويعيدون أعياد العرب، ويستقبلون الكعبة قبلتهم ويحاربون معهم. وبعبارة أخرى أخذوا يستعربون.

وهذا شيء طبيعي ومفيد. فإن الناس حينما يختلط بعضهم ببعض لا بد من أن يقلد بعضهم بعضاً. وأظن أنك تذكر أن مثل هذا وقع حينما جاءت القبائل السامية من جزيرة العرب إلى الشام والعراق وفلسطين. فإنك قرأته في أحد دروسك السابقة. إن الناس لا يمكنهم أن

يبقوا على حالة واحدة. بل يجب عليهم دائماً أن يبحثوا عن الأشياء الجديدة النافعة فيقلدوها. وإذا كان عندهم أشياء قديمة ضارة، أو ليس لها فائدة، يجب عليهم أن يتركوها. وبهذه الطريقة يمكنهم أن يتقدموا ويرتقوا(٣٤).

الفصل الثالث عشر
العباسيون: ظهور الدولة العباسية وزوال الدولة الأموية

الدولة العباسية في أعظم أيامها - رابطة العباسيين بالغرب - علاقاتهم ببيزانطية

الدرس الواحد والخمسون

- ١ -

لو سألت أباك عن سبب ضعف عائلة من العائلات الكبيرة، أو قوتها، لأجابك: إن العائلة تكون قوية محترمة، حينما يكون أبناؤها متحدين، يحب بعضهم بعضاً، ولا يريدون لبعضهم إلا الخير، وحينما يكونون ذوي أخلاق طيبة، أمناء صادقين شرفاء موفين بالعهد. وحينما يكونون ذوي سيرة حسنة، لا يشربون الخمر، ولا يلعبون القمار، ولا يرتكبون الفواحش.

أما إذا كانوا متنازعين، يبغض بعضهم بعضاً، وكل منهم يسعى في ضرر الآخر، ولا تكون أخلاقهم حسنة: فيأتون المنكرات، ويفعلون الشر، ويؤذون الناس، فإنهم لا يجدون من يحترمهم، أو يحسب لهم حساباً. وحينئذ يضعفون، ويعتدي الناس عليهم، ولا يبالون بهم، مهما أصيبوا بالمصائب، وحلت فيهم النكبات.

- ٢ -

وهكذا كانت الحالة في العائلة الأموية. فإنهم حينما كانوا متحدين ذوي أخلاق طيبة، مهتمين لحماية ملكهم وترقية بلادهم، ويحبون مصالح رعاياهم، كانوا محترمين أقوياء، يحسب الناس حسابهم، ولا يستطيع عدوهم أن ينالهم بأذى.

ولكنهم فسدوا أخيراً. وأخذ بعضهم يكره الآخر. وبدأوا يتنازعون على الملك والمال، ويرتكبون المحرمات، ويكسلون في الدفاع عن بلادهم وحفظها. فكان ذلك سبب سقوطهم، وضعفهم وزوال دولتهم.

وقد كان حزب الشيعة الذي كان يكره الأمويين، ويتمنى زوال ملكهم، وحلول آل النبي

محلهم، واقفاً لهم بالمرصاد. فلما رأى ما أصاب الأمويين من الضعف اغتنم الفرصة. فقام في بلاد الفرس والعراق بثورة كبيرة، وطرد عمال الدولة الأموية. وبايعوا علناً الإمام «عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله العباس» بالخلافة.

وهكذا ظهرت الدولة العباسية في بلاد الفرس والعراق، لأن حزب الشيعة هناك كان قوياً جداً. وكان ذلك عام ١٣٢ للهجرة النبوية، المصادف لعام ٧٥٠ للميلاد المسيحي. وقد اتخذ الخليفة الجديد مدينة «الكوفة» في العراق عاصمة له.

وقد جعل العباسيون اللون الأسود شعاراً لهم. فكانت راياتهم سوداء، وملابسهم الرسمية سوداء. خلافاً للأمويين الذين كان اللون الأبيض شعاراً لهم.

- ٣ -

إن أعظم رجل اشتغل في ثورة العباسيين «أبو مسلم الخراساني». كان هذا الرجل عجمياً يكره العرب كرهاً شديداً. وقد قتل من العرب أنصار الأمويين خلقاً كثيراً، بدون شفقة ورحمة. وقد قتل هذا الرجل أخيراً، وقد قتله «أبو جعفر المنصور» الخليفة الثاني من الخلفاء العباسيين.

هل تحب أن تعرف سبب قتل الخليفة هذا الرجل، مع أنه خدم العباسيين خدمة عظيمة؟

أن أبا مسلم الخراساني استكبر كثيراً، حينما رأى أنه كان سبب قلب الدولة الأموية ووجود الدولة العباسية. فأخذ يمن على العباسيين، ويقول للناس إنه لولاه لما كان للعباسيين دولة، ولا يهتم لأوامر الخلفاء، وكان يطلب مطالب عظيمة لمنفعة الفرس.

فرأى أبو جعفر المنصور أنه إذا ترك لأبي مسلم الأمر يفعل ما يشاء عظم شره، وكبر خطره. وربما قام بثورة ضد الدولة العباسية، فقرر أن يتخلص منه، فدعا خمسة رجال أشداء، وسلحهم، وأخفاهم خلف ستار علقه في غرفته. وقال لهم حينما يدخل أبو مسلم إلى هذه الغرفة، وتسمعونني أصفق، فاخرجوا بسرعة، واضربوه بسيوفكم حتى تقتلوه.

ثم دعا أبا مسلم إلى قصره، فجاء ومعه قواد وجنود كثيرون من أنصاره. ولكنه تركهم خارج القصر، ودخل على الخليفة جاراً سيفه، متبختراً في مشيته، فاحتفى به الخليفة وسايره، ثم طلب منه سيفه ليتفرج عليه، فلما أخذ منه السيف، صفق فخرج الرجال من خلف الستار، وضربوا أبا مسلم حتى قتلوه. ثم أمر أبو جعفر بقطع رأس أبي مسلم ورميه لأنصاره الذين كانوا ينتظرونه، وأمر برمي صرر صغيرة من الدنانير لهم. فلما ألقي الرأس، وألقيت الدنانير، اشتغل الأنصار بجمع الدنانير، ونسوا رأس أبي مسلم ودمه. وهكذا تخلص أبو جعفر منه.

- ٤ -

بعد أن تم الأمر للعباسيين في بلاد الفرس والعراق، سير الخليفة «أبو عبد الله السفاح»، جيشاً إلى الشام لمحاربة الأمويين، وأخذ بقية المملكة منهم.

وقد وقعت الحرب بين جيش العباسيين وجيش الأمويين، فانكسر الجيش الأموي، وانهزم «مروان» آخر ملوك الأمويين في بلاد الشام، واستولى الجيش العباسي على بلاد الشام وفلسطين ومصر. وكان «مروان» قد اختفى في أحد أديرة مصر، فعرف القائد العباسي مخبأه، وأرسل جنداً قتلوه.

وبذلك زال ملك الأمويين، وتشتت شمل رجالهم، وأصبحت جميع البلاد الإسلامية خاضعة لحكم العباسيين.

وقد امتد حكم العباسيين نحو خمسمائة سنة، أي إلى سنة ٦٥٦ للهجرة النبوية و ١٢٥٨ للميلاد المسيحي. ثم زال ملكهم على يد الأتراك التتر.

وقد ولي العرش من العباسيين سبعة وثلاثون خليفة ومن أشهرهم:

«أبو جعفر المنصور. وابنه المهدي. وهارون الرشيد. وابناه المأمون والمعتصم». فإن الدولة كانت في عهدهم قوية وعظيمة. والبلاد كانت عامرة زاهية(٣٥).

الدرس الثاني والخمسون

الدولة العباسية في أعظم أيامها

- ١ -

لقد علمت من الدرس السابق أن أبا جعفر المنصور، وابنه المهدي، وهارون الرشيد، وولديه المأمون والمعتصم، كانوا أشهر وأعظم الخلفاء العباسيين. ولا بد أنك تتساءل عن سبب عظمة هؤلاء الخلفاء وشهرتهم، فإن الإنسان لا يمكن أن يكون عظيماً ومشهوراً، إلا إذا فعل فعلاً عظيماً، وخدم أمته وبلاده خدماً كبيرة.

وفي الحقيقة أن عظمة هؤلاء الخلفاء وشهرتهم، كانت بسبب أعمالهم العظيمة، وخدماتهم الكبيرة لبلادهم وأمتهم. وها أنا ذا أذكر لك شيئاً من هذه الأعمال، حتى إذا كبرت قرأت أشياء كثيرة منها، مفصلة في كتب التاريخ الكبيرة.

- ٢ -

إن الدولة كانت في زمنهم قوية مهابة، لأنهم اهتموا لتقوية الجيش، واعداد المعدات اللازمة للدفاع عن المملكة. وقد كسروا جيوش الروم مرات عديدة بحسن استعدادهم واهتمامهم. فإن الروم لما رأوا الفتنة وقعت بين العباسيين والأمويين، ظنوا أن الفرصة سانحة لاسترداد بلاد سورية وفلسطين ومصر من يد العرب، لأنهم كانوا دائماً يتشوقون إليها، ويتحسرون عليها. فأرسلوا أسطولهم وجيشهم في زمن أبي جعفر المنصور إلى سواحل سورية وفلسطين وخربوا بعضها، ووسوسوا للنصارى من أهل لبنان، بأن يقوموا ضد الدولة. ولكن أبا

جعفر أرسل الجيوش المدافعة بقيادة قواد كبار، مجهزة بالأجهزة الكافية، فاستطاعت أن ترد الروم على أعقابهم خائبين. ثم أمر بتحصين الموانىء والثغور، وإبقاء حاميات قوية فيها، وإرسال بعض القبائل العربية إلى لبنان لتتوطن فيه، وتقوى بها البلاد، وتنقطع عنها أصبع الروم. ولا يزال أحفاد هذه القبائل موجودين في جبل لبنان إلى اليوم.

- ٣ -

وفي زمن المهدي ابن جعفر، عاد الروم إلى الاعتداء على بلاد الإسلام، فأرسل الخليفة جيشاً عظيماً بقيادة ابنه هارون الرشيد، فاخترق بلاد الأناضول، وفتح بلاداً كثيرة منها وكسر الروم كسرة شنيعة. واضطرت ملكة الروم إلى طلب الصلح وتعهدت بدفع جزية سنوية للخليفة.

وفي زمن الخليفة هارون الرشيد، أراد ملك الروم نكفور أن ينكث العهد، فأرسل سفيراً إلى هارون الرشيد، يحمل كتاباً يقول فيه «إن الملكة التي كانت قبل كانت ضعيفة تدفع لك الجزية، وإني قطعت هذه الجزية، وأريد منك أن ترد ما أخذته من الملكة قبلي». فغضب هارون الرشيد غضباً شديداً، وكتب على ظهر المكتوب «إنك سوف ترى جواب كتابك بعينك». ثم هيأ جيشاً عظيماً، وأرسله بقيادة ابنه المأمون، فكسر جيش نكفور، ووصل إلى أسوار عاصمته القسطنطينية، واضطر نكفور إلى التوبة والخضوع، ودفع جزية أعظم من الجزية الأولى.

- ٤ -

وفي زمن الخليفة المعتصم عاد الروم إلى نكث العهد، فهجموا على مدينة ملاطية وخربوها. وقد دخل أحد القواد إلى بيت من بيوت المسلمين في ملاطية، فوجد امرأة جميلة، وفي يدها أساور ذهبية، وفي عنقها عقد جميل، فمد يده يريد أن يتعرض لعرضها، فصرخت: وامعتصماه! فأخذ القائد يستهزىء به ويقول لها «ماذا يفيدك هذا الصراخ، وماذا تظنين أن ينفعك المعتصم». فأجابته «أما والله لو بلغه خبرك لداسك وداس بلادك بخيله البلق» - البيضاء - واتفق أن مر في جانب البيت جماعة من جند المسلمين، فسمعوا الصراخ. فدخلوا ووجدوا القائد يريد أن يسطوا بالمرأة فقتلوه. ثم ذهب أحدهم إلى بغداد، فأبلغ القصة للخليفة المعتصم. فهتف قائلاً: «لبيك أيتها المرأة الشريفة». ثم أمر بإعداد جيش كبير فيه فرقة من الفرسان جمع خيلها بلق. وقاد الجيش بنفسه، واسترجع ملاطية من الروم، وظل يتوغل في بلادهم، ويكسر جيوشهم إلى أن طلبوا منه الأمان، ودفعوا له الجزية.

الدرس الثالث والخمسون
تابع الدولة العباسية في أعظم أيامها

- ١ -

إن الدولة العباسية كانت في زمن خلفائها العظام غنية جداً أيضاً. فإن أبا جعفر حينما مات خلف في بيت المال تسعمائة مليون درهم. وكانت واردات الدولة في زمن هارون الرشيد عظيمة جداً، تبلغ نحو ألف مليون. وكذلك الأمر في زمن المأمون والمعتصم. وغناء الدولة العادلة دليل على غناء الأمة وعمران البلاد.

وفعلاً إن البلاد كانت في عهدهم عامرة زاهرة. فكانت بلاد العراق تعطي غلة عظيمة جداً، لأنهم كانوا يعنون بتحسين طرق الزراعة وتقويتها، والاستفادة من نهر الفرات ودجلة، كما تستفيد مصر من النيل اليوم. وكذلك كانوا يشجعون الصناعة والتجارة كثيراً، ويهتمون بتعبيد الطرق لسير القوافل التجارية إلى جميع الأنحاء. وقد أنشأوا كثيراً من القصور والمساجد والمعاهد، وأبو منصور هو الذي أمر ببناء مدينة «بغداد». فأصبحت عاصمة الدولة العباسية. وكانت مدينة عظيمة جداً بمبانيها وشوارعها ومساجدها وحماماتها وقصورها وحدائقها، وكثرة سكانها.

- ٢ -

إن عهد هؤلاء الخلفاء العظام كان في ذات الوقت عهد علم وأدب. وقد كانوا يقربون العلماء والمؤلفين والأدباء، ويمنحونهم العطايا الجزيلة. وأبو جعفر هو من شجع على ترجمة الكتب العلمية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، لينتفع العرب بما عند الأجانب من العلوم والأفكار. واقتدى به المأمون. بل إن العلم في عهد هذا الخليفة كان رائجاً أكثر، لأنه هو نفسه كان عالماً. وكان يعقد مجالس للعلماء ويحضرها بنفسه، ويشترك في الأبحاث والمناقشات العلمية. وقد خصص أموالاً كثيرة لجلب كتب الطب والهندسة والفلك وغيرها من بلاد الروم، وترجمتها إلى اللغة العربية.

أما المهدي وابنه هارون الرشيد فقد كانا ميالين للأدب. وكانا يعطفان على الأدباء والشعراء. لاسيما هارون الرشيد الذي كان له شعراء كثيرون يمنحهم الجوائز الكثيرة، ويقربهم إليه ويتسامر معهم.

وبسبب اهتمام الخلفاء للعلوم والآداب كان الأهالي أيضاً يهتمون بها. وقد نبغ في عهدهم كثير من العلماء والفقهاء والأطباء والمهندسين والمؤلفين والمترجمين. وأصبحت بغداد مركزاً من مراكز العلم والمدنية، يأتي إليها الناس من كل صوب.

- ٣ -

أما الأهالي فقد كانوا مرتاحين في عهد هؤلاء الخلفاء، لأنهم كانوا يهتمون لمصالحهم

وراحتهم، ويعدلون بينهم، ويأمرون عمالهم بالعدل والرأفة فيهم، ولا يسمحون لأحد بظلمهم، وكان لهم قضاة عادلون لا يخشون في الحق أحداً. وكثيراً ما كان يشتكي الناس أقارب الخلفاء وأولادهم إلى المحاكم، فيحكم القاضي عليهم إذا كانوا ظالمين.

وفي عهدهم، سيما في عهد هارون الرشيد والمأمون، قوى نفوذ العجم المسلمين في الدولة، لأنهم هم الذين ساعدوا في تأسيسها، وقد تولوا المناصب العالية، وأصبحوا أصحاب ثروة عظيمة يضاهون بها ثروة الخلفاء، وأخذوا يبعدون العرب، ويقللون من نفوذهم وقوتهم. ومن أعظم الرجال الذين اشتهروا بالقوة والعظمة منهم «البرامكة» في عهد هارون الرشيد و «آل سهل» في عهد المأمون، حتى ان نفوذهم كان يتفوق أحياناً على نفوذ آل الخليفة. وقد طمع البرامكة في الملك، لما رأوا في أنفسهم من القوة والثروة، فاستاء هارون الرشيد منهم، وقتل كبارهم، وضبط أموالهم، فتبدل عزهم ذلاً، وغناهم فقراً، وقوتهم ضعفاً[٣٦].

الدرس الرابع والخمسون

تابع العباسيين ـ رابطة العباسيين بالغرب وعلاقتهم ببيزانطية

ـ ١ ـ

إن الدولة العباسية لم تكن هي الدولة الوحيدة في الدنيا، فقد كان دول عديدة مثلها، منها ما هو مجاور لها مثل دولة «الروم البيزانطيين» التي كانت عاصمتها «القسطنطينية». وأظن أنك تعرف لماذا تسمى دولة الروم هذه «البيزانطيين»، لأن المدينة التي بنيت مكانها «القسطنطينية» كانت تسمى «بيزانطية». فقد قرأت ذلك في دروس التاريخ القديم، ومن الدول ما ليس مجاوراً للدولة العباسية، مثل دولة «الفرنجة» الكبرى، التي كانت حاكمة على بلاد فرنسا وإيطاليا وألمانيا.

وقد كان ملك دولة الفرنجة في زمن هارون الرشيد «الملك شارلمان الكبير»، وكان مسيحياً متديناً، فأراد أن تكون بينه وبين هارون الرشيد صداقة، لأنه سمع بقوته وعدله، وعظمة دولته، ومن جهة ثانية أراد أن ينال رضاءه. ليسهل على المسيحيين زيارة قبر السيد المسيح في القدس، فأرسل إليه سفراء، وأرسل معهم هدايا فاخرة، وأمرهم أن يبلغوا هارون الرشيد أنه يريد أن يكون صديقاً له، وأنه يطلب منه الإذن للمسيحيين الأوروبيين بزيارة القبر المقدس، وأنه يرجوه أن يحميهم في ذهابهم وإيابهم.

ـ ٢ ـ

وقد جاء هؤلاء السفراء إلى بغداد، فأمر هارون الرشيد بالحفاوة بهم، وإراءتهم ما في بغداد من قصور ومساجد ومدارس ومصانع، وما عند الدولة من جيوش وسلاح وعدة، فاندهش السفراء مما رأوا من عظمة العباسيين وقوتهم وثروتهم ومدنية بلادهم، ثم استقبلهم هارون

الرشيد كما ترى في الصورة، وسمع منهم كلمة الملك شارلمان، فقبل طلبه، وأصدر أمره بالسماح للمسيحيين الإفرنج بزيارة قبر السيد المسيح وحمايتهم.

وقد أرسل هارون الرشيد أيضاً سفراء إلى الملك شارلمان لرد الزيارة، وإبلاغه قبول طلبه وصداقته، وأرسل مع السفراء هدايا كثيرة، من جملتها ساعة دقاقة كبيرة مصنوعة بمهارة عظيمة، فأعجب شارلمان ورجاله بالساعة، ودهشوا. وكان بعضهم يهرب من المجلس حينما تدق ظاناً أن في داخلها شيطاناً يدق فيها، ثم تبين لهم أن العرب ماهرون في الصناعة، ذوو مدنية وعلم وذكاء. ولقد حدث للناس عندنا في هذا الزمن، فإن بعض الناس حينما رأوا «الفونوغراف» وسمعوا صوته، ظنوا أن في داخله شيطاناً يغني، وخافوا منه، ثم تبين لهم أنه نتيجة صناعية عجيبة.

- ٣ -

أما الحالة بين الدولة العباسية ودولة الروم البيزانطيين، فإنها لم تكن حالة صداقة بل كانت حالة عداء، ولا بد أنك تعرف سبب هذا العداء، مما قرأته في الدروس السابقة، فإن الروم كانوا حاكمين على سوريا وفلسطين ومصر وبلاد المغرب، فجاء العرب وأخذوا هذه البلاد منهم، فظل الروم حاقدين عليهم ينظرون إليهم نظرة العداء. وقد قرأت في الدرس السابق شيئاً مما وقع بين الروم وبين العباسيين من الحروب[٣٧].

الفصل الرابع عشر
الأمويون في الأندلس

الدرس الخامس والخمسون

- ١ -

جلس أبو جعفر المنصور مرة يتسامر مع رجال دولته، فسألهم هذا السؤال:

أي رجل من قريش يستحق أن يسمى «صقر قريش». فحار رجال دولته في الجواب. منهم من قال: أنت يا أمير المؤمنين. ومنهم من قال: أخوك عبدالله. ومنهم من قال: خالد بن الوليد. ولكن أبا جعفر كان كلما ذكروا اسماً يقول «لا». فلما أعياهم الجواب قال لهم: إن صقر قريش هو ذلك الفتى الذي ذهب من بلاده وحيداً شريداً طريداً فقيراً، فما زال يجد ويجتهد بقوة عقله ونفسه وجرأته حتى أنشأ ملكاً عظيماً في بلاد، لا جنود له فيها ولا مال. إنه «عبدالرحمن الأموي».

أتدري قصة هذا الرجل الذي سماه أبو جعفر «صقر قريش»؟

وماذا صنع يا ترى حتى أعجب به أبو جعفر ولقبه بهذا اللقب؟

إن لعبد الرحمن قصة جميلة أريد أن أقصها عليك. فاقرأها بدقة، لتعرف كيف يكون الرجل العظيم.

- ٢ -

إنك تعلم مما قرأت من الدروس السابقة، أن العباسيين وحزب الشيعة كانوا يكرهون العائلة الأموية كرهاً شديداً. فلما قاموا بثورتهم، وبايعوا عبدالله العباسي بالخلافة، قرروا إبادة الأمويين ومحوهم، لئلا يعودوا إلى تحريض الناس ضدهم، والقيام بثورة عليهم.

وقد قتل الخليفة عبدالله العباسي نحو ستين رجلاً من العائلة الأموية، وأعطى أمراً لقائد الجيش الذي أرسله إلى الشام، بقتل كل من يقبض عليه من أمراء هذه العائلة. وهذا سبب تخصيص هذا الخليفة بلقب «السفاح».

فلما علم رجال الأمويين ما ينويه لهم العباسيون، ورأوا ما فعلوه باخوانهم أخذوا يختفون ويهربون. وقد كان بين الذين اختفوا شابان أخوان، اسم أحدهما «عبد الرحمن»، وثانيهما «مسلمة». وهما ولدا معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. وقد اختفيا مدة من الزمن في قرية من قرى حلب، ولكن جاء إلى القرية بعض جند العباسيين، يحملون راياتهم السوداء للتفتيش عن رجال الأمويين. فخرج عبد الرحمن وأخوه من القرية فارين بنفسيهما.

وقد أحس الجند بهما فلحقوهما. وكان قرب القرية نهر فألقيا بنفسيهما فيه، وكان عبد الرحمن وهو الأكبر يجيد السباحة أكثر من أخيه، فنجا أما أخوه مسلمة، فإنه خشي الغرق، فطلب من الجند الأمان، فأعطوه الأمان فسلم نفسه، ولكن الجند غدروا به وقتلوه.

- ٣ -

بعد أن خرج عبد الرحمن من النهر ظل يسير في الليل ويختفي في النهار، إلى أن خرج من سوريا وفلسطين ودخل بلاد مصر، ثم علم أن البحث عن رجال الأمويين مستمر في مصر أيضاً، فخرج منها إلى بلاد المغرب، أي شمال أفريقيا.

وكان حزب الأمويين قوياً في هذه البلاد. فالتف على عبد الرحمن رجال هذا الحزب، وأخذوا يدعون الناس إلى نصرته، وكاتبوا أنصار حزبهم في الأندلس أيضاً، ثم اتفقوا على أن يذهب عبدالرحمن إلى الأندلس، لأن حكم العباسيين ونفوذهم ضعيف فيها. فذهب عبد الرحمن إلى الأندلس، وهناك انضم إليه عدد كبير من أنصار حزبه، وقاموا بثورة ضد الوالي الذي كان من حزب العباسيين، ونجحوا في ثورتهم، وقتلوا الوالي، وغلبوا أنصار العباسيين. واستولوا على مدينة «قرطبة» عاصمة البلاد، واعلنوا سقوط حكم العباسيين، ونادوا بعبدالرحمن ملكاً مستقلاً على بلاد الأندلس.

وهكذا استطاع بعقله وجرأته أن يجعل لعائلته ملكاً ودولة في بلاد الأندلس، بعد أن خرج من سوريا وحيداً شريداً طريداً فقيراً، واستحق لقب «صقر قريش» الذي لقبه به أبو جعفر المنصور.

وقد كان تأسيس هذه الدولة عام ١٣٩ للهجرة و ٧٥٥ للميلاد، وفي عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور. ولم يقدر أبو جعفر المنصور أن يعمل ضد عبدالرحمن شيئاً، لأن الأندلس بعيدة جداً عن بغداد. ولأنه كان مشغولاً بتقوية ملكه في بغداد وبلاد العراق والفرس وسوريا ومصر.

الدرس السادس والخمسون
تابع - الأمويين في الأندلس

- ١ -

دام حكم الدولة الأموية الأندلسية ثلاثمائة سنة. وولي الملك من نسل عبدالرحمن ستة عشر أميراً. ومن أشهرهم عبدالرحمن الأول «صقر قريش» وهو مؤسس الدولة. ويسمى أيضاً «عبدالرحمن الداخل» لأنه هو الذي دخل إلى الأندلس. ومن أشهرهم «عبدالرحمن الثاني»، و «عبدالرحمن الثالث». وقد كان هذا الأخير أقوى الملوك وأعظمهم. وقد أعلن نفسه خليفة، ولقب نفسه بلقب «أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر».

وقد كانت هذه الدولة العربية قوية وعظيمة في أكثر مدتها. لأن أكثر ملوكها كانوا عقلاء مدبرين، محبين للعلم والعمران، مجتهدين في تقوية الجيش والأسطول. وتحسين أمور الدولة والبلاد والرعية.

- ٢ -

كان الأهالي متمتعين في عهدهم بالعدل والحرية والراحة، لا يظلمهم أحد، ولا يمانعهم فيما يريدون أن يعملوه مانع. وكان العمران شاملاً جميع البلاد، فكثرت القصور والمساجد والحدائق والطرق. وكان العلم منتشراً بين جميع الناس فقراء وأغنياء، مسلمين وغير مسلمين، وكانت المدارس كثيرة وراقية، وكان المعلمون فيها أساتذة عظماء من العرب. وكانوا نابغين في العلوم والفنون، حتى انه كان يأتي إلى مدارسهم أناس كثيرون من الافرنج. لتعلم العلوم فيها. مثلما نفعل اليوم فنرسل أبنائنا إلى أوروبا، ليتعلموا في مدارسها الراقية.

وكانت الزراعة والصناعة والتجارة قوية رائجة، لأن الدولة حسنت طرق الزراعة وشجعتها. وكانت زراعة البساتين راقية، فامتلأت المدن بالأشجار المثمرة والحدائق الغناء. وقد كثرت المعامل التي تصنع الحرير والقطن والسكر والسلاح والثياب والمراكب والأدوية. وكانت المراكب التجارية العربية تنقل غلات الزراعة، ومصنوعات المصانع إلى بلاد العالم، لتبيعها مثلما تفعل بلاد أوروبا وأميركا اليوم، وترسل لنا على بواخرها ما يصنع في بلادها، وينتج.

والخلاصة أن بلاد الأندلس كانت في عهد الدولة الأموية كأنها قطعة من الجنة بما فيها من رفاه ونعيم، وثروة وعمران وقصور وحدائق ومصانع وتجارة.

- ٣ -

وقد هاجر إلى الأندلس عدد عظيم من العرب الذين سمعوا بثروتها وعمرانها ونعيمها ورفاهها، ولا سيما من العرب الذين كانوا ببلاد الشام، وكانوا من أنصار الأمويين. فأنزلهم

الملوك الأمويون في الأماكن الطيبة، وأعطوهم الأراضي الواسعة، فأخذوا يعمرونها وينتفعون بخيرتها، وقد سموا مدناً كثيرة من مدن الأندلس بأسماء مدنهم في بلاد الشام وذلك محبة في بلادهم التي أتوا منها، ولأن هذه المدن والأماكن تشبه مدن وأماكن بلاد الشام وسوريا ولبنان وفلسطين.

- ٤ -

وقد كان الافرنج يحسدون الدولة الأموية العربية على قوتها، ورفاه بلادها، وثروتها، وينظرون إلى العرب بنظر العداء. وقد عقدوا اتفاقاً في ما بينهم ضد العرب، وأخذوا يغزون بلاد الأندلس. واستفادوا من الحصون الجبلية التي كان أنشأها «شارل مارتل»، ومن العصابات الجبلية التي كانت تقيم فيها، وتغزو البلاد حيناً بعد آخر، كما مر بك في درس سابق.

ولكن الملوك الأمويين الأقوياء كانوا دائماً على استعداد لصدهم. ولقد وقعت بينهم حروب كثيرة، كسروهم فيها، وردوهم على أعقابهم خائبين. وكانوا يجبرونهم في أكثر الأحيان على دفع الجزية، وكذلك كانوا يتوغلون أحياناً كثيرة في بلاد الافرنج، ويستولون على أقسام من بلاد فرنسا وايطاليا.

ولكن هذه القوة لم تدم للأمويين. ومثل ما وقع بين العائلة الأموية في بلاد الشام نزاع على الملك، وفساد في أخلاق بعض الملوك، وقع بين الأمويين في الأندلس، فضعفوا في الأندلس، مثل ما ضعفوا في سوريا، واستفاد الافرنج الذين كانوا واقفين لهم بالمرصاد، فأخذوا يغيرون على البلاد الإسلامية بنشاط واستمرار.

- ٥ -

نحن نعلم أن الأمويين في سوريا حينما سقطوا قامت مقامهم «الدولة العباسية»، وهي دولة إسلامية عربية، فبقي حكم العرب المسلمين قوياً بعد الأمويين.

أما في الأندلس فإنه لم يقم مقام الأمويين دولة عربية إسلامية واحدة، وإنما انقسم ملكهم إلى دول صغيرة عديدة يحكمها أمير مسلم. وكان أمراء هذه الدول غير متحدين، ولذلك كانوا جميعهم ضعفاء، وكان هذا من أسباب نجاح الغارات الافرنجية، وخروج العرب نهائياً من بلاد الأندلس، بعد أن دام حكمهم فيها ثمانمائة عام، وسوف أحدثك عن ذلك في درس آخر[٣٨].

الفصل الخامس عشر
القيروان ودولة بني الأغلب فيها

الدرس السابع والخمسون

- ١ -

إن العرب حينما فتحوا الأقطار بنوا مدناً عديدة، مثل الكوفة وبغداد والفسطاط. وقد بنوا كذلك مدينة «القيروان»، وهي واقعة في جنوب مدينة «تونس»، والذي عمرها هو المجاهد العربي «عقبة بن نافع». فإنه حينما كان يجاهد هو وجيشه رأى موقع هذه المدينة حصيناً، لا يقدر الأعداء أن يستولوا عليه بسهولة، ومتوسطاً بين سائر بلاد البربر، فعمرها لتكون مركزاً للجيش العربي، ويستريح فيها المرضى والمتعبون، وتحفظ فيها المؤن والأسلحة والغنائم.

أما في زمن الدولة العباسية، فإن مدينة «القيروان» صارت عاصمة لدولة جديدة، اسمها دولة «بني الأغلب». فإن الخليفة العباسي هارون الرشيد، حينما رأى أن الأمويين قد استولوا على الأندلس، وأخذوا يقوون، خاف أن يمدوا أيديهم إلى بلاد المغرب ومصر، ويسقطوا حكم العباسيين فيها. ففكر في طريقة يحفظ بها هذه البلاد. وكان لهارون الرشيد قائد يعتمد عليه كل الاعتماد، اسمه (ابراهيم بن الأغلب)، فاتفق معه على أن يجعله أميراً على بلاد المغرب يحكمها ويحفظها، ولا يمكن الأمويين في الأندلس من الاستيلاء عليها. فعاهده ابراهيم على ذلك. فذهب وأسس دولة عرفت في التاريخ بدولة بني الأغلب، وجعل مدينة القيروان عاصمة لها، وكان ذلك عام ١٨٥ للهجرة و ٨٠٠ للميلاد.

- ٢ -

إن الأمير ابراهيم قد وفى بعهده. فرتب جيشاً قوياً وأسطولاً بحرياً عظيماً، وحفظ البلاد حفظاً عظيماً، واستطاع هو وأولاده من بعده أن يقفوا في وجه الدولة الأموية، وأن يمنعوها من العدوان على بلاد المغرب.

وكانت البلاد مستقلة استقلالاً داخلياً، حكمها وماليتها وجيشها بيد بني الأغلب، وكان الخطباء يذكرون اسم الخليفة العباسي على المنابر. ويدعون له بالنصر. وكانت الراية السوداء هي التي تخفق على هذه البلاد، والعملة العباسية هي التي يتعامل بها الناس.

- ٣ -

إن دولة بني الأغلب لم تكتف بما في يدها من حكم بلاد المغرب. فقد كانت جزيرة صقلية مجاورة لها، فأخذت تطمع في الاستيلاء عليها. واتفق أن وقع نزاع بين أمراء هذه الجزيرة، فاغتنم الأمير الأغلبي زيادة الله الفرصة، وأرسل أسطوله وجيشه فاستولى عليها، وأصبح الحكم فيها عربياً إسلامياً.

وقد اجتهد العرب في إعمار هذه الجزيرة وتحسينها، وإراحة أهلها، وإعطائهم حريتهم، وأسسوا فيها المدارس الراقية التي كان يتعلم فيها المسلمون وغير المسلمين، ويأتي إليها الطلاب من بلاد الافرنج أيضاً.

وقد جعلت دولة بني الأغلب هذه الجزيرة مركزاً حربياً لها، وأخذت ترسل منها أساطيلها وجيوشها لغزو بلاد إيطاليا. وقد غزا العرب مرة مدينة «روما» العظمى التي يقيم فيها البابا، فاضطر البابا إلى دفع قيمة كبيرة من الذهب والفضة فدية عن المدينة.

- ٤ -

ولكن قوة العرب وعظمتهم لم تدم في هذه البلاد، فإنهم بعد أن بقوا حاكمين فيها نحو مائتي وخمسين سنة، تنازعوا فيما بينهم، وأهملوا الاستعداد للدفاع عن البلاد. ثم ضعفت دولة القيروان وغيرها من الدول الإسلامية العربية. فاغتنم الأهالي الفرصة، وقاموا بثورة كبيرة ضد المسلمين. وساعدهم ملوك الروم، فنجحوا في ثورتهم، وأسقطوا حكم العرب عن جزيرتهم.

وقد بقي العرب بعد سقوط حكمهم يشتغلون في أشغالهم وصنائعهم ومدارسهم. وكان بين أساتذة العرب رجل بارع في علمي الفلك والجغرافية اسمه (الادريسي). وقد رجا منه ملك صقلية أن يصنع له كرة أرضية، فصنع له كرة كبيرة من الفضة. يروى أنها كانت بمقدار غرفة صغيرة. ورسم عليها مواقع البلاد والبحار والقارات، فدهش الملك، واحترم الادريسي احتراماً كبيراً، واستدل من عمله على براعة العرب وتبحرهم في العلوم والفنون[٣٩].

الفصل السادس عشر
اضمحلال الخلافة العباسية وأسبابه

الدرس الثامن والخمسون

- ١ -

لقد علمت أيها الفتى من الدروس السابقة أن دولة الخلافة العباسية قامت بمساعدة حزب الشيعة، وأن أكثر حزب الشيعة كان من الفرس، وبسبب ذلك كان نفوذ الفرس قوياً في الدولة. وكانوا يتدخلون في شؤون الخلفاء. وكان الخلفاء يراعون جانبهم، ويقدمونهم على العرب لأنهم من حزبهم، وهم الذين ساعدوهم على إنشاء دولتهم، واسقاط الأمويين خصومهم. فلم يمض مدة من الزمن، حتى أصبح أكثر الوزراء والحكام والقواد والعمال منهم. وأصبح أكثر أموال الدولة وأعمالها في أيديهم. وهذا يدلنا على أن العجم لم يساعدوا العباسيين حباً بهم، وإنما ساعدوهم ليبعدوا العرب عن الدولة والحكم، وليقبضوا على زمام الدولة وأعمالها.

ولقد نال العجم ما أرادوا، ضعف العرب ضعفاً كبيراً، وأدى ضعفهم إلى ضعف الخلافة العباسية العربية، ولا سيا حينما تولى العرش خلفاء ضعاف.

- ٢ -

إن ضعف العرب في الدولة لم يؤد إلى تسلط العجم فقط، بل أدى إلى تسلط الترك أيضاً. فإن الأتراك أخذوا يفدون إلى بغداد بكثرة لما سمعوا من عظمة الدولة العباسية وثروتها. فجاءوا يطلبون الرزق والخدمة عندها.

وبما أن الأتراك ماهرون في الحرب. فإن الخلفاء أخذوا يستخدمونهم في الجيش، رغبة في إضعاف نفوذ العجم، وتخفيف سلطتهم لأن السلطة في الدولة كانت لمن له يد في الجيش. وقد ارتقى بعض رجال الترك إلى مراتب القواد الكبار، فأصبح الجيش خليطاً من الترك والفرس والعرب وغيرهم.

فلما تولى العرش خلفاء ضعاف، أخذ قواد الجيش يتزاحمون على المناصب والمال؛ وانقسم الجيش إلى أحزاب، لكل قائد حزب ينصره. وأخذ الحزب القوى يغلب الحزب الضعيف، ويستبد في أمور الدولة وأموالها ومناصبها ووظائفها، فضعفت بذلك هيبة الخلافة، وسقطت حرمة الخلفاء، فصاروا يفعلون ما يأمرهم به القواد. وصار القواد الأقوياء يخلعون ويعذبون الخلفاء الذين لا يطيعونهم. بل منهم من أحمى أسياخ الحديد وفقأ بها عيون بعض الخلفاء. ومنهم من وضع بعض الخلفاء في غرفة صغيرة وسد بابها بالحجر والطين فكانت قبره إذ مات فيها مخنوقاً من قلة الهواء. ومن الخلفاء من كان بعد خلعه يقف بباب المساجد ويسأل الناس الصدقة. لأن الأمراء حرموه من النفقة، وقد كان أكثر الأمراء الذين أقدموا على هذه الأعمال الفظيعة من الترك، لأنهم لم يكن يهمهم من أمر الدولة إلا أخذ الأموال والرواتب والتمتع بالمناصب والمراتب. وقد صار الأمير الغالب يسمي نفسه «أمير الأمراء»، ويشارك الخليفة في كل شيء، ويأمر الخطباء بذكر اسمه على المنابر مع اسم الخليفة، ويكتب اسمه على العملة والرايات مثلما يكتب اسم الخليفة(٤٠).

الفصل السابع عشر
الفاطميون ونشأة الدولة الفاطمية

الدرس التاسع والخمسون

- ١ -

لا بد أنك تذكر أنه كان بين الشيعة حزب اسمه حزب «الاسماعيلية»، وأن هذا الحزب أخذ يتشيع خاصة لأبناء الإمام علي بن أبي طالب.

إن رؤساء هذا الحزب لم يرضوا عن الدولة العباسية، لأن ملوكها ليسوا من أبناء «علي». واعتقدوا أن العباسيين اغتصبوا حق «العلويين»، فصاروا يكرهونهم ويطعنون فيهم، ويتمنون زوالهم، ولا يعترفون بخلافتهم. وإنما كانوا يعترفون بخلافة أبناء علي، ويبايعون واحداً منهم سراً، ويسمونه (إماماً)، ويدفعون له زكاة أموالهم. وكانوا يسعون في تكثير أنصارهم، ليتمكنوا من إسقاط العباسيين وتولية العلويين مكانهم.

فلما ضعفت الخلافة العباسية، واستبد الأمراء بالخلفاء، وسقطت هيبة هؤلاء اغتنم الاسماعيليون الفرصة، فأرسلوا مبشرين إلى شمال أفريقيا. وقد ذهب هؤلاء المبشرون، وأخذوا يذكرون للناس سيئات العباسيين وفضائل العلويين، إلى أن كثر أنصارهم. وحينئذ سافر إمامهم الخفي (عبيدالله المهدي) إلى شمال أفريقيا، وقوى الحركة القائمة هناك ضد العباسيين. ثم أعلن الثورة على ملكهم. فبايعه الناس بالخلافة باعتباره من ذرية النبي عليه الصلاة والسلام وأحق بالملك من العباسيين. وكان ذلك سنة ٣٠٠ للهجرة النبوية وسنة ٩١١ للميلاد المسيحي.

وهكذا صار للاسماعيليين دولة تعرف في التاريخ باسم (دولة الفاطميين)، نسبة إلى السيدة (فاطمة) بنت النبي، عليه الصلاة والسلام، التي هي أم جميع العلويين.

وقد اتخذت هذه الدولة اللون الأخضر شعاراً لها، خلافاً للعباسيين فى العراق الذين كان

شعارهم اللون الأسود، وخلافاً للأمويين في الشام أولاً، وفي الأندلس أخيراً، وكان شعارهم اللون الأبيض.

وبالدولة الفاطمية أصبح للمسلمين ثلاثة خلفاء في وقت واحد: واحد عباسي في العراق. وثان أموي في الأندلس. وثالث فاطمي في بلاد المغرب.

- ٢ -

بعد أن أسقط الخليفة الفاطمي (عبيد الله) حكم العباسيين، أخذ يقوي حكمه في بلاد المغرب، فحارب دولة بني الأغلب وغلبها وأسقط حكمها، واستولى على عاصمتها. فأصبحت دولته قوية وحاكمة جميع بلاد المغرب.

ولكن الاسماعيليين لم يكونوا يطمعون في حكم بلاد المغرب فقط، بل كان همهم موجهاً إلى إسقاط حكم العباسيين على سائر البلاد الإسلامية. لذلك فإن الخليفة الفاطمي الثالث (المعز لدين الله) هيأ جيشاً وأرسله إلى مصر والشام بقيادة قائده (جوهر). وكان ولاة مصر وسوريا وفلسطين من الأتراك الذين يسمون في التاريخ (الأمراء الأخشيديين) وكانوا ضعفاء. وكان رجال الدولة العباسية في العراق مشغولين بالشقاق والتحزبات. فاستولى (جوهر) بسهولة على القطر المصري ثم على فلسطين وسوريا. وأسقط حكم العباسيين فيها. وكان ذلك سنة ٣٥٨ هجرية و ٩٦٩ ميلادية. فأصبح الحكم في بلاد المغرب والقطر المصري وفلسطين وسوريا للفاطميين.

الدرس الستون

تابع - الدولة الفاطمية

- ١ -

إن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بعد أن شمل حكم خلافته هذه الأقطار قرر أن ينتقل من بلاد المغرب إلى مصر، وأن يتخذ مدينة «الفسطاط» عاصمة لدولته، لأنها متوسطة. فانتقل إليها وبنى قربها مدينة جديدة هي مدينة «القاهرة» التي هي اليوم عاصمة المملكة المصرية.

وقد امتد حكم الفاطميين في مصر نحو مائتين وخمسين سنة. وكان حكمهم يشمل في بعض الأوقات بلاد المغرب ومصر وفلسطين وسوريا والحجاز. وولي العرش أربعة عشر خليفة.

وقد كانوا يجتهدون في تكثير أنصار حزبهم. فرتبوا له دعاة ومبشرين يطوفون البلاد، ويلقنون الناس فضل الفاطميين على العباسيين وفضل الامام علي وأبنائه على البشر، وأن روح الله حلت فيه.

وقد بنوا «الجامع الأزهر» في القاهرة. وعينوا فيه مدرسين ووعاظاً لنشر هذه الأفكار.

إن للحزب الاسماعيلي اسماً آخر هو «الباطنية». أما سبب هذه التسمية فهو أن بعض علماء الاسماعيلية يقولون إن للقرآن الكريم معنيين: معنى ظاهرياً ومعنى باطنياً. وأن المعنى الظاهري هو الذي يفهم من لفظ القرآن، وأن المعنى الباطني هو أفكار غير مفهومة صراحة، وإنما يفهمه العلماء المتبحرون ضمناً. وأن المقصود من الدين هو في المعنى الباطني. فالصلاة مثلاً عندما ذكرت في القرآن فهمها المسلمون بمعناها الظاهر، وهو الصلاة التي يصليها المسلمون. أما الاسماعيليون فإنهم يقولون إن المراد من الصلاة في المعنى الباطني هو الخشوع والخضوع لله تعالى.

وهذا الكلام وأمثاله مخالف لما كان يفعله النبي عليه الصلاة والسلام، ويأمر به.

ويوجد في بلاد سوريا إلى اليوم أناس كثيرون من بقايا الفرق الباطنية، ولهم عقائد وعبادات خاصة، مخالفة لعقائد وعبادات سائر المسلمين مثل «الدروز» الذين يقيمون في جبل لبنان وجبل حوران الذي يسمى باسم جبل الدروز، ومثل «النصيرية» الذين يقيمون في بلاد اللاذقية، ويسمون باسم «العلويين» ومثل «الاسماعيلية» الذين يقيمون في جهات «حماه».

أما «المتاولة» الذين يقيمون في «جبل عامل»، قرب صيدا وصور فهم شيعة. واسمهم الصحيح «المتولون» أي الذين يتولون أبناء علي ويتشيعون لهم. ولهم اسم آخر وهو «الجعفريون».

وقد كان الفاطميون يهتمون بالمظاهر الدينية تحبباً للناس، فكانوا يقيمون حفلات الاذكار والموالد والمواسم. والمظنون أن أكثر العادات الدينية التي لم تكن في زمن النبي عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين والموجودة في بلادنا هي من زمن الفاطميين.

إن الدولة الفاطمية قد سقطت سنة (٥٦٧) هجرية على يد صلاح الدين الأيوبي، وسوف أحدثك بقصة ذلك في درس آخر[٤١].

الفصل الثامن عشر
البويهيون ـ ملوك الموصل وحلب ـ السلجوقيون

الدرس الواحد والستون

ـ ١ ـ

إنك قرأت في الدروس السابقة أن الجيش العباسي أصبح خليطاً من الترك والفرس والعرب، وأن قواد الترك والفرس والعرب كانوا يتنازعون فيما بينهم، وكان كل منهم يطمع في التغلب والاستبداد في الدولة وأموالها ومناصبها.

وقد كان من بين قواد الجيش ثلاثة اخوة من الفرس يقال لهم (بنو بويه) طمعوا في جعل الملك للعجم بدلاً من العرب، فأخذوا يقوون حزبهم، ويكثرون جيشهم. واستفادوا من ضعف الخلفاء، وسقوط هيبتهم، فقاموا بثورة كبيرة في بلاد الفرس، ونجحوا في ثورتهم، لأنهم من العجم، ولأن العجم يفضلون أن يكونوا مستقلين تحت حكم ملوك منهم.

وبعد أن تم لهم الحكم والغلبة على بلاد الفرس، توجه أحدهم (معز الدولة) بجيش عظيم إلى بغداد، وخلع الخليفة، وبايع خليفة آخر، تعهد بأن يطيعه في كل شيء، حتى انه صار يأخذ راتبه منه. وكان ذلك عام ٣٣٤ للهجرة و ٩٤٥ للميلاد.

ـ ٢ ـ

لقد كان في إمكان (معز الدولة) أن يلغي الخلافة، وأن يكون هو الحاكم الوحيد في المملكة. ولكن اسم الخليفة في ذلك الوقت كان اسماً دينياً مقدساً. وكان الأمراء يتخذون الخليفة آلة لتنفيذ مآربهم باسم (الخلافة). لذلك فإن معز الدولة فضل أن يبقي على الخلافة العباسية. وإنما جعلها في يده كالخاتم.

وهكذا قامت في بلاد العراق والفرس دولة فارسية اسمها (دولة بني بويه). وكانت من

الحزب الشيعي الذي يكره العباسيين والعرب بوجه عام. وقد خطر ببال أحد ملوك هذه الدولة أن يخلع الخليفة العباسي وأن يولي بدله خليفة (علوياً). ولكن بعض عقلاء العجم منعه من ذلك لئلا يقوى نفوذ العرب وتقوى دولتهم.

وقد امتد حكم هذه الدولة نحو مائة سنة. ومن ملوكها المشهورين (معز الدولة) و (عضد الدولة). وقد حارب عضد الدولة الروم وغلبهم لأن الروم أرادوا أن يغتنموا الفرصة ويعتدوا على البلاد الإسلامية فارتدوا خائبين[٤٢].

الدرس الثاني والستون

تابع ـ ملوك حلب والموصل

ـ ١ ـ

لو ذهبت اليوم إلى البادية المتاخمة للموصل وحلب وحماه وحمص، لوجدتها ملأى بقبائل العرب البدوية. تعيش هناك عيشة البدو الرحل. عندها الجمال والغنم والخيل، وبعضها يزرع الأرض قمحاً وشعيراً. وهذه الحالة ليست جديدة، وإنما هي قديمة جداً. ففي جميع الأزمان كانت هذه البادية ملأى بالقبائل العربية البدوية. وكلما تحضر منها فريق، جاء من جزيرة العرب فريق آخر، وحل محله.

وقد كان في زمن الخلافة العباسية قبائل عربية كثيرة نازلة في هذه البادية. وقد كان أقوى هذه القبائل (بني شيبان). وكان أمراؤها (بنو حمدان) أقوى الأمراء العرب في ذلك الوقت.

فلما رأى الأمراء الحمدانيون استبداد أمراء الترك والفرس في أموال الدولة ومناصبها، طمعوا هم أيضاً في مثل ذلك، فجمعوا قبائلهم، ورتبوا جيشاً عربياً قوياً وأعلنوا استقلالهم. وهكذا صارت لهم دولة عربية تعرف في التاريخ باسم (الدولة الحمدانية). وكان ذلك في القرن الهجري الثالث.

ـ ٢ ـ

كان الحمدانيون ينقسمون إلى فرعين: فرع مركزه «الموصل» وأول ملوكه (ناصر الدولة). وفرع مركزه (حلب). وأول ملوكه (سيف الدولة).

أما ناصر الدولة فإنه استطاع أن يتغلب على أمير الترك، ويدخل بغداد، ويتسمى بلقب «أمير الأمراء»، ويشارك الخليفة في حكمه مدة من الزمن. ولقد فرح الخليفة العباسي به لأنه عربي، وظن أنه يقدر على حمايته من تعذيب أمراء الترك. ولكن الأتراك عادوا فتغلبوا على ناصر الدولة. فأخذ ناصر الدولة الخليفة، وخرج به إلى الموصل، وحماه من الأتراك بضعة أشهر.

وأما سيف الدولة فقد اشتهر بحروبه مع الروم. فإن الروم طمعوا في البلاد الإسلامية مرة

أخرى لما رأوه بين أمرائها من التنازع والشقاق، فأخذوا يعتدون بجيوشهم عليها ويذيقون أهلها العذاب. فشعر سيف الدولة بالخطر وقال في نفسه: «إنه من العار علي، وأنا ملك عربي مسلم أن لا أؤدي واجبي في الجهاد في سبيل الله ورد اعتداء الروم على البلاد الإسلامية». فهيأ جيشاً مجاهداً، وحصن القلاع، ثم أخذ يغزو بلاد الروم، ويقابلهم على عدوانه بمثله.

وقد وقعت بينه وبينهم حروب كثيرة كان الروم ينتصرون أحياناً، وسيف الدولة ينتصر أحياناً. ولكن وقفته وجهاده كانا سبباً في خوف الروم وحسبانهم حساب المسلمين وحفظ البلاد نوعاً ما منهم. ولولا سيف الدولة لاحتل الروم البلاد الشامية. وقد نبغ في عهد سيف الدولة شاعر عربي من أعظم شعراء العرب اسمه (المتنبي)، له قصائد وأشعار من أبدع وأبلغ الشعر العربي. وقد قربه سيف الدولة ومنحه العطايا الجزيلة فاختص به. وكان يمدحه بقصائد رنانة على جهاده وفوزه على الروم. ولهذا الشاعر شهرة عظيمة في تاريخ الأدب العربي.

- ٣ -

إن الدولة الحمدانية استمرت قائمة في بلاد الموصل وحلب مدة أخرى بعد ناصر الدولة، وسيف الدولة ولكنها كانت ضعيفة. ثم لم تلبث أن سقط حكمها من هذه البلاد[٤٣].

الدرس الثالث والستون

ظهور السلجوقيين الأتراك

- ١ -

إن حالة ضعف الخلافة، واستبداد الأمراء في الخلفاء، وتنازعهم على المناصب والأموال، أطمعت رجالاً من قواد الترك المسلمين في أواسط آسيا في الملك، فقاموا بحركة كبيرة، وغزوا جيوشهم بلاد الفرس.

هؤلاء القواد هم (الأمراء السلجوقيون). وكان أول من قام منهم الأمير أرسلان بن سلجوق. وبما أن الأتراك قوم أقوياء في الحروب، فقد نجحوا في حركتهم، واحتلوا بلاد الفرس، ثم تقدموا إلى بلاد العراق أيضاً، وأسقطوا حكم البويهيين عنها. وكان ذلك عام ٤٤٧ للهجرة و ١٠٥٥ للميلاد.

وقد فرح الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) بقدوم السلجوقيين وقوتهم. لأن البويهيين من الحزب الذي كان يكره العباسيين والعرب بعكس السلجوقيين. فدعا الخليفة الأمير (طغرل) قائد الجيش الذي قدم إلى بلاد العراق وبغداد، وخلع عليه الخلع الثمينة، ووجه عليه منصب (أمير الأمراء)، وأمر بذكر اسمه في الخطبة مع اسمه.

- ٢ -

وقد احترم طغرل الخليفة احتراماً شديداً، لأن الترك متدينون، ولأن الخليفة هو رئيس المسلمين، وعاهده على المساعدة والاحترام الدائم. وعرض عليه أن يتزوج أخته فقبل وتزوج بها. ثم طلب طغرل أخت الخليفة ليتزوجها اكتساباً لشرف مصاهرة العباسيين. ولقد صعب على الخليفة أن يزوج أخته بالأمير طغرل، لأنه رأى في ذلك حطة لمركز الخلافة وشرف العباسيين. فالعرب لم يكونوا يتنازلون أن يزوجوا بناتهم إلى غير العرب، فكيف بأعلى عائلة منهم، وهي عائلة النبي والخلافة.

ولكن الخليفة قبل أخيراً، لأنه رأى نفسه ضعيفاً، وفي حاجة إلى مساعدة الأمير طغرل. ولقد فرح الأمير بهذا الشرف العظيم الذي ناله، وأهدى للعروس جواهر وأموالاً لا تحصى، وصنع لها كرسياً من الذهب لتجلس عليه ليلة العرس. ويروى أنه لما دخل عليها لم يجترىء على مخاطبتها، واكتفى بأن انحنى لها، وقبل كرسيها وخرج.

- ٣ -

إن السلجوقيين قضوا مدة من الزمن وهم أقوياء جداً، فقويت الدولة العباسية لقوتهم، وعاد إليها شيء من عزها القديم. وقد استطاع السلجوقيون أن يسقطوا حكم الفاطميين عن سوريا وفلسطين والحجاز، وأن يعيدوا إليها اسم العباسيين وراياتهم. كذلك فإنهم استطاعوا أن يوقعوا هيبة المسلمين في قلوب الروم، وأن يكسروهم مراراً. وقد أسر أحد ملوكهم (الب أرسلان) ملك الروم (أرمانوس) مرة، ولم يطلقه إلا بعد أن دفع فدية كبيرة، وتعهد بدفع جزية سنوية.

وأشهر الملوك السلجوقيين هم (طغرل بك والب أرسلان وملكشاه). ولم تكن شهرتهم بسبب تقويتهم للدولة الإسلامية فقط، بل لأنهم اهتموا أيضاً بتحسين حالة البلاد، وتأمين العدل بين الأهالي، وإنشاء كثير من المدارس والمساجد والزوايا. وكان الأهالي في عهدهم متمتعين بالراحة والعدل.

ومن جملة المدارس التي أنشأوها في بغداد مدرسة تشبه الجامعة المصرية والجامعة السورية والجامعة الأميركية اسمها (المدرسة النظامية). وكان الطلاب يتعلمون فيها الطب والهندسة والفلك وعلوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية. وكان فيها أساتذة قديرون جداً، يجلسون على كراسي كبيرة عالية، ويلقون الدروس على الطلاب من فوقها. وكان الطلاب يأتون إليها من جميع أنحاء البلاد الإسلامية.

أتدري لماذا سميت هذه المدرسة العظيمة بالمدرسة النظامية؟ إنها سميت كذلك لأن الذي أنشأها، واهتم لترقيتها هو (نظام الملك) وزير الملك (ملكشاه). فإن هذا الوزير كان محباً للعلم والعلماء ولترقية البلاد وعمرانها(٤٤).

الفصل التاسع عشر
الحروب الصليبية

الدرس الرابع والستون
البعث الأول ونجاحه

- ١ -

عرفت من الدروس السابقة أن دولة الروم البيزانطيين كانت تسعى في استرجاع بلاد سورية وفلسطين ومصر من يد العرب، وأنها كانت تغزو البلاد الإسلامية، كلما رأت الفرصة سانحة. ولكنها كانت تفشل بالنتيجة، لأن أمراء المسلمين وملوكهم كانوا يقفون أمامها، ويردون جيوشها على أعقابهم خائبين، ففكرت دولة الروم في طريقة جديدة تنال بها مساعدة نصارى أوروبا، وتجعلهم يتفقون معها على تخليص تلك البلاد من أيدي المسلمين. وكانت هذه البلاد لا سيما «فلسطين» تهم جميع النصارى، لأن السيد المسيح ولد ونشأ فيها، ولأنه يوجد في القدس القبر المقدس الذي يعتقدون أنه دفن فيه بعد الصلب. فأرسلت دولة الروم إلى البابا في روما سفراء، والتمست منه أن يعلن الجهاد الديني ضد المسلمين، ويحمس النصارى في أوروبا ليقوموا ويجاهدوا في سبيل تخليص البلاد المقدسة من المسلمين، ووعدته إن هو ساعدها في ذلك، بأن تخضع لسلطته، وأن تقدم له قسماً عظيماً من الغنائم.

- ٢ -

رضي البابا بما طلبته منه دولة الروم. وعقد اجتماعاً كبيراً دعا إليه كثيراً من الأمراء والملوك ورؤساء الدين المسيحي في أوروبا؛ وتذاكروا في الأمر، فقرروا اعلان الجهاد الديني ضد المسلمين. واتفق المسيحيون على هذا الجهاد في تخليص البلاد المقدسة، ثم رتبوا مبشرين متحمسين أخذوا يطوفون في أنحاء أوروبا يدعون الناس إلى الجهاد ويحمسونهم. ومن أشهرهم «بطرس الناسك»، فإنه كان خطيباً متحمساً كان يركب حماره ويطوف في البلاد، فيجمع الناس

ويخطب فيهم ويحمسهم، ولا يتركهم حتى يتهيجوا ويتركوا أشغالهم، ويتسلحوا ويتهيأوا للسفر.

- ٣ -

وبسبب ذلك قامت في أوروبا حركة دينية عظيمة، نتج عنها تجمع جيوش نصرانية كثيرة، وتوجهها نحو البلاد المقدسة، ووقوع حروب طويلة بين النصارى والمسلمين في بلاد الأناضول وسوريا وفلسطين ومصر. وتعرف هذه الحروب في التاريخ باسم «الحروب الصليبية». وسبب تسميتها بهذا الاسم، هو أن الجيوش المسيحية كانت تحمل رايات عليها اشارات الصليب: ومن المحاربين من كان يضع إشارة الصليب على ثيابه، ومنهم من كان ينقشها على بدنه بالوشم الأزرق.

وكان هناك سبب ثان لحماسة أمراء الافرنج وملوكهم، وهو طمعهم بالثروة والغنائم. فإن البلاد الإسلامية كانت بلاداً عامرة وغنية.

وكان تاريخ بدء هذه الحركة وسفر الحملة الصليبية الأولى في أواخر القرن الخامس الهجري. وقد سارت هذه الحملة عن طريق «القسطنطينية» واخترقت بلاد الأناضول، واستطاعت أن تصل إلى فلسطين، وأن تستولي على المدن الساحلية السورية والفلسطينية، وغير الساحلية التي في طريقها. وأن تفتح مدينة القدس. وكان ذلك عام ٤٩٠ للهجرة و ١٠٩٩ للميلاد.

ولم يقدر المسلمون في هذه المرة أن يصدوا هذه الغزوة، لأن الحمدانيين كانوا قد انقرضوا، ولأن الأمراء السلجوقيين كانوا ضعفاء، وكانوا في ذات الوقت يتحاربون فيما بينهم. وهكذا فقد كان ضعف المسلمين، وعدم اتحاد أمرائهم، وتنازعهم فيما بينهم، أسباباً في نجاح الحملة الصليبية الأولى.

الدرس الخامس والستون

تابع الحروب الصليبية

المملكة اللاتينية ـ في القدس وقطائعها

نظام القطائع

- ١ -

لما استولى الصليبيون على فلسطين وسورية اجتمع قوادهم وأمراؤهم، وتذاكروا فيما يجب عمله، فقر رأيهم على أن يجعلوا في البلاد حكومات صليبية للدفاع عنها، وترسيخ أقدام

الصليبيين فيها. فأعلنوا تأسيس مملكة تعرف في التاريخ باسم «المملكة اللاتينية»، وجعلوا عاصمتها مدينة «القدس»، وانتخبوا الأمير الفرنساوي «غودوفروا» ملكاً عليها.

وسبب تسميتها بالمملكة اللاتينية، هو أن ملكها وأكثر الأمراء والجنود الصليبيين الذين كانوا مع الحملة الصليبية الأولى التي تم على يدها الفتح هم من الجنس «اللاتيني». وكان تأسيس هذه المملكة عام ٤٩٢ للهجرة.

- ٢ -

إن الملك والأمراء في المملكة اللاتينية قسموا البلاد التي فتحوها في سورية وفلسطين إلى إمارات، وعينوا لكل إمارة أميراً منهم. وأشهر هذه الامارات هي إمارات الكرك وصور وطرابلس والشام وأنطاكية.

ولهذه الامارات اسم آخر وهو «القطائع» أي أن كل امارة من هذه الامارات خصت بأمير من الأمراء، وأعطيت له «قطيعة»، يكون فيها مستقلاً، وهو يعين الحكام والعمال، ويجبي الأموال، كما يريد، على شرط أن يقدم قسماً من المال إلى ملك البلاد الأكبر، وأن يرسل عدداً من الجند ليشتركوا مع سائر الجنود الصليبية في الدفاع عن المملكة اللاتينية. وهذه الطريقة تسمى «نظام القطائع».

وكان الحكم في بلاد أوروبا، وفي البلاد الإسلامية في ذلك الوقت، سائراً على هذا النظام بسبب عدم وجود ملك قوي تخضع له البلاد وتطيعه، كما كان الحال في زمن الخلفاء الأقوياء، وكما كان الحال في زمن الملوك العظام في بلاد أوروبا. وكثيراً ما كان يسمي أمراء القطائع أنفسهم ملوكاً، سواء منهم أمراء الامارات الصليبية، أو أمراء الإمارات الإسلامية، لأنهم كانوا كالملوك مستقلين في إماراتهم بدون معارض ولا منازع.

- ٣ -

إن المملكة اللاتينية دامت مدة غير قصيرة أي نحو مائة سنة. أما الحروب الصليبية فإنها دامت مدة أطول من ذلك، أي نحو مائتي سنة. فإنه كان يأتي إلى البلاد المقدسة مرة بعد أخرى حملات صليبية جديدة ليشتركوا في الدفاع عن البلاد المقدسة التي دخلت في يدهم، ويصدوا عنها الجيوش الإسلامية التي كانت تجاهد في سبيل استرجاع هذه البلاد منهم. واعادة الحكم الإسلامي فيها.

وممن اشتهر في الحروب الصليبية من أمراء المسلمين وملوكهم: (عماد الدين زنكي، وأبيه نور الدين، والسلطان صلاح الدين الأيوبي، والملك الظاهر بيبرس). وسوف أحدثك عن أعمالهم وجهادهم في الدروس الآتية:

الدرس السادس والستون

تابع الحروب الصليبية

الهيكليون ـ فرسان القديس يوحنا

ـ ١ ـ

لا بد أنك ترى في كل سنة كثيراً من السياح الافرنج يأتون إلى هذه البلاد، لزيارة الأماكن والمدن المقدسة عند المسيحيين فيها، مثل بيت لحم التي ولد فيها سيدنا عيسى، ومثل نابلس التي شرب سيدنا عيسى من بئر في جانبها اسمه «بئر يعقوب أو بئر السامرية» ومثل القدس الذي عاش فيها سيدنا عيسى مدة من الزمن، وصلب ودفن فيها حسب اعتقاد المسيحيين. وكما يفعل المسيحيون اليوم، كانوا منذ القديم يأتون لزيارة هذه البلاد المقدسة. ولا بد أنك تذكر أن «شارلمان» ملك الافرنج التمس من هارون الرشيد الاذن للمسيحيين بزيارتها وحمايتهم فيها. ولكن بعد مدة من وفاة هارون الرشيد، صار يصعب عليهم زيارة هذه البلاد. فلما استولى الصليبيون عليها فرح المسيحيون الافرنج فرحاً عظيماً، وأخذوا يأتون أفواجاً أفواجاً للزيارة. غير أن المسلمين كانوا يتصدون لهم في الطرق، ويعتدون عليهم لما بينهم وبين الصليبيين من العداء، بسبب استيلاء هؤلاء على البلاد المقدسة التي كانت في أيدي المسلمين.

ـ ٢ ـ

وقد فكر جماعات من الرهبان الصليبيين لحماية الحجاج الأوروبيين في تشكيل فرق منهم لهذا القصد باسم «جمعيات الرهبان». فشكلوا فرقتين أو جمعيتين. الأولى تعرف بجمعية (الهيكل المقدس)، والثانية تعرف بجمعية (فرسان القديس يوحنا).

وجمعية الهيكل المقدس تنسب إلى الهيكل المقدس الموجود في كنيسة القيامة الكبرى في القدس. والهيكل عند النصارى بمعنى المحراب عند المسلمين. وكانت غاية هذه الجمعية حماية الحجاج المسيحيين من عدوان المسلمين، والعناية بمرضاهم، وقضاء حاجاتهم. وإرشادهم في طرقهم.

وقد اتخذت هذه الجمعية (المسجد الأقصى) مركزاً لها، لأن الصليبيين حينما دخلوا القدس، وضعوا يدهم على هذا المسجد، ومنعوا المسلمين من الصلاة فيه.

وبعد مرور مدة من الزمن على هذه الجمعية، قويت وأصبحت جمعية عسكرية شديدة البأس، وتحولت من جمعية دينية خيرية، إلى جمعية قطع طريق، وسلب أموال الناس بدون تفريق بين مسلم ومسيحي. فضج الناس من شرها، واتحدوا على مطاردة أفرادها، وتقتيلهم حتى أبادوهم.

- ٣ -

أما جمعية فرسان القديس يوحنا، فهي نسبة إلى ولي من أولياء المسيحيين اسمه (يوحنا الأورشليمي). وكلمة «قديس» عند المسيحيين مثل كلمة ولي عند المسلمين. وكانت غايتها مثل غاية جمعية الهيكل. ولقبت باسم جمعية الفرسان، لأن أعضاءها كانوا يركبون الخيل، ويحملون السلاح، ويتجولون في البلاد مع الحجاج، ويدافعون عنهم إذا اعتدى عليهم أحد.

ولم تفسد هذه الجمعية، كما فسدت جمعية الهيكليين، بل بقيت على غايتها. وقد كان مقرها القدس. فلما استرجع المسلمون مدينة القدس، جعلت مركزها عكا. ثم لما استرجع المسلمون عكا رحل رهبان هذه الجمعية إلى جزيرة «مالطة»، واتخذوها مركزاً لهم.

الدرس السابع والستون

تابع الحروب الصليبية

علاقة المملكة اللاتينية بمصر والشام

- ١ -

إن الصليبيين لم يفتحوا جميع بلاد سوريا وفلسطين، وإنما فتحوا بلاد فلسطين، وقسماً من مدن سورية وسواحلها فقط، أما بقية بلاد سوريا مثل «دمشق وحلب وحمص وحماه» وما جاورها فقد بقيت في حكم المسلمين. وكان يحكمها أمراء من السلجوقيين، على نظام القطائع، الذي عرفته من الدرس السابق. وأما القطر المصري فقد كان في يدي الفاطميين. ومن هذا تفهم أن المملكة اللاتينية كانت من الجنوب على حدود الدولة الفاطمية، ومن الشمال على حدود الامارات الإسلامية السلجوقية.

وقد كان الحماس الديني النصراني الذي أنتج الحركة الصليبية سرى إلى المسلمين أيضاً. فتحمسوا ضد المسيحيين، مثل تحمس المسيحيين ضدهم، وأخذ كل من الطرفين يحاول أن يغلب خصمه، ويستولي على ما في يدهم من البلاد، فكانت الجيوش الصليبية تعتدي على الإمارات الإسلامية، والجيوش الإسلامية تغير على الامارات الصليبية.

كذلك القطر المصري فإنه لم ينج من هذه الحركة، فإن الفاطميين ضعفوا في أواخر حكمهم، فاغتنم الصليبيون الفرصة، وغزوا مصر، ولكنهم لم ينجحوا في غزوتهم.

- ٢ -

قلت لك في الدرس الخامس والستين أن الحروب بين المسلمين والصليبيين استمرت نحو مائتي سنة. ولكن هل تظن أنها استمرت بدون انقطاع؟ كلا فإن ذلك ليس معقولاً. ولو أنها

استمرت بدون انقطاع لفني الفريقان عن بكرة أبيهم. وإنما كانت تشتد حيناً، وتخف وتتوقف حيناً آخر. وكان الفريقان أحياناً يعقدان بينهما هدنة. فيختلط المسلمون بالافرنج، والافرنج بالمسلمين، وبسبب هذا الاختلاط أخذ بعض الافرنج يتعلمون اللغة العربية، ويعتادون العادات العربية الإسلامية، من مأكل وملبس، ويستقرون في البلاد، ويعيشون مثل ما يعيش المسلمون. ومن المظنون أن فئات من الصليبيين توطنوا في هذه البلاد ولم يرجعوا إلى بلادهم بالمرة. كذلك المسلمون فانهم اقتبسوا بعض العادات الافرنجية، وأخذوا يستعملون بعض الألفاظ الافرنجية في كلامهم أيضاً.

وهذا ما ينتج دائماً حين ما تختلط أمة بأمة أخرى. فنحن اليوم نختلط بالانكليز فنتعلم لغتهم، وهم يتعلمون لغتنا، ونقلدهم في بعض عاداتهم، وهم يقلدوننا في بعض عاداتنا.

الدرس الثامن والستون

تابع الحروب الصليبية

جهاد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين ضد الصليبيين

- ١ -

قلت لك إن من الذين اشتهروا في الجهاد ضد الصليبيين الأمير عماد الدين زنكي وابنه نور الدين. وأريد الآن أن أقص عليك شيئاً عن هذا الجهاد الذي قام به هذان الأميران العظيمان. لأن هذا الجهاد كان من أكبر الأسباب التي أعادت إلى بلادنا استقلالها. ونجتها من حكم الأجانب الصليبيين.

إن عماد الدين زنكي هو من قواد الأتراك السلجوقيين. وكان والياً على الموصل. وقد كان مشهوراً بالشجاعة والغيرة الدينية. فلما رأى الصليبيين قد احتلوا البلاد المقدسة، وأخذوا يفدون إلى فلسطين أفواجاً أفواجاً، صعب عليه أن تكون هذه البلاد تحت حكم الأجانب، ورأى من العار أن يسكت على المصائب التي وقعت على البلاد الإسلامية، فجمع قواد جيشه وأصدقاءه الأبطال، وتحالفوا معاً على الجهاد في سبيل الله، وتخليص البلاد من الصليبيين. وأخذ يحاربهم، ويصد تيارهم، حتى تمكن من إيقافهم عند حدهم، واسترجاع بعض المدن منهم.

- ٢ -

وقد فكر الصليبيون في طريقة للخلاص منه، لأنهم خشوا أن يقوى عليهم، ويضيع أتعابهم سدى، فاستأجروا فدائيين بمال عظيم وأرسلوهم لقتله، وقد تزيا هؤلاء الفدائيون بزي المسلمين الأتراك، ودخلوا إلى معسكر عماد الدين، وأخذوا يرقبونه إلى أن رأوه مرة في خيمته وحيداً، فهجموا عليه، وطعنوه بمدى مسمومة كانت معهم فأردوه قتيلاً. وكان ذلك عام (٥٤١) هجري و ١١٧٤ ميلادي.

ولقد فرح الصليبيون فرحاً عظيماً لموت عماد الدين، وخلاصهم منه، وظنوا أن الميدان قد خلا، وأنهم استراحوا من عدوهم القوي، وأملوا أن يستولوا على البلاد التي كانت تحت حكمه، والتي لم يقدروا عليها مثل الموصل وحلب وحمص وحماه. ولكنهم لم يلبثوا أن رأوا أملهم خائباً، وأن فرحهم لم يلبث أن تبدل ترحاً. ذلك لأن «نور الدين» ابن عماد الدين الذي كان قد تمرن على أعمال الملك والحروب، تولى العرش مكان أبيه، وقبض على زمام الحركة، وظل مستمراً في الجهاد.

ولقد نجح نور الدين في عمله أكثر من أبيه، لأنه كان شاباً قوي الهمة. فاستطاع أن يكون جيشاً أكبر من جيش أبيه، وأن يجمع حوله قواداً محنكين ومساعدين أمناء فتمكن من توسيع مملكته، وتوحيد قوى المسلمين، والتضييق على الصليبيين تضييقاً شديداً، واضطرارهم إلى التخلي عن بلاد كثيرة كانت في يدهم.

وقد كان نور الدين شجاعاً باسلاً. يذهب إلى الحرب بنفسه، ويحارب مثل غيره. وكان يحب جنوده ويرأف بهم، ويهتم لراحتهم. ولذلك فإنهم كانوا يحبونه محبة عظيمة، ويفتدونه بأنفسهم.

ومن جميل ما يروى في هذا الباب أن الصليبيين فاجأوا جيشه مرة وهو على غير استعداد، فخرج نور الدين من خيمته، وركب فرسه فشبكت رجله بالسرج وهجم بعض الصليبيين عليه، وكان في جانبه جندي من جنوده الأمناء فقطع حبل السرج ليخلص رجل أميره، ووقف أمام المهاجمين. فتمكن نور الدين من النجاة بنفسه، وقتل المهاجمون الجندي الأمين الذي وقف في وجوههم.

- ٣ -

في زمن «السلطان نور الدين» كانت الدولة الفاطمية في مصر ضعيفة، وكان فيها وزيران: واحد اسمه «شاور» وثان اسمه «ضرغام». وكانا يتنازعان النفوذ، وكل واحد منهما يحب أن ينفرد بالحكم دون الآخر. وقد غلب ضرغام شاور، فاستاء هذا وعزم على الانتقام منه. ولكنه فكر في الانتقام بطريقة دنيئة. إذ إنه خان وطنه ودينه، وأرسل إلى الصليبيين يطلب منهم مدداً، ويعدهم بأن يعترف بنفوذهم على مصر، وبأن يخصصهم بقسم من الواردات مقابل مساعدتهم له. وقد فرح الصليبيون بذلك، وأرسلوا جيشاً من جيوشهم، فاحتل بعض أنحاء البلاد المصرية. حينئذ خشي الخليفة الفاطمي «العاضد لدين الله» من تسلط الصليبيين وكتب إلى السلطان نور الدين كتاباً مؤثراً استفز به حميته الدينية، وقال له فيه «احضر وخلص هذه البلاد الإسلامية من أعدائها، واحم أغراض النساء المسلمات فليس لهن نصير غيرك»- وقد وضع في الكتاب خصلاً من شعر نسائه، وهي عادة كانت جارية في ذلك الوقت، ويقصد بها الاستغاثة وتحريك الحماسة والنخوة.

ولما وصل الكتاب إلى السلطان نور الدين، ووجد خصل الشعر في داخله تأثر وبكى، وأمر قواده بالاستعداد لنجدة خليفة مصر.

- ٤ -

وقد ذهب الجيش إلى مصر، وحارب الصليبيين، وأجلاهم عن القطر المصري، وقبض قائد الجيش (أسد الدين) على الوزير الخائن (شاور) وصلبه على باب مدينة القاهرة. وقد فرح الخليفة الفاطمي لهذا الفوز، وكافأ قائد السلطان نور الدين بأن عينه وزيراً له. ثم مات الوزير أسد الدين فعين الخليفة القائد «صلاح الدين» ابن أخيه مكانه.

وبعد مدة من الزمن مرض الخليفة مرضاً شديد. فرأى السلطان نور الدين أن الأفضل أن لا يكون للمسلمين إلا خليفة واحد، وهو الخليفة العباسي الذي في بغداد. فأمر صلاح الدين بإلغاء الخلافة الفاطمية، والدعاء للخليفة العباسي الذي كان حينئذ (المستضيء بنور الله) على المنابر. وكان ذلك عام ٥٦٧ للهجرة و ١١٧١ للميلاد. ففعل صلاح الدين ما أمره به السلطان. فأصبحت مصر منذ ذلك الوقت تابعة للخلافة العباسية في بغداد، والدولة الزنكية في بلاد الشام. وتبدلت الشارة فيها فأصبحت سوداء بعد أن كانت خضراء، وأخذ المبشرون الاسماعيليون يختفون ويقومون بدعوتهم سراً.

ولما مات (العاضد) استولى صلاح الدين على قصره، فوجد فيه تحفاً نفيسة لا تحصى كاللؤلؤ والياقوت والسجاد الفاخر، والكراسي الذهبية وثياب الحرير والديباج. وأصبح صلاح الدين والياً على مصر، تابعاً لأمر السلطان نور الدين ملك الدولة الزنكية.

الدرس التاسع والستون
تابع الحروب الصليبية
صلاح الدين الأيوبي

- ١ -

إن صلاح الدين الأيوبي أعظم بطل جاهد في الحروب الصليبية، ودافع عن بلادك المقدسة. ولذلك وجب على كل فتى عربي مسلم أن يقدس ذكراه.

كان هذا البطل قائداً من قواد السلطان نور الدين. وقد عينه السلطان والياً على مصر كما علمت من الدرس السابق. وهو ليس تركياً كالسلطان نور الدين. وإنما هو من الأمراء الأكراد. وقد ظل والياً على مصر إلى أن مات السلطان. فلما مات أعلن استقلاله فيها. وأسس دولة كردية إسلامية. وكان هو أول ملوكها. وقد وقع بسبب ذلك بينه وبين أولاد السلطان نور الدين خلاف أدى إلى حرب، لأن ملك السلطان نور الدين تقسم بين أولاده، وكانت مصر نصيب الذي أصبح

ملكاً في الشام. فغضب هذا الملك لإعلان صلاح الدين استقلاله في مصر. وقد انتصر صلاح الدين في هذه الحروب، واستولى على بلاد الشام أيضاً، فأصبح ملكاً على بلاد الشام «سورية وفلسطين»، وعلى بلاد مصر معاً، وأصبحت جميع هذه البلاد مملكة واحدة.

- ٢ -

وكان صلاح الدين شجاعاً غيوراً، ورأى أطماع الافرنج في هذه البلاد المقدسة، فعاهد نفسه على أن لا يضع سلاحه حتى يخلص بيت المقدس وغيرها من البلاد الإسلامية من أيدي الصليبيين. وقد جمع جيوشاً كثيرة وباشر الحرب بنفسه.

وقد وقعت بينه وبين الافرنج معارك كثيرة، أهمها واقعة (حطين) قرب «طبريا» سنة ٥٨٣ هجرية و ١١٩١ ميلادية. فإن ملوك الصليبيين وأمراءهم تجمعوا قرب حطين بجيوش جرارة، مجهزة بالعدة الكاملة، على أمل أن يكسروا جيوش صلاح الدين ويخلصوا منه. وكانت المعركة حامية جداً. وقد أظهر صلاح الدين وقواده وجنوده فيها بسالة فائقة وشجاعة مدهشة. وكانت نتيجتها انكسار جيوش الصليبيين انكساراً شديداً. وقد وقع ملوك القدس والكرك وطرابلس أسرى في أيدي المسلمين. وقد دخل هؤلاء الملوك إلى خيمة السلطان صلاح الدين، وعرضوا عليه فدية كبيرة مقابل إطلاق سراحهم.

وبينما هم في الخيمة يتحدثون مع السلطان، والسلطان يوبخهم على أفعالهم مع المسلمين عطش ملك القدس وطلب ماء، فأمر صلاح الدين بإحضار ماء مثلوج له فشرب. ثم قدم الاناء لرفاقه ليشربوا وقال للسلطان «اننا قد أصبحنا في حماك لأننا شربنا من مائك، فيجب أن تقبل منا الفدية» فعرف السلطان أن طلب الماء كان خدعة. لأن العادة كانت جارية على أنه إذا شرب عدو من ماء عدوه في بيته، وجب على صاحب البيت أن يعامل عدوه بالعفو والاحسان. فاستحى السلطان حينئذ وأجاب الملوك والأمراء إلى طلبهم، ولكنه قال إني لا أقبل فدية عن ملك الكرك ولا بد من ذبحه. لأنه كان يقطع الطريق على حجاج بيت الله. وقد حاول أن يغزو المدينة المنورة ويهين قبر النبي عليه الصلاة والسلام. ثم سل سيفه وضربه ضربة أطاحت رأسه أمام رفاقه.

- ٣ -

بعد وقعة «حطين» التي انتصر فيها السلطان صلاح الدين، أخذ الافرنج يهربون من وجه المسلمين، وانكسرت نفوسهم، فاستطاع السلطان أن يسترجع مدن جنين وبيسان وحيفا ونابلس ويافا والكرك وعكا. ثم ذهب وحاصر القدس التي تجمع فيها الصليبيون، وأخذ يضيق عليهم الحصار، إلى أن قل ماؤهم، ونفذ زادهم، فلم يسعهم إلا طلب الأمان، فأرسلوا وفداً منهم يحمل الأعلام البيضاء، وطلبوا الصلح من السلطان. فاشترط السلطان أن يدفع كل محارب منهم عشرة دنانير، وكل امرأة خمسة دنانير فدية، فقبلوا وأخذوا يدفعون ويخرجون. وقد عاملهم السلطان حين خروجهم معاملة حسنة، وأعفى الفقراء والرهبان والأرامل ونساء الأسرى من

الفدية ورأى نساء ورجالاً طاعنين في السن يحملون أمتعتهم وأولادهم على ظهورهم، فأثر فيه هذا المنظر، وأمر بإعطائهم الدواب لركوبها، وتحميل أثقالهم عليها. وجاء إليه نساء يحملن أطفالهن وهن يبكين، لأن رجالهن أسرى عنده، فبكى شفقة عليهن، وأمر بفك أسر أزواجهن.

وبعد أن خرج الصليبيون من القدس دخلها السلطان صلاح الدين بموكب عظيم، وكان ذلك عام ٥٨٣ هجرية و ١١٩١ ميلادية.

وقد بنى السلطان كثيراً من المدارس والزوايا حول الحرم، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة التي لا تزال إلى اليوم.

ولقد أحب المسلمون صلاح الدين كثيراً واحترموه بسبب جهاده وتخليصة البلاد المقدسة. ومما حببه إلى المسلمين أيضاً أخلاقه الشريفة. فقد كان دائماً في مقدمة الجيش أثناء الحرب، يتعب مثل جنده، ولا يفضل نفسه على أحد منهم، ولا يتنعم بنعيم دونهم. ولقد مرض مرة وأشار عليه رجاله أن يستريح في خيمته. ولكنه رفض قائلاً «ما دام أن الموت محتم على كل إنسان، فالموت في سبيل الله والوطن وفي ساحة الجهاد خير من الموت على الفراش موت العاجزين الجبناء».

كذلك فإنه كان متعففاً عن المال والغنائم التي كانت تدخل في يده، فيخص بها رجاله وجنده، ولا يأخذ منها شيئاً. ومما يروى أنه لما مات لم يجدوا عنده إلا أربعين درهماً.

الدرس السبعون

تابع الحروب الصليبية

بعوث ريكاردوس وفردريك الثاني وزوال المملكة اللاتينية

- ١ -

لما فتح السلطان صلاح الدين القدس وسائر البلاد المقدسة، ذهب الصليبيون إلى مدينة «صور» التي كانت في يدهم. ثم رسموا صورة السيد المسيح ملقى على الأرض، وقد وقف فوق رأسه عربي يضربه، وقصدوا بالعربي سيدنا محمداً، وأرسلوا هذه الصورة إلى أوروبا بقصد تهييج أهلها وتحميسهم. وطلبوا مدداً جديداً ليخلصوا البلاد المقدسة مرة أخرى من المسلمين الذين كانوا يسمونهم «الكفار».

وقد تحمس النصارى في أوروبا فعلاً. وهيأ الجرمانيون والانكليز حملة صليبية كبيرة وأرسلوها إلى البلاد المقدسة. ومن أشهر قواد هذه الحملة (ريكاردوس) ملك الانكليز الذي كان يلقب بلقب «قلب الأسد». و «فردريك الثاني» ملك الألمان الذي كان يلقب بلقب «باربروس» أي ذا اللحية الحمراء، وقد غرق فردريك في الطريق بينما كان يعبر نهراً على جواده في الأناضول، فأصبح ريكاردوس القائد الأكبر للحملة.

- ٢ -

جاءت هذه الحملة إلى مدينة عكا وحاصرتها، وكان المحاربون القدماء ينظرون إلى عكا نظر الاهتمام، ويعتبرونها مفتاح البلاد. وقد استمر حصارها نحو سنتين براً وبحراً. وضايق الصليبيون أهلها والجيش المحارب فيها مضايقة عظيمة. وقد بذل السلطان صلاح الدين كل جهده للدفاع عنها، ولكن الصليبيين تمكنوا أخيراً من الاستيلاء عليها، لأن قوة جنود الصليبيين لم تكن تعبت بعد، في حين أن جنود المسلمين كان قد مضى عليهم خمس سنين، وهم يحاربون دون أن يستريحوا.

ولما استولى الصليبيون على عكا أخذ السلطان صلاح الدين يستعد للدفاع عن بقية البلاد المقدسة سيما القدس، لئلا تقع في يد الصليبيين مرة ثانية. ولكن الصليبيين لم يستمروا في حركتهم ونشاطهم. لأنه وقع بين ريكاردوس وبين ملوك النمسا وفرنسا خلاف. ويروى أن سبب هذا الخلاف هو أن ملك النمسا نصب رايته حذاء راية ريكاردوس. فغضب ريكاردوس، وخلع الراية ورماها على الأرض، وداسها بقدمه. واتفق بعد هذا الخلاف أن مرض ريكاردوس، فأشار عليه أطباؤه بالرجوع إلى بلاده، لأن تغير الهواء كان من أسباب المرض، فأرسل حينئذ يفاوض السلطان صلاح الدين في الصلح. وعرض عليه أن يزوج أخته لأخي السلطان صلاح الدين، وهو «الملك العادل»، ويكون الملك العادل وزوجته ملكين على البلاد المقدسة، ويصبح الملك بهذه الصورة مشتركاً.

وقد قبل الملك العادل، ولكن اشترط أن تسلم أخت ريكاردوس فقامت قيامة القس والرهبان، ومنعوا قلب الأسد من الموافقة على هذا الشرط.

- ٣ -

ولكن المرض أخذ يشتد على ريكاردوس. فخشي أن يموت بعيداً على بلاده، فاضطر إلى عقد الصلح مع السلطان صلاح الدين، على شرط أن يبقي بعض المدن الساحلية مثل عكا وحيفا ويافا وصور وصيدا وبيروت في حيازة الصليبيين وحكمهم، وتكون القدس والمدن الداخلية في حيازة المسلمين وحكمهم. على شرط أن يسمح المسلمون للحجاج المسيحيين بزيارة الأماكن المقدسة، وأن يتعهدوا بحمايتهم وعدم العدوان عليهم، وبعد أن تم الصلح بين الطرفين على هذه الشروط، رحل ريكاردوس عن فلسطين هو وجنده.

وقد أصبح أمراء الامارات والمدن التي بقيت في حيازة الصليبيين هذه المرة من الجرمان والانكليز، ولم يبق في البلاد أمراء وملوك من اللاتينيين. وهكذا زالت المملكة اللاتينية التي كانت نشأت عقب نجاح الحملة الصليبية الأولى.

الدرس الواحد والسبعون

تابع ـ الحروب الصليبية

بعد الصلح بين ريكاردوس وصلاح الدين

ـ ١ ـ

بعد أن تم الصلح بين السلطان صلاح الدين والملك ريكاردوس، خشي السلطان أن يعود الصليبيون إلى طمعهم في البلاد المقدسة، فحصن ما يحتاج إلى تحصين من المدن والقلاع، وهدم بعض القلاع التي كان يخاف أن يتحصن فيها الصليبيون إذا دخلوها.

وحيث إنه وافق على زيارة الافرنج للقدس، فإنه فكر في طريقة تجعل المسلمين مستعدين في أيام أعياد النصارى الكبرى لئلا يفاجئهم الافرنج على حين غفلة منهم، فرتب للمسلمين مواسم، يأتون إليها من أنحاء البلاد، يحملون رايتهم وأسلحتهم، ويظهرون قوتهم ونشاطهم. ومن هذه المواسم موسم النبي موسى. وهذا الموسم يصادف أسبوع عيد الفصح عند النصارى. وهو العيد الذي يعيدون فيه بذكرى ارتفاع سيدنا عيسى إلى السماء، فيجتمع المسلمون في القدس، مثلما يجتمع النصارى فيها أيضاً.

ـ ٢ ـ

بعد أن اطمئن قلب السلطان صلاح الدين على البلاد المقدسة، رحل إلى دمشق الشام لترتيب أمور دولته، ولكنه لم يلبث أن مرض ثم مات بعد مدة قليلة. وكان ذلك عام ٥٨٩ للهجرة و ١١٩٣ للميلاد.

ولم يحزن المسلمون في ذلك الزمن على موت رجل، مثل ما حزنوا على موت صلاح الدين، وكان يتمنون فداءه ولو بأرواحهم، وما ذلك إلا لإخلاصه في خدمة دينه وبلاده وأمته.

فمن أحق الناس بذكره وتقديس أعماله يا ترى؟ لا شك أن أهل فلسطين هم أحق الناس بذلك، لأن أكثر جهاده وتضحيته وتعبه كان في سبيل بلادهم. فماذا يجب عليك أن تفعل إذا ذهبت إلى دمشق أيها الفتى؟ يجب عليك أن تبحث عن قبره وتزوره وتدعو له بالخير، كما يفعل الناس دائماً وهنالك تتذكر عظمته وخدمته للمسلمين. ولقد زار قبره الملك «غليوم» ملك ألمانيا منذ ثلاثين سنة. ووضع على قبره اكليلا، وخطب خطبة بليغة اعترف فيها بأن السلطان صلاح الدين هو بطل الإسلام والشرق.

ـ ٣ ـ

هل تظن أن الحروب الصليبية انتهت بعد صلح السلطان صلاح الدين والملك ريكاردوس؟ كلا! انها لم تنته. لأن المسلمين كانوا يريدون أن لا يبقى شيء من بلادهم في

حيازة الصليبيين، لذلك فإنهم بعد موت السلطان صلاح الدين عادوا إلى الجهاد في سبيل تطهير البلاد منهم.

وقد حمل راية الجهاد «الملك العادل» أخو صلاح الدين، وهو الذي تولى ملك مصر وفلسطين وسورية. بعد أخيه السلطان، أي ملك الدولة الأيوبية الكردية.

وقد كان الصليبيون أيضاً يستمدون من أوروبا فيأتيهم أحياناً مدد يساعدهم في الدفاع عن البلاد التي بقيت في حوزتهم، وفي مقاومة المسلمين والعدوان عليهم أحياناً.

وقد ضعفت الدولة الأيوبية في مصر بعد الملك العادل، ففكر الصليبيون في غزو مصر. وقالوا في أنفسهم إن مصر هي رأس البلاد الإسلامية، فإذا استولينا عليها لم يعد في البلاد الإسلامية قوة عظيمة تقاومنا. فأرسلوا حملة كبيرة إليها. ولكنها فشلت ولم تنجح. وقد استعان المصريون بنهر النيل إذ إنهم سلطوا مجاري النهر على الجيش الصليبي قرب «دمياط» فأصبح محصوراً وسط المياه، فتمكنوا بهذه الطريقة من أسر عدد كبير منه، وأخذ الفدية المالية عنهم. وقد حبسوا أحد ملوك الصليبيين تسعة أشهر، حتى دفع مبلغاً كبيراً من المال فدية عن دمه.

الدرس الثاني والسبعون

تابع الحروب الصليبية

دولة الأتراك في مصر ـ ونهاية الحروب الصليبية ونتائجها

ـ ١ ـ

إن الدولة الأيوبية دامت بعد صلاح الدين الأيوبي نحو سبعين سنة. ثم تولى الحكم في مصر وسوريا ملوك أتراك يعرفون في التاريخ بملوك مماليك الترك. لأن ملوكها كانوا مماليك عند الملوك الأيوبيين، ثم استبدوا فيهم، وأخذوا الملك منهم.

وقد استمر هؤلاء الملوك في الجهاد ضد الصليبيين أيضاً، وظلوا يحاربونهم إلى أن استرجعوا منهم جميع البلاد، وقضوا على حكمهم نهائياً، ورجعت البلاد المقدسة إلى حكم المسلمين، وكان ذلك عام ٦٩٢ هجري و ١٢٩١ ميلادي. وكانت آخر مدينة في يدهم مدينة عكا، والملك المسلم الذي تم جلاء الصليبيين عن البلاد في عهده هو الملك خليل بن قلاوون أحد ملوك المماليك الأتراك في مصر.

وأشهر ملوك الأتراك الذين جاهدوا ضد الصليبيين «الظاهر بيبرس» فإنه أظهر في الجهاد بطولة عظيمة، جعلته قريباً من درجة السلطان صلاح الدين، وله قصة طويلة يقرأها القصاصون في المقاهي أحياناً، وفيها مبالغات كثيرة، ولكنها تدل على عظم الجهاد الذي جاهده هو ورجاله.

- ٢ -

إن الحروب الصليبية بدأت عام ٤٩٠ للهجرة و ١٠٩٩ للميلاد وانتهت عام ٦٩٢ للهجرة و ١٢٩١ للميلاد. أي أنها دامت تقريباً مائتي سنة، وقد أراق المسلمون والمسيحيون الافرنج فيها دماء كثيرة، وكان كل من الفريقين يحاول أن تكون البلاد المقدسة في يده وتحت حكمه، وكانت الغلبة أخيراً للمسلمين، والفشل للافرنج الصليبيين.

ولكن هذه الحروب لم تذهب بدون تأثير، ونحن نعلم أن الحرب الكبرى التي وقعت منذ خمس عشرة سنة أثرت تأثيراً كبيراً في الدنيا، مع أنها لم تدم أكثر من أربع سنين فكيف بحروب دامت مئتي عام؟

أتدري ما هي الآثار التي أثرتها الحروب الصليبية؟

إن من أهم آثار هذه الحروب احتكاك الافرنج بالمسلمين، واختلاط بعضهم ببعض، وقد استفاد الغربيون كثيراً من هذا الاحتكاك والاختلاط، لأن المسلمين كانوا أرقى منهم في العلوم والصنائع والمدارس، فأخذوا عنهم صناعات كثيرة، السكر والنسيج والحرير والورق وغيرها، وأخذوا كتباً مخطوطة كثيرة من مكتبات المسلمين ونقلوها إلى لغاتهم، فكان هذا سبباً من أسباب النهضة الأوروبية.

ومن جهة ثانية فإن المسلمين تضرروا بأضرار كثيرة لأن بلادهم بقيت مئتي سنة ساحة للحرب. وكانت قواهم منصرفة إلى الحروب والاستعداد لها تقريباً، فلم يستطيعوا أن يشتغلوا بأشغالهم، فتعطلت تجارتهم، ومصالحهم وضعفت ثروتهم.

وهناك ضرر آخر، وهو أن التعصب الديني اشتد كثيراً بين المسلمين والمسيحيين، إذ أخذ المسلمون ينظرون إلى المسيحيين بنظر العداء، والمسيحيون ينظرون إلى المسلمين بنفس النظر، وأصبح كل من الفريقين يفرح لمصيبة خصمه، ويحزن لسروره. وقد دامت آثار هذا التعصب مدة طويلة حتى انها لم تزل إلى اليوم. فكان بسبب ذلك ضرر كبير للبلاد وأهلها الذين هم أبناء وطن واحد وأمة واحدة.

كذلك فإن بعضاً من الصليبيين الافرنج بقوا في سوريا وفلسطين وتوطنوا فيها لما رأوه من جمال الموقع وجودة الاقليم؛ وثروة البلاد، ثم تعربوا وأصبحوا كالعرب في عاداتهم وأزيائهم ولغتهم(٤٥).

الفصل العشرون
الترك العثمانيون

الدرس الثالث والسبعون
ظهور العثمانيين

- ١ -

لقد علمت من الدروس السابقة أن قبائل الترك، كانت تهاجر دائماً من بلادها في أواسط آسيا إلى جهات الفرس والعراق، فتدخل في الدين الإسلامي، وتتوطن. ومنهم من كان يدخل في خدمة الدولة وجيشها.

ففي زمن السلجوقيين، جاءت قبائل تركية كثيرة، وأخذت تروح وتغدو بين بلاد الفرس والعراق وسوريا كالبدو. تتنقل من مكان إلى مكان، ومعها أولادها ونساؤها، وخيلها ومواشيها.

وكانت من هذه القبائل قبيلة «قاي خان». أرادت أن تدخل بلاد الشام. فخاضت نهر الفرات، وفي أثناء ذلك غرق رئيسها «سليمان شاه». فحزنت عليه، وتشاءمت من السفر وقررت أن لا تذهب إلى بلاد الشام، وأن ترجع إلى بلادها.

- ٢ -

لكن أحد زعمائها (أرطغرل بك) جمع عشيرته وتشاور معها في الأمر، فقرروا عدم الرجوع إلى بلادهم، والذهاب إلى بلاد الأناضول، لأنها بلاد كثيرة الخيرات معتدلة الطقس. وكانت بلاد الترك في ذلك الوقت تحت حكم ملك من ملوك السلجوقيين اسمه «علاء الدين شاه». وكان مركز دولته مدينة «قونية».

فتوجهوا نحو الأناضول ودخلوها. وبينما هم سائرون بقيادة رئيسهم صادفوا جيشين يتحاربان. واحدهما يوشك أن ينكسر. فجمع أرطغرل زعماء القبيلة، وشاورهم في الأمر، فقال

قسم منهم يجب أن لا نتدخل بين الجيشين، فقال أرطغرل «بل يجب أن نساعد الضعيف على القوي. لأن صاحب المروءة لا ينبغي له أن يرى ضعيفاً ثم لا يساعده». فاستحسن الزعماء رأيه، وتحولوا هم والمحاربون معهم إلى جانب الضعيف. فقوي بهم وانتصر على خصمه.

ولقد فرح قائد الجيش الذي انتصر بمساعدة أرطغرل ومحاربيه، فاستدعاه إليه، وسأله عن سبب مجيئه، ومساعدته له. فقص عليه القصة. فكبر في عينيه، وشكره على صنيعه ومعروفه، ثم قال له: «إني ملك هذه البلاد علاء الدين شاه السلجوقي. وإني مستعد لأن أكافئكم على معروفكم بما تطلبونه».

فطلب أرطغرل أن يخصص له ولعشيرته أراضي واسعة ينزلون فيها ويزرعونها، فأعطاهم قطعة واسعة من الأرض، وساعدهم مساعدة كبيرة.

- ٣ -

بعد مدة قليلة من توطن القبيلة مات رئيسها أرطغرل بك. فانتقلت الرآسة إلى ابنه «عثمان بك». وكان هذا شاباً قوى الهمة طماحاً إلى العلاء وقد ساعد سلطان قونية على خصومه مثل ما فعل والده. فاستولى على بعض بلاد الروم. فلقبه السلطان بلقب «أمير»، وأرسل إليه علماً وطبلاً علامة على الامارة. فعظم بذلك أمره، وقوي نفوذه.

وبعد مدة انقرضت دولة قونية. فأصبح الأمير عثمان أقوى الأمراء المسلمين الأتراك في الأناضول. فأعلن استقلاله وملكه. وأنشأ دولة تركية جديدة بدلاً من الدولة السلجوقية. وقد عرفت في التاريخ باسم «الدولة العثمانية» نسبة لمؤسسها الأمير عثمان. وكان ذلك عام «٦٩٨» للهجرة و ١٢٩٧ للميلاد.

وقد استطاعت هذه الدولة أن تبقى حاكمة نحو (٦٤٠) سنة، وولي عرشها من نسل الأمير عثمان (٣٨) ملكاً، وكان آخرهم «السلطان عبدالمجيد الثاني» الذي خلفه «مصطفى كمال باشا» وقضى على الدولة العثمانية بخلعه. وأسس دولة تركية جديدة اسمها «الجمهورية التركية»، ومعنى الجمهورية هو أنه لا يكون للدولة ملك يبقى حاكماً طول عمره، وحينما يموت يتولى الحكم ابنه بالوراثة. بل يكون للدولة رئيس ينتخبه جمهور الأمة، وكل أربع سنين أو خمس سنين يتجدد انتخابه ويأتي غيره. ويسمى هذا الرئيس «رئيس الجمهورية».

الدرس الرابع والسبعون

تابع ـ الترك العثمانيين

عظمة العثمانيين ـ حكمهم غرب آسيا وشمال أفريقيا

- ١ -

هل تظن أن الدولة العثمانية بقيت دولة صغيرة، تحكم قسماً من بلاد الأناضول فقط، مثل

ما كانت دولة السلجوقيين في قونية؟ كلا! فإن هذه الدولة الصغيرة التي أنشأها الأمير عثمان كبرت وتعاظمت، حتى صارت تحكم معظم البلاد الإسلامية مثل: الأناضول وسورية وفلسطين والعراق ومصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر والسودان والحجاز واليمن. ولم تكتف بهذه الأقطار. بل مدت يدها إلى بلاد أوروبا، فاستولت على «القسطنطينية» وبلاد البلغار واليونان والصرب والجبل الأسود والبشناق ورومانيا والمجر أيضاً، وجعلت الدول الأوروبية تخشى بأسها، وتطلب مودتها. ومنها من كان يطلب حمايتها أيضاً. كل ذلك بهمة ملوكها العظماء الأولين، الذين كانوا يجتهدون لتقوية الدولة والجيش، وبهمة بعض الوزراء والقواد الذين كانوا يخدمون بإخلاص وغيرة، فإن الأمة تعظم برجالها العظماء المخلصين، وتنحط حين لا تكون لها رجال عظماء يخدمونها بإخلاص. وقد أنشأ سلاطينها الأولون جيشاً دائمياً اسمه جيش «الينيشري». وكان وجود هذا الجيش الدائمي سبباً من أسباب انتصار الدولة وقوتها. ويعرف هذا الجيش في اللغة العربية العامية باسم «وجاق الانكشارية».

- ٢ -

من أشهر ملوك الدولة العثمانية الذين عظمت الدولة في زمنهم السلطان محمد الفاتح، والسلطان سليم الأول، والسلطان سليمان القانوني.

فإن السلطان محمد الفاتح فتح القسطنطينية عاصمة دولة الروم البيزنطيين، فقضى على هذه الدولة التي ظلت تحارب العرب والمسلمين نحو ثمانمائة عام. وكان فتحها عام ٨٥٧ للهجرة و ١٤٥٣ للميلاد. وقد اتخذها هو ومن بعده من الملوك العثمانيين عاصمة للدولة العثمانية. وسموها «اسلامبول» و «الاستانة». وبسبب فتح السلطان محمد للقسطنطينية سمي في التاريخ باسم «محمد الفاتح»، وقد فتح كذلك قسماً من بلاد البلقان أيضاً.

أما السلطان سليم، فقد كان سلطاناً شديد البأس. وكانت البلاد الإسلامية تحت حكم أمراء متعددين، فحاربهم وغلبهم، وجعل هذه البلاد تحت حكم دولة واحدة، وهي «الدولة العثمانية». وهو الذي استولى على بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن، أي على بلاد العرب. وكانت من قبل تحت حكم دولة الجراكسة في مصر. وكان ذلك عام ٩٢٣ هجري و ١٥١٧ ميلادي. وحيث إنه صار ملكاً على أكثر بلاد المسلمين وبلاد العرب، فإنه تلقب بلقب الخليفة أمير المؤمنين، وأصبح السلاطين العثمانيون بعده يتلقبون بهذا اللقب. وقد كان السلطان سليم قاسياً جداً. فكان يأمر بشنق أي رجل يعارضه فيما يقول، أو يبدي رأياً مخالفاً لرأيه، ولو كان وزيراً. لذلك فإنه حينما كان يعين أحداً للوزارة، يعتقد هذا الوزير أن منيته قد حانت، وأنه أصبح بين يدي الموت لأقل بادرة تبدر منه.

واستولى السلطان سليمان على بقية بلاد البلقان والمجر في أوروبا، وكذلك استولى على شمال أفريقيا، أي بلاد طرابلس الغرب وتونس والجزائر. وكان له أسطول قوي. فكانت الدولة به أقوى دولة بحرية.

وقد وصلت الدولة العثمانية في زمن حكم هذا السلطان إلى أعظم درجات القوة والهيبة والعظمة. وأصبحت أقوى دولة على وجه الأرض. وقد اهتم السلطان بوضع قوانين للدولة لضبطها وتنظيمها، ولذلك سمي باسم «السلطان سليمان القانوني».

- ٣ -

ولكن هذه العظمة والقوة لم تدوما لهذه الدولة. فإن بعض الملوك الذين جاءوا بعد هؤلاء الملوك العظام، لم يهتموا لأمور الدولة. وأخذوا ينهمكون في المنكرات. ويقتل بعضهم بعضاً. حتى ان أحدهم قتل تسعة عشر أخاً من اخوته، لئلا يطالبوا بالملك من بعده، ويزعجوا أولاده.

وقد اختل نظام جيش «الانكشارية» اختلالاً كبيراً. فكان أحياناً كثيرة يتمرد ولا يذهب إلى الحرب، ويثور على الملوك والوزراء لأجل المال. وارتبكت أمور الدولة بسبب عدم اهتمام حكامها ووزرائها، لأن هؤلاء أصبحوا في المدة الأخيرة لا يهتمون إلا بمنافعهم. وكثيراً ما كانوا يظلمون الناس، ويرتشون منهم. وأظن أنك تقول إن دولة هذه حالها لا يمكن أن تكون قوية وعظيمة. وفعلاً هذا ما كان، فإن الدولة أخذت تنحط وتضعف، وأخذت البلاد تخرج من يدها واحدة بعد أخرى، إلى أن خرجت منها أكثر بلادها، ولم يبق في يدها إلا بلاد الأناضول. ولسوف أحدثك عن ذلك في درس آخر(٤٦).

الفصل الواحد والعشرون
مراكش والأندلس - غرناطة وذهابها

الدرس الخامس والسبعون

- ١ -

هل تذكر من هو القائد العربي العظيم الذي فتح بلاد المغرب الأقصى؟ طبعاً انك تذكره، لأنك قرأت عنه شيئاً في هذا الكتاب، فهو «عقبة بن نافع»، فبلاد مراكش هي جملة بلاد المغرب الأقصى التي فتحها هذا القائد، ولها عاصمة اسمها مدينة «مراكش» أيضاً.

إن بلاد مراكش مسكونة بقبائل تسمى (قبائل البربر). وقد دخل أكثر هذه القبائل في الدين الإسلامي، وامتزجت بالقبائل العربية التي كانت تأتي أثناء الفتوح، فأصبح سكان هذه البلاد مزيجاً من العرب والبربر. ولما قامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب ومصر، كانت هذه البلاد تحت حكمها، ولكنها خرجت أخيراً من حكم الفاطميين بسبب ضعفهم، واستقلت، وأخذ ينشأ فيها دول وطنية إسلامية، تحكم فيها مستقلة عن غيرها من الدول الإسلامية الكبيرة.

وأهم هذه الدول الوطنية التي نشأت في بلاد مراكش ثلاث وهي: (دولة المرابطين) و (دولة الموحدين) و (دولة بني مرين). وقد عاشت هذه الدول واحدة بعد أخرى خمسمائة عام. وكان وجودها من أهم الأسباب التي حفظت بلاد الأندلس في يد العرب مدة طويلة.

- ٢ -

لماذا احتاجت الأندلس إلى هذه الدول، وكيف ساعدت على بقائها في حكم العرب؟

لقد مر بك في الدروس السابقة أن الدولة الأموية في الأندلس، لما ضعفت ثم سقطت، تقسمت مملكتها إلى إمارات إسلامية متعددة، ولكنها كانت جميعها ضعيفة. لأن قوة المملكة تفرقت. ولم يكن أمراء هذه الإمارات يحسبون حساب التفرقة. بل كانوا يتنازعون ويتخاصمون

أيضاً، ومن الحكم المعروفة (القوة في الاتحاد والضعف في التفرق).

ولا بد أنك تذكر أن الإفرنج كانوا قد حصنوا الجبال الشمالية من الأندلس، وشكلوا عصابات كانت تعتدي على بلاد الأندلس حيناً بعد آخر، وتزعج حكامها المسلمين. وقد قويت هذه العصابات بمرور الزمن. وأصبحت تحكم على بلاد واسعة، وأصبح لها أمراء ودول. فلما ضعفت الإمارات الإسلامية اغتنم أمراء الإفرنج الفرصة، واتفقوا مع ملوك الإفرنج المجاورين لبلاد الأندلس، وعقدوا جميعاً محالفة ضد المسلمين، لإخراجهم من بلاد الأندلس.

ولما رأى المسلمون أن الخطر داهم، أرسلوا إلى ملوك مراكش يستغيثون بهم، لأنهم كانوا أقوياء. وقد بعثوا إليهم وفوداً يصفون حالة المسلمين، وخوفهم. وكانوا يبعثون مع هؤلاء شعور نسائهم علامة الاستغاثة.

وقد كان ملوك مراكش ومسلموها يتحمسون، كلما جاءتهم الأخبار بمضايقة الإفرنج للمسلمين، فيجمعون الجيوش، ويذهبون إلى الأندلس، ويحاربون الإفرنج، وكثيراً ما كانوا يكسرون الجيوش الإفرنجية، ويجلونهم عن البلاد التي يكونون قد استولوا عليها، ويغرمونهم الغرامات العظيمة. وقد كانت جيوش البلاد المراكشية وقوادها يحاربون حرب الأبطال، ولا يخشون موتاً ولا خطراً، فأوقعوا في قلوب الإفرنج الرعب الشديد. وأصبحوا يحسبون لقوة العرب الحساب العظيم.

الدرس السادس والسبعون

غرناطة وذهابها

- ١ -

إذا ذهبت إلى أوروبا أيها الفتى فماذا يجب عليك عمله؟ يجب عليك أن تذهب إلى «إسبانيا» التي يسميها العرب «الأندلس»، لتزور مدينة «غرناطة». ففي هذه المدينة من آثار العرب ما يدهش الزائر.

إن في هذه المدينة «قصور الحمراء» التي بناها (ملوك بني الأحمر) حينما كانوا حاكمين فيها، وهي قصور عظيمة مدهشة، لا يمكن لأحد أن يبني مثلها اليوم. فيها ساحة كبيرة جداً، ملأى بالأعمدة الرخامية التي لا تعد. وقسم من القصور قائم عليها. إذا رآها الإنسان يرى غابة من الأعمدة، وفيها بحيرة كبيرة. وعلى البحيرة تماثيل اثني عشر سبعاً تحمل الشاذروان. وقد صنعت بحيث يخرج الماء من أفواه التماثيل على شكل بديع. وفيها الحدائق الغناء التي كانت بهجة الناظرين، وفيها الغرف والمقاصير المزينة بأبهى الزينات وأجملها. وفيها القاعات المذهبة سقوفها، والملونة جدرانها بأبهى الألوان وأبدعها. والصور التي رأيتها في هذا الفصل هي بعض مناظر هذه القصور، فانظر ما أجملها، ولا شك في أن جمالها الحقيقي أعظم بألف مرة من جمالها الصوري على الورق.

- ٢ -

لقد كانت غرناطة مقر إمارة من الإمارات الإسلامية التي قامت بعد الدولة الأموية، وهي إمارة بني الأحمر، وقد استطاع أمراء هذه الامارة أن يحفظوا بلادهم من الإفرنج مدة طويلة، لأنه كان منهم أمراء عقلاء أقوياء ومدبرون، ولأنهم كان يأتيهم المدد من دولة بني مرين المراكشية التي حدثتك عنها في الدرس السابق، فيساعدهم المدد على رد اعتداء الإفرنج.

إن الإفرنج استولوا على جميع الإمارات الإسلامية، ولم يبق أمامهم إلا هذه الإمارة، ففكروا في إيقاع الفساد بين أمرائها. وقالوا إن الفساد إذا وقع بينهم اشتغلوا بأنفسهم، ثم ضعفوا جميعاً، فنستطيع عندئذ القضاء عليهم. فأخذوا يوسوسون إليهم، إلى أن وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وقد أطمعوا أحدهم (أبا عبد الله) بالامارة. وقالوا له إذا قمت بثورة ضد الملك نساعدك على أن تكون ملكاً مكانه. وكان الملك عمه أخاً أبيه، فانخدع أبو عبد الله، وثار ضد عمه، ووقعت الحرب بين العم وابن الأخ، فانتصر ابن الأخ، واستولى على غرناطة، وأصبح ملكاً عليها. ولكنه كان ضعيفاً، فلم يضيع الإفرنج الفرصة، وأخذوا يستولون على المدن التابعة لامارة غرناطة واحدة بعد أخرى، وأبو عبد الله ساكت لا يتحرك، لأنه عاجز عن مقاومتهم. وأخيراً حاصروا غرناطة وضيقوا عليها، حتى اضطر أبو عبد الله إلى طلب الأمان، وتسليم المدينة لملك الاسبان، فرديناند الذي كان رئيس المتحالفين.

وكان ذلك عام ٨٩٧ للهجرة و ١٤٩٢ للميلاد.

- ٣ -

هل تظن أن جميع قواد المسلمين رضوا بالاستسلام إلى الإفرنج؟ كلا فإن منهم قواداً ومجاهدين رفضوا أن يخضعوا للإفرنج، وعرفوا أنهم لا بد أن يغدروا بالمسلمين، فشكلوا عصابات بقيادة قائد باسل منهم اسمه «موسى الغساني». فأخذت هذه العصابات تهاجم جيوش الإسبانيين في الليل، وتعتصم في النهار في جبال اسمها جبال البشارات، وبقيت على هذه الحال نحو سنة ونصف. ولكن الإسبانيين كانوا أكثر عدداً وأقوى عدة، ولذلك فإنهم ظلوا يضيقون على هذه العصابات ويطاردونها، إلى أن قتلوا وشردوا أكثر رجالها. فلما رأى موسى أن رجاله قتلوا يئس هو من الحياة، وأقسم أن لا يغمد سيفه إلى أن يموت. ثم أخذ يصول على الأعداء والأعداء يطاردونه إلى أن أثخن جسمه بالجراح، وصار الدم يقطر من جميع أطرافه. وقد أعجب الإسبانيون ببسالته، وأخذوا يهتفون له، وأعطوه الأمان إذا هو سلم نفسه، ولكنه أبى أن يستسلم، وركض بحصانه إلى نهر قريب، وألقى بنفسه فيه، وهو يقول «سلام على مجد الإسلام والعرب».

- ٤ -

وقد صدق ظن هذا البطل ورجاله الشهداء. فإن الإسبانيين الذين كانوا قد تعهدوا بحفظ حقوق المسلمين وحريتهم الدينية، وبالسماح لمن يريد منهم الذهاب إلى بلاد مراكش أن يأخذ

أمواله معه، غدروا بعد قليل بما عاهدوا، وأخذوا يضايقون المسلمين. فحرموا عليهم أولاً التكلم باللغة العربية، ثم حرموا عليهم التظاهر بالشعائر الدينية، أي بالصلاة في المساجد، وإقامة الجماعة والأذان على المآذن. ثم أخذوا يجبرونهم على التنصر، أو الخروج من بلاد الأندلس، وترك أملاكهم وأموالهم.

ولقد خرج مئات الألوف منهم إلى بلاد مراكش، تاركين كل ما يملكون من مال وعقار، نادبين سوء حظهم، باكين على هذه البلاد العظيمة التي ظلوا فيها أسياداً ثمانمائة عام. وكانت بهم كأنها قطعة من الجنة.

وقد بقي في الأندلس خلق كثير من المسلمين، خرجوا عن دينهم ولغتهم من شدة ما لاقوه من الإهانة والظلم. وإنه ليوجد اليوم عائلات كثيرة مسيحية إسبانية أجدادها مسلمون عرب، وإنه ليوجد نساء ورجال كثيرون في وجوههم الدم العربي. يظهر في شعورهم وعيونهم السوداء، ولونهم الحنطاوي ووجههم العربي الجميل(٤٧).

الفصل الثاني والعشرون
المماليك في مصر

الدرس السابع والسبعون

- ١ -

ذكرت لك في درس سابق أن ملوك الأتراك جاهدوا الصليبيين، بعد ملوك الدولة الأيوبية.

أتدري كيف صار هؤلاء الملوك مكان الأيوبيين. وما كان أصلهم؟

إن هؤلاء الملوك كانوا مماليك عند ملوك الدولة الأيوبية. ثم استبدوا فيهم، وأخذوا الملك منهم.

هل تعرف ما معنى مملوك؟ كان الناس قديماً إذا تحاربوا، سلب الغالب منهم أموال المغلوب وأولاده، فيصبح ما يسلبه ملكاً له. وكان الغالب يسبي (يأسر) أحياناً نساء المغلوب وأولاده، فتصبح السبايا أيضاً ملكاً له، يتصرف فيها كما يتصرف في المال، والملك يشغلها لحسابه، فيكون ما تكسبه له، ويستخدمها في الأعمال التي يريدها. وإذا أراد باعها أو أهداها لغيره. فتصبح ملكاً لمن اشتراها، أو من أهديت إليه. فالناس الذين يكونون ملك غيرهم، سواء بالمشترى أو بالسبي والأسر يسمون «مماليك» أو «عبيد» أو «أرقاء». سواء كان لونهم أسود أو أبيض.

وقد كان الأغنياء أو الملوك والقواد يملكون أحياناً مئات وألوفاً من المماليك. يستخدمونهم في الخدمات المتنوعة. ويكونون في يدهم ثروة مثل الغنم والبقر والجمال والخيل.

فما رأيك في هذه الطريقة؟ لا شك في أنك تستقبحها، وتقول كيف يستعبد الإنسان أخاه الإنسان؟ وقد خلق الله الناس أحراراً متساوين. إنك مصيب في استبشاعك لهذه الطريقة، فإن

فيها ظلماً كبيراً. وقد ضيق الدين الإسلامي دائرة الرق كثيراً. وحث على عتق المماليك ومعاملتهم بالرأفة، ووعد الذين يعتقونهم بأجزل الثواب. كذلك الدول اليوم، فإنها سنت قوانين شديدة لمنع هذه الطريقة، ومجازاة كل إنسان يستعبد إنساناً آخر ويتخذه مملوكاً له.

ـ ٢ ـ

في زمن الأمويين والعباسيين كثر هؤلاء المماليك. لأن المسلمين كانوا يأتون بسبايا كثيرة من بلاد الترك والشركس. ومن بلاد الزنوج في أفريقيا. وأنشئت أسواق خاصة، باسم أسواق المماليك، في بغداد ومصر، تباع فيها وتشتري.

وقد أكثر الخلفاء العباسيون في بغداد من المماليك الترك، لأنهم كانوا ضعفاء وأمناء في الخدمة. ومن هؤلاء كان الأمراء الذين استبدوا في الخلفاء، وعذبوهم، وسلبوا أموالهم. كذلك الخلفاء الفاطميون والملوك الأيوبيون من بعدهم في مصر استكثروا من مماليك الترك والشركس، واستخدموهم في الجيش، ووظائف الحكومة، مثل ما صنع العباسيون، فأصبحوا بمرور الزمن أصحاب نفوذ وجاه وثروة، وطمعوا في المناصب الكبيرة. فكان منهم الولاة والوزراء وقواد الجيش.

فلما ضعف الملوك الأيوبيون استبد مماليك الترك، واسقطوا حكم الدولة الأيوبية، وتولوا العرش مكان الملوك الأيوبيين. وهكذا نشأت دولة تركية، تعرف في التاريخ باسم «دولة مماليك الترك». وقد حكمت مصر وسوريا وفلسطين نحو (١٣٠) سنة. ويوجد في فلسطين وسوريا ومصر بنايات كثيرة من مساجد ومدارس وزوايا وقلاع وأبراج من أعمال ملوك دولة الترك. لأنهم كانوا يحاربون الصليبيين، ويقضون كثيراً من أيامهم في هذه البلاد، وهم الذين قضوا على حكم الصليبيين نهائياً، ومن أشهرهم «الملك الظاهر بيبرس» الذي مر بك ذكره.

ولقد قوي عليهم المماليك الشركس فأسقطوهم، وأسسوا دولة ملوكها منهم، عرفت في التاريخ باسم «دولة مماليك» الشركس، وظلت هذه الدولة الشركسية حاكمة في مصر وسوريا وفلسطين، إلى أن جاء السلطان سليم العثماني وأسقطها، واستولى على هذه البلاد.

ـ ٣ ـ

إن السلطان سليمان حينما أخضع بلاد مصر لحكم الدولة العثمانية، وقضى على دولة مماليك الشركس فيها، كان يوجد مماليك كثيرون في مصر من الترك والشركس، وكانوا أصحاب ثروة وجاه، ولهم أعوان وأنصار، وكانوا يسمون «أمراء»، فعين السلطان سليم بعض كبارهم مديرين في مقاطعات مصر. وعين منهم رئيساً للمديرين في القاهرة اسمه «شيخ البلد»، فزادت بذلك قوة المماليك ونفوذهم، وأخذوا يستبدون في أعمال الدولة، ويعجّزون الولاة الذين كانوا يعينهم السلاطين، حتى ان أميرين منهم قاوما الدولة واستقلا في مصر مدة من الزمن، ثم طمع وأرسل جيشا إلى فلسطين، وآخر إلى الحجاز فاستوليا عليهما أمداً قصيراً وهما «محمد بك ـ وعلي بك».

وقد ظل أمر المماليك قوياً. ووقع منهم على البلاد والأهالي مظالم عظيمة، فكانوا وبالاً وشراً على مصر إلى أن ظهر «محمد علي باشا»، جد العائلة المالكة الآن في مصر، فأبادهم بطريقة عجيبة، سأحدثك عنها في درس آخر[٤٨].

الفصل الثالث والعشرون
نابليون في مصر وسوريا

الدرس الثامن والسبعون

- ١ -

لا بد أنك سمعت بوقوع حرب كبيرة منذ خمس عشرة سنة بين انكلترا وحلفائها غلبوا ألمانيا وحلفاءها.

هل تريد أن تعرف السبب الحقيقي لهذا الحرب؟

إن السبب الحقيقي هو رغبة كل دولة من الدول العظام أن تكون صاحبة النفوذ والقوة، وأن يكون لها مستعمرات واسعة، وتكون تجارتها وصناعتها رائجة أكثر. فهذه الرغبة تؤدي إلى المزاحمة بين الدول العظام، والمزاحمة تؤدي إلى الحرب. وليس هذا محصوراً في هذه الأيام فقط، بل هي حالة جارية بين الأمم والدول دائماً، وأظن أنك صرت تعرف ذلك مما مر بك من الدروس، ومما قرأته من دروس التاريخ أيضاً.

- ٢ -

منذ مائة وخمسين سنة، كان مثل هذا التزاحم مشتداً بين الدولة الانكليزية والدولة الفرنساوية. وكان كل من هاتين الدولتين يحاول أن يكون صاحب النفوذ الأقوى في أوروبا أولاً، وفي بلاد الشرق ثانياً، لأنه إذا أصبح كذلك، راجت تجارته، وعظمت فائدته.

وقد كان الإنكليز استولوا على بلاد الهند العظيمة الواسعة، وقضوا على مزاحمة الفرنساويين لهم فيها، وطمعوا أيضاً في الاستيلاء على بلاد مصر والشام ليحفظوا طريق الهند، فتظل هذه البلاد في أيديهم، وتدوم فائدتهم العظيمة منها.

فخشي الفرنساويون أن تتحقق مطامع الانكليز، ويستولوا على بلاد مصر والشام،

فيصبحوا أقوى منهم وأعظم، وقالوا في أنفسهم إنّهم إذا سبقوا الإنكليز، واستولوا على بلاد مصر والشام قبلهم، جعلوا مصالح الانكليز وطريقهم إلى الهند في خطر، وأصبحوا أصحاب نفوذ وقوة في بلاد الشرق. فرتبوا حملة كبيرة بأسطول بحري عظيم، وأرسلوها بقيادة قائدهم الكبير «نابليون».

- ٣ -

سافر نابليون سراً بأسطوله إلى نحو الشرق، فعلم به قائد الأسطول الانكليزي «نلسن»، فاعتقد أن هذه الحملة الفرنساوية ضد الانكليز، فأخذ يتعقبها عن بعد ليعرف إلى أين تذهب، فلما رآها ذاهبة إلى جهة الشرق، عرف أنها تقصد الاستيلاء على مصر. فكاتب دولته بذلك، فأرسلت إليه أمراً بمتابعة نابليون وأسطوله وعرقلة أعماله، ومساعدة أعدائه عليه، ومحاربته إذا لزم، حتى لا يتمكن من الاستيلاء على مصر وسورية.

أما نابليون، فقد ظل سائراً إلى أن وصل إلى الاسكندرية، فأنزل عسكره إلى البر، وأمر بإخفاء الأسطول في مكان أمين، ثم احتل الاسكندرية، وأخذ يستعد للاستيلاء على سائر القطر المصري.

ولم رأى الأمراء المماليك أن الفرنساويين احتلوا الاسكندرية، وأنهم عازمون على الاستيلاء على باقي البلاد. خافوا على أملاكهم ومصالحهم، فرتبوا جيشاً، وخرجوا لمحاربة الفرنساويين. ولكن الجيش الفرنساوي كان أكثر ترتيباً، وأحسن استعداداً. وكان قائده نابليون قائداً ماهراً، فكسر الجيش المصري كسرة شنيعة. وتقدم فاحتل مدينة القاهرة. عندئذ هرب المماليك إلى الجهة الجنوبية التي تسمى بلاد «الصعيد»، واختفوا. فاستولى نابليون على أموالهم وأملاكهم، وأذاع منشوراً باللغة العربية، يطمئن به الأهالي، ويقول فيه إنه أتى لينقذهم من ظلم المماليك. وكان ذلك مهارة منه، لأن الأهالي كانوا يكرهون المماليك كرهاً شديداً. وكذلك شكل مجلساً للمشاورة سماه الديوان الوطني، جعل أكثر أعضائه من رؤساء الدين ومشايخ الأزهر، تحبباً إلى قلوب الناس.

ومن غريب ما فعله لأجل التقرب للمسلمين، واقناعهم بأنه منهم، ويحب صالحهم، لبسه العمامة الإسلامية، كما ترى صورته في آخر هذا الفصل.

الدرس التاسع والسبعون
تابع ـ نابليون في مصر وسوريا

- ١ -

لما رأى القائد الانكليزي «نلسون» أن الفرنساويين احتلوا مصر وكسروا جيش المماليك، قرر كسر أسطولهم قبل كل شيء، ليضعف بذلك قوتهم. وأخذ يبحث عنه، إلى أن عرف

مخبأه. وكان هذا المخبأ ميناء حصيناً اسمه «أبو قير». فحاصره وأطلق عليه النار. وفي مدة قليلة استطاع أن يحوي قسماً منه، وأن يغرق قسماً آخر. وقد كان هذا العمل مفيداً جداً للانكليز. لأنهم أصبحوا سادة البحر الأبيض حينئذٍ.

ولما علم نابليون بما جرى لأسطوله، تأثر جداً، لأنه كان بمثابة يده اليمنى في الحملة.

- ٢ -

بعد كسر الأسطول الفرنساوي، تفاوضت الدولة الإنكليزية مع الدولة العثمانية، لتخليص مصر من الاحتلال الفرنساوي. واتفقت الدولتان على محاربة الفرنساويين، وإخراجهم من مصر بالقوة. وهيأت الدولة العثمانية لأجل ذلك جيشاً.

فلما علم نابليون بالأمر، أخذ قسماً من جيشه، وتوجه به إلى فلسطين ليحتلها، ويمنع جيش الدولة العثمانية من الدخول إليها، لأن فلسطين هي طريق مصر من جهة البر. وقد توفق بمهارته إلى احتلال مدن العريش وغزة ويافا وحيفا. وكان مشايخ جبل نابلس قد جمعوا محاربيهم، وخرجوا لمقاومة نابليون وجيشه. ووقعت بين الفريقين مناوشات في وادي «غزون»، ثم في سهل «فاقون» ولكن نابليون تغلب عليهم، لأنهم لم يكونوا عساكر نظامية. إذ إن بلاد فلسطين كانت تحت حكم مشايخها وزعمائها الذين كانوا يحكمونها على طريقة نظام القطائع. ولا بد أنك تذكر هذا النظام. لأنك قرأت عنه شيئاً في الدروس السابقة. وكانوا يتعهدون للدولة بدفع شيء من المال، وبإرسال حملة من المحاربين كانوا يسمونها «تجريدة»، إذا نشبت حرب بين الدولة وغيرها.

- ٣ -

استمر نابليون في طريقه، فاحتل حيفا، ثم توجه إلى عكا. وكانت حصينة، إذ إن القواد كانوا يهتمون لتحصينها، ويعدونها مفتاح سوريا. ولا بد أنك تذكر الحرب الشديدة التي وقعت بين الصليبيين والسلطان صلاح الدين فيها. وقد كان والي عكا حينما غزاها نابليون رجلاً شجاعاً شديداً اسمه «أحمد باشا الجزار». وقد ملأها ذخيرة ومئونة، وأغلق أبوابها، وأخذ يدافع عنها. وقد كانت الدولة الانكليزية والدولة العثمانية أرسلتا إليه مدداً من البحر، فساعده على الثبات والدفاع أيضاً. وكان لعكا سور عال وقوي، فلم تؤثر فيه قنابل الفرنساويين التي لا تزال آثارها إلى اليوم.

وبينما كان نابليون محاصراً عكا، قامت في مصر ضد جيشه ثورة مدبرة بواسطة الانكليز. فاضطر إلى الرجوع من فلسطين إلى مصر لاخماد الثورة. وهكذا نجت فلسطين من احتلاله. وقد أخمد الثورة، وأخضع بلاد مصر لحكمه مرة أخرى. ولكن القائد الانكليزي الذي كان يحرض المصريين على العصيان، لم ييأس من إضعاف الفرنساويين وكسرهم.

واتفق أن اشتدت الفتن في بلاد فرنسا، وارتبكت حالتها، وتحالف الأعداء عليها. فاستأجر القائد الانكليزي جاسوساً، وأعطاه جرائد فرنساوية، وأمره بالقائها في مسكن نابليون.

ولقد فرح نابليون لأنه وجد جرائد بلاده في بيته. فأخذ يطالعها باهتمام زائد. ولما اطلع على أخبار الارتباك الذي وقعت فيه البلاد الفرنساوية، تشوش فكره، وعزم على الذهاب سراً إلى بلاده، لعله يخلصها مما هي فيه، ويستفيد من الفرصة، ويصبح رئيساً لها، وقد تنكر بزي تاجر، وركب في أحد المراكب، وذهب إلى فرنسا، تاركاً جيشه في مصر. وهذا ما كان يتمناه القائد الانكليزي طبعاً.

- ٤ -

بقي جيش نابليون في مصر بقيادة قائد اسمه «كليبر»، ولكن قوة الجيش ضعفت، وشجاعته ذهبت، لأن نابليون كان بمثابة قلبه وروحه. وقد ظلت الدولة الانكليزية والدولة العثمانية تضيقان على الجيش الفرنساوي وتزعجانه. وأرسلت الدولة العثمانية جيشها لمحاربته أيضاً. وفي هذه الأثناء أقدم فدائي مسلم من حلب، على قتل قائد الفرنساويين «كليبر». لأنه رأى من العار أن يبقى الفرنساويون الأجانب محتلين بلاد المسلمين، ففادى بنفسه، واجترأ على قتل القائد. فضعف الجيش أكثر من ذي قبل، ولم ير ضباطه بداً من الصلح والخروج من مصر.

وقد تم الصلح، على أن يغادر الجيش الفرنساوي البلاد، وأن ترجع كما كانت إلى حكم الدولة العثمانية. وهكذا فشلت حملة نابليون. غير أنها كانت ذات فوائد عظيمة. لأن نابليون حينما جاء، أخذ ينشر المناشير التي تصف الحرية للناس، وتذكر فوائدها. فبدأ الأهالي يسمعون هذه الكلمة الجميلة، ويتفهمون معناها. كذلك فإن نابليون كان أحضر معه علماء فرنساويين كثيرين. فجال هؤلاء العلماء في أنحاء مصر، وكتبوا كتباً بما شاهدوه من معادن وآثار. فاستفاد المصريون في ما بعد من هذه الكتابات[٤٩].

الفصل الرابع والعشرون
محمد علي باشا وأحفاده

الدرس الثمانون
ظهور محمد علي باشا

- ١ -

إنك تعرف أنه يوجد اليوم في مصر ملك، مع أنه بعد استيلاء السلطان سليم عليها إلى ما قبل مائة سنة، لم يقم فيها ملك، وإنما كانت تابعة للدولة العثمانية، وكان السلاطين يعينون ولاتها، ويرسلونهم من القسطنطينية.

ومصر اليوم راقية عامرة، وهي أرقى وأعمر مما كانت عليه قبلاً.

فكيف تشكلت الدولة المصرية وأصبحت مستقلة وذات ملك مستقل، وترقت وعمرت أكثر مما كانت عليه قبلاً؟ هذا ما أريد أن أحدثك عنه. فالقطر المصري أكثر الأقطار العربية سكاناً. ومن الضروري أن تعرف تفصيل تاريخها الحديث.

إن ملك مصر اليوم هو حفيد رجل من رجال الجيش العثماني اسمه «محمد علي آغا». ثم أصبح «محمد علي باشا». وهو من الجنس الأرناؤوطي. جاء إلى مصر معاوناً لقائد الحملة التي أرسلها السلطان لمحاربة الفرنساويين وإخراجهم منها.

- ٢ -

إن محمد علي باشا كان رجلاً عاقلاً مدبراً طماحاً إلى المعالي. فلما خرج الفرنساويون من مصر، ورجع الحكم إلى الدولة العثمانية، بقي في مصر معاوناً للقائد، وأخذ يتحبب للأهالي، ويعاملهم بالمعروف والحسنى. فأصبح محبوباً محترماً منهم.

وقد كانت الدولة العثمانية عادت إلى إرسال وال من قبلها إلى مصر. فعاد الأمراء المماليك إلى عادتهم في التشويش على الوالي، والمداخلة في أمور الحكومة، وظلم الناس وأذيتهم. فكان محمد علي يتألم أمام الناس من هذه الأحوال، ويستنكر أعمال المماليك، ويلوم الولاة على ضعفهم، وعدم تأديبهم لهم. فاعتقد الأهالي أن محمد علي إذا صار والياً على مصر، فإنه يمنع عنهم ظلم المماليك، ويجعل مصر في أمن وسلام. فاجتمع الكبراء والوجوه، وكتبوا مضابط بطلب تعيين محمد علي والياً. وأرسلوا هذه المضابط إلى السلطان في استانبول. فوافق على طلبهم، وعين محمد علي والياً. وكان ذلك عام ١٢٢٠ للهجرة و ١٨٠٥ للميلاد.

- ٣ -

أول شيء فكر فيه محمد علي بعد أن أصبح والياً الخلاص من شر المماليك ووجودهم. ولم يكن هذا الأمر سهلاً لأن المماليك كانوا كثيرين وأقوياء وأغنياء، ولهم أتباع وأنصار. ولكن محمد علي عزم على الخلاص منهم، مهما لقي من الصعوبات. واعتقد أنه لا يستريح ما داموا أقوياء في مصر. ثم فكر في حيلة مدهشة يقتلهم بها. وهي أن يدعو رؤساءهم إلى قصره في القلعة لتناول الطعام، وأن يخفي جنوداً أقوياء جريئين. وحينما يتكامل رؤساء المماليك، يخرج عليهم الجنود ويقتلونهم جميعاً.

وقد نفذ هذه الحيلة، فدعا رؤساء المماليك إلى الوليمة، ولما تكاملوا أعطى الإشارة، فخرج الجنود المختبئون، وقتلوا المماليك على حين غفلة. ومن مدهشات ما يروى أن أحدهم حينما رأى الجنود هجموا على إخوانه وبدأوا بقتلهم، ركب حصانه وقفز من سور القلعة الذي كان عالياً نحو ثلاث قامات عن الأرض، فقتل الحصان ونجا المملوك.

ولما وقعت الواقعة على رؤساء المماليك، خاف سائرهم من محمد علي، فرحل منهم قسم من مصر واختفى الباقي، ولم يقدروا على عمل شيء. وهكذا خلص محمد علي من خطرهم، ونجت مصر وأهلها من شرهم وظلمهم.

- ٤ -

إن محمد علي لم يكن جندياً فقط يحب الحرب والقتال، بل كان أيضاً مصلحاً يحب المدنية والعلم والعمران، فلما صفا له الجو، أخذ يفكر في إصلاح حالة مصر، فأنشأ المدارس ليتعلم فيها أبناء البلاد، واختار طائفة من التلاميذ النجباء، وأرسلهم إلى أوروبا ليتعلموا العلوم والفنون والصناعات، ثم يرجعون فيعلّمون في المدارس التي أنشأها.

وأنشأ معامل كثيرة لصنع الزجاج والنسيج والسكر والحرير، واهتم لتحسين حالة الزراعة والتجارة أيضاً، فأخذت البلاد تتقدم وترتقي. وأحبه الأهالي واحترموه، وتمنوا له طول البقاء، لأنهم رأوا على يديه الخير والسلام.

هل لا تستغرب إذا قلت لك إن محمد علي مع كل ما فعله من الأعمال العظيمة، لم يكن يقرأ ويكتب، ولم يكن متعلماً في المدرسة؟

لقد كان كذلك، وهذا ما يدل على قوة عقله وذكائه. وقد كان فيه خصلة طيبة وعادة حسنة، وهي مشاورة العقلاء والعلماء، وتنفيذ ما يشيرون به من الآراء المفيدة. وقد كان في معيته رجال عقلاء علماء ومخلصون أمناء من ترك وعرب وافرنج. فكان هؤلاء يبدون له الأفكار السديدة، ويشيرون عليه بم ينبغي عمله لمصلحة الأهالي والبلاد والدولة فيوافق عليها وينفذها.

الدرس الواحد والثمانون
محمد علي باشا وإبراهيم باشا في
جزيرة العرب

ـ ١ ـ

هل تعرف من يحكم الحجاز وجزيرة العرب اليوم؟ يحكمها اليوم الملك «عبد العزيز بن السعود». وقد صار ملكاً على الحجاز منذ بضع سنين فقط. أما قبل ذلك فقد كان سلطاناً على بلاد نجد. ومذهب هذا الملك وأتباعه هو «المذهب الوهابي». لا تظن أن هذا المذهب هو مذهب جديد في الإسلام، وإنما سمي كذلك لأن عالماً من علماء المذهب الحنبلي اسمه «محمد بن عبد الوهاب»، قام بدعوة الناس إلى ترك البدع، والرجوع إلى أحكام القرآن الكريم. وما كان عليه النبي عليه السلام وصحابته الكرام من العادات.

إن هذا العالم ظهر في بلاد نجد قبل نحو مائة سنة، وكان ذكياً عاقلاً. وقد طاف بلاد مصر والعراق والشام، فرأى عادات كثيرة شائعة بين المسلمين، ليس لها أصل في الدين الإسلامي، مثل ما يفعل بعض المشايخ اليوم، إذ يمسكون الأفعى، ويضربون أيديهم وأبدانهم بالدبوس «الشيش»، ويصرخون حينما يفعلون ذلك: يا رفاعي أو يا دسوقي أو يا كيلاني. ومثل الاستغاثة بالأولياء الميتين، وطلب المعونة والبركة منهم، والحلف بهم. ومثل تزيين القبور وتعظيمها. ومثل دق الطبول والدفوف في حفلات الذكر، ومثل شرب الدخان. فلما رجع إلى بلاده نجد، سكن في مدينة اسمها «الدرعية»، وأخذ يعظ الناس، ويدعوهم إلى ترك البدع، وعدم الدعاء لغير الله الذي هو وحده الضار والنافع، والمعطي والمانع، والرجوع إلى أحكام القرآن الكريم والأحاديث النبوية، واعتبار أن كل ما نسب إلى الدين، ولم يكن موجوداً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، هو بدعة ليس من الدين.

ـ ٢ ـ

وقد أخذ الناس في نجد يلتفون حول هذا العالم، ويتبعون نصائحه ومواعظه، ويتركون

البدع ويحرمون الدخان، وأخذ اسمه ومذهبه ينتشر بين الأهالي. وقد اتبع أمير نجد «محمد بن السعود» الذي كان مقره مدينة الدرعية، والذي هو جد ملك الحجاز ونجد الحالي هذا المذهب، وعين محمداً بن عبد الوهاب قاضياً عنده، وحماه من الجاهلين، وساعد في نشر مذهبه.

وقد قوي هذا المذهب في بلاد نجد، وقوي الأمير بن السعود بقوته، حتى أصبح ذا سلطة ونفوذ كبير في جزيرة العرب، فلما رأى نفسه قوياً نافذاً، طمع في الاستيلاء على بلاد العسير والحجاز، مثل ما فعل حفيده قبل بضع سنين. فجاء بجيش من النجديين الوهابيين، ودخل «المدينة المنورة»، ورفع ما على قبر النبي عليه السلام من الزينات والحلي، لأنه يعتقد أن ذلك مخالف للشرع. ثم جاء إلى مكة وأنشب بينه الحرب وبين الشريف الذي كان فيها.

- ٣ -

لما علمت الدولة العثمانية بقيام أمير نجد، وبانتشار المذهب الوهابي، خشيت أن تقوى حركته، ويتمكن ابن السعود من الاستيلاء على بلاد الحجاز، وحينئذٍ يقوى في نظر المسلمين، فينازع الدولة في نفوذها عليهم. فعزمت على محاربته والفتك به، قبل أن يتعاظم أمره. وكلفت (محمد علي باشا) والي مصر بارسال جيش من طرفه إلى جزيرة العرب. فأجاب محمد علي باشا طلب الدولة وأرسل جيشاً بقيادة ابنه إبراهيم باشا، ثم أخذ مدداً جديداً، وذهب بنفسه، ففر أمير نجد من الحجاز، فلحق به إبراهيم باشا إلى الدرعية، وحاصرها حصاراً شديداً، وضربها بالمدافع، فهدم سورها، وكثيراً من دورها. وحينئذٍ سلمت المدينة، فدخلها، وقبض على الأمير وقيده بالاغلال، وأرسله مع حراس إلى استانبول. وهناك قتله السلطان شنقاً. وهكذا خمدت حركته موقتاً. ثم نشطت بعد مائة سنة، على يد حفيده، فنجح فيما فشل فيه جده، وسوف أحدثك عن ذلك في درس آخر.

الدرس الثاني والثمانون

إبراهيم باشا في سوريا وفلسطين

- ١ -

إن الدولة العثمانية كانت عندما كان محمد علي والياً على مصر، قد ضعفت كثيراً، بسبب الحروب التي وقعت بينها وبين دول أوروبا، مثل النمسا وروسيا وغيرها التي كانت تضايقها كثيراً. فلما رأى محمد علي باشا هذا الضعف في الدولة، طمع في الاستقلال في مصر، والاستيلاء على سورية وفلسطين، وتوحيدهما مع مصر، وجعل الجميع دولة واحدة تحت حكمه مثل ما كانت في زمن الفاطميين والأيوبيين وملوك مماليك الترك والشركس، كما عرفت ذلك من الدروس السابقة. فهيأ جيشاً كبيراً، وأرسله مع ابنه إبراهيم باشا إلى فلسطين وسورية. وكان

إبراهيم باشا شجاعاً باسلاً، فقاد الجيش قيادة جيدة ودخل فلسطين، وتمكن من الاستيلاء عليها، وكسر جيش الدولة العثمانية فيها.

وقد أراد بعض مشايخ جبل نابلس والقدس الذين كانوا يوالون الدولة العثمانية ويحبونها، أن يقفوا في وجهه ويصدوه، ولكنهم فشلوا. وقبض إبراهيم باشا على بعضهم وشنقهم، ليوقع الرعب في قلوب الناس.

- ٢ -

بعد أن رتب أمور فلسطين، وعين عليها من طرفه حكاماً، أخذ جيشه وتوجه إلى سوريا. وهناك وقعت بينه وبين الجيوش العثمانية وقعات عديدة، فكان يهزم هذه الجيوش واحداً بعد آخر، ويستولي على البلاد، فتمكن في برهة وجيزة من الاستيلاء على بلاد سورية ساحلها وداخلها، ثم على قسم من بلاد الأناضول، وأصبحت هذه البلاد جميعها تحت حكم محمد علي باشا الذي كان ينوب عنه إبراهيم باشا. وبقيت كذلك بضع سنين، وإبراهيم باشا يحكم البلاد، ويعين فيها الحكام، ويجني منها الضرائب. وكان قسم من الأهالي لا سيما المسيحيين يحبون حكم إبراهيم باشا، ويساعدونه، لأنهم تمتعوا في زمنه بحقوق واسعة، ونالوا كثيراً من المناصب.

إن هذه البلاد التي دخلت في حكم مصر على يد إبراهيم باشا، لم تبق مدة طويلة كذلك. لأن الدول الأوروبية لم يرق لها أن تظهر دولة إسلامية قوية. وكانوا ينتظرون انقراض الدولة العثمانية الضعيفة، ليقتسموا أملاكها الواسعة. وقالوا لأنفسهم: «إذا سكتنا على انتصارات إبراهيم باشا، لا نعود نستفيد من موت الدولة العثمانية. إذ إنها إذا ماتت تكون في مصر دولة إسلامية جديدة قوية فترثها، وتحل محلها في حكم البلاد الإسلامية».

فاتفقوا على مراسلة الدولة العثمانية، وتحريضها على محمد علي باشا وإبراهيم باشا. وقد وعدوها بكل مساعدة، إذا هي قررت الوقوف في وجهه. وكانت الدولة مغيظة من أعمال محمد علي باشا وابنه، لأنها اعتبرت عملهما خروجاً على طاعتها، وثورة ضدها، بعد أن كانا من رعاياها. فاتفقت مع الدول عليهما.

وحينئذٍ أنذرت الدول محمد علي باشا بسحب جيشه من بلاد الأناضول، ووعدته إذا هو فعل ذلك بأن تكون بلاد الشام ومصر ملكاً له ولأولاده من بعده. فلم يقبل محمد علي باشا، فشددوا في الإنذار وقالوا له هذه المرة:

اسحب جيشك من الأناضول ومن سورية، ونعدك بأن يكون لك ملك مصر، ولكنك إذا لم تخرج بعد هذا الإخطار، فإننا سنحاربك جميعاً، وحينئذٍ نخرجك من مصر أيضاً.

فخاف محمد علي باشا أن يضيع منه ملك مصر، إذا بقي على عناده، فخضع للطلب، وأعطى الأمر لابنه بالانسحاب. فانسحب من الأناضول وسوريا وفلسطين ورجع إلى مصر.

وهكذا فشل محمد علي باشا في حركته، ورجعت البلاد مرة أخرى إلى حكم الدولة العثمانية. وكان ذلك عام ١٢٤٠ للهجرة و ١٨٢٥ للميلاد. وأنجزت الدول وعدها لمحمد علي فأصبح ملك مصر له ولأولاده من بعده. وبهذه الصورة تكونت في مصر دولة مستقلة تحت حكم محمد علي باشا وأولاده من بعده. وكانت تابعة بالاسم للدولة العثمانية، تعطيها شيئاً من وارداتها، وتخطب على المنابر باسم السلطان العثماني. وظلت كذلك إلى ما بعد الحرب الكبرى(٥٠).

الدرس الثالث والثمانون

الخديوي اسماعيل باشا

- ١ -

إن الخديوي إسماعيل باشا هو حفيد محمد علي باشا، ويعد من أعظم أمراء مصر في التاريخ الحديث، لأن مصر تقدمت في زمنه كثيراً، ووقعت فيها أمور عظيمة.

كان إسماعيل باشا ذكياً مقداماً محباً للمدنية والعمران. وقد كان زار أوروبا في أيام شبابه، ورآها أرقى كثيراً من مصر في مدارسها ومحاكمها وطرقها وعلومها وبناياتها. رأى فيها المكتبات التي تحتوي على عشرات الألوف من الكتب، ورأى فيها المتاحف المملوءة بالتحف والأشياء النادرة القديمة الجميلة. ورأى دور التمثيل الفخمة، التي تمثل فيها الروايات على أنغام الموسيقى. فلما صار والياً على مصر، عزم على ترقيتها، وإيصالها إلى درجة أوروبا.

اهتم بزراعة مصر، وتحسين طرقها. أتدري على ماذا تقوم زراعة مصر؟

إنها تقوم على نهر النيل. ولولا هذا النهر المبارك لكانت مصر كالصحراء القاحلة. فالنيل يفيض كل سنة، فتغمر المياه أكثر أراضي مصر. وتبقى كذلك مدة شهر، فتشرب الأراضي هذه المياه، وترتوي، فيزرعها المصريون، وتعطي غلة جيدة. ولكن النيل كان حينما يفيض يغمر الأراضي، بحيث يصير بعضها كالبحر، ولا تجف المياه بسهولة، فلا ينتفع منها. فأنشأ الخديوي اسماعيل باشا أقنية لارواء الأراضي، وتصريف المياه الزائدة. فأصبح في الإمكان الاستفادة من تلك الأراضي.

اهتم كذلك للعلوم وترقيتها. فأنشأ من جديد مدارس كثيرة، وأرسل إلى أوروبا طلبة كثيرين ليتعلموا في مدارسها، كما فعل جده محمد علي باشا. وبنى بناية عظيمة، وضع فيها آلاف الكتب، وسمح للناس بالدوام عليها، والاستفادة من قراءة ما فيها من الكتب. وسماها «المكتبة الخديوية». ولا تزال هذه المكتبة إلى اليوم، ولكن كتبها زادت زيادة عظيمة.

ثم اهتم لاصلاح شؤون الحكومة، فألف مجلساً نيابياً ليبدي وكلاء الأمة آراءهم في القوانين التي تسير عليها البلاد، وفي الضرائب التي تجبى من الأهالي، لأن من حق الأمة أن

تعرف أين تذهب الأموال التي تأخذها منهم الحكومة، وأن يكون لها رأي في القوانين التي تسير عليها الحكومة. فلا يجبى ولا ينفق من الأموال إلا ما هو ضروري. ولا يسن من القوانين، إلا ما هو موافق لمصالح البلاد وأهلها وعاداتهم وأخلاقهم. وعين وزراء له ليساعدوه في إدارة أمور الدولة. لأن الملك لا يمكنه أن يستغني عن مساعدة غيره ومشاورتهم، وإلا فإن خطأه يكون أكثر من صوابه.

- ٢ -

من أهم الأعمال التي تمت في زمن اسماعيل باشا فتح ترعة «السويس» سنة ١٢٨٦، هجرية و ١٨٧٦ ميلادية. وكانت المراكب قبل تسعين سنة لا تمر من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر، لأن الطريق بينهما كانت غير نافذة. وكانت المراكب التي تسافر بين أوروبا وبلاد الهند تدور حول قارة أفريقيا، وكانت الطريق طويلة وشاقة. أما منذ تسعين سنة فإن البحرين الأبيض والأحمر اتصلا، فأصبح في إمكان المراكب السائرة بين بلاد الهند وبلاد أوروبا أن تمر من هذه الطريق القصيرة الأمينة. فسهلت الأسفار والمناقلات كثيراً، وذلك بسبب فتح ترعة السويس.

وقد كان هذا العمل بدأ في عهد الوالي قبل إسماعيل باشا، وهو سعيد باشا. أما المهندس العظيم الذي تعهد بهذا العمل العظيم وأتمه، فهو فرنساوي واسمه (دلسبس).

وبما أن هذا العمل عظيم جداً، فإن الخديوي اسماعيل باشا أراد أن يقيم لـه احتفالاً عظيماً. فدعا ملوك أوروبا وكبراءها إلى مصر، واحتفى بهم حفاوة عظيمة، وأنفق في سبيل ذلك أموالاً طائلة.

- ٣ -

إن الأعمال التي قام بها الخديوي اسماعيل باشا لم تتم إلا بانفاق الأموال الكثيرة. وقد كان يستدين هذه الأموال من أوروبا. وقد بلغت الديون عليه مائة مليون جنيه، وهو مبلغ عظيم، كان يدفع عليه فائدة عظيمة. وقد أخذ إسماعيل باشا يحمل الأهالي ضرائب باهظة، حتى يتمكن من تسديد هذا الدين، وتسديد نفقات الدولة. ولكنه لم يستطع، بل لم يقدر أن يسدد الفائدة السنوية، لأنها كانت تبلغ ستة أو سبعة ملايين جنيه، فوقع في حيرة وارتباك عظيمين بسبب ذلك. وهذا أمر يقع مع كل واحد، إذا اعتاد أن يستدين وينفق بدون حساب.

وقد خافت دول أوروبا على أموال رعاياها التي استدانها الخديوي اسماعيل باشا. فطلبت أن يكون لها حق المراقبة على أموال الحكومة. فوقع خلاف بين إسماعيل باشا وبين الدول. فسعت الدول مع الدولة العثمانية وعزلته، وعينت محله ابنه (توفيق باشا)، على شرط أن يقبل مراقبة الدول على مالية الدول المصرية.

لقد مرت بك كلمة (خديوي) بضع مرات. وأحب أن تعرف شيئاً عنها.

إن هذه الكلمة فارسية، ومعناها أمير. وقد كان يتلقب بها محمد علي باشا بصورة غير رسمية. فسعى إسماعيل باشا مع السلطان حتى لقبه بهذا اللقب بصورة رسمية(٥١).

الدرس الرابع والثمانون

عرابي وحركته

- ١ -

من كان يدفع الأموال والضرائب للحكومة في مصر؟ طبعاً المصريون. وإذاً فهم الذين يجب أن يكون لهم الحق في وظائف الحكومة ومناصب الجيش، لأن ابن البلاد أحق بخدمة بلاده وأدرى، ولكن ذلك لم يكن كذلك في زمن محمد علي باشا واسماعيل باشا، فان المناصب الكبيرة في الجيش المصري، كان يشغلها ضباط من الترك والأرناؤوط والشركس، وكانت حقوق الضباط المصريين مهضومة، لا ينالون ما يناله غيرهم من المناصب العالية والرتب الرفيعة والرواتب الكبيرة.

وقد كانت هذه الحالة تغيظ الضباط المصريين، فاجتمع بعضهم في زمن الخديوي توفيق باشا، وتذاكروا في حالتهم، فقرروا أن يطالبوا بحقوقهم، وأن يكونوا على الأقل مساوين لغيرهم في المناصب والرواتب، وتعرف هذه الحركة في تاريخ مصر بالحركة (العرابية)، لأن رئيسها كان ضابطاً اسمه (أحمد عرابي).

- ٢ -

إن الضباط المصريين نجحوا في حركتهم هذه، إذ إن الخديوي توفيق باشا أجابهم إلى بعض مطالبهم، فرقى مراتب بعضهم، ووعد بمساواتهم مع غيرهم فقوي بذلك نفوذهم، وأخذوا يطالبون بمطالب جديدة، مثل توسيع صلاحية مجلس النواب، وان لا توضع على الأمة ضرائب، ولا تسن قوانين إلا بموافقة هذا المجلس. لأن مجلس النواب الذي كان ألفه إسماعيل باشا كان للمشاورة فقط، ولم يكن الخديوي ملزماً بتنفيذ قراراته، فان شاء نفذها، وإن شاء أهملها. فخشي الخديوي توفيق باشا إذا هو أجابهم إلى كل طلب أن يخرج الحكم من يده، فرفض طلبهم، وحينئذٍ انقلبت الحركة إلى ثورة وطنية.

وقد خافت الدول من هذه الثورة على أموال رعاياها وأرواحهم، وأحبت الحكومة الانكليزية أن تتدخل، وتخمد الثورة، فلم يمانعها الخديوي، لأنه خشي أن تقوى الثورة، ويخلعه الثوار بعد ما رفض مطالبهم.

- ٣ -

حينئذٍ عجلت الدولة الانكليزية، فأرسلت أسطولها، ومعه جيش انكليزي. فأطلق

المدافع على (الاسكندرية)، ثم أنزل منه الجيش فاحتل المدينة، وكان ذلك عام ١٢٩٩ للهجرة و ١٨٨٢ للميلاد.

أما المصريون فانهم التفوا حول أحمد عرابي الذي قرر أن يقف في وجه الانكليز ويحاربهم، ويدافع عن البلاد، فجمع الجيش وحاربهم. ولكنه لم يقدر على الثبات أمامهم، لأن الجيش المصري لم يكن مستعداً ومنظماً. وقد كسره الجيش الإنكليزي، وتقدم إلى القاهرة، فاحتلها، وأعلن القائد أنه جاء لاخماد الثورة وحماية الخديوي، ثم يترك مصر لأهلها وخديويها. وقبض على أحمد أعرابي وغيره من رؤساء الحركة الوطنية، ونفاهم إلى خارج مصر، غير أن الانكليز لم يتركوا البلاد حسب وعدهم، بل ظلوا محتلين فيها إلى اليوم، وقد مضى على ذلك أكثر من خمسين سنة[٥٢].

الدرس الخامس والثمانون
فتح السودان ـ مهدي السودان

ـ ١ ـ

أتدري من أين ينبع نهر النيل، ويمر حتى يصل إلى بلاد مصر؟ إنه ينبع من أواسط أفريقيا، ويمر من السودان، فلو قدر أحد أن يسد طريق هذا النهر، أو يغير مجراه مثلاً، فان مصر تصبح خراباً يباباً، ينعق فيها البوم. فمن صالح مصر والحالة هذه أن تكون السودان تابعة لها وتحت حكمها.

وقد كان محمد علي باشا أدرك هذا الأمر، فأرسل جيشاً إلى السودان فاستولى عليه، وأصبح تابعاً لحكومة محمد علي باشا في مصر. ولم يستطع سكان بلاد السودان أن يقاوموا الجيش المصري، لأنهم زنوج وغير متمدنين، وليس لديهم وسائل حربية كافية يدافعون بها عن أنفسهم وبلادهم. وكان في بلاد السودان طائفة من العرب المسلمين، وهؤلاء كانوا يريدون أن يكون الحكم بيد ملوك مصر الذين هم من بني دينهم ولغتهم.

ـ ٢ ـ

لما أصبحت بلاد السودان تابعة للحكومة المصرية، أخذ الخديوي يعين عليها ولاة وعمالاً مصريين. وقد كانت سيرة الولاة والعمال غير محمودة، لأنهم عاملوا الأهالي معاملة سيئة، ولم يهتموا بتعليم أولادهم، وتحسين أحوالهم، وتأمين حقوقهم، كما هو الواجب على الموظفين. وقد انصرفوا إلى تأمين منافعهم الخاصة عن طريق الرشوة والظلم، فكان ذلك سبباً لنفرة الأهالي واستيائهم وكرههم للحكم المصري.

وقد كان في بلاد السودان عالم مسلم عربي اسمه (محمد أحمد) من نسل النبي عليه السلام، وكان له تلامذة كثيرون يواظبون على دروسه، ويتلقون مواعظه. فلمّا رأى ما يبدو من

الموظفين المصريين من الظلم وسوء السيرة، تحالف هو وتلامذته على طردهم من البلاد وتخليصها من شرهم. وأعلن العصيان على الحكم المصري، وسمى نفسه (المهدي). وكان ذلك في زمن الخديوي توفيق باشا.

- ٣ -

وقد التف الناس حول المهدي وأيدوه، لأنهم كانوا مستائين من الموظفين المصريين، فقوي نفوذه وانتشر صيته، وازداد اتباعه فأرسلت الحكومة المصرية جيشاً لتأديب العصاة والقبض على المهدي، ووقعت بين الجيش المصري وجيش المهدي حرب، وانكسر فيها الجيش المصري وانهزم. وحينئذٍ خرجت بلاد السودان من الحكم المصري، وأصبحت تحت حكم المهدي الذي لقب نفسه بأمير المؤمنين. وكان ذلك عام ١٣٠١ للهجرة و ١٨٨٤ للميلاد، وقد مات المهدي، فتولى مكانه عالم آخر من رجاله اسمه (التعايشي) وسمى نفسه خليفة.

ولما رأى الخديوي توفيق باشا أن السودان خرج من يده خاف على حياة بلاده، لأن النيل يمر من السودان، ففاوض الانكليز، واتفق معهم على إرسال جيش مشترك لفتح بلاد السودان، وإعادة الحكم المصري فيها مرة ثانية.

وقد ذهب هذا الجيش المشترك إلى بلاد السودان بقيادة قائد إنكليزي اسمه «كتشنر»، ووقعت بينه وبين جيوش الخليفة التعايشي وقائع عديدة. وكانت النتيجة أن تشتت شمل جيوش الخليفة. وخمدت فتنته. وقد أصبح الانكليز منذئذٍ شركاء الحكومة المصرية في حكم السودان، لأنهم شاركوهم في فتحه، وأصبح يسمى (السودان المصري الانكليزي).

- ٤ -

كان حكم محمد علي باشا وأحفاده بدء عهد جديد للقطر المصري. فقدكان الاهتمام لتحسين حالة البلاد وراحة الأهالي سبباً في إنعاش الحالة الاقتصادية، وتجدد الرفاهية في البلاد. فلما اختلت الحالة المالية في أواخر حكم الخديوي إسماعيل باشا، ثم تبعتها ثورة أحمد عرابي في مصر، وثورة المهدي في السودان، في زمن توفيق باشا، توقفت حركة الاصلاح بطبيعة الحال، لأن وجود النظام والأمن أمر ضروري لتقدم أعمال التجارة والصناعة والزراعة والتعليم. غير أن التوقف لم يستمر طويلاً، فان الخديوي توفيق باشا عاد إلى الاهتمام لتحسين أحوال مصر، بعد أن خلص من خطر الثورات، فأخذ يرقي الزراعة والمدارس، واستعان بعلماء من الانكليز وغيرهم، فكان ذلك من الأسباب التي ساعدته على تحسين الحالة.

وجاء من بعده ابنه عباس حلمي باشا، فسار على طريقة والده، وجده، فتقدمت مصر بذلك تقدماً عظيماً، وتحسنت ماليتها وأحوالها، وأصبحت نهضتها محسوسة، وأمورها سائرة إلى الأمام باطراد واستمرار[٥٣].

الفصل الخامس والعشرون
الجزائر ـ تونس ـ مراكش في القرنين الأخيرين

الدرس السادس والثمانون

ـ ١ ـ

لقد مر بك في درس سابق أن بلاد الجزائر وتونس دخلت في حكم الدولة العثمانية، منذ زمن السلطان سليمان القانوني. فهل تظن أن من السهل على الدولة العثمانية، أن تسيطر على هذه البلاد سيطرة تامة؟ كلا. لأنها بعيدة جداً عن مركز الدولة. ولا بد أنك تذكر أن هذا السبب هو الذي جعل الدولة العباسية سابقاً تتفق مع القائد (إبراهيم بن الأغلب) وأولاده من بعده، فتجعلهم أمراء مستقلين على هذه البلاد. ولا بد أنك تذكر أيضاً أن الدولة الفاطمية ظهرت في أول أمرها في هذه البلاد، لأن الذين كانوا يسعون ضد الدولة العباسية، لم يجدوا محلاً أحسن منها، لبعدها عن مركز الدولة. لذلك فإن هذه البلاد ظلت في حكم الدولة العثمانية أيضاً مستقلة نوعاً ما في إدارتها الداخلية، وإنما كان الخطباء يخطبون باسم الخليفة العثماني. وهو الذي كان يصادق على تعيين ولاتها.

ـ ٢ ـ

إن بلاد الجزائر وتونس قريبة من فرنسا، ولا يفصلها عنها إلا البحر الأبيض فهو في جنوبها، وفرنسا في شماله، وإذا دققت نظرك في الخريطة، تدرك ذلك تماماً. ولهذا السبب، فان دولة فرنسا كانت تطمع في الاستيلاء على هذه البلاد، وجعلها تحت حكمها. فأخذت تترقب الفرص. وتنتظر حدوث حوادث تساعدها في تحقيق مطامعها. وقد وقع بين والي الجزائر وبين قنصل فرنسا خلاف. فجاء القنصل يهدد الوالي ويهينه في قصره. وكان الوالي عزيز النفس، فلم يرض بالاهانة، ولطم القنصل على وجهه بمروحة كانت بيده.

حينئذٍ اغتنمت فرنسا الفرصة، واعتبرت هذه الحادثة سبباً كافياً لاحتلال الجزائر. فساقت

أسطولها وجيشها واحتلت البلاد، وعينت فيها حكاماً وموظفين فرنساويين، وأسقطت حكومتها الوطنية. وكان ذلك عام ١٢٤٦ لحهجرة ١٨٣٠ للميلاد. وقد كانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت ضعيفة، فلم تقدر على منع عدوان فرنسا.

- ٣ -

إن الوطنيين الذين يحبون بلادهم لم يرضوا عن الاحتلال الفرنساوي، وحكم الفرنساويين لبلادهم. وكان في الجزائر زعيم شجاع اسمه (الأمير عبد القادر الحسيني). وكان في مقدمة أولئك المستائين من حكم الأجانب، فتعاهدوا على الثورة ضد الفرنساويين، والجهاد في سبيل الله والوطن. وظل يجاهد ويحارب هو وأتباعه نحو خمسة عشر عاماً، فأزعج الفرنساويين أيما إزعاج، وقتل منهم خلقاً كثيراً. ثم اتفقوا معه مؤقتاً، واعترفوا بإمارته في بعض المقاطعات، ولكنهم خشوا أخيراً أن يقوى، فتحرشوا به، فكانت الحرب. وكان الفوز فيها للافرنسيين لأنهم أقوى منه بالمال والجند. وقد أسروه في إحدى المعارك، غير أنهم لم يقتلوه، لأنهم كانوا معجبين به، محترمين له بسبب جهاده في سبيل وطنه. وقد أعطوه الوسامات، ورتبوا له ولأولاده المعاشات، وكلفوه بالذهاب والاقامة في أي مكان أراد، عدا بلاد الجزائر. فخرج من بلاده مضطراً، وجاء هو وعائلته وأتباعه إلى دمشق الشام وتوطن فيها. ولا يزال أحفاده في دمشق إلى الآن، وقد أصبحوا من أهلها.

الدرس السابع والثمانون

تابع - تونس - مراكش

- ١ -

كانت تونس كالجزائر مستقلة استقلالاً داخلياً تابعة بالاسم إلى الدولة العثمانية. وقد تنازع رؤساؤها فيما بينهم، ثم تفوق أحدهم (الأمير حسين) فاستبد في حكم البلاد وأصبح أميرها، وأنشأ فيها دولة اسمها (الدولة الحسينية)، وتلقب بلقب (الباي) ومعناه الأمير. ولا يزال أولاده ملوك تونس إلى اليوم، ويلقبون بهذا اللقب أيضاً.

وكانت فرنسا تنتظر فرصة مثل فرصة الجزائر لتستولي على تونس أيضاً، كما فعلت بالجزائر. وقد وقعت في تونس فتنة في أواخر القرن الهجري الثالث عشر. فتدخلت فرنسا بحجة حماية أرواح رعاياها وأموالهم. وأجبرت (الباي) على الخضوع لها، وقبول حمايتها وسيطرتها. وهكذا تسلطت على تونس كما تسلطت على الجزائر من قبل.

غير أن الحالة في تونس ظلت أحسن من الحالة في الجزائر. لأن حكومة تونس الوطنية ظلت قائمة بالحكم. إلا أن النفوذ والكلمة العليا أصبحت للفرنساويين.

أتدري ماذا استفاد الفرنساويون من الجزائر وتونس؟

إن سكان بلاد فرنسا كثيرون. ولا يقدروا جميعهم أن يعيشوا في بلادهم، ويجدوا أشغالاً يرتزقون منها. فلما أصبحت بلاد الجزائر وتونس تحت حكمهم أخذوا يهاجرون إليها. وساعدتهم الحكومة الفرنساوية فأعطتهم أراضي جيدة وواسعة، وأمدتهم بالمال والاعانات، فغدوا يزرعون الأراضي وينتفعون من غلاتها، وينشئون القرى والمستعمرات الفرنساوية فيها. ولقد كثر الفرنساويون في هذه البلاد، وأصبحوا كأنهم هم أصحابها.

- ٢ -

بقي عليك أن تعرف شيئاً عن تاريخ (مراكش) في الزمن الأخير.

إن مراكش كانت أقوى نوعاً من الجزائر وتونس، لأن أهلها أشجع وأقدر على الدفاع عن أنفسهم، سيما وقد ذاقوا حلاوة الحكم والاستقلال مدة طويلة. ولا بد أنك تذكر أنهم أنشأوا دولاً مستقلة قوية، وان هذه الدول كانت تحمي المسلمين في الأندلس، وتدفع عنهم عدوان الاسبان وأمراء الافرنج.

وقد كان الحكم في مراكش في القرن الحادي عشر الهجري لدولة عربية أسسها (المولى محمد الشريف بن علي). ولا تزال هذه الدولة هي الحاكمة في بلاد مراكش إلى اليوم. وعاصمتها مدينة (فاس).

- ٣ -

إن بلاد مراكش قريبة من إسبانيا والبرتغال وفرنسا. ولذلك فإن هذه الدول أخذت تطمع في هذه البلاد في المدة الأخيرة. وهكذا الدنيا يوم لك ويوم عليك. فبعد أن كانت مراكش تطمع في بلاد إسبانيا والبرتغال وفرنسا، ويذهب رجالها فيحاربونهم، أخذوا هم يطمعون في الاستيلاء عليها وإخضاعها لحكمهم.

وقد كانت الدولة العلوية في بدء أمرها قوية، وكان رجالها متحدين حذرين، فلم يتمكن أولئك الطامعون منهم، وكانوا يقفون في وجوههم وقفة الأبطال، كلما سولت لهم أنفسهم المداخلة في شؤونهم.

ففكرت دولة فرنسا في مد اصبعها،والوسوسة إلى أمراء هذه البلاد، لعلها تستطيع أن توقع بينهم العداوة، فينقسمون على بعضهم ويضعفون جميعاً. وقد نجحت في دسائسها، فلم يلبثوا أن اختلفوا فيما بينهم، وتنازعوا، وأخذ كل منهم يطمع في أن يكون صاحب النفوذ والحرمة في البلاد. فأشغلهم هذا النزاع والخلاف عن البلاد والاهتمام بها. فاغتنم الفرنساويون الفرصة، وأرسلوا جيشاً من جيوشهم، فاحتل البلاد، وأجبر السلطان على الخضوع، وقبول النفوذ الفرنساوي. وأصبح الفرنساويون هم أصحاب الكلمة العليا يأتمر السلطان ووزراؤه بأمرهم، ولا يحركون ساكناً إلا بموافقتهم.

- ٤ -

ولما رأى الإسبانيون أن الفرنساويين قد سبقوهم إلى احتلال بلاد مراكش، طلبوا منهم أن يقاسموهم المنفعة فيها، ورأى الفرنساويون أن اتفاقهم مع الإسبانيين خير من النزاع معهم. وهكذا اتفق المستعمرون على اقتسام البلاد، فأصبح قسم منها تحت نفوذ وسيطرة الإسبان، وقسم منها تحت نفوذ وسيطرة الفرنساويين. أما أهل البلاد فأصبحوا كالغرباء في بلادهم، بسبب ضعفهم وجهلهم وتنازعهم وعدم اتحادهم. ولقد أخذوا يشعرون أخيراً بالمصيبة التي أصابتهم من السيطرة الأجنبية، ويسعون بقدر ما تمكنهم أحوالهم في الحصول على حقوقهم المهضومة في أوطانهم، وكذلك أهل تونس والجزائر أخذوا يحذون حذوهم(٥٤).

الفصل السادس والعشرون
الدستور العثماني

الدرس الثامن والثمانون

- ١ -

إذا سألك أحد من أين تأخذ الحكومة الأموال التي تنفقها على الجند والموظفين والمدارس والطرق وغيرها، ومن أين تأخذ الجند الذي يدافع عن البلاد، ويحفظ فيها الأمن والنظام؟ بماذا تجيب؟

لا بد أنك تعرف أن الحكومة تأخذ من أبيك وعمك وبني بلدك، وفي الجملة من أهل وطنك ضرائب: مثل الاعشار والويركو والجمرك. ثم لا بد أنك ترى أن البوليس والجنود هم في الأغلب من أهل بلادك. وعلى هذا فإنك تجيب على هذا السؤال بسهولة وتقول: إن الحكومة تأخذ الأموال والجنود من الأهالي.

فهل إذا امتنع الأهالي عن دفع الضرائب، وإعطاء الجند، تستطيع الحكومة أن تقوم بواجباتها؟ كلا ثم كلا. فالحكومة إنما تقوم بالمال والجند. وما دام الأمر كذلك فمن واجب الحكومة أن تهتم لمصالح أهل البلاد، وأن تشاور نوابهم فيما تفعله. ولكن إذا شاورت الحكومة نواب الأمة فيما تفعله، فهل تظن أنهم يوافقونها على كل شيء؟ بالطبع لا. فإنهم لا يوافقونها إلا على ما ينفع البلاد وأهلها. وإذا أراد رجال الحكومة أن يفعلوا أفعالاً ضارة وأن يبذروا في الأموال، فإن نواب الأمة لا يرضون حتماً.

- ٢ -

إن سلاطين الدولة العثمانية ورجال حكومتهم لم يكونوا يستشيرون الأمة في شيء من الأعمال التي كانوا يفعلونها. وإنما كانوا يفعلون ما يشاؤون حسب أفكارهم وأهوائهم، ولو كان في ذلك ضرر بمصالح البلاد والأهالي. أي أنهم كانوا «مستبدين».

وبسبب ذلك كانت حالة البلاد سيئة جداً. لأن السلاطين والوزراء والموظفين في الزمن الأخير لم يكونوا يهتمون إلا بمنافعهم. وقل ما كانت تهمهم الأمة والبلاد. وكان الناس لا يقدرون أن ينتقدوهم، لأنهم كانوا يبطشون بكل من ينتقدهم: فيقبضون عليه، ويشنقونه، أو يحبسونه، أو ينفونه. وكان لهم جواسيس يطوفون بين الناس، ويخبرونهم بأسماء الذين يتكلمون ضدهم، وينتقدون أعمالهم. وكانوا لا يقضون لأحد شغلة إلا إذا أخذوا منه رشوة. ولم يكونوا يهتمون لفتح المدارس وتعليم أبناء البلاد. لأن التعليم يفتح أذهان الناس، ويجعلهم يعرفون حقوقهم ويطالبون بها. وكان التلاميذ يتعلمون القراءة والكتابة في الكتاتيب الحقيرة والأماكن الرطبة جلوساً على الأرض. وكان المعلمون الذين يعلمونهم لا يفقهون شيئاً. ولم تكن لهم مرتبات من الحكومة. وإنما كانوا يأخذون من الأولاد خبزاً وجُمُعيات تافهة.

وكانت حالة أوروبا وحكوماتها أحسن بكثير من حالة الدولة العثمانية، لأنها كانت تجمع نواب الأمة في المجلس، وتشاورهم في كل شيء تريد أن تفعله. ولا تفعل إلا ما يوافقون عليه. وكانت تهتم بحالة البلاد كثيراً، فتفتح المدارس، وتعبد الطرق، وتساعد التجار والصناع والزراع في تحسين أشغالهم، فنتج عن ذلك ارتقاء البلاد الأوروبية وقوتها وعظمتها، وأصبحت البلاد العثمانية في ضعف وفقر وانحطاط.

الدرس التاسع والثمانون

تابع ـ الدستور العثماني

ـ ١ ـ

هل كانت حالة الدولة العثمانية، وسيرة رجالها، ترضي العقلاء الوطنيين؟ طبعاً لا. فإن هذه الحالة لا يرضى بها إلا الجاهل الذليل، الذي لا يعرف الخير من الشر، ولا يجرؤ على قول الحق والدفاع عنه. أما العقلاء الوطنيون الذين تهمهم بلادهم، ويحبون أن تكون راقية قوية، فإنهم لا يرضون عنها قط. فالعاقل الوطني يحب أن تكون بلاده راقية، وأمته عزيزة محترمة.

وقد كان يوجد في بلاد الدولة العثمانية رجال عقلاء وطنيون، كانوا يتألمون لحالة بلادهم، ويكرهون السلاطين والوزراء والموظفين الذين يضرون بالبلاد، ويمنعون الناس من التمتع بحريتهم وحقوقهم.

ـ ٢ ـ

من أعظم هؤلاء الرجال (مدحت باشا). كان الرجل يتمنى أن يكون للدولة دستور تمشي عليه الحكومة، كحكومات أوروبا. والدستور هو قانون يبين حقوق الأهالي، وحقوق السلطان وحقوق الحكومة، وواجبات كل منهم، ويمنع السلطان والحكومة من ظلم الأهالي، وتبذير أموال الدولة. ويأمر الحكومة بمشاورة نواب الأمة، وعدم عمل شيء إلا بموافقة مجلسهم.

فأخذ مدحت باشا يحرض الوطنيين على مطالبة السلطان باعلان دستور مثل هذا. وقد شعر به السلطان عبد الحميد الثاني ووزراؤه، فقبضوا عليه، وعلى رفاقه، ونفوهم إلى مكة. وهناك سقوهم السم فماتوا.

ولكن هذا الظلم الفظيع لم يضعف همة رفاق مدحت باشا الوطنيين وتلامذته الذين لم تقبض عليهم الحكومة، لأن الوطني الشريف لا يكون جباناً، ولا يخشى الموت في سبيل الوطن. فأخذوا يشكلون الجمعيات الوطنية سراً، ويستميلون الضباط إلى رأيهم، لأنهم قالوا في أنفسهم: إذا دخل الضباط في جمعيتنا، أصبح الجيش معنا، وحينئذ نكون أقوياء، ونجبر الحكومة والسلطان على إعلان الدستور.

- ٣ -

وقد لبثوا يشتغلون في هذا الأمر أكثر من خمس وعشرين سنة، إلى أن قووا، وصار قسم كبير من الضباط. وحينئذ قاموا بحركة عظيمة، وطلبوا من السلطان عبدالحميد إعلان الدستور.

ولما رأى السلطان أن الحركة قوية، وأنه لا يقدر على إخمادها، لم يسعه إلا إجابة الطلب، فأعلن دستوراً يحتوي على حقوق الناس وحريتهم، ويقيد الحكومة في أفعالها. وكان ذلك عام ١٣٢٦ هجري، ١٩٠٨ ميلادي.

وقد أصبح الناس بحسب هذا الدستور أحراراً، ينتقدون الحكومة إذا قصرت في واجباتها، أو ظلمت أحداً، ويتكلمون ويكتبون ما يشاؤون، دون أن يخافوا قتلاً أو حبساً أو نفياً. وأسقطوا الرجال الخائنين والجواسيس، وقتلوا بعضهم.

كذلك الحكومة، فإنها أصبحت مجبرة على تطبيق القوانين بالمساواة والعدل. وانتخبت الأمة نواباً ذهبوا إلى استانبول، ليكونوا أعضاء مجلس الأمة، يراقبون فيه الحكومة، ويقررون ما فيه المنفعة من الأمور، ويجبرون الحكومة على تنفيذه. ولا يسمحون لها أن تفعل شيئاً إلا برأيهم وموافقتهم. ومن أشهر الرجال الوطنيين الذين كانوا رؤساء الحركة (أنور باشا) و (طلعت باشا) و (نيازي بك).

- ٤ -

بعد إعلان الدستور أصبح الأمل قوياً في تحسن حالة البلاد والأهالي، غير أنه انفتحت على الدولة أبواب حروب كثيرة، شغلتها عن الاصلاح وأنهكت قواها.

من هذه الحروب (حرب ايطاليا). فإن هذه الدولة كانت تطمع في الاستيلاء على بلاد طرابلس الغرب وبرقة في شمال أفريقيا. لأنها قريبة من بلادها. وخافت إذا هي صبرت أن تقوى الدولة العثمانية، وحينئذ تضيع عليها الفرصة، فأرسلت أسطولها وجيشها واحتلت هذه البلاد. وقد دامت هذه الحرب بينها وبين الدولة العثمانية نحو سنة، وقد ذهب أنور باشا بالغواصة إلى

بنغازي وقاد الجيوش، وأظهر شجاعة فائقة. وجمع الناس في فلسطين وغيرها إعانات، وأرسلوها إلى طرابلس الغرب، ليتقوى بهاالمجاهدون. ولكن إيطاليا تغلبت أخيراً ونجحت في غايتها.

ومن هذه الحروب (حرب البلقان). فإن بلاد البلقان كانت تحت حكم الدولة العثمانية، وكانت مسكونة بأمم غير مسلمة وغير تركية، مثل البلغار والصرب واليونان والجبل الأسود. وكانت هذه الأمم تكره الدولة العثمانية، وتتمنى زوالها، حتى تتخلص من حكمها، وتحكم نفسها بنفسها. فلما أعلن الدستور خافت هي أيضاً أن تقوى الدولة وحينئذ يصعب عليها النجاة. فاتفقت بعضهامع بعض، وأعلنت الحرب على الدولة، وساعدتها دول أوروبا، فنجحت في غايتها، وخرجت من حكم الدولة العثمانية، وأصبح كل منها مستقلاً يحكم نفسه بنفسه.

ومن هذه الحروب (الحرب الكبرى). التي عمت جميع الدنيا، والتي سأحدثك عنها في درس آخر.

فهل تظن أن الدولة العثمانيةتستطيع أن تشتغل في جميع هذه الحروب، وتهتم في الوقت ذاته بإصلاح أحوال البلاد؟ كلا. وهذا ما كان فعلاً.

فإن الدولة العثمانية لم تستطع أن تقوم بأعمال إصلاحية عظيمة بعد إعلان الدستور، ولكنها بدأت ببعض الأعمال، وكان الدستور في ذات الوقت سبباً في انتباه الترك والعرب إلى ضرورة النهوض، والسير في سبيل العلم والمدنية، مثل أمم الغرب[٥٥].

الفصل السابع والعشرون
النهضة العربية في سوريا

الدرس التسعون

- ١ -

هل تعرف أي البلاد تشمل كلمة (سوريا)؟

إنها تشمل بلاد بيروت ولبنان وطرابلس الشام واللاذقية، ودمشق وحمص وحماه وحلب، وحوران وجبل الدروز وشرق الأردن وفلسطين، وما يتبعها من مدن وقرى عديدة. ويطلق على جميع هذه البلاد اسم (بلاد الشام) أو (سوريا الكبرى). وحدودها من الشمال (جبال طوروس)، ومن الجنوب (رفح)، ورفح قرية بين خان يونس والعريش. ولا بد أنك تذكر أن هذه البلاد دخلت تحت حكم الدولة العثمانية في زمن السلطان سليم سنة ٩٢٣ هجرية، وكانت قبل ذلك تابعة لدولة مماليك الشركس في مصر.

- ٢ -

كانت سوريا قبل مائة سنة تقريباً مقسمة إلى قطائع يحكمها أمراء ومشايخ من أهلها بالنيابة عن الدولة العثمانية. وكان هؤلاء يقدمون للدولة مبلغاً معيناً من المال الذي يجبونه من الأهالي، ويرسلون حين الحاجة جنوداً ليساعدوا جيش الدولة إذا دخلت في حرب من الحروب. ويسمون الجنود (تجريدة).

وكان الأهالي يقاسون العذاب من أمرائهم ومشايخهم أحياناً لأنهم كانوا يقاتلون ويقتلون في سبيل أغراضهم ومآربهم. وكثيراً ما كان المشايخ يتنازعون فينقسم الشعب إلى أقسام أو أحزاب. وكل قسم يتحزب لرئيسه، ويقاتل القسم الآخر المتنازع معه، مع أنهم جميعهم أبناء بلاد واحدة. وكان المشايخ والأمراء يأخذون من الأهالي الأموال الطائلة، ليتنعموا بها هم

ومحاسيبهم. وكثيراً ما كانوا يغتصبون أملاك الأهالي وأراضيهم لأنفسهم. وكان إذا تزوج أحد الأمراء والمشايخ أو ابنه فرض على القرى والعائلات التي تحت أمره ضرائب من مال أو زيت أو قمح أو مواشي فيؤدونها له باسم (حمولة).

- ٣ -

وقد كان أكثر الناس جاهلين أغبياء. يندر بينهم القارىء الكاتب، وكثيراً ما تكون القرية خالية من واحد يقرأ ويكتب. ولم يكن في البلاد مدارس مثل اليوم. وإنما كان فيها كتاتيب، يعلم فيها معلمون جاهلون. وكان المعلم يكتب للأولاد دروسهم على ألواح من التنك. ثم يعلم بعضهم بعضاً بحركات وأصوات عجيبة مضحكة، ومعلمهم قاعد على طراحة في زاوية الكتّاب، وفي يده عصاة طويلة، ينخس بها الولد الذي يضحك، أو الولد الذي يهز رأسه ويقرأ. وكانت الأجرة التي يأخذها المعلمون قليلة جداً. منهم من يأخذ من كل ولد رغيف عن كل يوم، ومنهم من يأخذ نحاسة اسمها (سحتوت) تساوي نصف مل. وإذا ولد لاحدى النساء ولد كان المعلم يرسل تلامذته إلى بيتها، فينشدون لها نشيداً بالتهنئة بالمولود، فتعطيهم حلاونا لمعلمهم.

- ٤ -

غير أن الدولة العثمانية أخذت منذ مائة سنة أو أقل ترسل حكاماً وموظفين من قبلها، وتقلل تدريجياً من سيطرة الأمراء والمشايخ، حتى زالت سيطرتهم أخيراً. وأصبحت البلاد تحكم من قبل موظفي الدولة وولاتها وجيشها وضباطها.

وكان قسم كبير من هؤلاء الموظفين والضباط والحكام من أهالي البلاد. ولكنهم من غير الأمراء والمشايخ. وصار الناس يتعلمون أكثر وبطرق أحسن. ولكن الإدارة فيها قبل اعلان الدستور كانت على نفس الحالة التي ذكرتها لك في الدرس السابق. وهي الحالة التي كانت عليها بلاد الدولة جميعها.

الدرس الواحد والتسعون

تابع - النهضة العربية في سوريا

- ١ -

إن البلاد السورية من أجمل البلاد موقعاً وأحسنها طقساً. وفيها البلاد المقدسة التي هي مقصد الزوار والسياح من جميع بلاد العالم. فكانت لذلك مطمح أنظار الدول، وكان كثير من أهالي أوروبا يشتغلون مع أهل سوريا في الأعمال التجارية، ويأتون أحياناً، فيتوطنون فيها. لذلك فإن أكثر مدنها كان عامراً منتظماً، أكثر من بلاد الدولة في الأناضول.

ومما ساعد على هذا العمران والانتظام ذكاء أهلها ونشاطهم أولاً، ورغبتهم في التعلم والاستفادة ثانياً، واحتكاكهم بالأجانب ثالثاً، وإنشاء الأجانب مدارس كثيرة في البلاد لتعليم أهليها رابعاً. ولقد كان يدخل في هذه المدارس كثير من أبناء البلاد من مسلمين ومسيحيين. ويتعلمون فيها العلوم المتنوعة، وتتفتح أذهانهم، وينموا ذكائهم ونشاطهم. ولا يزال قسم من هذه المدارس الأجنبية موجود في سوريا إلى اليوم، مثل الجامعة الأميركية والجامعة اليسوعية الفرنساوية في بيروت، ومدرسة المطران، ومدرسة صهيون في القدس. عدا المدارس الابتدائية والاستعدادية العديدة الي كانت في جبل لبنان، وغيره من أنحاء البلاد. ومع أن هذه المدارس كانت ترمي إلى نشر الدين المسيحي، والتبشير به، وتعليم اللغات الأجنبية، وتحبيب التلامذة بالأجانب، فإنها كانت عاملاً من عوامل النهضة العربية في سوريا.

- ٢ -

ولكن النهضة العربية الحقيقية في سوريا لم تظهر إلا بعد اعلان الدستور الذي حدثتك به في الدرس السابق. لأن ذلك نبه العرب في سوريا إلى النهوض لنيل حقوقهم في بلادهم. فأخذ رؤساؤهم يطالبون الدولة العثمانية بجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في بلادهم، بدلاً من اللغة التركية، وبالاكثار من المدارس لتعليم أبناء البلاد وتنوير أذهانهم، وبتأليف مجالس نيابية خصوصية في بلادهم ليتذاكر النواب مع الولاة والحكام في اجراء الاصلاحات النافعة للبلاد، وبتعيين العرب في جميع وظائف الحكومة في سوريا لأن أبناء البلاد أدرى من الغرباء بمصالحها ومنافعها. وقد أسس هؤلاء الرؤساء جمعيات وطنية لملاحقة هذه الطلبات، واهتم السوريون لتعليم أبنائهم أكثر من ذي قبل. وكان النواب العرب الذين يذهبون إلى مجلس النواب في العاصمة «استانبول»، يؤيدون حركتهم ويساعدون في تنفيذ هذه الطلبات. ومن أهم الرجال السوريين العرب الذين كانوا قائمين بهذه الحركة: «عبد الحميد الزهراوي، وعبدالوهاب الانكليزي، وشكري العسلي، ورفيق العظم، وروحي الخالدي».

- ٣ -

لما أعلن الدستور أخذ رجال النهضة التركية مثل طلعت باشا وأنور باشا وجمال باشا يهتمون بتحسين حالة الأمة والبلاد التركية فقط. وكان همهم أن تقوى الأمة التركية، وتسيطر على غيرها من الأمم الموجودة في البلاد العثمانية، مثل العرب والأرمن والشركس والكرد وغيرهم. فلما بدأ العرب بطلب حقوقهم، لم يرق ذلك لرجال الترك، لأنهم خشوا أن تتحسن حالة العرب، وتصعب حينئذ السيطرة عليهم. وأخذ وزراء الترك يعدون العرب وعوداً بدون وفاء. إلى أن جاءت الحرب الكبرى، فدخلت الدولة العثمانية في الحرب ضد الانكليز وحلفائهم، وعينت جمال باشا قائداً عاماً للجيوش التي كانت في سوريا.

وكان جمال باشا رجلاً قاسياً يحب الترك ومصالحهم، ويكره العرب ولا يروق له أن ينهضوا ويتقدموا إلى الأمام. وكانت القوة في سوريا في يده يقدر أن يفعل بها ما يشاء بدون

معارض ولا منازع. فقرر أن يغتنم الفرصة ويطفىء نور النهضة العربية. وأخذ يقبض على رجال هذه النهضة، ويسجنهم أو ينفيهم. وقد شنق أهم الرجال، اعتقاداً منه أنه إذا مات عظماء العرب ماتت النهضة العربية.

ومن أشهر الذين شنقهم هذا السفاح (عبد الحميد الزهراوي، ورفيق رزق سلوم من حمص، وعارف الشهابي من وادي التيم. وعبد الوهاب الانكليزي، وشكري العسلي، وشفيق المؤيد من دمشق، وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني ومحمود المحمصاني، وأحمد حسن طبارة من بيروت، وعبد الكريم الخليل من لبنان، وسليم عبد الهادي من نابلس، وعلي النشاشيبي من القدس، وعارف الحسيني من غزة).

فذهب هؤلاء الوطنيون شهداء في سبيل أوطانهم وأمتهم. فيجب عليك أيها الفتى أن تذكرهم دائماً، وأن تقدرهم قدرهم، لأنهم ماتوا في سبيل وطنهم الذي هو وطنك، وفي سبيل أمتهم التي هي أمتك.

- ٤ -

إن هذا الظلم جرح قلوب العرب جرحاً أليماً. فزادت كراهتهم للأتراك، وأصبحوا يتمنون زوال حكمهم ودولتهم. وكان في مكة رجل عظيم، هو (الشريف حسين باشا)، وهو من سلالة النبي عليه الصلاة والسلام. وكان صاحب السيادة في الحجاز. فرأى أن الأتراك قد طغوا وبغوا على العرب، وأن العرب أحق منهم بالملك والخلافة والاستقلال. وأنهم إذا ظلوا تحت حكمهم، بعد ما ظهر منهم من الظلم والقسوة، سوف يشتد عليهم الأذى، ويزيد ضعفهم وتأخرهم. فاتفق مع الانكليز على أن يقوم هو والعرب بثورة ضد الدولة، ويجمع جنداً عربياً يحاربها بهم معهم. ومقابل ذلك عاهدته الدولة الانكليزية، على أن يكون للعرب دولة مستقلة كبرى يكون ضمنها الحجاز والعراق وسوريا[٥٦].

وبعد أن تم الاتفاق ثار الشريف حسين في مكة، وأسقط حكم الدولة العثمانية، وجعل كل من أبنائه (الشريف علي والشريف عبد الله والشريف فيصل والشريف زيد) قواداً للجيوش العربية التي تهيأت لمحاربة الترك، وتخليص بلاد العرب. وكان ذلك عام ١٣٣٤ هجرية و ١٩١٥ ميلادية. أما تاريخ بدء الثورة فعلاً في مكة فهو ٩ شعبان سنة ١٣٣٤. وقد اتخذه العرب يوم ذكرى وعيد لهم.

وقد فرح العرب في سوريا لقيام الشريف حسين، وأملوا من وراء ذلك خيراً لبلادهم. وأخذ كثير من شبابهم وضباطهم يلتحق بالشريف فيصل الذي كان قائداً للمحاربين في جهات سوريا، ويحاربون معه لأجل استقلال بلادهم وحريتها.

وسوف أعود فأحدثك عن ما جرى بعد ذلك في الدروس الآتية[٥٧].

الفصل الثامن والعشرون
الحرب الكبرى وأثرها في البلاد العربية

الدرس الثاني والتسعون

- ١ -

منذ تسع عشرة سنة وقعت بين الدول حرب لم يقع مثلها إلى الآن في تاريخ البشر، لأن جميع دول الأرض تقريباً اشتركت. ولذلك سميت (الحرب الكبرى).

وقعت هذه الحرب بين فريقين: الفريق الأول هو الدول الألمانية والنمساوية والعثمانية والبلغارية. والفريق الثاني هو: الدول الانكليزية والفرنساوية والأميركية والايطالية والروسية والبلجيكية. وقد امتدت هذه الحرب أربع سنين، بدأت عام ١٣٣٢ هجري و ١٩١٤، ميلادي، وانتهت عام ١٣٣٦ هجري و ١٩١٨ ميلادي. وقد اجتهد كل من الفريقين المتحاربين أن يتغلب على خصمه ويقهره. ولقد أنفق في هذه الحرب مليارات الجنيهات، وقتل ملايين من الناس، وخربت مئات من المدن. وأغرقت مئات من المراكب، وسقطت مئات من الطيارات، ثم كانت النتيجة تغلب فريق الانكليز على فريق الألمان. وبما أن الدولة العثمانية كانت في فريق الألمان، فإنها انكسرت كما انكسر الألمان وحلفاؤهم. وقد كان انكسارها سبباً لتغيرات عظيمة في حالة البلاد العربية الشرقية، أي اليمن والحجاز ونجد والعراق وسوريا وفلسطين وشرق الأردن ومصر. إذ إن حكم الدولة العثمانية سقط نهائياً، عن جميع هذه البلاد ولم يبق لها علاقة بها. ولا بد أنك تحب أن تعرف تفصيل هذه التغيرات التي طرأت على البلاد العربية، لأنها بلادك وبلاد قومك. ويجدر بالفتى العربي مثلك أن يكون واقفاً عليها.

- ٢ -

ماذا طرأ على الحجاز؟

لقد حدثتك في درس سابق أن أول من قام ضد الحكم العثماني هو شريف مكة حسين

باشا، فلما قام بثورته أسقط حكم العثمانيين عن الحجاز وأعلن استقلاله. وأصبح هو ملكاً عليه وسمى دولته (الدولة الهاشمية) وجعل علمه أربعة ألوان (الأبيض والأسود والأخضر والأحمر)، فأصبح هذا العلم علم العرب، لأنه أول علم رفعه العرب في التاريخ الحديث. وقصده بهذه الألوان احياء ذكرى الدول العربية القوية الأولى، وهي الأموية التي كان علمها اللون الأبيض، والعباسية التي كان علمها اللون الأسود، والفاطمية التي كان علمها اللون الأخضر. أما اللون الأحمر فهو اشارة لثورة الملك حسين الهاشمي.

وقد حاصر الشريف حسين القلعة التي كان يقيم فيها جند الدولة العثمانية حينما أعلن ثورته. فأخذ الجند فيها يطلقون المدافع على قصره، إلى أن نفذت قنابلهم. وحينئذ طلبوا الأمان، وسلموا أنفسهم، فأسرهم ولم يصبهم بسوء. ومما يروى أن القنابل كانت تنصب على القصر الذي كان يقيم فيه الملك حسين، وأن أكثر سكان القصر هربوا خوفاً منها، إلا هو، فإنه لم يفر، وبقي صابراً ثابتاً، وهذا يدل على جرأته وقوة إرادته.

- ٣ -

ولعلك تقول: إن بلاد الحجاز هي اليوم تحت حكم الملك (عبدالعزيز بن السعود) وأن الحسين لم يبق ملكاً فيها. وهذا صحيح ولكن ذلك وقع بعد ثمانية أعوام من انتهاء الحرب الكبرى. فالشريف حسين بقي ملكاً على الحجاز نحو ثمانية أعوام. وكان له الفضل العظيم على الحركة العربية، لأن نهضته كانت سبباً في قوتها وحياتها.

غير أنه وقع بينه وبين الملك ابن السعود الذي كان ملكاً على بلاد نجد خلاف، وصار هذا الخلاف عداء. وقد كان ابن السعود يطمع في الاستيلاء على الحجاز ـ كما طمع بذلك جده من قبل ـ فوقعت الحرب بين الفريقين، انتصر فيها ابن السعود، فاحتل مكة وسائر بلاد الحجاز، وأخرج الملك حسين وعائلته الهاشمية، وأعلن نفسه ملكاً عليها، وعلى بلاد نجد معاً. وقد كان الملك حسين تنازل عن الملك لابنه الملك علي الذي أراد أن يحارب ابن السعود ويرجعه عن الحجاز، فلم يتمكن. وظل ابن السعود قوياً قائماً في الحجاز.

والملك ابن السعود على المذهب الوهابي الذي حدثتك عنه في درس سابق. والقبائل الخاضعة له هي وهابية أيضاً. ويسمون باسم (الاخوان)، وقد سمي الملك مملكته أخيراً باسم (المملكة العربية السعودية)، وهي تشمل بلاد الحجاز وتهامة والعسير ونجد وتوابعها.

- ٤ -

ماذا طرأ على اليمن؟

إن بلاد اليمن استقلت بعد الحرب الكبرى. وقام فيها دولة عربية مستقلة. أما ملك هذه الدولة فهو (الإمام يحيى حميد الدين).

وهذا الامام لم يظهر حديثاً، فقد كان صاحب نفوذ وقوة في زمن الدولة العثمانية. وكان له أتباع كثيرون على المذهب (الزيدي) وهم من الحزب الشيعي الذي مر بك شيء عنه في الدروس السابقة، ويسمى أصحاب هذا المذهب (زيدية)، لأنهم يعتقدون بحق الإمام (زيد) أحد أحفاد الإمام (علي) ونسله بالخلافة.

والإمام يحيى هو من العائلة النبوية، ومن نسل الإمام زيد. لذلك فإن أتباعه كانوا يعتبرونه منذ زمن الدولة العثمانية الخليفة الحقيقي ويسمونه (الإمام).

وقد كان يقع بينه وبين الدولة العثمانية حروب، وكان أحياناً ينتصر فيها على جيوش الدولة، وكثيراً ما كانت الدولة تجمع الجند من بلادنا، وترسلهم إلى اليمن لمحاربة الإمام. فلما ذهبت الدولة العثمانية في نتيجة الحرب الكبرى سقط حكمها عن بلاد اليمن، وأصبح الإمام يحيى هو سيد بلاد اليمن وحاكمها، وعاصمته هي مدينة (صنعاء اليمن)، وهي من المدن العربية القديمة.

والإمام يحيى رجل عاقل مدبر. يجب أن تبقى بلاده مستقلة حرة بعيدة عن الأجانب وشرهم، وقد أنشأ المدارس ليتعلم أبناء البلاد العلوم الدينية والعربية الضرورية. وأسس معامل لصنع السلاح.

وأهل اليمن أناس أقوياء، ذوو أخلاق قويمة، وكرم، وهم متمدنون نوعاً ما.

الدرس الثالث والتسعون

تابع ـ الحرب الكبرى وأثرها في البلاد العربية

ـ ١ ـ

أريد أن أحدثك في هذا الدرس، بما طرأ على سوريا بعد الحرب الكبرى.

لما رأت الدولة العثمانية أنها لا تستطيع أن تدافع عن سورية، انسحب جيشها إلى بلاد الأناضول، فدخل الأمير فيصل بجيشه العربي بلاد شرق الأردن وحوران، ثم دمشق وحلب. وأرسل من قبله أناساً إلى بيروت ولبنان، فرفعوا عليها العلم العربي، إشارة إلى الاستقلال العربي في هذه البلاد.

ولكن الفرنساويين جاؤوا واحتلوا بعسكرهم القسم الساحلي من سوريا، أي صيدا وصور وبيروت وطرابلس ولبنان، وأنزلوا عنه العلم العربي، فبقي العلم العربي مرفوعاً على القسم الداخلي من سوريا، أي شرق الأردن وحوران ودمشق وحمص وحماه وحلب وتوابعها.

أما فلسطين، فإن الانكليز قد احتلوا قسماً منها أي (الخليل والقدس وغزة) أثناء الحرب، واحتلوا باقيها عند انتهاء الحرب. وهكذا أصبحت سوريا ثلاثة أقسام: قسم الساحل وفيه

الفرنساويون. وقسم الداخل وفيه الأمير فيصل. وقسم الجنوب (فلسطين) وفيه الانكليز.

- ٢ -

إن عرب سوريا لم يرضوا بهذه النتيجة طبعاً. لأنهم كانوا يأملون أن يكون لهم استقلال، ودولة عربية، مثلما عاهدهم الحلفاء، وأن تكون جميع سوريا متحدة غير مجزأة. لأنها بلاد واحدة. فأخذوا يطالبون بحقهم، ويذكرون الانكليز والفرنساويين بعهودهم لهم. ثم عقدوا مؤتمراً في دمشق الشام، قرروا فيه أن تكون جميع سوريا بلاداً واحدة مستقلة، ولها دولة عربية، وملك عربي. وانتخبوا الأمير فيصل ملكاً عليها. وفعلاً تأسست حسب قرار المؤتمر حكومة عربية مستقلة في القسم الداخلي الذي فيه العرب وأصبح الأمير فيصل ملكاً عليها، وتقرر أن يكون العلم العربي إشارة لدولة سوريا العربية، بزيادة نجمة بيضاء في القطعة الحمراء، وكان ذلك بتاريخ ٨ مارس سنة ١٩٢٠ ميلادي.

- ٣ -

إن دولة فرنسا لم ترق لها هذه الحركة، لأنها خشيت أن يقوى العرب، فيضيع القسم الساحلي من يدها، وكان لها جيش قوي في لبنان، تحت قيادة قائد اسمه (الجنرال غورو)، فساق جيشه، وكسر الجيش العربي في واقعة (ميسلون) قرب دمشق. وقد استشهد في هذه الواقعة (يوسف العظمة)، قائد الجيش العربي ووزير الحربية السورية، ثم مشى الجيش إلى دمشق، فاحتلها، وألغى الحكم العربي فيها، وأخرج الملك فيصلاً من البلاد.

وقد استاء أهل سوريا كثيراً من خيبة أملهم، وهضم حقوقهم. فاتفقوا بعد مدة قليلة، وقاموا بثورة ضد فرنسا دامت سنتين كاملتين. وكان زعيم هذه الثورة (سلطان باشا الأطرش)، أحد زعماء جبل الدروز المخلصين، وقد تضايق الفرنساويين كثيراً من هذه الثورة. وضحى شبان العرب فيها بأرواحهم وأموالهم في سبيل أوطانهم. ولكن فرنسا أخمدت الثورة، ثم قررت أن يكون لسوريا شيء من الاستقلال ولكنها جزأتها لتبقى ضعيفة. لأن في الاتحاد القوة. وهذا ما لا يحب المستعمرون أن تكون عليه البلاد. فجعلت القسم الساحلي دولة وطنية باسم (الجمهورية اللبنانية)، وجعلت في جبل الدروز حكومة خاصة باسم (حكومة الدروز)، وفي اللاذقية حكومة خاصة باسم (بلاد العلويين)، وجعلت في القسم الداخلي دولة وطنية لحدتها أيضاً. ولكن السوريين لا يرضيهم إلا الوحدة والاستقلال، ولذلك فهم يسعون في الوصول إلى الوحدة السورية، والسيادة القومية.

- ٤ -

لما زحف الجنرال غورو بجيشه على سوريا الداخلية، لم يحتل إلا حوران وجبل الدروز ودمشق وحمص وحماه وحلب وتوابعها.

أما شرقي الأردن التي تحتوي على مدن معان وعمان والكرك والسلط واربد، وغيرها، فإن الجيش الفرنساوي لم يأت إليها ويحتلها، فاغتنمت الدولة الانكليزية التي كانت محتلة فلسطين الفرصة، ووضعت يدها على بلاد شرقي الأردن.

وكان الأمير عبد الله ابن الملك حسين قد أتى من الحجاز إلى شرقي الأردن لنجدة أخيه الملك فيصل الذي أخرجه الفرنساويون من دمشق، فاتفقت الدولة الانكليزية معه على أن يبقى في شرقي الأردن أميراً، بشرط أن تكون البلاد تحت إشرافها، فأصبح في شرقي الأردن إمارة عربية، تحت حكم أمير عربي، يرفرف عليها العلم العربي.

ـ ٥ ـ

أما فلسطين فإنها ظلت تحت الاحتلال الانكليزي، ولم يتكون فيها حكومة عربية مثل سائر البلاد العربية، والسبب في ذلك هو أن كبار اليهود في بلاد الانكليز، كانوا طلبوا من الدولة الانكليزية أن تسمح لهم بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، إذا غلبت في الحرب، واستولت على فلسطين، فوعدتهم الدولة الانكليزية بذلك. ويسمى هذا الوعد «وعد بلفور»، لأن بلفور هو الذي وعدهم باسم دولته، حينما كان وزير الخارجية. فلما تم للدولة الانكليزية النصر، واحتلت فلسطين، طالبها اليهود بوعدها، فوفت لهم، وسمحت لليهود بأن يهاجروا إلى فلسطين واعترفت باللغة العبرانية لغة رسمية مثل اللغة العربية، فأخذ اليهود يأتون إلى فلسطين من كل جهة، ويشترون الأراضي، وينشئون فيها المستعمرات، ويؤسسون المدارس والجمعيات اليهودية، وأصبح بعضهم يؤمل في أن يكون لهم الحكم على فلسطين في يوم من الأيام، حينما يكثرون ويقوون.

وقد استاء العرب من هذه الحركة، وأصبحوا يرون فيها سبباً من أسباب هضم حقوقهم وضياع استقلالهم، ويعتقدون أنه لولا وعد بلفور لكان لهم حكومة عربية مثل سائر أخوانهم في البلاد الأخرى، فشكلوا الجمعيات الوطنية، وأخذوا يتظلمون من الحالة، ويدافعون عن حقوقهم، ويطلبون أن يكون لهم حكومة وطنية مستقلة، سيما والانكليز عاهدوا العرب على الاستقلال بعهود أقوى من وعد بلفور، وحارب كثير من شبان فلسطين مع الملك فيصل في سبيل استقلال البلاد العربية وحريتها، ولا يزال العرب في فلسطين يسعون لنيل حقوقهم ودفع خطر اليهود عنهم.

الدرس الرابع والتسعون
تابع الحرب الكبرى وآثارها في البلاد العربية

ـ ١ ـ

ماذا جرى في العراق ومصر بعد الحرب الكبرى؟

لقد احتل الانكليز بلاد العراق أثناء الحرب. فلما انتهت الحرب ظلوا محتلين لها. لأنهم رأوها بلاداً غنية، وفيها ينابيع عظيمة للنفط «زيت الكاز ـ البترول». وقد أرادوا في بادىء الأمر أن تكون تحت حكمهم وأن لا يكون فيها حكم عربي مستقل.

غير أن أهل العراق غضبوا، وقاموا بثورة عظيمة لنيل حقوقهم واستقلالهم. ولقد قتل منهم خلق كثير، وكذلك قتل مثل ذلك من الانكليز. وأخيراً أخمدت الدولة الانكليزية ثورتهم. إلا أنها رأت الأفضل أن تعطيهم شيئاً من حقوقهم واستقلالهم، ووافقت على أن يكون لهم دولة عربية مستقلة نوعاً ما. ثم اتفقت مع الملك فيصل الذي أخرجه الفرنساويون من سوريا، على أن يكون هو ملكاً للعراق. وأبقت في العراق طائفة من الجند والطيارات، واشترطت أن يشاور الملك فيصل وكيلها الذي في العراق، وهو المندوب السامي، في بعض الأمور المهمة.

وقد أخذت بلاد العراق بعد أن صار حكمها بيدها تتقدم إلى الأمام، وصار لها مجلس نيابي، يراقب أعمال الحكومة ويسن القوانين النافعة. وقد سعت الحكومة العراقية، وعلى رأسها الملك فيصل، في تحسين حالة البلاد، وتقوية سيادتها القومية، وتوفقت أخيراً إلى عقد معاهدة مع الانكليز، اعترفوا فيها باستقلال العراق وسيادته، ولم يبق للانكليز إلا نفوذ قليل. وقد قررت الدول قبول العراق عضواً في جمعية الأمم، اعترافاً بسيادته واستقلاله. وقد أصبح من المأمول أن تقوى دولة العراق يوماً بعد يوم، وأن تتخلص نهائياً من كل نفوذ بقي للانكليز، وأن تصبح دولة عربية عزيزة الجانب موفورة الكرامة.

ـ ٢ ـ

بقي عليك أن تعرف شيئاً مما طرأ على مصر أيضاً.

لا بد أنك تذكر أن مصر كانت قبل الحرب تابعة بالاسم للدولة العثمانية، وفيها جيش احتلالي من الانكليز. فلما أعلنت الحرب الكبرى، وانضمت الدولة العثمانية إلى الألمان، ألغى الانكليز اسم الدولة عن مصر، وجعلوها تحت حمايتهم، وأسقطوا الخديوي عباس حلمي باشا، لأنه كان يحب الدولة العثمانية، وعينوا مكانه عمه الأمير حسين كامل، وسموه سلطاناً.

وقد استفادوا من مصر فوائد كبيرة أثناء الحرب. فأخذوا من المصريين عمالاً وجنوداً كثيرين، واتخذوا مصر مركزاً حربياً من مراكزهم. وقد وعدوا المصريين بإعطائهم استقلالهم بعد الحرب.

فلما انتهت الحرب قام رجال المصريين الكبار بزعامة سعد باشا زغلول، وطالبوا الانكليز بوعدهم، والاعتراف باستقلال مصر. وقويت النهضة المصرية وعظم صيت سعد زغلول، حتى أصبح محبوباً من جميع الأهالي. وسمي بيته «بيت الأمة»، لأن الرجال الوطنيين كانوا يجتمعون فيه ويتذاكرون في الدفاع عن حقوق الأمة.

ولقد أراد الانكليز أن يخيفوا سعد زغلول ورفاقه. فأمروهم بعدم الاشتغال في الأمور

الوطنية. ولكنهم رفضوا وقالوا: إن الأمة وكلتنا بالمطالبة بحقوقها. وشرفنا الوطني يقضي علينا بالقيام بهذه الوكالة المقدسة. فقبض عليهم الانكليز ونفوهم إلى بلاد بعيدة، ولكن هذا العمل لم يفدهم شيئاً، لأن الحركة الوطنية ظلت قائمة، وعظم اسم سعد ورفاقه، وأصبحوا مقدسين في نظر الشعب، حينئذ اعترف الانكليز باستقلال مصر، وأعطوهم كثيراً من حقوقهم. وأصبح سلطانها ملكها، وهو الآن الملك فؤاد الأول. لأن كلمة «الملك» أكثر دلالة على الاستقلال من كلمة «سلطان». وكان ذلك عام ١٣٤٠ هجري - ١٩٢٢ ميلادي. وقد أنشىء في مصر بعد ذلك مجلس لنواب الأمة لمراقبة الحكومة، وتقرير ما فيه خير البلاد وأهلها، وغدت أحوال مصر تتحسن علمياً ومالياً.

ولكن الجيش الانكليزي لا يزال محتلاً، والنفوذ الانكليزي لا يزال باقياً، ولذلك فإن المصريين لا يزالون يسعون في نيل جميع حقوقهم الوطنية.

خاتمة

لقد انتهى كتابك أيها الفتى :

ولا بد أنك عرفت من الدروس التي قرأتها أن أمتك العربية أمة قديمة جداً، كان لها تاريخ زاهر قبل الإسلام، وأن بلاد سوريا والعراق وفلسطين كانت دائماً عربية، غاصة بالقبائل العربية، وأن الدين الإسلامي الذي جاء به النبي العربي «محمد بن عبدالله» عليه السلام قد قواها، وجعلها أعظم مما كانت، وأصبح هو مجدها الذي تفاخر به، وشرفها الذي تنسب إليه. وصار لها اسم خالد لن يزول من هذه الدنيا.

ولا بد أنك عرفت أن الأمة العربية كان لها دول عظيمة، وملوك عظام ورجال مخلصون، خدموها خدمات جليلة، ففتحوا نصف الدنيا القديمة، ونشروا فيها دينهم الإسلامي، ولغتهم العربية، ورقوا أمتهم حتى جعلوها من أعظم أمم الأرض، واهتموا للعلم والعمران اهتماماً عظيماً، فتركوا آثاراً جليلة لا تزال باقية إلى اليوم، تدل على ما وصلوا إليه من قوة وعلم وعظمة ومجد.

ولا بد أنك عرفت أيضاً أنه تقلب على أمتك أدوار، كانت فيها قوية عزيزة حيناً، وضعيفة ذليلة حيناً آخر. كانت قوية عزيزة حينما كان رجالها متحلين بالأخلاق الشريفة، محبين لأوطانهم وأمتهم، مهتمين لمصالحها، بعيدين عن الخصام والنزاع والتفرق. وكانت ضعيفة ذليلة، حينما كان رجالها سيئي السيرة والأخلاق، لا يهتمون إلا لمنافعهم وأغراضهم ومناصبهم، مهملين لواجباتهم نحو أوطانهم وأمتهم، يكيد بعضهم ببعض، ويضر بعضهم بعضاً.

ولا بد أنك عرفت أن أمتك اليوم متأخرة عن أمم الغرب في العلم والقوة والمدنية، وأنها بسبب ذلك قد ضعفت وانحطت، ووقعت في الذل والهوان، وتحت سيطرة الأجانب. فما هي واجباتك أيها الفتى؟

ان الإنسان يقرأ التاريخ لا ليعرف حوادثه فقط، بل ليعتبر وليعمل، فيتجنب الضار، ويتبع النافع. فما هو الواجب الذي يترتب عليك؟

أمتك عظيمة فيجب أن تفاخر بها، وتسعى لتعود إلى عظمتها كما كانت.

من أمتك رجال عظماء. كانوا أشرافاً في أخلاقهم، مخلصين في أعمالهم، صادقين في أقوالهم.

ضحوا أموالهم وأنفسهم في سبيل شرف أمتهم وعزتها ومنافعها. فيجب عليك أن تذكرهم بالخير، وأن تعظمهم، وأن تقتدي بهم. فتكون شريف الأخلاق، صادقاً في القول، مخلصاً في العمل، غير مقصر في التضحية التي يتطلبها منك وطنك في سبيل عزته وشرفه.

من أمتك أناس كانوا سيئي الأخلاق، غير مخلصين في أقوالهم وأعمالهم. ولم يهتموا إلا لأغراضهم ومآربهم. فكانوا مضرين لأمتهم وبلادهم. فيجب عليك أن تتجنب الصفات السيئة التي كانوا متصفين بها.

قويت أمتك وعظمت حيناً من الدهر بالاتحاد والتعاون والتضحية، فيجب أن تكون أنت ورفاقك متحدين قلباً واحداً ويداً واحدة، وأن تتعاون معهم دائماً على البر والتقوى وخدمة الأمة والوطن، وأن تتساهل معهم فتكظم غيظك. وتعاملهم بالرفق والمسالمة والمعروف، وأن تقدم كل تضحية يتطلبها منك وطنك وكرامة أمتك، غير حاسب للفقر أو للتعب أو الموت حساباً.

اذكر دائماً أن بلادك الصغيرة ليست هي كل البلاد العربية، وأن أهلها ليسوا هم جميع الأمة العربية. أحب بلادك واخدمها، واهتف دائماً بحياتها، ولكن أذكر دائماً أن جميع بلاد العرب هي بلادك، وأن من يتكلم باللغة العربية هم قومك وأمتك. أحبهم أيضاً واخدمهم وساعدهم وتعاون معهم. ولتكن غايتك أن تصبح بلاد العرب من أحسن بلاد الأرض، وأن تصبح الأمة العربية من أعظم أمم الأرض.

المراجع

اكتفى الأستاذ محمد عـزة دروزة، بذكر المراجع التي اعتمد عليها، في الصفحة الثانية من كتابه. دون أن يشير إلى الناشر ومكان النشر والصفحة. وقد تركنا أسماء المراجع التي اعتمد عليها في مكانها، ولكنّا وجدنا ضرورياً أن نقدم المراجع اللازمة، لمن يريد دراسة القضـايا موضوع البحث. واخترنا المـراجع الجـديدة والمتـوافرة، بـالإضافـة إلى المراجـع العربيـة التقليدية. سجلنا في نهاية كل مرجع أضفناه، إشارة إلى «المحرر».

(المحرر)

هوامش الفصل الأول

(١) حول الساميين ولغاتهم، انظر: محمد عزة دروزة، **تاريخ الجنس العربي**، ٨ ج في ٦ مج (صيدا؛ بيروت: المكتبة العصرية، [د.ت.])، ج ١، ٢، ٣ و ٤؛ فيليب حتي، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة جورج حداد وعبدالكريم رافق (بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٢)، ج ١، ص ٦١ ـ ٢٣٨؛ نسيب وهيبة الخازن، **من الساميين إلى العرب** (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩)، ورمضان عبد التواب، **فصول في فقه اللغة العربية**، ط ٢ (القاهرة: مكتبة الخانجي؛ الرياض: دار الرفاعي، ١٩٨٣)، ص ٢٣ ـ ٤٩. انظر ايضاً: جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ٩ ج (بيروت: دار العلم للملايين؛ دار النهضة العربية، ١٩٧٦)، ج ١، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥. (المحرّر)

(٢) دروزة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٠ ـ ٤٥. انظر ايضاً: عبد العزيز سالم، **تاريخ الدولة العربية: تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الأموية** (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧١)، ص ٥١ و ٥٨. (المحرّر)

(٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار صادر، ١٩٦٥)، ج ١، ص ٤٣١ ـ ٤٤٧، وسالم، المصدر نفسه، الفصل ٢: «اليمن في ظل الأحباش والفرس،» ص ٧٥ ـ ٩٤. (المحرّر)

(٤) حتي، **تارخ سورية ولبنان وفلسطين**، ص ٤١٦ ـ ٤٣٢. انظر ايضاً: سالم، المصدر نفسه، الفصل ٣: «الأنباط،» ص ١٠١. (المحرّر)

(٥) حتي، المصدر نفسه، ص ٤٣٢ ـ ٤٤٦. انظر ايضاً: سالم، المصدر نفسه، الفصل ٣: «التدمريون،» ص ١١٥. (المحرّر)

(٦) جرجس داود داود (الأب)، **أديان العرب قبل الإسلام: وجهها الحضاري والاجتماعي**، السلسلة الأدبية (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨١)، ص ١١٤ ـ ١٢٤؛ لويس بيار سيديو، **تاريخ العرب العام: امبراطورية العرب، حضارتهم، مدارسهم الفلسفية والعلمية والأدبية**، ترجمة عادل زعيتر (القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٩)، ص ٣٦ ـ ٤٠، وسالم، **تاريخ الدولة العربية: تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الأموية**، الفصل ٤: «المناذرة،» ص ١٥٨. (المحرّر)

(٧) حتي، المصدر نفسه، ص ٤٤٦ ـ ٤٥٢، ومحمد كرد علي، **خطط الشام**، ط ٢ (بيروت، ١٩٦٩)، ج ١، ص ٦٦. انظر ايضاً: سالم، المصدر نفسه، الفصل ٤: «الغساسنة،» ص ١٣٩. (المحرّر)

(٨) حتي، المصدر نفسه، ص ١٠٤ ـ ١٣٥.

(٩) لم يسكن الفينيقيون سواحل سورية فقط، بل سكنوا أيضاً سواحل المغرب العربي وجزر البحر الأبيض المتوسط، وهم في الأصل من الجزيرة العربية. وهذا ما يؤكده محمد عزة دروزة في كتابه: **تاريخ الجنس العربي**، ج ١، ص ٤٧ ـ ١٣١. انظر ايضاً: شارل أندري جوليان، **تاريخ افريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٦٩)، «البربر،» ص ٦٣؛ «اللغة الليبية،» ص ٧٨ و ٨٣، وأحمد بن عامر، **تونس عبر التاريخ** (مكتبة النجاح، ١٩٦٠)، ص ١٥. (المحرر)

(١٠) لطفي عبد الوهاب يحيى، **العرب في العصور القديمة** (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٩)، ص ٢٩٢ ـ ٣٠٢.

(١١) حول قريش، وأسرة الرسول، والرسول منذ ولد الحران بعث، انظر: حسن ابراهيم حسن، **تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، ط ٧ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤)، ج ١، ص ٤٤ ـ ٤٩ و ٧٥ ـ ٧٧. انظر ايضاً حول قريش: محمد شفيق غربال، **الموسوعة العربية الميسّرة** (دار الشعب؛ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٥)، ص ١٣٧٨، وسالم، **تاريخ الدولة العربية: تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الأموية**، الفصل ٦: «سيرة النبي (صلعم)،» ص ٣٠٩. (المحرّر)

(١٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مج ٢، ص ٣٧ ـ ٣٢٤، وحسن، المصدر نفسه، ص ٧٨ ـ ١٥٢.

انظر ايضاً: سالم، المصدر نفسه، ص ٣١٥ و ٣٤١ ـ ٤٠٢. (المحرّر)

(١٣) ابن الأثير، المصدر نفسه، مج ٢، ص ٣٢٥ ـ ٤٢٤، وحسن، المصدر نفسه، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(١٤) ابن الأثير، المصدر نفسه، مج ٢، ص ٤٢٥ ـ ٥٧٠، ومج ٣، ص ٥ ـ ٧٧، وحسن، المصدر نفسه، ص ٢٠٧ و ٢١١ ـ ٢٤٦.

(١٥) ابن الأثير، المصدر نفسه، مج ٣، ص ٧٩ ـ ١٨٨، وحسن، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٥٢ ـ ٢٦٣.

(١٦) حسن، المصدر نفسه، ص ٢٦٥ ـ ٢٧٢.

(١٧) مؤتة: وقعت في جمادي الأول من سنة ثمان للهجرة، قادها زيد بن حارثة. انظر بهذا الشأن: ابن الأثير، المصدر نفسه، مج ٢، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(١٨) حسن، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤٧ ـ ٣٥١.

(١٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٧.

(٢٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٣، وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مج ٢، ص ٤١٠.

(٢١) حسن، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٨، وكرد علي، **خطط الشام**، مج ١ ـ ٢؛ ج ١، ص ٨٥.

(٢٢) كرد علي، المصدر نفسه، ص ٨٧ ـ ٩٠. ومن الملاحظ أن الأستاذ محمد عزة دروزة اختصر الحديث عن فتح الشام، فلم يتحدث عن فتح حمص وشيزر والمعرّة وبعلبك وصيدا وبيروت... إلخ. انظر ايضاً: أبو عبدالله بن عمر الواقدي، فتوح الشام، قدم له عمر أبو النصر (بيروت: منشورات المكتبة الأهلية، ١٩٦٦)، يراجع «فتح قنسرين» ص ١٠١، و«حمص»، ص ١٢٨، و«الرستن»، ص ١٣٤، و«حلب»، ص ٢٢٩، و«عزاز»، ص ٢٥٨. (المحرّر)

(٢٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مج ٢، ص ٤١٧، والهيثم الأيوبي، **الموسوعة العسكرية** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، ج ١، ص ٣٠. وقد وقعت في اجنادين معركتان: الأولى سنة ١٣ للهجرة والثانية سنة ١٥ للهجرة، أي سنة ٦٣٤ و ٦٣٦ للميلاد. قاد الأولى خالد بن الوليد، والثانية عمرو بن العاص، وقد انتصر العرب في المعركتين. انظر ايضاً: الواقدي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٩، وهو يتناول معركة أجنادين الأولى. (المحرّر)

(٢٤) ابن الأثير، المصدر نفسه، مج ٢، ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠. يرى ابن الأثير أنها فتحت سنة ١٥ أو ١٦ وليس ١٧ هـ. وحسن، **تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، ج ١، ص ٢٣١، وهو يذهب مذهب ابن الأثير بشأن تاريخ فتح القدس، أي سنة ١٦ هـ أو أواخر سنة ١٥ (٦٣٥ م).

(٢٥) حسن، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٢ ـ ٢٤١، وابن الأثير، المصدر نفسه، مج ٢، ص ٥٦٤.

(٢٦) حسن، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٧ ـ ٢٢١، وابن الأثير، المصدر نفسه، ص ٣٨٤ ـ ٤٠٠، ٤٣٨ ـ ٤٤٨، ٤٥٠ ـ ٤٨٤ و ٥٠٩ ـ ٥٢٥. وبشأن معركة القادسية، انظر: صبحي عبد الحميد، **معارك العرب الحاسمة** (الكويت: منشورات مكتب المنار للتوزيع، ١٩٦٧)، ص ٦٣ ـ ١٠٢.

(٢٧) حسن، المصدر نفسه، ج ١، يراجع «النظام السياسي»، ص ٤٢٨؛ «النظام الاداري»، ص ٤٤٤؛ «النظام المالي»، ص ٤٦٨؛ «النظام الحربي»، ص ٤٧٧، و«النظام القضائي»، ص ٤٨٤.

(٢٨) حسن، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٦ ـ ٣٤٢، وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مج ٣، ص ٤٠٤ ـ ٥٢٥، ومج ٤.

(٢٩) حسن، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٨ ـ ٣٢٠.

(٣٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٠ ـ ٣٠٦.

(٣١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٨ ـ ٣٢١، وعبد الحميد، **معارك العرب الحاسمة**، ص ١٤٣ ـ ١٦٠، ويصف المؤلف دخول العرب الأندلس ومعركتهم الحاسمة فيها التي تدعى معركة كَلّة، سنة ٧١١.

(٣٢) حسن، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٧٥ ـ ٣٩٠، وج ٣، ص ٣.

(٣٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٩٧ - ٤٠٧، وج ٢، ص ١، وأحمد أمين، ظهر الاسلام، ج ٤، الباب ٣: «الشيعة»، ص ١٠٩.

(٣٤) حسن، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣.

(٣٥) المصدر نفسه.

(٣٦) المصدر نفسه، ج ٢، يراجع: «البرامكة»، ص ٥٣؛ «النظام المالي»، ص ٢٧٧ - ٢٨٩؛ «النظام القضائي»، ص ٢٩١ - ٢٩٩؛ «الحالة الاقتصادية»، ص ٣٠٣ - ٣١١، و «الثقافة»، ص ٣٢٠ - ٣٥٣.

(٣٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤٢ - ٢٤٩.

(٣٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٢٧.

(٣٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢١٢.

(٤٠) المصدر نفسه، ج ٢، «ظهور العنصر التركي»، ص ١٩٢.

(٤١) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الشيال (لجنة أحياء التراث الاسلامي، ١٩٦٧).

(٤٢) إبراهيم سلمان الكروي، البويهيون والخلافة العباسية (الكويت: مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ١٩٨٢)، وحسن، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج ٣، ص ٣٧ - ٦٢.

(٤٣) حسن، المصدر نفسه، ج ٣، يراجع: «الحمدانيون في الموصل»، ص ١١٣ - ١١٨، و «الحمدانيون في حلب»، ص ١٢٠ - ١٢٣.

(٤٤) المصدر نفسه، ج ٤، «العصر السلجوقي»، ص ١٠ - ٥٨.

(٤٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ط ٢ (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١)؛ بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الشيال (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤)، والعماد الكاتب الاصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبيح (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥).

(٤٦) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ١٥١٦ - ١٩١٦ (دمشق: مكتبة أطلس، ١٩٧٤).

(٤٧) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٤)، ج ٢، «الدولتان المرابطية والموحدية»؛ ج ٣ و ٤، «الدولة المرينية».

(٤٨) أنطون خليل ضومط، الدولة المملوكية: التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، ١٢٩٠ - ١٤٢٢، السلسلة التاريخية (بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٠). انظر ايضاً: السيد الباز العريني، المماليك (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٩). (المحرّر)

(٤٩) جرجي زيدان، تاريخ مصر الحديث: من الفتح الاسلامي حتى الآن، ط ٢ (القاهرة: مطبعة الهلال، ١٩١١)، ج ٢، ص ٨١ - ١٤٣. (المحرّر)

(٥٠) عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد علي؛ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، ط ٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٥)، ج ٤: الاسلام في القرن التاسع عشر، ص ٩ - ٣٥، وزيدان، المصدر نفسه، ص ١٤٧ - ١٩٥. (المحرّر)

(٥١) عبدالرحمن الرافعي، عصر اسماعيل، ط ٢، ٢ ج (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨). (المحرّر)

(٥٢) زيدان، المصدر نفسه، ص ٢٣٥ - ٢٦٩؛ صلاح عيسى، الثورة العرابية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢)، وعبدالرحمن الرافعي، الثورة العرابية والاحتلال الانكليزي، ط ٣ (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦). (المحرّر)

(٥٣) رأفت الشيخ، في تاريخ العرب الحديث (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٧)، «الثورة

المهدية، ٣٠٩ ـ ٣٤٩، و«الاستعمار الانكليزي في مصر والسودان، ٣٦٥ ـ ٣٧١»، واللورد كرومر، **بريطانيا في السودان**، ترجمة عبد العزيز عرابي (القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٠). (المحرّر)

(٥٤) صلاح العقاد، **المغرب العربي: الجزائر، تونس، المغرب الأقصى**، ط ٣ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩). (المحرّر)

(٥٥) بروكلمان، **تاريخ الشعوب الاسلامية**، ج ٤، ص ٦٣ و ٨٠. (المحرّر)

(٥٦) محمد عزة دروزة، **نشأة الحركة العربية الحديثة**، ط ٢ (صيدا؛ بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧١). (المحرّر)

(٥٧) بروكلمان، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣ ـ ٣١، ٣٢ ـ ٦٨، ٦٩ ـ ٨٧ و ٨٨ ـ ١٢٩. وتتناول: نتائج الحرب على الامبراطورية العثمانية ومصر وشبه جزيرة العرب وسورية وفلسطين وشرقي الأردن والعراق.

الفَصْلُ الثَّاني
مُخْتَاراتٌ مِنْ كِتَاب
«تَارِيخ الجِنْسِ العَرَبِيّ»

هذه مقدمة كتاب تاريخ الجنس العربي. وقد احتلت الصفحات (٣ ـ ٢٣) من الجزء الأول، وقد رأينا أن نقدم أجزاء الكتاب، وموجز مشتملاتها، لاعطاء القارىء فكرة عن الكتاب.

(المحرر)

أجزاء الكتاب وموجز مشتملاتها

اقترح الناشر أن ينشر الكتاب أجزاء صغيرة يشتمل كل جزء منها على فصل أو فصلين ليسهل طبعة وانتشاره.

ونزل المؤلف على رأيه فجعل الكتاب اثني عشر جزءاً وهذا موجز مشتملاتها:

الأول: مقدمة الكتاب وأبحاث تمهيدية في نشأة الجنس العربي ومصادر تاريخه ومآثره فيها قبل دور العروبة الصريحة.

الثاني: الموجات العربية إلى وادي النيل ومآثرها فيه قبل العروبة الصريحة.

الثالث: الموجات العربية إلى العراق ومآثرها فيه قبل العروبة الصريحة.

الرابع: الموجات العربية إلى بلاد الشام ومآثرها فيها قبل العروبة الصريحة.

الخامس: مظاهر بروز العروبة الصريحة في جزيرة العرب وخارجها وتاريخ العرب ومآثرهم في الجزيرة في هذا الدور.

السادس: الموجات العربية إلى بلاد العراق والشام ومآثرها فيها في دور العروبة الصريحة قبل الاسلام.

السابع: الرسالة الاسلامية وأثرها الخالد في الجنس العربي. والحركة العربية الاسلامية في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين.

الثامن: الحركة العربية الاسلامية في عهد الدولة الأموية الشامية والدولة الأموية الأندلسية.

التاسع: الحركة العربية الاسلامية في شمال أفريقية في ظل الدول العربية والبربرية إلى اليوم مع توزع القبائل العربية.

العاشر: الحركة العربية الاسلامية في ظل الدولة العباسية والدول غير العربية التي قامت في بلاد الشام والعراق ومصر في ظلها وبعد زوالها.

الحادي عشر: الدول والإمارات والأسر الاقطاعية العربية التي قامت في بلاد الشام والعراق في ظل السيادة التركية.

الثاني عشر: تموج القبائل العربية وتوزعها في بلاد العراق والشام ووادي النيل وما كان لها من مظاهر بروز في ظل السيادة التركية وبعدها.

الثالث عشر: جزيرة العرب ودولها وقبائلها في العهد الاسلامي إلى اليوم ونشوء الدول العربية الحاضرة في بلاد الشام والعراق ووادي النيل ومظاهر تطورها مع ملحق برسالة الجنس العربي في الدنيا.

وسيتراوح عدد صفحات الأجزاء بين ١٢٠ و ٢٥٠ صحيفة ومن الله العون والتوفيق.

أولاً: المقدمة

- ١ -

يحتل الجنس العربي مكاناً فريداً بين الأجناس البشرية القائدة الهادية، ذات الحيوية العظيمة.

ولقد اختصه الله برسالته الداعية إليه، المرشدة إلى الحق والخير وصلاح الانسانية، فكان من آثارها اعتناق النصف المتمدن من البشر لها.

ولقد ازدهرت حضارته وثقافته، فشعّت على الكون، وأمدت البشرية بنورها الوهاج وما تزال.

ولقد كانت رسالة الاسلام التي جاءت رسالة الانسانية الكاملة الشاملة، واحتوت من المبادىء والحوافز ما يكفل سعادة البشر وصلاحهم وهدايتهم، ما دامت الدنيا ذات أثر عظيم فيه بنوع خاص، فطبعته بطابعها المقدس الخالد، وأثارت حيويته على أعظم مقياس، وجعلته يحرر

تحت رايتها أقطاراً شاسعة، امتدت في الغرب حتى بلغت البحر الأطلسي، وشملت جميع شمال أفريقية، وقسماً من جنوب أوروبا وغربها وتهيأ للتوغل فيها، وفي الشرق حتى بلغت الهند والصين، وتهيأ للتوغل فيهما كذلك. وشملت بعض أقسامهما، بالاضافة إلى جميع بلاد الأفغان والبلوج وإيران وتركستان وبلاد الشام والعراق وجزيرة العرب وجنوب الأناضول، وفي الشمال حتى بلغت بحر قزوين وما وراء القفقاس، وفي الجنوب حتى شملت معظم وادي النيل، ويخرج أهلها من الظلمات إلى النور، ويصبغها بصبغة الاسلام والعروبة؛ ولو طال عمر الدولة الأموية الشامية الذي انقصف من غير انحلال بسبب المآرب الشخصية لفريق من العرب، وتآمره مع الحاقدين والموتورين من العناصر الأعجمية، مما أدى إلى اندحار العرب عن القيادة وإضعافهم، لكان من المحتمل جداً أن يتسع النطاق حتى تشمل رسالة الإسلام والعروبة جميع المعمور، ويتغير مجرى التاريخ.

ولقد كان هذا الجنس يتعرض من آن لآخر، وقبل الاسلام وبعده، لخطوب وهجمات وزحف، فتساعده حيويته العظيمة على الصمود لها والتغلب عليها. وها هو اليوم يستيقظ من هجعته، ليستأنف نشاطه ورسالته.

فهو من كل اعتبار جدير بأن يعتني بتاريخه أعظم عناية، ليكون فيه العظة والقوة والمدد لناشئته في دور يقظته الحديثة.

ولقد كتب في الخمسين سنة الأخيرة فضلاً عما قبلها كتب كثيرة في تاريخ هذا الجنس قبل الإسلام وبعده. ولكن لم يأت أي منها سلسلة تامة الحلقات، ينتظم فيها أطراف هذا التاريخ من فجر التاريخ إلى اليوم، ويبرز فيها خصائصه ومآثره في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار.

وقد رأينا من المفيد، بعد أن أصدرنا سلسلة كتابنا «حول الحركة العربية الحديثة»، أن نكتب كتاباً جامعاً باسلوب يسد هذا النقص، ويصل الحركة العربية القديمة بالحركة العربية الحديثة.

ولقد كتبنا منذ ثلاثين سنة بعض الفصول في تاريخ الجنس العربي، بعنوان «نظرات في النزاع العنصري بين العرب وغيرهم»، وكانت الخطة التي رسمناها أن تكون هذه الفصول كتاباً، يتناول تاريخ العرب وموجاتهم ومآثرهم، وما سجل التاريخ من حركاتهم ونشاطهم وصلاتهم ونزاعهم مع العناصر الأخرى، قبل الإسلام وبعده، إلى آخر الدولة العباسية؛ ثم شغلتنا الشواغل عن إتمام الفصول كتاباً ونشره.

وقد رجعنا إلى تلك الفصول منذ سبع سنين، فوجدنا كثيراً منها ما يزال صالحاً للنشر، ومفيداً ومتسقاً في الوقت نفسه، مع الفكرة التي رأيناها؛ فعكفنا منذئذ على إعادة النظر في هذه الفصول على ضوء ما كان لنا من تتبعات، وصار لنا من معارف وآراء جديدة، وأعدنا كتابتها بتوسع وتسلسل، حتى اتسق منها هذا الكتاب الذي اشتمل على ثلاثة أقسام، يتناول **أولها** مآثر ونشاط الجنس العربي في جزيرة العرب وخارجها، قبل أن يكتسب شخصيته العربية الصريحة

بصورة حاسمة، أو بعبارة أخرى قبل أن تصبح العربية الصريحة لغة له واسم العرب علماً عليه؛ ويتناول ثانيها مآثر ونشاط هذا الجنس في الجزيرة وخارجها، بعد أن اكتسب شخصيته العربية الصريحة قبل الإسلام؛ ويتناول ثالثها مآثر ونشاط هذا الجنس في الجزيرة وخارجها كذلك بعد الإسلام إلى يومنا هذا.

ومن الحق أن نقول إن الكلام على الأقسام الثلاثة التي تناولها الكتاب، يتحمل سلسلة ضخمة من الأجزاء إذا أريد له أن يكون وافياً. لأنه تاريخ آلاف السنين في أقطار عديدة شاسعة. غير أننا جنحنا إلى الاقتضاب فيما هو غير ذي طائل من المادة التاريخية، ولا يتصل بمقصدنا الذي نوهنا به آنفاً، وخاصة في ما هو معروف ومشهور منها، واكتفينا بالمامات، حرصنا على أن تكون مع ذلك وافية ما أمكن، لتتبع تاريخ الجنس العربي وأدواره وأطواره ومآثره وصلاته بمختلف الأجناس والأقطار والحركات، من أقدم الأزمنة إلى الآن.

ومن الحق أن نقرر كذلك أن القارىء قد لا يجد في مادة الكتاب التاريخية شيئاً جديداً، لأن معظمها مقتبس من كتب المؤرخين والباحثين في التاريخ العام والخاص، وتاريخ العرب والإسلام بنوع خاص. وهو أمر طبيعي لأن مادة التاريخ لا تتجدد، ولأن الذين يكتبونه من جديد، إنما يقتبس بعضهم عن بعض من الناحية الموضوعية.

وقد توسعنا في القسم الثالث بعض الشيء للفائدة التي رأيناها لذلك، من حيث إن مآثر الجنس العربي بعد الإسلام وتاريخه ونشاطه، كان وما يزال ذا صلة وثيقة بحياة العرب الحاضرة على اختلاف مظاهرها الدينية والاجتماعية والأخلاقية والقومية. وقد شرحنا في سياق ذلك مشاهد النزاع والصلات بين العرب والأمم الأخرى التي اتصلت بهم بالحرب والحياة السياسية والاجتماعية والدينية، وما انبثق عنها من آثار وحركات ومظاهر لادراك أسباب ما ألم بالعرب وبلادهم طيلة الحقبة الطويلة التي أعقبت الدور الذهبي من عهد الدولة العباسية، ومظاهر ومشاهد حيوية الجنس العربي التي ساعدته على الصمود أمام تلك الآثار والحركات والمظاهر.

وقد جعلنا الحذر رائدنا في ما اقتبسناه من الكتب المتنوعة التي استندت فيما سجلته من أحداث على الروايات. وقد حرصنا على هذا خاصة إزاء ما جاء في الكتب التي كتبت عن تاريخ صدر الإسلام، واحتوت كثيراً من التناقض والأهواء، وعلقنا على نقاط كثيرة بما رأينا حقاً، ومن شأنه أن يضع الأمور في نصابها.

والجديد في الكتاب هو **أولاً**: جمع وتنسيق أطراف تاريخ الجنس العربي ومآثره وحركاته، وإبراز حيويته وخصائصه في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار، وقبل بروز الشخصية العربية الصريحة وبعدها، وقبل الاسلام وبعده، وعرض ذلك بعنوان الجنس العربي في نسق واحد متسلسل، قائم على نظرية وحدة هذا الجنس، ووجوب جعل ذلك أساساً لكتابة تاريخه. **وثانياً**: ما عنّ لنا من آراء واستنتاجات وخواطر وتعليقات وتصويبات خاصة بسبيل ذلك. **وثالثاً**: اشتماله على سلسلة متصلة الحلقات لتاريخ الدول والامارات العربية والإسلامية التي قامت في

مختلف أنحاء الوطن العربي، مستقلة أو تحت سيادة أخرى، وخاصة الامارات العربية الاقطاعية التي قامت في بلاد العرب في ظل السيادة التركية، منذ القرن الهجري الرابع. ورابعاً: اشتماله كذلك على سلسلة متصلة الحلقات لحركة القبائل العربية من بعد الاسلام إلى اليوم، وانتشارها وتوزعها في مختلف أنحاء البلاد العربية. والسلسلتان هاتان خاصة، لم تجتمعا في كتاب واحد، ونسق واحد، إلى الآن فيما نعلم.

وكل هذا مما يحقق القصد الذي قصدنا إليه، ومما يجعل الكتاب، كما نرجو، مفيداً لمن يريد أن يلم بمختلف حلقات وحركات وتاريخ ومآثر الجنس العربي، من أقدم الأزمنة إلى الآن متصل بعضها ببعض، وخاصة من الناشئين وغير المتخصصين والمتفرغين الذين هم جمهرة القراء والمثقفين، والذين لا يجدون الحافز والوقت للاطلاع على المطولات، ولا سيما الغربية القديمة التي كتبت بأسلوب من العسير على الكثيرين أن يستسيغوه اليوم.

ونحب أن نستدرك أمراً مهماً، وهو أننا حينما نقول «الجنس العربي» لا نقصد المعنى الفني الدقيق الذي يتميز به جنس بشري عن جنس آخر بخصائص جسمانية في الدرجة الأولى. مما كاد أن يكون غير قائم منذ الأزمنة التاريخية المعروفة، بسبب ما حدث من هجرات الأمم وتمازجها دماً ومصاهرة وتقاليد وعادات ولغة وأفكاراً، وإنما نقصد به المجموعة البشرية التي عاشت في جزيرة العرب، منذ أقدم الأزمنة التاريخية المعروفة، وتشاركت في اللغة والأفكار والتقاليد، حتى صارت بها جنساً واحداً؛ فلما أخذ ينساح من هذه المجموعة موجات إلى المناطق المجاورة للجزيرة، كان ذلك التشارك قد تم بينها ثم ظل قائماً.

وهذا لا يتعارض كما هو واضح مع احتمال كون المهد الأول لنواة هذه المجموعة ليس جزيرة العرب، على ما يقرره بعض الباحثين[١]، ولا مع احتمال تكون هذه المجموعة في عصور ما قبل التاريخ من عناصر أفريقية وآسيوية، على ما يقرره بعض الباحثين كذلك[٢]. وكل هذا بقطع النظر كذلك عن احتمال تكون تلك المجموعة البشرية في جزيرة العرب قبل الأزمنة التاريخية بمدة طويلة، وعن احتمال انسياح موجات منها إلى الأقطار المجاورة لها، ثم إلى ما ورائها قبل الأزمة التاريخية، وتوطنها فيها كشمال أفريقية مثلاً، مما لا سبيل إلى معرفته معرفة يقينية، والكلام عنه بعلم ووثوق.

- ٢ -

والبند الأول من الجديد في الكتاب خاصة، يهدف فيما يهدف، إلى تصحيح الخطأ المشهور الذي يفصل تاريخ الأقوام أو الموجات التي انساحت من جزيرة العرب إلى الأقطار المجاورة لها، قبل اكتساب الجنس العربي شخصيته العربية الصريحة، عن تاريخ الجنس العربي، وإلى عرض هذين التاريخين سلسلة واحدة متصلة الحلقات، على اعتبار أنهما تاريخ جنس واحد.

وهذا منحى جديد في كتابة التاريخ العربي، نعتقد أنه الأوجه والأكثر اتساقاً مع المنطق والعلم. فجزيرة العرب لأسباب جغرافية واجتماعية واقتصادية؛ مما يدخل في نطاق ذلك الجفاف والجدب والمنازعات القَبَلية على الماء والكلأ والزعامة الخ. كانت وظلت منذ أقدم الأزمنة التاريخية يقيناً، وقبلها احتمالاً وقياساً، ترسل موجاتها إلى الأقطار المجاورة لها شمالاً وجنوباً، ونعني وادي النيل والهلال الخصيب الذي يتكون من بلاد الشام والعراق، فتنتشر فيها، وتنشىء المدن والقرى والدول، وتبدي نشاطاً في مختلف المجالات. وكانت متشاركة في اللغة والأفكار والملامح والطبائع.

وظل هذا التشارك قائماً بينها في مختلف الأطوار والأدوار، مما تؤيده الآثار والوقائع والشواهد، وتقريرات العلماء والباحثين، على ما سوف نشرحه بعد؛ حيث يبرر كل هذا اعتبارها جنساً واحداً، وعرض تاريخها في سلسلة واحدة. وفي ذلك تصحيح للتوجيه التاريخي، وتدليل على امتداد عروبة هذه الأقطار الحاضرة، إلى عشرات القرون قبل الإسلام، وإحباط لمكر المستعمرين والمبشرين والمستشرقين المغرضين، وأعداء العروبة الذين تتجاوز مكابرتهم كل حد ومنطق، فيتجاهلون السيل العربي الصريح الذي أخذ يتدفق على بلاد العراق والشام قبل الإسلام، وعليها وعلى وادي النيل منذ الفتح الاسلامي إلى الآن دون انقطاع، ويغمر مدنها وقراها وبواديها، استمراراً لما كان يجري قبل دور العروبة الصريحة، والذي تفوق أعداده أعداد سكان هذه البلاد أضعافاً مضاعفة، والذي يتمثل في كل ناحية من أنحاء هذه البلاد، وفي كل مظهر من مظاهر حياتها وتقاليدها ولغتها تمثلاً شاملاً قوياً؛ ويحاولون فصل تاريخ سكانها القدماء عن تاريخ الجنس العربي، ليوقروا في أذهان سكانها الحاضرين وهن الصلة بينهم وبين العروبة الأصيلة، وليجعلوهم يعتبرون العرب الذين جاءوا إلى هذه الأقطار تحت راية الاسلام غزاة كسائر الغزاة الذين طرأوا عليها، ووطدوا حكمهم فيها بالقوة العسكرية وحسب، وكون ما هنالك من فرق، هو أنهم أعطوا هذه البلاد دينهم ولغتهم، كما كان وما يزال يبث همساً تارة وصراحة تارة أخرى في مصر وبعض أنحاء بلاد الشام، وخاصة في لبنان.

ولقد حكم اليونان والرومان مصر وبلاد الشام ألف سنة (٣٣١ ق م. ٦٤٠ ب م). وجاء منهم إليهما، وخاصة من اليونانيين الآلاف المؤلفة، واستقروا فيها، ونشروا لغتهم وثقافتهم؛ وقد جمع بينهم وبين سكانهما دين واحد، هو المسيحية، قرابة أربعة قرون. وترجمت إلى اليونانية الكتب الدينية المقدسة، وصارت لغة عبادة وطقوس لكثير من النصارى فيهما، ومع ذلك فإنهم لم يستطيعوا أن يفرضوا على مصر وبلاد الشام طابعهم وصبغتهم، بل لقد كان جمهرة أهلهما يرونهم غرباء عنهم، وينقبضون عن معاشرتهم ويعتبرونهم أنجاساً[٣]؛ وكذلك شأن الفرس الذين كانت لهم السيادة على العراق أكثر من ألف عام ٥٣٨ ق م ـ ٦٤٠ ب م. وكان لمدنيّتهم وثقافتهم انتشار واسع، حتى لقد مجسوا كثيراً من أهل البلاد، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفرضوا عليها طابعهم وصبغتهم؛ في حين أن الموجات العربية الصريحة العروبة التي جاءت إلى بلاد الشام والعراق في حكمهم، ورضخ ملوكها لسيادتهم العليا، أخذت تفرض طابعها على

البلاد، وتمتزج بأهلها بسهولة ويسر، ثم جاءت موجة الفتح الكبرى تحت راية الإسلام إلى بلاد الشام والعراق ومصر، فأخذ التمازج يشتد بينها وبين السكان السابقين، ولم يكد يمضي بضعة أجيال، حتى توطدت السيادة في هذه البلاد للطابع العربي الصريح، وغدا شاملاً عاماً.

وليس هناك تعليل معقول لهذه الظاهرة، إلا صدق نظرية وحدة الأرومة والدم والروح التي كانت تجمع بين القادمين من جزيرة العرب في دور العروبة الصريحة قبل الاسلام وبعده، وبين سكان بلاد الشام والعراق ومصر الذين يمتون في أصولهم إلى جزيرة العرب والجنس العربي؛ حيث سهلت تلك الوحدة ذلك التقارب والتمازج، وسيادة الطابع العربي العامة على هذه البلاد.

وإذا كان بدا شيء من المناوأة ضد موجة الفتح من بعض سكان مصر والشام والعراق، أو تمرد على السلطان الإسلامي في أوائل عهده، فمرد ذلك إلى الاعتبارات الدينية والتحريكات الاجنبية، وليس من شأنه إضعاف النظرية. ولقد كان من جملة المناوئين والمتضامنين مع الفرس والرومان في بلاد الشام والعراق قبائل عربية صريحة، من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان في بلاد الشام[٤] وبكر بن وائل وبني العجل وتيم اللاة وضبيعة في العراق[٥] مثلاً.

وإذا كان حقاً أن الذين ظلوا في جزيرة العرب، قد احتفظوا بنقاوة سلالتهم، وأصالة لغتهم أكثر من الذين انساحوا إلى خارجها[٦]؛ وان هؤلاء قد اختلطوا بعناصر وأمم أخرى، ممن كان في الأرض الجديدة التي حلوا فيها، وبمن جاء إليها بعد حلولهم، واكتسبوا كثيراً من دمائهم ولغتهم وعاداتهم، وبالتالي اكتسبوا شخصية خاصة نوعاًما، فإن هذا ليس من شأنه أن يخرجهم من جنسية العروبة ويجعلهم أمماً غريبة عنها، ويبرر عدم سلك تاريخهم في سلك تاريخ الجنس العربي، أسوة بمن ظلوا مستقرين فيها، بالنسبة للزمن التاريخي الذي عاشوا جميعهم فيه، لأن وجوه التشابه والتشارك بينهم وبين أولئك المستقرين، وفيما بينهم أنفسهم على اختلاف الأقطار التي حلوا فيها وعلى اختلاف الأدوار التي عاشوها كذلك ظلت بارزة.

- ٣ -

وأوصاف التشارك اللغوي خاصة قوية، حتى لتكاد تسوغ وحدها دعوى وحدة الأرومة بين الموجات التي خرجت من جزيرة العرب في مختلف أدوار التاريخ القديم، وبين الذين بقوا في هذه الجزيرة من الجنس العربي. وهو ما لاحظه الباحثون، حيث رأوا وجوه تشابه ظاهرة بين اللغات البابلية والكنعانية والعبرانية والفينيقية والآرامية والعربية، واللهجات العربية الجنوبية والحبشية والنبطية وأمثالها، من حيث انها تشترك أو تتقارب في جذور الأفعال، وفي تصاريف الأفعال، وفي زمني الفعل الرئيسيين، وهما الماضي والمستقبل، أو التام والناقص، وفي أصول المفردات والضمائر، ولا سيما الدالة على القرابة الدموية، والاعداد وبعض أعضاء الجسم، وفي تغير الحركات وسط الكلمات الذي يحدث تغيراً في المعنى، وفي التعابير التي تدل على

منظمات الدولة والمجتمع والدين، فقالوا بوجود وحدة مشتركة كانت تجمع شمل الأقوام الذين كانوا يتكلمون بهذه اللغات، وأطلقوا على ذلك الأصل أو الوحدة «الجنس السامي»، وعلى اللغات التي تكلمت وتتكلم بها هذه الأقوام «اللغات السامية»(٧).

ولقد جاء في كتاب الأساس للغات والأمم السامية لعطية الأبراشي ورفقاه «بمقارنة اللغات السامية مقارنة لفظية» اتضح للباحثين فيها، أن أصول كلماتها واحدة مشتركة، كثيراً ما يكون معاني هذه الكلمة لا تغير فيها، بمعنى كذا في اللغة العربية مثلاً، وبه نفسه في العبرانية أو السريانية، أو أي لغة سامية أخرى. وفي بعض الكلمات ترى الاشتراك اللفظي مع التحوير في المعنى، بحيث تكون الكلمة في العربية بمعنى، وهي بلفظها في العبرانية أو السريانية بمعنى آخر. غير أن العلاقة بين المعنيين لا تلبث أن تبدو ببحث يسير، وتظهر أن التغير جاء بناء على التطور المعروف في معاني الكلمات. فبالمقارنة اللفظية الفنية أصبح مما لا جدال فيه مطلقاً، أن جميع اللغات السامية الداخلة في مجموعة واحدة، هي لهجات متقاربة جداً، ترجع إلى لغة واحدة، وأن جميع الشعوب التي تتكلم بها، هي فروع جنس واحد، يرجع إلى جماعة أولى هي أصل هذه الفروع. وبمقارنة لغتين من اللغات السامية مقارنة معنوية أدبية، تخرج بنتائج قيمة صادقة في شأن العلاقات التي تربطهما ببعضهما في الشؤون الدينية، وأنواع الصناعات العملية المكونة للحضارة، والنظر العلمي الاجتماعي، والنظر الفلسفي، والمجهود العقلي والتاريخي، في حدود الروايات والأساطير، والمجهود العقلي والأدبي المعبر عن الذوق وسمو الروح(٨).

جاء في كتاب تاريخ اللغات السامية لاسرائيل ولنغستون(٩): تتميز اللغات السامية في بعض أحوالها عن أنواع اللغات الأخرى بميزات وخصائص، تجعل من كل هذه اللغات كتلة واحدة. وأهم تلك الميزات ما يلي:

١ ـ تعتمد اللغات السامية على الحروف الصامتة وحدها، ولا تلتفت إلى الأصوات بمقدار ما تلتفت إلى الصامتة.

٢ ـ أغلب الكلمات السامية يرجع اشتقاقه إلى أصل ذي ثلاثة أحرف أو حرفين.

٣ ـ يسود على اللغات السامية ظاهرة الفعل، لأن اشتقاقات كلماتها هي في الأصل من فعل.

٤ ـ ليس في اللغات السامية أثر لادغام كلمة في أخرى، حتى تصير الاثنتان كلمة واحدة، تدل على معنى مركب، من معنى كلمتين مستقلتين، كما هي الحال في غيرها.

وهذا هو سبب ظهور الاعراب في اللغة العربية. وهناك شيء من بقايا الاعراب في أغلب اللغات السامية.

وتظهر أوجه الشبه في أغلب اللغات السامية، خاصة في الأشياء التي كانت معروفة لهم جميعاً، كأسماء الجسم والضمائر، حيث هي متقاربة في جميعها تقريباً.

وهنـاك آلاف المفردات المتقـاربة في اللفظ والمعنى في اللغـات الأشوريـة والبابليـة والآرامية والعبرانية والكنعانية والسبئية والأثيوبية والمصرية، تؤيد ذلك. كمـا أن هناك آلاف الأعلام في بلاد الشام والعراق ومصر وجزيرة العرب متقاربة في اللفظ والمعنى، وعليها لمحة العروبة القديمة بادية، تؤيد ذلك أيضاً، مما سوف نورد نماذج منه في فصول الكتاب.

ونحن نعرف أن هناك من لا يسلم بأن التشارك اللغوي بين الشعوب المسماة بالساميين، دليل على وحدة الأرومة بينها، ويقيس ذلك على الزنوج في أميركا الذين يتكلمون الانكليزية مثل الأميركيين، في حين أنهم يفترقون عنهم في الجنس يقيناً[١٠]. غير أن هذا منهم تمحل، ومن قبيل القياس مع الفارق، لأن التشارك حينما يكون بين جميع الموجات التي خرجت من الجزيرة واحدة بعد أخرى، خلال حقب طويلة متتابعة، تبلغ آلاف السنين، ثم بينها وبين الذين بقوا في الجزيرة، وهو ثابت بالمقارنة، يصبح دليلاً حاسماً.

ومن هذا القبيل ما يقوله الذين يكابرون وينكرون الصلة بين سكان مصر القدماء، وبين جزيرة العرب والجنس العربي، برغم تقرير كثير من الاختصاصيين في الآثار المصرية والتاريخ المصري[١١] من أن ما في اللغة المصرية من مفردات عربية، لا يصح أن يتخذ دليلاً على وحدة الجنس بين المصريين القدماء والعروبة، لأن ذلك إنما كـان نتيجة للاختلاط الذي وقع بين المصريين والأقوام التي كانت تسكن في الأقطار المجاورة، مما يمت في أصله إلى جـزيرة العرب والجنس العربي، ويشبهون ذلك بما دخل إلى اللغات الانكليزية والافرنسية والاسبانية والتركية والفارسية من ألفاظ عربية، وما دخل إلى اللغة العربية من ألفاظ افرنسية وانكليزيـة واسبانية وتركية وفارسية ورومية، نتيجة لمثل ذلك الاختلاط وظروفه. غير أن الأمر حينما يكون أمر آلاف مؤلفة من الكلمات[١٢]، يكون مثل هذا القول تمحلاً أكثر منه علماً وقياساً، مع الفارق كذلك. إذ لا يمكن أن تصل الكلمات العربية في اللغات الافرنسية والانكليزية والرومية إلى مثل هذه السعة. وقد تكون الكلمات العربية في اللغات الفارسية والتركية والإسبانية استثناء، لأنها تبلغ فعلاً الألوف، وخاصة في الفارسية والتركية اللتين غدت العربية عنصراً أساسياً فيهما لا غنى عنه. وسبب ذلك أن العرب قد بسطوا سلطانهم، وفرضوا طابعهم ولغتهم على بـلاد الفرس والترك، وقسم كبير من بلاد الإسبان وشعوبها، وصار شأن العرب في ذلك كشأنهم الذي نشير إليه في مصر تقريباً كما هو المتبادر.

على أن التشارك في اللغات التي تكلم بها الأقوام الذين خرجوا من جزيرة العرب إلى الأقطار المجاورة لها، والذين بقوا فيها، ليس هو الدليل الوحيد على وحدة الأرومـة والمنشأ بينهم. لأن هذه الأقوام متشاركة أيضاً في العقائد والتقاليد والملامح والأفكار على مـا يقرره الباحثون.

ولقد جاء في الجزء الأول من تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي[١٣] عزواً إلى أبرهود شرادر ودي كويه وهربرت كومه وكارل بروكلمن وكينك وجول ماير وكوك ودتلف نلسن أن معظم المدن والقرى التي تكونت في العراق أو الشام، إنما كونها عناصر بدوية استقرت في

مواضعها، واشتغلت في إصلاح أراضيها وعمرانها، واشتغلت بالتجارة، فنشأت تلك المدن والقرى من ذلك؛ وأنه لما كان أكثر هذه العناصر البدوية قد جاءت من جزيرة العرب، فتكون الجزيرة قياساً على ذلك هي الموطن الذي غذّى الشرق الأدنى بالساميين، وأرسل إليه موجات متوالية منها؛ وان هناك أدلة دينية ولغوية وتاريخية وجغرافية يستند إليها هؤلاء العلماء، في تقرير وحدة الأصل والأرومة والمنشأ بين الشعوب التي تنعت بالسامية.

وقد جاء في هذا الجزء نفسه من هذا الكتاب[١٤]، نقلاً عن فيلبي صاحب الدراسات المسهبة لأحوال جزيرة العرب، إن العربية الجنوبية قد أرسلت موجات متعاقبة من البشر، سلكت الطرق البرية والبحرية، حتى وصلت إلى المناطق التي استقرت فيها. وهاجرت، وقد حملت معها كل ما تملكه من أشياء ثمينة. حملت معها آلهتها، وأولها الإله القمر، وحملت معها ثقافتها وخطها الذي اشتقت منه سائر الأقلام، ومنه القلم الفينيقي، وطبعت تلك الأرضين الواسعة التي حلت فيها بهذا الطابع السامي الذي ما زال باقياً حتى اليوم.

ولقد جاء في كتاب **محاضرات في تاريخ العرب** للدكتور أحمد صالح العلي[١٥]، عزواً إلى رينان، أن الساميين جنس منحدر من أصل واحد مشترك، يتميز أفراده بتشابه لغاتهم، وبتركيب عقليتهم، وبنظرتهم الجزئية للأشياء، وتأثرهم بالغيبيات، وميلهم إلى البساطة في التفكير، والوحدانية في الدين، وأن ظهور الأديان الموحدة الثلاثة الكبرى، أي اليهودية والمسيحية والاسلام بين الساميين، يرجع إلى طبيعة تفكيرهم، وأن هذه الميزات التي تتصف بها العقلية السامية، ترجع إلى عوامل بيولوجية ووراثية في الجنس، وأنهم بذلك يختلفون أساسياً عن الآريين.

وفي نفس الكتاب[١٦]، عزواً إلى ما كتبه كوك في الفصل الرابع من تاريخ كمبردج القديم انه لوحظ تشابه كبير في اللغة والعادات الاجتماعية والأفكار وأساليب الحياة، بين سكان معظم الشرق الأوسط، مما يسوغ الاعتقاد بأن ذلك يرجع إلى تحدرهم من أصل واحد.

ولقد جاء في كتاب **الأساس في الأمم السامية ولغاتها** لعطية الأبراشي ورفاقه[١٧] انه على أي تقسيم قسمت اللغات السامية، فإن الحقيقة الكبرى هي أنها لغات جماعة بشرية واحدة، كونت جنساً بشرياً واحداً، وهو الجنس الذي عرف باسم الجنس السامي، والذي عرفت شعوبه باسم الشعوب السامية، والتي تحضرت في أطراف جزيرة العرب، وفيما وراء هذه الأطراف، مع بقاء وحدة التفكير والخيال جامعة بينها.

فكل هذا وغيره، مما سوف نشرحه، ونقدم الشواهد عليه في الفصول التالية، مبرر قوي لسلك تاريخ الجنس العربي في الجزيرة وموجاته إلى الهلال الخصيب (بلاد الشام والعراق)، وإلى وادي النيل (مصر وأثيوبية الكبرى)، قبل دور العروبة الصريحة، في سلك واحد، كما هو المتبادر.

ولقد سلك جرجي زيدان تاريخ الرعاة والبابليين الذين منهم حمورابي في سلك التاريخ

العربي، وسلك هو وفيليب حتي وجواد علي، بل وجميع من كتب تاريخ العرب، تاريخ الدول والإمارات والشعوب في جنوب جزيرة العرب وشمالها، مع دول الأنباط وتدمر في بلاد الشام في سلك واحد. ولم تكن العربية الفصحى قد غدت لغة لها، بل ولم تكن تتسمى باسم العروبة. وكانت الموجات التي أقامت دولها خارج الجزيرة منها، قد كسبت هي الأخرى شخصية خاصة نوعاً ما في الأرض الجديدة التي استقرت فيها، وتأثرت فيها بمن كان فيها، ومن جاء إليها من غير جنسها. ولا نرى كبير فرق بين ما فعلوه، وما نحن بسبيله.

ولقد كسبت الموجات العربية التي خرجت من جزيرة العرب، إلى بلاد الشام والعراق ومصر وشمالي افريقية، تحت راية الإسلام، شخصية خاصة نوعاً ما هي الأخرى في الأرض الجديدة التي حلت فيها، ولم يفصل أحد من العرب، وغير العرب، تاريخها عن التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده، كما لا يخفى.

- ٤ -

وتسمية الجنس السامي Semitic Race، واللغات السامية Semitic languages، هي تسمية حديثة، وضعها مستشرق نمساوي، اسمه ايشهورن، سنة ١٧٨١ ب. م. نسبة إلى سام بن نوح الذي يذكر سفر التكوين، أن الأقوام الذين عاشوا في جزيرة العرب، والأقطار المجاورة لها، هم من ذريته.

وهي تسمية ليس لها سند من تاريخ وعلم وآثار[١٨]. ومن العجيب أنها انتشرت بين علماء الغرب، وسرت إلى مؤرخي العرب وكتابهم بطريق العدوى الاقتباسية المعتادة، مع أن تسمية الجنس العربي واللغات العربية، هي على كل حال أصح منها؛ لأن موطن الأقوام التي سميت بها، أي الكلدانيين والعموريين والأشوريين والأكديين والآراميين والكنعانيين والمصريين والأثيوبيين والعرب القدماء، والمتأخرون في جنوب الجزيرة وشمالها، والأقطار المتاخمة لها، التي نوهنا بتشاركها اللغوي والاجتماعي والفكري والديني، وسقنا الدلائل والأقوال فيه، وما ينتج عنه من وحدة الأرومة والمنشأ، هو عند جمهرة الباحثين جزيرة العرب[١٩]، ولأن هذه الجزيرة أخذت تذكر باسم العروبة الصريح في كتب اليونان والرومان، وأسفار العهد القديم، منذ ألفين وخمسمائة سنة، ولأن اسم العرب الصريح أخذ يطلق على أهلها المستقرين في داخلها وتخومها الشمالية جزئياً، ثم شمولياً منذ ألفين وخمسمائة سنة، كذلك بل، وقبل ذلك، على ما تدل عليه النقوش والمدونات القديمة التي سوف نورد نصوصها في الفصول التالية، الأمر الذي ينطوي على الدلالة على أن هذا الإطلاق وذاك، كانا راهنين قبل تدوين المدونات ونقش النقوش؛ ولأن اللغة التي تكلم بها سكان جزيرة العرب، ومواطن العرب الثانية خارجها، منذ أكثر من ألفي سنة، هي اللغة العربية الصريحة، بقطع النظر عن تعدد لهجاتها، وبعدها قليلاً أو كثيراً عن اللغة القرآنية الفصحى، على ما تدل عليه آثار وأسماء وأعلام ونقوش السبئيين والحميريين والنبطيين والتدمريين، الذين برزوا في مجال الحضارة والحكم والسلطان داخل الجزيرة وخارجها، قبل الميلاد، على ما سوف نورده في فصول الكتاب.

واستمراراً على ذلك الخطأ، أو نتيجة له، فرقوا بين تاريخ جزيرة العرب وسكانها، وبين تاريخ الموجات التي انساحت منها في القديم، وجعلوا تاريخ كل موجة، بمثابة تاريخ أمة مستقلة قائمة بذاتها.

وقليل منهم من قرر هذا الخطأ وأنكره، وارتأى تسمية الأقوام العربية لكل من سكن الجزيرة، أو خرج منها، كما فعل جواد علي في كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام، حيث قال في جزئه الثاني[٢٠]: إذا أردنا أن يكون كلامنا علمياً أو قريباً من العلم، وجب علينا إهمال كلمة «الشعوب السامية»، و «الساميين»، وتبديلها بكلمة «الشعوب العربية» و «العرب»، لأن هذه التسمية ملموسة المفهوم، بينما تلك اصطلاح مبهم؛ وكما فعل مؤلفو معالم الحضارات في الشرق والغرب الرفاعي ورفقاه، حيث قالوا، طغى اسم «الشعوب السامية» على الأقلام بالمعنى الجنسي لسكان جزيرة العرب، والنازحين منها، وهي تسمية لا مبرر لها سوى رواية التوراة والاصطلاح الشائع؛ والأصح الذي يتمشى مع المنطق التاريخي، أن تسمى باسم «الشعوب العربية»، لأننا نجد اسم العرب منذ القديم في الآثار البابلية والأشورية والعبرية، ولأن الفرس واليونان والرومان، أطلقوا على سكان جزيرة العرب اسم العرب، منذ الألف الأول قبل المسيح.

ومع هذا فإن مؤلفي هذين الكتابين، لم يصروا على التسمية التي صوبوها بحق، ولم يجروا على مقتضى ذلك من سلك تاريخ سكان جزيرة العرب الأقدمين، وتاريخ الموجات الآرامية والكنعانية والعمورية والكلدانية والأشورية والمصرية والأثيوبية التي خرجت منها في سلك واحد، بل عادوا فاندمجوا في ذلك الخطأ، واستمروا عليه، حيث ظلوا يذكرون من انساح من جزيرة العرب قبل العروبة الصريحة، باسم الساميين والشعوب السامية؛ ويفصلون بين تاريخهم وتاريخ سكان الجزيرة، والعرب في دور العروبة الصريحة.

وفعل مثلهم تقريباً مؤلفو كتاب **الأساس في اللغات السامية**، فقد جاء في هذا الكتاب: «وخلاصة القول إن الجماعة الأولى السامية هي الجماعة العربية، وان مهد الساميين الأول هو مهد هذه الجماعة الأصلي، وهو نجد والحجاز والعروض واليمن، وما والى هذه البقاع، ومنها جميعاً ابتدأت الهجرة «السامية» الأولى إلى شمال الجزيرة ومشارف الشام والعراق، حتى تخوم بلاد إيران، ثم إلى بلاد الحبشة ووادي النيل، وإن الأمة العربية قديماً وحديثاً هي «الجنس السامي» بأكمله، وأن منزلة جميع الوحدات «السامية» من العرب، منزلة الشعوب المتفرعة عن أمة واحدة، من دوام الاتصال بين الفرع والأصل، واستمرار المدد من الأصل إلى الفرع، وإن منزلة اللهجات «السامية» من اللغة العربية منزلة الفروع الدانية من الأصل الواحد» (ص ٣٧ وما بعدها).

ومما وقع فيه الذين كتبوا تاريخ الشرق العربي القديم من التناقض، انهم بينما فصلوا تاريخ الموجات العربية في بلاد الشام والعراق ووادي النيل، عن تاريخ الجنس العربي، فجعلوا تاريخ المعنيين والسبئيين ودول اليمن الأخرى، وشعوب شمال الجزيرة وإماراتها في القرون القديمة، في سلسلة هذا التاريخ، مع أن هؤلاء لم يوصفوا في أي أثر قديم بصفة العروبة

بالتخصيص، ولم يكونوا أكثر قربا في لغاتهم وصبغتهم الجنسية بوجه عام إلى العرب في دور العروبة الصريحة، من الموجات التي انساحت من الجزيرة إلى وادي النيل والهلال الخصيب في تلك القرون؛ بل كانوا أكثر قرباً إلى هذه الموجات، على اعتبار تقارب الزمن التاريخي الذي عاشوا فيه جميعاً.

بل هناك ما هو ادعى إلى العجب. فقد سلك جرجي زيدان الدولة البابلية التي من ملوكها حمورابي، ودولة الرعاة في مصر، في سلك تاريخ العرب قبل الإسلام، في كتابه المعنون بهذا العنوان[٢١]، ولم يسلك بقية الدول التي قامت في بابل ونينوى وسواحل بلاد الشام وداخلها وجنوبها، والتي يقرر هو بالذات أنها من الأرومات التي تمت إلى جزيرة العرب، وتتشارك في اللغة والعادات والأفكار كالأشوريين والكلدانيين والآراميين والكنعانيين.

فنحن إذ نسمي كتابنا باسم **تاريخ الجنس العربي**، وإذ نسلك تاريخ الأقوام الذين يمتون إلى جزيرة العرب، سواء منهم الذين خرجوا منها، أم الذين بقوا فيها قبل العروبة الصريحة وبعدها في سلك واحد، ونقدمه حلقات متصلاً بعضها ببعض، نتوخى فيما نتوخاه تصحيح هذا الخطأ الشائع، وتسمية الأمور باسمائها الصحيحة، أو ما هو الأوجه والأقرب إلى الصحة. وهذا بالإضافة إلى ما في ذلك من إبراز سعة نطاق نشاط الجنس العربي وحيويته في مختلف المجالات الفكرية والأدبية والحضارية والسياسية والعسكرية، وفي مختلف المواطن التي انساح إليها منذ أقدم الأزمنة، وكانت مصدراً رئيسياً من مصادر الحضارة البشرية التي شعت على العالم من جهة، والوصل بين حيوية العروبة في دورها الصريح وبين حيويتها قبل هذا الدور.

- ٥ -

ونحن نعرف أن هناك من باحثي الإفرنج، من لا يسلم بأن جزيرة العرب هي مهد الشعوب التي أطلقوا عليها اصطلاح الشعوب السامية؛ ومنهم من يقول إن هذا المهد هو جزيرة الفرات، أو بادية الشام، أو أرمينية، أو أثيوبية، أو يتردد في الجزم. غير أن كثيراً من الباحثين، بل أكثرهم، يقررون أن هذا المهد هو جزيرة العرب. ومنهم من يخصص جنوب الجزيرة، ويقولون إن الشعوب «السامية» انساحت منه إلى سائر أنحاء الجزيرة، ثم إلى الأقطار المجاورة لها شمالاً نحو بلاد الشام والعراق، وجنوباً نحو شواطىء أفريقية فأثيوبية ووادي النيل.

ويبدو من خلال أقوال الطرفين، أن الخلاف هو على مهد الجرثومة الأصلي لهذه الشعوب، قبل عهود التاريخ المعروفة. ومن أصحاب القول الأول من يقول: إن جرثومة هذه الشعوب هاجرت من مهدها الأول إلى جزيرة العرب، قبل عهود التاريخ، ثم أخذت تنساح منها إلى الأقطار المجاورة؛ وبعبارة أخرى ان أصحاب هذا القول، يلتقون مع الأولين في دور من أدوار تاريخ الجنس العربي والجزيرة[٢٢].

ومهما يكن من أمر مهد الجرثومة الأولى الأول، وحتى على احتمال أن لا يكون هذا المهد جزيرة العرب، وحتى على احتمال أن يكون سكان الجزيرة الأولون من عناصر مختلفة آسيوية

وأفريقية[٢٣]، تقاربت وتمازجت وتشاركت مع الزمن، فان هذا مما يعود، كما قلنا، قبل، إلى عهود ما قبل التاريخ. وإن عهود التاريخ حينما أطلت، كانت الجماعة العربية المتشاركة في اللغة والعادات والعقائد، قد قامت في جزيرة العرب، وأخذ ينساح منها من ينساح إلى الأطراف، ويبقى فيها من يبقى، مما تؤيده الوقائع التي جرت وظلت تجري منذ أقدم الأزمنة التاريخية المعروفة إلى اليوم، ولم يبق موضوعاً تاريخياً قديماً مضى وانقضى، وغدا محل نفي وإثبات، وظن وإبداء وإعادة؛ حيث كانت القبائل وظلت، تنساح من مختلف أنحاء جزيرة العرب متلاحقة بدون انقطاع، من الجنوب، عن طريق باب المندب، إلى شواطىء أفريقية الشرقية، فأثيوبية، فمصر أحياناً، ومن الجنوب إلى شواطىء بحر الهند والخليج العربي - الفارسي، فالعراق، وبلاد الشام أحياناً. ومن الشمال إلى بلاد العراق والشام، ومن هنا إلى مصر عن طريق برزخ السويس أحياناً؛ وكان ذلك قبل دور العروبة الصريحة، ثم استمر بعد بروز العروبة الصريحة، قبل الإسلام، ثم استمر منذ الاسلام إلى اليوم، ومما سجلت أحداثه القديمة نقوش المصريين والأشوريين والكلدانيين، وأسفار العهد القديم، وكتب اليونان والرومان القدماء، ومما تواصلت أحداثه الجديدة، فيما عرف يقيناً من انسياح القبائل العربية من جزيرة العرب في دور العروبة الصريحة قبل الإسلام، إلى العراق وبلاد الشام، ثم بالقبائل التي جاءت تحت راية الإسلام، وأخذت تنتشر كذلك في بلاد الشام والعراق، ووادي النيل وشمال أفريقية، ثم بالقبائل التي ظلت تأتي من الجزيرة بعد الموجة الإسلامية الأولى، وتنتشر في مختلف أنحاء هذه البلاد، ثم بالصورة الحية الماثلة اليوم بالقبائل الغادية الرائحة أو المستقرة التي تملأ جنبات هذه البلاد كذلك، والتي يعرف يقيناً أنها انساحت من جزيرة العرب، ومنها من يمت إلى القبائل القديمة، ومنها من جاء قبل قرن أو قرون قليلة، على ما سوف يأتي الكلام عنه بإسهاب أكثر في فصول الكتاب.

- ٦ -

وقبل أن ننتهي من كلمتنا، نريد أن نشير إلى كتابين ظهرا حديثاً في تاريخ العرب، في أثناء عكوفنا على تدوين هذا الكتاب.

أولهما: كتاب تاريخ العرب للدكتور فيليب حتي ورفيق له وصف بالمطول. وقد كتب هذا الكتاب مع مختصر له في الأصل باللغة الانكليزية، ثم ترجم إلى العربية. ورغم وصفه بالمطول، فليس فيه غناء للعربي الذي يريد أن يلم بجميع أدوار التاريخ العربي في مختلف الأطوار والأقطار إلماماً وافياً، وإن صح أن يكون كذلك بالنسبة لمن يعرف الانكليزية من غير العرب. وهذا فضلاً عن أن فيه مآخذ تاريخية واجتهادية كثيرة، يراها غير واحد من الباحثين، انها غير بريئة؛ هذا أولاً، وثانياً: إنه جرى على الأسلوب المألوف، من قصر البحث على عرب الجزيرة ومهاجرها في دور العروبة الصريحة، دون الذين خرجوا من الجزيرة إلى هذه المهاجر قبل هذا الدور.

أما الكتاب الثاني: فهو تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي الذي ظهر منه إلى الآن خمسة مجلدات. وهو، والحق يقال، من أنفس الكتب وأفضلها في بابه. وقد خدم المكتبة العربية والتاريخ العربي به خدمة جليلة، وبذل في سبيل ذلك جهوداً عظيمة. غير أنه هو الآخر اقتصر على عرب الجزيرة ومهاجرها في دور العروبة الصريحة، دون الذين خرجوا من الجزيرة إلى هذه المهاجر قبل هذا الدور أولاً، واقتصر على تاريخ العرب قبل الإسلام ثانياً؛ وأسلوبه إلى هذا وذاك مطول، فيه دراسات أثرية، ومقارنات واستعراضات لأقوال الأثريين المتنوعة ومناقشاتهم، مما لا يسيغه القارىء الذي يريد الإلمام العام، ولا يفيد إلا الباحثين، حيث هو مرجع ومقتبس قيم جداً - وقد اقتبسنا منه أشياء كثيرة - ولا يغني عن كتابة تاريخ للعرب قبل الإسلام بأسلوب آخر، يساعد الناشئين على الإلمام بهذا التاريخ بيسر وشوق.

وقد جعلنا هذا وذاك، نرى أن الضرورة إلى كتاب مثل كتابنا ما تزال قائمة، ولا سيما انه يهدف، كما قلنا، إلى إبراز خصائص وآثار ونشاط وحيوية الجنس العربي في مختلف الأدوار والأقطار، ومن فجر التاريخ إلى اليوم، في سلسلة تامة الحلقات.

وإننا لنرجو أن نكون قد سددنا بهذا الكتاب فراغاً، وصححنا أخطاء، وأسدينا إلى أمتنا العزيزة وتاريخها وناشئتها، ما فتئنا نهدف إليه في سني حياتنا من الخدمة المخلصة. والله ولي التوفيق.

دمشق الشام
ذو الحجة سنة ١٣٧٦

ثانياً: تمهيد الكتاب:

منشأ الجنس العربي وقدمه في الجزيرة

هذا هو الفصل الأول، من القسم الأول، من الجزء الأول في كتاب: تاريخ الجنس العربي الذي يتناول تاريخ العرب في الجزيرة العربية الصفحات (٢٦ - ٣٢).

(المحرر)

- ١ -

اختلفت آراء الباحثين في منشأ الجنس العربي الذي سمي خطأ بالجنس السامي قبل وجوده في جزيرة العرب، فمنهم[٢٤] من قال إن أجداده جاؤوا من العراق، ومنهم من قال إنهم جاؤوا من أفريقية، ومنهم من قال إنهم مزيج من افريقيين وسكان حوض البحر الأبيض، ومنهم من قال إن الجنوبيين منهم حاميون، والشماليين ساميون، اقتباساً من التقسيم التوراتي؛ ومنهم من قال، إن اليمن هي منبتهم. . .

وليس من الميسور الجزم في هذا كما أنه ليس من طائل وراءه، لأنه يعود إلى الحقبة السحيقة في القدم، التي توزع خلالها البشر على وجه الأرض، بتأثير العوامل المتعددة والمتنوعة، والتي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ.

على أنهم مهما اختلفوا، فإن معظمهم متفقون، على أن الجزيرة العربية منذ أقدم الأزمنة التاريخية المعروفة، كانت مأهولة بجماعات متشابهة في الملامح والطبائع، تتكلم لغة مشتركة، وان تعددت لهجاتها، وأن الأقوام التي سميت خطأ بالأقوام السامية، وسجلت نشاطها السياسي والاجتماعي والمدني والعمراني والعقلي والديني في الجزيرة، ثم في وادي النيل وبلاد العراق والشام، هم من هذه الجماعات. ففي أكناف جزيرة العرب، تكونت الجماعة العربية الأولى، ومنها ابتدأت الهجرة العربية إلى أطراف تلك الجزيرة، وإلى ما وراء هذه الأطراف، في مصر وتخوم بلاد إيران[٢٥].

وليس هناك من ينكر إمكان كون سكان هذه الجزيرة، قد عاشوا عيشة مدنية وسياسية واجتماعية، منذ أقدم الأزمنة التي سجل الجنس البشري حياة مماثلة في بعض الأقطار الأخرى، وبتعبير أدق منذ زمن أقدم من الزمن الذي تشير إليه الآثار المكتشفة في أرض الجزيرة وخارجها، أو الأخبار والروايات الواردة في كتب اليونان والرومان، وأسفار العهد القديم، أو نقوش مصر وبابل وأشور، والتي يرجع بعضها إلى أربعة آلاف عام وأكثر قبل الميلاد المسيحي؛ ولا سيما أن هذه الآثار تدل على تقدم غير يسير في مضمار الحياة السياسية والمدنية والاجتماعية والعقلية، لا يمكن أن يكون تم، إلا نتيجة تطور وتدرج، يرجعان إلى قرون كثيرة قبل الزمن الذي نقشت أو كتبت فيه. وكل ما في الأمر أنه لم يكشف عن آثار أقدم، كما كشف عن آثار أقدم في وادي النيل والعراق. وليس من المستبعد أن يكشف عن آثار أقدم، بالنسبة لسكان الجزيرة، حينما يمكن القيام بتنقيبات واسعة، كما أمكن في مصر والعراق؛ ولا سيما أن في مختلف أنحاء الجزيرة خرائب ومقابر وأطلالاً كثيرة لم ينقب فيها تنقيباً علمياً واسعاً.

ومما يمكن أن يقال تأييداً لهذا، ان الجماعات التي جاءت من جزيرة العرب إلى وادي النيل وحوض دجلة والفرات، واستقرت فيهما، قبل أكثر من خمسة وأربعين قرناً قبل الميلاد، كانت على شيء غير يسير من مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية ووسائلها، من المعقول أن تكون مزودة بها من منشأها الأول. وقد جاء في كتاب **تاريخ مصر قبل الفتح وبعده**[٢٦]، أن المعلوم يقيناً، أن الذين نشأ منهم مينا، وهو أول من عرف من ملوك المملكة المصرية المتحدة، قبل خمسة وثلاثين قرناً قبل المسيح[٢٧]، من الساميين، وأنهم دخلوا إلى مصر ومعهم حضارة أرقى، مما كان في مصر، وهم الذين جاؤوا بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية، وأن هناك من يقول: إنهم دخلوا إلى مصر من برزخ السويس، ومن يقول: إنهم جاؤوها من طريق الجنوب. وقد قال فيلبي[٢٨] «أرسلت العربية الجنوبية موجات متعاقبة من البشر، سلكت الطرق البرية والبحرية، حتى وصلت إلى المناطق التي استقرت فيها. وقد حملت معها كل ما تملكه من أشياء

ثمينة، آلهتها وثقافتها وخطها الذي اشتقت منه سائر الأقلام، وطبعت تلك الأرضين الواسعة التي حلت فيها بهذا الطابع «السامي» الذي ما زال باقياً حتى اليوم».

ولقد قال فريق من الباحثين، منهم كايتاني الطلياني، إن مناخ جزيرة العرب كان عرضة لتغيرات عديدة، وانه كان فيها أنهار ومياه، وان هذا الجفاف الذي يسود معظم الجزيرة طارىء حديث، وانه هو الذي حفز جماعات من أهلها إلى النزوح عنها إلى الأماكن المجاورة لها شمالاً وجنوباً. ويدلي القائلون لتأييد رأيهم بأدلة متنوعة، من جملتها أدلة جيولوجية وطبيعية، حيث وجد في وديان عديدة، مثل وادي الحمض، ووادي السرحان، ووادي الرمة، ووادي الدواسر، ترسبات تدل على أنها كانت أنهاراً جارية؛ ويصلون إلى نتيجة كون جزيرة العرب في حقبة من التاريخ، كانت ذات جو معتدل، وأمطار غزيرة، وأشجار وزروع، وان ما طرأ عليها من تبدل، قد طرأ تدريجياً منذ نحو أربعة عشر ألف عام(٢٩). وينطوي في هذا احتمالات عمران وحضارة أقدم، مما عرف يقيناً منهما في جزيرة العرب، وشاملين لمناطق أوسع من المناطق التي عرفت بهما فيها، كما ينطوي فيه تأييد لكون ما بدا على الجماعات النازحة إلى وادي النيل والهلال الخصيب، منذ الأزمنة القديمة من مظاهر الحضارة والحياة الاجتماعية والسياسية، هو متصل بذلك الأصل القديم.

والراجح أن سكان الجزيرة، حينما جاؤوا من مهدهم الأول المجهول تاريخياً، فنزلوا في جنوبها، أي في منطقة اليمن، لأنها هي أصلح مناطق الجزيرة للمعيشة، بسبب مناخها وتربتها ومياهها؛ وأنهم لما تناسلوا وكثروا، أخذوا يتوزعون في أنحاء الجزيرة، وينساح بعضهم منها إلى الأقطار الشمالية؛ وأن هذا كان منذ زمن قديم جداً، لا يعرف معرفة تاريخية صحيحة؛ وأنه حينما أخذ الزمن يسجل تاريخ جزيرة العرب المدني والاجتماعي والسياسي، كانت، كما قلنا، مأهولة بالسكان، وكان منهم المستقرون في الجنوب، والمستقرون في الشمال، والمستقرون في الشواطىء الجنوبية والغربية والشرقية.

ولعل من الأدلة التي يصح أن تساق على أصلية المنزل الجنوبي وأقدميته، أن الآثار والوقائع أثبتت أن مآثر الجنوب السياسية والاجتماعية والعمرانية هي الأسبق والأقدم؛ وأن الانسياح إلى الخارج كان منه قبل غيره(٣٠).

- ٢ -

مصادر تاريخ العرب في الجزيرة

وجزيرة العرب قارة شاسعة، تزيد مساحتها على مليونين ونصف من الكيلومترات المربعة؛ وهي مختلفة المناخ، متنوعة المظاهر الجغرافية والطبيعية؛ فيها السواحل والصحارى والجبال. وفيها ما يكثر فيه المطر ويقل؛ وبسبب ذلك، تنوعت مآثر سكانها، وأساليب معيشتهم وحياتهم؛ فكان منهم البدو المتنقلون والحضر المستقرون.

وللاخباريين والرواة والمؤرخين العرب أقوال كثيرة ومتنوعة في تاريخ سكان الجزيرة وأهلها ومآثرهم، وقد اكتشفت آثار في اليمن، وسيناء وسواحل الجزيرة وبلاد الشام والعراق ومصر، فيها إشارات إلى هذا التاريخ. وهناك أسفار العهد القديم التي يرجع تاريخها إلى قرون عديدة قبل المسيح، ومدونات يونانية ورومانية وعبرانية وسريانية، ترجع كذلك إلى قبيل هذا الميلاد وبعيده، فيها أشياء كثيرة عن هذا التاريخ أيضاً.

والروايات والأخبار والمدونات والمأثورات العربية، مشوبة بكثير من الخلط والغموض والتناقض والاغراب: سواء ما كان متصلاً بالأنساب والأسماء والأعلام، أم بالأحداث المتنوعة الأخرى، وكثير منها بادي الافتعال والصنعة والدس بعد الإسلام، لأسباب متنوعة، مردها إلى ما كان في صدر الإسلام من فتن وتنافس وتشاد وحزازات ومفاخر قبيلية. وبعض ما يمكن أن يكون له أصل منها، قد تعرض على الغالب للتحريف والتشويه والزيادة والنقص بسبب تأخر التدوين. ومن أجل هذا فإنه لا يمكن أن يكون عليها معول كبير في كتابة هذا التاريخ.

وأسفار العهد القديم التي تذكر أحداث القرون القديمة، تتحمل هي الأخرى كثيراً من الحذر والتحفظ، لأنها دونت قبل الميلاد المسيحي ببضعة قرون؛ وبين هذا الزمن وبين الأحداث المذكورة فيها مئات السنين بل ألوفها. والمبالغة في الأرقام، والتهويل في الأوصاف، في سياق تلك الأحداث، ملموسان فيها، كما يلمس فيها محاولة التوفيق أو التلفيق والخلط، بين ما هو راهن في الأفكار حين التدوين، ونسبته إلى القرون الأولى، وخاصة في تسميات الأمم والمدن والأشخاص والأنساب. وكل ما يمكن أن يكون من أمرها، أنها وثائق مهمة في الأحداث التاريخية والشؤون الراهنة في ظروف تدوينها أو قبلها بقليل، كما أن من المحتمل أن يكون ما يعود فيها إلى عهد موسى وقبله بقليل، يرتكز إلى أصل شِيبَ بالتحريف والتشويه والزيادة والنقص.

والمدونات اليونانية والرومانية والعبرانية والسريانية، وثائق مهمة حقاً في الأحداث التاريخية، والشؤون الراهنة التي كانت في ظروف تدوينها. أما ما يعود منها إلى القرون العديدة التي سبقت تدوينها، فإنه قام على السماع والروايات، وشيب بكثير من الخلط والمفارقات.

بقيت الآثار المنقوشة. وهي من دون ريب وثائق مهمة وأساسية. غير أن معظم النقوش التي عثر عليها مقتضب، وكثير منها نقش لغايات دينية، كأخبار تقديم نذور، وشكر للآلهة على مساعداتهم لأصحابها، أو كدعاء بمساعدتهم؛ وكثير منها مشوه ومبتور أيضاً. وكثير منها ما زال تحت الدرس لم تعرف محتوياته ونصوصه(٣١).

من أجل هذا كله، فإنه يوجد ثغرات وحلقات مفقودة، وعقد كثيرة في تاريخ سكان جزيرة العرب القديم، ومآثرهم، خاصة بالنسبة لدور ما قبل العروبة الصريحة الذي نحن الآن في صدده. وليس من مناص، والحالة هذه، في كتابة تاريخ العرب قبل الإسلام في الجزيرة، وخاصة فيما يتصل بدور قبل العروبة الصريحة، من أخذ هذه النقائص والعثرات والعقد بعين

الاعتبار؛ ومن السير في كتابة هذا التاريخ بتحفظ شديد، إذا أريد أن يكون سليماً علمياً قائماً على الحقائق والكلام فيه غير ملقى على عواهنه.

وعسى أن يسد كثير من هذه الثغرات في المستقبل، إذا ما تيسر استجلاء ما هو تحت الدرس من النقوش والتنقيب الواسع في مختلف أنحاء الجزيرة، وجرى بدأب وجد من قبل الخبراء والعلماء العرب وغير العرب. وما كشف عنه إلى الآن في مختلف أنحاء الجزيرة والمهاجر، على قلته، بالنسبة لما لم يكشف عنه من الخرائب والاطلال، قد جلا كثيراً من تاريخ العرب قبل الإسلام، وساعد على تصحيح كثير من الأخطاء الشائعة.

وهناك أصدق وأوثق مدونة عربية وصلت إلينا، ونعني بها القرآن الكريم، مع الاحترام لقدسيته. ومن الممكن أن يقتبس من فصوله صور كثيرة عن العرب قبل الإسلام في الجزيرة بدون ريب. غير أن معظم الصور التي يمكن اقتباسها عائد إلى عصر النبي، عليه السلام، أو قبله بأجيال معدودة أولاً، وإلى أهل بيئة النبي عليه السلام التي نزل فيها بالدرجة الأولى ثانياً، وليس من شأنها أن تساعد على شيء كثير بالنسبة للقرون الطويلة الأولى.

وعلى كل حال، فسوف تكون النقوش أولاً. والمدونات القديمة ثانياً، المعول الأكبر في كتابة هذا الفصل، مع الاستئناس بما احتواه القرآن من فصول قليلة عائدة إلى ما قبل العروبة الصريحة.

- ٣ -
القحطانيون والعدنانيون

ولقد جرى مؤرخو العرب، على تقسيم العرب وتاريخهم قبل الإسلام، إلى عرب بائدة، وعرب عاربة، وعرب مستعربة، ثم على اعتبارهم شعبين كبيرين قحطانيين وعدنانيين. وقد أوردوا أسماء عديدة لأمم وقبائل وأنساب وأشخاص وأعلام وتعليلات وأشعار وروايات في صدد هذه التقسيمات؛ وفيها من التداخل والتناقض والخلط والاغراب الشيء الكثير، وليس هناك وثائق أثرية ومدونات قديمة تؤيدها. بل لقد ظهر من بعض الآثار، ما ينقض بعضها، فهم يعدون ثمود مثلاً من العرب البائدة، مع أن هناك نقوشاً تثبت وجود ثمود ومآثرهم في القرن الثامن قبل الميلاد وبعده، على ما سوف نذكره بعد. وهم يوردون شعراً عربياً فصيحاً بلغة قرآنية، منسوباً إلى تبابعة اليمن وأقيالها وغيرهم، ممن يفرض وجودهم قبل نزول القرآن بمئات السنين مع أن ما عرف من لهجات ومفردات وأساليب اللغة العربية، قبل نزول القرآن، ببضعة قرون في اليمن، وغير اليمن، يثبت أن اللغة القرآنية لم تصل إلى ما وصلت إليه من طور الفصاحة، إلا قبل نزول القرآن بقرن أو قرنين، دعك مما أوردوه من شعر آدم وقابيل وهابيل واسماعيل باللغة القرآنية، مما هو أدخل في باب التخريف.

ومن أجل هذا لم نر طائلاً، في إيراد ما جاء في الكتب العربية، عن العرب البائدة والعاربة والمستعربة وقبائلها وأحسابها وأنسابها. وكل ما رأينا احتمالاً لصحته، إطلاق اسم القحطانيين

كاسم عام على عرب الجنوب، والعدنانيين كاسم عام على عرب الشمال، برغم ما يراه بعض الباحثين من أن هذه التسمية تدخل في نطاق ما توصف به كتابات مؤرخي العرب ورواياتهم عما قبل الإسلام، من عدم الوثوق والتلفيق بعد الإسلام؛ لأن انتشار هذه التسمية الانتشار الواسع، المردد من عرب الجنوب والشمال معاً، منذ وقت مبكر من صدر الإسلام، يجعلنا نرجح أنها ترتكز إلى أصل ما قبل الإسلام، وأنها لم تخترع اختراعاً بعده، ولو لم يمكن تعيين هذا الأصل وإسناده إلى سند وثيق. غير أن من الحق أن نقول: إن الأسلوب العربي الفصيح للتسمية، يدل على أنها ليست قديمة، وأنها حدثت في دور بروز الشخصية العربية الصريحة قبل الإسلام(٣٢).

وتشابه الملامح، وتقارب اللهجات، واستمرار التواصل المتنوع الأساليب، والظروف والبواعث بين القحطانيين والعدنانيين، مما تدل عليه الأحداث القديمة والمتأخرة يسوغ الجزم، بأن الشعبين هما سلالة جنس واحد، افترق أحدهما عن الآخر بسبب الظروف الطبيعية أو الاجتماعية، أو هذه وتلك معاً. وما نقله كتاب العرب من الروايات التي تجعل العدنانيين من نسل اسماعيل بن ابراهيم العبراني، غير وثيق، وغير متسق مع طبائع الأشياء.

وإذا كان من الممكن أن تكون قصة سكنى اسماعيل في منطقة مكة حقيقة، فإن كل ما يمكن أن يكون من نتائجها إصهار اسماعيل إلى فريق من سكان هذه المنطقة، ثم اندماجه هو وذريته فيهم.

هذا، ولقد كتب جرجي زيدان، قبل نحو أربعين سنة، كتاباً في تاريخ العرب قبل الإسلام في الجزيرة وبلاد الشام والعراق والرعاة في مصر، استند فيه إلى النقوش العربية القديمة والمدونات الأجنبية والعربية القديمة كذلك؛ فكان أولى المحاولات لكتابة هذا التاريخ كتابة سليمة وثيقة بقدر الامكان.

ومنذ ست سنين، أخذ الدكتور جواد علي يصدر أجزاء كتابه القيم بنفس العنوان، وقد صدر منه إلى الآن خمسة مجلدات. وقد جاء أوفى بكثير من كتاب زيدان، بل من الحق أن يقال إنه جاء على أوفى وأتم صورة ممكنة، لأن مؤلفه الفاضل لم يكد يترك مصدراً من المصادر العربية والغربية، إلا وأطلع عليه، وأشار إليه، مقتبساً وناقداً وشارحاً ومعارضاً. وكانت النقوش في الدرجة الأولى، وأقوال واستقراآت ومناقشات وتخمينات الأثريين والمستشرقين في الدرجة الثانية معوله.

وقد جعلنا ما كتبه هذان المؤرخان، وخاصة الدكتور جواد علي، معولنا في ما كتبناه من فصول موجزة في تاريخ العرب ودولهم وملوكهم ومآثرهم في الجزيرة وخارجها، في نطاق الخطة التي ترسمناها، وهي الايجاز مع الوفاء بالمقصد. حتى لقد كدنا نلخص أجزاء كتاب الدكتور، مقدرين جهوده العظيمة، التي أغنت المكتبة العربية بمصدر قيم وثيق في تاريخ العرب قبل الإسلام.

ثالثاً: تمهيدات في سكان مصر الأقدمين
والموجات العربية الجنس التي انساحت إليها

وهذه مقدمة الجزء الثاني ـ من كتاب: «تاريخ الجنس العربي» الصفحات (٥ ـ ٢٤).
وتتناول علاقة سكان مصر «بالجنس العربي».

(المحرر)

ـ ١ ـ

يذكر الذين كتبوا تاريخ مصر القديمة تعبير حاميين، وجنس حامي، كعنصر أصلي أو أساسي من العناصر الأولى التي تكوّن منها سكان مصر القدماء، قبل العصور التاريخية المعروفة.

وليس لهذا التعبير سند علمي أثري، وإنما هو كتعبير الساميين، والجنس السامي، استنتجه الباحثون، ممّا جاء في سفر التكوين من أسفار العهد القديم، الذي ورد فيه أن حام ابن نوح، وأنه ولد في مصراييم[٣٣]، وهو أبو المصريين، ومن اسمه اشتق اسم مصر. وقد عمم الباحثون إطلاقه فيما بعد، فجعلوه يشمل العناصر الزنجية في افريقية الشمالية الشرقية بنوع خاص، بل منهم من جعله يشمل سكان بعض أنحاء جزيرة العرب الجنوبية أيضاً، أو جعلوا هؤلاء السكان كجماعات منه، هاجرت إلى هذه الأنحاء من أفريقية الشرقية الشمالية.

والحقيقة أنه لا يعرف على وجه التحديد أصل الذين سكنوا مصر في عصور ما قبل التاريخ، والذين خلفوا آثارهم الزراعية والصناعية والمدنية والدينية، وأوانيهم ومدافنهم المتنوعة في مختلف أنحائها.

وقد ذهب الذين درسوا هذه الآثار، إلى أنهم لم يكونوا من جنس واحد، لما رأوه من اختلافات بارزة في طريقة الدفن والمساكن والأواني، ثم خمنوا أنهم عناصر أفريقية زنجية بيضاء وسوداء لوبية وزنجية وغير زنجية، كانت تنساح إلى مصر من الجنوب والغرب وقتاً بعد آخر مع عدم استطاعتهم الجزم في أصل اللوبيين الذين كانوا متميزين عن العناصر الزنجية والسوداء، والذين تدل ملامحهم على أنهم من الجنس الأبيض، الذي كان يقطن أوروبا وآسيا الجنوبية والغربية.

وإلى هذا، فإن الباحثين متفقون على أن مصر كانت مباءة لعناصر آسيوية، من الجنس الأبيض، كانت تطرأ عليها في عصور ما قبل التاريخ وبعدها، وتمتزج بالعناصر الأفريقية المذكورة، مع تقرير أكثرهم، بأن هذه العناصر، أو معظمها، من الجنس الذي أطلق عليه تعبير الساميين خطأً وجزافاً، استنتاجاً من انساب سفر التكوين، والذي يجب أن يسمى بالجنس العربي الذي كان موطنه جزيرة العرب، على ما شرحناه، وأثبتنا دلائله، وأقوال الباحثين المؤيدة

له، في مقدمة الكتاب في الجزء الأول، وأن موجات هذه الجزيرة، كـانت تنساح إلى وادي النيل، من حين لآخر بدون انقطاع، من طريق برزخ السويس حيناً، ومن طريق باب المندب وشواطىء أفريقيا حيناً، كما كانت تنساح من حين لآخر بـدون انقطاع إلى الأقـطار الأخرى المجاورة للجزيرة، على ما شرحناه في المقدمة، في الجزء الأول كذلك.

- ٢ -

ولقد جاء في كتاب تاريخ مصر، **من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي** لجمس هنري بريستيد، من مشاهير علماء الآثار المصـرية، والتـاريخ المصـري، وترجمـة الدكتـور حسن كمال[٣٤] أن جماعات من الليبيين والجالا والصومال والبجا، كانوا يطرأون على مصر منذ أقدم الأزمنة، وأن من المعروف إلى هذا، أن أقواماً ساميين من عرب آسيا، طرأوا على وادي النيل، وعمموا فيه لغتهم، وصبغوه بصبغتهم، كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة، وأن لغتهم حافظت على ساميتها (عروبتها) بمرور الزمن، بالرغم مما طرأ عليها من تغيير وتحريف باختلاط السكان، وأن تاريخ الهجرات السامية الأولى، يرجع بلا مراء إلى ما قبل العصور التاريخية المعروفة، وأن من الثابت أن هذه الهجرات قد تكررت مراراً في العصور التالية، وأنه إذا كان من الصعب معرفة الطريق التي سلكوها، فإن الأقرب للذهن، أن يكونوا أتوا من برزخ السويس، كما فعل العرب في بداية الإسلام[٣٥].

ولقد جاء في كتاب **تاريخ السودان القديم** للدكتور كمال حسن أن المصريين والسودانيين من أصل واحد، وأنهم جاؤوا إلى وادي النيل من بلاد العرب، عن طريق الصومال، على ما تدل عليه البحوث والاستقراءات، وقد نقل هذا المؤلف عن ديودور الصقلي، ان أصل المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية، نزلوا إلى شواطىء أثيوبيا، ثم تقدموا نحو الشمال حتى دخلوا مصر، وبسبب ذلك يقول الأثيوبيون إن مصر مستعمرة من مستعمراتنا، على اعتبار أن سكانها القدماء جاؤوا إليها من نـاحيتهم. وقد نقـل كذلـك عن أحمد كمـال العالم الأثـري المشهور[٣٦]، أن أصل اللغة المصرية القديمة، واللغة العربية واحد، وان الاختلاف الظاهر بينهما، ليس إلاّ نتيجة إسقاط بعض كلمات في بـلاد العرب، وبقـائها في وادي النيـل، أو العكس، ثم نتيجة لما يعتري الكلمات من القلب والإبدال، وما يطرأ على اللغات من تغيير بمعاملة الأجانب.

ولقد جاء في كتاب **الأثر الجليل لسكان وادي النيل** لأحمد نجيب العالم الأثري[٣٧] «ومن تأمل في التماثيل القديمة المصرية، المحفوظة بدار التحف، علم يقيناً أن هذه الأمة من الجنس الأبيض القاطن في آسيا، وأن كثيراً من أصول لغتهم مشتق من اللغة العبرانية والآرامية، كما أن الضمائر المتصلة والمنفصلة منهما متشابهة». وخلاصة القول إن أصل المصريين من الجنس (السامي) ـ العربي حسب اصطلاحنا ـ وقد أتوا إلى هذا الوادي من برزخ السويس، وربمـا وجدوا فيه طائفة من الزنوج.

ولقد قال أحمد كمال العالم الأثري المشهور في كتابه **العقد الثمين**[٣٨]: إن المصريين القدماء، كانوا يطلقون على بلاد حضرموت واليمن اسم بون. وكانوا يعتقدون أن أصلهم منها.
ولقد قال المؤرخ التركي أحمد رفيق، في الجزء الأول من كتابه **التاريخ العام الكبير**[٣٩]، نقلاً عن مصادر ألمانية، مثل **تاريخ مصر القديم** لأدوار ماير، **ومصر وحياتها في العصور القديمة** لأدولف أرمان **وتاريخ مصر** لويدمان، **وتاريخ مصر في حكم الفراعنة** لبورغش، **والتاريخ العام** لشبامر، **وتاريخ الأمم القديمة** لماكس دوفكر «أن معظم علماء تاريخ مصر يقررون أن المصريين القدماء قد جاؤوا من آسيا الغربية، منهم من جاء عن طريق باب المندب من الجنوب، ومنهم من جاء عن طريق برزخ السويس من الشمال. وأن بين لغتهم واللغات السامية في مفرداتها وصرفها ونحوها مشابهة كبيرة». ومع أنه لم يقل صراحة، إنهم جاؤوا من جزيرة العرب، أو انهم من الشعوب السامية، فإن هذا الوصف يعني ذلك كما هو المتبادر.

ولقد قال غوستاف لوبون في كتابه **الحضارة المصرية**[٤٠] «إن كل جذور اللغة المصرية القديمة، ومعظم قاموسها، يتركب من عناصر سامية، حتى أجروميتها فيما يتصل بتركيب المؤنث والجمع. والكلمات البعيدة عن الأصل السامي، ترد إلى الجنس الأسود الذي طرأ على مصر».

ولقد جاء في **تاريخ مصر إلى الفتح العثماني** لسفيد ج الاسكندري[٤١] «إن أرجح الآراء، أن مؤسسي حضارة مصر الأولى، التي ترجع إلى ما قبل الأسر الملكية ـ أي إلى ما قبل خمسة وأربعين قرناً أو أكثر ـ قوم لوبيو الأصل؛ غير أن حضارتهم ليست هي **أساس مدنية المصريين الذين تكونت منهم الأسر المختلفة، والذين وصلوا بمصر إلى أعظم درجات الرقي. وقد ثبت أن هؤلاء قوم ساميون قدموا إلى مصر من آسيا**. ولا يعلم يقيناً من أين دخلوا. فهناك من يقول إنهم دخلوا من برزخ السويس، وهناك من يقول إنهم جاؤوا من طريق الجنوب. وعلى كل حال، فالمعلوم يقيناً أن الذين نشأ منهم (مينا) ـ وهو أول من عرف من ملوك المملكة المصرية المتحدة قبل نحو أربعين قرناً ـ كانوا قبل ظهوره يقطنون الجهة الجنوبية من مصر. ومما يدل على أن أجداده من الساميين، إن أقدم ما وصل من لغتهم، يغلب فيه العنصر السامي على الافريقي. وقد دخلوا ومعهم حضارة أرقى مما كان في مصر. وهم الذين جاؤوا بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية».

ولقد جاء في كتاب **الأساس في الأمم السامية ولغاتها**، لعطية الابراشي ورفقاه[٤٢]: «أن المدنية الإنسانية العامة، قد ابتدأت في وادي النيل. **وسكان هذا الوادي، وإن كانوا مزيجاً من عناصر مختلفة، فالعنصر السائد فيها، والذي أنتج أول مدنية إنسانية، هو العنصر السامي أي العربي**؛ وانه على أي تقسيم قسمت اللغات السامية، فإن الحقيقة الكبرى أنها لغات جماعة بشرية كونت جنساً بشرياً واحداً، وهو الجنس الذي عرف باسم الجنس السامي، والذي عرفت شعوبه باسم الشعوب السامية، ولغاته باسم اللغات السامية، والتي تحضرت في أطراف جزيرة العرب، وفيما وراء هذه الأطراف، مع بقاء وحدة التفكير والخيال جامعة بينها. وقصارى القول

إن الجماعة السامية، هي الجماعة العربية، وأن مهدها الأول هـو نجد والحجـاز والعروض واليمن، وما والى هذه البقاع، ومنها كانت الهجرات الأولى إلى شمال الجزيرة، ومشارق الشام والعراق، ثم إلى بلاد الحبشة ومصر.

ولقد جاء في الجزء الأول من **تاريخ العرب** لحتي[٤٣]: إن موجة من المهاجرين الساميين انساحت إلى مصر، عن طريق افريقية الشرقية، حوالى سنة ٣٥٠٠ ق م. وكان فيها جماعة من الحاميين، فحلت بينها، وامتزجت بها، فتألف من هذا المزيج سكان مصر القدماء. ولقد سلك هذا في كتاب آخر له[٤٤]، اللغة المصرية القديمة، في سلك اللغات الأشورية والبابلية والآرامية والكنعانية والعبرانية والعربية القديمة والحبشية الأثيوبية. وقال: اننا لو دققنا النظر فيها، لوجدنا تشابهاً جلياً بينها، يخولنا حق ردها إلى أم واحدة.

ولقد قال جوستاف حيكي، أستاذ الأثريات المصرية، في كلية نيو شاتيل، في كتابه: **تاريخ المدنية المصرية**، إن سكان مصر القدماء، جاؤوا إليها من جزيرة العرب، قبل ستة آلاف سنة وأن الأسر الفرعونية الأولى من هؤلاء القادمين[٤٥]. وقال مثل هذا بروخ الألماني، وهنري جونسون الانكليزي في كتابيهما **تاريخ مصر** أيضاً[٤٦].

ولقد نبه جبرائيل هانوتو في مقدمة كتابه **تاريخ الجنسية المصرية**[٤٧] على بروز مميزات العنصـر السامي العـربي في سحن وصور ومحنـطات ملوك مصر، منـذ أقدم أزمنـة التاريـخ المصري، أو بتعبير أدق ملوك الدولة الأولى، والأسلاف الذين انحدروا منهم، الذين طرأوا على مصر من شمالها الشرقي، ومن جنوبها الشرقي، بالإضافة إلى قوله: إن الدم المصري غـدا مزيجاً من عناصر سامية وأفريقية وزنجية وأوروبية وسكان شواطىء البحر الأبيض.

ولقد قال والس بدج، مؤلف كتاب **سواء السبيل في سكان أرض النيل**[٤٨]، إن الذي حققه العلماء، ان الذين ملكوا مصر، ووضعوا شرائعها منذ البدء، جماعات هاجروا إليها من المشرق، منذ بضعة ألوف من السنين، قبل التاريخ المسيحي، وليس في مشرق مصـر، إلا جزيرة العرب من الجنوب والشرق، وسيناء المتصلة بالجزيرة، من الشرق الشمالي، كما لا يخفى.

ولقد قال المؤرخ الشهير ماسبرو: إن لعروق المصريين الأقدمين، والعرب والفينيقيين والكنعانيين، روابط تشد بعضها إلى بعض. وليس المصريون سوى ساميين انفصلوا عن مهد الساميين، قبل غيرهم[٤٩].

ولقد جاء في الجزء الأول من كتاب **مصر القديمة** لسليم حسن العالم الأثري المصري الكبير[٥٠] في نبذة أصل المصريين، أن مصر كانت مسكونة منذ عصور ما قبل التاريخ بقوم من الجنس الحامي يقال إنه نشأ من البلاد نفسها، أي أفريقي الأصل، وينسب إلى لوبيبي أفريقية الشمـالية المسمين الآن بـالبربـر، وإلى السكان الحـاميين من أفريقيـة الشمـاليـة الشـرقيـة الصوماليين، ثم أخذ يدخل على هذا الشعب تغييرات عن طريق الهجرة، وكانت أهم العناصر

الجديدة التي دخلت البلاد عن هذا الطريق، من أصل آسيوي، لهم مميزات خاصة، تختلف اختلافاً بيناً عن الشعب الأصلي، وقد اختلطوا شيئاً فشيئاً بالسكان الأصليين، واندمجوا فيهم.

ويخمن أن المهاجرين الفاتحين، جاؤوا إلى مصر من شبه جزيرة العرب، ودخلوها عن طريق البحر الأحمر من جهة قفط، أو عن طريق أعالي وادي النيل، أو عن طريق فلسطين فسينا فشرقي الدلتا. وقد أدخلوا معهم مدنية أرقى من مدنية الجنس الحامي الأصلي الذي لم يكن يعرف إلا الآلات والأواني الحجرية، كما أدخلوا معهم معرفة المعادن، وبخاصة النحاس، وادخلوا كذلك عبادتهم للأموات، ودياناتهم وكتابتهم وفنونهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية. ويخمن أنهم أتوا إلى البلاد تدريجاً من غير عنف، فتوصلوا إلى الاستيلاء عليها بنجاح. وأهم الوثائق التي بقيت من عهدهم، أو عثر عليها ألواح اردوازية منقوشة على أشكال مختلفة لم يتيسر حلها، وهي التركة الوحيدة لدينا لهذا الفتح الطويل الذي كانت نهايته على ما يظهر اتحاد كل البلاد، من أسوان إلى البحر الأبيض المتوسط، تحت صولجان ملك واحد، اتفقت كل المصادر التاريخية على أنه الملك مينا. ولقد غدا الاندماج بين المهاجرين الجدد والسكان الأصليين عظيماً منذ العصر التاريخي، حتى إنه أصبح من الصعوبة بمكان معرفة الفوارق بينهما بشيء من الدقة.

وكلام المؤلف يفيد، كما هو المتبادر، أن المهاجرين الاسيويين هم من جزيرة العرب، وأنهم فتحوا البلاد، وسيطروا عليها، وحكموها، ووحدوها تحت صولجان الملك مينا الذي كان منهم.

وقد ذكر هذا المؤرخ أيضاً في نفس الجزء في نبذة «تقسيم البلاد إلى أربعة أقاليم»(٥١) عزواً إلى مؤرخ اسمه لورية، مستنداً إلى دراسة دقيقة للآثار العتيقة، كما يصفه، أن قبائل وشعوباً من بلاد لوبية، وآسيا الصغرى، وجنوب مصر، جاءت إلى مصر، فتنازعت، وتحاربت، ثم تحالفت، فتألفت منها أربع طوائف، رمز إليها في الآثار برموز النحلة والبوصة والثعبان والنسر، التي كانت رموزاً للآلهة التي كانت هذه الطوائف تتعبدها، على اعتبارها آلهتها الخاصة، أو الحامية. ثم تألفت من النحلة والبوصة مملكة، ومن الثعبان والنسر مملكة، **ثم وفد على البلاد قوم من آسيا من بلاد العرب، عن طريق الصومال، وتوغلوا في الشمال حتى الوجه القبلي، وتأصلوا في البلاد، وكانوا جنساً ذا مواهب عظيمة، فأقاموا مملكة ثالثة، رمز لها في الآثار برمز الصقر في نهايتها**، فغدت الممالك الثلاث موحدة، تحت سلطان صولجان واحد فقامت بذلك المملكة الفرعونية(٥٢).

ولقد ذكر هذا المؤلف(٥٣) في سياق سيرة أحد ملوك الأسرة السادسة التي حكمت بين سنتي ٢٦٢٥ و ٢٤٧٥ ق. م على أقل التقديرات ـ لأن هناك تقديرات أبعد ـ أن هذا الملك أرسل جماعة إلى سواحل البحر الأحمر، لإنشاء سفينة تسافر إلى بلاد بنت التي كان يعتقد المصريون أنها شبه مقدسة، وأن أصلهم يرجع إليها، على ما ذكرته النقوش التي نقشها أحد رجال الملك. والسياق يفيد: ان هذه البلاد على سواحل البحر الأحمر الشرقية، إلى سواحل

بلاد اليمن والحجاز، وإن كان المؤلف فسّرها بأنها بلاد الصومال(٥٤). ومعنى هذا، على كل حال، أن المصريين في هذا العهد كانوا يتداولون، جيلاً بعد جيل، عن آبائهم الأولين، أنهم قد جاؤوا إلى مصر من سواحل جزيرة العرب رأساً، أو بطريق الصومال، على تقدير أن تكون هي المقصودة من بلاد بنت، وفي هذا ما فيه مغزى ودلالة.

ولقد جاء في كتاب **مصر والحياة المصرية في العصور القديمة**(٥٥): إن سكان مصر قبل التاريخ خليط من شعوب مختلفة. ويمكن إرجاع اللغة المصرية القديمة، إلى مجموعة من اللغات اشتقت من السامية (البابلية والأشورية والعبرية والعربية) والأفريقية الشرقية، والأفريقية الشمالية، بعد أن امتزج بعضها ببعض. واستناداً إلى تشابه الحوادث في العصر التاريخي، من الجائز أن يكون أجناس البدو الذين عاشوا في البلاد المتاخمة، وفي بلاد العرب، قد انحدروا إلى وادي النيل الخصيب، ثم فرضوا لغتهم على السكان المستقرين هناك، على اختلاف أجناسهم، وسرعان ما تميزت اللغة، وتميزت سمة وسحنة سكان مصر، فصارت لغتهم متميزة، وأرومتهم متميزة.

ولقد قال جرجي زيدان(٥٦): إن الساميين (العرب في اصطلاحنا)، قد نزحوا إلى مصر من عهد قديم جداً، وإن الاكتشافات الأثرية الأخيرة، تدل على أن العصر الحديدي بمصر، يبدأ بدخول الساميين إليها، وإن مما يستدل به على ذلك اسم «فتاح» السامي الذي هو أقدم آلهة المصريين.

وننبه على أن الأقوال التي أوردناها، تدور في نطاق موضوع طروء الجماعات أو الموجات السامية ـ العربية الجنس، على حسب اصطلاحنا ـ قبل التاريخ المصري الوثيق، وقبل اتحاد مصر في مملكة واحدة، وقيام الأسر الحاكمة على رأسها، واحدة بعد أخرى، الذي كان في الألف الرابع قبل الميلاد في تقدير بعض المؤرخين، وفي الألف الخامس في تقدير بعض آخر، على ما سوف نشرحه بعد.

أما طروء جماعات أو موجات سامية ـ عربية الجنس ـ بعد ذلك، فليس موضع شك، أو خلاف. وقد سجل التاريخ المصري الوثيق في مدوناته ونقوشه القديمة، محاولات عديدة ومستمرة، لتسرب هذه الجماعات من الشمال والجنوب إلى مصر، واهتمام ملوك مصر لصدها، وتحصينهم الحدود الشمالية والجنوبية، بسبيل ذلك، ونجاح بعض هذه المحاولات أكثر من مرة في التسرب والاستقرار في مصر السفلى والعليا.

وكان من أهم هذه المحاولات الناجحة موجات متلاحقة من ناحية سيناء، فالدلتا في النصف الأول من الألف الثالث قبل المسيح، في عهد الأسر السادسة، والثامنة والتاسعة بأعداد كبيرة، استطاعت أن تستولي على الدلتا، وتغمرها، وتحكمها، ثم موجة الرعاة الكبرى ـ الهكسوس ـ التي طرأت على مصر من هذه الناحية أيضاً، في المئة الأولى من الألف الثانية قبل المسيح، واستطاعت بدورها أن تغمر الدلتا، وأن تفرض حكمها على جميع مصر ردحاً من

الزمن، وأن يبقى غالبها في الدلتا بعد تقويض حكم الهكسوس. ثم موجات متلاحقة صغيرة وكبيرة، تسربت بهدوء في القرون الرابع عشر والثالث عشر والثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد، في عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين . هذا إلى تسرب موجات عديدة، من ناحية الجنوب، أهمها وأكبرها الموجة التي جاءت من بلاد النوبة، واستولت على الصعيد، وقام منها الأسر الحادية عشرة، والثانية عشرة، والثالثة عشرة، ثم السابعة عشرة، والثامنة عشرة، والموجة التي جاءت من هذه البلاد في القرن الحادي عشر، وقام منها الأسرة الثانية والعشرون مما سوف نشرحه ونورد دلائله في فصول الكتاب، بعد. ومما هو مظهر من مظاهر طبيعة جزيرة العرب، منذ أقدم الأزمنة إلى الآن دون انقطاع في إرسال موجاتها من آن لآخر إلى الأقطار المجاورة لها في الشمال والجنوب، على ما شرحناه في مقدمة الكتاب في الجزء الأول. وقد كانت بلاد الهلال الخصيب (العراق وجزيرة الفرات وبلاد الشام)، تعج دائماً بهذه الموجات، فينساح منها جماعات بعد جماعات، إلى مصر، عن طريق بلاد النوبة. ومهما بلغ التزمت في أحد، فلا يصح أن يصل في حال إلى درجة المكابرة، في حقائق هذه الموجات، وصلتها بجزيرة العرب.

وعلى الذين يجنحون إلى المكابرة، ويقولون إن هذه افتراضات، أو يمارون في أن ما يسمونهم شعوباً سامية قد جاؤوا إلى بلاد الشام والعراق ووادي النيل من جزيرة العرب، أن يذكروا أنه قام دليل لا يدحض، ولا نزال نعيش فيه، وهو ما عرف معرفة اليقين من انسياح القبائل من جزيرة العرب في دور العروبة الصريحة، ومنذ القرن الخامس قبل الميلاد. بل، وقبل ذلك إلى بلاد العراق، وجزيرة الفرات، وبلاد الشام، شمالها ووسطها وجنوبها، وغمرها جميع هذه البلاد وإقامتها الدول فيها، من عربية وقيدارية وايطورية ونبطية وتدمرية وتنوخية ولخمية وغسانية وكندية الخ، قبل الإسلام. ثم انسياحها تحت راية الإسلام، ومنذ الفتح الإسلامي، إلى بلاد العراق والشام، ثم إلى مصر والسودان وبلاد الحبشة والصومال، من طريق باب المندب حيناً وسيناء حيناً، كما كان يجري في القديم البعيد، وانتشارها في جميع أنحاء هذه البلاد، مما أطنب به ابن شهاب في **مسالك الأبصار**، وابن خلدون في **العبر**، والمقريزي في **الخطط** وفي رسالة **البيان، والاعراب بما في مصر من الأعراب**، ورسالة **الإلمام بما في الحبشة من ملوك الإسلام**، والقلقشندي في **صبح الأعشى**، والحمداني وابن اياس والجبرتي إطناباً يدل على استمرار حركتها وعظيم جيشانها، وسعة انتشارها، طيلة القرون التي أعقبت الفتح، بحيث لم يكد يخلو منهم دور وناحية، ومما وصف حاضره في وادي النيل خاصة نعوم شقير في كتابيه **تاريخ السودان**، و**تاريخ سيناء**، ومما تتمثل آثاره وحقيقته في العدد العظيم من القبائل العربية التي تحتفظ إلى اليوم بتقاليدها وأسمائها العشائرية، وتنتشر في جميع أنحاء مصر، وسيناء والسودان والحبشة والصومال، ويبلغ عددها الملايين العديدة، ويبلغ عددها في مصر وحدها مليوناً وربع مليون، عدا الأعداد الكثيرة الذين اندمجوا خلال هذه القرون في حياة المدن والقرى، والذين لا يحصون في أحيان كثيرة، ولا تخلو منهم ناحية ولا قرية ولا حي في مدينة، والذين لا يتميز عنهم السكان الأصليون بشيء من الملامح والعادات والذين لا يزال كثير منهم يحتفظون مع ذلك بأنسابهم وتقاليدهم وذكرياتهم العشائرية(٥٧)، بحيث يصح أن نقول إن دعوى اتصال النسب

والجنس بين سكان مصر، منذ أقدم أزمنة التاريخ، وبين سكان جزيرة العرب، ليست قائمة على عاطفة وتخمين، وغير مستندة إلى علم، أو أنها شيء من مجاهل التاريخ الذي يتحمل الأخذ والرد والنفي والشك، وإنما هي حقيقة علمية، تسندها أدلة تاريخية وثيقة، ودراسات وأقوال خبراء موثوقين، وواقع لم ينقطع مدده وفيضه.

ونتيجة للانسياح العربي الجنس الذي بدأ قبل العصور التاريخية الوثيقة، واستمر بعدها، غدت الصبغة العربية ـ والمؤلفون يسمونها الصبغة السامية ـ قوية البروز في اللغة المصرية القديمة. وقد قرر هذا بريستيد، وغيره من العلماء، على ما تفيده النبذ التي أوردناها عنهم. ولقد أثر عن العالم الأثري المصري الشهير أحمد كمال، أنه وضع قاموساً فيه آلاف المفردات المصرية القديمة، المتشاركة في المعنى والمبنى مع المفردات العربية، كدليل على ما قرره، وأوردناه قبل، نقلاً عن كتاب تاريخ السودان العام للدكتور حسن كمال، من أن أصل اللغة المصرية، واللغة العربية واحد، لأن أصل المصريين من جزيرة العرب[٥٨]. وهناك مستشرق ألماني اسمه أرمان، ألف كتاباً بيّن فيه ما بين اللغة المصرية واللغات السامية ـ العربية حسب اصطلاحنا ـ من توافق، حيث ينطوي في هذا نفس الدلالة في صدد اللغة والجنسية المصرية. ولقد اعتنق كثيرون برأي أرمان هذا، حتى لقد قرر بعضهم أن اللغة المصرية هي لغة سامية محضة[٥٩]. ومع أن هناك من يتحفظ إزاء هذا التعميم، بسبب ما بين اللغة المصرية القديمة واللغات الأفريقية من تقارب، أو توافق، فإن هذا الفريق المتحفظ، لا ينكر قوة بروز العنصر السامي ـ العربي حسب اصطلاحنا ـ في اللغة المصرية، وكل ما يقوله: إن اللهجات البربرية أو اللوبية والكوشية في هذه اللغة بارزة بروز اللغات السامية فيها[٦٠].

ولقد نقل إلينا وسيط بيننا وبين المؤرخ المصري الجليل سليم حسن رأياً قوياً في هذا الصدد، حيث قال للوسيط إن ٦٥٪ على الأقل من اللغة المصرية القديمة، هي سامية. وهذا أكبر علماء هذه اللغة في مصر، إن لم يكن في جميع البلاد[٦١].

ولقد احتوى معجم ياقوت الحموي، المتوفى في القرن السابع الهجري، أسماء مئات من القرى والقصبات المصرية التي تحمل السمة المصرية القديمة، والتي كانت تطلق إلى عهده امتداداً للقرون القديمة السابقة للإسلام والعروبة الصريحة، والتي تبدو عليها لمحة العروبة المتقدمة، على دور العروبة الصريحة قليلاً، أو كثيراً، بناء ومعنى. مما يمكن أن يكون فيه دليل على اتصال النسبة بين المصريين القدماء الذين أنشأوها وبين الجنس العربي، مع التنبه، على أن معجم ياقوت، لم يحتو إلا الأقل من أسماء قرى وقصبات مصرية حاضراً، تحمل أسماء قديمة لم ترد فيه. وهذه جملة منها في مقام الشاهد على ذلك.

ابشاي ـ ابليل ـ ابنود ـ ابريط ـ ايبوهه ـ اتريب ـ اتنوهه ـ داخيمم ـ اخنا ـ ادفو ـ ادفه ـ ارمنت ـ اسوان ـ اسيوط ـ اشمون ـ اشنين ـ اطفيح ـ اطسا ـ أفوى ـ اقصر ـ إقنا ـ انضا ـ يبا ـ يبشي ـ بذقون ـ بذرمان ـ بردنيس ـ برديس ـ بركوت ـ برلس ـ بلبيس ـ سلجوت ـ بنها ـ بوب ـ بوتيج ـ بومير ـ بويط ـ بهجورة ـ بهنسا ـ تتا ـ ترنوط ـ تزمت ـ تنده ـ تيده ـ جرجير ـ جيزة ـ

حلوات ـ حيـدين ـ دجرجـا ـ دجوه ـ دسبنـدس ـ دشنتي ـ دقهله ـ دلاص ـ دماط ـ دمسيس ـ دفقله ـ دمنهور ـ دمنور ـ دميـره ـ دمياط ـ دنجـوية ـ دومـرية ـ دهثمـون ـ دهروط ـ دهشـور ـ ديرابشيا ـ دير ابو منا ـ دير أبي نجوم ـ دير أبي سوبرس ـ دير أبي هور ـ دير طمويه ـ دير طورسينا ـ دير القلمون ـ زفتا ـ زويلة ـ سخا ـ سرسنا ـ سرياقوس ـ سفط أبي جرجا ـ سفط عُرفا ـ سفط قدور ـ سلطيس ـ سلمنت ـ سمخراط ـ سمـديسة ـ سمسـطا ـ سملوط ـ سمنود ـ سمهـوط ـ سنيور ـ سندبلس ـ سندقا ـ سندور ـ سنطه ـ سنهور ـ سواكن ـ سوهاي ـ سويس ـ سهواج ـ سهو ـ سيْله ـ سينا ـ شبشر ـ شوموه ـ شرقيون ـ شرونه ـ شطا ـ شـطب ـ شطنـوف ـ شميرق ـ شندوخ ـ شنودة ـ شبين ـ صا ـ صات ـ صنت ـ صهرجت ـ صربيط ـ طبندا ـ طقيثا ـ طحـا ـ طحطوط ـ طرا ـ طرابيه ـ طلخا ـ طغت ـ طنشتا ـ طوخ ـ طوّه ـ طهرمس ـ طهنه ـ طهنـطور ـ طيبه ـ طينه ـ عريش ـ عيذاب ـ فاقوس ـ فرشوط ـ فرطسا ـ فرما ـ فشن ـ فوّه ـ فيشة ـ فيـوم ـ قالوص ـ قرطسا ـ قرقشنده ـ قسا ـ قطية ـ قنط ـ قلوسنا ـ قِفًا ـ قوسينا ـ قوص ـ مراغه ـ مراقيه ـ مرصفا مسبر ـ مطريه ـ ملقس ـ منبونه ـ متف ـ منفلوط ـ منقباط ـ منوف ـ منيمون ـ منية زفتا ـ منية شنشا ـ منية شيرج ـ منية غمر ـ منية قوص ـ ميمون ـ نوبه ـ نهيا ـ وردان ـ وسيم.

وننبه على أننا لم ننقل من المعجم ما جاء في صيغة عربية فصحى وهو كثير، ولا يستبعد أن يكون كثير من الأسماء العربية الفصحى، مطلقة على أعيان مصرية قديمة.

ولا تزال مئات القرى والقصبات المصرية تسمى بأسماء قـديمة، تلمح عليها لمحة العروبة المتقدمة على دور العروبة الصريحة، قليلاً أو كثيراً بناء ومعنى، امتداداً للقرون القديمة السابقة للإسلام والعروبة الصريحة، مما فيه كذلك دلالة أخرى على ذلك الاتصال. وكثير منها لم يرد في معجم ياقوت. وهذه جملة اقتبسناها من **الخطط التوفيقية الجديدة** التي ألفها علي مبارك في أربعة مجلدات، مقسمة إلى عشرين جزءاً، وهي مطبوعة في المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق سنة ١٣٠٦ هجرية.

ابريم ـ ابسوج ـ ابشاده ـ ابناس ـ ابنوب ـ ابوتيج ـ أبو جوان ـ أبو صير ـ ابو كسـا ـ أبو كلس ـ أبيار ـ أتريب ـ أجا ـ أجهور ـ اخميم ـ اخنا ـ ادفا ـ ادفو ـ ادكو ـ اسنون ـ اسنا ـ اسوان ـ اشمنت ـ اشمون ـ اشمونين ـ اسطال ـ اصطا ـ اطفيح ـ اطيا ـ ام دومه ـ آمون ـ انبابه ـ انبو ـ انشاص ـ انصنا ـ انطيل ـ اهريت ـ اهتاس ـ ايله ـ بابل ـ باجور ـ باقور ـ بانوب ـ ببـا ـ ببلا ـ بتنون ـ بجام ـ بجاوه ـ بجيرم ـ بداري ـ بدرشين ـ براوه ـ بردين ـ برشه ـ برشوم ـ برما ـ برمون ـ برنبال ـ برنبل ـ بسطه ـ بسيون ـ بشبيش ـ بشـواي ـ بصري ـ بقيـره ـ بلاق ـ بلبيس ـ بلتـان ـ بلقاس ـ بلقينه ـ بلاص ـ بليتا ـ بنبت ـ بنبان ـ بنجا ـ بنها ـ بنهو ـ بنود ـ بني‌سويف ـ بهبيط ـ بهيتم ـ بهجورة ـ بهتا ـ بهيتا ـ بوش ـ بـوصير ـ بـوطه ـ بـوقرقـاص ـ بوقيـر ـ بولاق ـ بـويط ـ بيسوس ـ بيله ـ بيوم.

تبين ـ تتا ـ ترسا ـ تلا ـ تلبانه ـ تل حاوين ـ تل راك ـ تله ـ تمى ـ تلوانه ـ تنده ـ تنيس ـ تونه ـ تيره ـ تروجه ـ تفهنا ـ تلبنت.

جاولى ـ جبرو ـ جبلاو ـ جدريه ـ جرجا ـ جردات ـ جرده ـ جره ـ جرنوس ـ جروان ـ جيزة ـ جلف ـ جناح ـ جنان ـ جحزور ـ جوسق.

حرافشة ـ حجازه ـ حانوت ـ حفن ـ حفنة ـ حلوان ـ دجوه ـ دارو ـ در ـ دروط ـ دسوق ـ دشطوط ـ دشنا ـ دفرا ـ دفته ـ دقدوس ـ دقهله ـ دلتا ـ دلجه ـ دماص ـ دمامين ـ دمرو ـ دمشيت ـ دمنهور ـ دموه ـ دمياط ـ دميره ـ دندره ـ دندنا ـ دهسه ـ دهشو ـ دوير ـ دونيه ـ ديرب ـ دبرين ـ دلاص ـ ديما ـ ذروه.

رادسيه ـ راكوتي ـ رقه ـ رودانيه ـ ريرمون ـ ريفه ـ زاره ـ زرابي ـ زرقا ـ زرقان ـ زقازيق ـ زفته ـ زوامل.

سيلين ـ سجين ـ سحيم ـ سخا ـ سمثود ـ سدود ـ سرسن ـ سرمون ـ سرو ـ سفط ـ سفط ميدوم ـ سفيسطة ـ سلاقوس ـ سلطيس ـ سلكه ـ سلموت ـ سليمات ـ سماحات ـ سمادون ـ سمالوط ـ سماليج ـ سمنود ـ سمهود ـ سنباط ـ سنبور ـ سنبلاوين ـ سنجا ـ سندوب ـ سندفا ـ سندسيس ـ سندنهور ـ سنديون ـ سفطه ـ سنهور ـ سنورس ـ سنيطه ـ سنيكه ـ سواده ـ سوهاج ـ سويس ـ سيفه ـ سيله ـ سيزو ـ سيوف ـ سيوه ـ سيوط.

شارونه ـ شباس ـ شبانات ـ شبري بابل ـ شبرا خيت ـ شبرا دمنهور ـ شبرى سندس ـ شبرى صوره ـ شبرى فاش ـ شبرى قاص ـ شبرى فلوج ـ شبرى قباله ـ شبرى ملس ـ شبرى ملكات ـ شبرى منت ـ شبرى نطول ـ شبرى نونه ـ شبرى نيس ـ شبرى هارس ـ شبرى هور ـ شبرى وسيم ـ شبرى ويش ـ شبشر ـ شربين ـ شرشمه ـ شرونه ـ ششت ـ شطا ـ شطنوف ـ شعشاع ـ شعلقيل ـ شكينه ـ شمشمون ـ شلفان ـ شنبارو ـ شنسا ـ شنشور ـ شنوان ـ شها ـ شوبر ـ شوبك ـ شوف ـ شبين الكوم ـ شمس.

صان ـ صدفه ـ صنفين ـ صنافر ـ صوره ـ صراوه ـ صهرجت.

طانبيس ـ طاروت ـ طاشبرى ـ طما النحل ـ طحا بوش ـ طحا البشا ـ طحا العمودين ـ طحا المرج ـ طحا نوب ـ طحلا طرا ـ طلخا ـ طرانبه ـ طرافيه ـ طرانه ـ طرهونه ـ طليا ـ طما ـ طماي ـ طميه ـ طمويه ـ طملوها ـ طنياره ـ طنبول ـ طنبدا ـ طهطا ـ طهنا ـ طوبه ـ طوخ دلكه ـ طوخ طنبشا ـ طوخ قراموص ـ طوخ مدين ـ طبه ـ طينه ـ طيوه ـ عجرود ـ عجره ـ عدوه ـ عرابه ـ عمريش ـ عرين ـ عزبة شلقان ـ عزبة المناشي ـ عسيرات ـ عشما ـ عفادره ـ عنيبس ـ عونه ـ عيذاب ـ غراقه ـ غمازه ـ غمرين ـ غورى ـ غنبه ـ غيفه ـ فاران ـ فاراس ـ فاقوس ـ فدمين ـ فرشوط ـ فرما ـ فشن ـ فوّه ـ فيشه ـ فيوم.

قاد ـ قابات ـ قباب ـ قراقص ـ قرنفيل ـ قرين ـ قصرهور ـ قصر رشوات ـ قضابه ـ قطريا ـ قطيفه ـ قطيعه ـ قفط ـ قلشان ـ قلقشنده ـ قلما ـ قلوسنا ـ قليوب ـ قلين ـ قمانه قولى ـ قنا ـ قنيات ـ قوميه ـ قويسنه.

كانوب ـ كدايه ـ كرداسه ـ كريون ـ كفر الباجور ـ كفر الباز ـ كفر البرمون ـ كفر حشاد ـ كفر حكيم ـ كفر داود ـ كفر ديما ـ كفر بيع ـ كفر الزيات ـ كفر عزاز ـ كفر العيص ـ كفر اللاوندى ـ كمشيش ـ كنيسة الغشاشة ـ كنيسة سردوس ـ كنيسة دمشيت ـ كنيسة شبرى ـ ثور ـ الكوم ـ كوم اشفين ـ كوم امبوها ـ كوم مرتبين ـ كوم دربي ـ كوم روس ـ كوم زمران ـ كوم نطون ـ كياد دجوه.

لاهوت ـ لقانه ـ لقين.

ماي ـ مجدول ـ مشاق ـ مخنان ـ مدين ـ مرصفا ـ مريوط ـ مسير ـ مسيد ـ مطاى ـ مطرطارس ـ مطريه ـ معصرة دوده ـ معصرة اطفيح ـ معنبه ـ مفاغه ـ ملطه ـ ملوى ـ مليج ـ منارجه ـ منا ـ منبال ـ منشاة سدود ـ منشاة شنوان ـ بها ـ منطاى ـ منفلوط ـ منف ـ منوف ـ منقريش ـ منيا ـ منية ابيار ـ منية اشنا ـ منية اندونة ـ منية بز ـ منية برا ـ منية بندرا ـ منية جناح ـ منية جيش ـ منية حلفا ـ منية حلوج ـ منية دمياط ـ منية دينى ـ منية رهينه ـ منية زرافه ـ منية زنقر ـ منية سمنود ـ منية سنتا ـ منية سندوب ـ منية شبرى ماس ـ منية شاس ـ منية شنتنا عباس ـ منية شندى ـ منية شهاله ـ منية شببين ـ منية شيرج ـ منية صافور ـ منية بشنين ـ منية طبيل ـ منية طوخ ـ منية عزوت ـ منية غريط ـ منية عمر ـ منية فرمادى ـ منية قادوس ـ منية قلين ـ منية نحال ـ منية نما ـ منية ميدوم.

نارادوس ـ نبتيت ـ نبروه ـ نجيله ـ نحراريه ـ نزه ـ نشرت ـ نشيل ـ نفره ـ نقيطن ـ نهبا ـ نواج ـ نواى ـ نوسا ـ نويره ـ نيده ـ ثيشوط ـ هربيط ـ هلبا ـ هله ـ هُوّه ـ هور مهيار ـ وادي هيب ـ وادي حلفا ـ وادي بحر بلاما ـ الوايلي ـ واقدا ـ وراده ـ وراق ـ وردان ـ وسيم ـ ونا.

ولم ننقل الأسماء الفصحى العربية ولا المضافات الفصحى لكلمات منية وسفط وشبرى وكوم التي يبدو أنها كلمات عامة، تعني قرية أو عزبة أو حصناً، والتي نرجح أن مضافاتها الفصحى قد أطلقت على أسماء قديمة لقرى أو قصبات قديمة.

وكثير من هذه الأسماء مماثل لأسماء كنعانية وآرامية وكلدانية وبابلية وعمورية ـ وهذه أرومات وقبائل طرأت على بلاد الشام والعراق من جزيرة العرب، وسماها المؤرخون الغربيون ساميين ـ سميت بها مدن وقرى عراقية وشامية ـ وما تزال تطلق على أعيان قائمة في بلاد الشام والعراق، مما سوف يتبين من الأسماء التي سنوردها في الجزئين الثالث والرابع، ومما فيه دلالة ما على وحدة الجنس.

وقد تكون صيغ الأسماء التي نقلناها من الخطط، ومعجم ياقوت، قد جاءت بصيغةٍ أو أوزان عربية، نتيجة لانطباع مصر بطابع العروبة الصريحة بعد الفتح الإسلامي. وقد لا تكون بعض الأسماء هي نفسها التي سميت بها المدن في التاريخ القديم، ولكن التروي فيها يثبت أن كثيراً منها، إن لم نقل أكثرها، عليه سمة القدم السابق كثيراً للفتح الإسلامي، ويحمل في الوقت نفسه اللمحة العربية القديمة، معنى ومبنى، بحيث يسوغ القول إن الأسماء التي ليست

هي نفس الأسماء القديمة، هي أيضاً تسميات أطلقتها موجات عربية الجنس متأخرة الطروء، وهذا وذاك، يلمح في تسميات بلاد الشام والعراق كذلك.

يضاف إلى هذا ما يلمح من اللمحة العربية القديمة، على كثير من أسماء الفراعنة، ورجال دولتهم، ومعبوداتهم ومدنهم، على ما سوف يأتي في ثنايا فصول الكتاب.

فكل ما قدمناه يجعلنا نقرر بشيء من الوثوق، أن الموجات العربية انساحت إلى مصر منذ عصور ما قبل التاريخ، ثم ظلت تنساح إليها خلال العصور التاريخية بدون انقطاع، حتى غدت العنصر الغالب من سكان مصر القدماء، وإن هذا يسوغ أن يسلك تاريخها في سلك تاريخ الجنس العربي، خلافاً لما جرى عليه المؤرخون.

ومن الحق أن نقرر أن الليبيين الذين لا يعرف على وجه التحديد جنسهم الأصلي والذين يذهب بعض الباحثين إلى أنهم امتداد لموجات سامية الجنس ـ عربية الجنس ـ طرأت على وادي النيل، قبل الأزمنة التاريخية، مؤيدين رأيهم بالأوصاف البيولوجية للجنس الأبيض، التي يشترك فيها الجنس العربي، أو ما يسمونه بالساميين ـ كانوا وظلوا ينساحون إلى مصر من ناحيتها الغربية في مختلف حقب التاريخ، ويستوطنون خاصة قسمها الأوسط. وكان لهم في بعض الظروف دولة فيه، وكانوا ذوي كثافة نوعاً ما. غير أنهم لم يكونوا كثرة كبيرة، من شأنها أن تغمر مصر، وتصبغها بصبغتها، كما كان شأن الموجات السامية ـ العربية التي صبغت مصر بصبغتها، وعممت فيها لغتها على ما ذكره بريستيد وغيره، وأوردناه في النبذ السابقة.

ومن الحق كذلك أن نقرر، إنه كان يطرأ من بلاد النوبة، أو من البلاد التي كانت تسمى بلاد كوش موجات على مصر الجنوبية، وتستوطنها قبل التاريخ المعروف وبعده، غير أن هذه الموجات ليست زنجية على كل حال، وهناك باحثون يقررون أنها قبائل سامية الجنس ـ أي عربية ـ تسربت إلى هذه البلاد من طريق الصومال، وسواحل أثيوبيا، بعد تسربها من جزيرة العرب، فامتزجت بعناصر زنجية، فغدت ذات سمة ولهجة خاصة متميزة، مع بقاء غلبة العنصر السامي العربي، وملامحه عليها(٦٢).

ومن الحق كذلك أن نقرر، أنه طرأ على مصر جماعات من جنس أبيض غير عربي، من طريق البحر الأبيض، ونعني بهم اليونانيين، ومن إليهم، من سكان شواطىء أوروبا الجنوبية، وجزر هذا البحر.

ولكن ذلك إنما بدأ يحدث في عهد متأخر، أي قبل الميلاد المسيحي بنحو ألف وثلاثمائة سنة، ولم يكن الطارئون مع ذلك جماعات كثيفة، من شأنها أن تغمر مصر، فضلاً عن أنَّ المصريين لم يأنسوا بهم، وكانوا ينظرون إليهم بعين المقت، ويعتبرونهم انجاساً، ويتجنبون معاشرتهم على ما ذكره المؤرخون، استناداً إلى الروايات والمدونات القديمة(٦٣).

ولقد لبثت مصر تحت حكم اليونان والرومان نحو ألف سنة، ٣٣١ ق. م. ـ ٦٤٠ ب. م. وقدم إليها منهم، وخاصة من اليونانيين، الآلاف المؤلفة، وتوطنوا فيها، ونشروا

لغتهم وثقافتهم. وقد جمع بينهم وبين المصريين الدين النصراني نحو أربعة قرون، وترجمت كتبه المقدسة إلى اليونانية، وصارت لغة عبادة وطقوس، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يفرضوا طابعهم على مصر، بل ظل المصريون، كما ذكرنا آنفاً، منقبضين عنهم، يتحرجون من معاشرتهم، فضلاً عن الامتزاج أو الاندماج فيهم، في حين أنه لم يمض على قدوم موجة الفتح العربية الكبرى، وما بعدها، تحت راية الإسلام، إلا بضعة أجيال، حتى أخذ الطابع العربي الصريح يطبع مصر وأهلها، إلى أن تمت له السيادة الخالدة المقدسة، وليست من تفسير معقول لهذه الظاهرة، إلا وحدة الأرومة والروح والدم والجنس والمنبت التي تجمع بين هذه الموجة، وما بعدها، وبين معظم سكان مصر القدماء.

وقد يورد البعض في هذا المقام أن تاريخ العروبة في ظل الإسلام في مصر، قد سجل مواقف عديدة تحررية وثورية من سكان مصر، ضد حركة الفتح، ثم ضد السلطان الإسلامي العربي في القرون الثلاثة الأولى بنوع خاص، كما قد يورد بعض آخر أن العروبة والإسلام في مصر قد توطدتا بقوة الفتح أو السيف، كما يحلو لهم ترديده أحياناً. فمن جهة النقطة الأولى نقول: إن ذلك لم يكن عاماً، بل كان من شراذم من جهة، وإن التاريخ سجل مقابله مواقف إيجابية من الأقباط نحو الفاتحين، أوسع وأعم من جهة أخرى، وإن ما كان منه قد كان لأسباب أخرى، منها الاعتبارات الدينية التي كانت في تلك الظروف، هي المؤثر الأشد في حياة البشر؛ ومنها ما كان بقي في مصر من عناصر يونانية ورومانية، مضافاً إليها ما كان من صنائع ومأجورين للرومان، من أهل البلاد، وما كان من هؤلاء من متمذهبين بالمذهب الملكي المسيحي الروماني، الذين كانوا أقلية، بالنسبة لأكثرية أهل مصر، المتمذهبة بالمذهب اليعقوبي، حيث كانت هذه العناصر تستجيب لتحريض الرومان. ولقد كان مثل هذا في بلاد الشام والعراق من المتمذهبين بالمذهب الملكي والعناصر اليونانية الرومانية، بل وكان مثل ذلك من قبائل صريحة العروبة، مثل بني تغلب والنمر وعقه وبهراء وجذام وبلى وغسان... إلخ[٦٤]. ومن جهة النقطة الثانية نقول إن اليونان والرومان فتحوا مصر وحكموها ألف سنة، فلم يقلبوا أهلها يونانيين ولا رومانيين من جهة، وإن أحسم دليل على تفاهة ذلك القول، هو من جهة أخرى احتفاظ من رغب في الاحتفاظ بدينه منذ الفتح الإسلامي إلى اليوم!

ونحن إذ نتبنى دعوى كون دم كثرة سكان مصر القدماء، مع الذين كان لهم الحكم والسلطان فيها قبل قيام المملكة المتحدة الأولى وبعدها، هو دم موجات قدمت إلى مصر من جزيرة العرب، ونورد خلاصة أقوال العلماء والباحثين في ذلك، ونسوق البراهين والقرائن والشواهد من آثار المصريين القدماء ولغتهم وأوصافهم ومسمياتهم وصورهم ومحنطاتهم، من الوقائع التاريخية اليقينية المستمرة، لا نريد أن ننفي تأثر هذه الموجات بالبيئة الطبيعية والاجتماعية، واختلاط دمائها بدماء أمم أخرى، كانت في مصر قبل مجيئها وبعده ـ قبل الإسلام ـ وتأثرها بأصحاب هذه الدماء لغة وعادات، واكتسابها بذلك كله شخصية خاصة نوعاً ما، في الأرض الجديدة التي حلت فيها[٦٥]. غير أننا نتوخى بذلك من جهة تقرير الحقيقة التاريخية المتصلة بالواقع المستمر، منذ عشرات القرون قبل الميلاد، والمؤيدة بالشواهد المتنوعة، وتقارير

جمهرة من العلماء والباحثين، والتدليل على أن عروبة مصر الحاضرة، هي امتداد لما كان من عروبتها التي سبقت الإسلام بعشرات القرون؛ وتصحيح التوجيه التاريخي بالنسبة لتاريخ مصر القديم، وسلكه في سلك تاريخ الجنس العربي، استناداً إلى حقيقة صلة منبت هذا الجنس بمصر منذ أقدم الأزمنة، وانسياح موجاته المتوالية إليها منذ آلاف السنين دون انقطاع، وغلبة طابعها عليها، ومن جهة أخرى إحباط مكر المستعمرين والمبشرين المغرضين وتلامذتهم، وأعداء العروبة الذين تتجاوز مكابرتهم كل حد ومنطق، فيتجاهلون ويكابرون، حتى في ما سجلته الآثار المصرية القديمة من محاولات التسلل العربي الجنس إلى مصر من شمالها وجنوبها، ومن نجاح كثير من هذه المحاولات بصورة واسعة حيناً وضيقة حيناً. ويتجاهلون كذلك السيل العربي الصريح الذي أخذ يتدفق على مصر، منذ الفتح الاسلامي إلى الآن، دون انقطاع، ويغمر مدنها وقراها وصحاريها، استمراراً لما كان يجري قبل دور العروبة الصريحة، والذي تفوق أعداده أعداد سكان مصر قبل الإسلام أضعافاً مضاعفة، والذي يتمثل في كل ناحية من أنحاء مصر، وفي كل مظهر من مظاهر حياتها وتقاليدها ولغتها تمثلاً شاملاً قوياً، بقصد فصل تاريخ مصر عن تاريخ العرب، ليوقروا في أذهان المصريين وهن الصلة بينهم وبين العروبة الأصيلة، ويجعلوهم يعتبرون العرب الذين جاؤوا هذه المرة، تحت راية الإسلام، غزاة كسائر الغزاة الذين طرأوا على مصر، ووطدوا حكمهم عليها بالقوة العسكرية وحسب؛ وكون ما هنالك من فرق، هو أنهم أعطوا مصر دينهم ولغتهم، كما كان وما يزال يبث همساً تارة وصراحة تارة أخرى. حتى لقد جاء وقت حاربوا فيه مظاهر الإسلام والعروبة أشد حرب، وحاولوا أن يجعلوا النعرة الفرعونية أصلاً في الحياة المصرية وأمجادها، بزعم أنها تغطي مع الزمن على النعرة العربية الإسلامية، جاهلين أو متجاهلين أن معظم الأسر الفرعونية التاريخية من الجنس العربي، ودعوا إلى نبذ اللغة الفصحى والاكتفاء باللغة الدارجة أملاً بأن تتطور حتى تبتعد عن أصلها، وتغدو لغة خاصة، فتنقطع بذلك الصلة بين العروبة ومصر بزعمهم.

وهذا بالاضافة إلى أننا حينما نقرر صلة المصريين القدماء بالجنس العربي، أو بكلمة أدق، حينما نبرز هذه الصلة، نكون قد أبرزنا سعة نطاق نشاط الجنس العربي وحيويته في مختلف المجالات الفكرية والأدبية والحضارية والسياسية والعسكرية، حينما برز هذا الجنس على مسرح مصر القديمة، التي كانت مصدراً رئيسياً من مصادر الحضارة البشرية التي شعت على العالم، وكانت من مشاعل هداية البشر وحضارتهم الأولى من جهة، ونكون من جهة أخرى قد وصلنا بين حيوية العروبة في دورها الصريح، على مسرح مصر، وبين حيويتها عليه قبل هذا الدور، فصار من ذلك سلسلة متصلة الحلقات، يمسك بعضها بعضاً من جهة أخرى.

ولقد سلك المؤرخون(٦٦) تاريخ المعنيين والسبئيين والقتبانيين والحضرموتيين في جنوب جزيرة العرب، والهيجانيين والتموريين في شمالها، والنبطيين والتدمريين في بلاد الشام، والرهاويين في حوض الفرات في سلك التاريخ العربي القديم، وسلك بعضهم(٦٧) تاريخ الرعاة في مصر، وأسرة حمورابي في العراق في هذا السلك. ولم تكن هذه الأمم تتسمّى باسم العروبة، وتتكلم العربية الصريحة. وقد فعلوا ذلك بسبب انتمائهم جميعاً إلى جزيرة العرب، وتشاركهم في اللغة والعادات والأفكار، على ما شرحناه في مقدمة الكتاب. وما دام هذا هو شأن

معظم سكان مصر ودولها، على ما قدمنا عليه الشاهد، وأيده جمهرة الباحثين، فلا غبار في اعتقادنا على ما فعلناه.

رابعاً: تمهيد في صلة العراق بجزيرة العرب وموجاتها إليه ومصادر تاريخ هذه الموجات فيه

مقدمة الجزء الثالث من كتاب تاريخ الجنس العربي ص (٣ - ٢٢).

(المحرر)

- ١ -

ليس هناك من يماري في طروء جماعات أو موجات متلاحقة إلى العراق، في مختلف أدوار التاريخ القديم، ما يسمى «ساميين»، وسميناهم «الجنس العربي»، وغلبة طابعهم على هذا القطر، وعلى من كان فيه، قبل طروئهم المعروف من غير جنسهم، أو جاؤوا إليه، بعد أن أخذو يطرأون عليه، وعدّوه بذلك مهجراً من مهاجر جنسهم، وموطناً من مواطنهم الثابتة.

وإذا كان هناك من يتوقف في التسليم بأن جزيرة العرب، هي موطن ما يسمى ساميين، أو يتردد في القول إن الموجات السامية أي العربية الجنس، حسب اصطلاحنا، التي طرأت على العراق، قد جاءت من جزيرة العرب، فإن من هؤلاء من يقول: إن جرثومة الساميين التي قد يكون موطنها الأصلي غير جزيرة العرب، قد نزحت إلى هذه الجزيرة، ونمت فيها، ثم أخذت تهاجر منها إلى العراق وغيره لأسباب اجتماعية وجغرافية مختلفة. هذا إلى أن أكثرية الباحثين، يقررون أن جزيرة العرب هي موطنهم، وأن الجماعات أو الموجات المتلاحقة التي جاءت إلى العراق، قد جاءت منها، حيث نزح بعضها من جنوب الجزيرة إلى شواطئها الشرقية على بحر الهند، فالخليج العربي فالعراق، وبعضها من شمالها، أي بلاد الشام، فالعراق(٦٨). وكانت وظلت متشاركة في اللغة والتقاليد والعادات، تشاركاً يدل على انتمائها إلى جنس واحد، هو الذي سميناه الجنس العربي، دون الاسم الحديث «الساميين»(٦٩)، لأن ذلك التشارك كان وظل قائماً بينهم وبين أشقائهم الذين بقوا في جزيرة العرب، والذين تطورت عروبتهم غير الصريحة إلى العروبة الصريحة، وغدوا يتسمون بسمتها، ويُسمون باسمها، على ما شرحناه في مقدمة الكتاب في الجزء الأول(١)، وذكرنا دلائله ومصادره، وعلى ما نعتقد أن فيه المقنع، لمن لا يريد المكابرة، والتزمت باسم العلم، وعلى ما سوف نزيده توكيداً في ثنايا هذا الجزء.

ولقد جاء في كتاب **القرون القديمة** لبريستيد(٧٠)، في فصل بلاد بابل، أن حركة الهجرة من البادية إلى الهلال الخصيب، بدأت من ألوف السنين، واستمرت، وتمكن القائمون بها من فرض سيادتهم الجنسية عليه، برغم ما كان فيه، أو جاء إليه من عناصر ليست سامية الأصل،

وكانت هذه الهجرة تزداد أحياناً، وتعظم، حتى تصبح تياراً جارفاً، يحمل القبائل الرحّل من القفر البلقع إلى هذا الهلال، فتغشى المدن والقرى، كما تغشى المياه الأرض. وكان الطرف الشرقي من الهلال الخصيب، مقابل الضفاف السفلى لدجلة والفرات، من أهداف هجرة هذه القبائل ومستقرها.

ولقد جاء القسم الأول المخصص لتاريخ العراق القديم، من كتاب **مقدمة في الحضارات القديمة** لطه باقر[٧١]، ان أكثر العلماء والباحثين، يقررون أن جزيرة العرب هي مهد الأقوام السامية (أي العربية حسب اصطلاحنا)، وأن موجات متعاقبة في أزمان مختلفة كانت تنزح منها إلى بقاع الهلال الخصيب، ثم تستقر فيها وتكون حضارات ذات شأن كبير في تاريخ العالم. وإن مما لا شك فيه أن هذه الهجرات بدأت منذ أقدم الأزمان في عصور ما قبل التاريخ، وكان العراق مفتوحاً أمامها فاستوطنته، وطغت على حياة العراق، ومعظم الشرق الأدنى!

ولقد تكون دماء الموجات العربية التي طرأت على العراق، اختلطت بدماء من كان قبلها فيه من غير جنسها، أو جاؤوا إليه بعد أن أخذوا يطرأون عليه. ولقد تكون اكتسبت شخصية خاصة نوعاً ما في الأرض الجديدة، التي حلت فيها وتأثرت بأولئك الذين هم من غير جنسها، في اكتساب هذه الشخصية. غير أن هذا لا يغير من الأمر شيئاً كبيراً في اعتقادنا، ما دامت هذه الموجات قد جاءت من جزيرة العرب، وظل طابعها هو الغالب على العراق وعلى من فيه من غير جنسها، وظلت كذلك تحتفظ بكثير من خصائص جنسها ولغته وتقاليده، على ما ذكرناه في مقدمة الكتاب أيضاً.

ولقد كان من تلاحق موجات الجزيرة العربية المعروفة يقيناً إلى بلاد العراق في دور العروبة الصريحة قبل الإسلام وبعده، وما قام وظل يقوم من صلات وثيقة من هذه البلاد وجزيرة العرب، وما كان من استمرار التشارك في اللغة والخصائص والتقاليد والعقلية بين هذه الموجات الصريحة، والموجات التي قبلها، مما أكّد وقوّى وخلّد ذلك الطابع على العراق، وجعل دعوى انتماء تلك الموجات إلى العروبة وجزيرة العرب محكمة حاسمة.

ويكفي أن يدقق المرء في أسماء الأعلام العراقية، ونعني قرى العراق وقصباته وأنهاره التي تحمل لمحة العروبة المتقدمة على دورها الصريح. ويكفي كذلك أن يقارن بين مفردات لغات تلك الموجات، وبين مفردات اللغة العربية الفصحى، ليرى مصداق ذلك قوياً، لا يتحمل مراء.

ففي **معجم البلدان** لياقوت الحموي، المتوفى في القرن الهجري السابع، أسماء مئات من القرى والقصبات والاعلام التي تحمل لمحة العروبة المتقدمة، على دور العروبة الصريح. والتي لا شك في أنها تسمية تلك الموجات التي حلت في العراق وأنشأتها، قبل هذا الدور، كما سترى في القائمة التالية:

آلوسة ـ أبلّه ـ أيوآ ـ أبيسات ـ إتل ـ أتور ـ أثير ـ آجر ـ أخا ـ اخلاء ـ أربك ـ أربيل ـ

أرحاء ـ اروخ ـ أفاقه ـ أقور ـ ألوس ـ أمغيشيا ـ أستينيا ـ أنبار ـ أوانا ـ باأيوب ـ بابرتى ـ بابسير ـ بابل ـ بايونيا ـ باحباره ـ باجرا ـ باجريق ـ باجرمق ـ باجروان ـ باجسرا ـ باجميرا ـ باجوا ـ باخديدا ـ باخمرا ـ باخوخا ـ بادرايا ـ بادوريا ـ بارما ـ بارسما ـ باسورين ـ باشزي ـ باشمنايا ـ باصفرا ـ باصلوخا ـ باعربايا ـ باعذرا ـ باعشيقا ـ باعتوبا ـ باعيناثا ـ بافخارا ـ بافكى ـ باقداري ـ باقدار ـ باقرحا ـ باقسيانا ـ بامردى ـ باقطايا ـ باقطنايا ـ باكسايا ـ باكلبا ـ بانتيا ـ بادشنايا ـ بشتى ـ بامردثي ـ بشيلة ـ براثا ـ برجلات ـ برجونيه ـ برحايا ـ برطوبه ـ بردرايا ـ برملاحا ـ بازدغا ـ بزيقيا ـ بصره ـ باحيدا ـ بعتوبا ـ باقابوس ـ بتّه ـ بتيتا ـ بلحان ـ بثّار ـ بهاطيه ـ بنارق ـ بنورا ـ بوركى ـ بوصلابا ـ بوق ـ بونا ـ بيان ـ بتا ـ بتان ـ تامرا ـ تبل ـ ترجلة ـ تل أعفر ـ تل بونا ـ تل عقرفوف ـ تبنوك ـ تل ثوبه ـ توماثا ـ جاذر ـ جبانا ـ جبّل ـ جدال ـ جرجايا ـ جطا ـ جلاب ـ جلولاء ـ جُنّب ـ جنبلاء ـ جنده ـ جوبرة ـ جوخا ـ جويث ـ جيذا ـ جيران ـ جانيه ـ مرتي ـ مروراء ـ حضوض ـ حلوان ـ مريش ـ حله ـ حورتي ـ حولايا ـ حيرة ـ خرجاء ـ خيربن ـ خلبتا ـ خوسر ـ دامان ـ دبّا ـ دباها ـ ذبثا ـ درقيط ـ ربيثا ـ دبيرا ـ دُربا ـ درباشيا ـ درتا ـ دنبسر ـ دقوقاء ـ دمّا ـ دوران ـ ديالى ـ دندنه ـ دوغات ـ دنّ ـ ديرقوطا ـ دير باعربيا ـ دير ملوبا ـ دير سابر ـ دير عاقول ـ رامه ـ رجمان ـ رحبه ـ رصافة ـ زبارا ـ زوابي ـ زوزي ـ سامراء ـ سدير ـ سريا ـ سنينيا ـ سوراء ـ سونايا ـ شالها ـ شافيا ـ شانيا ـ شرتي ـ شوميا ـ شيطب ـ صابرينثا ـ صافيا ـ صريغون ـ عقرقوفا ـ عاقولا ـ عبدان ـ عدآن ـ عراده ـ عربايا ـ عانه ـ عكبرا ـ عيرتا عقرباء ـ غما ـ غرسا ـ فلوجا ـ قاذسية ـ قاطول ـ قاروث ـ قرّتا ـ قردتى ـ عقر ـ قرقيسيا ـ قريه ـ قُسياثا ـ فراشا ـ قصرزرتي ـ قطريل ـ قورين ـ قبراثا ـ قبين ـ قدوتي ـ قره ـ قصو ـ خيرين ـ قورا ـ كيسه ـ كراثا ـ كربلا ـ كرما ـ كرخايا ـ كرنبا ـ كفر(٧٢) جديا ـ كفرزمار ـ كلواذا ـ كوثى ـ كوفه ـ كافل ـ كفرعزا ـ كوكبا ـ ماذرايا ـ معلثايا ـ ميسان ـ ميمون ـ ماكسين ـ نابت ـ ناووسه ـ نجف ـ نخلا ـ نخيله ـ نصيبين ـ نغوبا ـ لغيا ـ نقيا ـ نهر أزّى ـ نهر بطاطيا ـ نهر بوق ـ نهر بيل ـ نهر جطى ـ نهر جوبره ـ نهر رفيل ـ نهر نيربا ـ سايس ـ نهر سورا ـ نهر قلا ـ نهر ناب ـ نهر وان ـ نيروه ـ نينوى ـ هيث ـ هاروت ـ هاطرتى ـ هُرت ـ رهفّه ـ هكة ـ ينسوع ـ ينبونه.

ولم ننقل من المعجم الأسماء التي غلبت عليها اللمحة الاعجمية، ولا التي جاءت بصيغة عربية فصحى، وهذه وتلك مع ذلك قليلة فيه، والمعجم لم يحتو جميع الأعلام والقرى والقصبات العراقية، بدليل وجود أسماء كثيرة تطلق على أعيان موجودة إلى اليوم، لم ترد فيه وعليها لمحة القدم.

وعلى كل حال، فإن كون جل ما أورده، مما تبدو عليه اللمحة العربية القديمة، المتقدمة على العروبة الصريحة، يدل على أن الموجات العربية القديمة، طبعت العراق بطابعها الذي ظل غالباً إلى زمن مؤلف المعجم.

ولقد ظل كثير من أسماء القرى والمدن والمواقع العراقية، يحمل لمحة العروبة القديمة، برغم ما طرأ عليها من تحوير وتبديل. وفيما يلي جملة من ذلك، ننقلها عن خريطة العراق

الادارية والطبيعية التي رسمها طعمه السعدي. ومنها ما ورد في معجم ياقوت، ومنها ما لم يرد، كما أن جملة مما ورد في هذا المعجم لم ترد في الخريطة، مما فيه مصداقية لما طرأ على الأسماء من تبديل وتغيير[٧٣] وفيها على كل حال الدلالة التي أردناها. والخريطة إلى هذا لم تذكر إلا المهم من القرى والقصبات:

أم الذيبان ـ أم الشبابيط ـ أبو نشكه ـ أبو سيده ـ أبو بويد ـ أبو عراجي ـ أبو قير ـ أبشان ـ أبو شدره ـ أم صبيجاب ـ الايلي ـ أم قطيه ـ أبو انعاق ـ أبو جسره ـ أبو حمسات ـ بعيشتفا ـ باقل ـ بجبيل ـ باطاس ـ بلاوا ـ بني بات ـ بنجوين ـ بكاس ـ بلد ـ بسمايا ـ بعقوبا ـ نجمى ـ بريت ـ بطيه ـ تل أسقف ـ تل أبطخ ـ تل أذات ـ تل عفر ـ تل أصقع ـ تل العاكول ـ تل لهين ـ تل دهر ـ تفيه ـ ثميل ـ جلبارات ـ جديدة ـ جلابا ـ جلدره ـ جوزلي ـ جيليب ـ جصان ـ حزاره ـ جشا ـ جبا ـ جديدة عرعر ـ جريباينه ـ جميمه ـ جليبه ـ جليده ـ جيابش ـ حصه ـ حرا ـ حصيان ـ حمدين ـ حسوم ـ حلوات ـ حبانيه ـ حله ـ خليسا ـ خان سوره ـ خناق ـ خاروم ـ خبازا ـ ديرى ـ دهل ـ دركله ـ دلالان ـ دبيكه ـ دور ـ دوره ـ ديما ـ دوغاره ـ درمان ـ دقوقا ـ دوايا ـ ديناويه ـ ذويسان ـ رمانه ـ زايات ـ رميله ـ ربيض ـ راوا ـ مادي ـ طبه ـ رادي ـ زيبا ـ زاوره ـ زمار ـ زرقا ـ زارين ـ زرفيه ـ زعلات ـ سيده ـ سنوني ـ سنيسله ـ سخيله ـ سويسنه ـ سهتان ـ سماق ـ سيران ـ سماك ـ سحيل ـ سنيه ـ سحل ـ سميث ـ سحر ـ ساقا ـ سقاف ـ سويب ـ سيبه ـ شامانا ـ شيخات ـ شراقيه ـ شورا ـ شرقاه شاشا ـ شبيحا ـ شوكا ـ شاعورا ـ شفتا ـ شوكان ـ شنافيه ـ شثاثا ـ شاوا ـ شنانه ـ شراف ـ شبيحه ـ شاوية ـ شكره ـ شطره ـ صفاوا ـ صويره ـ صبحه ـ طرطان ـ طرفا ـ طقطق ـ طره ـ عقره ـ عطوش ـ عديه ـ عين دبس ـ عين جهرات ـ عونيه ـ عربت ـ عيادى ـ عين شنينه ـ عقيح ـ عين حيمر ـ عفك عزير ـ عطاق ـ عنه ـ عين عبيره ـ عين وزه ـ عانه ـ عكيكه ـ عشا ـ غماشه ـ فج ـ فلوجه ـ فنجا ـ قنطرا ـ قيارا ـ قطارا ـ قطس ـ قصر تامر ـ قبيبه ـ قرنه ـ كرسي ـ كوير ـ كلاله ـ كسفان ـ كوفه ـ كبده ـ لاما ـ لصف ـ ليا ـ لهامه ـ نجف ـ نوها ـ ندين ـ نخيب ـ نشوه ـ محارين ـ ملحا ـ مرانا ـ مطيره ـ مله ـ مزلاق ـ ملحات ـ ملصه ـ مشمي ـ معانيه ـ مغيشا ـ المبرد ـ هيسي ـ هورين ـ هور ـ هيين ـ هنث ـ هواينه ـ هبوة ـ هارثه ـ وادي ملصه ـ وادي سويب ـ وادي عجج ـ وادي غدف ـ وجاجه ـ وادي عكاش ـ وادي رنكه.

ولقد أثبت مؤلف تاريخ اللغات السامية[٧٤]، جدولاً فيه جملة كبيرة من المفردات الأشورية البابلية الآرامية التي كان يتكلم بها سكان العراق، في ظل دولها الآرامية والأشورية والكلدانية والعمورية، مع ما يقابلها من المفردات العربية، التي كان يتكلم بها أهل جنوب جزيرة العرب قبل العروبة الصريحة، ثم ما يقابلها كذلك من المفردات العربية الفصحى، ننقله فيما يلي، كدليل حي آخر على اتحاد الأرومة بين أهل جزيرة العرب القدماء، على اختلاف أروماتهم، وبالتالي على صحة الجنسية العربية بالنسبة لهذه الأرومات:

عربي فصيح	أشوري بابلي	آرامي	لغة جنوب الجزيرة العربية القديمة
أب	أبو	أبا	أب
ابن	بنو	برا	ابن
أخ	أخو	أحا	أخو
أخذ	إخوز	أحد	أخذ
أحد	أدو	حد	أحد
أذن	أزنو	أودنا	أزن
اثنتان	شنا	ترين	سنيث
أرض	أرضو	أرعا أرقا	أرض
أربع	أربعو	أربع	أربع
اسم	شومو	شما	سم
أم	أمو	أما	أم
امة	أمتو	أمتا	أمة
إنسان	نشو	ناشا	انش
دبس	دشبو	دبشا	دبس
دم	دمو	دما	دم
ذئب	زيبو	دابا	زاب
ذنب	زباتو	دونبا	زناب
راس	رشو	ريشا	راس
ركب	ركب	ركب	ركب
زرع	زو	زرعا	زرع
سبع	سبو	شبع	شبعو
ست	ششو	شتا	سسو
سلام	شلمو	شلما	سلم
سن	شنو	شنا	سن
سنبلة	شوبلتو	شبلتا	سبل
سماء	شمو	شماريا	سماي
شمس	شمشو	شمشا	شمس
شعر	شرتو	سعرا	سعرت
طحن	إطن	طحن	طحن
طيب	طبو	طبا	طيب
ظفر	مبرو	ظفرا	ظفر

عربي فصيح	أشوري بابلي	آرامي	لغة جنوب الجزيرة العربية القديمة
صل	صلّو	طلا	صالوت
عشر	عشرو	عسر	عشرو
عظم	عصمتو	عطما	عضم
عقرب	عقربو	عقربا	عقرب
عمود	إمدو	عمودا	عمد
عنب	انبو	عنبتا	عنب
عين	أنو	عينا	عين
فتح	أبت	فتح	فتح
فم	بو	بوما	أف
قرن	قربو	قرنا	قرن
قمح	قمو	قمحا	قمح
كبد	كبتو	كبدا	كبد
كرش	كرشو	كرسا	كرش
كلب	كلبو	كلبا	كلب
كوكب	كاكبو	كوكبا	كوكب
لب (بمعنى قلب)	لبو	لبا	لب
لسان	لشانو	لشنا	لسان
لهب	لابو	شلهب	لهب
ليل	ليلتو	لليا	ليله
ماء	مو	مايا	ماي
مائة	مأتو	ما	مأت
مثل	مشل	متلا	مسل
مر	مرو	مرنمر	مرا
ملك	ملكو	ملكا	ملكي
موت	موتو	موتا	موت
نسر	نشرو	نشرا	نشر
نفخ	نفح	نفح	نفخ
نفس	نبشتو	نفشا	نفس
نمر	يمرو	نمرا	نمر
ود	ودّ	يد	وُدّ
ورق	ورقو	يرقا	ورق

عربي فصيح	أشوري بابلي	آرامي	لغة جنوب الجزيرة العربية القديمة
وفر	وفرو	أبقر	وقر
ولد	وُلد	أيلد	ولد
يد	إدو	ايدا	أد
يمين (ناحية)	إمنو	يمينا	يمن
يوم	أمنو	يوما	يوم

على أننا ونحن نثبت أسماء الأعلام العراقية التي تبدو عليها اللمحة والصيغة العربية القديمة، ثم جملة من المفردات المتماثلة من اللغات العراقية القديمة، واللهجات العربية القديمة الأخرى، التي لها أشباه تعد بالألوف، لا نقدمها كدليل وحيد على الجنسية الوثقى بين معظم سكان العراق القدماء والجنس العربي وجزيرة العرب، وإنما كدليل مضاف إلى تقريرات العلماء والباحثين؛ على انتماء هؤلاء السكان الذين عمروا العراق، وطبعوه بطابعهم المستمر منذ ستة آلاف سنة على الأقل، بقطع النظر عما قبل ذلك من احتمالات إلى الجنس «السامي» حسب اصطلاحهم، والعربي حسب اصطلاحنا، ولا سيما أن جمهرة الباحثين يعتبرون التشارك اللغوي من مظاهر الوحدة الجنسية، بين الأقوام «السامية»، على ما شرحناه في المقدمة. وهذا فضلاً عن ما هناك من التشارك في العقائد والأفكار والتقاليد أيضاً، وهو ما سوف تأتي الشواهد عليه في ثنايا هذا الفصل[٧٥].

فكل هذا يسوغ، فيما نعتقد، الجزم بالجنسية العربية للموجات التي طرأت على العراق من جزيرة العرب، مما سماهم كتاب الإفرنج خطأً باسم «ساميين». كما يسوِّغ القول إن هذه الموجات قد طبعت العراق بطابعها الغالب، ويبرر سلكها في سلك تاريخ الجنس العربي، خلافاً لما سار عليه المؤرخون.

ولقد سلك جرجي زيدان دوراً من أدوار تاريخ هذه الموجات، في سلك التاريخ، ونعني به دور ما سماه العمالقة الذين منهم حمورابي[٧٦]، بسبب ما رآه من التشارك بينهم وبين الجنس العربي. وقد فعل صواباً. وكان الأولى أن يشمل بعمله بقية الموجات والدول العربية الجنس في العراق، من آرامية وأشورية وكلدانية، لأنها هي والأرومة التي ينتمي إليها حمورابي من موطن واحد هو جزيرة العرب، ومتشاركة في اللغة والعقائد والتقاليد.

ولقد قال الدكتور جواد علي[٧٧]، إن تسمية الساميين مصطنعة، وإن تسمية «العرب» هي الأقرب إلى العلم، والأدق والأصح والأصدق، على كل حال من تلك التسمية، وإنه ليس غريباً ولا بعيداً عن العلم والمنطق، أن تسمى الشعوب التي أدخلها العلماء تحت مصطلح «السامية» «عربية»، لما بينها من صلات ومشاركات وتقارب. ولقد كان هذا يقتضي أن يسلك هذا المؤرخ تاريخ هذه الشعوب في سلك تاريخه: العرب قبل الإسلام.

فنحن إذ نفعل ذلك، إنما نفعل أمراً لا غبار عليه، تقريراً للحقيقة التـاريخية المتصلة بالواقع المستمر، منذ عشرات القرون، قبل الميلاد المسيحي، وتصحيحاً للتوجيه التاريخي، وتدليلاً على أن عروبة العراق الصريحة الحاضرة، هي امتداد لما كان من عروبته الصريحة وغير الصريحة التي سبقت الإسلام بعشرات من القرون، وذلك بالإضافة إلى ما في ذلك من إبراز سعة نطاق نشاط الجنس العربي وحيويته في مختلف المجالات الفكرية والأدبية والحضارية والسياسية والعسكرية، حينما برز على مسرح العراق الـذي كان مصـدراً رئيسياً من مصـادر الحضارة البشرية التي شعت على العالم، وكانت من مشاعل هداية البشر وحضارتهم الأولى من جهة، وتكون من جهة أخرى قد وصلتنا بهم حيوية العروبة في دورهـا الصريـح على مسرح العراق، وبين حيويتها عليه قبل هذا الدور، فيظهر من ذلك سلسلة متصلة الحلقات، يمد بعضها بعضاً من جهة أخرى.

- ٢ -

ولقد أنشأت الموجات العربية في العراق دولاً عديدة متلاحقة، لم تكد سلسلتها تنقطع بسلطان غير عربي الجنس طيلة خمسة وثلاثين أو أربعين قرناً قبل الميلاد؛ منها ما ظل محلي السلطان والنطاق، ومنها ما اتسع سلطانه حتى شمل جميع العراق، ثم تجاوزه إلى أقطار شاسعة في شمال العراق وشرقه وغربه، ووصل إلى البحر الأسود شمالاً، وبحر قزوين شرقاً، والبحر الأبيض والقطر المصري غرباً.

ولقد أنشأت هذه الدول منشآت عمرانية عظيمة، خرب كثير منها وانطمر تحت التراب. ولقد كتب كثير من ملوكها سيرتهم الحربية وغير الحربية على الأحجار والمنشآت التي انطمرت بدورها. ولقد جرت تنقيبات كثيرة منذ أواسط القرن السـابق، في أماكن كثيـرة من العراق، وخاصة في مواقع عواصم دوله القديمة، مثل أور وارك وبابل ونينوى ودار صرغون وبارسيب وكلح؛ كانت تجري على نطاق ضيق، وعلى غير أسلوب علمي، ثم تقدمت منذ أواخر القرن السابق واتسعت، وساهمت مصلحة الآثار العراقية فيها، إلى جانب بعثات الجامعات الأميركية، فعثر على كثير من الآثار والكتابات والنقوش.

ولقد كانت النقوش التي دونوها بالخط المسماري، فظلت غامضة، بل وظنها الناس أنها زخرفة، إلى أن اكتشف في أواخر القرن الثامن عشر في برسيبوليس آثار عليها كتابة بهذا الخط، ثم كتابات باللغة الفارسية واللغة البابلية واللغة العيلامية، فكان ذلك مفتاح ذلك الخط، كما كان شأن حجر رشيد المصري، بالنسبة للخط المصري القديم، فعكف على دراستها أستاذ الماني اسمه كروتنند، واستطاع أن يحل بعض رموزها بالمقارنة مع اللغة الفارسية، وأن يقرأ بعض الأسماء والمفردات البابلية، ثم اكتشف في بهستـون، بالقـرب من كرمنشـاه، آثار مثـل آثار برسيبوليس، عليها كتابة بالخط المسماري، وكتابات باللغات الثلاث، فعكف على دراستها أستاذ انكليزي اسمه رولنصن، واستعان بما كان من جهود كروتنند، وشاركه في عمله أستاذ

النوع الثاني:

Vowels	(a)	(i)	(u)
		(e)	(u)
Diph-thongs	(ai)	(ia)	
		(ia)	
B	(ba)	(bi)	(bu)
		(be)	
	(ab)	(ib)	(ub)
G	(ga)	(gi)	(gu)
	(ag)	(ig)	(ug)
D	(da)	(di)	(du)
	(ad)	(id)	(ud)
Z	(za)	(zi)	(zu)
	(az)	(iz)	(uz)
H	(ḥa)	(ḥi)	(ḥu)
	(aḥ)	(iḥ)	(uḥ)
T	(ṭa)	(ṭi)	(ṭu)
		(ṭi)	
		(ṭe)	
	(aṭ)	(iṭ)	(uṭ)
K	(ka)	(ki)	(ku)
	(uk)	(ik)	(uk)

نماذج من الخط المسماري في طوره الثاني الذي كانت العلامة فيه حرفاً

	No.	Meaning	Outline Character, B. C. 4500	Archaic Cuneiform, B. C. 2500	Assyrian, B. C. 700	Late Babylonian B C 500
الشمس	1.	The sun				
الله . سماء	2.	God, heaven				
جبل	3.	Mountain				
إنسان	4.	Man				
ثور	5.	Ox				
سمكة	6.	Fish				
قلب	7.	Heart				
يد	8.	Hand				
يد وذراع	9.	Hand and arm				
رجل	10.	Foot				
سنبلة	11.	Grain				
قطعة من الخشب	12.	Piece of wood				
شبكة	13.	Net				
سياج	14.	Enclosure				

نماذج من الخط المسماري في طوره الأول الذي كانت العلامة فيه تمثل كلمة

ايرلندي اسمه هكنس، فاستطاع بدوره حل بعض رموزها، بالمقارنة كذلك مع اللغة الفارسية، وأن يقرأ بعض الأسماء والمفردات البابلية: ثم تتابعت بحوث العلماء، وازدادت المعرفة باللغتين البابلية والأشورية، حتى غدا موضوع قراءتهما اعتباراً من سنة ١٨٥٧ علماً مضبوطاً، وحتى أمكن قراءة ما خلفه الأشوريون والبابليون من نقوش كثيرة متنوعة، فساعد ذلك على جلاء تاريخ الموجات العربية ومآثرها في العراق، منذ أقدم الأزمنة التاريخية بمقياس غير ضيق، وخاصة منذ القرن الخامس والعشرين قبل المسيح(٧٨).

ولقد زار هيرودوت اليوناني، من رجال القرن الخامس قبل المسيح العراق، ووصف في كتابه مشاهداته، وذكر مسموعاته عن أخبار العراق القديمة، كما كتب عن ذلك استرابون وديودور وبطليموس وغيرهم من مؤرخي قبل الميلاد وبعده وجغرافييهم، فكان ذلك أيضاً مما ساعد على ذلك الجلاء.

ومما ساعد عليه أيضاً، أولاً: ما عثر عليه من مدونات دونها كتاب عراقيون في بداية الألف الثاني قبل الميلاد احتوت كثيراً من أسماء ملوك السلالات العراقية الحاكمة، وشيئاً من أخبارهم. وثانياً: الفصول الكثيرة التي احتوتها أسفار العهد القديم، مثل أخبار الأيام والملوك عن صلات ملوك العراق باليهود ودولتهم. وثالثاً: المدونات والنقوش المصرية التي احتوت بيانات، عما كان يحدث بين مصر والعراق من صلات وأحداث سياسية وعسكرية. ورابعاً: ما استند إليه الكتاب اليونان والرومان القدماء من تاريخ معزو إلى مؤرخ بابلي اسمه بروسوس أوبرشوحا(٧٩) من أهل القرن الرابع قبل الميلاد، ذكر أنه دون فيه أخبار ملوك بابل كافة، نقلاً عن سجلات قديمة كانت في عهدته، حيث كان كاهن معبد بل في بابل. وقد أشار برحوشا إلى ذلك بقوله: إن كاهناً قديماً اسمه اكسيسوتروسن خبأ في بعض مخابىء المعبد السجلات المسطر عليها تاريخ الخليفة، وأخبار الأيام الأولى وقد فقد هذا الكتاب، ولكن يوسينوس اليهودي، وأوساسيوس وكليمنسوس وشنسليون اليونانيين نقلوا عنه فصولاً عديدة. وخامساً: ما استند إليه ديودور الصقلي من كتاب معزو إلى اكتازياس، طبيب الملك ارتخشنتا الثاني (٤٠٥ ـ ٣٥٩ ق م) نقلاً عن الكتب الفارسية في القصر الملكي. وقد فقد هذا الكتاب أيضاً، ولكن ديودور نقل عنه فصولاً عديدة أيضاً.

وهكذا غدا بالإمكان عرض فصول، قد يصبح التعويل عليها في تاريخ الدول العراقية القديمة، التي تمتّ إلى الجنس العربي، استناداً إلى وثائق تاريخية وأثرية قديمة، وخاصة بالنسبة للحقب التي تلت القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، مهما كان فيها من ثغرات وافتضاب، ومهما تحولت المقتبسات من المدونات القديمة المستندة إلى جداول الملوك، وروايات برشوحا واكتازياس، والمسموعات التي لا تؤيدها النقوش من تحفظ. أما ما قبل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، فإن في تاريخ الدول العراقية العربية الجنس ثغرات واسعة، تجعل من المتعذر عرض فصول متسلسلة، وكل ما يمكن هو عرض صورة منفردة.

ولقد خصص طه باقر معاون مدير الآثار القديمة العراقية المجلد الأول من كتابه مقدمة في

تاريخ الحضارات القديمة للعراق، احتوى دراسات أثرية وتاريخية قيمة له ولغيره من الباحثين في تاريخ العراق القديم ومآثره الحضارية، طبع طبعته الثانية سنة ١٣٧٥ ـ ١٩٥٥ والقسم المخصص للمآثر الحضارية فيه قيم واف، ولعله أوفى ما كتب بالعربية في ذلك. أما القسم المخصص للتاريخ السياسي، فهو على قيمته العلمية، واستناده إلى النقوش والمدونات القديمة، ودراسات الباحثين، لا يحتوي فصولاً متسلسلة لتاريخ الدول العراقية وأحداثها، وقوائم بأسماء ملوكها، كما فعل بريستيد، وإن كان فيه المامات غير يسيرة من ذلك، وخاصة بالنسبة لتاريخ الأشوريين.

ولرئيس أساقفة سعرد أدي شير الكلداني الأشوري، كما نعت نفسه، كتاب في جزئين سماه تاريخ كلود وأشور مطبوع في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩١٢ أحدهما ديني والآخر سياسي. وفي الآخر، وهو الأول فصول مسهبة نوعاً في تاريخ الدول العراقية، وأسماء ملوكها منذ القرن الخامس والعشرين إلى القرن الخامس قبل الميلاد، مع نتف مقتضبة عن ما قبل ذلك، استناداً إلى التنقيبات الأثرية، والمدونات القديمة المقتبسة من كتاب وأثريين غربيين، مثل تاريخ ماسبرو المطول، المعنون بتاريخ الشعوب القديمة في الشرق في ثلاثة مجلدات، وتاريخ ماسبرو المختصر، بالعنوان نفسه، ومجلة الكتاب المقدس، وتاريخ سني ملوك شور لميثان، وتاريخ دول الكلدان والأثوريين لأوبير، وتاريخ هيرودوت، ومجلة المشرق، وكتاب ميزوبوتاميه وأثور لبيلي فراسير، وتاريخ الشعوب الشرقية لنورمان، وتاريخ ملوك بابل لبيشينش وغيرهم.

ولجميل المدور كتاب عنوانه تاريخ بابل وآشور مطبوع في مطبعة الفوائد في بيروت سنة ١٨٩٣، فيه فصول عن دول بابل وآشور ومدنها وآثارها وحضارتها، استناداً إلى روايات القدماء، والتنقيبات الأثرية كذلك.

وقد كتب جرجي زيدان، فصلاً في كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام، في تاريخ أسرة من الأسر العربية الجنس، قامت لها دولة كبرى في بابل منها حمورابي الشهير، استناداً كذلك إلى الكتابات الأثرية والروايات والمدونات القديمة. وفي الجزء الأول من التاريخ العام لأحمد رفيق التركي، الذي يستند إلى كتب شبامر وموردتار وده ليج، وماقس دونكر، وهومل الألمانيين وماسبرو وسينوس الافرنسيين، فصول في تاريخ البابليين والكلدانيين والأشوريين. وفي كتاب العصور القديمة لبريستيد الذي ترجمه إلى العربية داود قربان فصول كذلك في هذا التاريخ. وستكون هذه الكتب من المراجع الرئيسية، لما سوف ندونه في الفصول التالية عن تاريخ الموجات العربية في العراق، ومآثرها المتنوعة التي سوف تكون تامة الحلقات ـ بقدر ما يمكن ـ لتاريخ العراق القديم كما فعلنا في الجزء السابق، وخاصة لتاريخ الجنس العربي فيه قبل العروبة الصريحة، ما نرجو أن يكون مفيداً للقارىء العربي، وخاصة للناشىء العربي، الذي يجب أن يكون ملماً بهذا التاريخ الذي هو جزء من تاريخ امته العظيمة. ومع أن من المحتمل أن يكون هناك كتب في تاريخ العراق القديم، فإن فائدة الكتاب تظل قائمة، لأنه يدور بنوع خاص على

تاريخ الجنس العربي في العراق القديم، ويبرز قوة الصلة بين العراق وبين هذا الجنس، مما لم نطلع على ما فيه الغناء من ذلك في حجم الكتاب وأسلوبه وترتيبه. ولسوف يرى القارىء العربي فيه صوراً غير يسيرة، سياسية وغير سياسية، مشابهة لما نرى اليوم من صور على مسرح البلاد العربية، يمكن أن يكون فيها تعليل للأحداث الجارية.

هذا؛ ولما كان موضوعنا هو تاريخ ومآثر الجنس العربي في العراق، وليس تاريخ العراق إطلاقاً، ولما كان انسياح موجات عربية الجنس قبل الأزمنة التاريخية هو من المحتملات التي لا يقوم عليها دليل وثيق، فإن ما سوف يتناوله بحثنا هو ما عرف من تاريخ ومآثر الجنس العربي في العصور التاريخية فقط، ولن نتطرق إلى ما قبل ذلك، كما أننا لن نتطرق إلى تاريخ غير الجنس العربي في العراق، إلا من قبل الإلمام المتصل بتاريخ الجنس العربي، وحسب.

خامساً: تمهيد في صلة بلاد الشام بجزيرة العرب، وموجاتها إليها، ومصادر تاريخها

مقدمة الجزء الرابع، من كتاب الجنس العربي الصفحات (٥ و ٧ ـ ٤٢).

(المحرر)

ـ ١ ـ

إن بلاد الشام، كوادي النيل والعراق، من مهاجر الجنس العربي الطبيعية، وأوطانه الثانية، لأنها الجناح الغربي للهلال الخصيب الذي كان يجذب هذا الجنس من جزيرة العرب بصورة مستمرة، وهي متصلة بالجزيرة من جنوبها اتصالاً مباشراً.

وإذا كان الباحثون لا يستطيعون أن يجزموا في أمر هوية سكان هذه البلاد في العصور الحجرية والظرانية السابقة للتاريخ، أو إذا كان منهم من يذهب إلى أن هؤلاء السكان مزيج من عناصر آرية أو أرمنوية، كما يسميها فيليب حتي، تسربت من الشمال، وعناصر حامية تسربت من الجنوب(٨٠)، فليس هناك من يماري في طروء جماعات أو موجات متلاحقة عديدة عليها، منذ أقدم الأزمنة التاريخية المعروفة، ممن سموا «ساميين»، وسميناهم الجنس العربي(٨١)، وغلبة طابعهم على هذه البلاد، وعلى من كان فيها قبل طروئهم المعروف، أو جاء إليها بعد أن أخذوا يطرأون عليها، وعدّوها بذلك من مهاجر هذا الجنس، وأوطانه الثانية.

وإذا كان هناك من لا يقول بمجيء تلك الجماعات أو الموجات التي سميت بالساميين من جزيرة العرب، فإن جمهرة الباحثين يقررون العكس، ويقولون إنه مهما اختلف في أصل مهد الساميين الأول، فإن مهدهم الثاني كان جزيرة العرب، وإن الموجات والجماعات التي طرأت على بلاد الشام من ناحية باديتها، أو من طريق العراق، إنما جاءت في الأصل من الجزيرة

العربية[٨٢]؛ حيث نزح بعضها من جنوبها إلى شواطئها الشرقية على بحر الهند فالخليج العربي فالعراق فبلاد الشام أو إلى بلاد الشام مباشرة عن طريق البادية.

وهذا ما تؤيده الشواهد والوقائع، حيث كان التشارك في اللغة والخصائص والتقاليد قوياً بين هذه الموجات، وبين سكان جزيرة العرب قبل تطورهم من العروبة غير الصريحة وبعده، وحيث عرف يقيناً في دور العروبة الصريحة قبل الإسلام[٨٣] الذي بدأ في الألف الثاني قبل المسيح، انسياح الموجات من جزيرة العرب إلى بلاد الشام، واقامتها الدول العديدة من عربيبة وقيدارية ورهاوية وايطورية ونبطية وتدمرية وتنوخية وضجعمية وغسانية[٨٤]... الخ، فضلاً عن الموجات التي تلاحق ورودها من جزيرة العرب، من طريقي العراق والبادية إلى هذه البلاد، تحت راية الإسلام، والتي لم يكد تلاحقها ينقطع في دور من أدوار الحقبة الطويلة الممتدة إلى اليوم، والتي انطبعت بلاد الشام بها بطابع العروبة الخالد المقدس؛ مما هو متسق مع طبيعة جزيرة العرب منذ أقدم الأزمنة، ومما يصح أن يعد دليلاً حياً لا يمكن دحضه، مهما بلغت المكابرة والتزمت في بعض الباحثين من مبلغ.

وقد تكون دماء الموجات العربية التي طرأت على بلاد الشام قبل دور العروبة الصريحة، اختلطت بدماء من كان قبلها فيها، أو من جاء إليها بعد أن أخذت تطرأ عليها من غير جنسها، كما كان شأن أمثالها في العراق ووادي النيل؛ وقد تكون اكتسبت شخصية خاصة نوعاً ما في الأرض الجديدة التي حَلّت فيها. غير أن هذا لا يغير من الأمر شيئاً كبيراً، ما دامت هذه الموجات قد جاءت من جزيرة العرب، وظل طابعها العربي هو الغالب على بلاد الشام، ومن فيها من غير جنسها، وظلت تحتفظ بكثير من خصائص جنسها ولغته وتقاليده.

ولقد لبثت بلاد الشام تحت حكم اليونان والرومان نحو ألف عام ٣٣١ ق م - ٦٤٠ ب م، وجاء إليها منهم الألوف المؤلفة، واستقروا فيها، ونشروا لغتهم وثقافتهم. وقد جمع بينهم، وبين أهل البلاد دين واحد هو النصرانية منذ القرن الرابع الميلادي؛ وترجمت إلى اليونانية الكتب المقدسة، وصارت من اللغات التي تؤدى بها طقوس العبادة. ومع ذلك لم يستطيعوا أن يطبعوا البلاد وأهلها بطابعهم، بل وكانت جمهرة الشاميين منقبضين عنهم، متحاشين من الامتزاج بهم[٨٥]، في حين أن الموجات العربية الصريحة التي جاءت إلى بلاد الشام قبل الإسلام، أخذت تطبع البلاد وأهلها بالطابع العربي الصريح بسهولة ويسر، وان هذا الطابع اشتد في عمله، حينما جاءت موجة الفتح الكبرى تحت راية الإسلام، فلم يمض بضعة أجيال حتى تم له السيادة الخالدة المقدسة. وليس من تفسير لهذه الظاهرة، إلا صدق نظرية وحدة الدم والأرومة والمنبت والروح التي كانت تجمع بين سكان هذه البلاد وجزيرة العرب والجنس العربي كما هو المتبادر.

- ٢ -

ولقد كان من تلاحق الموجات المعروفة يقيناً إلى بلاد الشام، في دور العروبة الصريحة

قبل الإسلام وبعده، وما قام وظل يقوم من صلات وثيقة بين هذه البلاد وجزيرة العرب، وما كان من استمرار التشارك في اللغة والخصائص والتقاليد والعقلية بين هذه الموجات الصريحة العروبة، وبين الموجات التي قبلها، ما أكد ذلك الطابع وقواه وخلده، وجعل دعوى انتماء تلك الموجات إلى العروبة وجزيرة العرب محكمة حاسمة.

ويكفي أن يدقق الناظر في أسماء الاعلام الشامية التي تحمل لمحة العروبة المتقدمة على دورها الصريح، ويكفي كذلك أن يقارن بين مفردات لغات تلك الموجات، وبين مفردات اللغة العربية الفصحى، ليرى مصداق ذلك قوياً لا يتحمل مراءً.

فهذه قائمة، احتوت مئات من أسماء القرى والقصبات والمدن في مختلف أنحاء بلاد الشام الساحلية والداخلية والجنوبية والشمالية، بما فيها فلسطين، منقولة عن معجم البلدان لياقوت الحموي، المتوفى في القرن الهجري السابع، مما يحمل اللمحة العربية القديمة من اللهجات أو اللغات الكنعانية الفينيقية والعمورية والآرامية السريانية والعبرانية:

آبل ـ ابتر ـ أثارب ـ أجنادين ـ أحصن ـ أداقي ـ أذرح ـ أذرعات ـ أذرع ـ إرّار ـ إربد ـ ارتاح ـ أرتيق ـ أردنّ ـ أرسوف ـ أرفاد ـ أرك ـ إرمناز ـ أرنذ ـ ارواد ـ أريحا ـ أريح ـ أزبد ـ اسفونا ـ اطرون ـ اعناز ـ اعناك ـ افامية ـ أفليلاء ـ أفيق ـ اقميناس ـ الاكام ـ اكسال ـ أكواخ ـ اندرين ـ انطرطوس ـ أنفة ـ أيابر ـ ايْله ـ باب ـ بابلا ـ باداما ـ باروا ـ باره ـ بارين ـ باعربايا ـ بالسن ـ بالعه ـ باناس ـ بانقوسا ـ بترون ـ بثنه ـ بدا ـ بردى ـ برزمان ـ برزه ـ برزيه ـ برطوبة ـ بريص ـ بزاعة ـ بُسر ـ بشيت ـ بصرى ـ بصير ـ بضيع ـ بُطنان ـ بطياس ـ بعلبك ـ بغراس ـ بقعاء ـ بقع ـ بقنّس ـ بكاس ـ بكسرائيل ـ بلاس ـ بلاط ـ بلاطة ـ بلعاس ـ بلقاء ـ بلنياس ـ بليخ ـ بوقاس ـ بوقه ـ بياس ـ بيت أرانس ـ بيت البلاط ـ بيت راس ـ بيت رامه ـ بيت سوا ـ بيت لاها ـ بيت فوقا ـ بيت لحم ـ بيت لهيا ـ بيروت ـ بيره ـ بيرين ـ بعرين ـ بيسان ـ تاذف ـ تبنين ـ تبنى ـ تدمر ـ ترمسان ـ تل أعقير ـ تل باشر ـ تل بليخ ـ تل حوم ـ تل خوسا ـ تلفياثا ـ تلفيتا ـ تل قباسين ـ تل كشفهان ـ تل كيسان ـ تل ماسح ـ تل محرى ـ تل معنس ـ تل هراق ـ تنونيه ـ تنهج ـ تنينير ـ توزين ـ توم ـ تيزر ـ تيزين ـ تيس ـ تيمر ـ تينات ـ ثمد ـ ثنية ـ ثورا ـ جابيه ـ جاديه ـ جاسم ـ جب ـ جبرين ـ جبل ـ جبلة ـ جبّول ـ جبة ـ جبيل ـ جدر ـ جديا ـ جرباء ـ جربى ـ جرجومة ـ جرّ ـ جرش ـ جرماز ـ جرمانا ـ جرمق ـ جرود ـ جزر ـ جزين ـ جسرين ـ جعبر ـ جفار ـ جلباط ـ جلق جليل ـ جماعيل ـ جوبر ـ جوسيه ـ جوشن ـ جومة ـ جونيه ـ جيحان ـ جيب جيدور ـ جيرون ـ جينين ـ حارب ـ حارم ـ حاس ـ حاسر ـ حباران ـ حبال ـ حبرون ـ حبيا ـ حبله ـ حبيس ـ حثا ـ حدس ـ حديثه ـ حديجاء ـ حر بنقسا ـ حربنوش ـ مرجلة ـ حر دفنه ـ حردان ـ حرشا ـ حرلان ـ حرملية ـ حزم ـ حسمى ـ حصن ـ حصن كنيعا ـ حطين ـ حنه ـ خير ـ حقو حلب ـ حلقبلها ـ حماة ـ حمص ـ حمورية ـ حمة ـ حندوتا ـ حوار ـ حوارين ـ حوران ـ حورة ـ حوله ـ حولايا ـ حيار ـ حيران ـ حير ـ حيلان ـ حيفاء ـ خابور ـ خساف ـ خسفين ـ خفاصرة ـ خيارة ـ دابق ـ دابن ـ داروما ـ داروم ـ دانيت ـ دانا ـ دبوريه ـ در كوش ـ دقانية ـ دكه ـ

دلوك ـ دمشق ـ دمر ـ دنوه ـ دوبان ـ دومة ـ دومين ـ دير ايا ـ دير باعنتل ـ دير بلاض ـ دير يلوط ـ دير يونا ـ حافر ـ دير خوات ـ دير رومانين ـ دير زور ـ دير صلبيا ـ دير فق ـ دير قانون ـ دير ماروثا ـ دير مران ـ دير ماطرون ـ دير ميماس ـ ديماس ـ ذاذيخ ـ رأس عين ـ رامه ـ راونداك ـ راوية ـ راهوا ـ ربه ـ رحاب ـ رحبه ـ رصافة ـ رعيان ـ رفح ـ رفنينة ـ رقه ـ رماذة ـ رمادة ـ رمح ـ رمله ـ روج ـ روحا ـ ريان ـ الرهاء ـ ريحاء ـ زبداني ـ زردنا زغبة ـ زغر ـ زعمو ـ زملكان ـ زيب ـ زيزاء ـ زيلوش ـ ساجور ـ سارونية ـ ساسكون ـ ساعير ـ سافريه ـ سام ـ ساهره ـ سبعين ـ سبيه ـ سحلين ـ سحيلة ـ سدوم ـ سرمين ـ سروج ـ سطرا ـ ستبا ـ ستيا ـ سكاء ـ سلمية ـ سكين ـ سناجيه ـ سنحا ـ سنير ـ سود ـ سودا ـ سوسيه ـ سويداء ـ سيالى ـ سيات ـ سيلون ـ سينا ـ شاغور ـ شبعا ـ شبيث ـ شحشبو ـ الشراة ـ شفرعم ـ شقيف ارنون ـ شقيف ـ شويكة ـ شهبا ـ شهلبة ـ شيزر ـ شيطر ـ صرخد ـ صرفند ـ صرين ـ صف ـ صفورية ـ صفين صكا ـ صمان ـ صنبره ـ صور ـ صوبا ـ صيداء ـ صهيون ـ صهيا ـ صيدنايا ـ ضنفير ـ ضمير ـ طابان ـ طرطوس ـ طرون ـ طور ـ طوبان ـ طورزيتا ـ عابود ـ عاموراء ـ عاموص ـ عذرا ـ عرابه ـ عرشين ـ عرقه ـ عرمان ـ عرناس ـ عتليت ـ عرندل ـ عروب ـ عزاز عسان ـ عشترا ـ عظام ـ عذنون ـ عفر بلا ـ عفرى ـ عفرين ـ عقربا ـ عقر ـ عقيربا ـ عكا ـ عقيل ـ علاتان ـ علعال ـ عمان ـ عمتا ـ عمق ـ عمواس ـ عناذان ـ عوجاء ـ عورتا ـ عوس ـ عين تاب ـ عين ثرماء ـ عين جالوت ـ عين جر ـ عين سلوان ـ عين سيلم ـ عينون ـ غاميه ـ غباء ـ غباغب ـ غثاة ـ غربه ـ غزه ـ غسولة ـ غنتر ـ غوطة ـ فايا ـ فحل ـ فدين ـ فذايا ـ فراديس ـ فرزل ـ فطر ص ـ فولة ـ فنيدق ـ فيق ـ قاسيون ـ قاصرين ـ قاقون ـ قراوى ـ قانون ـ قباب ـ قبيات ـ قدس ـ فذاران ـ قراوى ـ قرتيا ـ قرحتاء ـ قرزاحل ـ قسطل ـ قسطون ـ قصير ـ قطنا ـ قط ـ قطيفة ـ قلبين ـ قلمون ـ قلنسوة ـ قنسرين ـ قورس ـ قوفا ـ قوفيل ـ قويق ـ قينة ـ كاف ـ كرزين ـ كرك ـ كرمل ـ كريزيم ـ كسوة ـ كفر[٨٦] بطنا ـ كفربيا ـ كفرتكيس ـ كفر ثوثا ـ كفر زتس (جنس) ـ كفر سابا ـ كفر سوت ـ كفر سوسية ـ كفر طاب ـ كفر عاقب ـ كفر عزون ـ كفر كنا ـ كفر لاب ـ كفر لاثا ـ كفر لهثا ـ كفر منده ـ كفر نجد ـ كفر تغدر ـ كنيكر ـ كوسين (قوسين) ـ لاذقية ـ لبنان ـ لجاة ـ لد ـ لطمين ـ لكام ـ لكمة ـ ليلون ـ ماب ـ مجدل[٨٧] يابه ـ مدين ـ مرتحوان ـ مرجعيون ـ مردا ـ مرعش ـ مرقية ـ مريمين ـ مزه ـ مسرابا ـ مسكة ـ مشحلا ـ مشغرى ـ معراثا ـ معيرة معرين ـ معلولا ـ معليا ـ مقرى ـ ماوحة ـ مغار ـ منبج ـ منغ ـ منيطرة ـ منين ـ ميدعا ـ ناصرة ـ ناعورة ـ نبك ـ نداماك ـ نوا ـ نواز ـ نيبطون ـ نيرب ـ واقدصه ـ وتر ـ وساده ـ هونين ـ يازور ـ ياسوف ـ يافا ـ ياقين ـ ياقد ـ يبرود ـ يُبنى ـ يبوس ـ يحمون ـ يرموك .

واللمحة العربية المتقدمة على دور العروبة الصريحة الفصحى ، بادية على هذه الأسماء ، كما هو ظاهر . وقد تركنا ما غلبت عليه اللمحة الأعجمية ، أو ما جاء بالعربية الفصحى . وهو مع ذلك قليل : ومن المحتمل أن تكون الأسماء الجديدة المطلقة مؤخراً على أعيان قديمة ، وننبه على أن ياقوت لم يذكر جميع الأسماء ، بدليل وجود أعيان كثيرة قائمة اليوم ، لم يرد ذكرها فيه .

وعلى كل حال ، فإن كون جل ما أورده مما يحمل لمحة العروبة القديمة ، يدل على أن

الموجات القديمة الطارئة على بلاد الشام فروع جنس واحد، هو الجنس العربي، تمت في أصلها إلى موطن واحد هو جزيرة العرب، وإنها طبعت بلاد الشام، كما قلنا، بطابعها الذي ظل غالباً إلى زمنه.

ولقد ظلت هذه الأسماء، مع كثير غيرها يفوق ما أورده ياقوت بأضعاف، مستعملة إلى اليوم؛ تقوم كدليل حي على ما كان للموجات العربية القديمة في بلاد الشام، أي سورية ولبنان وشرق الأردن وفلسطين، حسب التقسيم الجغرافي السياسي الحاضر، من أثر وطابع خالدين.

وهذه قائمة مقتبسة من نشرة وزارة الاقتصاد الوطني في الحكومة السورية، صدرت سنة ١٩٥٢ باسم التقسيمات الإدارية في الجمهورية السورية. ولقد احتوت هذه النشرة (٥٤٧٦) اسماً للمدن والقصبات والقرى السورية عدا (٤٧٠٧) اسماً للمزارع الصغيرة. وثلث هذه الأسماء تقريباً يحمل اللمحة العربية القديمة الآرامية ـ السريانية . وثلثها يحمل اسماء عربية فصحى، ربما اطلق كثير منها على أعيان آرامية ـ سريانية قديمة. ومنها ما ورد في معجم ياقوت. ومعظمها مما لم يرد فيه. ونقلها جميعها تطويل لا ضرورة له، ولهذا سنكتفي بإيراد جملة ما يحمل اللمحة العربية القديمة الآرامية السريانية منسوبة إلى القسم الإداري الرئيسي الذي يسمى «المحافظة» والذي هي فيه:

١ ـ محافظة دمشق

داريا، صحنايا، بلاس، ببيلا، حمرايا، عقربا، قدسيا، بلدا، عربين، برزه، بيت سوا، جرمانا، زبدين، أوفانيه، بانياس، جبا، جباتا، جرابا، زعرتا، زعوره، صرمان، قعرين، دوما، حرستا، أهتايا، مسرابا، ميدعا، تلفتيا، حلبون، صيدنايا، معربا، منين، بلالبة، حربا، حران، حزرما، قرحتا، افره، بقين، بلودان، دير قانون، ديماس، سرغايا، يبوس، معنايا، سحل، فليطه، قلدون؛ نبك، يبرود، مية، عسال، قطنا، ميا، عرطوز، سعسع، دوبايا، بيتما، حرفا، سحيتا، كسوة، سبسا، باعص.

٢ ـ محافظة حوران

درعا، أبطع، جلين، داعل، زيزون، صيدا، طفس، ياروده، طيسيا، ازرع، علماً، قرفا، نامر، اتحل، جباب، خبب، زمرين، عالتين، عقربا، غباغب، نوى، جيبين، فيق، خفسين، دبوسيا، زيتا، كفر الما.

٣ ـ محافظة السويداء

حيب، خربا، رساس، عتيل، عرى، ولغا، بوسان، مجدل، جدبا، بريكه، تعلا، دوما، تعاره، جرين، حران، داما، صلخد، عرمان، عوس، بكا، ذيبين، مياماس، طليطلين، قيصما، متان.

٤ ـ محافظة حمص

آبل تلدو، تير معلة، دير بعلبه، زيدل، شمسين، كفر عايا، كفر لاها، برايو، بلقسه، تارين، جرنايا، زور بقرايا، حنون، عرقابا، عيصون، محنايه، حوش، قصين، تدمر أرك، أم جباب، أم ساموك، تل عداي، تل قطا، نوى، الهبا، أم جبرين، أم جريص، عليمات، حسيا، صولايا، رقاما، صدد، تسنين، دلفين، دير فق، كفرتان، أبـو دالي، تل عمـري، رمزوق، جوسيه، دبين، زتيا، سفرجه، لفتايا، مودان.

٥ ـ محافظة حماه

براق، بسيرين، بيرين، تومين، تبـزين، جيرين، خـلا، سروج، سـريحين، صاوا، صوران، كاسون، اللالا، تفراع، كراح، معردس، معردفتين، معرشحور، معرين، بيصين، قفيلون، كيسين، جلمة، حلفايا، حيالين، خفشين، شيزر، صلبا، عمورين، كفر زيتا، تحايا، كفر نبودة، أبو جاريـا، جصين، حلبان، دنين، زغـرين، طوبـا، نوى، طـوطح، بغيـديد، شادوف، عقير بات، سوحة، عرشونة، عكش، فرتيان.

٦ ـ محافظة اللاذقية

بانياس، بارمايا، أوين، بديغان، يعمرائيل، تعنيتا، جلبتى، حريصون، حيبو، كرميا، جليانا، طيرو، علقين، بصرمون، بلوسين، قرموس، باملاخا، قرنابة، برمانة، بسقاية، جوبة، ادلين، تل سارين، بييت، قرين، قنوتا، شين، جبلايا، بشنين، عيناتا، تنورين، حاصوره، حديدة، أم الميس، بعيون، تل جردون، بسيسين، بليعيلن، جرماتي، جوب، جوفين، حلة عارا، زاما، شنبوطين، عرمتي، بحنتايا، عين قيطة، صراما، عريين، نينتي، بحواريا، بسين، بشلاما، بكراما، رسيون، ديرونه، قيتالا، سلورين، بتعلة، بقنة، بتمانا، بجرزيت، برازين، بريعين، بيت عانا، بعبدى، معرين، حفة، بابنا، بكاس، تلا، رسيون، شريفـا، باريخـا، نجاسون، سنيا، باروما، دورين، حزيرين، كدين، مرعند، كفرتا، بيت جيـرو، جبلايـا، جبيت، رامة، دينة، كيمين ليفين، صلنفا، أوبين، بشمانا، بيرين، زنبورا، عراموا، كفريدين، بسيطرون، بيت زيتون، بيشسوهين، فرزلا، قمين، بتعلوس، بونياح، بيت طبون، بشرائيل، حيـزور، عيناتـا، بشمس، حمين، حيلاتـا، زغرين، فجليت، بسمـاقة، بيلة، مجـدلون، مرسحين، أرواد، بجنين، برمانه، بعشتر، زمرين، صايا، عزيت، بريصين، صفليا، جوعيت، يوقا، دبا، كرسانا، قسطل، زغرين، سفكـون، مشقيتا، مصيـاف، ريمو، ريعـو، سيغاتـا، معرين، نيحا.

٧ ـ محافظة حلب

ايديتا، أرنبا، بلشون، بليون، بينين، جورايا، كفر حايا، كفرلاتا، معراتا، قرصايـا، نحليا، سراقب، بليعا، جويـاس، سرمين، سـلامين، قيمناس، مجـدليا، معـرة، معرين، كفتين، اعزاز، شمارين، كفر غان، معرين، يحمول، تلعار، غيطون، عويلين، حربل، باب،

شرحين، قباسين، عولان، مقرتى، أبو جبار، تل سيعين، جبول، زعرايا، سريب، عاكولة، عفرين، باصلحايا، باسوطة، بابليت، كفر بطرا، كفرحينة، معراتة، تل دارين، زيتان، غبطين، سربايا، أبو جرين، بلاس، تل سلمو، تل عابور، حربيل، صقلايا، طيبة، عقربة، منعايا، نيرب، در اب، يسطرون، بلان، تل سوسين، حيلان، زرزيتا، بالا، عندان، ايرين، بداما، بكسريا، بللو، باريشا، بطلايا، هتيا، ربعيتا، مريبا، دانا، ترمانين، تل عقبرين، سلقين، بتيا، البيا، بسليا، بشندلايا، جدعين، عبريتا، صرين، عرنة، بشعلا، ترملا، جياة، دانا، راشا، بيراي، معصران، أبو حنايا.

٨ ـ محافظة الفرات

صور، تبني، سفيرة، رمادي، رقة، جروة، جزرة، مرج الذيبات، عباطين، قرتل، حيلة، جدلة، برقة، غدين، ديلان.

٩ ـ محافظة الجزيرة

بويلان، البلة، البوير، صفيا، تل باطى، كفرا، تل شمس، تل صاهود، ديلان، رحيا، شما، شونة، صفيا، عداية، تل جدايا، تل شنان، تل طال، تل عريو، عامودة بسيس، مستا، الصفا، تل حرمل، عوادة، قطنية، شمساني، ديريك، باجريق، تل دار، تليلون، روباريا، عرعور، عين يازوق، كاسان، كربالات، باقلا، تل ناعور، جلاغا، بوره، تل عفر، تل كيف، جدوع، جرنة، دلالي، دودان، زورافا، فرفره، دلاوية، ببو، تعلك، جولما.

ففي هذه الأسماء ومثيلاتها التي تزيد عنها أضعافاً كثيرة، والمذكورة في نشرة الحكومة السورية، توكيد لما قلناه من ان الموجات العربية القديمة قد طبعت بلاد الدولة السورية من بلاد الشام بطابعها الغالب، بل الشامل الذي ظلت شواهده مستمرة إلى الآن.

وهذه قائمة مقتبسة من كتاب «لبنان» الذي الفه نخبة من الأدباء بأمر متصرف لبنان سنة ١٩١٤، ولقد احتوى هذا الكتاب قوائم بأسماء نحو ألف قرية وقصبة ومدينة من قرى وقصبات ومدن جبل لبنان، ومعظمها يحمل اللمحة العربية القديمة الآرامية ـ السريانية والكنعانية الفينيقية، ومنها ما ورد في معجم ياقوت، ومعظمها لم يرد فيه، ونقلها جميعها تطويل لا ضرورة له أيضاً، ولهذا سنكتفي بإيراد جملة من كل حرف:

اجبع، ادما، ارسيما، أرصون، ارنيا، اصنون، أفقا، أميون، انفة، إهدن، بابا، باروك، بيت ضنية، بتدين، بترون، بتعبورة، بتعلين، بحرين، بحديدات، بحمدون، بدادون، بدبا، بدنايل، برجا، برجين، برصا، برمانا، بريدين، بزعون، بسابا، بسبينا، بشامون، بشري، بشمزين، بصاليم، بصرما، بعبدا، بتعانة، بتنابة، بكرتا، بكفتين، بكفيا، ترحمانا، تنورين، تولا، تحوم، جباع، جبيل، جدايل، جربتا، جرنايا، جزين، جعايل، جعيتا، جنسنايا، جون، جونية، حاصبيا، حاقل، حبالين، حبرموت، حجولا، حدثون، حدشيت، حردين، حريصا، حزرتا، حصرايل، حصرون، حلتا، حمانا، حملايا، حوراتا، حومال، حبداب، خلده،

دار بعشتا، داريا، درعون، دفون، دلبتا، دملصا، دنحا، دوما، دير يايا، دير خوتا، ذرعون، ذكرون، راس كيفا، رأس مشعا، راشا، راشانا، رشعين، رشميا، رينون، ريمات، زبدين، زبوغا، زحلة، زغدرايا، زغرتا، زغرين، زوق، سبرين، سيلين، سرحمول، سرعيتا، سلعاتا، سنيا، شاتين، شارون، شبطين، شبيل، شحتول، شحيم، شرتون، شعبيا، شكا، شرمارين، شملان، شواتا، شوفين، شوير، شوينات، صليما، صناط، صورات، صوراتا، صيدون، ضبية، طبرجا، طرزا، طورزيا، ظهر بصاليم، عابا، عاريا، عازور، عاضور، عاقورة، عاليتا، عانوت، عبدين، عبرا، عبرين، عبية، عشرين، عجلتون، عربة غلبون، عرمون، عشقوت، علمات، عمشيت، عنبال، عيناب، عيتات، عين زحلتا، عين عار، عين عكرين، عين عنوب، غابون، غادير، غبالين، غدادس، غرزوز، غرفين، غريفة، غزير، غوشريا، غوما، فاريا، فالوغا، فتقا، فرحت، فساقين، فغال، فيطرون، فيع، قبع، قرانعون، قرصا، قرطبا، قرطبون، قرقريا، قرنايل، قطبو، قلحات، قيتولة، كترمايا، كرخا، كفتون، كفر بعال، كفر تعلا، كفر حاتا، كفر حتى، كفر حورا، كفر زبونا، كفر زينا، كفرشيما، كفر شارون، كفر عقا، كفرمايا، كفريا، كفور، كنيون، كلباتا، كينون، لاسا، لبعا، مارسينا، ماروس، ماصوص، متريت، المتن، المتين، مجدل بعنا، مجدلونا، مجدليا، مرجبا، مرستى، مرياطة، مزبود، مزيارة، مشقيتا، مشبعا، مشحلات ، ميروبا، مينوق، نقريا، نهر بقعاته، نيحا، هرمل، مرهويا، وطا سفرتا، وطا سلان، ياريتا، يحشوش.

وفي هذه الأسماء ومثيلاتها التي تزيد عنها أضعافاً، والمذكورة في كتاب لبنان توكيد كذلك لما قلناه من ان الموجات العربية القديمة الآرامية ـ السريانية والكنعانية ـ الفينيقية(٨٨) قد طبعت جبل لبنان من بلاد الشام بطابعها الغالب الذي ظل مستمراً إلى الآن أيضاً.

وهذه قائمة احتوت أسماء عشرات القرى في أقضية صيدا وصور ومرجعيون والشقيف في جبل عامل الذي لم يكن داخلاً في حدود إدارة لبنان حينما كتب مؤلفو كتاب لبنان كتابهم. وهي تحمل كسابقاتها اللمحة العربية القديمة الآرامية والكنعانية، منها ما ورد في معجم ياقوت ومنها ما لم يرد. ولم نذكر الأسماء العربية الفصحى، والأسماء التي تلوح عليها لمحة الأعجمية، مع أن هناك احتمالاً بأن تكون قد أطلقت على أعيان قديمة:

١ ـ قرى قضاء صور

ارزون، شاف، بيت ياحون، باريش، بازوريه، باقليه، بستيات، بدياس، باتوليه، تربيخا، تبنين، جبين، جمجمية، جويا، جناثا، حاريص، حانين، حناوية، دير نطار، دبعال، دير كيفا، دردغيا، دير عامص، دير قانون، رقليه، راميه، زبقين، سلعه، شمع، شحور، شيحين، صور، صربين، صريفا، صديقين، طير زبنا، طويري، طير حرفا، طوره، طيردبا، عيتيت، فروت، قلوية، قدس، قانا، كونين، كفره، مجادل، مجدل زون، نيحا، ناقوره، ياطر، يارون، يانوح.

٢ ـ قرى قضاء مرجعيون

بلاط، بويضه، بنت جبيل، بيت لف، برعشيت، حداثا، حولا، دبين، دير ميماس، سرده، صلحا، عديسه، عمره، عيناثا، عيثا، عيترون، طلوسه، قنطره، مركبا، ميس، هونين.

٣ ـ قرى قضاء صيدا

أزريه، براك التل، براميه، برتى، بقسطه، بابليه، تبنة، جل عجرم، جديده، حبوش، حومين، حارف، حجه، حارة، خرطوم، خربة الدوير، خزيز، دير تقلا، دوير، روبين، زبدين، زغدرايا، زراريا، ساره، صرفند، طوريت، عبرا، عدلون، عرنايا، عنقون، عدنيت، قناريت، قاقعا، عين قانا، كفر شلال، كفرحتى، كفر وجّان، كفر بدّه، كفر بيت، كفر تبنيت، كفر صور، كفرفيلا، كفر ملكى، مجدليون، مجدله.

٤ ـ قرى قضاء الشقيف

أرنون، أركى، بريقع، تبعقوب، جبشيت، جبع، جرجوع، زفتى، زوطر، زيتا، سجد، سربا، سير، نبطية، يحمر.

وهذه قائمة مقتبسة من كتاب جغرافية فلسطين لحبيب الخوري وحسين روحي فيها اسماء مئات القرى والقصبات الفلسطينية المستعملة اليوم والتي تحمل اللمحة العربية القديمة الآرامية والكنعانية والعمورية والعبرانية منها ما ورد في معجم ياقوت ومعظمها لم يرد. ولم تنقل الأسماء العربية الفصحى ولا الأسماء التي تلوح عليها لمحة الأعجمية وهي كثيرة مع احتمال أن تكون هذه الأسماء قد أطلقت على أعيان قديمة. وقد رتبنا الأسماء حسب الأقضية التابعة لها:

قرى قضاء غزة

رفح، عبسان، دير اسنيد، سمسم، برير، محرمه، كوفخة، هوج، جباليه، بيت لاهيا، هربيا، حليفات، كوكبه، بيت طيما، جيّه، بربره، بيت جرجا، بيت حانون، دمره.

قرى قضاء المجدل

نعليا، جولس، عبدس، عراق سويدان، بيت عفا، بيت دراس، بدو، جليا، يبنه، قبيه، زرنوقا، كراتيا، حتى، فالوجة، بعلين، برقه، ياسو، قطره، مسميه، خصاص، بطانى، صميل، بشيت.

قرى قضاء الخليل

دورا، تنوح، نرقومه، اذنه، سموع، يطه، حلحول، خاراس، نوبا، بيت كاحل، زيتا، كدنة، بيت نتيف، جيبا، صوريف، بير قسيا، رانا، عجور، زكريا، زكرين، جرش، بيت جبرين، دير نخاس، بيت أولى، ريحيه، بيت نمر.

قرى قضاء القدس

شعفاط، عرتوف، صرعه، بيت عسير، عسلين، ساريس، عكور، كسله، الولجه، يالو، عمواس، بيت شما، قطنه، بيت تول، أبو غوش، خربة عامور، عين كارم، صوبه، قسطل، بتير، لفتا، قلونيه، اصطاف، بيت نقوبه، بدّو، بيت سوريك، بيت أجزه، بيت اكسا، شمويل، بير نبالا، بيت دقو، رافات، بيت صفافا، شرفات، صور باهر، ابو ديس، الطور، عناتا، جبع، اكرم، قلنديا، بيت حنينا، سلوان، سلبيت.

قرى بيت لحم

بيت ساحور، ارطاس، بيت جالا، فاغور، نحالين، واد فوكين، خربة عليا، بيت فجار.

قرى رام الله

البيرة، صفّه، بيت سيرا، بيت لقيا، عطاره، بيت عور، بيت أونيه، عين عريك، عين قينيا، سلواد، ترمس عيا، بيرزيت، كوبر، جيبا، برهـام، بيت آلو، جمـالا، راس كوكـر، ديربزيع، دير دبوانه، كفر أشوع، الطيبة، رمون، عين يبرود، دورا، صرده، جفنه، عين سينيا، بيت اين، بيت ريما، كفر عين، قراوا، عرورة، عجول، عبوين، جلجليه، سنجل، أبو قش.

قرى اريحا

عوجا، وادي الكلت؛ جملا.

قرى يافا

يازور، سافريه، بيت دجن، سلمه، كفر عانا، رنتيه، فجة، بير عدس، اجليل، جريشه، سارونا، طبسور، ساقيه.

قرى الرملة

صيدون، نعانه، بريه، خلده، بيت قار، بربر، بيت جمال، عمورية، مفلس، اذنّبه، رفات، بيت سوسين، بيت جيز، كفروريه، دير ابان، بيت عطاب، عين شمس، جليه، خمه، سجد، مخيزن، تينه، صرفند، زرنوقه، اللد، عنابة، بيت نوبا، لطرون، بيرنعين، بويره، عجنجول، بدرس، قبيه، شعبه، شبتين، نعلين، خربتا، بلبان، حجزو، بير فيليه، بيت نبالا، جنداس، طيره، رنتيس، اللبن، قوله، مجدل يابا، قبيبه، شامه، النبي دانيال، البرج.

قرى قضاء نابلس وجماعين

عقربة، عظموط، عورتا، أومرين، أودله، عينابوس، عقابا، عصيره، أماتين، بلاطه، عمورية، بيت دجن، بيت فوريك، بيتا، بيت ايبا، بيت وزن، بيت أمرين، برقه، بزاريه، بروقين، باقا، بديه، دوما، ديراسيتا، فرخه، قندق، فرعتا، حواره، حارس، حجه، اسكاكا،

جالود، جوريش، اجنسينا، جنسافوط، جماعين، جبت، قصره، قريوت، قبلان، قوصين، كفر قليّل، كفر قدوم، كفر حارس، كفر لاقف، قيره، حواره، لبَّن، مادمه، مغير، مسحه، مرده، ناقوره، نصف جيل، رفيديا، روجيب، سالم، رافات، معره، سفيريا، صرطه، سلفيت، ساويه، بياسير، تل، طوباس، تلفيت، طمون، طلوزا، عوريف، ياسوق، تيمة، ياميد، يانون، زواتا، زيتا، زاوية، فرخه.

قرى قضاء طول كرم

علار، عنتبا، عطارة، عتيل، عزون، باقا، بلعه، بيت ليد، ذنابه، راس، فلاميه، فرعون، فرديسيه، حبله، ارتاح، جلجوليه، حبوس، حبت قاقون، قلقيلية، كفر عبوش، كفر جمال، كفر اللبد، كفر سابا، سبيه، كفر صور، كفر رمان، كفر زيباد، قلنسوه، كور، مسكه، رامين، صيدا، سفارين، شوفه، شويكه، الطيبه، طول كرم، زيتا.

قرى قضاء جنين

عين منسى، عنين، عرابه، عجه، عوصه، عربونه، عرانه، برقين، بيت قاد، زبوبا، عرقة، جربا، رامه، الكفير، فراينان، قندقيه، قتوعه، جلمه، جبع، جلبرن، جلتاموس، قفين، كفر عدة، كفر قود، قباطية، تلفيت، متيلبه، مرقه، مسبليه، متيلون، نتالين، نورس، رمانه، أبا، سيله، سانور، سيريس، صندلا، صير، تضك، يعبد، زلفه، زرعين، زبايدة.

قرى بيسان

سيرين، وادي البيرة، كوكب، جبول، زيعة، كفره، دنا، ببلا، طيبة، مرصص، شطه، قوميه، فرونه، سامرية.

قرى حيفا

عبلين، عسفيا، طيرة، كفرين، اجزم، طنطورة، صبارين، عين حوض، عين غزال، عرعره، عاره، قنير، كركور، عتليت، بنيامين، كفر قرع.

قرى عكا

كفر ياسيف، رامه، ترشيحه، جولس، بروه، الزيب، مجدل، كروم، بعنة، شعب، سخنين، عرابة البطوف، طمرا، بيت جن، الدامون، سحماتا، نحف، كابري، مكر، كفر عفان، سيجور، ميعار، جت، يانوح، عمقه، كويكات، الشيخ رنون، بركا، مليار، كفر سميع.

قرى الناصرة

عفولة، سولم، صفورية، اكسال، دبوسيه، عين ماهل، كفر كنا، عيلوط، معلول جباتا، يافا، القوله، اندور، ناعور، طرعال، رمانه، كفر منده، كوكب، خنيفس.

قرى طبريا

سمخ، معذر، عولم، كفر كمه، لوبية، حطين، مغار حزور، سمره، حدثه، كفر سبت، شعاره، نمرين، عليون، باقورة، سمه، سارونه.

قرى صفد

بيريا، طبطيا، فاره، صفصاف، سعسع، الجش، كفربرعم، السموعي؛ ميرون، عكرا، قديتا، علما، دلاتا، فوطة، حرفيش، دبشوم، فرعم، التليل، الجاعونة، القباعة، يبسمون، ياقون، جامولا، يوزية، مزرعة ماروس، بنات يعقوب.

وهذه قائمة بأسماء كثير من مدن وقصبات وقرى شرق الأردن المستعملة اليوم والتي تحمل اللمحة العربية القديمة الآرامية والعمورية والكنعانية والعبرانية منها ما ورد في معجم ياقوت ومعظمها لم يرد مع التنبيه على أن هذه الأسماء ليست كل الأسماء التي تحمل تلك اللمحة لأنها كثيرة هي الأخرى.

في قضاء جرش

الغدين، قفقفا، جبا، ايدون، خطلا، دحل، بلعمة، القتية، عينبة، الكفير، جبة العالوك، صروت، حمنانة، الزنية، غريسة، بيرين، بليلا، كفر خن، معتله، سوف، جرش، ساكب، ريمون، ديبن، دير عجلون، جزازة، الكنة، المجدل بورما.

في قضاء عمان

الجيزة، زبارا، زويزة، جلول، أرنبة، جواره، نتن، هريج، صوفه، الهرين، الشمد، منجة، زبابر، أم رمان، النيقرة، الطنيب، اللين، الغبية، برازين، سالحة حشاس، قعفور، ياجوز، عمان، أبو علقدة، ارميدان، المناحر، خسافية، الرحيب، خربة السومة، يادودة، أم الكندم، الينبات، ناعور، البصة، البجاة، خلدا، خو.

قضاء الكورة

عنة، ارخيم، ارحابا، مرحبا، بيت يافا، كفر الما، بيت ايدس، تبنه، كفرايبل، زوبيا، كفراعوان، جديتا، طبقة فحل، العسوان، زمال، السمط، الطنطور، سموع جنين، حفين، الحمة.

قضاء الطفيلة

عيمة، صنفحا، بصيرة، ضانا.

قضاء معان

حديرة، شوبك، بئر خداد، خربة، اذرح، بسطة، مزرعة وهيدة، رسيس.

قضاء الكرك

أريحا، مسعر، فقوع، سنينة، جذعة، مجدلين، امرع، صرفا، سماك، الزرقيبة، حديب، الربة، الباروت، الدمنة، بتر، جديدة، راكين، ادر، كرك، بثينة، مريفة، تنيفة، عزرا، عنيون، عي، كنريا، تخل، مدين، محنة، مرود، موتة، عراق سول، دليفة، حجرة، أم حماط، أم زبابر، دونخبة، صحى، عينا، الحسا، غور فيقة، غورعسال، غور الصافي، وادي الموجب، بليدة.

قضاء مادبا

جرينة، خسبان، كفير، حنينا، الأسريوط، مادبا، ماعين، ماسوح، سامك، جبيل، مشغر، سطيحة، لاهودة علبان، أبو شجب، لب، عطروز، مغارة، وادي الوالا، خربة الكوم، عموريا، دحفرة، برزة، الغريان، أم شجرة فلحا، ذيبان، عراعر، عقربا، مثلونة.

قضاء عجلون

راسوت، عرجان، باعون، أوصرة، حلاوة، فارة، عين دعلين، سامنا، عفنا، لشب، عين جنا، عجلون، عجرة، أجب، غور فارة.

قضاء السلط

الرمات، سومبا، سبحات، حليعد، ميسرا، علان، موبص، وعم، أم زوبنة، سافوط، خلدا، دابوق، فحيص، ماحص، برقا، عيرا زبود، غور كبد، غور غرين، غور كفرين، غور الرامة، زور الكنار.

قضاء إربد

أيدون، صريح، حوارة، بشرى، سال، البارحة، إربد، كفريوبا، جمحة، زحر، كفرعان، كفر رضا، دوفرة، سوم، بجين، فم، قميم، خراج، قصفا، عزريت، أسعرا، حيدور. ثقيلة، سما، فوعرة، حور، ابدر، رفيد، بارشنا، كفر سوم، عقربا، حرنا بلا، حريما، خرجا، مرو، حكما، علعال، عمراوة، ملكا، كتم، شطنا، ناطغة، بنية، حبكة، صمد باقورة، دير السعنة، مخربا، مندح، صما، سحم، مخيبة، سمر طره، رمثا، حوشة، صره، فاع، بريفة.

- ٣ -

والتماثل شديد عجيب بين اللغات الكنعانية الفينيقية والآرامية السريانية والعبرانية التي كان يتكلم بها الموجات العربية التي استقرت في مختلف بلاد الشام وبين اللغة العربية مما فيه الدليل القوي على أصالة عروبة هذه الموجات، وعلى أن هذه اللغات إنما كانت لهجات للغة أم واحدة.

هذه قائمة بمفردات كنعانية مأخوذة من الأمير موريس شهاب مدير عام الآثار اللبنانية:

اب، أخ، أحد، ايل، أكل، أم، آمة، أنس، أنت، أرض، بيت، بن، بنى، برا، برح، برك (بارك)، جلى، جمل، دلل (دليل)، دم، دعم، دقق (دقيق)، هو، هيكل، هم، ذبح، ذكر، ذرع، خدر، حدث، حي، حلب، حلل، حلة، خلص. خمسى، حية، ختم، طبخ، طبع، يد، يوم، يم، يتم (يتيم)، كاهن، كلب، كنى، كف، كرسي، كتب، كتن (كتان)، لسن (لسان)، مئة، موت، ملح، ملاح، ملك، منحة، ندر، نحس (نحاس)، نفس، نصب، عيد، عبر، عين، علا، عامود، عضم، عقب، مغارة، عشر، فلح، فعل، فتح، صدق، قبر، قول، قرن، راس، رب، اربع، رصب، رعن، سبع، ثلاث، ثمان، ثاني، شرش، تحت، تين، تمر، تسع.

وهي تكاد تكون عربية فصحى كما هو ظاهر...

وهذه قائمة مفردات آرامية وعبرانية مع ما يقابلها من العربية(٨٩) القديمة في جنوب الجزيرة والعربية الفصحى:

عربية فصحى	عربية جنوبية قديمة	آرامية	عبرانية
أب	اب	ابا	اب
ابن	بن	برا	بن
اخ	احو	احا	اح
أخذ	اخز	أحد	احز
أذن	ازن	اودنا	ازن
اثنتان	سنيت	ترين	شفايم
أرض	أرض	ارعا ارقا	ارض
اربع	اربع	اربع	اربع
اسم	سم	شما	شم
ام	ام	اما	ام
انسان	انش	ناشا	انوش
بئر	بئر	برا	يور
برق	مبرق	برقا	باراق
بعل	بعل	بعلا	بعل
بكر	بكر	بكرا	بكور
بنت	بنت	برتا	بت
بيت	بيت	بيتا	بيت
تسع	تشع	تشع	تشع
ثلاث	شلاس	ثلاث	شلوش

عربية فصحى	عربية جنوبية قديمة	آرامية	عبرانية
ثمان	سماني	تمانا	شمونة
ثور	سور	تورا	شور
ثوم	سومات	توما	شوم
جمل	جمل	جملا	جمل
حبل	حبل	حبلا	حبل
حفر	حفر	حفر	حفر
حقل	حقل	حقلا	حلل
حم	حم	حما	حام
حمار	حمار	حمارا	حمور
خبل	خبل	حيل	حبل
خمس	خمس	حمشا	حمش
دبس	دبس	دبشا	دباش
دم	دم	دما	دم
ذنب	زاب	دابا	زاب
ذباب	ذبب	دبوبا	زبوب
ذنب	زناب	دونبا	زاناب
راس	راس	ريشا	روش
رحم	رحم	رحم	رحم
ركب	ركب	ركب	ركب
زرع	زرع	زرعا	زرع
سبع	شبعو	شبع	شبع
ست	سو	شتا	شش
سلم	سلم	شلما	شلم
سن	سن	شنا	شن
شبلة	سيل	شبلتا	شبلث
سماء	سماي	شمايا	شمايم
شمس	شمس	شمشا	شمش
شعر	سعرت	سعرا	سعار
صرخ	صرخ	صرح	صرح
ضرة	ضر	عزنا	ضاراة
طحن	طحن	طحن	طحن
طعم	طعم	طعما	طعم

عربية فصحى	عربية جنوبية قديمة	آرامية	عبرانية
طيب	طيب	طبا	طوب
ظفر	ظفر	طفرا	صبرن
ظل	صللوت	طلا	صل
عشر	عشرو	عسر	عسر
عض	غد	اعا	غص
عظم	عضم	عطما	عصم
عقرب	عقرب	عقربا	عقرب
عمود	عمد	عمودا	عمود
عنب	عنب	عنبا	عنب
عين	عين	عينا	عين
فتح	فتح	فتح	فتخ
فتل	فتل	فتل	فتل
فم	اف	بوما	به
قرب	قرب	قرب	قرب
قرت	قرن	قرنا	قرن
قمح	قمح	قمحا	قمح
قوس	قشت	قشتا	قشت
كبد	كبد	كبدا	كابد
كرش	كرش	كرسا	كرس
كلب	كلب	كلبا	كلب
كوكب	كوكب	كوكبا	كوكب
لب	لب	لبا	لب
لبس	لبس	لبش	لبش
لسان	لسان	لشنا	لشون
لهب	لهب	شلهب	لهب
ليل	ليلة	لليا	ليلة
ماء	ماي	مايا	مايم
مائة	ماءات	ماا	مآة
متى	مت	أمت	متى
مثل	مسل	متل	مشل
ملك	ملكي	ملكا	ملك
موت	موت	موتا	موت

عربية فصحى	عربية جنوبية قديمة	آرامية	عبرانية
نسر	نشر	نشرا	نشر
نفس	نفس	نفشا	نفش
ودّ	ودّ	يدّ	يدد
ورق	ورق	يرقا	يرق
وقر	وقر	ايقر	يقر
ولد	ولد	ايلد	يلد
يد	اد	ايدا	يد
يمين	يمن	يمينا	يمين
يوم	يوم	يوما	يوم

ولقد عثر على نقوش كنعانية وعبرانية وآرامية عديدة، في مختلف انحاء الشام، تبدو فيها اللمحة العربية قوية. وهذه جملة منها، منقوله من كتاب **تاريخ اللغات السامية لاسرائيل ولنغستون** أيضاً:

١ ـ نص من نقش كنعاني ـ فينيقي لأحد ملوك جبيل يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

«انخ يحو ملك جبيل بن يهر بن ار ملك جبل
«اش بعلتن هربت بعلت جبل مملكة على جبل وقرا اتنح
«ات رتبي يعلت جبل شمع قل وفعل انخ لرتبي بعلت
«جبل همزنج نحشت زمن اس بنح رز هبتسح حرص
«زن اس على بن فتح وهعرت حرص اش بنتحت
«بن اش على فتح حرض زن[٩٠].

٢ ـ وهذانص من نقش كنعاني ـ فينيقي أيضاً يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد[٩١]:

«انخ كلمو يرحى ملك حبر على يادي وبل بعل
«كن يمة وبل بعل وخن اب حيا وبل يعل وخن اح
«شأل وبل بعل وانخ كلموبر تم ماش بعلت
«بل بعل هلفينهم كن بت ابي يمنتحت ملكم اد
«رم وكل شلح يدلل وكتب بيد ملكم كماش اكلت
«زقن وكم اش اكلت يدوادر على ملك دنيم وعنحر
«انخ على ملكا شر علمت يتن بشر وجبر بسوت
«انخ كلمو برحيا يشبث على كسا أبي لفن هم

٣ ـ وهذا نص من نقش كنعاني ـ فينيقي لأحد ملوك صيدا يعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد[٩٢]:

انخ تنبت كهن عشترت ملك صدنم اشمنعزر كهن عشترت ملك صدنم شخب بارن زمى ات كل ادم اش تفق ايت هارن زال ال فتح علتى وال ترجزى كاي ادلن كسف اي ادلن حرص وكل منهم مشديلت انخ شخب بارن زال ال تفت.

٤ ـ وهـذا نص من نقش كنعاني لملك نـواب ميشـع يعـود إلى القـرن التـاسـع قبـل الميلاد[٩٣].

انك مشع بن كمش ملك مأب هو يني إلى ملك عل مأب شلش انك ملك تي احر ابي واعس هيمت زات لكمش بفرحة بن. شع كي هشعنى مكل. لكن وكي هرابي بكل سنـاي بحمري ملك يسرال ويعنوات مأب يمن ربن كي يانف كمش. بارصة ويحلفه بنه ويأمر جم ها اعذوات يمي امر. . . الخ.

٥ ـ وهذا نص عبراني مأخوذ من نقش على حجـر عبراني عثـر عليه بـالقرب من بيت المقدس في قرية السلوان في داخل مغارة ينبع منها الماء وعرف بنقش السلوان ويخمن أنه كتب حوالى ٧٠٠ ق م:

هنيقب فيزي ها يا دابار هنيقب يا عود. ها غرزان ايش ايل ريعو ويعود شيلوش اموت ليهكع مول ايش قيرا ايل ربعو كي هايازاده يصور ميامين وبيوم هنقابة هكوها حاصبم ايش يقرات ريعو غرزان علل غرزان هاييم مين هموصا ايل هبراخا بيماتاييم إيلن وميقات أما هايا عبية هصور عال روش ها حاصبتم[٩٤].

٦ ـ وهذا نص نقش آرامي وجد في خرائب قصر ملك شمال في مكان اسمه زنجيرلي في شمال سوريا يخمن أنه من القرن الثامن قبل الميلاد:

انه بر ركب بر بنمو ملك شمأل: عيد تجلت بليسر مرا ربعي ارقا يصدق ابي ويصدقي هو شيني مراي ركبال. ومراي تجلت بليسر على كـرسا ابي وبيت ابي ـ عمـل من كل ورصت يجلجل. مراي ملك أشور بمصعت ملكن ربر بعلي كسف. وبعلي ذهب. واخذت بيت ابي وهيطنة[٩٥].

٧ ـ وهذا نص نقش آرامي آخر وجد في قرية نيرب قرب حلب:

ششتر بن كمر سهر برب مت. وزنه صلمة. وارصته. من أن تجنس صلما. زنه وارصتا من أثره ـ سهر وشمس ونكل ونشك يسحو. شمك واشرك من حين. وموت لحه. يكطلونك ويها بدو زرعك وهن. تنده صلما. وارصتا زا احري ينصر زي لك[٩٦].

وإذا نحن اهتممنا، للتدليل على الوحدة الجنسية التي تربط بين موجات جزيرة العرب الطارئة على بلاد الشام ببعضها من جهة، وبغيرها من الطارئين على البلاد الأخرى من جهة، وبالذين بقوا في جزيرة العرب من جهة، ثم على الطابع العربي الذي طبعت به هذه الموجات بلاد الشام بالمظهر اللغوي الذي يتمثل بالمفردات اللغوية، واسماء الأعلام الكثيرة التي أثبتنا قوائمها آنفا، فليس معنى هذا أن التشارك اللغوي هو وحده الجامع، وإنما لأن جمهرة من الباحثين اعتبروا هذا التشارك من أبرز مظاهر الوحدة الجنسية، على ما ذكرناه في المقدمة؛ وهو حق ما دام هو قائماً بين جميع الموجات التي خرجت من الجزيرة، وبين الذين بقوا فيها. ولقد قرر جمهرة من الباحثين مع ذلك، أن التشارك قائم في العقائد والتقاليد والأفكار أيضاً[٩٧] ؛ وهو ما سوف تأتي الشواهد عليه في ثنايا هذا الجزء.

ولقد سلك المؤرخون العرب، وغير العرب، النبطيين والتدمريين في هذه البلاد في سلك التاريخ العربي، ولم يكونوا يسمون عرباً بصراحة. وكانت لغتهم ما تزال بين العروبة الصريحة والعروبة غير الصريحة. وذلك بسبب انتمائهم إلى جزيرة العرب، والجنس العربي، والطابع العربي الملموح في لغتهم واسمائهم ومنقوشاتهم، وليس من فرق في الواقع بين هؤلاء، وبين الموجات التي جاءت قبلهم من جزيرة العرب إلى بلاد الشام. فإذا ما سلكت تاريخها، في سلك تاريخ الجنس العربي، فإنما تفعل ذلك اتساقاً مع الحقيقة التاريخية المتصلة بالواقع المستمر منذ عشرات القرون قبل الإسلام، والمؤيدة بالشواهد المتنوعة، وأقوال جمهرة من العلماء والباحثين، وتقريراً لها، وتصحيحاً للخطأ المشهور، والتوجيه التاريخي، وتدليلاً على أن عروبة بلاد الشام الحاضرة، هي امتداد لما كان من عروبتها الصريحة وغير الصريحة التي سبقت الاسلام بعشرات القرون، ثم احباطاً لمكر المستعمرين والمبشرين المغرضين، واعداء العروبة الشعوبيين، والمتأثرين بدعاياتهم وتلقيناتهم في بعض أنحاء الشام، وخاصة لبنان كما هو الشأن في مصر، حتى تتجاوز مكابرة بعضهم كل حد ومنطق، فيتجاهلون الأصل العربي القديم الذي تفرع منه سكان بلاد الشام القدماء الكنعانيون الفينيقيون والآراميون السريان، ويتجاهلون السيل العربي الصريح الذي أخذ يتدفق على هذه البلاد، بما فيها لبنان قبل الإسلام وبعده، ويغمر مدنها وقراها، والذي تفوق اعداده سكان لبنان، بل والشام جميعها قبل العروبة الصريحة، ويطبعها بطابع العروبة الشامل، منذ ثلاثة عشر قرناً، والذي يتمثل في كل ناحية من أنحاء الشام، بما فيها لبنان، سواء أكان في اللغة، أم في كل تقليد من تقاليدها، وكل مظهر من مظاهر حياتها تمثلاً قوياً، ويحاولون فصل تاريخها عن تاريخ الجنس العربي، ليوقروا في أذهان سكانها، وخاصة نصاراه، وبنوع أخص موارنته، الذين هم من الجنس العربي يقيناً، سواء أكانوا آراميين أم فينيقيين، أم من قبائل بني مراد العرب الصرحاء[٩٨]وهن الصلة بينهم وبين العروبة الأصيلة، وليجعلوهم يعتبرون العرب غزاة كسائر الغزاة الذين طرأوا على بلاد الشام، ووطدوا حكمهم عليها بالفتح العسكري وحسب، وكون ما هنالك من فرق، هو أنهم أعطوها دينهم ولغتهم، كما كان وما يزال يبث همساً تارة وصراحة تارة أخرى، وفي حين تكفي في نظرهم المئتان

والثلاثمائة من السنين لتجعل سكـان بلاد ما متنوعي الأصل والجنس أمة ذات قومية واحدة، لأنها صارت تتكلم بلغة واحدة، وتعيش في جو تاريخي واحد.

وهناك ظاهرة يجدر التنويه بها في هذا المقام، وهي أنه لم يذكر أحد من الباحثين أنه كان غرابة لسانية بين سكان مختلف أنحاء الشام، شمالها وجنوبها وشرقها وساحلها، أو أنه كان بينهم وسطاء ومترجمون، حيث يفيد هذا انهم كانوا يتكلمون لغة واحدة، وإن اختلفت لهجاتها. ولما كانت هذه اللغة أو اللهجات هي متقاربة أو متماثلة مع اللغة العربية، فقد عدت شقيقات لها.

فكل ما تقدم يدل أحسن الدلالة على صلة معظم سكان بلاد الشام، وخاصة معظم الطارئين عليها منذ أقدم العصور التاريخية المعروفة، إلى منتصف الألف الثانية قبل المسيح الذي أخذت العروبة فيه تتطور من عروبة غير صريحة، إلى عروبة صريحة، يمتون إلى الجزيرة العربية، وبالتالي إلى الجنس العربي، ويسوغ بصورة لا تصح المماراة فيها سلك تاريخهم في سلك تاريخ الجنس العربي. وهذا، بالاضافة إلى أننا، حينما نقرر صلة سكان بلاد الشام القدماء بالجنس العربي، أو بكلمة أدق، حينما نبرز هذه الصلة، نكون قد أبرزنا سعة نطاق نشاط الجنس العربي وحيويته في مختلف المجالات الفكرية والأدبية والحضارية والسياسية والعسكرية، حينما برز هذا الجنس على مسرح هذه البلاد، التي كانت مصدراً رئيسياً من مصادر الحضارة البشرية، التي شعت على العالم، وكانت من مشاعل هداية البشر وحضارتهم الأولى من جهة، ونكون من جهة أخرى قد وصلنا بين حيوية العروبة في دورها الصريح، على مسرح هذه البلاد، وبين حيويتها عليه قبل هذا الدور، فصار من ذلك سلسلة متصلة الحلقات، يمسك بعضها بعضاً من جهة أخرى.

- ٥ -

وليس هناك ما يمكن أن يساعد على تعيين مبدأ تاريخي لانسياح الموجات العربية إلى بلاد الشام، ولقد كان فيها قبل انسياح الموجة الكنعانية، التي تسجل كأول موجة معروفة ومعينة الاسم، ومتصلة التاريخ والأحداث، والتي يخمن تاريخ انسياحها في أوائل الألف الثالثة قبل المسيح، سكان يرجح المؤرخون والأثريون أنهم، أو أن منهم من هو موجات من جزيرة العرب. وهذا الترجيح في محله. لأن انسياح الموجات من جزيرة العرب إلى وادي النيل والعراق، قد بدأ قبل الألف الثالثة قبل الميلاد بأمد طويل. ومن المعقول أن تكون بلاد الشام من المناطق التي انساحت إليها موجات من جزيرة العرب مثلها.

ولقد جاء في كتاب **الإسلام والمسيحية في لبنان**(٩٩)، معزواً إلى المؤرخ الإنكليزي فيليب فان، والأمير موريس شهاب مدير الآثار اللبنانية، ان علماء الآثار اكتشفوا أن هجرات كثيرة متتابعة جاءت من جزيرة العرب إلى مصر والعراق وسورية ولبنان قبل ازمنه التاريخ، وأن من أقدم هذه الهجرات المكتشفة، بالنسبة إلى لبنان، هجرة فوج كنعاني أول قبل مجيء الفوج المعروف يقيناً. ومن الأدلة التي ساقها على ذلك كون تأسيس مدينة بيروت ـ وهو اسم عربي

اللمحة ويرجح أن يكون أصله بثروت ـ كان في الألف الرابع قبل المسيح ، أي قبل قدوم الموجة الكنعانية التي نحن في صددها.

وقد ذكر هذا المطران الدبس في كتابه **تاريخ سورية**[١٠٠]، وأضاف إليه مدينة جبيل وهو كذلك اسم عربي اللمحة، ويرجح أن يكون أصله جب ايل أي حصن الاله، أو مقر الاله ـ وقال أن منشئيهما ومنشىء مملكتيهما كانوا في لبنان قبل حلول الكنعانيين المعروفين، وساق على ذلك أدلة متنوعة. وهو يقرر في ثنايا كلامه، أن هؤلاء المتقدمين على الكنعانيين المعروفين، هم أيضاً من الجنس السامي أي العربي.

ولقد ذكر فيليب حتي[١٠١]، أن خوفو أول ملوك الأسرة الرابعة، نقش اسمه على آنية، وأرسلها كهدية إلى سيدة جبيل. وحكم الأسرة التي ينتسب إليها خوفو كان ٢٩٠٠ ـ ٢٧٥٠ ق م[١٠٢]، وهو أول أو ثاني ملوكها، أي أن حكمه في القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد. وهذا الزمن يسبق الزمن المخمن لطروء الموجة الكنعانية المعروفة، واستقرارها ونشاطها. والخبر يتسق مع ما ذكره المطران الدبس في صدد جبيل، كما هو المتبادر.

ولقد جاء في كتاب **مصر القديمة**[١٠٣]، استناداً إلى الآثار المصرية، أن سنفرو أحد ملوك الأسرة الرابعة، أو آخر ملوك الأسرة الثالثة، حسب استنباط مؤرخين آخرين (أي حوالى القرن الثلاثين قبل الميلاد)، قد سير حملة بحرية عظيمة إلى الموانىء السورية، رجعت محملة بالأخشاب التي قطعت من غابات لبنان. ولعل هذا أقدم ذكر لموانىء سورية وأخشاب لبنان. والمتبادر أن هذه العملية لم تكن لتتم إلا بمساعدة أهل البلاد وجهودهم، حيث ينطوي في هذا حقيقة وجود سكان في هذه السواحل ذوي نشاط زراعي، قبل الوقت المخمن لمجيء الموجة الكنعانية المعروفة. وليس ما يمنع أن يكون من موجات عربية سابقة، مما أشار إليها مؤلف كتاب الإسلام والمسيحية في لبنان.

ولقد جاء في كتاب **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** للدكتور فيليب حتي[١٠٤]، أن الديانة واللغة الكنعانيتين، تبدءان بالظهور من غياهب العصور السامية القديمة، حوالي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. غير أن أسلافهم كانوا غالباً يحتلون الأقسام الساحلية الجنوبية من بلاد الشام، قبل ذلك بألف سنة أو أكثر. ويمكن استنتاج ذلك من أسماء الأماكن، على ما أظهره علم الآثار الحديث. وقد تأسست المدن مثل اريحا وبيت شاب ومجدو التي اسماؤها كنعانية قبل عام ٣٠٠٠ ق م، وظهر في الكتابات الأثرية في النصف الأول للألف الثاني مدن أخرى لها اسماء سامية معروفة، يمكن اعتبارها كنعانية، مثل عكو وصور وصيدون وجبله (جبيل) واركة وسيميرا.

ولقد جاء في كتاب **تسريح الأبصار، فيما يحتوي لبنان من الآثار**[١٠٥]، أن سكان بلاد الشام ولبنان، كانوا قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة قبائل سامية من البابليين، ثم طرأ عليهم الكنعانيون، وأن اللغة البابلية ظلت اللغة السائدة، لأن الكنعانيين ليسوا إلا فرعاً من البابليين، ومما استدل به على ذلك رسائل تل العمارنة التي كانت ترسل من أمراء وحكام سورية باللغة البابلية والخط المسماري، والتي ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد المسيحي.

ولقد ذكرت أسفار العهد القديم[١٠٦]، اسماء أمم وقبائل عديدة، كانت تسكن فلسطين وشرق الأردن، إلى جانب الكنعانيين والآموريين، كالعماليق والحوريين والأيميين والرفائيين والحويين والفرزيين والجرجاشيين واليبوسيين، حيث يدل اختصاصهم بالذكر مستقلاً عن ذكر الكنعانيين والأموريين على أنهم من غيرهم. ومن المحتمل كثيراً أن يكونوا فروع موجات أخرى، جاءت قبلهم من جزيرة العرب. وقد قال مؤلف كتاب الإسلام والمسيحية في لبنان عن الجرجاشيين انهم فخذ من الفوج الكنعاني الأول[١٠٧].

ولقد كان قدوم موجة معروفة يقيناً إلى بلاد الشام الداخلية والشمالية، وهي الموجة الآمورية، أو العمورية، بعد قليل من قدوم الموجة الكنعانية. وقد اكتشفت في هذه الأقسام الشامية آثار لسكان أقدم من العموريين، يخمن كذلك أنهم، أو أن منهم موجات عربية الجنس وهو تخمين في محله، لأنه متسق مع ظروف انسياح موجات جزيرة العرب قبل الألف الثالثة السابقة للميلاد المسيحي إلى بلاد العراق، ووادي النيل، وأنحاء الشام الساحلية والجنوبية، على ما ذكرناه آنفاً.

ومما يؤكد هذه الترجيحات والتخمينات أن موجات جزيرة العرب ظلت تنساح متلاحقة إلى بلاد الشام بعد موجتي الكنعانيين والعموريين، وقبل دور العروبة وبعده، بحيث يصح القول بشيء من الجزم، أنه لا يعقل أن تكون الموجتان المذكورتان هما أولى موجات الجزيرة إلى بلاد الشام، ولا سيما أنها متاخمة للجزيرة مباشرة، وأن الانسياح من الجزيرة إلى الأقطار المجاورة لها قد بدأ من زمن أقدم بكثير من الزمن المخمن لانسياح الموجتين، على ما شرحنا في الجزء السابق.

- ٦ -

ولقد جرت تنقيبات متعددة في مختلف أنحاء البلاد الشامية، عثر فيها على آثار متنوعة عمرانية وفنية وثقافية، ونقوش ومدونات للموجات العربية التي طرأت عليها، وانشأت فيها القرى والمدن والدول. ولقد ورد أشياء كثيرة في منقوشات الأشوريين والمصريين ومدوناتهم، عن أحوال بلاد الشام السياسية والحربية. ولقد احتوت كتب اليونان والرومان القدماء أشياء كثيرة كذلك عن أحداث ومآثر سكان هذه البلاد السياسية والحربية والفنية والدينية والثقافية والعمرانية. منها ما هو وصف لمشاهدات عيانية ومسموعات شخصية، ومنها ما هو مقتبس مّن كتب أقدم منها، على ما ذكره المقتبسون القدماء، حيث كان كنعانيو الساحل ـ الفينيقيون ـ بنوع خاص، ممن يؤلفون الأسفار التي تشتمل على وصف شرائعهم ورسوم دينهم وأحداث بلادهم[١٠٨].

ولقد احتوت أسفار العهد القديم، التي دونت، أو أعيد تدوينها، حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، وبعد هذا القرن، والتي يبدو منها أن منها ما نقل عن مدونات سابقة، كثيراً من أحداث ومآثر سكان بلاد الشام السياسية والحربية والمدنية والاقتصادية والثقافية والعمرانية والدينية.

فساعد كل هذا على جلاء تاريخ الموجات العربية في مختلف انحاء بلاد الشام، منذ الألف الثاني قبل الميلاد جلاء ضيقاً تارة، وواسعاً تارة أخرى، ويَسّر كتابة فصول وثيقة بقدر الإمكان عن هذا التاريخ.

ونحب أن نستدرك أمراً، وهو أن التنقيبات الأثرية وحصائدها في بلاد الشام الداخلية والجنوبية، وخاصة في النقوش والمدونات المسهبة، لم تكن بالمقياس الواسع الذي كان في العراق ومصر، وما حصل عليه فيهما من بيانات، ولا سيما في مجال الأحداث السياسية والحربية، كما أن المدونات الأخرى القديمة، أو المكتشفة، لم تحتو من الاسهاب ما يساعد على كتابة سلسلة متصلة الحلقات عن دول وملوك واحداث هذه البلاد، كما أمكن ذلك بالنسبة لتاريخ مصر والعراق. ولهذا فإن الثغرات في تاريخها، ستظل أوسع منها في تاريخهما.

ومع أن سواحل الشام، أو ما كان يسمى فينيقية، كان أسعد حظاً في هذا الباب، حيث جرت تنقيبات عديدة فيها، وعثر فيها على آثار ونقوش كثيرة، واحتوت المدونات القديمة عنها تفصيلات أوفى، فإن هذا لم يكن من شأنه كذلك أن يساعد على عرض سلسلة متصلة في أحداث وتاريخ هذا القسم، وإن كان يَسّر الكلام عنه، بأوسع مما تيسر بالنسبة لداخلية بلاد الشام وشرق الأردن. أما بالنسبة لغرب الأردن، أو بتعبير أدق لتاريخ العبرانيين في دور يهوديتهم، أي بعد موسى، فإن أسفار العهد القديم احتوت تفصيلات واسعة ودقيقة عنه، يسرت الكلام في تاريخ هذا الدور بتسلسل وتفصيل، أكثر من أي مكان ودور آخر. ومهما شاب هذه الأسفار من شوائب، على ما سوف نشرحه بعد، تظل مصدراً تاريخياً مهما، يصح أن يعول عليه، إذا ما نظر فيها بإمعان وتحفظ، وتظل تكسب تاريخ العبرانيين ميزة على غيره من تاريخ الموجات العربية، بل من تاريخ أي أمة أخرى، لأنه لم يكد يصل إلى عهدنا تاريخ أمة قديمة أخرى مدون منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد بإسهاب وتفصيل عجيبين مثل ما جاء عن هذا التاريخ.

ولقد قلنا إن ما وصل إلى عهدنا من آثار ونقوش ومدونات قديمة، قد ساعد على جلاء تاريخ الموجات العربية في مختلف انحاء الشام، منذ الألف الثاني قبل الميلاد، قليلاً أو كثيراً. أما ما قبل ذلك فلم تكتشف بعد آثار تساعد على تدوين شيء وثيق ذي غناء.

وإنا لنرجو أن تهتم حكومات هذه البلاد، وقد اتسع نطاق العلم والوعي فيها، لتوسيع وتقوية حركة التنقيب والكشف، فيؤدي ذلك إلى ما لا يزال مغيباً عنا، من تاريخ جنسنا ومآثره، في هذه البلاد، قبل الألف الثاني من الميلاد.

هذا؛ ولقد كانت بلاد الشام في القديم، كما هي الآن، متعددة الكيانات، كما كانت موطناً لموجات متعددة في الوقت نفسه. ولذلك سوف نسير في كتابة هذا الجزء سيراً متوافقاً مع ذلك، فنخصص فصلاً للساحل الشامي الذي يعرف اليوم بلبنان وسابقاً بفينيقية، وآخر للداخل الشامي الأوسط والشمالي الذي يعرف اليوم بسورية، وآخر للجنوب الشرقي الذي يعرف اليوم بشرق الأردن وفلسطين، مع تخصيص فصل لبني إسرائيل في فلسطين، بسبب ما كان لهم من

حيز تاريخي فيها، بأسلوب يبرز فيه الصلة بين أحداث هذه البلاد وكياناتها، يكون وافياً بقدر ما يمكن، كما فعلنا في الجزئين السابقين، مما نرجو أن يكون مفيداً للقارىء العربي، وخاصة للناشئة العربية. ولا سيما أنه ليس في العربية كتاب واحد شامل لذلك كله، وواف بـالمرام وبالأسلوب والحجم اللذين جاء بهما هذا الجزء. ونقول هذا بعد أن اطلعنا على الجزء الأول من **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** لفيليب حتي الذي نقله إلى العربية جورج حداد وعبد الكريم رافق. لأن كتابنا يهتم بنوع خاص لتاريخ الموجات العربية في هذه البلاد، وإبراز صلة هذه البلاد وسكانها بجزيرة العرب، في حين أن كتاب حتي يبحث في أحوال وتاريخ وجغرافية هذه البلاد بوجه عام، ويمزج بين دور العروبة غير الصريحة والعروبة الصريحة قبل الإسلام فيها، ويهتم لتاريخ العصر اليوناني والروماني فيها، حتى لقد استغرق هذا أكثر من ثلث الكتاب.

هوامش الفصل الثاني

(١) جواد علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ٨ ج (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٥١ - ١٩٦٠)، ج ١، ص ١٤٨ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٨ وما بعدها.

(٣) شاروبيم، **الكافي في تاريخ مصر**، ج ١، ص ١٤٦ - ١٤٧؛ بريستيد، **القرون القديمة**، ترجمة قربان، ص ٣١٥؛ لامانس اليسوعي، **تسريح الأبصار**، ج ٢، ص ٣٥ - ٣٨؛ **مجلة الحوليات السورية**، مج ٢ (١٩٥٢)، وأحمد رفيق، **التاريخ العام الكبير**، ج ١، ص ١١٥، وج ٢، ص ٢٦١.

(٤) الطبري، ج ٢، ص ٥٨٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٥٦٠. (المؤلف)

(٦) كثير من المستشرقين وفي طليعتهم أولسهوزن يقررون أن اللغة العربية هي أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة الأولى التي تفرعت عنها اللهجات التي تكلمت بها الموجات العربية والأجيال العربية القديمة، بسبب أنها حافظت على نقاوتها أكثر من اللغات الأخرى التي تأثرت بمن سكن الناطقون بها معهم في البلاد التي حلوا فيها بعد نزوحهم من الجزيرة، وأنها تحتوي عناصر لغوية قديمة جداً بسبب وجودها في مناطق منعزلة عن العالم بعيدة عما يتوارد عليها من تقلبات وتغيرات يكثر حدوثها وتختلف نتائجها اختلافاً مستمراً في البلدان المتحضرة. انظر: إسرائيل ولنغستون، **تاريخ اللغات السامية**، ص ٧ وما بعدها.

(٧) علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ١، ص ١٤٨. (المؤلف)

(٨) محمد عطية الابراشي، **الأساس في اللغات والأمم السامية**، ص ٤٤ - ٤٥.

(٩) ولنغستون، **تاريخ اللغات السامية**، ص ١٤ - ١٥. (المؤلف)

(١٠) علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ١، ص ١٦٨. (المؤلف)

(١١) هناك جمهرة من مؤرخي تاريخ مصر القديم وعلماء آثارها يقولون ان معظم سكان مصر القدماء هم موجات طرأت على مصر من جزيرة العرب من طريق باب المندب تارة، ومن طريق برزخ السويس تارة. وقد عممت لغتها وطبعت مصر بطابعها مثل عالم الآثار المصرية والتاريخ المصري الشهير بريستيد في كتابه: **تاريخ مصر من أقدم العصور**، ترجمة حسن كمال، ص ١٧؛ وحسن كمال في كتابه: **تاريخ السودان القديم**، ص ٥؛ وأحمد نجيب الأثري في كتابه: **الأثر الجليل لسكان وادي النيل**، ص ١٢؛ وأحمد رفيق في كتابه التركي: **التاريخ العام**، ج ١، ص ٥٥؛ وغوستاف لوبون في كتابه: **الحضارة المصرية**، ص ١٢؛ وسفيدج والاسكندري في كتابهما: **تاريخ مصر قبل الفتح وبعده**، ج ١، ص ٦ - ٧؛ والابراشي ورفقاه في كتابهم: **الأساس في اللغات والأمم السامية**، ص ١٥ - ٣٧، وفيليب حتي في كتابه: **تاريخ العرب**، ج ١، ص ٤٧؛ والعالم الأثري ويجيل في كتابه: **تاريخ مصر القديمة**، وعالم الآثار المصرية جوستاف جيكي في: **تاريخ المدنية المصرية**؛ وهنري بروخ الألماني، وهنري جونسون الإنكليزي في كتابيهما: **تاريخ مصر**، وماسبرو في كتابه: **تاريخ المشرق**. وسنورد موجز أقوالهم في الجزء التالي. (المؤلف)

(١٢) قال العالم الأثري المصري الشهير أحمد كمال على ما نقله حسن كمال في كتابه: **تاريخ السودان القديم**، ص ٧٧، ان أصل اللغة المصرية واللغة العربية واحد وان الاختلاف الظاهر بينهما ليس إلا نتيجة اسقاط بعض كلمات في بلاد العرب وبقائها في وادي النيل أو العكس ثم نتيجة لما يعتري الكلمات من القلب والإبدال وما يطرأ على اللغات من تغير بمعاملة الأجانب. وقد وضع هذا العالم قاموساً أثرياً فيه نيف وعشرة آلاف كلمة عربية ومصرية متشاركة في المعنى والمبنى للتدليل على ذلك، وفيه دليل بطبيعة الحال على وحدة المنشأ والأرومة بين سكان مصر والعرب وجزيرة العرب. وللمستشرق الألماني إيمبر كتاب فيه آلاف الكلمات المصرية والعربية والعبرانية المتشاركة في المعنى والمبنى أيضاً. ونرجو أن نورد جملة من هذه الكلمات في الجزء الثاني من الكتاب في مقام الشاهد.

(١٣) علي، تاريخ العرب قبل الاسلام، ج ١، ص ١٥١ - ١٥٣.
(١٤) المصدر نفسه، ص ١٦٠ - ١٦١.
(١٥) صالح أحمد العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ص ١ - ٢.
(١٦) المصدر نفسه، ص ١.
(١٧) الابراشي، الأساس في اللغات والأمم السامية، ص ١٥ وما بعدها.
(١٨) علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٤٩، وطه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، وغيرهما كثيرون يقولون ذلك. (المؤلف)
(١٩) علي، المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٨ وما بعدها، وج ٢، ص ٢٨٧ وما بعدها؛ بريستيد: تاريخ مصر منذ العصور القديمة، وتاريخ العصور القديمة؛ الدبس، تاريخ سورية، مج ١، ج ١، ص ٢٥٥ وما بعدها؛ ولنغستون، تاريخ اللغات السامية؛ حتي، تاريخ العرب، ج ١؛ الابراشي، الأساس في اللغات والأمم السامية؛ كمال، تاريخ السودان القديم؛ أحمد نجيب، الأثر الجليل لسكان وادي النيل؛ غوستاف لوبون، الحضارة المصرية، ورفيق، التاريخ العام الكبير (بالتركية)، ج ١. (المؤلف)
(٢٠) علي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٧. (المؤلف)
(٢١) جرجي زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٤٠ - ٥٢ و ٥٦ - ٦٠.
(٢٢) في الجزء الأول من: علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٤٨ وما بعدها، فصل قيم استعرض المؤلف فيه وناقش أقوال ونظريات الباحثين في موضوع وحدة الأرومة بين الشعوب «السامية»، وصلتها بجزيرة العرب، ويبدو منه أن القائلين بوحدة الأرومة وكون جزيرة العرب هي موطنها، هم الأكثر والأقوى حجة.
(٢٣) المصدر نفسه.
(٢٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٨ وما بعدها.
(٢٥) الابراشي، الأساس في اللغات والأمم السامية، ص ٣٥ وما بعدها؛ المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٨ وما بعدها، العلي، محاضرات في تاريخ العرب؛ باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة؛ ولنغستون، تاريخ اللغات السامية، وغيرها كثير.
(٢٦) سفيدج، تاريخ مصر قبل الفتح وبعده، ص ٦ - ٧.
(٢٧) أكثر الباحثين على أن مملكة مينا قامت قبل هذا الوقت بزمن طويل يتراوح بين ألف وخمسمائة عام على ما سوف نشرحه في فصل مصر.
(٢٨) علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٦١.
(٢٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٥٨ - ١٦٩. ولعل ما ظهر في بعض أنحائها من حقول نفطية، دليل من جملة الأدلة، لأن النفط هو نتيجة تحلل المواد العضوية النباتية والحيوانية خلال الحقب الطويلة.
(٣٠) جاء في: المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦١، نقلاً عن فيلبي: أرسلت العربية الجنوبية موجات متعاقبة من البشر، سلكت الطرق البرية والبحرية، حتى وصلت إلى المناطق التي استقرت فيها. وقد حملت معها كل ما تملكه من أشياء ثمينة. حملت معها آلهتها وأولها الإله القمر وثقافتها وخطها الذي اشتقت منه سائر الأقلام ومنه القلم الفينيقي، وطبعت تلك الأرض الواسعة التي حلت فيها بهذا الطابع «السامي» الذي ما يزال باقياً حتى اليوم. وهذا مستمد من الدراسات التي قام بها العلماء لأحوال جزيرة العرب، ومن الحوادث التاريخية التي تشير إلى هجرة القبائل من اليمن إلى الشمال.
(٣١) بلغ عدد النقوش المكتشفة في القرن السابق نحو ألفين وفي هذا القرن نحو ستة آلاف على ما ذكره زيدان وجواد علي. وهذا العدد الأخير هو الذي أكثره تحت الدرس.
(٣٢) علي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٧ وما بعدها بحث قيم في هذه المواضيع.
(٣٣) الكتاب المقدس، الاصحاح العاشر.
(٣٤) ص ١٧.

(٣٥) هناك بعض باحثين لا يسلمون بأن جزيرة العرب هي مهد الساميين، ومنهم من يقول ان هذا المهد هو جزيرة الفرات، أو بادية الشام، أو أرمينية، أو أثيوبية، ومنهم من يتردد في الجزم. غير أن كثيراً من الباحثين، يقررون أن هذا المهد هو جزيرة العرب. ومنهم من يخصص جنوبها، ويقول ان الشعوب السامية انساحت منه إلى سائر أنحاء الجزيرة، ثم إلى الأقطار المجاورة لها شمالاً، نحو بلاد الشام والعراق، وجنوباً نحو شواطىء أفريقية فوادي النيل. على أنه يبدو من خلال أقوال الفريقين، ان الخلاف هو على مهد الجرثومة الأصلي لهذه الشعوب قبل التاريخ. ومن أصحاب القول الأول، من يقول ان هذه الجرثومة هاجرت من مهدها الأول إلى جزيرة العرب قبل التاريخ، ثم أخذت تنساح منها إلى الأقطار المجاورة، وبعبارة أخرى يلتقون مع الأولين في دور من أدوار تاريخ الجنس العربي. ونحن إذ نقول الجنس العربي، لا نقصد المعنى الفني الدقيق الذي يتميز به جنس بشري عن جنس آخر بخصائص جسمانية في الدرجة الأولى، وإنما نقصد المجموعة البشرية التي عاشت في جزيرة العرب منذ أقدم الأزمنة التاريخية المعروفة، وتشاركت في اللغة والأفكار والتقاليد التي صارت بذلك جنساً واحداً فلما أخذ ينساح من هذه المجموعة موجات إلى المناطق المجاورة للجزيرة كان ذلك التشارك قد تم بينها ثم ظل قائماً وهذا لا يتعارض كما هو واضح مع احتمال كون المهد الأول لنواة هذه المجموعة ليس جزيرة العرب على ما يقرره بعض الباحثين ولا مع احتمال تكوّن هذه المجموعة في عصور ما قبل التاريخ من عناصر أفريقية وآسيوية على ما يقرره بعض الباحثين كذلك. ولقد درج باحثو الغرب وتبعهم كتاب العرب على تسمية الشعوب التي تنتسب إلى جزيرة العرب أو التي تتشارك في اللغة والأفكار والعقائد من سكان العراق والشام ووادي النيل ودولها بالساميين. وهذه تسمية حديثة وضعها مستشرق نمساوي سنة ١٧٨١ م نسبة إلى سام بن نوح الذي يذكر سفر التكوين من ذريته أقواماً عاشوا في جزيرة العرب والأقطار المجاورة لها كالكنعانيين والآراميين والسبئيين والكوشيين والمصريين... إلخ، بعد أن لاحظ وجوه التشابه الظاهرة بين لغاتها وأفكارها وعقائدها وتابعه كتّاب الغرب لأنهم لاحظوا ما لاحظه. وفي اعتقادنا أن هذه التسمية لا تقوم على سند من تاريخ وعلم وآثار وان الأولى ان تسمى هذه الشعوب بالجنس العربي ما دامت قد نزحت من جزيرة العرب. فجزيرة العرب أخذت تذكر باسم العروبة الصريح في كتب اليونان والرومان وأشعار العهد القديم منذ الفين وخمسمائة سنة واسم العرب الصريح أخذ يطلق على أهلها المستقرين في داخلها وتخومها الشمالية جزئياً ثم شمولياً منذ ألفين وخمسمائة سنة أو أكثر على ما تدل عليه النقوش والمدونات القديمة. وهذا ما جعلنا نكتب كتابنا **تاريخ الجنس العربي** ونسلك فيه تاريخ هذه الشعوب. (انظر لأجل هذا الذيل: علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ١، ص ١٤٩ وما بعدها، وج٥، ص٢٨٧ وما بعدها، وفيهما خلاصة أقوال العلماء والباحثين ومقارنتهما ببعضهما. انظر ايضاً: العلي، **محاضرات في تاريخ العرب**، ص ١ ـ ٢؛ الابراشي، **الأساس في اللغات والأمم السامية**، ص ١٥ وما بعدها؛ حتي، **تاريخ العرب**؛ ولنفستون، **تاريخ اللغات السامية**. ومقدمة الكتاب في الجزء الأول من **تاريخ الجنس العربي** للمؤلف)، وبعض هؤلاء المؤلفين قرروا كما قررنا أن تسمية الشعوب السامية بالشعوب العربية هي الأصح والأوجه. وهو ما سرنا عليه في أجزاء كتابنا ومنها هذا الجزء.

(٣٦) كمال، **تاريخ السودان القديم**، ص ٧٧. وأحمد كمال هذا ضليع في اللغة المصرية القديمة.

(٣٧) نجيب، **الأثر الجليل لسكان وادي النيل**، ص ١٢.

(٣٨) أحمد كمال، **العقد الثمين**، ص ٤٥ ـ ٤٨.

(٣٩) رفيق، **التاريخ العام الكبير**، ص ٥٥ ـ ٥٦.

(٤٠) لوبون، **الحضارة المصرية**، ص ١٢.

(٤١) سفيدج، **تاريخ مصر إلى الفتح العثماني**، ج ١، ص ٦ ـ ٧.

(٤٢) الابراشي، **الأساس في اللغات والأمم السامية**، ص ١٥ ـ ٣٧.

(٤٣) حتي، **تاريخ العرب**، ج ١، ص ١٣.

(٤٤) فيليب حتي، **سورية والسوريون من نافذة التاريخ**، ص ١٣.

(٤٥) عن منير الشريف البحاثة السوري المعروف.

(٤٦) عن منير الشريف البحاثة السوري المعروف.

(٤٧) جبرائيل هانوتو، تاريخ الجنسية المصرية، «المقدمة،» ص ٥ ـ ١٠ .
(٤٨) والسن بدج، سواء السبيل في سكان أرض النيل، ص ٣٦ ـ ٣٧ .
(٤٩) مصطفى الشهابي، محاضرات في الاستعمار، ج ٢، ص ٧ .
(٥٠) سليم حسن، مصر القديمة، ص ١٤٠ ـ ١٤٥ .
(٥١) المصدر نفسه، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .
(٥٢) من العجيب، أن هذا العالم الجليل، الذي يقرر هذا بأسلوب قوي، قال كلاماً فيه شيء من المناقضة بأسلوب تخميني واجتهادي، باعثه، على ما يبدو منه، حماس للوطن المصري، والمواطنين المصريين القدماء، لا طائل من ورائه، ولا محل له في مجال البحث العلمي، حيث قال في نبذة أصل المصريين (ج ١، ص ١٤٠ ـ ١٤٥) انه لا محل للمبالغة في انتشار الجنسية الآسيوية في مصر، وان النازحين لم يؤثروا في تغيير شيء كبير من اللغة والزراعة والديانة التي كانت نمت وترعرعت في البلاد مصبوغة بصبغة أهلها الأصليين. بل كان تـأثيرهم سطحياً، وإنه يجب أن نتخيل أن النازحين لم يكونوا الا عدداً ضئيلاً بالنسبة إلى السكان الأصليين، وإنهم لبسوا المدنية التي وجدوها زاهرة في البلاد، مع إدخال بعض الإصلاحات والتحسينات عليها. ولا ندري كيف استطاع النازحون، إذا كانوا عدداً ضئيلاً، ودخلوا البلاد من دون عنف، أن يستولوا عليها، ويبسطوا سلطانهم فيها، ثم يتمكنوا من توحيدها والاستمرار في حكمها بعد التوحيد، في ظل الأسرة الأولى التي منها، وما بعدها من الأسر، التي كان معظمها من أرومتهم، على ما جاء في نبذته المذكورة. ثم لا ندري كيف يكون تأثيرهم تافهاً سطحياً في لغة البلاد ومدنيتها، وهو يقول: انهم أحضروا مدنية أرقى من مدنية الجنس الأصلي الذي لم يعرف إلا الآلات والأواني الحجرية، وانهم أدخلوا معرفة المعادن وعبادتهم وكتابتهم وفنونهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية. على ان معظم الباحثين لا يقرونه على ما وقع فيه من تناقض، على ما تفيده النبذ التي أوردناها قبل.
(٥٣) المصدر نفسه، ص ٣٩٠ .
(٥٤) أوردنا قبل تفسير أحمد كمال لبلاد بون التي هي على الأرجح بلاد بنت التي يذكرها المؤلف بأنها بلاد اليمن وحضرموت. وهذا التفسير يتفق مع سياق المؤلف دون تفسيره ونعتقد أنه هو الأوجه.
(٥٥) تأليف أدولف أرمان وهرمان رانكن وتعريب عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال، ص ٢١ و ٢٢ .
(٥٦) زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ٦٧ .
(٥٧) سوف نذكر باسهاب في أحد أجزاء الكتاب تموج وتوزع القبائل العربية الصريحة في وادي النيـل وظروف طروئها ومركزها وأحداثها ودولها، منذ الفتح الاسلامي إلى اليوم، استناداً إلى المشـاهدات والأخبـار التاريخية المتصلة بها، وستثير على ما نظن هذه البيانات عجب القارىء لسعة وانتشار حركة التموج العربي إلى مصر، وسائر وادي النيل، وتجعله يرى فيها أثراً ودلالة على ما كان يجري قبل هذا الفتح، وامتداداً له من جهة، ودلالة على أن عروبة مصر الصريحة متصلة بعروبتها غير الصريحة، قبل الإسلام إلى أكثر من ستة آلاف عام.
(٥٨) كمال، تاريخ السودان العام، ص ٥ و٧٧ .
(٥٩) مصر، تأليف درايتون وجاك فانديه، وتعريب عباس بيومي، ص ٤ ـ ٥ .
(٦٠) المصدر نفسه.
(٦١) لقد بحثنا عن قاموس أحمد كمال، لننقل منه نماذج، فعلمنا أنه لم يطبع، وسعينا للاطلاع عليه فلم نوفق إلى ذلك. وبذلنا جهدنا مع علماء اللغة المصرية من المصريين، للحصول على نماذج نثبتها هنا، فذهب جهدنا هباء. فمنهم من وعد ولم يف، ومنهم من لم يتفضل بالجواب، ومنهم من طلب خمسين جنيهاً لتهيئـة ٢٠٠ كلمة، ظاناً على ما يبدو أن الكتاب سيكون كنزاً لنا، يجب أن يحصل على حصته منه سلفاً. والقاموس الذي نشره أحمد بدوي وهرمن كيس قاصر على شرح معاني العلامات الهيروغليفية. وعلى كل حال فإننا كنا نحب أن نورد بعض النماذج لزيادة التوكيد، وليس لأن دعوانا مفتقرة إليها. فإن وجود مفردات عربية الجنس، أو سامية، حسب اصطلاح غيرنا، بكثرة عظيمة في اللغة المصرية القديمة، أمر متفق عليه لدى جميع العلماء.
(٦٢) انظر: نعوم شقير، تاريخ السودان القـديم والحديث وجغـرافيته، ج ١، ص ٤٥ ـ ٦٤، وج ٢،

ص ٣٠ ـ ٣٩. واسم كوش ورد في الآثار المصرية القديمة اسماً لبلاد أو قوم يسكنون بلاد النوبة أو السودان. وورد كذلك في سفر التكوين كأحد أبناء حام بن نوح. ونرجح أن هذا مرتكز إلى أو مستمد من الآثار المصرية التي ذكر فيها الاسم، لأنها أقدم من موسى الذي ينسب إليه سفر التكوين. وننبه بهذه المناسبة على أن أسماء مواليد سفر التكوين الأولى التي تتفرع عن نوح، كانت تطلق على قبائل وشعوب ومدن قبل موسى أيضاً.

(٦٣) شارويبم، **الكافي**، ج ١، ص ١٦٤ ـ ١٤٧؛ رفيق، **التاريخ العام الكبير**، ج ١، ص ١١٥، وبريستيد، **القرون القديمة**، ترجمة قربان، ص ٣١٥.

(٦٤) انظر: الطبري، ج ٢، ص ٥٧٦ و ٥٧٨ مثلاً.

(٦٥) لا نرى أن من شأن ذلك الإخلال بفكرة الكتاب أو بالصلة الجنسية الوثيقة التي تربط بين معظم سكان مصر وجزيرة العرب وأهلها بل ونراه مشابهاً بعض الشيء لما جرى في دور العروبة الصريحة، فقد غمرت موجات الجزيرة في هذا الدور قبل الإسلام وبعده العراق والشام ووادي النيل ولم تلبث أن تطورت بتأثير البيئة الاجتماعية والطبيعية فاكتسبت شخصية خاصة ابتعدت بها قليلاً أو كثيراً عما كانت عليه في جزيرة العرب، فلم يكن من شأن ذلك أن يخل بصفة الجنسية العربية التي ظلت تجمع بين جزيرة العرب وأهلها وبينهم،وظل الجميع يعتبرون من جنس واحد وأصل واحد في الواقع والحقيقة وفي نظر جميع الباحثين. وليس من فرق بين هذا وذاك إلا ما كان من أثر القرآن الحاسم وحيلولته دون ابتعاد هؤلاء وأولئك عن الطابع العربي الصريح.

(٦٦) حتى، **تاريخ العرب**؛ زيدان، **العرب قبل الإسلام**؛ علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، وغيرهم، بل جميع الذين كتبوا تاريخ العرب.

(٦٧) زيدان، المصدر نفسه.

(٦٨) في الجزء الأول من: علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ص ١٤٨ وما بعدها، فصل قيم استعرض المؤلف فيه وناقش أقوال ونظريات الباحثين في موضوع وحدة الأرومة بين الشعوب السامية «العربية» وصلتها بجزيرة العرب، ويبدو منه أن القائلين بوحدة الأرومة وكون جزيرة العرب هي موطنها، هم الأكثر والأقوى حجة.

(٦٩) ص ٨.

(٧٠) بريستيد، **القرون القديمة**، ص ٧٦ ـ ٧٩.

(٧١) باقر، **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، ص ١١٥.

(٧٢) كفر: تعني قرية، وفي بلاد الشام قرى قديمة مبدوءة بهذه الكلمة كما هي هنا. (المؤلف)

(٧٣) اتصلنا بالمراسلة مع بعض المقامات الحكومية والعلمية لأجل الحصول على مزيد من الأعلام العراقية التي تحمل طابع العروبة القديم المتخلف عن الكلدانيين والآشوريين والسوريين والبابليين، فأجابتنا أن أكثر الأسماء القديمة للقرى والمواقع العراقية قد استبدلت بأسماء عربية فصحى.

(٧٤) ولنفستون، **تاريخ اللغات السامية**، ص ٢٨٣ ـ ٢٩٤.

(٧٥) انظر: علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ١، ص ١٤٨ وما بعدها، وج ٢، ص ٢٨٧ وما بعدها؛ الابراشي، **الأساس في اللغات والأمم السامية**، ص ١٥ ـ ٣٧، و ولنفستون، المصدر نفسه، ص ١ ـ ١٦.

(٧٦) علي، المصدر نفسه، ص ٤٠ ـ ٥٢.

(٧٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٧.

(٧٨) باقر، **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، ج ١، ص ٣١٦ ـ ٣١٩.

(٧٩) إن تسمية بروسوس يونانية، جاءت من كون المدونات القديمة اليونانية، هي التي ذكرت هذا المؤرخ، واقتبست من كتابه، والراجح أن الاسم البابلي أو الكلداني هو «برشوحا» الذي ورد في كتاب: **تاريخ كلدو وأشور**، لأسقف سعرد، ج ١، ص (د) المقدمة، ولمحته العربية القديمة بادية، ويرهى ابن في الآرامية على ما مرّ بيانه.

(٨٠) انظر: حتي، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق وكمال اليازجي، ج ١، ص ٢٨.

(٨١) في مقدمة الكتاب في الجزء الأول من **تاريخ الجنس العربي**، شرحنا ماذا نقصد بكلمة الجنس العربي

والمبررات الوافية لتسمية الساميين باسم الجنس العربي.

(٨٢) انظر: المصدر نفسه، «المقدمة»؛ بريستيد، تاريخ مصر من أقدم العصور، تعريب حسن كمال، ص ١٧٠ - ١٧٢، وعلي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٤٨ وما بعدها.

(٨٣) انظر: زيدان، العرب قبل الإسلام، ص ١٦٩ وما بعدها (الطبعة القديمة)، وعلي، المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٧ وما بعدها، ج ٣، ص ٣ - ١٢٩، وج ٤، ص ١٢٨ وما بعدها.

(٨٤) في مقدمة الكتاب في الجزء الأول من تاريخ الجنس العربي، وفي تمهيدات الجزء الثاني، شرحنا المقصود من تعبير العروبة غير الصريحة والعروبة الصريحة، فارجع إليهما.

(٨٥) انظر مجلة: الحوليات السورية الأثرية، مج ٢ (١٩٥٢).

(٨٦) كفر تعني قرية.

(٨٧) مجدل بمعنى حصن.

(٨٨) السريانية متفرعة عن الآرامية، والفينيقية متفرعة عن الكنعانية على ما سوف نشرحه بعد.

(٨٩) ولنفستون، تاريخ اللغات السامية، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٩٠) المصدر نفسه، ص ٦٥. وهذه ترجمة أوردها المؤلف بالفصحى لهذه العبارة: أنا سيحو ملك (ملك) جبال بن يهر بعل بن أرملك ملك جبال الذي جعلته الربة بعل جبال ملكاً على جبال مملكة جبلة وناديت ربني يعلت جبال متى سمعت صوتي. وصنعت لو بنى يعلت جبال مذبح النحاس الذي يوجد في هذه الحظيرة وبهذه الزخرفة الذهبية التي فوق بابي الصقت الذهب الذي يوجد في الحجر الذي فوق هذا النقش.

(٩١) المصدر نفسه، ص ٦٣ - ٦٤. وهذه ترجمة النص بالفصحى نقلاً عنه أيضاً: أنا كلمو بن حيا جبر حكم على يادي ما فعل شيئاً. ثم كان يمة وما فعل شيئاً. ثم كان أبي حيا وما فعل شيئاً. ثم كان أخي شئل وما فعل شيئاً. أما أنا كلمو بن يُمة فقد فعلت ما لم يفعله القدماء كان بيت أبي في وسط ملوك أقوياء.

(٩٢) المصدر نفسه، ص ٦٨. وهذه ترجمة النص بالفصحى: أنا تبت كان عشترت ملك صيدونم ابن اشمنعزر كاهن عشترت ملك صيدونم اضطجع في هذا التابوت. لعنتي على كل من يخرج هذا النعش. لا. لا تفتح غرفتي لا تقلقني فليس عندي فضة وليس عندي ذهب أو نفائس لأضطجع في هذا التابوت. لا. لا تفتح غرفتي. لا تقلقني ولا تثر سخط عشترت. فإن فتحت غرفتي وأقلقتني فلن تكون لك ذرية بين الأحياء تحت الشمس ولا مضجع بين الأموات.

(٩٣) المصدر نفسه، ص ١٠٧. وهذه ترجمة فصحى لما تقدم منقولة عنه أيضاً، ص ١٠٨: أنا ميشع بن كموس ملك نواب الديباني، أبي ملك على مؤاب ثلاثين سنة. وأنا ملكت بعد أبي. وأنشأت هذا المكان المرتفع لكموش بفرحة (اسم مدينة وكموش اسم إله مؤاب) لأنه أعانني على كل الملوك ولأنه أراني في أعدائي. أما عمري ملك اسرائيل فإنه عذب مؤاب أياماً كثيرة حتى غضب كموش على أرضه فأعقبه ابنه وقال سأعذب مؤاب في أيامي قال... الخ.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ٨٣. وهذه ترجمته بالفصحى: النفق هذا خبر النفق، بينما النحاتون يرفعون الأزمة كل رجل إلى رفيقه وبينما بقي ثلاثة أذرع للنحت سمع صوت رجل ينادي أخاه لأنه وجد ثقباً في الصخر من ناحية اليمين وفي يوم انتقابه ضرب النحاتون رجل أزمة أمام رجل أزمة على أزمة وذهبت المياه من النبع إلى البركة مسافة مائتين وألف ذراع ومئة ذراع. وكانت قمة الجبل فوق رؤوس النحاتين. واللمحة العربية القديمة بادية على هذا النص أيضاً حينما يمعن النظر فيه كسابقيه.

(٩٥) المصدر نفسه، ص ١٢٠ وهذه ترجمته بالفصحى نقلاً عن المصدر نفسه: أنا بر ركب بن بنمو ملك شمأل عبد لتجلات بلاسر سيد نواحي المعمورة الأربعة من أجل صدق أبي وصدقي أجلسني سيدي ركب أيل وسيدي تجلات بلاسر على عرش أبي. وكان بيت أبي يعمل أكثر من غيره وكنت أسير أمام عربة سيدي ملك آشور. بين ملوك عظماء أصحاب فضة وأصحاب ذهب. وأخذت بيت أبي فأصلحته. وصار بيوت الملوك الأماجد. وما رغب إخواني الأمراء. طاب لهم في بيتي وبيت طيب لم يكن لآبائي ملوك شمأل. لكن بيت كلامو كان لهم وهو بيت

الشتاء وبيت القيظ. لذلك بنيت هذا البيت.

(٩٦) المصدر نفسه، ص ١٢٣. وهذه ترجمته بالفصحى: لشَشنزر بن كاهن شهر الذي توفي بنرب. وهذه صورته تمثالهما وتابوته. وأنت الذي تأخذ الصورة والتابوت من مكانه فشهر وشمس ونيكل ونشك (أسماء معبودات) يمحون اسمك وأثرك من الحياة والممات في اللحد. ليقتلوا ويبيدوا نسلك. أما لو صنعت الصورة والتابوت فالآخرون ينصرونك ويصونونك.

(٩٧) انظر: علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ١، ص ١٤٨ وما بعدها؛ الابراشي، **الأساس في اللغات والأمم السامية**، ص ١٥ ـ ٣٧، وولنغستون، المصدر نفسه، ص ١ ـ ١٦.

(٩٨) سنشرح ذلك في جزء آخر من الكتاب.

(٩٩) **الإسلام والمسيحية في لبنان**، ص ٢١ ـ ٢٥.

(١٠٠) مج ١، ج ١، ص ٢٥٨. ومع ذلك نتبه على أن المؤرخين يذكرون جبيل وبيروت في تاريخ الكنعانيين المعروفين (انظر مثلاً **تاريخ سورية**، لجرجي يني، ص ٤٢٣، وكتاب لبنان، ص ١١٦ و١١٧)، وما كشف من آثارهما، يدل على أنهما كانا جزءاً منهم، فإذا صح تقدم منشئيهما على الكنعانيين المعروفين فيكونون قد اندمجوا فيهم، وغدوا شيئاً واحداً، مما فيه دلالة على وحدة الأرومة الجنسية.

(١٠١) حتي، **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ج ١، ص ١٣٧.

(١٠٢) بريستيد، **تاريخ مصر من أقدم العصور**، ص ٤٠٣. انظر ايضاً: **تاريخ الجنس العربي**، للمؤلف، ج ٢، ص ٥١ وما بعدها.

(١٠٣) انظر: سليم حسن، **مصر القديمة**، ج ١، ص ٢٨٤. وقد ذكر هذا أحمد كمال الأثري في: **العقد الثمين**، ص ٢٥ ـ ٢٨، وبريستيد في: المصدر نفسه، ص ٧٤، وحتي في: **تاريخ سوريا وفلسطين ولبنان**، ج ١، ص ١٣٧.

(١٠٤) حتي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٧ ـ ٨٨.

(١٠٥) ج ١، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(١٠٦) أسفار الخروج والتثنية ويشوع مثلاً.

(١٠٧) **الإسلام والمسيحية في لبنان**، ص ٢١.

(١٠٨) كتاب لبنان، ص ١٠٧، والدبس، **تاريخ سورية**، مج ١، ج ١، ص ٢٩٣.

الفصل الثالث
مختارات من كتاب
«عصر النبيّ وبيئته قبل البعثة»

أخذنا هذا الفصل، من كتاب عصر النبي وبيئته قبل البعثة ص (٥١ ـ ٧٠) الطبعة الثانية، الصادرة عن دار اليقظة العربية، سنة ١٩٦٤.

(المحرر)

الجنسية العربية
واللغة العربية واللغة القرآنية

ـ ١ ـ

قد يكون من البداهة أن يقال: إن أكثرية سكان الحجاز عربية. ومع ذلك فإن مما لا يخلو من فائدة، أن نذكر أن هذه الحقيقة مما تضمنت النصوص القرآنية تقريره، فقد كررت الآيات كلمة «العربي» في صدد تقرير لغة القرآن، وقررت أن الرسول الذي يرسله الله إنما يرسله بلسان قومه، وان الله إنما أنزل القرآن عربياً لقوم يعلمون، ولينذر به أم القرى ومن حولها، وأنه يسره بلسانه لعلهم يتذكرون به، كما ترى في الآيات التالية:

١ ـ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

يوسف ٢

٢ ـ وكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكماً عَرَبِيّاً.

الرعد ٣٧

٣ ـ ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسانِ قَومِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ.

إبراهيم ٤

٤ ـ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ. بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ.

الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٥

٥ ـ كِتابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً لِقَوم ٍ يَعْلَمُونَ.

فصلت ٣

٦ ـ وَكَذٰلِكَ أَوْحَينَا إِلَيكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَها.

الشورى ٧

٧ ـ فَإِنَّما يَسَّرْنَاهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

الدخان ٥٨

فهذه الآيات كما ترى، تقرر صراحة وضمناً، أن القوم الذين أرسل الله إليهم النبي (ص) عرب، وأنه منهم.

- ٢ -

على أن هناك شيئاً مهماً، نحب أن نضيفه إلى بديهة عروبة أكثر أهل الحجاز، وهو أن هذه الجنسية العربية لم تكن شيئاً قاصراً على أهل الحجاز، بل كانوا من ضمن كيان عام، عربي الجنس، مستقر ومفهوم المدى في عصر النبي (ص)، يشعر به العرب أنفسهم، ويشعر به غير العرب من الأمم المجاورة لجزيرة العرب ويعرفونه، ويشتمل على أهل الجزيرة العربية أولاً بما فيهم أهل الحجاز، وثانياً على العرب الذين هم في أطراف الجزيرة الشمالية، أي في البلاد الشامية والعراقية، حيث كان فريق منهم غادياً ورائحاً، وفريق آخر مستقراً، وفريق بادياً يسكن بوادي الشام والعراق، وفريق متحضراً يسكن المدن والقرى، ويتمتع بالملك والسلطان، ووسائل الحياة الناعمة المترفة، ولهم الصلات القوية البارزة مع الساسانيين في العراق، وبلاد الفرس، والرومانيين في الشام. وفي القرآن ما يمكن الاستناد إليه في تأييد هذا الذي نقرره.

ففيه آيات ذكرت فيها كلمتا «قوم» و«أمة» موجهتين إلى قوم النبي (ص) وأمته، وهم العرب كما ترى في ما يلي:

وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُم شَهِيداً.

البقرة ١٤٣

٢ ـ وكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ.

الأنعام ٦٦

٣ ـ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسان قَوْمِهِ.

إبراهيم ٤

٤ ـ وَإِنَّهُ لِذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَلَسَوْفَ تُسأَلُونَ.

الزخرف ٤٤

وإذا قيل إن كلمتي «قوم» أو «أمة» قد لا يفيدان معنى الكيان العام الشامل للجنس العربي لا سيما في ذلك العهد، ولأنهما قد توجهان إلى قبيل أو جماعة أو ملة أو أهل بيئة ما، وإن الآيات قد عنت أهل مكة، ففي القرآن تأييد آخر، وذلك هو الآيات التي وردت فيها كلمات الأعجمي مطلقة على غير العربي، وهو التفريق الذي جرى عليه الاستعمال بصورة واسعة وعامة بعد الإسلام، بحيث اعتبر كل ما هو غير عربي جنساً ولغة أعجمياً، وفي سورة النحل آية في هذا الصدد وهي:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين﴾. ١٠٣

بالإضافة إلى آيات الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٩، وفصلت ٤٣، التي نقلناها قبل قليل. فاستعمال هذا التعبير في المعنى الذي أشرنا إليه، في آيات مكية والآيات ـ جميعها مكية ـ دليل على أن هذا الاستعمال وهذا المعنى، كانا شائعين مفهومين قبل البعثة، وشيوعهما برهان قوي على استقرار معنى اسم «الأمة العربية»، أو «الجنس العربي» وشموله، لمن كان يتكلم باللغة العربية في الجزيرة، ولمن ينتسب إليها ويتصل بها في المنشأ والأنساب والأرحام من العرب، الذين كانوا في أطراف الجزيرة ومهاجرها حتماً، وسواء منهم المتحضرون أو البدو.

وإذا كان ليس في الإمكان تحديد وقت هذا الاستقرار في فهم العرب وغير العرب، كون العرب أمة أو جنساً واحداً، فإننا لا نشك بأنه يرجع إلى زمن غير قصير قبل البعثة؛ لأن تعبير «العرب»، إذا كان أطلق في أول الأمر على بعض قبائل العرب، في بعض مساكنهم، فإنه لا يمكن أن يكون قد أصبح تسمية عامة شاملة لكل العرب، ومفرقة لهم عن الأعاجم ـ غير العرب ـ كما جاء في القرآن، إلا قبل نزوله بمدة طويلة[1].

ـ ٣ ـ

هذا، ونريد أن نبحث في موضوع قرآني يتصل بأصل سكان بيئة النبي (ص). ففي القرآن آية مكية فيها إشارة إلى حادثة إسكان إبراهيم (ص) بعض ذريته في منطقة البيت الحرام أي مكة؛ وهي آية سورة إبراهيم (٣٧) التي نقلناها في مبحث سابق؛ وفيه كذلك آيات تحتوي إشارة إلى حادثة بناء إبراهيم وإسماعيل (ص) الكعبة، وفيها دعاؤهما بجعل البيت آمناً، وبجعل ذريتهما أمة مسلمة، وببعث رسول منهم اليهم، مما يقوم قرائن قوية على أن المقصود بالدعاء هم العرب وهي هذه:

﴿وَإِذَا جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى[2] وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ. وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِيْن لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِم آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ .

البقرة ١٢٥ ـ ١٢٩

وفيه آية توجه الخطاب إلى المسلمين الذين كانوا إذ ذاك هم العرب من بيئة النبي (ص) فقط تذكر إبراهيم (ص) بصفته أبيهم وهي هذه:

﴿وجاهِدوا في الله حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ .

الحج ٧٨

هـذا عدا مـا فيه من آيـات كثيرة أخـرى، سنوردهـا في الفصول الأخـرى، عن صلة إبراهيم (ص) بالكعبة، وتقاليد الحج، وملته ومواقفه لم تـرد في التوراة.

وأسلوب الآيات القرآنية مما نقلناه، وما سوف ننقله، يلهم أن محتوياتها ليست غريبة المعنى والموضوع على أسماع الذين تتلى عليهم، وتسوغ القول إن أهل بيئة النبي (ص) كانوا يعرفون أنهم ينتسبون بالأبوة إلى إبراهيم وإسماعيل (ص) ويتداولون ذلك جيلاً بعد جيل، وإن ما قاله بعضهم من أن ذلك إنما كان من تقريرات قرآنية مدنية، وبعد احتكاك النبي (ص) باليهود هو قول جزاف، ولعل من الأدلة الحاسمة على هذا ذكر القرآن مقام إبراهيم وبيناته في البيت الحرام، لأن هذا متصل بما كان معروفاً ومتداولاً بين العرب قبل نزوله.

ولسنا نعني نفي احتمال كون اليهود هم المصدر الأول لما كان يتداوله العرب من قضية انتسابهم بالنبوة إلى إبراهيم وإسماعيل (ص)، فنحن نرجح هذا، لأن التوراة هي أقدم مدونة ذكرت إبراهيم وإسماعيل (ص)، وفيها قصة ولادة إسماعيل (ص)، وطرده مع أمه إلى فاران، كما فيها قصة نمو ذرية إسماعيل وانتشارها، وتسميتهم بالاسماعيليين، وفيها قرائن في مناسبات عديدة على أن العرب كانوا ممن تعنيهم هذه التسمية أيضاً، وإنما الذي ننفيه القول بأن القرآن لم يقرر نسبة بنوة العرب لابراهيم وإسماعيل (ص)، ونسبة بنوة إسماعيل لابراهيم عليهما السلام، ونسبة صلتهما بالكعبة والحج، إلا بعد الهجرة، وبعد اتصال النبي (ص) باليهـود، لأن هذا القول يعني أن العرب كانوا في جهل من ذلك قبل البعثة. ويستدل بعضهم على هذا، بأن القرآن المكي ظل يذكر إبراهيم وإسحق ويعقوب معاً دون اسماعيل، وظل يذكـر إسماعيـل منفرداً عنهم. وقد يكون هذا صحيحاً بعض الشيء. حيث ذكر القرآن المكي إبراهيم واسحق ويعقوب معاً، وذكر اسماعيل منفرداً عنهم، في مـواضع عديدة، منها ما يلي:

١ ـ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهٰرُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ

مِنَ الصَّالِحِينَ. وإسْماعِيل واليسع ويونُس وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى العَالِمِينَ.

٨٤ ـ ٨٦ الأنعام

٢ ـ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُم وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِياً. واذْكُرْ فِي الكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مَخْلَصاً وَكَان رَسُولاً نَبِيّاً. وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَن وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً. وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخاهُ هٰرُونَ نَبِيًّا. واذْكُرْ فِي الكِتَابِ اسْمَاعِيل إِنّهُ كَانَ صَادِق الوعْدِ وكَانَ رسُولاً نبيًا. وكَان يأْمُرُ أَهْلَهُ بالصَلاَةِ والزكَاةِ وكَان عِنْد ربهِ مرْضِياً.

مريم ٤٩ ـ ٥٥

٣ ـ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ.

الأنبياء ٧٢

٤ ـ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ.

الأنبياء ٨٥

٥ ـ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ والكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ في الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

العنكبوت ٢٧

٦ ـ وَاذكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ. إِنّا أَخْلَصْنَاهُمْ بخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ المُصْطَفَيْنِ الأَخْيَارِ. وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ واليَسَعَ وَذَا الكِفْلِ وكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ.

ص ٤٥ ـ ٤٨

غير أن هذا لا ينطوي على نفي نسبة إسماعيل إلى إبراهيم من جهة، وهو على الأرجح بسبيل ذكر شجرة نسب بني إسرائيل وحسب من جهة أخرى. فلما اقتضت حكمة التنزيل حكاية حادث إسكان ابراهيم ابنه في وادي مكة، تضمنت الآيات المكية النازلة في ذلك ذكر كون إسماعيل وإسحق هما ابنا إبراهيم، كما ترى في آيات سورة إبراهيم المكية بدون خلاف هذه.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا البَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كثيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّك غَفُورٌ رَحِيمٌ. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فاجعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى الله مِنْ شَيْءٍ فِي الأرضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ. الحَمْدُ لله الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ﴾.

٣٥ ـ ٣٩

أولاً ـ إن اللغة القرآنية بوجه عام هي اللغة التي كان يتفاهم ويتخاطب بها أهل الحجاز في عصر النبي (ص).

ثانياً ـ إن هذه اللغة لم تكن لغة أهل الحجاز فقط، بل كانت اللغة العامة المشتركة التي كان يتفاهم العرب بها في جميع أنحاء الجزيرة وأطرافها، ومهاجرها القريبة من حيث الإجمال. وبكلمة أخرى ان اللغة القرآنية التي يصرح القرآن أنها لغة النبي (ص) وقومه، وهي اللغة التي كانت شائعة ومفهومة في عصر النبي (ص) بين العرب حضرهم وبدوهم، قاصيهم ودانيهم، وليس بين عرب الحجاز فقط. فكما أن تسمية «العرب» كانت تشمل جميع العرب في الجزيرة وخارجها، وكان هذا أمراً مفهوم المدى، وكما أن العرب كانت تجمع بينهم جنسية واحدة هي «العربية»، فكذلك كانت اللغة العربية القرآنية لغة جميع العرب في الجزيرة وخارجها.

وفي القرآن مستند وتأييد لهذا القول أيضاً. ففيه عدا الآيات التي أوردناها آيات عديدة أخرى، تلهم أنها أكثر شمولاً وإطلاقاً، منها الآيات التالية:

١ ـ وَكَذلكَ أنزَلْنَاهُ قُرْآناً عربِياً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً.
طه ١١٣

٢ ـ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلْنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.
الزمر ٢٧، ٢٨

٣ ـ وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِياً لِيُنْذِر الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ.
الأحقاف ١٢

ولقد كان من المتواتر الذي بلغ حد اليقين:

أولاً: إن النبي (ص) كان يتصل بمختلف الطبقات والشخصيات المكية، ثم بمختلف الطبقات والشخصيات والقبائل التي كانت تفد على مكة في المواسم والأسواق، ويتحدث إليهم ويتلو عليهم آيات القرآن، ويتفاهم معهم بلغته التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال؛ ومن المتواتر أن مواسم الحج وأسواقه لم تكن قاصرة على أهل الحجاز؛ وخاصة قبيل البعثة النبوية، بل كان يفد إليها العرب من أنحاء عديدة من غير الحجاز أيضاً؛ ومنهم نصارى العرب من تغلب واياد وكلب وغيرهم.

ثانياً: إن وفود العرب مشركين ونصارى ومجوساً، كانوا يفدون على النبي (ص) في المدينة بعد الهجرة النبوية. ولا سيما بعد انتصاراته وانتشار اسمه وكلمته، من اليمن ونجد والاحساء والبحرين والعراق والشام وفلسطين، بل ومن حضرموت؛ فكان النبي (ص) يتلو عليهم آيات القرآن، ويتخاطب معهم هو وأصحابه الحجازيون ـ المهاجرون والأنصار ـ بلغتهم التي هي القر آن بصورة عادية وطبيعية، وانه كان يرسل معهم قراء من كبار صحابته الحجازيين

ليعلموهم القرآن، ويفقهوهم في الدين، ويتولوا أمر القضاء بينهم، وجباية الزكاة منهم، وتوزيعها على فقرائهم، وانه كانت تكتب لهم الرقاع والعهود والوصايا والتشريعات بنفس هذه اللغة؛ ولم ترد رواية ما تفيد أنه كان تراجمة بين النبي (ص) وبينهم.

ثالثاً: إنه كانت اتصالات مستمرة بين أهل الحجاز من ناحية، وبين العرب في أنحاء الجزيرة الأخرى، وفي بلاد الشام والعراق، بدوهم وحضرهم قبل البعثة؛ وسواء في مواسم الحج في الحجاز، أم في رحلات التجارة وغيرها إلى اليمن والعراق والشام من ناحية ثانية؛ وانهم كانوا يتفاهمون ويتخاطبون بلغة واحدة. وما دام الحجازيون طرفاً في هذا، فإن لغتهم في هذه الاتصالات هي اللغة الحجازية، وهي اللغة القرآنية.

رابعاً: إن الأعلام والأسماء والمفردات التي قرئت على النقوش المكتشفة في اليمن، والعائدة إلى العهد الحميري الذي قام في القرن الثالث بعد الميلاد، وامتد إلى أوائل القرن السادس، تتماثل تماثلاً شديداً مع أسماء ومفردات اللغة الشمالية التي كانت لغة قريش عنواناً لها.

خامساً: لقد روي كثير من كلام العرب قبل الإسلام، ومساجلاتهم وخطبهم وأمثالهم وشعرهم. ومنه ما هو منسوب إلى جماعات من الحجاز ونجد في المدن والبوادي، ومنه ما هو منسوب إلى جماعات كانت تعيش في اليمن والشام والعراق في عهد دول الحميريين واللخميين والكنديين والغسانيين، وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته، كما رويت أسماء أعلام وأشخاص كثيرة جداً، كانوا يعيشون في جميع هذه الأنحاء قبل البعثة، ومنهم من كان يعيش في حياة النبي مما هو مبثوث في كتب التاريخ والأدب واللغة والتراجم القديمة، كالأغاني ولسان العرب والقاموس ومعجم البلدان والكامل والبيان والتبيين والأمثال والأمالي والعقد الفريد وتاريخ الطبري واليعقوبي والبلاذري وابن هشام وابن سعد وأسد الغابة ودواوين الشعراء الجاهليين ومختاراتها وكتب الحديث إلخ.. جاءت بلغة فصحى مماثلة للغة القرآنية، في مفرداتها وصرفها ونحوها وسبكها ونظمها ومجازها وبديعها وبيانها، والأسماء التي كان يتسمى بها الصدر الإسلامي الأول. ومهما كان من ذلك منحول ومصنوع، فإن فيه على كل حال، وباعتراف أشد المتزمتين في ذلك، شيئاً غير قليل صحيح، وبخاصة ما صدر من رجال عاشوا في حقبة المائة عام التي سبقت البعثة النبوية. وفي معجم البلدان لياقوت أسماء آلاف القرى والمدن والمواقع والأعلام التي كانت موجودة قبل البعثة النبوية في مختلف أنحاء اليمن والحجاز ونجد واليمامة والبحرين وعمان والعراق والشام بصيغة عربية فصحى، وبينها تماثل وتشابه كبيران على ما بين الأنحاء من تباعد، وفي هذا وذاك أدلة لا تدحض على شمول اللهجة الفصحى لأهل الجزيرة وخارجها قبل البعثة.

هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية فقد ورد في القرآن تعبير «أعجمي» لغير اللغة العربية، مقابل تعبير «عربي» للغة العربية، مما أوردناه سابقاً. فهذا الجزم في اعتبار وتسمية اللغات غير العربية «أعجمية»، يؤيد أن اللسان الذي كان يتكلم به العرب هو واحد غير متعدد إجمالاً، وهو لغة

القرآن، ما دمنا نعرف معرفة يقينية أنها هي لغة النبي (ص)، وأهل بيئته. ولو كان للعرب في عصر النبي (ص) لغات عديدة فيها تغاير جوهري لما كان هذا الجزم.

وما روي من أنه كان لبعض القبائل بعض التعابير والاستعمالات والمصطلحات والحروف والأهجية، المغايرة بعض الشيء للغة قريش، أو اللغة القرآنية، ليس من شأنه أن ينقض ما نقول، أو يقف دليلاً على وجود تغاير في لغة العرب في عصر النبي (ص)، يمكن أن يحتمل معنى تغاير لغوي كبير، أو يحتمل تعبير «لغات متباينة»، كما نفهمه من تباين اللغتين العربية والسريانية اللتين هما شقيقتان في الأصل، أو ما يقرب من ذلك.

وإننا لنستطيع أن نقرر أن كل كلمة جاءت في القرآن، وكل معنى ورد فيه، وكل تعبير استعمل فيه حقيقي أو مجازي، وديني، أو اجتماعي أو تاريخي أو اقتصادي أو معاشي أو علمي أو فلكي، كان العرب يفهمونه ويستعملونه قبل نزول القرآن من حيث الإجمال، وأنه لا يعقل أن تكون فيه كلمات أو تعابير لم ينطق بها العرب، أو لم يستعملوها قبل نزوله ـ بقطع النظر عن السعة والضيق ـ بعد تلك النصوص القرآنية القاطعة، ولا سيما بعد تعبير «أعجمي» لغير اللسان العربي، مقابل «عربي» للدلالة على اللغة العربية، وكذلك بعد الشواهد والبراهين التي أوردناها.

ـ ٢ ـ

وما نقل عن ابن خالوية من أن العرب لم يعرفوا أو يستعملوا كلمة فاسق أو ما قاله غيره عن كلمة النفاق أو غيرها عن ما في القرآن من كلمات أعجمية ترد لأول مرة فيه لا يمكن أن يعقل ولا يمكن بالتبعية أن يصدق. ويكفيك أن تعرف أن كلمة الفسق ومشتقاتها قد وردت في نحو خمس وخمسين آية مكية ومدنية وان كلمة النفاق ومشتقاتها قد وردت في نحو ثلاثين آية من جملتها آية مكية لتعرف تفاهة مثل هذه الأقوال وقيمتها. يضاف إلى هذا كله طبيعة مهمة النبي (ص) التي تقوم على مخاطبة طبقات الناس والقبائل وتلاوة القرآن عليها مما لا يمكن أن يتسق مع عقل ومنطق وحكمة أن يكون ما يتلوه عليهم، وهو دعامة نبوّته ومعجزتها الكبرى بغير اللغة التي يفهمونها بتراكيبها ومفرداتها بل ولا في مستوى أعلى كثيراً من مستوى أفهام المتوسطين منهم.

ولقد حكى القرآن أقوالاً عديدة للكفار صدرت منهم في ظروف متنوعة ككلام عادي غير منمق وهي منسجمة مع أسلوب القرآن كما ترى في الأمثلة التالية:

١ ـ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ. سبأ ٣٥

٢ ـ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا. القصص ٥٧

٣ ـ وإذْ قالُوا اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ.

سورة الأنفال ٣٢

وهذا نقوله تفنيداً لما قاله بعض القدماء من أن لغة القرآن كانت أعلى من مستوى الافهام، ولما قاله بعض المحدثين من المستشرقين وغير المسلمين خاصة من أن الذين آمنوا إنما آمنوا لفصاحة القرآن اللغوية وسمو طبقته، حيث كانت هذه الصفات فيه مما تبهر سامعيه. ونذكر الذين قالوا القول الأخير خاصة بأن من المؤمنين الأولين في مكة من قد آمن بالنبي (ص) على اثر الدعوة وقبل أن تُعد الآيات أو السور الصغيرة النازلة على الأصابع، وأن جلهم قد آمن قبل منتصف العهد المكي، وأن القرآن يذكر أن الكتابيين الذين آمنوا بالقرآن والنبي (ص) إنما آمنوا لما فيه من الحق والروحانية كما ترى في الآيات التالية:

١ ـ وَإنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤمِنُ بالله ومَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لله لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً.

آل عمران ١٩٩

٢ ـ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ.

المائدة ٨٣

٣ ـ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ.

الرعد ٣٦

٤ ـ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً.

الاسراء ١٠٧ ـ ١٠٨.

٥ ـ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قَبلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ.

القصص ٥٢،٥٣

وإن أكثرية المكيين الساحقة ثم أكثرية الحجاز الساحقة ثم أكثرية العرب الساحقة قد ظلت جاحدة طيلة العهد المكي وأكثر العهد المدني، وقد سلخ النبي (ص) ثلاثة عشر عاماً في مكة يتلو القرآن على أهلها وعلى العرب وأسلوب القرآن المكي خاصة شديد الروعة ليعرفوا ما في قولهم من وهنٍ.

ولقد أثر عن أبي عمرو بن العلاء أحد علماء اللغة العربية ورواتها في القرن الثاني قوله (ما لغة حمير بلغتنا) وتمسك الدكتور طه حسين حين أراد التدليل على اختلاق الشعب العربي

الفصيح المنسوب إلى القحطانيين وأورد بالإضافة إليه بسبيل البرهنة على الفرق بين اللغة العربية الفصحى وبين اللغة الحميرية نصاً حميرياً مروياً عن الأستاذ جويدي وهو: (وهبتم واضهو بنو كلبت هنينو إلى مقه زهرن زن مزندن حجن ومهتهو بمسألهو لوفيهمو وسعدهمو نعمتم). ومع أن دعوى الدكتور الأصلية بأن الشعر العربي الفصيح المنسوب إلى قحطانيين مفروض وجودهم في عهد متقدم عن البعثة بقرون عديدة صحيحة، أي أن هذا الشعر يكون مخترعاً، فإن هذا النص وأمثاله إنما كان يمثل طوراً من أطوار اللغة العربية قبل أن تصل إلى طور فصاحتها القرآنية وان القول ينطبق على لغة العدنانيين أو الشماليين في مثل ذلك الظرف كما ينطبق على لغة القحطانيين أو الجنوبيين[٥] وليس من شأنه أن ينقض ما قررناه كذلك. ولا سيما أن المأثور الموثوق من الأسماء والأعلام الجنوبية في الحقبة التي سبقت البعثة إلى مئة سنة هي في صيغة العربية الفصحى ولأن اندماج القحطانيين بالعدنانيين إبان حياة النبي بالسهولة واليسر التامين وما كان بينهم من تفاهم لغوي وطيد تام هو من الحقائق التاريخية التي لا يصح فيها مماراة. والتي لا يمكن أن تحدث لو لم يكن التماثل اللغوي شديداً إن لم يكن تاماً.

- ٣ -

وواضح أن ما نقوله ليس فيه ما يقلل من سمو طبقة لغة القرآن وفصاحته وبلاغته الرائعة النافذة التي لا يمكن أن تتحمل كلاماً ولا ريباً، كما أنه لا يمنع أن يكون في القرآن مفردات غير عربية أو غير قرشية اللهجة، بل نحن نعتقد بوجود ذلك، غير أن مما لا نشك في كونه الحق هو أن الكلمات المعربة قد عربت وأصبحت جزءاً من اللغة العربية قبل الإسلام، وأن الكلمات أو اللهجات غير القرشية قد دخلت في اللغة القرشية التي أصبحت لغة القرآن قبل الإسلام أيضاً، وأنه ليس من شأن هذا وذاك أن يمتنع معهما على السامعين من غير قريش تذوق وفهم المفردات التي من هذا القبيل أو مدلولاتها اجمالاً أو تفصيلاً، وهذا كذلك مع التسليم باحتمال وجود طبقات من العرب في كل بيئة في عصر النبي (ص) حتى من القرشيين أنفسهم لم تكن مداركها تصل إلى فهم كل معاني القرآن أو لم تكن تستعمل أو لم تكن تسمع بجميع ألفاظ وتعابير وتراكيب القرآن. ومن التسليم أيضاً باحتمال من كان يتكلم بلهجات غير لهجة القرآن من قبائل العرب بل ومتحضريهم من سكان المناطق البعيدة عن مكة، أو يستعمل تعابير وألفاظاً وحروفاً ومصطلحات ليست من تعابير وألفاظ وحروف ومصطلحات اللغة القرآنية مما هو طبيعي متسق مع بدائه الأمور، وليس مما يتناقض مع مدى وجوهر ما نقرره أيضاً.

وكما قلنا إنه ليس من السهل أو الإمكان تحديد الوقت الذي أصبح اسم العرب فيه عاماً مشتركاً ومستقراً للجنس العربي، فإننا نقول هنا إنه ليس من السهل والإمكان تحديد الوقت الذي أصبحت فيه اللغة العربية القرآنية لغة عامة ومشتركة ومستقرة لجميع العرب. ولكن من الحق أن نقول إنه ليس من الضروري أن يرجع هذا الوقت إلى ذلك الأمد الطويل الذي يقتضي أن ترجع إليه تسمية «العرب» على ما شرحناه في البحث السابق. فإن اللغة لا يمكن أن تكون لغة تخاطب عامة مشتركة بين سكان الأنحاء والبيئات المتباعدة تباعداً شاسعاً إلا بعد تقارب وتواصل عامين

ومستمرين وهو ما لا سبيل إلى التيقن منه إلى زمن طويل جداً. ولكنا نستطيع أن نقول إن هذا الاشتراك قد أخذ يقوى ويستقر قبل البعثة النبوية بعوامل تلك النهضة التي نشطت آنذاك، والتي تلمس في مظاهر وتقاليد كثيرة في حياة العرب، والتي نرجح أنها كانت رد فعل لغزو الأحباش لليمن ثم للحجاز[٦] وانه لمن المعقول أن يكون لهذه الحركة وللأسفار التي زيدت بعدها بين مختلف أنحاء الجزيرة وبين هذه الأنحاء وأطراف الجزيرة في الشام والعراق، ولاشتداد ارتباط العرب بالبيت الحرام والحج وللأسواق التي كانت تقام في مواسم الحج، والتي كان يفد إليها وإلى الحج من بعدها كثير من العرب من مختلف الأنحاء في ظل هدنة الأشهر الحرم العامة أثر أولاً في انتشار اشتراك اللغة وتوحدها وثانياً في تصفيتها وتهذيب حواشيها حتى وصلت في عهد البعثة النبوية إلى الطبقة السامية التي نزل بها القرآن الكريم.

على أن الإشارة إلى العربية والعجمية، وما يمكن أن تحتويه من مفهوم إطلاق العربية على اللغة التي كان يتكلم ويتفاهم بها العرب على اختلافهم، وتفريقها عن اللغات الأعجمية التي كان يتكلم ويتفاهم بها غير العرب يمكن أن تساعد على القول بأن سيادة اللغة القرآنية ترجع إلى أمد غير قصير قبل البعثة أولاً، وعلى القول بأنه لا يكون مجال للاستغراب ولا للانكار إذا كنا نرى الشعراء الجاهليين من عدنانيين وقحطانيين، ومضريين وربيعيين ينظمون أشعارهم بلغة واحدة ثانياً، لا سيما إذا كانت حياة هؤلاء الشعراء لا تذهب في القدم كثيراً كما هو المروى عنهم. بحيث لا تكون قبل مائة وخمسين سنة قبل البعثة النبوية.

هوامش الفصل الثالث

(١) من الدلائل اليقينية على ذلك (١) اسم عريبي الذي ورد في نقوش آشورية تعود إلى القرن التاسع والثامن والسابع قبل الميلاد، كوصف لمملكة وبلاد في مشارف بلاد الشام الجنوبية في طريق الحجاز. (٢) اسم (جاشم الغربي) الذي ورد في سفر نحميا من أسفار العهد القديم الذي يؤرخ أحداثاً وقعت في القرن الخامس قبل الميلاد. (٣) اسم ارتياس (الحارث) العربي الذي ورد في سفر المكابيين الذي يؤرخ أحداثاً وقعت في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد. (٤) تسمية الرومان بلاد الأنباط حينما استولوا عليها في القرن الأول بعد الميلاد باسم الولاية العربية. (٥) ما ورد في نقش حجر قبر امرىءالقيس بن عمرو من وصف له وهي(ملك العرب كله)وقد كتب هذا النقش في سنة ٣٢٨ ب. م. ونص هذا النقش ومحل وجوده وكيفية اكتشافه والمصادر التي ذكرته وصورته في: جواد علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج ٧، ص ٢٧٣، وإسرائيل ولنفستون، **تاريخ اللغات السامية**، ص ١٨٩ - ١٩١.

(٢) مقام إبراهيم هو مكان في فناء الكعبة ما يزال معروفاً بالتواتر الذي لم ينقطع. وفي سورة آل عمران آية جاء فيها ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً﴾ ٩٦ - ٩٧، وقد ذكر المفسرون والرواة أن هذه البينات هي حجر فيه أثر قدم تعارف العرب على أنها أثر قدم إبراهيم (ص) حينما كان يرفع عليه قواعد الكعبة. انظر تفسير الآية في تفسير الخازن والطبري والبغوي وغيرهم.

(٣) انظر كتابنا: **تاريخ الجنس العربي**، ج ٥، ص ١٣٧ وما بعدها؛ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٤ وما بعدها؛ طبقات ابن سعد، ج ١، ص ٣٦ وما بعدها، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢ وما بعدها.

(٤) انظر: **تاريخ الجنس العربي**، ج ٥، ص ٥٩ وما بعدها.

(٥) من الأمثلة التالية على ذلك نقش حجر قبر امرىء القيس الذي كتب سنة ٣٢٨ ب. م. وهذا نصه: (تي نفش مر القيس بن عمرو ملك العرب كله. ذو أسر التج وملك الأسدين ونزرو وملوكهم. وهرب محجو عكدي وجايزجي في صبيح نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه الشعوب ووكلهن فرسو الروم فلم يبلغ ملك مبلغه عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم بلسكول بالسعد ذو ولده) وقد خمّن المستشرقون والأثريون كتابة النقش في سنة ٣٢٨ ب. م. كما ذكرنا قبل. ومعنى هذا أن كل شعر ونثر فصيح من نوع فصاحة اللغة القرآنية يروى عن أناس وجدوا قبل هذا التاريخ شماليين كانوا أم جنوبيين هو مختلق. وقد ذكرنا مصدر وخبر هذا النقش في موضع سابق.

(٦) كان ذلك في أوائل القرن السادس بعد الميلاد.

الفصل الرابع
مختارات من كتاب
«العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي»

هذا الفصل مقدمة كتاب «العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي».

(المحرر)

المقدمة

- ١ -

أدى انهيار الدولة الأموية الشامية، في أول الثلث الأول من القرن الهجري الثاني، نتيجة لتحالف الهاشميين ضدها مع الفرس، إلى انتقال عاصمة الدولة العربية الإسلامية، التي حل العباسيون فيها محل الأمويين، من دمشق إلى الهاشمية فبغداد في العراق، الذي كان أقرب إلى البيئة الفارسية من الشام، وانفسح بهذا وذاك المجال لرجال الفرس، فأخذوا يتغلغلون في بنيان الدولة العباسية، ويدحرون العرب شيئاً فشيئاً. وأخذت تبدو منهم مطامح ومطامع متنوعة، تهدد كيان الدولة والعروبة تهديداً قوياً. وقد بدا ذلك منهم، منذ أوائل نشوء الدولة، مما سجل التاريخ منه بوادر ووقائع عديدة، وأدى هذا إلى نقمة العرب، كانت بوادرها هي الأخرى تظهر منذ عهد مبكر من نشوء الدولة العباسية، متمثلة في ما كان يقوم خاصة في بلاد الشام من ثورات وتمردات.

ولقد استمسكت الدولة العباسية خلال المائة سنة السنة الأولى من عهدها، بفضل ما كان عليه معظم ملوكها في هذه الحقبة من حيوية وشخصية، وما كان مستمراً من مظاهر قوة الحيوية والشخصية العربية بوجه عام. غير أن نقمة العرب من ناحية، ومطامع الفرس من ناحية، جعل ملوك العباسيين يشعرون بالحاجة إلى سد الفراغ والثغرة.

وفي هذه الأثناء بدأ سيل العناصر التركية المسلمة يتدفق من المشرق، وتمتلىء بها القصور

والدور زوجات وحظايا وخدما وحشما. وكان معظمهم سبياً مسترقاً. فجنح الخلفاء إلى استخدامهم في الجيش ومهام الدولة المختلفة، لما توسموه فيهم من الاخلاص والطاعة. واتسع نطاق ذلك في عهد المعتصم ابن الرشيد ٢١٨ ـ ٢٢٧، وولديه الواثق ٢٢٧ ـ ٢٣٢ والمتوكل ٢٣٢ ـ ٢٤٧، فكاد أن يصبح معظم أفراد الجيش وقواده، وحرس القصور، والمعتمدون في مهام الدولة منهم، فلم يلبثوا أن أخذوا يتدخلون في شؤون الخلفاء، ويجنحون إلى التغلب عليهم. وقد بدا ذلك منهم في عهد الواثق وأخيه المعتصم. ولقد تآمر معهم المنتصر ابن المتوكل ضد أبيه، وأدت المؤامرة إلى اغتياله على أيديهم، فكان ذلك من أقوى الأسباب التي جعلتهم يفرضون سلطانهم على المنتصر ٢٤٧ ـ ٢٤٨، ثم على المستعين ٢٤٨ ـ ٢٥٢، والمعتز ٢٥٢ ـ ٢٥٥، والمهتدي ٢٥٥ ـ ٢٥٦، ويتصرفون فيهم، وفي شؤون الدولة، تصرف الغالب الذي لا راد له.

ومع أن يدهم انكفت في عهد الخلفاء: المعتمد ٢٥٦ ـ ٢٧٩، والمعتضد ٢٧٩ ـ ٢٨٩، والمكتفي ٢٨٩ ـ ٢٩٥، فإنهم عادوا إلى تغلبهم، وتدخلهم في عهود الخلفاء الخمسة الذين خلفوهم، أي المقتدر ٢٩٥ ـ ٣٢٠، والقاهر ٣٢٠ ـ ٣٢٢، والراضي ٣٢٢ ـ ٣٢٩، والمتقي ٣٢٩ ـ ٣٣٣، والمستكفي ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

ومع أن بني بويه من الديلم العجم، انتزعوا السلطان من أيديهم سنة ٣٣٤، وصاروا هم أصحاب الغلبة على الخلافة العباسية، في عهد المطيع ٣٣٤ ـ ٣٦٣، والطائع ٣٦٣ ـ ٣٨١، والقادر ٣٨١ ـ ٤٢٢، والقائم ٤٢٢ ـ ٤٦٧، فإن ذلك لم يؤثر فيما صار للعناصر التركية في دنيا الخلافة من كيان، وشغلته من حيز. ولا سيما أن سيلها من المشرق ظل متدفقاً.

ثم استعادوا سلطانهم وغلبتهم بقيادة بني سلجوق، الذين كان عهدهم عهد ملك وسلطان، بمقياس أوسع مما كان قبل. ولا سيما أن الموجة التي جاءت تحت قيادتهم، كانت موجة غزاة، ولم يكونوا سبياً مسترقاً، كما كان الذين تولوا السلطان قبلهم. وقد ازداد كيان العناصر التركية وحيزهم في عهدهم قوة وسعة وانتشاراً، وصاروا اصحاب الحكم والسلطان في جميع أنحاء الشام والعراق، ومدوا سلطانهم إلى الأناضول، فأقاموا فيه لهم دولة مركزها قونيه، عمرت إلى أوائل القرن التاسع.

ومع أنه أخذ يظهر في هذه الأثناء على مسرح الدولة جماعات كرديه وشركسية، غير أن ذلك لم يكن ليؤثر في كيان وحيز العناصر التركية، لأن هذه الجماعات كانت تعيش في ظلها، وما لبثت أن اصطبغت بصبغتها، وغدت من امتداداتها.

ومع أن يد بني سلجوق انكفت عن الخلافة العباسية، في أواخر القرن السادس، وعاد إلى الخلفاء شيء من استقلالهم، غير أن ذلك لم يكن كذلك ليؤثر في كيان وحيز العناصر التركية، ومن امتزج فيها من عناصر شركسية وكردية، حيث ظلت صاحبة الحكم والسلطان في بلاد العراق والشام ومصر.

وفي أوائل القرن السابع، بدت من المشرق حركتان تركيتان جديدتان. أولاهما حركة

الخوارزميين المسلمين، وقد نازع ملوكها السلاجقة، وانتزعوا منهم السلطان. وثانيتهما حركة التتر غير المسلمين بقيادة جنكيز خان وأحفاده. وقد قضت هذه الحركة أولاً على كيان الدولة الخوارزمية، ثم امتدت نحو الغرب بقيادة هولاكو، وأخذت تكتسح ما في طريقها، حتى وصلت إلى العراق، فاستولت عليه، ثم على بغداد، وقوضت الخلافة العباسية في سيرة بالغة القسوة في الفتك والتدمير. ثم زحفت نحو الشام، فاتكة مدمرة، فتصدى لها حكام مصر والشام الذين كان معظمهم، ومعظم جيوشهم من العناصر التركية الكردية الشركسية المزيجة المسلمة، وتمكنوا من ردها، فارتدت إلى العراق، وثبتت فيه، وفي ما حوله قدمها، ولم تلبث أن اعتنقت هي الأخرى الإسلام. . .

وبينما فرضت هذه الحركة سلطانها على العراق، وبعض أنحاء بلاد الفرس والأناضول الموالية لشمال العراق الشرقي والغربي، ظلت بلاد الشام ووادي النيل، تحت غلبة وسلطان العناصر المسلمة المزيجة من الترك والكرد والشركس، إلى الربع الأول من القرن العاشر، ومدت سلطانها إلى جزيرة العرب شرقا، وإلى ليبية غرباً.

وفي هذه الأثناء، وبتعيين أدق، في أواخر القرن السابع الهجري، نشأت في الأناضول - آسيا الصغرى - دولة تركية جديدة - وهي التي عرفت بالدولة العثمانية، نسبة إلى مؤسسها عثمان - في ظل دولة قونية السلجوقية، وأخذت تنمو وتقوى بسرعة، حتى تم لها الاستيلاء على معظم الأناضول، ثم على رقعة كبيرة من البلقان، ثم تمكنت من نسف دولة الروم البيزانطية، في أواسط القرن التاسع، والاستيلاء على عاصمتها القسطنطينية، واتخاذها عاصمة لها. وفي أواخر الربع الأول من القرن العاشر، قهرت جيوش الدولة الشركسية التي كانت صاحبة السلطان في بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن وليبية، ثم قضت عليها واحلت سلطانها في هذه البلاد محلها. وفي أواسط القرن نفسه، مدت نظرها إلى العراق، وتمكنت في النهاية من ادخاله تحت سلطانها، فغدت هي صاحبة السلطان على جميع البلاد العربية، وظل سلطانها فعلاً أو اسماً مستمراً إلى الثلث الأول من القرن الرابع عشر الهجري.

وهكذا يبدو من الاستعراض الوجيز، أن بلاد العرب خضعت لسلطان لعناصر التركية، وكانت منحدر سيل تركي قوي، طيلة ألف ومئة عام باستثناء فترات قصيرة. وقد تمثل هذا السلطان أولاً بالقواد المتغلبين، وأصحاب منصب أمير الأمراء، ثم بالأمراء والملوك والولاة والحكام والقواد الطولونيين والاخشيديين في بلاد الشام ومصر، ثم السلجوقيين والبوريين والارتقيين والزنكيين والأيوبيين، ومماليك الترك ومماليك الشركس[1] في بلاد العراق والشام ومصر وجزيرة العرب، ثم الايلخانيين والجلايريين والبارانيين والباينداريين التتر والتركمان في العراق، ثم بالعثمانيين أخيراً، في جميع هذه البلاد، مما جعل المتنبي يقول في أوساط القرن الهجري الرابع عن البلاد العربية:

ترى الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان!

- ٢ -

ومع ذلك كله، فإن العنصر التركي لم يستطع أن يصبغ العرب وبلادهم بصبغته، بل ولم يستطع أن يتفلت من الصبغة العربية والسلطان العربي الأدبي، حيث ظلت اللغة العربية لغة رسمية للدول الطولونية والاخشيدية والسلجوقية والزنكية والأيوبية والتركية والشركسية، وما قام في ظلها من إمارات تركية وأيوبية كردية ثانوية في الأقاليم العربية، في مراسلاتها ودواوينها ومنشوراتها ومراسمها وقوانينها، وفي العواصم والملحقات، ومن قبل الملوك والحكام على السواء، مما كان يفسح المجال للآلاف المؤلفة من العرب للعمل في مختلف مصالح الدولة ومناصبها ودواوينها، وكان كثير منهم يحتل مراكز سامية، ويكون لهم توجيه مؤثر في سير الدولة وسياستها.

وقد ظلت اللغة العربية كذلك لغة العلم والتأليف اللذين ظلا مزدهرين يانعين، في القرون الثالث إلى السادس بنوع خاص، بل واللذين فاق ازدهارهما وايناعهما في الحقبة السابقة لقيام هذه الدول، حتى يمكن أن يقال إن معظم ما وصل إلينا من مؤلفات عربية في شتى العلوم والفنون، من حديث وفقه ولغة وأدب وشعر وطب ورياضيات وكيمياء وجغرافيا وفلك وتاريخ وتفسير، مما كتب في هذه القرون، كما أن معظم ما وصل إلينا من أسماء النابغين والمؤلفين في هذه العلوم والفنون من أهلها. وفيهم كثيرون يمتون إلى العروبة الأصيلة، حفلت مختلف كتب التراجم والتاريخ والأدب باسمائهم وأنسابهم، ونوهت بما كان لهم من نشاط وبروز ونبوغ.

ولقد كان سيل الترك وامتداداتهم ـ التتر والتركمان والشركس والكرد ـ لا يلبث حتى يندمج في العروبة، وينسى كثير منهم لغته، وتنصل صبغته العنصرية قليلاً أو كثيراً. وكان كثير منهم يندمج في الثقافة العربية، ويغدو نابغاً فيها كشاعر وأديب ومؤلف رائع الديباجة قوي الأسلوب، مما حفلت كتب الأدب والتراجم بكثير من اسمائهم ونتائج قرائحهم، ومنهم من كان يمت إلى الأرومات المالكة المتغلبة نفسها، فضلاً عن العدد الكبير من المفسرين والمحدثين والأطباء والرياضيين والفلكيين والفلاسفة واللغويين، الذين ثقفوا العربية، وألفوا فيها كثيراً من الكتب التي تعد من مفاخر الحضارة العربية الإسلامية، والأسس التي قامت عليها الحضارة الإنسانية(٢).

ولقد ظل الترك ـ وامتداداتهم ـ برغم ما وصلوا إليه من النفوذ وقوة السلطان وتجدد المادة، وبرغم ما وصلت إليه الخلافة العباسية من الوهن، يحترمون شخصية هذه الخلافة، ويستمدون من قوتها الروحية، وكان كل متغلب على سلطان الخلافة، أو على بلد من البلاد، وكل شخص يتولى منصب الملك، في أي بقعة من بقاع البلاد الإسلامية منهم، يحرص على الحصول على تصديق الخليفة على منصبه، وأخذ التوقيع والخلع والطرز منه ـ حتى ولو كان هو نفسه الذي خلع الخليفة السابق أو قتله ـ باعتبار أن الخلافة هي الرئاسة الإسلامية العليا، التي لا يعد الحكم والسلطان لاحد شرعياً، إلا بموافقة وتصديق منها، وباعتبار أن هذه الرئاسة يجب أن تبقى عربية قرشية، حيث ينطوي في هذا الاعتراف من الترك بالرئاسة العربية على سائر الأمم

الإسلامية، التي كان يندمج فيها شتى الأجناس والشعوب ولو رمزيا، ولم تكد تسقط في بغداد سنة ٦٥٦ هـ، حينما استولى التتر عليها، وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين، حتى اقاموها في مصر، ليتيسر للمتغلبين على السلطان منهم في بلاد الشام ومصر، أن يحصلوا على موافقتها على مناصبهم، برغم ما كانت عليه من الضعف والهوان.

وهذا متأت أولاً: من كون بلاد الشام والعراق ومصر مأهولة منذ أقدم الأزمنة بالجنس العربي الذي كانت تتسرب موجاته المتتابعة الكبرى والصغرى بدون انقطاع إليها من جزيرة العرب، والذي سماه الباحثون الأجانب المستشرقون، وتابعهم فيه كتاب العرب خطأ بالجنس السامي أو الأقوام السامية[٣]، وكون قسم كبير منها أي معظم الهلال الخصيب - بلاد الشام والعراق - مصبوغاً بالصبغة العربية الصريحة قبل الإسلام بقرون عديدة، بتأثير الموجات العربية الصريحة التي انساحت إليها في القرون الخمسة عشرة قبل البعثة المحمدية، وملأت جنباتها وأقامت فيها ممالك ودولاً وحكومات متعددة[٤]. وثانياً: من كون صبغة العروبة الصريحة قد توطدت فيها، ورسخت وتقدست بالموجة الإسلامية العربية الكبرى. وثالثاً: من كون عهد الدولة الأموية عهداً عربياً قوي الحيوية والشعور بالعزة القومية. ورابعاً: من كون عهد العباسيين الذهبي الذي امتد نحو مئة سنة، هو أيضاً عهد عربي قوي، برغم ما ألمّ به من ملمات، وجرى فيه من تيارات، وخامساً: من كون عهد الدولة الفاطمية التي نشأت في القيروان - منطقة تونس - ثم نقلت مركزها إلى مصر، وشملت بسلطانها لفترة غير قصيرة شمال أفريقية ووادي النيل والحجاز واليمن وبلاد الشام إلى جزيرة الفرات، هو الآخر كان عهداً عربياً قوياً في الاجمال، وخاصة في دور الدولة القوي الذي امتد نحو مئة وخمسين سنة. وسادساً: من كون معظم حكام هذه البلاد المحليين كانوا عرباً، وكانوا الواسطة بين أهل البلاد وبين أصحاب السيادة من المتغلبين، وبالتالي ستارا يحول دون اختلاط العناصر التركية بمقياس واسع بالعناصر العربية.

يضاف إلى ذلك عامل مهم جداً، وهو أن جزيرة العرب لم تنقطع في حقبة التغلب التركي الطويلة عن عادتها، أو خصيصتها الطبيعية والاجتماعية، التي جرت عليها باستمرار منذ أقدم الأزمنة، وهي مد هذه البلاد بموجاتها المتتابعة الصغرى والكبرى التي كانت تنتشر في براري الشام، وجزيرة الفرات والعراق، وشرق الأردن وغربه وسيناء ووادي النيل جنوبه وشماله، ثم تندمج في صميم البلاد، فتأتي موجات أخرى، فتحل محلها دون انقطاع، حيث كان هذا يجدد الدم العربي القومي، من حين إلى حين، ويقوي الصبغة العربية في هذه المواطن، ويظل جمهور السكان في البلاد عربي الوجه واللسان.

وهناك عوامل أخرى جديرة بالتسجيل أيضاً. منها أنه لم يكن لدى الترك فكرة سحق العرب، وصبغهم بصبغة تركية، والاستعلاء عليهم، والكيد لقوميتهم، سواء منهم الذين جاؤوا كطلاب رزق من باب الخدمة، وأصبحوا أصحاب الأمر في الدور الأول والحقبة التي أعقبته من عهد الخلافة العباسية، أم الذين جاؤوا ككتلة عسكرية فاتحين، ونعني بهم السلاجقة[٥]. ومنها التأثير الديني الذي نفذ إلى قلوب الترك، وجعلهم يحملون في نفوسهم عاطفة احترام واعتبار،

بل وتقديس للعرب من حيث الإجمال، ويقبلون على تعلم لغتهم والأخذ بآدابهم وعاداتهم. حتى التتر الذين طرقوا البلاد بسيل عظيم، وكانوا في سيرتهم فاتكين مدمرين ودكوا معالم المدينة الإسلامية التي كانت تحمل الطابع العربي، فإنهم لم يكونوا يقصدون بذلك إلى هدم الكيان العربي، والذين بقوا منهم في الأقطار العربية، وسواء منهم الذين كانوا أصحاب السلطان في العراق، أم أقاموا فيه كسكان، لم يستطيعوا على قرب عهدهم ببلادهم، وعراقتهم بالتركية وقسوتها، أن يتفلتوا من الأثر الذي ذكرناه، فأسلموا بعد برهة وجيزة، وامتزجوا بالعرب، حتى غدوا أو غدا معظمهم عربياً في اللسان والعادات.

ويجدر بنا أن نضع بين العوامل كون العنصر التركي عنصراً حربياً فقط. لم يكن له في بلاده تلك الأدبيات الراقية والمدنية البراقة، التي كانت للفرس، فسهل ذلك على النفوذ العربي الأدبي أن يعمل فيهم عمله.

- ٣ -

وإذا كانت دولة الترك السلجوقيين في قونية، ثم دولة الترك العثمانيين، بدتا تركيتي الصبغة واللغة والمظهر، وحافظتا على ذلك، ولم تجريا على ما جرت عليه دولتا المماليك الترك والشركس من الاستمداد من قوة الخلافة العربية العباسية التي أقامها الأولون في مصر، فإن مرد ذلك إلى كونهما لم تقوما في بلاد العرب، وفي دنيا الخلافة العباسية العربية. وإذا كان العثمانيون لم يستبقوا الخلافة العباسية المصرية، فإنهم لم يلبثوا أن اتسموا بسمة الخلافة الإسلامية، فكان ذلك منهم اعترافاً بقوة الخلافة العربية الأصل. ولقد روي أن الخليفة العباسي الأخير الذي أخذه السلطان سليم معه إلى الاستانة، قد تنازل له عن الخلافة، وبايعه بها، فتكون تلك السمة، إذا صحت الرواية، بصفة النيابة عن الخلافة العربية. ومن الجدير بالذكر أن هذه الدولة، مع جعلها التركية لغة لها، واحتفاظها بالصبغة التركية، لم تحاول أن تفرض لغتها وصبغتها على البلاد العربية التي رضخت لسلطانها منذ سنة ٩٢٣ هـ حيث ظلت اللغة العربية وصبغة العروبة فيها هما السائدان، بل ولم تستطع أن تتفلت من نفوذ العروبة وسلطانها في بلاد الأناضول والبلقان التي اصطبغت بالصبغة التركية، حيث ظل الترك في هذه البلاد يدينون بالدين الإسلامي العربي، وحيث غدا أكثر من نصف لغتها عربياً، وغدت أسماء رجالهم ونسائهم وأسرهم وتشكيلاتهم ودواوينهم ومنشآتهم عربية، وغدت التقاليد العربية المتنوعة في حياة البيت والمجتمع تقاليد لهم، وظلت الحروف العربية حروف كتابتهم. وتعلم كثير منهم في مختلف الأجيال اللغة العربية، ومهروا فيها، وألفوا فيها كثيراً من الكتب الدينية وغير الدينية، وترجموا إلى التركية مختلف الكتب العربية الدينية وغير الدينية، وظلت الصيغ الدينية التي يؤدي بها الجمهور التركي عباداته عربية، وظل القرآن العربي، والحديث العربي، يتلى ويروى بادائه وحروفه العربية. وكل ما كان من أثرهم في البلاد العربية مصطلحات وألفاظ، تسربت إلى اللغة العربية العامية.

وما كان في أواخر العهد العثماني من تعليم التركية لابناء المدن العربية، لم يكن يهدف إلى تتريكهم، وإنما إلى تخريج شبان يدرسون في مدارس الاستانة العالية، ويتولون وظائف الدولة في بلاد العرب والترك على السواء. أما ما كان من جنوح جمعية الاتحاد التركي إلى تسويد العنصر التركي في الدولة العثمانية، فإنه كان في الحقيقة بدعاً جديداً، ليس له أصل في صميم الترك، وإنما هو أثر من آثار انبعاث الفكرة القومية الحديثة، وما كان من جنوح مصطفى كمال إلى الغاء الحروف العربية، وتتريك الدين الإسلامي، وحصر نطاقه، فإنه كان لأسباب تركية خاصة، مردها كذلك الفكرة القومية الحديثة.

ونريد أن نشير إلى ظاهرة مهمة في صدد ما نحن فيه، فقد كان انسياح الترك السلجوقيين إلى الأناضول في القرن الخامس، وإقامتهم دولة قونية فيها، وانبساط سلطانهم على رقعة كبيرة فيها، ثم انسياح الترك العثمانيين في القرن السابع، وإنشائهم دولتهم فيها، وانبساط سلطانهم عليها، مؤدياً إلى صبغ الأناضول، وقسم من البلقان الذي عرف باسم الروملي بالصبغة التركية، واندماج معظم من كان فيها من عناصر غير تركية في التركية والإسلام، حتى غدت هذه البلاد تركية بحتة تقريباً، في حين أن انسياح الترك المتواصل، وقيام دولهم المتوالية في بلاد الشام والعراق ووادي النيل، واستمرار سلطانهم على هذه البلاد ألفاً ومئة عام، لم يؤد إلى تتريك هذه البلاد، بل أدى بالعكس وفي النهاية إلى تعريب المقيمين منهم فيها، مما يرجع إلى الأسباب التي ذكرناها قبل، ثم إلى قوة الحيوية العربية ومدها المتصل.

ولقد كانت هذه الظاهرة قبل الإسلام، حيث استمر سلطان الفرس على العراق، وسلطان اليونان، ثم الرومان على بلاد الشام ومصر، نحو ألف عام، فلم يستطع هؤلاء وأولئك أن يصبغوا البلاد وأهلها بصبغتهم، بل وصبغت الصبغة العربية من ظل فيها منهم، وخاصة بعد أن غدت الصبغة العربية واللغة العربية خالدتين بموجة الفتح الإسلامي الكبرى.

- ٤ -

ولقد احتوت كتب التاريخ والتراجم اسماء عدد كبير من الأسر والشخصيات الأصيلة العروبة التي شغلت في حقبة التغلب التركي الطويلة حيزاً في مجال الحكم والسلطان والفنون والعلوم والتأليف، كما احتوت كتب التاريخ بيانات كثيرة في صدد حركة التموج العربي بين جزيرة العرب والأقطار المجاورة لها، مما يسمى مهاجر العرب أو مواطنهم الثانية التي كانت مسرح هذا التغلب، والتي كانت تساعد إلى حد كبير على بقاء الصبغة والحيوية العربية مستمرتين، برغم السيل الذي تدفق عليها من العناصر التركية وامتداداتها.

ولقد تكفلت كتب التراجم خاصة، في جمع شمل عدد ضخم من الشخصيات الأصيلة العروبة التي برزت في مختلف مجالات العلوم والفنون والسياسة، وفي مختلف الأقطار العربية، والتي كانت من مظاهر تلك الحيوية والصبغة، غير أنه لم يكتب فيما اطلعنا عليه جمع شمل سيرة الأسر العربية، والشخصيات العربية التي برزت في مجال الحكم والسلطان خاصة،

ولا جمع سيرة حركة التموج العربي، خلال هذه الحقبة، مع أن دلالة ذلك على قوة مظاهر الحيوية العربية أشد، مما يجعل فائدة جمعه في كتاب واحد ظاهرة قوية.

ولقد كان الموضوعان مما اعتنينا بإبرازهما في أحد أجزاء كتابنا الكبير «تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار» الذي لم يتيسر طبع جميع أجزائه بعد، فخطر لنا أن نجرد ما كتبناه بهما، ونزيد عليه ما اطلعنا عليه من جديد، وننشره في كتاب منفرد، تحقيقاً لتلك الفائدة.

وننبه على أن هناك أفراداً كثيرين من العرب، برزوا في مجال الحكم والسلطان، ولمع نجمهم فيه لمعاناً ساطعاً، فاتسع سلطانهم وقويت شوكتهم، وكانوا يبرزون في صور متنوعة كثوار أو عصاة وخوارج حيناً، وكرجال دولة وجيش في بدء أمرهم حيناً. ولكن بروزهم لم يكن يطول ويمتد إلى ذرياتهم وأسرهم من بعدهم، وأن هناك كثيرين قد بـرزوا في مجال الحكم والسلطان، وامتد بروزهم إلى ذرياتهم، ولكنهم لم يكونوا عرباً أصلاً، وإن كانوا مندمجين في العروبة لغة وديارأ أشد اندماج. وقد رأينا أن نخرج هؤلاء وأولئك من نطاق كتابنا، وأن نكتفي بتسجيل الذين برزوا وامتد بروزهم إلى ذرياتهم أو أسرهم من بعدهم من العرب الأصلاء.

ولقد حاول الترك وامتداداتهم في أثناء تغلبهم على الخلافة العباسية وبعدها، أن يمدوا سلطانهم إلى الجزيرة العربية، وكانوا ينجحون أحياناً في مده إلى الحجاز واليمن بنوع خاص، بحيث يصح أن يقال إنها كانت في نطاق ذلك التغلب قليلاً أو كثيراً. وهذا ما جعلنا ندخل جزيرة العرب في الكتاب، ونفرد لها فصلاً خاصاً.

ولقد كان تشادّ وتجاذب بين العروبة والبربر الذين كانوا يؤلفون أكثرية سكان شمال افريقية منذ الفتح الإسلامي، امتدا امداً طويلاً، حتى انتهيا بانتصار العرب والعروبة وغلبة طابعهما فيه. والتشابه يجمع بين هذا وبين ما قصدنا إليه من إبراز مظاهر العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي، التي امتدت احد عشر قرناً، كما هو المتبادر، ولذلك أفردنا فصلاً خاصاً في الكتاب للعرب والعروبة في شمال أفريقية، رغم أنه لم يدخل بعضه في نطاق التغلّب التركي إلا متأخراً.

ونعترف أن موضوع الكتاب واسع متشعب، وأن استقصاء ما كتب فيه ليس أمراً سهلاً، وأن من المحتمل كثيراً أن يكون فاتنا مصادر كثيرة مطبوعة ومخطوطة، فيها كثير من الأسماء والأحداث. ولكن ذلك لم يمنعنا من تنفيذ ما تراآى لنا مفيداً. ونرجو أن يكون في ما استطعنا أن نعثر عليه ونسجله غناء في التدليل على ما قصدنا إليه، من إبراز صورة الحيوية العربية ومظاهرها، وخدمة نافعة للفكرة القومية التي اعتنقناها، وبذلنا جهدنا في سبيلها في الشطر الأكبر من عمرنا. والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق.

هوامش الفصل الرابع

(١) سلكنا الأكراد والأيوبيين ومماليك الشركس في سلك الترك، لأنهم كانوا يدورون في فلكهم، وكانت الصفة التركية هي الغالبة عليهم، بل ونشأوا في خدمتهم. وقد سلكهم ابن اياس في كتابه، بدائع الزهور ملوك مماليك الترك والشركس في سلك واحد أيضاً، انظر: ج ١، ص ٢٥٩ مثلاً.

(٢) ممن ذكرهم المؤرخون من هذا الباب عز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين الأيوبي، وكان له شعر جيد، من بين أشعار الملوك. وكان فاضلاً عالماً في الأدب (ابن الأثير، ج ١١، ص ١٨٥)، ومجاهد بن قايماز الحاكم في دولة نور الدين، وكان عاقلاً أديباً خبيراً فاضلاً، يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة، ويحفظ من التاريخ والشعر والحكايات شيئاً كثيراً (ابن الأثير، ج ١٢، ص ٦٠). ومنهم الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، وقد وصف بأنه كان فاضلاً ناظماً ناثراً، قرأ العلوم العقلية على الشيخ شمس الدين عبد الحميد الخسروت هو تلميذ الامام فخر الدين الرازي (أبو الفداء، ج ٣، ص ١٩٥ - ١٩٦). ومنهم الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ملك بعلبك، ثم الزبداني، حيث وصف بأنه أشعر بني أيوب وشعره مشهور (أبو الفداء، ج ٣، ص ١٤٦). ومنهم أبو الفداء نفسه ملك حماه، وهو اسماعيل بن السلطان الأفضل نور الدين، ابن الملك المظفر تقي الدين، ابن الملك المنصور ناصر الدين بن الملك المظفر تقي الدين، بن السلطان نور الدين شاهان شاه، ابن الملك الأفضل نجم الدين أيوب صاحب التاريخ المشهور والمصنفات الأخرى.

(٣) انظر: محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، مقدمة ج ١.

(٤) انظر: جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣ و ٤، وجرجي زيدان، **العرب قبل الإسلام**.

(٥) من الحق والواجب أن نذكر في هذا المقام أيضاً بأن انحدار العرب عن مركز السلطان الأعلى لم يكن في أصله، عملاً أو قصداً تركياً، وأنه كان سابقاً للتغلب التركي، وأن هذا التغلب في ظروف انحدار العرب عن السلطان الأعلى لم يكن شراً كله. فقد تسنى تحت لوائه دفع غارات التتر الخطيرة عن بلاد الشام، ومصاولة الروم، ثم الغزاة الافرنج الصليبيين وتطهير البلاد منهم في النهاية.

القِسْمُ الثَاني
فيِ القضَايا القَوْمِيَّةِ المُعَاصِرَة

الفصل الخامس
مختارات من كتاب
«نشأة الحركة العربية الحديثة»
(أجزاء أساسيّة)

حول كتاب: نشأة الحركة العربية الحديثة

صدر كتاب **نشأة الحركة العربية الحديثة** مرتين. الأولى سنة ١٩٤٩، في الثالث عشر من كانون الثاني/ يناير، باعتباره الجزء الأول، من سلسلة كتب، بعنوان **حول الحركة العربية الحديثة** بلغت ستة مجلدات.

وقد أعاد المؤلف نشر الكتاب، في حزيران/ يونيو سنة ١٩٧١. «منقحاً وموسعاً»، كما تقول مقدمة الطبعة الثانية.

وهذه مختارات من الطبعة الثانية، تتضمن:

١ ـ الصفحات ١ ـ ١٤، وحذفت الصفحات التي تشمل الفقرة رقم٣ ـ المعنونة: «استطراد ثان للتنبيه على الحكم والسلطان العربي بأشكال مختلفة أثناء التغلب على الدولتين العباسية والفاطمية وبعدهما» والتي تشغل سطرين من صفحة ١٤، ومعظم صفحة ١٩.

٢ ـ الصفحة ١٩ السطر الأخير مع بدء الفقرة ٤ المعنونة «عناصر القضية العربية وقوتها»، حتى الصفحة ١٠٩ من الأصل، السطر السابع. وحذفت الصفحات (١٠٩ ـ ابتداء من الفقرة المعنونة: «استطراداً إلى سيرة وأثر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا»، حتى السطر السادس من ص ١٢٣).

٣ ـ الصفحة: ١٢٣ بدءاً من السطر السابع، حتى الصفحة ١٣٨ السطر الثالث. وحذفت الصفحات (١٣٨ السطر الرابع حتى الصفحة ١٥٠)، وتشمل الصفحات المحذوفة أسماء الصحف العربية التي صدرت قبل الدستور العثماني وبعده الصفحات (١٣٨ ـ ١٤٠)، كما تشمل فقرة معنونة: «استطراد لترجمة بعض هؤلاء النبهاء المشهورين»، وهم أديب اسحق، الزهراوي، فرنسيس المراش، عبد الله المراش، وخليل غانم والمير أمين أرسلان وضياء الدين الخالدي ونجيب عازوري، وخير الله خير الله ولويس صابونجي ورزق الله حسون ـ (ص ١٤٢ ـ ١٤٥). ويشمل هذا الاستطراد اسماء طائفة أخرى من الصحف العربية الصادرة قبل الدستور

(السطران الأخيران من ص ١٤٥ حتى ص ١٥٠).

٤ ـ الصفحات (٢٧٦ ـ ٣٠٨) السطر ١٧ .

٥ ـ الصفحات (٣٣٥ ـ ٥١٠).

وحذف من الأصل، عدا ما ذكرنا، الآتي :

١ ـ الصفحات (١٥١ ـ ٢٧٥) وهي تشمل :

أ ـ الفصل «استطراد إلى تاريخ الدولة العثمانية، وحالة العرب وبلادهم في عهدها» الصفحات (١٥١ ـ ١٨٥) السطر الثامن.

ب ـ الفقرة (٧) المعنونة «توضيح في صدد الخلافة» ص ١٨٥ ، بدءاً من السطر التاسع حتى ص ١٨٨ .

ج ـ الفقرة (٨) المعنونة «صورة اجمالية لما كانت عليه تنظيمات وأحوال الدولة، قبل إعلان الدستور، سنة ١٩٠٨» ص (١٨٩ ـ ٢١٥).

د ـ الفقرة (٩) المعنونة «نصوص القانون الأساسي أو الدستور » ص (٢١٦ حتى السطر ١٠ من ص ٢٣٣).

هـ ـ الفقرة (١٠) غير المعنونة. والتي تعالج «حالة البلاد العربية والسياسية في صلاتها بالدولة العثمانية. . . قبل إعلان الدستور سنة ١٩٠٨» ص (٢٣٣ بدءاً من السطر الحادي عشر، حتى ص ٢٦٩).

و ـ الفصل المعنون: «تتمة تاريخ الدولة العثمانية» ص (٢٧٠ ـ ٢٧٥).

٢ ـ الصفحات :

أ ـ ٨٦ ـ ٨٧ وتتضمن قصائد لمحمود سامي البارودي في هامش الصفحتين.

ب ـ ١٠٦ ، بدءاً من السطر العاشر، وتتضمن رثاء حافظ إبراهيم للزعيم مصطفى كامل.

ج ـ السطر الأخير ـ ١٣٦ حتى السطر ١١ ، وتتضمن قصائد لشاعر مصري وآخر عراقي وثالث لبناني.

د ـ ٢٨٠ ـ ٢٨٨ السطر ١٣ وتتضمن قصائد.

هـ ـ ٢٩٠ قصيدة لشاعر لبناني من خمسة أبيات، تبدأ من أول الصفحة.

و ـ ٢٩٣ نشيد، يبدأ من السطر الثامن.

ز ـ ٣٠٨ ـ ابتداء من الفقرة ٥ ـ ٣٣٤ وتتضمن قصائد أيضاً.

(المحرر)

نشأة
الحركة العربية الحديثة

انبعاثها ومظاهرها وسيرها في زمن الدولة العثمانية
إلى أوائل الحرب العالمية الأولى

تاريخ ومذكرات وذكريات وتعليقات

تأليف
محمد عزة دروزة

طبعة منقحة وموسعة للقسم الاول من الجزء الأول
من كتاب حول الحركة العربية الحديثة

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

فهرس مواد كتاب نشأة الحركة العربية الحديثة

في باريس ٧ ـ التكتل المختلط العلني.

٤٥٠ ـ ٥١٠ التكتل السري: ١ ـ الجمعية القحطانية. ٢ ـ الجمعية الثورية العربية. ٣ ـ حزب العهد. ٤ ـ جمعية العلم الأخضر. ٥ ـ جمعية العلم. ٦ ـ جمعية العربية الفتاة. ٧ ـ جمعية الجامعة العربية ـ جمعية النهضة اللبنانية.

مقدمة الطبعة الأولى

فرغت من مسودة هذا الكتاب في شهر آب عام ١٩٤٣ أثناء هجرتي إلى تركية. وقد عدت إليها الآن فنقحتها وأضفت إليها بعض الزيادات التي اقتضتها الأحداث.

والكتاب ليس تاريخاً ولا مذكرات ولا تعليقات صرفاً، ففيه شيء من ذلك كله، ولهذا سميته بالاسم الذي على غلافه.

وقد حرصت على أن يكون في أسلوبه الاستعراضي سلسلة تامة الحلقات تناولت أهداف الفكرة العربية وعناصرها ونشوءها وما مرت به من أدوار وأطوار، ورافقها من حركات ومظاهر متنوعة في مختلف الأقطار العربية، وما لاقته من مناوآت وما كان من مواقف نضالية في سبيلها في الحرب العالمية الأولى وبعدها.

وعلى كل حال، فالكتاب لم يقصد به أن يسد فراغاً تاريخياً ما يزال الواجب القومي يدعو إلى سده في صدد تاريخ الحركات القومية والنضالية التي قامت في مختلف البلاد العربية في سبيل الفكرةالقـومية العربية وأهدافها. وإن ألم بشيء من ذلك، لتكون السلسلة تامة شاملة بقدر ما يمكن.

وكلّ ما أرجوه، وأنا أقدم الجزء الأول من الكتاب، أن أكون قدمت به خدمة نافعة للفكرة التي قضيت في العمل ي سبيلها أربعين عاماً. وأن يكون قد جاء مفيداً من مختلف النواحي. وأن يكون فيه العبرة والتنبيه للناشئة العربية لتكمل ما نقص. وتسد ما ثغر. وتصل بالفكرة إلى أهدافها المنشودة، والله ولي التوفيق.

دمشق ٢٢ صفر الخير ١٣٦٨
١٣ كانون الأول ١٩٤٩

محمد عزة دروزة

كلمة بين يدي الطبعة الثانية

اقترح الأستاذ شريف الأنصاري إعادة طبع هذا الجزء لنفاد نسخ طبعتـه الأولى منقحاً موسعاً. فاستجبت للاقتراح لأني ما زلت أراه في أسلوبه ومتناوله حرياً بالتداول بين أيدي ناشئتنا العربية.

ولقد نشر بعد الطبعة الأولى كتب ومذكرات عديدة في مدى ومتنـاول ما جـاء في هذا الجزء. ولقد تنبهت ذاكرتي إلى أحداث كثيرة كنت عشت في نطاقها وشاهدتها في ذلك المدى والمتناول، وغابت عني حين كتابة وطبع هذا الجزء للمرة الأولى.

ولقد نبهني غير واحد من إخواني إلى نقاط وأمور أخرى، وحبذا أن أتطرق إليهـا وأتوسع بها بصفتي واحداً من الذين عاشوا في حقبتها، وشهدوا أحداثها، وساهموا فيها، وعرفوا بعض مؤثراتها وتأثيراتها. فاستجبت لكل ذلك، وتوسعت في الكتابة والاستطرادات حتى طال النفس، وصار من الضروري قسمة الجزء إلى قسمين، الأول: يتناول حقيقة الحركة العربية وانبعاثها ومظاهرها وسيرها في زمن الدولة العثمانية إلى أوائل الحرب العالمية الأولى. والثاني: يتناول حقبة هذه الحرب إلى آخر العهد الفيصلي في سورية. وهما الحقبتان اللتان دار عليهما الكلام مقتضباً في الطبعة الأولى من الجزء الأول من كتابنا حول الحركة العربية الحديثة.

وهذا هو القسم الأول الذي أرجو أن يكون ما زيد عليه من تفصيلات واستطرادات مفيداً. مع قولي إنه قد لا يكون جامعاً لكل ما كان أو لكل ما يمكن أن يقال، مُبَـرأً من النقص والخطأ والنسيان. فالإحاطة والعصمة لله وحده. وفوق كل ذي علم عليم. ولقد باشرت كتابة القسم الثاني وأرجو الله تيسير انجازه. ولا حول ولا قوة إلا به.

دمشق الشام
ربيع الآخر ١٣٩١
حزيران ١٩٧١

المؤلف

مدخل[1]

- ١ -

أهداف الفكرة العربية الحديثة

تستهدف الفكرة الحديثة قيام كيان عربي قومي عام، يضم مختلف الأقطار العربية، يكون موحد الشعور والثقافة والأهداف والمصالح والجهاز السياسي والاقتصادي والعسكري. ويكون من القوة ما يضمن للأمة العربية الحرية والكرامة والسيادة، والوصول إلى مصاف الأمم الراقية المتقدمة الحية، وتبوُّؤ المركز اللائق بخصائصها، وما تشغله من حيز جغرافي عظيم في ساحته وموقعه وثرواته ومركزه الممتاز. وما لها من نفوذ معنوي قوي في مختلف أنحاء الأرض. مع قيام مجتمع فاضل متكافل متعاون يتحقق فيه العدل الاقتصادي والاجتماعي، وتكافؤ الفرص لجميع من يعيش فيه.

- ٢ -

أصالة الفكرة

والفكرة القومية العربية ليست طارئة على العرب من حيث متناولها العام. فالتاريخ العربي قد امتلأ بالشواهد على أنها كانت بارزة في كثير من الأدوار والمشاهد والمراحل العربية في حقب التاريخ السابقة وقبل الإسلام وبعده. وفي مختلف أنحاء الأرض التي قدر للعرب أن يلعبوا دوراً فوق مسارحها. غير أن شعلتها قد انطفأت أو همدت فيهم بسبب ما طرأ عليهم من أحداث هدمت من سلطانهم، وقوضت بنيانهم، وأضعفت فيهم الشعور القومي، وجعلتهم يرضخون

---

(١) هذا المدخل من الطبعة الأولى للجزء الأول من كتاب حول الحركة العربية الحديثة الذي هذا الكتاب طبعة جديدة له. وقد وسعنا الكلام وركزناه أكثر من ذي قبل.

للسلطات والعناصر غير العربية، ويستسيغون ذلك لاتحادهم معهم في الدين. ويرون في الخلافة الإسلامية التي كانت تتمثل أخيراً في السلاطين العثمانيين عزاً ورضاء يطمئنان شعورهم الديني الذي غلب على شعورهم القومي بعد تلك الأحداث.

ولذلك تعتبر يقظتها في العرب بعثاً جديداً وقد جاءت من الغرب إلى الشرق في ما جاء من أفكار وتيارات. وهذا ما يبرر الحركة العربية التي عادت إليها الحياة باسم الحركة العربية الحديثة. وقد كانت الفكرة القومية في ثوبها الجديد الذي يستهدف انشاء كيان قومي موحد، تنسكب فيه الكتل التي تمت إلى أصل واحد أو تقطن بلاداً واحدة وتتكلم بلغة واحدة وتشترك في المصالح والأهداف، قد انبثقت في أوروبا في القرون الأخيرة. وعقب دور النهضة والحركة الاصلاحية الدينية في القرن الخامس عشر بعد الميلاد، بعد أن ارتكست هذه القارة في ظلمات وظلم الحكم الاقطاعي والمنازعات الدينية والسياسية وحروبها أمداً طويلاً، في ظل امبراطوريات كانت تسيطر على قوميات عديدة. وقد انتجت النهضة والحركة الإصلاحية معاً فيها حركة قومية تستهدف التخلص من تلك السيطرة الامبراطورية، وتحقيق الذات والسلطان لكل قومية، جامعة في نطاقها العناصر العديدة المتوزعة بين سلطات الامبراطوريات التي تجمع بينها اللغة والتاريخ والخصائص الذاتية. فكان من ذلك القضايا القومية الأوروبية المعروفة. وسرت إلى الشرق في أواخر العصر الفائت، فكان مما كان القضايا التركية والكردية والأرمنية واليونانية والبلغارية والصربية والعربية الخ، حيث كانت هذه القوميات تعيش في نطاق الأمبراطورية التركية العثمانية التي كانت تتسم بالجهل والظلم والفساد. وحيث استهدفت هي الأخرى التخلص من سيطرة هذه الامبراطورية وتحقيق ذاتها وسلطانها.

استطراد إلى بعض الأمثلة على الفكرة أو الحركة القومية العربية في التاريخ

قلنا آنفاً إن الفكرة أو الحركة القومية العربية ليست طارئة. وإن هذا ما يسوّغ تسمية الانبعاث العربي القومي بالحركة العربية الحديثة.

وفي تاريخ الجنس العربي في دور عروبته الصريحة قبل الإسلام[٢] ثم بعد الإسلام، شواهد عديدة على ذلك. فمن ذلك قبل الإسلام ما كان من اشتداد تطلع العرب على اختلاف منازلهم ونحلهم في الجزيرة وأطرافها إلى الحجاز. حيث كان العرب ومنازلهم في العراق وسواحل الخليج تحت هيمنة وسلطان الفرس. وفي الشام تحت هيمنة وسلطان الروم، مع تبادل الروم والفرس الهيمنة والسلطان في جزيرة الفرات وبعض انحاء الشام الأخرى. وحيث زالت

(٢) هذا الدور هو الذي صار اسم العرب فيه يطلق على جميع الجنس العربي في داخل الجزيرة وخارجها، وصارت اللغة العربية الصريحة فيه لغة هذا الجنس في داخل الجزيرة وخارجها كذلك، ويمكن أن يعين بدؤه في أوائل الألف السابق للميلاد المسيحي، ونهايته بالبعثة النبوية المحمدية.

السيادة العربية عن اليمن بعد امتدادها آلاف السنين وصارت تحت هيمنة وسلطان الحبش ثم الفرس. وحيث كانت الحجاز غير خاضعة لسلطان اجنبي، ومتمتعة بحكومة محلية ذات صفة مزدوجة دينية وسياسية بسبب وجود بيت الله الحرام ـ الكعبة ـ في مكة عاصمته التي كانت تسمى (أم القرى) الذي كان محجاً للعرب فقوي تطلع العرب الخاضعين للسلطان الأجنبي إلى الحجاز، وأدى ذلك إلى صيرورة الحج إلى الكعبة عاماً شاملاً لجميع العرب على اختلاف منازلهم. وكان من مقتضى ذلك تجدد وانتعاش الأشهر الحرم التي كانت بمثابة هدنة مقدسة، ليتسنى لمن يريد الحج أن يأتي ويعود في ظلها آمناً على دمه وماله مهما بعدت منازله في أنحاء الجزيرة وبلاد الشام والعراق وجزيرة الفرات. ولقد كان يشترك في ذلك النصارى العرب الاقحاح الذين كانوا في هذه البلاد، والذين كان معظمهم من اليعاقبة والنساطرة الذين يعتقدون بوحدة طبيعة المسيح على نقيض الروم أصحاب السلطان الذين يعتقدون بثنائية الطبيعة فيه. وكان الأولون يتعرضون لاضطهاد السلطات الروحية بسبب ذلك. فكان هذا مما يثير فيهم الكراهية والنقمة ويجعلهم يتطلعون إلى وسيلة تنقذهم من سلطانهم. ولقد روت روايات السيرة القديمة أن النبي صلعم وجد في الكعبة وفنائها حينما فتح مكة (٣٦٠) صنماً، ووجد صورة المسيح وأمه على أحد جدران الكعبة، مما لا يمكن تفسيره إلا رغبة العرب جميعهم في تثبيت مشاركتهم في الكعبة والحج على اختلاف منازلهم ونحلهم. فكانت الأصنام نسخاً ثانية لأصنام الذين يتخذون الأصنام رموزاً لعقائدهم، وصورة المسيح وأمه ممثلة للنصرانية. وتذكر الروايات المذكورة، ان الحاكم الحبشي في اليمن أبرهة[1] أراد أن يصرف الناس عن الكعبة التي اشتد تعلقهم بها في اليمن، فبنى كنيسة عظمى وأخذ يغريهم بالاستعاضة بها عن الكعبة فأخفق، حتى لقد ألقى بعضهم فيها نجاسة. فاغتاظ وأقسم لينقضن الكعبة حجراً على حجر. وكان ذلك من أسباب غزوته للحجاز التي هلك فيها معظم جيشه، ثم لحق به في النهاية مما أشارت إليه سورة الفيل القرآنية: ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول ﴾. وكان هذا الحادث ماثلاً لأذهان أهل الحجاز، فاقتضت الحكمة تذكيرهم به على سبيل الموعظة والدعوة إلى الاعتبار.

وتذكر الروايات كذلك أن أحد أقيال اليمن ذا يزن[2] ثار على حكم الأحباش وذهب إلى بلاد الفرس فاستعان بملكها، فأمده بقوة تتمكن من إسقاط حكم الأحباش وإعلان سلطانه على اليمن. وان ذلك أثار فرح أهل الجزيرة. وكان من ذلك أن ذهب وفد مكي إلى اليمن ليهنىء أهل اليمن بعودة السيادة العربية إلى بلادهم ويشاركهم في فرحتهم. وكان الوفد بزعامة عبد المطلب بن هاشم[3] جد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأدنى، فألقى خطبة بين يدي ذي يزن لها مغزى عظيم جاء فيها (إن الله أيها الملك أهلك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً. باذخاً شامخاً. وانبتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومته، ونبل أصله، وبسق فرعه، في أقدم معدن، وأطيب موطن، فأنت أبيت اللعن رأس العرب وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي يلجأ اليه العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم

خير خلف، ولن يهلك من أنت سلفه. نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته، انهجنا إليك الذي انهجك لكف الكذب الذي قدمنا، فنحن وفد التهنئة)[٣].

ومهما يكن من أمر نص هذه الخطبة، فإن فرحة الحجاز العربي المستقل بالسيادة العربية التي عادت إلى اليمن طبيعية جداً في مثل الظروف التي تمت فيها. واحتمال ذهاب وفد للتهنئة، وخطبة رئيسه خطبة فيها المعاني الواردة في الخطبة قوي من دون ريب.

ففي كل ما تقدم ملامح لحركة عربية قومية كانت تعبيراً عن نقمة على العدوان والسلطان غير العربي على البلاد العربية، وتطلعاً إلى أن يكون السلطان في البلاد العربية للعرب أنفسهم.

ومع أننا مؤمنون بأن الرسالة الإسلامية هي رسالة إنسانية عامة، وعد الله تعالى أن يظهرها على الدين كله لأن فيها هدى الإنسانية وسعادتها ونجاتها في الدنيا والآخرة ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . . . ﴾ سورة الفتح، فإنه ليس من التجوز أن يقال إن تلك الملامح قد بلغت ذروتها في مشيئة الله تعالى أن يحمل راية هذه الرسالة نبي عربي من الحجاز التي احتفظت باستقلالها، ولا سيما أن اليمن ما لبثت أن خضعت للحكم الفارسي المباشر لأن حبشياً اغتال ذا يزن، وزالت السيادة العربية المستأنفة عنها، وأن يوجه الله نبيه إلى توحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام وسلطانه، وأن يوجه خلفاءه من بعده إلى تحرير سائر المواطن العربية خارج الجزيرة من السلطان الأجنبي، لتدخل تحت راية السلطان العربي الإسلامي، وليمتد هذا السلطان بعد ذلك إلى ما وراء هذه المواطن.

ومن ذلك بعد الإسلام ما كان من طابع قومي عربي مميز للدولة الأموية التي قامت بعد خلفاء النبي صلعم الراشدين، الذين تحررت مواطن العرب خارج الجزيرة في عهدهم من السلطان الأجنبي، وتوطدت فيها السيادة العربية تحت راية الإسلام.

ولقد كان من مظاهر ذلك الطابع القومي أو مقتضياته تعريب الدواوين والعملة والطراز، وانحصار المناصب الرئيسية في العرب، بحيث صار رجالهم هم المالئون لمحال الحكم والسلطان والإدارة والقيادة والقضاء دون غيرهم من المسلمين، على اعتبار أن العرب هم الذين حملوا رسالة الإسلام ومشعل الهداية للناس والقيمون على ذلك. وهم الذين انجزوا المعجزة الكبرى بما تم على أيديهم من فتوحات عظيمة، وتسنى لهم بسبيلها الانتصارات الكبرى. وغلبوا وتفوقوا على مختلف أجناس الأرض في المشارق والمغارب. وقد سموا ما عداهم من المسلمين باسم الموالي الذي كان على أي حال يعني مرتبة أدنى من مرتبتهم. وفيه معنى الانضمام إليهم والالتحاق بهم. وكانوا يأنفون من تزويج بناتهم لغيرهم من المسلمين. وكان بعض قضاتهم وحكامهم ينقضون أية رابطة زواج تتم بين عربية وغير عربي. وقد صرفوا الملك عمن كانت أمه غير عربية في إبان قوتهم وعظمتهم، برغم أنه كان ذا صفات شخصية قوية، مما احتوت بطون التاريخ أمثالاً كثيرة من مظاهره. ولقد استغل الهاشميون الذين كانوا ينافسون

---

(٣) العقد الفريد، ج ١، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

الأمـويين ويحاولـون الحلول محلهم في السلطان هذه المغـالاة، فبثوا دعـاتهم بين الموالي وبخاصة الفرس الذين كانوا أشد من غيرهم نقمـة عليها. وقـاموا بحـركات عـديدة ضـدهم بالتضامن مع هؤلاء، نجحت إحداها التي نظمها وقادهـا العباسيـون منهم، فسقطت الـدولة الأموية وقامت على انقاضها دولتهم التي لم يمر طويل وقت عليها، حتى قوي فيها نفوذ الفرس وغيرهم من العناصر غير العربية، فأخذت الروح القومية العربية تخفت، ثم استمر خفوتها وازداد بعد سقوط الدولة العباسية في أواسط القرن السابع الهجري التي كانت يتمثل فيها السلطان العربي ولو اسمياً.

ولقد كان في قيام الدولة الفاطمية في شمال افريقية ثم في مصر سد للفراغ القومي بشكل ما. غير أنها ما لبثت هي الأخرى أن وقعت تحت تغلب العناصر غير العربية، ثم سقطت في أواخر القرن السادس الهجري. ومن ثم قام على انقاض الدولتين العربيتين الكبيرتين تغلب تركي استمر حتى القرن الرابع عشر الهجري، وتمثل في ما قام في العراق من دول تترية، وبلاد الشام ومصر من دول تـركية الجنس أو النشـأة، ونعني الدول الأيـوبية ودول ممـاليك التـرك والشركس وأخيراً الدولة العثمانية التركية[٤].

وقد استنام العرب في بلادهم لهذا التغلب رغم ما اتسم في أكثر أدواره وبخاصة الأخيرة من جهل وظلم وفساد على اعتبار أنه سلطان إسلامي. والإسلام دين أكثريتهم الساحقة. وقد عمد ملوك دولتي المماليك إلى إقامة خلافة عباسية صورية في مصر، صاروا يأخذون مُصادقتها على حكمهم ليغدو في نظر المسلمين من عرب وغير عرب حكماً شرعياً. ثم عمد سلاطين الدولة العثمانية إلى التسمي بالخلافة مباشرة لضمان ذلك القصد. واستمر ذلك إلى أن بـدأ الانبعاث العربي الحديث في أوائل القرن الهجري الثالث عشر الموافقة لأواخر القرن الميلادي الثامن عشر.

- ٤ -

عناصر القضية العربية وقوتها[٥]

وبعث الفكرة العربية من جديد لا يعني نشوء عناصرهـا من جديـد، كما هـو بديهي. فالقضية القومية العربية احتوت عناصر القضايا القومية. بل إن هذه العناصر فيها أقوى من الوجهة النظرية منها في كثير من القضايا القومية الحديثة وبخاصة الأوروبية.

---

(٤) ملوك الدولة الأيوبية كانوا أبناء أرومة كردية، غير أنها كانت تخدم الدولة التركية الزنكية، وتعيش في ظلها ونشأت نشأة تركية. وملوك دولة مماليك الشركس ينتسبون إلى آباء شراكسة، ولكنهم كانوا يعيشون في ظل الدولة الأيوبية، ثم دولة مماليك الترك، ونشأوا بدورهم نشأة تركية.

(٥) معظم ما جاء في هذه النبذة من الطبعة الأولى للجزء الأول من حول الحركة العربية الحديثة. وقد رأينا اثباتها مع شيء من التوسيع والتركيز، ولو أن كثيراً مما جاء فيها أصبح من المسلمات اليوم.

فالفكرة القومية الحديثة قامت على أساس وحدة اللغة والمـواطن والعواطف والتـاريخ والمصلحة. غير أن هذه الوحدة في كثير من القضايا القومية، حينما أخذت تنتشر هذه الفكرة في أوروبا، لم تكن من القوة والعمق بحيث يصح أن تكون هذه القضايا بديهية بها كما هو الأمر في القضية العربية.

فالوطن العربي الحاضـر هو نفسـه منبت أو موطن الجنس العـربي، ومهاجـر موجـاته التاريخية التي خرجت من الجزيرة العربية، منبت الجنس العربي الأصلي، منذ أقدم الأزمنة التاريخية المعروفة والتي سميت بالموجات السامية تحكماً(٦).

والدم العربي الأصلي ما يزال حياً متمثلاً إلى الآن في جزيرة العرب التي يتصل سكانها بسائر سكان مواطن العرب الأخرى، أي بلاد الشام والعراق ووادي النيل وشمال أفريقية اتصالاً وثيقاً، والتي ظلت وما تزال تمدهم من آن لآخر بحيويتها المستمرة وموجاتها الكبرى والصغرى الدائمة. والتي تتمثل في القبائل الكثيرة المنتشرة في بلاد العراق والشام ووادي النيل وشمال افريقية فضلاً عن جزيرة العرب. وكلما ابتلعت القرى والمدن فريقاً حل محله فريق آخر مما لا يكاد يكون له نظير، وبالنسبة للأمم الأوروبية والأميركية بنوع خاص.

وهذا الوطن العربي الواسع الممتد من الخليج العربي في المشرق إلى البحر الأطلسي المحيط في المغرب، غير منقطع بأي قاطع جنسي آخر.

واللغة العربية اليوم هي نفس اللغة العربية منذ ألف وخمسمائة سنة على الأقل(٧)، في مميزاتها وقواعدها وأساليبها ومفرداتها وأدبها وشعرها وأمثالها، بقطع النظر عن اختلاف اللهجات العامية المحلية التي تتوارى في الكتابة والقراءة والثقافة والتعليم، والتي هي بسبيل

---

(٦) نعني أن هذه التسمية غير قائمة على أساس تاريخي وعلمي وثيق. فهي تسمية حديثة، لا ترتفع إلى أكثر من أواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد(4). ومنبثقة مما ذكره سفر التكوين ـ الذي لا يرتفع إلى أكثر من ألف عام قبل الميلاد على أوسع الفروض ـ من أن سام بن نوح ـ هو أبو بعض الأقوام التي سكنت بعض أنحاء جزيرة العرب، وبلاد الشام والعراق قديماً. وسفر التكوين يذكر اشور وآرام وسبأ ويقطان من جملة أبناء سام، في حين أن الباحثين يعممون التسمية على العرب والعبرانيين والكنعانيين ـ الذين منهم الفينيقيون ـ والكلدانيين والعموريين... الخ، والذي جعلهم يطلقون هذه التسمية تحكماً، أنهم لاحظوا التشارك في اللغة والأقطار والعقائد والأصول الحضارية الأخرى بين الأقوام القديمة التي أطلقوها عليهم. ويقرر كثير من الباحثين أن معظم الذين عمروا بلاد الشام والعراق، بل ووادي النيل وشمال أفريقية قديماً، هم موجات متتابعة خرجت في أزمنة قديمة من جزيرة العرب. والتسمية الصحيحة أو الوجيهة والحالة هذه هي (الأقوام العربية أو الجنس العربي)، لأن طابع العروبة الصريحة على جزيرة العرب، هو الطابع الذي عرف وأطلق في الألف السابق للميلاد واستمر قائماً. ولأن التشارك كان قائماً في اللغة والعقائد بين سكان الجزيرة وسكان هذه الأقطار. انظر مقدمة الجزء الأول من كتابنا: **تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار**، والأجزاء الثاني والثالث والرابع من هذا الكتاب أيضاً.

(٧) هذا مستند إلى اعتبار اللغة القرآنية، التي هي لغة العرب جميعهم اليوم، هي اللغة التي كانت السائدة والمفهومة في جميع أوساط العرب بوجه عام قبل نزول القرآن بمدة ما، فسماها القرآن ﴿ لساناً عربياً مبيناً ﴾ انظر باب «الحياة العقلية» في كتابنا: عصر النبي (صلعم) وبيئته قبل البعثة.

التواري في المخاطبة أيضاً كلما عم التعليم. وهذا كذلك ـ نعني أن تكون لغة العرب في جميع أقطارهم اليوم، نفس لغة العرب قبل ألف وخمسمائة سنة ـ مما لا يكاد يكون له نظير بالنسبة لمعظم أمم الأرض.

وطابع العروبة الصريح باسمها ولغتها وخصائصها قد أخذ يطبع هذا الوطن أصله ومهاجره بلونه منذ قرون عديدة قبل الإسلام، حيث أخذت موجات عربية صريحة قبل الموجة الإسلامية الكبرى تنشىء الدول والمدن والقرى في العراق والشام وسيناء، ومنها دول وممالك عربيي ودومة وقيدار والرها وعيطور والأنباط وتدمر وتنوخ والضجاعمة وغسان ولخم. وحيث أخذت القبائل العربية الصريحة تغدو وتروح في هذه الأرجاء[٨]. ثم استقر خالداً خلود التقديس إلى الآن وإلى ما شاء الله بالموجة الإسلامية العربية الكبرى التي ظلت تتبعها موجات أخرى، انتشرت في مشارق المهاجر العربية ومغاربها من الخليج إلى المحيط، وطبعتها بطابع العروبة الخالد. مما لم يكد يكون له نظير أيضاً.

ولم يكن من شأن ما طرأ على هذا الوطن، وخاصة على مهاجر العرب من أحداث وغزوات غير عربية الجنس مهما كان شأنها من القوة وطول الأمد، أن تغير من معالم هذا الطابع الخالد وخطوطه الأساسية.

ولعل من الأدلة على طبيعة هذا الطابع وقوته، وعلى طبيعة مهاجر العرب، اعني غير جزيرة العرب من مواطن العرب الحاضرة، أو بمعنى آخر على وحدة الدم والخصائص والروح في سكان جزيرة العرب ومواطن الهجرة العربية الطبيعية، أن اليونان والرومان الذين استعمروا بلاد الشام ومصر وشمال أفريقية، وأن الفرس الذين استعمروا بلاد العراق أمداً طويلاً جداً، بعد دولها العربية الجنس، لم يستطيعوا أن يطبعوا هذه الأقطار بطابع خالد يمكن أن يغطي على الطابع العربي الأصلي أو يستأصله. وأن الموجات الإسلامية العربية لم تلبث أن مسحت ما كان من غشاء غير عربي الجنس على الطابع الأصلي رغم بقائه قرابة ألف عام (٣٦٠ ق م ـ ٦٣٠ ب م)، ورغم شمول المسيحية لأهل البلاد ومستعمريها قبل الفتح الإسلامي مدة طويلة. وإن طبعت المهاجر بالطابع العربي الصريح. ولم يلبث السابقون أن اندمجوا وامتزجوا باللاحقين اندماجاً وامتزاجاً تامين روحاً ودماً ومظهراً، خلال مدة قصيرة جداً في عمر الدهر لا تزيد عن مئتي عام. في حين أن هذه الموجات، أي الإسلامية العربية، التي اكتسحت أيضاً بلاداً غير عربية الأصل والدم، كبلاد فارس والترك والأفغان والقفقاس والهند والخزر وأرمينية وبعض حدود الصين وبعض سواحل وأقطار وجزر أوروبا، لم تستطع أن تطبعها طبعاً خالداً إلا بطابعها الديني، ولم يلبث طابعها القومي واللغوي أن توارى عنها، مع إبقائه شيئاً غير قليل من آثاره في لغة أهل البلاد وحضارتهم وعمرانهم.

وهكذا كان شأن تلك المواطن أو المهاجر العربية مع الترك الذين اكتسحوها اكتساحاً

---

(٨) انظر الجزء الخامس من كتابنا: تاريخ الجنس العربي.

واسعاً تسلطاً وهجرة منذ القرن الهجري الثالث، ودام هذا الاكتساح قرابة ألف عام، فإنهم لم يستطيعوا أن يغيروا معالم الطابع العربي فيها مع ما كان من انهدام كيان العرب السياسي، وخمود حرارة الشعور القومي العربي خموداً يكاد يكون تاماً، في حين أن الموجات التركية اكتسحت الأناضول الذي كان مقام ومجال العناصر اليونانية والأرمنية، واستطاعت أن تجعل الطابع التركي فيها قوياً خالداً، مما ينهض كذلك دليلاً قوياً على طبيعة الطابع العربي وأصالته في المهاجر العربية.

هذا إلى ارتكاز القضية العربية إلى وحدة تاريخية ووحدة روحية ووحدة ثقافية ووحدة تشريعية ووحدة اجتماعية ووحدة اقتصادية، اشتملت الوطن العربي الكبير منذ أكثر من ألف عام دون انقطاع حقيقي، بحيث ظل سكانه يعيشون في جو تاريخي وروحي وتشريعي واجتماعي وثقافي ولغوي واقتصادي واحد تقريباً. ولم يكن من شأن ما كان يقوم من مظاهر وسلطات ومنازعات ونزعات متباينة وغزوات خارجية أحياناً أن يخلق تبايناً حقيقياً في ذلك بوجه الإجمال.

وكل هذه خصائص ومميزات في قوة عناصر القضية العربية القومية لا مثيل لها في مجموعها وفي مفرداتها في القضايا القومية الأخرى أو أكثرها كما قلنا. ولا سيما من ناحية الاستمرار والامتداد خلال الأحقاب الطويلة. فوحدة اللغة التامة في كثير من القضايا القومية الأخرى لا ترتفع إلى أكثر من بضعة قرون، بحيث تكاد تكون لغة ما قبل هذه المدة غريبة على إنسال اليوم وسوادهم. ومقطوعة الصلة بين غابرها وحضارها. ووحدة الوطن والميول والتاريخ والدم والمصالح في كثير منها لا ترتفع كذلك إلى أكثر من بضعة قرون أيضاً، بحيث كان في الطابع والميول والتاريخ والمصالح تباين كبير.

ـ ٥ ـ

استدراكات وتعليقات وردود في صدد عناصر القضية العربية(٩)

ومن العجيب أن يكابر بعض الغربيين أو بتعبير أدق الاستعماريون الطامعون في بلاد العرب وثرواتهم ومركزهم وعملاؤهم في هذه الحقائق رغم وضوحها ومتانة بنيانها. وأن يزعموا ويبثوا دعاياتهم المباشرة وغير المباشرة بأن سكان المهاجر العربية ونعني بلاد الشام والعراق ووادي النيل وشمال أفريقية هم خليط من شعوب وأجناس مختلفة. وإنه ليس هناك وحدة تجمعهم يصح أن تُنْعت بالوحدة القومية، مشيرين بذلك إلى الفينيقيين والكنعانيين والسريان والآراميين والأشوريين والبربر الذين كانوا يقطنون هذه البلاد في القديم. وإلى ما طرأ عليها بعد الإسلام من طرّاء مختلفي الأجناس من شرقيين وغربيين، مقررين أن سكانها إنما هم من أنسال هؤلاء وأولئك في الدرجة الأولى، ومشيرين بذلك أيضاً إلى ما يوجد في هذه البلاد اليوم من كتل

---

(٩) هذه النبذة من الطبعة الأولى، مع شيء من التوسع والتعديل.

مختلفة في الجنسيات والأديان والمذاهب، وأن يؤخذ بعض العرب بهذه المزاعم والدعايات الزائفة، مما كان من مظاهره دعاوى الفينيقية والسريانية والفرعونية والبربرية والأشورية التي أثيرت في لبنان ومصر والشام والعراق من قبل المأجورين والمخدوعين. كأن الوحدة اللغوية والتاريخية والروحية والاجتماعية والتشريعية والثقافية التي تشمل الآن سبعة وتسعين في المئة على الأقل من سكان الوطن العربي الكبير، والتي تمتد في القدم إلى أكثر من ألف عام على الأقل، لا تكفي بصرف النظر عن أي شيء آخر لصفة الوحدة القومية، مع أن نصف هذه المدة أو ثلثها كفى في نظر هؤلاء المكابرين والمأجورين والمخدوعين والمستعمرين لصفة مثل هذه الصفة في البلاد الأجنبية، وبخاصة في البلاد الأوروبية والأميركية.

ولقد تجاهل هؤلاء ما قررناه وقرره كثير من الباحثين، من أن سكان هذه البلاد القدماء ليسوا إلا موجات[5] من جزيرة العرب، أي عربية الجنس. وان الزيف في دعواهم ظاهر. وأنها لا تؤدي إلا إلى عكس المقصود منها حينما تسلط عليها أشعة الحقيقة ـ وهذا ما حصل وأخذ يحصل ويقوى ـ حيث يبدو أنها تخدم تقرير حقيقة عراقة العروبة وطابعها أكثر مما تحاربها وتنقضها. لأن الفينيقية والكنعانية والفرعونية والأشورية والسريانية والآرامية بل والبربرية في قول غير واحد من القائلين عربية الجنس، أي من موجات جزيرة العرب القديمة.

على أن هناك حقائق مهمة أخرى غفلوا أو تغافلوا عنها. فهم يتوهمون أو يوهمون أن أهل هذه البلاد الذين هم من أنسال الفينيقيين والكنعانيين والسريانيين والآراميين والأشوريين والكلدانيين والعموريين والمصريين والسودانيين والبربر القدماء ظلوا وحدهم يقطنون البلاد. وكل ما صار من أمرهم اعتناق أكثريتهم الكبرى الإسلام واستعرابهم وكل ما كان من أمر العرب المسلمين الذين قدموا من جزيرة العرب أنهم فتحوا بلادهم ووطدوا عليها سلطانهم. وأنهم والحالة هذه غزاة كسائر الغزاة كما يحلو لبعضهم أن يقول كذباً وتخرصاً.

فمن جهة، إن العرب الصرحاء قبل الإسلام تدفقوا على كثير من أنحاء هذه البلاد استمراراً لما كان يحدث قبل العروبة الصريحة، وبخاصة مختلف أنحاء بلاد الشام وجزيرة الفرات والعراق، وكان لهم فيها دول وإمارات، وعاشوا إلى جانب الأنسال القدماء وأثروا فيهم وتأثروا بهم سياسياً واجتماعياً وثقافياً على ما أشرنا إليه بإيجاز في نبذة سابقة. ومن جهة، إن الموجات العربية بعد الإسلام ظلت تتدفق من جزيرة العرب على جميع هذه الأنحاء بما فيها هذه المرة وادي النيل وشمال أفريقية، وتتوطن فيها حتى يمكن أن يقال إن عدد القادمين الجدد يفوق عدد أنسال أولئك القدماء. وانهم ملأوا المدن والريف والبوادي. وإن عملية الاستعراب إنما تمت بنجاح وسعة نتيجة لذلك. ولم يعد القول إن أهل البلاد كانوا وظلوا في دمائهم فينيقيين وكنعانيين وآراميين وسريانيين وأشوريين وكلدانيين وبابليين وحمورابيين ومصريين إلخ وارداً ولا صادقاً. وهذه حقيقة كبرى شواهدها قائمة ماثلة في كل بلد وانساب في كل بقعة ومدينة وقرية وبادية في مختلف أنحاء بلاد الشام ووادي النيل والعراق وشمال أفريقية.

ولقد تجاهلوا كذلك أن اختلاف المذاهب الدينية ليس من شأنه أن يكون ذا أثر في الصفة

القومية في الحقيقة. وإن هذا ليس خاصاً بالبلاد العربية وسكانها وليس جديداً في هذه البلاد، حيث كان أبناء الجنس العربي في جزيرة العرب ومهاجر العرب يعتنقون أدياناً ومذاهب مختلفة، ويعيشون مع بعضهم جنباً إلى جنب. وحيث كانت هذه الظاهرة تقوم في معظم بلاد الدنيا. ومع ذلك فإن أكثرية العرب العظمى في أنحاء الوطن العربي الكبير على دين واحد تقوم عليه وحدتهم التامة. وليس من شأن وجود فريق من العرب على غير دين هذه الأكثرية أن يخل بهذه الوحدة، ولا سيما أنهم جميعاً يستظلون بكتب الله ورسله. والأكثرية العظمى منهم بخاصة يعترفون ويحترمون كتب الأقلية وأنبيائهم ديناً وإيماناً. وهم مأمورون ديناً وإيماناً بالاعتراف بحق كل امرىء بالاحتفاظ بدينه وبعدم إكراه أحد على دينهم، وبحسن التعايش والتواصل والتعامل مع غيرهم من أبناء الأديان الأخرى الذين يعيشون معهم بسلام ومودة، ويكفون عنهم أيديهم وألسنتهم ولا يظاهرون أعداءهم عليهم.

أما الطراء الشرقيون والغربيون الذين طرأوا على البلاد العربية بعد الإسلام قديماً وحديثاً، فنقول في صددهم إن القديمين منهم قد امتزجوا بالدم العربي والبيئة العربية وانطبعوا بالطابع العربي. ومرت عليهم أحقاب طويلة. وليس لهم لغة غير اللغة العربية. ووطن غير الوطن العربي. وقد وحدت أحداث التاريخ وأحقاب الزمن بينهم وبين العرب الأصليين، ممن جاؤوا بالموجات الإسلامية أو قبلها. فمن الطبيعي جداً أن يصبحوا عرباً تاريخياً وقومياً، وإن لم يكونوا عرباً جنساً ودماً. وهذه الظاهرة قائمة في جميع البيئات القومية الأخرى. بل إن أكثر هذه البيئات إنما يقوم عليها من جهة. ولعلها في القومية العربية أقوى منها في غيرها أو من أكثر هذا الغير بسبب امتداد الزمن من جهة أخرى.

والحديثون الذين لا يحتفظون بطابع أو لغة أعجمية خاصة، وليس لهم غير العربية لغة، وليس لهم صلة ما بوطن أو دولة غير الموطن العربي والدولة العربية، يجري عليهم القول السابق نفسه بطبيعة الحال.

أما الحديثون الذين لا يزالون يحتفظون بطابعهم ولغتهم الأعجمية الخاصة فهم أقسام. منهم الذين لا يزالون متصلين بمواطنهم ودولهم. فهؤلاء يعتبرون نزلاء. ومثلهم موجود في كل مكان. وليس من شأن وجودهم أن يناقض النظرية القومية بوجه عام. هذا عدا كونهم لا يكادون يتجاوزون واحداً من خمسمائة من مجموع العرب في سائر أنحاء الوطن العربي بعد أن تم جلاء معظم المستعمرين الافرنسيين عن شمال أفريقية، وبعد أن نالت دول المغرب والجزائر وتونس استقلالها. ومنهم من انقطعت صلته بموطنه ودولته الأصلية أو لم يعد له موطن أو دولة. ومن أهمهم كتلة الأكراد[6] في الأنحاء الشمالية من العراق والشام. وهم متحدون مع الأكثرية العربية الساحقة في الدين الإسلامي. وقد ارتبطت مقدراتهم بالأمة العربية ارتباطاً وثيقاً، فأصبحوا والعرب بمثابة واحدة. وكثير منهم استعربوا أو هم بسبيل ذلك، وعددهم في القطرين، وإن كان يبدو بارزاً فإن نسبته إلى مجموع العرب تتضاءل حتى تصبح نصفاً في المئة. ومنهم الشراكسة[7] في بلاد الشام. وهم قلة ضئيلة طارئة من جهة، ومتحدة بالدين مع الأكثرية العربية العظمى

وممتزجة معها من جهة أخرى. وقد أخذت تستعرب، ولسوف يتم استعرابها وتغدو جزءاً من الأمة العربية الإسلامية عاجلاً أو آجلاً أسوة بأمثالهم السابقين. ومنهم الأرمن[8] في بلاد الشام ـ سورية ولبنان بخاصة ـ وهم منبثون في أنحائها المختلفة وغير متكتلين، وممتزجون مع العرب، وقد أخذوا بدورهم يستعربون. ولسوف يتم استعرابهم ويغدون جزءاً من الأمة العربية عاجلاً أو آجلاً كذلك. ومنهم البربر[9] في بلاد المغرب (تونس والجزائر والمغرب الأقصى)، فهؤلاء فضلاً عما هناك من نظرية مستندة إلى علم اللغات والخصائص الجنسية ترجح أنهم يمتون في أصلهم إلى جزيرة العرب، وأنهم إحدى موجاتها في عصور التاريخ القديم كالأثيوبيين والنبطيين والآشوريين والكنعانيين والكلدانيين والآراميين، فهم مسلمون منذ أكثر من ألف عام. وممتزجون بالعرب وبالقبائل العربية منذ القرون الطويلة. وقد استعرب كثير منهم واندمجوا في العروبة، والباقون بسبيل ذلك عاجلاً أو آجلاً بحيث يمكن أن يعدوا والعرب بمثابة واحدة. وفي السودان طوائف من الزنوج يؤلفون كتلة غير قليلة بخاصة في الجنوب[10]. ولكن ذلك ليس من شأنه الإخلال بعروبة السودان، وكونه مهجراً طبيعياً لموجات الجزيرة العربية منذ أقدم الأزمنة، ولا بكون العروبة فيه هي الطابع المميز له أو لأكثر أنحائه ولا سيما الشمالية.

بقي اليهود في فلسطين الذين حلوا فيها وحاولوا قلع أهلها منها بقوة الحديد والنار ومساعدة المستعمرين. فمهما وصلوا إليه من عدد ومظهر سياسي وقومي خاص، فإنه ليس من شأنه أن يخل بمدى عروبة الوطن العربي الكبير الذي ليس عددهم والجزء الصغير الذين يتكثفون فيه منه إلا شيئاً ضئيلاً جداً بالنسبة لمساحة وسكان هذا الوطن. كما أن تنبه العرب لخطرهم في مظهرهم الجديد ومطامعهم وأخلاقهم وتركزهم في مركز خطير، هو همزة الوصل بين البلاد العربية الآسيوية والافريقية، وغدوهم فاصلاً جنسياً وجغرافياً بينها سيكون باعثاً لهم، وهم محدقون بهم من كل ناحية، على الاستمرار في النضال ضدهم وتضييق الخناق عليهم إلى أن يقضوا على هذا المظهر الجديد الغريب، ويوطدوا الصبغة القومية للجزء العزيز الذي تكثفوا فيه ويعيدوا إليه مهمته التاريخية، وهي كونه همزة الوصل بين البلاد العربية في آسيا وأفريقية. وفي الشواهد التاريخية ما يجعل هذا الأمل حقيقاً بالتحقيق عاجلاً أو آجلاً[١٠].

---

(١٠) هذه النبذة كتبت في مسودة الكتاب عام ١٩٤٣، وأبقيت على حالها حين طبع لأول مرة سنة ١٩٥١، وقد رأينا ابقاءها على حالها في هذه الطبعة أيضاً. وليس من شأن ما تم بعد كتابتها من قيام الدولة اليهودية في قسم من فلسطين، ثم احتلال اليهود باقيها أن يغير الصورة. ولقد تم لهم ما تم، بمساعدة طواغيت الاستعمار ليكونوا لهم ركيزة في بلاد العرب. وليس لدولتهم مقومات ذاتية من أرض وسكان وموارد تسمح لهم بالبقاء والنمو والصمود في الخضم العربي العظيم المحدق بها والمعادي لهم. وهو في حاجة مستمرة إلى مساعدة خارجية في كل شيء، مما لا يمكن أن يكون مضموناً إلى ما شاء الله ومما هو معرض للانقطاع دائماً. ومنذ قيامها وهي تعاني الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بسبب تركيبها المعقد المتمثل في تباين الأجناس واللغات والألوان والتقاليد والعادات والأهواء. وبسبب ضعف مواردها، وإحاطة العرب بها من كل جانب، ونضالهم ضدها بكل قوة وبدون كلل. واحكامهم خانوق المقاطعة على عنقها. وابائهم أشد الإباء قبول واقعها، وتصميمهم أشد التصميم على تقويضها. لأنهم يرونها خطراً على وجودهم. وفاصلاً بين بلادهم الآسيوية والافريقية، ومعرقلاً لآمالهم في الوحدة =

- ٦ -

استطراد إلى اليهود واليهودية

هذا الاستطراد كتب في الطبعة الأولى كتمحيص جدلي علمي لما يطرحه اليهود في صدد أصلهم السامي[11]، وما جاء في كتبهم من وعود ربانية مزعومة بفلسطين، وعلاقتهم بفلسطين قديماً. وقد رأينا إبقاءه في هذه الطبعة أيضاً. لأن هذا مما يظلون يطرحونه، ويحاولون اسباغ صفة من علم ودين سماوي وتاريخ عليه.

فقد كانوا وما يزالون يسوقون في دعاياتهم زعم أصلهم (السامي)، وكون فلسطين هي الإرث الأبدي الذي وعدهم الله به على لسان أجدادهم القدماء أنبياء الله إبراهيم وإسحق ويعقوب. وإنهم قد حلوا فيها قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة وأقاموا فيها أكثر من ثلاثة آلاف سنة، وتميزت فيها شخصيتهم وصار لهم فيها دول وأمجاد، وظلوا بعد تشردهم عنها مرتبطين بها روحاً وديناً، واحتفظوا باللغة العبرانية لغة أجدادهم، فهم غير طارئين وإنما هم عائدون إلى وطنهم الذي عاشوا فيه آلاف السنين، ووعدهم الله به إرثاً أبدياً، وانهم والعرب بنو عم من أرومة واحدة ودم واحد وشركاء في وطن واحد.

وقد أخذ البعض بهذا القول، ووجدوا وبالأحرى وهموا أنه يوجد في قضية اليهود مشكلة علمية أو تاريخية أو قومية في مجال النظرية القومية العربية وشمولها أولاً. وفي مجال ما إذا كان يصح علمياً للعرب أن ينكروا هذه القرابة ويتنكروا لها ثانياً. وما إذا كان للعرب من الوجهة

= والازدهار والتكامل، فضلاً عن ما يعتمل في صدورهم من حقد شديد وغيظ عميق، بسبب ما كان من اليهود وطواغيت الاستعمار الذين ناصروهم من عدوان مستمر على بلادهم، وافعال بربرية رهيبة في أهل فلسطين، واستيلائهم على أموالهم وأملاكهم، وانتهاك حرماتهم ومقدساتهم، وإيقاع أنواع الأذى والإهانات والقسوة عليهم، وتشريدهم عن وطنهم الذي عاشوا فيه القرون الطويلة جداً. ولقد اشتد تصميمهم وشعورهم أكثر، بعد عدوانهم الغادر في ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧، واحتلالهم بقية فلسطين وأجزاء من مصر وسورية والأردن، واظهارهم مطامعهم الرهيبة. وتكرارهم ما فعلوه قبل من تدمير ونهب وتشريد وقسوة بالغة. حتى اشتد يقين العرب في كل أقطارهم، أكثر من ذي قبل، بأن لا إيمان ولا سلامة ولا استقلال ولا وحدة ولا ازدهار ولا تكامل لهم، إلا بإزالة هذه الدولة الباغية والجسم الغريب الخبيث، وحتى صار ذلك الشغل الشاغل الأقوى والأعظم لهم. وقد تفجرت ثورة أهل فلسطين عبر ذلك، وانضوى فيها الآلاف المؤلفة الذين يبدون من البطولات، وينزلون من الضربات ما أثار الرعب والفزع في نفوس الأعداء، وما يتيسر بأعظم الآمال إلى جانب ما تحشده الحكومات العربية من طاقات وجهود عسكرية وغير عسكرية. ولسوف يستمر ذلك كله ويشتد إلى أن يحقق هدفه، وتعود إلى فلسطين صبغتها القومية، ومهمتها الجغرافية، التي هي وصل بلاد العرب الآسيوية ببلاد العرب الافريقية، مهما طال الزمن، وعظمت التضحيات. والتاريخ والجغرافية والطبيعة والحق والعدل والمنطق والحقائق والطاقات البشرية والمادية، مع العرب على طول الخط، وضد حركة اليهود ومزاعمهم على طول الخط أيضاً. ولا بد من أن ينتصر العرب مهما كان الزمن، ومهما لقي اليهود من تأييد الاستعمار. وشواهد التاريخ في فلسطين وغير فلسطين قوية التأييد لذلك. ولقد أخذ الحق العربي والبغي والباطل اليهودي يتضحان يوماً بعد يوم للعالم، وأخذ هذا الحق يلقى التأييد والتفهم الصحيح. وهذا ما سوف يساعد على تقريب أمد تحقيق ذلك الهدف، وتصحيح الخطيئة المجرمة التي يرتكبها اليهود وأنصارهم.

القومية الجنسية أن يعتزوا أو لا يعتزوا بالأمجاد العبرانية، كما يعتزون بالأمجاد البابلية والآشورية والفينيقية والكنعانية والآرامية والسبئية والمعينية إلخ ثالثاً. أما نحن فلا نرى في ذلك مشكلة من أية جهة. ولسنا نرى في دعوى اليهود الحديثين إلا الزيف. فإذا كان العبرانيون من إحدى موجات جزيرة العرب، أو حسب تعبيرنا ينتمون إلى الجنس العربي، فقد كان كذلك الذين قبلهم في فلسطين وهم الكنعانيون والعموريون على اختلاف تسميات قبائلهم. كما كان كذلك الذين كانوا يسكنون غير فلسطين من المهاجر العربية الأخرى. وقد اكتسحت المسيحية كثيراً من العبرانيين وغير العبرانيين من بقايا الموجات الأولى في فلسطين والمهاجر العربية الأخرى فاعتنقوها. ثم أخذ المستقرون من هذه الموجات يندمجون في الموجات العربية الصريحة قبل الإسلام وبعده. وقد طبعت هذه الموجات الوطن العربي بالطابع العربي الصريح الخالد. ولم يبق عبرانيون في ناحية من أنحاء هذا الوطن محتفظون بلون خاص ولغة خاصة منذ الأحقاب الطويلة، حتى يمكن أن يكون في وجودهم مشكلة تقف في سبيل صحة شمول النظرية القومية العربية الصريحة للوطن العربي. أو في سبيل قيام شيء اسمه عبراني سامي ازاء ما يسمى عربياً سامياً. والطائفة السامرية التي تزعم ذلك والمتوطنة في نابلس ليست عبرانية الأصل، أي ليست من العبرانيين الذين حلوا في فلسطين قبل هجرتهم إلى مصر وبعد خروجهم من مصر في الألف الثاني قبل الميلاد. وإنما هم من أشوريي العراق الذين أحضرهم ملوك آشور حينما قوضوا دولة إسرائيل من معظم أراضي فلسطين في القرن السابع قبل الميلاد، على ما يرجحه ثقاة المؤرخين، على أنهم مستعربون منذ الآماد الطويلة، وكل أمرهم أنهم يدينون بالديانة الموسوية، وقد تضاءل عددهم حتى صار الآن لا يزيد على مئات قليلة. وإذا كان التاريخ قيد أن بعض شراذم اليهود العبرانيين قد جلوا عن فلسطين، فإن هذه الحادثة ترجع إلى نحو ألفي عام. ولا يعقل أن يكون الجالون كتلاً كبيرة. والمرجح أنهم لم يكونوا ليزيد مجموعهم على بضع عشرات من الألوف. وقد تشتتوا في أنحاء الأرض منذ ذلك التاريخ البعيد، واختلطت دماؤهم بدماء الأمم الكثيرة التي عاشوا بينها. فلم يبقوا أولئك اليهود الجالون إلا بالاسم والدعوى. هذا إلى كون التسمية اليهودية أعم من التسمية العبرانية. وليس مما يمكن التسليم به علمياً أن اليهود الجالين هم من كان من دم عبراني أو على الأقل من دم عبراني فقط، فضلاً عن أنه من الثابت علمياً وتاريخياً أن كتلاً كبيرة برمتها من أصل آري في آسيا وأوروبا اتخذت اليهودية ديناً، بحيث يصح أن يقال إن أكثر اليهود من أنسال هذه الكتل. وإن الدم العبراني الذي كان في الجالين الأولين قد اندثر أو كاد. وإن قصارى ما في الأمر أن الدين هو الطابع المخصص للكتل التي تعتنق اليهودية والتي تمت بدمائها وأصولها إلى مختلف الجنسيات. شأنها في ذلك شأن الأديان الكبرى العامة التي يجتمع تحت لوائها كتل مختلفة الأصول والجنسيات: وليس من شأن هذا وحده، ولم يكن من شأنه في وقت ما، ان يسبغ على أصحابه صفة قومية مميزة.

وبقاء اليهود في كل مكان وجدوا فيه كتلاً منطوية على نفسها في مساكنها ومعايشها وأخلاقها وعاداتها وأزيائها، ومعرضة للاضطهاد والاحتقار، ليس من شأنه أن يعضد دعوى الدم العبراني الخالص فيهم أو دعوى أصلهم السامي. وإنما هو متصل بوجودهم بين الكثرة الدينية

الأخرى التي يقوم العداء الطبيعي الديني والاجتماعي بينها وبينهم، ونتيجة من نتائجه، ومظهر من مظاهر حياة الأقلية الدينية والمذهبية وسط الكثرة الدينية الأخرى في القرون الوسطى، وما تفرضه هذه الحياة. وهذا فضلاً عن خصوصية تميز العلاقة بين اليهود وغيرهم عامة والنصارى سكان معظم المناطق التي حلوا فيها خاصة، من حيث إن اليهود والنصارى كانوا منذ أقدم الأزمنة وظلوا يتبادلون شدة الحقد والعداء، بسبب ما كان من مواقف اليهود من المسيح وأمه عليهما السلام ومن خلفائه وأتباعه. والسبب جبلة اليهود الخاصة المتمثلة في الشره الشديد لامتصاص دم غيرهم والكيد لهم، واعتبار أنفسهم شعب الله المختار الذي أباح لهم كل ما كان في أيدي الغير وجعلهم عبيداً لهم. وحرصهم الشديد على عدم الانـدماج مـع غيرهم، وعـدم الولاء والاخلاص والوفاء لغيرهم.

وزعمهم أنهم كانوا وظلوا يتطلعون إلى فلسطين والعودة إليها وإنهم مرتبطون بها روحياً ودينياً، هو متأثر بالأسفار التي كـانت بين أيديهم من جهـة، وبوضعهم الخـاص الاجتماعي والسياسي المذكور آنفاً في المواطن التي هم فيها من جهة أخرى وحسب.

وزعمهم أنهم احتفظوا باللغة العبرانية غير صادق إلا بالنسبة لأفراد قلائل دينيين وعلماء متخصصين وحسب. وبسبب كون أسفارهم الدينية مكتوبة بها بالدرجة الأولى. أما جمهورهم الأعظم فإن هذه اللغة ليست لغتهم. ولغاتهم هي لغات البلاد التي نشأوا وعاشوا فيهـا على اختلاف أنواعها ولهجاتها. ومع شدة الجهود التي بذلتها وتبذلها دولتهم في فلسطين، فإنها لم تصبح لغة الجمهور اليهودي الذي حشد فيها والذي لا يمثل مع ذلك إلا ٢٠٪ من مجموع عدد اليهود في الدنيا. وما يزال عدد عظيم من هذا الحشد لا يجيدها، ويتكلم لغاته التي جاء بها من البلاد التي كان فيها.

وليس في كل مزاعم اليهود، والحالة هذه، ما يمكن أن يستند إليه بشيء من التمسك من منطق وعلم وواقع، سواء أفي تقرير الأصل السامي العبراني لليهود منذ القرون الوسطى، أم في تقرير القرابة بينهم وبين العرب، أم في صحة دعوى الحق المزعوم بالعودة إلى فلسطين.

ويستند اليهود في هذا الحق المزعوم إلى سند نقلي وآخر تاريخي. والسند النقلي هو ما ورد في سفر التكوين أول أسفـار العهد القـديم من وعود ربـانية لأنبيـاء الله إبراهيم وإسحق ويعقوب، بجعل أرض كنعان إرثاً أبدياً لهم ولنسلهم، وليس على هذا السفر أية دلالة على أنه من كتب الله الموحى بها إلى أنبيائه، ولا على أنه من املاء موسى أو كتب في حياته. وفيه دلائل وقرائن كثيرة على أنه كتب بعد موسى بمدة ما بأقلام وأزمنة مختلفة، واحتوى أساطير وذكريات وروايـات عن عهود سـابقة لكتـابته بمئـات السنين بل ألـوفها، وشيت بـالخيال والمفـارقات والمبالغات. وعزي فيها إلى الله ورسوله ما يتنزهون عنه. وتأثرت بالأحداث التي وقعت لبني إسرائيل، حينما طرأوا على فلسطين بعد خروجهم من مصر وإقامتهم فيها ردحاً من الزمن في القرن الثاني عشر قبل الميلاد وبعده. والصنعة على الوعود بارزة. فقد سجل كاتبو السفر الوعود من الله لابراهيم بصيغ متباينة أولاً. ثم استدركوا فحصروا ارث هذه الوعود في ابنه إسحق لأنه

الجد الثاني بعد إبراهيم لبني إسرائيل، وأخرجوا من الآيات إسماعيل ابن إبراهيم البكر وأبناء له آخرين. ثم استدركوا ثانية فحصروا ارث هذه الوعود في ابن إسحق الثاني يعقوب لأنه الجد الثالث بعد إبراهيم وإسحق لبني إسرائيل، وأخرجوا من الإرث عيسو ابن إسحق الأول. حيث يبدو من هذا أن سندهم النقلي مزور ومصنوع. ودليل من الدلائل الكثيرة على ذلك تزويرهم في قصة نوح وأولاده الوارد في الإصحاح من السفر، حيث سجلوا فيه لعنة نوح على كنعان لأن أباه حام رأى عورة ابنه في حين أن حاماً كان صبياً، ولم يكن كنعان قد ولد ولم يكن ولده الوحيد بل رابع أبنائه، حيث يفيد هذا أن العداء الذي نشب بين بني إسرائيل والكنعانيين في فلسطين فيما طرأ الأولون عليها هو الذي أوحى بهذا التزوير.

واليهود يوهمون المسلمين بأن القرآن أيد هذا السند، حيث ذكر أن الله كتب الأرض المقدسة لبني إسرائيل. ونص القرآن هو تسجيل لواقع ولوقت محدد سبق وانقضى. ولم يعد قائماً بنص القرآن الذي سجل على بني إسرائيل حرمانهم ثم اللعنة والمسكنة والغضب والذلة والشتات في الأرض.

أما سندهم التاريخي فهو أن بني إسرائيل قد جاؤوا من مصر إلى فلسطين واحتلوها وأقاموا دولة لهم فيها، واستمر مقامهم فيها بصور مختلفة أكثر من ألف سنة. وكان ذلك بحافز من وعود الله لهم وتنفيذاً لها. والحافز والتنفيذ غير واردين لأن تلك الوعود كما قلنا مصنوعة مزورة. ولقد أقاموا حقاً في فلسطين. ولكن معظم مدة اقامتهم فيها كانت إقامة مضطربة أشد الاضطراب سياسياً واجتماعياً ودينياً وأخلاقياً، ثم تشردوا عنها في الأرض منذ ألفي سنة ولم يعد لهم فيها قائمة. ومنذئذ أخذت تصطبغ بالصفة العربية الصريحة، ثم دخلت في حوزة السلطان العربي الإسلامي واستمر ذلك إلى اليوم.

وزعم جماعات من الناس من مختلف الدماء والأجناس واللغات والبيئات لا يجمع بينها إلا الدين اليهودي والحياة اليهودية المنعزلة بحق العودة إلى فلسطين، لأن ديانتها نفس ديانة أمة قديمة سكنت فيها ردحاً من الزمن، قبل ألفي سنة، ثم تشردت عنها وباد عرقها ودمها أو كاد. وقام في هذا البلد أمة ثانية لها كل خصائص الأمة، وصار لها فيها أمجاد وتاريخ مديد مستمر غير منقطع إلى اليوم من السخف والتهافت في الذروة.

فالوصف الصحيح لليهود اليوم بالنسبة لفلسطين وللعرب، هو أنهم غزاة وطُرّاء غريبون متميزون عن الجنس العربي في اللغة والدم والثقافة والعادات. محشودون من مختلف أنحاء الأرض، ومتنوعون في اللغات والدماء والأجناس. ومدفوعون بخيالات وأوهام من ناحية، وبيد الاستعمار من ناحية ثانية. ودعواهم لا ترتكز إلى منطق صحيح في أية نقطة من نقاطها. والوصف الصحيح للقضية اليهودية، هو أن بعض سياسيي اليهود ومتنوريهم تأثروا باضطهاد اليهود المديد الذي اشترك فيه جميع أمم الأرض التي حل بينها اليهود. والذي كان الباعث الحقيقي له جبلة اليهود وعزلتهم، وعدم اندماجهم في أممهم التي نشأوا فيها، وعدم إخلاصهم لها، ومحاولتهم استغلالها دون أي مقابل تأثراً بوحي اسفارهم ونحلتهم الدينية. وتأثروا كذلك

بالفكرة القومية التي اجتاحت أوروبا، واتخذوا ما لفلسطين في التاريخ اليهودي القديم من ذكريات دينية وسياسية وسيلة للدعاية والدعوة إلى فكرتهم التي سموها بالصهيونية اقتباساً من اسم هضبة في القدس، أنشأ داود عليها بيتاً له حينما صار ملكاً لليهود في القرن العاشر قبل الميلاد. والوصف الصحيح لليهودية، هي أنها نحلة دينية، يجتمع فيها مختلف الأجناس. وليست صفة شعبية أو قومية مطلقاً.

أما اعتزاز العربي بالأمجاد العبرانية القديمة، ويدخل فيها أمجاد موسى وداود وسليمان وعيسى وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل وملوكهم وعظمائهم، فلا نرى بناء على ما قدمنا تناقضاً بينه وبين إنكار جنسية اليهود اليوم، واعتبارها منقطعة الصلة بالأصل والدم العبراني وبالأصل أو الدم الغربي القديم. فمن حقه أن يعتز بصاحبي الديانتين اليهودية والنصرانية وتوراتهما وانجيلهما كل الاعتزاز. ومن حقه أن يعتز بأمجاد داود وسليمان الدنيوية والسياسية والعمرانية، وبما أتى به أنبياء العبرانيين من حكم وغذاء روحي، على اعتبار أن هؤلاء متصلون بأرومة واحدة مع العرب، ونابعون من منبع واحد. والمسلمون العرب الذين هم أكثرية العرب الساحقة مدعوون إلى هذا دينياً في نفس الوقت. وشأن العربي في هذا شأنه من الاعتزاز بالأمجاد الفينيقية والبابلية والأشورية والآرامية والكنعانية والكلدانية والمصرية والسبئية والمعينية والحميرية إلخ التي يتصل أصحابها بالعرب في أرومة واحدة. وينبعون وإياهم من نبع واحد.

وبعض العرب ينظرون بشيء من الازورار إلى سلك العبرانيين وبني إسرائيل في سلك الجنس العربي، بسبب ما قام بين العرب واليهود في التاريخ الحديث من عداء وصدام، ناتجين عن عدوان اليهود على فلسطين وأهلها بمساندة الاستعماريين الطغاة. غير أن هذا ليس في محله من الوجهة العلمية. فالعبرانيون وبنو إسرائيل المتفرعون عنهم هم من أرومات الجنس العربي، سواء أكانوا قبيلاً خاصاً أم من الأموريين أو الآراميين أو الكلدانيين على ما يجمع عليه الباحثون، مع فارق واحد هو أنهم يسمون هذه الأقوام مع الجنس العربي بالساميين في حين نسميها نحن بالجنس العربي. وهو ما ترجح عندنا نتيجة البحث والتمحيص. ومن واجب المؤرخ أن يذكر ما يثبت له من حقائق بقطع النظر عن أي اعتبار.

على أن الحق يوجب علينا أن ننبه على أنه لا يعقل أن يكون الجنس العربي شاذاً عن البشر ليكون كله صالحاً. ففيه الصالح والطالح، وفيه العادل والظالم، وفيه المستقيم والمنحرف. ومنه أنبياء الله، ومنه العريقون في الكفر والإجرام مما هو بديهي لا يحتمل مراء. مع القول إن القبيل الاسرائيلي قد جاء شاذاً حيث كان في مختلف سيرته المعروفة منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، من أسوأ ما يكون قسوة وظلماً وعدواناً وحقداً وشرهاً وانحرافاً عن محاسن الأخلاق الدينية والاجتماعية، إلا قليلاً على ما يبدو من خلال تاريخهم نتيجة للعقد النفسية التي تأصلت فيهم، والتي جعلتهم يشعرون بالانفصال والانقطاع والتعالي عن غيرهم، ولا يندمجون معهم، ويحيكون لهم الدسائس، ويبيتون المطامع، ويشرهون إلى ما في أيديهم، ويستحلون أموالهم ودماءهم بغياً وعدواناً، وبدون تورع ولا حرج ولا سابق استفزاز وعداء، حتى صاروا أسوأ قبيل بشري. وقد انتقلت هذه السوءات إلى المتدينين بالدين اليهودي من الأمم

الأخرى، لأنهم عاشوا في الجو الديني والاسفاري والتاريخي الذي تأصلت كل هذه العقد في بني إسرائيل القدماء بتأثيره. فصاروا بدورهم أسوأ قبيل بشري في الحديث مثل أسلافهم في القديم. وحتى صاروا قديماً وحديثاً الوحيدين الذين سجل التاريخ صراعاً مستمراً بينهم، وبين سائر البشر على اختلاف الأجناس والمستويات والعصور والأمكنة. مما فيه دليل قاطع على جبلتهم وأخلاقهم التي كانوا وظلوا منفردين بها، جعلتهم يعتبرون جميع الناس دونهم غرباء وأعداء لهم، وجعلت جميع الناس بالمقابلة يعتبرونهم غرباء عنهم وأعداء لهم ويعاملونهم على هذا الاعتبار، ويبعدونهم عنهم أو يستأصلونهم للتخلص منهم في مختلف العصور والأمكنة.

ويجب أن نذكر من جهة أخرى أن دعوى قرابة اليهود الحديثين للعرب دعوى زائفة، على ما شرحناه قبل، بحيث يصبح الازورار من سلك العبرانيين وبني إسرائيل القدماء في سلك الجنس العربي لا موجب له.

- ٧ -

تعقيب عام

ويظهر من كل ما تقدم، أن عناصر القضية العربية متوفرة في الوطن العربي الكبير الممتد من الخليج إلى المحيط، أقوى مما هي متوفرة في أية قضية قومية. وان الموجات العربية الصريحة قبل الإسلام وبعده التي أخذت تتدفق من الجزيرة على الأقطار المجاورة لها استمراراً لما كان منذ أقدم الأزمنة، أخذت تصبغ هذه الأقطار بالصبغة العربية الصريحة قبل الميلاد المسيحي، واستمرت إلى أن صارت هذه الصبغة عامة لجميع الوطن العربي الكبير في المشرق والمغرب. واندمج معظم أهل هذا الوطن بالدين الإسلامي الذي جاءت به الموجة العربية الإسلامية الكبرى الأولى وما بعدها. وإن الذين شاؤوا منهم الاحتفاظ بدينهم القديم، قد اندمجوا في الصبغة العربية الصريحة وصاروا جزءاً من العروبة. وإن الطراء على الوطن العربي بعد الإسلام قديماً وحديثاً الذين استعربوا صاروا في حكم العربي في العرف الاجتماعي الحاضر. وإن المسلمين منهم الذين لم يستعربوا مندمجون مع الأكثرية العربية العظمى بوحدة الدين. وهم في مثابتهم فضلاً عن أنهم لا يكادون يبلغون نسبة الاثنين في المئة. ومآل أكثرهم الاستعراب. وان غير المستقرين الذين لم يستعربوا لا يكادون يبلغون نسبة الواحد في المئة ومآل أكثرهم الاستعراب. وان غير المستقرين من هؤلاء لا يكادون يزيدون عن النصف في المئة وهم نزلاء عابرون. وان ليس من شأن هذا أن ينقض شمول القومية العربية لجميع أنحاء الوطن العربي الكبير وان الفكرة العربية القومية ليست طارئة. وان لها أصولاً وشواهد في التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده. وكل ما في الأمر أنها همدت ردحاً من الزمن تحت سلطان المتغلبين المسلمين من غير العرب على بلاد العرب، حتى صار يصح أن توصف بالحركة العربية الحديثة. مع التنبيه على أن الصبغة العربية ظلت أثناء ذلك هي الصبغة الغالبة العامة في كل ناحية من أنحاء الوطن العربي الكبير، ولم يكن من شأن تغلب غير المسلمين أن يؤثر فيها شيئاً ما. ومع التنبه كذلك على أن المسرح السياسي لم يخل من مظهر سلطان عربي بصورة ما، في

أي ناحية من أنحاء هذا الوطن أيضاً أثناء ذلك التغلب. وإن مظهر اليهود الجديد وحلولهم في فلسطين هما ضد الطبيعة والتاريخ والحقائق، ومآلهم الزوال، فتعود إلى فلسطين صبغتها العربية التامة ومهمتها الجغرافية الخالدة، التي هي وصل بلاد العرب الآسيوية ببلاد العرب الإفريقية، فضلاً عن أن ذلك ليس من شأنه أن يخل بذلك الشمول حاضراً.

ويظهر من كل ما تقدم كذلك أننا لا نبني نظريتنا في القضية العربية على أساس وحدة الدم والجنس والدين فقط. وإنما نبنيها أيضاً على الأساس القومي المفهوم والمعتبر الآن بصورة عامة، وهو وحدة الوطن واللغة والمصلحة. وإذا كنا أشرنا إلى منبت العروبة الجنسية ومهاجرها القديمة، أو إلى قدم التاريخ الذي انسبك في طياته سكان موطن العرب في قالب واحد. أو إلى شمول الدين الإسلامي لأكثرية هؤلاء السكان، فإننا فعلنا هذا بسبيل التدليل على قوة عناصر القضية العربية ومميزاتها.

وظاهر أن هذا الأساس أوسع شمولاً وأرحب صدراً من نظرية الدم والجنس والدين. لأنه يعتبر به عربياً قومياً كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها، ومستقر بالوطن العربي ومندمج في بيئته وعاداته وتقاليده ومصالحه مع سائر المستقرين فيه والمندمجين في بيئته وعاداته وتقاليده ومصالحه، وليس له ولاء ولا صلة ولا هوى ببلاد وقومية ودولة أخرى مهما اختلفت الأصول والأديان والمذاهب.

- ٨ -

القومية العربية والإسلام[11]

وهناك مسألة يدور الكلام والخلاف فيها بين مثقفي العرب والمسلمين[12]، ويحسن أن نلم بها في هذا المدخل. وهي دعوة القومية العربية والإسلام وتوافقهما أو تناقضهما. وصحة الدعوة القومية العربية من وجهة النظر الإسلامية وعدم صحتها. ويورد الذين يرون تناقضاً بين الدعوة القومية العربية والإسلام من وجهة النظر الإسلامية، حديثاً نبوياً فيه شجب للعصبية ويطبقونه على هذه الدعوة. ويغالي بعض دعاة القومية العربية إلى أن يصل الأمر بهم إلى تقرير الاعتبار الأول لها بقطع النظر عن الإسلام.

ووضعاً للحق في نصابه المتبادر لنا نقول:

أولاً: إن الحديث الوارد في ذم العصبية هو هذا الذي يرويه أبو داود عن جبير بن مطعم عن النبي صلعم قال: (**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**). وروى أبو داود عن واثلة بن الأسفع قال: قلت يا رسول الله ما العصبية: (**قال أن تعين قومك على الظلم**)[12] وروى أبو داود أيضاً عن سراقة بن مالك قال: (خطبنا

---

(١١) هذه النبذة جديدة في هذه الطبعة رأيناها مفيدة ومتناسبة مع النبذ السابقة.

(١٢) من المحتمل جداً أن يكون واثلة كان يسمع الحديث، فسأل سؤاله، فكان جواب النبي (صلعم) مفسراً حديثه السابق، والله أعلم.

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :(خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم) . وعن عبدالله عن النبي صلعم قال : (من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي ردي فهو ينزع بذنبه)(١٣) .

وظاهر من هذه الأحاديث أن تطبيقها على الدعوة إلى القومية العربية غير سليم إلا في حالة ترافق الدعوة إليها اجتراح الظلم والعدوان على الغير عبرها . وإن التكافل ، عبرها ضد الغير مندوب وخير وحق .

ثانياً : إن الذين يشجبون الدعوة العربية يقولون : إن الإسلام صار سمة العرب ، فصار هو الذي يجب أن تكون الدعوة إليه ، وإن في الدعوة العربية شذوذاً عن تلك السمة . ونعتقد أن في هذا مغالطة وخطأً وثغرات . فإن سمة الإسلام قد غدت حقاً سمة للعرب . ولكنها لم تعن ولا يمكن أن تعني أن الذاتية العربية قد زالت ، أو يجب أن تزول ، أو يمكن أن تزول بها . فهي مستمدة من واقع ذاتي قائم لا يجوز المكابرة فيه بتميزها في اللغة والخصائص والموطن . وهذا شأن كل الأمم التي تدين بالإسلام . وكما أنه لا يعقل ولا يصح في حال أن يكتفى بتسمية هذه الأمم بالأمم الإسلامية دون أبوه لاسمها الخاص ولذاتيتها المتميزة بلغاتها وخصائصها ومواطنها ، ودون ملاحظة ذلك في تسميتها وفي ما تنشط في سبيله من ازدهار وتكامل في شتى الميادين ، فإنه لا يعقل أن يكتفى بتسمية الأمة العربية بالمسلمين دون أبوه لذاتيتها المتميزة بلغتها وخصائصها وموطنها ، ودون ملاحظة ذلك في تسميتها وفي ما تنشط في سبيله من ازدهار وتكامل في شتى الميادين .

وهذا أمر بديهي إلى درجة أن المكابرة فيه تبدو غريبة جداً إلا في حالة واحدة ، هي أن تكون الدعوة العربية مجردة عن السمة الإسلامية وفي معزل عنها . وهو ما نشجبه بدورنا ، حيث نعتقد أن العروبة والإسلام متلازمان لا يمكن فك أحدهما عن الآخر . مما سوف نشير إليه مرة أخرى بعد قليل .

ولقد أقر هذا الأمر الحديث النبوي الذي يقول (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) ، حيث ينطوي في هذا إقرار صريح بوجود عرب وعجم في نطاق الإسلام ، وتسويغ لذلك .

وهناك حديث يرويه الإمام أحمد عن سلمان الفارسي فيه إقرار لذلك بأسلوب قوي أيضاً حيث جاء فيه : (قال لي رسول الله صلعم يا سليمان لا تبغضني فتفارق دينك . قلت يا رسول الله كيف أبغضك وبك هدانا الله . قال تبغض العرب فتبغضني) . وهناك أيضاً حديث آخر جاء فيه (من أحب العرب فبحبي أو لحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم) . وفيه إقرار آخر كما هو ظاهر .

وفي الدعوة الإسلامية والنبوة العربية وأركان الإسلام ، وفي نصوص عديدة من القرآن والحديث ما يوطد شأنية العرب في الإسلام ، بحيث يكون إنكار التسمية العربية والدعوة العربية

---

(١٣) أي كبعير سقط في بئر ، فصاحبه يحاول إخراجه منه بسحبه من ذنبه .

والنشاط العربي في سبيل التكامل والإزدهار مناقضاً لذلك.

فالله سبحانه وتعالى إذ شاءت حكمته أن يظهر الدين الإسلامي ويرشحه ليكون دين الإنسانية جمعاء، ويعد باظهاره على سائر الأديان كما جاء في آية سورة الفتح هذه ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾. وشاءت أن يكون نبي هذا الدين عربياً وهو خاتم أنبياء الله، وأن يكون كتابه عربياً وهو خاتم كتب الله، تكون قد شاءت توطيد شأن العرب في هذا الدين وفيما انبثق عنه من دولة وسلطان.

ولقد احتوى القرآن تأييداً لهذه الشأنية. ففي سورة البقرة هذه الآية ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً، لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً..﴾ والوسط بمعنى العدل والخيرية. وكلمة الشهداء في الآية تتضمن حينما نمعن النظر فيها شيئاً من معنى الارشاد والرقابة والهيمنة. والعرب المسلمون هم أول من خوطبوا بهذا الخطاب. وفي سورة آل عمران هذه الآية ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾، حيث قررت للمخاطبين المسلمين الذين كانوا من العرب لأول مرة الفضل والخيرية على الناس، لأن الله قد اختار خاتم أنبيائه منهم، واختارهم لهدايته بادىء الأمر، ثم اختارهم لحمل مشعل هذه الهداية لسائر الناس. وأهّلهم ليأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وجعل ذلك طبيعياً لهم، حينما يعتنقون الدين الإسلامي الذي كان من مهمة نبيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما جاء في آية سورة الأعراف هذه: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم...﴾ وفي كل هذا من توطيد الشأنية السياسية وغير السياسية للعرب ما هو واضح.

وقد يقال إن الخطاب في آيات البقرة وآل عمران هو للمسلمين عامة وليس للمسلمين العرب خاصة. ومع أن هذا حق، فإن في القرآن آيات أخرى تحتوي قرينة على أن المقصودين بالخطاب بالدرجة الأولى هم المسلمون العرب. ففي سورة الحج هذه الآية ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس...﴾. والعرب هم المخاطبون حتما في الآية، كما هو ظاهر خاصة من تعبير (أبيكم إبراهيم) الذي تكرر معناه بشيء من الصراحة بالنسبة للعرب خاصة أيضاً في آيات سورة البقرة هذه ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم...﴾(١٤) حيث تقرر الآيات أبوة إبراهيم وإسماعيل للعرب. وتؤكد أن الخطاب

---

(١٤) هناك أحاديث نبوية ذكر فيها النبي عن نفسه أنه دعوة إبراهيم. انظر: مجمع الزوائد، ج ٨، ص ٢٢٣، حيث يؤيد ذلك كون هذه الآيات في صدد العرب.

في آية الحج للعرب خاصة. وننبه على وحدة الصيغة في آيتي الحج والبقرة ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ حيث تؤكد أن الخطاب في آية البقرة أيضاً خاص للعرب. وفي سورة الأنبياء هذه الآية ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ حيث تذكر العرب بما جعل الله لهم من فضل ورفعة قدر خالدين بالقرآن. وفي سورة الزخرف هذه الآيات ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك انك على صراط مستقيم. وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾، حيث تقرر الثانية أن ما أنعم الله على النبي صلعم وندبه إليه من مهمة هداية الناس، هو شرف ورفعة قدر له ولقومه، وانهم مسئولون عنه إذا ما قصروا في حقه وأهملوا واجبهم فيه. وفيها قرينة على صحة تأويلنا لآية الأنبياء السابقة.

ففي هذه الآيات من تقرير الشأنية السياسية وغير السياسية للعرب بين سائر أجناس المسلمين ما لا يتحمل مراء. والعرب مدعوون بالهام القرآن إلى تحمل واجب هذه الشأنية، والاستمرار في التأهل لها. وهم مسئولون أمام الله عن تقصيرهم في ذلك، ولا سيما إذا أدى هذا التقصير، كما وقع فعلاً، إلى ذلهم وتشتت شملهم. لأن هذا وذاك مؤثر في الكيان الإسلامي عامة على ما أثبتت الأحداث مصداقه ومصداق الأثر المأثور المشهور (إذا ذلت العرب ذل الإسلام).

وشأنية العرب في الإسلام لا تعني تميزاً ولا تغلباً ولا استعلاء ولا استغلالاً ولا مختارية من نوع (الشعب المختار) الذي يزعمه بنو إسرائيل واليهود لأنفسهم، والذين جعلهم يعتبرون ما عداهم عبيداً لهم يملكونهم وما يملكون. ويكون لهم أن يحققوا ذلك كلما استطاعوا. ولا يقبلون من أحد أن يرتفع إلى مستواهم دينياً واجتماعياً ما استطاعوا(١٥). في حين أن الإسلام قد سوى بين المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم في جميع الحقوق والواجبات وجميع شؤون الدنيا والدين تسوية تامة، وسماهم (إخوة) كما جاء في آيات قرآنية منها آية سورة الحجرات هذه ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾، وكما جاء في أحاديث منها هذا الحديث الذي رواه الأربعة عن أبي هريرة عن النبي صلعم قال: (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبغ بعضكم على بعض وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه).

وتكون شأنية العرب في الإسلام والحالة هذه، شأنية حامل الراية الراعي الأمين المسئول عن رعيته، المرشد الهادي الشفيق البار الودود الرحيم الولي النصير الذي يسير نحو كل خير وصلاح، ويقتدي الناس به، ويسيرون وراءه، وهم متساوون معه في كل حق وواجب، متحلياً بما

(١٥) لما رجع بعض بني إسرائيل من سبي بابل إلى القدس، وأذن لهم أن يجددوا بناء معبدهم المدمر، جاء سكان السامرة وقالوا لهم نبني معكم لأن ربنا واحد. فقالوا لهم لا. ليس البيت الذي نبنيه لكم ولنا، وإنما نبنيه للرب إله إسرائيل، انظر: الاصحاح ٤، من سفر عزرا من أسفار العهد القديم.

تحلى به رسول الله كما وصفته آية سورة التوبة هذه ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

وفي الأحاديث التي أوردناها قبل في الحث على حب العرب، والنهي عن بغضهم، تنبيه من ناحية أخرى إلى ما شغله العرب في الرسالة الإسلامية، حتى لكأن بغضهم مخرج من ربقة الإسلام، ومحبتهم واجبة على سائر أجناس المسلمين الأخرى. ولقد كان هذا وما يزال موقف الجمهور الأعظم من العناصر الإسلامية غير العربية، باستثناء غير المخلصين في إسلامهم، من الطامعين والحاقدين والموتورين وذوي المآرب والمطامع. ولقد كان العرب وما يزالون يشغلون في قلوب هذا الجمهور حيزاً كبيراً من الاحترام والمحبة والتكريم. ويعتبرون أنفسهم مرتبطين بهم بأقوى رباط، على اعتبار أنهم قوم نبي الإسلام، والناطقون باللغة التي نزل بها القرآن، والحاملون لمشعل الهداية الإسلامية في البدء، والذين كان الإسلام تحت رايتهم عزيزاً كريماً.

ولقد شاءت حكمة الله أن يكون للغة العربية ولمهبط وحي الله في جزيرة العرب دور كبير في توطيد هذه الشأنية، **فاللغة العربية لغة القرآن، والقرآن مستند الدين الإسلامي الأول ونبع أسسه وقواعده ومبادئه وتلقيناته وتشريعاته**. ولا يتسنى العمل به إلا إذا فهم على وجهه الصحيح بمعرفة لغته معرفة تامة. وهو بعد ركن من أركان الصلاة التي يجب على المسلم إقامتها خمس مرات في كل يوم، ولا تتم إلا بتلاوته بادائه العربي وألفاظه العربية(١٦). والأحاديث النبوية هي مستند الدين الإسلامي الثاني، ومنبع لأسسه وقواعده ومبادئه وتلقيناته وتشريعاته كذلك.

وفيها كثير مما يفسر القرآن ويوضحه ويكمل تشريعاته وتلقيناته، بحيث لا يمكن ولا يجوز الاكتفاء بالقرآن وحده. وقد أمر الله بأن تكون أوامر النبي ونواهيه واجبة. وأن يرجع المسلمون في كل ما اختلفوا فيه إلى القرآن وحديث النبي معاً كما جاء في آية سورة النساء هذه:

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾(١٧).

وفي آية سورة الحشر هذه:

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا. . .﴾.

ولا يمكن الانتفاع بالأحاديث إلا إذا فهمت على وجهها الصحيح بمعرفة لغتها العربية معرفة تامة. وهذا يوجب تعلم اللغة العربية على كل مسلم ومسلمة مهما كان جنسهما. وكل هذا مما يساعد على نشر هذه اللغة في الأصقاع التي ينتشر فيها الإسلام، بل ويرشحها لتكون لغة المسلمين ثم لغة العالم الذي رشح الإسلام ليكون دينه كما ذكرنا قبل.

---

(١٦) هناك قول بجواز الصلاة بتلاوة معنى القرآن باللغة التي يصلي بها المصلي، إذا لم يكن عربياً ولا يجيد العربية. وهذا خلاف الجمهور الأعظم من علماء المسلمين الذين لا يجوزون الصلاة إلا بألفاظ القران العربية.

(١٧) العلماء متفقون على أن كلمة (الرسول) في الآية بعد وفاة النبي تكون بمعنى أحاديثه.

واللغة ليست ألفاظاً للتفاهم فقط. تصوت بها أفواه الناس كما تصوت العجماوات بأصواتها. بل هي مجموعة عواطف الأمة الناطقة بها وميولها وتقاليدها وتاريخها.

فانتشار اللغة العربية هو انتشار لسلطان العرب الروحي والثقافي والأدبي والاجتماعي. وفي كل هذا توطيد لشأنية العرب في المجتمع الإسلامي الواسع. ولقد كان لها ذلك منذ أن نجحت حركة الفتح الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها في القرن الهجري الأول. وأخذ يدين أهلها بالإسلام حيث اقبلوا على اللغة العربية إقبالاً عظيماً. بل منهم من فعل ذلك قبل أن يعتنقوا الإسلام. ومنهم من أتقنها حتى صار حجة فيها وكأنه ابن من أبنائها الأصلاء وأعلم فيها من كثير منهم. وكان من نتيجة ذلك أن المواطن العربية الثانية، أي بلاد الصومال ووادي النيل وشمال أفريقية والشام والعراق، أي المواطن التي ظلت تحت الحكم العربي، قد اصطبغت نهائياً بصبغة العروبة الصريحة الخالدة. وإن غدا نصف لغات الأمم التي دانت بالإسلام ثم تخلصت من حكم العرب كالفرس والترك والأفغان والسند وأطراف الهند والصين، أو التي دانت بالإسلام ولم تخضع للحكم العربي في أندونيسيا وماليزيا والفيلبين والقازاق والبشناق وأواسط أفريقية وغربها وشرقها وجنوبها وأواسط الهند والصين عربياً. والقرآن يتلى فيها بألفاظه وأدائه العربيين. والأحاديث تحفظ وتتلى فيها بألفاظها وأدائها العربيين كذلك. والصلاة والأدعية والأوراد والتسابيح تمارس باللغة العربية. وأصوات خطباء المساجد ومؤذنيها ومدرسيها وأئمتها، ومعلمي الدين وعلمائه تعلو باللغة العربية. ولو لم يقع ما وقع في القرون الهجرية الثلاثة الأولى من فتن وتناحر بين زعماء العرب بسبب الطمع في الحكم والسلطان، وتآمر الطامعين من العرب مع الحاقدين والموتورين وذوي المآرب من غير العرب ضد الدولة الأموية العربية الكبرى التي كانت راياتها منتشرة من أقصى المشرق الآسيوي إلى أقصى المغرب الافريقي والأوروبي قوية عزيزة، لكان من الممكن أن يظل السلطان العربي هو القائم في هذه البلاد. وأن يستعرب أهلها استعراباً تاماً، اسوة ببلاد الشام والعراق ووادي النيل والصومال وسائر شمال أفريقية التي ظلت تحت السلطان العربي الصريح. بل ولكان من الممكن أن يصل الإسلام والعروبة إلى أماكن أخرى، وأن يتوطدا، وأن يتم تحقق وعد الله في القرون الهجرية الثلاثة الأولى.

ومع ذلك فقد شهدنا بادرة جديدة، تدل على إمكانية ذلك في الدعوة القوية التي ارتفعت من الباكستان، إلى جعل اللغة العربية لغة رسمية لها ثم لغة الأمم والدول الإسلامية جمعاء. والباكستان أكبر دولة إسلامية أو الدولة الثانية الكبرى.

ثم في الرغبة الملحة التي تعلنها الدول والشعوب الإسلامية في إفريقية وغيرها في تعلم اللغة العربية، وبعثاتها التي ترسلها إلى مصر، والبعثات التي تطلبها من مصر بسبيل ذلك. يضاف إلى هذا ما هو واقع متواتر من اتقان الأعداد الكبيرة من أبناء الدول والشعوب الإسلامية غير العربية للغة العربية، واتساع نطاق ذلك يوماً بعد يوم. وكل هذا من دون ريب يوطد شأن العرب والعروبة فيها.

ونبه استطراداً إلى أمر يهمس به بعضهم، وهو أن قدسية اللغة العربية بالقرآن قد أدت إلى

جمودها. فهي الوحيدة في الدنيا تقريباً التي تمتد خمسة عشر قرناً على حالها، والتي يقرأها ابن اليوم ويكتبها بنفس القدرة التي كان يقرأها ويكتبها ابن القرون السابقة. ولكن من الحق والحقيقة أن يقال: إن ذلك لم يضرها بقطع النظر عن النفع العظيم الذي أدته للأمة العربية. فقد كان من تمام الحظ السعيد أن اللغة الفصحى التي يمثلها القرآن، كانت قد وصلت إلى طور من أرقى الأطوار التي يمكن أن تبلغ إليها لغة بشرية من حيث قوة البيان وروعة الأسلوب وبلاغة التعبير، ونفوذ المعنى ودقة الأداء وقوة الخيال، وفصاحة الحجة وسعة المتناول وغزارة المادة، وتنوع الفنون والأساليب والضوابط والقواعد والاشتقاق والتعريب وصيغ الأفعال والأسماء والصفات. وكفى العرب فخراً في أي وقت أن تكون هذه اللغة العظيمة المزايا لغتهم، وأن تظل بجميع مزاياها لغة أجيالهم أبد الدهر.

ولقد كان ما كانت عليه من مرونة ومن صفات ومن قواعد ومن أساليب الاشتقاق والتعريب وسيلة عظمى لمماشاة اللغة لكل تطور علمي وأدبي واجتماعي وفني، لم تكن معالمه قد قامت بعد في عصر النبي صلعم، فاتسعت لهذه المعالم اتساعاً رائعاً تشهد عليه ما خلفه العلماء والأدباء والشعراء في القرون الخمسة الأولى للهجرة من كتب. وفي قدرتها أن تتسع لكل تطور وحاجة. وما يشتكى منه في هذا الباب لا يمت إلى عجزها قطعاً، وإنما يمثل عجز أهلها اليوم، بدليل أن أهلها الأولين في قرون التطور سايروا هذا التطور على أفضل الوجوه وأوسعها. وليس زوال هذا العجز مستحيلاً بالمعاناة والأناة وحسن التدبر والتدبير. هذا مع التنبيه إلى أن ما يرتفع أحياناً من مثل تلك الهمسات، ليس بريئاً بل مريب كل الريب، فبعض أصحابها يرمي إلى هدم الإسلام الذي تكون اللغة لغة أهله المشتركة، ولغة كتابه المقدس، ولغة أحاديث نبيه الشريفة، أو المباعدة بين هذه اللغة والمسلمين. وبعضهم يرمي إلى هدم الوحدة العربية الدينية والاجتماعية والروحية والتاريخية، بل والسياسية التي تمثل من ناحية ما وحدة اسلامية، مما يتمثل بخاصة في الدعاوى والجهود المستميتة التي يغذيها اعداء العرب والإسلام في نبذ الفصحى والحروف العربية، واصطناع اللغات المحلية لتصبح مع الزمن لكل بلد عربي لغته المحلية، وليصبح أهل كل بلد عربي أمة خاصة.

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى سياقنا فنقول: إن من أركان الصلاة التي يؤديها المسلمون مرات كثيرة كل يوم استقبال الكعبة في مهبط وحي الله، ومعنى هذا إيجاب توجه المسلم مراراً كل يوم نحو الكعبة، من جميع مشارق الأرض ومغاربها التي فيها مسلمون. وفي هذا ما فيه من ربط قلوب المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم وبلادهم بالبيت المقدس العتيق، وبجزيرة العرب التي هو فيها. والذي يتمعن في الآيات الواردة في هذا الموضوع يتبين هذا المعنى الذي ننوه به(١٨). ومثل هذا يقال في الحج الذي هو ركن من أركان الإسلام الواجب على المستطيعين من المسلمين. حيث تغدو بلاد الحجاز مزدحم أقدام حجاج المسلمين في موسم الحج عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم وأصفرهم وأسمرهم، يأتون من كل صوب

(١٨) انظر: القرآن الكريم، «سورة البقرة،» الآيات ١٢٥ - ١٢٩ و١٤٢ - ١٥٢؛ «سورة آل عمران،» الآيات ٩٥ - ٩٧، و «سورة الحج،» الآيات ٢٥ - ٢٧.

ليشهدوا منافع لهم. وهي المنافع الاجتماعية الكبرى من تعارف وتآلف وتآمر على المعروف والتقوى، وتناه عن المنكر والاثم والعدوان. ودعوة إلى الخير وتعاون على المرحمة والحق والصبر ونظر في صالح المسلمين[19]. وارتباط المسلمين بركن من أركان دينهم، لهم فيه منافع عظيمة مثل هذه يؤدونه في مهبط نبيهم العربي، يديم من دون ريب النفوذ الروحي لأهل هذا البلد، ثم للجنس العربي الذي هذا البلد من مواطنه الأصلية. وهذا النبي العظيم منة على سائر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بطبيعة الحال.

والمتأمل في تاريخ الإسلام يجد أن العزة والقوة الحيوية إنما كانت تتحقق بمعناها الناقد في أي قطر امتد إليه الإسلام، حينما يكون العرب هم أصحاب السلطان وحملة رايته. أو حينما تكون العروبة طابع أصحاب السلطان وحملة رايته. ويجد بالتالي مصداق التوجيه القرآني المنطوي في آية البقرة ١٤٣ وآية الزخرف ٤٤، التي أوردناها قبل، والتي حملت العرب مسئولية نشر الرسالة الإسلامية ورعايتها.

وننبه إلى الفرق بين انتشار الإسلام وبين ما تعنيه كلمات العزة والقوة الحيوية الإسلامية. فالاسلام ظل ينتشر عبر القرون بدون توقف، وفي ظروف قوة السلطان الإسلامي وضعفه على السواء نتيجة لعناصر الاستجابة القوية فيه. غير أنه لم يكن له العزة والحيوية والقوة والتمكن في الأرض التي كانت له حينما كان العرب هم أصحاب السلطان وحملة الراية. مما فيه توكيد لمهمة ومسئولية الجنس العربي العظمى وشأنية هذا الجنس في الإسلام.

والدعوة العربية كما تقدم شرحه تهدف إلى قوة الأمة العربية ووحدتها ونهوضها وتكاملها وازدهارها وتحررها من طمع الطامعين وعدوان المعتدين، وتمتعها بالعزة والمنعة والكرامة. وكل هذا من صميم أهداف الدعوة الإسلامية. وما دام للعرب ذلك الشأن في الإسلام، وما دام العرب هم مادة الإسلام الأولى، وما دامت عزة الإسلام وانتشاره تحت رايتهم، وما دامت عزة الإسلام تظل رهناً بعزة العرب وقوتهم ووحدتهم، فكلما كانوا أقوياء متحدين وأصحاب عزة وكرامة وحضارة متحررين من العوائق كان ذلك خدمة للإسلام ونشره وقوته. وهذا فضلاً عن أن الدعوة العربية، لا تخرج عن كونها دعوة اسلامية من حيث إن الأكثرية الساحقة من الجنس العربي تدين بالإسلام.

فليس من موجب والحالة هذه للازورار الذي يبدو من بعض المتزمتين المسلمين من العرب إزاء الدعوة العربية. وبعض هؤلاء أو جلهم يرون من الأولى الدعوة إلى الوحدة الإسلامية العامة. ويغفلون عن أن هذه الدعوة لا بد لها من داع. وإن أولى من يدعو إليها ويستجاب هم العرب المسلمون، وإن من غير المعقول أن يكون هؤلاء غير متحدين ثم يدعون غيرهم إلى الاتحاد معهم.

ومن جهة أخرى، فإن الدعوة العربية لا تأخذ قوتها ومداها إلا إذا تلازمت مع الإسلام. فالأمة العربية لم تصبح أمة واحدة ذات رسالة خالدة إلا بالاسلام. ولقد كان جنوب جزيرة العرب

(١٩) انظر أيضاً الآيات التي سلفت إليها الإشارة.

قبيل الإسلام تحت احتلال وسيطرة الأحباش ثم الفرس. وكان في يثرب وقرى عديدة أخرى في طريق الحجاز ـ الشام كتل متمكنة من بني إسرائيل. وكانت مهاجر الجنس العربي الطبيعية من جزيرة العرب إلى خارجها إلى بلاد الشام والعراق ووادي النيل وسائر شمال إفريقية تحت احتلال وسيطرة الروم والفرس، ولم يكن يتكلم العربية الصريحة في هذه البلاد إلا جماعات محدودة. فجاء الإسلام فطهر الجزيرة من الاحتلال والسيطرة غير العربية ووحدها تحت رايته. ثم طهر مهاجرها المذكورة ووحدها تحت رايته. وغدت اللغة العربية لغتها والعروبة صبغتها الخالدة. وقامت عليها الدولة الإسلامية العربية التي ازدهرت في ظلها حضارة عربية باذخة من مختلف النواحي الثقافية والعلمية والعمرانية واللغوية والأدبية والاجتماعية والتشريعية والفنية، فتوطدت شخصيتها وخلدت صبغتها. وحملت مشعل الهداية إلى أقطار الأرض، وانتشرت راياتها في المشارق والمغارب. فلولا الإسلام والقرآن والحضارة العربية الإسلامية التي قامت في ظلهما، لكان من المحتمل كثيراً أن يغدو العرب أمماً عديدة في لغاتها ولهجاتها. وأن يظلوا مغلوبين على أمرهم للأمم المتسلطة على بلادهم في الجزيرة والمهاجر. ولما كان للعرب ما صار لهم من وحدة لغوية ولا وحدة اجتماعية، ولا وحدة تاريخية، ولا وحدة روحية ولا وحدة اقتصادية. ولما صار لهم ما صار من انتشار ونفوذ روحي ولغوي وثقافي وحضاري في مشارق الأرض ومغاربها. ولقد صار لهم كل هذا بفضل الإسلام وقرآن الإسلام. واستطاعوا بذلك أن يصمدوا تجاه ما طرأ عليهم من غزوات من الغرب والشرق والشمال في مختلف حقب التاريخ الإسلامي. بل وأن يؤثروا بالغزاة والزاحفين ويبلعوهم، **ويظلوا محتفظين بكل مظاهر الوحدة المتنوعة المذكورة. وكل هذا يظهر خطورة واجب الدعاة إلى القومية العربية بالتزام الإسلام عقيدة وصفة وصبغة.** وأن يلحظوا دائماً أنه كان وظل وحده منبع قوة العروبة وسبب خلودها ومعقد فخرها. وبرهان دعواهم برسالة خالدة لأمتهم تميزها عن سائر أمم الأرض. ويحملونها ويبلغونها لسائر أمم الأرض. كما يظهر شدة الخطأ والخطل والمفارقة في إغفال بعض هؤلاء الدعاة من المنتسبين إلى الإسلام صلة الإسلام بالدعوة العربية، وتجاوز ذلك إلى ما قبل الإسلام أو الكلام عن الدعوة والقضية العربية منفصلة عنه غير ذات علاقة وثيقة به. وقد يكون هذا هو ما يثير فريقاً من المسلمين المخلصين من العرب ضد الدعوة القومية العربية. غير أننا لا نعتقد أنه لا محل لخوفهم وقلقهم، وأن سواد العرب الأعظم الذين هم مسلمون لن يكون لهم موقف مجرد أو منعزل عن هذه السمة. وإن هذه السمة راسخة في ضمائرهم وعقولهم وقلوبهم رسوخاً شديداً، لن تؤثر فيه أية محاولة. وفي كل يوم يقوم في البلاد العربية وبنوع خاص في البلاد التي تنحو النحو الاشتراكي في اقتصادياتها واجتماعياتها، والتي يثار هذا الغبار حولها البوادر المؤيدة لذلك من الجماهير والحكام على السواء سمة وممارسة وتعضيداً وتأييداً، والمحبطة لكل محاولة ضد ذلك. وهي تربط عن بيّنة وعلم بين ما تنحوه من نحو، وبين أسس الإسلام وملهماته أشد ربط بالاستناد إلى النصوص القرآنية والنبوية، وبتأييد أعلام علماء المسلمين[٢٠].

---

(٢٠) انظر كتابنا: **الإسلام والاشتراكية**، أو الجزء الأول من كتابنا: **الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة**، ص ١٣١ وما بعدها، وفيه تأييد لكون هذا النحو من نطاق كتاب الله وسنة رسوله.

وقد يفعل بعض دعاة القومية العربية هذا مراعاة للعرب المسيحيين المندمجين في الدعوة العربية. مع أنه ليس في ذلك ما يسيء لهم مادياً ونفسانياً. والمسلمون من العرب يمثلون ٩٧٪ منهم، وتعاليم الإسلام أبعد ما تكون عن إثارة أي بغضاء أو عداء أو قطيعة تجههم أو إجحاف أو مصادرة حقوق وحريات لغير المسلمين عامة، بل إنها تحث بصراحة على البر بهم والاقساط إليهم، وحسن التعايش والتعامل معهم، واحترام حرياتهم الدينية والمدنية. ومما لا ريب فيه أن لغير المسلمين المندمجين باخوانهم اندماجاً قومياً، والمتضامنين معهم في السراء والضراء والمصالح والمطامح، الأولوية في مدى هذا الحث التي من مداها تقدير كون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، سواء بسواء في الحقوق والواجبات وسائر المواقف. وفي التزام دعاة القومية من المسلمين ذلك ضمان قوي لكل ما تقدم بالنسبة لغير المسلمين. هذا إلى أن الفخر القومي بالإسلام ونبي الإسلام وقرآن الإسلام وحضارة الإسلام، فخر عام للعرب مسلميهم ومسيحييهم، بل وملحديهم. ولا نعتقد أن هناك عاقلاً لبيباً من هؤلاء لا يندمج فيه.

وقد يكون سبب التوقف عند المسيحيين العرب، هو ما كان من أحداث مؤسفة عبر التاريخ الإسلامي. غير أن التمحيص يكشف ـ وقد صار هذا من الحقائق اليقينية ـ أن الإسلام ليس مسؤولاً عنها.

ولقد يقول بعض المثقفين العرب ان الدعوة إلى التزام الإسلام تعني الرجعة إلى الوراء أربعة عشر قرناً، بينما العالم يتقدم طائراً إلى الأمام. وأن في تاريخ الإسلام والمسلمين وحاضرهم من الصور، ما لا يصح أن يكون مرجعاً ومستمداً وحافزاً. ونقول لهؤلاء ان من الحقائق التي لا يمارى فيها، أن النظام شيء وتطبيقه شيء آخر. وإن عدم تطبيق نظام ما لا ينتج عنه دائماً عدم صلاح ذلك النظام، وان شذوذ أمة أو جماعة أو حكومة في ظرف ما عن الطريق القويم، وارتكاسها في الفوض والعماء والمنكرات لا يأتي دائماً من عدم صلاح ما عندها من نظم وتقاليد. وانه كثيراً ما يتأتى من عوامل متنوعة أخلاقية واجتماعية وسياسية وداخلية وخارجية ونفسية واقتصادية. وان هذا ليس محصوراً في بلد دون بلد، ولا في دولة دون دولة، ولا في زمن دون زمن. بل هو شيء ممكن الحدوث في كل بلد وفي كل دولة وفي كل زمن.

ونقول مساجلة إن جذور الدين متأصلة في الناس تأصلاً لا يمكن لأية قوة أو دعوة أن تقتلعها منهم، وإن وجود واحد في كل مئة ألف قد تفلت من ذلك لا يمكن أن يعني أن الناس يمكن أن يتفلتوا من تأثير الدين وقوته ونفوذه. وما دام أن القرآن الذي هو كتاب المسلمين المقدس عامة، وكتاب أكثرية العرب العظمى خاصة، بين أيديهم يتلونه صباح مساء، ويعتقدون أنه نبراسهم ومرجعهم، وفيه من النظم والمبادىء والقواعد والأحكام والتلقينات ما يمس جميع نواحي حياتهم بمقياس أوسع كثيراً مما في أي كتاب ديني مقدس آخر، فإن صلتهم به وتأثيره فيهم لا يمكن أن ينقطعا مهما تقلبت الظروف وتطورت الأحوال. وكل هذا يقال بالنسبة للأحاديث النبوية الشريفة.

ولقد جاءت هذه النظم والمبادىء والقواعد والتلقينات في كتاب الله وأحاديث رسوله على

أقوى ما يمكن من سعة أفق وإحاطة واستجابة لكل حاجة ومشكلة، وعلى أشد ما يكون مرونة تتيح اقتباس كل ما هو صالح نافع من أي كان، والأخذ بأحسن الوسائل، والاستعداد في كل ناحية من نواحي الحياة. وتساعد على إثارة الهمم وإيقاظ الضمائر وتحريك النشاط. وبعبارة أخرى تدعو بكل قوة إلى كل ما فيه كمال الإنسانية وخيرها وتقدمها ورفعتها. وما يفتح الطريق واسعاً ليقوم بنيان الأمة وكيانها على التفكير الحر والعلم بدون عائق. وليس فيه أي شيء يعطل ذلك ويقف حجر عثرة في سبيله. والالتزام الذي ندعو إليه يجب بطبيعة الحال أن يكون لكل ذلك، وليس لما طرأ عليه من تشويه وتحريف وانحراف.

ومن تمام فضل الله وحكمته السامية، أن منابع الإسلام ظلت سليمة صافية نقية يمكن الرجوع إليها والاستقاء منها وجعلها النبراس الهادي[٢١] وهي تتحدى كل من يقول خلاف ما قررناه، مما هو على الأرجح بل المؤكد نتيجة تلقين اعداء الإسلام لغايات تبشيرية خبيثة، أو نتيجة لعدم اطلاع ودراسة جادة يتبين بها الدارس الحق من الباطل، والسمين من الغث، والهدى من الضلال، ويجد فيها من الثورية والمرونة وسعة الأفق وقوي الحافز وكريمه وشريفه وشديد الوازع عن التردي إلى المهاوي والمزالق الفاحشة الضارة. فمن الخير كل الخير أن تشتد الدعوة إلى التزام ذلك. ومن الشر كل الشر أن يترك السواد الأعظم الذي يدين بالقرآن وأحاديث النبي ويقدسهما ويتأثر بهما في غفلة وجهل وعماء عما فيهما من سناء وهدى، يستغلهم المستغلون، ويتحكم فيهم الجامدون السطحيون. وفي انتشار وقوة هذا الالتزام في المثقفين المسلمين خاصة، ما يجعلهم أصحاب التأثير، ويمكنهم من قيادة هذا السواد الأعظم، وتوجيهه إلى ما فيه الخير والحق والصلاح والنور. ويساعدهم على ذلك ما هو راسخ في أعماق هذا السواد من عقيدة وإيمان، ويكون ذلك عليهم أسهل بما لا يقاس، من اختطاط طرق وأساليب جديدة منبتة الصلة بعقيدة هذا السواد وإيمانه وتقاليده وتراثه، فضلاً عن أنها قد تفرغ أمتهم من أية هوية. وذلك بحجة الثورية والعلمية والقضاء على الرجعية والتخلف والجمود والتخلص من الغيبيات التي تكبل قوى الإنسان إلخ دون أن يدروا و يريدون أن يدروا أن الإسلام قد جاء بالثورية والعلمية، وانه ضد الرجعية والتخلف والجمود على طول الخط. وانه ليس في غيبياته النقية البسيطة وغير المعقدة ما يخالف عقلاً وعلماً، أو يعرقل تقدماً في أي مجال وهي عون للذين يوجهون السواد الأعظم الذي يؤمن بها وبما جاء معها من مبادىء وتلقينات وخطوط وقواعد، تضمن للمسلم الانطلاق إلى كل هدف فيه سعادة ونجاة وقوة وعزة وتقدم وصلاح. ويجد غير المسلم المسالم في ظلها كل ذلك وكل أمن وطمأنينة وكرامة.

(٢١) في كتابنا: الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة الذي هو جزآن شرح لكل ذلك، فيه إثبات لا يتحمل مكابرة، ولا مراء والحمد لله.

الفصل الأول

انبعاث الحركة العربية الحديثة

في عهد الدولة العثمانية

الدور الأول: قبل الدستور العثماني(٢٢)

- ١ -

مع شيء من التجوز يصح أن يقال إن بوادر انبعاث الحركة العربية الحديثة قد بدأت في أوائل القرن الثالث عشر الهجري وأواخر القرن الثامن عشر الميلادي. وتمثلت بمظاهر عديدة متنوعة مثل:

١ ـ الحركة الاستقلالية في مصر وفلسطين التي حمل لواءها بعض أمراء المماليك في مصر وبعض زعماء فلسطين(13).

٢ ـ بروز كتلة من زعماء مصر، وقيادتهم المصريين في الثورة العارمة ضد الاحتلال الافرنسي.

٣ ـ الحركة الاستقلالية التي حمل لواءها الأئمة الزيديون في اليمن لاجلاء الدولة العثمانية عن اليمن(14).

٤ ـ الحركة الاستقلالية التي قادها والي مصر محمد علي، والتي كان من أهدافها اقامة

---

(٢٢) «الدستور» كلمة فارسية معربة، تطلق على جميع القواعد الرئيسية التي تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها وحقوق الأفراد والجماعات. وتستعمل كلمة (القانون الأساسي) بدلاً منها. وإن كانت كلمة الدستور صارت أكثر شيوعاً.

ولقد أعلن الدستور في العهد العثماني الأخير مرتين في زمن السلطان عبدالحميد الثاني (١٢٩١هـ ـ ١٨٧٤م إلى ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م) وسيأتي شرح ظروف المرتين ونصوص الدستور فيما بعد. وقد سمي الدستور في النص العثماني (القانون الأساسي) والمقصود بعبارة اعلان الدستور هنا، وفي المواضع الأخرى هو الاعلان الثاني في سنة ١٩٠٨م، وينعت الأتراك العهد الدستوري بنعت (مشروطية) وهي كلمة عربية. والظاهر أنهم أرادوا بذلك أن الحكم يجب أن يكون مشروطاً برقابة الأمة، أو مقيداً غير مطلق، وغير فردي وغير استبدادي. وهو ما نص عليه الدستور أو القانون الأساسي.

امبراطورية عربية فتية تشمل مصر والشام والحجاز، وتحالفه بسبيل ذلك مع الأمير بشير الشهابي الثاني المعروف بالكبير أمير لبنان[15].

٥ ـ الحركات الاصلاحية الوهابية في نجد، والسنوسية في ليبية، والمهدوية في السودان، التي أدت إلى قيام حكومات عربية متسمة بالسمة الدينية[16].

٦ ـ ثورة الضباط المصريين بقيادة أحمد عرابي ضد الخديوي توفيق لأجل انهاء الحكم الاستبدادي المطلق[17]. والحد من تحكم العناصر غير العربية في الدولة والجيش، وارساء قواعد حكم الشعب العربي في مصر. وما أعقبها من حركات نضالية ووطنية هدفت إلى اجلاء الانكليز عن مصر، وانهاء الحكم المستبد، وارساء قواعد حكم الشعب العربي في مصر. وتمثلت كذلك بالنهضة الأدبية والعلمية والسياسية التي بدت الملامح القومية فيها بارزة. والتي كانت نتيجة الاتصالات التي أخذت تشتد منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي بين البلاد العربية والبلاد الأوروبية التي كانت قد قويت فيها النهضة العلمية والأدبية والقومية والثورية، والدعوة إلى مبادىء الحرية والمساواة والديموقراطية. وكان من آثار ذلك تكتلات وطنية وسياسية في بعض البلاد العربية التي كان لها حظ من الحضارة الحديثة، كان يندمج فيها شباب العرب وكهولهم من مسلمين ومسيحيين، وتعمل بتحفظ وسرية في الأعم الأغلب لايقاظ روح القومية العربية، وتحريك العرب للنهوض بأمتهم وبلادهم، والدفاع عن حقوقهم وأمجادهم. وكان من آثار ذلك أيضاً تكتلات علمية وأدبية يندمج فيها كتاب العرب من مسلمين ومسيحيين وشعراؤهم وعلماؤهم، تعمل على تقوية الوعي الأدبي والعلمي والقومي في الجمهور العربي. وكان من آثار ذلك كذلك ما انشىء في البلاد العربية من مدارس حديثة الأسلوب، ابتدائية واعدادية وعالية. منها ما أنشأته البعثات الأجنبية والتبشيرية، ومنها ما أنشأته الدولة. ومنها ما أنشأه أفراد وهيئات أخرى، حيث أدى ذلك إلى انتشار العلم والمعرفة بين ناشئة العرب وكان له أثر في قوة الوعي العربي والحركة العربية الحديثة. وكان من آثار ذلك اتساع نطاق الطباعة في البلاد العربية، وما كان ينشر نتيجة لذلك من كتب عربية أصيلة قديمة وحديثة ومترجمة عن اللغات الأجنبية وصحف ومجلات عربية، مما أدى بدوره إلى تنبه الوعي القومي والسياسي والعلمي والأدبي، وساعد على قوة الحركة العربية الحديثة.

ـ ٢ ـ

بيانات وإيضاحات
لما ورد في هذه النبذة المقتضبة

لقد اقترح علينا بعض الاخوان أن نتوسع في بيان وايضاح ما جاء في النبذة السابقة المقتضبة من احداث ومظاهر وأسماء. ليكون ذلك صوراً متسلسلة أمام قارىء الكتاب والناشئة بخاصة، قد يعيا على كثير متابعتها واحدة واحدة من مصادرها الشتيتة. فاستجبنا للاقتراح لما فيه من فوائد. وفيما يلي ما تراءى لنا فيه الفائدة والكفاية.

فأولاً: نقول في صدد حركة بعض أمراء المماليك الاستقلالية في مصر، واندماج بعض مشايخ فلسطين فيها، انه برز في أواسط القرن الهجري الثاني عشر، من أمراء مماليك مصر الذين يمتون إلى دولتي مماليك الترك والشركس اللتين كان لهما السلطان على مصر والشام والحجاز واليمن قبل الدولة العثمانية، ولطيلة أربعة قرون ٦٥٠ ـ ٩٢٢هـ أمير اسمه علي بك الكبير. استطاع في ظرف ضعفت فيه الدولة العثمانية أن يبسط حكمه على مصر. ثم تمرد على الدولة وطمح إلى إعادة عهد دولة المماليك، وتمكن من مد حكمه إلى الحجاز، وأخذ يسعى في مده إلى بلاد الشام، وكانت معظم أنحاء فلسطين في هذا الظرف تحت حكم الشيخ ظاهر العمر الزيداني. وكان هذا من عشيرة عربية نزحت من الحجاز في قول، ومن معرة النعمان في قول، واستقرت في ناحية طبريا في القرن الحادي عشر. وكان جده كريماً مقداماً، فصارت له وجاهة في المنطقة. وقد عين الأمير بشير الشهابي الثاني الكبير حاكم لبنان والده حاكماً على صفد سنة ١١١١هـ، ولما مات صارت المشيخة لابنه الظاهر سنة ١١٤٤هـ ١٧٣٣م. وكان طموحاً نشيطاً، فأخذ يبذل جهده ويتغلب على من يقف في طريقه من الزعماء والمشايخ، حتى استطاع أن يمد حكمه على معظم أنحاء فلسطين.

وقد استعظم والي دمشق عثمان باشا ذلك وخشي عواقبه، فأخذ يعمل على الحد من حكمه أو إزاحته عنه. وشعر بالخطر من جهة، ولمح ما قد يكون في حركة ومطامح علي بك من مصلحة له وعون على تثبيت حكمه على فلسطين من جهة أخرى، فأرسل إلى علي بك هدية وأظهر له استعداده للتحالف والتعاون معه في بر الشام. واستمد منه نجدة تساعده على الصمود في وجه عثمان باشا. ورأى علي بك في العرض والطلب مصلحة له، فبادر إلى إرسال نجدة للشيخ ثبت بها حكمه وأرغم عثمان باشا على التراجع عنه. غير أن الرياح لم تستمر جارية بما تشتهيه سفن الشيخ وحليفه علي بك، بسبب خلاف بعض رفاق هذا وتمردهم عليه وتضامنهم ضده مع الدولة، فانطوى أمرهما وذهبت مطامحهما بدداً.

ومهما يكن من أمر هذه النتيجة، فإن تطلع الشيخ ظاهر إلى اغتنام الفرصة لتوطيد سلطانه العربي على انقاض سلطان الدولة العثمانية، وما كان من أمل في أن تؤدي هذه الحركة إليه من الاطاحة بحكم الدولة عن مصر وبلاد الشام والحجاز، وتوطيد حكم يقوم على أكتاف العرب والمستعربين، من حيث إن أمراء المماليك كانوا مستعربين، وكانوا يعتبرون أنفسهم مصريين، ويعتبرهم المصريون كذلك. ويعتبرون ولاة الدولة وعمالها وقواتها غرباء ينطوي على لمحة ما من ملامح اليقظة أو الحركة العربية الحديثة ومداها ومتناولها اللذين شرحناهما في المدخل، رغم ما كان يغلب عليها من حافز شخصي.

ثانياً: وفي صدد حركة المصريين وبروزهم بقيادة زعمائهم لمناوأة الاحتلال الافرنسي والانكليزي، نقول إن الافرنسيين احتلوا مصر سنة ١٧٩٧ بقيادة نابليون بعد قليل من اندلاع ثورة فرنسة الكبرى التي أطاحت بالحكم الملكي، وحملت شعار الحرية والمساواة والأخوة وحكم الشعب. وكان تنافس شديد يجري بين فرنسة وبريطانية على النفوذ في الشرق. فرأى قادة الثورة تهديد المصالح البريطانية في هذا الشرق بتسيير حملة إلى مصر. فسيّرتها بقيادة نابليون

واستطاعت احتلال مصر. فتصدى المصريون لها بقيادة علمائهم وزعمائهم العرب الأقحاح: عمر مكرم، محمد السادات، عبدالله الشرقاوي، محمد المهدي، محمد الأمر، أحمد المحروقي، سليمان الفيومي ومصطفى الصاوي. وقاموا بثورات لاهبة متلاحقة لم تهدأ يوماً طيلة السنين الثلاث التي كانت مدة الاحتلال الافرنسي، وكبدوهم أفدح الخسائر وأزعجوهم أشد الازعاج. وكان للأزهر وشيوخه وطلابه مواقف نضال رائعة. وأمكن في النهاية بقوة هذا النضال ثم بمساعدة الدولة العثمانية التي تحالفت معها بريطانية، تطهير مصر من الاحتلال الافرنسي.

وكان من أهم الأحداث التي وقعت في سياق ذلك، وثوب شاب سوري اسمه سليمان الحلبي كان طالباً في الأزهر، على القائد الافرنسي كليبر الذي خلف نابوليون الذي غادر مصر إلى فرنسة بسبب ما كان يجري فيها من أحداث، وقتله إياه طعناً بالخنجر. ولقد حاولت الحملة الانكليزية التي قدمت لمساعدة الحملة العثمانية على إجلاء الافرنسيين، أن تبقى في مصر بعد جلاء هؤلاء عام ١٨٠١م، فوقف الزعماء والشعب من ورائهم حتى أرغموها على الانسحاب أيضاً.

ولقد حاولت بريطانية احتلال مصر مرة أخرى بعد سبع سنوات متآمرة في ذلك مع بعض أمراء المماليك. ولكن الزعماء والشعب من ورائهم وقفوا في وجهها وفي وجه المماليك المتآمرين معها حتى احبطوا هذه المحاولة. ولقد كان في الحملة العثمانية التي جاءت لاجلاء الافرنسيين ضابط الباني الجنس تركي النشأة اسمه محمد علي. وكان نبيهاً طموحاً، فتظاهر مع زعماء مصر ضد أمراء المماليك الذين أرادوا أن يبسطوا حكمهم الفاسد على مصر كالسابق، فانخدعوا به حتى رشحوه ليكون والياً على مصر. وجعلوا السلطان العثماني أمام الأمر الواقع، حيث ينطوي في مواقفهم ونشاطهم ومن ورائهم الشعب المصري العربي على كل حال وعي قومي ووطني، وبالتالي لمحة من ملامح اليقظة والحركة العربية الحديثة.

ثالثاً: وفي صدد عهد محمد علي المذكور ومصالحه وحركاته، نقول إن هذا الرجل الذي كان يتمتع بألمعية وحيوية رغم أميته، جنح منذ توليه ولاية مصر بمساعدة زعمائها، على ما سبق شرحه، إلى اعتبار نفسه حاكم مصر المستقل الذي أمن العزل والتبدل بقوة التأييد العربي المصري. وأخذ يبذل نشاطاً عجيباً في تثبيت أركان الدولة وتقويتها داخلياً وخارجياً وسياسياً وحربياً واقتصادياً.

ولقد وجه اهتمامه القوي في بدء الأمر إلى أمراء المماليك الذين كانوا يرونه دخيلاً ويراهم المنافسين الأقوياء له، فدبر لهم مكيدة في سنة ١٢٢٦هـ ١٨١١م، قتل فيها عدد كبير من زعمائهم فاستتب له السلطان دون منازع.

ولقد نظم شؤون حكومته. وأنشأ الدواوين والأجهزة الحكومية العديدة المتنوعة حتى صار لها مظاهر الدولة الحديثة. وانشأ جيشاً وأسطولاً قويين. وتمكن من بسط سلطانه على معظم السودان. ولقد كان على استعداد وقوة، حتى ان الدولة استمدت منه قوة في حربها مع اليونان

سنة ١٢٤٣هـ - ١٨٢٧م، فأنجدها بجيش وأسطول، وإن كان جيشه وأسطوله انهزما وأغرق أسطوله. وأوكلت إليه قمع الحركة الوهابية السعودية على ما سوف نشرحه بعد.

ولقد كان نجاحه في قمع هذه الحركة مؤدياً إلى جعل حكمه وولايته شاملين لنجد والحجاز أيضاً. وطمح بعد ذلك إلى مد حكمه وسلطانه إلى بلاد الشام بسبيل إقامة دولة مستقلة مؤلفة من مصر وبلاد الشام والحجاز على نحو ما كان عليه الأمر قبل استيلاء الدولة العثمانية، حيث كانت هذه البلاد تحت سلطان دولة المماليك المستقل. وشعرت الدولة العثمانية بمطامحه وما يمكن أن تؤدي إليه من قيام دولة عربية إسلامية كبرى في هذه المنطقة الشاسعة تنازعها سلطانها وخلافتها، من حيث إنها سوف تقوم على أكتاف العرب وقوتهم ووجودهم، ولا يكون هو أكثر من شخص حاكم معه بعض الأفراد من أرومته(٢٣). فحاولت أن تمكر به وتكبح طموحه. وأدى ذلك إلى نزاع بينه وبينها، فسيّر حملة إلى بلاد الشام بقيادة ابنه ابراهيم سنة ١٢٤٧هـ ١٨٣١م. وقد تضامن معه الأمير بشير الشهابي الثاني، المعروف بالكبير، الذي كان صاحب الحكم على لبنان، وكان له صلات سابقة معه تضامناً تاماً، كما تضامن معه بعض مشايخ فلسطين. واستطاع أن يستولي على جميع بلاد الشام أي فلسطين وسورية ولبنان. وهزم الجيوش العثمانية واحداً بعد واحد في بلاد الشام، ثم في الأناضول حيث استمر يتعقبها ويتوغل في الأناضول حتى وصل إلى كوتاهيه القريبة من العاصمة نوعاً ما سنة ١٨٣٣م.

ولقد ارتاعت الدولة العثمانية فلجأت إلى روسية، وعقدت معها معاهدة كانت بمثابة ارتماء بحضنها. وارتاعت بريطانية من ذلك، لأنه يجعل لروسية النفوذ الأقوى في الدولة التي كانت تطمح هي لا روسية أن يكون لها عليها مثل هذا النفوذ. وارتاعت في الوقت نفسه من حركة محمد علي ووصول جيشه إلى نقطة متقدمة في الأناضول، لأنها كانت تطمح إلى الاستيلاء على مصر، حيث كانت أهم طريق للهند التي كانت تحرص على مختلف الطرق إليها، لأن امبراطوريتها إنما كانت مستمدة منها. حتى انها حاولت احتلال مصر مرتين في سنتي ١٨٠٣ و ١٨٠٨، على ما سبق ذكره، فبذلت جهدها بالتضامن مع فرنسة وبروسية والنمسة التي كانت ترى في قوة نفوذ روسية على الدولة العثمانية وفي قيام دولة فتية في بلاد العرب خطراً على مصالحها. وأنذروا محمد علي وأجبروه على سحب جيشه من الأناضول، على أن تكون له ولاية سورية، وأن تكون ولايته على مصر وراثية مع بقائه تحت سيادة الدولة. وحركت الدولة أنصارها في بلاد الشام، فقامت ثورة ضد الحكم المصري فيها أدت إلى انسحاب ابراهيم باشا منها. وظلت مصر لمحمد علي وأبنائه من بعده.

ولقد اهتم محمد علي لتحسين أموال (دولته)، فأنشأ كثيراً من المعاهد والمدارس

---

(٢٣) مما أثر عن ابنه ابراهيم باشا قوله «ما أنا تركي بل أنا ابن مصر، ان شمسها قد غيرت دمي وجعلتني عربياً قحاً». وقد أشار غير واحد من كتاب الافرنج الذين دونوا حوادث حركة محمد علي وابنه ومطامحهما إلى كون هدفهما إنشاء امبراطورية عربية كبرى. وعزا أحدهم ذلك إلى شخص اسمه البارون دوبو ذكر أنه سمعه من ابراهيم باشا أثناء مقابلة له معه في الشام. انظر: جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص ٨. (الترجمة العربية)

والمصانع، وأرسل عددا من شباب مصر إلى أوروبا ليتعلموا ويعودوا فيعلموا ويعملوا في مدارس مصر ومعاهدها ومرافقها. وأنشأ منشآت عديدة للري. وشجع الأجانب وأصحاب الأموال على الجهد والعمل في التجارة والصناعة والزراعة، فدخلت مصر في عهده في طور حضاري حديث سبقت به الدولة العثمانية. وكان له أثر غير يسير في نمو الوعي في مصر وبلاد العرب الأخرى، من حيث إن مجال ذلك كان القطر المصري وشعبه العربي اللذين كانا مطمح أنظار سائر الأقطار العربية وأهلها، بما كانا يمتازان به من كثرة عدد وقوة مركز، بالإضافة إلى ما كان فيها من مناهل العلم، وبخاصة الأزهر الذي كان يؤمه طلاب العلم الديني من بلاد العرب، بحيث يصح القول إن في عهده لمحة أو مظهراً من مظاهر اليقظة والحركة العربية الحديثة.

رابعاً: وفي صدد الأمير بشير الشهابي الثاني، المعروف بالكبير، والذي تضامن مع والي مصر محمد علي وابنه ابراهيم بسبيل إقامة دولة عربية كبرى في البلاد العربية، على ما مر شرحه، نقول إنه كان من أشهر الأمراء الاقطاعيين العرب في أوائل القرن الثالث عشر الهجري وأواسط القرن التاسع عشر الميلادي. وينتسب إلى أسرة عربية من عشيرة بني مخزوم القرشية، لعبت دوراً كبيراً وطويلاً في مجال الحكم الاقطاعي على مسرح لبنان ووادي التيم من سورية، من أواسط القرن الهجري السادس إلى أواخر القرن الهجري الثالث عشر. وما تزال تحتفظ بألقاب الامارة والوجاهة والقصور الاقطاعية في سورية ولبنان. وكانت قدمت مع جيوش الفتح الأولى، وجاهدت تحت راية أبي عبيدة، واستقرت في حوران. ثم انتقلت في أواسط القرن السادس إلى وادي التيم، وتصاولت مع الصليبيين، واستنقذت المنطقة طيلة هذه المدة. وقد تقلبت على أدوار ليس من منهج الكتاب التوسع في شرحها(٢٤).

ولقد أصهر بنو معن أمراء الشوف وجبل لبنان، وأشهر أسرة اقطاعية شمل حكمها في وقت ما جميع بلاد الشام، إلى هذه الأسرة. وفي سنة ١١٠٩ هـ - ١٦٩١م مات الأمير أحمد المعني أمير الشوف بدون عقب ذكر، فاتفق أهل الشوف على أن تكون إمارته من نصيب حفيده من بنته الأمير حيدر الشهابي. وانتقل هذا نتيجة لذلك إلى جبل لبنان ومارس الامارة التي ورثها. والأمير بشير الذي نحن في صدده هو من أحفاده. وقد عظم أمره حتى صار حكمه شاملاً لمعظم جبل لبنان وما يواليه من الشمال والجنوب والشرق. ونشب بينه وبين والي صيدا الذي كان تابعاً له بالاسم نزاع. لأن هذا أراد أن يحد من تعاظم أمره، فاتصل بمحمد علي والي مصر، ورأى هذا في مساعدته مصلحة له، لما كان قام في نفسه من طموح إلى مد حكمه إلى بلاد الشام، فساعده على الوالي. وقام نتيجة لذلك تحالف بين الزعيمين. وابلى الأمير بشير بلاء كبيراً في مساعدة حملة ابراهيم باشا، وعظم أمره وسلطانه أكثر من قبل حينما استتب للحملة السيطرة على بلاد الشام. فلما اضطرت هذه الحملة إلى الانسحاب، على ما شرحناه قبل، ضعف أمر الأمير. وكان له خصوم ومنافسون من أقاربه وغير أقاربه. فسهل ذلك على السلطات العثمانية اعتقاله ونفيه إلى مالطة سنة ١٢٥٧هـ - ١٨٤١م، ثم انتقل منها إلى الآستانة حيث توفي فيها بعد حياة طويلة حافلة بالحيوية والنشاط والصيت الداوي.

(٢٤) شرحنا ذلك في الجزء الأول من كتابنا: **العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي**.

ولقد كانت هذه البلاد تحت سلطان الدولة العثمانية، وكان واليها يحاول أن يحد من نفوذ وسلطان الأمير. وكان الأمير بدوره يحاول تثبيت سلطانه العربي. ومهما يكن من سمة الشخصية الاقطاعية الغالبة على هذه الحركة، فليس من التجوز كثيراً أن تعد لمحة من ملامح اليقظة أو الحركة العربية الحديثة.

خامساً: ولقد كان لأمراء بني معن أجداد الأمير بشير لأمه، وبخاصة لأحدهم الأمير فخر الدين الثاني دور ولمعان كبيران على مسرح الحكم والسلطان في بلاد الشام. وكان حكم وإمارة الأمير بشير امتداداً لذلك من ناحية ما. فرأينا أنه يحسن الالماع إليها في هذه المناسبة. ولا سيما أن امارة بني معن، وبخاصة تحت حكم الأمير المشار إليه، من أقوى ما كان من سلطان عربي في بلاد الشام قبيل اليقظة القومية الحديثة.

لقد كانت امارة بني معن الذين ينسبهم النسابون إلى قبيلة طي أو ربيعة قائمة فيما يسمى جبل الشوف في جبل لبنان، قبل استيلاء الدولة العثمانية على بلاد الشام. فلما استولت عليها سنة ١٩٢٢هـ - ١٥١٦م، كان الأمير هو فخر الدين الذي يلقب بالأول. وكان ذا شأن بين أقرانه، فصيح اللسان، قوي الجنان. وقد دخل على السلطان سليم الذي كان يقود حملة الفتح، وألقى بين يديه خطبة ترحيب فصيحة، فسر به ولقبه بسلطان البر، وظل أمر بني معن في نطاق إمارتهم الضيق نحو قرن، حتى تولى الامارة الأمير فخر الدين الثاني في آخر القرن العاشر الهجري (٩٩٩هـ)، حيث بذل من الجهد والحيوية والنشاط ما ساعده على التغلب على خصومه ومنافسيه، وعلى توسيع رقعة حكمه في مرحلة من مراحل عهده حتى شمل لبنان أولاً، ثم امتد إلى مختلف أنحاء بلاد الشام الشرقية والجنوبية، وخضع له جميع الأمراء الاقطاعيين، وكان له جيش متفرغ دائم يروى أن عدده بلغ مئة ألف، وأنشأ حصوناً عديدة جهزها بمعدات الحصار والحرب، وأنشأ علاقات اقتصادية وسياسية مع بعض البلاد الأوروبية. وكانت الدولة العثمانية تستعين به على قمع بعض الحركات التمردية التي كانت تقع في بعض الأنحاء الشمالية، فأكسبه كل هذا قوة وحظوة حتى ان الدولة أرسلت إليه في سنة ١٠٣٥هـ مرسوماً بولاية عربستان، من حدود حلب إلى حدود العريش مع لقب سلطان البر. وقد قام على أثر ورود المرسوم برحلة طاف فيها جميع البلاد التي وضعت تحت حكمه، وكان عمال الدولة والأعيان والمشايخ وأمراء الاقطاع يقابلونه أينما حل بالحفاوة العظمى، ويقدمون له ما يلزم ركبه من المؤن. وكل ما كان عليه أن يدفع لخزينة الدولة مبلغاً مقطوعاً في السنة كان يتراوح بين ٢٠٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠٠ ليرة ذهبية. وكان بعد ذلك يتصرف تصرف الحاكم المستقل، ويتقاضى من أمراء الاقطاع خرجاً خاصاً علاوة على المال المقطوع عليهم. كما كان يتقاضى من اليهود والنصارى ريالين عن كل فرد، وريالاً عن كل رأس من الماشية (وقيمة الريال هي خمس الليرة الذهبية). وكان يتقاضى رسوماً على السلع التي ترد إلى بلاده من الخارج، وكان يبلغ دخله من كل ذلك نحو مليونين من الليرات الذهبية. وقد اهتم لتحسين أحوال البلاد الاقتصادية والزراعية، وتنمية مواردها، وأنشأ كثيراً من المنشآت العمرانية والحربية. وكانت عنده بعثات فنية أوروبية تساعده على ما حققه من أعمال ومشاريع عظيمة. ومن أعماله المذكورة اقامة الجسر الكبير على نهر الكلب، وغرس

حرش بيروت الصنوبري، وتجفيف المستنقعات. وتشجيع زراعة القطن والقنب والأرز والزيتون، وتربية المواشي ودود الحرير. وأنشأ معامل الصابون والنسيج والصباغة والبارود، وترميم وتجديد قصور عديدة في صيدا وبيروت. وقد منح الطوائف المسيحية واليهودية حرية واسعة، واقتنى مراكب تجارية كانت تمخر بين موانىء لبنان وأوروبا، وأمن الطرق، ومنع القرصنة الخ الخ، واتخذ بيروت حاضرة لامارته، وبذل جهده في تزيينها وتوسيع نطاق عمرانها، وهو أول حاكم عربي بعد الدولة الأموية جمع جميع بلاد الشام - سورية ولبنان والأردن وفلسطين - تحت حكمه، بحيث يصح القول بحق إن عهده الذهبي الذي امتد نحو عشر سنين، يجب أن يعد من أقوى ملامح الحركة العربية ولو أنه لم يكتب له الدوام. وكان من الناحية البروتوكولية (الرسمية) تحت سيادة الدولة بصفة الملتزم لهذه البلاد أمامها مقابل جعل سنوي مقطوع، ومع التنبه على أن الدولة كانت تقيم في صيدا ودمشق ولاة لها لتثبت سلطانها الاسمي الرسمي على البلاد.

ولقد تقلب عهده على أدوار من ضيق وسعة، ومن تعكر وازدهار، وكان التعكير يأتيه أولاً من بعض الحكام والأمراء الاقطاعيين. وثانياً من الولاة، لأنه غطى عليهم جميعاً فأثار فيهم الحقد والغيظ، وجعلهم ذلك يكيدون له ويمكرون به كلما واتتهم الفرص، وقد كانوا يشون به للسلطان العثماني، ويخوفون هذا السلطان من عواقب أمره وطموحه إلى الاستقلال، ومما ينشئه من صلات مع الأجانب، ويهتم له من تقوية الجيش والحصون والقلاع، وكانوا أحياناً يتحرشون به، وينشبون معه الحروب، وكان هو يتصدى لهم، وكثيراً ما كان يتغلب عليهم ويذلهم، حتى لقد أسر مرة والي الشام وألحق بجيش الدولة الذي جاء لقتاله هزيمة كبيرة، فضلاً عن انتصاراته على خصومه من الحكام الإقطاعيين وارغامه لهم. ولقد ضويق قبل أن يمتد حكمه إلى ما امتد إليه، فاضطر إلى مغادرة البلاد إلى ايطالية، والاقامة فيها ردحاً من الزمن، إلى أن عزل الوالي الذي ضايقه. وجاء وال آخر موال له فعاد. وجاءه بعد قليل المرسوم الذي ذكرناه. وبلغ ما بلغه من سلطان بعد ذلك. وهذا هو عهده الذهبي الذي أشرنا إليه.

ولقد استطاع والي الشام أحمد كوشوك في أواخر هذا العهد إيغار صدر الدولة عليه بشدة وقوة حتى جعلها ترسل حملة قوية، وتفوضه بمطاردته والقضاء عليه، وتأمر والي حلب بمساعدته، وترسل أسطولها لحصاره من ناحية بيروت. مما فيه دلالة على ما بلغ إليه شأنه. وقد طلب سلاحاً ورجالاً من حليفه أمير توسكانا في ايطالية، فتأخر المطلوب، فالتجأ إلى قلعة نيحا الشوف. واهتدى الوالي الكوشوك إلى مخبئه فحاصره طويلاً، وهدده بنسف القلعة، فلم ير مناصاً من الاستسلام حيث أسر مع بعض أولاده وأخصائه فأرسل إلى الاستانة. ولقد أبقى عليه السلطان فترة من الوقت، ثم أمر بقتله لأنه جاءه خبر بقيام ابن أخيه ملحم وأنصاره بالثورة. وكان ذلك سنة ١٠٤٥هـ ١٦٣٥م.

ولقد استطاع ملحم أن يصمد في ثورته، وأن يبسط حكمه على جبل الشوف، رغم مناوأة الوالي وتصديه له، ثم خلع السلطان، وأرسل ملحم للصدر الأعظم الجديد هدية أو رشوة مقدارها ثلاثون ألف قرش (وقيمة ذلك في ذلك الوقت عظيمة كما يبدو)، فأصدر هذا مرسوماً

بإقراره على جبل الشوف وملحقاته. ثم مد حكمه إلى أنحاء جبل لبنان الأخرى ومات سنة ١٠٧٠هـ، فخلفه ابناه أحمد وقرقماس[٢٥]، واستطاعا أن يصمدا ويحتفظا بوجودهما وحكمهما، رغم ما كان من مناوأة الولاة والخصوم الاقطاعيين. ثم انفرد أحمد بالحكم إلى أن مات سنة ١١٠٩ ولم يكن له عقب، فخلفه على امارته ابن بنته الأمير حيدر الشهابي، على ما مر شرحه.

سادساً: وفي صدد حركة الإمامة الزيدية في اليمن نقول، إن هذه الإمامة قامت في أواخر القرن الثالث الهجري. وكان المتولون لها ينتسبون إلى العترة النبوية، ويسيرون على مذهب الإمام زيد بن الحسين بن علي، رضي الله عنهم، الذي كان يعترف بشرعية خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم خلافاً لسائر النحل الشيعية، انطلاقاً من مبدأ (صحة إمامة المفضول) حسب اجتهادهم. ولقد كانوا أصحاب السيادة في الأعم الأغلب في المناطق الجبلية الشمالية في مختلف الحقب. وكانت لهم عاصمتان هما (صعدة) و (حجة)، حيث تكون هذه حيناً وهذه حيناً. وقد استطاعوا أن يجعلوا أهل هذه المناطق تتشيع لهم وتدين بمذهبهم الذي صار يعرف بالمذهب الزيدي، الذي كان فقهه وسطاً بين المذهب السني والمذهب الشيعي. وكانوا في الوقت نفسه في صراع دائم مع الدول التي كانت تغزو اليمن وتحاول بسط سلطانها عليها، وتنجح في ظروف كثيرة في بسط سلطانها على المثلث السهلي الساحلي الذي تقع فيه صنعاء وتعز والحديدة، والذي كان يعيش فيه أكثرية سنية شافعية المذهب تكره أن تكون محكومة للائمة الزيديين. وتتمسك بالدول السنية التي كانت تبسط سلطانها على هذا المثلث. وهي الدولة الأيوبية ثم الدولة الرسولية، ثم دولة مماليك الترك ثم دولة مماليك الشركس ثم الدولة العثمانية اعتباراً من سنة ٩٢٣ هـ. وبعد زوال دولة مماليك الشركس من مصر. وكانت مصر عاصمة الدولة الأيوبية ودولتي المماليك. وكانت هذه الدول تحكم اليمن بواسطة ولاة من قبلها خلافاً للدولة الرسولية التي كانت عاصمة ملوكها صنعاء.

ولقد نشب الصراع بين الدولة العثمانية وبين أئمة الزيديين، منذ البدء، واستمر بضعة قرون جرت خلالها وقائع عديدة أريق فيها دماء غزيرة، وقد أدركنا بعضها. وكانت الدولة العثمانية تجند، بالاضافة إلى الجند التركي، جنوداً من العرب نظاميين واحتياطيين وتسوقهم إليها. وتبث الدعاية ضد الزيديين، وتصفهم بأنهم أصحاب مذهب منحرف خارج على كتاب الله وسنة رسوله، حتى تجعل المسلمين، من ترك وعرب، يستسيغون قتالهم رغم ما كانوا يتحملونه من عظيم المشاق والحرمان والتضحيات مما لاتزال آثاره قائمة في الأذهان. ولم يجدها كل هذا، فاضطرت في النهاية إلى مفاوضة الامام يحيى حميد الدين، وعقد معاهدة معه سنة ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ م اعترفت له فيها بالإمامة والنفوذ الروحي والنظر في شؤون القضاء والأوقاف في جميع اليمن مع شيء من الحكم الفعلي في المناطق الجبلية، والاحتفاظ لنفسها بالحكم الفعلي في المنطقة السهلية والساحلية. ولما نشبت الحرب العالمية الأولى سنة

---

(٢٥) قرقماس تحريف عن الكلمة التركية (قورقماز) ومعناها الحرفي الذي لا يخاف، وبالعربي الشجاع.

١٣٣٤ هـ - ١٩١٤ م ودخلت فيها الدولة العثمانية إلى جانب الألمـان، انشغلت بها فخفت قبضتها على اليمن ثم ارتفعت نهائياً بعد نهاية الحرب، وصارت السيادة كاملة للامام باستثناء المناطق الجنوبية الساحلية المعروفة اليوم بالمحميات الانكليزية والتي أخذت تقع تحت حكم واحتلال الانكليز بأساليب متنوعة منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.

ولقد كان الصراع بين الإمامة الزيدية والدولة العثمانية يهدف إلى تقويض حكم وسلطان الدولة العثمانية التركية عن هذا الإقليم العربي، وتوطيد السيادة العربية عليه. ونجحت فيما هدفت إليه بحيث صار يسوغ اعتبارها من ناحية ما، من ملاح اليقظة أو الحركة العربية الحديثة، بقطع النظر عن كون حركة الإمامة الزيدية استمراراً لتاريخ قديم.

سابعاً: وفي صدد الحركة الاصلاحية الوهابية نقول، إن هذه الحركة منسوبة إلى عالم ديني نجدي اسمه الشيخ محمد عبد الوهاب، من أهل بلدة اسمها العينية من نجد. وقد تفقه بالفقه الحنبلي، وطاف في العراق وغيره من بلاد العرب، فلاحظ ما عليه المسلمون من بدع ومنكرات دينية وأخلاقية وعادات سيئة مخالفة للاسلام. فأخذ ينكر على الناس ذلك ويندد بهم. ويدعو إلى الرجوع بالإسلام إلى صفائه الذي في كتاب الله وسنة رسوله. فضاقوا به وتآمروا على مهاجرته سنة ١١٦٠ هـ إلى بلدة الدرعية في نجد التي كانت عاصمة امارة آل السعود، وقابل أميرها محمداً وشرح له دعوته فارتاح إليها، وطلب منه الشيخ أن ينصرها فاستجاب، فبـايعه الشيخ على إمامة المسلمين. وحينئذ غدت الدعوة مؤيدة بالسلطان، وأخذ الإمام محمد على عاتقه الجهاد في سبيلها، وأبدى نشاطاً وحيوية فاستطاع أن يخضع لسلطانه الممزوج بالدعوة معظم الخطة النجدية، وأخذ هو والشيخ يعملان على بث الدعوة خارج نجد، ويرسلان الدعاة والسرايا والرسائل إلى انحاء الحجاز والشام والعراق والبحرين وعمـان. ولم تلبث أن غدت حركة خطيرة يتردد صداها قوياً في البلاد العربية والإسلامية. وقد اعتبر القائمون بالدعوة عدم الانضواء إليها انحرافاً عن الإسلام الصحيح وبمثابة ارتداد وشرك، واوجبوا تبشير المسلمين وإنذارهم، ثم قتالهم حتى يدينوا بها وينبذوا ما هم عليه من ضلالات وبدع ومحرمات عقائدية وأخلاقية، مثل شرب الخمر والدخان واللهو والرقص والخلاعة والتبرج، والإسراف والتوسل بالأولياء والأنبياء، واقامة القباب على قبورهم، وتقديم النذور لهم وتقريب القـرابين وإقامـة الحفلات عند هذه القبور، ثم يؤدوا ما عليهم من فروض إسلامية من صلاة وزكاة وصيام وحج، ويسيروا على نهج السلف الصالح في المعيشة والعادات والأخلاق. وبدت حـركة إسـلامية تجددية تدعو إلى العودة إلى الإسلام الصحيح السلفي النقي البسيط وإحياء مجده. لولا شيء من الخشونة والشدة والغلو في التكفير والتفسيق وانفقاد مرونة الإسلام وافقه الواسع، والإصرار على اعتبار جميع المسلمين مشركين أو مرتدين وإيجاب قتالهم.

ومات الإمام محمد سنة ١١٧١، فخلفه ابنه عبد العزيز الذي سار على خطة أبيه، وتمكن من بسط سلطانه وإمامته ودعوتـه على الحسا، ووصـل دعاتـه وسراياه إلى الشام والعـراق، وهاجمت في العراق المقامات التي يقدسها الشيعة وهي قبور علي والحسين وغيرهما، رضي الله عنهم، ودمرتها ونهبت ذخائرها بحجة مخالفة ما هي عليه هذه المقامات من زخارف، وما

يقام عندها من حفلات ويقرب من قرابين ويقدم من نذور، ويتلى من أوراد وابتهالات واستغاثات وتوسلات للدين الإسلامي. وفتكت بكثير من الشيعيين الذين تصدوا لها. وتصدت لها سلطات العراق العثمانية واستطاعت ردهم، غير أن دعوتهم ظلت مستمرة. واصطدمت سرايا الإمام بقوات شريف مكة غالب بن مساعد وتكررت حوادث الحرب بينهم. وتمكن الوهابيون في عهد سعود بن عبد العزيز الذي خلف أباه سنة ١٢١٨ هـ، من الاستيلاء على الحجاز وحمل أهله على اعتناق الدعوة، ثم تمكنوا من إخضاع بلاد عسير ومنطقة زبيد في شمال اليمن، وبلاد عمان وما يقع في شمالها وباديتي الشام والعراق للسلطان الوهابي والدعوة الوهابية. وكان الإمام سعود ذا أخلاق وشخصية قوية ساعدت على اتساع ملكه ودعوته.

ولقد طمع إلى ما وراء هذه المناطق، فصار يرسل كتباً عامة إلى ملوك وأمراء البلاد العربية والإسلامية في المشرق والمغرب، يبشر فيها بدعوته ويشرحها.

ولقد ارتاعت الدولة العثمانية لأنها رأت في الحركة نذيراً بتقويض سلطانها وخلافتها عن بلاد العرب، وقيام إمامة دينية جديدة عربية ناقضة لخلافتها، فعهدت لوالي مصر محمد علي بقمعها، وعينته والياً على الحجاز بالإضافة إلى ولاية مصر، وكان شيء من الجفاء بين هذا الوالي وبين الوهابيين لأنهم منعوا المحمل المصري حيث اعتبروه بدعة تحمل طابع الوثنية. فسارع إلى القيام بالمهمة وسيّر أولاً حملة بقيادة ابنه طوسون سنة ١٢٢٨ هـ - ١٨٨١ م، فلقيت مقاومة شديدة، فذهب بنفسه لفترة من الوقت ثم سير حملة ثانية بقيادة ابنه الثاني إبراهيم، فكتبت لها الغلبة بعد عناء شديد وخسائر عظيمة. واستولت نتيجة لذلك على الحجاز ثم على نجد، ودمرت (الدرعية) مركز الإمامة الوهابية السعودية، وقبض إبراهيم على الإمام عبد الله بن سعود الذي خلف والده سنة ١٢٢٩ هـ، والذي كان مثله في قوة الشخصية والنشاط والحيوية مع عدد من كبار أسرته وأرسلهم إلى الآستانة حيث أعدموا.

ومن الجدير بالذكر أن الدولة العثمانية ومحمد علي تعاونا على نشر دعاية ضد الدعوة الوهابية، وتصويرها بصورة حركة أو مذهب منحرف عن كتاب الله وسنة رسوله ليجعلوا جنودهم المسلمين يقاتلونهم بسائق العقيدة، ويجعلوا سائر المسلمين يستسيغون ذلك، كما فعلت الدولة بالنسبة للزيدية في سياق حربها مع الأئمة الزيديين، على ما ذكرناه من قبل، مع أنه ليس في المذهبين انحراف عن كتاب الله وسنة رسوله، وفي الدعوة الوهابية خاصة دعوة إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله...

على أن الدولة السعودية والدعوة الوهابية لم تزولا بهذه الضربة، حيث برز عام ١٢٣٥ هـ تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، واستطاع أن يستعيد السلطان السعودي الوهابي على نجد. ثم أخذ ينشط في توطيد دولته ونشر الدعوة. وكان هو الآخر نشيطاً كبير الهمة والمطامح فأصاب نجاحاً، حيث استطاع أن يمد سلطانه إلى الحسا وغيرها، واتخذ (الرياض) عاصمة له، وصار يرسل المنشورات إلى البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويدعوهم إلى التزام كتاب الله وسنة رسوله، ويحذرهم من البدع والضلالات

والفسق والفجور، ويصف نفسه بولي أمر المسلمين جميعاً ويتسمى بالإمامة، وخلفه ابنه فيصل سنة ١٢٤٦ هـ، وكان كأبيه في الهمة والطموح والنشاط، فعاد الخوف إلى الدولة العثمانية، وإلى محمد علي والي مصر الذي كان ما زال حياً، وأرسلوا حملة جديدة كتب لها النصر على فيصل وأسرته، ولكنه تمكن من الافلات واستعادة سلطانه تحت السيادة الاسمية للدولة العثمانية سنة ١٢٦٠ هـ. وقد شمل حكمه مناطق نجد والحسا والقصيم، ثم اتسع إلى أطراف الحجاز والعسير. وكان أمراء مسقط والبحرين وسواحل الخليج العربي يدفعون له ضريبة سنوية. ولما مات سنة ١٢٨٢ هـ تنافس أبناؤه على الإمامة، ثم كانت الغلبة لعبد الرحمن، غير أن السلطان السعودي انكمش نتيجة للتناحر بين امراء الأسرة، فبرز في المنطقة أمير شمر محمد بن الرشيد، وصار له سلطان واسع شمل نجد والحسا وامتداداتهما الشرقية والغربية والشمالية حتى الخليج شرقاً، وتدمر وجبال حوران ووادي السرحان ووادي الدواسر غرباً وشمالاً، وكان مركزه مدينة (حائل)، ونشب الصراع بينه وبين آل سعود فغلبهم واستولى على الرياض، وألجأ عبد الرحمن وأبناءه وأسرته إلى الفرار والالتجاء إلى الكويت. واغتنم عبد العزيز بن عبد الرحمن الفرصة، فخرج سنة ١٣١٩ هـ على سرية من المغاوير وتمكن من احتلال الرياض وقتل عامل ابن الرشيد فيها. فكان عمله هذا بعثاً لحياة الدولة السعودية والدعوة الوهابية. واشتد الصراع بينه وبين آل الرشيد وامتد عشرين سنة، وارتاعت الدولة العثمانية من عودة الحيوية للدولة السعودية فعاضدت آل الرشيد عليه. ومقابل ذلك اتصل عبد العزيز بالانكليز وعقد معهم معاهدة سنة ١٣٣٣ هـ، اعترفت بريطانية فيها بإمارته كحاكم مستقل ورئيس مطلق على جميع نجد والاحساء والقطيف والجبل وملحقاتها والمرافىء المناوحة لها على سواحل الخليج. وتعهدت بمساعدته على من يعتدي على امارته، مقابل تعهده بعدم التعامل مع غيرها، واتباع نصائحها، وعدم التدخل بشؤون الكويت والبحرين وقطر وعمان ومسقط التي كانت تحت حمايتها، وخصصت له مساعدة مالية سنوية، قيمتها كما جاء في بعض المصادر أربعون ألف جنيه انكليزي ذهبي.

ولقد حاولت الدولة العثمانية أن تقوي سلطانها عليه بأسلوب ما، حتى انها وسطت طالب النقيب زعيم البصرة بذلك، ووعدته بالاعتراف به متصرفاً على الاحساء، ولكن ذلك لم ينته إلى نتيجة، بسبب الحرب العالمية سنة ١٩١٤ م. وفي أثناء الحرب طلبت الدولة منه المساعدة فتلكأ حيث كان مرتبطاً بمعاهدة مع بريطانية التي كانت الدولة ضدها مع الألمان في هذه الحرب، فجعل هذا الدولة تعزز ابن الرشيد وتحركه، وأدى الأمر إلى اشتداد التناحر والتنافس بين الأسرتين الحاكمتين في نجد، ثم انتهى بزوال امارة آل الرشيد وخضوعهم ودخول بلادهم في سلطان الأمير السعودي. ثم نشب صراع بين هذا وبين شريف مكة الحسين بن علي الذي كان عقد مع بريطانية معاهدته المشهورة التي دخل نتيجة لها إلى جانبها في الحرب، وأعلن الثورة على الدولة العثمانية وصار ملكاً سنة ١٣٣٥ هـ ١٩١٦ م على ما سوف يأتي تفصيله بعد.

وكان سبب الصراع بينه وبين الأمير السعودي اعتباره إمارة نجد داخلة أو يجب أن تكون داخلة في نطاق سلطانه وملكه، فأبى عبد العزيز ذلك. وجرت نتيجة لذلك وقائع حربية بين الطرفين كانت الغلبة فيها لعبد العزيز، ثم تطور الموقف واحتدم فهاجمت قوات هذا الطائف سنة

١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٤ م واستولت عليهما، ثم زحفت على مكة فاستولت عليها، ثم على رابغ والمدينة، واستولت عليهما. وانسحب الملك حسين إلى جدة، ثم تنازل عن الملك لابنه علي. وحاول هذا إنقاذ ما يمكن إنقاذه فلم يستطع. وانسحب هو الآخر من جدة، فاستولت عليها القوات السعودية. وكان لقب عبد العزيز سلطان نجد وملحقاتها فصار (ملك الحجاز ونجد وملحقاتها). واستطاع بعد ذلك أن يبسط سلطانه على العسير سنة ١٣٤٩ هـ ١٩٣٠ م، فغدت مملكة ضخمة تشمل معظم الجزيرة العربية باستثناء اليمن التي كان في شمالها دولة مستقلة، والتي كانت سواحلها الجنوبية ثم سواحل الجزيرة على المحيط الهندي والخليج العربي تحت الحماية الانكليزية.

ولقد تفاوض عبد العزيز مع الانكليز بعد أن سطع نجمه واتسع سلطانه واشتدت قوته، وانتهى الأمر إلى معاهدة جديدة اعترفوا فيها بسيادته المطلقة على ما صار في حوزته. وفي سنة ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م اطلق على مملكته اسمها الحالي (المملكة العربية السعودية). وهكذا قامت مملكة عربية ضخمة ما تزال قائمة موطدة البنيان.

ومهما تكن الحركة الوهابية متسمة في أصلها بالسمة الدينية الاصلاحية، فإن اندماج آل سعود فيها وامتزاجها بالسياسة والنهاية التي انتهت إليها بقيام هذه المملكة الضخمة، كل ذلك يصح أن يعد من ملامح اليقظة والحركة العربية الحديثة.

ثامناً: وفي صدد الحركة السنوسية نقول إن هذه الحركة في أصلها وسيرتها طريقة إسلامية صوفية، هدفت إلى إحياء الإسلام الصحيح ومحاربة البدع كالدعوة الوهابية، ومؤسسها هو السيد محمد بن علي الحسني، واسمها مقتبس من اسم (السنوسي) أحد أجداد السيد في قول، ومن (سنوسه) وهي مدينة في الجزائر، كانت أسرة السيد تقيم فيها في قول. وقد ولد عام ١٢٠٢ هـ ١٧٨٧ م في الجزائر. وتعلم العلوم الإسلامية، واشتهر بقوة العارضة وفهم روح الإسلام الصحيح، فانبثقت في نفسه الدعوة اليه وإنكار البدع، والقول بالاجتهاد، وانكار انسداد بابه كما كان يقول المشايخ التقليديون. وطاف في بلاد المشرق والمغرب الإسلامية، ولقي علماءها، وأقام في الحجاز وصار له فيها أتباع ومريدون، فأنشأ لهم زوايا عديدة، ثم عاد إلى المغرب، وكان الافرنسيون قد احتلوا الجزائر، فأقام في ليبية يدعو بدعوته. وأنشأ زاوية كبرى سماها البيضاء في الجبل الأخضر. ثم انتقل منها إلى جغبوب وانشأ فيها زاوية كبرى جديدة سنة ١٢٧٢ هـ ١٨٥٦ م واتخذها مركزاً، وغدت مدرسة دينية يؤمها الطلاب والمريدون من كل صوب.

وصار يرسل الدعاة منها إلى أنحاء السودان وليبية، فانتشرت دعوته واشتهرت طريقته، ومات سنة ١٢٧٦ هـ فدفن في الزاوية، وخلفه ابنه المهدي الذي تابع جهد أبيه حتى وصلت الدعوة والطريقة في عهده إلى ذروتهما انتشاراً وقوة واتباعاً. وشملت بلاد كوروتستي ويرنوواندي ودارفور ووادي وكائم وازخر ويغرى، بالاضافة إلى القسم الأكبر من صحراء ليبية. وغدا بمثابة الحاكم الروحي والزمني معاً على هذه الساحة الشاسعة التي كان كتاب الغرب يصفونها بالامبراطورية السنوسية. وقد صار عدد الزوايا في عهده «١٤٦» منها: «٤٥» في منطقة

برقة، و «٨» في منطقة طرابلس، و «١٥» في منطقة فزان، و«٦» في منطقة الكفرة، و «١٤» في السودان، و «٢١» في صحراء مصر، و «١٧» في بلاد المغرب.

ولم تكن الزوايا التي اكتسبت السنوسية شهرتها منها وغدت مركز حياتها ملاجىء دراويش صوفيين منقطعين عن الحياة، ومتبطلين عن العمل الجدي، بل كان كل منها بمثابة مركز حربي دفاعي وتجاري من ناحية، وحقلاً للزراعة والاستغلال من ناحية، ومدرسة يتعلم فيها الطلاب ويتخرجون وعاظاً ودعاة من ناحية. وكانت تشتمل على أماكن يأوي إليها التجار والزوار وأبناء السبيل ويكون لهم حق الضيافة فيها لثلاثة أيام على الأقل، وفيها مخازن لحفظ بضائع التجار، وعرصات وزرائب لجمال ودواب القوافل، وكانت تقام عند الماء أو حيث يمكن استنباط الماء، وتحاط بسور عليه أبراج للدفاع. ويقوم على كل منها شيخ متبحر في العلم راسخ في الطريقة والدعوة، وكان اتباع السنوسية يؤدون إلى الإمام السيد المهدي زكاة أموالهم كما كان يفرض عليهم حين الحاجة بعض الضرائب والتكاليف فيلبون أمره ويرسلون إليه ما يطلبه. وكان السنوسيون طبقات، منهم المنتسبون، وهم السواد الأعظم من أتباع الطريقة. ومنهم الاخوان والمريدون، وهم الذين يقيمون في الزوايا إقامة دائمة يشتغلون بالزراعة، ويكونون على استعداد للجهاد، وهم عماد الطريقة، ومنهم شيوخ الزوايا الذين هم بمثابة قواد وحكام المنطقة التي تقوم فيها الزوايا، ثم طبقة الخواص التي كان يتألف منها مجلس السنوسية الأعلى برآسة الإمام.

ولقد بدأ الافرنسيون ينشطون في سبيل بسط سيطرتهم الاستعمارية على السودان الغربي، فاصطدموا بالسنوسيين، ونشب بينهم الصراع الذي استمر طيلة حياة المهدي. ولما مات سنة ١٣١٩ هـ كان ابنه السيد محمد ادريس قاصراً، فعهد بزعامة الطريقة إلى أخيه السيد أحمد بالنيابة، وقاد هذا النضال ضد الافرنسيين ثم ضد الطليان حينما غزوا ليبية واحتلوها سنة ١٣٣٠ هـ ـ ١٩١٢ م، ثم تخلى عن الزعامة للسيد محمد أدريس حينما رشد فقاد هذا النضال ضد الطليان الذين جنحوا معه بعد قليل إلى التساهل الظاهري، فاعترفوا بإمامته ونفوذه في الصحراء، ورتبوا له المرتبات، واتخذ (اجدابيه) مركزاً لامامته. غير أن الطليان لم يلبثوا أن نقضوا عهدهم معه سنة ١٩٣٣ م فعاد النضال ثانية. وتعرض أهل البلاد والسنوسيون لضربات شديدة منهم، وأبلى هؤلاء بلاء عظيماً في الجهاد. وقد اضطر الإمام محمد إلى اللجوء إلى مصر وإدارة النضال منها، وكان يشتد حيناً ويخف حيناً إلى أن نشبت الحرب العالمية الثانية التي دخلها الطليان إلى جانب الألمان. واتصل الإمام بالإنكليز واتفق معهم على التضامن في الحرب ضد الطليان مقابل اعترافهم باستقلال ليبية بزعامته بعد الحرب، ولقد ابلى المجاهدون الليبيون والسنوسيون في طليعتهم في الحرب بلاء عظيماً، وانفصل آلاف من المجندين الليبيين عن جيوش الطليان وانحازوا إلى المجاهدين. فكان هذا وذاك من أسباب انهيار المقاومة الطليانية والألمانية في جبهة شمال افريقية. وحينما وضعت الحرب أوزارها هب الامام ورجاله للمطالبة بانجاز الوعد وناصرتهم الدول العربية والإسلامية في نطاق هيئة الأمم حتى تحقق مطلبهم في كانون الثاني ١٩٥٠. ورغم ألاعيب الانكليز الذين حاولوا نقض وعودهم وابقاء ليبية

تحت استعمارهم. وتقرر إعلان ليبية دولة مستقلة ذات سيادة في آخر سنة ١٩٥١. وفي ٢٤ كانون الأول من هذه السنة، تم إعلان ملكية السيد محمد ادريس باسم ملك المملكة الليبية المتحدة، التي تألفت من مناطق «برقة» و«طرابلس الغرب» و«فزان» في نطاق اللامركزية الواسعة ووفق دستور وضعته جمعية تأسيسية. ومنذ أول سنة ١٩٥٢، صارت هذه الدولة حقيقة قائمة تمارس السلطان العربي المستقل في هذا الإقليم العربي بزعامة ملكها العربي.

ومهما تكن الحركة السنوسية في أصلها متسمة بالسمة الدينية الاصلاحية، فإن ما كان من تطورها الذي انتهت به إلى استقلال ليبية بزعامة ملك عربي، يصح أن يعد مظهراً من مظاهر اليقظة والحركة العربية الحديثة.

ولقد كان مما يعكر هذا المظهر الوجود العسكري الانكليزي والاميركاني والافرنسي في بعض أنحاء هذه المملكة الساحلية والداخلية، استمراراً لما كان عليه الأمر قبل الاستقلال. ولقد أمكن إزالة الوجود الافرنسي مبكراً. أما الوجود الأميركاني والانكليزي فإنه استمر بسبب رضوخ وسكوت الملك وحكوماته.

وفي ايلول ١٩٦٩ قام فتية قومية متحمسة من أحرار الضباط العرب الليبيين بحركة أطاحت بحكم الملك، ولم تلبث أن طلبت من الأمير كان والانكليز الجلاء عن البلاد، ولم ير هؤلاء مناصاً من الاستجابة حيث جرت المفاوضة ثم الاتفاق على أن يجلو الأولون في وقت اقصاه آخر حزيران ١٩٧٠، والآخرون في وقت أقصاه آخر مارس ١٩٧٠ م. وكان هذا من آثار اليقظة العربية الحديثة التي اشتدت وقويت.

تاسعاً: وفي صدد الحركة المهدوية نقول إن هذه الحركة قامت على يد محمد بن أحمد من قبيلة صبر الأشراف من مدينة دنقلة في السودان، وينتسب إلى العترة النبوية. وقد ولد سنة ١٢٥٦ هـ ونشأ نشأة دينية، واشتهر بالزهد والتقوى والتصوف مع الفقه. وقد طاف في بلاد السودان التي كانت ضمن ولاية مصر وحكامها أولاد محمد علي، ولمس ما كان يقاسيه الناس من كثرة الضرائب وقسوة الحكم، وسوء تصرف الموظفين الذين كان معظم كبارهم من عناصر غير عربية، أي تركية وشركسية وأرناؤوطية، مثل ما كان الأمر في مصر نفسها أيضاً، فانبثق في نفسه فكرة القيام بحركة انقاذية. ووفد عليه رجل فقيه اسمه عبد الله التعايشي فقال له، إن فيه علامات المهدي المنتظر الذي بشر به النبي صلعم، والذي يملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً. فتفاءل بذلك، وقويت الفكرة في رأسه، وأخذ ينشط في سبيل تحقيقها. وقد بدأ نشاطه سراً في أوائل سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م في زمن خديوي مصر، أي واليها، توفيق باشا بن إبراهيم باشا. وتلقب بالمهدي، وصار له أنصار آمنوا بمهدويته، وكان يأخذ منهم بيعة على الجهاد، ثم أخذ يرسل الرسائل إلى الناس يعظهم ويدعوهم إليه. وكانت نصوصها تدل على أنه كان يؤمن بمهدويته ودعوته، ثم جاهر بالدعوة وأرسل كتاباً إلى حاكم السودان رؤوف باشا يدعوه فيه إلى اتباعه. ويحذره من الخلاف عليه. وأرسل هذا اليه من ينصحه وينذره فقال له، إنه ولي الأمر الذي تجب طاعته على جميع الأمة الإسلامية، فسير الحاكم إليه حملة ففتك بها فتكاً ذريعاً،

وكانت الحملة مسلحة بالأسلحة النارية، وكان سلاحه وسلاح أكثر أنصاره السيوف والحراب والرماح ، فازداد تعلق الناس وافتتانهم به، ثم استولى على موقع جبل قدير ومدينة كوردفان. وسيّر الحاكم عليه حملة أخرى ثم حملة ثالثة ورابعة، فكان ينتصر عليها واحدة بعد أخرى، فانتشر صيته، وكثر أنصاره، وكان يلبس جبة مرقعة فوق سراويل من القطن الأبيض ويتمنطق بمنطقة من خوص، ويضع على رأسه طاقية قش مكية يلف عليها عمامة بيضاء كأهل مكة ويسبل منها (عذبة) ذنباً طويلاً. ويحمل في عنقه مسبحة غليظة الحب. وصار أنصاره يقلدونه في زيه الذي كان زي مريدي الطرق الصوفية ودراويش التكايا فسميت حركته بحركة الدراويش أيضاً لسبب ذلك.

وقد أنشأ في جبل قدير حكومة جعل غايتها إعادة الإسلام إلى نقائه وصفائه من كتاب الله وسنة رسوله، والقضاء على الظلم والبدع والمنكرات والمحرمات. واتخذ ثلاثة وزراء ووصى بخلافتهم من بعده بالتوالي وهم عبد الله التعايشي، وعلي ود، وابن عمه محمد شريف. وعقد لأولهم لواء على جميع قبائل السودان الغربي وجعل رايته سوداء، ولثانيهم على جميع قبائل السودان الشرقي، وجعل رايته حمراء. ولم تلبث الحركة أن تفاقمت وأخذ صداها يتردد في جميع أنحاء السودان، وأخذت البلاد تثور على عمال خديوي مصر الذين كانوا يظلمونها ويسيئون التصرف بأهلها ومرافقها، وتتغلب عليهم وتطردهم ثم توفد وفودها على المهدي فيبايعونه.

وفي سنة ١٨٨٢ م غزا عاصمة ولاية مهمة من ولاية السودان وهي مدينة الأبيض بعشرين ألفاً، وحاصرها إلى أن استسلمت له، وغنم ما فيها من مقادير كبيرة من السلاح والعتاد، وانضم اليه قسم كبير من حاميتها من السودانيين والمصريين ، فكان لانتصاره هذا أثر عظيم تعاظمت به حركته. وأخذ يرسل بعده كتبه ورسله إلى مشارق السودان ومغاربه مبشراً ومنذراً، داعياً إلى الانضمام إليه، وشق عصا الطاعة على سلطات وعمال الخديوي. وفي هذه الأثناء احتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ وسيطروا على حكومتها، فأرسلوا حملة بقيادة قائد منهم اسمه هكس باشا، فقابلها المهدي بجيش عدده ثلاثة أضعاف الحملة وهاجمها. وكان هو في طليعة المهاجمين شاهراً سيفه مكبراً مهللاً. واندفع جيشه اللجب وراءه مردداً تكبيره وتهليله الذي كانت تهتز له جنبات الأرض، وانتصر على الحملة انتصاراً ساحقاً حتى انه لم يكد ينجو من القتل إلا نحو ٣٠٠ شخص وقعوا أسرى. وقتل قائدها وكثير من ضباط الانكليز والخديوي، واستولى المهديون على مقادير عظيمة من السلاح والعتاد والأرزاق والأموال. وكان هذا النصر بعد النصر السابق دافعاً إلى انضمام كل من كان متلكئاً من زعماء السودان وقبائله. وأخذ الناس يفدون على المهدي أفواجاً من كل صوب للمبايعة، وأصبح سلطانه عاماً شاملاً لمعظم أنحاء السودان، وامتد إلى اصقاع مجاورة، وانتشر صيته في العالم الإسلامي كله، وجاءته وفود من الحجاز والهند وتونس ومراكش مؤيدة مهنئة، مما يدل على أن العرب والمسلمين كانوا يتطلعون بلهفة إلى التحرك واليقظة ويستبشرون بمثل هذه الحركات الاصلاحية أو المنبهة أو الموقظة. وكانت عاصمة السودان (الخرطوم) ما تزال مستمسكة. فاعتزم على الزحف عليها للقضاء على

آخر مركز للسلطان الأجنبي على السودان. وحينئذ أعلن الانكليز بالاتفاق مع الخديوي عزمهم على ترك السودان لأهله، وعينوا حكاماً على المناطق السودانية من أهلها، وعينوا المهدي حاكماً على منطقة كوردوفان. وأدرك المهدي مدى هذه الحركة، ولمح فيها دسيسة التفريق والفساد، فرفضها، وزحف على الخرطوم التي كانت محصنة تحصيناً قوياً، واقتحمها بحركة انتحارية باسلة، ثم اقتحم انصاره قصر الحاكم غوردون باشا وقتلوه وشردوا عن العاصمة من بقي حياً من قوات الخديوي وعماله. وحينئذ استتب السلطان له على جميع أنحاء السودان، وحبطت دسيسة الانكليز.

ولقد أرسل المهدي بعد ذلك كتاباً إلى الخديوي بدأه بعد البسملة بقوله: (من المعتصم بالله محمد المهدي إلى والي مصر). وجاء فيه فيما جاء: (أنه لا سبيل إلى السلامة عند الله إلا باحياء دينه وسنة نبيه، وإماتة ما حدث من البدع والضلالات، ومحاربة دسائس أهل الكفر التي أدت إلى اندراس الدين، وتعطيل أحكام كتاب الله وسنة رسوله، وإباحة محارم الإسلام). و(إن الله قد أظهره[٢٦] طبق وعده الصادق رحمة لعباده ولانقاذ الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان. وطوقه بالخلافة الكبرى، وخلع عليه حلل المهدوية، وبشره النبي بأن من يقصده بعداوة يخذله الله، ويقذف الرعب في قلبه، وأنه سيملك جميع الأرض، وأن الله قد أيده بالملائكة والجن). ودعاه إلى الانضمام إليه، والتضامن معه لاخراج الانكليز من بلاد المسلمين وقطع دابرهم. وانذره (بأنه إذا أبى فعليه الإثم، ولا بد من وقوعه في قبضته، ولو كان في بروج مشيدة). وكتب إلى سلطاني (وداي) و(سوكونو) يدعوهما إليه فأجابا بالاعتراف بإمامته ومهدويته. وكتب إليه بعض المراكشيين المستوطنين في مصر بالبيعة والاعتراف، ورشحوا شخصاً منهم اسمه محمد الغالي ليكون أميراً من طرفه على مراكش لنشر دعوته في بلادهم. فأجابهم إلى ذلك، وأرسل إلى محمد الغالي أمراً بتعيينه وفيه تعليماته بالدعوة إلى الله وإحياء دينه وسنة رسوله وجهاد أعداء الله الكفار

وجاءه شخص من أهل الشام اسمه الحاج عبد الله الكحال مبايعاً، فعينه عاملاً له على بلاد الشام وأمره بإعداد العدة للسفر إليها ونشر دعوته فيها.

وكان يصدر مناشير إلى الولاة والعمال والجباة الذين عينهم مؤكداً عليهم فيها بوجوب تقوى الله، وتجنب البغي والجور واللسان، والسير وفق كتاب الله وسنة رسوله، وسك عملة ذهبية وفضية ونحاسية باسمه، وجمع ما وقع تحت يده من كتب التفسير والخلافات المذهبية وأحرقها في مشهد عام، وفرض مذهباً جديداً، اجتهد في إقامته على الأقوال والسنن التي صحت عنده، وألغى الرتب والألقاب الرسمية، وسوى في المراتب بين الغني والفقير، وحرم الإسراف في الأعراس، والمغالاة في المهور، وأعمال السحر والشعوذة والتنجيم، وشرب الخمر والدخان والحشيش، وخصاء العبيد، والبكاء على الأموات بحيث يسوغ القول إن حركته بقطع النظر عن المهدوية التي كان يعتقد بها هو وجمهور تابعيه وأنصاره كانت إيذاناً بدعوة

---

(٢٦) يعني نفسه.

إسلامية إصلاحية كبرى. وقد توافدت عليه الوفود من بلاد الإسلام القريبة والبعيدة مبايعة مهنئة مستبشرة.

ولقد ارتاعت الدولة العثمانية من حركته لأنها اتسمت بسمة الخلافة التي كان سلطانها القائم عبد الحميد الثاني شديد الحرص عليها، فأصدر منشوراً كذب فيه دعوى المهدوية. وحذر المسلمين من حركة المهدي، وأصدر مجلس نظار الخديوي في مصر منشوراً مماثلاً مستنداً إلى فتوى علماء الأزهر.

ولقد توفي المهدي عام ١٣٠٢ هـ ١٨٨٥ م فخلفه عبد الله التعايشي حسب وصيته. وتلقى هذا البيعة من جميع أنحاء السودان، ونشر منشوراً وعد فيه بالسير في سبيل نصرة الدين والجهاد، واحياء كتاب الله وسنة رسوله، والبراءة من كل مأرب شخصي. وأخذ يقوي جيشه، ويوطد حكمه، ويبذل جهده في نشر الدعوة إلى الآفاق. وكتب لأمراء نجد وأهل مكة والمدينة ومصر والخديوي توفيق وللسلطان عبد الحميد وإلى إمام السنوسية، وسلاطين وداي وسوكونو مبشراً منذراً داعياً إلى كتاب الله وسنة رسوله والانضمام إليه، بل وكتب إلى ملكة الانكليز وملك الحبشة يدعوهما إلى الإسلام ويبشرهما وينذرهما. وأظهر عزمه على غزو مصر وطرد الانكليز منها، وهيأ حملة أولى وسيّرها لأجل ذلك. ولكنها منيت بالهزيمة، ثم أخذت تقوم بعض التمردات عليه في بعض أنحاء السودان بدسائس الانكليز ورجال الخديوي. ثم بدأت المصاولة الفعلية بينه وبينهم في سنة ١٣١٤ هـ ١٨٩٦ م واستمرت وتقلبت في أدوار من النصر والهزيمة للطرفين. إلى أن كتبت الغلبة في النهاية للانكليز والخديوي واحتلت قواتهما المشتركة الخرطوم، وانتقل التعايشي ومن بقي حوله من قواته وأنصاره إلى منطقة كوردوفان فلحقت به قوة تمكنت من الظفر به وقتله وقتل أكثر من كان معه.

وهكذا انتهت هذه الحركة التي يصح أن تعد مظهراً من مظاهر الحركات العربية الحديثة مهما يكن أمرها.

ولقد أصبح الانكليز بعد قمع هذه الحركة التي توطدت بها على كل حال السيادة العربية الإسلامية في العصر الحديث في السودان أصحاب السلطان الفعلي فيه، وترسموا إبقاء هيمنتهم عليه، فلم يسكت أهله الذين ذاقوا حلاوة الاستقلال والسيادة في ظل تلك الحركة، فقاوموا ذلك بمختلف الصور منفردين حيناً ومتعاونين مع مصر التي ترسم الانكليز ابقاءها تحت هيمنتهم أيضاً حيناً آخر، إلى أن تم اجلاؤهم عنه وتوطيد السيادة العربية عليه عوداً على بدء منذ سنة ١٩٥٥ م، مما لا يدخل تفصيله في منهاج هذا الجزء، ومما يعد دعما لمظهر الحركة العربية الحديثة في تلك الحركة وأثراً من آثارها.

عاشراً: وفي صدد حركة أحمد عرابي وثورة الجيش المصري نقول: إن محمد علي كان مع نشاطه وحيويته وتنظيماته الحديثة للدولة حاكماً مستبداً. وكان يختص العناصر التركية والشركسية والألبانية (الأرناؤوطية) بالمراكز والمنافع والأراضي ويعتبرها عدته وسنده.

ولقد سار خلفاؤه على غراره، وتوسع حفيده اسماعيل بخاصة في المنشآت والحركات الحربية والنفقات الكمالية، فانتفخت دولته وكبرت اسماً وحجماً ولكن حالتها الداخلية والاقتصادية ارتبكت كثيراً. واضطر بسبيل سد النفقات الطائلة التي فتح بابها على نفسه ودولته إلى الاستدانة من الانكليز والافرنسيين أموالاً طائلة بفوائد باهظة. ولما ساءت الحالة الاقتصادية أكثر تدخلت الدولتان الانكليزية والافرنسية واستطاعتا أن تفرضا رقابتهما على مالية مصر. وحفز ذلك الفئات الواعية من الشعب العربي في مصر على المطالبة بالاصلاح والمشاركة في الحكم. وأراد اسماعيل أن يغتنم الفرصة لرفع رقابة الانكليز والافرنسيين التي كان وافق عليها مكرهاً وعلى مضض، فاستجاب لبعض المطالب الوطنية فأنشأ مجلساً شورياً، وألغى الرقابة الانكليزية والافرنسية، وعين بعض الوطنيين المصريين في المناصب الوزارية. واغتاظ الانكليز والافرنسيون وضغطوا على السلطان العثماني الذي كانت له السيادة على مصر، وجعلوه يصدر أمراً بعزل اسماعيل وتعيين أخيه توفيق مكانه. وقبل هذا بعودة رقابتهم على مالية مصر. واستمرت الفئات الواعية في طلب الاصلاح والمشاركة في الحكم ومنع التدخل الأجنبي.

وكان الضباط المصريون العرب يشعرون في الوقت نفسه بالغبن من جراء تسلط الضباط الغرباء من ترك وشركس وارناؤوط على الجيش، وتفوقهم عليهم في الرتب والمرتبات، فاندمجوا في الحركة الوطنية الاصلاحية. وقاموا في سنة ١٨٨٠ م بحركة عسكرية بزعامة أحد كبارهم أحمد عرابي[٢٧] لارغام الخديوي على إصلاح شؤون الدولة والجيش. وكان شعارها (الاصلاح والعدل على قاعدة الحرية والاخاء والمساواة). وكان من مطالبها إصلاح قوانين الجيش والقضاء والضرائب. وانشاء مجلس نيابي منتخب من الشعب له حق مراقبة الحكومة. ومن أبرز الضباط العرب المصريين الذين كانوا على رأس الحركة مع أحمد عرابي (علي فهمي الديب) و(عبد العال حلمي). وتجاوب جمهور الشعب المصري وكثير من رجاله النبهاء مع الحركة واندمجوا فيها، ومن جملتهم وأبرزهم الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الله نديم. وكان هذا بنوع خاص خطيباً مفوهاً وكاتباً ألمعياً وشاعراً مؤثراً، وصحافياً لوذعياً. وكان له نشاط وحيوية ومقامات خطابية وكتابية وشعرية وشعبية وصرخات ثورية داوية لاذعة، مما جعل الناس يطلقون عليه لقب (محامي الوطن) ولقب (خطيب الثورة). وممن تذكر اسماؤهم من البارزين في هذه الحركة، بالإضافة إلى من تقدم ذكرهم، محمود سامي باشا البارودي[٢٨]، ومحمود فهمي

---

(٢٧) أحمد عرابي ولد سنة ١٢٥٧ هـ - ١٨٤١ م، وتوفي سنة ١٣٢٨ هـ - ١٩١١ م.

(٢٨) كان محمود سامي البارودي في نفس الوقت الذي كان فيه ضابطاً ثائراً شاعراً بليغاً. ومن أوائل رواد الشعراء في العصر الحديث الذين اعادوا إلى الشعر العربي ديباجته المشرقة، ونظمه الفخم الجزل القوي المتين، بعد أن أخنت الغثاثة على الشعر العربي واللغة العربية في القرون الطويلة التي رضخت بلاد العرب فيها للتغلب التركي. وله القصائد الكثيرة المتينة النظم، المشرقة الديباجة، البليغة التعبير في مختلف البحور، وفي مختلف أغراض الشعر، من فخر وحماس وغزل ووصف وهجاء ورثاء وحنين وزهد وأخلاقيات ومواعظ وحكمة وخمريات وإخوانيات، تشهد له على ذلك. بل فيها شهادة على أنه بلغ الغاية في كل ذلك. ويكاد يرى الإنسان فيه صورة قوية للمتنبي. وكاد أن يكون ظهوره البليغ القوي، من ركام تلك الغثاثة السائدة معجزة. وقد ولد سنة ١٨٣٨ م=

باشا، ومحمد عبيد، وطلعت باشا عصمت، وعلي باشا الروبي، وسليمان سامي داود، ومحمد سلطان باشا، وهم مزيج من عسكريين ومدنيين أيضاً.

ولقد حاول الخديوي ووزير الحربية الشركسي رفقي باشا بتحريض من الانكليز إحباط الحركة الأولى التي قام بها أحمد عرابي ورفيقاه، وأمكنهم اعتقال الثلاثة البارزين منهم وهم أحمد عرابي، وعلي فهمي الديب، وعبد العال حلمي. فأثار ذلك هياج الضباط وحفزهم على مهاجمة ثكنة قصر النيل التي اعتقل فيها الثلاثة وإطلاق سراحهم. وتظاهر الشعب مع الحركة وأيدها، فاضطر الخديوي إلى التراجع والاستجابة إلى المطالب. وقد أقال وزير الحربية الشركسي وعين بدلاً منه محمود سامي البارودي. ثم استقالت الوزارة وقامت مقامها وزارة إصلاحية برآسة شريف باشا. ثم تبدلت إلى وزارة أكثر ثورية برآسة محمود سامي البارودي. وصار أحمد عرابي وزيراً للحربية فيها، وصدر مرسوم بتشكيل مجلس نيابي منتخب، وجرت الانتخابات وفق قانون انتخاب جديد. وقد ضم المجلس كثيراً من النبهاء والواعين من أبناء الشعب المصري الوطني، ووضع دستوراً جديداً للدولة سمي (اللائحة الأساسية)، وتضمن مبدأ مسئولية الوزارة أمام المجلس، وتخويل المجلس حق إقرار الموازنة والقوانين الأخرى والرقابة على أعمال الحكومة، وأصدر قوانين عديدة في إصلاح الجيش والقضاء والضرائب والادارة والتعليم، واستبشر الناس أعظم استبشار بالحركة ونتائجها.

ولم يرق ذلك للانكليز الذين كانوا يتربصون الدوائر بمصر لفرض سيطرتهم عليها بعد فتح قناة السويس بخاصة(٢٩) فأخذوا يدسون الدسائس، ويحرضون الخديوي على مناوأة المطالب والقوانين الإصلاحية، ثم افتعلوا فتنة في الاسكندرية بين بعض المسلمين وغير المسلمين أدت إلى تصادم دموي، فسارعوا إلى إنزال جنودهم في تموز ١٨٨٢ بحجة الحيلولة دون تفاقم القتال وحفظ أرواح غير المسلمين. وسارع الخديوي توفيق الذي كان غير راض عما تم من تطور في الحكم ومشاركة الشعب فيه إلى الاسكندرية للترحيب بالمحتلين، والاستعانة بهم على قمع الحركة الشعبية الوطنية وحفظ عرشه. وحاول أحمد عرابي الذي كان وزيراً للحربية أن يقود حركة دفاعية فأصدر الخديوي أمراً بعزله. وحينئذ اجتمع جمهور كبير من علماء المسلمين ووجهائهم ونوابهم وتجارهم، مع عدد كبير من رؤساء الدواوين ورؤساء الطوائف غير الإسلامية في القاهرة، وقرروا تأييد بقاء أحمد عرابي على رأس الجيش وقيادته لحركة المقاومة، ومده

= ١٢٥٥ هـ وفي رواية سنة ١٨٤٠ م وتوفي سنة ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٤ م، ونفي إلى جزيرة سرنديب مع أحمد عرابي وكبار رفاقهما، حيث أقام في المنفى سبعة عشر عاماً، ثم عاد إلى مصر وتوفي فيها. وقد نظم كثيراً من قصائده في منفاه.

(٢٩) أخذ امتياز شق قناة السويس وتشغيلها مهندس افرنسي اسمه دولسبس من والي مصر سعيد باشا وانشأ شركة وباشر الشق. وتم الشق وبدأت الملاحة في القناة في زمن الوالي اسماعيل باشا. وكان الانكليز يناوئون ذلك، ويتخوفون من مزاحمة الإفرنسيين لهم، وقطعهم عليهم طريق الهند. ثم سعوا وتمكنوا من شراء حصة اسماعيل باشا في الشركة، فصاروا شركاء في الشركة، ولكنهم ظلوا يترسمون السيطرة على مصر فعلاً، لاحباط كل منافسة، ولضمان طريقهم إلى الهند التي كانت امبراطوريتهم تقوم عليها.

بالمال والرجال والمعدات ، وعدم إطاعة الخديوي لخروجه على قواعد الشرع الشريف، وإرسال العرائض ضده إلى السلطان العثماني. وقد جرت معارك عديدة بين الجيش المصري بقيادة أحمد عرابي وقوات الانكليز المعتدية، فدارت الدائرة في النهاية على القوات المصرية. وأخذت القوات الانكليزية تتقدم حتى احتلت القاهرة في أيلول ١٨٨٢ م. وعاد الخديوي اليها ثانية بحماية حرابهم. وتواطأ معهم على قمع الحركة الإصلاحية الوطنية ومعاقبة زعمائها. وقد اعتقلوا كثيراً من زعماء الثورة والمندمجين فيها وفي الحركة الإصلاحية الوطنية من عسكريين ومدنيين حتى غصت بهم السجون. وحاكمهم وحكموا على سبعة منهم بالإعدام وهم أحمد عرابي، ومحمود سامي البارودي، ومحمود فهمي، ويعقوب سامي، وعبد العال حلمي، وطلعة عصمت. ثم بدل حكمهم بالنفي المؤبد خارج مصر، فنفوا إلى سيلان وسرنديب في البحر المحيط الهندي. وحكم على عدد كبير آخر بالسجن مدداً متنوعة، وعلى عدد آخر بالإقامة الجبرية والكفالات المالية. وعلى آخرين بالنفي مدداً مختلفة إلى بلاد الشام والسودان والحجاز والاستانة.

ومن أبرز المنفيين إلى بلاد الشام الشيخ محمد عبده وعبد الله نديم. وجرد عدد كبير من أصحاب الوظائف والرتب الدينية والمدنية والعسكرية من رتبهم وطردوا من وظائفهم. وقد بلغ عدد من جرد وطرد من الجيش وحده «٢٥٠» ضابطاً. ثم أعيد تشكيل الجيش بصورة تجعله طوع أمر المحتلين، وعهد بقيادته إلى ضباط من الانكليز.

وكانت السودان قد ثارت بقيادة المهدي، واستقلت على ما شرحناه قبل، فسيّر الانكليز حملات مشتركة انكليزية مصرية بقيادة انكليزية إلى السودان، وأخذت تتصارع مع خليفة المهدي التعايشي حتى تغلبت عليه. وغدا حكم السودان انكليزياً مصرياً مع علو يد الانكليز وتحكمهم الفعلي فيه كما كان ذلك في مصر.

ومهما كانت النتيجة التي انتهت إليها حركة أحمد عرابي ورفاقه والمندمجين فيها من مدنيين وعسكريين، فإنها من دون ريب كانت حركة وطنية شعبية ينبغي أن تعد من مظاهر اليقظة والحركة العربية الحديثة، من حيث إنها كانت تمثل يقظة الشعب العربي في مصر ورغبته في توطيد حكمه في بلاده والنهوض بها وإرساء قواعد العدل والإصلاح فيها، والتخلص من تسلط العناصر الغريبة عليها.

ولقد كان من تأثير هذه اليقظة والحركة رفض الشعب المصري العربي لتلك النتيجة، ونضاله ضدها بمختلف الصور إلى أن نجح نجاحاً مزدوجاً في النهاية على يد فتية مؤمنة من ضباطه الأحرار، وعلى رأسهم البطل الملهم جمال عبد الناصر، الذين قاموا بحركة عسكرية انقلابية في تموز ١٩٥٢ ، فأنهوا من جهة في نفس السنة حكم الأسرة التركية وجعلوا الحكم خالصاً للشعب. ثم أنهوا في سنة ١٩٥٦ الاحتلال الانكليزي، فأصبحت مصر تتمتع بسيادتها العربية التامة مما لا يدخل تفصيله في منهاج هذا الجزء.

ولقد كانت مصر غافلة عن مدى معنى القومية العربية رغم أنها هي منها في الصميم، من

حيث إن معظم سكانها من موجات الجنس العربي قديما ثم بعد الإسلام كما هو شأن بلاد الشام والعراق، مكتفية بشعورها الإسلامي بسبب كون حكامها في حقبة القرون السبعة الأخيرة بنوع خاص مسلمين من عناصر غير عربية. وقد اهتموا لابقائها تستمر سابحة في هذا الشعور لأجل استمرار حكمهم لها بسهولة ورضاء، ولا سيما أنهم تمصروا واندمجوا في حياتها. وساعد الانكليز بعد احتلالهم مصر على تقوية ذلك ابان يقظة العرب القومية الحديثة في البلاد العربية الأخرى التي قويت بعد هذا الاحتلال لأجل ابقائها معزولة عنها واستمرار سيطرتهم عليها، غير أن اليقظة القومية لم تلبث أن سرت إلى مصر، فأخذت تستشعر بالشعور العربي القومي. وتتنبه إلى حقيقتها العربية إبان حركاتها النضالية ضد الانكليز، وبلغ ذلك ذروته بعد ثورة تموز ١٩٥٢ التي كانت قيادتها عربية أصيلة، فاندفعت في سبيل إبراز تلك الحقيقة اندفاعها الجارف المشهود الذي يشتد يوماً بعد يوم.

حادي عشر: ونأتي الآن إلى موضوع التكتلات أو الجمعيات التي كان لها أثر في إثارة الوعي العربي العلمي والأدبي والسياسي والوطني والتي كانت في الوقت نفسه مظهراً من مظاهر هذا الوعي فنقول:

١ ـ إن من أوائل ما عرف من ذلك في بلاد الشام «جمعية الآداب والعلوم»(٣٠) التي أنشئت في بيروت عام ١٨٤٧ م، وقد أنشأها بعض الأميركيين المقيمين، منهم القس غالي سميث، والقس وليم طمسون، والدكتور كرنيليوس فان ديك، ويوحنا ورتبات، مع بعض النبهاء من النصارى منهم الشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني اللذان كانا من أبرز أعلام النهضة العلمية والأدبية في زمنهما.

ومنهم مخائيل مشاقة، ومخائيل مدور، ومخائيل فرج الله، ونعمة ثابت، وشكرالله خوري.

وكانت تعقد اجتماعات في بيوت أعضائها، وتلقى فيها محاضرات علمية وأدبية. وقد أنشأت مكتبة كان يتردد عليها أعضاؤها وغيرهم، وأنشأت مجلة باسم «المجلة السورية» كانت تنشر هذه المحاضرات، وكان اليازجي والبستاني يتوليان تحريرها.

٢ ـ وحذا اليسوعيون حذو الأميركيين فأنشأوا في بيروت سنة ١٨٦٨ جمعية اسمها «الجمعية السورية». وقد اندمج في هذه الجمعية أشخاص عديدون مسلمون ومسيحيون منهم الأمير أمين ارسلان والحاج حسين بيهم اللذان كانا يتعاقبان الرآسة عليها. ومنهم سليم البستاني، وحنين الخوري، ورزق الله صفرا، وموسى دي فريج، وسليم رمضان، وعبد الرحيم بدران، وسليم شحادة، وحبيب جلخ ويوسف الشلفون. وكانت كذلك تعقد الاجتماعات وتلقى فيها المحاضرات العلمية والأدبية والتاريخية والوطنية. وأنشأت مجلة باسم (مجموع العلوم) كانت تنشر فيها هذه المحاضرات كما أنشأت مكتبة. وقد وسعت الجمعية نطاقها فضمت إليها أعضاء كثيرين

---

(٣٠) توفيق برو، القومية العربية في القرن التاسع عشر، ص ١٦٦. وقد سمى مؤلف كتاب تاريخ الصحافة العربية الطرزي هذه الجمعية باسم (الجمعية السورية). انظر: ص ٧٧، من الجزء الأول.

من لبنان ودمشق وحماه وحمص ويافا واللاذقية وصيدا والقدس وحلب وعكا وبعلبك والقاهرة والاسكندرية. بل ضمت إليها بعض الرجال البارزين من الأتراك أيضاً حتى بلغ عدد أعضائها نحو «١٥٠». وممن ذكر من أعضائها الأتراك الكبار فؤاد باشا وكامل باشا ويوسف كامل باشا ومصطفى فاضل باشا ومحمد رشدي باشا وصفوت باشا. ومن مشاهير رجالات بلاد الشام المنضوين إليها الأمير سعيد شهاب، والأمير مصطفى أرسلان، وخليل الخوري، وخليل غانم، والشيخ إبراهيم اليازجي، وأخوه حبيب، وسليم تقلا، والشيخ عبد القادر الدنا، وإلياس جمالين، ونصري الكيلاني، والشيخ خطار الدحداح، وشاكر شقير، وضاهر خيرالله، وعلى حماده، وأيوب ثابت... إلخ(٣١).

وتروى للشيخ إبراهيم اليازجي ثلاث قصائد ألقاها في اجتماعات الجمعية، فيها تنديد بظلم الترك، وتحريض عليهم، وتذكير للعرب بأمجادهم، وحث على بذل الهمة في سبيل إحيائها. وقد جاء في إحداها:

سلام أيها العرب الكرام ... وجاد ربوع قطركم الغمامُ
لقد ذكر الزمان لكم عهوداً ... مضت قدماً فلم يضع الذمام
وما العرب الكرام سوى نصال ... لها في أجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل ... وعن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم ... وإن جهلت مآثرنا اللئام

وجاء في إحداها:

تنبهوا واستفيقوا أيها العَرَبُ ... فقد طمى الخطب حتى غاصت الركبُ
فيم التعلل بالآمال تخدعكم ... وأنتمُ بين راحات القنا سَلَبُ
كم تُظلمون ولستم تشكون وكم ... تستغضبون فلا يبدو لكم غضبُ
أقداركم في عيون الترك نازلة ... وحقكم بين أيدي الترك مغتصب
لا يستقيم لهم عهد إذا عقدوا ... ولا يصح لهم وعد إذا ضربوا
بالله يا قومنا هبوا لشأنكم ... فكم تناديكم الأسفار والكُتُبُ
فما لكم ويحكم أصبحتم هَمَلا ... ووجه عزكم بالهون مُنْتَقِبُ
لا دولة لكم يشتد أزركم ... بها ولا ناصر للخطب ينتدبُ
فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا ... من داهم فرصة ضنت بها الحقب
صبراً أيا أمة الترك التي ظلمت ... دهراً، فعما قريب ترفع الحُجُب
لنطلبن بحد السيف مأربنا ... فلن يخيب لنا في جنبه أرب

(٣١) انظر الجزء الأول من: تاريخ الصحافة العربية.

وجاء في إحداها:

دعْ مجلسَ الغيدِ الأوانسْ	وَهَوَى لَواحِظها النواعِسْ
ودع التَنْعّمَ بالمطاعمِ	والمشاربِ والملابسْ
أيُّ النعيم لمن يَبيتُ	على بساطِ الذُلِّ جالسْ
ولمنْ تُباعُ حقوقُه	ودِماؤه بيعَ الخسائسْ
ولِمَنْ يَرى أوطانَه	خِرَباً واطلالاً دَوارسْ
فإلَيكُمُ يا قومُ فاطّرحوا	الموالسَ والمُدالسْ
وتَشبّهوا بفعالِ غيرِكُمُ	مِن القومِ الاحامِسْ
بعصائبَ التفوا فجادوا	بالنفوس وبالنَفائسْ
فالتُرْكُ قومٌ لا يفوزُ	لديهمُ إلّا المُشاكِسْ
أوَلَستُمُ العَرَب الكِرامَ	وَمَنْ هُمْ الشمُّ المعاطسْ
فاستوقِدوا لِقِتالِهم	ناراً تُرَوِّع كلَّ قابسْ
سادَ الفسادُ بهمْ فَسَادَ	التُرْكُ فيهِ بِلاَ مُعاكسْ
كَمْ تَأْمَلون صَلاحَهم	ولَهمْ فسادُ الطبعِ سائسْ
أوَ ما ترونَ الحُكْم في	أيدي المُصادرِ والمماكِسْ
عَمّت قبائحُهم فأضحت	لا تحيق بها الفهارس
حال بها طاب التبسم	للوغى والموت عابس
وحلا بها سفك الدماء	فسفكها للجور حابس
برح الخفاء ومن يعش	ير ما تشيب له القوانس

وفي هذه القصائد ما يدل على أن الجمعية تطورت إلى جمعية قومية سياسية ثورية إن صحت الروايات.

٣ ـ والمصادر التي تؤرخ انبعاث الحركة العربية الحديثة تذكر جمعيتين أخريين نشأتا في بيروت أيضاً. وكانتا تهدفان إلى إثارة الوعي القومي. وتحضان العرب على التيقظ والمطالبة بحقوقهم في الدولة العثمانية. واحدة سميت باسم «الجمعية السرية» وأنشئت عام ١٨٧٥. وأخرى باسم «جمعية حقوق الملة العربية» وأنشئت عام ١٨٨١ م. وكانتا تضمان أعضاء من مختلف النحل الإسلامية والمسيحية. وكان لهما فروع في دمشق وطرابلس وصيدا. ويعزى إنشاء الأولى إلى بعض طلاب العرب في الكلية الأميركية السورية البروتستانتية التي صارت «الجامعة الأميركية» الشهيرة ومنهم فارس نمر ويعقوب صروف. ويعزى إنشاء الثانية إلى جماعة من متحمسي النصارى والمسلمين لم ترو المصادر اسم أحد منهم. وكانت الجمعيتان تضربان على وتر الوحدة الإسلامية المسيحية من الوجهة الوطنية والقومية. وتنشران منشورات موجهة للمسلمين والمسيحيين أحياناً، وللغرب إطلاقاً أحياناً، تدعوانهم إلى عدم الاستكانة إلى ظلم الترك، وتهيبان بهم إلى الاتحاد الوطني واستلهام أمجادهم القومية. وقد انزعجت السلطات العثمانية كثيراً من هذه المنشورات

وحيرها أمرها. وكانت تتوج بسيف مسلول ومكتوب تحته بيت شعري منسوب لابراهيم اليازجي يقول:

لنطلبن بحد السيف مأربنا — فلن يخيب لنا في جنبه أَرَبُ

وفي أحد المنشورات منهج محدد لغايات الجمعية التي نشرته ومطالبها كما يلي:

١ ـ منح سورية الاستقلال الذاتي متحدة مع جبل لبنان.
٢ ـ الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد العربية.
٣ ـ رفع الرقابة والقيود الأخرى التي تحد من حرية التعبير ونشر العلم.
٤ ـ استخدام المجندين من أهل البلاد في المهام الداخلية فيها فقط.

ومما ورد في أحد المنشورات التي تذكر المصادر خبرها «أين أنتم وأين هم، من منكم اليوم أمير، ومن منكم اليوم وزير، ومن فيكم مدير، بل كل واحد منكم فقير، وكبيركم مثل صغيركم حقير، والمال والآمال في أيدي الترك، اتحدوا واستعدوا لنوال حريتكم من المعتدين».

ولقد قرأنا ونحن نكتب هذا بحثاً للدكتور عبد اللطيف الطيباوي في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق في عددها تشرين الأول ١٩٦٧ ـ جمادى الآخرة ١٣٨٧ فيه إيضاحات وزيادات مهمة في صدد هذه الحركة الخطيرة مستقاة من بعض الوثائق السياسية البريطانية كما يقول كاتبها.

من ذلك ما جاء في تقرير قنصل بريطاني في حلب كتبه في سنة ١٨٥٨ م «إن المسلمين في شمال سورية يكرهون حكامهم الأتراك، ويعتبرون إسلامهم ناقصاً. ويأملون الانفصال عن الدولة العثمانية وتكوين دولة عربية حديثة تحت رآسة شريف مكة».

ومن ذلك ما جاء في تقرير لسفير بريطاني زار سورية في زمن ولاية مدحت باشا في العقد الثامن من القرن التاسع عشر، انه سأل مدحت باشا عما يعلمه عن مؤامرة إسلامية أو عربية مركزها مكة أو المدينة، وغايتها تأسيس امبراطورية عربية، وانبث دعاتها في جميع أنحاء السلطنة يمهدون للثورة، فأجابه انه قد بلغه ذلك، وانه علم برجل من أهل الحجاز اسمه الشيخ علي كان يبذل جهده لاكتساب أعضاء لجمعية سرية، وان دعوته صادفت نجاحاً حتى بين الجنود، وانه أسس للجمعية فروعاً في سورية سرية انضوى فيها أعضاء من المسلمين والمسيحيين. وان غرضها تخليص البلاد من سوء الحكم العثماني وتأسيس نوع من الحكم الذاتي فيها.

ومما جاء في بحث الأستاذ الطيباوي أنه بعد نحو سنة من هذا التقرير، ظهرت مناشير في دمشق وبيروت وصيدا وطرابلس وغيرها مكتوبة بخط اليد وملقاة في الأزقة والشوارع. ومن هذه المناشير ثلاثة محفوظة في سجلات وزارة الخارجية البريطانية أحدها بصورته الأصلية. وهذه نصوصها:

المنشور الأول: في رأسه صورة سيف مسلول مرسوم بحبر أحمر.

يا أبناء سورية:

إن إصلاح الترك محال، وإلا فما الذي يمنعهم أن يصطلحوا منذ عشرين سنة إلى الآن. وقد تعهدوا بشرفهم للرعية مراراً لا تحصى بالإصلاح فماذا تأملون؟

إن الأتراك مع تأصلهم في الفساد وفرط جهلهم وتخنثهم، بقوا يحكمون بمليونين منهم «٣٥» مليوناً من عباد الله حتى أمس. ألا يوجد بين عقلائنا وأبناء وطننا وذوي حميتنا أناس يقدرون أن يتولوا أمورنا ويغاروا على شرفنا وإنهاض وطننا، ونحن مليونان فقط أبناء وطن واحد؟

أما نحن فقد نذرنا أموالنا ونفوسنا فدية عن الوطن، فلم تعد لنا، بل له، فوالله العظيم لنقلقن راحة الموت التي أنتم فيها ولو شربنا كأس الحمام، ومن يعش ير.

المنشور الثاني: إعلان وتحت هذه الكلمة صورة سيف مسلول.

بالسيف يضرب كل أمر ينزح ... فاطلب به إن كنت ممن يصلح

يا أبناء سورية: قام موسى مصلحاً فقال المصريون إن به جنة. وقام سقراط مصلحاً فقتله اليونان، وقام عيسى مصلحاً فقال اليهود به شيطان .وقام محمد مصلحاً فقال عرب الجاهلية إنه مجنون. وأنتم تقولون إن صاحب هذا الإعلان «بل قولوا أصحاب» هو سكران، وإن كلامه هذيان، فإن كان سكرانكم يعتني بأموركم، فهو خير من صاحبكم الذي لا يهمه أمركم ولا حفظ ناموسكم ويا ليتكم كلكم سكارى. نحن الذين يحيون الليل بإعمال دولاب الأفكار، ويقضون النهار باستكشاف الحوادث والأخبار، فلولا موتنا لما كنا للترك أذلاء عبيداً. ولولا شقاقنا لم نكن عند الإفرنج حجارة وحديداً، أين نخوتكم العربية أين حميتكم السورية، عودوا يا قوم والعود أحمد، ولا تقنطوا من رحمة الله، فلن يخفى القمر. ومن يعش ير.

المنشور الثالث: «الويل» وعلى جانبي كلمة الويل صورة سيف مسلول:

يا أهل الوطن، قد علمتم بفجور الأتراك وظلمهم، وإن فئة منهم قد تحكمت في رقابكم واستعبدتكم، وأنهم قد داسوا شريعتكم، وامتهنوا حرمة كتبكم حتى إنهم سنوا نظامات تقضي بملاشاة لغتكم الشريفة، وسدوا أبواب النجاح واتخذوكم أرقاء، كأن لا شيء من شعائر الإنسانية عندكم. وقديماً كنتم أصحاب الحل والعقد. ومنكم ظهر أولو العلم والفضل، وبكم أهلت البلاد، وامتدت الفتوحات. وعلى قواعد لغتكم بنيت أصول الخلافة التي اختلسها منكم الأتراك، أنظروا إلى رجالكم كيف تقاد إلى الحرب عند الشدة. وكيف يعرضون إلى القتل، وانظروا إلى أوقاتكم كيف وبأية طريقة تصرف. أما الآن بعد الائتمار مع إخواننا في أنحاء البلاد، قرّ القرار وصدر الحكم بطلب ما يأتي قبل التقاضي إلى حد السيف، فإن حصلتم عليه التفتنا إلى تدبير أمورنا، وإلا فإننا:

سنطلبن بحد السيف مأربنا ... فلا يخيب لنا في جنبه أرب
ونتركن علوج الترك تندب ما ... قد قدمته أياديها وتنتحب

أما الأمور التي صدر الحكم في مجلسنا بطلبها فهي :

أولاً: استقلال نشترك به مع إخواننا اللبنانيين بحيث تضمنا الصوالح الوطنية.

ثانياً: أن تكون اللغة العربية رسمية في البلاد. وأن يحق لأبنائها الحرية التامة في نشرأفكارهم ومؤلفاتهم وجرنالاتهم بمقتضى واجبات الإنسانية ومقتضيات التقدم والعمران.

ثالثاً: أن تنحصر عساكرنا في خدمة الوطن، وتتخلص من عبودية الرؤساء الأتراك. وهناك بعض تنقيحات وامتيازات أخرى لا بد منها. يترك البحث فيها إلى أوقاته.

وينتهي المنشور بالأبيات التالية:

تَنبّهوا واستفيقوا أيُّها العَرَبُ ... فقد طَمى الخَطْبُ حتى غاصتِ الرُكَبُ
فيمَ التَعلُّل بالآمال تَخْدَعُكُمْ ... وأنتُمُ بينَ راحاتِ القَنا سَلَبُ
لا دولةٌ لَكَمُ يَشْتَدُّ أَزْرُكُمُ ... بها، ولا ناصرٌ للخَطْبِ يُنْتَدَبُ
أليس فيكم من يهتاج يوماً ... فيدفع هذا العار إذ يثب
ومن يعش ير الأيام مقبلة ... يلوح للمرء في أحداثها عجب

٤ ـ ولقد تكون في دمشق حلقة كان محورها الشيخ طاهر الجزائري أحد أعلام العروبة والإسلام في الظروف التي سبقت إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ بقليل. وقد عرف الشيخ بالنزعة الإصلاحية العلمية، والأفق الإسلامي الواسع، والنشاط في سبيل نشر العلم والوعي. وقد ضمت الحلقة عدداً من علماء دمشق ونبهائها مثل الشيخ جمال الدين القاسمي والشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ سليم البخاري، ورفيق العظم، ومحمد كرد علي، وسليم الجزائري، وشكري العسلي، وعبد الوهاب المليحي الشهير بالإنكليزي، وعبد الحميد الزهراوي، وعبد الرحمن الشهبند، ولقد أنشأ جمعية باسم الجمعية الخيرية؛ واستطاع أن يجعل والي الشام يرعاها، ويبني لها أسباب النشاط والنهوض. وكانت تهدف إلى إنشاء المدارس الحديثة، وتحسين أساليب ثورية. وممن انضوى فيها سليم الجزائري وأسعد درويش الطرابلسي من العسكريين، وفارس الخوري وشكري العسلي وعبد الوهاب المليحي من المدنيين العرب وأمير اللواء بدري بك ومدير مصر ويقيم فيها ردحاً من الزمن.

ولقد انبثق عن هذه الجمعية كتلتان سياسيتان هامتان. واحدة كان قوامها بعض نبهاء العرب والترك في دمشق لمحاربة استبداد السلطان عبد الحميد وحكمه المطلق وإقامة حكومة ثورية. وممن انضوى فيها سليم الجزائري وأسعد درويش الطرابلسي من العسكريين، وفارس الخوري وشكري العسلي وعبد الوهاب المليحي من المدنيين العرب وأمير اللواء بدري بك ومدير المعارف حسين عوني من نبهاء الترك في دمشق. وكان لها اتصال بجمعية «تركية الفتاة» التي كانت تسعى لمثل ذلك، والتي قادت حركة الثورة على السلطان عبد الحميد وأجبرته على إعلان الدستور سنة ١٩٠٨.

أما الكتلة الثانية فقد عرفت باسم جمعية النهضة الوطنية. وهناك أقوال متعددة في نشوئها.

فقد جاء في مذكرة بعث بها إلينا المرحوم لطفي الحفار أنها تأسست أولاً في دمشق سنة ١٩٠٦ م ومؤسسوها هم نجيب الشهابي، وزكي الخطيب، ومحب الدين الخطيب، وصلاح الدين القاسمي، وعثمان مردم بك، وصالح قنباز، ومحمد الحفار، وعارف الشهابي، وصلاح الدين العظم، ولطفي الحفار، وسامي العظم، وصبحي المليحي، وتوفيق البساط، وجمال الحفار، وجورج حداد. ثم تأسس فرع لها في الاستانة تولى الإشراف عليه محب الدين الخطيب الذي سافر إلى اليمن بمهمة فأسس فيها فرعاً لها. وإن هذه الجمعية تحولت بعد إعلان الدستور إلى «جمعية النهضة السورية» تفادياً من ضغط حكومة الاتحاد والترقي التي أخذت تنظر بعين حمراء إلى نشاط شباب العرب القوميين. وقد أعلنت نفسها في حفلة أقامتها في ملهى القوتلي في دمشق خطب فيها كل من عارف الشهابي، وسليم الجزائري، وجورج حداد، والدكتور شهبندر، وأسعد الطرابلسي، ولطفي الحفار، ورشدي الحكيم، وسامي العظم. وإن الشيخ طاهر والشيخ جمال والشيخ عبد الرزاق وشكري العسلي وعبد الوهاب المليحي - والأولون في سن الشباب المبكر والآخرون في سن الكهولة أو الشباب المتقدم - كانوا من المشجعين عليها. ولقد جاء في مذكرة بخط الشيخ جمال أنه استدعي إلى الاستنطاق في ١٤ رمضان ١٣٢٧ هـ وقيل انه هو والشيخ عبد الرزاق وعبد الرحمن اليوسف شجعوا على إنشاء هذه الجمعية وانهم من أركانها، وانها فرع لجمعيات في بلاد العرب، تطالب بالاستقلال الإداري لهذه البلاد، وتريد بذلك التشويش على الدولة وأنذرته[٣٢].

ولقد جاء في مقال نشره محب الدين الخطيب في مجلة الفتح عدد جمادى الآخرة ١٣٦٤ هـ، ان هذه الجمعية أول ما تأسست في الاستانة عصر يوم الإثنين في ٨ ذي القعدة سنة ١٣٢٤ هـ. وكان من أعضائها عارف الشهابي، وعبد الكريم الخليل، ونجيب الشهابي، وأحمد عبد المجيد الشهابي، ومظهر رسلان، وزكي الخطيب، وشكري الجندي، وفائز العظم، وهم من الشام كانوا طلاباً في مدارس الاستانة العالية قبيل إعلان الدستور. واشترك معهم اخرون من العراقيين كانوا في مدرسة العشائر العسكرية منهم حسين غصيبة. وقال محب الدين في مقاله انه لا يعرف جمعية قبل هذه تأسست على نية تكوين القومية العربية تكويناً سليماً وفقاً للاسلام ومواريثه العظمى، وصالحاً لبعث تلك المواريث وتأهيلها للعمل. وإنه سافر في العطلة المدرسية ليصف هذه السنة إلى دمشق، وأسس فيها فرعاً من أعضائه لطفي الحفار وجمال الحفار ومحمد الحفار وعثمان مردم وجميل مردم وفايز الشهابي وزكي الخطيب ورشدي الحكيم والدكتور صلاح الدين القاسمي وسامي العظم وآخرون، وإنه سافر إلى اليمن في مناسبة وأسس فرعاً فيها للجمعية، من أعضائها طاهر رجب. وكلام محب الدين يفيد أنه كان من مؤسسي الجمعية في الاستانة وإن لم يذكر نفسه في عداد الأسماء التي ذكرها.

ويؤخذ من سياق جاء في كتاب الأمير مصطفى الشهابي «نشوء القومية العربية»، ان هذه الجمعية قامت بادىء الأمر سرية في دمشق سنة ١٩٠٣ منبثقة من حلقة الشيخ طاهر، هدفها مطالبة

(٣٢) كتاب «صلاح الدين القاسمي»، ص ٧، المقدمة.

الدولة باتخاذ نظام لا مركزي يضمن للعرب حقوقهم في الحكم. وكان من أعضائها محب الدين الخطيب وعارف الشهابي وعثمان مردم ولطفي الحفار وصالح قنباز وصلاح الدين القاسمي. وانتقل بعضهم إلى بيروت، فراحوا يتصلون بمن توسموا فيهم الاستجابة لمبادئهم من طلاب الكلية الأميركية «الجامعة الأميركية الآن»، وكلية الشيخ عباس الأزهري على الأخص. ثم انتقلوا سنة ١٩٠٥ إلى مدارس استانبول، فوجدوا فيها عدداً كبيراً من طلاب العرب، كانوا خالي الذهن من الفكرة القومية، فأخذوا يبثون فيهم الروح ويجلبون بعض المجلات والصحف من مصر ويداولونها بينهم. ثم أنشأوا جمعية أو فرعاً للنهضة كان مؤسساها عبد الكريم الخليل وشكري الجندي، على أن يكون مركزها الثابت في دمشق، وانتخب محب الدين الخطيب أميناً عاماً لها.

ويؤخذ من كتاب «الدكتور صلاح الدين القاسمي» الذي نشره محب الدين أن الجمعية تأسست في أول الأمر في الاستانة سنة ١٣٢٤ هـ «قبل إعلان الدستور بسنتين»، ثم أنشيء فرع دمشق على أن يكون هو المركز العام.

ولعل هذا هو الأصح لمسألة نشوء الجمعية، وإن لم يتضمن حلاً لتاريخها حيث ذكرت تواريخ ١٩٠٣ و ١٩٠٥ و ١٩٠٦ م وسنة ١٣٢٤ المذكورة في كتاب القاسمي موافقة لسنة ١٩٠٦. ولعل الأصل فيها أنها كانت فكرة شباب في دمشق سنة ١٩٠٣، ثم تبلورت وصارت حقيقة في الاستانة ثم في دمشق.

ولقد ذكرت الروايات أنه كان في صيدا جمعية بنفس الاسم، فالمحتمل أن يكون عبد الكريم قاسم الخليل الذي كان من مؤسسي الجمعية في الاستانة هو الذي أنشأها لتكون فرعاً للأصل، وكان هو من أهل منطقة صيدا.

وبالرغم مما جاء في هذه المصادر الأربعة من إطناب في نشوء الجمعية وأهدافها، فليس فيها ما يدل على أنه كان لها نشاط عملي هام قبل إعلان الدستور بل وبعده، إلا ما يمكن أن يكون من أثرها في توعية الشباب الذين اندمجوا فيها. ومن دلالتها على ما كان من روحهم ووعيهم القوميين. ويظهر أن الدكتور القاسمي كان من عناصرها النشيطة، حيث احتوى الكتاب الذي نشره محب الدين عنه خبر محاضرات له كان يلقيها في نادي الجمعية، ومقالات عديدة في مختلف المواضيع القومية والاجتماعية كان ينشرها في جريدة المقتبس.

٥ ـ وهناك جمعيتان عربيتان ذكرت المصادر خبر انشائهما في باريس في أوائل القرن الماضي. واحدة أنشأها نجيب عازوري الذي فر من اضطهاد الحكم الحميدي اسمها «جمعية رابطة الوطن العربي» سنة ١٩٠٤ م، كانت تدعو إلى تحرير بلاد الشام والعراق من سيطرة الترك، وتوجه نداءات نارية تحض العرب على الثورة عليهم، وثانية أنشأها خيرالله خيرالله باسم «عصبة الوطن العربي» سنة ١٩٠٥ م كانت تدعو إلى نفس الدعوة.

٦ ـ ولما ألغى السلطان عبد الحميد الثاني النظام الدستوري الذي أعلنه لأول مرة سنة ١٢٩٣ هـ ـ ١٨٧٦ م عقب جلوسه، على ما سوف يأتي شرحه، بعد هجر كثير من ذوي الفكر الحر

من رجال الترك والعرب ونوابهم في المجلس النيابي الملغى بلاد الدولة إلى أوروبا، لأن السلطان سار على الأسلوب الاستبدادي، وأخذوا يناضلون ضد السلطان وحكمه، وقد انقسموا إلى فريقين في صدد الخطة التي يجب أن تسير عليها الدولة، حيث ارتأى فريق منهم بزعامة البرنس صباح الدين ابن أخت السلطان محمود جد السلطان عبد الحميد أن تكون الخطة هي اللامركزية، بسبب تعدد العناصر في الدولة وتباينها وسعة رقعتها، وارتأى فريق بزعامة أحمد رضا الذي صار رئيساً لمجلس النواب حينما أعلن الدستور للمرة الثانية سنة ١٩٠٨، على ما سوف يأتي شرحه، كذلك أن تكون المركزية، لأنها تضمن قوة التماسك والترابط بين الولايات العثمانية، في حين أن اللامركزية قد تؤدي إلى التفكك وضعف التماسك والترابط. وقد أنشأ كل فريق من الفريقين جمعية لبذل الجهود في إرغام السلطان عبد الحميد على إعادة الدستور، وفي نشر مساوىء عهده وحكمه. وأنشأوا الصحف في البلاد الأوروبية لنشر دعاياتهم. وكان كل من الجمعيتين يبشر بالفكرة أو الخطة التي يفضل أن يسير عليها الحكم الدستوري المرتقب. وكانت الجمعية التي أنشأها صباح الدين وصحبه تسمى «جمعية عدم مركزيت» أي اللامركزية. والجمعية التي أنشأها أحمد رضا وصحبه تسمى جمعية «الاتحاد والترقي». وفي رواية «جمعية الحرية العثمانية». وكان من أحرار العرب الذين لجأوا إلى أوروبا، بعد إلغاء الدستور والسير في الحكم الاستبدادي من انتسب إلى الجمعية الأولى، وكان منهم من انتسب إلى الثانية.

ولقد أنشأت الجمعيتان فروعاً لهما في بلاد الدولة ومنها بلاد العرب. ومما عرف أنه أنشيء لجمعية اللامركزية فرع في دمشق وآخر في اللاذقية وثالث في بيروت. وكان من أعضاء فرع بيروت محمود العلايلي. ومن أعضاء فرع دمشق رفيق العظم وحقي العظم. ولقد لجأ رفيق العظم وحقي العظم ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي وكثيرون آخرون من بلاد الشام إلى مصر، حينما اشتدت وطأة الاستبداد في عهد السلطان العثماني. كما لجأ إليها بعض رجالات الترك والشركس والأرمن أيضاً. وقد أنشأ اللاجئون جمعية باسم «جمعية الشورى العثمانية» وأنشأوا فروعاً لها في بعض مدن مصر غير القاهرة، وفي بعض بلاد الدولة العثمانية الأخرى. وكانت تصدر المناشير التي تهاجم فيها حكم السلطان عبد الحميد وتدعو إلى الانتفاض عليه، وأصدروا جريدة باسمها في مصر كان يتولاها حقي العظم. وقد ذكر في كتاب ألفه الدكتور إبراهيم العدوى بعنوان (رشيد رضا الإمام المجاهد) ان السيد رشيد كان رئيس هذه الجمعية.

ولقد أنشأ فريق من ضباط الدولة العثمانية ورجالاتهم المدنيين جمعية سرية سموها (جون ترك) أو (تركية الفتاة)، اندمج فيها فريق من ضباط العرب ورجالاتهم أيضاً. وطبيعي أن اندماج رجالات العرب مع غيرهم في هذه التكتلات والجمعيات يصح أن يسجل لهم في سجل التكتلات التي عملوا في نطاقها، والتي يتم اندماجهم فيها عن وعي وتنبه قوميين وسياسيين معاً. وهذا ما برر لنا ما سجلناه.

٧ ـ وفي كتاب الثورة العرابية لعبد الرحمن الرافعي خبر جمعيتين سياسيتين، أولاهما جمعية

سميت باسم (الحزب الوطني)[٣٣] أنشأها فريق من عظماء وعلماء ونبهاء مصر، كانوا ناقمين من تغلغل النفوذ الأوروبي في الحكومة المصرية فألفوا الجمعية المذكورة سنة ١٨٧٨ م، وكانوا يطالبون بمنع ذلك التغلغل، وباشراك ممثلي الشعب في الحكم، وإقرار حقهم في مراقبة الحكومة، وإجراء الإصلاحات الضرورية في القوانين والمصالح. وممن سمي من الأسماء شريف باشا، وسلطان باشا، وإسماعيل راغب باشا، وعمر لطفي باشا، وشاهين باشا. وكانوا ينشرون المناشير بأهدافهم ويوزعونها سراً، واتفقوا مع الكاتب السوري المشهور أديب إسحق على إصدار جريدة (مصر) ثم جريدة (التجارة) لنشر دعوتهم. وعطلت السلطات الجريدتين واحدة بعد أخرى، فأرسلوا أديب إسحق إلى باريس حيث أصدر جريدة عربية باسم (القاهرة)، أخذت تشن حملات شديدة على الخديوي وحكومته.

أما الجمعية الثانية فهي جمعية (مصر الفتاة)[٣٤] وقد نشأت في الاسكندرية في نفس الظروف ولنفس الغاية، وكانت تصدر جريدة باسمها.

وقد كانت الجمعيات من مظاهر حركة الوعي الوطني في مصر من جهة، وكان لهما أثر مباشر في الحركة العرابية التي شرحناها من قبل من جهة أخرى.

ولقد جاء ذكر اسم الجمعية الثانية في كتاب «الدرر» الذي يحتوي مختارات من شعر ونثر وخطب ومقالات أديب اسحق المذكور آنفاً، والذي هو من أهل دمشق وهاجر إلى مصر في أوائل الثلث الأخير من القرن السابق، ونشط في ميدان الأدب والصحافة وصار له فيهما قدم وشهرة. ويستفاد من سياق كلامه عن الجمعية أنه كان من مؤسسيها ومؤسساً للجريدة التي تنطق بلسانها، حيث يذكر أنه كتب بشأنها كتاباً إلى الأمير عبد القادر الجزائري الشهير الذي كان توطن في دمشق في أوائل النصف الثاني من القرن السابق، بعد أن قمع الافرنسيون حركته الثورية التي كان لها لمعان قوي طيلة خمس عشرة سنة في الجزائر ضدهم. وليس في كلام أديب اسحق بيان شاف عن الجمعية التي يدل اسمها على أنها جمعية قومية سياسية. وقد ارخ الكونت طرزي في كتابه تاريخ الصحافة تاريخ صدور جريدة مصر الفتاة في سنة ١٨٧٧ م، فتكون الجمعية قد نشأت في هذه السنة أو التي قبلها.

٨ ـ وقد نبهنا على أن الحزب الوطني السابق ذكره هو غير الحزب الوطني الذي أنشأه مصطفى كامل بعده بنحو ثلاثين سنة. وهو جدير بأن يسلك في سلك التكتلات السياسية العربية بدوره.

ولقد بدأ مصطفى كامل ورفاقه الوطنيون نضالهم ضد الاحتلال الانكليزي منذ أواخر القرن التاسع عشر دون أن يجمعهم تنظيم حزبي. وفي كانون الأول سنة ١٩٠٧ دعا مصطفى كامل جمعاً

---

(٣٣) ظاهر أنه غير الحزب الوطني الذي أنشأه مصطفى كامل، وسوف نذكر هذا بعد.

(٣٤) في الأربعينات من هذا القرن أنشأ بعض شبان مصر جمعية بهذا الاسم من أركانها أو زعمائها أحمد حسين وفتحي رضوان على ما يرد إلى الذاكرة.

كبيراً من رجالات وشباب مصر الواعين إلى اجتماع عام، ومنهم كثيرون من رفاقه في النضال، ولبى الدعوة زهاء مئتين وايدها مع الاعتذار زهاء (٨٠٠)، وانعقد في ٢٧ من الشهر المذكور فتقرر فيه انشاء الحزب واسمه ونظامه، وانتخبت أول هيئة إدارية له من ثلاثين عضواً. ومكتب لهذه الهيئة من ستة أعضاء هم محمد فريد، وأحمد فائق باشا، وفؤاد بك سليم، وعمر بك سلطان، وعلي بك المنزلاوي، ومصطفى بك الخادم، بالاضافة إلى مصطفى كامل الذي ثبت كزعيم ورئيس للحزب. ولقد ظل الحزب قائماً إلى ما بعد سنة ١٩٠٨ بمدة طويلة. وكان وظل ينضوي إليه فريق كبير من شباب العرب في مصر. وكانوا وظلوا مثالاً نادراً لقوة العقيدة، وصلابة المبدأ، وكان له جريدة اسمها «اللواء» تنطق باسمه. وكان يحررها أمين الرافعي أحد أعضاء الحزب الصلاب الأقوياء. ولقد مات مصطفى كامل في سنة ١٩٠٨، فكان لنعيه رنة أسف شديد في مصر وسائر بلاد العرب. وكنا واعين ومن جملة المتأثرين.

ولقد رثاه الشعراء بمراث تنطوي على ما كان له من حيز وأثر وما كان لوفاته من أسى ولوعة في النفوس.

ولقد كان جم النشاط، خطيباً مفوهاً بالعربية والافرنسية، وكاتباً قوياً، فكان لمواقفه الخطابية ومقالاته القوية صدى عظيم في الأفكار والأوساط السياسية العربية والأجنبية. وكان يسافر من آن لآخر إلى أوروبا، فيكتب المقالات ويعقد الاجتماعات والندوات ويرسل المذكرات، ويتصل برجال السياسة الرسميين وغير الرسميين فشغل بكل ذلك حيزاً عظيماً. وكان له أثر كبير في تقوية الوعي والحركة الوطنية المصرية والعربية، ومات في ريعان شبابه فخسرت الأمة العربية مجاهداً نابغاً عبقرياً.

ولقد خلفه في زعامة الحزب محمد فريد «١٨٦٨ - ١٩١٩». وكان من أعظم مؤيديه ومناصريه وخلصائه، واستمر على سيرة سلفه في النضال السياسي داخل مصر وخارجها. وتعرض في سبيل ذلك للسجن والتشرد، وكان ميسوراً، فأنفق ثروته في سبيل القضية، ومات في الغربة ونقلت رفاته إلى مصر سنة ١٩٢٠ وكان له موكب حافل، ورثي بمراث بليغة، ثم حل محله حافظ رمضان. وكانت مصر قد تحركت بحركتها الثورية في سنة ١٩١٩ مطالبة بالاستقلال، بزعامة سعد زغلول وأعضاء الوفد، فاندمج أعضاء الحزب الوطني في حركة النضال إلى أن وصلت في سنة ١٩٢٢ إلى مرحلة اعتراف الانكليز باستقلال مصر، مع الاحتفاظ بهيمنتهم عليها إلى أن تتم تسوية الشؤون المعلقة ووضع العلاقات في قالب عهدي. وانبثق عن الوفد المصري احزاب اخرى، فصارت تتصارع هي وحزب الوفد على الحكم من جهة، ومع الانكليز بسبيل تركيز الاستقلال وتوثيقه من جهة أخرى. وصارت هي الشاغلة للميدان السياسي بالدرجة الأولى. ولم يعد للحزب الوطني شأن ايجابي وفعلي فيه. وإن كان ظل ممثلاً للحزبية العقائدية التي لا ترى سواغاً للمفاوضة والمهادنة مع الانكليز وتعارض ذلك.

٩ - وفي كتاب «تاريخ الامام محمد عبده» للسيد رشيد رضا اسم جمعية سياسية سرية هي «جمعية العروة الوثقى»، اسسها على ما يستفاد من سياق السيد رشيد الإمامان جمال الدين الأفغاني

ومحمد عبده. وكانت تهدف إلى تحرير مصر والشرق من الاستعمار، وإقامة خلافة تعيد للإسلام مجده في ظل الجامعة الإسلامية، وكان نظامها يفرض على الأعضاء قسماً بالطاعة لكل أمر، واقراراً بسبيل تحقيق الغاية وعدم افشاء سر الجمعية. وكان تأسيسها سنة ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٣ م.

ولقد كان الإمام الأفغاني ارتحل إلى أوروبا واستقر فترة في باريس، فاستدعى الامام عبده واصدرا معاً سنة ١٨٤٤ م مجلة باسم الجمعية بمثابة لسان حال لها. وكانت تنشر المقالات التي تتفق مع غاية الجمعية، وليس في سياق السيد رشيد وضوح فيما إذا كان انشاء الجمعية في مصر أم في باريس، وإن كان تقارب الوقت الذي صدرت فيه المجلة وانشئت فيه الجمعية يسوغ القول، إن ذلك كان في باريس، وليس في كتاب السيد رشيد اسماء لأعضاء الجمعية ولا أخبار عن نشاطها.

١٠ ـ وإلى هذه الجمعيات السياسية والقومية فقد نشأت في بلاد العرب قبل اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ جمعيات علمية، كانت تهدف إلى إنشاء المدارس والحض على العلم ونشره. وساهمت بالنتيجة في النهضة العربية التي تولدت منها الحركة العربية الحديثة، منها ما أنشأه رجال، ومنها ما أنشأه نساء، ومنها ما أنشأه الجنسان معاً، من أقدمها وأشهرها في بيروت جمعية شمس البر «سنة ١٨٦٩ م» وجمعية المقاصد الخيرية «سنة ١٨٨٠»، وجمعية زهرة الاحسان «١٨٨٠»، وجمعية يقظة الفتاة العربية «١٨٨٥». وفي حمص جمعية نور العفاف «١٨٩٨»، وفي دمشق جمعية رابطة المحبة «١٨٧٧»، وجمعية المقاصد الخيرية «١٨٧٨». وفي مصر الجمعية الخيرية «١٨٦٨»، وجمعية زهرة الآداب «١٨٧١»، والجمعية العلمية «١٨٧٧»، والجمعية الخيرية الإسلامية «١٨٧٨»، وجمعية المقاصد الخيرية «١٨٩٠»، وجمعية العروة الوثقى «١٨٩١»، وجمعية المكارم الأخلاقية «١٩٠٠»، وجمعية الملاجىء العباسية «١٩٠١». وربما كان هناك جمعيات أخرى لم نطلع على أسمائها وأخبارها فيما تسنى لنا من مصادر، وفي كتاب تاريخ الإمام محمد عبده جميعة اسمها «جمعية احياء الكتب العربية» وهي مهمة في بابها.

ويفيد اشتراك المرأة وانفرادها في الجمعيات العلمية والأدبية أن المرأة العربية أخذت هي الأخرى تسهم في النهضة العلمية الأدبية في هذا الدور، وإن كان من الحق أن يقال ان نطاق ذلك كان ضيقاً.

وجمعية العروة الوثقى المذكورة في عداد الجمعيات الأخيرة هي غير جمعية العروة الوثقى التي ورد ذكرها في كتاب «حياة الامام محمد عبده» وذكرناها قبل، فتلك سياسية أنشئت سنة ١٨٨٣ م وهذه علمية انشئت سنة ١٨٩١ كما هو ظاهر.

- ٤ -

ونعود إلى إتمام ما أوردناه من بيانات عن بوادر النهضة العربية، وقد وقفنا قبل الاستطراد السابق عند آخر البند العاشر.

ثاني عشر: وفي صدد المدارس على الأسلوب الحديث، التي أسهمت في تقوية الوعي

والنهضة في بلاد العرب اسهاماً كبيراً نقول، إن التعليم في البلاد العربية على الأسلوب الحديث قد بدأ في القرن الثامن عشر الميلادي. وكان قبل ذلك في المساجد والأديرة وقاصراً على العلوم الدينية واللغوية. ثم فيما يسمى بالكتاتيب التي كان ينشئها المشايخ المسلمون والرهبان النصارى بجهدهم الذين كانت ثقافتهم محدودة، وتعيش كتاتيبهم على ما كانوا يأخذونه من الطلاب من أجور زهيدة نقدية وعينية، ويعلم فيها القراءة والكتابة والقرآن والإنجيل وشيء من الحساب واستمرت إلى أمد ما مع المدارس التي أنشئت على الأسلوب الحديث. وليس من اليسير احصاء المدارس التي نشأت في بلاد العرب على الأسلوب المذكور إلى اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، ولذلك سوف نكتفي بأولياتها المعروفة وبإجمال عنها.

ومما تذكره بعض المصادر أن الطائفة المارونية في بيروت ولبنان كانت أسبق من غيرها في هذا المضمار، حيث انشأت مدرسة في زغرتا عام ١٧٣٥ م وأخرى في عين ورقة عام ١٧٨٩. وكانت الأخيرة تعنى خاصة بتدريس الأدب العربي، وقد تخرج منها أدباء وأساتذة القرن التاسع عشر الذين كان لهم أثر ومساهمة في النهضة العربية الحديثة، ومنهم الشيخ ناصيف اليازجي والمعلم بطرس البستاني اللذان مر ذكرهما.

ومن الممكن أن يعد والي مصر محمد علي الكبير من رواد النهضة التعليمية على الأسلوب الحديث، بما أخذ ينشؤه منذ أوائل القرن التاسع عشر من المدارس العديدة المتنوعة الأهداف والدرجات. وكان يرسل شباناً نابهين إلى أوروبا وبخاصة إلى فرنسة، ليتعلموا ثم يعودوا فيعلموا في هذه المدارس. وحينما بسط ابراهيم باشا حكمه على بلاد الشام في العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر، على ما ذكرناه قبل، انشأ مدارس عديدة ابتدائية وثانوية ومدنية وعسكرية على غرار ما أنشأه أبوه في مصر.

ولقد ظلت الحركة العلمية والتعليمية في مصر مستمرة زاهرة بعد محمد علي وابراهيم، وكان لوزيرين نابهين بنوع خاص، توليا معارف مصر في أواسط وأواخر القرن التاسع عشر، أثر مذكور في اشتداد هذه الحركة واستمرارها.

ومن الحق أن يذكر في هذا السياق جامع الأزهر في مصر حيث كان يؤمه طلاب من كل بلاد العرب والإسلام، بالإضافة إلى أبناء مصر، فينهلون من منهله، ويعودون إلى بلادهم فيكون لهم الأثر في التنوير والتثقيف.

ويأتي بعد ذلك في الذكر عهود البعثات التبشيرية الأميركية والافرنسية والانكليزية والطليانية والروسية، التي أخذت تنشىء في أوائل القرن التاسع عشر المدارس العديدة في أنحاء بلاد الشام حتى صارت تعد بالمئات(٣٥). مع التنبيه على أنها كانت تبشيرية مسيحية من جهة، وان كلاً منها

---

(٣٥) قرأنا في كتاب: أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، لانيس النصولي احصاء منقولاً عن كتاب افرنسي في عدد مدارس وطلاب المدارس الافرنسية التي أنشأتها البعثات الافرنسية الدينية وغير الدينية في بلاد الشام، ونورده فيما يلي، مع شكنا في بعض الأرقام، وترجيحنا أنها مزيجة لمدارس وطلاب غير افرنسية وحكومية وغير حكومية. وقد جاء في الاحصاء أنه كان في سنة ١٩٠٠ م في بيروت مدرستان عاليتان للذكور فيهما=

كان يعلم لغة بلاده وتاريخها في الدرجة الأولى ويتوخى مآرب سياسية استعمارية من جهة أخرى. مما كان له أثر كبير في تناقض أفكار الناشئة العربية التي كانت تؤمها وأهدافها وان كان لها أثر لا ينكر في نشر العلم والمعرفة.

ومما تذكره المصادر أن اليسوعيين كانوا أسبق من غيرهم في هذا المضمار. حيث أنشأوا سنة ١٧٣٥ م أولى مدارسهم في عينطورة في لبنان، ثم أنشأوا سنة ١٨٣٩ مدرسة في بيروت، وسنة ١٨٤٣ مدرسة في غزير، وسنة ١٨٤٤ مدرسة في زحلة، وسنة ١٨٧٢ مدرسة في دمشق، وسنة ١٨٧٣ مدرسة في حلب. وقد تطورت مدرسة غزير حتى صارت (جامعة القديس يوسف) التي اشتهرت باسم الجامعة اليسوعية أيضاً سنة ١٨٧٥، والتي تخرج منها آلاف الطلاب في مختلف العلوم والفنون، وما زالت قائمة إلى اليوم يتخرج منها كل سنة عشرات الطلاب. وكانت وما زالت تبشيرية وافرنسية اللغة والهوى.

وكان للأميركان نشاط مبكر أيضاً، وكانت أولى مدارسهم مدرسة في بيروت سنة ١٨٢٤. وقد بلغ عدد المدارس التي أنشأوها حتى عام ١٨٦٠ (٣٣)، فيها ما يقرب من ألف طالب وطالبة، وكان الطالبات نحو الخمس. ويذكر النصولي في كتابه المذكور نقلاً عن مجلة المقتطف، ان مدارس الأميركان في سورية ولبنان في سنة ١٨٨٢ بلغت (١٣٠) مدرسة متنوعة. ثم أنشأوا سنة ١٨٦٦ الكلية السورية الأميركية البروتستانتية تطويراً لمدرسة لهم في عبيه. وقد تطورت فصارت الجامعة الأميركية التي تخرج منها هي الأخرى آلاف الطلاب العرب، وكانت الانكليزية اللغة التبشيرية في الوقت نفسه، غير أن فكرة التبشير تضاءلت فيها مع الزمن، أو ارتفعت عن المعنى المتعارف لهذه الكلمة. وكانت حرة النزعة أكثر من اليسوعية، فكان لخريجيها مساهمة فعالة في حركة الوعي القومي العربي.

وقد أنشأت جمعية أميركية اسمها (جمعية الفرندس) في رام الله مدرسة صارت كلية، وكانت على غرار الجامعة الأميركية في اعتدالها في التبشير وحرية النزعة، وكان يؤمها كثير من طلاب العرب على اختلاف نحلهم.

وللأميركان كلية من نفس النمط في بئر زيت أيضاً. أما البعثات الانكليزية والروسية

= ٥٠٦ طلاب، ومدرسة ثانوية للذكور فيها ٢٣١ طالباً، وأخرى للاناث فيها ١٠٠ طالبة، و ١٠٠ مدرسة ابتدائية للذكور فيها ٣٨٤٨ طالباً، و (١٣) للاناث فيها (٢٩٠٢) طالبة. (يلاحظ التفاوت بين عدد مدارس وطلاب مدارس الذكور والاناث). وفي عكا ١٧ مدرسة ابتدائية للذكور فيها ٧٣٣ طالباً، وخمس للاناث فيها ٩٤٠ طالبة، وفي طرابلس مدرسة ثانوية للذكور فيها ١٢٧ طالباً، وخمس مدراس ابتدائية للذكور فيها ٢٦٩ طالباً، وثلاث للاناث فيها ٦٣٥ طالبة. وفي جبل لبنان أربع مدارس عالية للذكور فيها ٤٠٠ طالب، ومدرسة للاناث فيها (١٩٠) طالبة، وخمس مدارس ثانوية للذكور فيها ٧٣٠ طالباً، وواحدة للبنات فيها ١٠٠ طالبة. و ١٨ مدرسة ابتدائية للذكور فيها ١٧٣٠ طالباً، و ١٦ للاناث فيها ٥٧٧ طالبة. وفي دمشق أربع مدارس ثانوية للذكور فيها ١٣٦٠ طالباً، و ٣٤٨ مدرسة ابتدائية للذكور فيها ٦٩٩٥ طالباً وثماني مدارس للاناث فيها ٥٣٣ طالبة. وفي حماه (٦٢) مدرسة ابتدائية للذكور فيها ١٠٥٠ طالباً، و ٢٣ للاناث فيها ٥٦٥ طالبة، وفي حوران أربع مدارس ابتدائية للذكور فيها ٢١٠ طلاب. ويكون المجموع ٧٠٧ مدارس فيها (٢٥٩٣١) طالباً وطالبة...

والطليانية فأكثر ما كانت تنشئه مدارس ابتدائية. وقد أنشأت عدداً منها في لبنان وسورية وفلسطين والأردن قبل الدستور العثماني سنة ١٩٠٨. وللطليان كلية في القدس هي كلية تير سنتا.

وما ذكرناه ليس كل شيء من آثار البعثات الأجنبية التعليمية والجهود الطائفية المحلية. فقد ذكر يوسف الحكيم في كتابه (سورية والعهد العثماني) انه كان لبعثات روسية وافرنسية وأميركية مدارس عديدة في اللاذقية والأقضية التابعة لها، وكان الاقبال عليها عظيماً، وكان طلابها مسيحيين ومسلمين وإن كانت كثرتهم من المسيحيين، وكان فضلاً عن مدارس هذه البعثات مدارس عديدة أنشأها رجال دين من المسلمين والمسيحيين العرب لتعليم أبناء طوائفهم بالأسلوب الحديث.

والأرجح أنه مثل كل ذلك كان في مدن كثيرة أخرى في انحاء بلاد الشام.

ولقد أخذت الدولة العثمانية تنشىء أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر مدارس حديثة الأسلوب في المدن الكبيرة والصغيرة من بلادها. ومن جملتها مدن الولايات العربية، أي سورية وبيروت والقدس ودير الزور وبني غازي وبغداد والموصل والبصرة واليمن والحجاز وطرابلس الغرب. منها الابتدائي ومنها الرشدي، ومنها الاعدادي ومنها العالي ومنها المدني ومنها العسكري، على ما سوف نزيده شرحاً بعد.

وقد تخرج الألوف من المدارس الاعدادية والمئات من المدارس العالية قبل الدستور ١٩٠٨. وكان لهم أثر فعال في مركز الوعي القومي العربي قبل إعلان هذا الدستور.

ولقد أنشأت الهيئات والجمعيات العلمية التي ذكرنا اسماء بعضها في البند السابق عدداً من المدارس للذكور والاناث في بيروت ودمشق ومصر. ولقد كان بعض الأفراد ينشئون مدارس لحسابهم أيضاً. ولقد كان في عام ١٨٨٢ م في بيروت مثلاً أكثر من مئة مدرسة، فيها نحو (١٢٠٠٠) طالب وطالبة، يعلم فيها نحو (٥٠٠) معلم ومعلمة. وكان في دمشق في نفس الظرف مدارس عديدة ابتدائية ورشدية وإعدادية منها مدارس حكومية، ومنها مدارس خصوصية وطائفية. ومما ذكرته بعض المصادر أنه كان فيها ٣٥ مدرسة للطوائف غير الإسلامية، و١٠٢ مدرسة للمسلمين منها ٢٨ مدرسة للإناث.

ويصح أن يخص بالذكر أربع مدارس في بيروت كان يؤمها الطلاب من مختلف الملل، وكان لخريجيها أثر فعال في حركة الوعي العربي. وهي (المدرسة الوطنية) التي أنشأها المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٣، و(المدرسة البطريركية) التي أنشأها بطرك الروم الكاثوليك سنة ١٨٦٥، ومدرسة (الحكمة) التي أنشأها المطران الدبس سنة ١٨٧٤، و (الكلية العثمانية) التي أنشأها الشيخ أحمد عباس الأزهري سنة ١٨٧٦ م.

وما تقدم هو تسجيل للبوادر قبل سنة ١٩٠٨، التي كان نطاقها يتسع سنة بعد سنة سواء من جانب الحكومة أم من جانب الهيئات والأفراد.

ولقد أخذ النطاق يتسع بعد سنة ١٩٠٨ وطيلة السنين العشر التي ظلت بلاد العرب فيها

تحت حكم الدولة العثمانية، على اختلاف المدى بما لا يقاس عليه ما كان قبل هذه السنة من الناحيتين. وكان حظ البنات والقرى من ذلك غير يسير. وصار انشاء المدارس والتعليم على اختلاف الدرجات والمدى من الشؤون الهامة التي تحرص الحكومة والهيئات والأفراد عليها، ويشتد الجهد في سبيلها في مختلف البلاد العربية.

ونذكر بالمناسبة جهداً شخصياً لنا في هذا السبيل في نابلس حيث اسست أنا وبعض رجال نابلس النيرين، منهم ابراهيم القاسم عبد الهادي، والحاج حسن حماد، وكامل هاشم، والحاج نمر النابلسي، جمعية باسم (الجمعية العلمية العربية) عام ١٩١٣ في ظرف اشتداد تيار الحركة العربية القومية، غايتها انشاء مدارس لتعليم الناشئة تعليماً عربياً قومياً، وجمعنا بعض المال، ومثلنا رواية بسبيل ذلك لعلها الأولى من نوعها، وضممنا ريعها لما جمعناه واودعنا المال في البنك الألماني، وقدمنا طلباً للحكومة للترخيص بفتح مدرسة عربية وحصلنا على رخصة باسمي. غير أننا لم نستطع تنفيذ العمل بسبب تعثر الخطوات من جهة، وتجهم الموقف العربي التركي من جهة، ومداهمة إعلان النفير الحرب في أواسط سنة ١٩١٤، فالحرب من جهة. وقد أغلق البنك وذهب المال المودع به...

ومن الحق أن ننبه على أمر، وهو أنه برغم ما يبدو من كثرة المدارس، فإن حصيلتها العامة بالنسبة للمجموع كانت ضئيلة جداً. وإذا كان ليس من الممكن إيراد نسبة صحيحة للمتعلمين أو لغير الأميين بالنسبة للأميين، فإننا لا نتجاوز الواقع إذا قلنا ان كل ما أنشىء من مدارس قبل إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ على اختلاف أنواعها ودرجاتها، لم تكن تستوعب أكثر من ربع من هم في سن الدراسة من بنين وبنات في المدن والقرى على أحسن تقدير. وان ثلاثة أرباعهم يظلون بدون مدارس وأميين. فضلاً عن أن غير الأميين ممن تجاوزوا سن الدراسة تصل نسبتهم إلى تسعين بالمئة...

وثالث عشر: وفي صدد حركة الطباعة العربية، قبل إعلان الدستور سنة ١٩٠٨، نقول، إن هذه البلاد رافقت أوليات مظاهر نشاط النهضة. وكانت وسيلة من وسائل اتساع نطاق الوعي في البلاد العربية بما كان يصدر عنها من صحف ومجلات ونشرات ورسائل وكتب عربية الأصل أو مترجمة عن اللغات الأجنبية. ولسنا بسبيل الاستقصاء فنكتفي بذكر الأوليات والبوادر. ومما يؤثر ان حلب سجلت سبقاً في هذه الحركة، حيث قام فيها أولى المطابع العربية وذلك سنة ١٧٠٢ م، وإن اقتصر نشاطها على طبع بعض الكتب الدينية والأوراق التجارية. ومن أولى المطابع العربية ذات الانتاج المتنوع والواسع نوعاً ما المطبعة التي جاءت بها حملة نابوليون الافرنسية إلى مصر في أواخر القرن الثامن عشر. وكانت تطبع مراسيم ومنشورات الحملة باللغة العربية. وكان بعض هذه المنشورات ينوه بالثورة الافرنسية التي انفجرت في تموز سنة ١٧٨٩، والتي كان شعارها الحرية والاخاء والمساواة بسبيل الدعاية لفرنسة والتحبيب بها وتقرير كون الحملة إنما جاءت لنشر وتحقيق هذا الشعار.

ومن أولى ما يذكر من المطابع العربية، مطبعة في الاستانة عاصمة الدولة العثمانية انشئت

سنة ١٨١٦ م، ومطبعة في القاهرة سنة ١٨٢٢. وقد اشتهرت الأخيرة باسم مطبعة بولاق أو المطبعة الأميرية، وقد أنشأها والي مصر محمد علي، وكان يطبع فيها جريدة الحكومة الرسمية المعروفة باسم (الوقائع المصرية)، ومنشورات الحكومة ومراسيمها والكتب المدرسية التي كانت تدرس في المدارس التي أنشأها هذا الوالي. وقد استمرت تعمل بعده. وطبع فيها كثير من الكتب العربية المخطوطة القديمة أو المؤلفة حديثاً، أو المترجمة إلى العربية عن اللغات الأجنبية.

وقد بلغ عدد الكتب التي طبعت فيها بين سنتي ١٨٢٢ و ١٨٣٠ نحو خمسين. وارتفع العدد في نهاية سنة ١٨٥٠ إلى ثلاثمئة في مختلف الشؤون الأدبية والتاريخية والفنية. ومن أولى المطابع العربية المطبعتان الأميركية واليسوعية في بيروت اللتان انشئتا في أواسط القرن التاسع عشر. ومما ذكرته المصادر أن عدد المطابع التي انشئت في القدس بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٧١ قد بلغ احدى عشر.

ولقد صدر في جميع بلاد العرب مشرقها ومغربها قبل سنة ١٩٠٨ أكثر من (٨٠٠) جريدة ومجلة على ما سوف نذكره بعد. ومن هذا العدد (٦٥٠) في مصر وحدها مما يسوغ القول إن عدد المطابع في مصر كان كبيراً جداً. ولقد كان يصدر في كل من دمشق وبغداد والموصل والبصرة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش بعض الجرائد والمجلات، مما يسوغ القول انه كان فيها مطابع وحركة طباعة. وليس إلى الاحصاء والأسماء سبيل ولا ضرورة فنكتفي بهذا الاجمال.

ولقد رافق إنشاء المطابع العربية واتساع نطاق حركة الطباعة نهضة علمية. حيث تسنى طبع كثير من الكتب العربية المخطوطة القديمة من دينية وتاريخية وأدبية. وحيث طبع كثير من الكتب العربية المؤلفة حديثاً في مثل ذلك. وطبع كثير من الكتب مترجمة عن اللغات الأجنبية في مواضيع مختلفة.

ولقد كان لمصر الشوط الأكبر من الجهد في هذا المجال مما هو متساوق مع ما كان من سعة نطاق الطباعة والنهضة العلمية فيها.

ولقد روي أن ما طبعته مطبعة بولاق وحدها بين سني ١٨٣٢ و ١٨٤٢ من الكتب المترجمة عن اللغات الأوروبية قد بلغ ٢٤٣، وبلغ عدد الكتب التي ترجمتها مدرسة الألسن التي كان أنشأها الوالي محمد علي واستمرت بعده في نفس الفترة الفي كتاب. ناهيك بما يمكن أن يكون قد طبع من مخطوطات قديمة عربية ومؤلفات عربية حديثة التأليف. ومن هذه الكتب ما كتبه الذين تعلموا من أبناء مصر في أوروبا من كتب عديدة في أحداث وشؤون وحضارة الغرب، ودعواتها إلى الحرية والمساواة، وحكم الشعب والديموقراطية مما كان له أثر في التوعية والتنبيه. وكان لبلاد الشام وبخاصة لبيروت جهد كبير في هذا المجال.

ولقد روي أن عدد نسخ الكتب العلمية والأدبية التي طبعتها المطبعة الأميركية وحدها في بيروت في عام ١٨٦١ قد بلغ (٥٧٥٠٠)، بيع منها في نفس السنة (١٥٧١٥) من الكتب الأدبية، و (٢٣٤٧٢) من الكتب العلمية. واستمر هذا الجهد يتسع سنة بعد سنة بقية القرن التاسع عشر

إلى سنة ١٩٠٨. وهو متمثل في آلاف الكتب العلمية والتاريخية والأدبية والدينية الأصلية والمترجمة والقديمة، تضمها المكتبات العامة والخاصة في مختلف بلاد العرب وغيرها مما يعود صدوره إلى ما قبل سنة ١٩٠٨ م. وصار ينشأ في المدن العربية مكتبات عامة تضم آلاف الكتب المختلفة المواضيع. فيتردد الناس عليها، وينهلون من مواردها. وصار الأفراد والأسر ينشئون في بيوتهم مكتبات خاصة تضم المئات والألوف من الكتب كان ينتفع بها غيرهم أيضاً، مما كان له بدوره أثر في النهضة العلمية العربية الحديثة.

ومن أشهر المكتبات العامة دار الكتب الخديوية التي صار اسمها دار الكتب المصرية، ومكتبة الأزهر، ومكتبة الكلية ـ الجامعة الأميركية، ومكتبة الكلية ـ الجامعة اليسوعية، والمكتبة الظاهرية في دمشق، والمكتبة الخالدية في بيت المقدس، وإن كانت هذه مكتبة أسرية في الدرجة الأولى لها نظائر في حلب وبغداد ودمشق والقاهرة وغيرها.

ولقد صار ينبثق عن هذه الحركة دعوات إصلاحية متنوعة. فقد اشتدت الدعوة إلى العلم وانشاء المدارس على الأساليب الحديثة، وبيان ما للجهل من آثار على الأمة والبلاد من مختلف النواحي. وكان لذلك أثره فيما كان من اتساع نطاق المدارس والتعليم الحديث. وأخذت الأصوات ترتفع منذ أواسط القرن التاسع عشر بوجوب تعليم البنات أسوة بالصبيان؛ وتحرير المرأة وإحلالها في محلها الإنساني الكريم في المجتمع كالرجل، وبالتنبيه على ما لبقاء المرأة جاهلة مضطهدة محرومة من حقوقها وإنسانيتها من آثار على الأمة والبلاد من مختلف النواحي، لأنها نصف المجتمع، ومربية الناشئة وحاضنتها مما عبر عنه حافظ ابراهيم شاعر النيل في أبياته المأثورة هذه:

مَنْ لي بتربية النساء فإنّها ... في الشرقِ عِلّة ذلك الإخفاقِ
الأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتَها ... أعددتَ شعباً طيّبَ الأعراقِ

ومن أوائل من سجل لهم التاريخ صوتاً في ذلك رفاعة الطهطاوي في الثلث الأول من القرن التاسع عشر والذي كتب كتباً عديدة فيها دعوة إلى التجدد والإصلاح في مختلف الميادين. وكان ممن أرسلهم الوالي محمد علي إلى أوروبا ليتعلموا ويعودوا فيعلموا. وكان جم النشاط ثاقب البصيرة. ثم بطرس البستاني وابنه سليم. ومن الواجب أن يذكر في هذا الصدد صرخات قاسم أمين المصري التي أودعها في مقالات نشرت له مجموعة في كتابيه الشهيرين (تحرير المرأة) و(المرأة الجديدة)، اللذين احتويا من الأسباب والمستندات العقلية والدينية والاجتماعية والنتائج المترتبة على تحقيق دعوته وتقريراته ما كان يعد في زمنه دعوة ثورية.

ومن هذا الباب قصائد الشاعر العراقي المشهور الزهاوي، الذي فاق بها على غيره في الدعوة التي دعا إليها قاسم أمين في الظرف نفسه، حتى لقد أوذي وطورد في وطنه بسبب ذلك. فضلاً عما لهذا الشاعر من قصائد كثيرة فاق بها غيره في الدعوة إلى الحرية والعدل والعلم، وفي الحملات الشديدة على الظلم والاستبداد والجهل، وآثار ذلك في حياة الأمة الأخلاقية والاجتماعية. وكان لهذه الصرخات أثر لا ينكر، فيما صار يبدر من البوادر في هذا المجال واتساع نطاقه مع الزمن.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد أخذت الأصوات ترتفع كذلك بوجوب اقتباس أساليب المدنية الغربية والسير في مجالات العلوم والفنون على النحو الذي سار عليه الغرب، ووصل به إلى ما وصل من مظاهر القوة والصلاح مادياً واجتماعياً وعمرانياً وثقافياً. وبوجوب الإكثار من ترجمة الكتب الغربية السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية والأخلاقية والفلسفية، مما كان له بدوره أثر عظيم في ما تم من تحول كبير في الحياة والأساليب المعاشية، وفي تنبيه الوعي وتقويته.

ولقد أخذت الأصوات ترتفع أيضاً بالتحذير من اضطهاد العمال والفلاحين، وايجاب العناية بهم وتحسين أحوالهم، وما يترتب على ذلك من آثار إيجابية في تحسين وترقية الجمهور الأكبر من الشعب، وسلبية فيما يمكن أن يؤدي إليه عكس ذلك. وهذه أبيات للأمير نسيب ارسلان معبرة عن هذا وذاك:

أفي الحقِ يَشْقى الفقيرُ بِعيْشه ... وذو المالِ في شرِّ الغوايةِ يُسْرِف
عليكم بكشفِ الضرِّ عنهم، فإنما ... أخو الضرِّ يُمسي ضارياً، حين يهجف
فلا تُرْهِقوهم بالشقاوةِ والطوى ... فيبدرُ منهم بادرٌ لا يُكفكف
فإن لم ينالوا بالهوادةِ حقَّهم ... ينالوه يَوْماً والصوارم تَرْعف
لَكُم عِبرة في الغربِ من كلِّ فتنة ... تهزُّ الجبالَ الراسياتِ وتخسفُ

ويجب أن يسلك في هذا السلك الدعوات الإصلاحية الدينية التي انطوت في الحركات الوهابية والسنوسية والمهدوية. ثم في نشاط جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي(٣٦) والشيخ طاهر الجزائري ورشيد رضا وغيرهم وغيرهم، والذي كان يهدف إلى محاربة الجمود الذي كان عليه مشايخ المسلمين والذي سرى إلى عامتهم، وإلى محاربة البدع والضلالات والخرافات التي ألمت بالإسلام والمسلمين، والعودة إلى الإسلام الصحيح الذي ظلت منابعه الأصلية سليمة ساطعة السناء. وفيها كل ما يتضمن للمسلمين العزة والنشاط والصلاح والازدهار والنهوض الاجتماعي والعلمي والاقتصادي والانساني لجميع الناس، ذكورهم واناثهم، وعلى اختلاف اجناسهم وألوانهم وفئاتهم، وفي ظل حكم منبثق عن رضاء وموافقة ممثلي الشعب، وقائم على الحق والعدل والشورى والحرية والمساواة والأخوة والمصلحة العامة، بريء من الاستعلاء والاضطهاد والتمييز والاستبداد والاحتكار والاستغلال والجشع والإسراف.

كذلك يجب أن يسلك في هذا السلك ويعد من مظاهر وآثار النهضة العربية والوعي القومي الهتافات التي كان يرسلها الشعراء والكتاب والأدباء من مسلمين ومسيحيين إلى بني قومهم، بالدعوة إلى الوئام ونبذ الخلاف والتعصب الطائفي اللذين كانا يثيران الفرقة والأحقاد بين أبناء الوطن الواحد والأمة الواحدة ويؤديان إلى البلبلة والفتن، ويعودان بالبلاء العظيم عليهم وعلى البلاد معاً مما لا يكاد يخلو ديوان شاعر ولا جريدة عربية منه قبل إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ لمدة غير

---

(٣٦) سيأتي كلام آخر عنه.

قصيرة، وقد مر بيان جهود بطرس البستاني والجمعيات العربية التي أنشئت في أواسط القرن التاسع عشر في هذا المجال.

ورابع عشر: وفي صدد النهضة الصحافية نقول: إن هذه أيضاً بدأت في عهد مبكر، ورافقت أطوار النهضة، وسايرت نشاطها، وساهمت إلى درجة كبيرة في إثارة الوعي القومي العربي وتقويته وتوجيهه. ولقد بلغ عدد الجرائد العربية التي صدرت قبل عام ١٩٠٨ في البلاد العربية وخارجها (٥٨٥)، والمجلات (٣٥٣)، منها، نحو (٣٨٠) جريدة، و(٢٧٠) مجلة في القطر المصري، ولم يبق بلد عربي في المشرق والمغرب إلا صدرت فيه جرائد ومجلات على ضيق في بلد وسعة في آخر.

وكانت بيروت بعد مصر أكبر توسعاً، وقد أنشأ افراد من العرب صحفاً ومجلات عربية في أوروبا وأميركا أيضاً، منها ما أصدره المهاجرون الدائمون، ومنها ما أصدره أفراد كانوا يفرون من بلاد الدولة. وقد أصدر بعضهم صحفاً ومجلات في الآستانة عاصمة الدولة أيضاً. حيث يبدو من هذا مدى النهضة الصحفية العربية، قبل دستور سنة ١٩٠٨، مع التنبيه على أن منها ما طال عمره وقتاً ما ومنها ما كان قصير العمر. وإن معظم ما صدر قبل هذه السنة قد مات وصدر بدله في هذه السنة وبعدها الكثير الذي فاق ما صدر قبلها.

ولقد كانت (جَدّة) الصحف العربية، كما يصفها الكونت فيليب دي طرزي في كتابه تاريخ الصحافة العربية، جريدة (الحوادث) التي أصدرتها الحملة الإفرنسية النابوليونية سنة ١٧٩٨ م. وكان ينشر فيها أخبار ومنشورات ومراسيم الحملة، وكان يتولى تحريرها (اسماعيل الخشاب). ثم تلتها جريدة (الوقائع المصرية) التي أصدرها والي مصر محمد علي سنة ١٨٢٢ لنشر أخبار ومراسيم الحكومة أيضاً، وكان يتولى تحريرها (رفاعة الطهطاوي) أحد أعلام نبهاء مصر الذين تعلموا في أوروبا، واستمرت بعده لسان حال للحكومة، وكان يتولى تحريرها أعلام نبهاء أيضاً منهم أحمد فارس الشدياق، وحسن العطار، والشيخ محمد عبده، وعبد الكريم سلمان، وكانوا يكتبون فيها مقالات بليغة في شؤون علمية وأدبية وتاريخية ووطنية وأخلاقية. ثم تتالت الصحف والمجلات في مصر وبلاد العرب الأخرى وفي أوروبا وأميركا والآستانة كما قلنا، منها الأخباري، ومنها التجاري، ومنها السياسي، ومنها العلمي، ومنها الأدبي، ومنها الهزلي الانتقادي، ومنها اليومي. ومنها الأسبوعي، ومنها ما كان يطبع على الجلاتين ويوزع سراً، لأنه كان يندد بالحكومة العثمانية والحكومة المصرية لانحراف سيرتيهما عن مقتضيات العدل والحرية والشورى ويحض على مناضلتهما.

ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من صحف مصر وأوروبا العربية وجميع الصحف والمجلات العربية الأميركية، أصدرها أدباء شاميون لبنانيون وسوريون فروا من بلادهم من ظلم السلطات العثمانية واستبدادها. وكانت مصر تتمتع بحرية وأمن أكثر، كما كان مجال العلم والأدب فيها أوسع. وكان الأمر كذلك في أوروبا وأميركا، وكانت هذه الصحف تنشر مساوىء هذه السلطات وتندد بها وتحث على مناوأتها، وكانت تتسرب إلى البلاد الشامية وغيرها من البلاد العربية الخاضعة

لسلطان الدولة مباشرة فيكون ذلك من وسائل تقوية الوعي واليقظة في هذه البلاد. وما نزال نذكر، وكنا نشتغل في دائرة البرق والبريد في نابلس قبيل إعلان دستور سنة ١٩٠٨، ان السلطات العثمانية كانت تبرق ببلاغات يومية فيها اسماء الصحف الأوروبية والأميركية والمصرية التي تحمل عليها وتحظر توزيعها[18] :.

الدور الثاني

الحركة العربية بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨

في العهد العثماني

المرحلة الأولى

الاغتباط والابتهاج بالدستور

- ١ -

برغم ما في الدستور من ثغرات ومآخذ، فقد احتوى احكاماً ونصوصاً كثيرة تضمن للعثمانيين على اختلاف أجناسهم وأديانهم ونحلهم الحرية والمساواة والعدل، والمشاركة في سن القوانين والإشراف على شؤون الدولة ومراقبة وزرائها وسائر موظفيها، ووقف سوء استغلالهم وتصرفهم وتلاعبهم، وتنظيم الشؤون العامة والمحلية، وتوسيع نطاق التعليم وتيسير النشاط الاجتماعي والسياسي، وتقضي على عهد الاستبداد والتعسف والبغي والعدوان على الأموال والأرواح والحريات. وبكلمة أخرى تضمن بدء عهد جديد للانطلاق الحر في النهوض والصلاح والإصلاح والتقدم ، مما كان مأمولاً، حينما بذلت الجهود لإعلانه في المرة الأولى في بدء عهد السلطان عبد الحميد الثاني. وحينما انبرت الفئات الواعية للمطالبة به حينما عطل وإرغام السلطان على إعلانه ثانية على ما مر شرحه في الفصل السابق.

- ٢ -

ولقد كان ابتهاج الفئات الواعية على اختلاف الأجناس والأديان والنحل عظيماً بنجاح الثورة وإرغام السلطان على إعلان الدستور. وانفجرت نقمة الناس في الأيام الأولى ضد من كان معروفاً بأنه جاسوس أو مرتش أو ظالم أو طاغية من كبار الموظفين وصغارهم في العاصمة وخارجها. وكان للبلاد العربية وأهلها نصيب من كل ذلك. وقد شهدنا بعض الأحداث من ذلك في نابلس، حيث حاولت الجماهير بتحريض من الواعين البطش في بعض الجواسيس والمرتشين والتشهير بهم وإسقاطهم. وسمعنا كثيراً منها في غير نابلس.

وأخذ الواعون في البلاد العربية يغتنمون فرصة تطلع الشعب وتجمعاته بسبب النبأ العظيم، فيلقون المحاضرات والخطب في الأسواق بالتعريف بالدستور وما جاء به من حرية وعدالة ومساواة وأخوة.

ومن الذين شاهدنا وسمعنا من نشاطهم في ذلك إبراهيم القاسم العبد الهادي، وكان رجلاً متحرراً جريئاً ذا اطلاع ونباهة. حيث كان يقف في الجماعات في ساحة السرايا فيشرح للناس مدى الدستور ومزاياه(٣٧). ولم تلبث أن صارت الكلمات الأربع المذكورة (حرية وعدالة ومساواة واخوة) شعاراً عاماً تردده الأفواه وتوضع به الشارات الحمراء والبيضاء على الصدور والحوانيت والمؤسسات. وكان الضابطان أنور ونيازي أشهر من برزت أسماؤهم من قادة حركة الثورة، على ما ذكرناه قبل، فصارت صورتاهما ترتفعان على كل مكان.

- ٣ -

ولقد كان من آثار إعلان الدستور، انبثاق روح الوئام بين النصارى والمسلمين في بلاد الشام. وتكرر مشهد تعانق بعض المشايخ والقسوس والرهبان في بعض التجمعات. ولقد كان من ذلك مشهد سجله المرحوم الشيخ مصطفى الغلاييني البيروتي،وكان من علماء المسلمين الشباب حينئذ النيرين المتفتحين، ومن الأدباء البلغاء في جريدة لسان الحال في أحد أعداد شهر آب، أي بعد أيام قليلة من إعلان الدستور. قال (من أبهج ما رأيت من هذا الوفاق، أن نفراً من شبان حي السرايا،وهو حي إسلامي في بيروت، ركبوا العربات، وساروا بها إلى محلة الجميزة، وهي حي مسيحي، فجددوا عهود الإخاء مع إخوانهم المسيحيين،بعد أن أبلاها الجهل ورجال السوء،وهناك تآخى الفريقان، وتحاب القبيلان، وعلموا أن العثمانيين غدوا جسماً واحداً تدبره روح واحدة).

ومن المأثورات الشعرية في هذا الصدد هذه المقطوعة لأحد شعراء نصارى بيروت:

قد صِرْتُم أمّةً في الأرض واحدةً ... من آل عثمانَ لا عُرْباً ولا عَجَما
فَلا تُفَرِّقكمُ أجيالُكُم فِرَقاً ... ولا تُقَسِّمكُمْ أديانكُم قِسَمَا
واليومَ جرّد سيفَ الحقِ صاحِبُه ... وهَاجَم الظلمَ حتى فرَّ منهزما
تعانقَ الشيخُ والقسيسُ وآصطحبا ... من بعدِ ما آفترقا ضدين واختصما
تآخيا في حمى الدستور واتحدا ... ورَفْرَفَت رايةُ التوحيدِ فَوْقَهما

- ٤ -

ولقد سجل شعراء العرب ابتهاجهم بإعلان الدستور ثم بالانتصار على عبد الحميد وخلعه حينما حاول تعطيله ثانية في مارس ١٩٠٩ على ما شرحناه قبل، حتّى لا يكاد ديوان من دواوين شعرائهم المعروفين إذ ذاك يخلو من شيء من ذلك، متضمناً أو مذكراً بما كان من مساوىء عبد الحميد وعهده الاستبدادي الظالم المظلم، ومنوهاً بالجيش الذي أرغم السلطان على إعلان الدستور ثم خلعه، وبخاصة بالقواد الذين اشتهرت اسماؤهم وهم أنور ونيازي ومحمود شوكت الذي قاد الجيش من سلانيك، وزحف به على الاستانة وخلع عبد الحميد وثبت الدستور

(٣٧) في هذه الظروف التقى الكاتب بهذا الرجل الألمعي الجريء وتوطدت الصداقة والفهم المتبادل بينهما، واستمرا متحابين متعاونين متضامنين، في ظروف الحركة العربية، وفي ظروف الانتداب الانكليزي.

عقب حركة ٣١ مارس ١٩٠٩، ومبشراً بالآمال المرتجاة من العهد الجديد، وفي ذلك إيذان بإخلاص العرب للدولة وتضامنهم مع الترك كأمة واحدة انفتح امامها باب مستقبل زاهر.

من ذلك قصيدة لعبد المحسن الكاظمي الذي ينعت بشاعر العرب الأكبر جاء فيها:

أيــومَ الهَنـا لا رَاعَنــا مِنــكَ رائــعٌ ... ولا طَـرَقتـك المُـزعجـاتُ الـطوارقُ
عـلا فيكَ صـوتُ الحقِّ بعدَ خُفـوتِه ... وبــاتَ يُـرينــا الخصمَ كيفَ يُنـافقُ
فكم ضــاقَ بـالأحـــرارِ قبلَك منـزلٌ ... تُعـدُّ وسـاعـاً فيـكَ تلك المضــائقُ
وكم من ظـلامٍ جَرَّه الـظلمُ فَٱنجلى ... وعــادَ سنـا ذاك الــظلام المــطابقُ
زمـانَ الأسى لا ساقَ ريحَـك نـاشقٌ ... ولا ذاقَ بعــد اليـومِ طَعْمــك ذائقُ
إذا مـا ذَكـرنــا عهـدَ يبلديــزِ مَثلتْ ... خــطوبٌ لآمـالِ الكـرامِ سـواحقُ
طغى الظلمُ حتى صارَ في كـلِّ بُقْعَةٍ ... لــه عَلَم يغشى الـنــواظـرَ خــافقُ
وكـادَ بنـاءُ المجـدِ ينهارُ فـانبـرت ... أســودُ لهــامــاتِ الأسـود تُـوافقُ
فـإقــدامُ مـحمـودٍ وهـمــةُ أنــور ... وعــزمُ نيـازي والفصــول الــذوالقُ

وكتب الأستاذ جبر ضومط أحد كبار أساتذة الجامعة الأميركية البيروتية في المقتطف مقالاً يصف فيه أثر إعلان الدستور جاء فيه: (كنا منذ بضعة أسـابيع، والصـدور ضائقـة بما فيهـا، والنفوس واجمة من هول ما ترى من موقعها، والعقلاء والنزهاء لا يدرون ماذا يصنعون، ولا ماذا يقولون، وكأنما أطبقت عليهم السماء، أو سدت عليهم منافذ الرحمة. وبينما نحن في هذه الظلمة المدلهمة، وفي حال من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الأولون، سطع علينا بغتة نور القانون الأساسي، فأشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية والحرية الأدبية).

ـ ٥ ـ

ولقد كان في مطاوي الحركة العربية القومية قبل الدستور أفكار عديدة، منها الدعوة إلى خلافة عربية. ومنها الدعوة إلى انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانيـة واستقلالهـا، ومنها الدعوة إلى إصلاحات واسعة واستقلال ذاتي مما مر ذكره في المناسبات السابقة. فتوارت معظم هذه الأفكار أو الدعوات أو سكتت في بدء إعلان الدستور، باستثناء طلب الإصلاحات وحقوق العرب في ظل الدولة.

ولقد سارعت النمسة عقب إعلان الدستور إلى إعلان ضم ولاية البوسنة والهرسك على ما ذكرناه قبل، فثارت ثائرة البلاد العثمانية ضد النمسة وأعلنوا مقاطعتها. وانـدمج أهـل البلاد العربية في ذلك اندماجاً شديداً نتيجة لما كان من اندماجها في العهد الجديد واستبشارها به. وكتبت الصحف العربية الفصول ونظم الشعراء القصائد ضدها. وكان من جملة ذلك قصيدة لشبلي ملاط الشاعر اللبناني الشهير جاء فيها:

ألا مَن مُبلغُ النمسا كَلاماً	نُسجِّله ونورثُه البنينا
بأنّ عهودَها كانت سَراباً	وكانَ ودادُها بَلْفاً ومينا
فَلا تَجِدُ السنونُ إلى التَصافي	سبيلاً ما تعاقبتِ السنونا
أو النمسا تُكَفِّر عن ذنوب	جَنتها فاعتدتْ عاراً وهونا
أتحسبُ جارةُ الدانوبِ أنّا	نذلّ لمثلها أبداً جبينا

ولقد سارعت اليونان عقب إعلان الدستور إلى تحريك ثورة في جزيرة كريت التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية وسيادتها، بقصد الانضمام إليها على ما ذكرناه قبل أيضاً، فانبرت الصحف العربية والشعراء العرب للحملة على اليونان، والتنديد بهم مما ينطوي على الدليل على ذلك الاندماج أيضاً.

وكان موقف الصحافة العربية، وشعراء العرب، مماثلاً، حينما أعلن الجبل الأسود انفصاله عن الدولة عقب الدستور، وهذه مقطوعة لخليل المطران الشاعر المشهور في ذلك:

طَغَت أمّةُ الجَبَلِ الأسْوَدِ	على حُكْم فاتِجها الأيِّد
وما التركُ إلّا فحولُ الحروبِ	رضعوا لظاها من المولدِ
إذا لقحوها الدماء فلا	نتاجَ سِوى الفخرِ والسؤدد
سواءٌ على المجدِ أياً تكُنْ	عواقبُ مَسْعَاهُم تُحْمَدِ

ولقد بلغ استشعارهم بوحدة الاخاء التركي العربي وتمسكهم بالدولة العثمانية لتظللهم وتظلل الترك معاً، ان الجمعية السورية في باريس التي يرأسها نخلة مطران ورشيد مطران أصدرت عقب إعلان الدستور منشوراً دعت فيه إلى استقلال سورية، فانبرى كثير منهم إلى الرد على المنشور ومصدريه واستنكاره وتفنيده، منهم سليمان البستاني ورفيق العظم وحقي العظم. وقامت في مدن سورية حركة تنظيم مضابط بالاستنكار والتفنيد.

- ٦ -

ولقد أخذ النشاط يدب في الواعين من العرب ويقوى بسبيل الاستمرار في النهضة التي كانت بوادرها قبل إعلان الدستور وتوسيع نطاقها. وكان مجال الصحافة، من أهم وأول ما بذلوا جهودهم ونشاطهم فيه، حيث أقبلوا على إنشاء الصحف والمجلات بمقياس واسع في مختلف بلادهم، حتى لقد أربى عدد ما أنشأوه خلال السنوات العشر التي قدر لهم أن يعيشوها في نطاق الدولة العثمانية بعد الدستور على المئة والخمسين. وصار الكتاب والشعراء ينشرون المقالات والقصائد في دعوة العرب إلى الاندفاع في النهوض والنشاط والتقدم[٣٨] في مختلف الميادين، وبنوع

---

(٣٨) كان لنا إسهام شخصي في ذلك، حيث نشرنا في جريدة الحقيقة البيروتية الأسبوعية، أو نصف الأسبوعية التي كان يصدرها كمال عباس خلال سني ١٩٠٩ - ١٩١١ أكثر من عشرين مقالاً في الأخلاق والاجتماع والوطنية والأدب والقومية.

خاص في العلم، ولا يكاد ديوان شعر لشاعر معروف إذ ذاك يخلو من قصيدة أو أكثر في كل ذلك.

ومن ذلك هذا النشيد الذي كان ينشده شباب العرب وفتيانهم في مختلف المناسبات، وفيه تذكير بأمجاد العرب السابقة ودعوة إلى إعادتها:

سَائِلوا عَنّا العُصورَ الأُوَلا ... يومَ فُقْنا الناسَ مَجْداً وعُلا
يومَ قُدنا بالعوالي الدُوَلا ... سائِلوا عَنّا بطونَ الكُتُبِ
سائِلوا الشامَ ومصرَ والعراقْ ... وسِواها سائِلوا السَبْعَ الطباقْ
سائلوا الأسيافَ والسُمْرَ الرقاقْ ... ما بَنينَا من رَواسي الحَسَبِ
إن يكنْ هَدَّمَ قومٌ ذَهَبوا ... مجدَنا السامي، وعنه رَغِبوا
فَمَعالينا لَنا تَرْتَقِبُ ... وتُناديناً بمجدِ العَرَبِ
أيها الشبانُ هُبّوا فالرقادْ ... ضَرَبَ الأطنابَ في كلِّ البِلادْ
فَحُرِمنا النفعَ والغيرُ استفادْ ... نائلاً كلَّ المنى والأَرَبِ
فبكم يُرجى لَنا عودُ العلا ... وبِمَغناكم حَططنا الأَملا
أرجِعُوا للشرقِ ما قَدَ رَحَلا ... من مَعاليهِ بحَدِ القُضُبِ
إنما القُضْبُ علومٌ وفنونْ ... قد أضعناها وبِتْنا في سُكونْ
وغَفَونا غفوةً ملءَ الجُفونْ ... خشيةَ الجِدِّ وخوفَ النَصَب(٣٩)

ومن ذلك هذا النشيد أيضاً:

يا بَني الأوطانِ هُبّوا ... من رُقادٍ مُستديمْ
وآطلُبوا المجدَ وَلَبّوا ... دعوةَ العَظْمِ الرميمْ
إنما العيشُ جِدالٌ ... فابتغوا فيها النَجاحْ
واصطدامٌ واقتتالٌ ... ذلَّ من ألقى السِلاحْ
إنما بالعلمِ نَرْقى ... فآنشروا العلمَ الجَليلْ
وبليلِ الجهلِ نَشْقى ... فاطردوا الجَهْلَ الوَبيلْ(٤٠)

ومن ذلك للشاعر العراقي المعروف الرصافي قصيدة ألقاها يوم افتتاح المنتدى الأدبي في الآستانة الذي جرى عقب إعلان الدستور بشهور قليلة، ومما جاء في هذه القصيدة:

أدبُ العلمِ وعِلْمُ الأَدَبِ ... شَرَفُ النَفْسِ ونَفس الشَرَفِ
بهما يَبْلغُ اعلى الرُتَبِ ... كلُّ رامٍ منهما في هَدَفِ

(٣٩) النشيد من نظم المغفور له الشيخ مصطفى الغلاييني، ونشر في العدد السادس من مجلة لسان العرب التي كانت تصدر في الآستانة.

(٤٠) النشيد لشاعر سمى نفسه عبد الله بن قيس ونشر في الجزء التاسع من المجلة المذكورة.

يـا بَـنِي يعـربَ مـا هـذا المنـامْ أوَ مـا أسَـفَـر صُـبْـحُ الـنُـوّمِ
أينَ من كـانَ بكم يرعى الـذِمـامْ ويُـلبّي دعـوةَ المُـهْـتَـضَـمِ[٤١]

هذا، ولا بد من التنبيه في نهاية هذه النبذة، على وجوب التحفظ ازاء ما ذكرناه من الاغتباط والابتهاج بإعلان الدستور، فإن ذلك كان محدود النطاق جداً اتساقاً مع واقع الأمر. من حيث ان السواد الأعظم من بلاد الدولة كان يغلب عليه الجهل، وكان بالنتيجة ضعيف الوعي من جهة، وكانت وسائل الإعلام ضعيفة جداً في اجهزتها ومداها من جهة ثانية.

المرحلة الثانية

بوادر الاستعلاء العنصري التركي والتشادّ والجفاء العربي التركي

- ١ -

كان الواعون من العرب يرون في كثير مما كانت عليه الحالة في بلادهم شططاً وضرراً وصعوبة، كالتعليم باللغة التركية حتى في الصفوف الابتدائية المتوسطة. بل وتعليم اللغة العربية باللغة التركية مما ذكرناه قبل[19]، وكالمراجعات والمرافعات والتعامل في المحاكم والدوائر الحكومية بها. وإغراق البلاد العربية بالموظفين غير العرب حتى للوظائف التافهة، وقضاء شباب العرب مدة جنديتهم الإجبارية في غير بلادهم، واستخدام الصالحين من رجال العرب ومتعلميهم في غير بلادهم أيضاً وغبن العرب في وظائف الدولة الرئيسية وغير الرئيسية غبناً كبيراً، والمركزية الشديدة التي كانت تعيق قضايا الناس ومصالحهم، ومشاريع البلاد العمرانية وغير العمرانية مما فصلناه في نبذة الدولة العثمانية.

ولقد ظل العنصريون المتعصبون من الترك على ما سبق ما كان قبل إعلان الدستور يصفون العرب بنعوت مهينة، مثل (بيس عرب) أي العربي النجس، و(سياه عرب) أي العربي الأسود. و(جنكنه عرب) أي العربي الغجري، و (عقلسز عرب) أي العربي السخيف، مما ذكره الكواكبي في مقالاته التي كان ينشرها قبل الدستور على ما أشرنا إليه قبل[٤٢]. فصاروا (الواعون من العرب) يتطلعون ويأملون في تعديل كل ذلك مع إظهارهم كل رغبة صادقة في الإبقاء على روابط الأخوة بين العرب والترك، وفي دوامها قوية شديدة، وفي بقاء ارتباط العرب بالدولة العثمانية والعيش في

---

(٤١) في ديوان الرصافي ثم في ديوان زميله الزهاوي بخاصة قصائد كثيرة جداً في الدعوة إلى العلم والفن والحضارة وبيان فوائد ذلك والتنبيه على ما يرتكس فيه العرب من جهل وتخلف.

(٤٢) مما سجله الدكتور أحمد قدري في مذكراته، ان كتاب الترك وخطباءهم حملوا حملات شديدة على أحمد عزت العابد وأبي الهدى الصيادي الذين كانوا مقربين عند السلطان عبد الحميد، وسقطا بسقوطه، وكانوا ينعتونهما بنعت (خائن عرب)، دون غيرهما من الكثيرين من رجال السلطان الترك الطغاة. فكان ذلك مما صدمه، وصدم رفاقه من تحقير الترك للعرب عامة، وحفزهم على النشاط في سبيل الدفاع عن حرية العرب وكرامتهم.

ظلها، فاصطدموا بعقبات متنوعة نغصت عليهم فرحتهم وابتهاجهم بالدستور، وخيبت أملهم وتطلعاتهم إلى التعديل والصلاح والنهوض.

- ٢ -

ولقد جاء ذلك بالدرجة الأولى من مواقف وتصرفات جمعية الاتحاد والترقي المنتسبين إليها من الأتراك. ولقد أخذت هذه الجمعية زمام الدولة بيدها تبعاً لنجاح الحركة الثورية التي قادها الضباط المنتسبون إليها. وبادرت عقب ارغام السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور إلى املاء اسماء الوزارة الجديدة التي تولت الحكم، وادخلت بعض أعضائها فيها. ثم عمدت إلى إنشاء مركز عام للجمعية في الآستانة، وفروع لها في جميع مدن البلاد العثمانية الكبيرة والمتوسطة، بل والصغيرة وتأسيس أندية لها. وأخذ القائمون على أمرها يضمون إلى جمعيتهم كل من توسموا فيه النشاط والطاعة والإخلاص لهم من ترك وعرب وشركس وأرناؤوط وأكراد، ومن موظفين وغير موظفين، وعسكريين ومدنيين، ويحلفونهم يمين الإخلاص لها، وإطاعة أوامرها. ولم تلبث نتيجة لذلك أن غدت قابضة على زمام الدولة، حتى صار الناس يعتبرونها هي الدولة والحكومة. وصار أصحاب المصالح والمشاكل والمظالم والأخبار والوشايات يراجعونها، ويرفعون إليها الاستدعاءات والمذكرات برقياً وبريدياً. بل وصار موظفو الحكومة على اختلاف مراتبهم ينسجمون مع هذا الاعتبار. بل وصارت الهيئة المركزية للجمعية في العاصمة ـ التي كان من أبرز أعضائها أنور وطلعت وجمال وأحمد رضا وخليل ومدحت شكري ـ وهيئات كل فرع من فروعها في مراكز الولايات والألوية والأقضية تبدو منسجمة معه متقبلة لاعتبار الناس إياها تقبلاً حسناً على ما شهدناه وسمعناه وأحسسنا به شخصياً. وكنا إذ ذاك نمارس وظيفة في دائرة البريد والبرق وعمرنا نحو عشرين عاماً.

ولقد أقبل كثير من الواعين العرب موظفين وغير موظفين وعسكريين ومدنيين، على الانضواء إلى الجمعية في العاصمة ومراكز الولايات والألوية والأقضية والتعلق بها بحماس وإخلاص، مما شهدنا صوراً كثيرة منه في نابلس. وكنت أنا وابراهيم القاسم عبد الهادي الذي توطدت الصداقة بيننا وبينه منذ ذلك الحين وغيرنا كثيرون من الجملة. وكان هذا يجري في كل مكان بطبيعة الحال. ومن الأسماء التي لمعت من العرب في ظروف إعلان الدستور عدد غير يسير، عرف انتسابهم إلى الجمعية أيضاً منهم رفيق العظم وحقي العظم ومحسن السعدون، وعزيز علي المصري، وسليمان البستاني، والشيخ رشيد رضا، وسليم الجزائري، وشكيب أرسلان، والشيخ عبد العزيز شاويش، والشيخ أسعد شقير، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وعبد الرحمن العابد، ومحمد فوزي العظم، وغيرهم وغيرهم.

- ٣ -

ولقد كان من البوادر الأولى التي صدمت وأثارت الواعين العرب أو فريقاً منهم على الأصح ـ لأنه كان من الواعين من اندمج مع تصرفات الاتحاديين اندماجاً تاماً، ورضي بها وساعد عليها ـ الانتخابات النيابية، التي صدر الأمر بالشروع بها عقب إعلان الدستور والتي تمت خلال بضعة أشهر. فقد قسمت الدوائر الانتخابية وفرض عدد أعضاء مجلس النواب بتخطيط الجمعية لضمان

الأكثرية للعنصر التركي أولاً ولها على كل حال.

ولقد كان عدد الترك في الدولة نحو الثلث، وعدد العرب نحو ذلك. ومع ذلك فقد جعلوا عدد المقاعد المخصصة للترك (١٣٧)، والمخصصة للعرب (٦٥)، أي ضعف عدد العرب وأكثر(٤٣). ولم يكتفوا بذلك، بل حرصوا على أن يكون المنتخبون من المنتسبين إلى جمعيتهم المتحمسين لها سواءاً كانوا من الترك أم غيرهم. وحرصوا على أن يكون نواب البلاد العربية الذين لا يكونون منتسبين إلى جمعيتهم من غير المتحمسين للقضايا القومية وغير المثقفين بثقافة عصرية، ومن غير أصحاب النشاط والمراكز والحركات الاجتماعية والسياسية، بل وحرصوا بقدر ما أمكنهم أن يكون من نواب البلاد العربية أناس من العنصر التركي أيضاً. وحشدوا كل قواهم وقوى الحكومات المحلية التي صارت تحت هيمنتهم رعباً ورهباً لضمان نجاح ما خططوه. وقد نجحوا في ذلك نجاحاً كبيراً، فجاءت الاكثرية الكبرى من العدد المخصص للأتراك من المنتسبين إلى جمعيتهم المتحمسين لها، وأمكن اخراج نحو (١٥) نائباً من العنصر التركي للمقاعد المخصصة للعرب، منهم فؤاد خلوصي عن طرابلس الشام، وجامي بك عن فزان، ومحمود نديم بك عن الحديدة، واسماعيل حقي بك عن بغداد، وسيد مصطفى بك عن الديوانية، ومحمود ناجي بك عن طرابلس الغرب(٤٤). وكان نحو ثلاثين نائباً من الخمسين منتسبين إلى جمعيتهم متحمسين لها، وجلهم من الاقطاعيين وغير المثقفين ثقافة عصرية، وقد انتسبوا إلى جمعيتهم، وتحمسوا لها تزلفاً ولضمان مراكزهم ومصالحهم. كما كان جل الذين لم يكونوا منتسبين إلى جمعيتهم من طبقة لا يصلحون لهذه المهمة. وكل مزيتهم أنهم يعرفون اللغة التركية قليلاً أو كثيراً، وأنهم مارسوا بعض الوظائف في بلد تركي. ونحن نعرف نموذجاً من هؤلاء انجحوه للنيابة عن نابلس، وكان شيخاً مارس القضاء في بلد تركي، وكان يلقي درساً في التصوف الإسلامي، واسمه الشيخ أحمد الخماش، وصار يضرب به المثل بالسكوت في المجلس، حتى إن جريدة عربية كانت تصدر في العاصمة قالت عنه انه مشغول بالدعاء والتسبيح. ولم يكد يبلغ عدد الذين نجحوا في الانتخابات ممن كان لهم تطلعات قوية ونشاط عشرة اشخاص، هم شفيق المؤيد ورشدي الشمعة عن دمشق، وطالب النقيب وأحمد الزهيري عن البصرة، وروحي الخالدي عن القدس، وحافظ السعيد عن يافا، وسليمان الباروني عن طرابلس الغرب، ويوسف شتوان وعمر منصور عن بنغازي، ومحمد أرسلان عن اللاذقية وعبد الحميد الزهراوي عن حماه. وقد نجح معظم هؤلاء رغماً عما بذلته الجمعية واتباعها وحكومتها من جهد وعرقلة. ولقد ثارت نقمتهم على ذلك وبخاصة على نجاح شفيق ورشدي وطالب ويوسف شتوان وحاولوا اسقاطهم من العضوية، ونجحوا بالنسبة ليوسف

---

(٤٣) في تقويم سنة ١٣٢٦ المالية (السالنامه) الذي ذكر فيه اسماء أعضاء المجلس النيابي الأول عقب الدستور عدد أعضاء الولايات والمتصرفيات غير العربية ٢١٩، وعدد أعضاء الولايات والمتصرفيات العربية (٦٤). ومن أعضاء نواب الولايات والمتصرفيات غير العربية (٣٨) غير مسلمين فيكون المسلمون ١٨١ ونرجح حسب ما يستفاد من الأسماء والأماكن أن من هؤلاء ٢٠ أو ٢٥ فقط غير أتراك فيكون عدد نواب الأتراك في هذا المجلس (١٥٦)!

(٤٤) هذه الأسماء بارزة، وفي أسماء نواب بلاد العرب اسماء غير واضحة الهوية، نرجح أن منها من هو تركي أيضاً بحيث يكون ما ذكرته المصادر صحيحاً.

شتوان[45]. وما جرى في البلاد العربية من كل ذلك جرى في البلاد التي فيها كثافة غير تركية.

ولم يكن في مجلس الأعيان الأول البالغ عدد اعضائه (٥٧) إلا أربعة من العرب ثلاثة منهم من شرفاء مكة وهم علي حيدر، وناصر جعفر، وواحد من أمراء الأسرة المالكة المصرية العلوية التركية الأصل وهو سعيد حليم. ثم أضيف اليهم في السنة التالية سليمان البستاني.

ولقد أخذ يصدر من بعض رجالات الجمعية تصريحات وأقوال عجيبة في حق العنصر التركي في التمايز على غيره في الدولة. من ذلك مقال كتبه حسني جاهد في جريدة (طنين) بعد شهور قليلة من إعلان الدستور، وهو من أركانهم ومن مشهوريهم الصحافيين قال فيه ما مفاده: إن الأمة التركية كانت وستظل هي الأمة الحاكمة، وإن لها الحق في التمتع بحقوق وامتيازات، اكسبها إياها حق الفتح. وإنه ليس من إمكان، ولا محل للاعتراف بحقوق مساوية في الدولة للعناصر الأخرى.

ولقد أنشأت الحكومة بايعاز من الجمعية ـ وهما شيء واحد ـ في أوائل حقبة الدستور لجاناً لتنسيق الموظفين في العاصمة والولايات، فأصاب العرب من ذلك غبن كبير، حيث أخرج بحجة التنسيق ثلاثة عشر متصرفاً عربياً، وعين مكانهم أتراك، وأنا أعرف أن متصرفية نابلس كان تعاقب عليها قبل الدستور متصرفون من العرب، فلم يعد يأتيها إلا متصرفون أتراك.

ولقد كان في وزارة الخارجية (١٢) موظفاً عربياً من أصل (٦٠٠). فأخرجوا جميعهم بحجة التنسيق ولم يعين إلا عربي واحد.

ولقد أصبح موظفو وزارة المالية بعد التنسيق (١١١) تركياً و (١٣) يهودياً وعشرة من الأرمن وأربعة من الروم وواحداً من العرب. ومثل هذه التصفية جرت بدون ريب عن قصد وتصميم في الوزارات الأخرى، وفي المراكز المهمة في الولايات والألوية العربية. وظلت الأكثرية الكبرى من

---

(٤٥) هذه اسماء أعضاء مجلس المبعوثين العرب في الدورة الأولى: ولاية البصرة: (أحمد باشا ـ طالب بك ـ خضر افندي ـ رأفت أفندي ـ محمد سلمي العلوان) ولاية بغداد: (اسماعيل حقي ـ حاجي علي أفندي ـ صاصون أفندي ـ سيد مصطفى أفندي ـ شوكت باشا ـ عبد المهدي) ولاية بيروت: (رضا الصلح ـ سليمان البستاني ـ فؤاد خلوصي ـ أسعد شقير ـ محمود أرسلان ـ أحمد خماش) ولاية الحجاز: (حسن الشيبي ـ الشريف عبدالله ـ قاسم زينل) ولاية حلب: (أرتين أفندي ـ رفعت أفندي ـ علي جناني بك ـ مسعود أفندي ـ نافع باشا ـ حاج حسن أفندي ـ محمد شكري أفندي) ولاية سورية: (رشدي بك الشمعة ـ شفيق المؤيد ـ عبد الرحمن بك اليوسف ـ محمد العجلاني ـ خالد البرازي ـ عبد الحميد الزهراوي ـ سعد الدين المقداد ـ توفيق المجالي) ولاية طرابلس الغرب: (فرهاد افندي ـ محمود ناجي بك ـ صادق بك ـ سليمان الباروني ـ جامي أفندي ـ مصطفى قداره) ولاية الموصل: (داود يوسفاني ـ محمد علي فاضل ـ حاجي سعيد ـ صالح باشا ـ محمد علي بك) ولاية اليمن: (سيد أحمد يحيى الكبيسي ـ سعيد أحمد جناني بك ـ سيد علي مطاع ـ حسين بن علي محمد مقنحصي ـ زهدي أفندي ـ سيد هادي رزق ـ علي شديد أفندي ـ محمود نديم بك) متصرفية بنغازي: (عمر منصور باشا ـ يوسف شتوان بك) متصرفية دير الزور: (خضر لطفي) متصرفية عسير (علي برحس) متصرفية القدس (حافظ السعيد ـ روحي الخالدي ـ سعيد الحسيني) المدينة المنورة (عبد القادر الهاشمي). من التقويم العثماني للسنة ٣٢٦ مالية المعروف بالسالنامة. ومن هؤلاء من كان تركياً مستعرباً، ومنهم من كان تركي اللسان أيضاً، مثل اسماعيل حقي وفؤاد خلوصي وعلي جناني ومحمود ناجي وجامي أفندي ومحمود نديم.

وظائف دوائر الحكومة والألوية والأقضية على اختلاف أنواعها، بما في ذلك الجيش والشرطة والدرك باستثناء ـ انفار الشرطة والدرك ـ تشغل من الأتراك، ونحن نعرف ذلك في نابلس، إذا ذهب واحد جاء بدلاً منه تركي. ولقد أرسل سنة ١٩٠٩ إلى أوروبا بعثات لإتمام الدراسة العليا بلغ عددها (٤٠٠) لم يكن بينهم إلا عربيان.

ثم أخذوا يتشددون أكثر من ذي قبل في فرض اللغة التركية في المدارس والمعاملات الحكومية وفي التوظيف للوظائف الثانوية فضلاً عن الرئيسية. وسجل لأحد أقطابهم نجم الدين ملا وزير العدل قوله (سنترك العرب). وكان بعض متطرفيهم العنصريين ينعتون اللغة العربية باللغة الميتة. ولقد عمموا التعليم الإعدادي باللغة التركية وجعلوا مادة تعليم اللغة العربية قليلة الحصص، ولم يسمحوا بالتعليم باللغة العربية إلا في الصفوف الابتدائية الأولى. وصاروا يرفضون الاستدعاءات والمرافعات بالعربية. ولقد أدلى وزير الأوقاف وكان عربياً في جلسة نيابية ببيان بالتركية وختمه بدعاء عربي، فضج نوابهم وثاروا لأنه لا يجوز الكلام في المجلس بغير اللغة التركية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد أصدر أحد حكامهم (جلال نوري) كتاباً عنوانه (تاريخ المستقبل) دعا فيه إلى تهجير السوريين عن أوطانهم، ومعاملة بلاد اليمن والحجاز والعراق كمستعمرات تركية، وتعميم اللغة التركية واحلالها محل اللغات العربية والكردية والشركسية والأرمنية والرومية، وصبغ الدولة بالصبغة التركية البحتة، وحصر جميع وظائفها ومنشآتها بالترك دون غيرهم. وأصدر كاتب آخر اسمه (عبيد الله) كتاباً عنوانه (قوم جديد) هو مجموعة خطب القاها علناً في المساجد، وقد دعا فيها الشبيبة التركية إلى التعلق بتاريخهم وتقاليدهم القومية، وتبجيل رجالاتهم القدماء والمحدثين، أمثال جنكيز وهولاكو وتيمورلنك وأوغوز من القدماء، وأنور وطلعت وجمال ورفاقهم من المحدثين، وتعليق اسمائهم في المساجد بدلاً من أسماء الشخصيات الإسلامية الشهيرة (محمد وأبي بكر وعمر وعثمان وأبي عبيدة وطلحة وخالد وغيرهم) ممن اعتاد المسلمون أن يكتبوا اسماءهم على جدران المساجد أو يعلقوا لوحات بها. وكان حينما يذكر اسماً من اسماء ملوك التتر والترك ورجالاتهم القدماء والمحدثين يردف الاسم بعبارة (صلى الله عليه وسلم) أو (رضي الله عنه) أو (عليه السلام) وينعتهم بأنهم أولياء الله. وكان يفسّر القرآن والأحاديث تفسيراً فيه كثير من التعسف والانحراف بقصد تهوين شأن وواجب ممارسة أركان الإسلام من صلاة وصيام وحج، وتوجيه الأتراك إلى شد أزر الحكومة التركية والحكم التركي.

ولقد أصدرت الحكومة التركية قانوناً حظرت به تسمية المنظمات والأندية بأسماء قومية، وأخذت تتشدد في هذا الحظر بالنسبة للمنشآت التي ينشئها العرب، في حين تغافلت عما قام من منظمات ومنشآت قومية تركية كانت وظلت تحتفظ بالتسميات التركية وتنهج نهجاً تركياً عنصرياً، بل وشجعتها مثل جمعية (ترك أوجاغي) أي الكيان التركي. وكان هدفها تتريك العناصر غير العربية، وتحويل الدولة إلى دولة تركية بحتة. ومثل جمعية (ترك يوردى) أي المملكة أو البلاد التركية، وكان هدفها العناية بالآداب التركية، وتطهير اللغة التركية من الكلمات العربية التي كانت أكثر من نصفها، وتبديل طريقة الكتابة، وترجمة القرآن إلى التركية، وأداء الأذان والأدعية

والأوراد باللغة التركية الخ، ونشر الكتب القومية وتأليف الأناشيد القومية. ومثل (جمعية تـرك درنكي) أي الثبات التركي. وكان من مهامها بث الفكرة القومية التركية في ترك الدولة العثمانية وغيرهم. ومثل جمعية (ترك بيلكيشى) أي العلم التركي التي كانت تضطلع بمهمة نشر الثقـافة التركية. ومثل جمعية (ترك كوجى) أي القوة التركية، وهي جمعية رياضية للعناية بالشبيبة التركية وتقوية بنيتها، وكانت هذه المنظمات محصورة على الأتراك، وفرض على أعضائها استبدال الأسماء التركية بأسمائهم العربية، حيث كان جل اسماء الأتراك من رجال وإناث عربية. وانشأوا فروعاً لمنظماتهم هذه في كثير من المدن التركية الكبيرة والمتوسطة والصغيرة بل وفي القرى المهمة، وكان لها أندية أيضاً، وكانت هذه الفروع والأندية محرمة على غير الأتراك. وأخذت الأناشيد التركية القومية المجدة للتاريخ التركي والجنس التركي والتقاليد التركية ورجالات الترك، والداعية إلى التمسك بالقومية التركية والهادفة إلى غرس روح الاستعلاء والسيادة في شباب الترك على غيرهم تتردد على ألسنة شبابهم في كل مناسبة، حتى وصل الأمر إلى جعل جنكيز السفاح التتري المشهور معادلاً للنبي صلى الله عليه وسلم حيث كانوا ينشدون فيما ينشدونه:

جـدمـز جنكـز خـان عقلدربـزم   جدمز جد الحسين معـاد لدربـزم(٤٦)

ولقد انضوى مئات آلاف الشبان والفتيات الترك ورجالاتهم المتجاوزين سن الشباب إلى هذه المنظمات والأندية، وصار كتّابهم يسقطون أحياناً اسم (الدولة العثمانية) الذي صار يرمز إلى دولة ينضوي فيها عناصر عديدة متشاركة ويستعملون بدله اسم (الدولة التركية)، ويسمون العلم العثماني بالعلم التركي الخ.. وأصدر كاتب من كتابهم هو (عبد الله جودت) مجلة كان ديدنها الحط من شأن العرب وتاريخهم والتحريض والرد، كما صار بعض متطرفيهم يدعون إلى جامعة تركية سياسية تضم جميع الأجناس التركية في بلاد الدولة، وسائر أنحاء آسية بما فيها الأجناس التترية.

- ٤ -

وقد أثار كل هذا كثيراً من شباب العرب ونيريهم، وبخاصة الذين كانوا في العاصمة موظفين وطلاباً، فاندفعوا من جهة إلى تقوية الروح القومية العربية والدعوة اليها والتذكير بالأمجاد العربية كردّ مقابل. ومن جهة إلى تذكير الأتراك بأنهم شركاء في الدولة، وإلى المطالبة بجعل اللغة العربية لغة التعليم والمحاكم والمراجعات في البلاد العربية، وبنصيبهم المتناسب مع عددهم من الوظائف الرئيسية وغير الرئيسية، وفي الأعمال والمشاريع التعليمية والاقتصادية والعمرانية والاجتماعية، وبحريتهم في انتخاب نوابهم الخ الخ. وأخذ كثير من الذين انتسبوا إلى جمعية الاتحاد والترقي وانديتها في العاصمة والخارج ينسحبون منها. وكنا نحن ورفاق لنا في نابلس من الجملة، وصاروا يقفون موقف المعارضة والمناوأة ضد الاستعلاء التركي العنصري وضد ما يظهر من غلاة الأتراك من أقوال ومواقف وكتابات، وضد إهمال الحكومة الاتحادية للمطالب العربية وتشجيعها للنشاط

---

(٤٦) جدنا جنكيز خان عاقل معادل لجد الحسين.

العنصري التركي والدعوة إلى الطورانية، وموقفها الكابح الصارم ضد الدعوة العربية وتطلعاتها بشتى الأساليب من شعر ومقالات وكتب واجتماعات وخطب وبالتكتل مع الناقمين من غير العرب، وبالتكتل مع بعضهم علناً وسراً. وتطور الأمر حتى بلغ في بعضهم إلى المطالبة بالاستقلال الداخلي للبلاد العربية، ثم إلى استهداف الانفصال والثورة في النهاية على الدولة، لا سيما وأن حركة الترك العنصرية استمرت بقوة وسعة، وأن الحكومة الاتحادية ظلت تشجع هذه الحركة من جهة، وتتدخل في الانتخابات النيابية في البلاد العربية لتمنع بقدر ما يمكنها انتخاب الرجال المناوئين لها، أو أصحاب التطلعات القومية والنشاط والبروز، وتخرج نواباً أتراكاً أو من أصل تركي، ومنتسبين إلى حزبها وموالين لها أو غير متحمسين بالحس القومي أو غير متحمسين للحركة والمطالب القومية العربية من جهة، وتراوغ في مطالب العرب وتشتد ضد المطالبين بالحقوق العربية المتحمسين للدعوة القومية العربية من جهة، حتى وصل الأمر إلى الرفض والبغي والإنذار والوعيد والمطاردة والتشريد والاعتقال والمحاكمات والأحكام التي منها ما كان اعداماً على ما سوف نشرحه بعد.

ولقد حاول بعض نواب العرب ورجالاتهم التنبيه إلى ما في هذه الخطة والمواقف من ضرر، مرة بعد مرة في مجلس النواب وفي جلسات خاصة، وطالبوا بالتعديل والاعتدال، وبانصاف العرب في الوظائف والمشاريع الإصلاحية والتعليمية، وبالاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في البلاد العربية إلى جانب اللغة التركية. وكانوا يتضامنون مع نواب ورجالات العناصر الأخرى في هذه المواقف والمطالب. ويطالبون معاً فيما يطالبون، بتطبيق اللامركزية الإدارية في ولايات الدولة، ليتسنى في نطاقها تنفيذ ما تحتاج إليه البلاد من مشاريع عمرانية وزراعية وتجارية وصناعية وعلمية بدون تطويل وتعويق، وبأن يكون الموظفون في بلادهم منهم لأنهم أدرى بمصالح بلادهم وأحرص عليها، وبأن يكون لهم مصالح تشريعية محلية، تشرف على أعمال الولاة والمتصرفين والموظفين وتضع الخطط المثمرة. وكانت هذه المسألة ـ اللامركزية والمركزية ـ من المسائل التي اختلف فيها الواعون من رجالات الترك والعرب والعناصر الأخرى الذين نزحوا إلى أوروبا، حينما عطل السلطان عبد الحميد الدستور لأول مرة على ما شرحناه قبل.

فكانت الحكومة الاتحادية تأبى ذلك وتشتد بالحكم المركزي الذي يكون به معظم الأمور في يد الوزراء ورهن موافقتهم وتتجهم له، وتحقد وتنقم على الناشطين بسبيله. ولقد كانت أحياناً تعد وعوداً معسولة فيها تطمين وحسن رغبة في الاستجابة حين تضطرها الظروف الداخلية والخارجية، ثم لا تلبث أن تتراجع وتعود إلى الأسلوب المتشدد المتجهم الذي ترسمته لتحقيق النيات الاستعلائية. وكثيراً ما كانت تقابل هي ونوابها وكتابها مطالب نواب العرب ورجالاتهم وتنبيهاتهم، حينما يكون بالهم فارغاً من مشاكل داخلية أو خارجية بالاستنكار والتهجم والتشويش والزراية، واتهام المطالبين بالتفرقة والفساد، وإثارة الفتنة والتجسس والعمالة للأجانب، ويغرون بعض نواب العرب الذين صاروا نواباً بفضلهم ونتيجة لاستسلامهم لهم وعدم استشعارهم بشعور القومية. بل كانوا يوعزون إلى ولاتهم ومراكز جمعيتهم في البلاد العربية، فيستكتبون مضابط فيها تنصل من المظالبين والمطالب العربية وتهوين من شأنهم واتهام لهم. وكان التهاتر يشتد احياناً إلى

درجة الاشتباك والصفع في مجلس النواب، كما فعل مرة شفيق المؤيد بطلعت أحد أقطابهم، في موقف من المواقف اتهم طلعت شفيقاً فيه بالعمالة والتجسس فصفعه المؤيد وألقاه أرضاً.

ولقد اثار شكري العسلي في سنة ١٩١١ في مجلس النواب مسألة غمط العرب في الوظائف قائلاً: إن العرب هم نصف السلطنة ويدفعون الضرائب ويقومون بكل الواجبات والتكاليف حسب نسبتهم، في حين أنه ليس لهم إلا نصيب ضئيل جداً في الوظائف الرئيسية، مع أن فيهم كثيراً ممن تخرجوا من المدارس العالية، ولا يمكن أن يصدق أحد أنهم ليسوا أكفاء. وضرب مثالاً لذلك فقال: انه ليس في دائرة الصدارة عربي واحد، وفي وزارة المالية أحد عشر تركياً رئيسياً و١٣ يهودياً رئيسياً، وعشرة من الأرمن، وأربعة من الروم، وليس فيها عربي واحد. وهذا خطأ وظلم، ونحن نطالب بلسان الأمة العربية برفع هذا الغبن، فقوبل كلامه بالضجيج والصخب، ووصف بأنه مثير للنعرة العنصرية، ولقد أيده بعض النواب ورددوا كلامه واثنوا عليه، وايدته بعض الصحف العربية، وكانت صحف المفيد والحقيقة والاتحاد العثماني والثبات في بيروت في طليعة المؤيدين. فبادرت جمعية الاتحاد والترقي للوقوف في موقف مضاد، فأرسلت هيئتها المركزية احتجاجاً، وأوعزت إلى فروعها بالاحتجاج، وضغطت على بعض نواب العرب المندمجين معها وجعلتهم يحتجون ويقولون: إن ذلك بدافع المآرب الشخصية والنعرة العنصرية ويتنصلون منه.

ولقد ألقى مبعوث طرابلس الغرب عمر منصور باشا في نادي الهيئة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي، وكان هو من أعضاء الجمعية، خطاباً خاطب به الأتراك في صدد موقفهم من العرب ومطالبهم ولغتهم وقال فيما قال: إنكم لا تعتدون على الأرمن والروم والبلغار، ولا تقفون منهم مواقفكم من العرب لأن عند هؤلاء قنابل ومسدسات. ولكن يجب أن لا تظنوا أن العرب سوف يبقون مكتوفي الأيدي طويلاً، ولسوف يحذون حذو أولئك. وإذا قال لكم أحد نواب العرب وغيرهم ان العرب راضون بمواقفكم من المطالب والحقوق واللغة العربية فلا تثقوا بقول القائلين ولا تصدقوهم. فقوبل خطابه بالامتعاض والتجهم والغمز.

ولقد دعا عزيز علي الضابط المصري العربي اللامع المشهور الذي كان مندمجاً في جمعية الاتحاد والترقي ومعه بعض ضباط ومدنيي العرب الذين كانوا مثله مندمجين في هذه الجمعية، فريقاً من أعضاء هذه الجمعية الأتراك إلى منزله وتحدثوا معهم في خطأ وخطر هذه المواقف، واكدوا لهم حسن نيات العرب واخلاصهم للدولة، وان كل ما يريدونه خدمة بلادهم وأمتهم ولغتهم، أسوة بهم، وفي نطاق الالتحام الدائم بالدولة العثمانية، وذكروهم بعدد العرب وتاريخهم وسعة بلادهم وقيمتها المادية والمعنوية بالنسبة للدولة، فسمعوا من غُلاتهم ومن يوسف اقجورا وأحمد أعايف ازدراء بالعرب وتنقيصاً من خطورتهم ومكانتهم وإمكانياتهم، وتجهماً وتهجما من سائرهم.

وتكررت مثل هذه المراجعات والتنبيهات من رجال آخرين في جلسات خاصة ورسمية، فكانت تقابل من غلاة الترك بمثل هذه المقابلات أو بالوعود التي لا تلبث أن تنقض. ولقد سقطت وزارة الاتحاديين مرة نتيجة لحركة عسكرية تمردية بسبب مواقفهم المتعنتة. وفي ظرف حرب البلقان التي جرت في أوائلها ضد الدولة وخلفتها وزارة معارضة، فاستبشر العرب ونشطوا في طلب

الإنصاف ورفع الاجحاف واحترام لغتهم، وتعيين الموظفين في بلادهم منهم وإتاحة الفرصة لهم للسير في طريق الإصلاحات المتنوعة في نطاق الأسلوب اللامركزي مما سوف نزيده شرحاً بعد.

وتقبلت الحكومة الجديدة مطالبهم بحسن رغبة ووعدت بدرسها وتحقيقها، ولكن الاتحاديين ما لبثوا أن قاموا بحركة انقلابية مضادة عادوا نتيجة لها إلى الحكم، فبدلوا الولاة الذين شجعوا المطالب العربية والغوا تلك الوعود وشددوا في الإنذار والوعيد للذين نشطوا في سبيلها، واستأنفوا مواقفهم المتعنتة تجاه العرب ومطالبهم. ولقد عقد رجالات الإصلاح واللامركزيةالعرب مؤتمراً في باريس لتدعيم مطالبهم الإصلاحية، حين رأوا الاتحاديين يقفون منها تلك المواقف بعد عودتهم إلى الحكم، مما سوف نزيده شرحاً بعد. فأرسل الاتحاديون سكرتيرهم العام مدحت شكري للاتصال برجال المؤتمر، ووعدهم باسم الجمعية بتحقيق مطالبهم. وكان هذا في ظرف سياسي حرج كانوا فيه، ولم يكد ينقضي هذا الظرف حتى تنكروا لوعدهم وحرفوه، ثم انكروه واستمروا في سيرتهم، وبذلك كله انتقلت الحركة العربية في هذا الدور إلى مرحلة ثانية، وهي مرحلة التكتل العربي بسبيل الحركة العربية والمطالب القومية.

المرحلة الثالثة
التكتل العربي
- ١ -

تمهيد

نرى قبل أن نبدأ في شرح مدى وآثار التكتل العربي بسبيل تدعيم الحركة العربية والمطالب القومية في هذه المرحلة أن ننبه على أمر مهم. وهو أن مواقف الواعين المنفعلين بالتيار السياسي والعربي من شباب العرب ورجالاتهم في هذه المرحلة إزاء ما بدر من الاتحاديين والعنصريين الترك الرسميين وغير الرسميين من بوادر كانت متنوعة.

فقد ثارت فئة من فئاتهم بدون تريث طويل من هذه البوادر، لأنها لمحت فيها رغبة استعلاء تركي وعنصري وغض لمركز العرب وحقوقهم في الدولة عن قصد وتصميم مع رغبة في نفس هذه الفئة، امتدت إلى ما بعد إعلان الحرب العالمية الأولى بأمد ما في البقاء في نطاق الدولة العثمانية، والحصول على المطالب العربية وحسب، مما انعكس على شعر غير واحد من شعراء هذه الفئة، مثل عمر حمد، ومحمد علي الأرمنازي، والشيخ فؤاد الخطيب. وكان معظم هذه الفئة من الشبان. ومنهم بعض الكهول، مثل شفيق المؤيد ورشدي الشمعة وشكري العسلي وطالب النقيب وغيرهم.

وفئة تريثت أمداً ما رغبة في حسن الانسجام والتعايش مع الترك، وكانت تعلل البوادر تعليلاً يتفق مع هذه الرغبة وتهدىء الفئة الأولى، ثم انحازت إلى هذه الفئة لأنها لمحت تصميماً وتعمداً في تلك البوادر. ومن أبرز هذه الفئة الشيخ رشيد رضا وعزيز المصري وعبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي وغيرهم.

وفئة سارت في التريث إلى النهاية رغم أستمرار تلك البوادر، بل رغم ما بدا من الاتحاديين من مطاردة وقمع وقوة حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى الشماتة بمن شنقهم جمال السفاح بسبب حماسهم القومي، والفتوى بصواب ذلك وتمجيد العمل وذهاب وفد كبير منهم إلى الاستانة بعد عملية الشنق الأولى للثناء على سيرة السفاح وعمله وثاقب نظره، وتهمة القوميين المتحمسين للقضية العربية والحقوق العربية في الدولة بالشطط والرعونة والرغبة في المناصب والوظائف بل والعمالة للدول الاستعمارية(٤٧). ومن أبرز هذه الفئة الشيخ أسعد الشقيري الذي كان رئيس ذلك الوفد وخطيبه، ثم عبد الرحمن اليوسف، والأمير شكيب أرسلان(٤٨)، والشيخ عبد العزيز شاويش، والشيخ عبد القادر الخطيب، ومحمد الباقر، وحسين الحبال، وعبد الباسط الأنسي وغيرهم.

ولقد كان يذاع ويقال ان الاتحاديين لم يكونوا جميعهم على رأي واحد بالنسبة للعرب. وما ظهر ضد العرب وضد مطالبهم من بوادر. وإن من أركانهم من كان يقول بوجوب الاحتفاظ بالإخاء العربي التركي وحسن التعايش مع العرب والترك، ومساواة العرب بالترك في مختلف شؤون الدولة، فكانت الفئة الثالثة تسوق ذلك وتبرر به موقفها، كما كان من رأي بعض أفرادها أن تفاقم الخلاف بين العرب والترك سوف يؤدي إلى تدخل الأصابع الأجنبية، ثم إلى انهيار الدولة ووقوع البلاد تحت هيمنة الطامعين فيها من الدول الاستعمارية وبخاصة فرنسة وبريطانية. وإن من واجب العرب المسايرة والاستفادة من أركان الاتحاديين المعتدلين والراغبين في الانسجام وحسن التعامل والتعايش مع العرب. وقبول بعض ما يعرضونه من العروض، وإن لم يكن فيها جميع المطالب العربية.

ولقد عشنا هذه الفترة، وكنا واعين ومندمجين في أحداثها. ونقول حقاً ان الاتحاديين إجمالاً - بقطع النظر عن احتمال وجود أفراد منهم معتدلين - كانوا من العنصريين المتحمسين للفكرة الطورانية والاستعلاء التركي في الدولة. وقد بادروا إلى إظهار عواطفهم وتجسيدها بالأفعال، والوقوف موقف المتجهم المعارض لمطامح العرب القومية وتطلعات المتحمسين القوميين ولبروز الواعين النيرين من العرب في مجال ذلك منذ عهد مبكر جداً. وتجلى ذلك فيما كان من معاكسة لانتخاب رجال هذه الفئة في الانتخابات النيابية التي جرت بعد إعلان الدستور بشهور قليلة. ومن اهتمام شديد لاخراج نواب عن بلاد العرب من أصل تركي، أو من أناس ليس لهم وعي سياسي ولا مطمح قومي، أو من الذي انتسبوا إلى جمعيتهم تزلفاً وابتغاء المآرب الشخصية، وفيما كان من

---

(٤٧) انظر كتاب: البعثة العلمية إلى دار الخلافة، الذي كتبه محمد الباقر ومحمد كرد علي وحسين الحبال وعبد الباسط الأنسي، وهم أصحاب صحف في بيروت ودمشق، وكانوا مع الوفد، أو من أعضائه، وطبع في بيروت سنة ١٩١٦ م - ١٣٣٤ هـ، وفيه وصف لرحلة الوفد وأسماء أعضائه وخطبهم وقصائدهم التي تمثل ما ذكرناه. وقد ذكرنا أسماء محمد الباقر وحسين الحبال وعبد الباسط الأنسي في عداد الفئة الثالثة، دون محمد كرد علي الذي كان في البعثة، ومن كتاب كتابها، لأن محمد كرد علي لم يكن مندفعاً مع الاتحاديين ضد الحركة العربية والمطالب العربية كزملائه وكان له في تلك الظروف وبعدها وقبلها مواقف تسوغ عده قليلاً أو كثيراً من الفئة الثانية.

(٤٨) لعله من الانصاف أن نذكر أن الأمير شكيب قد بذل جهداً عظيماً في النضال السياسي والقلمي بعد الحرب في سبيل قضايا البلاد العربية والاسلامية.

غمط العرب الشديد المثير في المناصب الرئيسية وغير الرئيسية في الدولة وفي العاصمة والولايات مما ذكرنا أمثلة منه .

وفي ما كان من نشاط تركي عنصري صريح أريد حصره في الترك دون غيرهم وتشجيع كبير عليه، في حين كانوا شديدي التجهم والنهج على ما كان يبديه شباب العرب من حماس وتطلع قومي. ولم يكن ما بدا من الواعين العرب من إقبال الانتساب إلى جمعيتهم، والابتهاج بالدستور والاندماج الشديد فيه والرغبة القوية في توثيق الإخاء التركي والعربي، وإظهار حرصهم على البقاء في نطاق الدولة والخلافة العثمانية وتنبيههم إلى أن مطالبهم هي مطالب إصلاحية وعمرانية وثقافية في ظل الدولة ليجعلهم يرعوون عن ذلك، ويسايرون العرب في عواطفهم وكرامتهم وحقهم ومطالبهم المعتدلة، مما فيه تبرير للفئة الأولى من الواعين المتحمسين من شباب العرب في التبكير فيما صار عندهم من رد فعل لذلك، وفي محاولات لاظهار هذا بمختلف الأساليب، وجمهرة هؤلاء الشباب كانوا ممن يعيشون في الاستانة، حيث كانوا طلاباً في مدارسها، فكانوا يصطدمون بما كان من المتحمسين من شباب الترك من كل ذلك. ولا يصح القول ان ذلك كان تسرعاً وغلواً، لأنه كان كما قلنا رد فعل لمواقف وأحداث متسرعة من الأتراك، غير ناشئة عن استفزاز عربي. وقد كنا نحن وكثير من أمثالنا في خارج العاصمة من الذين انتسبوا إلى جمعية الاتحاد والترقي وانديتها، وأملوا خيراً كبيراً من الدستور والسير في طريق حياة أفضل في ظل إخاء عربي تركي وثيق، فصدمنا بتلك البوادر المثيرة المتسارعة التي كنا نقرأ ونسمع أخبارها، ونشهد بعض فصولها عياناً، وصرنا نتجاوب مع الشعور بما يجب على الواعين العرب أن يفعلوه تجاه ذلك.

ولقد استمر ذوو النزعة المتطرفة من الاتحاديين الذين كانوا هم المسيطرين على الجمعية والدولة، دون المعتدلين الذين كانوا قلة غير مؤثرة على مواقفهم ومحاولاتهم الاستعلائية من جهة، وصاروا من جهة أخرى ينقمون مما بدا لهم من رد فعل عربي من بوادرهم، ويجسدون نقمتهم في التطاول على العرب ورجالاتهم والزراية عليهم، واتهامهم بتهم متنوعة تمس الشرف والكرامة، وفي محاربة المرشحين منهم للانتخابات محاربة شديدة، مما جعل الفئة الثانية تنحاز للفئة الأولى في مواقف المعارضة، والاشتداد في الدفاع عن الوجود العربي والحق العربي والمطالبة بحقوق العرب في الدولة وفي بلادهم بعد تريث وأمل خائب في الارعواء، ولم تكن هذه الفئة شباناً متحمسين يمكن أن يتهموا بالغلوّ والتطرف والانفعال السريع كالفئة الأولى، بل كانوا طبقة متقدمة في السن والنضج والتجربة، ومنها من كان شديد الاندماج في فكرة الإخاء العربي التركي الإسلامي والخلافة الإسلامية الممثلة في السلطان العثماني التركي، ومن كان له مواقف دفاعية شديدة ضد الانفعال والغلو والتطرف، ومن أبرز هؤلاء الشيخ رشيد رضا الذي كان قوي الإيمان والإسلام والذي كان يكرس قلمه ومجلته (المنار) لذلك. والذي تعرض لنقمة بعض الناس في مواقف دفاعية عن العهد الدستوري الجديد والخلافة العثمانية والإخاء الإسلامي التركي العربي في طرابلس الشام وبيروت ودمشق، بحيث صار من الحق أن يقال إن مواقف الفئتين قد أملتها المصلحة القومية، وكانتا فيها مناضلتين مخلصتين. وإن استمرار الفئة الثالثة في مواقفها المسايرة والمؤيدة للاتحاديين الذين استمروا في مواقفهم المناوئة والغامضة للتطلعات العربية والمطالب العربية هو انحراف عن تلك

المصلحة ليس له مبرر، ولا سيما أنه لم يكن في تلك التطلعات والمطالب غلو ولا شطط، حيث كانت وظلت إلى أن كشّر جمال السفاح وعصبته عن أنيابهم، وأخذوا يطاردون رجال الحركة العربية، ويعتقلونهم ويحاكمون ويحكمون عليهم بالأحكام القاسية التي كان منها إعدام العشرات، وتشريد مئات الأسر في نطاق اللامركزية في الولايات العربية، والسماح بممارسة اللغة العربية في المعاملات والمرافعات والتعليم في هذه الولايات، واختيار موظفيها منهم، وجعل نصيب العرب في المناصب الرئيسية متناسباً مع عددهم وقيمتهم، ونيل البلاد العربية العناية الواجبة لتحسين أحوالها وشؤونها الزراعية والصناعية والتجارية والعلمية والعمرانية. . . إلخ. ولم تكن تتجاوز عند أكثرهم تطرفاً حد أن يكون للعرب استقلال ذاتي، وان يظل ارتباطهم قائماً بالتاج العثماني على نحو ما كان عليه الأمر بين النمسة والمجر إذ ذاك. فضلاً عن أنه لم يكن لها ـ أي للفئة الثالثة ـ ما يبرر في حال مواقفها ضد القوميين، تلك المواقف الشديدة التي وصلت إلى الرضاء بما وقع على رجالات العرب وأسرهم من بغي وقسوة ومطاردة وتشريد وأحكام، وبما استحوذ على بلاد العرب من طغيان وشدة وجبروت وتجويع. . .

ولم يكن واجب العرب بالرضاء بما بدر من الأتراك بحجة الاحتفاظ بالاخاء التركي العربي أشد من واجب الأتراك بمسايرة العرب، وهم نصف الدولة أو يزيدون في مطالبهم العادلة المعتدلة بسبيل ذلك.

وفي القول ان مواقف العرب ستؤدي إلى انهيار الدولة وامتداد الأصابع الأجنبية غلو كبير، فضلاً عن الغلو الكبير والباطل في تحميل المسئولية للعرب دون عنصر بني الترك.

وإذا كان السلطان التركي قد انقشع عن بلاد العرب عقب الحرب العالمية الأولى ووقعت هذه البلاد فعلاً في براثن المستعمرين، فلم يكن هذا لسبب تلك المواقف والمطالب، بل ولا بسبب الثورة الهاشمية التي كانت بوادر الاتحاديين ومواقفهم من العرب من الأسباب التي استندت إليها كما يحلو لبعضهم أن يقولوه، ولم يكن ذلك ليمتنع لو لم يقفوها، بل ولو لم تنشب تلك الثورة، مما غدا حقائق معلومة لا تتحمل مراء. . .

ولقد كان أصحاب المواقف والمطالب القومية قلة قليلة جداً بالنسبة **للجمهور العربي، الذي كانت أكثريته الساحقة مسلمة تعتبر الدولة العثمانية المسلمة دولتها ودولة الخلافة الإسلامية الواجب عليها الطاعة لها دون انفعال بالتيارات السياسية والقومية، بما في ذلك طبقاته البارزة من مشايخ دين وموظفين عسكريين ومدنيين ووجهاء وأعيان الذين كان معظمهم في الحقيقة ضد مواقف تلك الأقلية ومطالبها واعتبارها بدعة مخالفة للدين، والذين كانوا مع الجمهور العربي المسلم تكأة للفئة الثالثة** في مواقفها المسايرة للأتراك حتى النهاية، فلم يكن هذا ليمنع تلك النتائج بحيث يغدو القول، إن مواقف القوميين العرب ونشاطهم كان من أسباب ما جرى للبلاد العربية عقب الحرب أشد ضعفاً بل وأشد تهافتاً، وهو ناتج من رد فعل الوقائع، ولكنه رد فعل ضيق الأفق والنظر والعلم.

وإذا كان فريق من القوميين العرب وتنظيماتهم العلنية والسرية صاروا يستهدفون

الانفصال عن الدولة، وأخذوا يسعون في ذلك ويتصلون بأمراء الجزيرة، ويهيئون أسباب قيام ثورة مسلحة، ويسعون للحصول على تأييد خارجي، ثم يتصلون في النهاية بالشريف حسين أمير مكة ويتوافقون معه على الثورة ضد الدولة بالاتفاق مع الانكليز على ما سوف يأتي شرحه بعد، فان ذلك إنّما كان بعد اشتداد تجهم الاتحاديين، ونقضهم لما اتفقوا عليه مع زعماء المؤتمر العربي، ثم بعد تطور هذا الموقف إلى مطاردة واعتقالات ومحاكمات وأحكام قاسية وتشريد وتجويع بقرار من جمعيتهم وحكومتها للقضاء على الحركة العربية الحديثة، اغتناماً لفرصة الحرب، وكانتقام وعقاب على مواقف ومطالب القوميين العرب وتطلعاتهم.

ونقول هذا بقطع النظر عن أن ذلك السعي في حد ذاته وفي وقته كان من صميم المصلحة القومية العربية المخلصة، من حيث أن هذا الفريق قد رأى من جهة من الاتحاديين ذلك النزوع القومي إلى الاستعلاء العنصري، والقضاء على التطلع العربي القومي، ومناوأة المطالب القومية العادلة، فجعلهم ذلك ييأسون منهم، ومن جهة رأوا فرصة سانحة إذا صدقت كان لهم منها ما يطمحون إليه من كيان وبعث حقيقي، ونعني الحرب العالمية الأولى التي وعد العرب من الحلفاء بأحسن الوعود إذا ثاروا واشتركوا فيها إلى جانبهم، ولم يكونوا ليخسروا شيئاً لو لم تصدق، لأنهم سوف يكونون معرضين لكل شدة وقمع من الترك إذا فاز فريقهم في الحرب، فجعلهم ذلك يغتنمون تلك الفرصة.

أما تهمة العمالة للدول الاستعمارية ـ والمقصود منها بالدرجة الأولى فرنسة ثم بريطانية ـ كمبرر للأحكام القاسية والمطاردة والتشريد الواسعين. وكمبرر لتلك المواقف الشامتة الراضية التي وقفتها الفئة الثالثة، إزاء ما حل في الفئتين الأولى والثانية، فهي تهمة فيها كثير من التعسف والتجني والتعميم والتجاوز والظلم، فالوثائق التي أوردها جمال في مذكراته، وفي كتاب (الإيضاحات) مما سوف نزيده شرحا بعد لا تكاد تدين أحداً بالعمالة المأجورة. فالأسماء المذكورة في الوثائق قليلة جداً، والأفراد القلائل من المسلمين الذين ذكر اتصالهم بممثلين افرنسيين أو انكليز فعلوا ذلك بسبيل ضمان استقلال بلاد الشام ودرء الاحتلال عنها، ودرء قمع الترك لهم، كما هو صريح فيها. ومع أن الأفراد القلائل من النصارى الذين وردت أسماؤهم في تلك الوثائق الذين كانوا يتطلعون بل ويطلبون حماية فرنسة بل وحكمها لبلاد الشام وللبنان خاصة، وكان ذلك مشيناً من دون ريب من وجهة النظر القومية العربية، فإن الوثائق لا تذكر أنهم كانوا عملاء مأجورين، وليسوا هم محل ذلك لأنهم كانوا وجهاء وأغنياء، ومع ذلك فهؤلاء وأولئك لا يبلغون خمسة أو عشرة من المئة من الذين طوردوا واعتقلوا وحوكموا وحكم عليهم غياباً وحضوراً، ونفذ في حضورهم الحكم وشرد ذووهم. أما البقية أو الكثرة الكبرى فليس هناك وثائق تدينهم، وكل جريمتهم على ما هو صريح في كتاب إيضاحات، انهم انتسبوا إلى حزب اللامركزية والحركة الإصلاحية، أو تجاوبوا مع مؤتمر باريس وأيدوه، أو انتسبوا إلى الجمعيات العربية الأخرى، وكل ذلك كان قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى.

ولقد كانت الحكومة الاتحادية أعلنت عفواً عاماً سياسياً، بعد أن اتفقت في سنة ١٩١٣ مع

زعماء مؤتمر باريس على ما سوف نذكره بعد، فكان عودتها إلى ذلك عملاً باغياً لا أخلاقياً ولا قانونيا بحيث يصح القول ان الفئة الثالثة كانت في تشجيعها لجمال في بغيه وقسوته على بني قومها ودينها، بعد ذلك، كانت في موقف لا أخلاقي أيضاً. ولا يبرره وجود قلة قليلة من النصارى وجدت وثائق فيهم، لأن ذلك يكون أخذ الأبرياء الذين هم الأكثرية العظمى بجريرة هذه القلة القليلة.

ولقد تضمنت مذكرات عزيز بك رئيس مخابرات جمال التي نشرتها جريدة الأحوال البيروتية سنة ١٩٣٩ بعناوين (سورية ولبنان في الحرب العالمية) و (والاستخبارات والجاسوسية في الدولة العثمانية)، والتي جمعت بعد ذلك في كتاب، تقريراً مثيراً مؤيداً بما جاء في مذكرات جمال نفسه التي نشرت ترجمتها سنة ١٩٢٣ مفاده أن حزب الائتلاف والحرية المعارضين لحزب الاتحاد والترقي قام بحركة انتقامية بعد حركة الحزب الأخير ضد حكمه واسقاطه، ذهب ضحيتها محمود شوكت الصدر الأعظم، فتأثر جمال تأثراً شديداً وغضب على هذا الحزب وطارد وبطش بمن طالته يده منهم، وشرد سائرهم، وكان يتولى منصب حاكم الاستانة العسكري، وانه لما علم أن حزب اللامركزية متواصل ومتطابق في منهجه ومسعاه مع حزب الحرية والائتلاف، سرى حقده على أعضاء ذلك الحزب وجعله يشتد في مطاردة أركانه والبطش بهم أثناء الحرب حينما تولى السلطة المطلقة في بلاد الشام، وقد كان فعلاً معظم ضحايا هذا السفاح من هذا الحزب. وقد حكم ونفذ الحكم في عدد منهم بدون محاكمة تقريباً وبدون تهمة معينة على ما يستفاد من كتابه (إيضاحات)، حيث يبدو أن بطشه ونقمته كانتا عمليتين انفعاليتين شخصيتين[٤٩]. وإن تبرير ذلك بما كان من نشاط رجال حزب اللامركزية والحركة الإصلاحية غير صحيح البتة، فضلاً عن أن نشاط هؤلاء الرجال كان يدور حول الحكم اللامركزي والإصلاحات وحقوق العرب ولغتهم في الدولة كما قلنا. ولا سيما أن هذا النشاط كما قلنا قبل كان سابقاً للحرب، وصدر عفو عام عنه.

وهناك مأثورات تفيد أن بعض أركان الحركة العربية واللامركزية والاصلاحية، أخذوا يتواصون حينما دخلت الدولة العثمانية في الحرب، وأعلنت النفير العام تمهيداً لذلك بوجوب تجميد نشاطهم والالتفاف حول الدولة وتأييدها[٥٠].

---

(٤٩) أخبرني المرحوم أمين التميمي، وكان قد تعين مفتشاً للكلية، وطلب منه سنة ١٩١٧ العمل في المناطق التي يقطنها الأرمن، ونكبوا فيها، انه أخذ يتردد على الباب العالي، ليطلع على بعض الوثائق والأمور المتعلقة بمهمته، وانه بينما كان بسبيل ذلك، همس له رئيس الأرشيف قائلاً: اقرأ هذا الملف، فلعله يفيدك، فإذا هو ملف أحرار العرب، وانه قرأ فيه برقيتين متبادلتين بين أنور وجمال يقول الأول في برقية للثاني ما ترجمته: (إن خليل بك ـ وكان هذا وزيراً للعدلية في الحكومة الاتحادية ـ مستاء، ويقول ان جمالاً أعدم رجال العرب قبل صدور الإرادة السنية بذلك، حسب الأصول). ويقول الثاني في برقية جوابية ما ترجمته (انك تعرف كم هو خليل بك مزمزاً ـ والكلمة تعني متحذلق متعب متعنت ـ أما الإرادة السنية فيمكنكم أن تستصدروها في أربع وعشرين ساعة). ويدل هذا، ولا محل للريب في صدق الخبر، على ان جمالاً أسرع في تنفيذ الإعدام في رجال العرب بارادته، واندفاعاً بحقده وشعوره بالجبروت.

(٥٠) أورد أمين سعيد في الجزء الأول من كتابه: الثورة العربية السورية، نص كتاب مؤرخ في ٦ آب/أغسطس ١٩١٤ أي بعد إعلان الدولة النفير العام أرسله عبد الكريم الخليل من الآستانة لأحد أصدقائه يقول=

وفي مذكرات عزيز وجمال ما يستفاد منه أن كثيراً من أركان الحركة العربية الذين حوكموا وحكم عليهم ونفذ فيهم الإعدام في المرة الأولى في آب ١٩١٥، كانوا ضحية وشايات وتحريضات بعض رؤساء الفئة الثالثة مثل الشيخ أسعد شقير والأمير شكيب أرسلان وكامل الأسعد، وأن جمالاً أصدر أوامره باعتقال رجال الحركة العربية بدءاً من عبد الكريم الخليل ورضا الصلح ورياض الصلح وغيرهم، على اثر مراجعة الشيخ أسعد له وقوله له ان لدى كامل الأسعد أخباراً عنهم، وكامل الأسعد هو الزعيم الأكبر الشيعي في جبل عامل، وقد أحضر جمال كاملاً هذا وأصغى لما قاله له عن حركات ونشاط رضا الصلح وعبد الكريم الخليل ورفاقهم في جبل عامل - ورضا الصلح من صيدا وعبد الكريم من صور وبادر على اثر ذلك إلى إصدار أوامره بمطاردة هؤلاء وأمثالهم واعتقالهم ومحاكمتهم، حيث يظهر من ذلك أن المنافسات والأحقاد المحلية والشخصية والطائفية، كانت تدفع بعض رؤساء الفئة الثالثة إلى ما كانت تسير فيه من طريق التعلق برجال السلطة من الاتحاديين، حتى وصل بعضهم إلى هذا الحد الرهيب إن صح ما قاله عزيز بك، وليس هناك ما يبرر الظن أنه مختلق لما قال(٥١).

على أن هذا لا ينبغي أن يغطي على حقيقة معروفة ملموسة ممن كانوا يعيشون الحقيقة، ونحن منهم، وهي أن غلاة الاتحاديين، وليس جمال وحده الذين كانوا على رأس الحكم، ظلوا حاقدين على رجال الحركة العربية، وانهم اغتنموا فرصة الحرب للقضاء عليهم، وعلى الحركة العربية معاً، وقد عجموا كنانتهم فوجدوا جمالاً أشدهم حقداً وأجرأهم على البغي فاختاروه لتنفيذ هذه السياسة. وفي مذكرات عزيز بك التي تضمنت التقرير السابق نبذة مؤيدة تأييداً قوياً لذلك، حيث جاء فيها (كان في سورية في بداية الحرب زكي باشا كقائد للجيش الرابع، وكان شريفاً حيياً محباً للجامعة العثمانية - أي غير عنصري - ولم تكن هذه الصفات لتروق القابضين على زمام السلطنة الذين كانوا يريدون نفوذ أمرهم في هذه البلاد، وأن يكون على رأسها شخص يعرف كيف ينفذ إرادتهم ويقضي تماماً على الفكرة العربية والحركة العربية، فقرروا استبدال

= فيه ان «المقتضى على كل عثماني مخلص لدولته وأمته أن يبذل جهده في سبيل تأييد الاجراءات التي اتخذتها حكومتنا السنية لدرء خطر الحرب العظمى، وأن مهمتي في سورية ستكون جمع كلمة الأمة على شد أزر الحكومة، والسعي لمنع كل ما يحتمل وقوعه من أسباب النفور بين العناصر العثمانية، وإظهار الوحدة العثمانية بأتم مظاهرها. . .» وأورد كذلك نص كتاب أرسله أحمد مختار بيهم من بيروت، في ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩١٤، أي قبل دخول الدولة الحرب ببضعة أيام، يقول فيه: «إننا ألغينا أحزابنا السياسية، وتناسينا خلافاتنا الداخلية، لأن المصلحة المشتركة تقضي بذلك، وسوف يرى إخواننا الترك، ولا سيما الاتحاديون من أعمالنا في هذه الحرب، ما يظهر لهم عظم إخلاصنا للعرش العثماني، وتفانينا في خدمة الوطن المشترك. . .» النص في ص ٥٧ و ٥٨ من الجزء المذكور. ولقد جاء في مذكرات أحمد قدري، وهو من أركان جمعية الفتاة والحركة العربية القومية، ومن أركان الفئة الأولى، ان الجمعية قررت عقب اندلاع الحرب، أنه «أصبح من واجب الجمعية أن تعمل مع أحرار العرب كافة للدفاع عن البلاد، جنباً إلى جنب مع الأتراك، لدفع خطر الاستعمار الأوروبي الذي يمكن أن تتعرض له بلادنا»، ص ٣٨.

(٥١) انظر: الصفحات ٧ - ٦٤ و٦٣ و ٣٣٥ - ٣٥٤، من كتاب عزيز بك، والصفحات ٢٣٧ - ٢٨٧ من مذكرات جمال (الترجمة العربية). وأسماء الشيخ أسعد وكامل الأسعد والأمير شكيب، وردت في مذكرات عزيز بك بالمآل الذي ذكرناه.

جمال باشا به واستصدروا في تاريخ ١٣/١١/١٣٣٠ إرادة بذلك(٥٢). ويؤيد هذا نبذة هامة وردت في مذكرات جمال باشا في سياق ذكره أسباب اختياره قائداً لسورية جاء فيها: (إن أنور باشا قال له إن الأنباء الواردة من سورية تدل على وجود هياج داخل البلاد مضافاً إلى ذلك النشاط العظيم الذي يبديه القوميون العرب. وإن زكي باشا لا يريد القيام بحملة السويس ويطلب مطالب كثيرة ونجدات كبيرة لحماية سورية ضد إنزال قوات من البحر وإنه ـ أي جمال ـ هو الرجل الذي يمكنه أن يسد الفراغ، وهو القادر على تحقيق المقاصد. وقد أرفقه بالشيخ شقير وعبد الرحمن بك وغيرهم من وجهاء العرب ليساعدوه ويشيروا عليه)(٥٣).

وفي الجزء الأول من كتاب الثورة العربية لأمين سعيد نبذة تذكر أنه كان لنشوء حزب العهد العربي العسكري الذي أنشأه عزيز علي المصري، والذي انضوى إليه عدد كبير من ضباط العرب في الجيش العثماني، وصار له فروع في بغداد والموصل، ولقي تأييداً والتفافاً من الشبيبة العربية، رد فعل شديد في رجال الحكومة الاتحادية. وقد عقد في يوم ٢٤ يناير سنة ١٩١٤ اجتماع خاص في دار وزارة الحربية بالاستانة حضره الصدر الأعظم سعيد حليم باشا، ومحافظ الاستانة العسكري أحمد جمال باشا قبل أن يعين وزيراً للبحرية، ومدير الأمن العام عزمي بك، فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية وجمعية العهد عامة وقرروا:

١ ـ إقصاء ضباط العرب المقيمين في الاستانة، وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية (٤٩٠) ضابطاً إلى المناطق التركية وهي تراقية(٥٤) والأناضول.

٢ ـ تولية القيادة في البلاد العربية للضباط الترك وإقصاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم فيها بقدر الإمكان.

٣ ـ الإسراع في تنفيذ سياسة تتريك العناصر.
٤ ـ تكليف أحمد جمال باشا بوضع المنهاج لذلك.
٥ ـ مقاومة الحركة الإصلاحية العربية.
٦ ـ إلغاء الأحزاب العربية كلها(٥٥).

وننبه على أن منهاج حزب العهد صريح ببقاء البلاد العربية جزءاً أساسياً من بلاد الدولة، وبقاء الخلافة الإسلامية في آل عثمان مع تمتع هذه البلاد باستقلال ذاتي أو لامركزي.

والقرارات مؤيدة لما نقول من عداء غلاة الاتحاديين الأصيل للحركة العربية ومناهجها التي

---

(٥٢) ص ٣٨.
(٥٣) ص ٢٣٥ ـ ٢٤٩ من الترجمة العربية لهذه المذكرات لمترجم مصري اسمه علي أحمد شكري، وليس في الترجمة ما يفيد تاريخ محل الطبع، ولكن للمترجم مقدمة مؤرخة في رمضان ١٣٤١ ـ ١٧ نيسان/أبريل ١٩٢٣، مكتوبة في محلة الزيتون في القاهرة. والترجمة مطبوعة في مصر أيضاً.
(٥٤) تراقية قسم من الروملي أي أوروبا العثمانية.
(٥٥) انظر: ص ٤٦ و ٤٧ من الجزء الأول من كتاب: الثورة العربية الكبرى، لأمين سعيد.

كانت تدور في نطاق الإصلاح واللامركزية، وتبييتهم النية على القضاء عليها وعلى رجالها قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وترشيحهم جمالاً لهذه المهمة.

كذلك يحسن أن ننبه على أمر آخر قبل البدء في الكلام عن التكتل العربي في هذا الدور. وهو أن الحركة العربية وفئاتها الثلاث كانت محصورة تقريباً في شباب ورجال الولايات العربية التي كانت خاضعة للدولة خضوعاً تاماً، وبنوع خاص ولايات بلاد الشام والعراق مع مشاركة ضئيلة من رجالات الحجاز واليمن متناسبة مع درجة ثقافة القطرين المتأخرة والعشائرية بصورة عامة، ومع مشاركة ضئيلة من رجالات ليبية انقطعت بعد نجاح الغزوة الطليانية وخروج هذا القطر العربي من نطاق سلطان الدولة على ما شرحناه قبل. ولم يكن لرجال مصر وشبابها مشاركة باستثناء بعض أفراد كانوا قد تعلموا في مدارس الآستانة وصاروا ضباطاً في جيش الدولة. لأن مصر كانت منفصلة عن سلطان الدولة الفعلي وتحيا حياة مستقلة، ثم كانت تحت الاحتلال والهيمنة والتوجيه الانكليزي الذي كان يحرص على عدم سريان الدعوة القومية إليها. وما كان من تأثر شعرائها وانفعالهم قبيل إعلان الدستور وفي مرحلة إعلانه الأولى، مما أوردنا شواهده في نبذ سابقة هو متصل بكون الدولة العثمانية هي دولة الخلافة الإسلامية، وكون الواعين في مصر كانوا يتطلعون إليها بسبيل الخلاص من محنة الاحتلال والهيمنة الانكليزية وحسب.

هذا، وما ذكرناه في هذه النبذة هو في صدد التعليق على موقف الفئات الثلاث وتوضيحه، وكثير منه يتحمل شرحاً موضوعياً، وهو ما سوف نفعله إن شاء الله في القسم الثاني من الكتاب، لأن أحداثه قد جرت في الحقبة التي خصص لها القسم الثاني.

- ٢ -

ونشرع الآن في شرح التكتلات العربية فنقول ان الواعين العرب بدأوا بذلك في وقت مبكر، وبكلمة أدق عقب إعلان الدستور بمدة وجيزة. وكان من أهم الحوافز على ذلك تبكير غلاة الترك من رسميين وحزبيين وعنصريين في بوادرهم الهادفة إلى إعلاء العنصر التركي في الدولة، والغض من العناصر الأخرى، وعرقلة بروزها ونشاطها، ولتجهمهم لذلك. ثم استمروا في نشاطهم التكتلي نتيجة لاستمرار تلك البوادر بسبيل الدفاع عن كيانهم القومي وحقوقهم ومركزهم في الدولة.

ولقد كانت تكتلاتهم متنوعة، منها العلني ومنها السري، ومنها العربي الصرف. ومنها المختلط مع عناصر تركية وغير تركية كانت تعارض بوادر رجال الاتحاد والترقي الرسميين وغير الرسميين.

ولقد استمر نشاط تكتلاتهم العلنية والمختلطة مع ما كان يوضع في طريقها من عثرات إلى أوائل الحرب العالمية الأولى حيث توقف. أما التكتلات السرية فمنها ما ظل قائماً في أثناء هذه الحرب أيضاً، مما سوف يكون تفصيل نشاطه من مواضيع الشطر الثاني من الكتاب، حيث رأينا أن نقف في هذا الشطر عند آخر العهد الذي بدأت تلك الحرب بعده.

وما كان من تشاد بين رجال الحركة العربية والسلطات الاتحادية، وما كان من حركات عربية بين إعلان الدستور وأوائل الحرب العالمية الأولى مما لم نذكره في المرحلتين الأولى والثانية، إنما جرى عبر هذه التكتلات.

وفيما يلي شرح مستفاد من الميسور من المصادر وما وعته الذاكرة وتلقفته الأذن ومارسناه شخصياً من التكتلات العربية.

ـ ٣ ـ

أولاً: التكتل العربي العلني

١ ـ جمعية الاخاء

وكانت أولى بوادر تكتلهم العلني وأكبرها (جمعية الإخاء العربي العثماني) وقد أنشأها جماعة من رجالات العرب الواعين ونوابهم في الاستانة عقب الانتخابات النيابية الأولى التي جرت بعد إعلان الدستور بمدة قليلة. ومن مؤسسيها شفيق المؤيد العظم، وصادق المؤيد العظم، وشكري الأيوبي (من دمشق)، ويوسف شتوان (من طرابلس الغرب)، وشكري الحسيني (من القدس). ومن هؤلاء من ناوأ الاتحاديون انتخابهم، مثل شفيق المؤيد ويوسف شتوان، على ما ذكرناه قبل، حيث يفيد هذا أن منشئي الجمعية قد تأثروا ببوادر التشاد المضاد التي بدرت من غلاة الترك ضد الواعين وذوي التطلعات القومية من العرب.

وقد نص نظام الجمعية على: حق كل عربي بالانتساب إليها إذا كان متصفاً بحسن الخلق والسيرة وغير فاقد لحقوقه المدنية. ووصف (العربي) فيه بأنه الشخص المولود في بلاد العرب والمتكلم باللغة العربية والذي اتخذ بلاد العرب وطناً له. وهو تعريف مرن متسق مع فكرة الانفتاح العربي لكل من يحب الانتماء إلى العرب أو لكل من يريد الاندماج في العروبة من غير أصل عربي. . ونص نظامها كذلك على أن من مقاصدها: ١ ـ معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على أحكام القانون الأساسي. ٢ ـ جمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفريق في الجنس والمذهب، وتمكين الرابطة الجامعة بينهم لخدمة الدولة العثمانية وإصلاح الشؤون المختلفة. ٣ ـ السعي لاعلاء شأن الأمة العربية واتخاذ جميع الوسائل والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها. ومن ذلك تأسيس المدارس وطبع الجرائد وغير ذلك، وزيادة ثروة الأهلين ببذل النصائح والارشادات اللازمة لتأسيس المعامل والشركات الزراعية والصناعية والتجارية، والاجتهاد بإقناع أهل البداوة بالاقلاع عن عاداتهم المستهجنة وعداوتهم المستمرة، وإسكانهم في محلات ثابتة وتعويدهم على مزاولة العوائد والحرف الحضرية، وتنوير عقولهم بالعلم. وصيانة حقوق أبناء العرب جميعاً من الغدر والاعتساف، وتبليغ شكاياتهم ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسمية. ٤ ـ صرف المقدرة بكل ما يمكن في الأمور الخيرية والسعي في تأييد العدل والحرية والمساواة بين عناصر الأمة العثمانية، وإزالة الضغائن وسوء التفاهم من بينهم.

حيث يبدو من كل ذلك شمول نظرة مؤسسي الجمعية، وسعة الأفق الذي ترسموه عربياً وعثمانياً.

وقد أنشأت الجمعية جريدة في الاستانة باللغة العربية باسمها لتكون لسان حال لها. وقد لقي قيام الجمعية ارتياحاً وإقبالاً من جمهرة العرب الذين كانوا في الاستانة وبخاصة من شبابهم الذين كانوا أول المتأثرين ببوادر غلاة الترك، والمتحمسين لقوميتهم وحقوقهم في الدولة.

ولم تعمر الجمعية إلا مدة قصيرة، وكان من أهم مظاهر نشاطها استقبال نواب العرب، وإقامة حفلات تكريم لهم، وتعريف العرب بعضهم ببعض، وبخاصة النواب، حيث يبدو أنها كانت تأمل أو تستهدف تجميع العرب، وبنوع خاص نوابهم في الاستانة، وتوحيد كلمتهم وحفزهم على الدفاع عن حقوق العرب ومركزهم.

ولقد استشعر الاتحاديون هذا الهدف، ولا سيما أنهم رأوا أن من مؤسسي الجمعية من ناوأوا انتخابهم بسبب وعيهم وتطلعاتهم القومية، فاغتنموا فرصة خلع السلطان عبد الحميد، وتعطيل مجلس النواب الذي تم عقب ذلك الخلع، فقرروا إغلاق الجمعية وجريدتها.

ولقد ذكر أمين سعيد في الجزء الأول من كتابه (الثورة العربية)، أن الجمعية ماتت من نفسها لعدم التمازج بين أعضائها، ولأن غاية بعضهم لم تكن خالصة لوجه الله والوطن. وهذا الكلام يتحمل كثيراً من التحفظ والتوقف، وما ذكرناه هو الأصح، وقد سمعناه من مشاهدي عيان، وقد ذكره مؤلف كتاب (ثورة العرب الكبرى)(٥٦) الذي هو عضو في جمعية عربية سرية، وقد ألف كتابه في زمن الدولة العثمانية وكان من المشاهدين العيان، وذكره أيضاً توفيق برو مؤلف كتابه (العرب والترك في العهد الدستوري)(٥٧) الذي استند فيها كتبه إلى وثائق ومذكرات وشهود عيان أيضاً. وما ذكره أمين سعيد هو ما ورد في كتابه (إيضاحات) الذي أصدره جمال السفاح لتبرير الأحكام القاسية التي أصدرها الديوان العرفي في عاليه بأمر منه ضد رجال الحركة العربية، وهذا وحده يكفي للتحفظ والتوقف. ومع ذلك فإن كتاب (إيضاحات) هذا مع نعته أعضاء الجمعية بذلك النعت قال بصراحة: إن الحكومة التي تألفت بعد حركة ٣١ مارس ١٩٠٩، وبعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد هي التي ألغت الجمعية!

ونرى من واجبنا في هذه المناسبة أن نحذر من أخذ كل ما جاء في كتب أمين سعيد وبخاصة كتابه (الثورة العربية الكبرى) حقائق تاريخية صحيحة. فقد كان على ما عرفناه وعشناه من مريدي المعارضين للحركة العربية، وبنوع خاص الشيخ أسعد الشقيري، وظل هذا ديدنه في مختلف الأدوار، ويظهر آثار ذلك في كثير من أجزاء كتابه المذكور. مع التنبيه على أن كتابه لا يخلو من وقائع وحقائق صحيحة.

وفي كتاب (إيضاحات) المذكور بيانات أخرى عن الجمعية التي نحن بصددها، وإن لم يذكر

(٥٦) طبعته مطبعة الرائد في حماه، ص ٢٦.

(٥٧) ص ١١١.

المصدر الذي استقاها منه، ولا تستبعد صحتها. ومن المحتمل أن تكون جاءت على لسان بعض رجال الحركة العربية الذين حقق الديوان العرفي معهم وحاكمهم.

ومن ذلك أن الذين اتفقوا على إنشاء الجمعية في بدء الأمر، هم شفيق المؤيد وجميل الحسيني، وعبد الكريم الخليل، وندره المطران وغيرهم. وقد دعوا فريقاً من نواب العرب وشبابهم إلى اجتماع عام في مسرح (بك أوغلي)، وألقى الأولان خطابين قالا فيهما إنهم أنشأوا هذه الجمعية لأجل المحافظة على حقوق العرب وإنهاضهم. وإن ممن لبى الدعوة وأيد الجمعية عبد الوهاب الإنكليزي وحقي العظم، وعبد الحميد الزهراوي، ورضا الصلح، والدكتور حسن حيدر، والشيخ رشيد رضا. وإن الجمعية أسست نادياً يكون مركزاً لها وجريدة تنطق بلسانها، وصارت تستقبل نواب العرب وتقيم لهم حفلات التكريم والتعارف، وإنها أسست فروعاً لها في سورية والعراق، وجمعت لها تبرعات، وعاضدتها صحف سورية ومصر وأميركا العربية. وكانت المقالات التي تنشر في جريدتها تنحو نحو ترسيخ فكرة الاستقلال العربي، وإنها أعطت لعبد الغني العريسي بعض المال لينشىء به جريدة المفيد في بيروت. وإنها استمرت قائمة هي وفروعها وجريدتها وناديها إلى أن حدثت حادثة ٣١ مارس ١٩٠٩ الرجعية التي أدت إلى خلع السلطان فأغلقتها الحكومة بعد ذلك(٥٨).

٢ ـ المنتدى الأدبي

أنشىء هذا النادي في الاستانة في السنة التالية لإعلان الدستور وبعد خلع السلطان عبد الحميد ثم بعد إلغاء جمعية الإخاء بقليل، ومعظم الذي اضطلعوا بانشائه وحركته هم من شباب العرب الذين كانوا يدرسون في مدارس الاستانة العالية، ومن أبرزهم عبد الكريم قاسم الخليل من صور، ويوسف سليمان حيدر من بعلبك، وسيف الدين الخطيب من دمشق، وجميل الحسيني من القدس، ورفيق رزق سلوم من حمص، وعاصم بسيسو من غزة، وعزت الأعظمي من بغداد، ورشدي الصالح ملحس من نابلس. وتروي المصادر أن شكري الحسيني أمين صندوق جمعية الإخاء، دفع ما بقي في صندوق هذه الجمعية وقدره ستون ليرة ذهبية لعبد الكريم الخليل، كما سلم ما كان في ناديها من أثاث ورياش، لكان ذلك مما سعاد على قيام المنتدى، كما كان إشارة إلى أن رجال العرب قصدوا بانشائه وتشجيعه أن يسد الفراغ الذي كان بعد إلغاء تلك الجمعية. وقد يكون في هذا دليل على أن الجمعية لم تمت لسوء الإدارة والأمانة والنية كما زعم أمين سعيد وزعم كتاب إيضاحات. وان الواعين وذوي التطلعات القومية من العرب لم يفت إلغاء الجمعية في عضدهم فأقدموا على محاولتهم الثانية، ويلحظ أن بينهم من ذكر في كتاب إيضاحات، أنهم من منشئي الجمعية مثل جميل الحسيني وعبد الكريم الخليل.

وممن ذكرت المصادر أسماءهم كأصحاب نشاط وبروز من أعضاء المنتدى: عزت الجندي من حمص، وسامي الصلح من بيروت، وأحمد قدري وعبد القادر الجزائري من دمشق. ومما ذكرته

(٥٨) ص ٨ ـ ١٠، كتاب إيضاحات.

المصادر أن خليل حمادة وزير الأوقاف، وهو عربي مصري، والزعيم العراقي طالب النقيب، والضابط المصري المشهور عزيز علي، ونواب العرب شفيق المؤيد ورشدي الشمعة وشكري العسلي ورضا الصلح وعبد الحميد الزهراوي بنوع خاص، يولون المنتدى شديد عطفهم وتشجيعهم. وإن عدد منتسبيه بلغ (٨٠٠) من نواب العرب ورجالاتهم، وإن بعض المدن العربية في بلاد الشام والعراق أنشأت أندية على غراره، انتمى إليها مئات الشباب العرب.

ولقد كان شباب المنتدى يمثلون بعض الروايات العربية التاريخية، فكانت تدر على المنتدى إيراداً حسناً من جهة، وتسهم في التوعية القومية من جهة أخرى. وكان يقام في المنتدى من حين لآخر وفي مختلف المناسبات، حفلات تلقى فيها القصائد والأناشيد والخطب المتنوعة المقاصد، فكان ذلك مما يقوي الروابط بين أعضائه، والمترددين عليه من جهة، ويسهم في التوعية القومية والأدبية والعلمية من جهة أخرى كذلك.

ولقد كان طابع العروبة هو الطابع المميز له، فاجتمع في رحابه المسلم السني والشيعي والدرزي والمسيحي على اختلاف الطوائف اخواناً متحابين هدفهم مجد العروبة وبعثها.

ولقد كان أركانه يحرصون في الوقت نفسه على جعل (العثمانية) صبغة بارزة له أيضاً، أي على إبراز ولائهم وولاء مؤسستهم وولاء العروبة وحركتها عامة للدولة العثمانية، والرغبة في توثيق الرابطة بين العرب والترك بنوع خاص. وبسبيل ذلك كانت تقام حفلات يدعى إليها رجال مشهورون من الترك رسميون وغير رسميين، ويخطب فيها بصدد ذلك، بل وكان يعقد في المنتدى ندوات يشهدها شباب من الترك مع شباب من العرب فتجري فيها الأحاديث والمناظرات حول الأمجاد القومية التركية والعربية، وينبه فيها إلى عدم التعارض بين اهتمام كل فريق بمجد قوميته ونمو عواطفه القومية، تحت لواء (العثمانية) الجامع، إذا ما احترم كل فريق حق الفريق الآخر في ذلك.

ولعل هذا من جهة، وعدم ظهور تحزب وانقسام بين أركان المنتدى من جهة أخرى، من أسباب استمرار المنتدى حياً طيلة السنوات الست.

وهكذا يمكن أن يقال ان حركة المنتدى قد نجحت إلى حد كبير، وقد ظل مزدهراً نشيطاً في سبيل الفكرة والحركة العربية وأهدافها إلى سنة ١٩١٥. ولقد كان المنتدى من أهم مظاهر نشاط الحركة العربية الحديثة بعد الدستور ومغذياتها. ومن أهم عوامل ازدياد ذلك النشاط، واتساع دائرة الفكرة والتكتل حولها. ولقد غدا بيتاً عربياً عاماً في عاصمة الدولة، يلتقي في أبهائه وغرفه ومجالسه وحفلاته أبناء العرب في الاستانة على اختلاف طوائفهم بل وميولهم من نواب وطلاب وسياسيين وموظفين وزوار، فيتبادلون أحاديث الفكرة العربية، ويبحثون في الطرق والوسائل للانتفاع بالدور الجديد الذي انفتح بابه لهم حركة ويقظة وإصلاحاً، ومركزاً للحركة والنشاط والدعاية القومية العربية. وبيئة تعمل على التذكير بالأمجاد القومية والحقوق العربية وضمانها، وعلى درء ما يمكن أن يحدق بالكيان العربي من أخطار، مما كان يستهدفه غلاة الحركة القومية التركية من الاستعلاء العنصري في الدولة، ويتردد فيه أصداء ما يكون بين شباب العرب وشباب الترك ورجالات العرب ورجالات الترك من مواقف ومناظرات وجدل في صدد الكيان العربي

والحقوق العربية، فيزداد مرجل الحماس العربي غلياناً، ويشتد تعلق الشباب بالفكرة وتتضح معالمها وأهدافها في أذهانهم.

ولقد أصدر المنتدى مجلة باسمه كان يشرف عليها أحمد عزت الأعظمي وعاصم بسيسو. وكانت مجال أقلام ونفثات شباب العرب وشعرائهم وأدبائهم وعلمائهم في كل ما له صلة بالعروبة وتاريخها وحقوقها ولغتها وأمانيها، وبالتالي مظهراً من مظاهر الفكرة ودعامة من دعائم حركتها، وعلى صفحات هذه المجلة ومجلة لسان العرب، التي صدرت قبلها، نشرت أولى القصائد والأناشيد التي تشيد بأمجاد العرب، وتعرب عن أمانيهم والتي كان شباب العرب يرددونها ويتغنون بها في اجتماعاتهم الخاصة والعامة في الاستانة، ثم في المدن العربية الأخرى في بلاد الشام والعراق.

ولقد كان عبد الكريم الخليل من أبرز الذين اضطلعوا بعبء المنتدى وحركته، وقد اختير رئيساً له، وكان شخصاً نشيطاً وداعياً قومياً قوياً. وكان بروزه على مسرح المنتدى مؤدياً إلى بروزه في مجال السياسة العربية العليا.

ولقد كان شديد الحرص على إثبات واستمرار الولاء العربي للاخاء التركي والدولة العثمانية، فكان ذلك من أسباب استمرار حياة ونشاط المنتدى، وكانت لعبد الكريم اتصالات برجال السياسة العربية والتركية الكبار في صدد الحركة العربية وأهدافها، واتصل بجمال السفاح في من اتصل بهم، وحاول هذا أن يسخره في مطامحه إلى السلطان الشخصي في بلاد الشام. ولما لم تتحقق تلك المطامح بطش به مع من بطش بهم من شباب العرب ورجالاتهم على ما سوف يأتي شرحه بعد.

ولقد ذكر كتاب (إيضاحات) أن المنتدى أغلق من سوء الاستعمال في أمواله وعجزه. وهذه التهمة ألصقها الكتاب بجمعية الإخاء أيضاً. والصحيح الذي عرفناه وسمعناه من كثير ممن كانت لهم صلة وثقى بالمنتدى، أنه أغلق نتيجة لتجهم الحكومة الاتحادية للحركة العربية ورجالها ومنظماتها الذي اشتد بعد إعلان النفير العام في آب ١٩١٤، ثم بعد دخول الدولة الحرب إلى جانب الألمان في تشرين الثاني ١٩١٤، وما كان من آثار ذلك من تشتت شمل الشباب العرب في الاستانة بالتجنيد، ثم ما كان من تطور التجهم إلى مطاردات واعتقالات ومحاكمات وأحكام قاسية وتشريد. وكان رئيس النادي وبعض أركانه من الضحايا الأولين.

وفي كتاب (إيضاحات) مقتطفات من اعترافات معزوة إلى رفيق رزق سلوم، وسيف الدين الخطيب، وعبد الغني العريسي، تفيد أنه كان للمنتدى أهدافاً ظاهرة مشروعة وأخرى قومية بعيدة المدى لا يعرفها إلا الأخصاء، وأنه كان من ذلك الدعوة إلى الانفصال عن الدولة وإنشاء دولة عربية في النهاية، وان بعض أركانه كانوا يتجولون في بلاد العرب ويبثون هذه الأفكار، ويجمعون التبرعات من رجالات العرب في الخارج لإنفاقها على هذه الدعوة. وان المنتدى كان يستورد بالسر الصحف والمجلات العربية التي كانت تصدر في مصر وأميركا وأوروبا والتي كانت تدعو إلى هذه الأفكار، وتحمل على الدولة والاتحاديين وتنتقد سياستهم، وتنبه العرب إلى ما فيها من أخطار على كيانهم القومي ليقرأها شباب العرب في الاستانة في السر، كما كان يستورد المناشير

التي تطبعها وتذيعها الجمعيات العربية في مصر وأوروبا وأميركا، والتي كانت تحمل حملات شديدة كذلك على الدولة والاتحاديين، وتحرض العرب على المطالبة بحقوقهم والثورة على الدولة أو الحكم الاتحادي، وقد يكون في هذا بعض الحقائق.

ومهما يكن من أمر، فالذي يصح قوله انه كان من أركان النادي من هو قوي الشعور بالقومية العربية، قوي الرغبة في نموها وازدهارها وبعث أمجادها، قوي الحساسية ازاء فكرة الاستعلاء التركي التي كان يعتنقها غلاة الترك من اتحاديين وغيرهم، قوي الدعوة إلى الوقوف في وجه ذلك بأي وسيلة، وإلى تشديد المطالبة بحق العرب ومركزهم في الدولة. وإن ذلك لم يكن طفرة منذ بدء قيام المنتدى، وإنما كان تدريجياً بنسبة التدرج فيما كان يجري بين العرب والترك من تشاد وتناظر.

وهذا التدرج يتمثل في الشعر والأناشيد التي كان يرددها شباب العرب والتي أوردنا طائفة منها قبل، حيث كان بعضها يطالب بالحق العربي مع الحرص على كيان الدولة العثمانية والخلافة العثمانية والإخاء العربي والتركي، ثم صار بعضها ينعت الأتراك أو القائمين بالحكم منهم من الاتحاديين بالعدو وبالخصم ويحرض على الثورة عليهم.

ولقد كان كثير من الشباب المنتمين إلى المنتدى، قد اندمجوا أيضاً في جمعيات عربية سرية تطورت أهدافها إلى الانفصال، بعد مواقف نقض وقفها الاتحاديون، لما اتفقوا عليه مع زعماء مؤتمر باريس العربي على ما سوف نشرحه بعد. ثم بعد دخول الحكومة الاتحادية الحرب، فمن الممكن أن يكون ما جاء في الأقوال المعزوة إلى الشهداء الثلاثة معبراً عن ذلك أيضاً.

ولقد كان من شباب المنتدى من كان شديد الحماس في ظروف المؤتمر العربي المذكور ضد مواقف الاتحاديين، وشدد الحملة على من كان يحاول التهدئة والتعليل والتوفيق، فيجوز أن يكون ذلك من أسباب التجهم ضد المنتدى.

٣ ـ الكتلة النيابية العربية

في الدورة الثالثة من حياة المجلس النيابي إلى سنة ١٩١١ م، سعى فريق من نواب العرب في جمع جميع هؤلاء النواب في كتلة واحدة للدفاع عن حقوق ومطالب العرب في الدولة. وكان الحافز المباشر لذلك التهجمات الشديدة التي كانت تصدر من نواب الاتحاديين ككتلة ضد نواب العرب، الذين كانوا يثيرون في مجلس النواب موضوع سوء تصرف الولاة والموظفين في بلاد العرب، وموضوع الغبن اللاحق بالعرب وبلادهم في الوظائف والمشاريع العمرانية والتعليمية. والتي كانت تصل أحياناً إلى التهديد والاتهام بالخيانة والعمالة والتفرقة والمآرب الذاتية.

وقد اندمج في هذه الكتلة نحو ثلاثين نائباً، وصاروا يصوتون معاً في مختلف المواضيع، ويوحدون كلامهم في المطالب والشؤون العربية، ويؤيد بعضهم بعضاً. مع التنبه أولاً على أن هذا التكتل لم يكن بمثابة حزب أو تجمع عهدي وثيق ومستمر، وإنما كان يحدث في بعض المواقف والظروف. وثانياً على أن نصف نواب العرب لم يتعاونوا مع الكتلة. ومنهم من كان يناوئها

بتحريض من الاتحاديين، ويشترك معهم في اتهام بعض أعضائها بالمآرب والتفرقة، ويعلن أنها لا تمثل العرب. والأسماء التي ذكرتها المصادر من المتكتّلين في الكتلة: أحمد الكبشي وحسن عبد القادر وعبدالله المفخفي وفراج سعيد من نواب اليمن. وعبدالحميد الزهراوي ونافع الجابري وشكري العسلي وسعد الدين المقداد وشفيق المؤيد وخالد البرازي وتوفيق المجالي من نواب سورية، ورضا الصلح من نواب بيروت، وسعيد الحسيني وروحي الخالدي وحافظ السعيد من نواب القدس، وعلي فاضل وداود يوسفاني وعبد الوهاب قرطاس وخضر شوكة باشا من نواب العراق.

وهناك روايات تروى عن كتاب مرسل إلى الشريف حسين أمير مكة سنة ١٩١١، موقع من طالب النقيب نائب البصرة في المجلس النيابي العثماني مع ٣٥ نائباً عربياً، يشكون فيه ما يلقاه نواب العرب ورجالاتهم من تجهم وسوء معاملة من الحكومة الاتحادية، ومن معارضتها للمطالب العربية، وتهضمها للحقوق العربية في الدولة، ومن تهديدها لمن ينشط منهم في سبيل ذلك بالشنق. ويطلبون منه أن يقوم بحركة ما بسبيل تأييد حقوق العرب ومركزهم، ويعدونه بالمبايعة على ذلك[٥٩]. بحيث يمكن إذا صح هذا أن يكون أثراً بعيد المدى للتكتل النيابي العربي أيضاً.

وقولنا (إذا صح) متأتٍ من ملاحظات وجيهة يبديها توفيق برو تعقيباً على الرواية، يستبعد فيها صحة الرواية أو على الأقل أن يكون تاريخ الكتاب سنة ١٩١١، ويميل إلى ترجيح وقت متأخر مثل سنة ١٩١٣. وهذا ما نميل إليه نحن أيضاً ونرجحه، لأن التجهم قد اشتد من الحكومة الاتحادية بعد أن نقضت ما اتفقت عليه مع زعماء المؤتمر العربي من اتفاق فيه بعض الاستجابة للمطالب العربية، لأننا نرجح صحة الرواية مبدئياً.

٤ ـ حزب اللامركزية الادارية العثماني

كان مركز تأسيس هذا الحزب (القاهرة) عاصمة القطر المصري، ولكن مؤسسيه هم من رجالات سورية[٦٠]. ومن الأسماء المشهورة منهم رفيق العظم، والشيخ رشيد رضا، وحقي العظم، ومحب الدين الخطيب، والدكتور شبلي شميل، واسكندر عمون، وداود بركات، وسامي الجريديني، وعزت الجندي، ونعمان أبو شعر. وهؤلاء هم هيئة إدارة الحزب المركزية الأولى. وكان رفيق العظم رئيساً للحزب، واسكندر عمون نائباً للرئيس، وحقي العظم سكرتيره العام، ومحب الدين الخطيب مساعداً للسكرتير العام. وكان تأسيسه في أواخر سنة ١٩١٢. وقد جاء في المادة الثانية من نظامه (القصد من تأليف هذا الحزب بيان محسنات الادارة اللامركزية في

---

(٥٩) أورد هذه الرواية توفيق برو في كتابه: الترك والعرب في العهد الدستوري، عزواً إلى مذكرات سليمان فيضي نائب البصرة، وكتاب خيرالله خيرالله، وكتاب لأحمد عزت الأعظمي، وكتاب لأسعد داغر (انظر كتاب: برو المذكور ص ٢٩٠ وما بعدها)، ولا يذكر مصدر الرواية أسماء هؤلاء النواب.

(٦٠) نبهنا قبل على سبب اقتصار الحركة العربية الحديثة، والنشاط في سبيلها على البلاد العربية التي كانت خاضعة للسلطان العثماني المباشر. وفي ذلك السبب توضيح لهذه الحالة.

السلطنة العثمانية للشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات وعادات وأديان مختلفة، والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الإدارية في ولايات الدولة العثمانية). وجاء في مادته الثالثة (ليس هذا الحزب خفياً، وليس فيه ما يعد من الأسرار، فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون الخشية من أحد، لاعتقاده يقيناً أن الدولة لا تبقى في العالم السياسي إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية).

وجاء في مادته الرابعة: (ان الدخول في الحزب مباح لكل عثماني بلغ العشرين من العمر على شرط أن يكون متمتعاً بجميع الحقوق المدنية، وغير محكوم بحكم مخل للشرف، وغير مشتهر بسوء السمعة). وجاء في مادته الخامسة: (ان انتساب الذي يريد الانتساب للحزب يتم بدلالة أحد الأعضاء وموافقة اللجنة الإدارية، على أن لا يكون عضواً في حزب مخالف لمبدأ الحزب). وجاء في مادته السادسة: (يستطيع المنتسب إلى الحزب أن يستقيل في كل وقت). وفي مادته السابعة: (يجب على العضو أن يدفع مرتباً شهرياً أقله قرشان. ويقبل الحزب التبرعات ويعفى الفقراء من المرتب). وفي مادته الثامنة: (لا يقيد أعضاء الحزب بشيء غير قواعد البرنامج السياسي للحزب). وفي مادته التاسعة: (يجب على النواب المنتمين للحزب بذل جهودهم لتحقيق برنامج الحزب). وفي مادته العاشرة: (ممنوع على أي عضو مراجعة الحكومة باسم الحزب من تلقاء نفسه، ويمحى اسم من يفعل ذلك من سجل الحزب). وفي مادته الحادية عشرة (مركز الحزب العام في مصر، ويجوز لكل بلد أو قرية اجتمع فيها عشرة من أهلها على مبدأ الحزب أن يؤسسوا فرعاً له ويخبروا المركز بذلك). وفي مادته الثانية عشرة: (تتألف اللجنة العليا للحزب من عشرين عضواً، ينتخب منهم رئيس ونائب رئيس وسكرتير ومساعد له وأمين صندوق، مع جواز ضم من ترى اللجنة فائدة من ضمه إليها). وفي مادته الخامسة عشرة: (يعقد كل فرع مؤتمراً فرعياً محلياً في شهر حزيران من كل سنة، وتعقد اللجنة العليا مؤتمراً عاماً في شهر تشرين الثاني من كل سنة، يحضره أعضاء اللجنة العليا وأفراد الحزب في المركز العام ومندوبو الفروع). وفي مادته الثامنة عشرة: (على اللجان الادارية والفرعية أن تسعى بكل الوسائل المشروعة لنشر مبادىء الحزب وتعميمها بين الناس، وتكثير أفراد وأنصار الحزب والاجتهاد في انتخاب نواب لمجلس النواب وللمجالس العمومية والادارية والبلدية من الأكفاء الذين هم على مبدأ الحزب). وفي مادته التاسعة عشرة: (اللجنة العليا تضع تعديل القوانين واللوائح للحكومة اللامركزية وتسعى مع سائر اللجان والأنصار إلى إقناع الشعب والحكومة بها). وفي مادته الثانية والعشرين: (يجب على السكرتير العام وأمين الصندوق تقديم تقرير عن أعمالها للجان في آخر كل سنة). وفي مادته الحادية والثلاثين: (من خصائص المؤتمر العام الاطلاع على بيان اللجنة العليا وحساباتها). وفي مادته الثانية والثلاثين: (المؤتمر العام هو المختص بادخال تعديل أو تبديل على برنامج الحزب. ويكون ذلك بطلب تحريري من اللجنة العليا أو لجنة من لجان الفروع، ويكون للغالبية نفاذ الرأي)[٦١].

---

(٦١) المواد التي لم نورد محتوياتها هي في صدد تنظيمات الحزب الشكلية. والمواد مستقاة من كتاب: الثورة =

ولقد دشن بروز الحزب ببيان جاء فيه:

(إن أفضل أشكال الحكومات هو الدستوري، وأفضل أشكال الحكم الدستوري هو اللامركزي، خصوصاً في الممالك التي تعددت فيها الفروق والمذاهب واللغات، واختلفت العوائد والتقاليد والأخلاق. فكان من المتعذر أن تساس بقانون واحد لم تراع فيه تلك الأحوال. ولم ينظر معه في الحاجة والزمان والمكان).

ومما جاء فيه كذلك: **(ان اللامركزية أفضل مرب لأفراد الأمة على الاستقلال الذاتي الذي هو خير وسيلة لترقي الأمم، لأنها أي اللامركزية تأبى بطبيعتها أن تكون تبعة الحكم مقصورة على أفراد قليلين، تصدر عنهم القوة والعمل إلى كل ناحية من أنحاء المملكة فيكونون كالمحرك في آلة كبيرة، إذا أصابه عطب أو ضعف تعطلت أجزاء سائر الآلة عن العمل، دون أن يكون لأي جزء من الأجزاء قوة ذاتية يعمل بها لنفسه. ودون أن يكون مسئولاً عن نتيجة وقوفه عن العمل،** فاللامركزية توزع التبعة على أفراد الأمة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن. وبسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الاتكالية ويفسح أمام كل فرد مجال العمل الواسع في جهاد الحياة، وتمهد للشعب بلوغ غايات المدنية والترقي والعمران من أقرب سبيل وفي وقت قصير).

وجاء فيه أيضاً: (ان الحرص على سلامة الدولة من غوائل الفتن والمشاغبات الداخلية والصدمات الخارجية التي يسببها عدم رضاء العناصر العثمانية والتفافها باخلاص حول العرش العثماني، يحتم على كل عثماني صادق الوطنية النظر في الأسباب التي تتماسك بها أعضاء هذا الجسم الذي أخذ يتفكك بقوتي الجذب والدفع بين المركز والأطراف، ودخله الوهن والضعف المؤديان إلى الانحلال).

وقد ضمن بيانه شكل الحكم اللامركزي ومسيرته في نطاق الدولة كما يلي:

١ ـ إن الدولة العثمانية دولة دستورية نيابية، وكل ولاية من ولاياتها جزء من السلطنة لا ينفك عنها.

٢ ـ وتبنى إدارة هذه الولايات على أساس اللامركزية الإدارية.

٣ ـ والسلطان هو الذي يعين الوالي وقاضي القضاة، وهذان يقومان، كل منهما في حدود دائرته، بتعيين سائر موظفي الدولة، بعد أخذ رأي مجلس الإدارة.

٤ ـ ولا يجوز عزل موظف إلا بحكم من مجلس التأديب.

= العربية الكبرى لعضو في جمعية سرية كتب سنة ١٩١٦، وطبع طبعة ثانية في مطبعة الرائد في حماه. وما جاء في الجزء الأول من كتاب الثورة العربية، لأمين سعيد، مطابق لما جاء في هذا الكتاب. وكأنما نقل عنه والكتاب الأول أسبق من كتاب أمين سعيد. والكتاب المشار إليه للأستاذ أسعد داغر. انظر: أنطوان داغر، «أسعد داغر، رجل السياسة والأدب،» (رسالة لنيل الكفاءة بكلية التربية بالجامعة اللبنانية، ١٩٧٠)، ص ٢١.

٥ ـ ويكون في مركز كل ولاية مجلس عمومي ومجلس إدارة ومجلس معارف ومجلس أوقاف.

٦ ـ ويكون للمجلس العمومي حق المراقبة على حكومة الولاية، والنظر في جميع شؤون الإدارة المحلية، من تقرير ميزانية الولاية، وأمور الأمن العام والمعارف والنافعة والأوقاف والبلدية، وتقرير ما يراه فيها وسن الأنظمة لها، وتكون قراراته نافذة في كل ذلك، أما ما يتعلق بالأمور العسكرية والسياسية الخارجية من شؤون محلية كسكك الحديد فيرفع رأيه فيها إلى العاصمة.

٧ ـ ويكون لمجلس إدارة الولاية وضع ميزانية الولاية واختيار جميع موظفيها.

٨ ـ ويكون لمجلس معارف الولاية وضع برنامج التعليم، والنظر في جميع شؤونه ووضع ميزانية خاصة له.

٩ ـ ويكون لمجلس أوقاف الولاية وضع ميزانية الأوقاف في الولاية ومراقبة تنفيذها.

١٠ ـ ويكون أعضاء المجلس العمومي، ومجلس الأوقاف ومجلس المعارف بالانتخاب. أما أعضاء مجلس الإدارة فيكون نصفهم من رؤساء المصالح، ونصفهم بالانتخاب.

١١ ـ ويكون في كل ولاية لغتان رسميتان، اللغة التركية، واللغة المحلية.

١٢ ـ ويجب تعميم التعليم في كل ولاية بلغة أهلها.

١٣ ـ ويؤدي أهل كل ولاية خدمتهم العسكرية في ولاياتهم، ويكون عسكرهم على قدم الاستعداد للدفاع عنها في زمن السلم. أما سوق الجند في زمن الحرب فهو منوط بنظارة الحربية، وحينئذٍ على المجلس العمومي أن يتخذ الوسائل للدفاع عن الولاية.

١٤ ـ وتبقى البلاد العربية التي لا تنفذ فيها قوانين الدولة وأحكامها على ما هي عليه.

١٥ ـ ويراعى في تغيير الإدارة في كل بلد رضاء أهلها به.

١٦ ـ ويجب تعديل طريقة الانتخابات لمجالس الولاية ولمجلس النواب بحيث تكون حرة وممثلة لجميع عناصر الشعب.

وواضح من اسم الحزب وبيانه وخطته أنه لم يكن في مداه حزباً عربياً، **وإنما كان حزباً عثمانياً على نطاق الدولة، غير أنه مع ذلك بقي في تشكيلاته عربياً محصوراً في البلاد العربية.**

ولقد نبهنا قبل على ما كان من تشاد في صدد إدارة الحكم بعد إعلان الدستور لأول مرة عقب جلوس السلطان عبد الحميد، ثم تعطيله بين رجالات الدولة الذين فروا من الاستانة بعد هذا التعطيل، حيث كان فريق يرى وجوب الحكم على أساس اللامركزية، وفريق يرى الأفضل أن يكون على أساس المركزية مع توسيع في صلاحيات الولاة وقوانين الولايات، ذهاباً منه إلى أن الحكم اللامركزي في دولة مثل الدولة العثمانية، مؤلفة من أجناس عديدة سيؤدي إلى تفككها

وتفتيتها[٦٢]، وكان هذا الفريق هو الجماعة الذين كانوا وصاروا أركانا لجمعية الاتحاد والترقي، وصار إليهم زمام الحكم بعد إعلان الدستور للمرة الثانية. وكان بعض رجالات العرب من الفريق الأول، وكان منهم رفيق العظم، فلما أخذ الواعون المنفعلون بالتيار السياسي والقومي من العرب يطالبون بحق العرب ومركزهم في الدولة، كانوا يطالبون بأسلوب اللامركزية لأنه يتيح لبلادهم الانطلاق والنهوض والصلاح ويجعل وظائف الدولة فيها لأبنائها، وتكون لغتهم معترفاً بها كلغة رسمية في التعليم وفي الدواوين والمحاكم. وتكون خدمة الجندية العادية في بلادهم أنفسهم دون تحمل مشاق التشتت في بلاد غير بلادهم لغة وعادات ومناخاً، وانبرى الاتحاديون إلى الاعتراض على ذلك ومقاومته والتهجم على دعاته، واتهامهم بالعداء للدولة، والرغبة في تفكيك روابط عناصرها بها.

وكان مؤسسو الحزب قد نزحوا إلى مصر قبل إعلان الدستور العثماني بسبب ما كانت عليه حالة الحكم في بلاد الشام، وأقاموا فيها هم وكثيرون من أمثالهم، ومنهم من اشتغل في الصحافة على ما شرحناه في نبذة سابقة[٦٣]. فلما أعلن الدستور وقامت الحركة العربية بسبيل حقوق العرب ومركزهم في الدولة، انفعلوا بها واندمجوا فيها. ورأوا في سنة ١٩١٢ ظرفاً مناسباً، فأقدموا على إنشاء الحزب لتكون الدعوة إلى اللامركزية حزبية منظمة. والمتبادر أن قيام الحزب في مصر كان بسبب وجود المؤسسين فيها من جهة، واغتناماً من فرصة الحرية النسبية التي كانوا يتمتعون بها من جهة أخرى.

ولقد كانت قامت أحزاب معارضة للاتحاديين مزيجة من ترك وعرب وشركس وأرمن وأرناؤوط وروم وبلغار وأكراد على ما سوف نشرحه بعد، واستقطبت في حزب (الحرية والائتلاف) الذي أعلن قيامه في تشرين الثاني ١٩١١ م. وكان منهج هذه الأحزاب وبخاصة الأخير الذي اندمجت فيه الأحزاب الأخرى، متساوقاً مع أسلوب اللامركزية الادارية. وأخذت هذه الأحزاب تتشاد مع حزب الاتحاد والترقي في الصحف وفي مجلس النواب، حتى جاء وقت صارت فيه خطراً على حكم الاتحاديين لكثرة من انضم إليها من النواب، مما جعل الاتحاديين يعمدون إلى حل المجلس وإجراء انتخابات جديدة حاربوا فيها معارضيهم العرب وغير العرب، وأخرجوا الكثرة الساحقة من النواب الجدد من المؤيدين والموالين لهم بالتزوير والإرهاب. فأثار ذلك نقمة قطاع كبير من ضباط الجيش وجعلهم ينتقدون الاتحاديين، فجنح هؤلاء إلى استصدار قانون يمنع الجيش من التدخل في السياسة. فأثار القانون جيش الروملي وجعله يعلن تمرده على العاصمة وعلى الحكومة الاتحادية في حزيران ١٩١٢، ويطالب باستقالة هذه الحكومة، وحل المجلس النيابي المزور. وكانت الدولة في ظرف عصيب إذ ذاك بسبب عدوان الطليان على طرابلس الغرب وجزر البحر الأبيض العثمانية. وكان موقف الاتحاديين ضعيفاً، وقد اتهمهم خصومهم بالتقصير والمسايرة للطليان، فلم

---

(٦٢) انظر الفقرة (٦) في نبذة التكتلات أو الجمعيات التي هي المشكلة (الحادية عشرة) من: بيانات وإيضاحات، من الفصل الأول، الدور الأول قبل الدستور العثماني.

(٦٣) انظر فقرة (ثالث عشر) في بحث: بيانات وإيضاحات.

تجد حكومتهم مناصا من الاستقالة في تموز ١٩١٢ ، وخلفتها حكومة كان ركنها القوي كامل باشا الذي كان ضالعاً مع حزب الحرية والائتلاف . كما كانت صبغة الحكومة إجمالاً معارضة للاتحاديين وميالة لأسلوب اللامركزية الادارية الذي كان من منهج حزب الحرية والائتلاف، حتى لقد أثر عن وزير داخليتها رشيد بك أنه وضع مشروعاً للادارة اللامركزية، يقوم على أساس أن يكون لكل ولاية النظر في جميع الأمور التي تخصها، كالتعليم والمشاريع الاقتصادية والزراعية والصناعية والطرق والجسور والسكك والتراموای وتجفيف المستنقعات إلخ، وأن يكون لها ميزانية خاصة، ويكون لها حق الاستقراض لترقية مرافقها، وفرض بعض الرسوم والضمائم، ويكون لها مجلس عمومي منتخب. . . فكان ذلك كله مما شجع ساسة العرب السوريين في مصر، على ما هو المتبادر على إنشاء حزب اللامركزية.

ولقد قوبل بروز الحزب في بلاد العرب بترحيب كبير، وأخذ كتابهم ينشرون المقالات في صحف مصر وسورية والعراق وأميركا بالتأييد والتجنيد. وأبرق كثير من رجالات الشام والعراق إلى الحكومة العثمانية الجديدة بتأييد الحزب ودعوته وخطته والمطالبة بالسير عليها. وانتسب كثير من الواعين الناقمين على الاتحاديين لمناوأتهم للمطالب العربية ولنزعتهم الاستعلائية في الدولة إلى الحزب رسمياً، وأنشأوا له الفروع، وأخذوا يتواصلون مع لجنته المركزية بسبيل تقويته وتعميمه(٦٤).

---

(٦٤) نذكر في هذه المناسبة موقفاً شخصياً، فقد كان الكاتب مع بعض إخوانه النيرين في نابلس متجاوبين مع الحركة العربية، وناقمين على الاتحاديين، فرحبنا بقيام الحزب، وقررنا تأسيس فرع له في نابلس، واجتمعنا في بيت المرحوم كامل هاشم، وكان الحاضرون عداي، وعدا صاحب البيت، كل من إبراهيم القاسم عبد الهادي، والحاج حسن حماد، والشيخ نمر الداري رحمهم الله، وكنا في حالة حذر وتكتم بسبب ما كان ملموساً من شدة تجهم الاتحاديين الذين استطاعوا أن يطيحوا بحكومة المعارضة ويعودوا إلى الحكم. وكان اجتماعنا الأول في أوائل آب/أغسطس ١٩١٤ م. ولم تلبث الدولة أن أعلنت النفير العام، فجمدنا مسعانا موقتاً، وكنت موظفاً في بريد نابلس، ووكيلاً للمدير. ولم ألبث أن نقلت إلى بيروت، وحينما قامت حركة المطاردة ضد اللامركزيين في سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦، اعتقل كل من كامل هاشم والشيخ نمر الداري وإبراهيم القاسم وأرسلوا إلى عاليه للمحاكمة في الديوان العرفي. وكان الحاج حسن حماد أيضاً مطلوباً، ولكنه استطاع أن يختفي، ولما بلغني خبر اعتقال الجماعة توقعت الاعتقال، وكنت إذ ذاك في طريقي إلى وكالة مديرية البرق والبريد في شمسكين ـ حوران، وكان أبي يتوقع اعتقالي، لأنه يعرف صلتي بالمعتقلين إجمالاً، فأرسل إلي أحد أقاربي، فلاقاني في الطريق، وحذرني من العروج على نابلس، وأعطاني بعض المال. وقد بيت في نفسي أن أفر من شمسكين إلى جبل الدروز، حيث كان يمكن الاعتصام فيه، وقد مر الأمر بسلام، والظاهر أن الاخوان عادوا فاتصلوا بمركز الحزب، وتم اعتبارهم فرعاً لهم، وأن يكون الحاج حسن معتمداً، ولم أكن إذ ذاك في نابلس فلم يذكروا اسمي، وقد حكم على الحاج حسن بالاعدام، ولكنه ظل مختفياً في بيت في دمشق إلى آخر الحرب فنجا من الشنق، أما الاخوان الثلاثة الآخرون فقد أفرج عنهم بعد مدة من اعتقالهم والتحقيق معهم.

ولقد ذكرنا شيئاً عن إبراهيم القاسم عبد الهادي. وصار من المفيد أن نذكر شيئاً عن الاخوان الثلاثة الآخرين. ولقد كان كامل هاشم محباً للأدب العربي، حافظاً للشعر، كاتباً بعض الشيء، وفيه نزوع لحرية الفكر والجرأة في القول والعمل، وكان الحاج حسن حماد موظفاً في دائرة الطابو، ثم اعتزل وبرز كوجيه من وجهاء المدينة، وكان في الوقت نفسه حر النزعة، واسع الأفق نوعاً ما، ولو لم يكن وصفه بالأدب والعلم. وكان معقولاً ومقبولاً لدى الناشئين أكثر من عمه الحاج توفيق، بسبب صلابة هذا، وشدة تزمته، وميله للفرض والإملاء، وكان أصغر منه سنا، وكان الشيخ نمر =

ولقد كان منهج الحكومة الجديدة مطابقاً لمنهج الحزب في الأصل كما قلنا قبل.

ثم اشتبكت الدولة في عهدها بحرب مع إمارات البلقان وصارت في موقف عصيب، فجعلها ذلك في وضع أكثر مسايرة للعرب وغيرهم، وجعلها بالتالي تتهيأ للسير في تحقيق المنهج بل وتخطو في سبيله بعض الخطوات الايجابية التي بعثت بعض الآمال على ما سوف نشرحه بعد، لولا أن الاتحاديين قاموا في كانون الثاني ١٩١٣ بحركة انقلابية ضدها متذرعين بضعف موقفها وانهزاميتها في حرب البلقان وأطاحوا بها وعادوا إلى الحكم(٦٥).

ولقد كان للحزب صدى غير يسير في بلاد العرب وأفكار العرب كما قلنا. فانبرى الاتحاديون لمناوأته في سياق مناوأتهم لحزب الحرية والائتلاف المعارض المتطابق معه، وأخذوا يحرضون أولياءهم من العرب على مناوأته ومناوأة أعضائه، واستكتاب العرائض ضده وضدهم في بيان خطر خطة الحزب وضررها على وحدة الدولة والإخاء الإسلامي المتمثل بالاخاء التركي العربي. كما دفعوا الصحف العربية الموالية لهم إلى مثل ذلك، لأنه كان صحف عربية موالية للحزب مؤيدة لدعوته. وأخذت السلطات الاتحادية تتجهم لأنصار الحزب وتضيق عليهم الخناق. ولما دخلت الدولة الحرب إلى جانب الألمان في تشرين الثاني ١٩١٤، بلغ التجهم ذروته ثم انقلب إلى مطاردة وأحكام قاسية على ما سوف يأتي شرحه بعد.

= الداري رجل علم ديني منير الفكر، واسع الأفق نوعاً ما، ميالاً للأدب، ينظم الشعر ويرويه. وكان مفتوناً بالمتنبي، ذا أذن موسيقية، محباً للسماع والفكاهة، وقد كان الثلاثة أسن مني، وقد تعرفت بهم في ظرف الدستور والحركة العربية، والتقيت بهم في دربها مثل إبراهيم، وإن كان الانسجام والتفاهم بيني وبين هذا كان أقوى وأدوم.

(٦٥) قام الاتحاديون بحركة جريئة ومباغتة على ما وعته ذاكرتنا. وكنا نتابع الأحداث، فقد هاجمت عصبة منهم، على رأسها بعض أركانهم، وزارتي الحربية والباب العالي، وقتل أحدهم وزير الحربية ناظم باشا، واعتقلوا عدداً من الوزراء واستلموا مراكزهم عنوة، وأجبروا السلطان على تعيين محمود شوكت باشا ـ وهو الذي زحف على الأستانة لقمع حركة ٣١ آذار/مارس ١٩٠٩، وأدى زحفه إلى خلع السلطان عبد الحميد، على ما شرحناه قبل لرآسة الوزارة التي كانت تسمى (الصدارة)، ويسمى متوليها (الصدر الأعظم)، ودخل الوزارة عدد من أركانهم، ثم نفوا كامل باشا إلى خارج البلاد، وألزموا باقي الوزراء بالاقامة الجبرية، وكان لكامل باشا صلات ودّ مع الانكليز، فتدخلوا وحموه من بطشهم، وجعلوهم يخرجونه من البلاد سلمياً، ولم تسكت المعارضة بزعامة حزب الحرية والائتلاف، حيث نشطت في الدعاية والتآمر ضد الاتحاديين. وكان من نتيجة ذلك اغتيال محمود شوكت باشا، غير أن الاتحاديين استطاعوا أن يحتفظوا بسيطرتهم وحكمهم، وعينوا للصدارة أحد أركانهم سعيد حليم باشا، ويمت بالقربى إلى الأسرة العلوية التركية الحاكمة في مصر آن ذاك، واستلم أركانهم معظم الوزارات، وضربوا معارضيهم ضربة قاصمة، حيث ساقوا عدداً من رؤوسهم إلى المحاكمة، وحكموا على بعضهم بالاعدام، ونفذوا الحكم. وعلى بعضهم بالسجن والنفي والاقامة الجبرية، وشردوا سائرهم. ومما يحسن ذكره، وله صلة بموضوع بحثنا، ان كامل باشا أقام مدة في مصر، فاتصل به رجال حزب اللامركزية، وتلقوا منه وعداً بتحقيق الأسلوب اللامركزي، إذا عاد إلى الحكم.

ولقد عاد كامل باشا إلى الأستانة ابان نشاط حزب الحرية والائتلاف ضد الاتحاديين، وقبل مقتل محمود شوكت، وكان يؤمل أن يستمر ذلك النشاط، ويعود كامل باشا وحزب الائتلاف إلى الحكم ثانية غير أن الاتحاديين أعادوه من حيث أتى، وظلوا محتفظين بالسلطة والحكم، ثم ضربوا خصومهم تلك الضربة القاصمة بعد مقتل محمود شوكت، فخاب ذلك الأمل.

ولقد استمر الحزب قائماً إلى ما بعد دخول الدولة الحرب، غير أنه التزم التكتم في اتصالاته وتشكيلاته بسبب ذلك الموقف المتجهم، وكان يوعز لأنصاره وفروعه في بلاد الشام بذلك.

ولقد كان للحزب دور مهم في مؤتمر باريس العربي المنعقد في حزيران ١٩١٣، الذي عقده بعض رجالات العرب بعد سقوط الحكومة المعارضة، وعودة الحكم الاتحادي وخيبة الأمل الذي كان الحزب وأنصاره يعلقونه على تلك الحكومة في تحقيق منهجهم على ما سوف يأتي شرحه بعد.

وفي كتاب (إيضاحات) الذي أصدره السفاح جمال باشا لتبرير المحاكمات والأحكام الصادرة من الديوان العرفي ضد رجالات العرب، شذرات وبيانات متنوعة عن هذا الحزب ونشاطه ورجاله لم تذكر في غيره. منها ما هو معزو إلى اعترافات بعض رجالات العرب الذين حقق معهم، وحاكمهم الديوان العرفي. ومنها ما هو مستند إلى رسائل بين رجال الحزب في مصر وخارجها، لا يذكر الكتاب كيفية وصولها إلى السلطات التركية(٦٦)، ومنها ما لم يذكر مصدره مع ترجيحنا صحته.

فمن ذلك أنه كان للحزب فروع في دمشق وبيروت وبغداد والبصرة والموصل وحماه وحمص وبعلبك ويافا ونابلس وجنين وغزة والبقاع. وأن معتمد الحزب في دمشق هو (نايف تللو)، وفي بيروت (محمود المحمصاني)، وفي بعلبك (صالح حيدر)، وفي حمص (قسطندي يني)، وفي حماه (علي الأرمنازي ودرويش البرازي)، وفي يافا (حافظ السعيد)، وفي نابلس (حسن حماد)، وفي جنين (سليم الأحمد عبد الهادي). وان الحزب اعتمد محمد الشنطي وهو على ما نعرف من أهل قلقيلية - قضاء طولكرم - فلسطين ليكون وكيلاً أو معتمداً متجولاً له لتأسيس فروع في بلاد الشام، وأرفقه بنسخ من البيان والخطة ونظام الحزب، وان من المندمجين في فرع دمشق: شفيق المؤيد وشكري العسلي وعبد الوهاب الانكليزي ويحيى الأطرش. وان الذي أسس فرع الحزب فيها هو شفيق المؤيد، وإن من المندمجين في فرع بيروت أنور القاضي ومصطفى سميسمه

(٦٦) كنا سمعنا في وقتها أن السلطات تسلمت أو صادرت أوراق الحزب من محمد الشنطي وكيل الحزب المتجول. ويذكر أمين سعيد في الجزء الأول من كتابه الثورة العربية عزواً إلى تأكيد (بعض الثقات له)، ان محمداً الذي كان أحد مساعدي حقي العظم، ومعتمديه، هو الذي حمل الأوراق، وسافر بها في أوائل نشوب الحرب إلى أثينة، وسلمها بكاملها إلى غالب بك سفير الدولة العثمانية فيها، آملاً بمكافأة كبيرة من الدولة، فأرسله هذا إلى طلعت باشا وزير الداخلية. وأحاله هذا إلى جمال باشا الذي أنزله ضيفاً على الحكومة في دمشق، ورتب له مرتباً، وأنه اتخذ مركزه وسيلة لابتزاز الأموال من الشبان العرب، وكانوا في أزمة نفسية شديدة، وخوف من الارهاب التركي الذي ذر قرنه. فذهب الحاج سعيد الشوا الوجيه الغزاوي الشهير، وكان له دالة على جمال باشا إلى هذا وقص عليه حكايات الشنطي، فأمر جمال باعتقاله وسجنه، وقد شنق مع من شنق في ٦ أيار/مايو ١٩١٦. وقد بلغنا أن في ملفات المرحوم محب الدين الخطيب مئات من الرسائل المتبادلة بين رجال الحزب في مصر وخارجها، بالاضافة إلى مئات الوثائق الأخرى، حيث يفيد هذا أن الرسائل التي سلمت للسلطات التركية ليست كل ما هناك من رسائل. وقد اقترحنا على المرحوم قبيل وفاته أن ينشر ما عنده أو يعهد لابنه أو غيره بترتيب ونشر ما عنده خدمة للتاريخ القومي العربي. وما نزال نرجو أن يفعل ابنه أو من خلفهم على مكتبته ومأثوراته وننبه على أن من الرسائل ما هو صادر من مصر، فإذا صح الخبر فيكون رجال الحزب في مصر احتفظوا بأصول رسائلهم فكان بعضها مما سلم أو وصل إلى السلطات التركية.

وعبد القادر الخرسا والبير حمصي ومحمود العجم. وان الحزب اتصل بحزب الحرية والائتلاف المعارض للاتحاديين، والذي مر ذكره قبل، واتفق معه على توحيد النشاط في صدد تحقيق منهجه الذي كان هو نفس منهج الحزب[٦٧].

ومن الرسائل التي يوردها كتاب (إيضاحات)، رسالة من رفيق العظم، رئيس الحزب لصديق لم يذكر اسمه، في صدد جهده في تشكيل فرع لحزب الحرية والائتلاف في مصر، ثم في دمشق بواسطة ابن عمه شفيق بك. ورسالة من يوسف حيدر، في صدد إنشاء فروع لهذا الحزب في طرابلس وبعلبك. ولا شك في أنه كان هناك مساع وإيعازات ومخابرات بين حزب اللامركزية وأنصاره في صدد إنشاء فروع للحزب في المدن الأخرى[٦٨].

ومن الرسائل رسالة من رفيق العظم بتاريخ ٢٣ تموز ١٩١٤ لشخص لم يصرح باسمه في تنظيم مالية الفرع وادخار ما يبقى بعد المصروفات الضرورية، والسعي في تكثير سواد الأعضاء وإنشاء فروع في أي مكان حتى في القرى، والدعاية لمبادىء الحزب. ومما ورد في هذه الرسالة أنه يجب أن يكون لكل عشرة أعضاء عريف يكون واسطة بينهم وبين لجنة الفرع، ولكل مئة دليل يكون واسطة بين العشرة والمئة. وانه يجب على كل عضو أن يؤدي يمين الإخلاص لخدمة الوطن والعمل لمبادىء الحزب.

---

(٦٧) يستفاد من مذكرات جمال باشا وعزيز بك التي أشرنا إليها في مناسبة سابقة، ان جمال باشا تأثر جداً من مقتل محمود شوكت، نتيجة للحركة الانتقامية التي أقدم عليها جماعة حزب الحرية والائتلاف، وحقد على هذا الحزب أشد حقد، وطارد أعضاءه وبطش بهم، وكان يومها حاكماً عسكرياً في الآستانة. وأنه لما علم أن حزب اللامركزية متواصل ومتطابق مع حزب الحرية والائتلاف، سرى حقده ونقمته إلى حزب اللامركزية، وكان ذلك من أسباب شدة مطاردته لأعضاء هذا الحزب، والأحكام القاسية الصادرة ضدهم، أثناء الحرب في ظل سلطته المطلقة الطاغية في بلاد الشام في هذه الأثناء.

(٦٨) كان حزب الحرية والائتلاف عثمانياً مرخصاً، في حين لم يكن حزب اللامركزية مرخصاً من قبل الحكومة العثمانية، فكان نشاطه سرياً في الولايات العربية الخاضعة لسيطرة هذه الحكومة وقوانينها خضوعاً تاماً، ومنها بلاد الشام والعراق، وكانت فروعه سرية. والمتبادر أن الحزب لاحظ ذلك، فكان إيعازه ومساعيه لأجل إنشاء فروع لحزب الحرية والائتلاف، لتأمين الدعوة والانضواء إلى منهج الحزب، الذي كان مطابقاً لمنهج حزب الحرية والائتلاف بدون حرج قانوني. ونذكر موقفاً شخصياً في هذه المناسبة، فقد اتفقت مع بعض رجال نابلس، على إنشاء فرع لهذا الحزب في سنة ١٩١٢، وقبل التفكير بانشاء فرع لحزب اللامركزية. وتم ذلك فعلاً، ونال الفرع رخصة رسمية من الحكومة تبعاً للأصل، وكان توفيق عبد الغني عبد الهادي رئيساً، وأنا سكرتيراً. واتخذنا ديوان توفيق مركزاً رسمياً، وكان عملنا هذا انسجاماً مع شعور النقمة الذي كنا نشعر به نحن وأمثالنا المنفعلون بالتيار العربي القومي على الحكم الاتحادي، بسبب موقف الاتحاديين المتجهم المناوىء من الحقوق والمطالب العربية. وليس نتيجة لايعاز حزب اللامركزية الذي لم يكن قد قام وصار له كيان بارز، فحينما رأينا حزباً معارضاً للاتحاديين قد قام، رأينا من واجبنا القومي أن نندمج فيه، ولا بد من أن يكون غيرنا في غير نابلس قد فعل مثلنا. ثم جاء حث حزب اللامركزية مؤيداً مشجعاً، وتوفيق عبد الهادي المذكور كان قائمقاماً مدنياً في أحد أقضية طرابلس الغرب، ثم أحيل على التقاعد، وكان منير الفكر، ولا أذكر الآن يقيناً رفاقنا في فرع الحزب، وإن كان يلوح في ذاكرتي أن منهم إبراهيم القاسم عبد الهادي والحاج حسن حماد، وكانا ممن التقينا بهم في ظروف إعلان الدستور، ونشطنا معاً في احداثه على ما ذكرناه قبل.

ومن الرسائل رسالة من رفيق العظم إلى محمد المحمصاني بتاريخ ١٦ نيسان ١٩١٤، ويخبره فيها بقرار اللجنة المركزية بقبوله عضواً في الحزب. ورسالة من رفيق إلى محمود المحمصاني في نفس التاريخ، فيها شكر اللجنة العليا على مساعيه الكبيرة في سبيل مناصرة الحزب. ورسالة من حقي العظم إلى محمود المحمصاني فيها تثبيت له على الصمود وعدم التردد والتهيب، وتوصية له بأن يكون العمل للحزب وتشكيلاته سرياً أكثر من ذي قبل، وتنبيه بأنه أرسل إليه كمية من منشور موقع بامضاء (الجمعية الثورية) المذاع بعد فشل المؤتمر العربي الباريسي الذي سوف نذكر خبره بعد. ورسالة أخرى من حقي إلى محمود، يخبره فيها أنه أرسل إليه بعض أعداد من جريدة مرآة الغرب، وأنه سيرسل إليه مفتاح (شفرة) للمراسلات، وأنه أرسل إليه كمية أخرى من المناشير والصحف. ورسالة من حقي العظم إلى عبد الحفيظ الحسن[٦٩] بتاريخ ١٥ حزيران/يونيو ١٩١٤، ورقم (٦٥) فيه إجابة على سؤال سأله عبد الحفيظ عن كيفية مساعدة الحزب مالياً، ويشكره على مواقفه، ويحثه على إنشاء فرع للحزب وإرسال أسماء أعضائه وورقات انتسابهم، وجمع تبرعات للحزب، ويعده بارسال ختم وبطاقات ودفتر قسائم حينما يتم تأسيس الفرع. ورسالة من حقي العظم إلى محمود المحمصاني بتاريخ ١٦ أيار ١٩١٤، يخبره فيها باهتمامه لصنع ختم فرع بيروت واستحسانه لاقتراحه لألوان العلم العربي ووعده بعمل (زر) بها على شكل وردة، وتوصية بالسرية التامة، وأخبار بأنه أرسل إليه نسخاً من القانون وبعض المناشير. ورسالة من حقي إلى محمود بتاريخ ٣ تموز ١٩١٤ في صدد ألوان العلم والزر ونشيد للحزب. ورسالة من محمود المحمصاني إلى حقي العظم يقول فيها إن الوردة ذات الألوان الثلاثة الأخضر والأسود والأبيض قد انتشرت بين الناس في بيروت، وان الدمع فاض من عينيه حينما وقع بصره على الوردة التي أرسلها وأنه قبلها عدة مرات، وأراها لاخوانه فكان سرورهم بها عظيماً، وصنعوا على غرارها. ورسالة من حقي العظم إلى محمد المحمصاني يقول فيها (اجعلوا الأتراك طعام الغداء، وبادروا بأكلهم قبل أن يلتقموكم في المساء، ثم يقول سلام إلى من لم يقبل المذلة، ولم يرض أن يكون مغفلاً).

ورسالة من حقي أيضاً إلى محمد بتاريخ ٢٤ تموز ١٩١٤، جواب على رسالة لم تذكر جاء فيها (ان الاخوان استحسنوا قفل المدينة إذا أصرت الحكومة على التجنيد الإجباري، وان الوالي يريد تخدير الناس بالوعود ويمنعهم من الاحتجاج على قانون التجنيد، ويجب أن لا ينخدع الناس بل عليهم أن يواصلوا الاحتجاجات. وقد حبذوا ما فعله الناس من إرسال برقيات إلى نواب العرب يطلبون منهم فيها الاستقالة إذا لم يستطيعوا إبطال هذا القانون الظالم. وان اللجنة العليا للحزب قد احتجت إلى الصدارة على هذا القانون). ورسالة من حقي إلى محمد بدون ذكر تاريخ يظهر فيها حقي الغضب والسخط على الحكومة لقفلها جريدة فتى العرب التي كان يصدرها عبد الغني العريسي في بيروت، وسوق مديرها إلى المحاكمة ويحمل على الحكومة الاتحادية ودستورها وحريتها وظلمها ويقول إنهم علموا أن طلعت وجاويد سيزوران سورية، والغالب أنهما سيفسدان بين

---

(٦٩) هذا الشخص من وجهاء قرية قلقيلية على ما في الذاكرة.

العرب، ويقويان هيبة الاتحاديين ويقترح إذاعة منشور شديد ضدهم، ودعوة العرب إلى مقابلتها بالديناميت والرصاص، وبذل الجهد لجعل استقبالها على كل حال في كل مكان فاتراً، والقيام بمظاهرات احتجاجية ضدهما. ومما ورد في الرسالة (انه لم يصدق ما شاع من انقلاب عبد الغني إلى موال للحكومة وانه كذب الخبر وعرف انه إشاعة من المفسدين لأنه يعرف عبد الغني ويقدر ثباته واخلاصه). ورسالة من حقي إلى محمد أيضاً بتاريخ ٣ تموز ١٩١٤ (يطالبه فيها بجمع وإرسال مرتبات أعضاء الحزب المتأخرة، ويخبره بأن القومسيير العثماني ـ وهذا لقب المعتمد العثماني المقيم في مصر ـ طلب محاكمته بتهمة طبع مناشير ثورية، وتوزيعها في بلاد الدولة. ولكن الحكومة المصرية رفضت، وأنه مزق كل ما عنده من من أوراق تدل على صلته بذلك من قبيل الحذر والاحتياط، ويخبره كذلك بأن سبب منع الأهرام من دخول البلاد هو مقالات نشرتها لشبلي شميل وابراهيم النجار، فيها تنديد بمساويء الحكومة، ويخبره كذلك بأنه كلف فؤاد الخطيب وخليل مطران الشاعرين وهما من الحزب بنظم أناشيد وطنية، وإن فؤاداً سافر إلى الشام ومستعد لنظم الأناشيد فعليه الاتصال به). ورسالة من حقي إلى محمود المحمصاني بدون ذكر تاريخ جواباً على رسالة أرسلها الثاني للأول اقترح فيها عقد مؤتمر ثان بعد ما ظهر من إخفاق مؤتمر باريس يذكر فيها (ان اللجنة العليا للحزب حبذت الاقتراح وأخذت تهيء له الأفكار وستقرر موعده في شتاء السنة التالية). ورسالة من حقي إلى محمود بتاريخ ١٦ نيسان ١٩١٤ يذكر فيها (ان في الحزب تفكيراً بإدخال تغييرات على بروغرامه بعد سماع اللجنة العليا لأقوال عبد الحميد الزهراوي عن نتائج مؤتمر باريس وما كان من اختلاف بين رجاله ورجال الاتحاد والترقي).

وفي كتاب إيضاحات اعترافات معزوة إلى عبد الغني العريسي فيها بعض بيانات عن الحزب. ومن الجائز أن يكون فيها بعض الحقائق المتصلة بتشكيلات الحزب ونشاطه أيضاً وان كان كثير منها يتحمل التوقف ويمكن أن يكون منحولاً أو محرفاً، من ذلك قوله (ان مؤسسي الحزب اتصلوا بحزب الحرية والائتلاف المعارض للاتحاديين واتفقوا على المنهج الاصلاحي على أساس اللامركزية، وأن بعض رجالات الحزب أنشأوا فروعاً لحزب الحرية والائتلاف وأن ذلك كان بمساعي شكري العسلي وعبد الكريم الخليل وعبد الرحمن الشهبندر ويوسف سليمان حيدر) ومن ذلك قوله (إن الحزب اعتقد بعد أن استطاع الاتحاديون إسقاط حكم المعارضين لهم والاستيلاء على الحكم بالقوة أنه ليس لحزب الحرية والائتلاف سند وأن العمل مع العرب وللعرب فقط هو الأولى على أن يكون سرياً ودون أن يكون عليه مسحة عثمانية) وقوله (ان الحزب كان يزمع إرسال وفد إلى أوروبا ووفود إلى ابن الصباح وأمير المحمرة وأمير مسقط، وأنه أرسل رشيد رضا إلى الهند للاتصال بهم والاتفاق معهم على إقامة دولة عربية مستقلة. وانه أرسل عزت الجندي إلى الادريسي، وحصل منه على الموافقة على رأي الحزب بإقامة دولة عربية، وأنه شرع في الاتصال بالامام يحيى أيضاً في نفس الصدد، ولكن الامام يحيى كان قد اتفق مع الحكومة فثبت على اتفاقه، وأنه حين رجع من باريس بعد المؤتمر ـ يعني نفسه ـ إلى بيروت مر بمصر فعلم أن رشيد رضا يسعى للتفاهم مع الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد للدعوة إلى حركة استقلالية في البلاد العربية، وأن رشيداً ذهب إلى الهند ليأتي بالمال اللازم ثم جاء منها إلى الكويت وفاوض ابن الصباح في الأمر،

وأن طالب النقيب الذي كان رئيس فرع الحزب في البصرة أرسل وفداً إلى ابن السعود بسبيل ذلك). وقوله (إن عزت العابد وعد عبد الحميد الزهراوي حينما التقى به في أوروبا بتخصيص مبلغ جسيم من ماله للمسائل العربية وجعله ولياً على إنفاقه على أن يستولي عليه بعد وفاته من مصرف عينه في وصيته). وقوله (إن من غايات الحزب جمع كل طلاب العرب وبث فكرة القومية العربية، ونهضة العرب ولو بمساعدة أجنبية، وان الحزب اتفق مع حزب العهد(٧٠) على توحيد المساعي لضمان حقوق العرب واستقلالهم،وان جمعية النهضة اللبنانية(٧١)اتصلت بالحزب وتوثقت العلاقة بينهما وتوحدت جهودهما. وقد صار رئيس فرعها في مصر اسكندر عمون من أركان الحزب ومن أعضاء مجلس إدارته، وانهما اتفقا قبل دخول الدولة الحرب أن يعملا سوية إذا دخلت الدولة الحرب، وإن الفريقين راجعا معتمد فرنسة، ووعدهم بعشرين ألف بندقية وبثلاثة مدرعات بحرية تقف على الشاطىء لتدافع عن الثائرين عند إعلان ثورتهم، وأن الحزب أرسل إلى فروعه في سورية يسألها عن مقدار الرجال الذين يمكن أن يشتركوا في الثورة، وعن مكان أمين يختبىء فيه رؤساء الحزب يوم مجيئهم، وان معتمد فرنسة وعدهم بضباط يتولون قيادة الثورة، وان زحلة كانت مطمح الأنظار لتكون مكان حركات وانطلاق الثورة التي وعدت فرنسة بمساعدتها. وان داود بركات رئيس تحرير الأهرام اقنع الحزب بذلك، وان اسكندر عمون رئيس الجمعية اللبنانية عاضده في ذلك وان الشخصين يعملان لصالح فرنسة. وان انكلترة لم تقف ساكتة فاتصلت برفيق العظم ورشيد رضا ودفعت لهما ألف جنيه ليكون تعاون الحزب معها لا مع فرنسة وهي تساعدهم على تحقيق المطامح القومية).

وفي كتاب إيضاحات اعترافات معزوة إلى سيف الدين الخطيب نرجح أنها أخذت منه بالقهر والفرض، وإن كنا نظن أنها تعبر عن أمور واقعة من ذلك: (ان جرائد مصر وأميركا العربية أخذت تذيع أن الدولة العثمانية دخلت آخر أدوار حياتها، وان على العرب أن يغتنموا الفرصة لتحقيق مطامحهم، وان دول الائتلاف (فرنسة وبريطانية وروسية) مستعدة لمساعدتهم وان جماعة اللامركزية كانوا يبثون الدعاية ضد الدولة اثناء الحرب. وكان مما يذيعونه أن الانكليز لم يعلنوا الحرب على العرب بل على الدولة لتخليص العرب، وأن على العرب أن يفروا من الجيش...).

وقد أورد هذا الكتاب بعد ذلك نص رسالة مرسلة إلى كامل هاشم(٧٢) مؤرخة في ٢٧ رمضان ١٣٣٢، وهذا التاريخ مصادف لسنة ١٩١٤ م وفيها تأييد لما جاء في بعض اعترافات العريسي. وقد جاء فيها (إن الدولة إذا دخلت الحرب ستكون نهايتها، وان من الواجب على العرب أن يفكروا من الآن بالوسائط التي تقي استقلالهم، وان على حزبهم الذي له نوع من التشكيلات أن يكون أعضاؤه في مقدمة من يفكرون في ذلك). ويطلب كاتب الرسالة بعد هذه المقدمة أجوبة على هذه الأسئلة:

---

(٧٠) كان هذا الحزب سرياً وعسكري الطابع، وسوف يأتي بيان عنه بعد.

(٧١) كان مركز هذه الجمعية باريس، ولها فروع في مصر وبيروت، وكانت تدعو إلى استقلال سورية، وسوف يأتي بيان عنها بعد.

(٧٢) هو من نابلس، وكان من أعضاء فرع حزب اللامركزية، على ما ذكرناه قبل.

١ ـ ما هي القوة التي عندهم التي يمكن الاعتماد عليها عند الحاجة؟

٢ ـ هل في إمكانهم جمع شيء من المال وما مقدار الممكن؟

٣ ـ هل عندهم ملجأ لشخص أو أكثر ممن يناط بهم إدارة الحركة وتأمين حياتهم ومعيشتهم؟

٤ ـ هل يمكن إرسال شخص موثوق به إلى جهة تعين له لتلقي التعليمات اللازمة؟

٥ ـ إذا لم يمكن ذلك فهل يمكن أن يأتي شخص إليهم لتلقي التعليمات؟

ثم يطلب مرسل الرسالة إرسال الجواب مع شخص أو بالبوسطة الافرنسية(٧٣) على العنوان التالي:

(الشيخ حقي خلف، فراش مسجد برلانتي هانم، أمام سراي المرحوم شريف باشا)(٧٤).

---

(٧٣) ذكرنا قبل أنه كان يوجد في بعض الثغور الشامية مراكز بريد افرنسية وطليانية وانكليزية، نتيجة للامتيازات الأجنبية، وليس للسلطات العثمانية رقابة عليها.

(٧٤) لا يذكر الكتاب كيفية وصول هذه الرسالة للسلطات التركية، ولا نذكر أننا سمعنا أنها صادرتها من كامل هاشم، مع أنها اعتقلته كما قلنا مع رفاق له من رجال نابلس، بسبب انتسابهم إلى حزب اللامركزية، ونرجح أن هذه الرسالة مسودة أو نسخة ثانية كانت محفوظة في مركز الحزب في مصر، ووصلت إلى أيدي السلطات مع ما وصل إلى يديها من نسخ ثانية كانت محفوظة في هذا المركز. وفي مذكرات جمال باشا نص رسالة مماثلة هذه الرسالة، ومؤرخة بنفس التاريخ، وموجهة إلى (السيد الجليل المبجل سيد أفندي شكري) وهذا نصها كاملاً:

«تحية وسلاماً، وبعد ففي هذه الظروف التي تدور فيها رحى الحرب العظمى بمنتهى الشدة، ينتظر الوطن المقدس من أبنائه بذل ضحايا أكثر مما بذل في الماضي. ان الحرب العالمية قد تطير شرارة منها إلى الشرق فتصبح بلادنا شعلة من نار فتلتهم البريء والمذنب، لا فرق بين العرب والترك. فمما لا ريب فيه أن الحكومة على عكس من المتوقع لو اشتركت في الصراع العام لن تخرج منها إلا مخضودة الشوكة مما يقرب أجلها. فلو ختمت الحرب بانتصار الحلفاء فإن هذه النهاية تصبح ولا مفر منها. وبذلك يسهل حل المسألة الشرقية بواسطة روسية، وإذ ذاك تصبح الأراضي العربية عرضة لنفس الأخطار التي تهدد الأراضي التركية. وبما أن الأتراك سوف يبذلون قصارى جهدهم ويستخدمون كل مواردهم الدفاعية عن امبراطوريتهم وممتلكاتهم فإن الخطر الذي يهدد العرب سيكون أعظم والبلية أشد، وهذا هو المنتظر وقوعه فعلاً. إذن فمن المهم أن يتأهب العرب للذود عن استقلالهم المهدد. ان جمعيتنا التي لديها هيئة خاصة والتي تتألف من نفر اشتهروا بالوطنية وعرفوا بالتضحية ترى أن واجبها المقدس يقضي باتخاذ الوسائل الفعالة في الحال لصيانة الوطن وأبنائه. فلهذا السبب نرجو الإجابة على الأسئلة التالية:

١ ـ كم لديكم من القوات التي يمكنكم إذا دعت الضرورة بدء التمرد العام؟

٢ ـ أفي استطاعتكم امدادنا بالأموال أو جمع الاكتتابات التي يمكنكم استعمالها عند الضرورة وكم مقدار الممكن جمعه؟

٣ ـ أمن المستطاع ايجاد ملجأ حصين لأعواننا السريين الذين يناط بهم البدء في التمرد والذين سنساعدهم بكل ما لدينا من الوسائل؟

٤ ـ أمن الممكن إرسال رجل ثقة إلينا يمثل حزبكم للذهاب إلى جهة معينة لانتظار تعليماتنا؟

٥ ـ إذا لم تجدوا ذلك الثقة لإرساله إلينا أفترون من اللازم أن نبعث اليكم بمن يبلغكم تعليماتنا؟ فالمرجو الاجابة =

وفحوى الرسالة يدل على أنها كتبت وأرسلت قبل دخول الدولة العثمانية في الحرب فعلاً، ونرجح أنها بعد إعلانها النفير العام. ولقد نشبت هذه الحرب بين الدول الأوروبية في آب ١٩١٤،

= على هذه الأسئلة بتفصيل. إن كل دقيقة تضيع سدى معناها فقد روح عربية فالبدار البدار. فلقد حان وقت التضحية الشخصية من أجل الواجب والوطن والسلام».

امضاء (ليس في الكتاب اسم)

ملحوظة: (هذه الملحوظة واردة في ذيل الرسالة التي أوردها الكتاب) سيكون التوقيع الذي بعاليه هو توقيعنا في كل الرسائل المقبلة، ولكن أرجو وقت الاجابة أن تلاحظوا كتابة اسمي مع العنوان، ويجب وضع الظرف داخل ظرف آخر بهذا العنوان(شارع الدواوين الشيخ حقي خلف ناظر جامع الست الشامية هانم أمام سراي المرحوم شريف باشا. ويجب تسليم الخطاب لرجل ثقة، وهذا يسلمه بيده إلى أي بريد اجنبي على الساحل، فإن استحال ذلك فليس ثمة ضرر إذا أرسلتم الخطاب بواسطة البريد المحلي).

تعقيب من المؤلف:

نرجح أن الاسم الموجه إليه الرسالة اسم مستعار، لأننا لا نذكر أنه كان بين رجال الحركة العربية المشهورين في بلاد الشام شخص بهذا الاسم. وهو على كل حال غير كامل هاشم الذي أورد كتاب ايضاحات نص رسالة مماثلة مرسلة إليه، ويلحظ أن عنوان مصر مماثل في الرسالتين (الشيخ حقي خلف)، وهذا مما يسوغ القول ان نسخاً عديدة مماثلة، وجهت إلى اشخاص آخرين في بلاد الشام، ونرجح أن كاتبها ومرسلها (حقي العظم)، سكرتير عام حزب اللامركزية ولا نستبعد أن تكون الرسائل كتبت بعلم أو أمر من الحزب، أو بعض قادته. ونص الرسالتين صريح بأن الرسائل كتبت قبل دخول الدولة الحرب، وان الهدف منها هو ضمان نجاة واستقلال بلاد الشام بالقوة العربية الذاتية. ووقايتها من التعرض للاحتلال الأجنبي واغتنام فرصة دخول الدولة الحرب من أجل العمل على ذلك. ويكون ما جاء في اعترافات العريسي، إن صحت، من اتصال بفرنسة وبريطانية، واحتمال التعاون مع احداهما، هو لأجل تحقيق هذا الهدف. وجمال باشا أورد الرسالتين في كتاب الايضاحات، وفي مذكراته للتدليل على خيانة وعمالة حزب اللامركزية وخدمته للمآرب الاستعمارية، وليس في النصوص ما يؤيد ذلك، بل فيها ما يشرف الحزب، ويشهد باخلاصه لبلاده وقوميته، وللأهداف الاستقلالية البريئة من الاحتلال والاستعمار، ويكون الذين أعدمهم هذا السفاح من أعضاء الحزب قد استحقوا لقب الشهادة حقاً. ولقد أورد جمال في كتاب (ايضاحات) ترجمة رسالة أرسلها وزير خارجية فرنسة إلى قنصل بيروت، بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩١٣، يخبره فيها بخبر بعث به اليه سفير فرنسة في الآستانة، وهو أن شفيق المؤيد زاره وحدثه في المسألة السورية، واستفسر منه عما إذا كان اهتمام فرنسة محصوراً بالنصارى أم شاملاً للمسلمين، وانه اجابه بأن اهتمامها ومودتها للجميع، وحينئذ حدثه عن الاصلاحات التي يطلبها أهل سورية واللامركزية، وعن فكرة اقامة امارة تشمل ولايات سورية وحلب وبيروت، وسأله عما إذا كانت فرنسة مستعدة لمناصرتهم بالقوة، إذا حاولت الدولة استعمال القوة ضدهم وان السفير لم يرد أن يجول معه في الموضوع، واكتفى بالثناء على أهل سورية وثباتهم، وليس في هذه الوثيقة ما يريب أو يشين، كما أراد أن يدلل عليه بها، ومثل هذا القول يقال في صدد ما أورده كتاب (إيضاحات) في الاعترافات المعزوة إلى عبد الغني العريسي،وأوردناه قبل من أن حزب اللامركزية اتفق مع أركان جمعية النهضة، بواسطة رئيس فرعها في مصر اسكندر عمون الذي كان من أركان الحزب أيضاً، على العمل سوية إذا دخلت الدولة الحرب، وانهم راجعوا قنصل فرنسة في مصر، فوعدهم بعشرين ألف بندقية وثلاث مدرعات تقف على الشاطىء، لتدافع عن الثورة والثوار عند إعلان الثورة. كما وعدهم بضباط للتدريب والقيادة، وأن زحلة كانت مطمح الأنظار لانطلاق الثورة في سورية، وأن بريطانية اتصلت برفيق العظم ورشيد رضا وأظهرت استعدادها لمساعدة العرب على تحقيق مطامحهم القومية، وطلبت منهم أن يكون التعاون معها هي. فالغاية الاستقلالية الشريفة بارزة في هذا الموقف لأركان حزب اللامركزية وليس فيه ما يشين ويريب.

وفي هذا الشهر أعلنت الدولة العثمانية النفير العام. أما دخولها للحرب في جانب الألمان فقد تأخر إلى آخر تشرين الأول من سنة ١٩١٤.

وفي كتاب إيضاحات شذرة من رسالة مرسلة إلى أحد أعضاء الحزب بدون ذكر اسم بامضاء (الناموس)، فيها تشجيع وتطمين وحث على إنقاذ المسجونين من سجن عاليه، حيث يفيد هذا أن هذه الرسالة كتبت وأرسلت بعد أن أخذ جمال باشا يطارد ويعتقل رجالات العرب، ويسوقهم إلى المحاكمة في ديوان حرب عاليه. وقد بدأ ذلك في شهر حزيران ١٩١٥ على ما يستفاد من مذكرات جمال باشا وعزيز بك.

وكل ما تقدم يعطي صورة قوية لنشاط وحيوية ومطامح حزب اللامركزية، بالإضافة إلى مثل هذه الصورة له في مجال الجمعيات الإصلاحية، ثم مؤتمر باريس على ما سوف يأتي شرحه. ويعطي في الوقت نفسه انطباعاً عن تطور مواقفه، حيث كان عثمانياً موالياً للدولة، كل قصده حملها على اصطناع اللامركزية الإدارية لمصلحتها ومصلحة شعوبها وولاياتها معاً، متعاوناً في ذلك مع العناصر غير العربية أيضاً في الدولة التي كانت متطابقة معه على هذا المنهج، ثم صار عربياً صرفاً يبحث عن مصلحة العرب وبلادهم في نطاق الدولة أيضاً، ثم صار يتطلع إلى استقلال بلاد العرب وحمايتها من الاحتلال، ومما قد تتعرض له الدولة من كوارث إذا دخلت الحرب بالتعاون مع أمراء العرب من جهة، ودول الائتلاف (الحلفاء من جهة أخرى).

وفي كتاب (إيضاحات) نص منشورين معزوين إلى حزب اللامركزية وليس عليهما تاريخ، ونصهما يفيد أنهما أذيعا بعد أن نقض الاتحاديون اتفاقهم مع رجال مؤتمر باريس العربي على منح بعض المطالب التي يطالب بها العرب وقررها المؤتمر على ما سوف يأتي شرحه. ونرجح أنهما أذيعا في أواخر سنة ١٩١٣ أو أوائل سنة ١٩١٤، وقبل إعلان النفير العام ودخول الدولة الحرب. وهذا نص أحدهما المعنون بعنوان الصرخة الثالثة حيث يفيد هذا أنه مسبوق بمنشورين آخرين:

الصرخة الثالثة

إلى أبناء الأمة

سلاماً أيتها الأمة، سلام بر أمين، يظلله في (سواد) الليل (بياض) الضمير و (خضرة)[٧٥] الأمل اليقين، دفعنا الصرخة الأولى، وقفينا بالثانية، فعاشت رمم، واشتعلت همم، حتى لمس الحكام الشر يبدو بقرنيه، فأعلنوا من رهبة السلاح رغبة الإصلاح، فسكنت إليهم نفوس، وتطالت إليهم رؤوس، وما لبثوا أن جاؤوا الإصلاح فرية يحسبونها من ألاعيب الرآسة وأكاذيب السياسة يذرون بها الرماد على العيون، وما علموا أن ذلك من قبيل ذر الملح على الجرح. صبرنا على هذا الجرح الأليم، وما كان صبرنا على ضلال وانخداع، أو غفلة، ولكن العربي حقود كاظم

---

(٧٥) هذه الألوان الثلاثة التي كان القوميون العرب يفكرون في جعلها رمزاً للانبعاث العربي القومي الحديث على ما مر بيانه.

لآلامه ولو بعد حين. حسب الحكام أن النهضة العربية قائمة ببعض الذين قد ظهروا فوسدوا إليهم المناصب إرادة إطفاء الحركة، والحقيقة هي أن النهضة متشبعة في لباب الشعب وجماعه، لا في أفراده وزعمائه، ومن خاض غور الأمة العربية، أيقن ما هنالك من القوة الكافية التي لولاها ما قام لهؤلاء الذين اعتلوا قائم، وما تحرك لهم ساكن، فالذين قادوا الحركة قادوها مسيرين لا مخيرين.

كذب الحكام على الزعماء، ولكن الأمة لم تنخدع بأولئك كما خدع هؤلاء، إلا أنها لبت داعي السكينة لتمهد لدى الدول الأوروبية ملتمساً للعذر، يوم تحق كلمة الثأر احقاقها، وتفارق السلاسل اعناقها.

أما وقد صرع الكذب، وثبت العذر لدى أوروبا بما قد تم حتى اليوم، فإننا نعلن لأمتنا المحبوبة حقائق راهنة، تجعلها على بينة من أمرها وفي بصيرة من مصيرها.

الدولة التركية دولة قضت عليها أوروبا بأن تكون مسخرة مستعبدة ذليلة، مستعبدة في القضاء بحيث فقدت استقلال الحكام على من يعلو أرضها، مستعبدة في الاقتصاد فلا تستطيع وضع الضرائب والمكوس إلا بارادة غيرها، مستعبدة في الحرب فلا يمكنها تنظيم جيشها كما تهوى، مستعبدة في البحر فلا تتصرف ببواغيزها إلا بمشيئة سواها مع أن ما بين البوغازين قاعدة ملكها(٧٦)، مستعبدة في السياسة الداخلية فلا تستطيع تعيين مأمور لا تريده جارتها، مستعبدة في السياسة الخارجية تسخر لما تتطلبه غير وزارتها، مستعبدة في المال فإن شاءت الدول إحياءها فعلت وإن شاءت موتها أقدمت.

فالدولة التركية دولة اسمية مصطنعة لا تملك من نفسها شيئاً، وخليق بمن يتوقف وجوده على إرادة غيره أن لا يكون.

هذه هي الدولة التركية، والأبله السخيف من يؤمل لمثل هذه الدولة حياة بعد هذا التسخير والقيد الذليل، وساقط المروءة من يسخر قومه لأناس هم أنفسهم مسخرون.

كانت اليونان وهي إحدى الولايات التركية ترسف بالذل والمسكنة، فانفصلت عن ذلك العضو الأشل وما لبثت أن أصبحت أرقي من الترك بدرجات، انفصل الجبل الأسود فكان آية في سرعة الانتظام، انفصل الصرب وما لبثوا أن أغاروا إغارة الأسود، انفصل البلغار فكانوا القوة الراسخة والأمة النشيطة الفتية، انفصلت رومانيا فكانت قاعدة التوازن في البلقان، فما من ولاية تنفصل إلا وتصلح حالها، ويستقيم أمرها، وتقوم أركان دولتها، وما من قطعة تتصل بهذه المملكة إلا ويجرها الذل إلى حتفها، ذلك بأن الترك أصل بلائها. وإن ما قد كان لتلك العناصر التي أنقذت نفسها من القبر التركي، وجعلت لنفسها مكانة ومنزلة قد يكون لأمتنا العربية بل من

---

(٧٦) جمع بوغاز وهي كلمة تركية معناها ممر بين بحرين، والبوغازان هما بوغاز البوسفور الممر بين البحر الأسود وبحر مرمرة وبوغاز الدردنيل الممر بين بحر مرمرة والبحر الأبيض.

المحقق أن يكون، ولاسيما نحن اليوم أرقى من تلك الأمم البلقانية عندما نادت بحقها طالبة لنفسها الحياة، ولا غرو فإن من يتخذ من الدول الأوروبية ظهيراً بالغ حقه.

وبعد فإننا قد صدقنا الترك حتى اليوم لقاء ما نطلبه من إصلاح، أما وقد ظهرت بوادر المخاتلة والمراوغة فليعلم المخاتلون والمراوغون أن هذا اليوم له ما بعده. وليعلمن العرب أن حركتهم لن توقف دورتها دسائس الساسة، وانهم ضاربون هذه الدولة من أركانها حتى تخفق في البلاد راية العرب على سكانها، فسلام على الأمة سلام بر أمين يظلله في (سواد) الليل (بياض) الضمير و (خضرة) الأمل اليقين.

وهذا نص ثانيهما المعنون بعنوان:

بلاغ للأمة العربية والمغتصبين لحقوقها

ألا أيها النوام ويحكم هبوا، هبوا من نومكم، واصغوا للصيحات التي تنذركم، وانظروا في طرق المكائد التي تكاد لكم، قد أسكت أعداؤكم المفسدون المخربون جمعياتكم وأحزابكم بعد أن أسكنوا حركتهم، وأطفأوا حرارتهم بتلك الوعود الكاذبة المخادعة التي سخروا بها منهم، أسكتوهم وأسكنوهم حتى لا يشوشوا عليهم بيع البلاد العربية لأوروبة، لأن أرباب الأموال لا تشتري الأرض ولا المعادن ولا الامتيازات إذا كان أهل البلاد متهيجين مضطربين. فلما راق لهم الأمر وصفاً، جدوا في طريقهم، وكافأوا منافقي البلاد العربية على لعنهم لمصلحيهم، وأما إنجاز وعودهم لهؤلاء المصلحين فقد بدأوا بمقدماته، إذ انتهت مشاكلهم الخارجية التي كانت تعوقهم عنه وهذا ما ظهر لنا الآن منه:

المقدمة الأولى:

أرسل بعض أعداء الحق ومغتصبي حقوق الشعب العربي كتاباً برطانتهم التركية إلى صاحب جريدة المفيد العربية في بيروت يلعنونه فيه ويحقرونه، لأنه يخدم العرب ويلعنون العرب ويحقرونهم ويكذبون على الرسول العربي صلى الله عليه وسلم زاعمين أنه تبرأ من قومه العرب، ويتوعدونه بالقتل إن لم يكف عن المطالبة ببعض الحقوق التي اغتصبوا من قومه أضعاف أضعافها إذا بقي ينوه بالعرب والعربية أو يقوي هذه الرابطة الجنسية تشبهاً بكتاب الترك وهم (الملة الحاكمة)، وهذا الحديث الذي اختلقوه على الرسول مشهور بينهم. ويا ليت شعري كيف يتبرأ النبي صلى الله عليه وسلم من العرب وهم الذين فدوه بأنفسهم وأموالهم ونصروا دينه ونشروا دعوته في العالم كله، فهل بعد هذا بغض للعرب وإهانة لهم، وماذا عملت الحكومة الاتحادية في بيروت، إنها كافأت صاحب المفيد بإلغاء جريدته، أي عاقبت المجني عليه راضية عن الجاني.

المقدمة الثانية:

إنه لا هم للاتحاديين بعد صلح البلقان إلا غزو البلاد العربية بحجة رد الأمن إلى نصابه،

وإخفات الأصوات المطالبة بحقوق العرب، وفعلاً أرسلت حكومتهم جاويد باشا(٧٧) مخرب بلاد الأرناؤوط ومعه عشرات الضباط، وستلحق بهم الجنود لقتل الزعماء العراقيين الذين آلوا على أنفسهم العمل في سبيل حياة الشعب العربي وتربية البلاد السورية بهم. وكان من قراراتهم أيضاً أن يفعلوا في بغداد والبصرة من قتل الرجال وتيتيم الأطفال وترميل النساء أضعاف ما فعلوه في اليمن والعسير من قبل، وحوران والكرك وألبانيا من بعد(٧٨). كل هذا حتى لا يبقى في طول البلاد وعرضها إلا نفر من المنافقين، يساعدونهم على امتصاص دماء الشعب العربي وقتل أبنائه، وخراب دياره.

المقدمة الثالثة:

الاستعانة على إماتة الشعب العربي وإخماد أنفاسه بوضع ثلثي البلاد العربية تحت المراقبة أو الاحتلال الأجنبي، بإعطاء الأجانب جميع ما طلبوه من الامتيازات العديدة من سورية وسواها وبيع الأراضي المدورة(٧٩) لشركة افرنسية، والتنازل عن جميع ينابيع البترول في جميع البلاد العربية لانكلترة، وقد قررت حكومتهم أن تنفق جانباً من ثمن الأراضي والامتيازات العربية على الجيش والأسطول اللذين أعدوهما لغزو البلاد العربية، لأنهما لا يستطيعان حماية المملكة بالأول من الجبل الأسود، والوقوف بالثاني أمام اليونان، وصرف جانب منه على إصلاح الولايات التركية، والبقية الباقية هي حصة جيوب حقي وجاويد وطلعت وإخوانهم، كما هي سنتهم في أموال هذا الملك التي سنها لهم آباؤهم الأولون.

المقدمة الرابعة:

تأسيس مدرسة في المدينة المنورة يسمونها (دار الفنون)، أي الجامعة لجميع العلوم والفنون العالية من طبيعة وفلسفة وغير ذلك، يخادعون بها المسلمين وعرب الجزيرة الغافلين، ويسترون بها مقاصدهم من اضعافهم وإغراء بعض أمرائهم ورؤسائهم ببعض كالإمام والإدريسي وابن السعود وابن الرشيد(٨٠)، ويصطادون بها مسلمي الهند ومصر وسائر البلاد الإسلامية، فينهبون أموالهم باسم الدين والخلافة ما استطاعوا، ولتخرج لهم على أيدي أشهر المنافقين عبد العزيز شاويش وشكيب أرسلان وعبد القادر المغربي طلاباً يقدسونهم، وينشرون شباكهم في أطراف البلاد

---

(٧٧) جاويد باشا قائد عسكري وهو غير جاويد بك الاتحادي السياسي الاقتصادي المشهور، وقد أرسل إلى العراق على رأس حملة لارهاب العراقيين بعد أن أوقع الرهبة في قلوب الارناؤوط الذين كانوا يطالبون مثل العرب بحقوقهم في الدولة، والعبارة تفيد أنهم أرادوا بذلك إرهاب سورية أيضاً.

(٧٨) أرسلت الدولة حملات قبل إعلان القرار وبعده، على اليمن والعسير وجبل الدروز في حوران، والكرك وبلاد الأرناؤوط ـ البانية ـ للتنكيل بالمتحركين والمتمردين، ضد مساوىء الحكم التركي.

(٧٩) الأراضي المدورة هي الأراضي والمزارع التي كان السلطان عبد الحميد سجلها على نفسه وأخذ يستغلها، وقد قررت الحكومة بعد خلعه مصادرتها وسمتها بهذا الاسم على اعتبار أنها مدورة من عهدة السلطان إلى عهدة الدولة.

(٨٠) في هذا الظرف كانت الحكومة تثير المنافسات والمتناقضات بين الإمام يحيى في اليمن والادريسي في العسير، وبين أمراء نجد آل السعود، وآل الرشيد، حتى كان يصل الأمر إلى الاقتتال.

الإسلامية، ويعينونهم على إلقاء الشقاق بين زعماء العرب، وحسبكم أيها العرب المخلصون أن رئيسها شاويش الذي كتب في جريدة العلم المصرية، أن مسلمي العرب أضر على الدولة من الروم والبلغار وسائر النصارى، إن هذه المدرسة كمسجد الضرار(٨١) ستفسد على العرب دينهم وجامعتهم الجنسية إن بقيت، وحسبكم انها بنيت على النفاق من أول يوم حتى اسمها يدل على قصد المخادعة بها، فإن المدارس الجامعة لا توجد إلا في بلاد ارتقى فيها التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي، ثم أين المعلمون لهذه العلوم والفنون العالية، أما وجد شاويش لها غير المير شكيب الدرزي، ثم أين الكتب العربية أين التلاميذ المستعدون لها.

إذا علمتم هذا فتذكروا ما يأتي:

أولاً: قتل المرحوم زكريا طبارة الذي لم يجف دمه بعد، أنتم تعلمون أن سياسة أعدائكم قد اغتالت هذا الشاب العربي المهذب المتفاني في حب قومه والعمل على إصلاحهم(٨٢). فلما رأوا أن دمه ذهب هدراً ولم تأخذوا بثأره، طمعوا في قتل نابغة شباب العرب في بيروت عروس سورية(٨٣)، فإذا بقيتم في جمودكم لا يبقون على أحد يخدم أمته منكم.

فأين اللجنة العربية الفدائية؟ وإلى متى تدخر نفسها؟ ألا يجب عليها أن تقتل بكل فرد من إخوانها المصلحين عشرة من أعدائكم المفسدين؟

ثانياً: إن اليوم الذي يطلق فيه جاويد باشا ورفقاؤه عياراً نارياً في وجوه الزعماء العراقيين وأتباعهم، هو اليوم الذي يجب على كل عربي فيه أن يقيم حرباً مقدسة على أعداء العرب في طول البلاد العربية وعرضها.

ثالثاً: يجب على الأمة العربية في هذه المرة من أكبر كبير إلى أصغر صغير، أن يحرصوا كل الحرص في هذه الانتخابات على أن يكون نوابهم أولاً من أبناء الأمة العربية المخلصين، وثانياً من أعداء المغتصبين، وعلى الأمة أن تشترط على كل نائب من نوابها قبل كل شيء، عدم الاعتراف بهذه

---

(٨١) مسجد الضرار، هو المسجد الذي أنشأه المنافقون في إحدى ضواحي المدينة، ليجتمعوا فيه، ويتآمروا على النبي والمسلمين والإسلام. وقد ذكر في آيات سورة التوبة هذه ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطّهرين. أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. ونحن نذكر أن مشروع إنشاء مدرسة عالية في المدينة قدمه وعاضده الشيخ عبد العزيز شاويش، من أكبر أنصار مؤيدي الحكم الاتحادي، وقد خطا فيه خطوات، ولكنه لم يلبث أن تجمد وانطفأ، لأنه ليس متسقاً مع مقتضيات وطبائع الأشياء.

(٨٢) نذكر أن هذا الشاب اغتيل في ظروف غامضة، وكان متحمساً للقضية القومية، وقيل وقتها ان السلطات الاتحادية هي التي دبرت اغتياله.

(٨٣) المقصود على الأرجح هو عبد الغني العريسي الذي هدد بالقتل على ما مر ذكره في فقرة سابقة من هذا المنشور.

الامتيازات والأراضي التي باعها حقي وجاويد وأضرابهما، حتى تظل البلاد العربية التي أفقروها بعد أن خربوها في أيدي أبنائها.

رابعاً: يجب على جميع أفراد الأمة العربية وعلى كل فتى عربي يمشي في عروقه دم الشهامة والمروءة، أن يكون على أهبة الاستعداد لمكافحة شرور هؤلاء المغتصبين قبل أن يقضوا على البلاد فيسلموها للأجانب، كما هو مبدأهم في بيع البلاد العربية وتسليمها للأجانب وإنفاق ثمنها على تعمير بلادهم.

فيا أيتها الأمة العربية الكريمة:

لقد آن لك أن تعلمي في أي هوة يدهورك هؤلاء الجناة المغتصبون، وحق عليك وأنت شاهدة كيف بيعت طرابلس الغرب وسواها أن تضني ببلادك وتحرصي على أبنائك وفلذات أكبادك. فقد طغى ظلام هؤلاء الاتحاديين حتى بدأوا ينذرون أبناءك المخلصين بالقتل والتعذيب، إذا هم ذكروا حقوقك، وطالبوا ببعضها، غرهم أيتها الأمة سكوتك الطويل وسباتك العميق، فمتى يعلو فيك صوت الحق، ويرتفع فيك سيف العدل؟ إذا كنت قد نسيت ما فعله أعداؤك في حوران والكرك والعسير في قتل رجالنا، ونهب أموالنا وتخريب ديارنا فهلا ذكرت اليمن وضحاياها، وألبانيا وفظائعها. إنك أيتها الأمة إذا بقيت في هذا السبات الغريب فستشاهدين في بلادك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ستشاهدين فظائع ألبانيا وحوران والكرك واليمن والعسير معاً، ستشاهدين كيف تذبح الأمم ذبح الغنم وكيف تطوى صحائف التاريخ المجيد.

الله، الله، أيها العربي، إن إرادة الأمم لا تعلوها إلا إرادة المنتقم الجبار، وأصوات الشعوب فوق جميع الأصوات، والأمة التي تريد، تفعل ما تريد. والشعب الذي لا يفعل يموت، فالبدار البدار، انا إلى يوم الجلاد قادمون، أعدوا عدتكم ،وهيئوا أنفسكم للموت في سبيل الحياة، فقد كفانا سلباً ونهباً، وكفى أبناءنا ظلماً وتعذيباً، وكفى ديارنا خراباً ودماراً.

* * *

ولقد حصلنا من الأستاذ محب الدين الخطيب على صورة شمسية للمنشور الأول من المنشورين الموصوف بصفة الصرخة الثالثة، مع صورتين شمسيتين لمنشورين موصوفين بصفة الصرخة الأولى والصرخة الثانية وفي ذيل منشوري (الصرخة الأولى والصرخة الثانية) ختم صغير بيضاوي فيه غصنا نخلة وحرفا (ج. ع) وتاريخ ١٣٢٧ ـ ١٩٠٩. أما منشور (الصرخة الثالثة) ففي أعلاه لا في ذيله ختم مدور كبير وعليه نخلة ولا يظهر فيه كتابة.

ويتبادر لنا أن هذا الفرق شكلي، ما دامت المناشير الثلاثة بعنوان واحد مسلسل وهو (الصرخة). ويجوز أن تكون المنظمة التي أصدرت الصرخات غيرت ختمها بعد الصرختين لسبب ما، بحيث يمكن القول إن المناشير الثلاثة صدرت عن منظمة واحدة، وليست على أي حال حزب اللامركزية الذي عزا «كتاب إيضاحات» إليه منشور الصرخة الأولى، لأن تاريخ الختم أي ١٣٢٧ ـ ١٩٠٩ هو على الأرجح تاريخ سنة نشوء المنظمة التي صدرت عنها، في حين أن حزب

اللامركزية قد أنشىء في سنة ١٩١٢ ـ ١٣٣٠ كما ذكرنا قبل. ونعتقد أن المنشور الثاني الذي أورده كتاب «إيضاحات» وعزاه إلى حزب اللامركزية ليس صادراً أيضاً عن هذا الحزب، وفحواه العنيف الثوري يؤيد ذلك.

ولقد مرت إشارات إلى أن حقي العظم سكرتير الحزب كان يتهم بكتابة مناشير ثورية، وأنه كان يرسل مناشير ثورية إلى بعض الفروع ،وهذا يجعلنا نرجح أن المنشور الثاني من قلمه، وأن نسخة أو نسخاً منه مع نسخة أو نسخ من منشور «الصرخة الثالثة» وجدت بين أوراق اللامركزية التي وصلت إلى أيدي السلطات التركية، فعزت هذه السلطات المنشورين في كتاب «إيضاحات» إلى الحزب توهماً أو بقصد زيادة تجريح وتجريم الحزب.

والمرحوم محب الدين الخطيب الذي أرسل إلينا الصور الشمسية للصرخات الثلاث يذهب إلى أن هذه الصرخات صادرة عن جمعية «العربية الفتاة». وفي يدنا وثيقة صادرة من مركز هذه الجمعية في باريس عليها ختم بيضاوي مخالف للختم البيضاوي الـذي على الصـرختين الأولى والثانية، فليس فيه غصنا نخلة، وعليه حرف «ت» وتحته هذه الحروف «ب. س. ١٣٢٧ ح». ونرجح أن الصرخات الثلاث صادرة عن منظمة سرية عربية أخرى، لأن هناك جمعيات سرية غير «العربية الفتاة» قامت في العهد الدستوري، على ما سوف يأتي ذكره بعد.

وما دمنا قد أوردنا نص الصرخة الثالثة فمن المفيد أن نورد في مناسبتها نص الصرخة الأولى والصرخة الثانية حتى يقرأها القارىء متسلسلة.

وهذا نص الصرخة الأولى:

الصرخة الأولى

إلى أولياء الأمور في العاصمة:

إنا عصبة العرب نمد أيدينا إليكم، نصافحكم مصافحـة الكريم للكـريم، ونغضي عما أصاب الملك على أيديكم، فإنما الحديد يفنيه الحديد.

إننا بما جبلنا عليه من العزة والإباء نفخر بما قد جددنا من شرف الآباء، فقد أثبتنا وجودها في هذه الجامعة العثمانية بأن قد صبرنا وصابرنا مدة خمسة عشر شهراً أمام دولة أوروبية عظيمة لم تستطع أن تنفذ إلينـا بضر، أو ان تسومنـا بعذاب، فحق لنـا أن نطالبكم بمـا هو لازم لحقنـا ونشاطركم سياسة الملك فيما هو خاص بشأننا، فالعرب قاعدة جامعتكم من قبل ومن بعد.

يهمس كثير من أبنائكم أنكم تنقضون على مجلس نيابتكم بسبب ما خسرتم في البلقان من رجالكم، ومنشور الأخ (الصادق) عن قفل الأندية لم يجد من قلوبنا متسعاً، ولا ارتياحاً.

فالعرب بعد اليوم إن ارتضوا فبهم تحيون، أو استفزوا فبهم تتلاشون، فنحن لن نكتفي أن يجتمع مجلس الأمة أو مجلس الأعيان، فلا بد أن يكون ممثلو العرب على نسبة عددهم وعددكم، لا

سيما في مجلس الأعيان، حيث يغمط لنا الحق الصريح ويهزأ بنا على الوجه القبيح، بل نأبى إلا أن تكون الوزارات الجديدة عثمانية لا تركية، فنحن والأرمن كفلاء معكم بحفظ بلادنا وبلادكم، فكما يكون في الوزارة لجماعتكم حق فيجب أن يكون لشركائكم، وأما التبجح بالاكفاء فقد رأينا كفاءتكم بما قد خلا من رجالكم.

هذا في سياسة الملك العامة، وأما في السياسة الداخلية فقد عرف الصغير والكبير أن المركزية في إدارة الشعوب المختلفة لغة وطبيعة تفضي إلى انقراض المجموع. فلكم أيها الأولياء أسوة بالدول العظمى، حيث تنفصل الإدارات العامة عن الخاصة فيقوم كل وزير بشأنه فتأتي النتيجة بقوة مادية لا غلبة عليها، ومعنوية لا خلوص فيها.

أيها الأولياء! إن معشر العرب قد تفتحت أبصارهم إلى معنى الحياة، فهم يطلبون أن تتغير إدارة المملكة على شكل الدول المتمدنة، حيث تكثر العناصر وتختلف الطبائع فتتألف دولتنا على ما يأتي: قوة إجرائية ومجلس نواب ومجلس أعيان؛ فالقوة الاجرائية يرأسها جلالة السلطان، وهي الصدارة والمشيخة ونظارات الخارجية والحربية والبحرية والعدلية والمالية والبريد والتجارة والسكك الحديدية والجمارك. وليس من وظيفة مجلس النواب والأعيان، إلا البحث في تشريع هذه الأمور دون غيرها.

وأما باقي النظارات فتقسم المملكة إلى ثلاث مناطق، ولايات تركية، وولايات عربية، وولايات أرمنية، وعلى رأس كل منطقة وزارة صغيرة خاصة يرأسها رئيس يعينه جلالة الخليفة من أهل البلاد. وتتألف من نظارات الداخلية والمعارف والأوقاف والنافعة والزراعة والبوليس والأمن العام (publique assistance)، ومجلس نيابي في كل منطقة ينتخبه أهلها ليشرح خصائص هذه النظارات، وكل ما هو من لزوميات أهل البلاد كقوانين البلديات والجمعيات والصحافة والصحة والمهاجرة، وبعبارة جامعة مانعة ان كل ما هو عائد لمجموع الأمة فمرجعه الوزارة العليا، وكل ما هو خاص لكل منطقة فمرجعه وزارة هذه المنطقة دون غيرها.

ولا يخفى على رجال الدولة ما في ذلك من الفوائد الجزيلة فتشتغل الوزارة العليا بحفظ جسم الدولة، وتقوية الجيش والأسطول، وإحكام السياسة الخارجية، تعني أنها لا تتناول إلا سعادة المملكة عموماً، وأما تقوية الأجزاء الداخلية فتلقى على أهل البلاد لأنهم أعلم بما في دارهم من غيرهم.

فالعرب يطلبون هذا النوع من الاستقلال الإداري اقتفاء بادارة الدول العظمى واستبقاء لحياتهم. ولكل أمة حق في طلب الحياة من أي باب أتى، ولو كان في فداء ثلثي أفرادها حفظاً لحياة الثلث الثالث. على أن عصبة العرب لا تستأثر في خطتها، بل تتناول مع الحياة لنفسها حياة الترك والأرمن إخوانها. فإن أجاب أولياء الأمور إلى هذا النداء، فأيدينا معقودة بأيديهم، فهم جانحنا ان استظللنا، ونحن رداؤهم أن اتخذونا، وإلا فهذا الجيل وهو في وسط العقد، فلا ينتهي العقد حتى ينتهي النفس.

أما قوة الناطقين في صرختهم الأولى فلا يعلمها إلا الله، ولسنا نقيم حجة عليها إلا إذا

استدعى الجد جده، واستلزم القول فصله، فنحن من العرب القوة المانعة والمادة المترعة، ربطنا الرابطة الجميلة في أقطار العرب، فإن نادينا كانوا درعنا الأقوى، أو انتدبنا كانوا صرحنا المنيع، وحاشا أهل الرأي في الدولة أن يضطرونا إلى توجيه أبصارنا حيث لا يشتهون، ويدفعونا إلى أن نفقد حياتنا على ما يرغبون.

هذا ما نقوله، والعاقل من انتصف لنفسه قبل أن يُنتصف منه.

وهذا نص الصرخة الثانية

إلى أبناء العرب عامة

نادينا في صرختنا الأولى عقلاء العاصمة يتدبرون، ونلتفت إليكم فنعيذكم يا قوم أن تكونوا عبدة مسخرين يحمل عليكم فتذرفون وتنكبون فتبكون. شأن الأذلاء المستضعفين. إن الكريم إذا أهين ينهض، وإذا عز قعد، فأموالكم تسرق، ولغتكم تسحق، وأبناؤكم ترهق، وأرواحكم تزهق، وأنتم أنتم جاثمون، ذلة فيما بينكم، وأهاويل الأجانب كب عليكم، فإن لم ينبض فيكم سعي لحياة أنفسكم وتتولوا أمركم بأيديكم فقيد الاستعباد في أعناقكم فأمامكم إحدى خلتين، إما مسكنة تفل من شرفكم، وتقد من عزتكم فتموتون في الهون، وإمّا إباء يحل عسرتكم وينقض أزمتكم فتستوون في مصاف الأمم الحية وتتعالون.

إن الحياة المجيدة تتطلب من العنصر المجيد أن يكون له منزلة، أن تكون له ذات، أن تكون له خاصة، أن تكون له جنسية، فأنتم لا خاصة تحتفظون، ولا كرامة ترعون، تحشرون كالسوائم إن وجدت مرعى أكلت، وإن فقدته أنّت، فيا للأبي تتجافى عليه المنازل.

ينظر إليكم إمام اليمن فتهتز وشائجه، ويطل عليكم صباح العراق فتحن جوانحه، ويضيء نور الشام فيخفق عليكم شعاعه، ويمت إليكم سعود نجد فتتردد أنفاسه، ويناديكم شريف الحجاز فتختلج أصواته، حنيناً لهذه الجامعة العربية العثمانية أن تدكها الإدارة المركزية، لا قدر الله يا أبناء الجزيرة، ان تنحطوا لهذه الإدارة فتمتص مادتكم وتجفف ساقكم حتى إذا ذبلت نضرتكم واصفر عرقكم جعلتكم متاعاً للوقود، فنحن نستحلفكم بالذي ربط قلوبكم على الإخاء الصميم، وعقد نيات أمرائكم على الدفاع الشريف أن يتعالى كل عربي مهما انحطت درجته إلى حفظ جامعته، وأن يتنزل مهما تسامت مرتبته إلى نصرة جنسيته، فالشريف الشريف من تحركت أمشاجه لمصائب قومه، وتمشى قلبه لخفقان مجموعه.

نعم إن العرب لا يسوغ لهم أن ينسلخوا عن الدولة العثمانية، ولا أن يتنكروا للأمة التركية، فهما في هذه الجامعة صنوان، أيهما أخلف أوحش صاحبه، ولكن نود أن يفهم أبناؤنا في أقطار الجزيرة حقيقة التاريخ الحاضر ضناً بحياتهم فيعلموا أن الدولة العلية أصبحت لا تستطيع أن ترد عنهم غارة المعتدين، فقد رأوا تخاذلها في الحرب الطرابلسية حيث وقفت وقفة العاجز الذليل، وشاهدوا فشلها في البلقان حيث استجمعت منتهى قوتها، فانكفأت لا يغنيها تدبيرها.

فينبغي للعرب بعد اليوم أن يصارحوا الدولة بأنهم لا يتكلون إلا على أنفسهم في حفظ بقائهم، ولا يعتمدون إلا على بأسهم في بقاء جموعهم، لأن المركزية واتكال الأمة على العاصمة هاوية سياسية ستلتهم ما بقي من هذا الملك العثماني في القريب العاجل، فعلى من يشعر بحياته ويتحسس لشرف منزلته أن ينادي باللامركزية الإدارية لبلاده، وعجيب أن يدفع عن أخيه أذى من لا يستطيع أن يرد عن نفسه كيداً. فاليكم يا أبناءنا في الجزيرة نلقي الكلم لتنهضوا بأبصاركم إلى الحركة المباركة في أرجاء سورية فتضموا أصواتكم مع القائمين وتحيوهم تحية الإخاء الخالص، بأن عرفوا أن الدين لله وحده وأن النزعات الدينية أدوات كانت تتخذها العاصمة لتفريق شمل العرب أجمعين، فأجمعوا رأيهم على أن اختلاف المذاهب لا يدعو لاختلاف الوطنية.

هكذا فليكن كل المسيحيين في هذه الحركة موحدين في جنسيتهم مع اليهود والمسلمين، وكل المسلمين واليهود متضامنين مع المسيحيين، لا دين يفصم عراهم، ولا تعصب يقصم ظهورهم، فالجنسية قد أوجدتهم قبل وجود الأديان، وما الأديان إلا مسالك قد تفرعت عن هذه الجامعة، فالفرع مهما امتدت جوانبه لا يخرج عن أصله، فعليهم أن يسيروا في كل مطاليبهم الوطنية، تظللهم معالي التسامح لخدمة هذه الجامعة العربية.

نعم إن حركة السوريين لجميلة، بارك الله برجالها، ولكنها غير كافية لحفظ البلاد، فاللامركزية لا تتوقف على ما يطلبون، فنحن مع إجلالنا لهؤلاء لا نرى بداً من أن نورد لهم الصور للدول اللامركزية لتكون لهم عوناً فيما يبتغون.

الدولة الألمانية: لكل مقاطعة من مقاطعاتها وزارة تتألف من نظارات الداخلية والمالية والمعارف والتجارة والزراعة والنافعة، ووزارة عليا تدير المملكة بأجمعها أي أن في ألمانيا ستاً وعشرين وزارة، وستة وعشرين مجلساً نيابياً يشتغلون للأمور المحلية، وأما صيانة الملك العام فيشتغل بها المجلس النيابي العام مع الوزارة العليا.

والولايات المتحدة: لكل مقاطعة وزارة تتألف من نظارات الداخلية والمالية والعدلية والأمن العام والأوقاف والمعارف والنافعة. أي أن في الولايات المتحدة سبعاً وأربعين وزارة خاصة تعمل مع سبعة وأربعين مجلساً نيابياً. والوزارة العليا تشتغل مع المجلس النيابي الأعلى في حفظ الدولة. هاتان صورتان تسير عليهما أكبر دول الأرض الأوروبية والأميركية، وعليهما تسير دول النمسا والمجر وسويسرا وأميركا الشمالية والجنوبية مع ما فيهما من الدول.

فالى اللامركزية أيها القوم بكل معانيها، كما وصفناها في منشورنا الأول، ثلاث وزارات خاصة ووزارة عامة، وإياكم والخدعة فتهزأ بكم جماعة العاصمة، فيمنحون الولاة توسيع المأذونية(٨٤) وهي أضر حالاً وشؤماً من طراز الحكم الحاضر، فنحن نشكو فعالهم وهم تحت مراقبة الاستانة. فكيف بهم إذا رفعت هذه المراقبة، فاياكم والخدعة، فتوسيع المأذونية ليس من

---

(٨٤) تعبير (توسيع المأذونية) استعملته الحكومة الاتحادية والاتحاديون قبل إعلان الدستور ليكون بديلاً عن اللامركزية. وقد ورد في الدستور أيضاً، ويعني منح الولاة والولايات صلاحيات إجرائية أكثر.

اللامركزية في شيء فتبقون بها إما تحت خرق الولاة أو استعباد الأجانب القريب، فقدموا لأنفسكم بأنفسكم مضاجع، فهذا اليوم ليس لكم ما بعده، فإلى تعزيز القوة بأيديكم ندعوكم وإلى إصلاح الإدارة بأنفسكم نناديكم، وإلا فالخطر على عزة العرب جسيم، وويل للذين يرون الموت الذليل فلا يتناصرون.

هذه بغية عصبتنا وأيدينا وقلوبكم، فالعرب لا يتنكرون للترك ما داموا ينصفونهم. أما إذا اغبرت وجوههم وأجابوا بالزخرف البراق فهنالك لكل شأن يغنيه. وقد أعذر من أنذر.

والصرخات الثلاث متتالية في فحواها، فأولاها موجهة إلى الحكومة العثمانية مذكرة بوجود العرب وقيمتهم في الدولة على أساس اللامركزية. وثانيتها موجهة إلى العرب منبهة محذرة حافزة على الحركة والمطالبة بما لهم من حقوق في الدولة على أساس اللامركزية أيضاً مع تنبيهها على أن العرب لا يتنكرون للترك، ولا يريدون الانفصال عنهم إذا ما تمتعوا معهم بالمساواة والشأن. وثالثتها منذرة منددة معددة بمواقف البغي مهددة ثورية، لأن الحكام لم يستجيبوا للمطالب. والمتبادر أن الصرخة الأولى والثانية كانتا قبل مؤتمر باريس، وفي ظروف نشوء حزب اللامركزية والمطالبة بهذا الأسلوب التي كانت بدأت قبل نشوء الحزب أيضاً.

أما الثالثة فقد كانت بعد مؤتمر باريس الذي انعقد في سنة ١٩١٣ وبعد حرب الطليان والبلقان. ويبدو منها أن الحكومة أخذت تقف من رجال الحركة موقف المراوغة والقمع معاً.

ـ ٥ ـ

٥ ـ الجمعيات الاصلاحية:

كان لدعوة حزب اللامركزية اثر غير يسير في بلاد الشام والعراق، وقد أخذت الصحف والألسنة ترددها، وكان ذلك في ظرف سقوط حكومة الاتحاديين وقيام حكومة معارضة لها برآسة أحمد مختار باشا. وكان من أركانها كامل باشا على ما ذكرناه قبل. وقد عينت هذه الحكومة والياً لبيروت جديداً بدلاً من الوالي الاتحادي اسمه أدهم بك، فبعث هذا تقريراً بما يدور على ألسنة الناس والصحف من اهتمام باللامركزية وتطلع اليها، فأصدرت الحكومة أمراً إليه ثم إلى ولاة البلاد العربية الأخرى وغيرها تأمرهم بأن يطلبوا من أعيان البلاد ومستنيريها تنظيم وتقديم لوائح بمطالبهم. فكان ذلك وسيلة لقيام جمعيات باسم **(الجمعيات الإصلاحية) في بيروت ودمشق وحلب وبغداد والبصرة والموصل**. وقدم كل منها لوائح بالاصلاحات المطلوبة. ولقد كانت بيروت هي المسرح الأقوى والأبرز لهذه الحركة، بحيث صارت جمعيتها هي المذكورة أكثر دون غيرها في صدد ذلك. وكان قيامها في أواخر سنة ١٩١٢ وأعضاؤها خليطاً من أعيان المسلمين والنصارى. وممن ذكرت المصادر أسماءهم:

سليم علي سليم، وأحمد مختار بيهم، وخليل زينية، والدكتور أيوب ثابت، والشيخ أحمد حسن طبارة، والبير سرسق، واسكندر عازار، ورزق الله أرقش، وسليم طبارة، وكامل

الصلح ، ومحمد إبراهيم طبارة، وجان بطرس، ويوسف الهاني، ومحمد الفاخوري، وبترو طراد، وجميل الحسامي، وحسن الناطور، وحبيب فرعون، وفؤاد حنتس، وسليم بواب، وحنا نقاش. وكان هؤلاء لجنة منتخبة من اجتماع عام عقده اعيان الطوائف الإسلامية والمسيحية، وأناطوا بها وضع لائحة بالإصلاحات المطلوبة، وقد وضعت اللجنة اللائحة، وعقد الأعيان اجتماعاً عاماً ثانياً صودق فيه عليها، وأناط المجتمعون باللجنة تقديمها وملاحقتها. وكان الاجتماع العام يعقد باذن الحكومة في دار المجلس البلدي. وقد عقد الاجتماع الثاني الذي صودق فيه على اللائحة يوم الجمعة المصادف لتاريخ ٢٣ صفر ١٣٣١ ـ ٣١ كانون الثاني ١٩١٣. وهذه نصوصها:

١ ـ تقسم ادارة الولاية إلى قسمين: الأول هو المشتمل على الأعمال المتعلقة بكيان السلطنة وشؤونها الأساسية وهي المسائل الخارجية والعسكرية والجمارك والبوسطة والتلغراف وسن القوانين ووضع المكوس. والثاني هو المشتمل على الأعمال المحلية المتعلقة بشؤون الولاية الداخلية الخاصة. فكل ما يتعلق بالقسم الأول منوط تقريره واجراؤه بالحكومة المركزية وكل ما يتعلق بالقسم الثاني منوط تقريره بمجلس الولاية العمومي.

٢ ـ للوالي صفتان قانونيتان: الأولى تمثيل الحكومة المركزية، وبهذه الصفة يتولى إجراء جميع الأعمال المتعلقة بالقسم الأول طبقاً لقرارات الحكومة المركزية. والثانية تمثيل حكومة الولاية التي يرأسها. وبهذه الصفة يتولى تنفيذ جميع الأعمال المتعلقة بالقسم الثاني طبقاً لقرارات المجلس العمومي، أما حقوق الوالي ووظائفه فهي:

١) تنفيذ قرارات المجلس العمومي.

٢) الاعتراض على هذه القرارات في نطاق الشروط الآتي ذكرها.

٣) الاطلاع على لوائح المشاريع التي تعدها لجنة المجلس العمومي لابداء ملحوظاته عليها قبل تقديمها للمجلس.

٤) تعيين المتصرفين والقائمقامين والمديرين بعد عرض أسمائهم على الحكومة المركزية وفقاً لنظام يضعه المجلس العمومي.

٥) تعيين الطلاب الممتحنين الذين تعرض على لجنة الامتحان اسماؤهم لأجل التوظيف.

٦) دعوة المجلس العمومي في الميعاد المعين للاجتماع مع جواز دعوته إياه لاجتماع فوق العادة بمصادقة لجنة المجلس أو مجلس المستشارين.

٣ ـ يؤلف في الولاية مجلس عمومي من ثلاثين عضواً ينتخب نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من غير المسلمين لمدة أربع سنوات، وهم ينتخبون منهم رئيساً لهم بالاقتراع السري، أما سائر الانتخابات العمومية فتبنى على قاعدة التمثيل النسبي العددي في دوائر الانتخابات.

وحقوق المجلس ووظائفه هي :

١) تقرير جميع أعمال الولاية الداخلية والمذاكرة في ما يعرض عليه من قبل الوالي أو لجنة المجلس أو عشرة من أعضائه.

٢) وضع الأنظمة الداخلية بشرط أن لا تمس شؤون السلطة الأساسية.

٣) عقد القروض التي لا تتجاوز قيمتها نصف الواردات المختصة بالولاية. أما القروض التي تتجاوز قيمتها هذا المبلغ فيلزم لها مصادقة الحكومة المركزية.

٤) إعطاء رخص لتأليف شركات مساهمة (أنونيم) عثمانية للمشاريع العمومية النافعة للتجارة والصناعة والزراعة وسائر الشؤون العمرانية داخل الولاية على شرط أن لا تتضمن امتيازاً، أما المشاريع التي تتضمن امتيازاً فيجب مصادقة الحكومة المركزية عليها، وتخول هذه الشركات الشخصية المعنوية بمعنى أن يكون لها حق التملك.

٥) تقرير الضمائم الكسورية على المكوس[٨٥].

٦) تقرير رواتب موظفي ومستشاري الدوائر التي هي بإدارة حكومة الولاية.

٧) حق استيضاح الوالي[٨٦] وطلب عزله، ولا يتدخل المجلس العمومي في الشؤون السياسية العامة مطلقاً.

٤ ـ قرارات المجلس العمومي نافذة ما لم يعترض عليها الوالي بمصادقة مجلس المستشارين في خلال أسبوع من تاريخ تبليغه إياها، فيعيد المجلس النظر في قراره، وإذا أصر عليه بأكثرية ثلثي الأصوات يكتسب القرار الصفة القانونية القطعية وعلى الوالي تنفيذه.

٥ ـ ينتخب المجلس العمومي بالاقتراع السري لجنة من أعضائه، واحد منهم من كل لواء واثنان من مركز الولاية لسنة واحدة، فتجتمع بادارة مستشار المجلس العمومي، أما وظائف اللجنة فهي :

١) مراقبة تنفيذ قرارات المجلس.

٢) درس المشاريع اللازمة للولاية وإعداد لوائحها.

٣) تعيين مهندسين اختصاصيين للاستعانة بهم في أعمالها.

٤) حق الاعتراض على الممتحنين الذين تقدم لجنة الامتحان اسماءهم إليها قبل عرضها على الوالي.

---

(٨٥) المقصد من هذا هو إضافة ضمائم مئوية على الجمارك والضرائب المركزية لصالح ميزانية الولاية.

(٨٦) حق سؤاله عن تصرفاته وعن أعمال الحكومة التي هي تحت إدارته.

٥) دعوة المجلس العمومي لاجتماع فوق العادة، باتفاق ثلثي اعضائها ومصادقة مستشار المجلس.

٦ ـ الوالي وحاكم الشرع في مركز الولاية والدفتردار[٨٧] ورئيس مديري الرسوم[٨٨]. ورئيس مديري البرق والبريد، وقائد الجندرمة وضباطها تعينهم الحكومة المركزية على شرط معرفتهم اللغة العربية معرفة تامة، ويستثنى من هذا الشرط والي الولاية لمدة خمس سنوات، من تاريخ وضع مواد هذه اللائحة موضع الإجراء.

أما بقية الموظفين فينبغي أن يكونوا من أهالي البلاد، ويجري تعيينهم على الوجه الآتي:

يمتحن طالبو الوظيفة أمام لجنة مؤلفة من مستشار ورئيس الدائرة التي يطلبون الدخول فيها، وتقدم لجنة الامتحان اسمي الممتازين منهم إلى لجنة المجلس العمومي وبعد مصادقتها، يعرضان على الوالي فيعين أحدهما، ولدى تعيينه يبلغ الوالي اسمه للنظارة المنسوب إليها فيتقيد في سجلها محافظة على حقوق ترقيته وتقاعده. أما رؤساء العدلية فيعينون وفقاً لنظام يضعه المجلس العمومي. والموظفون المعينون من قبل الولاية عدا رؤساء العدلية تكف أيديهم بناء على طلب المستشار ومصادقة مجلس المستشارين ،وقرار كف اليد في كلتا الحالتين ينفذه الوالي، وللموظف المكفوفة يده الحق بمراجعة الوالي في خلال سبعة أيام من تاريخ تبليغه ذلك إذا كان موظفاً في مركز الولاية وخمسة عشر يوماً إذا كان خارج المركز، فيحيل الوالي دعواه إلى مجلس المستشارين ليحكم في وجوب العزل أو عدمه. والموظف الذي يحكم مجلس المستشارين بعزله لا يجوز استخدامه في دوائر الحكومة ولا يعطى معاش معزولية. أما محاكمة المعزول جزائياً فتجري في المحاكم العدلية بمذكرة خاصة من المستشار إلى المدعي العمومي. وأما موظفو الحكومة المركزية فتكف يدهم بطلب المستشار ومصادقة الوالي الذي يطلب عزلهم بعد حكم مجلس المستشارين عليهم من النظارة المنسوبين إليها. وينبغي أن يعين خلفهم في مدة ثلاثين يوماً. وأما المفتشون والمستشارون فيكون عزلهم بطلب الوالي من مجلس المستشارين وبحكم صادر من هذا المجلس. وأما الوالي فيكون عزله بناء على قرار المجلس العمومي بأكثرية ثلثي مجموع أعضائه فتعين الحكومة المركزية خلفه في مدة أربعين يوماً.

٧ ـ تعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب، على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث : العربية أو التركية أو الافرنسية، وذلك للدوائر الآتية في مركز الولاية وهي : الجندرمة، والمالية، والبوسطة، والتلغراف، والجمرك، وتعين أيضاً مفتشاً عاماً لكل لواء من الولاية يخول حق تفتيش أية دائرة كانت في اللواء ويكون مرجعه مستشار مركز الولاية الداخلة تلك المسألة المراجع فيها ضمن دائرة اختصاصه، ويعين المجلس العمومي من الدول التي ترضاها الحكومة المركزية مستشارين للدوائر الآتية وهي مجلس الولاية العمومي والعدلية،

(٨٧) هذا هو لقب رئيس الدائرة المالية في الولاية.
(٨٨) الراجح أن المقصود هو رئيس الرسوم الجمركية.

والنافعة[٨٩]، والمعارف، والبلدية، والبوليس، ويلبس هؤلاء المستشارون الشعار العثماني[٩٠] في أوقات العمل، أما مدة الاستشارة والتفتيش فخمس عشرة سنة ويمكن تجديدها.

٨ ـ واردات الولاية على نوعين، احدهما يعود برمته إلى مركز السلطنة، وهو حاصلات الجمارك والبوسطة والتلغراف والبدلات العسكرية، والآخر هو عدا ما ذكر من الواردات فيعود برمته إلى الولاية.

٩ ـ ينظم المجلس العمومي ميزانيته السنوية فيدخل فيها رواتب جميع الموظفين والمستشارين عدا موظفي ومستشاري الجمارك والبوسطة والتلغراف.

١٠ ـ تسلم الأراضي المحولة[٩١] والأملاك الأميرية الداخلة ضمن الولاية إلى المجلس العمومي وتكون برمتها ملكاً للولاية.

١١ ـ لا علاقة للادارة ولا للمجلس العمومي بالأوقاف، بل يسلم كل وقف إلى مجلس الملة المنسوب إليها لاستخدامه بموجب قانونها، وبناء عليه جميع أوقاف المسلمين في الولاية تسلم إلى مجلس ملتهم أسوة بباقي الطوائف.

١٢ ـ البلديات مستقلة بجميع أعمالها، ولها الحق بوضع الرسوم البلدية بمصادقة المجلس العمومي دون مراجعة الحكومة المركزية.

١٣ ـ يؤلف مجلس يسمى مجلس المستشارين، ويكون أعضاؤه رئيس المجلس العمومي أو من ينيبه عنه من أعضاء المجلس وجميع مستشاري الدوائر في مركز الولاية. أما وظائف هذا المجلس فهي:

١) تفسير مواد النظام الذي تضعه الحكومة المركزية كدستور حكومة الولاية ومجلسها العمومي.

٢) تفسير القرارات والأنظمة التي يضعها المجلس العمومي.

٣) النظر والحكم في وجوب عزل الموظف وعدمه.

٤) النظر والحكم بناء على طلب الوالي أو أحد المستشارين في كل خلاف في الرأي يقع بين أحد المستشارين والمجلس العمومي أو إحدى لجانه، أو أية دائرة كانت، ويكون حكمه مبرماً، ويرأس هذا المجلس والي الولاية: وينوب عنه في غيابه رئيس المجلس العمومي أو مستشار هذا المجلس.

---

(٨٩) هذه المصلحة هي التي يطلق عليها اليوم اسم دائرة الاشغال.

(٩٠) الراجح أن المقصود بذلك هو الطربوش، فليس للعثمانية شعار متميز غيره.

(٩١) هي الأراضي التي كانت ملكاً للسلطان عبد الحميد وصودرت لحساب الدولة، وتسمى أيضاً «الأراضي المدورة».

١٤ ـ إن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية في جميع المعاملات داخل الولاية، وتعتبر أيضاً لغة رسمية كاللغة التركية في مجلس النواب والأعيان.

١٥ ـ تخفض الخدمة العسكرية إلى سنتين، وتقضى الخدمة أيام السلم في الولاية. وتنزل قيمة البدل النقدي للنظامية إلى ثلاثين ليرة عثمانية وللرديف والاحتياط إلى عشرين ليرة(٩٢).

والزيادة البارزة بين محتويات هذه اللائحة ومنهج حزب اللامركزية الذي أوردناه قبل هي مسألة المستشارين الأجانب. ولقد كانت هذه المسألة على ما نتذكره موضوع نقد وتجريح من الحكومة الاتحادية التي عادت إلى الحكم بعد قليل من تقديم اللائحة، ومن مواليها من الفئة العربية الثالثة، وقد اتهموا العناصر المسيحية في الجمعية الاصلاحية بأنهم دسوا هذه المسألة بايعاز من فرنسة الطامعة بالبلاد السورية، ويمكن أن يقال رداً على هذا الزعم ان المسلمين في الجمعية ليسوا أغبياء، وغيرتهم الدينية والوطنية وكفاءتهم العقلية كانت معروفة، بحيث يجعلنا هذا نرجح أنهم وافقوا على المسألة لما رأوا من فائدتها، وبعد أن أحاطوها بقيود تنفي ضررها وخطرها، وأن ذلك كان بسبب ما هو ظاهر من قلة أو انفقاد الكفاءات الفنية والعلمية والأساليب الناجحة المفيدة للادارة، في الحكومات الغربية وروح النظام والتنظيم السائدة عليها. ولقد كانت الحكومة المركزية تستعين لهذه الأسباب بعدد كبير من المستشارين الأجانب، في إصلاح وتنظيم بعض دوائرها، فلم يكن هذا بدعاً، ولا ينقض هذا فيما نراه أن تكون العناصر المسيحية في الجمعية الإصلاحية قد ساقوا ذلك وحبذوه لمآرب مريبة كما قد تدل عليه وثيقة صادرتها السلطات التركية فيما صادرته من القنصلية الافرنسية في بيروت بعد دخول الدولة الحرب. وقد أورد كتاب (إيضاحات) هذه الوثيقة، وذكرها جمال باشا في مذكراته أيضاً. وقد تضمنت فيما تضمنته أن النصارى اشتركوا في تنظيم اللائحة الإصلاحية مع المسلمين، بقصد إغفالهم وإغفال الحكومة، وإتاحة الفرصة لإيجاد رقابة أوروبية على إدارة الحكم، ولا نرى هذا القول مستلزماً أن يكون المسلمون في الجمعية قد استغفلوا فعلا(٩٣).

---

(٩٢) مواد اللائحة الإصلاحية منقولة من كتاب ثورة العرب الكبرى، طبعة الرائد العربي في حماة. والكتاب من تأليف عضو جمعية عربية سرية، وكتب في سنة ١٩١٦، وقد أشرنا إليه في مناسبات سابقة.

(٩٣) الوثيقة خطيرة في حد ذاتها، وتدل فعلاً على ما كان يضمره مقدموها، أو النصارى الذين زعم مقدموها أنهم يتكلمون باسمهم، من شعور بالغبن والقهر من الحكم التركي والتعصب الإسلامي، ومن تطلع إلى انبساط حماية افرنسية على البلاد السورية أو لبنان. والوثيقة هي كتاب مرسل من قنصل فرنسة في بيروت، بتاريخ ١٨ مارس ١٩١٣، إلى السفارة الافرنسية في الآستانة، ووزارة الخارجية الافرنسية، مطوى فيه مذكرة موقعة من ميشيل التويني، ويوسف الهاني، وبترو طراد، وأيوب ثابت، ورزق الله أرقش، وخليل زينية، وبعض هؤلاء من لجنة الجمعية الإصلاحية البيروتية، وبعضهم من الذين شهدوا الاجتماعات العامة على الأرجح. ويقولون فيها فيما يقولون: إن الموقعين عليها يذكرون ما يقاسيه النصارى العثمانيون من ظلم الترك، وتعصب المسلمين، وازدياد ذلك بعد حرب البلقان، لأن المسلمين اعتبروها حرباً صليبية ضد الاسلام، وإنهم ـ أي مقدمي المذكرة ـ يعدون فرنسة حامية لهم ويتطلعون إليها. وإنهم مع معرفتهم أن اللائحة الاصلاحية قد وضعت بتلقين الحكومة، فإن نصارى بيروت وافقوا على الاشتراك مع المسلمين في تنظيمها لخدع الحكومة العثمانية من جهة، وادخال أساس لوضع رقابة =

وتذكر المصادر في صدد المطالب الإصلاحية بالنسبة لدمشق، أن واليها ناظم باشا دعا بواسطة رئيس البلدية لفيفاً من أعيانها لانتخاب لجنة لتنظيم لائحة إصلاحية بناء على أمر العاصمة، وأن الدكتور عبد الرحمن شهبندر طلب أن تكون اللجنة ممثلة للأمة بالانتخاب وليست معينة تعييناً. وأن عبد الوهاب الانكليزي ورشدي الشمعة وشكري العسلي ناصروه في طلبه. ولكن الطلب لم يلب حيث أصر الوالي على رأيه، فاجتمع نحو (١٦٠) شخصاً من أعيان الشام ومستنيريها في البلدية واختلفوا، حيث كانت اهواؤهم مختلفة. منهم من كان مع الاتحاديين المناوئين للامركزية والأحزاب الداعية اليها. وكان يتزعمهم عبد الرحمن اليوسف، ومنهم من كان مع حزبي الحرية والائتلاف واللامركزية، وكان يتزعمهم الأربعة المذكورون. ونتيجة لذلك وضعت لائحتان وقدمتا للحكومة، وكانت لائحة الائتلافيين واللامركزيين متطابقة إجمالاً مع اللائحة البيروتية.

وتذكر المصادر بالنسبة للعراق أن طالب النقيب زعيم البصرة كان رائد الحركة الإصلاحية فيه، وقد بادر إلى تأسيس جمعية إصلاحية وضعت لائحة متطابقة في أسسها مع اللائحة البيروتية، ووقعها ثلاثمئة شخص من رجال البلد (البصرة) وقدمت للحكومة. أما في بغداد فالمصادر تذكر أن نادياً باسم (النادي العلمي) بزعامة مزاحم الأمين الباجه جي وبالتضامن مع طالب النقيب، قدم بدوره لائحة باسم بغداد متطابقة هي الأخرى مع اللائحة البيروتية. وقد كان لفيف كبير من الواعين البغداديين منضوين في النادي، وأصدر جريدة باسم (الدستور) كانت تدعو إلى تأييد الحركة الاصلاحية.

أوروبية على جميع أقسام الإدارة من جهة أخرى، حتى يتمركز عند الأهالي بأن الاصلاحات في البلاد العثمانية لا يمكن أن تتم إلا بمساعدة أوروبا. غير أن هذه الإصلاحات لو تم إجراؤها ولو بمساعدة أوروبا فإنها لا تحل المسألة، ولا تحقق الرغائب الحقيقية لنصارى سورية، لأنهم مرتبطون مع فرنسة بصورة لا تقبل الانفكاك، ولا ينسون في وقت ما مدنيتها ودهاءها وشفقتها واهتمامها بهم، وإن أكبر آمالهم أن تستولي فرنسة على البلاد الشامية.

وننبه على أمر هام، وهو أنه لم ير اسم أحد من الموقعين على المذكرة في عداد المنتسبين إلى حزب اللامركزية. ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان وجود مقدمي المذكرة ورفاقهم في الجمعية الإصلاحية، ليس من شأنه أن يعكر صفو الروح القومية المخلصة التي كانت تحدو القوميين العرب، وبخاصة مسلميهم، إلى الحركة الإصلاحية، ومطالبهم العربية القومية.

ولقد ذكر يوسف الحكيم في كتابه: بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ص ٢٣٣ - ٢٣٤، ان بين الوثائق المضبوطة من القنصلية الافرنسية في بيروت، مضبطة موقعة من أربعين شخصاً من كرام السوريين واللبنانيين، أمثال شفيق المؤيد العظم، وميشيل تويني، ويوسف الهاني، والأخوين فيليب وفريد الخازن، والشيخ أحمد طبارة، ونخلة مطران، يطلبون فيها حماية فرنسة ومعونتها في سبيل حصول سورية على استقلالها، باعتبارها جزءاً عربياً لا يربطه بالدولة العثمانية سوى تغلب العنصر التركي عليه، مع المحافظة على استقلال لبنان، وتوسيع حدوده. فكان ذلك مما جعل السلطات التركية تعتقل الموقعين، وتسوقهم إلى سجون عاليه ودمشق. والوثيقة المنشورة في كتاب ايضاحات ليس فيها من هؤلاء إلا ميشيل تويني ويوسف الهاني، ولو كان هناك وثيقة أخرى لكان واضعو كتاب ايضاحات أوردوها. بحيث يمكن القول ان الأسماء التي ذكرها يوسف الحكيم، هي من ذاكرته ومسموعاته، وليست مطابقة للواقع. ويوسف الحكيم يذكر أن الذي دل السلطات التركية وجمال باشا على مخبأ أوراق القنصلية الافرنسية في بيروت، هو فيليب زلزل كبير تراجمة هذه القنصلية.

وليس في المصادر ما يساعد على تسجيل ما كان من نشاط في هذا الصدد في الولايات العربية الأخرى ومتصرفياتها الممتازة. ولقد كان أمر الحكومة المركزية، بطلب لوائح إصلاحية من أعيان البلاد ومستنيريها عاماً، فلا بد من أن ولاة الولايات العربية الأخرى ومتصرفيها قد نفذوا الطلب ولا بد من أن تكون هذه البلاد قد حذت حذو شقيقاتها فقدمت بدورها لوائح إصلاحية مماثلة أو مقاربة. ولا سيما أن الحركة الإصلاحية والدعوة اللامركزية كانت نشيطة. وكانت صحف مصر وبيروت الواسعة الانتشار نوعاً ما تنشر أخبارها وبيانات عن لائحة بيروت التي كانت جامعة مانعة في بابها.

على أن الجمعيات الاصلاحية لم تكد تنتظم وتقدم لوائحها حتى كانت حركة الانقلاب الاتحادي المضاد لوزارة المعارضة قد قامت، ونجحت وأسقطت هذه الوزارة وأقالت وزارة اتحادية جديدة على ما شرحناه قبل.

وسارعت هذه الوزارة فأقالت ولاة الولايات العربية الموالين للوزارة المعارضة وبدلتهم بولاة موالين لها. وأصدر وزير الداخلية الاتحادي الجديد عادل بك، أمراً بأن الاصلاحات ستكون على أساس المنهج السابق المُبَلَّغ، أي توسيع صلاحيات الولاة الذي سمي في المادة (١٠٨) من الدستور بقاعدة توسيع المأذونية، وأوجبت وضع نظام خاص لها. وقد وضعت الحكومة الجديدة بعد قليل من هذا التبليغ نظاماً ونشرته، ولم يكن فيه شيء مهم من مطالب العرب وتطلعاتهم. فقد نص على إنشاء مجلس عمومي في الولاية أعضاؤه منتخبون انتخاباً ضيقاً ومهمته استشارية، ولا تتناول مع ذلك إلا أموراً محلية ثانوية مثل فتح وإنشاء الطرق والمعابر وتعميرها، وإصلاح وتجفيف المستنقعات، وإعطاء الامتياز بالترامويات، وإنشاء المزارع والبساتين، وإسالة المياه الصالحة للشرب، وتشغيل عربات الأوتوبوس والأومنيبوس الخ. ومنح الوالي فيه سلطة فسخه وعدم التقيد بقراراته. وجعل للوالي صلاحيات واسعة في كل شؤون التعيين والعزل. وقد نص على جواز استعمال اللغة المحلية في الاستنطاق والمرافعات والإعلانات والعرائض، وعلى جواز التعليم بها في المدارس الابتدائية والرشدية مع بقاء تعليم اللغة التركية في هذه المدارس إجبارياً. وبقاء التعليم بهذه اللغة في المدارس الإعدادية والسلطانية بالنسبة لجميع المواد. . .

ولقد كان النظام مخيباً لآمال طلاب الإصلاح، ولكن الحكومة الاتحادية لم تعبأ بهم، وحاولت إثارة ضجة دعائية حول النظام من جهة، وسلكت طريق الشدة مع طلاب الإصلاح من جهة أخرى. ولقد أرسل وزير الداخلية بتاريخ ١٣٢٨/٢٨ - سنة ١٩١٣ كتاباً أورد كتاب (إيضاحات) نصه، وجاء فيه: (إن ما تم من تعديلات، هو ما هدفت إليه اللائحة الإصلاحية. وان الواجب على ذوي الحجى من الرعية أن يساعدوا الدولة ويعاضدوها، ويقنعوا الناس بحسن نواياها الإصلاحية، وأن الواجب على الولاة إنذار ومعاقبة كل من يصدر منه أقل عمل يدل على الإخلال بالنظام ويؤدي إليه في هذا الوقت الحرج، والاهتمام بذلك أكثر من كل وقت لتأمين السكينة والنظام).

وكان والي بيروت الجديد أبو بكر حازم أول من تصدى للتنفيذ والحركة، لأن حركة بيروت

كانت الأولى والأقوى. وقد أذاع بيانا جاء فيه:

(بما أن الجمعية التي تشكلت منذ شهرين ونصف من بعض الذوات في بيروت باسم (الجمعية العمومية الإصلاحية) والتي أعطي لها إيصال[٩٤] من مقام الولاية، كان تشكيلها مغايراً لقانون الجمعيات، فضلاً عن أن بعض المطالب التي أخذ هؤلاء يطالبون بها باسم الإصلاحات هي أيضاً منافية لأحكام القانون الأساسي «الدستور»، فقد صار من الطبيعي، بناء على ذلك، منع دوام واجتماع هذه الجمعية. وقد شرع بتطبيق قانون إدارة الولايات الذي نظمته الحكومة السنية وفقاً لقاعدة توسيع المأذونية وتفريق الوظائف[٩٥]، فجاء جامعاً الإصلاحات المطلوبة ببيروت وسائر الولايات العثمانية، وبناء عليه منع الجمعية المذكورة). ثم أمر بغلق نادي الجمعية.

ولقد كان لهذا البيان والعمل وقع شديد، فأذاعت الصحف الإصلاحية البيان وحده مطوقاً بالسواد، وخلت من أي كتابة أخرى غيره. وذهب وفد من الجمعية إلى مقابلة الوالي فقابله بفتور وتجهم، فأثار ذلك هياجاً في المدينة أدى إلى إضراب عام. وأبرق جمهور من مختلف الطبقات برقية احتجاجية إلى الصدر الأعظم ووزير الداخلية وصحف الاستانة بهذا النص: (نحن الموقعين بذيله ملاكين وتجار وصيارف وأطباء ومحامين وصحفيين وأدباء، ومن كافة طبقات الشعب، وجميع الطوائف في بيروت، نعرض لفخامتكم أن الحكومة المحلية اصدرت أمراً بحل الجمعية العمومية الإصلاحية، مع أنها شكلت بصورة شرعية وحصلت على إيصال من الوالي السابق اعترافاً بقانونيتها، وأن مطالبها ليست مغايرة للقانون الأساسي، بل إنها مجرد حاجيات السكان، وجاءت إظهاراً لرغائب الأهالي، لذلك نحتج على هذا العمل بكل قوانا). وكان عدد الموقعين عليها ١٣٠٢. ثم اذاعت الجمعية الإصلاحية البيان القوي الناضج التالي:

(إن الخطوب التي ألمت بالوطن العثماني فخفضت من عظمته وذهبت بشطره، لم يكن لها سبب غير التمادي في سوء الإدارة والإصرار على الخطأ في السياسة، ولما تفاقم هذا الأمر واستولى الخوف على قلوب المخلصين من رجال الدستور في عهد الوزارة السابقة من استطالة الأطماع إلى بقية الأطراف المسلمة حتى الآن، بادروا إلى الرجوع عن الغلط، وهموا بسلوك الطريقة المثلى في الحكم، ونشر الاصلاح الإداري في كل قطر من أقطار المملكة سداً للذريعة، وقطعاً للأسباب التي تمسك بها أصحاب الأغراض من الأجانب).

ولقد كان لبيروت فضيلة السبق إلى التصريح بحقيقة الحال، فلقي تصريحها من رجال الوزارة آن ذاك آذاناً مصغية وقلوباً واعية، وبذلك الباعث ولهذا الغرض تألفت جمعيتنا بانتخاب المجالس الملية ووضعت برنامجها، وأخذت الرخصة القانونية وعقدت اجتماعاتها الأولى في دار المجلس البلدي على مرأى من الحكومة ومسمع. فمصادرة الحرية الاجتماعية وخنق الفكرة

---

(٩٤) كان انشاء الجمعيات يتم وفقاً للقانون بتقديم نظامها، واستلام ايصال (علم وخبر) بذلك.

(٩٥) تعبير (تفريق الوظائف)، متمم لنظام توسيع المأذونية في إدارة الولايات، حسب ما جاء في المادة (١٠٨) من الدستور. وقد شرحنا معناه ذيلاً في سياق ايرادنا مواد الدستور سابقاً.

الإصلاحية على النحو الذي جرى عليه حضرة الوالي بحل الجمعية الإصلاحية، فضلاً عن أنه مناف لأحكام القانون الأساسي، فهو يعتبر بنظر العالم المتمدن ضغطاً على الاستقلال الشخصي وحرية الفكر. ان الجمعية الاصلاحية في بيروت جمعية فكرية، لا جمعية إنقاذ بالقوة والعنف، فعلى فرض مخالفة رأيها في الإصلاح لرأي الحكومة، فإنما يحق للحكومة عدم العمل برأيها، ولكن لا حق لها بمصادرتها، لذلك نحتج أمام الوطن والتاريخ على عمل حضرة الوالي هذا الذي عبث بمصلحة الوطن وخالف به أحكام الدستور ونيات جلالة السلطان).

وقد وقع على البيان السادة: كامل الصلح، واسكندر عازار، وعمر طبارة، والدكتور أيوب ثابت، وجان بطرس، وسليم سلام، ورزق الله ارقش، وأحمد مختار بيهم، وأحمد حسن طبارة، ويوسف الهاني، ومحمد الفاخوري، وبترو طراد، والبير سرسق، وحبيب فرعون، وحنا نقاش، وفؤاد حنتس، وسليم بواب، وجميل الحسامي، وحسن الناطور.

وأرسل حزب اللامركزية في مصر برقية احتجاجية إلى الصدارة بهذا النص: (مصادرة والي بيروت لجمعيتها الإصلاحية في عملها القانوني استبداد منكر، ومضيع لآمال الأمة، وموجب للتقاطع بين الهيئتين. تداركوا سوء العاقبة بعزل الوالي ونقض عمله، ولا تسنوا للشعب سنة سيئة بمخالفة القوانين).

وكان قد قام في باريس جماعة للدعوة إلى مؤتمر عربي، على ما سوف يأتي شرحه. بعد. فأبرقت بدورها إلى وزارة الداخلية بالبرقية التالية: (إن حل جمعية بيروت الإصلاحية يزيد ما خامرنا من الظنون بأن الحكومة تأبى أن تمنح العرب الإصلاح، إن تاريخ تركية منذ خمسين عاماً يثبت لنا أن الحكومة التركية في سعيها إلى الاحتفاظ بحقوق الأمة الحاكمة، قد خنقت بالقوة جميع الآمال والأماني التي تؤدي إلى ترقية الدولة وتقدمها متخذة سياسة جرت على الخلافة والسلطنة معاً أوخم العواقب. إننا نحتج بشدة على التدابير التي اتخذت ونحن على يقين بأن العراقيل والعقبات لن تستطيع أن تحول دون تقدم الشعوب وحقوقها. نتوسل إليكم أن تريحوا البلاد من اضطرابات وخيمة العواقب فتمنحوا العرب الإصلاح اللامركزي الذي لا غنى عنه لوجودهم).

غير أن الوالي لم يغير موقفه، وأيدته الوزارة في ذلك دون أن تعبأ بالاحتجاجات. وقد أغرى الوالي بعض الصحفيين الموالين مثل صاحبي جريدتي أبابيل والرأي العام[٩٦] وبعض الموالين المتزلفين من البارزين فأخذوا يهاجمون الاصلاحيين ويتهمونهم بالعمالة والخيانة والمآرب، وحاول الوالي إجبار الناس على فك الإضراب، وانذر بمعاقبة كل من يبقى محله مغلقاً، وأمر باعتقال بعض رجال الإصلاح بحجة التهييج منهم زكريا طبارة، واسكندر العازار، وسليم طبارة، ورزق الله أرقش. واذاع بلاغاً هذه ترجمته المنشورة (قد شرعت الولاية بتطبيق القانون الحاوي على المساعدات الواسعة ضمن أحكام القانون الأساسي الصادر بموجب الإرادة الشاهانية، والذي قصد به إجراء الإصلاحات في جميع الولايات العثمانية. إلا أن البعض في بيروت ابتدأوا بدافع من

(٩٦) هما حسين الحبال وطه المدور على ما في ذاكرتنا.

المنفعة الخاصة بتضليل الأهالي واستغلال غفلتهم لعرقلة معاملات الحكومة ومصالح العباد، وأولئك لا يزيد عددهم عن الخمسة أو الستة. وأشاعوا بين الناس أنهم إذا أقفلوا حوانيتهم يتخلصون من الخدمة العسكرية وبعض التكاليف، وشوقوهم لعدم فتحها. لا جرم بأن الذين يشتركون بحركة هؤلاء يستلزمون الجزاء الشديد بموجب مواد قانون الجزاء. والمقدمون منهم يكونون طبعاً مسؤولين عن مرتبي هذه الأعمال. وعليه نعلن الحقيقة، ونخطر العموم بأن يتجنبوا حركات كهذه توجب العقاب. ونوصيهم بمعاطاة اعمالهم كالعادة. مع الخلود إلى السكينة).

ثم أصدر أمراً بتعطيل الصحف الإصلاحية واستمر مشتداً بالمطاردة ضد من اعتبرهم مهيجين وموعزين، مما جعل العقلاء يعمدون إلى تلافي العواقب والاضرار بالناس، وذهب إلى الوالي وفد خليط منهم يلتمسون منه تسريح المعتقلين، ويعدونه بفك الاضراب، فقبل منهم. وحينئذ أذاع وجيها المسلمين والنصارى وهما (محمد بيهم) و (يوسف سرسق) هذا البيان:

(أيها المواطنون الشرفاء: نرجوكم باسم الإنسانية وحرمة الوطن المقدس أن تعودوا إلى أعمالكم وتفتحوا مخازنكم. وهكذا تكونون قد أعربتم عن وطنيتكم الحقيقية وعن كونكم عثمانيين صادقين، وعن طاعتكم لحكومتكم). وظاهر أنه ليس في البيان تراجع وإنما هو إذعان للقوة القاهرة. وقد استجاب الناس وفكّوا الإضراب وسرحت الحكومة المعتقلين، ووقفت حركة الإصلاح في بيروت عند هذا الحد، لتتجدد عبر المؤتمر العربي الذي انعقد في باريس بعد قليل، حيث كان بعض رجال هذه الحركة البيروتيين أركاناً لهذا المؤتمر على ما سوف يأتي شرحه.

ولقد منيت الحركة الاصلاحية في دمشق بما منيت به حركة بيروت، وانتهت إلى نفس النهاية على يد واليها الجديد عارف المارديني الذي استعمل الشدة والسياط، واعتقل بعض المتحمسين، وعطل الجرائد الداعية إلى الإصلاح. وقد وجد رجال الإصلاح السوريون في مؤتمر باريس متنفساً مع ذلك لمواصلة حركتهم ونشاطهم أسوة برجال الإصلاح البيروتيين.

وبالمناسبة نسجل أن عارف المارديني هذا كان ينتمي إلى الحركة العربية وكان من طلاب الحقوق العربية، واندمج في جمعية الإخاء العربي، وتظاهر بالانفعال بالتيار السياسي القومي مع أركان القوميين المتحمسين، ثم قفز إلى ناحية الاتحاديين فقبلوه واستعملوه سوطاً على أمته، مقابل الوظيفة التي باع نفسه بها، يقابل هذه الصورة صورة مشرقة لشكري العسلي، فقد عرضت عليه الحكومة الاتحادية في هذه الظروف متصرفية اللاذقية، فأبى وقال كلمته الشهيرة (نحن طلاب حقوق ولسنا طلاب وظائف). واستمر في نهجه القومي الذي كلفه حياته حيث كان في عداد الشهداء الذين شنقهم جمال السفاح.

ولقد استطاعت حركة الإصلاح في العراق وبخاصة في البصرة، أن تصمد أكثر من غيرها ردحاً ما بفضل حيوية ونفوذ زعيمها طالب النقيب وأنصاره والواعين الذين التفوا حوله وأيدوه، ثم بفضل نشاط وحيوية النادي العلمي في بغداد وجريدة الدستور.

ولما سقطت حكومة المعارضة الائتلافية التي شجعت على طلب الإصلاح وخلفتها الحكومة

الاتحادية، ونشرت قانون الولايات الذي لم يكن فيه استجابة جدية للاصلاحات المنشودة احتج الزعيم النقيب عليه، وطالب بتعديله، وأخذ يهدد وينذر بوخيم العواقب، إذا لم تستجب الحكومة إلى المطالب الإصلاحية المنشودة. وحذت جماعة النادى العلمي في بغداد حذوه، وأخذت جريدة الدستور تنشر المقالات الاحتجاجية، وأرسل الواعون في العراق برقيات احتجاجية تعبر عن خيبة أملهم إلى الوزارة في العاصمة وإلى صحف العاصمة وإلى الصحف العربية في بلاد الشام ومصر.

وفي كتاب (إيضاحات) نص منشور أذاعته، كما يقول، شعبة الجمعية الإصلاحية في البصرة، ولا يحمل تاريخاً، ولا يذكر الكتاب مصدراً، ونعتقد أنه صحيح، وهو قوي عنيف، ولا نعرف هل صدر حينما تأسست الجمعية أم حينما سقطت حكومة المعارضة وخلفتها الحكومة الاتحادية. ووقفت هذه الحكومة الموقف المعارض للمطالب الإصلاحية واللامركزية، لأن نصوصه قد تفيد هذا وقد تفيد ذاك مع القول إن هذه النصوص قد تفيد الأمر الثاني أكثر، لأنها تحمل على الحكومة الاتحادية وتندد بها وتهدد بالعنف إذا لم تستجب للمطالب العربية وتسلم بالحقوق العربية المشروعة، وفي المنشور ذكر اللامركزية. ومن المحتمل أن تكون جمعية البصرة قامت في أصلها فرعاً لحزب اللامركزية، ثم قدمت اللائحة الإصلاحية حينما طلبت ذلك الحكومة المعارضة، بحيث صارت مزيجاً من حزب اللامركزية والجمعية الإصلاحية. وقد مر في بحث حزب اللامركزية أنه كان للحزب فرع في البصرة، وفي المنشور شيء مهم آخر وهو الاشارة إلى فروع أخرى تشكلت في أنحاء العراق، وإن كانت الاشارة غير صريحة بما إذا كانت هذه الفروع هي فروع للحزب أم فروع للجمعية الإصلاحية.

وهذا نص المنشور:

سلام عليك أيها العثماني المغصوب الحق، سلام عليك أيها الجندي الغيور الذي إذ وقفت نفسك للموت في سبيل الذود عن الدين والوطن وشرف دولة الأخلاق، ها نحن نمد يدنا ليدك نصافحك مصافحة الأخ الشقيق لأخيه المخلص، لا فرق عندنا بين العربي والكردي والتركي. تجمعنا وإياك الجامعة العثمانية، تضمنا أرض واحدة، وتعلونا سماء واحدة، تحت راية الهلال المخصوص بالخلافة الإسلامية، راجين منك الاصغاء لخطابنا هذا والتأمل فيه. إن نفراً لا يتجاوزون عدد الأصابع من الرعاع تغلبوا على هذه الدولة أيدها الله، وغصبوا زمام حكمها، وتسلطوا على مقدرات الأمة والحكومة، جهلاء وأسافل وغير أمناء، سياستهم مضرة بالوطن ومصالحه، وغاية قصدهم اللعب بهذه الأمة كما يلعب الصبيان بالكرة، فنتج من سوء إدارتهم وسوء نيتهم وخبث سياستهم غرق الدولة بالديون وشتات الممالك التي كان ثمنها مئات الألوف من الأسلاف الكرام بيد الأعداء، وبقاء البقية الباقية من البلاد تحت الخطر والتهديد، فضلاً عما هم مشتغلون الآن في بيعه منها علناً، بدون خشية ولا حياء. ولذلك فقد آذنتنا الأيام بشر العقبى وسوء المنقلب، أذهبوا من اليد البلغار والبوسنه والهرسك، وباع عميدهم وشريكهم حقي باشا قطعة

طرابلس الغرب مع بنغازي وما يتبعها[٩٧] ثم أعقبوا بتسليم سلانيك[٩٨]، تلك البلدة العظيمة بدون حرب في حين كانت تحتوي على ستين ألف جندي عدا أهلها. ولم يكتفوا بكل ذلك حتى انهم جعلوا الدولة غريقة بقدر خمسين مليون من الديون الجديدة عن يد صيرفهم الخاص جاويد[٩٩].

كل هذا ولم تشبع بطونهم، بل بدأوا الآن ببيع العراق تدريجياً، فصدقوا ملكية انكلترا على مسقط والبحرين وشبه جزيرة قطر التي هي قضاء عثماني، فإلى متى هذا الصبر الذي يعدونه ذلة، وهذا الحلم الذي يعتقدونه جبناً، فدفعاً لتخفيف هذه الويلات والمصائب القاهرة والمحاذير الجسيمة المهمة، تأسست في البصرة قوة عظيمة مركبة من كل نوع من الطبقات العثمانيين، ولها شعبات مهمة في أنحاء العراق وبلاد الكرد وفي القطر المصري وفي الأناضول[١٠٠]، ومقاصدنا أن لا يباح للأجانب امتيازات في بلادنا توجب تعريض البلاد للاحتلال الأجنبي من حيث السياسة، وتقضي على ثروة الأهلين من الوجهة الاقتصادية، وأن لا يباع شبر واحد من بلادنا للأجانب، وإذا احتاجت الدولة لبيع الأملاك فلتقسمها اجزاء، وتضع أوراق مزايدتها في البلاد لمدة مناسبة ولا تبيعها إلا للأهالي والعشائر العثمانيين، وأن تمنح بلادنا اللامركزية الإدارية التي هي عبارة عن الإصلاحات المقتضية الضرورية لكي تبقى بلادنا عثمانية صرفة، تحت راية العثمانية ورعاية الخلافة العظمى إلى الأبد، لئلا يجري على مخدراتنا وأبنائنا ما جرى على غيرهم في الروملي[١٠١].

فهذا جل قصدنا، وإن قيامنا هذا ليس بعصيان على الدولة، بل صدق وإخلاص لدولتنا العلية، وحفظ لأوطاننا وأموالنا وأملاكنا، فمن لا يحافظ على وطنه لا يستطيع المحافظة على عرضه، وقد اتكلنا على الله مستمدين منه التوفيق.

وأنت أيها الجندي الباسل الذي أمسكت سيف الدولة، وأخذت على عاتقك حماية الدين والدفاع عن الوطن يجب عليك وعلى شهامتك وحميتك أن تؤمن إخوانك وأبناء وطنك بأنك لا تستعمل سيفك على أحد منهم إذا طلبوا حقوقهم المشروعة التي أنت شريك فيها، وهي لوطنك وإخوانك وأولادك، فتوكأ على سيفك وانتظر نتيجة الأمور، فإذا آن أوان وقوع الشدائد على طالبي الحق الشرعي تكون أنت ظهيراً لهم، واشدد أزر أخيك، فإن هذا السيف الذي قلدته لأجل أن تضرب به رقاب من يتجاوز على بلادك من الأعداء، ولا تقتل به أخاك الذي يفدي نفسه ونفيسه في

---

(٩٧) حقي باشا كان رئيس الحكومة الاتحادية في عهدها الانقلابي الجديد، بعد مقتل شوكت باشا، وكان قبل ذلك سفيراً للدولة في روما، ونذكر أنه سرت إشاعة بين الناس في وقتها أنه كان له ضلع مريب في المعاهدة التي انعقدت بين الدولة وإيطالية، وتخلت الدولة بها عن القطر الليبي لإيطالية.

(٩٨) كانت سلانيك من مدن الدولة المهمة في الروملي، فتنازلت الدولة عنها لليونان نتيجة لحرب البلقان، وكان ذلك في عهد الحكومة الاتحادية.

(٩٩) جاويد بك هو رجل الاتحاديين الاقتصادي. كان يتولى وزارة المالية في الحكومات الاتحادية، وكان يقال انه من (الدونمه) أي يهودي أصلاً، ولعل صفة (صيرفهم) تريد الاشارة إلى ذلك، ونذكر أنه عقد في ذلك الوقت قرضاً كبيراً للدولة من فرنسة وقيل انه حصل منه على عمولة كبيرة.

(١٠٠) ربما قصد بذلك فروع حزب اللامركزية، ظناً أنها انتشرت في جميع بلاد الدولة، لأن اسم الحزب «حزب اللامركزية العثماني»، وربما أريد الإشارة مع ذلك إلى حزب الحرية والائتلاف الذي كان له نفس المنهج.

(١٠١) حينما تم التخلي عن معظم بلاد الدولة في البلقان، تعرض الأتراك المسلمون للشقاء والتهجير والعدوان، والراجح أن هذا هو ما قصدت إليه العبارة.

صونها من أن ترفرف فوقها لا سمح الله راية غير الراية العثمانية التي أنت تحت ظلها، فإن فعلت عكس ذلك، وقتلت أخاك بتسويل الخائنين، فإنك مسؤول عند الله يوم لا ينفع مال ولا بنون، ولا ينقذ الإنسان من العذاب منصب ولا وسام. واعلم بأن القسم الأعظم من رفاقك في الجيش، في جميع أنحاء السلطنة، بهذا الفكر والرأي. وقد عاهدوا الله واقسموا بالشرف العسكري على ذلك. وإننا سنطالب بهذه الحقوق المشروعة أولاً، ونصر على ذلك بالحاح، فإن لم تعطنا هذه العصابة الشريرة والحكومة غير المشروعة مطالبنا باللين والاسترحام، سنطلب هذا الحق بالسيف والقنابل والله الموفق والمعين وعليه الاتكال.

ولقد نشب تشاد قوي بين سلطات ولايتي البصرة وبغداد الاتحادية وطلاب الاصلاح فيهما، وبخاصة بينها وبين طالب النقيب في البصرة حتى وصل الأمر إلى التآمر على اغتياله. واستطاع أن يصمد بل وكان أحياناً يقوى فتضطر السلطات إلى مسايرته والاستجابة إلى بعض شروطه ومطالبه. ونتيجة لذلك استطاعت حركة الإصلاح في العراق وبخاصة في البصرة، أن تصمد كما قلنا ردحاً أطول من أخواتها في بيروت ودمشق. غير أن الاتحاديين في النهاية استطاعوا فرض رأيهم وأنفسهم وإيقاف الحركة عن نشاطها. ولم يمنع هذا الزعيم النقيب وغيره من دعاة الإصلاح العراقيين مع ذلك من أن يندمجوا في حركة مؤتمر باريس الإصلاحية ويؤيدوها بدورهم كما فعل زملاؤهم الشاميون.

ومن الواجب أن نذكر أمراً وهو أنه كان لهذه الحركة التي باشرها أفراد معدودون في مراكز الولايات التي قامت فيها صدى غير يسير في قطاعات كثيرة من أبناء المراكز والمدن التابعة لها، حيث لاقت ارتياحاً وترحيباً وعطفاً ودعاية وحماساً في صفوف المستنيرين العرب من موظفين بل وفي السواد الأعظم. فالناس جميعهم كانوا يشعرون بغمط الحق العربي واللغة العربية والتوظف العربي ورغبة العسكريين الأتراك في العاصمة والخارج في التحكم والاستعلاء ويرون التجهم ضد طلب الحق والإنصاف، فكان تجاوب الناس مع هذه الحركة طبيعياً، وقد كان لنا ولاخواننا المنفعلين بالحركة العربية في نابلس مساهمة ومشاركة في كل ذلك، ونعتقد أن مثل هذا كان لأمثالنا في المدن العربية الأخرى غير المراكز. كما نعتقد أن هذا كان قوياً في المراكز نفسها، لأنها كانت تحس به عن كثب وممارسة.

وما كان من سيل البرقيات المرسلة إلى المؤتمر العربي الذي انعقد في باريس في حزيران ١٩١٣ لرفع الصوت العربي بالمطالبة بالإصلاحات والحقوق العربية، بعد ما بدا من السلطات التركية ما بدا من تجهم ومناوأة لهذه المطالب في داخل البلاد، مما سوف يأتي الكلام عليه بعد قليل مما يمكن أن يذكر كدليل حاسم على ذلك التأييد والترحيب العام، حيث أرسلت عشرات البرقيات من مختلف مدن بلاد الشام والعراق عليها مئات التواقيع لمختلف فئات الناس بالتأييد والتشجيع.

٦ ـ المؤتمر العربي في باريس

ليس هذا تكتلاً مستمراً، غير أنه شغل حيزاً كبيراً في مجال الحركة العربية العلنية من جهة. وكان مظهراً من مظاهر التكتل العربي. أو رديفاً له أو نتيجة له أو ممثلاً له من جهة أخرى، بحيث يكون إيراد سيرته في هذا البحث صحيحاً.

ولقد سجلت ظروف وسيرة المؤتمر في كتاب خاص نشره المرحوم محب الدين الخطيب السكرتير الثاني للجنة العليا لحزب اللامركزية في القاهرة سنة ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٣ م أي بعد قليل من انعقاده، فصار هو المرجع الرئيسي له، والمستفاد من التسجيلات التي وردت فيه، أن الفكرة انبثقت في أوائل عام ١٩١٣ في أذهان خمسة شبان كانوا طلاباً في مدارس باريس العالية وهم عبد الغني العريسي، ومحمد المحمصاني، وتوفيق فايد من بيروت، وعوني عبد الهادي من نابلس، وجميل مردم بك من دمشق. ونحن نعرف يقيناً أن هؤلاء الشباب كانوا أركان الجمعية العربية الفتاة السرية التي سوف يأتي الكلام عنها بعد. حيث يصح القول إن الفكرة هي فكرة هذه الجمعية. ولقد شرحنا قبل أن الاتحاديين قاموا بانقلاب في أوائل سنة ١٩١٣ ضد حكومة المعارضة التي شجعت رجالات العرب على طلب الاصلاح، وأنهم لما أسقطوا هذه الحكومة وأقاموا حكومتهم بديلاً عنها، وقفوا موقف المناوأة للمطالب الإصلاحية. فالمتبادر أن الفكرة قد انبثقت نتيجة لهذا الموقف وظروفه.

ولقد اتصل الشبان الخمسة بآخرين من شباب العرب ورجالاتهم في باريس وفاتحوهم بالفكرة، ولقوا تحبيذاً لها. وكان عدد شباب العرب ورجالاتهم في باريس كبيراً ينيف على الثلاثمئة كلهم أو جلهم شاميون. ومن ثم تم الاتفاق على تأليف لجنة تحضيرية مهمتها الاتصال بالشخصيات والهيئات العربية في مختلف الأقطار، وتهيئة أسباب عقد المؤتمر وزمنه وجدول أعماله. وكانت اللجنة مؤلفة من شكري غانم وعبد الغني العريسي وندره مطران وجميل مردم وعوني عبد الهادي وشارل دباس ومحمد المحمصاني وجميل معلوف. وقد قررت مبدئياً أن ترتبط بحزب اللامركزيةفي مصر بصفة رسمية. وأرسلت اليه كتاباً بتاريخ ٤ نيسان ١٩١٣ تعرض عليه فكرة المؤتمر وحافزها، وكونها خدمة لفكرة الحزب. وطلبت منه أن يتبناه وأن تكون الرآسة فيه له بصفته راعي المؤتمر الذي سوف يكون هدفه المطالبة بالإصلاحات على قاعدة اللامركزية وفقاً لمنهج الحزب، مع بيان لبعض أبحاث اخرى يتناولها الخطباء في المؤتمر وهي :

(١) الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال.
(٢) حقوق العرب في المملكة العثمانية.
(٣) المهاجرون من سورية وإلى سورية.

ومن توقيت انبثاق الفكرة وخروجها إلى حيز التنفيذ، يمكن القول أنها كانت كرد فعل لموقف الحكومة الاتحادية إزاء الحركة الإصلاحية اللامركزية التي قامت في بلاد الشام والعراق وإزاء

رجالاتها على ما مر شرحه، حيث جعل هذا الموقف أولئك الشبان يرون وجوب متابعة الحركة التي قمعت بنقلها إلى جو خارجي، أملا بأن يكون له من التأثير ما أخفق الوصول إليه بالحركة الداخلية.

ولقد حدث ذلك المتوقع فعلاً. فكان للمؤتمر ضجة قوية داخلية وخارجية أثرت بالحكومة الاتحادية تأثيراً غير يسير، وجعلتها تسعى إلى رجاله، وتعرض الوفاق بين العرب والترك على أساس الاستجابة إلى المطالب العربية أو بعضها. وإن ظهر أن ذلك كان منها مناورة مرحلية حاولت بها مسايرة الضجة والأثر، ثم افتراسها على ما سوف يأتي شرحه بعد.

والشباب الذين انبثقت فيهم الفكرة سوريون، واللجنة التحضيرية سورية. وقد جاء في كتابها إلى حزب اللامركزية أن المؤتمر يقوم به سوريون، وهذا الحزب كان بدوره سورياً، ونعني بسورية سورية الطبيعية التي كانت تشتمل على الأقاليم الأربعة المعروفة اليوم وهي لبنان وسورية والأردن وفلسطين. وهذه ظاهرة جديرة بالتسجيل من دون ريب، من حيث أنها تدل على ما كان لرجال سورية من بروز ونشاط وانفعال في مجال السياسة العربية.

ولا نقصد بهذا أنهم احتكروا هذا المجال، فقد كان لإخوانهم العراقيين أيضاً وجود قوي فيه، كما كان شيء من الوجود فيه لأبناء الأقطار العربية الأخرى مع التنويه بأننا نقصد مجال الدولة العثمانية والحركة العربية فيه، وإلا فإنه كان لمصر، وهي على كل حال لم تكن تعد من مجالات هذه الدولة المباشرة، نشاط كبير في هذا الظرف علمياً وأدبياً وصحافياً وسياسياً.

والبحث الأول الذي وضع في رأس قائمة مباحث المؤتمر وهو (الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال) جدير بالتعليق. ولقد جاء في كتاب اللجنة التحضيرية إلى الحزب فقرة في صدد ذلك وهي (أن المؤتمر يراد به أن يظهر للأجانب أن العرب يدرأون عادية الاحتلال، من أية دولة كانت). وهذا يظهر نقاء الحركة العربية وكونها حركة قومية لا شائبة فيها، ولا أصابع وغايات أجنبية واستعمارية تحركها. وقد يكون شباب العرب الذين وضعوا منهج أبحاث المؤتمر قد لمحوا مطامع الاستعماريين في بلادهم وتربصهم بها، ولا سيما ان غزو ايطالية لإقليم ليبية وغزو فرنسة للمغرب الأقصى قد وقعا في سنة ١٩١٢ م، نتيجة لمؤامرة التوافق بين كل من بريطانية وفرنسة وإيطالية التي اتفق بها كل من هذه الدول على إطلاق يدها في ما تطمع أن يكون لها المركز القوي الراهن، حيث أطلقت بريطانية يد فرنسة في المغرب ويد إيطالية في ليبية مقابل سكوتهما عن احتلالها مصر والسودان وسواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية، فأراودا أن يكون ذلك من أبحاث المؤتمر ليكون فيه إعلان برفض العرب السوريين لتلك المطامع، ولا سيما أن فرنسة لم تكن تخفي تطلعها إلى بلاد الشام ودعواها حق الحماية لنصاراها، ولا تفتأ تصطنع اليد مع هؤلاء بسبيل ذلك. وقد يكون قصد بذلك أيضاً سد الباب أمام أي استغلال للمؤتمر وإعلان بأن رجال المؤتمر لا يمكن أن يقبلوا أو يسمحوا بأي حال بذلك. كما يمكن أن يكون قصد به كذلك الرد على ما صار يوجه إلى الحركة العربية بوجه عام، وإلى الحركة اللامركزية والإصلاحية التي كان يشترك فيها المسلمون والنصارى معاً بوجه خاص، من تهمة الضلوع مع الأجانب، أو تهمة فتح الباب لأصابع الأجانب الطامعين

في بلاد العرب وبخاصة في بلاد الشام. وللرصافي الشاعر العراقي المشهور قصيدة عبر فيها عن هذه الهواجس، وهاجم فيها طلاب الإصلاح وفكرة عقد المؤتمر في باريس من أجل ذلك مطلعها:

أصبحت أُوسعهم لَـوْمـاً وتَثْـريبـا لما اْمتطوا غـارِبَ الإفراطِ مَرْكـوبـا

ومنها:

رامـوا الصلاحَ وقـد جاؤوا بـلائحةٍ فيهـا يكون شمـل الشعب مشعـوبـا
قـد كلَفـوا شَـططاً فيهـا حكـومَتَهم وخـالفـوا الحـزمَ فيها والتَجـاريبـا
إني لأبصرُ في بـيـروتَ قـائـبـةً للشرِّ مُـوشكـةً أن تَخْرجَ القـوبـا
قُـلْ للعريسـي والأنبـاءُ شـائعـةٌ والصُحْف تَـرْوي لنَا عَنْـهُ الأعاجيبـا
عـلامَ تـعقـدُ في بـاريسَ مُؤْتمـراً مـا كنتَ فيـه بـرأي القـوم مَنْـدوبـا
وهـل تَعمّد حَقّي العـظم فِعْلَتـه لما نمى خَبـراً للطانِ مَكْـذوبـا[١٠٢]
إذ راح يستنجـد الافـرنـجَ مُنْتصفـاً كـأنَّـه حَمَـل يَسْتنجـد الـذيبـا
خـافوا التـذبـذبَ في أعمـال دَوْلتهم من ان يجرَّ عـلى الأوطـانِ تخـريبـا
وكـان خَـوْفُـهم حـقـاً لـو انَّهُـم لم يعـدلـوا عَنْ طَـريقِ الحقِّ تنكيبـا
لكنّهـم جـاوزوا نَهْجَ الصـوابِ إلى وادي المهـالكِ فـاستقضوا بـه الحوبـا
فَـهُـمْ كَـمَـن فـرَّ مـن قَـطْرٍ يُبَـلله ثم انتحى السيـلَ أو جـاء المَيـازيبـا
لـو كـانَ في غـير بـاريـزَ تَـألّبُهم مـا كنتُ أحْسَبُهم قـومـاً منـاكيبـا
لكنَّ بـاريـزُ مـا زالت منـاكبُهـا تَـرنو إلى الشـام تصعيـداً وتصـويبـا
ولم تَـزَلْ كـل يـوم من سِياستهـا تلقي العـراقيـلَ فيهـا والعَـراقيبـا
هـل يأمن القـومُ أنْ يحتـلَ ساحتهم جيشٌ يَـدُكّ من الشـام الأهـاضيبـا
يـا أيّهـا القـومُ لا يَغْـرُرْكُمُ نَفَـرٌ ضَجّـوا ببـاريـزَ إفسـاداً وتشغيبـا
فسـوفَ يَقْـرَعُ كـلٌ سِنّـه نَـدَمـا ويسبـل الدمـع في الخدين مسكـوبـا

والقصيدة نظمت بعد تقرر عقد المؤتمر في باريس، على أثر أخفاق حركة الإصلاح وقمعها. والشاعر ليس ضد الاصلاح، وهذا ظاهر من بعض أبيات القصيدة، وقد أوردنا له قبل مأثورات قوية اللهجة، بل ثورية في صدد المطالب والحقوق العربية، وإنما هو بسبيل إبداء مخاوفه من المطامع الأجنبية وبخاصة الافرنسية، وتثريب عقد المؤتمر في باريس عاصمة الدولة التي كانت تبيت تلك المطامع. وبعبارة أخرى عبر عن تلك الهواجس التي أراد القائمون بأمر المؤتمر الرد عليها وإثبات نقاء المؤتمر منها.

ومن الحق والصدق أن نقرر أن معظم المندمجين في الحركة والمطالب الاصلاحية وفكرة المؤتمر، والذين اشتركوا فيه وبخاصة المسلمين منهم الذين كانوا الأكثرية الساحقة كانوا مخلصين

---

(١٠٢) يشير إلى تصريح او خبر نشر في جريدة الطان الافرنسية الشهيرة إذ ذاك، يفيد أن الحكومة العثمانية سوف تبطش برجال الحركة العربية والإصلاحية أشد بطش. وقد صار ذلك حقيقة وصدقاً في أثناء الحرب العالمية.

لفكرة الاصلاح في نطاق الدولة العثمانية بادىء بدء، وضد أي عدوان واحتلال استعماري من أي كان. وكل ما في الأمر أنهم أرادوا نقل حركتهم إلى الخارج بعد أن وقف الاتحاديون في وجهها ذلك الموقف الشديد. وقد صرح بهذا رئيس المؤتمر أيضاً في تصريح صحفي أدلى به بين يدي المؤتمر على ما سوف نورده بعد.

ولقد كان هذا بارزاً كل البروز فيما ألقي في المؤتمر من خطب من مسلمين ومسيحيين على السواء وفيما جرى فيه من نقاش، حيث يبدو أن المؤتمرين جميعهم حرصوا على إبراز ذلك دفعاً لكل قول وتهمة.

ولقد أرسل الحزب جواباً على الرسالة التي أرسلتها إليه اللجنة التحضيرية بتوقيع رئيسه رفيق العظم وبتاريخ ١٤ نيسان ١٩١٣، فيها شكر للجنة على اعتمادها على الحزب وانضمامها إلى منهاجه، وإيذان بموافقة الحزب على اقتراحها، وباستعداده لإرسال مندوبين حينما يتم الاستعداد للمؤتمر ويعين موعده.

وبناء على ذلك وجهت اللجنة التحضيرية دعوة عامة في شكل منشور نشر في الصحف العربية وغير العربية موجهة إلى (أبناء الأمة العربية)، شرحت فيه حافز فكرة المؤتمر قائلة (إن ما يجري من المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية وأخصها زهرة الوطن سورية، نتيجة لسوء الإدارة المركزية، ووجوب اتخاذ الأسباب الواقية للبلاد من المطامع الخارجية، وإنقاذها من صبغة السيطرة والاستبداد، وإصلاح أمورها الداخلية على قواعد اللامركزية، حتى ينقطع بذلك خطر الاحتلال والاضمحلال، وتنتفي مذلة الرق، وتخفت نأمة الاستعباد، ويظهر للاعبين بحياة الشعوب أنا أمة عيوف الضيم، لا تستنيم لذل، ولا تستكين لمسكنة)، وطلبوا من أبناء الأمة العربية في الوطن والمهاجر الأميركية والأوروبية وبخاصة أرباب الزعامات والجمعيات، الاستجابة إلى الدعوة وإرسال ممثلين لشهود المؤتمر، والمشاركة في بحوثه وقراراته، وإرسال برقيات ورسائل تأييد ممن لم تسمح له الظروف بالحضور شخصياً.

وقد تلقت اللجنة التحضيرية استجابة من شخصيات وهيئات جديدة من الوطن والمهاجر، فكان ذلك مشجعاً لها على تنفيذ فكرتها وتقرير تاريخ ١٨ حزيران ١٩١٣ موعداً لعقد المؤتمر. وتم انعقاده فعلاً في التاريخ المذكور في القاعدة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سن جارمن في باريس، واستمر انعقاده خمسة أيام، وترأسه الشيخ عبد الحميد الزهراوي أحد أعضاء وفد حزب اللامركزية من مصر إلى المؤتمر. ولقد سجل له واذيع حديث صحفي جاء فيه:

(إن المؤتمر عقد في باريس، لأن ما جرى في بيروت ضد الجمعية الإصلاحية برهن على أن مثل هذا المؤتمر لا يمكن عقده في الوطن، ولأن العرب أرادوا به إسماع صوتهم لأوروبا أيضاً. وهم لا يترسّمون الانفصال عن الدولة. بل هم متمسكون بالرابطة العثمانية، وكل ما يطلبونه هو صلاح يتلافى به سقوطها، وان قانون الولايات الموسوم بتوسيع المأذونية الذي أصدرته الحكومة الاتحادية لا يضمن الإصلاحات المطلوبة، وليس فيه إلا أمور ثانوية، وان المسلمين والمسيحيين معاً متفقون على المطالب الإصلاحية، وان ما يطلبونه ليس لبلادهم فقط، بل هو شامل لكل بلاد

الدولة، وإن من أسباب اختيار باريس لعقد المؤتمر، كون الجالية العربية فيها، أكثر منها في غيرها من عواصم الغرب الأخرى، ولا يحمل أي معنى خاص).

ومن الجدير بالذكر أن ضجة ودوي المؤتمر كان أكبر بكثير من جسمه، فإن الذين شهدوه فعلاً كانوا ٢٤ شخصاً فقط، منهم ثمانية من أعضاء لجنته التحضيرية في باريس وهم شكري غانم، وعبد الغني العريسي، وندره المطران، وعوني عبد الهادي، وشارل دباس، وخير الله خير الله، وجميل مردم، ومحمد المحمصاني، وثلاثة من المهاجرين في الولايات المتحدة وهم نجيب دياب ممثل جمعية الاتحاد السوري وصاحب جريدة مرآة الغرب العربية اللغة التي كانت تصدر في نيويورك، ونعوم مكرزل ممثل جمعية النهضة اللبنانية وصاحب جريدة الهدى العربية اللغة التي كانت تصدر كذلك في نيويورك، والياس مقصود ممثل ثان لجمعية الاتحاد السوري، وواحد مفوض بتمثيل مهاجري المكسيك السوريين وكان في باريس وهو عباس بجاني، واثنان مندوبان عن حزب اللامركزية في مصر ومن لجنته العليا وهما عبد الحميد الزهراوي واسكندر عمون، وخمسة من جمعية بيروت الإصلاحية وهم سليم علي سلام وأحمد مختار بيهم، وخليل زينية، والشيخ أحمد حسن طبارة، والدكتور أيوب ثابت[١٠٣] واثنان من العراق هما توفيق السويدي وكان طالب حقوق في فرنسة، وسليمان عنبر وكان تاجراً في فرنسة، واثنان من بعلبك وهما محمد حيدر وإبراهيم حيدر، وصفا بأنهما من أعيان بعلبك وأفاضلها ـ وهما حقاً من أسرة عربية بارزة ـ والمرجح أنهما كانا طالبين في فرنسة، وواحد وصف بأنه عن جالية القسطنطينية ـ العاصمة ـ وهو عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي.

ولقد تلقى المؤتمر رسائل وبرقيات كثيرة مؤيدة مشجعة يصح أن يقال إنها تلافت ضآلة عدد شهود المؤتمر. منها ما جاء من مختلف أنحاء البلاد العربية العثمانية وتحمل تواقيع عشرات من الشباب والأعيان والزعماء والمستنيرين من دمشق وبغداد والبصرة وحيفا ونابلس وجنين وحمص وحماه وطرابلس الشام وبيروت وصيدا والآستانة وبعلبك، وبعض المدن أرسلت أكثر من برقية ورسالة، وبعضها يحمل تواقيع سيدات. وهذا بالإضافة إلى رسائل وبرقيات أخرى من أشخاص سوريين في مدن مصرية وأوروبية وأميركية. وفي جميعها تأييد قوي للمؤتمر والمطالب الإصلاحية التي انعقد من أجلها. ومن جملتها رسالة من الزعيم العراقي طالب النقيب، ورسالة من الجمعية الإصلاحية البيروتية، وأخرى من جمعية النهضة السورية في أميركة، وأخرى من الجمعية الخيرية الإسلامية في حماه.

وكان معظم أصحاب التواقيع الشخصية من البارزين في مدنهم، وممن صار لهم اسم وصيت في الحركة الوطنية والعربية. وهذه اسماء الموقعين على رسالة من دمشق كمثال على ذلك:

الطبيب صلاح الدين القاسمي، الطبيب أحمد قدري الترجمان، علي غبره صاحب جريدة

---

(١٠٣) هناك شخص سادس كان مرشحاً للمجيء إلى باريس من أعضاء الجمعية الإصلاحية، وهو ألبير سرسق، ولكن مرض شقيقه حال دون ذهابه.

النديم، الطبيب عبد الرحمن شهبندر، المحامي شكري الجندي، المحامي محمد رشيد الرافعي، الطبيب محمد فهمي، المحامي ناجي، محمد كرد علي مدير سياسة المقتبس، محمد عثمان مردم بك، محمد سعيد الأسطواني، أحمد حلمي الخيمي، محمد فخري البارودي، الأمير عارف الشهابي، محمد عيد القاسمي، خليل مردم بك، شاكر هاشم، عبد الفتاح السكري، عبد الوهاب الانكليزي، رياض المحايري، محمد كامل القصاب، لطفي الحفار، رشدي الحكيم، متري قندلفت، وجيه أحمد الزين، مصطفى كيلاني، جرجي الحداد، محمد أديب مردم بك، صالح الجيلاني، نعيم حسان، سليم قساطلي، أحمد كرد علي، توفيق الحلبي، صبحي أحمد الانكليزي، حامد التقي، عبد الغني العسلي، محمد حمدي، محمود كرد علي، الطبيب أحمد منيف العائدي، المحامي عادل المصطفى، الطبيب محمد حسيب، الطبيب حكمت المرادي، المحامي نجيب منصور، الطبيب أحمد عزت، المحامي داود صدقي الماريني، الطبيب مصطفى عارف سقا أميني، الطبيب خليل خالد العبدلي، منير المحايري.

وهذه أسماء الموقعين على رسالة جنين، وهي قصبة صغيرة ومركز لقضاء تابع لمتصرفية نابلس في فلسطين كمثال آخر:

جرار زاده، محمود اليوسف الأحمد، حسن سعيد عبده من وجوه أم الفحم، عبد الهادي زاده، محمد الحسين، عيوشي زاده، محمد نافع، عبد الهادي زاده، محمد حيدر، سليم فضول صائغ من وجوه مسيحيي جنين، المختار عودة القصار عن مسيحيي جنين، اندراوس من وجوه مسيحيي جنين، عبد القادر من وجوه عرابه، صالح الصباح مختار مركز حكومة قضاء جنين، الحاج محمد حماديب مختار قرية المقيبلة، عبده أسعد يوسف مختار قرية عربونه، مصطفى أبو فرحه مختار قرية الجلمة، بركات مختار قرية حفدك، شامخ النمر رئيس عشيرة الغزاوية، عبد الرحمن مختار قرية زرعين، مختار سيلة الظهر... محمد توفيق من وجوه يعبد، محمد مختار جبع، أحمد حسن مختار جبع، عبد الله أبو حنانه مختار عرانه، عبد الله لافي مختار فقوعه، عوض عبد الرحمن مختار كفرقور، سليم صالح مختار بيسان، حسن عبد الغني مختار قرية تعنك، جبر مختار بيسان، عبد الغافر مختار جلقموس، مختار دير غزالة... مختار الأشرفية... عبد الهادي خضر مختار كفر راعي، الحاج طاهر المحمد مختار برقين.

وهذه تواقيع رسالة الطلاب والرجال العرب في الآستانة:

محمد طاهر الأفغاني من القدس وطالب حقوق، درويش وصفي أبو العافية من يافا وطالب هندسة، رفيق رزق سلوم من حمص وطالب حقوق، سيف الدين الخطيب من دمشق وطالب حقوق، سامي العظم من دمشق وطالب حقوق، عارف المقدسي طالب في الكلية، محمد بسيسو من غزة وطالب حقوق، رشدي الشوا من غزة وطالب حقوق، محمد صالح الصمادي من نابلس وطالب حقوق، عيسى إمام طبيب من عكا، عبد القادر كيلاني طالب هندسة من بيروت، عبد الغني النحوي من صفد وطالب حقوق، علي رضا أبو السعود من القدس وطالب حقوق، زكريا بيات من حماه وطالب حقوق، موسى المزي من القدس طالب

حقوق، خالد سعيد الحكيم من حمص طالب هندسة، فهمي العظم من دمشق طالب هندسة، عبد الرؤوف درويش من نابلس طالب مالية، عاصم بسيسو من غزة طالب حقوق، محمد نديم صلاح طبيب من نابلس، الأمير حسن حسان الأيوبي طالب حقوق من لبنان، محمد فهمي العقاد محامي من دمشق، محمد فضل الله المفيد محامي من حلب، عبد الرزاق من بغداد طالب طب، ابن القيم من دمشق، محمد شريف الزعبي من الناصرة طالب حقوق، محمد عبد العزيز مرعي من نابلس طالب حقوق، عبد الرحمن النحوي من صفد طالب حقوق، محيي الدين الكيلاني من دمشق، رشدي ملحس من نابلس طالب مالية، حسين وصفي الساطي من دمشق، رشدي الحسيني من القدس طالب هندسة، حسن المعروف من غزة طالب حقوق، محمد زكريا المظلوم الجبلي طالب ثانوي، علي السلوكي من بغداد طالب حقوق، محمد جميل دوغان من بيروت طالب حقوق، جميل مصطفى من اللاذقية طالب حقوق، فائز الخوري من دمشق طالب حقوق، محرم محسن أديب من اللاذقية طالب حقوق، عبد الحي جار الله من القدس، جلال البخاري من دمشق، محمود حمدي العقاد طالب زراعة من دمشق، وجيه الأسطواني من دمشق طالب حقوق، حسين شرعي من الناصرة طالب مالية، محمد نسيب البيطار من نابلس طالب في مدرسة الواعظين، محمد ناظم طالب من حماه طالب حقوق، داود حافظ طوقان من نابلس، نوري من بغداد، عبد الله مؤيد الكيلاني من بغداد، عبد الرحمن طالب حقوق من نابلس، محمد رشاد طالب طب من الموصل، نقولا عبد النور من الموصل طالب حقوق، اسماعيل صفار من بغداد طالب طب، عاصم الحلبي طالب حقوق من بغداد، رفيق غزاوي طالب حقوق من طرابلس، حمدي مارديني طالب حقوق، الأمير أحمد الشهابي طالب حقوق من حاصبيا، محمود أبو الفضل القواص طالب حقوق من صيدا، أحمد المولوي طالب من القدس، عبد الهادي صافي طالب هندسة من القدس، جودت القندوس طالب حقوق من القدس، حسن عوف الدجاني كيماوي، حسام أبو السعود طبيب من القدس، كامل أبو السعود طبيب من القدس، يوسف روكز طالب حقوق من بيروت، توفيق حتحت طبيب من غزة، أحمد حمدي القطب طالب طب بيطري من نابلس، شكري يزبك طالب حقوق من دمشق، توفيق بازرباشي طالب حقوق من طرابلس، رشدي أبو العافية طالب هندسة من القدس، سليمان أبو بكر من دار الفنون، حامد الخطيب طالب بمدرسة النواب (القضاة)، حمدي حسن طالب في مدرسة الواعظين، الأمير بهجت الشهابي طالب حقوق من راشيا، طاهر الخطيب طالب طب بيطري، منيب لطيف طالب زراعة من طرابلس، ثريا البدري بمدرسة الكوندوكتور، بدر الدين الرافعي طالب حقوق من طرابلس.

وقد حملت رسالة طرابلس الشام تواقيع محمد رفيق العتال ملاك وصاحب معمل التحف، وتوفيق اليازجي صاحب جريدة الأجيال، والطبيب حسن رعد، ومفتي زاده عزت المقدم، وخادم العلم محمد صبحي الملك، وتاجر وملاك صبحي البابا، وخطيب ومدرس جامع غازي محمد منير ملك، وتاجر وملاك محمد كمال بركة، ومحمد كامل مدير بوسطة وتلغراف يافا، وراجي دانيال صاحب معمل ثلج ؛ ومحمد منير ملاك، وحسين محمد رعد صيدلي، ومصطفى عادل المولوي خادم

العلم، ومحمد نهاد ملك تاجر، ومحمد توفيق زيادة تاجر، ومحمد واصف طبيب بيطري، ومحمد صلاح الدين سلهب إمام جامع، وجميل عبد القادر عدره صاحب مجلة البيان، وسليم رزق الله تاجر، وبشير عدره تاجر وملاك، وعثمان غندور تاجر وملاك، ومحمد مصطفى البابا تاجر وملاك، وعبد الرزاق أحمد بيضون ملاك، وعبد القادر حسن قاضي ناحية حذور، وفريد زريق افوكاتو، وجرجير خير طبيب أسنان، ومحمد ناجي.

ورسالة من مشايخ غور بيسان بصفتهم وكلاء مفوضين من كل مزارعي بيسان وجنين الذين يبلغ عددهم سبعين ألفا.

وفي كتاب المؤتمر صفحة بعنوان (تذكار أبدي لبغداد وغيرها من البلاد الداخلية التي ائتمنت موظفي التلغراف العثماني فقدمت لهم برقيات باسم المؤتمر ودفعت لهم أجرتها ولم يرسلوها)، حيث يفيد هذا أن هناك برقيات كثيرة أبرقت بتأييد المؤتمر من العراق وغيرها لم تصل. وعلم جامع الكتاب بخبرها فسجله في هذه الصفحة بهذا العنوان:

وقد تقصدنا الإكثار من إيراد التواقيع لإبراز الدلالة التأييدية التي أردنا إبرازها.

ويلحظ أن التأييدات كلها واردة من شاميين وعراقيين في البلاد العربية وخارجها، وان المشتركين في المؤتمر هم شاميون وعراقيون وحسب، وهذا يمت إلى ما نبهنا عليه في مطلع هذا البحث من كون الحركة العربية في هذا الدور كانت تقريباً حركة شامية وعراقية.

وقد نظم الشاعر الشيخ فؤاد الخطيب قصيدة عصماء في خمسين بيتاً أهداها إلى المؤتمر مطلعها:

دَعْني فَقَدْ نَهْنَهتُ عَن أشجاني ... وأدالَ لي مِنْ صَبْوَتي سلواني

وجاء في خاتمتها هذه الأبيات:

يا معشرَ الأحرارِ هذا يَوْمُكم ... الدهرُ أقصرُ والحقوقُ دَواني
فَخُذوا بأيدي العاثرين وقربوا ... متباعدَ الأهْواءِ والأدْيانِ
وتألفوا تلكَ القلوبَ وخففوا ... ما قَدْ تكاءَدَها من الأضغانِ
وَقَفتْ على أبوابِكم آمالُنا ... حيرى وقوف الدمعِ في الأجفانِ
أنتُم بَنو العَرَب الكرام وأنتمُ ... عزّ الهلالِ وفَخْرُ كلِّ زمانِ
شَهِدت لَهم أقوالهم وفعالهم ... بثباتِهم في خدمةِ الأوطانِ
وَمَشَتْ على آثارِهم فتيانُهم ... والسرُّ كلُّ السرِّ في الفتيانِ

ولقد عقد المؤتمر أربع جلسات، وافتتح الرئيس المؤتمر بخطاب جامع عن فكرة المؤتمر، ورغبة العرب الصادقة في الحياة الحرة الشريفة التي تضمن لهم التقدم والنهوض، مع الرغبة الصادقة في استمرار الإخاء التركي العربي في نطاق دولة الخلافة العثمانية، وتوكيد كون الإصلاح مطلباً ضرورياً للعرب والترك معاً، وكون بقاء الحكم في الدولة على الطريقة الراهنة مهدداً لها، وغمز الذين يتهجمون على المؤتمر، ويتجهمون له، ووصفهم بأنهم أذناب الحكام، وليسوا مخلصين

للدولة والوطن. وشكر فرنسة التي ساعدت على عقد المؤتمر الذي كان من العسير عقده في بلاد العرب بسبب الظروف المعروفة.

وفي الجلسة الثانية خطب عبد الغني العريسي خطبة مسهبة في حقوق العرب في المملكة العثمانية. وقد شجب دعوى الحكم التركي في بلاد العرب بحق الفتح. وهذه الدعوى مما رددها بعض غلاة الاتحاديين العنصريين. وقرر أن الدولة انما قامت وتوطدت في هذه البلاد بمساعدة أهلها، وانهم شركاء متساوون في كل شيء، وأن لهم الحق في المشاركة على قدم المساواة في القوة التشريعية والقوة الإجرائية مع احترامهم بكل إخلاص لمركز السلطان الأعلى، وارتباطهم بالدولة ارتباطاً تاماً، ما دامت حقوقهم فيها مرعية محفوظة، وشرح ما ينالهم من غمط في مجلس الأعيان والنواب والوزارات والمناصب الرئيسية وغير الرئيسية في العاصمة والولايات، وطالب بحقهم في كل ذلك، وقال إن على العرب أن يسعوا لنيل هذا الحق بالوسائل المشروعة، وإن على السلطات التركية أن لا تقف في وجه هذا الحق بالقوة والقهر، لأن ذلك سيجعل العرب يبحثون عن طريقة لإحباط هذا الأسلوب المتجني.

ثم ألقى ندره المطران في نفس الجلسة خطبة في موضوع (حفظ الحياة الوطنية في البلاد العربية العثمانية)، أتى فيها بلمحة تاريخية في أدوار الحكم في البلاد، وانتهى بها إلى القول إن العرب كانوا دائماً أصحاب حق وحياة في بلادهم، ولم يكونوا راضخين لحكم جائر أو راضين به، وإن من الحق والواجب احترام ذلك لهم، وأن تحظى البلاد بالإصلاحات التي تكفل لها النهوض والتقدم، مع الرغبة الأكيدة في الاستمرار في الوفاق والانسجام مع الترك في نطاق الدولة العثمانية التي لا يريد العرب الخروج عليها والانفكاك عنها.

ثم ألقى نجيب دياب خطبة في موضوع (أماني السوريين المهاجرين)، فقرر فيها أن أمانيهم هي صلاح بلادهم ونهضتها تحت راية الهلال وفي نطاق اللامركزية، لأن مشاهداتهم وتجاربهم في البلاد الأجنبية اقنعتهم أن ذلك هو الطريق الصحيح لنهوض بلادهم واستغلال خيراتهم.

وألقى توفيق السويدي كلمة قال فيها إنه مفوض من أهل العراق بالاشتراك في المؤتمر، وإعلان تضامنهم معه في المطالب الإصلاحية على أساس اللامركزية، وضمان حقوق العرب المشروعة في المؤتمر.

ولقد عقب أحمد مختار بيهم على خطبة العريسي قائلاً: إنه موافق على المطالبة بحقوق العرب في الدولة، غير أنه يجب أن لا يفهم من ذلك قصد العرب للوظائف، بل هو إصلاح أحوال بلادهم، وطالب الارتباط بعهد يقطعه طلاب الإصلاح ورجال المؤتمر بعدم قبول أية وظيفة قبل تنفيذ الإصلاح المطلوب.

وقد جرى نقاش حول هذا الأمر، ثم قرر المؤتمر قراراً جاء فيه: (لا يجوز لجميع القائمين بالحركة الإصلاحية قبول أية وظيفة في الحكومة العثمانية قبل أن تقبل هذه الحكومة أساس البرنامج

الذي يقرره المؤتمر إلا بقرار من الجمعية التي ينتمي اليها العضو، وأن يصير تبليغ هذا القرار إلى كل البلاد العربية والمهاجر العربية).

ولقد كان تعقيب مختار بيهم، وهذا القرار الذي كانت نتيجة له ضرورياً، لأن أعداء الحركة الإصلاحية واللامركزية من الاتحاديين الأتراك الرسميين وغير الرسميين والموالين لهم من العرب (وهم الفئة الثالثة)، كانوا يغمزون طلاب الإصلاح كذباً وتهويشاً بأنهم طلاب وظائف وحسب. ولقد ذكر جمال السفاح في مذكراته أنه قال ذلك لعبد الكريم الخليل، وأنه يشعر بالحزن، وأن حركة العرب تهدف إلى المآرب والوظائف. وكرر هذا في مكان آخر في مذكراته حيث قال: إن الحركة العربية والمطالب العربية التي عقد مؤتمر باريس بسببها كانت تهدف إلى تطمين رغبات رجالات العرب البارزين بالمناصب والوظائف وحسب مهما أدى ذلك إلى تفرقة وفساد وتآمر مع الافرنسيين. ولا ندري هل جمال كتب مذكراته بعد المؤتمر أو في اثنائه، فإن كان بعده فيكون ما ورد فيها قد رسخ في ذهنه، رغم ما كان من قرار المؤتمر، ويكون فيه متجنياً. ومن الجدير بالذكر أن جمال ذكر ما تم الاتفاق عليه مع زعماء المؤتمر، على ما سوف يأتي بعد، ولم تكن مسألة الوظائف في ذلك رئيسية، حيث ذكر أنه تم الاتفاق على التعليم باللغة العربية في المدارس وقبول الاستدعاءات بالعربية، وإجراء بعض الاجراءات القضائية العربية، وإدارة البلاد بمشاركة أهلها، وفقاً لقانون الولايات الجديد، ثم الموافقة على تعيين بعض رجالات العرب في مجلس الأعيان ومناصب أخرى. . . (انظر ترجمة أحمد شكري لمذكرات جمال من ٨٨ ـ ٩٤).

وفي الجلسة الثالثة ألقى الشيخ أحمد حسن طبارة خطبة في موضوع الهجرة من سورية واليها، أتى فيها على نبذة جغرافية وتاريخية واقتصادية للقطر السوري بحدوده الطبيعية، ومواهب العرب السوريين وقابلية بلادهم، وأكد أن الهجرة هي مظهر من مظاهر نشاطهم الذي لم يتسن له مجال في أرض وطنهم، وأن سورية في حاجة إلى أبنائها المهاجرين، وأن ذلك رهن بتحقيق المطالب الإصلاحية على الأسلوب اللامركزي.

وألقى في الجلسة خليل صليبه كلمة نوه فيها بقابلية سورية وأهلها، وكون ما تحتاج إليه هو الصلاح والإصلاح والحرية والنظام والتنظيم.

ثم ألقى اسكندر عمون خطبة في موضوع اللامركزية وفوائدها، وكونها هي الأسلوب الكفيل بصلاح بلاد العرب، وأكد أن ما يطلبه العرب هو الإصلاح، وأنه ليس من أغراضهم الانفصال عن الدولة، وأن الدستور قد فشل، وأن حقوق العرب وغير العرب في الدولة قد غمطت بسبب عدم تطبيقه، وأن من شأن ذلك تهديد الدولة بالأخطار، وأن على العرب أن يجاهدوا بأية وسيلة لتحقيق ذلك. وختم كلمته بقوله إنه إذا كان يقتضي أن يكون للعرب شهداء في هذا السبيل، فكلنا مستعدون لذلك.

ولقد أثيرت نقطة الاستعانة بمستشارين أجانب التي تضمنتها لائحة بيروت الإصلاحية، وجرى نقاش حولها في المؤتمر انتهى إلى أنه ليس من خطر منها ما دامت في حدود الاستشارة وفائدتها مؤكدة.

ثم ألقى نعوم مكرزل خطاباً عن حالة المهاجرين في أميركا ونشاطهم وتطلعهم إلى وطنهم، ورغبتهم في خدمته إذا ما انفتح فيه باب الإصلاح وضمنت الحقوق والحريات.

وجرت بعد ذلك المداولات في مشروعات القرارات المتقدمة وتمت الموافقة على ما يلي في تاريخ ٢١ حزيران ١٩١٣:

١ ـ إن الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية، فيجب أن تنفَّذ بوجه السرعة.

٢ ـ من المهم أن يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في الإدارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً.

٣ ـ يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية إدارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها.

٤ ـ يطلب المؤتمر تنفيذ وتطبيق المبدأين الأساسيين اللذين قامت عليهما لائحة بيروت الإصلاحية وهما توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجانب.

٥ ـ اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية.

٦ ـ تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية إلا في الظروف والأحوال التي تدعو للاستثناء الأقصى.

٧ ـ يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفية لبنان وسائل تحسين ماليتها.

٨ ـ يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على اللامركزية.

٩ ـ يجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنية.

١٠ ـ وتبلغ هذه القرارات للحكومات المتحابة مع الحكومة العثمانية.

١١ ـ يشكر المؤتمر الحكومة الافرنسية شكراً جزيلاً لترحابها الكريم بضيوفها.

١٢ ـ إذا لم تنفذ القرارات، فالأعضاء المنتمون إلى لجان الإصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب في الحكومة العثمانية إلا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين إليها.

١٣ ـ ستكون هذه القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين، ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية إلا إذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه.

١٤ ـ المؤتمر يشكر مهاجري العرب على وطنيتهم في مؤازرتهم له ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم[١٠٤].

---

(١٠٤) المواد الثلاث الأخيرة وردت في كتاب المؤتمر بعنوان ملحق للقرارات السابقة، نتيجة للحوار والمداولة.

وكانت الجلسة الختامية الرابعة جلسة عامة شهدها جمهور من أبناء الجاليات العربية وكبار الأمة الافرنسية من نساء ورجال ومندوبي صحف، وتليت فيها القرارات ورسائل وبرقيات التأييد، وألقى فيها أحمد مختار بيهم خطبة بالافرنسية شرح فيها أغراض المؤتمر، وما ألقي فيه من خطب، وحالة الأمة العربية ومطالبها، وتعلقها بالإصلاح من جهة، وبالدولة العثمانية من جهة أخرى، بقصد التعريف والتوضيح لشهود الجلسة من غير العرب، ثم تلا ترجمة القرارت بالافرنسية للقصد نفسه.

وقد شرح في خطبته حالة الحكم في الدولة العثمانية، وما ينال العرب من تهضم وغبن، وحاجة الدولة إلى الإصلاح، وكون ذلك ضرورياً للعرب والترك وسائر عناصر الدولة على السواء. وأكد أن العرب سوف يستمرون على طلب الإصلاح ويكافحون في سبيله بكل شدة مهما كانت النتائج، لأن المسألة مسألة حياة وموت ونهوض واضمحلال.

والقى شكري غانم خطبة بالافرنسية لنفس القصد أيضاً، أكد فيها حق العرب بالمطالبة بالإصلاح، وشكر فرنسة لصداقتها للعرب وللدولة العثمانية وترحيبها بالإصلاحيين.

ولما ختم المؤتمر جلساته ذهب وفد مؤلف من رئيسه وبعض أعضائه إلى وزارة الخارجية الإفرنسية، حيث استقبلهم وزير الخارجية، فشكروا فرنسة على ما لقيه المؤتمر من عطف وترحيب ناتجين عن كون المؤتمرين من رعايا دولة صديقة لفرنسة، وأبناء بلاد تظهر فرنسة نحوها العطف والتودد، ونوهوا باعتمادهم على فرنسة وغيرها في تأييد المطالب الاصلاحية التي وعدت بها الدولة نفسها، وأشادوا بالاتحاد والاخاء المستحكمين بين المسلمين والمسيحيين من جهة، وبين السوريين واللبنانيين من جهة، وبكفاءة العرب لإدارة شؤونهم المحلية، مع رغبتهم في الاستعانة بخبرة أوروبا، واستمرار استظلالهم بظلال الراية العثمانية. وشكر الوزير الوفد على عواطفه، ونوّه بصداقة فرنسة للدولة العثمانية وحبها الخير للسوريين، وبما أظهره طلاب الإصلاح من التعقل في مطالبهم. وقال انه لجدير بأوروبا كلها أن تكون ضامنة لتحقيق الإصلاح كافلة لمستقبل تلك البلاد، وأن فرنسة تقبل بكل رضى وسرور أن تكون محامية لسورية لدى أوروبا، وأنها تفعل ذلك خدمة للعثمانية وليس ضدها.

ثم ذهب الوفد إلى السفارة العثمانية فقابلوا السفير، وقدموا له قرارات المؤتمر بكتاب ورجوه رفعها للحكومة العثمانية.

ولقد قال جامع الكتاب: ان الذي ظهر من الحديث الذي دار بين السفير والوفد، أنه يعتقد بضرورة الإصلاح للسلطنة، ولكنه يستحسن مع ذلك سلوك طريق اللين والحسنى.

ولقد اهتمت الحكومة الاتحادية للمؤتمر اهتماماً كبيراً. ويستفاد من كتاب المؤتمر، أنها حاولت منعه فعجزت، ومن ثم أوعزت للائذين بها المرتزقين من وظائفها وبعض عبيدها في سورية وغيرها ـ وهذه عبارات جامع الكتاب ـ بأن يبرقوا للحكومة المركزية برقيات يهونون فيها أمر المؤتمر، ويشتمون الداعين إليه والمشتركين فيه، ويغمزونهم ويهونون من قيمتهم، ويعلنون

ارتياحهم وسرورهم من شكل الحكم في الدولة. **ويقولون: إن أهل سورية ضد المؤتمر وضد مطالبه، وإنه لا يمثل إلا نفسه. ويبرهن الكاتب على زيف ذلك بالبرقيات** والرسائل الكثيرة من كل بلد في سورية التي تثبت أن جمهرة كبيرة من الواعين كانت مؤيدة للمؤتمر ومطالبه، وهي مؤيدة لدعوى أذناب الاتحاديين. وإذا لاحظنا ضيق نطاق الوعي القومي في ذلك الظرف، ولاحظنا أن البرقيات والرسائل تحمل مئات توقيع الواعين من شباب وغير شباب ظهر لنا صحة البرهان.

وهناك مصادر أخرى تذكر بعض التفصيلات لما كان من حركات مضادة للمؤتمر أججها الاتحاديون. **حيث نذكر أن بعض رجال الفئة التي سميناها** بالفئة الثالثة في الآستانة، بزعامة **الشيخ عبد العزيز شاويش التونسي الأصل، المصري النشأة، الإسلامي النزعة، اندفعوا في تسفيه حركة المؤتمر، واتهام القائمين به. وفعل مثل ذلك بعض رجال هذه الفئة في سورية ولبنان بزعامة الشيخ أسعد الشقيري وعبد الرحمن اليوسف ومحمد المخزومي ومحمد فوزي العظم. وقد استكتب هؤلاء عرائض في دمشق وعكا وحيفا والناصرة وطبريا وبيروت فيها شجب لفكرة المؤتمر،** وتنبيه على ما فيها من خطر وضرر وتهوين لشأن القائمين به، وكونهم لا يمثلون أحداً، وكونهم طلاب منافع ومآرب ومحركين بأصابع الأجانب، وكون الظرف الذي تمر به الدولة غير مناسب لهذه الحركة الخ الخ. وتصدت جريدة طنين التركية التي كان يديرها أحد أركان الاتحاديين للمؤتمر مسفهة مهونة مهددة منذرة متهمة للمؤتمرين بأنهم باعوا أنفسهم لفرنسة وصاروا من رعاياها. وحذت صحف الآستانة الأخرى حذوها وأوعزوا للصحف العربية الموالية للاتحاديين في سورية ولبنان مثل الرأي العام التي كان يصدرها طه المدور، وأبابيل التي كان يصدرها حسين الحبال بالتصدي للمؤتمر والمؤتمرين بالتهوين والتسفيه، فاندفعت في ذلك. وكانت جريدة المفيد البيروتية مناصرة للمؤتمر، فنشب تشاد بينها وبين هذه الصحف، وتعرضت المفيد نتيجة لذلك للمضايقة ثم للاغلاق.

ومما جرى أثناء انعقاد المؤتمر وذكره جامع كتابه، أن شخصاً اسمه يوسف فهمي، **وصفه الجامع بأنه مدفوع قام في الجلسة الثالثة، فألقى كلمة باللغة الافرنسية فيها احتجاج على عقد المؤتمر في باريس، وكون ذلك منافياً للوطنية، فثار عليه المؤتمرون وأسكتوه وأخرجوه.**

وفي كتاب المؤتمر بيان من اللجنة العليا لحزب اللامركزية، فيه تفنيد للذين أبرقوا وأرسلوا رسائل مناهضة للمؤتمر، بإيعاز من الحكومة الاتحادية، ومهونة لشأنه، ومتهمة لأعضائه بالعمالة والمنافع والمآرب، ومعلنة رضاء البلاد بشكل الحكم الجاري. وفيه اشارة إلى ما تلقاه المؤتمر من رسائل تأييدية مكذبة لمزاعمهم. وجاء في البيان فيما جاء، أن أصحاب تلك الرسائل منافقون متزلفون وآلات صماء، رضوا بهوان أمتهم وخراب بلادهم. ثم فند البيان موقف الاتحاديين المناهض للاصلاح والمناقض لما اغدقوه للعرب من وعود. وأعلن أن العرب سيجاهدون في سبيل إصلاح أوطانهم وسعادتها وسلامتها جهاد المخلصين، ولن يستسلموا لتصاريفهم استسلام عمي البصائر والقلوب.

على أن الحكومة الاتحادية لم تكتف بالموقف السلبي التحريضي الذي وقفته من المؤتمر. ولقد

كانت تمر في ظرف دقيق حيث كانت حرب البلقان لم تنته، والدول الكبرى تقف في جانب دول وشعوب البلقان، فرأت أن لا تزيد مشاكلها بمشكلة العرب، وهم نصف الدولة أو يـزيدون، وجنحت إلى موقف إيجابي بعد أن أخفق الموقف السلبي، حيث أخذ بعضهم يدلي بتصـريحات متلائمة مع الإصلاحات، ويقول إن قانون الولايات غير كافٍ، وإن من الحكمـة التفاهم مـع العرب وتقوية روابط الإخاء التركي العربي.

وكان من مظاهر هذا الموقف العجيب، أن طنـين التي حملت أشد الحمـلات على المؤتمـر والمؤتمرين واتهمتهم وهونت من شأنهم وأنذرتهم، وأخذت تردد شيئاً من معاني هذه التصريحات والأقوال، ولما يجفّ مـداد تلك الشتائم والغمـزات. ثم قررت جمعيـة الاتحاد والتـرقي إرسال سكرتيرها العام مدحت شكري إلى باريس، للتفاوض مع زعماء المؤتمر في صدد الإصلاحات، وتقريب وجهات النظر بين العـرب والترك. وتعـاون في مهمته مـع عبد الكـريم الخليل رئيس المنتـدى الذي كان يسير على خطة من حسن التواصل والتعايش مع زعماء الاتحاديين، فانتهت الاتصالات والمفاوضات إلى نصوص سميت بالوفاق التركي العربي. وتذكر بعض المصادر أنّ جمعية الاتحاد والترقي اتصلت في أول الأمر بالشبيبة العربية في الآستانة، وتفاهمت معهم على هذه النصوص، وحملها مدحت شكري لعرضها على زعماء المؤتمر، وأن هؤلاء الزعماء وافقوا عليها مع أنها دون المنهج المقرر لاظهار حسن نياتهم، وللبرهنة للحكومة الاتحادية وللعالم على أنهم يريدون الاصلاح، ولو أتى تدريجياً. وهذه هي(١٠٥):

١ ـ يكون التعليم بالدورتين الابتدائية والثانوية في جميع البلاد العربية باللغة العربية، وفي القسم العالي بالتركية.

٢ ـ يكون جميع رؤساء المصالح والموظفين، ما عدا الولاة، عارفين اللغة العربية، ويكون تعيين القضاة ورؤساء القضاء الذين ينصبون بارادة سنية من العاصمة، أما من عداهم من الموظفين فيعينون من الولاية.

٣ ـ تترك إدارة الأوقاف الموقوفة للجهات الخيرية المحلية لمجالس الجماعات المختلفة.

٤ ـ تترك الأمور النافعة (الأشغال العامة) للإدارة المحلية.

٥ ـ يخدم المجندون في المناطق العسكرية القريبة من بلادهم، ويختار الجند الـذي تدعـو الحاجة إلى إرساله إلى اليمن وعسير بنسبة عادلة من جميع أبناء السلطنة(١٠٦).

---

(١٠٥) أورد النصوص كل من أمين سعيد، في الجزء الأول من كتابه: الثورة العربية، وتوفيق برو في كتابه: الترك والعرب في عهد الدستور العثماني، والنصوص في الكتابين مختلفة سبكا متوافقة جوهريا ومعنى. والظاهر أنها وضعت في الأصل باللغة التركية، وترجمت عنها إلى العربية أكثر من تـرجمة، وهـذا هو سبب الاختـلاف اللفظي والسبكي، وقد اخترنا نصوص أمين سعيد لأنها أوضح.

(١٠٦) كان مما يشكو منه العرب أن أبناءهم يرسلون للذبح بيد اخوانهم العرب في اليمن والعسير حيث كانت=

٦ ـ مقررات المجالس العمومية تكون نافذة، فيما هو من اختصاصها القانوني[١٠٧].

٧ ـ يكون مبدئياً في الوزارة ثلاثة من أبناء العرب، ويعين منهم عدد من المستشارين والمعاونين في الوزارات، ويكون منهم اثنان أو ثلاثة في كل مجلس من مجالس شورى الدولة، ومحكمة التمييز، والمشيخة الإسلامية، وبقية المصالح الأخرى، ويكون منهم أربعة أو خمسة على الأقل في الدوائر المختلفة من كل وزارة.

٨ ـ يعين خمسة ولاة على الأقل من العرب، وعشرة متصرفين، وينصف الذين لم يرقوا منهم، ويعاملون معاملة زملائهم من موظفي الملكية والحقانية والشرعية الترك.

٩ ـ يعين عدد من العرب في مجلس الشيوخ (الأعيان)، بنسبة اثنين من كل ولاية.

١٠ ـ يستخدم مفتشون اخصائيون من الأجانب في كل ولاية بنسبة الحاجة، وتحدد وظائفهم واختصاصاتهم بنظام خاص.

١١ ـ تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللغة العربية على أن ينفذ ذلك تدريجياً.

١٢ ـ النقص[١٠٨] الموجود حالياً في ميزانيات الدوائر التي تركت إدارتها للولايات سيسد عن طريق إضافة الموارد الكافية لميزانية الولاية، وسيخصص نصف حصيلة ضريبة المسقفات إلى الادارات المحلية على أن تصرف لأمور المعارف.

وقد اتفق الجانبان على إبقاء هذه النصوص سرية إلى أن تصدر المراسيم اللازمة التنفيذية. غير أن وكالة أنباء روتر أذاعت نبأ الاتفاق وبدء تنفيذه، ونشرت نصوصاً فيها بعض المباينة، فسارع حزب اللامركزية في مصر إلى نشر النصوص ظناً منه أنه لم يبق ما يمنع نشرها. ثم أرسل برقية شكر إلى الصدر الأعظم أعرب فيها عن أمله بأن تكون الاتفاقية بداية عصر جديد من عصور الاصلاح الحقيقي. واستاءت الحكومة الاتحادية من نشر النصوص، وأصدروا تكذيباً لها ثم سارعت الحكومة إلى استصدار إرادة سلطانية بتاريخ ١٩١٣/٨/٥ جاء ما فيها دون ما تم الاتفاق عليه في نقاط كثيرة مدى ونصاً وروحاً، كما يتضح من المقارنة.

وهذه ترجمة الإرادة[١٠٩]:

إنه بالنظر إلى الضرورات واختلاف الأمزجة في الولايات العثمانية، وإلى وجوب ترقية البلاد

=ترسل الحملات لقمع التمردات والثورات التي كانت تقوم ضد السلطات التركية فيها، وكان معظم أفراد هذه الحملات من العرب فاهتم المفاوضون العرب لهذا الأمر في هذا النص.

(١٠٧) كان قانون الولايات يجعل تنفيذ قرارات بعض المجالس العمومية رهناً بموافقة الوالي، على ما مر بيانه، فاهتم المفاوضون العرب لهذا الأمر في هذا النص.

(١٠٨) هذا النص لم يرد في كتاب أمين سعيد، وقد أورده توفيق برو في كتابه، ولم يذكر سنداً. ونرجح أنه يستند إلى أصل ما.

(١٠٩) نقلناها من كتاب الثورة العربية، لأمين سعيد، ج ١.

وإسعاد أهلها وزيادة رفاههم، تقرر بعد الاتكال على الله، ومفاوضة الولايات ما يأتي:

١ ـ يعهد في إدارة الأوقاف الموقوفة على عمل الخير المحلي المشروط، صرف ريعها على الجهات الخيرية مع مراعاة شروط الوقف، إلى مجالس الجامعات في الولايات وذلك بموجب قانون خاص سينشر قريباً.

٢ ـ يؤدي الجنود خدمتهم العسكرية زمن السلم في دائرة التفتيش التابعين له. وإذا رأت الدولة أن الحال تقضي بزيادة عدد الجنود المحتشدة في جهة من جهات الحدود، فلها أن تسوق جميع الصفوف العسكرية من دون قيد ولا شرط. ويؤخذ الجند الذي تمس الضرورة إلى سوقه لليمن والحجاز وعسير ونجد وأمثال هذه المقاطعات من البلاد العثمانية بنسبة صحيحة.

٣ ـ يكون التدريس باللغة العربية في جميع مدارس الولايات التي تتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة، وذلك لتوفير أسباب الرقي والحضارة حالاً ومستقبلاً، على أن يبدأ منذ الآن في المدارس الابتدائية والثانوية مع جعل تعليم اللغة التركية إجبارياً. وينظر من الآن في الوسائل التي تؤدي إلى جعل التعليم العالي في البلاد العربية باللغة العربية، على أنه يجب أن يظل التعليم باللغة التركية في المدارس الثانوية في مراكز الولايات لتعم هذه اللغة.

٤ ـ يجب أن يلاحظ في تعيين الموظفين للبلاد العربية معرفتهم لغتها عدا اللغة التركية، وتعين الحكومات المحلية الموظفين من الدرجة الثانية طبقاً لما نص عليه في القوانين الخاصة بذلك، والذين يعينون بإرادة سنية يناط تعيينهم بالحكومة المركزية في الآستانة.

وقد أذاعت وزارة الداخلية بياناً قالت فيه: (لما كانت الغاية التي وضعناها نصب أعيننا، هي ارتقاء جميع الولايات العثمانية وضمان راحة سكانها ورفاههم بحسب أمزجتهم وحاجاتهم المحلية، فقد دارت بعد الاتكال عليه سبحانه وتعالى، مكاتبات مع الولايات بشأن الإصلاحات اللازمة، وتقرر الشروع في تنفيذها تدريجياً في نطاق الارادة السلطانية. (وأورد البيان فحواها)، وحباً بالإصلاح تقرر جلب مفتشين من الأجانب بقدر الحاجة على أن يعينوا في كل ولاية، ووضع قانون خاص لذلك. وعملاً بقانون الولايات، تقرر ضم جانب من الإيرادات العامة إلى ميزانية كل ولاية لسد العجز الواقع عن قيام ميزانيتها بالواجبات الملقاة عليها، وخصوصاً في الأشغال العامة والمعارف. ومن المقرر أيضاً تنفيذ القرارت التي تقررها المجالس العمومية ضمن دائرة اختصاصاتها بلا إبطاء).

ومع أن البيان تلاقى بعض أمور من المنهج المتفق عليه بين زعماء المؤتمر وموفد الجمعية والحكومة الاتحادية، فإن الثغرات ظلت واسعة بين ما أعلنته الحكومة وبين هذا المنهج، كما يتضح من المقارنة أيضاً.

ويظهر أن رجال الاتحاد لمحوا أن العرب شعروا بالثغرات الواسعة بين ما أعلن وبين ما تم الاتفاق عليه، فأخذوا يصرحون بأن ما أعلن ليس كل ما يراد تقديمه للعرب، وإنما كان الإعلان

خطة لمنع العناصر الأخرى من التحرك والطمع، ويطلبون من العرب الصبر والأناة وحسن التقبل.

وانقسم المطالبون بالإصلاح والواعون القوميون العرب من الفئتين الأولى والثانية نتيجة لذلك قسمين، قسم وقف متربصاً مشككاً، وقسم أخذ بما سمعه من الاتحاديين من تطمين ووعود.

وكان من أبرز هذا القسم عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي الذي قاد حركة القبول، وبذل جهده حتى ألف وفداً كبيراً من شباب ورجالات العرب في الآستانة، وفيهم غير واحد من رجال الفئة الثالثة وفي مقدمتهم عبد العزيز جاويش وذهبوا إلى الباب العالي - مركز رآسة الوزارة التي كانت تسمى الصدارة العظمى - حيث أعربوا عن شكرهم للدولة على استجابتها للمطالب العربية، وطالبوا بالغاء الحكم العرفي عن بيروت، والسماح بصدور الصحف العربية المعطلة - وهي التي كانت تؤيد المطالب الإصلاحية، وعطلتها الحكومة حينما ألغت الجمعية الإصلاحية - كما اغتنموا الفرصة، فطالبوا بمنع بيع الأراضي لليهود في فلسطين. وكانت هذه المسألة من المسائل التي أخذت تبرز كمشكلة منذرة بالخطر بسبب تعضيد بعض رجالات جمعية الاتحاد والترقي اليهود مثل نسيم مزراحي، أو الذين هم يهود أصلاً مما كان يعرف بالدونمة (المرتد) مثل جاويد وحسين جاهد، حيث كانوا يبذلون جهدهم في إلغاء الحظر الذي كان موضوعاً من زمن السلطان عبد الحميد الثاني على بيع الأراضي لليهود الأجانب، وإقامتهم في فلسطين إقامة طويلة على ما ذكرناه في نبذة موجز تاريخ الدولة العثمانية[1]. وحيث أخذ اليهود ينشطون في سبيل شراء الأراضي في فلسطين من كبار الملاكين السوريين واللبنانيين بعد إعلان الدستور، وفي الحصول على امتياز استعمار بعض أراضي الدولة في فلسطين. وقد أظهر الصدر الأعظم اغتباطه بحضور الوفد العربي، وكرر الوعود بعزم الحكومة على تنفيذ الإصلاحات، كما وعد بالنظر بالمطالب الأخرى. ثم أقامت الشبيبة العربية في ١٩١٣/٨/٥ وليمة في فندق توقاتليان لزعماء جمعية الاتحاد والترقي، شهدها جمهور من وجهاء العرب وشبابهم، وألقيت فيها الخطب العربية والتركية من رجال العرب والترك. وكرر الاتحاديون وعودهم، حتى لقد جاء في خطبة لطلعت باشا أحد كبار أقطابهم قوله (إن معارضتنا اللامركزية كانت خشية من سوء استعمالها وأثرها بالنسبة للعناصر البلقانية. وقد زال المحظور بانفصال هذه العناصر عن الدولة، ولم يبق ما يمنعنا من السير في هذا السبيل، والمضي فيه إلى آخر الحدود في سبيل تطمينكم على صيانة حقوقكم، وضمان التفاهم معكم على سياسة جديدة).

وفي غمرة من الابتهاج والطمأنينة، أبرق عبد الكريم الخليل إلى أعضاء المؤتمر في باريس بالحضور إلى الآستانة لمراقبة تنفيذ الاتفاقية. واستجاب أعضاء المؤتمر فأرسلوا وفداً منهم مؤلفاً من سليم علي سليم، والشيخ أحمد حسن طبارة وأحمد مختار بيهم - والثلاثة من أركان جمعية الإصلاح البيروتية - وأخذ هؤلاء مع عبد الكريم الخليل ورفاقه المتحمسين لموقف الاتحاديين الايجابي في الظاهر يبذلون مساعيهم، وقابلوا السلطان وشكروه وأعربوا له عن تعلق العرب بالعرش

العثماني، ورجوه بأن يأمر بتنفيذ الإصلاحات بالسرعة لأنها الطريق الوحيد لترقية البلاد، فشكرهم ووعدهم وقابلوا ولي العهد أيضاً. وأولمت جمعية الاتحاد لهم وليمة في ١٩١٣/٨/٢٧ شهدها جمهور من رجال وشباب الترك والعرب، وخطب الخطباء من الطرفين فيها من جانب العرب توكيد الولاء للدولة والرغبة الصادقة في الإخاء العربي والتركي وصلاح الدولة وقوتها، وفيها من جانب الترك الرغبة الصادقة في حسن التفاهم والتصافي بين العرب والترك والتمني بأن يكون الاتفاق مقدمة سعيدة للأمة والدولة. وفيها اعتراف بحق العرب بما قاموا به من حركة إصلاحية، وتنويه بصدق رغبتهم، وثناء على القائمين بها من رجال الجمعيات الإصلاحية والمؤتمر، وتكرار للوعود بتنفيذ الاتفاق، حتى لقد هتف طلعت باشا بحياة بيروت التي كانت رائدة هذه الحركة، وأبرق عبد الكريم الخليل للشيخ عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر بالحضور هو الآخر إلى الآستانة للاشتراك في المساعي، والإشراف على تنفيذ الاتفاق فجاء هو الآخر وانضم إلى رفاقه.

على أن الاتحاديين من جهة تباطأوا في السير في تنفيذ الاتفاق وأخذوا يحورون في مداها. ومن جهة أوعزوا لرجال الفئة الثالثة لتأييدهم في موقفهم وتحويرهم، فكان ذلك مما جعل الفريق المتربص المتشكك يزداد تربصاً وتشككاً، وجعل حزب اللامركزية في مصر يصدر بياناً يطالب فيه الحكومة الاتحادية بالجد في تنفيذ الاتفاق والاصلاحات الموعودة، مع توكيده بتمسك العرب بالدولة والإخاء العربي التركي. وظل الزهراوي ورفاقه يبذلون مساعيهم، والاتحاديون يراوغون حتى سئموا وعزم الزهراوي على الرحيل، وعقد مؤتمراً صحافياً اشار فيه إلى ما هو ملموح من تردد الحكومة، عازياً ذلك إلى خلاف قام بين أعضائها في صدد الإصلاحات المتفق عليها، وأن بعضهم كان يرغب في ذلك، وبعضهم كان يرى عدم التقيد بالنصوص وأخذ العرب بالشدة. وحرك الحديث الفريق المعتدل من الاتحاديين وجعله يضغط على المتشددين منهم، وأدى ذلك إلى خطوة تنفيذية بعد استنكار طويل، حيث أعلنت الحكومة في ٤ يناير ١٩١٤ تعيين كل من السادة: عبد الحميد الزهراوي، وعبد الرحمن اليوسف، ومحمد بيهم، ويوسف سرسق، ومحي الدين النقيب، وأحمد الكخيا وسليمان الباروني أعضاء في مجلس الأعيان، وتعيين عبد الوهاب الانكليزي وشكري العسلي مفتشين للعدلية في سورية، وآخرين في دوائر الوزارات. وحيث طلبت من الزهراوي مساعدتها على ترشيح أسماء مناسبة من رجالات العرب وشبابهم لتعيينهم في مناصب عالية أخرى، وحيث أدخلت تعديلات على قانون الولايات، أوجبت أن يكون موظفو الولايات من العارفين باللغة المحلية، وأن تستعمل اللغة المحلية والمرافعات أمام بعض المحاكم، وأن تبلغ أوراق الدعاوى والأحكام إلى أصحابها باللغة المحلية كذلك، وأن تنشر القوانين والأنظمة وقرارات الحكومة باللغتين التركية والمحلية، وحيث أمرت بانشاء مدرستين عربيتين ثانويتين واحدة في دمشق وأخرى في بيروت. وبقضاء المجندين مدة خدمتهم الإجبارية العسكرية في مناطقهم.

وقد رأى الزهراوي[19] في هذه البوادر حسن رغبة من الاتحاديين في ارضاء المطامح العربية، وكتب بما راه إلى حزب اللامركزية في القاهرة، ودعا رئيس الحزب رفيق العظم واحد أركانه الشيخ رشيد رضا إلى الآستانة ليكونوا في عداد من تسند إليهم المناصب العالية الموعودة. ومع أن الركنين

الحزبيين توجسا ولم يستجيبا للدعوة، فإن الحزب وافق على قبول الزهراوي لعضوية الأعيان، وأذن له بالاستمرار في الاتصال بالاتحاديين، وبذل الجهد في سبيل المزيد من البوادر والخطوات.

وفي كتاب (إيضاحات) الذي أشرنا إليه في مناسبات سابقة، نص برقية من رفيق العظم إلى الزهراوي جاء فيها: (قرر حزب اللامركزية بالاتفاق قبولكم لعضوية الأعيان، واعتماد الحزب عليكم بأن تكونوا واسطة لدى الحكومة لأجل المطالب الأخرى).

على أن ما جرى أدى إلى الانقسام بين الفئتين القوميتين العربيتين الأولى والثانية حيث أيد فريق منهما موقف الزهراوي ورأيه فيما تم، واعتبار ذلك بوادر مشجعة، وحيث رأى فريق في الإرادة السلطانية والبيانات التي أصدرتها الحكومة قصوراً عما تم الاتفاق عليه بين زعماء المؤتمر والاتحاديين، ورأى في موقف هؤلاء قصد المراوغة والخداع، ولم ير فيما تم ما يطمئن المطامح والمطالب العربية، وأخذ هذا الفريق في الآستانة والمدن العربية وفي المهاجر يهاجم الزهراوي ويرى في قبوله لعضوية الأعيان خرقاً لقرار المؤتمر. وكان من جملة المعارضين حقي العظم أحد أركان حزب اللامركزية وسكرتيره العام.

ولقد كان من أقوى المتطابقين مع الزهراوي في موقفه، بل ومن أقوى المؤثرين عليه فيه عبد الكريم رئيس المنتدى ومن أبرز الفئتين. ومن طريف ما جرى أن فريقاً كبيراً من شباب العرب في الآستانة من أعضاء المنتدى، استدعوا عبد الكريم، وعقدوا معه اجتماعاً ناقشوه فيه في موقفه، ثم ألفوا لجنة للاستماع إلى مبررات هذا الموقف، لأنه قال انه لا يستطيع البوح بها أمام جمع كبير مثل جمعهم الذي بلغ ألف شخص. واستمعت اللجنة إلى أقواله التي حاول بها إقناعها بحسن رغبة الاتحاديين، وبفائدة وضرورة الاناة والمسايرة معهم، وإشعارهم بقصد الولاء، حتى يمضوا في تنفيذ الاتفاق وتحقيق الوعود. وذكر فيما ذكر من المبررات الأخطار والمطامع الأجنبية التي قد تنشأ من سعة الخلاف والنزاع وتطورهما بين العرب والترك. وقد قنعت اللجنة بأقواله وأعلنت أنها ترى من المصلحة الاستمرار في الثقة بعبد الكريم الخليل، والسماح له بالاستمرار في خطة التواصل والمساعي مع الاتحاديين، من أجل تحقيق مطامح العرب ومطالبهم الموعود بتحقيقها كاملة، مع توصيتها بتشكيل لجنة استشارية يتبادل معها الرأي ويستعين بها في مساعيه.

غير أن فريقاً كبيراً من الفئتين ظل متجهماً غير راض، واستمر يحمل على عبد الكريم والزهراوي والذين تطابقوا معهما في خطة حسن الثقة والانسجام مع الاتحاديين. وأدى ذلك إلى ميوعة وبلبلة في موقف الفئتين، كان من نتيجتها أن وقفت الخطوات الإصلاحية عند الحد الذي جرت إليه. وأثار ذلك في نفس الزهراوي مرارة ومضضاً عبر عنه في رسالة بعث بها لرشيد رضا، شرح فيها حالة العرب وانقسامهم وظروفهم وعدم نضجهم وما يثيره ذلك في نفسه من مرارة ومضض، ثم غادر الآستانة دون ممارسة طويلة لعضوية الأعيان، وذهب إلى القاهرة حيث انضم إلى جماعة الحزب الذين قنعوا بأن الاتحاديين لن يسيروا في طريق تحقيق المطالب والمطامح العربية أكثر مما ساروا.

ومهما يكن من أمر فالذي يتبادر أنه كان في الخطوات التي تمت أمور كثيرة كان الإصلاحيون يطالبون بها مهما كانت مقصرة عن جميع المطالب. وأن موقف الزهراوي والخليل ودعوتهما إلى الأناة والصبر وحسن الانسجام وما جاء من مبررات ذلك على لسان عبد الكريم لا يخلو من سراب، وأن الفئات المعارضة لم تكن محقة كل الحق في موقفها المعارض الذي أدى إلى البلبلة والميوعة وجعل الاتحاديين يقفون عند الحد الذي وصلوا إليه. وأنه لو ساد الانسجام والتطابق في الفئتين، لكان من المحتمل أن تكون خطوات أخرى، ولكان تفودي تطور الموقف بين الإصلاحيين والاتحاديين إلى ما تطور إليه بعد إعلان الحرب وفي أثنائها على ما سوف نشرحه بعد.

ومع ذلك، فإن الاتحاديين يتحملون قسطاً كبيراً من المسئولية بدون ريب، فقد اتفقوا مع زعماء المؤتمر على منهج محدد، وكان عليهم أن يلتزموا به بدون مراوغة ولا تحوير. ولقد كانت مراوغتهم وتحويرهم مما أثار شبهة سوء النية في الفئة المعارضة فوقفوا موقفهم. وفي رسالة أرسلها رفيق العظم إلى أسعد داغر يقول (حسبنا ما كان من نتائج المؤتمر عبرة وذكرى. ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين). والكتاب مؤرخ في ٣٠ تموز ١٩١٤، ومن المحتمل أن يكون أسعد داغر من الفئة التي كانت متطابقة مع الخليل، وأنه لمح احتمال تحسن الجو والنيات في الآستانة، فأرسل يخبر رفيق العظم بالأمر، ويحثه على اغتنام الفرصة، ويظهر أن رفيقاً والحزب استمروا فيما وصلوا إليه من قناعة، بأن الاتحاديين لن يتزحزحوا عن موقفهم الذي وصلوا إليه.

ولقد ذكرنا قبل في سياق سيرة حزب اللامركزية، أنه أخذ يفكر في تعديل بروغرامه والدعوة إلى مؤتمر ثان. والمتبادر أن ذلك كان نتيجة لما انتهى إليه الموقف بعد المؤتمر، وما قام من قناعة عند أركان الحزب.

وفي كتاب (إيضاحات) رسالة من حقي العظم إلى محمود المحمصاني جاء فيها: «من خصوص تهافت الذين سموا أنفسهم طلاب إصلاح على ترويج أغراضهم الخصوصية، فهذا وإن كان يسؤونا، ولكن لا غرابة في وقوعه، بل كان من المنتظر أن يحدث بيننا كما حدث من قبل بين طلاب الإصلاح الأرمن والبلغار والروم وغيرهم، مع أن تربية هؤلاء السياسية أمتن من تربيتنا نحن معاشر المسلمين، كما أنهم أثبت على المبدأ وأقل اتفاقاً. فإذا كان يوجد من الألف منهم منافق واحد من أمثال. . . (لم يوردالكاتب الاسم) فإنه يوجد ٨٠ في المئة منا من أولئك المنافقين الذين لا ذمة لهم ولا وطنية ولا ولا. زد على ذلك اعتياد جماعتنا على الخضوع والخنوع إلى الحكومة ورجالها بسبب الذلة والمسكنة التي ضربها عليهم الأتراك من أجيال أولاً، وثانياً الجري وراء المنفعة الشخصية التي لا تتأخر الحكومة عن منحها إلى الأعيان النفعيين منا نظير ما يقدمونه لها من المساعدة على إماتة عواطف الشعب.

لذلك أيها الأخ يجب أن نعرف كيف نسلك مع الحكومة، وكيف نربي المنافقين منا ونوقفهم عند حدهم كما فعل الأرمن والبلغار والروم بمنافقيهم، وأن نتذرع بالصبر والثبات على المبدأ والاستمرار على الخطة القويمة التي رسمناها لأنفسنا، وتيقنوا أننا لا بد من أن نحصل يوماً على ضالتنا المنشودة، ومن سار على الدرب وصل، وسنصل إن شاء الله نحن أيضاً».

ومما ورد في كتاب (إيضاحات) ان من جماعة الجمعية الإصلاحية البيروتية من تراجع واكتفى بما فعلته الحكومة من التعديلات في قانون إدارة الولايات، وهذا من نتائج أو مظاهر البلبلة والميوعة اللتين صار إليهما موقف الفئتين القوميتين بطبيعة الحال. ولقد عرف الناس في وقتها أن امتياز تجفيف الحولة منح لبعض أركان الجمعية الإصلاحية البيروتية ومنهم سليم علي سلام وأحمد مختار بيهم[110]. ولقد نجا الرجلان من بطش جمال باشا الذي لم يكد ينجو منه أحد من رجال الحركة الإصلاحية والمؤتمر، بما فيهم الزهراوي وعبد الكريم الخليل، اللذين كانا من دعاة الانسجام والأناة والقبول بما أعطته الحكومة كخطوة أولى. والمرجح أن هذا الامتياز وأصحابه من الاصلاحيين هو ما قصده حقي العظم في رسالته، وأنهم ممن قصدهم كاتب كتاب (إيضاحات) الذين قال انهم تراجعوا واكتفوا بما فعلته الحكومة.

ويجب أن لا ننسى تأثير الفئة الثالثة فيما كان من تجمد الحركة الإصلاحية ووقوفها عند الحد الذي وقفت عنده. فقد كانت تندفع في تصويب كل ما تفعله الحكومة الاتحادية والاطناب به، ولوم الاصلاحيين واتهامهم. ولقد كانت الفئات الوجيهة النافذة في البلاد تتأثر بهذه الفئة أكثر من الفئتين الأولى والثانية ضماناً لمصالحها لدى الحكومة. ولقد كانت أكثرية المسلمين العظمى، وهم أكثرية السواد العربي الأعظم، غير منفعلة بالتيار السياسي. وكانت الصفة الدينية التي تعيشها تجعلها منسجمة مع الدولة العثمانية التي كانت تتسم بسمة دولة الخلافة الإسلامية، فكان هذا وذاك من أسباب ذلك التجمد أيضاً.

- ٦ -

٦ ـ التكتل المختلط العلني:

لم تكن البوادر التي كانت تبدر من الاتحاديين وما كان يرافقها من غلو وتطرف ورغبة في الاستعلاء العنصري والحزبي موجهة إلى العرب فعلاً، وإن كانوا هم الهدف الأبرز لسبب كثافتهم ومركزهم، بل كانت موجهة إلى العناصر الأخرى أيضاً مما جعل الواعين من هذه العناصر المنفعلين

(١١٠) عرفنا مؤخراً، استناداً إلى وثيقة رسمية، أن الامتياز صدر في حزيران/ يونيو ١٣٣٠ لاسم محمد بيهم وميشيل سرسق زعيمي المسلمين والنصارى في بيروت، وأذن لهما بتأسيس شركة لاستثمار الامتياز وأسسوا الشركة. والأرجح أن ذلك كان لارضاء الأطراف، وأن سليم علي سلام وأحمد مختار بيهم كانا من الساعين في الحصول عليه، وصارا مساهمين في الشركة. ولقد آل الامتياز والشركة في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٤ إلى شركة تحسين الأراضي اليهودية في فلسطين. وكان المباشر لعملية هذه الأيلولة سليم علي سلام، فقد انتدبته الشركة لتثبيت الامتياز حينما انتهت الحرب بخروج فلسطين من سلطان الدولة العثمانية، ووقوعها تحت السيطرة الانتدابية الانكليزية. وخولته في الوقت نفسه بالقيام ببعض العمليات الاستثمارية، وقد استطاع تثبيت الامتياز، ولكن عمليات الاستثمار سارت متعثرة، ووقع سليم علي سلام والشركة معاً تحت ديون كثيرة، مما زهد مساهمي الشركة بسهامهم، وأتاح لسليم علي سلام أن يشتري كل أو جل هذه السهام بالديون التي كانت له على الشركة، وبما استدانه من أموال أخرى. وتمّ الاتصال بينه وبين شركة تحسين الأراضي اليهودية بمباركة وتسهيل الحكومة الانكليزية، حتى تم البيع والشراء.

بالتيار السياسي، يبادرون إلى الوقوف منها موقف المناوأة والمعارضة بسبيل الدفاع عن حقوق عناصرهم ومركزهم في الدولة.

ولقد كانت هذه البوادر تثير نقمة فريق من الأتراك المعتدلين غير الاتحاديين أيضاً لأنهم كانوا يرون فيها عصبية حزبية، يصيبهم بسببها الحرمان، ويرون فيها في الوقت نفسه ضرراً وخطراً على الدولة التي هي دولتهم أيضاً. فكان كل هذا مما يؤدي إلى التلاقي بين الناقمين الواعين من العرب وغير العرب، والتضامن معاً في المعارضة والمناوأة. وقد نتج عن ذلك تكتلات معارضة للاتحاديين مزيجة من عرب وغير عرب وهو ما قصدناه من العنوان.

(١) من ذلك (الحزب الحر المعتدل)، وكان تكتلاً نيابياً، اندمج فيه فريق كبير من نواب العناصر المختلفة، حيث اجتمعوا وتدارسوا الموقف في أواخر عام ١٩٠٩، وقرروا تأليف هذا الحزب الذي نص منهاجه على (بذل الجهد لتأمين حقوق العناصر التي تتألف منها الدولة ومساواتها ببعضها مساواة تامة، والمحافظة على شخصية كل عنصر ومميزاته، مع بذل الجهد في توثيق روابط الاتحاد بينها، والوقوف سداً منيعاً أمام التجزئة والتفكك في بنيان المملكة. وتم تأسيسه رسمياً في أوائل عام ١٩١٠، وكان من أركانه من غير العرب اسماعيل كمال بك وحسن بك، ومفيد بك من زعماء الأرناؤوط، وشريف باشا من زعماء الأكراد، ولطفي فكري بك واسماعيل حقي بك ورضا توفيق بك ورضا نور بك من كبار خطباء ومتنوري الترك، وبونشو من زعماء الروم، وشكري العسلي وشفيق المؤيد ورشدي الشمعة من نواب دمشق، ونافع الجابري نائب حلب، ويوسف شتوان نائب طرابلس الغرب، وسعيد الحسيني نائب القدس، وعبد الحميد الزهراوي نائب حمص، ورضا الصلح نائب بيروت، وحسين بك وخضر بك وداود يوسفاني وطالب النقيب ومهدي بك من نواب العراق. وكان هناك نواب آخرون من الأرمن والروم وغيرهم ذكرت المصادر صفاتهم دون أسمائهم. وقد بلغ عدد المنضوين في الحزب خمسين في رواية، وثمانين في رواية أخرى. وكانت الجمهرة الكبيرة من نواب العرب. وقد أنشأ الحزب جريدة تنطق بلسانه اسمها (جدال) وكان هناك صحف أخرى تنطق بلسانه منها (تنظيمات) و(مطبوعات) و(اصلاحات) و(تأسيسات) على ما ذكرته بعض المصادر.

(٢) ومن ذلك (حزب الأهالي). وكان غايته (تحقيق احترام حقوق جميع العناصر والسكان، مع بذل الجهد في تحسين أوضاع العمل والاجراء وضمان حقوقهم. والمحافظة على دوام الائتلاف بين العناصر، والقضاء على أسباب التفرقة والخلاف. وقد تأسس في أواسط عام ١٩١٠، وقام في الدرجة الأولى على اكتاف ومساعي نواب كانوا من نواب الاتحاديين، فانفصلوا عن الحزب لخلاف في وجهات النظر في صدد إدارة أمور الدولة. وممن ذكرت أسماؤهم من العرب فيه فرهاد بك مبعوث طرابلس الغرب. وكانت بعض الصحف التركية تعضده وتدعو بدعوته، ولم يكن له صحف خاصة كالحزب السابق.

ولقد تضامن الحزبان، وكانت لأعضائه النواب مواقف قوية في الدفاع عن أهداف حزبهم، والتنديد بتصرفات ومواقف الحكومة الاتحادية وحزبها ونوابها، واستطاعوا أن يربكوا

الاتحاديين إرباكاً شديداً، وخاصة في ظروف غزو ايطالية لطرابلس الغرب، ثم في ظروف تأزم الموقف بين الدولة والامارات البلقانية في أواخر عام ١٩١١، واستطاعوا أن يؤثروا على عدد كبير من النواب غير الاتحاديين. وكاد الاتحاديون يفقدون أكثريتهم في المجلس النيابي، مما جعلهم يقررون حله ويجرون انتخابات تعسفية ويأتون بأكثرية جديدة كبيرة. وادى هذا إلى تمرد عسكري ضدهم اشتد حتى اضطروا إلى التخلي عن الحكم، فخلفهم فيه حكومة معارضة. ثم استعادوا جأشهم واغتنموا فرصة ارتباك الحكومة وضعفها إبان الحرب البلقانية، فقاموا بانقلاب دموي في كانون الثاني ١٩١٣ استعادوا به الحكم ثانية على ما شرحناه في سياق سيرة حزب اللامركزية والجمعيات الإصلاحية.

(٣) ومن ذلك حزب الائتلاف والحرية الذي كان حزباً عاماً، أي غير نيابي، بل سياسي شعبي، له فروع في مختلف أنحاء البلاد، وله في الوقت نفسه هيئة نيابية تدافع عن منهجه تحت قبة البرلمان.

وكان الداعي إلى تأسيس هذا الحزب ورائده، الأميرالاي صادق بك أحد أركان جمعية الاتحاد والترقي الذي امتعض من غلو رفاقه وتحكمهم فانفصل عنهم، واستقال من الجيش، وعمد إلى تكوين كتلة من المنفصلين عن الجمعية المذكورة لنفس السبب وألف الحزب.

وممن ذكرت المصادر اسماءهم من العرب الذين كانوا اتحاديين، وانفصلوا عن الجمعية الاتحادية، وانحازوا إلى صادق بك، وانضموا إلى الحزب الذي ألّفه سعد الدين المقداد نائب حوران، وعلي نائب بغداد، وفرج مبعوث العسير، وشوكت باشا مبعوث الديوانية، وأمين أرسلان مبعوث اللاذقية، وكامل الأسعد مبعوث بيروت.

وقد تأسس الحزب في أواخر سنة ١٩١١، وانضم إليه الحزبان الأولان لتقارب المنهج ولتوحيد كلمة وقوة المعارضة للاتحاد والترقي. وكان منهجه لامركزياً حتى لكأن حزب اللامركزية العربي أخذ منهجه عنه، حيث كان ينص على أن تكون أمور الولايات المحلية كالتعليم والأشغال والتجارة والصناعة والزراعة من مهام السلطات المحلية، وعلى أن يكون لكل ولاية مجلس تشريعي له سلطات الاشراف على الحكومة التنفيذية والتشريع للشؤون المحلية المذكورة، وعلى أن تكون الخدمة الجندية الإجبارية في بلد المجند، وبكون التعليم في مدارس كل ولاية باللغة المحلية، ويكون لبعض الولايات إدارة خاصة إذا كانت أحوالها تقتضي ذلك، مع بقاء الشؤون العامة المشتركة والخارجية والدفاع من خصائص الحكومة المركزية.

ولقد كان تأسيس الحزب في الظرف الذي كان الاتحاديون فيه في الموقف المرتبك الذي اضطروا فيه إلى التخلي عن الحكم والذي أشرنا إليه آنفاً، فجاءت الحكومة التي خلفتها من ميوله أو المنتسبين إليه. وهيأ ذلك للحزب انتشاراً وصيتاً وفرصة نشاط ونجاح كبيرين لبضعة أشهر. وقد زاده انضمام الحزبين الأولين إليه قوة ونشاطاً ونجاحاً. وكان له حسن تقبل وترحيب وتأييد في الأوساط القومية العربية في بلاد العرب وبخاصة في بلاد الشام والعراق، وانضوى اليه كثيرون من البارزين من الفئتين الأولى والثانية.

ولقد ذكر كتاب (إيضاحات) ان مؤسسي حزب اللامركزية اتصلوا بهذا الحزب واتفقوا معه على التضامن في المواقف والمطالب، وأوعزوا إلى أنصارهم في بلاد الشام والعراق بتأييد الحزب وإنشاء فروع له، وان ذلك كان بمساعي شكري العسلي، وعبد الرحمن شهبندر، وعبد الكريم الخليل، ويوسف مخيبر حيدر.

وقد ذكرت قبل ما كان من موقف شخصي لي ولبعض الرجال العرب في نابلس وانشائنا فرعاً للحزب فيها. ولا بد من أن يكون آخرون من أمثالنا أنشأوا فروعاً في مدن عربية أخرى.

ولم يطل نشاط هذا الحزب العلني، فإن الاتحاديين لما عادوا إلى الحكم بالانقلاب الدموي الذي شرحنا كيفيته وظروفه ألغوه. فتوارى هو ومن انضوى اليه من الأحزاب الأخرى عن مسرح العمل العلني. ولقد ذكر عمر أبو النصر في الجزء (١٨) من مجلة الحرب العظمى، أن الحزب كان ضد دخول الدولة العثمانية للحرب، وأنه أخذ يبث الدعاية ضد الاتحاديين بذريعة توريطهم الدولة، وأنه اغتنم فرصة وجود أنور باشا وزير الحربية في جبهة القفقاس وجمال باشا في سورية، فقرر القيام بحركة انقلابية في ٢٠ كانون الثاني ١٩١٥ م. غير أن طلعت باشا الركن القوي الثالث في الاتحاديين انتبه للحركة فاتخذ التدابير الوقائية، وأنذر كل من تحدثه نفسه بأية حركة بالنكال الرهيب، بل وأنذر بقصف الآستانة بواسطة الباخرتين الألمانيتين برسلو وغوبن اللتين انضمتا إلى الأسطول العثماني عقب إعلان الحرب، فمنع كل ذلك الائتلافيين من تنفيذ قرارهم. ولما رجع أنور باشا بعد قليل عمد إلى مطاردة أركان الائتلافيين والبطش فيهم، فسكنت نأمتهم.

- ٦ -

التكتل السري العربي

لما رأى الواعون العرب من الفئتين تجهم الاتحاديين وغلاة الترك للنشاط العربي بسبيل حقوق العرب ومركزهم في الدولة، وما تعرضت له جمعية الإخاء العربي لمناوأة وإغلاق، واستمرارهم في البوادر التي كانت تبدر منهم في مناوأة ذلك النشاط وأهدافه، رأوا أن يعمدوا إلى السرية في التكتل، وتنظيم الدعوة إلى حقوق العرب وتوطيدها، حتى ينجوا من الملاحقة والمناوأة والأذى، حيث كان الاتحاديون هم أصحاب اليد القادرة في دوائر الدولة على ذلك.

وقد كان لهم تكتلات عديدة، نوجز أخبارها الميسورة فيما يلي:

١ ـ الجمعية القحطانية:

وهي أقدم التكتلات العربية السرية. وكان إنشاؤها في أواخر سنة ١٩٠٩ م. وفي كتاب (إيضاحات) نبذة عنها ذكر فيها أن مؤسسها خليل حماده المصري ناظر الأوقاف، وعبد الحميد الزهراوي وعزيز علي المصري وسليم الجزائري، ثم ضموا إليهم حقي العظم، والأمير أمين أرسلان وحسن حماده، والأمير عادل أرسلان وعزت الجندي. وأنه كان لها رموز يتعارف أعضاؤها

بها. ومن ذلك تهجئة كلمتي (هلال) أو (أبي بكر) بين شخصين، يسلم أحدهما على الآخر فيقول أحدهما (هاء)، فإذا أجاب الآخر (لام)، عاد الأول فيقول (ألف)، فإذا أجاب الآخر (لام)، فيعرف الاثنان أنهما عضوان في الجمعية، أو يهجئان كلمة (أبي بكر) على هذا النحو.

وقد ذكر الكتاب أن الجمعية كانت تنشر مساوىء الدولة ومظالمها بين شباب العرب وبالخاصة بين ضباطهم، وأن خليل حماده ما لبث أن توفي، وأن عبد الحميد الزهراوي ما لبث أن فر من الآستانة، فانتهى أمر الجمعية عند هذا الحد. غير أن أعضاءها أنشأوا بعدها ثلاث جمعيات هي (العهد) و(الجمعية الثورية) و(حزب اللامركزية).

وفي كتاب الثورة العربية لأمين سعيد (ج ١) نبذة عن هذه الجمعية فيها بعض التطابق وبعض التباين وبعض التفصيلات الأخرى. ومما جاء فيه أن فكرة إنشاء الجمعية كانت من خليل حماده. وقد فاتح فيها عبد الحميد الزهراوي أو سليم الجزائري وتطابقا عليها وأنشأاها فعلاً سرية، وغايتها (بث المبادىء الصحيحة بين أبناء الأمة، وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف). وكان أسلوب التعارف بين أعضائها ضغط العضو حين تسليمه على آخر على أصابع يده، ثم يضع الشاهدة الوسطى على الذراع الأيسر، ويخفي بقية الأصابع • ويهجي معه كلمة (هلال)

ومما ذكره المؤلف أن مبادىء الجمعية انتشرت بين شباب العرب وضباطهم. وكثر عدد المنتسبين إليها منهم، وأنه كان من نظامها أن يدخل أي عضو فيها أي شخص آخر لعضويتها بدون استئذان، وأن من الذين انضموا إليها الدكتور عزت الجندي وحسن حماده وعبد الكريم الخليل وعلي النشاشيبي وعادل أرسلان ولطفي الحافظ، وانها عاشت إلى بداية الحرب العظمى.

وفي كتاب القومية العربية لمصطفى الشهابي ذكر لهذه الجمعية أيضاً فيه تطابق وتباين مع ما مر. وقد جاء فيه أنها أول جمعية سرية قومية، وأنها تأسست سنة ١٩٠٩، وكان من أركانها الأولين عبد الكريم الخليل وعارف الشهابي وسليم الجزائري وعادل أرسلان وأمين لطفي الحافظ. وكان هدفها إيقاظ العرب من سباتهم، وتذكيرهم بماضيهم المجيد، وبكيانهم القومي الحاضر، وحثهم على المطالبة بحقوقهم في الدولة. وظلت قائمة إلى إعلان الدولة الحرب. ثم انتسب اعضاؤها إلى جمعيتي العهد والفتاة.

ومما ذكره المؤلف أن الجمعية القحطانية ظلت مسدولاً عليها الستار من غير أن يهتدي إليها الأتراك، ثم طواها الزمن في طياته. ولكن الأتراك عرفوا خبرها أثناء تحقيقاتهم مع رجال الحركة العربية عبر ديوان حرب عاليه العرفي العسكري. وليس في المصادر الميسورة أي تفصيل لنشاط الجمعية، ويبدو أنها انشئت لبث الدعوة القومية بين شباب العرب وضباطهم وحسب.

٢ ـ الجمعية الثورية العربية:

يذكر كتاب (إيضاحات) هذه الجمعية في موضع فيقول: إنها نشأت هي وحزب اللامركزية وجمعية العهد، حينما انتهى أمر الجمعية القحطانية على ما مر بيانه. ويذكرها في موضع آخر فيقول: إنها اسم ثان للجمعية القحطانية. ولكن الكلام يفيد أنها فعلاً جمعية أخرى، حيث جاء في

السياق أنها أنشئت من قبل عزيز علي المصري، واشترك معه فيها حقي العظم، وفؤاد الخطيب وضباط آخرون. وحقي العظم وفؤاد الخطيب لم يذكرا في عداد الأعضاء الذين عرفوا من أعضاء الجمعية القحطانية.

وفي كتاب (إيضاحات) نص بلاغ منسوب إلى الجمعية الثورية صدر في مناسبة سجن الاتحاديين لعزيز علي المصري، موجه إلى الأمة العربية فيه تنويه بفضائل عزيز وكونه أولى من أنور بوزارة الحربية. وتنبه إلى أن حقد الاتحاديين عليه جعلهم لا يكتفون بحرمانه من حقه في الرتب العالية، بل ويقبضون عليه ويحاكمونه ويحكمون عليه بالإعدام دون التفات للالتماسات الكثيرة المقدمة من عظماء مصر والعالم الإسلامي، ثم يقول البلاغ: (ولقد نجا فتانا العربي من أيدي الظلمة السفاحين، لا لخاطر المسلمين وعواطف العرب الذين لا تساوي خواطرهم وعواطفهم قرشاً واحداً في نظر هذه الدولة المنحوسة، بل لأجل خاطر رجل لا يلبس طربوشاً ولا عمامة، بل نتيجة لمداخلة الانكليز. هذه هي الحقيقة فلا تنخدعوا، هذه حادثة عزيز أمامكم فاعتبروا، لولا الانكليز لم يخرج عزيز من القفص. ولكن ليس كل واحد من ضباطنا في القفص، يحس به الانكليز، ويهتمون له أو تسمع الدنيا صوته، فتغدوا بهم قبل أن يتعشوا بكم، والسلام على من لم يرض لنفسه أن يكون مغفلاً ذليلاً مخدوعاً، الآن عرفنا قيمة أنفسنا في نظر هؤلاء الحقودين المبغضين لنا، الآن صرنا نفهم معنى العداوة التركية التي أدركها شاعرنا من قديم الزمان فانشدها بقوله:

تَبـدَّلتُ منهم بَعْدَ مـا شـابَ مَفْـرِقي ... عــداوةَ تُـركـيٍّ وبُغْضَ أبي حَـسَـنْ

فقرن عداوة الترك بالحيوان أبي حسن الذي يأكل أولاده ويعني به الضبع[111]. نعم ان عداوة دولتنا التركية لنا كبغض أبي حسن لأولاده، فهي تأكل أولادها وأبو حسن يأكل أولاده، من مئة سنة وأكثر إلى الآن لم تعلن على أحد حرباً، والدول هي التي تعلن عليها الحرب، ومع ذلك فهي تشتري السلاح وتجند الجنود لأجل أن تقاتل المسلمين من غير الترك، وانتم أيها الضباط يا من رشحتم أنفسكم لسلوك مسلك تضحية النفس من أجل البلاد، ليس العدو في الخارج بل هو في الداخل، الدولة لا تحارب بعد الآن أحداً لأنها أبقت على شروط القرض التي منها أن لا تصرف قرشاً واحداً في محاربة دولة اجنبية، فلم يبق من هذه الدولة إلا أن تحارب ابن سعود والادريسي وبقية العرب، فاحذروا أن نكون في صف الأعداء، يجب أن نعلم بعد الآن مكاننا في نظر هذه الحكومة، يجب أن نعتقد أنه لا حكومة لنا بل نحن في وسط أعداء، وتحت راية دولة ليست دولة لنا، نحن ننجح بعد الآن إذا كان رجال الشهامة فينا، أهل الفتوة من شبابنا وأبنائنا يعرفون أن الموت لا بد منه، وأن حياة المجموع لا بد له من موت بعض الأحرار فيجردوا مسدساتهم لقتل هذه الأم المبغضة لأبنائها. واعلموا يا من تجول في عروقهم دماء الفتوة والشباب والأمل، إننا إذا قتلنا ثلاثة ولاة في كل ولاية مرة بعد مرة، تنقطع قلوب من يعين والياً على بلادنا، فلا يجيء إلينا أحد منهم، إلا إذا عزم على أن يحترمنا ويجيب رغباتنا، ويسير على ما فيه مصلحتنا. اين الشباب الذين

(١١١) كنية «أبي حسن» للضبع متداولة في بلادنا إلى اليوم.

يضحون أنفسهم لأجل أمتهم؟ ها أمامكم والي بيروت ووالي الشام وكلاهما من الظالمين الغاشمين لم لا تقتلونهما).

وفي الكتاب نفسه نص منشور عام منسوب إلى الجمعية المذكورة. ويذكر الكتاب أنه كان على رأس المنشور ختم الجمعية، وهذا نصه:

إلى العرب بني قحطان

فـاشـهـدوا يـوم التـنـادي أنـنـا   نمـلأ الـكـون هـيـبـاً وضـرامـا

يا بني قحطان، يا سلالة عدنان، أأنتم نيام، وإلى متى تنامون، كيف تستغرقون في سباتكم وقد أصم صوت الأمم من حولكم الآذان، أما تسمعون الضجة القائمة حولكم، أما تعلمون أنكم في زمن من نام فيه مات، ومن مات فات، متى تفتحون عيونكم وترون لمعان الأسنة المصوبة عليكم، وبروق السيوف المسلولة فوق رؤوسكم، متى تدركون الحقيقة؟ متى تعلمون أن بلادكم بيعت للأجنبي؟ انظروا إلى مرافقكم كيف ذهبت منكم فآلت إلى انكلترة وفرنسة وألمانية، أليس لكم حق؟ أليس لكم في بلادكم حق؟ أأصبحتم عبيداً أذلاء للظالم الغاشم، حيث تسعون وتكدون ليغتصب منكم الغريب ثمرة أتعابكم فيترككم تتضورون جوعاً. إلى متى لا تفقهون أنكم صرتم العوبة بيد من لا دين له إلا قتل العرب وسلب أموالهم والبلاد بلادكم، ويقولون ان الحكم للأمة، ولكن الممتنين عليكم باسم الدستور لا يعدونكم من الأمة، فهم يسومونكم أنواع العذاب والظلم والاضطهاد، فكيف يعطونكم من حقوق الحكم شيئاً، أنتم في نظرهم كقطيع من الماشية، يجزون صوفها ويشربون لبنها، ويأكون لحمها، وبلادكم في نظرهم كمزرعة مستعمرة ورثوها من آبائهم، سكانها عبيد أذلاء لهم. أين نخوتكم العربية؟ أين شهامتكم القحطانية؟ أين عزة نفسكم العدنانية؟ نال الأرمن استقلالهم الإداري على قلتهم بالنسبة لكثرة عددكم رغم أنف الدولة، وسيستقلون بإدارة شؤونهم عما قريب[١١٢]، فيصبح شعبهم حراً يحكم نفسه بنفسه، حراً عاملاً في الهيئة الاجتماعية الإنسانية بخلافكم أنتم لأنكم ستظلون مستعبدين أبداً لسلالة جنكيز وهولاكو الذي قضى على وجود حكومتكم العربية الراقية في بغداد دار السلام، وأعقاب تيمورلنك الذي بنى برجاً من رؤوس ثمانين ألف عربي في حلب. فإلى متى أنتم راضون عن هذا الذل الذي ليس بعده ذل، تستباح أعراضكم، وتهتك نساؤكم وتيتم أطفالكم وتخرب دوركم للدفاع عن العاصمة البيزنطية، وتؤخذ أموالكم فتنفق على قصور الآستانة وما فيها من أنواع الخمور وآلات الطرب، وضروب الترف والبذخ، ويساق شبانكم إلى حيث يقاتلون اخوانكم العرب تارة في اليمن وطوراً في الكرك ومرة في حوران[١١٣] فيؤيدون بذلك مظالم الترك، وأنتم ساكتون صامتون، مقيمون على هذا الضيم.

---

(١١٢) منحت الدولة في هذه الظروف نتيجة لضغط روسية ولايات الأرمن شيئاً من الحكم الذاتي.

(١١٣) قبيل الدستور، وبعد إعلانه بقليل، تكررت حوادث التمرد في جبل الدروز حوران. وفي الكرك وفي اليمن، وكانت الدولة تسوق عليهم الحملات التي كانت كلها أو جلها من المجندين العرب، وكان ذلك موضوع =

ولا يُقيم على ضَيْمٍ يُراد بِه إلّا الاذلانِ عيرُ الحي والوَتَد
هذا على الخَسْفِ مَرْبوطٌ برمته وذا يُشجّ فلا يَرثي لَه أحَدُ

لم تسمحون بدمائكم إذا أمركم الترك بسفكها في قتال اخوانكم، ولا تسمحون بها في سبيل المحافظة على حقوقكم، وشرف عنصركم، كما فعل ويفعل الأرمن، أنسيتم أنه:

لا يَسْلم الشَرَفُ الرفيعُ من الأذى حتى يراقَ على جَوانبه الدَمُ

أما رأيتم مصداق ذلك في الأرمن الذين يحترمهم الترك ولا يحترمونكم، ويعطونهم من الحقوق ما لا يعطونكم، أخمدت في عروقكم دماؤكم العربية، أم استحالت إلى ماء قذر، صرتم والله مضغة في الأفواه واضحوكة للأمم وهزءاً وسخرية للشعوب، وكادت تضرب بكم الأمثال بالذلة والمسكنة والرضى بالخسران العظيم، انظروا كيف يحاسن الترك الأرمن ويجاملونهم؟ ثم كيف يجافونكم أنتم أيها العرب. انظروا كيف تطاطىء الحكومة التركية رأسها أمام الأرمن، وتتوسل اليهم وهي صاغرة أن يقبلوا أكثر من حقوقهم في الاشتراك في النيابة عن البلاد. أما أنتم فيا لهفتنا عليكم، فإنها تسوق عليكم الجيوش التي خزيت وخذلت في حرب الروسية والبلقان لقتلكم وقتل حريتكم ومحو جنسيتكم العربية الشريفة والقضاء على ما بقي لكم من رمق، كأنها لم يبقَ لها قوة إلا عليكم. انظروا إلى الحملة التي سيقت إلى العراق، فإن مهمتها قتل اخوانكم العرب الأبرياء، وهدم بيوتهم العامرة وهتك أعراضهم الطاهرة، وسلب أموالهم العزيزة، وبالاجمال إعادة ما صنعوه في حوران والكرك واليمن، لمَ كل ذلك، أليس لأنكم استكنتم إلى الخمول ورضيتم أن يدوس الترك رقابكم، فإلى متى تسكتون على هذه المظالم، وأنتم تعاينون استئصال شعبكم، وكيف يسلط هؤلاء المفسدون الإمام يحيى على الادريسي ليخربوا اليمن، ويبيدوا من فيها من العرب، وكيف يسلطون ابن الرشيد على ابن سعود ليهلكوا عرب نجد، وكيف يلقون العداوة بين شريف مكة وبين جيرانه من أهل عسير وأهل نجد، وينصرون بعض العرب على بعض بسلاح الدولة وأموالها وعسكرها الذي انهزم في كل حرب، ولم يبق له قوة إلا على العرب.

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نعامةٌ ربداءُ تَجفلُ من صَفير الصافرِ

أيها القحطانيون:

أما تعلمون أن الإنسان إنما يعيش في هذه الدنيا ليحيا حياة مقرونة بالعز والعرض والمال والروح، وينشىء الحكومات لتحافظ على هذه الأشياء وهي أثمن ما وهبه الله لبني آدم، يعض عليها بالنواجذ احتفاظاً بها، فما قيمة الحياة إذاً ما دامت الأعراض تهتك، والأموال تنهب وتسلب، والأرواح تزهق؟ وما معنى الحياة التي تنقضي بالذل والخضوع والخنوع، من غير عرض ولا شرف ولا مال ولا تمتع بالحرية والاستقلال؟ فأي نفع أو شرف لكم مع هذا من راية الهلال.

= شكوى الاصلاحيين وتذمرهم، وجعلوه من جملة مسائلهم، وطالبوا بتعديله، أو على الأقل بعدم الاقتصار فيه على العرب على ما مر بيانه.

هبوا أيها العرب، جردوا السيف من غمده أيها القحطانيون، لا تتركوا في بلادكم ظالماً مستبداً محتقراً لكم، طهروا بلادكم ممن يظهرون العداوة لكم ولجنسكم ولغتكم، رجمتكم الآستانة بشرار أعوانها على الاستبداد كعارف المارديني الذي يعلن أنه منكم من رضي أن يكون سوط عذاب لاعدائكم عليكم(١١٤). وحسبكم من تاريخه أنه كان شريك سليم فارس في جريدة القاهرة، وبكر سامي الذي كان يحرس غرفة جاويد عندما كان والياً على طرابزون، وجاويد باشا قائد حملة العراق وغيرهم من أحفاد جنكيز وهولاكو الذين ذبحوا أجداداكم الطيبين الطاهرين، ودمروا مدنيتهم الزاهرة، وسدوا دجلة بمؤلفاتهم النافعة، وداسوها بسنابك خيولهم، ثم أتلف أحفادهم ما أبقاه أجدادهم، فمنعوا المدنية العربية أن تلم شعثها وتسترجع مجدها.

أيها العرب، حذروا أهل اليمن وعسير ونجد والعراق من كيد أعدائكم، واتفقوا في الولايات السورية والعراقية مع أبناء جنسكم ووطنكم. وليكن المسلمون والنصارى واليهود منكم يداً واحدة في العمل لمصلحة الأمة والبلاد، انكم تقطنون أرضاً واحدة، وتستثمرون أرضاً واحدة، وتتكلمون بلغة واحدة، فكونوا أيضاً أمة واحدة ويداً واحدة، ولا تتفرقوا تبعاً لمفاسد وغايات المفسدين الذين يتظاهرون بالإسلام والإسلام بريء منهم، وقد انطبق عليهم قول الشاعر العربي:

إذا رامَ كَيْداً بالصلاةِ مقيمُها ... فتاركُها مِنْهُ إلى اللهِ أقْرَبُ

فتساعدوا واتحدوا وتعاضدوا، ولا تقولوا أيها المسلمون هذا نصراني وهذا موسوي، فكلكم عيال ا لله والدين لله وحده، وقد أمرنا الله بكتابه العزيز العربي، وعلى لسان رسوله العربي العدناني ﷺ بالعدل والمساواة، وأن نبر كل من لا يحاربنا وإن خالفنا في ديننا، وأن نقاتل من يبغي علينا فقط. فمن هم البغاة على العرب الآن، هل جَرّد نصارى العرب أو غيرهم عسكراً على اليمن أو نجد أو العراق، أم جماعة الآستانة هم الذين يقاتلونكم ويسعون ليبيدوا بعض العرب بالسيف والنار، وبعضهم الآخر بالخلاف والشقاق عملاً بالمثال القائل (فرق تسد).

أيها العرب المسلمون، تخطئون خطأ عظيماً إذا ظننتم أن هذه الحكومة الظالمة الغاشمة إسلامية، والله يقول في كتابه العزيز ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾. فكل حكومة ظالمة هي عدو وخصم للإسلام. فكيف إذا كانت تهدم الإسلام وتستحل سفك دماء قوم نبي الإسلام، وتسعى لإماتة لغة الإسلام باسم حكومة الإسلام أو خلافة الإسلام. ومن أحب الشواهد على هذا، فعليه بكتاب (قوم جديد) تأليف عبيد الله صنيعة الاتحاديين الذين جعلوه من جملة التمهيدات لهدم هذا الدين(١١٥). فكل من يعضد هؤلاء الاتحاديين باعتبار أنهم من المسلمين، فهو في ضلال مبين، فليس لأحد منهم في الإسلام عمل صالح، وليس لأكثرهم في التركية الذين يحاربون القرآن لأجلها أصل ثابت، وإنما هم ترك بهذه اللغة الملفقة التي أحسن ما فيها مسروق من اللغة العربية

---

(١١٤) ذكرنا في مناسبة سابقة ما كان على موقف الشدة الذي وقفه المارديني من طلاب الإصلاح في دمشق.

(١١٥) ذكرنا هذا الكتاب ومؤلفه ودعوته في مناسبة سابقة.

المقدسة والفارسية العذبة(١١٦). وهم لأجل عصبيتها يحاربون القرآن وسنّة النبي العربي عليه الصلاة والسلام. فهل هذا هو الإسلام الذي يجب لهم به الاحترام، أليس من المشهور عنهم أنهم يريدون إماتة اللغة العربية، ألم يؤلفوا الكتب بوجوب تركها والصلاة والأذان باللغة التركية؟ فإذا ماتت اللغة العربية فكيف يبقى القرآن والسنة، وإذا جهل القرآن والسنة فماذا يبقى من الإسلام؟

وأنتم أيها العرب من النصارى والموسويين، ضعوا يدكم في يد اخوانكم المسلمين العرب ولا تتبعوا خطوات من يقول لكم منكم أو من غيرهم (ان العرب المسلمين متعصبون تعصباً دينياً أعمى، لذلك يفضل الأتراك اللادينيون عليهم). فهذا قول هراء، لا يصدر إلا من جاهل لا يعرف مصلحة نفسه وشعبه. فإن العرب المسلمين اخوانكم في الوطنية، وإذا كان يوجد فيهم من يتعصب تعصباً ذمياً، ففيكم أنتم أيضاً أمثال هؤلاء المتعصبين. وكلّ من الفريقين كان يتلقى العلوم في مساجد الأندلس وبغداد كالاخوة، فليكن رائد الطرفين التساهل والسعي في إزالة هذه التعصبات الذميمة، واعلموا أن هؤلاء الأجانب عن لغتكم أضر عليكم من متعصبي العرب الجهلاء، لأنكم يمكنكم التفاهم مع العرب، وهم اخوانكم في الوطنية والجنسية، ولكن يصعب عليكم التفاهم مع العلوج الذين هم أعداؤكم وأعداء العرب المسلمين في آن واحد. ارجعوا إلى كتاب عبيد الله المار ذكره لتروا ما يثبت لكم قولنا، ها أنتم تحاسنونهم وهم يسيئون إليكم، ويحتقرونكم ويهضمون حقوقكم. اتفقوا مع بني وطنكم وجنسكم، واعلموا أن التعصب الذميم زائل البتة، سيأتي يوم لا يبقى فيه للتعصب أثر في بلادنا، وهذا اليوم هو الذي تكون فيه أمورنا في أيدينا وعلومنا وأعمالنا وأحكامنا بلغتنا، وما ذلك ان اتفقت كلمتنا ببعيد.

أيها العرب عموماً! اعلموا أنه تأسست جمعية فدائية لقتل كل من يقاتل العرب ويقاوم الإصلاح العربي. وليس هذا الإصلاح هو الإصلاح على مبدأ اللامركزية الذي يطلبه البعض مع التابعية للاستانة بل على مبدأ الاستقلال التام، وتأليف دولة عربية لا مركزية تعيد سالف مجدنا الغابر، وتحكم البلاد بالحكم الذاتي في كل مقاطعة بما يليق بها، وتبدأ عملها بإزالة وجود بعض الثعالب المتزلفين من العرب الذين كانوا ولا يزالون سبباً لدوس حقوق العرب تحت أقدام أولئك الغلمان السفاكين، وسيرى العالم ذلك حينما يشرعون في تنفيذ ما أعدوه لنا من المهالك.

وليس في المصادر الميسورة الأخرى شيء آخر عن الجمعية الثورية ونشاطها. وهذا ما جعلنا نورد بلاغيها وبخاصة الثاني على طوله، لأن فيه صورة قوية من صور التفكير العربي ازاء الفكرة القومية والمطالب العربية والحقوق العربية وموقف الاتحاديين الذين قبضوا على زمام الدولة من كل ذلك.

والمستفاد من عبارة البلاغ الثاني أنه نشر بعد إخفاق حركتي الإصلاح والمؤتمر العربي في باريس وتجميدهما على الوجه الذي شرحناه قبل، أي في أواخر سنة ١٩١٣ أو أوائل سنة ١٩١٤. ولقد اضطرت الحكومة الاتحادية في أوائل سنة ١٩١٤ بتأثير النشاط الأرمني القومي الدموي أحياناً وبضغط من روسية، إلى منح الولايات الشرقية من الأناضول أي ديار بكر وان وبتليس وارضروم

(١١٦) في هذه اشارة إلى أن اللغة التركية آنئذ كان نصفها أو أكثر من العربية والفارسية.

وخربوط التي كان يقطنها كثرة أرمينة استقلالاً إدارياً واسعاً شبيهاً بنظام لبنان، على رأسها حاكم عام مسيحي توافق عليه روسية وبريطانية وفرنسة، ويساعده مجالس إدارية وقضائية تمثل طوائف المسلمين الترك والأكراد والأمن على قدم المساواة.

هذا في حين وقفت من المطالب العربية، التي لم تكن تصل إلى هذا المدى، موقف المتزمت المتعنت، ، ثم المنتقص لما وافقت عليه، ثم المتراجع عنه الناقض له! وهذا ما يفسر شدة عبارة البلاغ ودمويتها ودعوتـه إلى العنف وإلى تجاوز مـطلب الإصلاحـات في نطاق الـلامركـزية إلى الانفصال والاستقلال. ويعكس شدة وقع ما كان من الاتحاديين من مراوغة وتراجع على نفوس رجال الحركة العربية الذين تساهلوا على أمل الانسجام، فضلاً عن الذين كانوا مرتابين في الأصل في جدية ما تظاهر به الاتحاديون على ما شرحناه قبل.

ومن الجدير بالذكر والتأمل أن الحكومة الاتحادية لم تكد تدخل في الحرب العالمية الأولى، حتى أعلنت لغو النظام الذي منحته للولايات الأناضولية الشرقية. وقد قال جمال باشا في مذكراته ان الحكومة اغتنمت فرصة الحرب لإنهاء هذا النظام الذي منحته به فقط روسية، لأنها غدت في حالة حرب معها لا يقدم الإلغاء ولا يؤخر في الموقف الخطير. بحيث يرد على البال انها لو استجابت إلى المطالب العربية ومنحت الولايات العربية نظام اللامركزية، لكانت تراجعت عنه أيضاً.

ودعوة الطوائف الدينية العربية وبخاصة المسلمين والنصارى إلى الاتحاد والتعاون مهمة في بابها، وكان ذلك من شعار الحركة العربية الحديثة على ما عكسته المأثورات الشعرية والنثرية التي أوردناها سابقاً.

وبمناسبة البلاغ الأول المنسوب إلى الجمعية في صدد سجن عزيز علي المصري نقول: ان هذا الحادث كان من الحوادث التي أججت النار بين الاتحاديين ورجال الحركة العربية من الفئتين الأولى والثانية، لأنه كان من بوادر القمع الاتحادي ضد هؤلاء الرجال. وكان ذلك في ١٩١٤/٢/٩ بأمر من أنور باشا وزير الحربية، وبتهمة إساءة الأمانة بمبلغ استلمه حينما ذهب ليقود حركة المقاومة المسلحة الشعبية ضد الغزو الطلياني لطرابلس الغرب في سنة ١٩١٢. وكان ذلك حجة رسمية ظاهرية بدليل تأخر المسألة نحو أكثر من سنة ونصف بعد عودته من طرابلس الغرب. وكان الدافع الحقيقي لاتهامه واعتقاله هو كونه من رؤوس رجال الحركة العربية المتحركين بقوة ونشاط. ولقد كان من أركان جمعية الاتحاد والترقي. وجاء على رأس فرقة من فرق الجيش الذي زحف بقيادة محمود شوكت باشا من سلانيك على الأستانة في سنة ١٩٢٧ حينما قامت الحركة الـرجعية التي هدفت إلى الغاء العهد الدستوري، ونتج عن ذلك الزحف خلع السلطان عبد الحميد الثاني على ما ذكرناه قبل، فعظم مركزه بين ضباط الأتراك والعرب. وكان ضابط أركان حرب ومن زملاء أنور حتى كان الناس يفضلونه على أنور ويرونه أحق بوزارة الحربية منه. وكان الأتراك والاتحاديون غير منتبهين إلى عروبته ومصريته، ويخلطونه فيهم، فلما وقف غلاة الأتراك موقف التجهم والمناوأة من الحركة العربية رغم أنهم ساروا أشواطاً بعيدة في سبيل توطيد العنصرية التركية واستعلائها، وأخذ شباب العرب ورجالهم يقابلون ذلك بالاحتجاج والاستنكار والتكتل، تحرك هـو أيضاً وحـاول

بادىء بدء أن ينبه الاتحاديين إلى ما في موقفهم من شطط وخطر على ما ذكرناه في مناسبة سابقة، فلم يأبهوا لتنبيهه، ثم صاروا ينظرون إليه بحذر وريبة.

ومما ذكره جمال باشا في مذكراته، أنه جرى حديث بينه وبين عزيز في صدد وحدة الترك والعرب وتوطيد الخلافة الإسلامية والحفاظ عليها، فقال له عزيز: «ماذا صنعتم أيها الأتراك للعرب غير ما فيه احتقارنا واهانتنا وفناؤنا، أنكم تنعتون الكلب الأسود بالعربي، وإن أردتم ذكر الأمور العويصة شبهتموها بشعر العرب، وقد عينتم شخصاً تاتارياً مبغضاً للعرب لقيادة الجيش الخامس في دمشق، وهو عثمان باشا التتاري إيغالا في إذلالهم وإسخاطهم». ويستمر جمال فيقول: إن عزيزاً أرسل إلى اليمن، فكان يثير النعرة العربية ويحرض على الترك، وأنه لما رأى أنور وزيراً للحربية بينما هو ظل في رتبة بينباشي عادي، فار سخطه وأخذ يثير النعرة العربية ويحرض ضباط العرب على الأتراك، حيث يبدو من هذا مبلغ ما كان لعزيز من مقام ومركز وحيوية عربية.

ولما استمر الاتحاديون على خطتهم، عمد إلى إنشاء حزب سري عربي عسكري هو حزب العهد الذي سوف يأتي الكلام عنه بعد. وكان ذلك بعد عودته من طرابلس الغرب، فرأى زعماء الاتحاديين أن يضربوه ضربة ساحقة، فاتهموه بالتهمة المذكورة واعتقلوه، وحاكموه وحكموا عليه بالإعدام، فحرك ذلك رجالات العرب في الآستانة وخارجها، وقامت مظاهرات احتجاجية في الآستانة ومصر والبلدان العربية الأخرى، وجرت مراجعات من مختلف الشخصيات والهيئات العربية والإسلامية ثم الانكليزية بشأنه ـ وكان الانكليز يحتلون مصر ولهم شأنهم الكبير ـ مما جعل الاتحاديين يتراجعون عن موقفهم، ويلغون الحكم عنه ويطلقون سراحه على شرط أن يغادر بلاد الدولة.

وفي كتاب (إيضاحات) إشارة إلى رسالة أرسلها رفيق العظم إلى محمود المحمصاني قال له فيها «إننا نواصل السعي لإنقاذ عزيز علي، وقد راجعنا اللورد كتشنر والتمسنا منه تدخل الدولة الانكليزية لانقاذ بطل برقة، حيث يبدو أن عزيزاً ابلى بلاء حسناً في الكفاح المسلح في منطقة برقة في ظروف عدوان إيطاليا على طرابلس الغرب».

وواضح من هذا أن المنشور الأول قد صدر من الجمعية بعد الشهر الثالث على الأقل من سنة ١٩١٤، بل وبعد المنشور الأول، لأن هذا المنشور لا يذكر قصة عزيز علي، وهو يدعو إلى العنف مثل الثاني، وإن كان الثاني أشد قوة وشمولاً، فضلاً عن تجاوزه مطلب اللامركزية إلى الانفصال والاستقلال، وأسلوب البلاغين على كل حال متناسب مع اسم الجمعية كما هو المتبادر.

٣ ـ حزب العهد[20]:

ذكر كتاب (إيضاحات) أن مؤسس هذا الحزب هو عزيز علي المصري، وأنه أنشأه بعد عودته من حرب طرابلس الغرب في عام ١٩١٣، وأن نطاقه كان قاصراً على ضباط العرب، وأن من جملة من اشترك في تأسيسه مع عزيز سليم الجزائري بينباشي أركان، وأمين لطفي الحافظ بينباشي أركان حرب، ويحيى كاظم يوزباشي أركان حرب. وكان هدفه تحريض العرب وضباطهم ضد الدولة،

وأن طالب النقيب وعبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي وعبد الكريم الخليل وعبد الوهاب الانكليزي وعبد الرحمن شهبندر كانوا يتصلون بضباط العرب ويحرضونهم على الثورة، وأن سليم الجزائري وضع نشيداً يدور حول ذلك وهو:

لتَـدُمْ هَذِهِ البُنيّة تَنْمـو وتَغْـدُو صَبية
أزُفُّهـا شُجاعاً فَلا تُرى مَسْبيّة
تَلِـدَنْ كلَّ هُمامْ مِن فارسٍ مِقْدَامْ
يُمـزِقُ الطَغَامْ بهمـةٍ عَرَبية
تلـدن كلَّ عزيز يجـودُ بالنفيسْ
يُذل هامَ الخسيسْ بشجاعـةٍ وحمية
يُشْعـلُ نار الحربِ لدقِّ عُنْـقِ الكَلْبِ
ونيلِ عزِّ العُرْبِ مِنْ أمَّـةٍ تُرْكية

ومما ذكره معزواً إلى اعترافات لعبد الغني العريسي، أن حزب العهد كان يرى نفسه أقوى من حزب اللامركزية ويأبى أن ينضم إليه، وأن الحزبين اللذين كان أحدهما مدنياً وثانيهما عسكرياً اتفقا قبيل دخول الدولة في الحرب على غاية واحدة هي ضمان حقوق العرب واستقلالهم.

وفي كتاب الثورة العربية لأمين سعيد (ج ١) نبـذة عن هذا الحـزب فيها تـطابق وتغايـر وتفصيل، حيث ذكر فيها أن عزيز المصري هو الذي أنشأ الحزب في تاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٣، وضم إليـه نخبة من ضبـاط العرب منهم محمـد إسماعيـل الطبـاخ، ومصطفى وصفي، وسليم الجزائري، وربيحي كاظم أبو الشرف، وعارف التوام، ومحي الدين الجيان، وأمين لطفي الحافظ، والدكتور عبد القادر سري وعلي النشاشيبي (وهؤلاء سوريون من مختلف انحاء سورية) ونوري السعيد، وياسين الهاشمي، وجميل المدفعي، وتحسين علي، واسمـاعيل الصفـار، وعلي رضـا الغزالي، ومولود مخلص، وعلي جودت الأيوبي، وعبد الله الدليمي (وهؤلاء عراقيون من مختلف أنحاء العراق) وأن برنامجه هو:

(١) السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب على أن تظل متحدة مع حكومة الآستانة، مثل اتحاد المجر مع النمسة.

(٢) أن تبقى الخلافة الإسلامية وديعة في أيدي آل عثمان.

(٣) المحافظة على سلامة الدولة العثمانية وعاصمتها والدفاع عنها.

(٤) أن يعمل العرب والترك معاً ليكونوا المخافر الأمامية للشرق أمام الغرب.

(٥) أن تبذل الجهود في إنماء المزايا المحمودة العربية وفي الدعوة إلى التمسـك بالأخـلاق الفاضلة، حيث أن الأمة لا يمكنها أن تحتفظ بكيانها السياسي والقومي ما لم تكن مجهزة بالاخلاق الصالحة القويمة.

ويقول أمين سعيد إن إنشاء هذا الحزب قد أحدث ضجة شديدة في دوائر الآستانة لما عرف عن مؤسسه من الصلابة والقوة، ولأنه تأسس في ظرف توترت فيه الصلات بين الاتحاديين والشبيبة العربية، وأنه لقي تأييداً من الشبان والضباط العرب الذين التفوا حوله، وأنه انشىء له فرعان في بغداد والموصل، وان الحكومة الاتحادية عقدت اجتماعاً خاصاً في ٢٤ يناير ١٩١٤ لدراسة أمره واتخاذ القرارات الضرورية لمقاومة الحركة العربية التي تفاقمت به وقررت:

(١) إقصاء ضباط العرب المقيمين في الآستانة وعددهم كما ظهر من كشوف وزارة الحربية (٤٩٠) ينتمي منهم (٣١٥) للحزب، وتوزيعهم على مناطق الروملي والأناضول التركية حتى لا يكون أي إمكان لقيامهم بأي عمل يساعد على زيادة الجفاء بين العرب والترك.

(٢) تولية القيادة في البلاد العربية للضباط الأتراك واقصاء الضباط العرب عنها والاستغناء عن خدمتهم بقدر الإمكان.

(٣) الإسراع في تنفيذ سياسة تتريك العناصر غير التركية.

(٤) تكليف أحمد جمال باشا لإعداد منهاج لتتريك العناصر.

(٥) مقاومة الحركة الإصلاحية التي ظهرت في بيروت وباريس.

(٦) إلغاء الأحزاب العربية كلها وتأليف شعبة سياسية في وزارة الداخلية تشرف على الشؤون العربية، وتدبر الخطط اللازمة لمقاومة دعاة الانفصال وتراقب حركاتهم بدقة زائدة.

(٧) إقصاء العرب الذين يعملون ضد الترك من الآستانة واستمالة من يمكن استمالته منهم.

(٨) تعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في البلاد العربية والإكثار من المنتسبين إلى أنديتها.

ثم قال المؤلف إن الحكومة الاتحادية بادزت حالاً إلى التنفيذ، فأخذت تقصي ضباط العرب عن الآستانة إلى المناطق التركية. ثم أصدرت أمراً بالقبض على عزيز بك وإحالته إلى المحكمة العسكرية بتهمة إساءة التصرف في ثلاثين ألف ليرة عثمانية تسلمها من أنور باشا حينما سافر إلى طرابلس الغرب. ثم بتهمة سلوكه في اليمن مما ذكرناه قبل، حيث يربط المؤلف بين اعتقال عزيز وبين إقدامه على تأسيس الحزب.

ولا يذكر المؤلف مصدراً لما ذكره من اجتماع الحكومة الاتحادية وقراراتها الثمانية. ولقد كان معاصراً، ونرجح أنه أورد ما أورده بناء على مسموعاته. أما ما أورده من برنامج الحزب، فالعبارة تفيد أنها منقولة عن كتاب أو نشرة أو مخطوطة على الأقل، وليست سماعية كتلك. على أن توفيق برو يقول في كتابه (العرب والترك في العهد الدستوري) انه قابل عزيز علي المصري في مصر، وانه أنكر أن يكون برنامج الحزب ما ذكره أمين سعيد وبخاصة فكرة أن تكون البلاد العربية متحدة في الدولة على شكل اتحاد المجر مع النمسة، وأنه قال له ان البرنامج كان قاصراً على وجوب إدارة البلاد على طريقة اللامركزية، وانه كان يهدف إلى إدخال مختلف العناصر في حزبه لأنه كان ذا هدف

عام، وأن الأعضاء العرب فيه قصروه بعد مغادرته الآستانة على البلاد العربية.

ونحن نذكر أن فكرة اتحاد البلاد العربية مع الدولة العثمانية على طريقة اتحاد المجر مع النمسة مما كان يقول به فريق من رجالات الحركة العربية، ونخشى أن تكون ذاكرة عزيز علي قد خانته، لأن المقابلة بينه وبين توفيق برو تمت بعد مضي أكثر من أربعين عاماً.

ولقد كان هناك حزب اللامركزية الذي كان قائماً حين تأسيس هذا الحزب. وكان في بدئه حزباً عثمانياً داعياً إلى اللامركزية في جميع بلاد الدولة. فلم يكن هناك محل وحاجة إلى حزب آخر يؤسسه عزيز علي بنفس البرنامج، وعزيز علي أسس حزبه في آخر شهر أكتوبر سنة ١٩١٣، أي في الظرف الذي كانت الحكومة الاتحادية تراوغ في تنفيذ ما تم الاتفاق عليه بينها وبين زعماء مؤتمر باريس من الاصلاحات التي كان أساسها اللامركزية، بحيث يكون احتمال انبثاق فكرة حزب يتجاوز هذا الأساس نتيجة لخيبة الأمل من المساعي المبذولة هو الأقوى والأرجح. وهذا ما يجعلنا نميل إلى صحة ما أثبته أمين سعيد من منهج الحزب.

ولقد ذكر محمد طاهر العمري في الجزء الثالث من كتابه (مقدرات العراق السياسية) أنه نشأ في العراق في سنة ١٩١٣ جمعية باسم جمعية العهد، وقام لها فروع في الموصل وبغداد والبصرة. وهذه السنة هي نفس السنة التي تأسس فيها الحزب. ومن الجائز أن تكون هذه الجمعية هي تسمية لحزب العهد، بل إن كلاماً للمؤلف عن سيرة الجمعية بعد نهاية الحرب يفيد ذلك، فيكون الحزب أو العراقيون من أعضائه قد خطوا خطوة مهمة في سبيل إقامة تشكيلات له في العراق، ولم نطلع على شيء مثل ذلك بالنسبة لبلاد الشام.

وليس في المصادر الميسورة لنا تفصيل لنشاط وأعمال الحزب في زمن الدولة العثمانية، حيث يمكن القول ان تسارع الحوادث التي بدأت باعتقال عزيز علي، واستمرت في مجال تفريق ضباط العرب وتشتيت شملهم يسمح له بنشاط مميز. غير أن من الأمور اليقينية التي نعرفها، أن الحزب بقي قائماً سرياً طيلة الحرب العالمية الأولى ثم بعدها، وأن عدداً غير يسير من أعضائه من الضباط العراقيين والشاميين اشتركوا في الثورة العربية الكبرى التي أعلنها الشريف حسين بن علي أمير مكة وملك الحجاز فيما بعد. وأن الحزب انشطر أثناء هذه الثورة إلى شطرين، شطر عراقي ضم الضباط العراقيين، وشطر سوري ضم الضباط السوريين. ولما انتهت الحرب ودخل فيصل قائد الجبهة الشمالية للثورة العربية الشام وصار حاكماً عليها ثم ملكاً (تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٨ - تموز/يوليو ١٩٢٠)، انضم من لم يكن في الثورة من أعضاء الحزب كل إلى شطره، وإنه كان لكل من الشطرين وجود ونشاط اثناء هذا الحكم، وأنه كان من أعضاء الشطر العراقي، بالإضافة من تقدم ذكره رشيد الخوجة، وحميد الشالجي، وعاصم الشلبي، ومزاحم الباجه جي، وحمدي الباجه جي. ومن أعضاء الشطر السوري حسني البرازي، وحسن الحكيم، وإن كنا لا نستطيع أن نقطع أن هؤلاء انضموا إلى الحزب قبل الحرب أو في أثنائها أو عقبها. وكان من أبرز الشطر العراقي في الشام ياسين الهاشمي وطه الهاشمي ونوري السعيد ومولود مخلص وعلي جودت الأيوبي وجميل المدفعي وتحسين العسكري وغيرهم ممن لم تعد الذاكرة تذكرهم. منهم من كان مع الثورة وجاء مع

فيصل، ومنهم من لم يكن معها ومن هؤلاء ياسين وطه الهاشمي. وكان من أبرز الشطر السوري مصطفى وصفي ورشيد بقدونس ومحي الدين الجبان وشريف الحجار وعارف التوام وحسن الحكيم وحسني البرازي وغيرهم ممن لم تعد الذاكرة تذكرهم أيضاً. ولا نذكر بجزم أياً منهم اشترك في الثورة الهاشمية وجاء مع فيصل، وأياً منهم لم يشترك. ونرجح أنه كان هناك آخرون منتسبون إلى حزب العهد قبل انشطاره وبعده وإن كنا لا نستطيع أن نورد اسماء.

ونقف عند هذا الحد بالنسبة لحزب العهد، على أن نستأنف الكلام عن نشاط رجاله بعد انتهاء الحرب في العراق وفي الشام ان شاء الله.

٤ ـ جمعية العلم الأخضر:

ورد ذكر خبر هذه الجمعية في الجزء الأول من كتاب الثورة العربية لأمين سعيد، وهو معاصر، ونعتقد أنه عرف أو سمع ما كتبه من عارفين أو ذوي صلة بالجمعية. ويقول ان غايتها كانت تقوية الروابط الوطنية بين الطلاب العرب في المدارس العليا، وتوجيه قواهم إلى انتشال امتهم من الوهدة التي سقطت فيها. وأن مؤسسيها هم الدكتور فائق شاكر والدكتور داود الديواني وعلي رضا الغزالي وعبد الغفور البدري وأحمد عزت الأعظمي، وعاصم بسيسو ومصطفى الحسيني وشكري غوشه، ومسلم العطار، والستة الأولون عراقيون، والثلاثة الذين بعدهم فلسطينيون، والأخير دمشقي، وكانوا يعيشون في الآستانة أو طلاب مدارس عليا فيها.

ومما ذكره المؤلف أن هذه الجمعية أصدرت مجلة لسان العرب لتكون لسان حال لها. ثم أبدل اسمها فصارت مجلة (المنتدى الأدبي) وعاشت حتى الحرب العظمى. وقد اطلعنا على مجموعة مجلة لسان العرب، فليس عليها اسم مصدرها ولا صاحب امتيازها، وقد صدر أول أعدادها في ربيع الثاني سنة ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٣ م وصدر منها تسعة أعداد عادية وعدد ممتاز ثم توقفت، وصار يصدر بعدها مجلة (المنتدى الأدبي). ونرجح أن هذه المجلة اصدرها المنتدى، وأن المجلة الأولى توقفت لسبب قاهر، وربما أغلقتها الحكومة الاتحادية بسبب لهجتها ومنشوراتها القوية القومية، وليس هناك مصادر تذكر شيئاً من نشاط هذه الجمعية. غير أن في اعداد المجلة شفاء للنفس بما كان ينشر فيها من مقالات وقصائد وأناشيد وأبحاث ومقالات لأدباء وكتاب معروفين، كلها كانت تهدف إلى تقوية الوعي القومي العربي وتذكر بالأمجاد الغربية وتدافع عن اللغة العربية، وتنوه بمحاسنها، وتدعو إلى نهضة عربية علمية واجتماعية، وتنشر تراجم لمشاهير العرب من قدماء ومعاصرين. وقد أوردنا قبل أناشيد وقصائد منشورة فيها قوية عنيفة في غمزها بالأتراك والتحريض عليهم ووصفها لهم بالأعداء، وممن نشر له فيها أبحاث ومقالات وأناشيد وقصائد مصطفى الحسيني، وصالح الصمادي، ورشدي ابن الصالح ملحس، ويوسف عبد الكريم عبد الهادي، ودرويش أبو العافية، وأحمد شاكر الكرمي، وسليمان التاجي الذي كان يلقب نفسه ببدوي فلسطين. وكاتب آخر كان يلقب نفسه بوضاح اليمن النابلسي. وهؤلاء من شباب فلسطين. ثم معروف الرصافي وجميل الزهاوي ومحمد باقر الشبيبي ورشيد الهاشمي من العراق. وعبد الرحمن القصار ونجيب حماده وعمر الفاخوري من بيروت، وفتاة بيروتية كانت توقع بتوقيع

فتاة العرب. ثم حقي العظم ومحب الدين الخطيب من دمشق، وعبد الحميد الزهراوي ومحمد علي الأرمنازي من حماه، وعبد الحميد الرافعي وجميل الرافعي من طرابلس الشام، وجلهم أو كلهم من شباب العرب المتحمسين للقضية العربية والمنفعلين بتيارها، والذين يصح عدهم مما سميناه من الفئة الأولى من شباب الحركة العربية.

٥ ـ جمعية العلم:

في الجزء الثالث من كتاب مقدرات العراق السياسية المذكور قبل قليل، اسم جمعية بهذا الاسم، ذكر المؤلف أنها تأسست في الموصل سنة ١٩١٤ وظلت قائمة إلى ما بعد نهاية الحرب العظمى. وكان لها نشاط في سنة ١٩١٩ في حركة المطالبة بالاستقلال العراقي، ثم اندمجت في جمعية العهد العراقي وصارت فرعاً لهذه الجمعية في الموصل.

والمتبادر من هذا أن هذه الجمعية هي غير جمعية العلم الأخضر، وليس في المصادر الميسورة شيء آخر عن هذه الجمعية ونشاطها فنكتفي بما تقدم عنها.

٦ ـ جمعية العربية الفتاة:

كانت هذه الجمعية أهم تنظيم عربي قومي وأوسعه وأشمله وأنشطه. وقد عرف كثير من أعمالها وأسماء أعضائها. ولقد انتسبنا إليها أثناء الحرب العظمى سنة (١٩١٦)، وفي أثناء الحكم العربي الفيصلي في سورية (تشرين أول ١٩١٨ ـ تموز ١٩٢٠) انتخبنا مرتين عضواً في هيئتها المركزية وسكرتيراً عاماً لها. وظللنا مندمجين في نشاطها إلى آخر هذا الحكم. وبقي في ذاكرتنا صور كثيرة عنها. وهناك مصادر أخرى فيها صور كثيرة أيضاً عن هذه الجمعية.

ولقد تعددت الأقوال في أمر تأسيسها لأول مرة، فالذي كان في ذاكرتنا أن هذه الجمعية انشئت في باريس سنة ١٩١١ من قبل فريق من طلاب العرب فيها منهم محمد رستم حيدر البعلبكي، وعوني عبد الهادي النابلسي، وجميل مردم الدمشقي، ومحمد المحمصاني البيروتي، وعبد الغني العريسي البيروتي، ورفيق التميمي النابلسي، وتوفيق السويدي البغدادي. وهذا ما ذكرناه في الطبعة المقتضبة الأولى لهذا الكتاب. وقد ذكر أمين سعيد في الجزء الأول من كتابه الثورة العربية أن مؤسسيها هم الدكتور أحمد قدري، وعوني عبد الهادي، ورستم حيدر، ورفيق التميمي، ومحمد المحمصاني، وعبد الغني العريسي، وجميل مردم. وذكر الدكتور أحمد قدري في مذكراته المطبوعة في دمشق سنة ١٩٥٦، ان فكرة الجمعية انبثقت في ذهنه وذهن رفيقه عوني عبد الهادي في الآستانة، وكانا طالبين فيها مذ رأيا تهجم الترك على العرب عقب إعلان الدستور. وكان اسم جمعية الاتحاد والترقي السري هو (جمعية تركيا الفتاة ـ جون تورك)، فرأيا أن يسعيا لتأسيس جمعية عربية سرية على غرارها تنهض بواجب الدفاع عن حقوق العرب، وفاتحا بذلك محمد رستم حيدر فحبذ الفكرة. وكان ذلك مبدأ فكرة الجمعية ولم يكن قد مر على إعلان الدستور إلا أربعة أيام. ومما أثارها مباشرة في أذهانهم حملة شباب الأتراك وصحافتها على رجالات العرب الذين كانوا في حاشية السلطان عبد الحميد مثل عزت العابد وأبو الهدى الصيادي، ونعتهم اياهم

بنعوت قبيحة وإطلاقهم هذه النعوت لتصيب العرب جميعهم. ومما ذكره الدكتور أن الأمر بقي في حيز الفكر دون توسع. ثم سافر عوني عبد الهادي ومحمد رستم حيدر إلى باريس وكتبا له في شأن تنفيذ الفكرة فوافق على ذلك. وقد تهيأت له الفرصة فلحق بهما، وفي باريس دشن الثلاثة وجود أو قيام الجمعية وكان ذلك ١٩١١. وكان الثلاثة أول هيئة إدارية لها، وجعلوا غايتها (**النهضة بالعرب، وإيصالهم إلى مصاف الأمم الحية**)، وسموها (**العربية الفتاة**). **ثم ضموا إليهم رفيق التميمي**، ومحمد المحمصاني، وصبري الخوجة العراقي، وتوفيق الناطور البيروتي، وصاروا جميعهم الهيئة الإدارية الأولى. **ثم انضم جميل مردم وصبحي الحسيبي والأمير مصطفى الشهابي الدمشقيون**، وتوفيق فائد البيروتي، وإبراهيم حيدر البعلبكي. وكانوا جميعهم طلاباً في فرنسة، وأخذوا بعد ذلك يتصلون برفاقهم في السن والتلمذة والفكرة في الآستانة والبلاد العربية، فانضم إليهم خلال سني ١٩١٢ و١٩١٣ سيف الدين الخطيب الدمشقي، ورفيق رزق سلوم الحمصي، ويوسف مخيبر وحيدر البعلبكي، ورشيد الحسامي. وقد ذكر الدكتور اسماء عدد آخرين من شباب العرب ورجالاتهم انضموا إلى الجمعية عن طريقه، بعد عودته من باريس إلى الشام خلال سني ١٩١٤ و١٩١٥ و١٩١٦ و١٩١٧ مما سوف نذكره بعد.

وفي كتاب القومية العربية للأمير مصطفى الشهابي المطبوع في مصر سنة ١٩٥٨ بيانات عن نشوء هذه الجمعية فيها بعض المطابقة وبعض المباينة لما ذكرناه آنفاً، فهو يقول ان فكرة الجمعية كانت أحاديث بين فريق من شباب العرب في الآستانة عقب إعلان الدستور. ولقد غادر بعضهم الآستانة عائداً إلى بيروت ودمشق أو ذاهباً للتخصص إلى باريس وظلت الفكرة تراودهم. وذكر من هؤلاء الشباب اسماء محمد رستم حيدر، وعوني عبد الهادي، وأحمد قدري، ورفيق التميمي، وتوفيق الناطور، ومحمد المحمصاني، وجميل مردم، وتوفيق السويدي، وعارف الشهابي، دون تحديد لأسماء المؤسسين أو الهيئة الإدارية. وخلص من ذلك إلى القول إن الفكرة انبثقت في الآستانة ثم اختمرت في بيروت ثم تحققت في باريس في ١٤ تشرين الثاني سنة ١٩٠٩ م، مع أن الدكتور أحمد قدري الذي كان ركناً رئيسياً في الإنشاء ذكر أن تأسيسها كان في سنة ١٩١١. ولقد كتب الأمير مصطفى ذيلاً في الصفحة (٧٣) التي أورد فيها التاريخ، ذكر فيه سنداً للتاريخ الذي أورده، حيث قال انه اطلع في القاهرة عند محب الدين الخطيب على منشورين للجمعية بعنوان الصرخة الأولى والصرخة الثانية، وعلى كراس يشتمل على منهجها، فوجد على الوثائق الثلاث ختماً للجمعية تاريخه ١٩٠٩ وشعاره نخلة. ووجد في كراس المنهج أن تأسيسها كان في الرابع عشر من تشرين الثاني سنة ١٩٠٩. وليس فيما ذكره الأمير مصطفى ما يسند كلامه عن تأسيسها في التاريخ المذكور في باريس، وقد بدا لنا الأمر غريباً، فالدكتور أحمد قدري ورفاقه لم يكونوا ذهبوا إلى باريس في سنة ١٩٠٩ وهو يذكر سنة ١٩١١. وكان هو ورفاقه في باريس في هذه السنة فعلاً، ونحن سمعنا منه ومن غيره أن انشاء الجمعية قد كان في سنة ١٩١١.

ولقد تبادر لنا احتمال ليس في التاريخ أو الاسم المذكورين في المنشورين والمنهج والخاتم، فكتبنا إلى السيد محب الدين الخطيب نرجوه أن يرسل إلينا نسخاً أو صوراً فوتوغرافية لهذه الوثائق. وقد أرسل إلينا فعلاً صوراً فوتوغرافية لثلاثة منشورات، عنوانها بالتوالي (الصرخة الأولى إلى أولياء

الأمور في العاصمة). و (الصرخة الثانية إلى أبناء العرب عامة)، و (الصرخة الثالثة إلى أبناء الأمة) وليس على المنشورات الثلاثة تاريخ، وفي ذيل الأول والثاني ختم صغير بيضاوي، فيه حرفا (ج ع) بين سعفتي نخل، وتحت ذلك تاريخ (١٣٢٧ ـ ١٩٠٩). أما الثالث ففي رأسه ختم دائري كبير نوعاً تظهر فيه شجرة نخل بغصون عديدة ولا يظهر فيه كتابة ولا تاريخ.

ولقد أورد كتاب (إيضاحات) نص المنشور الثالث بنفس العنوان (الصرخة الثالثة إلى أبناء الأمة) معزواً إلى حزب اللامركزية وأوردناه قبل. وفي أوله إشارة إلى الصرختين الأولى والثانية حيث يفيد هذا أن الصرخات الثلاث من مصدر واحد. وما دام أن الصرختين الأولى والثانية مختومتين بخاتم يحمل تاريخ (١٣٢٧ ـ ١٩٠٩) وحرفي (ج. ع)، فيكون الثالث مثلهما من هذا المصدر وإن كان الختم الذي عليه بشكل آخر، وربما يكون المصدر قد بدا له تغيير خاتمه، ويكون عزوه إلى حزب اللامركزية غير صحيح كما نبهنا قبل.

وظلت الشبهة في نفسنا في أن تكون المناشير لجمعية الفتاة والخاتم ختمها، فكتبنا ثانية للسيد محب الدين نرجوه ارسال صورة شمسية عن الكراس الذي فيه منهج الجمعية، وعليه تاريخ ١٤ تشرين الثاني ١٩٠٩ كما ذكر الأمير مصطفى مرتين، فلم نحصل على رد. وكلفنا الآنسة خيرية القاسمية بمراجعته في مصر وأخذ نسخة أو صورة شمسية له. وقد حققت الأمل، فأرسلت إلينا وثيقتين منسوختين بالآلة الكاتبة، وليس على الوثيقتين تاريخ ولا خاتم. وكل ما في الأمر أن في ديباجة احداهما اشارة إلى تاريخ ١٤ تشرين الثاني ١٩٠٩ كبداية لتعاهد فريق من نابتة العرب على التجمع وتأسيس الجمعية.

ولقد احضرت الآنسة خيرية فيما احضرته صورة شمسية لوثيقة قالت ان الأستاذ الخطيب أخبرها أنها صادرة من الهيئة المركزية لجمعية الفتاة هذا نصها:

باريس ٧ شباط ٩١٣.

أيها الأخ

قرىء قسمك في جلسة ١ شباط ٩١٣ فقبل وسجل اسمك مع الاخوان، وقرر المركز أن يطلق عليك عدد ٢٨ منذ ذلك التاريخ فاقبل تحية اخوانك والسلام عليك.

ت

ب. س. ١٣٢٧ ع

ولعل الخطاب موجه إلى الأستاذ الخطيب نفسه، حينما انتسب إلى الجمعية. والوثيقة طريفة حقاً. و (١٣٢٧) تاريخ هجري موافق لسنة ١٩٠٩.

ومع ما ذكر في ديباجة احدى الوثيقتين من تاريخ ١٤ تشرين الثاني ١٩٠٩، ومع ما حمله خاتم الصورة الشمسية من تاريخ ١٣٢٧ الموافق لسنة ١٩٠٩، فإننا ما زلنا نرجح قول الدكتور أحمد قدري بأن التأسيس الفعلي لجمعية الفتاة كان سنة ١٩١١. فالدكتور ركن أساسي وعياني لهذا

التأسيس، ولم يكن في باريس سنة ١٩٠٩، وإنما ذهب إليها بعدها. ويمكن التوفيق بين قوله، وبين تاريخي الوثيقتين، ان سنة ١٩٠٩ كانت سنة انبثاق الفكرة، والحديث عن الجمعية، وان سنة ١٩١١ كانت سنة التنفيذ الفعلي، وأن المؤسسين احبوا تسجيل بدء انبثاق الفكرة على خاتم الجمعية.

ونرى أن نقول كلمة في صدد الوثيقتين، فقد تولينا سكرتيرية الهيئة المركزية في دمشق مرتين، في سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠. وكنا على صلة وثيقة بالأستاذ الخطيب، وغيره من إخواننا القدامى، فلم نسمع بالوثيقتين. ونحن قدمنا إلى دمشق في حزيران ١٩١٩، وكنا في نابلس نعمل مع العاملين في الحركة العربية والوطنية من تشرين الأول ١٩١٨ إلى حزيران ١٩١٩. فيتبادر لنا أن أخواننا الذين سبقونا في الوجود في دمشق، على اثر دخول الأمير فيصل، وقيام حكمه في تشرين الأول ١٩١٨، أو بعضهم وضعوا هاتين الوثيقتين، ليتضمنا تسجيل ما كان عليه الأمر، أو ما يجب أن يكون كمنهاج عمل للجمعية التي كانت حزب الحكم الفيصلي والنافذة في عهده، ثم أهمل ذكرهما، فلم يثر ولم يشر إليه، ويلحظ شيء من التداخل والتكرار والمباينة بين الوثيقتين، حيث يدل هذا على أنهما ليستا من وضع واحد، وظرف كتابة واحدة. مع القول أن كثيراً مما جاء في الوثيقة الثانية، كان ممارساً في ظرفنا، استمراراً لما كان عليه الأمر مع بعض المباينات أيضاً. وعلى كل حال فإن الوثيقتين قديمتان، ومن المفيد اثباتهما، لأنهما تمثلان فكرة التنظيم الحزبي العقائدي عند الجيل السابق.

وهذا نص أولاهما:

جمعية العربية الفتاة

المقدمة

إن الأمة العربية في مؤخرة الأمم اجتماعاً واقتصاداً وسياسة، فوجب على قادة نابتتها المدركين أن يبذلوا حياتهم فيما ينهض بها من هذا التأخر، ويتدبروا فيما يؤول إلى ترقيها لتدرك معنى الحياة وتحتفظ بحقوقها الطبيعية.

على هذا المبدأ الأساسي تعاهد في أوروبا في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٠٩ م فريق من النابتة العربية على القيام بما تفرضه عليهم الوطنية، لتعزز بهم مركزها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي حسب ما تتطلبه طبيعة الوجود. أما الخطة فهي كما يأتي:

المواد الأساسية

١ ـ تدعى هذه الجمعية العربية الفتاة، وغايتها النهوض بالأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية.

٢ ـ الجمعية مكلفة بمعونة كل فرد من أفرادها على سبيل التضامن الاجتماعي، كما أن كل فرد مضطر لنصرة أخيه على سبيل التضامن الافرادي.

٣ ـ على كل عضو أن يأتمر بقرارات اللجنة العليا ولو كانت عليه وخلافاً لإرادته.

تشكيلات الجمعية

٤ ـ أعضاء الجمعية على ثلاث درجات: (١) السواد الأعظم (٢) مجلس الشورى (٣) اللجنة العليا.

٥ ـ السواد الأعظم يتألف من مجموع أعضاء الجمعية بلا استثناء، ومنه ينتخب مجلس الشورى.

٦ ـ مجلس الشورى تنتخبه اللجنة العليا. وتعيين عدده راجع إليها.

٧ ـ اللجنة العليا تتألف من سبعة أعضاء هم مصدر أعمال الجمعية واليهم يرجع القول الفصل، وهم الذين ينتخبون في آخر كل سنة أعضاء الجديدة من أعضائها أو من أعضائها وأعضاء مجلس الشورى، والانتخاب يبدأ في أول تشرين الأول وينتهي في آخره.

٨ ـ لا يحضر أعضاء السواد الأعظم ولا أعضاء مجلس الشورى جلسات اللجنة العليا إلا بطلب منها في المركز.

٩ ـ إذا اضطر أحد أعضاء اللجنة العليا إلى الانقطاع بتاتاً عن اجتماعاتها فلها الخيار في أن تعين مكانه من أعضاء مجلس الشورى الموجودين.

١٠ ـ إذا حدث ما يفرق أعضاء اللجنة العليا عن المركز، فعلى الباقين أن يتموا على الأقل أكثرية اللجنة من مجلس الشورى في المركز، وإلا يباشرون الأعمال بأنفسهم.

١١ ـ تعين اللجنة العليا لجنة احتياطية بحيث إذا تفرقت قامت محلها.

موظفو اللجنة العليا

١٢ ـ للجنة العليا كاتم أسرار وكاتب وأمين صندوق، تنتخبهم من بين أعضائها.

١٣ ـ وظيفة كاتم الأسرار القيام بجميع أعمال الجمعية الكتابية واستعمال ختمها بمشارفة الكاتب ومتابعة تنفيذ قرارات اللجنة.

١٤ ـ أمين الصندوق مكلف بادارة مالية الجمعية. ولا يجوز له أن يصرف شيئاً إلا بقرار من اللجنة، كما أنه لا يجوز له أن يقبض شيئاً إلا لقاء وصل، وعليه أن يقدم للجنة تقريراً عن المالية في غاية كل ثلاثة أشهر.

مجلس الشورى والسواد الأعظم

١٥ ـ للجنة العليا الخيار في استشارة مجلس الشورى ببعض الأمور الخطيرة.

١٦ ـ تبعث اللجنة بتعاليمها إلى السواد الأعظم ليسيروا عليها، ولقاء ذلك يحق لهم أن يرفعوا تقارير بآرائهم ومطالبهم إلى اللجنة العليا لتقرر ما تستحسنه منها.

قبول الأعضاء

١٧ ـ إذا رشح أحد الأعضاء شخصاً ليكون عضواً ، تقرر اللجنة العليا قبوله بثلثي آراء أعضائها.

الفروع

١٨ ـ متى اجتمع ثلاثة أعضاء في بلد واحد، فللجنة العليا الخيار في أن تأذن بتأليف فرع في ذلك البلد.

١٩ ـ على لجان الفروع أن تنفذ ما تتبلغه من قرارات اللجنة العليا، وأن تجمع الرسوم وترسل ثلثي ما يدخل على صندوقها للجنة العليا، وأن تقوم بالأمور الفرعية المحلية رأساً وبالأمور العامة بعد موافقة اللجنة العليا.

٢٠ ـ الأعضاء المقيمون في بلاد تابعة لفرع ما يخابرون لجنة ذلك الفرع، ويحق لهم مخابرة اللجنة العليا في الأمور الخطيرة. وأما الأعضاء المقيمون في بلاد لا فرع فيها فهم يخابرون اللجنة العليا رأساً. أما تعيين الدوائر التابعة فراجع للجنة.

المالية

٢١ ـ تتألف المالية من الرسوم السنوية، وقدرها عشرون فرنكاً على كل عضو، ومن الضرائب التي تضعها اللجنة العليا على الداخلين.

٢٢ ـ تفرض اللجنة العليا على كل عضو اكتتاباً سنوياً تقدر قيمته حسب استطاعته المالية بعد التدقيق، وذلك عقب تأليف اللجنة العليا الجديدة.

متفرقات

٢٣ ـ من أتى عملاً يخالف قانون الجمعية أو مبدأها فأمره راجع إلى اللجنة العليا.

٢٤ ـ يعمل بهذا النظام، ولا يجوز قبول اقتراح الزيادة عليه أو الحذف منه أو التعديل فيه، إلا باتفاق ثلثي مجموع اعضاء اللجنة العليا.

وهذا نص الوثيقة الثانية:

الباب الأول

الفصل الأول

غاية الجمعية

١ ـ غاية الجمعية استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً بجميع معانيه الحقوقية والسياسية، وتأييد ذلك الاستقلال بجعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحية.

٢ ـ تبقى الجمعية سرية الآن نظراً للحالة السياسية العمومية.

الفصل الثاني

شروط الدخول في الجمعية

٣ ـ يشترط في العضو:

(آ) أن يكون عربياً مخلصاً لأمته، معروفاً بالأخلاق الفاضلة، والثبات والجرأة الأدبية والكتمان، وتحصيل (المقصود بعلم أو دراسة) أو اختبار يؤهله للقيام بما تتطلبه غاية الجمعية.

(ب) أن يكون متميزاً باسم والأدب والوجاهة.

(ج) أن يكون سنه في الخامسة والعشرين.

(د) إن يقسم يمين الإخلاص.

(هـ) إذا كان المرشح منسوباً إلى جمعية ما، يشترط عليه إباحة أسرارها العائد نفعها أو مضرتها على مقاصد جمعيتنا، وأن يأخذ على عاتقه مسئولية تسييرها تبعاً لغاية الجمعية.

٤ ـ تقسم أعضاء الجمعية إلى ثلاثة تبعاً للقدم.

الفصل الثالث

في وظائف الجمعية وتشكيلاتها

٥ ـ من وظائف الجمعية الأساسية إيجاد تشكيلات وفروع لها في جميع الأنحاء، تساعدها على الوصول إلى غايتها، وتبنى تلك التشكيلات على الأسس الآتية:

٦ ـ للجمعية هيئة مركزية عامة، وفقاً لقانونها ولها مراكز وفروع بالهيئة المذكورة إلا ما كان تابعاً منها لهيئات إدارة المركز.

٧ ـ الهيئة المركزية تتألف من سبعة أعضاء ينتخب من بينهم كاتب عام وأمين صندوق.

٨ ـ في انتهاء كل ستة أشهر يبقى ثلاثة ويسقط اثنان من أعضاء الهيئة المركزية بالانتخاب السري وينتخب بدلاً من الاثنين اللذين أسقطا اثنان من الثلث الأول[١١٧].

٩ ـ الكاتب العام وأمين الصندوق المنتخبين من بين أعضاء الهيئة المركزية لا يجوز إقامتهما إلا بعد مضي عام على انتخابهما.

١٠ ـ من وظائف الجمعية العمومية السعي لإيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم الحية باتخاذ الوسائل اللازمة للتهذيب والتنوير والتحضير والعمران، ولذلك تقوم الجمعية بأعمال علنية يديرها لجان يكون في مقدمة أعضائها نفر من أعضاء الجمعية تعينهم الهيئة المركزية أو هيئات المركز والفروع التابعة للجان.

١١ ـ تبذل الجمعية جهدها في تسيير الحكومة وفقاً لخطتها السياسية وتسعى أيضاً أن تأتي برجال الحكومة من ذوي أخلاق فاضلة واخلاص لمبدأ الاستقلال العربي التام بقطع النظر عن ارتباطهم بجمعية وعهد. لذلك فهي تنقب بدقة عن هؤلاء الرجال داخل البلاد العربية وخارجها.

١٢ ـ من أهم واجبات الجمعية تسيير أمراء البلاد العربية كافة وتهذيب أبنائهم وفقاً للمبادىء الديموقراطية.

١٣ ـ واجب الجمعية الأول تقوية الشعور العربي بين طبقات الأمة العربية كافة، ومبدأها في ذلك عربي فيها قبل كل شيء وفي كل شيء.

الفصل الرابع

في أعمال الهيئة المركزية العامة

١٤ ـ على الهيئة المركزية العامة إدارة المراكز والفروع واللجان التابعة لها رأساً حسب ما تقتضيه الحالة لتحقيق غاية الجمعية.

١٥ ـ تدير الهيئة المركزية المخابرات مع القائمين بالحركات الوطنية العامة.

١٦ ـ تنشىء الجمعية إدارة استخبارات للوقوف على كل عمل أو تقرير يقصد به تهديد الاستقلال العربي في أي محل كان.

١٧ ـ يكون للجمعية حزب سياسي علني واسع تدير بواسطته حركة الانتخابات العمومية وتطبيق سياستها.

---

(١١٧) أي من القسم الأول الأقدم في الانتساب، ويبدو من التعبير أن واضع القانون قسم الأعضاء ثلاثة اثلاث الأول هو الأقدم، والثاني الذي يليه، والثالث الذي يلي هذا.

١٨ ـ للهيئة المركزية الصلاحية في أن تفاوض عند مسيس الحاجة باسم الجمعية ممثلي الدول أو حكومة البلاد بما يخدم غايتها.

١٩ ـ الهيئة المركزية تسجل أعمال أعضاء الجمعية وتكافىء من أحسن منهم وتحيل من أساء إلى محكمة الجمعية.

٢٠ ـ على الهيئة المركزية تأمين مستقبل عائلات الذين يذهبون ضحية في سبيل مبدأ الجمعية.

٢١ ـ تعتني الهيئة المركزية بتدقيق مصارفات وواردات الجمعية واستثمار أموالها.

٢٢ ـ تؤسس الهيئة المركزية العامة المراكز والفروع التابعة لها رأساً ولجان الجمعية، وتأذن بإدخال الأشخاص المرشحين، وتصادق على انتخاب هيئات المراكز والفروع الإدارية والمعتمدين.

٢٣ ـ ترسل الهيئة المركزية العامة أحد أعضائها أو من تستنسبه من أعضاء الثلث الأول للتفتيش والتنقيب عن أحوال المراكز والفروع على أن يقدم تقريراً مفصلاً عن نتيجة بحثه ومشاهداته.

٢٤ ـ للهيئة المركزية الحق في ترقية الأعضاء الذين يقومون بخدمات جليلة سعت وراء غاية الجمعية من عداد صنف إلى صنف آخر.

٢٥ ـ على الهيئة المركزية العامة استشارة أعضاء الجمعية من الثلث الأول فيما يتعلق بالشؤون العمومية قبل البت في أمرها.

٢٦ ـ اجتماعات الهيئة المركزية وقراراتها تسجل في سجل. وتتبع في جلساتها أصولاً ومراسم مخصوصة تسنها الهيئة لنفسها.

٢٧ ـ الهيئة المركزية العامة مسئولة عن هذه الوظائف تجاه هيئة المؤسسين (الثلث الأول) وللهيئة المذكورة الحق بإحالة الهيئة المركزية للمحاكمة بأكثرية الثلثين فيما إذا اخلت بواجبها.

٢٨ ـ على الكاتب العام ضبط وقائع جلسات الهيئة المركزية وتبليغ قراراتها لمراكز الجمعية وفروعها وتأمين مخابراتها الصادرة والواردة مع حفظ أوراقها ودفاترها ما عدا دفتر السجل.

٢٩ ـ على أمين الصندوق حفظ أموال الجمعية ومسك دفاتر حسب الأصول الفنية، وهو مسئول عن كل خلل أو نقص يطرأ على حالة الجمعية وعليه أيضاً تقديم حسابات وموجود الصندوق عند كل طلب.

٣٠ ـ لا يصرف شيء من مالية الجمعية إلا بقرار من الهيئة المركزية العامة.

الفصل الخامس

في مراكز وفروع الجمعية

٣١ ـ تنقسم تشكيلات الجمعية الإدارية إلى ثلاث درجات:

(آ) المركز العام وهو الهيئة المركزية العامة. وهو مرجع كافة الفروع التابعة لها المراكز.

(ب) المركز وهو كل هيئة إدارية يتبعها فرع أو أكثر.

(ج) الفروع وهي تقسم إلى قسمين، منها ما يكون تابعاً رأساً للمركز العام ومنها ما يتبع المركز المرتبط به.

٣٢ ـ تؤسس المراكز في الأقطار العربية في مواقع ثابتة بقرار المركز العام، على أن يربو عدد الأعضاء فيها على العشرة خمسة منهم في النصف الأول.

٣٣ ـ تؤسس الفروع في كل بلدة زاد عدد الأعضاء فيها على ستة وكان ثلاثة منهم في النصف الأول.

٣٤ ـ لهيئات إدارات المراكز والفروع الحق بتعيين المعتمدين للجمعية في البلدان التي ينقص بها عدد الأعضاء عن العدد القانوني بعد تصديق الهيئة المركزية العامة وإعطاء الاذن بذلك.

٣٥ ـ اجتماعات هيئات إدارة المراكز والفروع وصورة قراراتها تسجل في سجل القرارات، وتتبع بجلساتها أصولاً ومراسم مخصوصة تسنها لنفسها.

الفصل السادس

في الانتخابات

٣٦ ـ ينتخب الثلث الأول من بين أفراده الهيئة المركزية بالانتخاب السري.

٣٧ ـ يشترك بانتخابات الهيئة المركزية لمركزها كل من وجد في حاضرها أو من أمن حضوره إليها من أعضاء الثلث الأول.

٣٨ ـ يحق لجميع أعضاء الجمعية من أي قسم كانوا الاشتراك في انتخابات هيئات المراكز والفروع، ويرجح أعضاء الثلث الأول على الثاني والثاني على الثالث في أن ينتخبوا للهيئات الإدارية المذكورة.

٣٩ ـ تتألف هيئة إدارة المركز من سبعة أعضاء بما فيهم الكاتب وأمين الصندوق.

٤٠ ـ تتألف الهيئة الإدارية للفرع من خمسة أعضاء مع الكاتب وأمين الصندوق.

٤١ ـ تنتخب الهيئات الإدارية للمراكز والفروع لمدة سنة واحدة، ويجدد انتخاب عضوين فيها بعد مضي ستة أشهر على انتخابها حسب المادة (٧).

٤٢ ـ يشترط في العضو المنتخب لهيئات إدارة المراكز والفروع أن يكون ذا تحصيل واختبار يؤهله للقيام بأعمالها وأن يكون موجوداً في حاضرتها أو أمكن حضوره إليها وقت الانتخاب.

الفصل السابع

في لجان الجمعية

٤٣ ـ تؤلف الجمعية لجاناً للقيام بأعمال مخصوصة كالتهذيب والعمران والاقتصاد والتحضير والتبشير وغير ذلك حسب الحاجة.

٤٤ ـ تتألف كل لجنة من رئيس وعضوين تنتخبهم الهيئة المركزية من عموم الأعضاء تبعاً لاختصاصهم. أما اللجان المركزية والفروع فتنتخبهم هيئات إدارتها.

٤٥ ـ تشرك اللجان الوطنيين الذين عرفوا بالإخلاص لغاية الجمعية والصدق والمناداة للقيام بما يعهد اليهم من الأعمال والمشاريع، وتعرض اللجان المذكورة على الهيئة المركزية العامة قبل التصديق عليها من الحكومة.

٤٦ ـ يشترك رؤساء اللجان بمذاكرات الهيئة أو هيئات إدارات المراكز والفروع عند الحاجة.

٤٧ ـ يبدل اعضاء ورؤساء اللجان إذا دعت الحاجة بقرار من الهيئة المركزية أو هيئات إدارة المراكز والفروع.

٤٨ ـ على كل لجنة تقديم تقرير شهري للهيئة التابعة لها، وعلى هذه الهيئة تقديم نسخة من المقدم من قبل لجنة ما إلى الهيئة المركزية ـ المركز العام.

٤٩ ـ على رؤساء وأعضاء اللجان تحضير أفكار شركائهم بالعمل لاشتراكهم بالشؤون العمومية كالانتخابات والاحتجاجات وغيرها وفقاً لقرارات الهيئة المركزية وغاية الجمعية.

٥٠ ـ تعضد اللجان بعضها بعضاً في سبيل بلوغ وتأييد غاياتها.

الفصل الثامن

٥١ ـ وظائف أعضاء الجمعية مجاناً، إلا وظيفتي الكتابة والتفتيش وغيرهما من الوظائف التي تحتاج إلى رواتب أو مصارفات تقدرها الهيئة المركزية أو هيئات إدارة المراكز والفروع.

٥٢ ـ للمفتشين والمرسلين من قبل الهيئة المركزية حق حضور جلسات هيئات إدارة المراكز والفروع، وللمفتشين والمرسلين من قبل المراكز حق حضور جلسات هيئات إدارة الفروع.

٥٣ ـ للجمعية سجل عام يحتوي على أسماء أعضائها وتراجم أحوالهم وما قاموا به من أعمال جليلة وعلى صفاتهم البارزة وذلك بالاستناد على أعمالهم وأفعالهم الثابتة.

٥٤ ـ ينتخب اثنان من أعضاء الهيئة المركزية للقيام بأمور التسجيل، وتسجيل مطالعاتهم المبنية على وثائق ثابتة راهنة بعد عرضها على الهيئة المركزية العامة وتصديقها، وعلى المراكز والفروع السير بموجب هذه المادة.

٥٥ ـ تعين الهيئة المركزية العامة وهيئات إدارات المراكز والفروع لكل عضو اسماً مستعاراً أو عدداً معيناً يستعمل عند المخابرات مع الهيئة المركزية وهيئات إدارة المراكز والفروع ويسجل في السجل العام.

٥٦ ـ تضع الهيئة المركزية كلمة تعارف، وتبلغها لمن تشاء من الأعضاء، وتبدلها عند الحاجة.

٥٧ ـ تعين الهيئة المركزية وهيئات إدارة المراكز والفروع دليلاً ومعاوناً له لتبليغ القرارات ونقل الاقتراحات بينها وبين كافة الأعضاء.

٥٨ ـ من قرارات الهيئة المركزية وهيئات إدارة المراكز والفروع ما هو عام وما هو خاص. أما العام منها فيبلغ إلى كافة الأعضاء، ويبلغ الخاص إلى بعضهم عند الحاجة بواسطة الكاتب أو الدليل.

٥٩ ـ يحق للكاتب العام أو بطلب اثنين من الأعضاء جمع الهيئة المركزية إذا دعت الحاجة، ولكتاب المراكز والفروع وأعضائها نفس الحق أيضاً(١١٨).

٦٠ ـ الأعضاء الذين يدخلون جمعية ما يتحملون مسئولية تسييرها وفقاً لغاية الجمعية ومبادئها.

٦١ ـ يجوز انتقاد اعمال الحكومة أو الإضراب السياسي على ملأ من الناس بقرار من الهيئة المركزية أو هيئات إدارة المراكز والفروع.

٦٢ ـ على كل فرد من أعضاء الجمعية بحث مبادئها والتبشير بها في كل زمان ومكان، وأن يقاوم ويخبر بكل ما يسمع ويرى مما هو مفيد أو مضر بغاية الجمعية ومبادئها.

الباب الثاني

في مالية الجمعية

٦٣ ـ موارد الجمعية تستورد من المنابع الآتية:

---

(١١٨) المتبادر أن ذلك الاجتماعات طارئة غير المقننة والمعنية.

(آ) التبرعات: يتبرع كافة أعضاء الجمعية بمبالغ غير معينة إلى صندوق الجمعية في أوقات مختلفة حسب استطاعتهم.

(ب) تقوم الجمعية بأعمال نافعة من تأسيس شركات وطنية على أن تجمع رؤوس الأموال من الوطنيين وتترك الأرباح القانونية للمشتركين، وتستفيد من الأرباح المخصصة للمؤسسين الذين يكونون أعضاء في الجمعية بنسبة خمسين بالمئة.

(ج) يجوز لأفراد الجمعية أن يقوموا بأعمال متفرقة لاستجلاب الأموال، مثل يانصيب، وجلب سينما، وما يشبه ذلك على أن يعود ريعها إلى صندوق الجمعية.

٦٤ ـ ينبغي للقائمين باستجلاب الأموال بصورة متفرقة أو بتشكيل شركات وطنية أن لا يأتوا بعمل يدل على انتسابهم للجمعية، وأن لا يضيقوا على الشركات الوطنية الأخرى، وأن يتجنبوا الاسترباح بصورة غير مشروعة خصوصاً الاحتكار.

٦٥ ـ للجمعية ميزانية تحتوي على المصارف المقننة وغير المقننة:

(آ) المصارف المقننة تحتوي على النفقات والرواتب المعينة لدوام تأسيسات وتشكيلات الجمعية من مراكز ولجان ومعتمدين ومفتشين ومرسلين وغيرهم وما يتقرر صرفه من مبالغ تصرف على الأعمال التي تذكر في ميزانية كل سنة.

(ب) المصارف غير المقننة تحتوي على الإكراميات والهدايا وما يجب صرفه في الأحوال غير الاعتيادية على أن هذه المصارفات يجب أن لا تكون أكثر من ربع ما يبقى من مالية الجمعية بعد تنزيل المصارف المقننة.

٦٦ ـ تضع الهيئة المركزية ميزانيتها وتعرضها على الثلث الأول من الأعضاء لأجل التصديق.

٦٧ ـ ويجوز للهيئة المركزية أن تصرف شيئاً خارج الميزانية ما لم تستحصل على مساعدة الثلث الأول من الأعضاء.

٦٨ ـ على الهيئة المركزية تصديق ميزانيات المراكز والفروع والمعتمدين واللجان للعمل بها وطلب ما يزيد في صناديقها من الأموال.

٦٩ ـ يجوز استثمار المبالغ الاحتياطية إذا رأت الهيئة المركزية حاجة إلى ذلك.

٧٠ ـ معاملات مالية الجمعية تجري حسب الأصول التجارية، ولا يجوز استعمال اسم الجمعية بجميع هذه المعاملات، أما المودعات والأمانات فتربط بكفالات نقدية متسلسلة حسب الأصول.

* * *

الباب الثالث

في العقوبات

٧١ ـ للجمعية محكمة تنتخب الهيئة المركزية أعضاءها لمدة سنة واحدة وذلك لمحاكمة الأعضاء الذين يخالفون قانون الجمعية وقراراتها.

٧٢ ـ تتألف المحكمة من خمسة أعضاء من الثلث الأول وهم ينتخبون من بينهم رئيساً ومدعياً عاماً، على أن يكون للهيئة المركزية الحق بتبديل بعض أعضائها أو كلهم عند الحاجة وإن لم تنته مدتهم القانونية إما لاجل معين أو غير معين.

٧٣ ـ تقسم المجازاة إلى قسمين مجازاة تأديبية ومجازاة إرهابية:

(١) المجازاة التأديبية عبارة عن العقوبات الآتية:

(آ) الاسقاط من حقوق الانتخاب إلى أجل معلوم.
(ب) الإهمال في تبليغ القرارات إلى أجل معلوم.
(ج) الإهمال في المشورة إلى أجل معلوم.
(د) شرح في السجل العام.
(هـ) الإخطار الرسمي.
(و) الجزاء.
(ز) الحرمان من امتيازات الانتساب للجمعية إلى أجل معلوم.

(٢) المجازاة الإرهابية عبارة عن العقوبات الآتية:
(آ) المقاطعة من جميع الإخوان إلى أجل معلوم.
(ب) الإنذار الرهيب.
(ج) العقاب الرهيب.

٧٤) الأعمال التي تستوجب المجازاة التأديبية هي:

(آ) عدم اطاعة أوامر الجمعية وقراراتها.

(ب) مخالفة قانون الجمعية عدا المواضيع المذكورة بالمادة الآتية:

٧٥ ـ الأعمال التي تستوجب المجازاة الإرهابية:

«آ» التوسل لقلب الجمعية.

«ب» السعي ضد غاية الجمعية.

«ج» إفشاء أسرار الجمعية وتشكيلاتها بقصد إيصال الضرر إلى الجمعية.

٧٦ ـ قرارات االمحكمة حائزة قوة الإجراء ما لم تعترض عليها الهيئة المركزية.

٧٧ ـ لا تنفذ القرارات القاضية بالعقاب الرهيب إلا بعد موافقة ثلثي أعضاء الهيئة المركزية العامة عليه.

٧٨ ـ يجب تسجيل كل قرار يصدر من المحكمة بدفاتر السجل العام.

٧٩ ـ تنفيذ قرارات المحكمة عائد للهيئة المركزية.

٨٠ ـ على الهيئة المركزية العامة وهيئات إدارة المراكز والفروع واللجان والمعتمدين وكافة أعضاء الجمعية السير بموجب هذا القانون.

* * *

ويلحظ أن خاتم الصورة الشمسية مخالف لخاتم الصرخات الثلاث الذي وصفناه قبل. وما دامت الصورة الشمسية صادرة يقيناً عن جمعية الفتاة فيكون القول إن الصرخات الثلاث صادرة عنها غير صحيح. والمرجح أن هذه الصرخات صادرة عن إحدى الجمعيتين الثوريتين اللتين نعرف يقيناً أنهما أنشئتا سنة ١٩٠٩ وهما الجمعية القحطانية والجمعية الثورية اللتان ذكرنا الميسور من المعلومات عنهما في نبذ سابقة.

ولقد أوردنا نص الصرخات الثلاث في سياق بحث حزب اللامركزية، فنكتفي بهذا التنبيه.

ونعود إلى سياق سير جمعية الفتاة فنقول ان المؤسسين أخذوا يضمون إلى الجمعية من كانوا يأنسون بقابليته وغيرته القومية وحسن أخلاقه فضموا من شباب العرب في فرنسة في المرحلة الأولى كلا من جميل مردم وصبحي الحسيبي والأمير مصطفى الشهابي وتوفيق فايد وإبراهيم حيدر وتوفيق السويدي. ثم من شباب العرب في الآستانة وبلاد الشام بنوع خاص سيف الدين الخطيب ومحب الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم ويوسف مخيبر حيدر ورشيد الحسامي وتوفيق البساط والأمير عارف الشهابي وعمر حمد ومحمد الشريقي وفخري البارودي وفايز الغصين والأمير طاهر الجزائري والشيخ كامل القصاب ونسيب البكري وفوزي البكري ومصطفى برمدا وياسين الهاشمي ورضا الركابي وشكري القوتلي والأمير فيصل وفوزي القاوقجي وعزت دروزة والدكتور حافظ كنعان ونسيب الأطرش ونواف الشعلان على ما جاء في مذكرات الدكتور أحمد قدري[١١٩].

---

(١١٩) كان الدكتور زميلاً لي في المدرسة الاعدادية في نابلس في سنة ١٩٠٤، حيث كان والده ذا منصب عسكري فيها. وقام بيني وبينه شيء من الصداقة والانسجام. ثم ذهب إلى الآستانة لاتمام دراسته، ثم إلى باريس، ثم عاد وركز في دمشق أثناء الحرب العالمية الأولى. ولقد خرجت أنا من نابلس، لأمارس وظيفة في دائرة بريد بيروت، نقلت إليها من وظيفة بريد نابلس، سنة ١٩١٤. وكنت شديد الانفعال بالتيار العربي القومي. وقد مر ذكر بعض نشاطي في هذا السبيل، وأنا في نابلس. وقد التقيت أكثر من مرة بالدكتور أحمد قدري في دمشق، وبعبد الغني العريسي وعارف الشهابي وبرفيق التميمي في بيروت، وعمر حمد وعمر الفاخوري وأحمد المناصفي في بيروت، والأمير اسماعيل الشهابي في النبك. وكانت أحاديثنا تدور حول القضية القومية ومستقبلها أثناء الحر وبعد =

ومن الذين انضموا إلى الجمعية أثناء الحرب غير الذين ورد ذكرهم في هذه المذكرات على ما عرفته يقيناً حينما كنت سكرتيراً للهيئة المركزية في دمشق سنتي ١٩١٩ و ١٩٢٠ وإن كنت لم أعرف ظروف انضمامهم سامي البكري ومعين الماضي وزكي التميمي ومحمد علي التميمي ونجيب بليق وبشير النقاش وبشير القصار ومحب الدين الخطيب وبهجب الشهابي وفائز الشهابي وإسماعيل الشهابي وأحمد مريود وأحمد الحسيبي خالد الحكيم وسعيد الباني ومحمد الشريقي ورشدي الإمام ورشدي الشوا وسليم عبد الرحمن والدكتور صدقي ملحس وسعيد حيدر ويوسف حيدر وأمين ميسر وعبد الوهاب ميسر وشكري الشوربجي وأسعد الحكيم ومحمد إسماعيل الطباخ وعمر الأتاسي وأحمد المناصفي وإبراهيم هاشم ومحمد العفيفي ومولود مخلص وعلي جودت الأيوبي وتحسين قدري الترجمان وجميل المدفعي.

وقد اطلعنا على صورة شمسية لقاعة تحتوي أسماء الذين انتسبوا إلى الجمعية قبل نهاية الحرب أصلها في أوراق المرحوم محب الدين الخطيب وفيها أسماء أخرى وهم رفيق بيضون ورشدي سلهب وفؤاد حنتس وعبد الحفيظ يونس وشريف الشريف ونجيب حيدر وجميل دياب ومصطفى توفيق حيدر ورشيد طرابيشي ومحمود العجم وصالح حيدر وأمين المقدم ومحمود الطرابلسي وشريف الفاروقي ونوري الشعلان وعبد المجيد العراقي وعابدين الحشيمي وكامل نصري ونسيب طوقان وشكري الشوربجي ونجيب البرازي وفوزي الطرابلسي(١٢٠).

وفي هذه الأسماء من كان عسكرياً ومن كان مدنياً وإن كان المدنيون هم الأكثر، وفيها من كان عراقياً وفيها من كان من مختلف أنحاء الشام أي لبنان وسورية وفلسطين وهم الأكثر. وفيها من كان حجازياً وهو الأمير فيصل.

ولقد كان للجمعية شفرة حرفية تتمثل في هذه الكلمات «بزغ فجر وطنك، مت لعضد شخص أحي ثقة ظذس» وتجمع هذه حروف الهجاء، وكان لكل حرف منها رقم معين، فالواحد مقابل الباء والاثنان مقابل الزاي، والثلاثة مقابل الغين، والأربعة مقابل الفاء، والخمسة مقابل الجيم، والستة مقابل الراء وهكذا. فإذا أريد كتابة جملة مثل هذه الجملة مثلاً «حق العرب في الاستقلال» تكتب هكذا:

= الحرب. ويظهر أن ذلك قد رشحني لعضوية الجمعية. ولقد عينت مفتشاً على دوائر برق وبريد سيناء في أواسط سنة ١٩١٦، فالتقيت بالدكتور أحمد قدري في الحفير، فاتحني في أمر انضمامي إلى الجمعية، وأخبرني أني مرشح لها، وأنه مفوض بمفاتحتي وتحليفي فقبلت، وحلفت اليمين. ومما أذكره أن الثورة العربية الهاشمية كانت قد أعلنت، وأن الأمير فيصل كان قد اتجه مع جماعة من الضباط والجنود والبدو نحو الشمال، وأخذ بعض رفاقنا في الجمعية يلتحق به، فتحدثنا في ذلك، وفكرنا نحن أيضاً بالالتحاق. ولكن الظروف والوسائل لم تسعف آن ذلك.

(١٢٠) لقد التقيت في عهد فيصل، وفي أثناء الحرب قبله بكثير من هؤلاء الأخوان، وانعقد بيني وبين بعضهم صداقات حميمة دامت طويلاً، ونشطنا معاً في سبيل أهدافنا القومية أثناء عهد فيصل وبعده. ولعلي أعود فأفصل ذلك، أو ما تسعف الذاكرة على ذكره من ذلك، في القسم الثاني لأن ذلك كان أثناء حقبة هذا القسم.

«٢١، ٢٤، ٢٠، ١٣، ١٤، ٢، ٤، ٢٢، ٢٠، ١٣، ٢٠، ٢٨، ١٢، ٢٤، ١٣، ٢٠، ١٣».

ولقد كان من أهم مظاهر نشاط الجمعية في باريس الدعوة إلى المؤتمر العربي في باريس الذي شرحنا ظروفه وسيرته في نبذة سابقة. حيث كان أكثر أعضاء هيئتها المركزية من اللجنة التي تألفت للدعوة إليه وساهمت في عقده، وحيث نعتقد أن فكرة المؤتمر كانت فكرتها هي.

ثم نقلت الجمعية مركزها في أواخر سنة ١٩١٣ إلى بيروت وكان محمد المحمصاني يتولى سكرتيريتها العامة، مع قيام فرع لها في دمشق كان يتولاه الدكتور أحمد قدري. ولما دخلت الدولة الحرب إلى جانب الألمان في أواخر تشرين الأول ١٩١٤ انتقل المركز إلى دمشق مع بقاء فرع للجمعية في بيروت.

ولقد كان للجمعية أسلوب خاص في اختيار الأعضاء وضمهم إليها حيث كانت شديدة الحرص على أن لا تضم إليها إلا من عرف بحسن الخلق والأمانة والكتمان وقوة النفس والجرأة بالإضافة إلى التشبع بالفكرة القومية والتحمس لها، وكان العضو يرشح من قبل خبير به منتسب إلى الجمعية سابقاً، فإذا لم يكن في الهيئة من يعرف له صفات خطرة أو أخلاقاً ضعيفة أحيل (للدرس) فتدرس أحواله من قبل غير الذي رشحه ويختبر بالمحادثة ويسأل عنه معارفه بشتى الأساليب. فإذا أسفر الدرس عن الاقتناع بأهليته أحيل (للمفاتحة) فيفاتح بأساليب متنوعة يكون المتكلم فيها متحفظاً قادراً على التراجع وسد الباب دون أن يترك مجالاً لاكتشاف وجود الجمعية فعلاً والإحساس بها، فإذا أسفرت المفاتحة عن الايجاب أعطيت له تفصيلات قليلة ثم دعي إلى اليمين على الإخلاص لمبدأ الجمعية الذي كان (بذل كل جهد لإيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم الراقية والحرة والمستقلة الكبرى) و (بذل كل تضحية في سبيل ذلك بالنفس والنفيس) و (كتمان سر الجمعية والطاعة لأوامر هيئتها المسئولة). ويكون كل ما عرفه العضو المنضم بعد هذا هو اسم الجمعية والشخص أو الشخصين اللذين فاتحاه نهائياً وحلفاه اليمين، فإذا أريد إبلاغه أمراً أو خبراً أو انتدابه لمهمة أبلغ بواسطة أحدهما أو بواسطة مأمونة أخرى، ثم يكون شأن هذا العضو في الجمعية وميادين العمل تحت رايتها رهناً بما هو عليه من نشاط وفتور وقوة شخصية وضعفها، وبما يقوم به من مهمات ويبدو منه من سعي في سبيل المرمى والمدى.

وهكذا لم يكن أعضاء الجمعية يعرفون بعضهم إلا في هذا النطاق الضيق، وكان لكل عضو رقم زيادة في الحرص.

ومن الجدير بالذكر أن أسماء الجمعيات السرية الأخرى وأسماء عدد من أعضائها قد انكشفت في سياق تحقيقات الديوان العرفي الحربي في عاليه الذي أنشأه الطاغية جمال في أثناء الحرب بسبيل القضاء على الحركة العربية ورجالها سنتي ١٩١٥ و١٩١٦ ولم يرد اسم الجمعية في أي افادة أو اعتراف أو وثيقة وقع في يد الديوان على ما ظهر يقيناً من كتاب (إيضاحات) الذي أذاعه جمال بالرغم من شدة المحاولات والارهاقات وبالرغم من أن نخبة من أعضائها وأركانها اعتقلوا وعذبوا وحقق معهم وشنقوا في النهاية. ومما لا ريب فيه أن هذا أثر من آثار أسلوب الاختبار والاختيار

والضم والتكتم والتحفظ الذي سار عليه أركانها. ولقد كان من أثر هذا أن أقدم شكري القوتلي أحد أعضائها على الانتحار حينما اعتقل وشدد عليه بسبيل الوقوف على ما عنده من أسرار الجماعات السرية مفضلاً الموت على الإفشاء فقصد عرقه وسال الغزيز من دمه ثم أدرك في آخر لحظاته وخفف الضغط عليه[١٢١].

وبهذا الأسلوب الذي كان في نفس الوقت يسبغ على الجمعية ثوب الهيبة والخطورة والقوة، ويحمل المنضمين إليها على الفناء فيها والمجازفة في أداء ما يعهد اليهم من مهامها وكتمان أسرارها مهما تعرضوا له من محن وأخطار استطاع أركانها أن يضموا إليهم في أثناء الحرب تلك النخبة الصالحة التي امتاز كثير منها بمتانة الخلق وسلامة الحكم ونشاط الذهن وسعة الأفق والإقدام وقوة الشخصية ذهب بعضهم شهداء أعزاء في سبيل العقيدة التي اعتنقوها والمبدأ الذي أقسموا له وبرز كثير منهم واحتلوا الصفوف الأولى لمختلف الحركات العربية واستطاع بعضهم أن يقوم بأهم أدوار هذه الحركات في مختلف ميادينها ومجالاتها.

وفي مذكرات الدكتور أحمد قدري تسجيل لحادث هام في صدد أوراق الجمعية حيث يذكر أن شقيقة صالح حيدر جاءت إليه بعد شنق أخيها الشهيد وطلبت منه العمل على إبادة أوراق الجمعية التي عرفت أنها كانت في حوزة الشهيدين محمد ومحمود المحمصاني في بيروت حتى لا تقع في أيدي السلطات وتؤدي إلى اعتقال كثير من رجال الجمعية فأرسلها بإشارة خاصة إلى بيروت حيث اتصلت بشقيقة الشهيدين وأبلغتها مهمتها فبادرت الشقيقة التي يظهر أنها كانت تعرف مخبأ هذه الأوراق إلى إخراجها من مخبأها وإحراقها. فكان ذلك مما صان الأوراق وما فيها من أسرار وأسماء من احتمالات وقوعها في يد السلطات.

وقد ذكر الدكتور حادثاً آخر فيه شيء من ذلك. فقد كانت الشرطة العسكرية التي اعتقلت الشهيد المرحوم عبد الغني العريسي الذي كان سكرتيراً للجمعية صادرت منه ختم الجمعية فبذل الدكتور جهده لاسترداد الخاتم وصانه من الوصول إلى أيدي السلطات العليا الأخرى وصان بذلك اسم الجمعية من الاكتشاف.

وفي مذكرات الدكتور أحمد قدري نتف كثيرة عن نشاط الجمعية أثناء الحرب العالمية بل ومنذ إعلان الدولة النفير العام ودخولها بعد قليل في الحرب. وفي ذاكرتنا ومذكراتنا أشياء كثيرة عن هذا النشاط في أثناء الحرب وفي أثناء الحكم العربي الفيصلي بعد انتهاء الحرب. وكان لنا فيه نصيب غير يسير إلى جانب اخواننا الكثيرين من أعضاء الجمعية وقد رأينا أن نؤجل سرد ذلك إلى الجزء الثاني الذي سوف نعقده على سير الحركة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها إلى آخر الحكم الفيصلي، وأن نختم بحث الجمعية هنا بتأكيد ما قلناه وما هو مؤيد بما أوردناه من أخبار نشاطها وما

---

(١٢١) في مذكرات الدكتور أحمد قدري فصل كشاهد عيان ومطلع لظروف اعتقال شكري القوتلي ومحاولة انتحاره، ويفيد أن ذلك كان بإيعاز منه في حالة تعرضه لتعذيب شديد، تفادياً من البوح باسم الجمعية أو أعضائها أو نشاطها. انظر ص ٥٩ ـ ٦٢.

سوف نورده من مثل ذلك في الجزء الثاني ان شاء الله وهو أنها كانت أنشط تنظيم عربي قومي سري وأوسعه وأشمله وأكثره أثراً في سيرة الحركة العربية الحديثة.

٧ ـ جمعية الجامعة العربية

ذكر انشاء هذه الجمعية أمين سعيد في الجزء الأول من كتابه الثورة العربية وقد قال ان السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار بعد عودته من رحلته إلى الآستانة سنة ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ معتقداً بعدم إمكان دوام اتحاد العرب والترك أنشآ هذه الجمعية في القاهرة لغرضين أولهما السعي لاتحاد حلفي بين امراء جزيرة العرب للاتفاق ومنع الشقاق.

وثانيهما التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وايجاد صلة بين الجمعيات العربية في سورية والعراق وغيرهما. وقد وضع لها قسماً هذا نصه (أقسم بالله العظيم القهار المنتقم الجبار العالم بسري وعلانيتي. القادر على سلبي كل ما أعطاني من المواهب والقوى، وبكتاب الله المجيد أنني أبذل جهدي وما في وسعي لجمع كلمة العرب والتأليف بين أمرائهم وتأسيس ملك جديد لهم. بحسب القواعد التي وضعتها لذلك جمعية الجامعة العربية التي انتظم في سلكها اليوم. وإنني أسعى لذلك مع أعضاء هذه الجمعية بمنتهى الصدق والإخلاص وإنني لا أبخل في سبيل ذلك بمالي ولا بنفسي ولا يلفتني عنه هواي وحظي الشخصي ولا حظ أحد من أهلي وولدي وانني أحافظ على مقاصد الجمعية وأسرارها بأشد ما أحافظ به على ابني وشرفي وعرضي، فلا أفشي لها سراً ولا أعارض لها عملاً ولا أقول قولاً ولا أعمل عملاً يخالف مقاصدها أو يحدث فيها خللاً أو يوقع فيها فشلاً لعلة من العلل أو سبب من الأسباب ، وإنني أقوم بكل عمل يكلفني إياه مركزها العام من مقاصد هذه الجمعية أو وسائلها بحسب استطاعتي، على عهد الله وميثاقه لأبر بقسمي هذا بلا تأويل ولا عذر ولا كفارة، وان حنثت بشيء مما تضمنه أو غدرت أو أفشيت سراً أو قلت أو فعلت ما يضر هذه الجامعة أو احداً من العاملين لها أو يخل بشيء من أعمالها أو يخالف شيئاً من مقاصدها فعلي اثم من حقر اسم الله ونبذ كتاب الله وبريء من الدين والشرف ومن ذمة العرب واستحق نقمة الله ولعنته ولعنة الملائكة والناس أجمعين، وانتقام الجامعة العربية وكل من يغار على ملته وأمته. وكان من الخائنين والملعونين إلى يوم الدين والله على ما أقول شهيد).

ويوضح المؤلف أن هذا النص كان خاصة للأمراء والزعماء. وأن هذا النص قد عدل بعد الحرب العظمى وأن السيد رشيد كاتب الامام يحيى ابن حميد الدين والإمام عبد العزيز بن السعود والسيد محمد علي الادريسي باسطاً أغراض الجامعة وغايتها فكتبوا اليه موافقين ومحبذين كما اجتمع إلى الأمير عبد الله بن الحسين خلال زيارته لمصر وأدخله عضواً فيها وأقسم اليمين بين يديه. وكان من أعضاء الجمعية العاملين بمصر قبل الحرب الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ورفيق العظم ودخل فيها بعد إعلان الحرب الدكتور عبد الرحمن شهبندر وشريف الفاروقي وغيرهم.

هذا كل ما جاء في الكتاب عن هذه الجمعية ولم نقع فيما اطلعنا عليه من مصادر على خبر لهذه الجمعية فضلاً عن بيانات أخرى.

ونرجح أن مؤلف الكتاب قد نقل ذلك عن شيء منشور في حينه، ولعل السيد رشيد كتب ما أورده مع ما هناك من ثغرات. ونص القسم عجيب يشبه نصوص الايمان التي كان يأخذها دعاة الشيعة على اتباعهم في زمن الدولة الفاطمية وقد يكون من دلائل صحة انشائها وصحة وضعه من قبل السيد رشيد رضا!

وبمناسبة ذكر أمراء الجزيرة في هذه النبذة وورود ذكرهم في المناشير والنبذ السابقة نقول استطراداً انه يظهر أنه كان في أذهان أو خيال رجال الحركة العربية صورة ضخمة لهؤلاء الأمراء وكانوا يعتقدون بناء على هذه الصورة بقوتهم المادية وعاطفتهم القومية ويعولون عليهم في حركتهم.

ولقد أورد كتاب «إيضاحات» مقطوعة شعرية للشهيد عمر حمد فيها مناشدة لهم وتنطوي على تأييد لما نقول من الصورة الضخمة التي كانت في اذهان رجال الحركة العربية وهي هذه:

هيا بنا هيا بنا	ابن السعود يا عزنا
يا ابن الرشيد	أنت العميد
أنت الوليد	يا عزنا
يا ابن السعود	هيا بنا
ابن الجدود	يا عزنا

٨ ـ جمعية النهضة اللبنانية:

ورد اسم هذه الجمعية في كتاب «إيضاحات» وفي مذكرات عزيز بك الذي كان رئيس مخابرات جمال باشا أثناء الحرب. والأسماء الواردة في الكتابين تدل على أن أعضاءها جميعهم مسيحيون لبنانيون. وبعض البيانات الواردة فيها تفيد أن أعضاءها كانوا يترسمون خدمة مصالح فرنسة وإخراج لبنان بل وسورية من الدولة العثمانية وإقامة حكومة فيها تحت حماية فرنسة. وقد رأينا أن نلحق خبرها في نهاية هذا الفصل ولو لم يصح عليها القول انها جمعية عربية قومية. فهي جمعية عربية على كل حال. وقد كان لأعضائها نشاط سياسي بالتعاون مع الأحزاب والحركات العربية الأخرى التي كانت تهدف إلى الإصلاحات في نطاق الدولة ثم إلى الاستقلال.

ومما ورد في كتاب إيضاحات عنها أنها أول ما تأسس من الجمعيات وأنها تأسست في جبل لبنان الذي كان خارج نطاق السلطة العثمانية، وأن مؤسسيها جماعة من آل الخازن. وأن أعضاء فرعها في بيروت هم دعيبس المر وخليل زينية ويوسف الغلبوني، وانه كان لها فرع في مصر رئيسه اسكندر عمون ومن أعضائه داود عمون. وأنه كان لها فرع في باريس رئيسه شكري غانم ومن أعضائه خير الله خير الله والكونت جريصاتي وزوين الخوري وأنه كان لها فرع في أميركا رئيسه نعوم مكرزل. وإنه كان من أهدافها الحاق بيروت بلبنان وتوسيع حدوده إلى البقاع. وان من غاياتها تمهيد السبيل لفرنسة في سورية، وأن خير الله خير الله كان يكتب المقالات في الطان بكل ذلك بإيعاز من فرنسة وأن فرنسة أرسلته مرتين أو ثلاثاً إلى لبنان وسورية لبث الدعاية لها. وأن

ممن ينتسب إليها رزق الله أرقش وسعيد عقل. وأن قنصل فرنسة في بيروت خصص مبلغاً من المال لجريدة الاتحاد العثماني التي تسلط عليها رزق الله أرقش وادخل في تحريرها سعيد عقل، وأن الجمعية اتصلت بحزب اللامركزية والجمعية الإصلاحية البيروتية ووحدت مجهوداتها معهما وكان ذلك بتحريض من فرنسة. وقد عزا كتاب إيضاحات معظم هذه البيانات إلى اعترافات أدلى بها عبد الغني العريسي أثناء التحقيق معه في الديوان الحربي العرفي.

وكثير مما جاء في هذه البيانات جاء في كتاب عزيز بك مع بعض زيادات، من ذلك أن جريدة الاتحاد العثماني كانت جريدة الشيخ أحمد طبارة فسلمها إلى رزق الله أرقش فعهد هذا بتحريرها إلى سعيد عقل، ومن ذلك أن من أعضاء فرع مصر شبلي شميل وداود بركات ويوسف صيدناوي والفونس زينية وسليم شبل، وأن من أعضاء فرع باريس شارل دباس.

ولقد كان رزق الله أرقش وخليل زينية من أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية. وكان اسكندر عمون نائب رئيس حزب اللامركزية وشبلي شميل وداود بركات من أعضاء هيئته المركزية. وكان اسكندر عمون ونعوم مكرزل وشارل دباس وشكري غانم من شهود المؤتمر العربي في باريس والخطباء فيه، والمؤتمر وحزب اللامركزية والجمعية الإصلاحية كانت تهدف إلى الإصلاح على أساس اللامركزية وتؤكد الرغبة في بقاء الرابطة العربية التركية تحت لواء الدولة العثمانية وتتحفظ تجاه المطامح الأجنبية وتترسم وقاية البلاد العربية منها.

ولقد أوردنا في سياق بحث الجمعيات الإصلاحية نقلاً عن كتاب «إيضاحات» نص وثيقة مصادرة من القنصلية الافرنسية في بيروت عليها تواقيع ميشيل التويني ويوسف الهاني وبترو طراد وأيوب ثابت ورزق الله أرقش وخليل زينية، والاثنان الأخيران ممن ذكرت أسماؤهم كأعضاء في فرع الجمعية البيروتي وهما مع الآخرين من أعضاء الجمعية الإصلاحية البيروتية والمندمجين في حركتها، وقد ذكروا في المذكرة أنهم اندمجوا في هذه الحركة للتمويه على الحكومة العثمانية من جهة، وإدخال أساس لوضع رقابة أوربية على جميع بلاد الشام من جهة أخرى ولكنهم مع ذلك يعتقدون أن الإصلاحات لو تمت ولو بمساعدة أوروبا فإنها لا تحل المسألة. ولا تتحقق بذلك رغبة النصارى الحقيقية في سورية بسبب نوازع التعصب الإسلامي ضد النصارى، ولأن النصارى مرتبطون بفرنسة بصورة لا تقبل الانفكاك، وأن أكبر آمالهم أن تستولي فرنسة على البلاد الشامية.

والمتبادر أن هذه الوثيقة مما استند إليه كتاب إيضاحات في تهمة الجمعية بالضلوع مع فرنسة. غير أن هؤلاء الموقعين ليسوا كل الأعضاء الذين كان منهم أفراد من أركان حزب اللامركزية ومن أركان المؤتمر العربي الذين كانوا يترسمون الإصلاح واللامركزية مع استمرار الارتباط بالدولة العثمانية والإخاء التركي العربي ويتحفظون أشد تحفظ تجاه المطامع الأجنبية ويترسمون وقاية البلاد منها كما قلنا. وقد نبه اسكندر عمون في خطابه في المؤتمر إلى أن العرب لا يريدون الانفصال عن الدولة وإنما يرون الإصلاح اللامركزي الذي يقيها من الانهيار والتدخل الأجنبي بحيث يمكن القول ان في تعميم التهمة لجميع الأعضاء تجنياً لا سند له.

* * *

هوامش الفصل الخامس

(1) و (2) حول وجود الأحباش في اليمن، وحول أبرهة وذي يزين، انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار صادر؛ دار بيروت، ١٩٦٥)، مج ١، ص ٤١٥ - ٤٣١ - ٤٣٧ و٤٤٢ - ٤٥١.

(3) عبد العزيز سالم، **تاريخ الدولة العربية: تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية** (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٠)، الفصل الثاني: «اليمن في ظل الأحباش والفرس،» ص ٧٥ - ٩٤.

(4) حول اصل تسمية ساميين، انظر: أحمد سوسة، **حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور**، السلسلة الاعلامية، ٧٩ (بغداد: وزارة الاعلام، ١٩٧٩)، ص ٣٩ - ٤٣، وجواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ٩ ج (بيروت: دار العلم للملايين؛ بغداد: دار النهضة، ١٩٧٦)، ج ١، ص ٢٢٢ - ٢٣٩.

(5) حول الهجرات، انظر: سوسة، المصدر نفسه، ص ٧٩ - ٩٨، وعلي، المصدر نفسه، ص ٢٤٠ - ٢٥٣.

(6) حول الأكراد، انظر: شاكر خصباك، **الأكراد: دراسة جغرافية اثنوغرافية** (بغداد، ١٩٧٢).

(7) حول الشراكسة، انظر: أمين سمكوغ، **تاريخ الشراكسة** (دمشق: دار دمشق؛ بيروت، ١٩٨٤).

(8) حول الأرمن، انظر: مروان المدور، **الأرمن عبر التاريخ** (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٨٥)، وعثمان الترك، **صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية** (حلب: مطبعة الأهرام، ١٩٦٠).

(9) حول البربر، انظر: أحمد بن عامر، **تونس عبر التاريخ** (نشر وتوزيع مكتبة النجاح، ١٩٦٠)، ص ١٥ - ٢٣، ٣٣ - ٣٦، ٦٣ - ٦٧، ٧٨ - ٧٩، ٩١ - ٩٢ و١٠٩ - ١١٠، وأبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** (الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٤)، ج ١، ص ٦٠.

(10) حول جنوب السودان، انظر: محمد عمر بشير، **جنوب السودان: دراسة لأسباب النزاع**، ترجمة أسعد حليم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١).

(11) حول اليهود وأصلهم السامي، انظر: أحمد سوسة، **مفصل العرب واليهود في التاريخ** (بغداد: وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٨١)، بخاصة الفصل الثاني، ص ٢٤٧ - ٣٢٣؛ الفصل الثالث، ص ٣٢٩ - ٤٠٤؛ الفصل الرابع، ص ٤٠٧ - ٤٠٦؛ الفصل الخامس، ص ٤٧٧ - ٥٢٨، والفصل السادس، ص ٥٣٣ - ٦١٧.

(12) حول القومية العربية والإسلام، انظر: **القومية العربية والإسلام: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية** (بيروت: المركز، ١٩٨١)؛ محمود كامل، **الإسلام والعروبة: تحليل لعوامل الوحدة بين عشرين دولة عربية** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦)، وعصمت سيف الدولة، **عن العروبة والإسلام**، سلسلة الثقافة القومية، ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦).

(13) حول الحركة الاستقلالية في مصر وفلسطين، انظر: رأفت غنيمي الشيخ، **في تاريخ العرب الحديث**، مكتبة الدراسات التاريخية والعلاقات الدولية، ٢ (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٧٧)، ص ١٣٥ - ١٥٢ و١٥٥ - ١٨٧.

(14) حول محاربة أئمة اليمن للاحتلال العثماني، انظر: فاروق عثمان أباظة، **الحكم العثماني في اليمن، ١٨٧٢ - ١٩١٨**، المكتبة العربية، ١٦٥ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥).

(15) حول محمد علي باشا، انظر: جرجي زيدان، **تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامي إلى الآن مع فذلكة في تاريخ مصر القديم**، ط ٢، ٢ ج (القاهرة: مطبعة الهلال، ١٩١١)، ج ٢.

(16) حول الحركات الاصلاحية السلفية، انظر: الشيخ، **في تاريخ العرب الحديث**، ص ١٩١ - ٣٥٤.

(17) حول الثورة العربية، انظر: عبد الرحمن الرافعي، **الثورة العرابية والاحتلال الانكليزي**، ط ٣ (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦)، وصلاح عيسى، **الثورة العرابية** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢).

(18) حول الصحافة العربية، انظر: فيليب دي طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ٤ مج (بيروت: المطبعة

الأدبية، ١٩١٣)، وجوزيف الياس، **تطور الصحافة السورية في مائة عام، ١٨٦٥ ـ ١٩٦٥** (بيروت: دار النضال للطباعة والنشر، ١٩٨٢)، ج ١: ١٨٦٥ ـ ١٩١٨.

(19) حول موقف الزهراوي، انظر سهيلة الريماوي في: **مجلة الدراسات التاريخية**، العددان ١٥ ـ ١٦ (كانون الثاني/يناير ـ أيار/مايو ١٩٨٤)، ص ١٧٣ ـ ٢٠٦.

(20) حول حزب العهد، انظر: وميض جمال عمر نظمي، **الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق**، سلسلة أطروحات الدكتوراه، ٥ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤)، ص ١٣٣ ـ ١٤٨.

الفَصْلُ السَّادِسُ
كِتَابُ «مَأسَاة فلَسْطين»
(النَّصُّ الكَامِل)

هذا الكتاب

كتب الأستاذ محمد عزة دروزة الكثير حول القضية الفلسطينية، وكان من ذلك كتب ومقالات. أما الكتب فقد أشرنا إليها في المقدمة، فلا حاجة للعودة إليها مرة ثانية. وأمّا المقالات، فإنها لم تجمع بعد.

وقد اخترنا من هذه الكتب هذا الكراس «مأساة فلسطين»، ليكون بين المختارات. فهو كتاب موجز، ويمثل وجهات نظر صاحب المختارات في القضية التي ناضل من أجلها، وإن كان ليس أفضل ما كتب في هذا المجال.

ولم يكن سليماً أن تظهر هذه المختارات، دون أن تخص فيها قضية فلسطين بمثل هذا الجزء، لأن صاحب المختارات القومي العربي، شارك كما بيّنا، في كل النضالات الفلسطينية، حتى ١٩٤٨، ولأنه أسهم بقلمه في الدفاع عن فلسطين، وكتابة تاريخها، اسهاماً مشهوداً. وبما أن صاحب الترجمة لم يرَ قضية فلسطين خارج القضية العربية، كل حياته، فلذلك كانت بارزة في كل ما كتب. وهذا ما يوضحه هذا الكراس أيضاً.

(المحرر)

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

مأساة فلسطين

عرض موجز لقضية فلسطين وتاريخها وتطورها
وحاضر فلسطين ومستقبلها

بقلم

محمد عزة دروزة

اصدرته

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

بمناسبة ذكرى تقسيم فلسطين

١٣٧٩ — ١٩٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

اقترح علينا بعض الاخوان، أن نضع رسالة وجيزة، نلخص فيها مأساة فلسطين وتاريخها وتطورها، في مناسبة ذكرى تقسيمها المشؤومة، لتظل ذكرى فلسطين ماثلة في أذهان شعبنا، وخاصة ناشئتنا، ويكون لهم فيها العبرة والحافز.

وها نحن نستجيب للاقتراح، سائلين الله تعالى أن يجعل في هذه الرسالة النفع. وهو ولي التوفيق.

دمشق الشام
المؤلف

١٣٧٩/٥/١٥
١٩٥٩/١١/١٦

١ ـ أساس المأساة لقاء الاستعمار والصهيونية

ـ ١ ـ

لقد كانت مأساة فلسطيننا العزيزة، نتيجة لالتقاء الاستعمار مع الصهيونية على صعيدها.

فقد ترسم الانكليز في القرن الفائت، الذي كانت فيه امبراطوريتهم أعظم الامبراطوريات المعاصرة، أن يبسطوا سيطرتهم على ما كان في طريق الهند، درة امبراطوريتهم، ومستمد اسمها وثروتها. وتمكنوا بدسائسهم ونشاطهم من احتلال مصر والسودان وسواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية، بما فيها سواحل الخليج العربي. ثم رأوا في الحرب العالمية الأولى الفرصة السانحة لاتمام خطتهم. وكانت بلاد العراق وفلسطين وشرق الأردن هدفهم في هذه الفرصة، حيث يضمن لها ذلك وصل البحر الأبيض من ناحية فلسطين، بالخليج العربي من ناحية العراق.

ولقد كانت فكرة تقسيم الأمبراطورية العثمانية، تراود دول أوروبا الكبرى، منذ أوائل القرن التاسع عشر. وكانت تسميها بالرجل المريض. غير أن تناظرها وتنافسها، كان مما يؤخر ويعرقل تحقيق الفكرة. وكان التنافس بين انكلترة وفرنسة وروسية. ثم دخلت المانيا بعد اتحادها مضمار المنافسة، حتى غدت في أوائل القرن العشرين أشد المنافسين إزعاجاً.

فلما نشبت الحرب، وصارت ألمانيا في طرف، وانضمت إليها الدولة العثمانية، وصارت بريطانية وروسية وفرنسة طرفاً متحالفاً ضد هذا الطرف، كان تحالف الدول الكبرى الثلاث حافزاً ومسوغاً للاتفاق على تحقيق الفكرة فتفاوضت واتفقت. وكانت بلاد العراق من حصة بريطانية، وبلاد الشام من حصة فرنسة، والولايات الشرقية من الأناضول من حصة روسية، بالاضافة إلى حصص أخرى منحت لليونان في ولاية ازمير، وللطليان في منطقة انطالية، بزعم كل دولة من هذه الدول بمصالح متنوعة لها في القسم الذي طلبت أن يكون تحت استعمارها أو نفوذها. ولم يكن لبريطانية مصالح مزعومة في فلسطين وشرق الأردن مقنعة لحلفائها، إلا انشاء سكة حديدية، تربط بين الخليج العربي والبحر الأبيض، فمنحت لأجل ذلك سواحل فلسطين الشمالية، مع طريق

بري بينها وبين العراق مارا بشرق الأردن. أما بقية فلسطين فقد كانت كل من روسية وفرنسة تزعم لنفسها فيها مصالح دينية وثقافية، فلم يمكن التوفيق بينهما لاختصاص احداهما بها، فأدى ذلك إلى الاتفاق على أن تكون ادارتها دولية، تشترك الدول الحليفة جميعها فيها.

وفي سنة ١٩١٧ م انفجرت الثورة الاشتراكية في روسية، فأدت إلى خروج روسية من الحرب. غير أن بريطانية وفرنسة لم تعتبرا ذلك ناقضاً للاتفاق، فتفاوضتا وأكدتا الاتفاق الذي تم بالنسبة لحصصهما، ثم بالنسبة لفلسطين في ما عرف بعد بمعاهدة سايكس بيكو.

ومن الجدير بالذكر، أنه بينما كانت الدول الثلاث تتفاوض وتتآمر على تقسيم الامبراطورية العثمانية وبلاد العرب منها، كانت بريطانية تتصل بشريف مكة، الحسين بن علي، وتتفاوض معه على القيام بثورة عربية كبرى ضد الدولة العثمانية، مقابل الموافقة على انشاء مملكة عربية كبرى برئاسته، تشمل بلاد العراق والشام والحجاز. وقد تم الاتفاق بينهما وبينه في الظرف الذي تم الاتفاق بين الدول الثلاث، على أن تكون بلاد العراق - عدا القسم الشرقي من منطقة الموصل - منطقة نفوذ واستعمار انكليزية. وبلاد الشام مع منطقة الموصل المذكورة - عدا فلسطين - منطقة نفوذ واستعمار افرنسية، وسواحل فلسطين الشمالية منطقة نفوذ واستعمار انكليزية، وادارة فلسطين ادارة دولية، مما كان فيه تناقض صارخ ملؤه الغدر والخيانة للغرب. وقد ظلت مصممة على هذا التناقض الغادر الخائن، ومثلت في مجاله أدواراً عجيبة، بعد انتهاء الحرب، منافية لكل خلق ومنطق وشرف وحق وبكل صفاقة واستهتار.

- ٢ -

ولقد نشأت حركة اليهود الصهيونية في أواسط القرن التاسع عشر، نتيجة لما كان يقع على اليهود في أوروبا من اضطهاد. فقد كان اليهود في أوروبا وغيرها، منذ شتاتهم في القرن الأول الميلادي، يعيشون على بعضهم كتلاً في احياء خاصة، منكمشين عن غيرهم من الملل الأخرى، لا يألون جهداً في الوقت نفسه من امتصاص دمائها بالربا وغير الربا، ولا يندمجون فيها، ولا يخلصون للأوطان والدول التي كانوا يأوون فيها. فكان هذا الأسلوب من الحياة والسلوك، وما كانوا يكتنزونه من أموال نامية من دماء الناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم، وكرههم للنصرانية التي يدين بها هؤلاء الناس، وقذفهم السيد المسيح وأمه بأشنع القذف، يعرضهم لاضطهاد هؤلاء من حين لآخر. فرمت تلك الحركة إلى تهجير اليهود المضطهدين إلى بلاد ما، يقيمون فيها لهم وطناً آمناً. ثم تطورت حتى غدا أهدافها اقامة دولة يهودية في فلسطين، بحجة أنه كان لبني إسرائيل أصحاب الدين اليهودي فيها وطن ودولة قبل الفي سنة. وسموا حركتهم المتطورة باسم الحركة الصهيونية، نسبة إلى جبل صهيون، أحد هضاب القدس التي أقام الملك داود عليها قصره، ومركز حكومته، قبل ثلاثة آلاف عام. ومنهم من غلا في خياله وتفكيره، فاعتبر فلسطين قاعدة لدولة يهودية كبرى، يجب أن تشمل ما بين الفرات إلى النيل، ويحتشد فيها ملايين اليهود، وتصبح صاحبة اليد الاستعمارية والاقتصادية والسياسية في الشرق الأوسط كله، بزعم أن سلطان اليهود القديم كان يشمل هذه الساحة الواسعة، برغم ما في ذلك كله من سقم وزيف.

فبنو اسرائيل قد طرأوا على فلسطين، وهي مأهولة بسكانها الكنعانيين والعموريين والفلسطينيين، مزدهرة بمدنهم وحضارتهم، وخرجوا منها قبل ألفي سنة، وظل أهلها فيها. ولم ينعموا بدولة واستقرار إلا فترة قصيرة. وعاشوا على حضارة وعمران أهلها القدماء. وبقية مدة وجودهم فيها كانت مضطربة مليئة بالمنازعات، مصبوغة بالدماء، مرتكسة بالانحرافات الدينية والخلقية، معرضة لغزوات الدول المجاورة لفلسطين وسيادتهم، من مصر تارة، والعراق تارة، والشام تارة، وشرق الأردن تارة، والفلسطينيين تارة. ولم تخلص لهم فلسطين سكناً ولا حكماً قط، حتى في أيام حكم داود وسليمان أعز أيامهم، حيث ظل حكم جنوبها في يد الفلسطينيين. ولم يكن لهم امتداد إلى خارج فلسطين، إلا لماماً، ولفترة عابرة، ثم يرتدون مذعورين مهزومين(١). ثم عمرت فلسطين بالعرب الصرحاء، بعد تشرّد بني اسرائيل عنها، وملكوها من الروم، وأقاموا سلطانهم فيها، منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة. وملأوها بآثارهم وجهودهم ومقدساتهم، وطبعوها بطابعهم الخالد المقدس. وليس في ما يحتج به اليهود من حق العودة إليها أي منطق، ولا مسوغ من تاريخ وحقائق. ويهود اليوم إلى هذا ليسوا من بني إسرائيل القدماء إلا قليلاً، بل من أجناس ودماء متنوعة، مختلفين في لغاتهم وتقاليدهم وعاداتهم وميولهم وأفكارهم. وقد اختلط ذلك القليل في هذا الكثير حتى باد أو كاد. وكل ما في الأمر أنهم يدينون بالدين اليهودي، شأن أبناء الأديان الأخرى. . . وليس من الممكن والسائغ اليوم، أن تقوم دولة ووطن على أساس ديني بحت يجتمع فيهما أجناس شتى. . . ورغم ذلك كله، فقد أخذ الصهيونيون يعقدون مؤتمرات دورية، ويبذلون جهودهم في سبيل تحقيق هدفهم. ولقد خطوا بعض خطوات غير صريحة في سبيل ذلك، حيث استطاعوا برشاويهم ودسائسهم، أن يجعلوارجال الدولة العثمانية في أوائل القرن العشرين، يسمحون لهم بشراء بعض الأراضي الخالية، وانشاء بعض القرى عليها، واسكان بعض المهاجرين فيها، حتى بلغ عدد مهاجري اليهود الجدد من أوروبا، مع ما كان في فلسطين من جماعات يهودية شرقية، كانت جاءت إليها في مختلف الحقب السابقة، نحو ستين ألفاً في أوائل الحرب العالمية الأولى. ولقد حاولوا حمل السلطان العثماني، عبد الحميد الثاني، على السماح لهم بهجرة واسعة، فلمح الهدف السياسي، فرفض ذلك رفضاً باتاً، وأمر بتشديد الرقابة على هجرة اليهود إلى فلسطين واقامتهم فيها.

فلما نشبت الحرب العالمية الأولى، ظنوا أنها قد تكون فرصتهم. فأخذ فريق منهم يسعى مع الألمان، وفريق آخر يسعى مع الانكليز وحلفائهم، في سبيل تحقيق هدفهم. ولقد قلنا أنه لم يكن للانكليز مصالح مزعومة في فلسطين وشرق الأردن، تسوغ لهم المطالبة بأن تكون منطقة نفوذ واستعمار لهم، في حين أنهم كانوا يرون ذلك أمراً ضرورياً. ولم يكن الصهيونيون يحلمون أن يقوم لهم في فلسطين قائمة، بدون تدعيم دولة عظمى وحمايتها. فكان ذلك نقطة لقاء هامة بينهم، وبين بريطانية، اهتموا لاستغلالها من ناحيتهم، ورحبت بريطانيا باهتمامهم من ناحيتها، حيث تصورت أنها إذا تبنت قضيتهم، وبذلت لهم وعداً بتشجيعهم على هدفهم، بذلوا جهودهم في حمل الدول الأخرى على الموافقة على تبني بريطانيا لهدفهم، وجعل فلسطين وشرق الأردن منطقة نفوذ واستعمار لهم، بسبيل ذلك، بما كان لهم من تمكن ونفوذ في مختلف الأوساط الدولية والصحافية

والمالية الأوروبية والأميركية. ولقد رأت بريطانيا، بالاضافة إلى ذلك، في الحركة الصهيونية مزية نافعة لها، وهي احتياجها في فلسطين إلى حام دائمي، مهما نما عدد اليهود فيها، لأنهم سيبقون على كل حال عوامة صغيرة في وسط خضم عربي، لا يمكنها أن تنجو من التحطيم، وتحظى بالثبات، إلا بتدعيم قوي دائم من دولة كبرى، ثم غدوها رأس جسر وحربة وإسفين في البلاد العربية، مما لا يضمنه لها القوة العسكرية وحدها.

- ٣ -

ولقد كانت الحركة القومية العربية الحديثة، الهادفة إلى بعث أمجاد العرب، ووحدة البلاد العربية، قد أخذت تقوى حتى بلغ أمر أركانها إلى الاندماج في مفاوضات الشريف حسين مع بريطانية. وكان مطلب المملكة العربية الكبرى المستقلة المحدودة من مرسين إلى الخليج العربي، ومن بلاد فارس إلى الخليج العربي، ومن المحيط الهندي حتى سيناء، أي البلاد العربية التي كانت تحت سلطان الدولة العثمانية الفعلي وقت المفاوضة، هو مطلب أولئك الأركان الذي قدموه إلى الشريف، وأرسله الشريف إلى الانكليز بنصه. وكانت قوة ونمو الحركة العربية، مما يعرقل أو يشل تحقيق أهداف ومآرب بريطانية، فرأت أن تحشد اليهود في فلسطين، وتبني الحركة الصهيونية، هما بمثابة عقبات كأداء في سبيل نمو الحركة العربية. فكان ذلك من عوامل اللقاء، ومظاهر التآمر الاستعماري الانكليزي الصهيوني أيضاً. فلما احتلت بريطانية جنوب فلسطين، في خريف عام ١٩١٧، وتيقنت من ربح النصر، واحتلال بقية فلسطين، سارعت فأصدرت في ٢ تشرين الثاني وعدها المشؤوم، الذي عرف بوعد بلفور، نسبة إلى وزير الخارجية البريطانية الذي أصدره، الرامي إلى تعضيد انشاء وطن قومي يهودي في فلسطين. ولقد سارعت فرنسة إلى تأييد هذا الوعد، لأن ما في نمو الحركة الصهيونية من مزايا، هو بالنسبة إليها أيضاً عامل عرقلة هام للحركة العربية، من شأنه أن يساعدها على نجاح أهدافها الاستعمارية في بلاد الشام.

ولم يكن تأييد فرنسة لوعد بلفور يعني تسليمها بأن تكون فلسطين وشرق الأردن تحت نفوذ واستعمار بريطانية. فالاتفاق بين الدولتين المتآمرتين يقضي بأن تكون فلسطين تحت ادارة دولية، وشرق الأردن كان جزءاً ادارياً من ولاية سورية، التي كانت هي ولبنان منطقة نفوذ واستعمار افرنسية، في ذلك الاتفاق المجرم، في حين كان ذلك أمراً حيوياً في نظر بريطانية من وجهة مآربها الاستعمارية. وقد عمدت بسبيل تأمين مآربها، إلى تحريض الأمير فيصل الذي تولى رئاسة حكم سورية الداخلية، حينما انسحبت الجيوش التركية من البلاد العربية، في خريف عام ١٩١٨، ورجال حكومته، بل ورجال الحركة العربية على فرنسة، وعرقلة تحقيق مأربها، وامتداد نفوذها على سورية، طيلة سنتين طويلتين، حتى أعجزتها، وجعلتها توافق على العدول عن الإدارة الدولية لفلسطين، وعلى سلخ شرق الأردن عن سورية، ووضع الاقليمين تحت نفوذها وحكمها. وحينئذ تخلت عن فيصل والعرب بكل لؤم وغدر ونذالة، وأخلت بين سورية وفرنسة، فسارع قائدها غورو في تموز عام ١٩٢٠ إلى الزحف على سورية واحتلالها، ونسف الحكم العربي القومي فيها.

٢ ـ خطط التنفيذ الإجرامية

ـ ١ ـ

ولقد أخذت بريطانية وزعماء الحركة الصهيونية يخططون خطط التنفيذ بدون توان. ففتحت أبواب فلسطين للمهاجرين اليهود حالما وضعت الحرب أوزارها، في خريف عام ١٩١٨. وفي ظل الحكم العسكري الانكليزي الذي قام في فلسطين، وجعلت اللغة العبرانية لغة رسمية مع العربية والإنكليزية، مع أنه لم يكن يتكلم بالعبرانية من اليهود أنفسهم إلا نحو العشر، وملئت دواوين الحكومة باليهود... وقدم اليهود مشروع الخطة التي يجب أن يسار عليها في فلسطين في سنة ١٩١٩، فوافقت عليه الحكومة البريطانية، وأخذت تسير عليه، قبل أن يتقرر انتدابها رسمياً على فلسطين. وقد غدا هذا المشروع هو صك الانتداب على فلسطين الصادر عن عصبة الأمم، حينما قررت هذه العصبة انتداب بريطانية على فلسطين، في نيسان عام ١٩٢٢، لأن بريطانية قدمته لهذه العصبة باسمها، فصادقت عليه على ما ذكرته لجنة التحقيق الملكية المعروفة بلجنة بيل في تقريرها الذي أصدرته عام ١٩٣٧.

ولقد نصت المادة الثانية منه، على مسؤولية الحكومة المنتدبة عن جعل البلاد في أحوال سياسية وادارية واقتصادية، تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي، والمادة الرابعة نصت على تخويل الجمعية الصهيونية حق الشورى والمعاونة في إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك، مما يؤثر في انشاء الوطن القومي، ومصالح اليهود، ومشاركة الحكومة في ترقية مرافق البلاد، والحصول على معونة جميع اليهود في إنشاء الوطن القومي. ونصت المادة السادسة منه، على وجوب تسهيل هجرة اليهود من قبل الحكومة المنتدبة، وتنشيطها بالاتفاق مع الجمعية الصهيونية، وتيسير استقرار اليهود في أراضي الدولة، وفي أراضي البور ـ وهذه الأراضي وتلك، مما كان يزرعه وينتفع به العرب ـ ونصت المادة السابعة على وجوب سن قانون يسهل على اليهود الحصول على الجنسية الفلسطينية. والمادة الحادية عشرة على وجوب اتفاق الحكومة مع الجمعية الصهيونية، على استثمار الأعمال والمصالح والمنافع العامة، وترقية مرافق البلاد الطبيعية، ووضع نظام للأراضي، يتفق مع نتائج تشجيع واكثار المهاجرين، واستغلال الأراضي أعظم ما يستطاع من استغلال[٢]. حيث يبدو من هذه النصوص المؤامرة الواسعة التي انعقدت بين بريطانية واليهود على فلسطين والعرب.

ومن مظاهر هذه المؤامرة أن وعد بلفور وصك الانتداب، سميا أهل فلسطين العرب باسم الطوائف غير اليهودية، كأنما كان اليهود هم الأصل، مع أنه لم يكن من اليهود في فلسطين إلا نحو ستين ألفاً. وكان عدد العرب أهلها في عام ١٩١٨ م ستمائة ألف ونيف. ولقد حاول الانكليز أن يضللوا العرب عن مؤامراتهم، فوضعوا في صك الانتداب ووعد بلفور نصوصاً تنبه على عدم الاجحاف بحقوق ومركز الطوائف غير اليهودية في فلسطين، مع أن استحالة ذلك كانت واضحة منذ البدء، حيث لم يكن أغبى الناس ليجهل أن تكاثر عدد اليهود بالهجرة، سيخل بمركز العرب السياسي، وأن اختصاص الجمعية الصهيونية بمشاركة الحكومة في أعمالها، وتخويلها حق القيام بالمشاريع والمصالح والمرافق المتنوعة، وتسهيل استقرار اليهود في أراضي الحكومة والبور التي ينتفع

ويرتفق بها العرب، وتسهيل انتقال الأراضي لليهود الذي سيضيق مجال الرزق والارتفاق على العرب وانسالهم، وجعل البلاد في حالات سياسية واقتصادية واجتماعية وادارية، تكفل انشاء الوطن القومي الذي يعني قلب البلاد من وطن عربي إلى وطن يهودي، كل هذا يوقع الاضرار بحقوق العرب ومركزهم من مختلف النواحي. يضاف إلى هذا أن صك الانتداب قد صيغ بقالب شاذ مناقض للمادة (٢٢) من عهد جمعية الأمم التي تعترف باستقلال البلاد العربية، ومناقض لصكوك الانتداب التي وضعت لسورية ولبنان والعراق، فلم يوجب على الحكومة الانكليزية في فلسطين، كما أوجب عليها في العراق، وأوجب على فرنسة في سورية ولبنان، إنشاء حكومات وطنية، واعتبار الدولة المنتدبة مرشدة وحسب. وقد قصد بهذا الشذوذ، أن لا يكون في فلسطين حكومة وطنية، لأن العرب سيكونون فيها الأكثرية، فلا يتحقق في نطاقها المنهج الصهيوني الذي قبله الانكليز بحذافيره لاتساقه مع السياسة التي ترسموها. وقد قال هذا شرشل بصراحة في الكتاب الأبيض الذي أصدره عام ١٩٢٢[٣]، بصفته وزيراً للمستعمرات، حينما اشتد احتجاج الوفد العربي ومطالبته بحكومة وطنية في فلسطين، كما هو شأن سورية ولبنان والعراق، لأن فلسطين داخلة في شمول المادة (٢٢) من عهد جمعية الأمم.

ولقد كان كبار رجال الحكومة الانكليزية، مدركين أن الوطن القومي معناه دولة يهودية، حينما يبلغ عدد اليهود مقداراً كافياً، على ما ثبت من مذكرات هربرت صموئيل، أول مندوب سام انكليزي، نشرت عام ١٩٤٦[٤] وعلى ما قاله شرشل نفسه في هذه السنة. . ولقد تحمس اليهود من تدعيم الانكليز، وادركوا ذلك منذ البدء، حيث زار رئيسهم وايزمن القدس عقب احتلالها، وجمع له الحاكم العسكري زعماء العرب فيها، فأعلنهم أنه مبتهج بانفتاح المجال أمام اليهود بالعودة إلى وطنهم، ووعدهم بالمعاملة الحسنى، كأنه كان يعلنهم أن اليهود سيغدون هم أصحاب الحكم عليهم، مما أثار الزعماء، وحملهم على الاحتجاج والانسحاب ساخطين لينذروا قومهم، وحيث قال الفردمند أحد كبارهم المعروف أيضاً باللورد ملتشت، في كتاب ألفه سنة ١٩١٩، باسم الجار: إني أتطلّع إلى ذلك اليوم الذي تصبح فيه فلسطين وشرق الأردن وحدة تحكم نفسها، وتدافع عنها ملايين اليهود المخلصين الذين يرتبطون بالامبراطورية البريطانية، وتصبح مركزاً عظيم الأهمية لهذه الامبراطورية من النواحي العسكرية والتجارية والثقافية، وحيث صرح زعيمان من أعضاء الجمعية الصهيونية سنة ١٩٢٠، أمام لجنة تحقيق انكليزية، ألفت للتحقيق في أسباب ثورة عربية ضد اليهود نشبت في يافا، وامتدت إلى أنحاء كثيرة من المناطق المجاورة لها: «إن فلسطين يجب أن تكون يهودية، كما أن انكلترة انكليزية، وكندا كندية. وأن الخدمة العسكرية وحمل السلاح، يجب أن يكونا محصورين باليهود دون العرب، وأنه لا يمكن أن يكون في فلسطين إلا وطن قومي واحد، هو الوطن القومي اليهودي بدون مساواة في الاشتراك بين اليهود والعرب، بل سيادة اليهود وتفوقهم حالما يكون عددهم قد زاد لدرجة كافية»[٥]، حيث يبدو من هذا مظاهر التآمر والتضليل والمستقبل الرهيب منذ الأصل. ولقد طالب رئيس الحاخامين، ورئيس الجمعية الصهيونية في سنة ١٩٢٠ بوضع يد اليهود على حائط المبكى، وجميع مكان الهيكل الذي هو الحرم القائم في وسطه مسجد الأقصى والصخرة. وقال الفرد موند في مقال له «إن اليوم الذي يعاد فيه الهيكل اضحى

قريباً، وأني سأكرس بقية حياتي لبناء ذلك الهيكل مكان المسجد الأقصى»، حيث ينطوي في هذا وذاك ادراك اليهود منذ البدء، بأن فلسطين أصبحت ملكهم، وأنهم سوف يقتلعون جذور العرب منها، ويبنون دولتهم على انقاضها. وقد كانوا في بدء الاحتلال الانكليزي، ينشرون صور الحرم الشريف ومساجده وعليها الرموز الدينية اليهودية، والكتابات العبرانية والشارات الصهيونية، تعبيراً عن نياتهم المقبلة، ويرسلونها لليهود في أنحاء العالم للتبشير والتحميس.

ومن الجدير بالذكر أن الانكليز ساروا على خطة التضليل والخديعة، بالاتفاق مع اليهود، مع ادراكهم الحقيقة ازاء الملك حسين وابنه فيصل حينما علما بخبر وعد بلفور، واحتجا عليه قبل نهاية الحرب، حيث أرسلت الحكومة البريطانية مندوباً اسمه هوجارث للشريف حسين، يحمل رسالة[٦] تؤكد محافظة هذه الحكومة على عهودها المقطوعة له، وتتهم الترك بدس الدسائس، وأمرت مندوبها بشرح فكرة الوطن القومي، بأسلوب فهم منه الحسين، أن القصد من ذلك ايجاد مأوى لمضطهدي اليهود في نطاق المملكة العربية المستقلة وسيادتها، وحيث أرسلت وايزمان رئيس الحركة الصهيونية إلى الأمير فيصل في منطقة العقبة، حيث كان يقود كتائب الثورة العربية، ليطمئنه ويخفف وقع الأمر عليه في نطاق ذلك الأسلوب. ثم خدعوا فيصلاً في باريس ولندن في ظروف كانت فرنسة تقف من فيصل ومطالبه الاستقلالية لسورية موقف العداء والمناوئة الشديدة، وأوهموه أن اليهود سوف يعضدونه، فأخذوا منه كتباً يرحب فيها بهجرة اليهود والتعاون معهم.

- ٢ -

وفي سنة ١٩٢٠ انهت الحكومة البريطانية الحكم العسكري، وأقامت مكانه حكماً مدنياً، وعينت هربرت صموئيل اليهودي الصهيوني على رأس هذا الحكم باسم المندوب السامي. فجاء تعيينه برهاناً جديداً على عزم الانكليز على دمغ فلسطين بدمغة الحكم اليهودي، منذ أول الحكم المدني، فبرز هذا في صورة أول ملوك اليهود في فلسطين. وكان تعيينه وسيلة لاثارة عاطفة اليهود وحماسهم في مختلف أنحاء الأرض، ولفت أنظارهم وأفكارهم إلى فلسطين، وجعلهم يقنعون بأنها أصبحت تحت الحكم اليهودي، ومطبوعة بالطابع اليهودي، ليهاجروا إليها، ويمدوا يد المساعدة على تحقيق الأهداف الصهيونية فيها. ولقد جاء صموئيل، وهو مقتنع بأن مهمته هي انشاء حكومة يهودية في فلسطين، حيث صرح أمام كبار موظفي الحكومة من الانكليز قائلاً: «إن سياسة حكومة جلالته التي جاء لتطبيقها هي تشجيع اليهود إلى أن تصبح السيطرة لهم على البلاد، ويمكن انشاء حكومة يهودية فيها». وقد كان مع تسميته باسم المندوب السامي الذي سمي به معتمدو فرنسة وانكلترة في سورية ولبنان والعراق، ليشرفوا على الحكومات الوطنية فيها، هو الحاكم العام، ورئيس السلطات التشريعية والتنفيذية والقائد العام..

ولقد أخذ هذا المندوب منذ وطئت قدماه فلسطين، يسير في السياسة المرسومة، ويقيم جهازاً حكومياً على أساس أنه جهاز مستعمرة انكليزية، تتهيأ ليستلم اليهود مقاليدها، وتكون لهم المشاركة التامة في هذه التهيئة أيضاً.

وقد أقيم على رأس كل دائرة من دوائر هذا الجهاز موظف انكليزي مسيحي أو يهودي، وعلى رأس كل مقاطعة حاكم انكليزي. كما عين في كثير من الوظائف الهامة في الدوائر المركزية ودوائر المقاطعات انكليز مسيحيون ويهود، وموظفون يهود وغير يهود من غير الانكليز، منهم الفلسطيني، ومنهم غير الفلسطيني، بحيث كان الجهاز وظل دائماً يبدو كالخرقة المرقعة من كثرة الألوان والجنسيات. وكان لليهود خاصة فيه نصيب الأسد، حيث كان عددهم وظل يفوق نسبتهم أضعافاً مضاعفة.

وأقيم على رأس هذا الجهاز مجلس تنفيذي، كان يتألف في البدء من المندوب وثلاثة سكرتيرين، في مثابة وزراء، واحد للداخلية، وواحد للمالية، وواحد للعدلية. ووسد منصب سكرتير العدلية الذي كان صاحبه المشرع لقوانين الدولة وفتاواها أيضاً، إلى بنتويش اليهودي الصهيوني الانكليزي الرعوية. وقد تمكن بذلك يهوديان صهيونيان من رقبة فلسطين ادارياً وسياسياً وتشريعياً واقتصادياً، حيث تكون الأكثرية لهما في حالة مخالفة السكرتيرين الآخرين، لأن رأي الرئيس اليهودي يكون مرجحاً.

ودارت هذه الادارة الاستعمارية اليهودية في طريقها المرسوم، فكان من نتائج ذلك أن أتيحت الفرصة لليهود لتهيئة فلسطين إدارياً وسياسياً وتشريعياً واقتصادياً لانجاح انشاء الوطن القومي اليهودي، وضمان النمو والقوة والرسوخ والوثوق للحركة الصهيونية التي كانت تترجح في الفضاء في سنواتها الأولى. وفي عهد صموئيل وزميله بنتويش وجهدهما اشترى اليهود أكبر صفقات الأراضي التي اشتروها بالأسعار الزهيدة، وزالت معالم عشرات القرى العربية(٧) فيها، وتشرد آلاف المزارعين العرب عنها، تحت سمع الانكليز وبصرهم. وفي عهدهما منح اليهود امتياز كهرباء عموم فلسطين، وامتياز استثمار البحر الميت الذي قدرت كنوزه بأربعة وعشرين ميليارا، وأقطع اليهود أكثر أراضي الدولة، ووضعت القوانين الحامية للصناعات اليهودية والمانحة لها الامتيازات والاعفاءات المتنوعة، فأخذت تنشأ صناعة يهودية قوية محمية، لم تلبث أن صارت تتحكم في أسواق فلسطين، ثم تملأ أسواق البلاد العربية الأخرى، وتزاحم صناعاتها المحلية.

- ٣ -

ولقد ثارت مخاوف العرب من السياسة الصهيونية الانكليزية من البدء، لما لمحوه في ثناياها من الأخطار الفادحة على بلادهم ومستقبلهم، ثم على أهداف الحركة القومية التي كانوا مندمجين فيها منذ عهد الدولة العثمانية. وبرغم أنهم على قلتهم وضعف امكانياتهم، واجهوا أقوى قوتين عالميتين، وهما الامبراطورية البريطانية والحركة الصهيونية، في ظرف كانت بلاد العرب الأخرى في شغل شاغل عنهم، فقد نظموا أنفسهم في جمعيات وطنية سموها إسلامية مسيحية، تعبيراً عن تضامن جميع العرب مسلميهم ومسيحيّيهم، وأخذوا يعقدون المؤتمرات، ويقدمون الاحتجاجات، ويرسلون الوفود، ويقومون بالحركات الكفاحية المتنوعة(٨). غير أن الانكليز كانوا كلما احتج العرب، أو اشتد غليانهم، وانفجر مرجلهم داخل فلسطين وخارجها، يعمدون إلى التخدير والتضليل أو الدس والتخذيل، أو القسوة والتنكيل، ثم يظلون سائرين في سياستهم المجرمة بنفس

الحماس والقوة، محاولين التغلب بسبيل ذلك على كل صعب، غير مبالين بأي معنى من معاني الحق والحقيقة والوفاء والشرف والعدل والقانون والرحمة، حتى تم لهم ولحلفائهم اليهود ما أرادوه، وقفز عدد اليهود من ستين ألفاً أو أقل في عام ١٩١٨، إلى أكثر من أربعمائة ألف في عام ١٩٣٦، ثم إلى أكثر من ٧٥٠ ألفاً في عام ١٩٤٧. وتملكوا المساحات الواسعة من أجود أراضي فلسطين، وأنشأوا مئات المصانع والمعامل، وسيطروا على مرافق البلاد، ونثروا مئات المستعمرات في مختلف أنحاء فلسطين وفق خطة مرسومة، وشردوا عشرات الآلاف من مزارعي العرب وحرموا العمال العرب من موارد الرزق، بل وكانوا يطردونهم بالقوة من ساحات العمل والرزق، وامتلأت فلسطين بموظفي الانكليز وبوليسهم لانجاح الحركة وحمايتها، إلى أن تقف على رجليها. وبلغ ما يجبى من النفس في فلسطين من الضرائب المتنوعة ثلاثة أضعاف ما كان يجبى في الشام والعراق ومصر، ليمكن سد النفقات الباهظة التي اقتضتها تشكيلات فلسطين وبوليسها. ثم جاءت فرصة الحرب العالمية الثانية، فأتم اليهود بمساعدة الانكليز استعدادهم بالتحصين والتدريب والتسلح الواسع الذي أذهل العرب، وأدهش العالم بمظاهره وآثاره. . .

ومن ثورات العرب الكبيرة نوعاً ما[٩] ثورة البراق في صيف عام ١٩٢٩ م، والبراق هو مكان ملاصق لحائط المبكى، الذي هو جدار الحرم القدسي الشريف، والذي اعتاد اليهود أن يقوموا عنده ببعض طقوسهم. فقد أخذ اليهود يكشفون عن طموحهم إلى امتلاكه، بل وإلى امتلاك الحرم الشريف في المستقبل. وقاموا في سنة ١٩٢٩ بأعمال استفزت المسلمين، فقابلوهم بالمثل كذلك، ولم يلبث الطرفان أن اشتبكوا في القتال في القدس، ثم سرت الحركة إلى الخليل ويافا وصفد، وقتل وجرح من الطرفين نحو ثمانمائة أكثرهم من اليهود. وأرسلت الحكومة الانكليزية لجنة تحقيق برلمانية برآسة شو الذي عرفت باسمه، حققت في أسباب الحركة القريبة والبعيدة، واعترفت في تقريرها بما كان من استفزاز اليهود كأسباب مباشرة، وما كان من شعور العرب بالسخط على السياسة الانكليزية اليهودية التي حرمتهم من الاستقلال والحكم الوطني، وسهلت لليهود شراء مئات آلاف الدونمات وتشريد مزارعيها عنها، دون تعويض وحماية، حتى أدى الأمر إلى نقص ما ظل في يد العرب من أرض عن كفايتهم الضرورية، وإهمال مصالحهم إهمالاً تاماً، ومحاباة اليهود وحماية مصالحهم بكل وسيلة، كأسباب غير مباشرة جعلتهم يرون مستقبلهم مظلماً مخيفاً. وأوصت بوجوب الاهتمام لازالة مخاوف العرب وشكاويهم السياسية وغير السياسية، ودرس مشاكل الهجرة والعمال والأراضي[١٠]. وأرسلت الحكومة الانكليزية خبيراً كبيراً اسمه سمبسون أيد بعد دراسة طويلة وعميقة شكاوى العرب، وأثبت بالأرقام نقص الأراضي الباقية في أيديهم عن كفايتهم، وحرمان المزارعين من الحماية والتعويض وحرمان العمال العرب من مجال ارتزاقهم التي كانت لهم بسبب مزاحمة عمال اليهود وتلاعب الوكالة اليهودية في مسائل الهجرة والعمال. وأوصى بوقف كل ذلك[١١]. وأصدرت الحكومة الانكليزية كتاباً أبيض سنة ١٩٣٠، اعترفت فيه بحقائق التقارير المخزية، ووعدت بتلافي الأخطاء، فثارت ثائرة اليهود في فلسطين وسائر انحاء العالم، فلم تلبث هذه الحكومة أن نقضت كتابها، وأعلنت عزمها على الاستمرار في سياستها ارضاء لليهود دون مبالاة بالعرب والحقائق الدامغة[١٢]. وبالاضافة إلى هذا، فإنها سمحت لليهود بإقامة حاميات في

مستعمراتهم، وسلمتهم سلاحاً بحجة الدفاع عن أنفسهم، نزولاً على توصية لجنة شو. أي أنها نفذت ما أوصت به هذه اللجنة لصالح اليهود، وضربت بما أوصت به لصالح العرب عرض الحائط.

- ٤ -

وكانت حركة هتلر في ألمانيا ضد اليهود بدأت تقوى، فاستغلها اليهود، وجعلوا الحكومة الانكليزية تفتح أبواب فلسطين على مصراعيها لمهاجري الألمان، ثم لكتل كبيرة من العمال من بولونيا ورومانيا وبلغاريا وروسيا، بحجة العمل في المشاريع الزراعية والصناعية والعمرانية التي سوف يقوم بها أغنياء الألمان، فتدفق نتيجة لذلك خلال أربع سنين ١٩٣١ ـ ١٩٣٥ مئتان وخمسون ألف يهودي، في حين كان عدد المهاجرين في المدة السابقة ١٩١٨ ـ ١٩٣١ نحو مئة ألف! وقد هال العرب هذا السيل الجارف، وصار كل فرد منهم يلمس الخطر الرهيب لمساً شديداً، فأخذوا يشتدون في الاحتجاج، وطلب منع الهجرة، وبيع الأراضي، فلم تبال السلطات الانكليزية، فقاموا في خريف عام ١٩٣٣ بمظاهرات صاخبة بدون اذن رسمي تحدياً لهذه السلطات. وكان يشترك فيها الزعماء والعلماء والرهبان، بالاضافة إلى جماهير الشعب الغفيرة، من المسلمين والمسيحيين والمدنيين والقرويين. وقد وقع بين المتظاهرين وقوات السلطات اشتباكات دامية، أصيب فيها عدد كبير منهم، ومن القوات. واعتقلت السلطات وحاكمت عدداً كبيراً من الزعماء للارهاب، ثم استمرت على سياستها الجائرة[١٣].

وقد صار يقوم في هذه الأثناء جماعات جهادية سرية تتسلح على حسابها، وتفتك بمن تقدر عليه من اليهود والانكليز والسماسرة والجواسيس. ثم خرجت أولى كتل هذه الجماعات للجهاد جهاراً بقيادة الشهيد الشيخ عز الدين القسام، في خريف عام ١٩٣٥، واصطدمت مع قوات السلطات التي تغلبت عليها وقتلت زعيمها وبعض رفاقه، واعتقلت باقيهم. فكان لهذه الحركة أثر كبير في إثارة الحماس العربي. ووقع بعد قليل بعض حوادث استفزازية من اليهود، قابلها العرب بالمثل، ثم أعلنت مدينة يافا التي وقعت فيها هذه الحوادث الاضراب في نيسان ١٩٣٦، وسرى ذلك إلى باقي البلاد. ثم تم الاتفاق بين رجال الحركة في المدن على استمرار الاضراب إلى أن توقف الهجرة وبيوع الأراضي، وتقوم حكومة وطنية.

وقد استمر الاضراب ستة أشهر طويلة، وقفت خلالها جميع الأعمال في المدن والقرى والمواصلات والمدارس، فكان اضراباً عظيماً لم يسبق له مثيل في قوته، وطول مدته، والتضحيات التي تحملها الشعب العربي من جرائه. وتألفت لجنة عربية عليا، ضمت جميع الأحزاب[١٤] لادارة الحركة، فكان ذلك مما أسبغ على الموقف الخطورة والرهبة والجد والشمول. وقد قرر العرب الامتناع عن دفع الضرائب، دلالة على التصميم والتحدي ونفذوه وأغضت السلطات عن ذلك تفادياً من تفاقم الموقف، ولا سيما أن الأسواق والأعمال كانت متوقفة...

ولم يكد يمضي على الاضراب شهر حتى أخذت الجماعات العربية تقوم بحركات ثورية. وقد بدأ ذلك بالقاء المفرقعات، وتقطيع الأسلاك، وتعطيل الطرق والمعابر، ورجم البوليس

والمخافر. ثم تطورت الحركة، فأخذ يظهر في الطرق والجبال وضواحي القرى والمدن عصابات مسلحة تهاجم الدوريات والمخافر وقوى السلطات والمستعمرات اليهودية، واتسع نطاقها بالتدريج حتى شمل جميع فلسطين. وغدا جوها حربياً بما كان من كثرة تنقلات القوات الانكليزية ودورياتها ودباباتها ومصفحاتها، ودوي المفرقعات والقنابل وأزيز الرصاص الذي لم يكن ينقطع ليلاً ونهاراً، والحرائق ونسف القطارات والجسور والمعابر. وكان يرافق مطاردة السلطات للعرب، وتفتيشها الأحياء والبيوت، وقمعها للمظاهرات عنف وقسوة، فكان ذلك مما يزيد النار ضراماً ولهيباً بدلاً من أن يخمدها. وكان مما يزيد النار لهيباً كذلك، ما كان يبدو من السلطات من محاباة سافرة لليهود ضد العرب، فيما كان يقع بين الفريقين من احتكاك واصطدام. وقد اضطر اليهود إلى تسيير سياراتهم في قوافل تحرسها قوات الحكومة، لأن أكثر الطرق كان تحت سيطرة العرب. وقد سارت الحكومة على طريقة منع التجول منذ الغروب إلى الشروق في المدن والقرى، حتى أصبح ذلك من الأمور العادية. وكان المنع يمتد أحياناً على اثر المظاهرات الصاخبة والحوادث الدموية الكبيرة، إلى أن يكون ٢٢ ساعة في اليوم، حيث يسمح للناس بالتجول ساعتين لقضاء حاجاتهم.

ولقد كاد يكون كل عربي في فلسطين مشتركاً في الحركة، رجالاً ونساء وشباناً وشيوخاً وأطفالاً بشكل من الأشكال. فمن استطاع حمل السلاح حمله واستعمله. ومن لم يستطع ساعد الثوار في شراء العتاد ونقله، وتقديم المؤونة والمال، واحضار الماء والاسعاف والتحميس والترصد وتأديب الشاذين الخ. وقد رويت عن كل طبقة روايات ونوادر كثيرة في هذا الباب تثير الدهشة والاعتزاز في جرأتها ودلالتها.

وقد تحمل أهل البلاد جل نفقات الثورة من سلاحها إلى عتادها إلى مؤونتها إلى وسائلها المتنوعة، بما في ذلك جل نفقات من أسرع إلى النجدة من الأقطار الشقيقة كأفراد ومجموعات. وهذا فضلاً عما تحملوه من شدائد الاضراب وجهده وبطالته، حتى ليمكن أن يقدر قيمة ما تحملوه بمليوني جنيه ونيف. ولم تكن المساعدات التي وردت إلى فلسطين إلا جزءاً يسيراً جداً، قيمته الرمزية أعظم بكثير من قيمته المادية.

ومن المحتمل أن يكون عدد حملة السلاح قد تراوح بين ٦٠٠٠ و ٨٠٠٠، مع التنبيه على فقدان أي نسبة تكافؤ وتماثل بين سلاحهم وسلاح السلطات نوعاً وكمية. وكان أكثر سلاحهم قديماً، ومختلف الطراز، مع ضآلة العتاد، وفساد كثيره، وصعوبة الحصول عليه، وغلاء ثمنه. وكان كل ذلك مما يثير دهشة ضباط الانكليز. وكان أكثر الذين حملوا السلاح، يحملونه ويستعملونه لأول مرة، دون أي تدريب سابق. وكل هذا يساعد على فهم قوة الروح الكفاحية التي تجلت في الأمة، وقوة الاندفاع والاقدام على التضحية.

ولقد أعلنت السلطات قوانين الطوارىء، وعدلت العقوبات، وحشدت قوات عسكرية كبيرة بقيادة قواد اشتهروا فيما بعد مثل ديل وكورت ودنفيل. وبلغ عدد من حشدته من قوات متنوعة خمسين ألفاً، واعتقلت المئات من الزعماء والشبان، وفرضت الاقامة الاجبارية على المئات. وكانت تفرض غرامات مشتركة باهظة على القرى والأحياء، فلم يكن من شأن ذلك أن يوقف الحركة أو يمنع تفاقمها.

وبعد شهر ونصف من بدئها أخذ يتسرب إلى فلسطين من شرق الأردن وسورية ولبنان والعراق مسلحون، ويقاتلون إلى جانب اخوانهم. ثم صار التسرب يقوى، حتى غدا في فلسطين مئات منهم. وكان اليهود والانكليز يقدرونهم بالألوف. وجاء على رأس فرق منهم ثلاثة من أبطال الثورة السورية، وهم الشيخ محمد الأشمر وفوزي القاوقجي وسعيد العاص. وكانت منطقة سعيد العاص الخليل بيت لحم القدس، حيث التف حوله ثوار أشاوس من فلسطين وغيرها، تجاوز عددهم المئة. وكان مساعده البطل الفلسطيني الشهيد عبد القادر كاظم الحسيني. وقد استشهد سعيد، وجرح مساعده، بعد أن أبلوا أعظم البلاء في معارك طاحنة، كانت تمتد ساحتها أحياناً بضعة كيلو مترات. وكانت منطقة الشيخ الأشمر وفرقته مثلث نابلس، وخاصة منطقة طولكرم. وقد التف حوله مئات من ثوار المنطقة. وكان بلاؤهم عظيماً. وقد ذهب من المجاهدين السوريين ضحايا امتزجت دماؤهم بدماء إخوانهم المجاهدين الفلسطينيين في أرض الوطن المقدس. أما القاوقجي فقد جاء من العراق على رأس حملة حسنة التنظيم والتجهيز، نتيجة لجهود مساعي القائمين على رأس الحركة الجهادية في فلسطين، ولمساعدة حكومة العراق التي كانت برآسة المرحوم ياسين الهاشمي. وكان فيها فريق من المجاهدين العراقيين، وآخر من الدروز من جملتهم الشهيد حمد صعب. وانضم إليهم بعض المجاهدين السوريين من جملتهم منير الريس وخالد القنواتي. وقد اتخذ مثلث نابلس وخاصة منطقة جنين منه ساحة لنشاطه، ووزع يوم وصوله منشوراً بتوقيع فوز الدين القاوقجي قائد الثورة العام، دعا فيه الناس إلى الالتفاف حوله والانضمام إليه. وأعلن فيه عزمه على الاستمرار في النضال إلى أن تتحرر فلسطين وتستقل. ولم يلبث أن أصبح قطب رحى الثورة. وكان لقدوم حملته تأثير عظيم على عرب فلسطين، فازداد حماسهم واندفاعهم، وانتعشت آمالهم، حيث أدركوا أن ثورتهم قد اتسمت بطابع الشمول العربي والنظام العسكري الفني. وكان لها تأثير عظيم كذلك على الانكليز واليهود الذين رأوا أن الخطب أخذ يتفاقم، وأن الثورة قد انتقلت إلى مرحلة ثورية عامة ومنتظمة.

ولقد جرت معارك عديدة بين المجاهدين بقيادة القاوقجي والجيش الانكليزي في مناطق بلعا وبيت أمرين ودير شرف وجبع وعزون كان الانكليز يحشدون لكل منها الآلاف من الجند، مرفقة بالدبابات والمصفحات والطيارات، وكثيراً ما كانت ساحة العمليات تمتد عشرة كيلومترات وخمسة عشر. وكان في كل معركة يحتشد تحت امرة القائد القاوقجي المئات، وأحياناً الألوف، مسلحين وغير مسلحين، ومساعدين ومموِّنين ومحمسين. ثم تنتهي بانسحاب القوات الانكليزية حالما يخيم الظلام، بعدما يكون المجاهدون أوقعوا فيهم الخسائر، وغنموا منهم الغنائم.

ولقد كان موقف الأقطار العربية وخاصة العراق والشام بما فيها الأردن ولبنان كريماً في أزمة فلسطين وثورتها. فاهتمت أوساطها الوطنية وصحافتها اهتماماً كبيراً، وتألفت لجان سميت بلجان الدفاع عن فلسطين، وأخذت تجمع التبرعات، وترسلها إلى فلسطين، كما أن مدنها أضربت أكثر من مرة، وقامت فيها المظاهرات المتعددة تضامنا معها. ووصل الأمر، كما قلنا، إلى أن وفد إلى فلسطين مجموعات من المجاهدين ليجاهدوا مع اخوانهم، ويمزجوا دماءهم معاً في سبيل عروبة فلسطين وحريتها واستقلالها. وقد ساعد أبناء هذه الأقطار في تغذية الكفاح، بما كانوا يرسلونه من

وسائله الضرورية، بقدر ما كانت تسمح به أحوالهم. ولقد بلغ عدد شهداء العرب وجرحاهم في هذه الثورة نحو الألف. وبلغ عدد الحوادث الثورية المتنوعة نحو ستة آلاف. وبلغ عدد قتلى قوات السلطات وجرحاهم نحو خمسمأة، وعدد قتلى اليهود وجرحاهم نحو ذلك. وبلغت قيمة خسائر اليهود المادية نحو ميليونين، وخسائر السلطات في أملاكها ونفقاتها الحربية ضعف ذلك على ما قدره المراقبون.

ولقد هال الموقف الانكليز، وأخذوا يبذلون مساعيهم ووعودهم لحمل العرب على فك الاضراب، والكف عن الثورة، ووعدوا بإرسال لجنة تحقيق جديدة بصفة لجنة ملكية، وتنفيذ وصاياها مهما كانت، ووسطوا عاهل الأردن، ثم عاهلي العراق والرياض، فرأى الملوك الثلاثة أن يختبر العرب الانكليز هذه المرة أيضاً، فأذاعوا على الشعب العربي نداء، طلبوا فيه الإخلاد للسكينة، ووعدوا بمواصلة السعي لتحقيق المطالب العربية وأعلنوا ثقتهم بحسن نوايا بريطانيا ورغبتها التي أعلنتها في تحقيق العدل. وقد استجاب العرب للنداء، وفكوا اضرابهم وتوقفوا عن حركاتهم كهدنة موقتة، مع استشعارهم بالنصر والعزة والقوة والحيوية والاستعلاء واحتفاظهم بسلاحهم.

وقد أذاع القاوقجي بصفته قائد الثورة العام بياناً شكر فيه أهل فلسطين على ما شاهده فيهم من بسالة وكرم وتضامن. وقال انه إنما توقف عن حركاته، نزولاً على نداء الملوك، وأنه هو والمجاهدون من فلسطينيين وغير فلسطينيين مستعدون لاستئنافها بعزم أقوى، إذا لم تتحقق مطالب العرب، وتضمن عروبة فلسطين واستقلالها وحريتها.

وكان وداع القاوقجي والمجاهدين العراقيين والشاميين حافلاً بعشرات الألوف التي كانت تهزج وتطلق رصاص الفرح والاستعلاء. وسكتت السلطات على ذلك فجاء سكوتها مصداقاً لحقيقة شعور العرب بالعزة والنصر(١٥).

٣ ـ التقسيم لأول مرة وقتله

ـ ١ ـ

ولقد أرسلت الحكومة الانكليزية اللجنة الملكية التي وعدت بها، والتي عرفت باسم لجنة بيل نسبة لرئيسها اللورد بيل. ولبثت نحو شهرين تستمع لممثلي اليهود والعرب والحكومة، وتدرس أحوال فلسطين على الطبيعة، ثم عادت إلى بريطانيا. وفي تموز سنة ١٩٣٧ أصدرت تقريرها(١٦)، الذي وصفت فيه تناقض التزامات الحكومة، ووصّت بنوعين من التوصيات، وصفت احدهما أنه مخدر ومسكن فقط، وليس من شأنه أن يحل المشكلة المعقدة، لأن العواطف القومية عند العرب واليهود متناقضة مشتدة، ووصفت ثانيهما بأنه العلاج الحاسم وهو تقسيم فلسطين. وقد اقترحت تقسيمها إلى ثلاثة أقسام: قسم يقوم فيه دولة يهودية، ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة، على غرار معاهدة العراق. وآخر يبقى تحت الانتداب الانكليزي، وثالث يضم إلى شرق الأردن، ويتكون منها دولة

عربية، ترتبط مع بريطانيا كذلك بمعاهدة مماثلة. وجعلت جميع الساحل من حدود لبنان إلى مجدل عسقلان، مع أعظم سهول فلسطين وأخصبها، أي سارون ومرج ابن عامر، والجليلين الشرقي والغربي من نصيب الدولة اليهودية، ومناطق القدس وبيت لحم والناصرة، مع ممر من القدس إلى يافا، يشمل قرى هذا الممر، ومدينتي اللد والرملة والنقب منطقة انتدابية، مع وضع مدن حيفا ويافا وصفد وعكا تحت انتداب مؤقت. وجعلت الباقي وهو صحراء النقب، ومناطق الخليل ونابلس وطولكرم وجنين وبيسان ومدينة يافا، من نصيب شرق الأردن. وكان كلام اللجنة عن اليهود ومصالحهم ومركزهم مليئاً بالمحاباة. وقد جعلت قضيتهم هي المحور الذي تدور عليه قضية فلسطين!

ولقد بلغ عدد العرب في القسم اليهودي (٣٠٠٠٠٠)، ومساحة أراضي العرب الزراعية (٣,٢٥٠٠٠٠) دونم، وعدد اليهود فيه نحو (٣٠٠٠٠٠)، ومساحة أراضيهم الزراعية نحو (١,٢٥٠٠٠٠)، أي أن اللجنة أقامت الدولة اليهودية على أرض فيها للعرب ثلاثة أضعاف ما فيها لليهود، وفيها من العرب مقدار ما فيها من اليهود. وكان ذلك منها مكراً، لأنها وصت بمبادلة السكان والأراضي لتجميع العرب في دولتهم، واليهود في دولتهم، مع أنه لا يوجد من اليهود في القسم العربي إلا (١٢٥٠) نسمة، ومن أراضي اليهود فيه إلا نحو مئة ألف دونم، حيث يبدو في القسمة وتوصية المبادلة محاباة صارخة لليهود، لتهيىء لهم مجال التوسع على حساب العرب ووطنهم. وكان معظم القسم العربي الذي يضم لشرق الأردن، هو المناطق الجبلية المأهولة بالعرب، والتي لم يكد يجد اليهود فيها موضعاً لاصبعهم. وقد كمل الحرمان للعرب والمحاباة الصارخة ضدهم، فيما أبقى للانكليز من مناطق انتدابية واسعة، مثل منطقة القدس، وما بينها



خريطة مشروع التقسيم الذي وضعته اللجنة الملكية البريطانية

وبين البحر من سهول وقرى، ومنطقة النقب الخطيرة المركز من الناحية العسكرية والتعدينية، ثم مدن عكا وحيفا التي تقع على خليج ممتاز المركز، كان منذ الأصل هدفاً من أهدافهم الستراتيجية . . .

ولقد أصدرت الحكومة البريطانية بياناً(١٧)، وافقت فيه مبدئياً على الأسس والاستنتاجات التي توصلت إليها اللجنة، واعترفت بالتناقض البادي في التزاماتها المزدوجة، وصعوبة التوفيق بين أماني العرب واليهود، وقررت الأخذ بفكرة التقسيم، لأنه أفضل الحلول، وإرسال لجنة فنية لتركيز الحدود تركيزاً فنياً.

وهكذا كشفت بريطانيا عن وجهها المنافق الغادر، ورأت أن ما وصل إليه اليهود يكفي مبدئياً لتحقيق السياسة التي ترسمتها منذ البدء ضد الحركة العربية وأهدافها، وغرز الخنجر المسموم في جنب الأمة العربية، وقطع أهم طريق يوصل بين أقطارها، وجعل ربيبتها الدولة اليهودية عاملاً فوق ذلك في اشغال العرب وارهاقهم وانهاكهم. وقد ضمنت خطة التقسيم إلى هذا بقاء السيطرة العسكرية والاقتصادية سافرة ومستترة على جميع أقسام فلسطين وشرق الأردن، لأن هذا من تمام تلك السياسة المرسومة المجرمة، لأن المعاهدتين المقترحتين تضمنان وجودها العسكري وهيمنتها السياسية، على دولتي اليهود والعرب.

ولقد هز اقتراح التقسيم العرب هزاً عنيفاً في فلسطين وخارجها، وأخذت البرقيات من فلسطين تنهال على اللجنة العليا بالاستنكار والرفض والاستعداد لاستئناف الكفاح والتضحية، حتى كانت كالسيل. وكان أشد الأنحاء فزعاً وسخطاً الجليلان، لما أدركه أهلهما من المصير المظلم الذي ينتظرهم بالتشرد والنزوح، أو البقاء تحت ذل اليهود وارهاقهم. ومن الجدير بالذكر والاعتبار أن اللجنة الملكية زعمت في تقريرها كذباً، أن أهل الجليلين كانوا أقل من غيرهم انقياداً للتحريض السياسي، وأكثر قابلية للتعاون مع اليهود، تبريراً لجعل بلادهم من نصيب الدولة اليهودية، مع أنهم فيها الأكثرية الساحقة!

وكان صوت العراق وسورية، خاصة الرسمي والحكومي، من أدوى الأصوات وأشدها استنكاراً وثورية. وقد قامت فيها المظاهرات الصاخبة، وعقدت الاجتماعات الحاشدة. وقال رئيس وزارة العراق، إن الحاكم الذي يقبل أن يتوج على شرق الأردن مع ما بقي من أقسام فلسطين، لا يقابل إلا بالمقت والنبذ، وأنه سيكافحه بكل قوة كرئيس حكومة وكفرد عربي. وأضربت مدن شرق الأردن، وقامت فيها مظاهرات صاخبة محتجة مستنكرة(١٨). وارتفعت أصوات الاحتجاج والاستنكار من مصر وبلاد المغرب ولبنان والهند وغيرها، بحيث كان الرفض والسخط شاملاً لجميع العالم العربي والإسلامي معاً.

وقد دعت لجنة الدفاع عن فلسطين في سورية إلى مؤتمر عربي عام في بلودان، فاستجاب للدعوة عدد عظيم من أعلام العرب وزعمائهم في مصر والعراق والحجاز وسورية ولبنان والأردن والمغرب وفلسطين، مسلمين ونصارى، وانعقد هذا المؤتمر في أوائل أيلول ١٩٣٧، فقرروا رفض

التقسيم، وأعلنوا واجب الجهاد والاستعداد للتضحيات في سبيل الدفاع عن وحدة فلسطين وعروبتها وحريتها وأقسموا على ذلك في مظاهرة رائعة مثيرة وكرر الخطباء وأكدوا أن قضية فلسطين ليست قضية أهلها فقط، بل هي قضية عربية هامة، يتصل مصيرها بمصير جميع العرب وبلادهم، ويهدد الخطر الذي يهددها جميع العرب والبلاد العربية، حيث يبدو من كل ذلك أن العرب قد أدركوا في مختلف أقطارهم، ما ينطوي في التقسيم، وقيام دولة يهودية في جسم البلاد العربية من أخطار واضرار لجميع العرب وبلادهم.

وحاولت الحكومة الانكليزية أن تتصامم أمام هذه الأصوات الداوية. فأرسلت ممثليها إلى جنيف لعرض التقسيم على لجنة الانتداب في عصبة الأمم، وأخذ موافقتها عليها، ولكنها لم تنل الموافقة المطلوبة، وأجلت إلى أن تقدم الحكومة الانكليزية التقرير الذي تضعه اللجنة الفنية.

ولقد أخذت الصحف الانكليزية واليهودية تحرض الحكومة الانكليزية على اللجنة العربية العليا، ورئيسها المفتي، وقادة الحركة الوطنية، ووصفهم بأنهم العثرة في سبيل حل قضية فلسطين، وأخذت الحكومة الانكليزية تستجيب للتحريض الذي كان بايعازها على الأغلب، ليكون ذريعة لها. وقامت بحركة اعتقال ومحاكمة ضد بعض رجال الحركة لاتفه الأسباب. وأخذ هذا يؤدي إلى اشتداد التوتر مع ارتفاع الأصوات باستئناف الجهاد. ولم يلبث الجو أن اكفهر، حيث أقدم فدائي عربي على قتل حاكم الناصرة الانكليزي الذي كان سيء النية والتصرف نحو العرب، وكان ملازماً للجنة الملكية ومستشاراً لها، فهاتجت السلطات اهتياجاً شديداً، وقامت بحركة ارهاب واعتقال واسعة، شملت عدداً كبيراً، من قضاة الشرع وعلماء الدين، ورجال اللجان القومية وشبابها البارزين، في مختلف مناطق فلسطين. واستنكرت اللجنة العربية العليا هذه الحركة، وحذت حذوها اللجان القومية في مختلف مدن فلسطين، فما كان من السلطات إلا أن خطت خطوة ارهابية أخرى، فأعلنت حل اللجنة العربية العليا واللجان القومية، وعزل المفتي من رآسة المجلس الاسلامي الأعلى، ورآسة الأوقاف، واعتقلت ستة زعماء من فلسطين، خمسة منهم أعضاء في اللجنة العربية العليا ـ وكان بقية أعضائها خارج فلسطين ـ واركبتهم بارجة حربية، حيث أبحرت بهم إلى سيشيل منفيين. وقد اعتصم المفتي بالحرم الشريف، فلم تجرأ على اقتحامه واعتقاله فيه. وقامت حركة احتجاج واسعة على ما وقع، وأخذت الدعوة تشتد إلى الاضراب واستئناف الجهاد. وأضربت المدن، وقامت فيها المظاهرات التي كان يقع فيها اشتباكات دموية، وأربد الجو، وبدت فيه علائم الانفجار المتوقع، من تقطيع اسلاك، والقاء قنابل، وتخريب طرق، ونسف قطارات، وتفجير بترول، واطلاق رصاص على الدوريات. وأخذت ترد على فلسطين امدادات عسكرية عاجلة، وأعلن القائد العام ممارسته الحكم العسكري، وأخذت القوات تترصد حدود فلسطين لمنع تسرب السلاح والمجاهدين، كما أخذت تفتش عن الذين برزوا في الثورة السابقة، من القواد المجاهدين المحليين، ورجال الحركة الوطنية النشيطين، لاعتقالهم، وأخذ من استطاع من هؤلاء يتطايرون إلى سورية ولبنان والأردن، حتى لا يحرموا حرية العمل في المرحلة الجهادية الجديدة التي هبت ريحها.

ولم تلبث الثورة أن انفجرت في أواخر ايلول عام ١٩٣٧ . وقد امتدت هذه المرة إلى مـا بعد نشوب الحرب العالمية الثانية ، أي نحو سنتين ونيفاً . وبدأت الحركات الثورية أولاً في لواء نابلس الذي كان منطقة نشاط القاوقجي ، وفي الجليل ، ثم أخذ نطاقها يتسع إلى أن بلغت ذروتها الرائعة التي شملت جميع ساحات فلسطين . وصار يقع بين جماعات المجاهدين وقوات السلطات المعارك التي كان أحياناً يحشد لها من جانب هذه القوات الآلاف المزودة بالطيارات والدبابات والمصفحات والمدافع ، ويحتشد لها من جانب المجاهدين المئات ، من دائميين ومجندين يبدون اروع صور البسالة والاستماتة ، دون مبالاة بعدد العدو وعدده ، وفقدان التكافؤ فيها ، وبما يقع من غالي الضحايا . وكان المجاهدون هم المتحرشون دائماً ، حيث كـانوا يهـاجمون المخـافر والمعسكـرات والمطارات والمحطات وقوافل السيارات ، فتسارع السلطات إلى حشد الحشود والمطاردة والمصـادرة . وكان المجاهدون يتمركزون حينما تحشد لهم السلطات القوات الكبيرة في الجبال والأحراش والهضاب والوعور بنظام بارع ، من تقسيمات صغيرة كارة فارة ، مما كان يضطر السلطات في أكثر الأحيان إلى سحب قواتها ، دون أن تنال من المجاهدين نيلاً شافياً .

ولم تكن حركات المجاهدين قاصرة على مصاولة السلطات ، وتخريب منشآتها ومـرافقها ، والاشتباك مع قواتها ، بل كانت تشمل المستعمرات والحقول والبساتـين والممتلكات اليهـودية ، وجماعات اليهود أنفسهم ، بحيث لم يكد يمر يوم ، إلا وتغزى مستعمرة من المستعمرات ، ويجري فيها تدمير وتحريق وقلع أشجار وقتل خفراء الخ . وكانت تشمل كذلك أنابيب النفط تخريباً وتفجيراً واشعالاً ، حتى قدرت الزيوت المنسابة في شهرين من شهور صيف عام ١٩٣٨ باثنين وثلاثين ألف طن . .

ولقد وصل اتساع الثورة وصولتها إلى تطويق المدن واقتحامها ، ونهب دوائر البريد والمصارف وسلاح المخافر ، ودخول دور الحكومة ونهب غرفها ، وخطف بعض موظفيها وقتل بعضهم . ولقد دخل بعضهم دار حكومة جنين ، وصعدوا إلى طابقها الثاني ، ودخلوا على حاكمها الانكليزي ، وأطلقوا عليه النار ، فأردوه قتيلاً ، ثم خرجوا ونجوا مـع ما كـان في الدار ، من حشـود وجنود وبوليس . ولقد كانوا يغـزون تل أبيب معصم اليهـود في الليل والنهـار ، ويطلقـون الرصـاص والقذائف على الأفراد والسيارات ، ويشعلون النار في الدور والحوانيت ، ويلقون الرعب في قلوب سكانها ، حتى صار هؤلاء حينما يرون في تل أبيب جماعـة تلبس العقال والكـوفية ، يتـراكضون مذعورين خائفين . وكان هذا حال طبريا التي كان أكثر سكانها يهود . وقد دخلها المجاهدون ، فقتلوا وجرحوا نحو مئة من اليهود . ودمروا وحرقوا كثيراً من حوانيتهم ودورهم ، وخرجوا كـما دخلوا مهللين مكبرين . . .

ومع أن أكثر المجاهدين من القرويين ، وهم الذين اضطلعوا بجل أحداث الثورة وبقيادتها ، فإن النشاط الكفاحي في المدن لم يكن ضعيفاً . فقد حمل السلاح كثير من أهلها ، منهم من استعمله في المدن في اغتيال أفراد السلطات واليهود ، وتخريب ممتلكاتهم ونهبها ، ومهاجمة المخافر والدوريات فيها ، ومنهم من استعمله تحت لواء قواد الثورة في السهول والجبال .

ومع أن جل المجاهدين من سواد الشعب، فقد اشترك في الحركة الكفاحية في المدن، وخارجها، عدد كبير من الشبان المتعلمين تعلياً متوسطاً وعالياً.

وهذا بالاضافة إلى ما كان من مساهمة غير الذين حملوا السلاح من أهل القرى والمدن في الحركة الكفاحية، بصورة ما، من تموين وتمويل وشراء سلاح وعتاد ونقله، وتعضيد وتحميس واسعاف، بحيث يمكن أن يقال ان جل أبناء الشعب على اختلاف طبقاته وفئاته، قد اندمجوا في هذه الحركة.

ولقد أخذت الامدادات الانكليزية ترد إلى فلسطين منذ بدء الثورة. وقد بلغ عدد قواتها وبوليسها نحو أربعين ألفاً مجهزة بأجهزة حربية قوية متنوعة. وقد جندت نحو عشرة آلاف بوليس اضافي عربي ويهودي لأعمال الحراسة، حتى تتفرغ تلك القوات لمكافحة الثورة. ولكن ذلك لم يمنع الثورة من الاستمرار والاتساع.

ولقد عمدت بسبيل قمع الثورة، إلى أساليب كثيرة، فيها من القسوة والعنف ما تقشعر له الجلود، ولا يدخل في نطاق منطق حكومة وصية نحو شعب لا يخفي عليها أنه مظلوم، وبقصد فرض دولة غريبة تعاديه في وطنه، لتمشية سياسة استعمارية مجرمة. وكان من ذلك تعديل قوانين الطوارىء، بحيث أصبحت حيازة رصاصات، أو قطعة من سلاح، تكفي للحكم بالاعدام أو المؤبد، وأصبحت كل عمارة في مدينة أو قرية أو بيارة أو بستان عرضة للمصادرة والنسف والتدمير، لمجرد صدور نار ما من جهتها، أو قوع حادث قربها، حتى لقد بلغ عدد الذين شنقوا (١٤٦). وتجاوز عدد المحكومين بمدد أبدية أو مديدة الألفين، فيهم شيوخ طاعنون، وفتيان ومراهقون، وفيهم نساء، وحتى لقد بلغ عدد المنازل والحوانيت التي نسفت وهدمت وتصدعت، نحو خمسة آلاف. وكان يرافق التحريات والتفتيشات في المدن والاحياء والقرى قسوة بالغة، من تحطيم وتدمير وتحريق وجلد وتعذيب ونهب واتلاف متاع وانتهاك مقدسات. ولقد بلغ عدد من اعتقل مدة طويلة أو قصيرة نحو خمسين ألفاً. وكان الاعتقال في البدء فردياً، ثم صار بالعشرات بل والمئات. ولم يندر أن سرح أشخاص ثم اعتقلوا ثانية وثالثة. وشملت حركة الاعتقال جميع الطبقات في المدن والقرى.

ومن طرق التعذيب التي كانت تعمد إليها السلطات ربط الجماعات التي تساق للاعتقال بالحبال، وتسيير الدبابات والسيارات من أمامهم وخلفهم، واجبارهم على الركض في الطرق لئلا يداسوا... وكان يأتي ثلة من الجيش إلى قرية وقع عندها حادث ما، فيصفّ قائدها شباب القرية، ويختار منهم واحداً أو أكثر، فيطلق عليهم الرصاص دون محاكمة ولا تحقيق.

وقد كانت السلطات تفرض منع التجول على المدن والقرى والطرق. وكثيراً ما امتد أياماً، ولم يندر أن امتد في بعض المدن شهرين وثلاثة وأربعة. وعمدت إلى انشاء مخافر اضافية في القرى التي تقع في منطقتها أحداث ثورية، على نفقة السكان، عقاباً وارهاباً، حتى بلغ عددها مئة وخمسين. ولما لم يجدها هذا التدبير، عمدت إلى احتلال القرى والاحياء، وقالت انها قد أتت بتدبير

حاسم، غير أن ذلك لم يجدها أيضاً. ومما عمدت إليه، فرض خفارة السكك الحديدية والخطوط التلفونية والبرقية على أهل القرى، وتغريمهم ما يقع فيها من تخريبات. وفرض غرامات مشتركة على القرى والمدن والارجاء، وجبايتها بوسائل العنف والمصادرة والتعذيب والنهب.

على أن كل ما اتخذته السلطات من اجراءات قاسية منكرة، وحشدته من القوات المزودة بمتنوع وسائل التدمير، لم يكن ليمنع الثورة من التغلب على ما أقيم في طريقها من عراقيل، ومن امتدادها وشمولها، ومن تسابق الناس إلى صفوف الثورة، وسد الثغرات التي تحدث بالقتل والجرح ومصادرة السلاح.

ولقد أذهلت الروح التي تجلت بهذه القوة والشمول والعلوية السلطات، وجعلتها تقف مكتوفة اليد، بل اضطرتها إلى تخفيف غلوائها في الارهاب والمطاردة والعنف والاعتقال والتطويق، لأنها رأت نفسها أمام شعب جميعه ثائر، وإلى تفادي غزوات المجاهدين وجرأتهم على قواتها ودوائرها، فأغلقت عدداً كبيراً من مراكز البرق والبريد ومخافر البوليس، وكثيراً من دوائر الحكومة الأخرى في المدن الصغيرة، كما ألغت سير القطارات والمحطات على بعض الخطوط في النهار، وعلى جميعها في الليل. وحظرت على فصائل جيشها وبوليسها ودورياتها الخروج من الثكنات والقلاع وأطواق المعسكرات، أو البقاء خارجها بعد الغروب. وكثيراً ما كانت تساير الموقف الصعب، فتسلم جثث الذين ينفذ فيهم حكم الاعدام من المجاهدين لذويهم، وتغضي عما يقام لهم، ولشهداء المعارك من مواكب حاشدة. .

ولقد أنشأت سوراً عظيماً من الأسلاك الشائكة على حدود فلسطين الشمالية والشرقية، لمنع قوافل السلاح والعتاد، وجهزته بالألغام، فلم يكد ينتهي انشاؤه حتى أخذ ينهار أمام براعة الثوار وجرأتهم. وتعود القوافل إلى حركتها داخلة خارجة. وقد انفجر لغم فقتل أحد المجاهدين، فاكتشف المجاهدون بذلك وجود الالغام، فبحثوا عنها، ورفعوا كبسولاتها، وصاروا يأخذون منها المتفجرات، ويتزودون بها في كفاحهم. .

ولقد تسرب إلى فلسطين، وانضم للثورة وحركة الجهاد كثير من أهل شرق الأردن وسورية ولبنان. غير أن قيادة الثورة في هذه المرحلة ظلت في يد قوادها الفلسطينيين، الذين كان جلهم أو كلهم من القرويين.

وكانت ساحات الحركات، بل ساحات فلسطين، مقسمة إلى مناطق في كل منها جبهة لها قيادة عامة، ينطوي تحت لوائها فصائل عديدة لكل منها قائد خاص. وكان للثورة مجلس أعلى من القواد المدنيين لتنسيق العمل والصلات. كما كان هناك لجنة مركزية للجهاد بفرعين، واحد في سورية، وآخر في لبنان، يمدان الثورة بما كان يتيسر لهما من مال وسلاح وعتاد ومعدات ويوجهانها.

ولقد أصبح قواد الثورة الرئيسيون، بالاضافة إلى قيادة معارك الثورة الكبيرة، وتوجيه الفصائل وادارتها، وتدبير مختلف الشؤون الكفاحية، بمثابة الحكام الاداريين، أو الأمراء الاقطاعيين. كل له منطقة معروفة الساحة والقرى، ولهم أختامهم وأوراقهم المطبوعة، ونشراتهم

وبـلاغاتهم وكتّـابهم وحجابهم وحـراسهم ومنفـذو أوامـرهم. وكان النـاس يعـرضـون عليهم مشاكلهم، ويرفعـون اليهم شكاويهم، فيعقـدون المجالس لحـل ما يعـرض عليهم من مختلف القضايا، وينفذون أحكامهم بسـرعـة، ويجلبون الشهـود والخصوم رضـاء أو كرهـاً، وتزدحم معسكراتهم بالغادين والرائحـين، زواراً ومتقاضـين ومستحبين ومتـرحين ومشفكـين ومنفذين ومتزلفين بالهدايا، دون مبالاة بالسلطات وقواتها واجراءاتها(١٩).

ولقد بلغت خسائر العرب في الثورة نحو عشرة آلاف، ثلثهم شهداء، وبلغ ما أنفقه أهل فلسطين على الثورة، وقيمة ما خسروه من تخريب أملاكهم، ما لا يقل عن أربعة ملايين جنيه. ولم يكن ما كانت تحصل عليه لجنة الجهاد المركزية من مساعدات مالية من خارج فلسطين، ما يوازي عشر الحاجة. ولقد تكتمت السلطات في خسائرها وخسائر اليهود، ولكن خسائرها لا تقل عن ١٢٠٠ بين جريح وقتيل، على ما دلت عليه البوادر المتنوعة، بالاضافة إلى ما لا يقل عن عشرة ملايين جنيه نفقات وقيمة مرافق مدمرة. ولا تقل خسائر اليهود عن ألف وخمسمائة قتيل وجريح، وعما قيمته أربعة ملايين جنيه نفقات دفاع وأسلاك وخفراء ومرافق مدمرة، هذا فضلاً عما منوا به من عطالة شديدة، وغلاء باهظ، وانقطاع سياح ومهاجرين وأغنياء وتبرعات، وعن حركة نزوح واسعة من فلسطين.

ولم تمض غير مدة يسيرة، حتى أخذ رد فعل الثورة يبدو على الأوساط الانكليزية بصورة متنوعة. فقد أخذت بعض الصحف الانكليـزية بمـا فيها التـايمس، وبعض رجال الانكليـز البـارزين، ومنهم يهود، يـرددون صعوبـة تنفيذ التقسيم، وخـطورة عواقب اغضـاب العرب والمسلمين. وأخذت الارهاصات تكثر عن الرغبة في العـدول عنه، وإيجـاد حل على غيـر أساسه، وتحديد الهجرة اليهودية، ليظل العرب محتفظين بأكثريتهم. وأذاع وزير المستعمرات بياناً، ذكر فيه خبر تعيين اللجنة الفنية. وقال: إن الحكومة لم ترتبط بمشروع معين، ولم توافق على تهجير العرب من القسم اليهودي، وأن اللجنة إذا قدمت مشروعاً عادلاً وعملياً، عرضته على عصبة الأمم والبرلمان، وإلا فإنها قد تعود عن إنشاء دولة يهودية إلى حل مناسب آخر، مما لمس فيه شيء من التراجع، ومما جعل العرب يزدادون قوة وحماساً وعزماً على متابعة الكفاح. وأخذت الصحف الانكليزية تلح على سرعة إرسال اللجنة، وعدم انتظار هدوء الثـورة، لأن العرب لن يهدأوا بالوعود والكلام، فسارع الوزير إلى الاستجابة إلى ذلك، وعجل في إرسالها. وقد جاءت إلى فلسطين في صيف عام ١٩٣٨ والثورة في أوج سلطاتها. ومكثت ثلاثة أشهر تدرس موضوع مهمتها على الطبيعة تحت الحراسة الشديدة، ثم عادت وقدمت تقريرها الذي احتوى مشاريع ودراسات عديدة للتقسيم، كما طلب منها من جهة، ووجهة نظرها في المصاعب العظيمة السياسية والاقتصادية والجغرافية التي تنجم عن أي مشروع من مشاريع التقسيم من جهة أخرى. ولم تلبث الحكومة الانكليزية أن أصدرت بياناً أعلنت فيه اضطرارها، بناء على ما جاء في تقرير اللجنة، إلى العدول عن فكرة التقسيم، والبحث عن حل آخر، يضمن لها وفاءها بالالتزامات المزدوجة نحو العرب واليهود معاً، واعتزامها دعوة الحكومات العربية، وممثلي عرب فلسطين إلى لندن، للبحث عن حل مناسب.

وهكذا حققت الثورة غايتها المباشرة، وهي قتل التقسيم، ثم فتحت باب الأمل بتحقيق الميثاق القومي، بعد أن عجز الانكليز عن قمع الثورة وإخماد الروح الكفاحية في أهل فلسطين.

ومما حدث، وكان ذا مغزى عظيم في هذا الباب زيارة وزير المستعمرات فلسطين خلسة، للاطلاع على الحالة عن كثب. وقد أذاع الوزير اثر عودته خطاباً قال فيه: ان قمع الثورة ليس بالسهولة المظنونة، وانها قد تستمر أمداً غير قصير، وان مركز انكلترة من أصعب المراكز.. وكان ذلك قبل إعلانه العدول عن التقسيم...

ولقد كان اعلان الحكومة الانكليزية عزمها على اشراك الحكومات العربية في بحث قضية فلسطين، أثراً من آثار ما بدا من العرب حكومات وهيئات وأفراد من اهتمام للقضية، ومشاركة في الكفاح في سبيلها بالمال والدماء والسلاح والدعاية والمظاهرات والاحتجاجات والمواقف الدولية المتنوعة. واعترافاً قوياً بأن هذه القضية قضية عربية عامة، لا يسع الانكليز تجاهل حق جميع العرب في الاهتمام لها والمشاركة فيها.

ولقد دعت الحكومة الانكليزية حكومات مصر والعراق والأردن واليمن والسعودية إلى لندن لعقد المؤتمر(٢٠). وأرسلت هذه الحكومات ممثلين ممتازين لها. وقبلت الحكومة الانكليزية مكرهة من انتدبتهم اللجنة العربية العليا لتمثيل عرب فلسطين، بعد مداورات ومراوغات فاشلة. وحاولت هذه الحكومة أن تجعل المؤتمر عربياً يهودياً انكليزياً، فرفض العرب أن يجلس اليهود معهم، فنزلت على رأيهم، وعقدت مؤتمرين أحدهما عربي انكليزي، وثانيهما يهودي انكليزي.

وقد افتتح المؤتمر جلساته في أواخر كانون الثاني، من عام ١٩٣٩ وتعددت جلساته. وقد قبلت الحكومة الانكليزية في النهاية وجهة نظر العرب في حل القضية، حيث وافقت على مبدأ انهاء الانتداب، وقيام دولة مستقلة في فلسطين بأكثرية الثلثين للعرب، خلال فترة قدرت بعشر سنين، مع احتمال تجديدها. وقد أرادت أن تجعل ذلك منوطاً بإمكان قيام تعايش وانسجام بين العرب واليهود، فلم يوافق العرب على ذلك، لأنهم كانوا على يقين أن اليهود سيضعون كل العقبات في هذا السبيل، وأصر الإنكليز على ذلك، فأدى هذا إلى انفضاض المؤتمر، بدون نتيجة متفق عليها.

وقد أصدرت الحكومة الانكليزية في مايس سنة ١٩٣٩ كتاباً أبيض، قالت انها وضعته على ضوء ما جرى في مؤتمر لندن. وقد احتوى الأسس التالية:

١ ـ إن الحكومة الانكليزية تعتبر نفسها قد وفت بالتزاماتها نحو اليهود، حيث ساعدت على تحقيق قيام الوطن القومي، بما صار لهم من عدد ومنشآت وكيان. وانها تريد أن تسمح بهجرة خمسة وسبعين ألفاً يهودي، خلال خمس سنين، حتى لا تتعطل حركة العمل اليهودي الراهن. وإنها متى تمت هذه الهجرة، لا ترى نفسها تحت طائلة أي التزام لتسهيل الوطن القومي، عن طريق السماح بهجرة أخرى، بالرغم عن رغبة العرب.

٢ ـ بما أن الانتداب من حيث أساسه موقت، فإن مصير فلسطين هو الاستقلال. غير أن هذا

يجب أن يكون بالتشارك بين العرب واليهود، ولا يمكن أن يتم إلا إذا قامت الدلائل المقنعة على إمكان التمازج والتعاون بينهما. ولذلك فإنها ستجري تجارب ومراحل في هذا الشأن، خلال عشر سنين. فإذا أسفرت عن قيام تلك الدلائل، خطت الخطوة النهائية إلى انهاء الانتـداب وإعلان الاستقلال، وإلا فإنها ستدعو ممثلي العرب واليهود ثانية للبحث في النتائج، والتشاور في الخطوة الواجبة. وهذه التجارب والمراحل تبدأ حال ما تهدأ الاضطرابات، بالتوسع في تعيين الفلسطينيين في الوظائف العليا، وإشـراكهم في ادارة البلاد. وإنها ستتخذ التدابير حالاً، لوضع تشريعات تحدد انتقال الأراضي العربية لليهود، حتى تضمن عدم الاجحاف في كيان العرب واقتصادياتهم. وانها سوف تسير في التجارب والمراحل إلى تحقيق هدف إنشاء حكومة فلسطينية مستقلة، سواء اغتنم العرب واليهود الفرصة أم لا[٢١].

ولقد سارع رئيس الوزارة المصرية إلى التصريح، بأنه لا يستطيع أن ينصح عرب فلسطين بـالرضـاء عن الكتاب الأبيض. ووقفت الحكـومة العـراقية والعـاهل السعـودي نفس الموقف. ووضعت اللجنة العربية العليا رداً سجلت فيه على الحكومة الانكليزية تسليمها نظريـاً بمطالب العرب، وانتقدتها على الاطلاق والغموض اللذين أحاطت بهما التجارب والمراحل، وخاصة تعليق انهاء الانتداب، وتأسيس الدولة على رضاء اليهود، ورغبتهم في الاندماج في الخطة الاستقلالية، لأن اليهود سيعملون كل ما يستطيعون لاحباط هذه الخطة. وقد أسرع اليهود فعلاً إلى تقـديم الدليل، حيث أعلنوا سخطهم على الكتاب الأبيض، وعزمهم على محاربته إلى أن يحبط نهائياً.

ومهما يكن من أمر، فإن الكتاب الأبيض قد سلم نظرياً بمطالب العرب، وصدق قضيتهم، وماشى ميثاقهم شوطاً غير يسير. وكان قبول الانكليز بمبدأ قيام دولة فلسطينية بأكثرية عربية في حد ذاته نجاحاً عظيماً. وقد عرضت الحكومة الانكليزية الكتاب الأبيض على البرلمان، وأخذت موافقته عليه، فأصبح خطة رسمية لها، وان كان من الحق أن نسجل أن ما انطوى فيه من تعقيد وغموض، واناطة قيام الدولة برضاء اليهود، وما بدا من الانكليز في أثناء الحـرب وبعدهـا من مراوغـات ومداورات ونكوص، قد أثبت أن ما كان منهم انما كان مسايرة للظروف، أكثر منه تسليماً بالحق، ورغبة في السير في طريقه. . . .

٤ ـ القضية الفلسطينية أثناء الحرب العالمية الثانية

ـ ١ ـ

النشاط اليهودي

لقد تيقن اليهود أن الكتاب الأبيض، مهما كان شأنه، سيظل عقبة في طريق مطامعهم، ولو موقتاً. فكثفـوا نشاطهم أثنـاء الحرب ضـده مستغلين كل فـرصة. ورأوا في مسـايرة الحكـومة

الانكليزية، ولو نظرياً، للكفاح العربي نكثاً لهم، وتحيفاً على آمالهم من جهة، وحدسوا أن يكون للولايات المتحدة الأمريكية دور كبير ومؤثر في الحرب ونتائجها من جهة أخرى، فكثفوا نشاطهم فيها. وقد استغلوا خاصة ما أخذ يقع على يهود أوروبا الوسطى والشرقية من ضغط ومطاردة، فاستطاعوا بما لهم من نفوذ متغلغل في دوائرها، أن ينالوا تأييداً قوياً من عدد كبير من أعضاء الكونغرس، حيث قدموا طلباً إلى رئيس الجمهورية بتبني القضية الصهيونية، والعمل على إلغاء سياسة الكتاب الأبيض، وفتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية حرة واسعة، وتحقيق الوطن القومي بمعناه الشامل. وقد أخذوا يعلنون على أثر ذلك مطامعهم في جميع فلسطين وشرق الأردن وسورية ولبنان، ليمكن حشد اليهود المضطهدين فيها. .

ولقد اغتنموا في سنة ١٩٤٤ فرصة انتخابات الرآسة، فبذلوا جهدهم حتى جعلوا الحزبين المتنافسين يتباريان في الوعود والتصريحات، بجعل مطالب اليهود أساساً من أسس سياستهما. ولقد استخدموا أثناء معركة الانتخابات آلافاً من الخطباء، فيهم جمهرة كبيرة من القسيسين، ليطوفوا في الولايات المتحدة، ويخطبوا في مجتمعاتها وأنديتها. وهذا فضلاً عن الحملات الدعائية المتوالية في الصحف ومحطات الاذاعة، التي كان اليهود يملكون أو يسيطرون على عدد كبير منها، إن لم يكن على معظمها، فاستطاعوا بذلك أن يملأوا أذهان سكان الولايات المتحدة، مما كان من أثره قرار واحد وثلاثين مجلساً من مجالس الولايات المتحدة تمثل ٨٣٪ من سكان الدولة، وجوب تأمين الهجرة اليهودية الحرة الواسعة إلى فلسطين، وانشاء الدولة اليهودية فيها. ثم مما كان من أثره في موقف حكومة الولايات المتحدة ورئيسها الشرير ترومان، ومجلس كونغرسها في سنة ١٩٤٦، وما بعدها ذلك الموقف الفظيع من المحاباة ومجافاة كل حق ومنطق وشرف، ومما كان من أثره كذلك ما انهال، وما يزال ينهال على الدولة اليهودية منذ قيامها من مئات، بل آلاف ملايين الدولارات، وما ظلت الولايات المتحدة تبذله لها من تأييد وحماية. .

ولم يكن نشاط اليهود في بريطانيا والأوساط العالمية الأخرى يسيراً أيضاً. فقد انعقد مؤتمر النقابات العمالي العالمي في سنة ١٩٤٥. فاستغلوه، واستطاعوا أن يظفروا منه بقرار بوجوب مساعدة اليهود على الهجرة إلى فلسطين، وإنقاذ من نجا منهم من الموت والهلاك، ونالوا مثل ذلك من مؤتمر الدول الأميركية الشمالية والجنوبية الذي انعقد في نفس السنة في مكسيكو، وبذلوا جهودهم في داخل حزب العمال الانكليزي، حتى استطاعوا أن يحملوا لجنته التنفيذية على تبني سياسة قيام دولة يهودية في فلسطين، وتوسيع حدودها حتى تتسع لأكبر عدد من اليهود، وترحيل العرب عنها. وبذلوا جهودهم في داخل حزب الأحرار الانكليزي، حتى استطاعوا أن يحملوا مؤتمره على تبني هدف الغاء الكتاب الأبيض، وفتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية واسعة. وعقدوا مؤتمرات يهودية في انكلترة وفرنسة وايطاليا وغيرها، حملوا فيها على الكتاب الأبيض، وطالبوا بالغائه وانشاء الدولة اليهودية. . .

ولم يقتصر نشاطهم على مجال الدعاية السياسية. فقد كانوا يقولون ان ما أحدثته الثورة العربية يجب أن يزول بثورة يهودية، وأخذوا على أنفسهم الاستعداد لذلك، فاستغلوا حرج الجبهة المصرية، فحملوا بريطانيا على تحصين فلسطين، وتقوية قوة الدفاع اليهودية فيها تسليحاً وتدريباً،

ونجحوا في ذلك نجاحاً باهراً، ظهرت آثاره فيما كان من تحصينات عظيمة على حدود فلسطين الشمالية والجنوبية، وفي مخازن السلاح التي أنشئت تحت الأرض في المستعمرات والاحياء اليهودية، والتي كانت ملأى بكميات كبيرة من المدافع اليدوية والبنادق والمسدسات والعتاد والمتفجرات، وفي ما كان من تنظيم الهاجانا اليهودية (قوة الدفاع أو الجيش الذي كان تابعاً للوكالة اليهودية ثم صار جيش الدولة الرسمي)، وتدريب العدد الكبير من شباب اليهود وشاباتهم. وكان من فرصهم تنقلات الجيوش البريطانية، وخاصة الكتائب البولونية، حيث كانت تضم عدداً كبيراً من ضباط اليهود وأفرادهم، فكانوا يبثون فيهم الدعوة، ويحملونهم على الفرار من فرقهم بسلاحهم، وانضمامهم إلى قوة الهاجانا، والاستفادة منهم في تدريب شبانهم وشاباتهم.

ولما اقترب نهاية السنين الخمس المحددة في الكتاب الأبيض لوقف الهجرة نهائياً، ورأوا أن الحكومة الانكليزية ما زالت تتظاهر بتمسكها بهذا المبدأ، تحسباً من العرب في أثناء الحرب الذين كانت بلادهم فيها من المراكز الاستراتيجية والتموينية الخطيرة، قرروا أن يرغموها، أو بكلمة أخرى، أن يساعدوها على التخلي عن هذا المبدأ، فكانت ثورتهم التي أعدوا لها العدة العظيمة في أوائل عام ١٩٤٤، ونقلوا بها قضيتهم إلى مجال الكفاح الدموي.

ولقد آذنوا بثورتهم بمنشور موقع باسم الجمعية العسكرية اليهودية، يعلنون فيها بدء معركة فتح أبواب فلسطين لليهود. وقد استمرت ثورتهم ثلاث سنين ونيفاً، إلى خريف عام ١٩٤٧. وكانت تقف أحياناً خلالها وقفات استجمام وترقب. وكانت عنيفة محكمة التنظيم، مع التنبيه على أنها لم تكن ثورة دائمة ذات عصابات مسلحة مستمرة النشاط، كما كانت ثورة العرب، بل وقائع وهجمات ترتب وتنفذ، ثم تقف، لتستعد لوقائع وهجمات أخرى، أو لتستملي الظروف والأحداث. وكان الذين يقومون بها، لا يلبثون أن يعودوا إلى أعمالهم العادية، أو إلى أندية التدريب والمعسكرات المنتشرة في المستعمرات. وقد أذاعوا نشرة مفصلة باسم الجمعية العسكرية، ووزعوها في مختلف أنحاء الأرض، وصفوا فيها تشكيلاتهم وقواهم وفروعهم، وقالوا ان غايتهم انشاء مملكة يهودية كبرى في وطنهم التاريخي الكبير، الممتد من الفرات إلى النيل.

وقد بدأوا حركاتهم بتدمير دوائر الهجرة في مدن القدس وحيفا وتل أبيب، بقنابل مجهزة بالساعات في وقت واحد، كبراعة استهلال، كان لها آثار تدميرية عظيمة. ثم أخذوا يقومون بحركات متنوعة محكمة، منها أعمال تدميرية مثل هذه، ومنها اعتداءات على المخافر والمحطات والجسور والمطارات والمخازن والقطارات، كما كان منها اشتباكات مع البوليس، واغتيالات ضباط وأفراد انكليز الخ. ومن أحداث الثورة الكبرى تدمير فندق الملك داود الذي كان مقراً لدوائر رئيسية من دوائر الحكومة، وقتل وجرح أكثر من مئة موظف من موظفيها فيها. وقد حاولوا نسف كنيسة المطران في القدس، يوم أحد، حيث كان الموظفون الانكليز يذهبون للصلاة. وقد اكتشف القنبلة المدمرة قبل انفجارها. ونصبوا كميناً للمندوب السامي، وأطلقوا على سيارته الرشاشات، فأصيبت زوجته بجراح، وقتل حاجبه وسائق سيارته. واغتالوا اللورد موين الوزير البريطاني في الشرق الأوسط في مصر. ونسفوا جميع الجسور التي تربط فلسطين بسورية ولبنان وشرق الأردن ومصر، جواباً على نشاط الجامعة العربية في سبيل قضية فلسطين سنة ١٩٤٦، وتحدياً للأمة العربية

جميعها. وتمكنوا من نهب كميات كبيرة من سلاح السلطات ومتفجراتها، ومخزونات مخازنها المتنوعة. وخطفوا عدداً من ضباط الانكليز وقضاتهم وبوليسهم وجنودهم، وشنقوا بعضهم وجلدوا بعضهم. وهددوا بنقل نشاطهم إلى بريطانيا، واغتيال رجال الحكومة العسكريين والمدنيين، بل لقد خطوا خطوات وقاموا بمحاولات عديدة بسبيل ذلك.

ومع أن الانكليز في فلسطين ولندن تظاهروا بالسخط والغضب، وأخذوا ينذرون اليهود ويهددونهم. وكان مما يزيد في مرارتهم وسخطهم، أن يقوم اليهود بثورتهم أثناء انشغالهم في حرب مدمرة، وأن ينسوا كل ما فعلوه معهم من جميل داسوا في سبيله كل معاني الشرف والحق والعدل، فإن النتائج التي نتجت عن هذا السخط والغضب كانت تافهة، لا يمكن أن يعقد أي مقايسة بينها، وبين ما كان من الانكليز ضد العرب، أثناء ثورتهم، حيث كانوا يخسفون الأرض عليهم لأحداث أتفه مظهراً ومدى من الأحداث التي اقترفها اليهود. فاغتيال حاكم الناصرة مثلاً، جعلهم ينسفون المجلس الإسلامي، ويعزلون رئيسه، ويلغون اللجنة العربية العليا واللجان القومية، وينفون الزعماء إلى سيشل، ويعتقلون المئات من العلماء والزعماء ورجال الحركة، برغم أنه لم يكن لهم صلة مباشرة ولا غير مباشرة بالاغتيال. وكانت القرى والاحياء والمنازل، بل والمدن، تنسف، ومئات الرجال يساقون إلى المعتقلات، وآلاف الجنيهات تفرض غرامات، والقرى تحتل، والمخافر تنشأ على حساب أهل البلاد، والتفتيشات والمصادرات تقع مترافقة بأقسى ضروب الشدة والعنف والسلب والأذى وانتهاك الحرمات، بسبب وقوع حادث ما، في حين أن كل ما كان من الانكليز بسبب كمين المندوب السامي فرض خمسمأة جنيه على حي يهودي، ثبت أنه آوى عصابة الكمين، ثم أهمل استيفاؤها. ولم يحكم بالاعدام على الذين كانوا يعتقلون بالجرم المشهود، ويصادر منهم ومن مساكنهم كميات السلاح الكبيرة، والوثائق الخطيرة، التي تثبت مسئوليتهم عن القتل والتدمير، إلا بضعة أشخاص، مضافاً إليهم بضع عشرات حكموا بالسجن مع المعاملة الممتازة التي تضمن الرفاه، واعتقال بضع مدنيين.. ولم يكن ليخطر على بالهم حل منظماتهم وهيئاتهم ووكالتهم التي ثبت قيامها بأعمال التدمير بالوثائق الدامغة. ولقد كانت السلطات تقوم بأعمال المطاردة والتفتيش، فكانت تسير على غاية الحذر والرقة، وتحرص على أخذ شهادة من مخاتير المستعمرات، بأنه لم يرافق التفتيش شيء من العنف. ومع أنهم يعلمون أنه يوجد في كل مستعمرة، وفي كل حي يهودي مخزن سلاح، ومعسكر تدريب، وكان كل هذا معداً لقتل أبنائهم، وتدمير مرافقهم، فإنهم لم يجدّوا في ضبطها ومصادرتها. ومع أن الحكومة الانكليزية قد أصيبت في هيبتها، بما لم تصب به قط، ونالها من الاهانات ما لم ينلها قط، واستبيح دماء أبنائها، واغتيل وزراؤها، وكبار موظفيها، وشنق جندها، وخطف قضاتها، وجلد ضباطها، وهدد أمن جيوشها ومجهودها الحربي في أثناء اشتباكها في حرب طاحنه، فإنها لم تجعل للجيش يداً في قمع الثورة خلافاً لما كان منها مع الثورة العربية، وكانت قادرة على ذلك كل القدرة، على ما جاء في تقرير رفعه المندوب السامي، وأذيع في لندن في سنة ١٩٤٦، بأنه لو سمح بتدخل الجيش، لكان في الامكان قمع الثورة خلال أربع وعشرين ساعة... وهكذا رضيت بريطانيا (العظمى) باستمرار شرب هذه الكأس المرة والمحنة القاسية، والاهانات سنتين طويلتين، إلى حين نشر التقرير، ثم سنة ونصفاً بعده، تفادياً

من أن تظهر لليهود من الشدة ما يرعبهم ويفزعهم، ويفرغ أيديهم مما امتلأت به من سلاح وعتاد. وليس هذا فقط، بل ظلت مستمرة على محاباتهم في فلسطين، وتقويتهم صناعياً واقتصادياً واستعمارياً، والاغضاء عن ما اقترفوه من حيل ضد قوانين الأراضي، في حين كانت وظلت تجحف في حق العرب في كل ما يتصل بالاستيراد ورخص السلع وتوزيعها. وكل هذا، لأن وجود اليهود في فلسطين، وقوة مركزهم، متصلان بصميم مصلحة الانكليز الاستعمارية التي اعتادوا أن يجعلوها فوق أي اعتبار، ولا يجعلوا للعاطفة أي تأثير فيها.

ولقد حقق اليهود بثورتهم ما أرادوه من نسف سياسة الكتاب الأبيض سنة ١٩٤٦، حيث سارع الانكليز إلى نفض يدهم منه، وفتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية، حالما بدا لهم الاسباب الضاغطة التي كانت تحملهم على التظاهر بالحذر لتفادي اثارة العرب، قد زالت بانتهاء الحرب. واشترك في الجريمة، حتى بدا أنه المؤثر الأقوى فيها، ترومان رئيس الولايات المتحدة بتأثير حملات اليهود ودسائسهم ونفوذهم(٢٢).

نشاط العرب أثناء الحرب

- ٢ -

ولقد نشط العرب أيضاً في أثناء الحرب في سبيل قضاياهم، وخاصة قضية فلسطين. ولكن كل هذا النشاط أو جله كان وقائياً، ان صح التعبير، حيث كان نشاط اليهود العظيم في جميع الساحات وآثارة المتنوعة توحي بالخطر والخطورة، حيث كانوا كلما بدا من اليهود نشاط، أو كلما أدى نشاطهم إلى نتيجة ما، بدا عليهم القلق والاضطراب، وسارعوا إلى الاستنكار والاحتجاج. وكان يشترك في ذلك حكوماتهم وبرلماناتهم وهيئاتهم. وقد ألفوا في سورية ولبنان والعراق ومصر لجاناً، سموها لجان مكافحة الصهيونية، واندمج فيها رجال بارزون، أخذت هي الأخرى تقوم بالدعاية، وترسل المذكرات، وترفع الصوت بالاستنكار والاحتجاج. وعقد رؤساء بلديات فلسطين مؤتمراً، قرروا فيه المطالبة بالسير في المراحل الموعودة في الكتاب الأبيض. ولقد كانت قضية فلسطين، مما شغل جزءاً غير يسير في مشاورات الوحدة العربية، وفي نشاط الجامعة العربية التي انبثقت منها. من ذلك تقديم الحكومات العربية مذكرات إلى الحكومة البريطانية، تطالبها فيها بتنفيذ سياستها الموعودة في الكتاب الأبيض، المؤدية إلى قيام دولة فلسطينية موحدة. ومن ذلك اختصاص فلسطين في ميثاق الجامعة ببند خاص، نص على أن استقلالها من الناحية الدولية أمر لا شك فيه، أسوة ببلاد العرب التي كانت تابعة للدولة العثمانية ونالت استقلالها، وان ذلك يسوغ اشتراك ممثلين عنها في مجلس الجامعة ونشاطها. وكان يرافق هذا النشاط تصريحات قوية رنانة، من رجال العرب الرسميين، وساستهم، تثير التفاؤل والأمل. وشغلت قضية فلسطين حيزاً دعائياً غير يسير في المؤتمرات التي كان يعقدها المحامون والأطباء في العواصم العربية. وحينما أعلن العراق الحرب على المحور سنة ١٩٤٣، ذكرت الحكومة العراقية الحلفاء بوعودهم، وأبدت أملها في حل قضاياهم العادلة التي تأتي فلسطين في مقدمتها. وفعل مثل ذلك العاهل السعودي، حينما أعلن قطع علاقاته بدول المحور أيضاً. وكانت رحلة شرشل وروزفلت إلى الشرق العربي في سنة ١٩٤٥

وسيلة إلى اجتماعات خطيرة بينهما وبين ملكي مصر والسعودية ورئيس الجمهورية السورية. وكانت قضية فلسطين، ووجوب حلها حلا عادلاً، يتسق مع الوعود المقطوعة والحقوق العربية الشرعية، مما جرى فيه الأحاديث التي علقت عليها الصحف بما يثير الأمل والتفاؤل(٢٣).

غير أن هذا كله لم يكن ليؤدي إلى النتيجة الايجابية المأمولة في حل هذه القضية، لأن وزن العرب كان على ضخامته النظرية ضئيلاً. وكان نفوذ اليهود ونشاطهم المضاد يحبط مساعي العرب، فضلاً عمّا كان الاستعمار يعلقه من آمال على الوجود اليهودي القوي في فلسطين التي تتعارض مع أي حل تقوم به دولة واحدة بأكثرية عربية دائمة. ولقد كانت الحرب فرصة عظيمة للعرب لحل قضاياهم حلا عادلاً، لو كانوا، وكان رؤساؤهم أقوى بنية، وأقل أنانية، وأشد عزيمة، وأوسع ادراكاً، لما كانت تتمتع به بلاد العرب من مركز استراتيجي خطير، وما كانت تحويه من نفط وثروات ووسائل تموينية ضخمة.

ولقد ارتفعت أصوات رسمية وغير رسمية مطالبة بالوحدة العربية، وقدمت في ذلك مذكرات. وصدرت تصريحات من وزير خارجية بريطانيا، في سنة ١٩٤٣، مشجعة مؤيدة. وقامت المشاورات التي وصفت بصفة مشاورات الوحدة بين الحكومات العربية نتيجة لذلك. ولقد كان من الواجب والممكن أن ينتج عن ذلك كيان قوي متحد، يغدو العرب في ظله وحدة عسكرية واقتصادية وسياسية، لو أدرك رؤساء العرب وساستهم قيمة الفرصة الذهبية السانحة، ولم تعصف بهم الاعتبارات والاتجاهات الشخصية والمحلية الضيقة. ولكن هذه الاعتبارات أضاعت على العرب الفرصة الذهبية التي جاءتهم تجر أذيالها، وكان من أثر ضياعها ما كان من كارثة فلسطين التي أذلتهم جميعاً، أمام أذل أمم الأرض، وأفقدتهم كل معنى من معاني الكرامة والهيبة والحساب، وجعلتهم سخرية الساخرين.

٥ ـ بعد انتهاء الحرب والتقسيم للمرة الثانية

ـ ١ ـ

ولقد ضاعف اليهود نشاطهم، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، في سبيل فتح باب فلسطين للهجرة، وانشاء دولتهم فيها. وبينما استمرت ثورتهم المزعجة لتكون ذريعة للانكليز، كانت مساعيهم في الأوساط الدولية، وخاصة الأميركية والانكليزية، عظيمة. ولقد استطاعوا أن يجعلوا رئيس الولايات المتحدة ترومان يتحمس لقضيتهم أشد حماس وأرعنه، ويصدر التصريحات القوية في صدد الهجرة الواسعة إلى فلسطين، ويضغط على بريطانيا ضغطاً شديداً ومزعجاً بسبيل ذلك، مخالفاً لكل عرف وذوق دولي. وقد استجابت بريطانية لضغطه، وقررت تشكيل لجنة تحقيق انكليزية أميركية تبرر بها نكوصها ونكثها. وأهاج الموقف العرب فاستنكروا واحتجوا، وعقد ملوكهم في مايس ١٩٤٦ مؤتمراً في انشاص، كان لقضية فلسطين نصيب وافر من اهتمامه وتوجيهه، حيث قرروا وأعلنوا أنها ليست قضية عرب فلسطين وحدهم، وأن على دول العرب وشعوبها واجب صيانة عروبتها، وأن فتح باب الهجرة يعتبر نقضاً لما ارتبط به الشرف البريطاني.

واجتمع مجلس الجامعة في بلودان في حزيران ١٩٤٦ اجتماعاً خطيراً، قرر فيها قرر استنكار فتح باب الهجرة، واستنكار ما بدا من الولايات المتحدة ورئيسها من ضغط والحاح، وطلب المفاوضة مع الانكليز لانهاء الحالة الراهنة في فلسطين، وعرض قضيتها على هيئة الأمم، إذا لم تنته المفاوضة إلى حل مرض، واتخاذ الأسباب والوسائل الكفيلة بالدفاع عن فلسطين وصيانة عروبتها، ومقاطعة الدول التي تصر على محاباة اليهود ومماشاتهم في مطامعهم.

ولم تعبأ بريطانية والولايات المتحدة، واستمرتا في خطتهما، وأرسلتا لجنة التحقيق التي وصت بفتح باب الهجرة إلى فلسطين، وتهجير المئة ألف يهودي الموجودين في معسكرات أوروبا، ونزلت بريطانية على رأيها، ووافقت على هذه الهجرة، ناكثة عهدها الذي قطعته في الكتاب الأبيض. بل وطالبت العرب بالموافقة على ذلك رحمة بالإنسانية المعذبة، وتمشياً مع خلق الكرم الذي اتصفوا به.. ثم دعتهم إلى مؤتمر للنظر في القضية من جديد استجابة لطلبهم(٢٤).

- ٢ -

وقد انعقد المؤتمر فعلاً في أيلول عام ١٩٤٦، وشهده ممثلون عن جميع الدول العربية هذه المرة، وممثلون عن فلسطين. وقدمت الحكومة الانكليزية مشروعاً لحل قضية فلسطين، قائماً على تقسيم فلسطين إلى مناطق يهودية وأخرى عربية، حيث يتكثف كل من العرب واليهود وقيام حكومتين واحدة عربية وأخرى يهودية لادارة شؤون المناطق الداخلية والمحلية، وقيام حكومة مركزية مختلفة تمثل اتحاداً للحكومتين، وتختص بشؤون الدفاع والعلاقات الخارجية والجمارك والهجرة، على أن تكون الهجرة إلى المناطق اليهودية منوطة بالاستيعاب الاقتصادي، وإلى المناطق العربية منوطة بموافقة العرب. فكان هذا المشروع تدشيناً ثانياً لنسف الكتاب الأبيض. وقد رفض العرب المشروع، وقدموا بديلاً منه مشروعاً يقوم على أساس اعلان استقلال فلسطين دولة موحدة، يحتفظ العرب فيها بأكثرية الثلثين، مع ترك أمر الهجرة لحكومة هذه الدولة ووقفها فوراً(٢٥).

وطلب الانكليز فرصة للدراسة، فتأجل المؤتمر. وفي هذه الفترة اجتمع مجلس الجامعة العربية في تشرين الأول ١٩٤٦، فقرر الاحتجاج على الحكومة الانكليزية، على سماحها باستمرار الهجرة، وتغاضيها عن الهجرة غير القانونية، وعن الثورة اليهودية وعدم الجد في قمعها، وعلى الحكومة الأميركية لموقفها العدائي للعرب، ومحاباتها المشجعة السافرة لليهود، ورفض كل مشروع يرمي إلى تقسيم فلسطين، واحداث أي تعديل في كيانها. وكان هذا الرفض بصيغة قوية حاسمة حيث جاء فيها: ان مجلس الجامعة يؤكد من جديد عزم دولها على مواصلة الدفاع عن حقوق عرب فلسطين، حتى يرجع الحق إلى نصابه، وأنه لن يلين ولن ينثني عن عزمه على رفض أي مشروع من شأنه أن يؤدي إلى تقسيم فلسطين، وتأسيس رأس جسر صهيوني فيها، كما أنه لن يدخر وسعاً في القيام بكل ما تتطلبه الظروف والأحوال للاحتفاظ بصبغة فلسطين العربية، وباعتبارها جزءاً حيوياً من الوطن العربي الأكبر. وقد قرر فيها قرره توصية الحكومات العربية بمساعدة عرب فلسطين على اعداد أنفسهم للكفاح، وتخصيص مبالغ كافية لذلك في موازناتها(٢٦).

واستأنف مؤتمر لندن جلساته في آخر كانون الثاني ١٩٤٧، فأعلنت الحكومة الانكليزية عدم

إمكان قبول المشروع العربي ـ مع أنه قام على مبادىء الكتاب الأبيض ـ وكررت عرض مشروع قائم على التقسيم فيه بعض التعديلات، فأصر العرب على الرفض. وحينئذ أعلن وزير الخارجية الذي كان يرأس المؤتمر انتهاء المؤتمر، وعزم حكومته على رفع الأمر إلى هيئة الأمم.

٦ ـ التقسيم للمرة الثالثة في هيئة الأمم

ـ ١ ـ

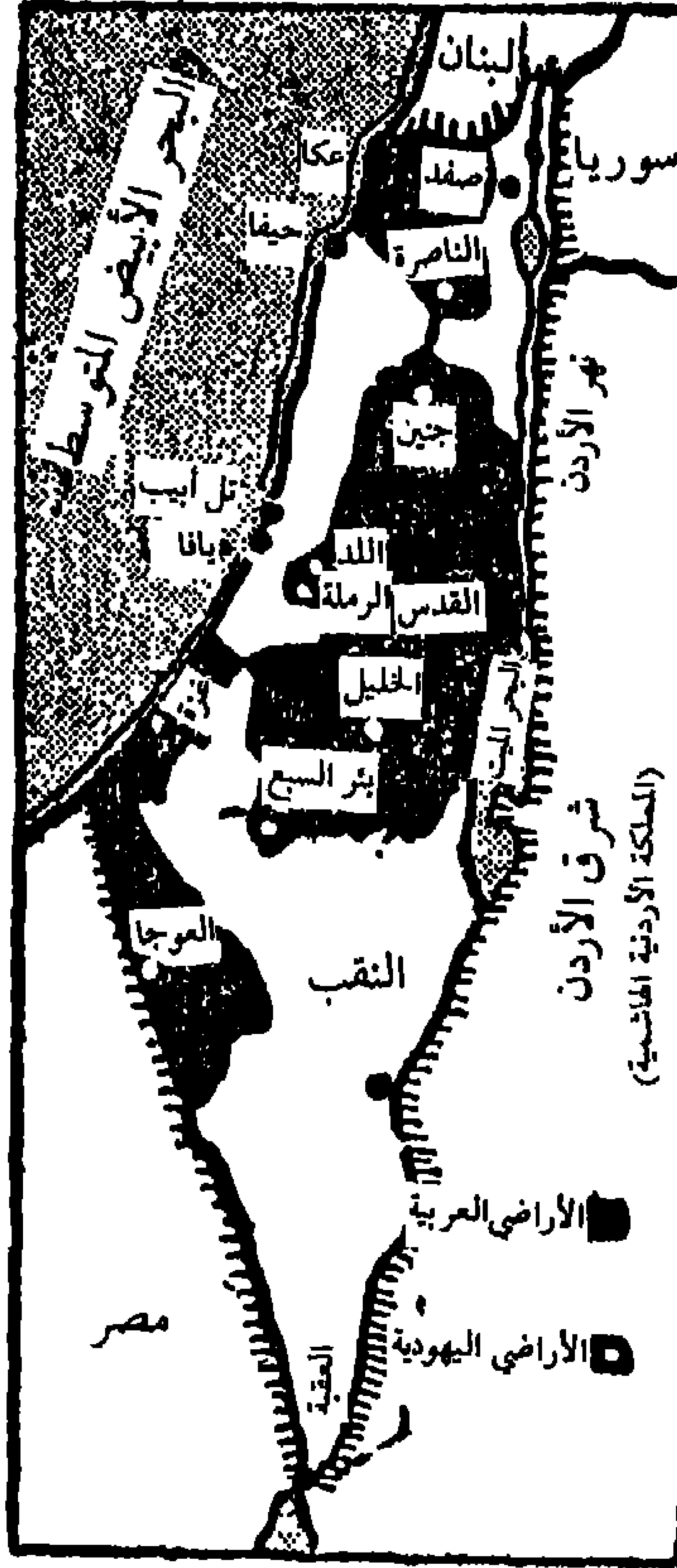
وفي أول نيسان ١٩٤٧ أرسلت الحكومة الانكليزية مذكرة للأمين العام لهيئة الأمم، بطلب عرض القضية في دورة خاصة. فدعا هذا الدول الأعضاء إلى اجتماع غير عادي. وانعقد في ٢٨ نيسان ١٩٤٧، وطالب العرب بإعلان استقلال فلسطين، وانهاء الانتداب، فرفض الطلب، وتقرر انتخاب لجنة للتثبت من الحقائق. وجاءت هذه اللجنة إلى البلاد العربية، واستمعت إلى ممثلي العرب واليهود. وقد رفض العرب أي نوع من التقسيم رفضاً باتاً، وطالبوا باستقلال فلسطين، وأنذروا باضطراب الأمن، إذا تقرر غير ذلك.

وعادت اللجنة فقدمت تقريرها. وقد انقسم الأعضاء إلى فريقين، فريق ذهب إلى تقسيم فلسطين، إلى دولتين: عربية ويهودية، مع قيام اتحاد اقتصادي بينهما. وفريق ذهب إلى قيام حكومتين عربية ويهودية في مناطق الكثافة، وحكومة مركزية مختلطة تمثل الاتحاد بينهما، تختص بشؤون الدفاع والخارجية والمصالح الاقتصادية المشتركة،مع حصر الهجرة اليهودية بالمنطقة اليهودية، في نطاق استيعابها الاقتصادي. ومشروع الفريق الثاني الذي كان يمثل الاقلية شبيه لمشروع الحكومة الانكليزية في مؤتمر لندن الذي رفضه العرب. وقد اشتملت الدولة اليهودية في مشروع الفريق الأول،الذي كان يمثل الأكثرية: الجليل الشرقي ومرج ابن عامر، والقسم الأكبر من السهول الساحلية، ومعظم صحراء النقب، ومساحة ذلك كله هي ١٤٢٠٠ كيلومتر مربع، من أصل ٢٧٠٠٠ كيلومتر مجموع مساحة فلسطين. وعدد اليهود في هذه المساحة ٥٣٠ ألف، وعدد العرب ٤٦٠ ألف، والأراضي الزراعية العربية فيها تبلغ ثلاثة أضعاف ما لليهود من ذلك! واشتملت الدولة العربية على الجليل الغربي، ومناطق نابلس والقدس وغزة والخليل. وعدد سكان هذه المساحة ٦٥٠ ألف عربي و ١١٠٠٠ يهودي، وليس فيها لليهود إلا نحو مئة ألف دونم أرض زراعية.

وقد اقترحت اللجنة ـ بفرعيها ـ أن تكون منطقة القدس دولية. وتشتمل على مئة ألف يهودي ومئة وخمسين ألف عربي.

وثارت ثائرة العرب من التقرير، سواء منه ما كان من رأي الأكثرية أم الأقلية، لأن كليهما مجحف براهن العرب وحقوقهم الشرعية، وقائم على التقسيم الذي صمموا على رفضه تصميماً باتاً. وأعلنت الحكومات العربية رفضه، وأخذت الأصوات ترتفع بالدعوة إلى المقاومة المسلحة لها. واجتمعت اللجنة السياسية للجامعة العربية، ثم مجلس الجامعة، فقرروا رفض التقرير،

وطلبوا من جميع العرب الاستعداد لمقاومته بالقوة، وقرروا تسليح أهل فلسطين ليكونوا طليعة المقاومة، وحشد قوات من جيوش الحكومات العربية على حدود فلسطين لحماية سكانها من فتك اليهود الذين كان تفوقهم في الاستعداد والسلاح مؤكداً عند العرب جميعهم، وانشاء قيادة عسكرية ولجنة فنية، وإقامة معسكر تدريب في دمشق، وتشكيل جيش باسم جيش الانقاذ، بقيادة فوزي القاوقجي للزحف على فلسطين.



مشروع التقسيم حسب قرار الأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧

المناطق البيضاء خصصت لليهود والمناطق السوداء خصصت للعرب

ولما باشرت هيئة الأمم النظر في قضية فلسطين، وتقرير اللجنة، بذل ممثلو العرب جهودهم في اسماع صوت الحق والمنطق وتغليبه، وبذل اليهود وأولياؤهم، وخاصة الولايات المتحدة الأميركية، ورئيسها ترومان، جهودهم لدوس الحق والمنطق. وتمكنت هذه الجهة بوسائل الارهاب والاغراء والتضليل، من الحصول على موافقة الثلثين على التقسيم، وتدويل القدس في ٢٩ تشرين الثاني لعام ١٩٤٧، وتعيين لجنة دولية للاشراف على تنفيذ القرار. وكان موقف بريطانية مليئاً بالنفاق والمراوغة والمكر. فقد امتنعت عن التصويت، ولكن كل من كان يدور في فلكها من دول

الكومونولث وغيرها، صوتوا مع التقسيم. وقالت قبل التصويت، انها لا تقبل أي قرار لا يرضى به العرب واليهود، ثم نكثت قولها بعد القرار، وأعلنت استعدادها لاحترامه والمساعدة على تنفيذه[٢٧]!

٧ ـ بعد التقسيم

ـ ١ ـ

اكتسحت بلاد العرب غداة يوم التقسيم موجة من السخط والغيظ. وأعلن عرب فلسطين اضراب ثلاثة أيام، كانت مظاهراتهم فيها صاخبة، وصرخاتهم داوية، وشاركتهم البلاد العربية في هذه وتلك. وهاجم المتظاهرون في دمشق المفوضية الأميركية، ومكتب أصدقاء الاتحاد السوفيتي. لأن قضية تقسيم فلسطين كانت المعجزة التي جمعت بين الدولتين الكبريين المتنافرتين. اما بتأثير اليهود، واما بقصد اثارة الاضطرابات الدائمة في الشرق العربي. وأخذ الناس في فلسطين والبلاد العربية يتداعون إلى الجهاد لمقاومة التقسيم. ولم توارب الحكومات العربية في موقفها، بل تظاهرت مع الشعب، فيما أبداه من سخط وغضب، ودعا إليه من عمل حاسم. بل وكان بعض رؤساء الدول والحكومات يخطبون في المتظاهرين خطباً قوية، تنم عن ما داخلهم هم الآخرون من ألم وغيظ، ويعلنون تضامنهم مع الشعب في وجوب حفظ عروبة فلسطين ووحدتها، مهما كلف الأمر. وكانت أدوى الأصوات أصوات سورية والعراق، ورئيسي حكومتيهما، مع التنبيه أن معظم الحكومات لم تنفذ ما قرره مجلس الجامعة من المساعدات الكافية لأهل فلسطين على التسلح والاستعداد، تنفيذاً تاماً، أو قريباً من التمام. كما أن أياً منها لم تنفذ قرارات المجلس ضد امتيازات ومصالح الدول التي أسفرت عن وجهها الغادر، وأصرت على الوقوف موقف العداء والمحاباة ضد العرب وقضيتهم، رغم اثارة ذلك في اجتماعات اللجنة السياسية.

ولم تلبث الاصطدامات أن أخذت تقع بين العرب واليهود في المناطق المختلطة، مثل يافا وحيفا والقدس، وعلى الطريق المشتركة كذلك. ثم أخذ نطاقها يتسع، بما كان يصل إلى العرب من بعض الوسائل، وينضم إليهم من مجاهدين وقواد كانوا خارج فلسطين. ولم يكد يمر على صدور القرار شهر، حتى غدت فلسطين بركاناً يقذف بالحمم، وكادت الحالة تتصف بصفة المذابح بين العرب واليهود، بحيث كان كل يوم يقع عشرات القتلى والجرحى في المدن والطرق، فضلاً عن النسفيات والتدميرات المتقابلة. وأخذت الفلسطينيين حمى التسلح للقتال، والدفاع، فصاروا يملأون أنحاء سورية ولبنان والأردن، ويصلون إلى مصر والعراق وتركية وليبية بسبيل ذلك، لأن معظم ما كان في أيديهم من سلاح صادرته السلطات الانكليزية في أثناء الحرب، واشتدت الهمم في التدريب والاعداد والتجهيز وتدارك الوسائل. وكانت سورية أشد البلاد العربية نشاطاً واضطراماً واهتماماً ومساعدة. . . . ودارت حركة صراع قوية رهيبة، طيلة الأشهر الخمسة التي تلت القرار، قوامها مجاهدو فلسطين وقوادهم، ومتطوعو العرب المصريين والسوريين واللبنانيين والأردنيين والعراقيين، وأفواج جيش الانقاذ التي كان نصف أفرادها فلسطينيين أيضاً. وقد بدا

منهم، وخاصة من أهل الدار، من الاستماتة والبسالة والاقدام والتضحية والجلد، ما يملأ النفس زهواً واكباراً.

وبالرغم مما أخذ يبدو من وفرة السلاح وجدته، وبراعة القيادة، والفن ويسر الوسائل الآلية والاسعافية عند اليهود، وما كان عليه العرب من ضيق وضعف في كل ذلك، فقد استطاع العرب أن يحتفظوا بموقف المبادرة، وأن يشعروا اليهود بشدة الوطأة، وأن يثيروا قلقهم ورعبهم في فلسطين وخارجها في الأيام المئة الأولى. وقد تفوق اليهود في البدء بأعمال النسف، فلم يلبث العرب أن كالوا لهم بكيلهم. وتفوق العرب عليهم في معارك الطريق، واحتفظوا بتفوقهم، وأحرزوا في هذه المعارك انتصارات باهرة، وخاصة طريق القدس ـ يافا، حيث قاسى يهود القدس من جرائها بأس الجوع والظمأ الشديد، وتكبدت الحركة اليهودية فيها خسائر فادحة في السيارات والمصفحات والحراس. كما سجلوا انتصارات باهرة في مناطق عديدة أخرى، وخاصة في مستعمرات الخليل ويافا والقدس، والجأوا بانتصاراتهم وصولاتهم كثيراً من سكان المستعمرات إلى التخلي عن منازلهم، واللجوء إلى المدن، حتى صارت الصحف تذكر أن التقسيم قد قُضي عليه، وتنصح اليهود بمحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه. وبدا من بعض اليهود وأوساطهم جنوح إلى التسليم، وقبول التعايش مع العرب، واعتقاد بأن مستقبلهم ومستقبل فلسطين منوطـان بذلـك، بحيث إذا لـم يفعلوا، أضاعوا كل ما جنوه. بل وسرى التشاؤم إلى زعمائهم، حيث صاروا يقولون ان معركتهم خاسرة، إذا لم يتيسر لهم فرقتان كاملتان في معداتهما تنزلان إلى الميدان خلال ثلاثة أشهر، ويبذلون جهوداً جبارة في تدارك النقص وضمان الصمود، مما كان له أثر خطير في هيئة الأمم. وكان للقضية العربية نصر باهر فيه.

ولقـد قدمت الـوكالـة اليهوديـة في شباط ١٩٤٨ إلى مجلس الأمن مـذكرة، شكت فيهـا الحكومات العربية، واتهمتها بالتآمر على الغاء التقسيم، وطلبت اتخاذ التدابير اللازمـة لتنفيذه بالقوة. ثم عززتها بمذكرة ثانية في مارس في ظرف دخول القاوقجي، وقالت في هذه المذكرة ان الدول العربية قد اشتد موقفها، نتيجة الشك المتزايد في إمكان تنفيذ التقسيم، وطلبت تطبيق ميثاق هيئة الأمم عليها، لأنها تعمد إلى التهديد والقوة في علاقاتها الدولية. وكانت تقارير لجنة التقسيم تصل إلى هذا المجلس، وتذكر فيها أنها لم تستطع أن تفعل شيئاً بسبب الاضطراب الذي تغلي مراجله، كما كانت صرخات يهود القدس تدوي في أرجاء الدنيا من الجوع والظمأ بسبب الحصار العربي. فانعقد المجلس في أواسط شباط ١٩٤٨، واطلع على مذكرات الوكالة، وتقارير لجنـة اليهود، وأخذ يوالي جلساته. وقد استمع إلى رئيس لجنة التقسيم الذي قرر أن من العبث القيام بعمل مجد وسط العنف والفوضى القائمة، وأنه ليس من سبيل إلا أحد طريقين: اما إرسال جيش دولي لتنفيذ التقسيم بالقوة، واما الضرب به عرض الحائط. ولقد خطب مندوب الولايات المتحدة خطبة مسهبة، أبدى فيها حزنه من التنافر الذي يلطخ أديم الأرض المقدسة بالدم، وطلب العمل على اتخاذ كل تدبير ممكن لمنع ذلك أو تخفيفه، وخطب فارس الخوري خطاباً رائعاً، فند فيه قرار التقسيم، وفضح ما عمد إليه أنصار اليهود ـ ويعني الـولايات المتحـدة ورئيسها تـرومان ـ من تصرفات غير شريفة للحصول على الأكثرية له، وأكد استحالة تنفيذه ومخالفته لميثاق الهيئة، وحق

العرب الطبيعي في مقاومته، لما يترتب على قيام دولة يهودية في قلب بلاد العرب من أخطار عاجلة وآجلة عليهم جميعاً. وكان من بوادر النصر في معركة المجلس هذه، أن أعلن مندوب كندا معارضة حكومته للتقسيم وتنفيذه بالقوة، وطالب بحل للمشكلة على أساس التفاهم بين العرب واليهود، وان اقترح مندوب بلجيكا أن تتشاور الدول الخمس الكبرى في حل للمشكلة بدون ارتباط بقرار التقسيم، وكلتا الدولتين ممن صوت على التقسيم - وان وافق المجلس على اقتراح المندوب البلجيكي، وقرر أن تتشاور الدول الخمس في وسيلة غير القوة والارغام، وان أخذت تبدي الولايات المتحدة ميلاً إلى إعادة النظر في القضية من أساسها، واجراء مشاورات مع العرب واليهود على غير أساس التقسيم، ثم تم النصر في ١٩ مارس ١٩٤٨ بإعلان المندوب الأميركي سحب حكومته لتأييد التقسيم، لأنها اقتنعت أنه لا يمكن تنفيذه إلا بالقوة، في حين أنها لن توافق على ذلك في حال، واقترح وضع فلسطين تحت الوصاية، وإعادة القضية إلى هيئة الأمم للنظر فيها ثانية، على هذا الأساس، ودعوة العرب واليهود إلى عقد هدنة سياسية وعسكرية انتظاراً للنتيجة، فوافق المجلس على ذلك.

وهكذا حقق الكفاح العربي الشعبي غايته، وكان من الممكن أن يستمر الموقف في تطوره، إلى أن يموت التقسيم نهائياً، لولم ينقلب ميزان القوة بين العرب واليهود لصالح اليهود، بسبب تقصير معظم الحكومات العربية في مد المجاهدين بالسلاح والعتاد، وبسبب مساعدة الانكليز لليهود مساعدات عظيمة ايجابية وسلبية(٢٨). ولقد استمر اليهود من جهة على جهودهم الجبارة في جلب السلاح والعتاد والضباط والقواد والمدربين، وأتاح الانكليز لهم فرصاً ذهبية، حيث قرروا وقف الادارة المدنية وتصفيتها اعتباراً من أول مارس، وبدلوا صفة المندوب السامي فجعلوه حاكماً عسكرياً، وأخذوا ينسحبون من تل أبيب والمناطق اليهودية، ويتركون ادارتها لليهود، فهيئوا بذلك المجال للوكالة اليهودية التي كانت منظمة على نمط مصالح حكومية لملء الفراغ وانقلابها فعلاً إلى حكومة يهودية، ووضع يدها على المرافق العامة، وجباية الضرائب، والاستيلاء على المطارات العديدة في تل أبيب والمستعمرات، وعلى ميناء تل أبيب، ويسروا لها بذلك أسباب جلب المدربين من الشباب الذين كانوا يعدون في معسكرات خاصة في أوروبا، وجلب مختلف أنواع السلاح ووسائل التدمير والقواد والضباط جواً وبحراً. وأعطوهم باسم مخلفات حربية، وبطريق البيع الصوري ما قيمته خمسة ملايين جنيه، فيها عدد غير قليل من الطيارات والمصفحات والدبابات والمدافع والعتاد والأجهزة المتنوعة.

هذا في حين أنهم ظلوا محتلين للمناطق العربية، وقابضين على زمام الادارة فيها، وكانوا لا يألون جهداً في عرقلة التسرب العربي والتموين العربي من خارج فلسطين، وانذارهم باتخاذ كل التدابير لمنع دخول قوات عربية مسلحة إلى فلسطين. وهذا بالاضافة إلى ما كان من تصرفات عجيبة لهم خلال النضال، حيث كانوا يبادرون إلى انقاذ اليهود من كل ما يقعون فيه من مأزق أو حصار، وحيث كانوا يشددون الوطأة على العرب، بالاعتقال واطلاق النار والتجريد من السلاح، ونسف المنازل الخ.. في حين لم يكونوا يعبأون بما يقع أحياناً من اليهود ضد العرب والعزل، مما كانت تمتلىء أعمدة الصحف بذكر وقائعه بالأرقام والأسماء والتواريخ، ومما كان موضوع مئات

الشكاوى. فساعد كل هذا على انقلاب ميزان القوى لصالح اليهود الذين أخذوا يتفوقون على العرب في مختلف الوسائل، ويتمكنون من أخذ زمام المبادرة منهم، منذ أواخر شهر مارس. وكان من أهم ما ساعد على هذا أيضاً شح السلاح والعتاد والوسائل المتنوعة في أيدي المجاهدين. ولقد بذلت القيادة العسكرية جهدها في افهام الحكومات خطورة الموقف. وحملها على الجد والاهتمام في مدهم بما ينقصهم، وقام بحملات ورحلات عديدة وقدم استقالته مرة بعد مرة. وكذلك بذل زعماء فلسطين جهودهم، ومنهم من تنقل في العواصم العربية، لشرح خطورة الموقف، وما يترتب على تفوق اليهود من عواقب خيمة، وطير كثير منهم برقيات استغاثة شديدة وعديدة بسبيل ذلك، فلم يسفر كل هذا عن شيء مثمر، بحيث تبدو فداحة التقصير في الموقف العصيب حتى ليصح أن يسمى اجراماً وخيانة(٢٩). وبحيث يمكن أن يقال أن السلطات الانكليزية لو لم تقف تلك المواقف التي وقفتها، وأتاحت لليهود فيها الفرص العظيمة، ولو لم تعاكس العرب معاكسات شديدة عن قصد وتدبر، ثم لو لم تقصر الحكومات العربية ذلك التقصير، لما أمكن لليهود أن يقووا ويتفوقوا ويأخذوا زمام المبادرة، ولما تيسر لهم أن يستولوا على ما استولوا عليه، ويشردوا العرب شر تشريد، ولظل زمام المبادرة في يد العرب، ولأمكن الاحتفاظ بكثير من المواقع التي استولى عليها اليهود إلى ١٥ مايس، ولكان التطور العظيم الذي حدث في الأوساط الدولية ازاء التقسيم قد أثمر ثمرته المنشودة.

وهذا أهم عامل من عوامل المأساة في ظرف التقسيم الثالث، فيما نعتقد.

ولقد أقدم اليهود في العاشر من نيسان على مداهمة قرية دير ياسين، وفتكوا بنحو مئتين وخمسين من أهلها، دون تفريق بين ذكر وانثى، وشيخ وطفل، ومثلوا فيهم ببقر البطون، وتقطيع الأيدي والأرجل والاثداء، وفقأ العيون، وجدع الأنوف، وصلم الآذان، وتحطيم الجماجم، على مرأى من السلطات الانكليزية وسمعها، حيث كانت القرية على مرمى البصر في ضواحي القدس، ولم تكن ميدان معركة وموقع اشتباك. ومع أن الحكومة البريطانية أعلنت أنها ستظل مسؤولة عن الأمن والنظام في فلسطين إلى ١٥ مايس، فإن سلطاتها لم تفعل شيئاً في سبيل حماية العزل من العرب في القرى والمدن. ولقد طلب سكرتير الهيئة العربية العليا الذي كان في فلسطين ارسال قوة إلى القرية، فرفضت، بل ورفضت حراسة بعض العرب الذين أرادوا أن يذهبوا إلى القرية لجمع الجثث ودفنها، بينما كانت ترسل القوات الكثيرة إلى المستعمرات النائية والأماكن التي كان يحدق فيها العرب باليهود وقوافلهم لنجدتهم وانقاذهم، بحيث يمكن أن يعدوا ذوي ضلع بشكل ما في هذه الجريمة، وما هدفت إليه من اثارة الذعر والرعب في قلوب العرب، وما أدت إليه من موجة النزوح الأولى عن فلسطين إلى البلاد المجاورة. ولقد استشرى لؤم اليهود وروحهم الشريرة، فطبقوا العملية على قرية ناصر الدين قرب طبريا إتماماً لتحقيق القصد الرهيب، دون أن تحرك السلطات ساكناً في سبيل حمايتها، مما أثار الذعر في الشمال، كما أثارته جريمة دير ياسين في الجنوب، وجعلت أهل هذا القسم يجفلون وينزحون في موجات متوالية(٣٠).

وكان كلما اقترب يوم ١٥ مايس الذي جعلته بريطانيا موعداً لإنهاء انتدابها المشؤوم، ظهر اليهود بقوة أكثر من حيث الكمية والنوع وقد استغلوا ما أثاروه في قلوب العرب من رعب، وهيأته

لهم السلطات الانكليزية من فرص ذهبية، فأخذوا يشددون ضغطهم في طبريا وحيفا وصفد، وهي مدن مشتركة. ومع أن المجاهدين استماتوا في سبيل الصمود، أمام الضغط، ولم يبالوا بكثرة ما يذهب منهم من الضحايا، وكانوا أحياناً ينتصرون انتصارات رائعة، فإن شح السلاح والعتاد نوعاً وكمية، مما كان يفتّ في أعضادهم ويضعف معنوياتهم وأملهم، فضلاً عن فقدان أي تكافؤ بينهم وبين اليهود في نيسان، خاصة في السلاح والعتاد والضباط والجنود والوسائل المتنوعة، مما جعل العرب في فلسطين وخارجها يشعرون بالحرج الشديد، ويلمسون الخطر الأكيد، فترتفع الأصوات بوجوب تدخل الجيوش العربية لانقاذ الموقف المتدهور، بما أمكن من السرعة.

ولقد اختمرت فكرة التدخل، ثم تقررت في الجامعة العربية في ١٢ نيسان ١٩٤٨، فسارعت الحكومة البريطانية إلى الاعلان بأن أي تدخل عسكري قبل ١٥ مايس يعدّ اعتداء عليها، تقابله بالقوة، وأنها ستظل مسؤولة عن فلسطين وأمنها إلى ذلك الوقت، مع أن سلطاتها لم تقم بهذا الواجب، ولم تعمل على حماية أهل طبريا وسمخ وبيسان ويافا، وما تبعها من مئات القرى التي اشتد ضغط اليهود عليها، بعد أن أعاقت التدخل السريع الذي كان يهدف إلى هذه الحماية، بل انها على العكس، مكنت اليهود من انجاز ما ينبغي انجازه قبل ١٥ مايس، حيث أخذت تنسحب من المدن المختلطة، أو بالأحرى من الاحياء العربية فيها، وتخلي لليهود المجال، وتحرض العرب على التسليم والجلاء، وتمنع دخول امداد عربي، بحجة أن ذلك مما يؤدي إلى اتساع نطاق المذابح، كما فعلت في طبريا وحيفا، حيث كان موقفها فيها موقف الخداع الوقح السافر. وهكذا أخذت هذه المدن واحدة بعد أخرى تسقط منذ الأسبوع الثالث من نيسان إلى الأسبوع الثاني من مايس، وتسقط معها جبهة المنطقة الساحلية الغربية، ومعظم جبهة الجليلين الشرقي والغربي في أيدي اليهود، وتحت سيطرتهم. واستحوذ الذعر على العرب فيها وفي غيرها. فأخذ سيل نازحيهم يتدفق على لبنان وسورية ومصر، في حالة تفتت الأكباد، مخلفين وراءهم كل ما يملكون من مال ومتاع وسلع وأثاث وملك، بحيث لم يأت ١٥ مايس حتى كان معظم الساحة العامرة المخصصة لليهود في التقسيم، وساحة كبيرة أخرى معها، مثل يافا، وجزء كبير من الجليل الغربي، وجزء كبير كذلك من قرى القدس واللد والرملة، مما هو مخصص في قرار التقسيم للعرب، قد دخلت تحت تلك السيطرة.

وهكذا يَسّر الانكليز قيام الدولة اليهودية قبل مغادرتهم لفلسطين، وحققوا السياسة التي انتهجوها للكيد للحركة العربية وعرقلتها، وقطع عقدة الصلة بين البلاد العربية، وضمان بقائها تحت هيمنتهم الاستعمارية. فلا غرو أن يسارع اليهود في الدقيقة الأولى بعد انتهاء الانتداب الانكليزي رسمياً، إلى إعلان دولتهم، لأنها كانت قائمة فعلاً.

وبرغم كل ما جرى، فإن مجلس الأمن، والى جلساته للنظر في قضية فلسطين، وثبت له أنه لا يمكن تنفيذ التقسيم إلا بالقوة. ولم ير أمكاناً لذلك، فقرر اعادة القضية إلى الجمعية العامة، لاعادة النظر فيها على ضوء التطورات، ودعوة العرب واليهود إلى عقد هدنة موقتة بينهما. ودعيت الجمعية العمومية إلى دورة استثنائية، وأخذت منذ ١٦ نيسان ١٩٤٨ توالي جلساتها إلى تاريخ ١٣

مايس، دون أن تصل إلى شيء حاسم، فاقترحت الولايات المتحدة المسارعة إلى تعيين وسيط مفوض من هيئة الأمم، تشمل مهمته جميع فلسطين، بسبب عزم الحكومة البريطانية على التخلي عن الانتداب، وضرورة ملء الفراغ بعد ١٥ مايس على أن تكون مهمته: (١) بذل مساعيه لدى السلطات المحلية والطوائف في فلسطين، لتنظيم سير المصالح المشتركة الضرورية لسلامة وخير شعب فلسطين، وتأمين حماية الأمكنة المقدسة والأبنية والطقوس الدينية. (٢) التعاون مع لجنة الهدنة التي ألفها المجلس - والتي لم تستطيع القيام بمهمتها أو اتمامها - . (٣) ادارة ومساعدة وتنسيق المنظمات الاختصاصية التابعة للأمم المتحدة بالشكل الذي يراه مناسباً، ولتأمين سعادة سكان فلسطين، كالمنظمة العالمية للصحة، والصليب الأحمر، وغيرها مما له صبغة انسانية. وقد تضمن الاقتراح الأميركي وقف لجنة التقسيم عن ممارسة صلاحيتها، فوافقت الجمعية على الاقتراح، لأنه لم يكن بقي على نهاية الانتداب الا ساعات معدودات، ولم يكن أمكان زمني لعمل شيء آخر. وعين الكونت برنادوت لهذا المنصب. وقد كان في كل ذلك نصر عظيم للقضية العربية، يعد بمثابة نقض لقرار التقسيم، سواء في ما تضمنه من الغاء لجنة التقسيم، أم في مهمة الوسيط الشاملة لكل فلسطين وغير المقيدة بقرار التقسيم.

وهكذا حققت العزيمة العربية غايتها، مهما تخلل المدة التي مرت بين قرار التقسيم و ١٥ مايس من نقص واخطاء، واسترد العرب المبادرة التي كانت تنطوي في قرار الحكومات بتسيير جيوشها في هذا التاريخ، ليتمموا عملهم، ويصلوا به إلى النتيجة المنشودة، المتسقة مع الميثاق



فلسطين: عند انتهاء الانتداب البريطاني ودخول الجيوش العربية اليها يوم ١٥ مايوم ١٩٤٨.

اللون الأبيض يبين المناطق التي كانت في حوزة اليهود حتى يوم ١٥ أيار/ مايو واللون الأسود يبين المناطق التي كانت في حوزة العرب

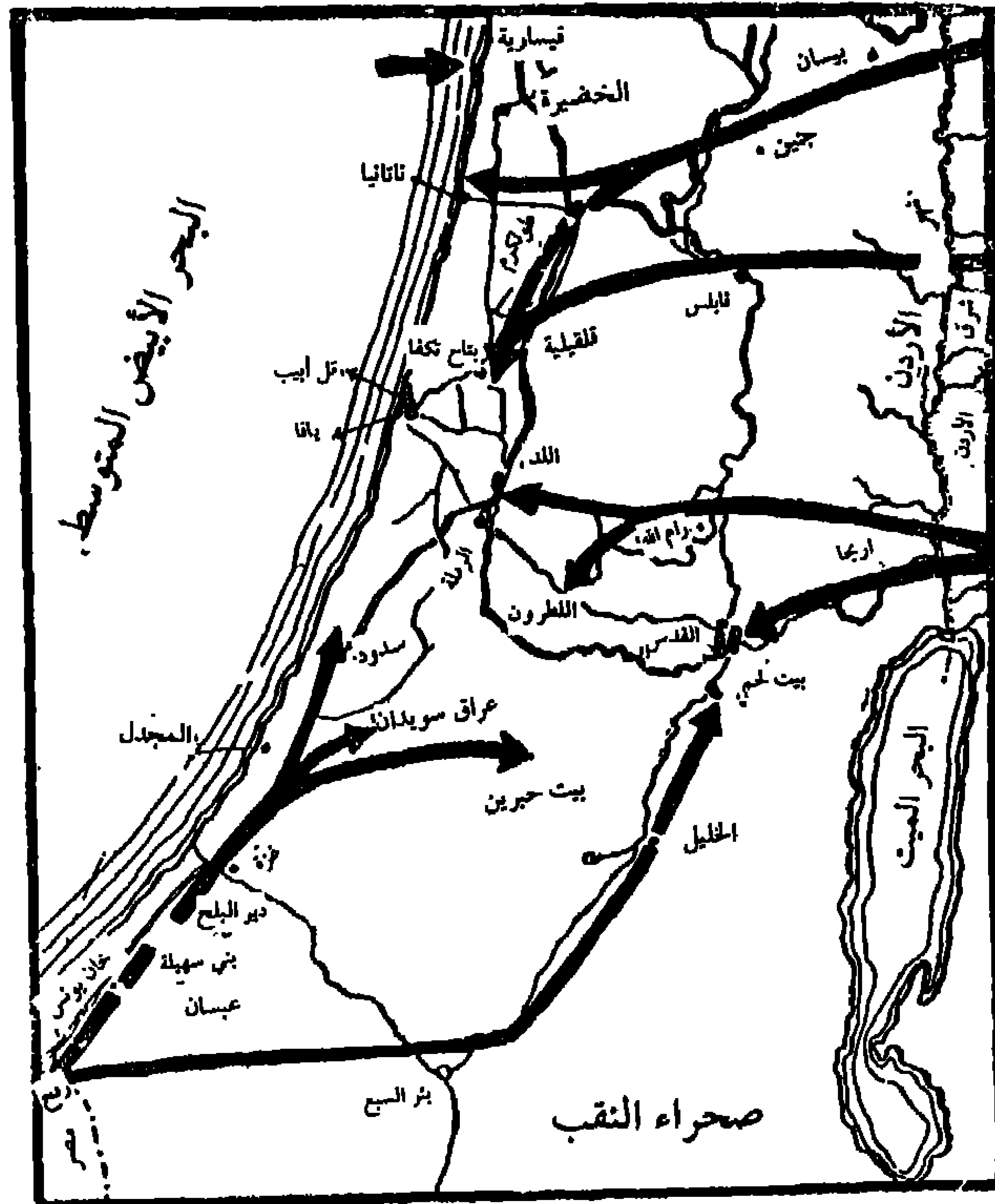
العربي والحق العربي، واتيحت للعرب فرصة ذهبية جديدة وخطيرة، كانت كفيلة بتحقيق تلك النتيجة، لو استطاعت الحكومات العربية اغتنامها حتى في نطاق إمكانياتها الميسورة، أي ما عندها من قوى ووسائل حربية جاهزة، لأن إمكانيات العرب أعظم بكثير من ذلك، لو جنحت إلى تهيئتها جنوحاً متسقاً مع خطورة الموقف، وما تمليه الكرامة العربية والمصلحة العربية العليا[٣١].

- ٣ -

ولما انتصفت ليلة ١٥ مايس زحفت الجيوش العربية نحو فلسطين. واستقبل العرب هذا الزحف بدموع الفرح والحماس، وخاصة من فلسطين الجريحة التي كانت الأحداث التي سبقته قد حطمت قلوب أهلها، وقرحت أكبادهم، وشردت مئات الألوف منهم.

ولم يكد يمضي على الزحف اثنا عشر يوماً، حتى كانت الجيوش العربية تسيطر على المناطق العربية المخصصة للعرب في قرار التقسيم، مع بعض استثناءات، فيها زيادة من جهة، ونقص من جهة أخرى؛ وتكاد تحدق بتل أبيب، وتفصل الجنوب عن الشمال في منطقة ناتانيا.

غير أن السير أخذ يخف بعد ذلك، وصارت الأرجل تعد في مكانها، بل لقد كان بعض التراجع في السير العراقي في منطقة ناتانيا، كما كان تراجع من الناحية السورية في جبهة سمخ،



مراكز زحف الجيوش العربية عند اعلان الهدنة الأولى

حيث تعرضت فصائلها لضغط يهودي قوي . وظل الأمر كذلك إلى أن وقف القتال في ١١ حزيران ١٩٤٨ . وأخذت تبدو بعض علائم الخلاف على الخطة، حيث لم ير الملك عبد الله الذي أصر على أن تكون له القيادة العامة، أن يتقيد بالخطة التي وضعها أركان الحرب، ويدعم الكتائب العراقية لفصل الشمال عن الجنوب، ورأى أن يكثف كتائبه الخاصة في منطقة القدس واتجاه يافا.

وقد كشفت الأيام والوثائق عن تفاهم سابق بين الملك واليهود على الرضاء بالتقسيم، مقابل قبول هؤلاء أن تضم الأقسام العربية إلى مملكته. . .

ولقد سارع اليهود الذين أعلنوا قيام دولتهم في ليلة ١٥ مايس واعترف بها ترومان، إلى شكوى الحكومات العربية إلى مجلس الأمن. وتبنى المندوب الأميركي الموضوع، وطلب من المجلس أن يقرر أن الحالة مهددة للسلم، تمهيداً لمنع القتال بالقوة الدولية، وتطبيق العقوبات. ثم تقرر توجيه نداء للعرب واليهود بقبول هدنة لا تؤثر في الحقوق والمطالب والمواقف التي يدعيها كل فريق، فوافق اليهود ورفض العرب أولاً، ثم قبلوا نتيجة لضغط بريطانية والولايات المتحدة وتهديدهما، فتوقف اطلاق النار يوم ٧ حزيران لمدة شهر، على أن يبذل الوسيط خلاله جهوده للتوفيق.

والأحداث التي وقعت منذ عقد الهدنة، أثبتت أن العرب قد خسروا المعركة حين قبلوها. فقد كانت فرصة الدهر لليهود، مكنت دولتهم تمكيناً تاماً بما نالوه من اعترافات العديد من الدول، وبما بذلوه من جهود جبارة في جلب السلاح والعتاد والطائرات والمدافع والطيارين والجنود والضباط والقواد، مما كان ينقصهم منه الشيء الكثير، خارقين في ذلك شروط الهدنة على مرأى وسمع من مراقبيها. هذا إلى ما كان من خرقهم لهذه الشروط بحركات عسكرية، هدفوا بها إلى تموين وتقوية مستعمراتهم المنعزلة، وتعديل خطوطهم لتكون أقوى على الصمود في حال استئناف القتال. وقد حققوا ما هدفوا إليه دون مبالاة بالعرب الذين كانوا يكتفون ازاء ذلك بالشكوى والاحتجاج.

وقد كان لتقصير الحكومات العربية، وعدم ادراكها للموقف، بل وتخاذلها فيما بينها، الأثر الأقوى في الخسران.

فقد قال لها أركان حرب جيوشها ان الظروف تقضي بأن يكون الزحف قوياً وخاطفاً، يضمن نصراً عاجلاً، تفادياً من المضاعفات. وأن هذا يحتاج إلى خمس فرق كاملة، وستة أسراب من الطائرات، وأن تكون جميع القوى خاضعة لقيادة واحدة. فاستكثرت الطلب، وأصر الملك عبد الله على أن يكون هو القائد العام، فنزلت عند اصراره، مع أنه هو وجيشه بيد الانكليز لحماً ودماً، إن صح التعبير. ولم يكن مجموع القوات الزاحفة يتجاوز الخمسة عشر ألفاً من مختلف أنواع السلاح، ولم يكن عدد كل من قوتي مصر والعراق يتجاوز الخمسة آلاف. ومعظم القوات الزاحفة استنفدت في الأقسام العربية، وفي تأمين خطوط التموين والمواصلات. . ولم يكن هذا عن عجز وقلة امكان ميسور. لأن كلاً من العراق ومصر حشدتا بعد مدة ما في فلسطين وأطرافها ما يقرب من عشرين الفاً، وبلغ مجموع القوى المحاربة خمسين الفاً، عدا مناضلي فلسطين، بحيث يمكن أن يقال ان العراق ومصر لو حشدتا في البداية ما حشدتاه بعد مدة، وكان هذا واجباً وممكناً، وما ألح عليه

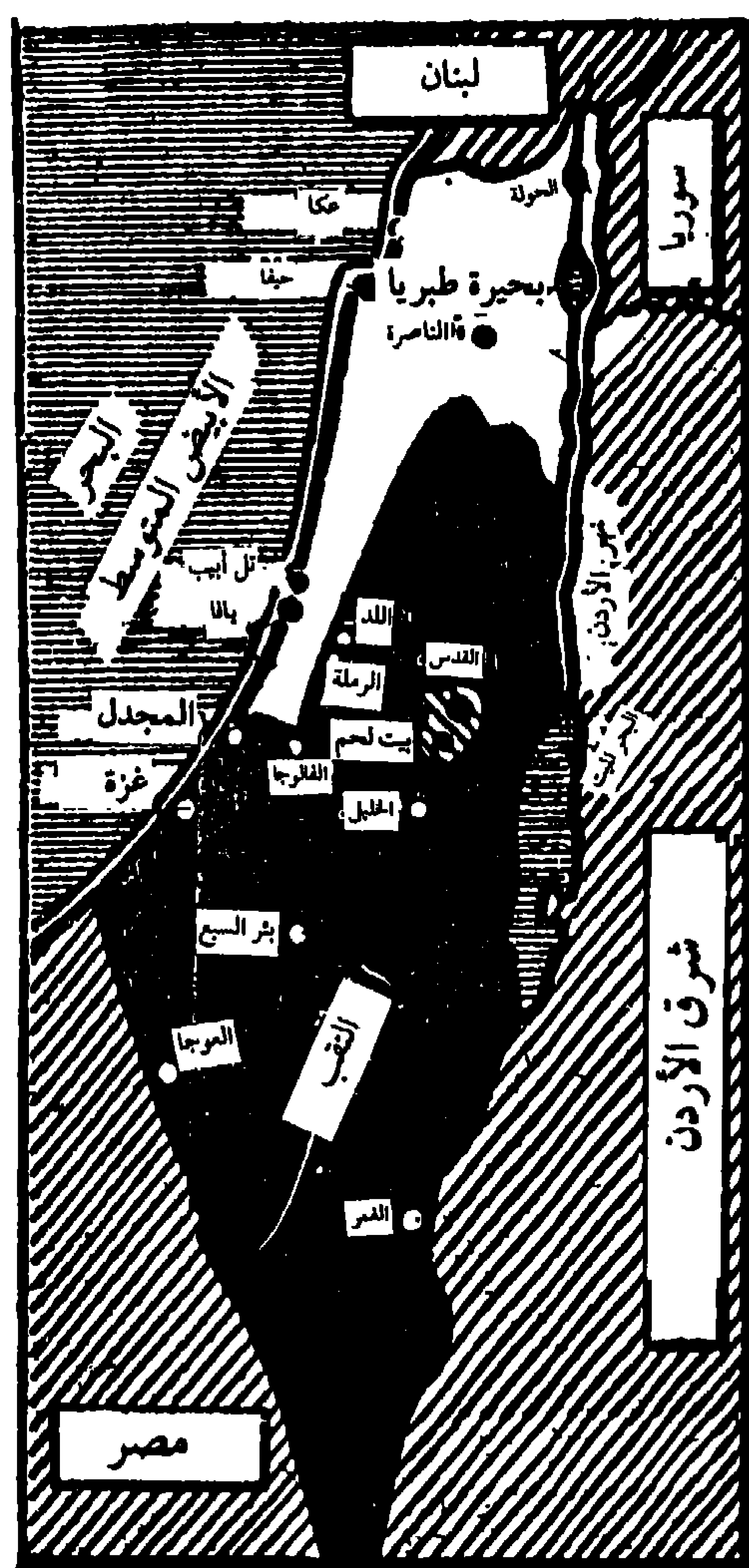
أركان الحرب، لكان من المحتمل أن تتم التصفية، قبل أن يكون للمداخلة والضغط تأثيرهما الأليم. وهذا فضلاً عن فقدان القيادة العامة المسيطرة على القوات والحركات فعلياً، ثم عمّا بدا على قيادات القوات الزاحفة من دهشة ازاء الحصون اليهودية، يدل على ما كان من جهلها لما في فلسطين، مع أن استقصاء ذلك مسبقاً، والاستعداد له من البديهيات العسكرية. وفضلاً كذلك عمّا كان من ارتباك وارتجال وفقدان تضامن وانسجام، وضعف اعداد اداري وتدريبي وفني، وجعل الاعتبار السياسي مؤثراً في العمل العسكري وسائداً عليه.

ولقد قيل، بل سمعت ذلك من شخصية رسمية كبرى، وأيدته التقارير العسكرية الرسمية، أن العرب مالوا إلى الهدنة تحت ضغط قلة العتاد، الأمر الذي يثير أشد الدهشة، ولا سيما إذا لوحظ أنه لم يقع بين العرب واليهود معارك طاحنة بالمعنى المعروف، وأن الحركة كانت محسوبة ومتوقعة منذ بضعة أشهر، وأن القوات الزاحفة لم تكن إلا جزءاً من الجيوش العربية. لأن هذا يدل على بالغ الغفلة والاستهتار والانصراف التام عن فكرة استخدام الجيوش النظامية في هذه الحرب.

ولقد قال لنا مصدر وثيق: إن رجال اللجنة السياسية كانوا يذهبون إلى أن مجرد زحف الجيوش العربية، بقطع النظر عن عددها وعُددها كاف لحمل الدول الكبرى على التدخل، وايجاد حل يرضى عنه العرب. وأن هذا التفكير كان عاملاً جوهرياً فيما بدا من استهتار، وعدم اهتمام لكمية وكيفية الزحف في الجولة الأولى. وفي هذا كذلك بالغ الغفلة والاستهتار واللعب بالنار، على حساب شرف أمتهم وجيوشهم وكرامتها وسلامتها. وقد تدنس بهذه الغفلة ذلك الشرف، وذلت تلك الكرامة، وهددت هذه السلامة، وقد غدا العرب بذلك سخرية الساخرين واليهود، بما أتاحوه من مجال للقول ان جيوش سبع دول ارتدت أمام حفنة من اليهود... ومن العجيب المؤلم أن رجال الحكومات العربية، بما فيهم الملك عبد الله، كانوا يقولون انهم حسبوا لكل شيء حساباً وأعدوا لكل شيء عدته(٣٢).

- ٤ -

وفي خلال الهدنة قدم الوسيط حلا فيه تعديل لحدود التقسيم، حيث يعطي النقب ومنطقة القدس للعرب، مقابل اعطاء الجليل الغربي لليهود. وكان هذا الحل يحصر اليهود في مثلث تل أبيب صفد مرج ابن عامر، ويضمن صلة افريقية العربية بآسيا العربية، وسلطان العرب الشامل الفعلي للقدس بدون تدويل(٣٣). ورفض العرب هذا الحل، وقدموا مشروعاً على أساس الدولة الواحدة ذات الأكثرية العربية. وأوشكت مدة الهدنة على الانتهاء، فأخذ الوسيط يسعى لتمديدها، ويعد بتعديل اقتراحاته أو تقديم غيرها. وقبل اليهود التمديد، ورفضه العرب، بحجة خرق اليهود لشروط الهدنة، وامتلاء ايديهم بالسلاح المتنوع الثقيل الذي كان ينقصهم، وامتلاء ثكناتهم بالمدربين الجدد. ثم استؤنف القتال في ٩ تموز ١٩٤٨، ولكن لم يمض خمسة أيام على ذلك حتى تطور الموقف في الميدان تطوراً مفاجئاً أليماً، حيث انسحبت القوة الأردنية من منطقة اللد والرملة، وانسحبت القوة العراقية من رأس العين ومجدل بني فاضل المجاورين لهذه المنطقة، ثم من بعض مناطق مرج ابن عامر، فكان من نتائج ذلك سقوط جبهة اللد والرملة، وتحرر الكتائب



مشروع برنادوت لتقسيم فلسطين
المناطق البيضاء خصصت لليهود والمناطق السوداء خصصت للعرب

اليهودية فيها لتتفرغ للكتائب المصرية التي كانت قريبة منها، حتى كادت تلحق بها الهزيمة، وخسران العرب المركز الحربي الحسن الذي كان لهم قبل استئناف القتال، وخسرانهم فوق ذلك نحو ربع المنطقة العربية العامرة التي كانت في يدهم، والتي كانت تضم الناصرة وشفا عمرو واللد والرملة، وما حولها من عشرات القرى، والتحاق ألوف اللاجئين الجديدين بسابقاتها.

وقد كان للضباط الانكليز في الجيش الأردني يداً خبيثة في التطور المفاجىء الذي أدى إلى الكارثة الأليمة.

ومن مشاهد المأساة أن رجال الحكومات العربية، أصروا على رفض تمديد الهدنة الذي كان يلح عليه برنادوت، وكانوا يدلون بتصريحات مطمئنة قوية أثناء الهدنة، بأنهم جدوا وأعدوا لكل شيء عدته، لتدارك ما فاتهم في الجولة الأولى، في حين كانوا في مجالسهم الخاصة يعترفون أنهم لم يزدادوا استعداداً ولا قوة ولا سلاحاً، وأنهم أخفقوا في ذلك بسبب ما كانت بريطانية والولايات المتحدة تقيمانه في طريقهم من عقبات، بل وانهم ليس لديهم من الامكانيات والسلاح والعتاد ما يحقق الغاية المنشودة من استئناف القتال. وكان من الملموس أن الجيوش العربية كانت في هذه الجولة أيضاً بدون خطة، وبدون تضامن، وبدون قيادة مركزة.

ولقد عاد مجلس الأمن للنظر في القضية، بسبب استئناف القتال، وقرر دعوة الفريقين إلى وقف النار، وأنذرهما بالعقوبات في حالة الرفض. وكانت الكارثة قد أثرت في حالة العرب النفسية أشد تأثير، فلم يكن للحكومات العربية مناص من قبول الدعوة. وقد قبلها اليهود باغتباط وسعادة، لأنهم كسبوا مكاسب جديدة من نصيب العرب ما كانت لتخطر لهم ببال.

وبعد قليل عرض اليهود على العرب الصلح فرفضوه. وفي دورة الخريف لسنة ١٩٤٨، اثيرت القضية في هيئة الأمم، وعرض مشروع برنادوت ثانية، فرفضه العرب، وأصروا على أن لا حل للقضية إلا على أساس الدولة الموحدة. وقررت الهيئة تعيين لجنة باسم لجنة التوفيق لتقوم بالأعمال التي أنيطت بالوسيط برنادوت الذي قتله اليهود، ولتنمي الصلات الحسنة بين دولة اسرائيل وعرب فلسطين والدول العربية، ولتتخذ الخطوات اللازمة لمساعدة الحكومات والسلطات المختصة، لإنهاء جميع الخلافات القائمة بينهما، ولتتخذ التدابير اللازمة لوضع جميع الأماكن المقدسة والمباني الدينية تحت حماية وإشراف منظمة الأمم. وقررت الهيأة كذلك حق اللاجئين بالعودة إلى بلادهم للعيش بسلام مع جيرانهم، ودفع التعويضات لمن لا يرغب في العودة، وللذين أصابهم الضرر في ممتلكاتهم، وأناطت اتمام ذلك للجنة التوفيق.

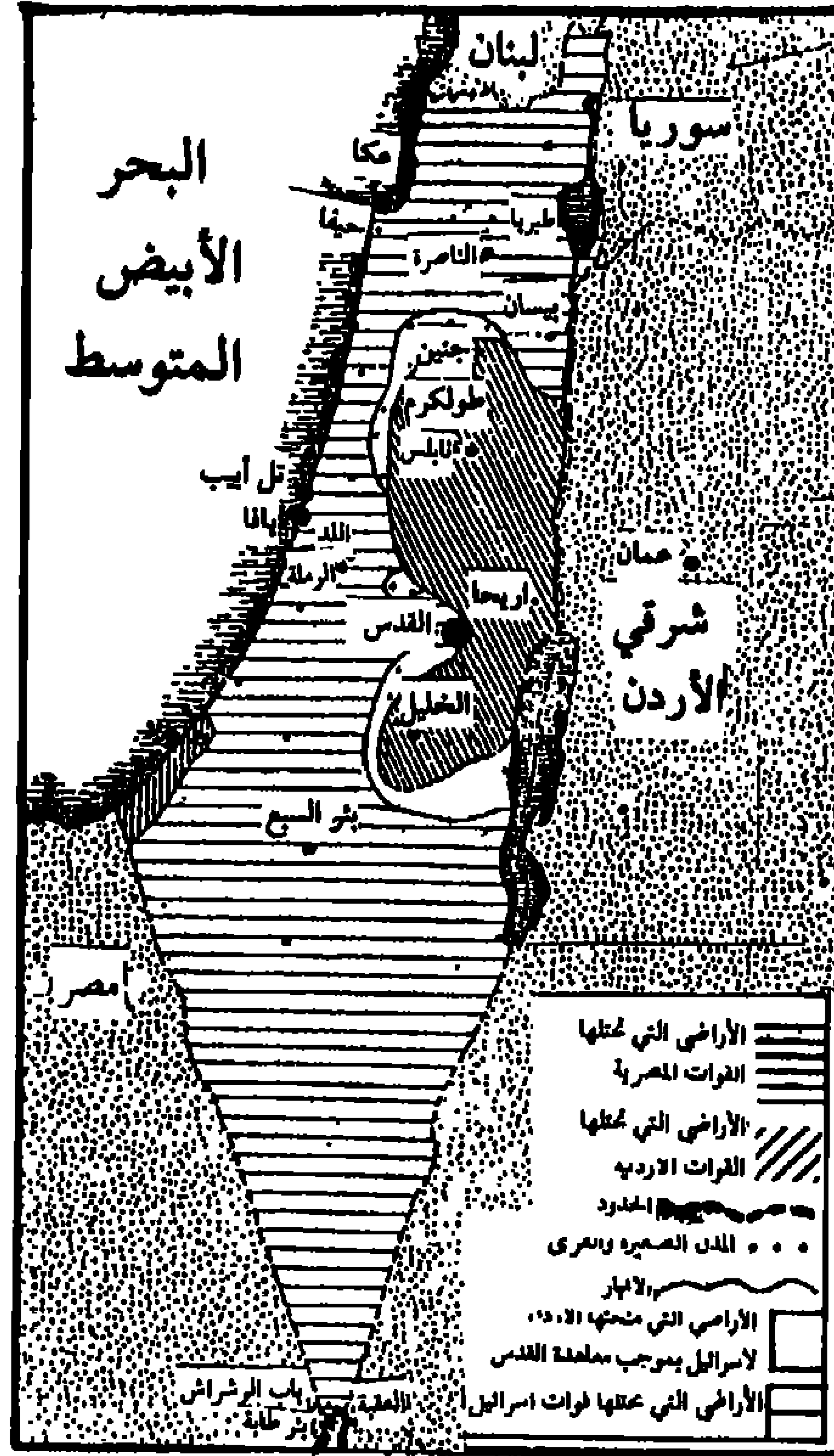
ولقد ظل التوتر والجفاء قائمين بين مصر من ناحية والعراق والأردن من ناحية، ولم تُجدِ ما بذل من مجهودات في سبيل ازالتها. واغتنم اليهود الفرصة، فأخذوا يقومون بحركات عسكرية في النقب الذي كان جله تحت سيطرة القوات المصرية. ولم يلبث أن وقع الاصطدام بينهم وبين هذه القوات. ووقفت القوات الأردنية والعراقية التي كان في إمكانها وحدها التدخل المجدي موقفاً جامداً، برغم ما بذل من جهود وعقد من اجتماعات. واشتدت حركات اليهود ومطامعهم، وتمكنوا من السيطرة على معظم النقب، وحاصروا الحامية المصرية في الفالوجة.

وبحث مجلس الأمن في الموقف، فقرر دعوة الفريقين إلى وقف النار، ورجوع كل منهما إلى حدود الهدنة ،وعقد هدنة شاملة، وعين وسيطاً جديداً للسعي في هذا الأمر. ولم يعبأ اليهود، لأنهم رأوا الموقف ملائماً، واشتدوا في حركاتهم، ودخلت قواتهم الأراضي المصرية حتى صارت على بعد عشرة كيلومترات من العريش، وحتى كادوا يطوقون الجيش المصري، وينزلون به ضربة ساحقة. ثم أعلنوا موافقتهم على وقف النار قائلين: انهم حققوا هدفهم، وهو اخراج القوات المصرية من المنطقة المخصصة لهم حسب قرار التقسيم. ولم يكن بقي تحت سيطرة مصر إلا قطاع غزة الضيق الذي لا يزيد عرضه عن عشرة كيلومترات وطوله عن خمسين. وضغطت بريطانية والولايات

المتحدة على مصر، وكانت في حالة معنوية سيئة، فقبلت بدورها وقف النار، كما قبلت الدخول في مفاوضات فردية مع اليهود لعقد هدنة دائمة.

وجرت المفاوضات في رودس تحت اشراف الوسيط بانش، وأصر اليهود على الاحتفاظ بكل ما دخل في حيازتهم في حركاتهم الجديدة، وعدم تنفيذ قرار مجلس الأمن القاضي برجوعهم إلى مراكزهم من حدود الهدنة. ورضي المصريون بذلك، كما رضوا بأن تكون الساحات الضئيلة التي لم تدخل تحت سيطرة اليهود على الحدود الشرقية لقطاع غزة منطقة مجردة من السلاح، تحت إشراف المراقبة الدولية.

وتم توقيع الهدنة الدائمة في ٢٤ شباط ١٩٤٩ على هذا الأساس. وقد نصت اتفاقية الهدنة على تعهد كل فريق بعدم القيام بأي عدوان، إلى أن يتبدل الموقف بصلح دائم، وعلى أن الهدنة مستوحاة من الاعتبارات العسكرية فقط، وليس من شأنها أن تكسب أي فريق حقاً عسكرياً أو سياسياً، وأن حدودها ليست حدوداً سياسية ولا اقليمية، ولا تمس الحقوق والمطالب لكل فريق، حيث يبقى ذلك منوطاً باتفاق لاحق.



تمزيق فلسطين بموجب معاهدة رودس

ووجه الوسيط بعد ذلك الدعوة إلى الحكومات الأخرى للدخول في مفاوضات مماثلة. واستجابت لبنان أولاً، ثم الأردن، ثم سورية، وانعقد بينها بالتوالي وبين اليهود هدنة دائمة في نطاق الشروط العامة التي احتوتها اتفاقية مصر.

ولقد أصر العراق على عدم الدخول مع اليهود في مفاوضات مباشرة، ووكل الأردن عنه، وسحب جيوشه من فلسطين لتحل محلها قوات الأردن. واغتنم اليهود الفرصة، فاستولوا على موقع أم الرشراش في خليج العقبة الذي كان ما يزال في يد القوات الأردنية، وأصروا على تعديلات جديدة لحدودهم الشرقية والجنوبية، وكسبوا كسباً جديداً وخطيراً في منطقة مثلث نابلس وجنوب الخليل بلغت مساحته نصف ميليون دونم من أخصب الأراضي، وحرمت به ستون قرية عربية من أراضيها.

ومما لا ريب فيه أن اقبال مصر منفردة على مفاوضات الهدنة، وحذو الأردن ولبنان ثم سورية حذوها، وتطابق العراق والسعودية ضمناً في ذلك، كان مظهراً أليماً من مظاهر ما بلغه التوتر والكدر في سماء دنيا العرب وجامعتهم. وكان قبول مصر والأردن خاصة بشروط ثقيلة، ورضائهم بما أصر عليه اليهود أثراً صادعاً لذلك المظهر، كما أن الهدنة الدائمة كانت خاتمة حزينة موجعة لقضية فلسطين الشهيدة، لأنها أذنت بسد باب كل امكان وأمل لتحريرها، وصيانة عروبتها، والقضاء على الكيان اليهودي فيها بالقوة العربية المجتمعة، في هذه المرحلة من مراحل التاريخ، في حين أن هذا كان هو السبيل الوحيدة إلى ذلك(٣٤).

٨ ـ بعد الهدنة الدائمة

ـ ١ ـ

ولقد أخذت لجنة التوفيق تنشط بعد الهدنة في سبيل مهمتها. ودعت الحكومات العربية إلى لوزان، واستجابت الحكومات المتهادنة الأربع، وأرسلت ممثليها، كما أرسل اليهود ممثليهم، وأخذت تعقد معهم جلساتها منذ أواخر نيسان ١٩٤٩.

وكان اليهود قدموا طلباً بالانضمام إلى عضوية هيئة الأمم، فطلب بعض الأعضاء تصريحاً بأن دولتهم مستعدة لاحترام قرارات الهيأة، فيما يختص باللاجئين والحدود وتدويل القدس، فسارع الممثل اليهودي إلى اعطاء هذا التوكيد بأسلوب صريح وقوي. وفي نفس الوقت وقع ممثلو اليهود في لوزان مع لجنة التوفيق ميثاقاً بأن يكون أساس المحادثات لحل الخلافات بينهم وبين العرب قرارات هيئة الأمم أي: (١) حدود التقسيم. (٢) تدويل منطقة القدس. (٣) عودة اللاجئين إلى منازلهم، وتصرفهم بممتلكاتهم، والتعويض على المتضررين فيها، وعلى الذين لا يرغبون في العودة. فكان هذا وذاك مما جعل الجمعية العامة لهيأة الأمم تقرر قبول الدولة اليهودية في عضويتها، وكان تاريخ هذا القرار، وتاريخ ميثاق لوزان، ١٢ مايس ١٩٤٩.

غير أن المحادثات في لوزان ما لبثت أن أخذت تتعثر، بما كان اليهود يتفننون في إثارته من

مشكلات، ويقيمونه من عقبات، ويشترطونه من شروط، ويطلبونه من طلبات تناقض الميثاق الذي وقعوا عليه، بحيث بدا أن توقيعهم إنما كان خدعة مسرحية لنيل موافقة هيئة الأمم على عضويتهم. فلما تم ذلك نكصوا على أعقابهم، مصممين على عدم التنازل عن أي شيء في يدهم، وعلى تجاهل قرارات هيئة الأمم فيما يتعلق بالتدويل واللاجئين والحدود. ثم وثبوا على القدس فأعلنوها عاصمة لدولتهم، متحدين بذلك الأمم المتحدة وقراراتها... وقد كان توقيعهم على الميثاق خدعة للحكومات العربية، حيث جعلوا ممثليها يتورطون ويوقعون عليه بدورهم، فكان توقيع العرب اعترافاً بدولتهم وبقرارات هيئة الأمم بالتقسيم والحدود والتدويل، مما فيه انحراف خطير عما ظل عرب فلسطين والحكومات العربية وشعوبها يرفضونه رفضاً شديداً مستمراً، ويسفكون دماءهم في سبيل مقاومته منذ سنة ١٩٣٧، والذي دخلت جيوش الحكومات العربية إلى فلسطين لمقاومته أيضاً. ومن المؤسف أن هذا الانحراف قد غدا منذئذ شعاراً للحكومات العربية، نزّلت به قضية فلسطين من مستوى قضية عربية قومية عامة، لا يمكن أن تتحمل قيام عنصر غريب في صميم بلاد العرب، يكون سرطاناً خبيثاً في الجسم العربي، يعرقل نموه ووحدته، ويقطع الصلة بين أعضائه، بل ويهدد كيانه، إلى مستوى محلي من حدود ولاجئين، حيث صاروا يعتبرون تنفيذ قرارات هيئة الأمم غاية أملهم، ويجعلونه موضوع الحاحهم والتماسهم في مختلف المناسبات والمواقف، ويقابل من قبل اليهود مع ذلك بالرفض البات الحاسم والاستهتار البالغ، ثم بمحاولة جعل واقعهم وطيداً، وارغام العرب على تبديل الهدنة بصلح دائم على أساسه. والولايات المتحدة وبريطانية تساعدانهم على تحقيق مأربهم هذا بمختلف أساليب الضغط والتهديد والإغراء والاغواء والدس والفساد.

ولقد سنوا قوانين استندوا عليها في التصرف باملاك وأراضي ومخلفات العرب العظيمة بيعاً وإجارة واستملاكاً، بقصد قطع خط الرجعة على عودة اللاجئين، واسكان مهاجريهم الجدد، وتشغيلهم، كما وضعوا قوانين استثنائية للعرب المقيمين في الأرض المحتلة، جعلوا بها حياتهم جحيماً لا يطاق(٣٥)، ولا يرعون أي معنى من معاني الشرف والإنسانية والمواثيق الدولية وحقوق الانسان والقانون، في ما يعاملونهم به من معاملة يتمثل فيها الحجر والجور والاضطهاد والحرمان والصرامة والأذى المادي والمعنوي بأوسع مدى، بقصد ارغامهم على النزوح عن فلسطين من جهة، وارهاب النازحين وصرفهم عن التفكير والمطالبة بالعودة من جهة أخرى. وهم يبيتون أطماعاً واسعة في بلاد العرب، ويعتبرون ما دخل في أيديهم من فلسطين نقطة ارتكاز وقفز، ولا يمضي شهر إلا ويصدر عن زعمائهم تصريحات تنم عن ذلك. وخريطة ما يسمونه مملكة اسرائيل الكبرى، منقوشة على باب برلمانهم، وجدران مؤسساتهم، وشاملة لجميع فلسطين والأردن وسورية ولبنان، وأطراف العراق ومصر. وتمتد إلى الحجاز، لتشمل المدينة المنورة وخيبر، والقرى القديمة على طريق الشام التي كان يقطنها اليهود في زمن النبي عليه السلام وقبله. ويعنون عناية عظمى بتنمية قوتهم الحربية: الجوية والبحرية والبرية لصد الكرة العربية، إذا ما فكر العرب بذلك في يوم من الأيام، وللقفزات التوسعية حين سنوح الفرصة لاستكمال رقعة وطنهم التاريخي المزعوم، ويعملون حسابهم ليكون ميزان قواتهم راجحاً على ميزان قوة جميع الدول العربية. ومن حين لآخر

يكتشف العرب في بلادهم شبكات جاسوسية محكمة، وشبكات تدميرية وارهابية أيضاً، تدل على نشاطهم وحرصهم على الاطلاع على قوى العرب ومشاريعهم، وإثارة البلبلة والاضطراب في بلادهم.

ومنذ توقيع الهدنة الدائمة والمصادمات بين قوات اليهود وقوات العرب على حدود لبنان والأردن وسورية ومصر لا تكاد تفتر، ومعظمها تحرش وتحد من جانبهم، حتى لقد بلغت شكاوى الأردن وحده خلال هذه المدة أكثر من ستة آلاف. ويهدف اليهود بذلك إلى استفزاز العرب، وجعلهم يقابلون عدوانهم بعمليات حربية، يتخذونها وسيلة إلى تنفيذ خطة هجومية توسعية، يستولون بها على ما يستطيعون من أجزاء الدول المجاورة بحركة حربية خاطفة، يرون أنهم قادرون عليها، أو ارهاب العرب وازعاجهم وفرض الصلح عليهم، أو جعل الدول الكبرى تفرضه فينفتح أمامهم آفاق بلاد العرب اقتصادياً وسياسياً واستعمارياً، ويزدادون توطداً وقوة. وهم مدركون أن الصلح مع العرب هو مسألة موت وحياة بالنسبة لوجودهم ونموّهم وازدهارهم، ولا سيما أنهم مخنوقون أشد اختناق، ومحرجون أشد الحرج بسبب استمرار حالة الحرب بينهم وبين العرب التي جرت معها حالة حصار ومقاطعة تزداد حلقاتها استحكاماً يوماً بعد يوم، وتسبب لهم مصاعب ومشاكل عظيمة، منها توقف سيل الهجرة والأموال، وتعذر الحصول على المواد الغذائية والصناعية وغلاء أكلافها، وانتشار البطالة، والاضطرار الدائم إلى الاستعداد العسكري القوي.

وتغدق الولايات المتحدة الأميركية عليهم المساعدات المتنوعة اغداقاً لتقويتهم ومساعدتهم على اسكان وتشغيل المهاجرين الذين تدفقوا على فلسطين بعد سنة ١٩٤٨، وبلغ عددهم نحو مليون، فصار عدد اليهود فيها بهم مليونا وثمانمأة ألف، حتى لقد بلغت قيمة ما منحتم لهم، وساعدت على إخراجه من بلادها باسم تبرعات، ويسرته لهم من قروض وأرغمت ألمانيا الغربية على دفعه لها من تعويضات، حوالي ثلاثة مليارات من الدولارات أو أكثر. وبذلك استطاعوا أن ينشئوا مئات المستعمرات الجديدة، ويوطنوا ويدبروا الأعمال لمئات الألوف، وينموا قوتهم الحربية إلى درجة جعلتهم يرون أنفسهم قادرين على الانتصار على الدول العربية، إذا ما سنحت لهم فرصة أو مناسبة. وقد ساروا أشواطاً كبيرة في التنمية الاقتصادية زراعة وصناعة وتجارة وتعديناً، حيث يبدو من كل هذا عظم خطورة هذا السرطان الخبيث الذي وجد ونما وقوي في ظل الاستعمار الإنكليزي، ثم بقوة تدعيم وتأييد الولايات المتحدة. وخطره على بلاد العرب والقومية العربية وأهدافها، بما لا يقاس عليه الاستعمار الاجنبي وحده، لأنه قائم على القوة الحربية والسياسية فقط، وهي عرضة للتطور والضعف، في حين أن هذا الطارىء إذا تمكن ورسخ صار اقليمياً ليس من السهل اقتلاعه، فضلاً عما قد يكون له من تطورات توسعية جديدةوخطرة، كما يبدو عظم جناية بريطانية والولايات المتحدة ضد العرب، في اقامة هذا الطارىء الخبيث وتدعيمه في صميم بلاد العرب وعظم نكايتها ومداها..

وقد أثبتت الأحداث أنهم يبذلون من الجهود أضعاف ما يبذله المستعمرون في عرقلة كل نمو وكل قوة وكل ازدهار وكل تواثق يحاول العرب أن يحققوه لأنفسهم، وكل حركة تبدو منهم نحو

الاتحاد والوحدة، وفي اثارة الفتن ودس الدسائس، وتحريك الأهواء والتامر مع كل عدو للعرب، لأن في ذلك حياتهم وبقاءهم. وكلهم عيون وارصاد على كل حركة، وكل نشاط عربي سياسي وغير سياسي، وكل ارتباك عربي داخلي وخارجي، ليبادروا إلى الوقوف منه الموقف المقتضى سلباً وايجاباً.
وكان حادث العدوان الثلاثي اليهودي الانكليزي الافرنسي في تشرين عام ١٩٥٦ على مصر، وما جرى في سياقه من وقائع وفجائع، مثلاً صارخاً على ما يكنه اليهود من مطامع، ويحرصون عليه من تنفيذ كل خطة ضد العرب، مع كل متآمر. وقد سارعوا إلى اعلان ضم شبه جزيرة سيناء العظيمة إلى مملكتهم، مع قطاع غزة الذي كان خارجاً عن يدهم، وأمعنوا في السكان قتلاً ونهباً وارهاباً بقسوة لم يسجل التاريخ أشد وأفظع منه - إلا ما سجلته أسفار العهد القديم من مثل ذلك من بني اسرائيل القدماء، ضد أهل فلسطين وشرق الأردن(٣٦) - ليقضوا على كل مناوأة، حتى بلغ عدد الضحايا الآلاف، وفيهم النساء والأطفال والشيوخ. ولما فرضت الأمم المتحدة على المعتدين الانسحاب، تلكأوا فيه، فلما ضيقت عليهم بقراراتها المتلاحقة، واضطرتهم إلى الانسحاب، أخذوا يدمرون المنشآت والطرق، وينهبون كل ما تصل إليه أيديهم وأمكنهم حمله، ويقتلون كل من وقف في طريقهم، بل ويقتلون من وقع في يدهم من الأسرى بأسلوب وحشي شديد، يدل على شدة الغيظ، وقصد التشفي المجرد من كل عاطفة وشرف. وكانوا يتفننون في مطالبهم، حتى لا يخرجوا من المعمعة الاجرامية بدون كسف، مهما كان، يساعدهم على ذلك فرنسة وبريطانية وغيرهما(٣٧).

٩ - بوادر الأمل والبشرى

على أن هناك من البوادر ما يبعث في العرب الأمل والاستبشار، رغم المشاهد السابقة والراهنة من المأساة.

فكارثة فلسطين وهولها، قد جرحت قلب كل عربي من رؤساء وساسة وحكام وشعوب جرحاً أليماً، وجعلت هي، وما اقترفه اليهود من فظائع، ويبيتونه من مطامع، كل عربي يعتقد أنه لا أمان ولا حياة ولا كرامة لامته وبلاده إلا بزوال الدولة، أو بكلمة أصدق المسخ اليهودي، وأنه لا يمكن أن يزول إلا بالقوة العربية، وأن من واجب العرب أن يستعدوا لهذا كل الاستعداد، ويجعلوا من مهزلة الحرب الفلسطينية العربية عبرة لهم، ليتجنبوا ما كان منهم من إهمال وتقصير وارتجال وتآمر واعتبارات شخصية واقليمية، وانصياع للايحاء الاستعماري الخ.

وهذا سر ما يبدو من تهافت شديد من اليهود وأوليائهم على قيام حالة الصلح بينهم وبين العرب، لأنها الوسيلة الوحيدة لضمان بقاء هذا المسخ ونموه وازدهاره. ولكن هذا هو كذلك سر ما يبدو من العرب من تصميم واصرار على رفض الصلح. وكل عربي واع من حكام وساسة ورؤساء وشعوب يعرفون هذا السر المزدوج. ولا محل للريب في أنهم سيحرصون على الوقوف عنده، إلى أن تأتي الفرصة المناسبة لاقتلاع الجرثومة من أساسها.

ولقد أعلن العرب على اليهود المقاطعة والحصار الاقتصادي كسلاح فعال ضد نمو مسخهم وازدهاره. ونظموا له جهازاً في نطاق جامعة الدول العربية، لعلّه أحسن وأبرك عمل قامت به هذه

الجامعة. وهو فعال شامل، يعمل في سبيل مهمته بقوة ودأب، مستمد من شعور العرب الشديد بالجرح والاهانة التي لحقت بهم، والخطر الكبير الذي يتهددهم، والحقد العميق الذي يعتلج في جوانبهم.

وقد آتت جهوده ثماراً جنية، فحال إلى درجة كبيرة، بل إلى درجة تكاد تكون قاطعة وشاملة، دون تسرب المصنوعات اليهودية التي تصنع في الأرض المغتصبة وخارجها إلى بلاد العرب، ودون تسرب المواد الغذائية والاستراتيجية العربية إلى هذه الأرض، وصادر كل ما يقع تحت يد العرب في موانئهم ومياهم الاقليمية ومطاراتهم من مصنوعات ومواد صادرة من هذه الأرض أو مرسلة إليها. واضطر كثيراً من الشركات التي تعاملت مع اليهود في مختلف المجالات أن تصفي أشغالها فيها، لأن المقاطعة أدخلتها في نطاق حربها، وحرمت عليها أسواق العرب ومطاراتهم وموانئهم.

ويعاني اليهود من جراء المقاطعة والحصار وشمولها، ومن جراء العداء العربي الشديد، وبقاء حالة الحرب بينهم وبين العرب مصاعب ومشكلات عظيمة، سوف تساعد على تحقيق الهدف العربي إلى درجة كبيرة.

ولقد كان الصهيونيون يأملون أن يأتي إلى فلسطين بعد قيام مسخهم عدد كبير من اليهود الغربيين، ذوي المستوى العالي في الفنون والعلوم والخبرة الواسعة في المجالات الاقتصادية، ومعهم عدد كبير من ذوي الأموال الطائلة، فتنهض الدولة على أيديهم، وتغدو دولة غربية قوية في بحر شرقي، تستطيع أن تستكفي بذاتها اقتصادياً وحربياً، إذا ما جاء الوقت الذي يمكن أن تنكمش عنها يد الولايات المتحدة، والذي يعتقد اليهود في قراره أنفسهم بمجيئه عاجلاً أو آجلاً، وأن تصبح إلى ذلك مركزاً صناعياً وتجارياً عظيماً في الشرق الأوسط، يسيطر بنشاطه على هذا الشرق، فخابت آمالهم، رغم ما عمدوا إليه من دعايات مضللة، وكمن في خيبتها عامل ضعف لهذا المسخ وتقلقله، سينضم إلى العوامل الأخرى التي تقضي عليه. وقد كاد سيل الهجرة الذي تدفق في السنوات الخمس التي تلت قيام المسخ أن يتوقف، وأن يكون عدد النازحين عنه موازياً أو أكثر لعدد القادمين. ويهوش زعماء المسخ حين يدعون اليهود إلى الهجرة، ويعلنون حاجتهم إلى مليونين جديدين. وهم يعرفون قبل غيرهم هذا التهويش. لأن نفقات الأسرة الواحدة تبلغ للهجرة والتوطين ٥٠٠٠ ـ ٦٠٠٠ دولار. وهذا يعني الحاجة إلى مليارات كثيرة من الدولارات، من المتعذر جداً، ان لم نقل من المستحيل، الحصول عليها بعد الآن. وسكان المسخ كالمرقعة من كل لون وجنس. واليهود الشرقيون يؤلفون ٤٠٪ من المجموع. وبينهم وبين اليهود الغربيين من ألمان وبولون وروس ورومان وافرنسيس وانكليز وطليان إلخ، تناحر شديد، لأن هؤلاء ينظرون إليهم بنظر الأدنى. وهذا التناحر نقطة ضعف في حياة هذا المسخ.

ومعظم الذين جاؤوا إلى فلسطين في زمن الانتداب، وبعد قيام دولة المسخ، قد جاؤوا بدافع الخوف من الاضطهاد والفرار منه، وبدافع الفقر والبطالة والاغراء بالحياة الآمنة الرضية. ولم يزد ما جاء منهم إلى الآن ـ ثم توقف سيلهم ـ عن ١٥٪ من مجموع اليهود. وكل من وجد أمنا ورزقاً في بلد

ما لم يأت برغم ما تبذله سلطات المسخ من جهود ودعايات واغراءات وخداع وتهويش، وما ترسله من آن لآخر من هتافات مريرة، وانذارات بالمستقبل الرهيب الذي ينتظر المسخ ان بقي اليهود الأغنياء الخبراء القادرون الآمنون على انكماشهم عنه. حيث يدل هذا على أن الحركة الصهيونية الآن في حالة تراجع أو جمود، وأنها لم تكن ولم تصبح عقيدة تحفز أصحابها على الاقدام، لأن ذلك كان يقتضي أن يأتي كل من يدعي الصهيونية ويعتنقها. وأن هدف الصهيونية وفكـرتها لم تمس شغاف قلوب اليهود المختلفي الأجناس واللغات، والمنتشرين في جميع أرجاء الأرض، لأنه غير مستند إلى شيء من الحق والمنطق وحقائق التاريـخ والاجتماع، بـل ويتناقض مـع كل ذلـك. ونحسب أن هذه نقطة ضعف شديدة أخرى، ستشتد كلما اشتدت حالة المسخ سوءاً وارتباكاً، حتى تكون من عوامل القضاء عليه وتلاشيه.

وحياة هذا المسخ منوطة إلى درجة كبيرة بالهبات والقروض والمساعدات المتنوعة الخارجية. ويبلغ ذلك نحو ٤٠٪ من ميزانيته السنوية. وهذه حياة غير طبيعية، ودوامها غير طبيعي. وسلطات المسخ تشعر بذلك شعوراً عميقاً مزيجاً بالقلق والهم. وتستنفد الضرائب ٦٨٪ من الدخل الفائض عن الحد الأدنى. وهذا ما يزيد في شدة الضائقة، وضعف القوة الاقتصادية الذاتية. وتثير كثرة الضرائب استياء شديداً، وتؤدي إلى أزمات عنيفة من حين إلى حين.

وقد أدى سوء الحالة الاقتصادية إلى تضخم نقدي فظيع، نزل سعر الليرة بسببه إلى أقل من ربع قيمته. وهم مضطرون إلى انفاق ما يقرب من نصف الموازنة على التسلح خشية من كرة عربية، مع شدة حاجتهم إلى الاسكان والتنمية الاقتصادية. وفي هذا عامل من عوامل الشلل والاختناق.

وبسبب ذلك كله يقع المسخ في عجز دائم في الموازنة الحكومية والموازنة التجارية، حيث تؤيد الأرقام المستقاة من مصادره أن عجز الميزانية الحكومية يتراوح سنوياً بين ٢٠٠ و ٣٠٠ مليون، وعجز الميزان التجاري يتراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مليون. وقد بلغت الديون التي يرزح المسخ تحتها في نهاية عام ١٩٥٦ مليار وستمائة وعشرين مليون.

وفي كل هذا بوادر تدل على أن هذا المسخ سائر نحو الافلاس عاجلاً أو آجلاً(٣٨).

ولقد تغيرت حالة العرب عما كانت عليه قبل سنة ١٩٥٤ في موضوع القوة الحربية التي كان اليهود يرون أنهم متفوقون فيها على العرب، وقادرون على الانتصار عليهم، والتوسع في بلادهم، وفرض الصلح عليهم. وخاصة بعد أن انطلقت يد مصر في ظل حكومة الثورة المباركة من عقالها، وكسرت الطوق الذي فرضته عليها الولايات المتحدة وبريطانية في أمر التسلح، واستطاعت أن تحصل في سنة ١٩٥٥ على ما تريد من السلاح، وتعمل بكل قوتها على تقوية قواتها الحربية عدداً وتجهيزاً. وقد حذت سورية حذوها في هذا وذاك، وغدت الدولتان ـ قبل الوحدة ـ تـردان على اليهود الصاع صاعين، كل ما حدثتهم أنفسهم بعدوان ما، بعد أن كانوا يتحـرشون بـالحدود العربية، فيقتلون ويحرقون وينهبون وينسفون ويأسرون، دون أن يرعوا عهداً ويخشوا رداً. وكل ما كان يفعله العرب تقديم الاحتجاجات والشكاوى. وقد أثار ذلك في اليهود أشد الفزع، وجعلهم

يملأون الدنيا صراخاً وعويلاً واستغاثة، لأنهم رأوا فيه أن دور خوف العرب منهم قد زال بالمرة، وأن دور خوفهم من العرب قد جاء مدوياً وقوياً، وأن نطاقه وآثاره ستتسع بنسبة ما بين العرب واليهود من تفاوت عظيم في العدد والامكانيات المادية. وقد استمرت قوة الدولتين على نموها حتى بلغت مبلغاً خطيراً. وعظم هذا بعد الوحدة المباركة، فصار للجمهورية العربية المتحدة من القوات المتنوعة، ما جلعها أقوى دول الشرق الأوسط، وما جعل نسف المسخ اليهودي عليها هيناً يسيراً، إذا ما سنحت الفرصة في حادث من حوادث الاستفزاز، يقدم عليه اليهود بما جبلوا عليه من الشر والشره والغرور والحمق.

وحتى لو لم يقع استفزاز يهودي، فإن الفرصة ستتاح للعرب، في وقت غير بعيد، ان شاء الله، وبخاصة للجمهورية العربية المتحدة، لاملاء مطالبهم بدون قتال، إذا ما ازدادت قوتهم الحربية عدداً وعدداً، وتحسنت حالتهم الاقتصادية، وثقل وزنهم في المجال الدولي، وغدوا هم الذين يملأون الشرق العربي، وظلوا متمسكين بحصارهم الاقتصادي للمسخ، ورفض الاعتراف به، وكل هذا في حيز التحقيق، حيث يصبح وجود إسرائيل من وجهة نظر المعسكر الغربي غير ضروري، ويغدو هذا المعسكر، وخاصة زعيمته الولايات المتحدة، أمام الخيار بين اليهود لذاتهم، وبين العرب أصحاب البلاد العظيمة السعة والامكانيات والنفط والمركز الاستراتيجي الممتاز، والذين يعدون ثمانين مليوناً في آسيا وأفريقية، ويؤثرون على خمسة أضعافهم فيهما. ولا نشك في أنهم سيختارون طائعين أو كارهين، وعاجلاً أو آجلا العرب، حتى يأمنوا على مصالحهم. وحينئذ لا يحتاج الأمر إلا إلى قبض اليد عن دولة الشر، وتركها فتنهار للحال دون حرب ولا قتال. لأن كيانها مصطنع، لا يحتوي في ذاته مقومات الحياة، وهي إنما تستمد هذه المقومات من المعسكر الغربي، ومن زعيمته بنوع خاص. وعلى أقل تقدير سوف يعمد إلى مراضاة العرب، ويضغط على اليهود، ويرغمهم على التراجع عن الموقف الوقح الذي يقفونه، حينما يقولون إنهم لن يتخلوا عن شبر من الأرض، ولن يقبلوا بعودة لاجىء، ولن يتركوا القدس كعاصمة لهم، وليس عندهم مال يدفعونه للتعويض. ثم حينما يتصرفون بكنوز العرب وأملاكهم وثرواتهم الهائلة تصرف اللص الأثيم. ولن يكون لليهود مناص من التراجع لانقاذ ما يمكن انقاذه، رغم ما يتظاهرون به من عناد وغلظ رقبة. ولقد أخذت بوادر ذلك تبدو في ما أخذ يرتفع في الولايات المتحدة من أصوات قوية محذرة منددة منذرة. ولا ريب في أن هذا سيشتد، كلما اشتد التغير والرجحان في صالح الميزان العربي سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، مما تدل البوارد عليه، وبنوع خاص في نطاق الجمهورية العربية المتحدة، التي تمثل أكثر من ثلث الأمة العربية عدداً، مع ميزات عظيمة متنوعة، تجعلها منار العرب وعمودهم، والساعد الأشد على حل مشاكلهم.

ولن يقبل العرب تسوية موقتة، بأقل من رفع يد اليهود عن النقب، لضمان الصلة بين بلادهم الآسيوية والإفريقية، وعن القدس لضمان السلطان العربي على الأماكن المقدسة. ثم عما دخل في أيديهم مما خصص للعرب في قرار التقسيم، وعن ممتلكات العرب التي توجد في القسم المخصص لليهود في ذلك القرار، وإعادة أصحابها إليها، وعن ما استولوا عليه من أموالهم المنقولة، وريع تلك الممتلكات طيلة السنين التي استغلوها فيها.

ولن يفوت قادة العرب، وخاصة قادة الجمهورية العربية، أن مثل هذه التسوية لا تقتضي أن تقترن بصلح بين العرب واليهود، يفضي إلى التعامل السياسي والاقتصادي بين دولة الشر والدول العربية، لأنها تسوية في نطاق قرارات هيئة الأمم وحسب. ولن يفوتهم أن يصروا على ذلك. ولن يفوتهم ادراك ما ينجم عن أي صلح بين العرب واليهود من أخطار كبيرة، وشرور مستطيرة، على العرب وبلادهم عاجلاً وآجلاً، لأن فيه توطيداً للجرثومة الخبيثة، وتيسيراً لتغلغلها ونشاطها الاقتصادي والسياسي والاستعماري في بلاد العرب. وهذا ما يردده، لحسن الحظ اليوم، رجال العرب الرسميون والشعبيون معاً، حتى لقد غدت جملة «لا صلح مع اليهود بأي شكل ونطاق، ولا قرار للعرب إلا بزوال دولتهم» شعارهم وكلمتهم، لا يشذ عنها أحد. فخطر قيام هذا المسخ في صميم بلادهم وعاره، وحقد العرب وجرحهم وشعورهم بالذل والهوان، بسبب نجاح اليهود في الجولة السابقة، أو بالأحرى في المهزلة السابقة، وبسبب ما كان من اليهود من وحشية ولصوصية وغدر وتحد واستهتار وعدوان وانتهاك حرمات ـ وهم أذل أمة في الأرض ـ ثم بسبب ما يبيتونه من أطماع رهيبة في بلادهم، واستعدادهم ليكونوا مع كل عدو ومتآمر ضدهم، أشد من أن يسيغ كلمة صلح، وأقوى من أن يسمح لأحد من ساسة العرب بالجرأة على ذلك. ولقد ازداد هذا الشعور بكل هذا شدة وقوة، بما كان من اليهود في خلال العدوان الثلاثي من بغي وطمع ولصوصية وقسوة وتدمير. وهذا فضلاً عن أن وجود اليهود كدولة، في صميم بلاد العرب، مهما تفه شأنها، لا يمكن أن يتيح للعرب أي استقرار واطمئنان. ولسوف يظل هذا الذي يتكرر اليوم على كل لسان عربي، وينبثق من ضمير كل عربي شعار العرب الدائم المؤيد بالقلوب مهما طال الزمن. ولسوف يظل حافزاً لهم للاستعداد والدأب في الجهاد، وفي رفض واحباط أي محاولة ومسعى لاقرار وجود هذا المسخ، إلى أن يتحقق الهدف المنشود فتجتث الجرثومة الخبيثة، ويزول المسخ، وتعود فلسطين جميعها عربية خالصة، ويهدأ بال العرب على بلادهم إن شاء الله. وقد قال الله في كتابه الكريم في مناسبة مماثلة في زمن النبي عليه السلام وفي حق اليهود: «**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الألباب**». وهو القادر على تيسير ذلك، والميسر له، إن شاء الله، كما قدر عليه ويسره من قبل.

هوامش الفصل السادس

(١) في كتاب **تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم**، للمؤلف، شروح وافية لذلك كله، مستندة إلى الكتب التي يقدسها اليهود أنفسهم.

(٢) انظر نصوص صك الانتداب في كتاب **حول الحركة العربية الحديثة**، للمؤلف، ج ٣، ص ٢٥٠ - ٢٦٥.

(٣) هذا الكتاب ملحق للجزء الثالث من كتاب **حول الحركة العربية الحديثة**، ص ٢٥٣ - ٢٥٧.

(٤) انظر خلاصة لهذه المذكرات في: جامعة الدول العربية، الأمانة العامة، إدارة فلسطين، **الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين: المجموعة الأولى، ١٩١٥ - ١٩٤٦** (القاهرة: الإدارة، ١٩٥٧)، ص ٨٩ - ٩٦. انظر أيضاً خلاصة من مذكرات وايزمن التي تتضمن الهدف البعيد للوطن القومي اليهودي، وكونه دولة يهودية في المجموعة نفسها، ص ٩٧ - ١١٣.

(٥) انظر خلاصة تقرير لجنة هيكرافت في: المصدر نفسه، ص ١٢٤ - ١٢٧.

(٦) صورة الرسالة التي حملها هوجارت الفوتوغرافية في كتاب **الحركة العربية الحديثة**، ج ٣، ص ٣٠٨، وفي: **الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين: المجموعة الأولى، ١٩١٥ - ١٩٤٦**، مقتطفات من مذكرات هوجارت، ص ١٧ - ٩١.

(٧) كان كل أو جل هذه القرى مملوكة لأسر لبنانية مسيحية، كانت اشترتها من الدولة العثمانية بالمزاد في الأيام الخالية، لأن أهلها رفضوا تسجيلها على أنفسهم خوفاً من الضرائب والجندية فاعتبرت منحلة. ونذكر بهذه المناسبة أن اليهود كانوا في سنة ١٩٤٦ يملكون نحو مليوني دونم من الأراضي الزراعية. منها نحو ٣٠٠٠٠٠ - ٤٠٠٠٠٠ كانوا اشتروها من ملاكين كبار فلسطينيين ولبنانيين في زمن الدولة العثمانية، ونحو ٣٠٠٠٠٠ سلمتهم إياها الحكومة المنتدبة من أراضي الدولة، و ٨٠٠٠٠٠ اشتروها من ملاكين غير فلسطينيين معظمهم لبنانيون في زمن الانتداب، منها مرج ابن عامر العظيم، ووادي القباني، ووادي الحوارث، وأراضي الحولة، وأراضي سيدنا علي وقرى الشمال. وكل ما باعه أهل فلسطين من أراضيهم لليهود في زمن الانتداب هو نصف مليون دونم. والبائعون هم ملاك كبار. أمّا الفلاحون وأصحاب الملكيات الصغيرة، فلم يكادوا يبيعون من أراضيهم شيئاً لليهود.

(٨) في الجزء الثالث من كتاب **حول الحركة العربية الحديثة**، للمؤلف، تفصيلات عن الحركات الوطنية والكفاحية، وعن ما كان الإنكليز يقابلها به من مواقف. انظر مثلاً ص ٣٢ - ٥٥.

(٩) سجل العرب قبل هذه الثورة ثورات صغيرة عديدة في القدس ويافا ونابلس، بل كانت ثورة يافا عام ١٩٢٠ كبيرة نوعاً ما، حيث امتدت إلى ما في خارجها من مستعمرات وقرى، وبلغ عدد ضحاياها نحو مئة قتيل وجريح.

(١٠) انظر خلاصة عن هذا التقرير، في: **الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين: المجموعة الأولى، ١٩١٥ - ١٩٤٦**، ص ١٦٠ - ١٦١، فضلاً عن أنه نشر رسمياً بكامله باللغة العربية.

(١١) انظر خلاصة لهذا التقرير، في: المصدر نفسه، ص ١٦٤ - ١٦٦، وقد نشر كاملاً باللغة العربية أيضاً.

(١٢) الكتاب الأبيض في الجزء الثالث من كتاب **حول الحركة العربية الحديثة**، للمؤلف، ص ٢٧٧ - ٣٠٠، انظر أيضاً ص ٥٥ - ٧٠ من الجزء المذكور، حول ثورة البُراق وتقارير اللجان ونكوص الحكومة الإنكليزية.

(١٣) انظر تفصيلات ذلك في: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٦ - ١١٥.

(١٤) كانت اللجنة برئاسة الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، وممثل من كل حزب من الأحزاب الستة التي كانت في فلسطين، وممثلين للطوائف المسيحية، وشخصية اقتصادية كبيرة محايدة.

(١٥) في الجزء الثالث من كتاب **حول الحركة العربية الحديثة**، للمؤلف، تفصيلات كثيرة عن حركة الثورة والأحزاب، وما جرى خلالها من أحداث، انظر ص ١١٥ - ١٤٤.

(١٦) انظر خلاصة هذا التقرير الرسمية في: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣١٤ - ٣٢١، وقد نشر هذا التقرير بكامله أيضاً بالعربية.

(١٧) هذا البيان في: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣١٢ ـ ٣١٤.

(١٨) كان لكلام رئيس الوزارة العراقية وحركة شرق الأردن مغزى خاص لأن عاهل الأردن عبدالله بن الحسين تلقّى التقسيم بالترحيب وحاول أن يقنع المعارضين في فلسطين بقبوله. انظر: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٢ ـ ١٥٣، و١٥٦ ـ ١٥٨.

(١٩) انظر تفصيلات عن سير الثورة وحركاتها وقيادتها وقوادها، في: المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٨٨ ـ ٢١٧.

(٢٠) لم توجه بريطانية الدعوة إلى حكومتي سورية ولبنان، بسبب ممانعة فرنسة، وما كانت تمر به سورية في هذا الظرف من محنة مع فرنسة.

(٢١) انظر نص الكتاب الأبيض في: المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٢٢ ـ ٣٣٤.

(٢٢) انظر تفصيلات وافية عن نشاط اليهود وحركاتهم وثورتهم، في: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥ ـ ٢٣.

(٢٣) انظر تفصيل لما لخصناه من نشاط العرب، في: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٣ ـ ٢٨.

(٢٤) في: المصدر نفسه، ج ٤، تفصيل أوفى لنشاط اليهود وآثاره ولنشاط العرب واجتماع الملوك واجتماع مجلس الجامعة، انظر ص ٣٤ ـ ٦٢.

(٢٥) المشروعان الإنكليزي والعربي في: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٣ ـ ٦٩.

(٢٦) انظر تفصيلات أوفى لقرارات مجلس الجامعة في: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٨٧ ـ ٩١.

(٢٧) انظر تفصيلاً لما لخصناه من وقائع هيئة الأمم وتقرير لجنتها وقرارها النهائي ومواقف ترومان والحكومة الإنكليزية... إلخ، في: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٩١ ـ ١١٧.

(٢٨) انظر تفصيلاً لما لخصناه في هذه النبذة في: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤ ـ ١٨.

(٢٩) من الحق أن نذكر أن الحكومة السورية ورئيسها المجاهد القوتلي، بذلوا ما أمكنهم البذل حتى على حساب إمكانيات وضرورات جيشهم.

(٣٠) هناك فريق يوجه اللوم على أهل فلسطين بسبب نزوحهم، ويرى أن ذلك مما سهل على اليهود تحقيق أهدافهم. وهذا اللوم لا يصدر إلا عن غافل أو مغرض مأجور. لأن الذعر في أثناء الحروب والثورات والفتن الأهلية حالة نفسية لا يملك الناس حيلة فيها. والأمثلة لا تعد في كل مكان وزمان في القديم والحديث.

(٣١) انظر تفصيلاً لما لخصناه في: حول الحركة العربية الحديثة، ج ٥، ص ١٨ ـ ٣٠.

(٣٢) انظر تفصيلاً لما لخصناه في: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٠ ـ ٤٠.

(٣٣) حقد اليهود على برنادوت بسبب هذه التعديلات التي تحرمهم من النقب والقدس لأنه قدمها إلى هيئة الأمم فيما بعد.

(٣٤) انظر تفصيلاً لما لخصناه في هذه النبذة ونصوص اتفاقيات الهدنة الدائمة في: المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٠ ـ ١٢٥ و٢٢٦ ـ ٢٦٢.

(٣٥) يسيطر اليهود اليوم على ١٣ مدينة كانت أكثرية سكانها الساحقة، وأكثرية ملكياتها، والقرى التابعة لها عربية، وهي يافا وحيفا وعكا والناصرة وصفد وسمخ وبيسان وشفا عمرو واللد والرملة وطبريا وبئر السبع والمجدل، وعلى جميع الأحياء العربية في القدس الجديدة. وعدد القرى التابعة لهذه المدن ٧٠٠ قرية عربية مئة بالمائة. ولم تكن ملكيات اليهود في صفد وقراها تتجاوز ١٨ بالمائة، وعكا ٣ بالمائة، وطبريا ٢٨ بالمائة، وبيسان ٣٤ بالمائة، والناصرة ٢٨ بالمائة، وحيفا ٣٥ بالمائة، ويافا بما فيها تل أبيب ٣٩ بالمائة، واللد والرملة ١٤ بالمائة، وبئر السبع ١ بالمائة، وسمخ ٢ بالمائة، وشفا عمرو ١٠ بالمائة. وكان يسكن هذه المدن والقرى من العرب نحو مليون عربي، لم يبق منهم في مدنهم وقراهم إلا نحو ١٦٠٠٠٠. وفي الأراضي التي يسيطر عليها اليهود كان من بساتين البرتقال العربية ١٢٠٠٠٠ دونم، ومن بساتين الموز ١٠٠٠٠ دونم، و ٥٠٠٠٠٠ دونم من كروم الزيتون والأشجار الأخرى، وخمسة ملايين دونم من الأراضي الزراعية، ومثلها من المراعي والمحتطبات، عدا صحراء النقب التي هي مرتفق عربي كان يقطن فيها عشرات ألوف البدو. وتقدر قيمة أراضي العرب وعقاراتهم وأموالهم المنقولة والمجمدة التي يتصرف اليهود اليوم في معظمها بنحو ١٩٠٠ مليون جنيه. ويقدر ريع أملاك العرب بما لا يقل عن خمسين مليون جنيه. وهذا الرقم أربعة أضعاف ما

ينفق سنوياً على اللاجئين من وكالة الأمم المتحدة المعروفة بوكالة الإغاثة!

(٣٦) انظر: **الكتاب المقدس**، سفر الخروج، وسفر يوشع وسفر القضاة مثلاً.

(٣٧) انظر تفصيل لما لخصناه في مصدر النبذة، في: **حول الحركة العربية الحديثة**، ج ٥، ص ١٢٦ ـ ١٧٤، ومحمد عزة دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٧.

(٣٨) انظر تفصيلاً لما لخصناه هنا، في: دروزة، **الوحدة العربية**، ص ٥٢٤ ـ ٥٤٣.

الفصل السابع
مختارات من كتاب «الوحدة العربية»
(أجزاء أساسية)

محمد عزة دروزة

الوحدة العربية

(طبعة)

مباحث في معالم الوطن العربي الكبير ومقومات وحدته
والعقبات التي تقف في طريقها ومعالجاتها
والمراحل التي يجب أن يسار فيها إلى تحقيقها

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر
الطبعة الأولى
١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

كلمة بين يدي الكتاب

لقد غدت الوحدة العربية هتاف العرب على كل لسان وقلم ومنبر، وفي كل ناحية من أنحاء الوطن العربي الكبير، الممتد من خليج البصرة إلى ساحل الأطلسي، يهتفون به اليوم على اختلاف فئاتهم، من ملوك ورؤساء وساسة ونواب واحزاب وشيوخ وشبان ورجال ونساء وخواص وعوام.

وهذا الكتاب يعزز ذلك الهتاف، ويدعمه بمباحث شاملة في معالم الوطن العربي، ومقومات الوحدة فيه وضرورتها، والعقبات الداخلية والخارجية التي تقف في طريقها، ومعالجتها، والمراحل التي يجب أن يسار فيها إلى تحقيقها.

ولقد اشتمل الكتاب في سياق المباحث التي تناولها على استعراض وجيز لتاريخ الجنس العربي وخصائصه ورسالته وتطوره، في مختلف الأدوار والاقطار، كما اشتمل على استعراض وجيز آخر لتاريخ الاستعمار ومآسيه وتطوره، وكفاح العرب ضده، ونمو القومية العربية والدول العربية الحديثة وتطورهما، مما لم يجتمع مثله في كتاب آخر مما اطلعنا عليه، ومما نرجو أن يكون له فائدة تاريخية وقومية في حد ذاته.

والله المسؤول أن نكون في ما تضمنه قد أصبنا وجه الحق، وقدمنا لأمتنا العزيزة، وخاصة لناشئتها خدمة نافعة، وبذلنا جهداً جديداً في سبيل الهدف القومي الخطير الذي يدور عليه الكتاب، والذي أقسمنا اليمين منذ شبابنا على خدمته، وقمنا بما قدرنا عليه في سبيله، طيلة خمسين عاماً من عمرنا. والله ولي التوفيق[1].

المؤلف

أولاً

الوطن العربي الكبير

موجز جغرافيته الطبيعية والاقتصادية والبشرية والسياسية

- ١ -

تمتد رقعة الوطن العربي الكبير، الذي يدور الكلام عليه في هذا الكتاب، فيما بين غربي آسيا، وشمالي أفريقية، من خليج البصرة شرقاً، إلى ساحل المحيط الأطلسي غرباً، ومن جبال طوروس شمالاً، إلى حدود المنطقة الاستوائية جنوباً. وهي بين درجتي طول ١٥ - ٥٧، وعرض ١٠ - ٣٧. ويبلغ طولها نحو ٧٥٠٠ كيلومتر شرقاً لغرب، ويتراوح عرضها بين ١٠٠٠ - ٣٠٠٠ كيلومتر شمالاً لجنوب، وتقدر مساحتها بنحو عشرة ملايين من الكيلومترات المربعة[٢].

- ٢ -

والقسم الآسيوي من هذه الرقعة، الذي يشمل جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق المسماة بالهلال الخصيب، أشبه ما يكون بقارة مستقلة. فهو وحدة طبيعية من ناحية التكوين الجيولوجي الذي شمله كله بقدر متشابه في الأدوار الجيولوجية المتتالية، ومن ناحية التركيب، وبنية الأرض في أساسها الغرانيتي، وصخورها الرسوبية والبركانية التي تتوزع في أرجائها، ومن ناحية تضاريسها التي يتألف منها هضبة قارية، تحف بها الصحارى الواسعة المتشابهة الآثار تقريباً، والتي تتوزع فيها الواحات، ويحيط بها من معظم أطرافها سهول زراعية، يحجز بينها وبين البحر اطار جبلي، يصل في الارتفاع أحياناً إلى ٣٠٠٠ متر، ويكاد يكون مغلقاً، ويبدأ بجبال الشام، ثم جبال الحجاز والعسير واليمن، ثم جبال حضرموت ثم جبال عُمان[٣]. ومن وراء هذا الطريق، يقوم طوق من السهول الساحلية الضيقة، يبدأ من سهول سورية وفلسطين، ثم سهل تهامة إلى اليمن، ثم سهول اليمن وحضرموت، ثم أراضي عُمان، ثم أراضي قطر والكويت ثم سهول العراق، ومن وراء هذا الطوق حزام بحري، يبدأ بالبحر الأبيض عند بلاد الشام، ثم يمر إلى البحر الأحمر بقناة السويس، وإلى المحيط الهندي بباب المندب، فخليج عُمان، فخليج البصرة.

أما مناخ هذا القسم، فيتميز من أعالي سورية حتى أقاصي اليمن وعمـان، بميله إلى الحرارة، ولكن المرتفعات التي حوله تؤدي إلى انخفاض عام فيها. ويتميز كذلـك بالصفـة القارية، التي تجعل فروق الحرارة ظاهرة الأثر في شتائها وصيفها، ثم بالجفاف التام في داخل الجزيرة، وتناقصه كلما اتجه نحـو البحار. وبينمـا تخضع بـلاد الشام لمنـاخ معتدل شتـوي الأمطار، معروف بمناخ المتوسط مثلاً، تخضع اليمن وحضرموت لمناخ حار صيفي الأمطار، معروف بالمناخ الموسمي نتيجة لذلك.

- ٣ -

ويمكن أن يميز في هذا القسم ثلاث مناطق جغرافية:

الأولى: منطقة تـطل على البحر الأبيض، وهي التي تعـرف ببلاد الشـام، أو سوريـة الطبيعية.

الثانية: منطقة تشمل سهول ما بين النهرين، والسـلاسل الجبليـة الشماليـة والشرقيـة المتصلة بها، وهي التي تعرف بالعراق.

الثالثة: منطقة تشمل ما بقي من هذا القسم، وهي كتلته الكبرى التي تعرف بشبه جزيرة العرب.

تشمل المنطقة الأولى ما يسمى بجمهوريتي سورية ولبنان والمملكة الأردنية الهاشمية التي تضم مناطق شرق الأردن وغربه. وتقدر مساحتها بثلثمائة ألف كيلومتر مربع، أكثـر من خمسيـها بادية شحيحة الماء. ومناخها معتدل على وجه الاجمال، يكون رطباً في الغـرب، وقارياً جافاً في الشرق. وعدد سكانها نحو ستة ملايين ونصف[٤]، باستثناء اليهود في الأراضي المغتصبة من فلسطين. فتكون كثافة السكان فيها نحو ٢٠ للكيلومتر المربع.

وتشمل المنطقة الثانية، ما يسمى بالمملكة العراقية الهاشمية، وتقدر مساحتها بأربعمائة ألف كيلومتر مربع، أكثر من ربعها منطقة صحراوية في الجهة الغربية منها، ونحو عُشرها منطقة جبلية في الجهة الشمالية والشمالية الشرقية منها. ومناخها متأثر بما يحيط بها من الجبال من جهة والصحارى من جهة. وهو في الشمال معتدل، وفي الجنوب الشرقي قاريّ. ويتميز بصيف حار طويل، ويقدر عدد سكانها بأكثر من أربعة ملايين ونصف، فتكون كثافة السكان فيها أكثر من عشرة أشخاص في الكيلومتر المربع.

وتشمل المنطقة الثالثة ما يسمى اليوم بالمملكة العربية السعودية التي يخضع معظمها لسلطانها، ثم المملكة المتوكلية في اليمن، ثم مناطق عدن ولحج وحضـرموت في الجنوب، وعمان ومسقط وقطر والكويت والبحرين في الشرق، وفيها عدد كبير من الإمارات التي تسيطر عليها بريطانيا باسم الحماية. وتقدر مساحتها بثلاثة ملايين كيلومتر مربع، وسكانها بنحو اثني عشر مليوناً، فتكون كثافة السكان فيها ٤ في الكيلومتر المربع. ونصف مساحتها صحار رملية

قاحلة، يتكون منهـا قلبها، ممتـدة إلى الشمال، ومنهـا ثلاث كبـرى ومشهورة، وهي الـربع الخالي، أو الأحقاف في شمال حضر موت، وهي أكبرها، حيث تقدر مساحتها بمليون كيلومتر، ثم النفود الكبرى، ثم الدهناء المسماة بالنفود الصغرى، والتي هي امتداد للنفود الكبرى، وهما ممتدتان بين نجد وبوادي الشام والعراق. والحرارة والجفاف والرياح الشديدة من الصفـات المميزة لهذه المنطقة. والشتاء فيها قصير والصيف طويل قائظ. وليالي الصحراء باردة في كافة الفصول، كما أن هذه المنطقة شحيحة بالمياه، ومعظم سكانها يعيشون في الأقسام الجنوبية والشرقية الساحلية، أو ما يليها في الأقسام الشمالية، لأنها الصالحة للحياة، بما يتوفر فيها من مياه، ويقوم فيها من جبال يعتدل بسببها المناخ نوعاً ما.

- ٤ -

أما القسم الإفريقي من هذا الوطن، فهو يشمل وادي النيل وليبية والجزيرة المغربية، المشتملة على أقطار تونس والجزائر ومراكش. وهو متصل بالقسم الآسيوي من ناحية الشرق، كما أن أقطاره الشرقية والغربية متصل بعضها ببعض.

وأقطار المغرب الثلاثة التي يطلق عليها العرب القدمـاء اسم جزيـرة المغرب، بسبب احاطتها من غربها وشمالها وشرقها بماء البحار، وجنوبها برمال الصحراء، والتي يطلق عليها الجغرافيون الأوروبيون اسم افريقية الصغرى، تمييزاً لها عن سائر افـريقية، لأنهـا أقرب في مناخها إلى أوروبا منها إلى أفريقية، وهي وحدة جغرافية، تشمل جميع النواحي الجغرافية من طبيعية حيث تتشابه بنيتها وتربتها وتضاريسها، ومن مناخية حيث تتشابه ظاهراتها الجوية، ومن حيوية حيث تتشابه نباتاتها وحيواناتها.

وتبلغ مساحتها نحو ٢,٦٥٠,٠٠٠ كيلومتر مربع، تشغل صحراء اقليم الجزائر وحدها منها١,٩٧٥,٠٠٠، كما تشغل صحراء أقليم مراكش منها ١٠٠٠٠٠ . هذا مع التنبيه على أن هناك سلاسل جبلية ـ هي جبال الأطلس ـ تحجز بين أجزائها الشمالية وأجزائها الصحـراوية الجنوبية، وتجعل الأجزاء الشمالية متميـزة المناخ، وصـالحة للحيـاة دون الأخرى. وتلعب التضاريس فيها دوراً قوياً في توزيع عـوامل المنـاخ من أمطار وريـاح وحرارة. والحـرارة في المنخفضات غيرها في السهول، وهي متأثرة بالبحر من الجهات الشمالية والغربية والشرقية، وبالصحراء من الجهات الجنوبية، فتتعرض لرياح رطبة من الأولى، ورياح صحراويـة جافـة وقاسية من الثانية.

ويقدر عدد سكانها بنحو اثنين وعشرين مليوناً، فتكون كثافة السكان ٨ للكيلومتر المربع.

- ٥ -

واقليما ليبية ووادي النيل اللذين يشملهما القسم الافريقي من الوطن العربي، لا يختلفان

كثيراً في مناخهما وتربتهما وطبيعتهما عن الجزيرة المغربية، بل هما متشابهان في كل ذلك معها.

وتبلغ مساحة ليبية نحو مليون ونصف كيلومتر مربع، معظمها صحراوي، يتصل بالصحراء الافريقية الكبرى، مثل صحراء اقليم الجزائر، وممتد معها بالطبيعة. وفي صحرائها واحات أشهرها واحة فزان التي ترتفع عن سطح الأرض، ويصل ارتفاعها في بعض الأنحاء إلى ٩٠٠ متر. أما عدد سكانها فهو مليون، فتكون كثافة السكان أقل من واحد للكيلومتر المربع.

وتعد ليبية اجمالاً من البلاد الحارة الجافة، غير أن المناخ فيها يختلف حسب مناطقها اختلافاً غير يسير. فهو في برقة معتدل ممطر في الشتاء، وحار جاف في الصيف. وفي طرابلس الغرب شديد الحرارة. وتهب عليها الرياح الجنوبية، فتغدو نهاراً لاهبة. والمنطقة الصحراوية التي تقع إلى جنوب طرابلس شديدة الحرارة والجفاف والرياح، ولا تصلح الحياة إلا فيما يقوم في بعض أنحائها من الواحات.

وتبلغ مساحة الجمهورية المصرية التي تؤلف القسم الشمالي من وادي النيل نحو مليون كيلومتر مربع، أكثر من ثلثيها صحار تقع شرقها وغربها. وعدد سكانها نحو ٢٢ مليون ونصف، فتكون كثافة السكان في الكيلومتر الواحد ٢٢.

ومناخها حار وجاف وصحراوي على العموم، باستثناء المناطق الشمالية الساحلية، التي يلطف البحر من حرارتها.

أما مساحة السودان الذي يؤلف القسم الجنوبي من وادي النيل، فهي ٢,٦٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع. وعدد سكانه نحو عشرة ملايين، فتكون الكثافة نحو أربعة للكيلومتر المربع.

تتميز في السودان ثلاث مناطق طبيعية:

أولاها ـ المنطقة الصحراوية، وهي ذات اقليم حار وجاف، كما هي قاحلة، وتمتد من حدود مصر الجنوبية إلى منطقة شندي.

ثانيتها ـ المنطقة السهلية والسهوبية، وهي ذات مناخ مداري، تهطل الأمطار فيها في فصل واحد من السنة. وهي منطقة الحبوب والمراعي.

وثالثتها ـ المنطقة الاستوائية، وتمتد من فاشودة إلى حدود السودان الجنوبية، وتسود فيها الحرارة، وأمطارها لا تكاد تنقطع وهي من أخصب المناطق وأغناها. وفيها غابات عظمى.

- ٦ -

وأقاليم الوطن العربي الكبير هذه متنوعة، كما مر شرحه في المناخ والطبيعة، كما هي متنوعة في الامكانيات. وما ينقص في أحدها يتوفر في الآخر، بحيث يصح أن يقال بأنها تكمل بعضها بعضاً، وتكوّن وحدة جغرافية واقتصادية طبيعية تامة.

ففيها المناطق الحارة والمناطق الباردة، وفيها ما يصلح ليكون أحسن المشاتي، وما يصلح ليكون من أحسن المصايف. وفيها ما يصلح للاستغلال الزراعي الخاص بالبلاد الحارة، كما فيها ما يصلح للاستغلال الخاص بالبلاد المعتدلة والباردة، كأوسع وأحسن ما يمكن. وفيها الغابات العظيمة التي تشغل في بعضها قسماً عظيماً من مساحتها، كما هو الشأن في بلاد الشام والسودان والجزيرة المغربية، وفيها الأنهار العظمى التي يزيد طولها على ألف وخمسماية كيلومتر. فضلاً عن عدد كبير من الأنهار المحلية الكبيرة والصغيرة. وفيها السهول الواسعة الخصبة التي تعد عالمية في خصبها وقابليتها، وتصلح لمختلف أنواع الزراعات، منها ما تسقيه الأمطار، ومنها ما تسقيه الأنهار والعيون. وفيها الجبال التي يرتفع بعضها إلى ٣٠٠٠ متر، وتظل ذراها مكسوة بالثلوج، كما فيها المنخفضات والأغوار التي ينخفض بعضها حتى يصل إلى أعمق من ثلثمائة متر تحت مستوى البحر. وفي أنحاء كثيرة منها مياه معدنية متنوعة حارة وفاترة. ويتخلل صحاريها وبواديها الواحات التي تتفجر فيها الينابيع، وتكون الحياة فيها صالحة، والاستغلال الزراعي ممكناً.

وهي تشغل جميع سواحل البحر الأبيض الجنوبية، وجزءاً مهماً من سواحله الشرقية، كما تشغل القسم الأعظم من سواحل البحر الأحمر الغربية، وجميع سواحله الشرقية، ثم جميع سواحل خليج البصرة الغربية. وتطل على البحر الهندي من جنوب جزيرة العرب، حتى سمي البحر هنا بسبب ذلك ببحر العرب. كما تطل عليه من شرقها، وتطل على المحيط الأطلسي من غرب الاقليم المراكشي. وفيها الخلجان الكبيرة والصغيرة التي يصلح بعضها لاقامة أعظم المرافىء والقواعد التجارية والعسكرية، وفيها عدد من البحيرات الصغيرة والمتوسطة والحلوة والمالحة، وفي بعضها من الأملاح والذرات المعدنية، ما يعدل ثروات هائلة، وفيها مغاصات للؤلؤ والمرجان ومصايد للأسماك.

- ٧ -

والشرق الأوسط الذي يشغل الوطن العربي معظم مساحته، يخزن ٥٥٪ من مخزون النفط والغاز الطبيعي في العالم. وقد اكتشف في بعض انحائه مقادير عظيمة منه، يعود الآن منها مورد ضخم. والدراسات الفنية تدل على وجوده في مناطق عديدة أخرى منه، بحيث يحتمل زيادة هذا المورد ضخامة.

وفي مختلف أقاليم هذا الوطن معادن كثيرة، منها ما اكتشف واستغل منذ القديم، ومنها ما اكتشف واستغل حديثاً. ومنها الغني ومنها الشحيح، والدراسات الفنية تدل على أن فيه معادن كثيرة مكنوزة تنتظر التنقيب والكشف. ومعظم المكتشف منها لم يشغل تشغيلاً واسعاً. واحتمالات الموارد الضخمة المتزايدة منها قوية.

والزراعة وصناعاتها من أهم موارد ومشاغل أقاليم الوطن العربي. ففيها مساحات واسعة تصلح لمختلف أنواع الزراعات الشتوية والصيفية والحارة، والمعتدلة والباردة والموسمية

والشجرية والصناعية، منها المستغل استغلالاً لا بأس به، ومنها ما يزال استغلاله يقوم على الأساليب البدائية. ومنها ما تتكافأ غلاته مع استهلاكات سكان الوطن، ومنها ما ينقص عنها، لا كنتيجة لانعدام الامكانيات، وإنما لعدم احسان الاستثمار واستكمال أسبابه. ومنها ما يصدر منه بكميات غير يسيرة، وله شهرة عالمية كقطن مصر وأرزها، وتمر العراق، وحمضيات وفواكه بلاد الشام، وبن اليمن.

والدراسات الفنية تقرر أن هناك إمكانيات طبيعية وجغرافية وارووائية في أقاليم عديدة من الوطن العربي كالعراق والسودان ومصر وسورية، يتضاعف بها الانتاج الزراعي اضعافاً كثيرة، بحيث يتكافأ مع حاجات الوطن، فيما ينقصه الآن، ويزداد فيضه الكثير للتصدير، كما أن هذه الدراسات تقرر أن مناطق كثيرة من صحاريه وبواديه، يحتوي بالاضافة إلى ما فيه من الواحات التي تتفجر فيها العيون، مياهاً جوفية يمكن استنباطها والانتفاع بها، وجعل مناطقها صالحة للسكنى والاستغلال.

وفي الوطن العربي حركة صناعية غير يسيرة، وخاصة في مصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة المغربية، يتسع نطاقها يوماً بعد يوم، مع التنبيه على أنه ما يزال في معظم استهلاكاته الصناعية، وخاصة الصناعات الحديدية والكهربائية والكيماوية والميكانيكية والحربية عالة على الخارج، حيث تستنفد جزءاً كبيراً من دخله السنوي، وتكون سبباً في اختلال الميزان التجاري في معظم أقطاره.

والدراسات الفنية تقرر أن هناك، إمكانيات عظمى طبيعية وجغرافية في مختلف أقاليم الوطن العربي، وخاصة في مصر والعراق والشام للتحسين والتوسع في هذا المجال، حتى يمكن تحقيق الاستكفاء الذاتي، بل والافاضة منه على الخارج.

وفي الوطن العربي من شبكات السكك الحديدية ما يزيد طوله على خمسة عشر ألف كيلومتر، ومن الطرق المزفتة ما يزيد طوله على عشرين ألف كيلومتر. ومن الطرق المعبدة ما يزيد طوله على خمسة وعشرين ألف كيلومتر، فضلاً عن عشرات آلاف الكيلومترات من الطرق الممهدة والسالكة، مع التنبيه على أنه ما يزال في هذا المضمار فقيراً جداً بالنسبة للأبعاد الشاسعة التي تفصل بين ارجائه. على أن الامكانيات الجغرافية والطبيعية متوفرة لتوسيع هذه الشبكات، التي تساعد على طي الأبعاد، وتقوية الروابط والاتصالات.

ويقرب عدد سكان هذا الوطن من ثمانين مليوناً(٥) ، يدين منهم ٩٣٪ بالإسلام و٥,٣٪ بالنصرانية و٠٣,٪ باليهودية، والباقون وثنيون في السودان. مع التنبيه إلى أن نسبة النصرانية تختلف في بعض أقاليمه عن بعض، فتصل نسبتها في لبنان مثلاً إلى ٥٠٪، وفي سورية إلى ١٥٪ بينما هي في العراق ٣٪، وفي مصر ٦٪ ، وفي بلاد المغرب، باستثناء الأوروبيين الغرباء، ٢٪.

ويتكلم ٧٥ مليوناً منهم، في آسيا وافريقية، أي ٩٤٪ العربية الصريحة، ومعظمهم ينتمي

إلى أصـل جنسي واحد. ويمتاز جنسهم العربي، الذي سمي خطأ بالسامي، باعتدال القامة، وتناسق السحنة، والبياض الضارب إلى السمرة، وسباطة الشعر وسواده، واتساع حدقة العين وسوادها، ثم بصفاء الذهن، واتقاد الذكاء، وسرعة الخاطر والحركة، وقوة الخيال، وقابليـة الاقتباس، والفروسية، والاريحية، والصبر، والثأر، والتهاب العاطفة.

ومن الباقي فريق في شمالي افريقية يتكلم البربرية، والبربرية المزيجة بالعربية، وفريق في شمالي سورية والعراق يتكلم الكردية المزيجة بالعربية، والتركية والتركية المزيجة بالعربية، وفريق في السودان يتكلم الزنجية المزيجة بـالعربيـة، وفريق في بـلاد الشام يتكلم الأرمنيـة والأرمنية المزيجة بالعربية، والشركسية المزيجة بالعربية.

ويعيش منهم نحو ٢٥٪ عيشة البدو، في الخيام وبيوت الشعر وعرائش القش في جزيرة العرب، وبوادي الشام والعراق ومصر والسودان وليبية والجزيرة المغربية، والباقـون يعيشون عيشة حضرية بدرجات متفاوتة في المدن والقرى، منها ما يصل إلى الدرجات العلى، ومنها ما هو في الدرجات الأولى.

ولا يزال نحو ٨٥٪ أو أكثر منهم أميين، مع التنبيه إلى أن نسبة الأمية في الذكور أقل منها في الاناث، وفي المدن أقل منها في القرى والبادية، وفي بعض الأقاليم أقل منها في بعض، حيث تكون النسبة في سورية ٥٠٪، وفي لبنان ١٥٪، وفي العراق ومصـر ٧٠٪، وفي بلاد المغرب وشبه جزيرة العرب والسودان ٩٠٪ أو أكثر. أما غير الأميين فإنهم متفاوتون في الثقافة، فمنهم من وصل إلى الدرجات الجامعية العالية، ومنهم من هو في طريقها، ومنهم من هو في الدرجات المتوسطة، ومنهم من هو في طريقها، ومنهم من هو في الدرجات الأولية.

وفي الـوطن العربي احـدى عشرة جـامعة (٦)، فضـلاً عن مئات المـدارس الثانـوية والمتوسطة المهنية، وآلاف المدارس الابتدائية، يدرس فيها الآن نحو ثلاثـة ملايين ونصف طالب وطالبة. منهم نحو تسعين ألفاً في الجامعات(٧)، مع التنبيه على أن نسبة الطلاب في المدارس في بعض أجزاء الوطن العربي، أكبر منها في البعض الآخر. ولعل عدد من يتخرج إلى الآن من الجامعات، يزيد على سبعين ألفاً، ومن الثانويات والمتوسطات المهنية يقارب نصف المليون.

وفي الوطن العربي عدد غير قليل من المدن الكبرى والمتوسطة، وبعض هذه المـدن يضارع ما في مدن أوروبا الكبرى والمتوسطة من معالم الحضارة والعمران أو يقترب منها. ولكن أكثر مدنه صغيرة، وفي حالة متأخرة، كما أن هذه حالة معظم قراه.

ويقدر الدخل القومي السنوي لهذا الوطن بألفي مليون جنيه(٨)، فيكون معدل نصيب الفرد الواحد نحو ٢٧ جنيهاً في السنة، مع التنبيه على أن هذا الرقم يزيد في بعض الأقاليم وينقص في بعضها، ولكن الزيادة والنقص ليسا كبيرين. وهذا المعدل منخفض جداً، ولذلك فإن معظم أبناء هذا الوطن غارقون في حضيض الفقر والعوز والمرض، بالاضافة إلى حضيض الجهل الذي هم غارقون فيه. وتقدر ميزانيات الدول العربية بنحو ستمائة مليون جنيه(٩)، فيكون

معدل نصيب الفرد منها نحو سبعة جنيهات، مع التنبيه على أن هـذا الرقم يـزيد في بعض الأقاليم، وينقص في بعض. ولكن الزيادة والنقص ليسا كبيرين. وهو على كل حال معـدل واطىء جداً كذلك. ولذلك فإن نشاط الدول العربية في مجال الإصلاح الاجتماعي والعمراني والانتاجي والحربي ضئيل جداً، جعلهـا ضعيفة في كـل ذلك. والـدراسات الفنيـة تقرر أن الامكانيات متوفرة على أوسع وأوثق ما يمكن لمضاعفة الدخل القومي، وميزانيات الدول بالتبعية اضعافاً مضاعفة بحسن الاستغلال والاستثمار وتنظيمهما وتوسيعهما.

- ٨ -

ومركز الوطن العربي الجغرافي الممتاز، وثرواته وكنوزه العظيمة، قد جعله منـذ أقدم الأزمنة إلى الآن، ذا خطورة كبيرة جداً في عالم الحرب والسياسة والمواصلات والحضارة، لفت وما يزال يلفت اليه أنظار العالم وأفكارهم واهتمامهم.

وهو بعد ـ وذلك من ميزاته الكبرى التي ينفرد بها عن غيره ـ منشأ الحضارة الإنسانيـة ومهدها، حيث شعّت فيه أنوارها الأولى، وخطا في مضمارها خطوات واسعة، بينما كان العالم غارقاً في ظلمات الجهل والتوحش، سواء من ناحية العمران الذي تشهد آثاره العظمى القائمة إلى الآن، في وادي النيل والعراق والشام، وجنوب جزيرة العرب، على ما بلغ من روعة وفخامة وابداع، ومن ناحية الثقافة التي كان أبرز مظاهرها اختراع الكتابة والقراءة ونشرهما، ومن ناحية العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والزراعية، ومن ناحية التشريع والحكمـة، ثم من ناحيـة الري، والفنون الأخرى، من موسيقى ونحت وتصوير ونقش وشعر وادب ـ وكذلك من ناحية التنظيم الإداري والقوة العسكرية؛ مما كان وما يزال من الأسس التي قامت عليها حضارة العالم منذ القديم إلى الآن.

وهو بعد هذا كله ـ وذلك من ميزاته الكبرى التي ينفرد بها عن غيره أيضاً ـ مهبط وحي الأنبياء الذين دعوا إلى التوحيد، وتلقوا كتب الله وشرائعه المقدسة. وانتشرت منه حتى شملت المعمورة، وأشرق بها الكون واهتدى. وقد ضم أماكن عبادات وولادة وحركات ورفات هؤلاء الأنبياء المقدسة الطاهرة، فغدا مهوى قلوب الموحدين في مشـارق الأرض ومغاربها، الذين يزيد عددهم عن نصف سكان المعمورة يتجهون إليه في عبادتهم اليومية، ويحجون إليه ليؤدوا فرائض الله فيه، ويتلون كتبه باللغة العربية القديمة(١٠) والحديثة التي أنزلت بها.

وقد نشأت فيه امبراطوريات عظمى قبل الإسلام وبعده، منها ما كان مركزه مصر، ومنها ما كان مركزه العراق، ومنها ما كان مركزه الشام. وكانت الامبراطورية الأموية التي مركزها الشام، والتي قامت في دور عروبة الجنس العـربي الصريحة بعد الاسلام، أعظمهـا، بل من أعـظم امبراطوريات التاريخ، حيث كان سلطانها شاملاً لجميع اجزاء الوطن العربي الكبير، ولقسم كبير من اسبانيا وهو الأندلس، ولجميع البلاد الإيرانية، وأقطار الترك والسند والأفغان، والبلوج حتى الصين والهند في آسيا، ولقسم كبير مما يعرف بآسيا الصغرى، ممتداً إلى بلاد الخـزر والقوقاز والأرمن شمالاً.

أما حالة هذا الوطن السياسية، ونظم الحكم فيه، فهي مختلفة كما يتضح من الموجز التالي الذي سيأتي شرح لتطوراته في الفصول الآتية:

١ - **الجمهورية المصرية**: وهي دولة مستقلة ذات سيادة، ونظام حكمها دستوري رئاسي، ولها مجلس أمة. وهي عضو في جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة.

٢ - **جمهورية السودان**: وهي دولة مستقلة ذات سيادة. ونظام حكمها دستوري نيابي. وهي عضو في جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة.

٣ - **المملكة الليبية**: وهي دولة مستقلة ذات سيادة. ونظام حكمها ملكي دستوري نيابي اتحادي، وهي عضو في جامعة الدول العربية، وفي هيئة الأمم المتحدة. ولبريطانيا والولايات المتحدة قواعد واتفاقات عسكرية فيها، بموجب معاهدات متطورة عن احتلال البلاد اثناء الحرب العالمية الثانية.

٤ - **الجمهورية التونسية**: وهي دولة مستقلة ذات سيادة. نظام حكمها دستوري رئاسي ولها مجلس أمة. وهي عضو في هيئة الأمم المتحدة وصارت عضواً في جامعة الدول العربية. ويقيم في أرضها قوات عسكرية افرنسية استمراراً على ما كان عليه الأمر قبل سنة ١٩٥٦ التي اعترفت فيها فرنسة لها بالاستقلال والسيادة وقد تم الاتفاق بينها وبين فرنسة على الجلاء سنة ١٩٦٢ وبوشر به.

٥ - **الجزائر**: وهي قطر عربي كان يتمتع بسيادة واستقلال فاعتدت عليه فرنسة سنة ١٨٣١ واحتلته وفرضت سيطرتها عليه بقوة الحديد والنار وما تزال. ويجاهد أهله جهاداً عظيماً في سبيل الحرية والاستقلال. وثورتهم الأخيرة في هذا السبيل ملتهبة بكل شدة وقوة منذ سنة ١٩٥٤. وقد تكللت الثورة بالنجاح واعترفت فرنسة باستقلال الجزائر وسيادتها في اتفاق عقد بين الفريقين في آذار ١٩٦٢ وقام في الجزائر دولة عربية مستقلة صارت عضواً في جامعة الدول العربية وفي هيئة الأمم في سنة ١٩٦٢ وقد بقي للافرنسيين فيها قطع عسكرية اتفق على جلائها تدريجياً بحيث يتم ذلك في سنة ١٩٦٥.

٦ - **مملكة المغرب**: وهي دولة مستقلة ذات سيادة ملكية النظام. وعضو في هيئة الأمم المتحدة. ويقيم في أرضها قوات افرنسية واسبانية عسكرية استمراراً على ما كان عليه الأمر قبل سنة ١٩٥٦ التي اعترفت فيها لها اسبانية وفرنسة بالسيادة والاستقلال. وللولايات المتحدة الأميركية فيها قواعد جوية مستندة إلى اتفاق بينها وبين فرنسة دون موافقة مراكش أثناء خضوع مراكش للسيطرة والحماية الافرنسية. وقد تم الاتفاق بين المغرب وفرنسة على الجلاء وبوشر به سنة ١٩٦٢ وتم الاتفاق بين المغرب وأميركا على تصفية القواعد وبوشر بها كذلك سنة ١٩٦٢. وانضمت المملكة إلى جامعة الدول العربية.

٧ - **المملكة العربية السعودية**: وهي دولة مستقلة ذات سيادة ملكية النظام. وعضو في

جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة. وللولايات المتحدة مطار في الظهران باجارة حرة غير متطورة عن احتلال أو انتداب(١١).

٨ ـ **المملكة اليمنية المتوكلية**: وهي دولة مستقلة ذات سيادة، ملكية النظام. وعضو في جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة. في ٢٨ أيلول عام ١٩٦٢ قامت ثورة عسكرية ضد النظام الملكي وتمكنت من إسقاطه وإقامة حكم جمهوري شعبي بديلاً منه.

٩ ـ **المملكة العراقية الهاشمية**: وهي دولة مستقلة ذات سيادة، ملكية النظام في نطاق حكم دستوري نيابي. وهي عضو في جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة. وهي مرتبطة مع بريطانيا باتفاق عسكري يمنحها حق الارتفاق في أرضها وقت الحرب وخطر الحرب، كما هي مرتبطة مع بريطانيا وتركيا والباكستان وايران بحلف لمقاصد عسكرية واقتصادية وسياسية. وهذا وذاك قد تما ليكونا بديلاً من المعاهدة العراقية البريطانية التي أعلن انهاؤها في شباط من عام ١٩٥٥ والتي كانت تمنح بريطانيا حق الارتفاق ومراكز جوية في الأرض العراقية والتي كانت متطورة عن انتداب متطور عن احتلال أثناء الحرب العالمية الأولى. في ١٤ تموز ١٩٥٨ قامت ثورة عسكرية ضد النظام الملكي قضت على الأسرة المالكة شعبيّاً وأقامت حكماً جمهورياً شعبيّاً بديلاً منه وألغت صلتها بحلف بغداد وأسقطت التزاماتها العسكرية نحو بريطانية فغدت دولة جمهورية مستقلة بدون أيّ شائبة.

١٠ ـ **المملكة الأردنية الهاشمية**: وهي دولة مستقلة ذات سيادة ملكية النظام في نطاق حكم دستوري نيابي. وهي عضو في جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة.

١١ ـ **الجمهورية السورية**: وهي الجزء الأكبر من بلاد الشام. وهي دولة مستقلة ذات سيادة دستورية نيابية. وعضو في جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة. في ٢٢ شباط عام ١٩٥٨ اتحدت سورية مع مصر في نطاق دولة واحدة برآسة واحدة فزال كيانها وعضويتها في جامعة الدول العربية وفي هيئة الأمم. وفي ٢٨ أيلول ١٩٦١ قامت فيها حركة عسكرية انقلابية بدسائس وأموال الملك حسين والملك سعود والاقطاعيين والاستقلاليين والحاقدين فأدى ذلك إلى فك الوحدة وعودة الكيان السوري إلى ما كان عليه. وفي ٨ آذار سنة ١٩٦٣ قامت حركة عسكرية جديدة قضت على عهد حكومة الانفصال غير أن الكيان السوري ظل قائماً. والأمر نفسه من الآن إلى أواسط مارس ١٩٦٣.

١٢ ـ **الجمهورية اللبنانية**: وهي مثل سورية نظاماً وحكماً واستقلالاً وسيادة. وعضو في جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة.

١٣ ـ **الكويت**: وهي امارة عربية واقعة على خليج البصرة وتحت الحماية والهيمنة الانكليزية من سنة ١٩٠٤. في سنة ١٩٦١ عدلت الكويت معاهدتها مع بريطانية. صارت بعد ذلك دولة مستقلة مع استعداد بريطانية لمساعدتها عسكرياً إذا طلبت ذلك. وصارت بعد ذلك عضواً في جامعة الدول العربية. وقدمت طلباً بالانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة مايس ١٩٦٣.

١٤ ـ البحرين: وهـي امارة عربية في خليج البصرة. وتحت الحماية والهيمنة الانكليزية من سنة ١٨٨٠.

١٥ ـ سلطنة مسقط: وهي تحت الحماية والهيمنة الانكليزية من سنة ١٨٨٠.

١٦ ـ امامة عُمان: وهي امارة إسلامية شرعية مستقلة. في سنة ١٩٦١ تآمرت بريطانية مع سلطان مسقط ضد امامة عمان عسكرياً واحتلت عاصمتها وبعض بلادها ونشب نتيجة لذلك نزاع مسلح بين أهل الامامة بقيادة الإمام والانكليز وسلطنة مسقط لا يزال مستمراً إلى الآن والإمام مشرد عن عاصمته. مايس ١٩٦٣.

١٧ ـ مشيخات وامارات قطر والشرجه ورأس الخيمة وأم الجوين والعجمان وأبي ظبي والفجرة. وقد كـانت هذه المشيخـات والامارات من ضمن مملكـة مسقط وعُمان. ثم دس الانكليز فيها دسائسهم وربطوا كلاً منها بمعاهدة خاصة فصارت تحت حمايتهم وهيمنتهم.

١٨ ـ سلطنة لحج مع عدن: وهي امارة عربية في الجنوب الغربي من جزيرة العرب وهي تحت الحماية والهيمنة الانكليزية منذ سنة ١٨٩٥.

١٩ ـ مشيخات الحواشب والضالع ويافع الأعلى ويـافع السفلى والصبيحـة والعوالق العليا والعوالق السفلى والواحدي والعـواذل. وقد كـانت في نطاق سلطان المملكـة اليمنية وسلطنة لحج، ثم دس الانكـليز فيها دسائسهم وربطوا كلاً منها بمعاهدة خاصة فصارت تحت حمايتهم وهيمنتهم. في سنة ١٩٦٠ قام بمسعى بـريطانية اتحاد باسم اتحاد الجنوب الجنوبي يضم نحو ٢٠ امارة ومشيخة. وصار بمثابة دولة اتحادية تحت الحماية البريطانية.

٢٠ ـ سلطنة حضرمـوت الجنوبية: وهي امارة عربية في الجنـوب الشرقي من جـزيرة العرب، وقد اخضعها الانكليز لحمايتهم من سنة ١٨٩٥ م.

٢١ ـ سلطنة حضرمـوت الشماليـة: وهي قسيمة الأولى. وقـد أخضعها الإنكليز كذلك لحمايتهم منذ سنة ١٨٩٥م.

٢٢ ـ سلطنة مهرة: وهي في الشرق الشمالي من حضـرمـوت وقـد اخضعها الانكليـز لحمايتهم كذلك منذ سنة ١٨٩٥م.

٢٣ ـ مشيخات الفشن وبئر علي وعقره وحوره وبلحـاف. وكانت في نـطاق سلطنتي حضرموت، ثم دس الانكليـز دسائسهم فـربطوا كـلاً منها بمعـاهدة حمـاية فصـارت تحت هيمنتهم.

ـ ١٠ ـ

وهذا الاختلاف في النظم والانفراد في الحكم والابتلاء بالاستعمار سبب جوهري من أسباب عدم انتفاع العرب أهل هذا لوطن العربي الكبير بالمركز الممتاز الذي يتمتع به وطنهم،

ولا بالثروات العظيمة الظاهرة فيه والمكنوزة، ولا بالخصائص التي يمتاز بها جنسهم. وسبب جوهري بالتبعية من أسباب ما يعيش فيه العرب من فقر وجهل وتأخر في مضمار الحضارة والاجتماع والاقتصاد ولما تقاسيه دولهم من ضعف مالي وعسكري واجتماعي، ولن يتيسر لهم ذلك الانتفاع على أحسن وأقوم سبيل يزول به فقرهم وجهلهم وضعفهم إلا بالوحدة. وستظل حالهم مرتبكة مبعثرة، وسيظل وطنهم عرضة للبغي والاستغلال والمطامع، ما لم تتم له هذه الوحدة. فإذا ما تمت تهيأت لهم أسباب القوة والتقدم والتكامل في ميادين الحضارة، وتبوأوا المكانة الممتازة التي تليق بهم، وبما كان لأسلافهم من امجاد عظمى سياسياً وعسكرياً وأدبياً واجتماعياً، ودر عليهم من الخير ما يجعلهم في مقدمة أمم الأرض قوة وحضارة ورفاهاً(١١)

ولقد كانوا كذلك واثبتوا قابلياتهم العظمى حيث كانت تجمعهم راية واحدة ودولة واحدة. وأركان الوحدة تتوافر في العرب ووطنهم الكبير على ما هو عليه من ضخامة وجسامة على أوسع مدى. بل لم تتوفر في وطن آخر صغير أو كبير مثل توافرها فيه حيث تتوافر الوحدة الجنسية والوحدة اللغوية والوحدة التاريخية والوحدة الروحية ـ على ما سوف يأتي شرحه في الفصول التالية ـ بالإضافة إلى توافر الوحدتين الجغرافية والاقتصادية اللتين هما من أركان الوحدة على ما شرحناه في ثنايا هذا الفصل(١٢)

ثانياً
توافر مقومات الوحدة في الوطن العربي

الوحدة الجنسية

- ١ -

إن البحث العلمي الحديث، لا يجعل الوحدة الجنسية العنصرية من المقومات الرئيسية للوحدة الوطنية والسياسية. فقد توطدت هذه الوحدة في بلاد، لا يجمع بين سكانها أصل جنسي وعنصري واحد. إلا أنه لا ينكر أن مثل هذا الركن، إذا توفر في بلاد ما، كانت الوحدة التي تقوم فيه أقوى وأشد تماسكاً من الوحدة التي لا تتوفر فيه، لأن في توفرها تتوفر وحدة الميول والطبائع، والتقاليد على اختلاف أنواعها.

وهذه الوحدة متوفرة في الوطن العربي منذ أقدم الأزمنة إلى الآن. فمهما تختلف آراء الباحثين في منشأ الجنس العربي، قبل وجوده في جزيرة العرب، فمعظمهم متفقون على أن هذه الجزيرة، منذ أن صار البشر يحيون نوعاً ما حياة مدنية وسياسية واجتماعية، ويخلفون آثارهم فيها لمن بعدهم، مما يحسب بدء التاريخ الإنساني والمدني القديم، كانت مأهولة بجماعات متشابهة في الملامح والطبائع، تتكلم لغة واحدة وان تعددت لهجاتها، وأن الأقوام التي سميت خطأ[١٣] بالأقوام السامية، وسجلت نشاطها السياسي والحربي والاجتماعي والعمراني والفكري العظيم في جنوب الجزيرة وشمالها، ثم في البلاد المجاورة للجزيرة، أي بلاد العراق والشام ووادي النيل، هم من هذه الجماعات.

ولقد عقد الدكتور جواد علي، في الجزء الأول من كتابه، تاريخ العرب قبل الإسلام، فصلاً خاصاً عى موضوع السامية والساميين، جاء فيه، فيما جاء، أن المعنيين بلغات الشرق الأولى، لاحظوا وجود أوجه شبه ظاهرة بين البابلية والأشورية والكنعانية والعبرانية والآرامية والعربية، واللهجات العربية الجنوبية، والحبشية والنبطية وأمثالها، من حيث اشتراكها، أو

تقاربها في جذور الأفعال، وتصاريفها، وزمني الفعل الرئيسيين التام والناقص، أو الماضي والمستقبل، وفي أصول المفردات والضمائر والأسماء الدالة على القرابة الدموية والأعداد، وبعض أعضاء الجسم، وفي تغير الحركات في وسط الكلمات، الذي يحدث تغيراً في المعنى، وفي التعابير التي تدل على منظمات الدولة والمجتمع والدين، فقالوا بوجود وحدة مشتركة تجمع شمل الأقوام التي تتكلم بها، واطلقوا عليها اسم الجنس السامي، وعلى اللغات التي تكلمت بها اسم اللغات السامية، ثم اختلفوا في مهد هذا الجنس، فرأى فريق منهم أنه جزيرة العرب، وفريق آخر أنه بابل، وفريق ثالث أنه افريقية، وفريق رابع انه آسيا الصغرى. وقد أيد الرأي الأول عدد كبير، أو العدد الأكبر منهم أمثال شبرنكر وسايس وشرادر ودي كويه وهوبرت كومه وكارل بروكلمن وكينك وجول ماير وكول، نتيجة لاستقرآات واستنتاجات اجتماعية ودينية ولغوية وتاريخية. والمستفاد مما جاء في هذا الفصل، ان الذين قالوا بالآراء الأخرى، إنما قالوها بالنسبة للمهد الأصلي وحسب. وان كثيراً منهم يقررون أن الجنس السامي، حسب الاصطلاح الدارج، والجنس العربي، وهو الاصطلاح الأصح، قد هاجر من مهده الأصلي إلى جزيرة العرب أو اطرافها، وانتشر فيها، ثم أخذت موجاته تنساح منها إلى ما يجاورها عوداً على بدء؛ بحيث يبدو من هذا، أن معظم الباحثين يتفقون على أن جزيرة العرب، هي مصدر الموجات التي خرجت إلى الأقطار المجاورة لها، وعمرتها منذ أقدم الأزمنة.

ولقد جاء في كتاب: «الأساس في الأمم السامية ولغاتها» للابراشي «أنه على أي تقسيم لمجاميع اللغات، سواء أكان مبنياً على رواية الكتاب المقدس، أم البحث العلمي، وسواء أكان عدد المجاميع ثلاثاً أو عشراً، توجد جماعة بشرية واحدة كونت جنساً بشرياً واحداً، وقد اتصلت شعوبه اتصالاً وثيقاً، وارتبطت بكل الروابط الطبيعية التي تجعلها حقيقة جنساً بشرياً واحداً على مبدأ أيّ تقسيم. وهذا الجنس هو الجماعة الكبرى المعروفة، باسم الجنس السامي، والذي تعرف شعوبه أيضاً بالشعوب السامية، ولغاته باللغات السامية، والتي تحضرت في أطراف الجزيرة العربية، وفيما وراء هذه الأطراف، مع بقاء نوع التفكير والخيال واحداً، بما تقدّم من الأسباب وبحكم قانون الوراثة. وقد كانت نشأة جماعتها ومهدها الأول في هذه الجزيرة، ومن هذا المهد الأول هاجرت مرة بعد أخرى دون انقطاع. وخلاصة القول، والنتيجة المنطقية له، أن الجماعة السامية هي الجماعة العربية، وأن مهد الساميين الأول، هو مهد هذه الجماعة العربية الأصلي، وهو نجد والحجاز والعروض واليمن، وما إلى هذه البقاع. ومنها كانت الهجرات السامية الأولى إلى شمال الجزيرة، ومشارف الشام والعراق، حتى تخوم بلاد ايران، ثم إلى بلاد الحبشة ووادي النيل، وان الأمة العربية قديماً وحديثاً هي الجنس السامي بأكمله، ومنزلة جميع الوحدات السامية من العرب، منزلة الشعوب المتفرعة عن أمة واحدة، مع دوام اتصال الفرع بالأصل، واستمرار المدد من الأصل إلى الفرع. ومنزلة اللهجات السامية من اللغة العربية، منزلة الفروع الدانية من الأصل الواحد. وانه بمقارنة اللغات السامية مقارنة لفظية، اتضح للباحثين فيها، أن أصول كلماتها واحدة مشتركة، وكثيراً ما تكون معاني هذه الكلمات الأصلية لا تتغير فيها بمعنى كذا في اللغة العربية ـ الفصحى ـ وبه نفسه في اللغات العبرانية، أو السريانية،

أو أي لغة ساميّة أخرى، وفي بعض الكلمات نرى الاشتراك اللفظي، مع التحوير بالمعنى، بأن تكون الكلمة في اللغة العربية بمعنى، وهي بلفظها في العبرانية والسريانية بمعنى آخر. غير أن العلاقة بين المعنيين لا تلبث أن تبدو ببحث يسير. ويظهر أن التغيير قد جاء بناء على التطور المعروف في معاني الكلمات، وبالمقارنة اللفظية الفنية أصبح مما لا جدال فيه مطلقاً، أن جميع اللغات السامية الداخلة في مجموعة واحدة، هي لهجات متقاربة جداً، ترجع إلى لغة واحدة، وان جميع الشعوب التي تتكلم بها، هي فروع جنس واحد، يرجع إلى جماعة أولى، هي أصل هذه الفروع. وبمقارنة لغتين من هذه اللغات مقارنة معنوية أدبية، نخرج بنتائج قيمة صادقة في شأن العلاقات التي تربطها ببعضها في الشؤون الدينية، وأنواع الصناعات العملية المكونة للحضارة والنظر العلمي والاجتماعي، والنظر الفلسفي، والمجهود العقلي والتاريخي، في حدود الروايات والأساطير، والمجهود العقلي الأدبي المعبر عن الذوق وسمو الروح. ولقد جاء في كتاب تاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولنغستون: إنّ اللغات السامية تتميز في بعض أحوالها عن أنواع اللغات الأخرى بميزات وخصائص، تجعل كلًّا من هذه اللغات كتلة واحدة. وأهم هذه الميزات هي:

١ ـ إن اللغات السامية تعتمد على الحروف الصامتة وحدها، ولا تلتفت إلى الأصوات، بمقدار ما تلتفت إلى الصامتة.

٢ ـ أغلب الكلمات السامية يرجع اشتقاقه إلى أصل ذي ثلاثة أحرف أو حرفين.

٣ ـ يسود على اللغات السامية ظاهرة الفعل، لأن اشتقاقات كلماتها، هي في الأصل من فعل.

٤ ـ ليس في اللغات السامية أثر لادغام كلمة في أخرى، حتى تصير الاثنتان كلمة واحدة، تدل على معنى مركب من كلمتين مستقلتين، كما هي الحال في غيرها.

٥ ـ الاعراب، ولا يزال هناك شيء من بقايا الاعراب في أغلب اللغات السامية.

وتظهر أوجه الشبه في أغلب اللغات السامية خاصة، في الأشياء التي كانت معروفة لهم جميعاً، كأعضاء الجسم والضمائر، حيث هي متقاربة في جميعها تقريباً، مما فيه دلالة على كون الناطقين بهذه اللغات من أصل واحد، وإن أجدادهم كانوا أعضاء كتلة واحدة.

ولقد كانت العوامل الطبيعية والاجتماعية، مثل الجفاف، وشح الماء والقحط، وقلة الكلأ، والمنازعات القبيلية، تعمل عملها في جزيرة العرب منذ الأحقاب السحيقة في القدم، فتحفز جماعات من سكانها إلى الانسياح إلى الأقطار المجاورة جنوباً وشمالاً قبل بروز العروبة الصريحة(١٤)، ثم ظلت هذه العوامل التي هي ظاهرة طبيعية واجتماعية من ظواهر الجزيرة، تعمل عملها دوراً بعد دور، بعد بروز العروبة الصريحة قبل الإسلام وبعده، وما تزال، فيكون في هذا التلاحق المتواصل المتحد في طبيعته وحوافزه ومجراه، الدليل على وحدة الأصل والجنس والمنشأ بين سكان الجزيرة والأقطار المجاورة لها، ويكون فيه وسيلة مستمرة إلى توثيق

الصلات والروابط والوحدة بين القلب والأطراف، وتجديد دم الجنسية العربية وحيويتها وطابعها، مما لا يكاد يكون له مثيل في الدنيا.

- ٢ -

وهكذا أخذت بلاد الشام ساحلها وداخلها وجنوبها وشمالها وباديتها، منذ أكثر من خمسين قرناً، تعمر بالموجات الكبرى التي جاءت إليها من الجزيرة رأساً، أو بطريق العراق، والتي عرفت باسماء الكنعانيين - والفينيقيون فرع منهم - والعموريين والآراميين، وبالموجات الصغرى التي كانت تنساح من حين إلى حين، كنتيجة لهذه الموجات الكبرى وتابعة لها، والتي لم تذكر باسم خاص في الأسفار والآثار، وهذا قبل بروز العروبة الصريحة، ثم بالعربيبين، والثموديين، واللحيانيين، والقيداريين، والنبطيين، والتدمريين، والعبابيد، والمرسمان، والخبايا، والدنجريين والقحطيين والبازيين في أوائل بروز العروبة الصريحة، ممن جاء ذكرهم في النقوش والمدونات القديمة(١٥)، وغيرهم ممن لا تعرف اسماؤهم، ولكن الآثار والقياس يؤيدان انسياحهم، ثم للعلافيين والجهنيين والبلويين والقضاعيين والضجاعمة والتنوخيين والكلابيين والطائيين والتغلبيين والبكريين والقاسطيين والتميميين والداريين والغساسنة والأيطوريين والعامليين وغيرهم، ممن وردت أسماؤهم في المدونات العربية، وبقيت أنسالهم إلى ما بعد الإسلام، والذين كانوا يملأون جنبات بلاد الشام المختلفة، وذلك في دور العروبة الصريحة قبل الإسلام(١٦). وأخذ السابقون واللاحقون ينسكبون في بوتقة هذه العروبة بسهولة ويسر، وتتوارى الشخصيات واللهجات غير الصريحة في عروبتها، حتى إذا جاءت موجة الفتح الإسلامي الكبرى، قويت عملية الانصهار وتكاملت، حتى غدت العروبة طابع هذه البلاد الخالد.

ثم استمرت الموجات متلاحقة، تقوي عملية الانصهار، وتمد عروبة بلاد الشام بالدم والحيوية، وتغذي المدن والقرى، فتفسح لغيرها المكان في البادية الشامية التي تعج الآن بالقبائل العربية التي منها ما يرجع طروؤه إلى قرن وقرنين وثلاثة وأكثر، فيتمثل في هذا صورة حية، لما كان يجري الأمر عليه منذ آلاف السنين.

كذلك كان شأن العراق.. حيث أخذ يعمر منذ أكثر من خمسين قرناً بالموجات الكبرى التي كانت تنساح إليه من جزيرة العرب رأساً، أو بطريق الشام، والتي عرفت بالكلدانيين والأكاديين والعموريين والآشوريين والآراميين، وبالكثير من الموجات الصغرى التي كانت تلحق بهذه الموجات، وتندمج فيها، قبل بروز العروبة الصريحة، ثم بالتنوخيين واللخميين والشيبانيين والتغلبيين والأسديين والبكريين والنزاريين والكنديين والمذحجيين وغيرهم وغيرهم، ممن ذكرتهم مدونات العرب، وبقوا إلى ما بعد الإسلام، وممن لم تذكرهم، والذين كانوا يملأون جنبات العراق في دور بروز العروبة الصريحة قبل الإسلام(١٧). وقد أخذت انسال الموجات العربية القديمة غير الصريحة، وأجيال الموجات الصريحة، ينسكبون في بوتقة

العروبة الصريحة بسهولة ويسر، وتتوارى الشخصيات واللهجات غير الصريحة في عروبتها، حتى إذا جاءت موجة الفتح الإسلامي الكبرى قويت عملية الانصهار وتكاملت، حتى بدت العروبة طابع هذه البلاد الخالد. ثم استمرت الموجات متلاحقة تقوي عملية الانصهار، وتمد عروبة البلاد بالدم والحيوية، وتغذي المدن والقرى، فتفسح لغيرها المكان في البادية العراقية التي تعج الآن بالقبائل العربية التي منها ما يرجع طروؤه إلى قرن أو قرنين أو ثلاثة ـ الخ. . فيتمثل في هذا كذلك صورة حية لما كان يجري عليه الأمر منذ آلاف السنين.

وكذلك كان شأن وادي النيل، الممتد من سواحل البحر الأحمر وبحر الهند شرقاً، إلى صحراء السودان الغربي غرباً، ومن شبه جزيرة سينا والبحر الأبيض شمالاً، إلى منطقة خط الاستواء جنوباً، حيث أخذت هذه المناطق الواسعة تعمر بالموجات التي كانت تنساح إليها من جزيرة العرب، عن طريق سيناء وبرزخ السويس تارة، وعن طريق باب المندب تارة، مستمرة متلاحقة، حتى إذا جاءت موجة الفتح الإسلامي الكبرى، أخذت انسال الموجات الأولى تنسكب في بوتقة العروبة الصريحة التي كانت طابع هذه الموجة، فلم يمض بضعة اجيال حتى تكامل الانصهار، وغدت العروبة طابع هذه البلاد الخالد أيضاً. وقد ظلت عملية انسياح القبائل العربية متلاحقة، بعد الفتح الإسلامي، فكانت وسيلة مستمرة لقوة رسوخ ذلك الطابع، ولتغذية المدن والقرى، فينفسح المكان لغيرها في مختلف انحاء وادي النيل التي تعج الآن بالقبائل العربية الصريحة العروبة بأسمائها وأصولهـا، والتي يبلغ عددهـا أكثر من مليـون في مصر، وملايين عديدة في السودان والحبشة وسواحلهما، والتي منها ما يرجع طروؤه إلى قرنين وثلاثة وخمسة، فيتمثل في هذا صورة حية لما كان يجري الأمر عليه منذ آلاف السنين. وهذا عدا الملايين العديدة التي اندمجت في حياة القرى والمدن في وادي النيل، والتي تحتفظ بعاداتها وتقاليدها واحسابها العشائرية.

وإذا كان التاريخ القديم، لا يمدنا بأسماء معينة للموجات العربية الكبرى التي انساحت إلى وادي النيل قبل الإسلام، كما فعل بالنسبة للعراق والشام، فأوجد في الأذهان فراغاً بالنسبة لصلة مصر بالعروبة وجزيرة العرب منذ الأزمنة القديمة، فمرد هذا إلى طبيعة التسجيل التاريخي المصري الذي نحا نحو تعداد الأسر والدول، وليس من شأنه أن ينقض ما نقرره ، من كون معظم سكان مصر الأقدمين، وخاصة الذين انشأوا ممالكها وحضارتها المعروفة تاريخياً، هم من الجنس العربي كسكان العراق والشام. لأن ذلك مؤيد بالوقائع المستمرة المتلاحقـة التي لم تنقطع، حتى غدت حقائق تاريخية.

على أن كثيراً من الباحثين، يقررون، برغم ذلك الفراغ، واستناداً إل الدراسات الأثرية وغير الأثرية، أن معظم سكان وادي النيل هم موجات جاءت من جزيرة العرب. وكان أكثرها ينساح من الجنوب، حيث ينزل في سواحل أثيوبيا، فينتشر ويستقر بعضها في مختلف أنحائها، ويتجه بعضها إلى الشرق والشمال، فينتشر منها جماعات في أنحـاء السودان، ويـطرق منها جماعات أرض مصر، فتنتشر وتستقر فيها.

ولقد سجلت النقوش المصرية التي ترجع إلى أربعين قرناً قبل الميلاد، فما بعد قيام ملوك مصر بحملات تأديبية عديدة على حدود الدلتا الشرقية في الشمال، وحدود النوبة والسودان في الجنوب، لرد عدوان القبائل التي لم تفتأ تنساح إلى مصر من الجهتين، واهتمامهم لتحصين حدودها في سبيل ذلك. كما سجلت تسرب قبائل عديدة من الجهتين قبل الشاسو، واستقرارها في القطر المصري، واستعانة ملوك مصر بها في حروبهم، مما فيه الدلالة الحاسمة على عملية الانسياح، من جزيرة العرب، إلى وادي النيل منذ الأزمنة القديمة.

ولقد كانت موجة الشاسو أو الهكسوس التي طرأت على مصر من طريق برزخ السويس، والتي لا يكاد يختلف أحد في أصلها العربي حسب الاصطلاح الأصح، واستيلاؤها عليها، واقامتها فيها كياناً وسلطاناً؛ امتدا مئات السنين، وتسربُ جماعات عديدة من أرومتها إلى مصر، وغلبةُ لغتهـا وطابعها عليها، وقيام معظم أسر الدولة الأخيرة منها، خلال خمسة عشر قرناً، أي من نحو سنة ٢٠٠٠ إلى سنة ٥٠٠ ق. م، على ما قرره المؤرخون والأثريون الذين منهم جمس بريستيد في كتابه «تاريخ مصر من أقدم العصور»، وأحمد كمال الأثري المشهور في كتابه «العقد الثمين»، وشاروبيم في كتابه «الكافي في تاريخ مصر»، وغيرهم دليلًا حيّاً من الأدلة على ما كان يجري قبلها من تسرب الموجات العربية إلى مصر، من طريق الشمال حيناً، والجنوب حيناً.

وإذا كانت السحنة المصرية، والمفردات اللغوية المصرية القديمـة، جعلت الباحثين يرجحون انسياح عناصر أفريقية سوداء إلى وادي النيل منذ الأزمنة القديمة، فإنهم يقررون في الوقت نفسه، أن سحنـة الملوك والكهان والأمـراء والحكام والـطبقات الـرفيعة، والـطبقات الصناعية التي اكتشفت مومياؤهم وصورهم وتماثيلهم، في مختلف انحاء وادي النيل، تمتّ إلى الجنس الأبيض. ومنهم من يقرر صراحة أنها تمتّ إلى الجنس السامي ـ العربي ـ وأن تلك القبائل السوداء، لـم تكن أكثر من قسم من السكان الثانويين، وكل ما في الأمر أنها كانت ذات أثر في تكوين سحنة ولون ولهجة خـاصة لسكـان وادي النيل، نتيجـة لاختلاط دمـائها ولغـاتها بالموجات العربية.

ويؤيد الباحثون تقريراتهم هذه، بمقارنات لغوية وفيزيولوجية وتاريخية. ولقـد جاء في «كتاب الأثر الجليل لسكان وادي النيل» لأحمد نجيب العالم الأثري: «ومن تأمل في التماثيل القـديمة المصـرية المحفـوظة بـدار المتحف، علم يقيناً أن هـذه الأمة من الجنس الأبيض الآسيوي، وأن كثيراً من لغتهم تشابه اللغة العبرانية والآرامية»، وان خلاصة القول هي أن أصل المصريين من الجنس السامي، أتوا إلى هذا الوادي من برزخ السويس، وربما وجدوا فيه طائفة من الزنوج. ولقد جاء في كتاب «تاريـخ السودان العـام» للدكتور حسن كمـال، استناداً إلى البحوث والاستقرائات التي أسهب فيها «أن المصـريين والسودانيين جـاؤوا من بلاد العـرب عن طريق الصومال». كما جاء فيه «أن المصريين لم ينسوا في وقت من الأوقات بلاد السودان التي كانت طريقهم إلى مصر من بلاد العرب الجنوبية التي ظلت معمورة بأقوام من جنسهم المتحد معهم في العادات واللغة والقوانين، وكل ما هنالك أنه طرأ على مصر عناصر زنجية امتزجت بالقادمين من تلك البلاد، فاكتسبوا سحنتهم من امتزاجهم بها». ولقد جاء في كتاب

«تاريخ مصر قبل الفتح العثماني» للاسكندري وسفيدج «أنّ أرجح الآراء أن مؤسّس حضارة مصر الأولى التي ترجع إلى ما قبل الأسر الملكية قوم لوبيو الأصل، غير أن حضارتهم ليست هي أساس مدنية المصريين الذين تكونت منهم الأسر المختلفة، والذين وصلوا بمصر إلى أعظم درجات الرقي. وقد ثبت أن هؤلاء الأقوام ساميون، قدموا إلى مصر من آسيا ولا يعلم يقيناً من أين دخلوا. فهناك من يقول انهم دخلوا من برزخ السويس، وهناك من يقول أنهم جاؤوا عن طريق الجنوب، وعلى كل حال فالمعلوم يقيناً أن الذين نشأ منهم «مينا» ، أول ملوك الأسرة الأولى للمملكة المصرية القديمة، كانوا قبل ظهوره يقطنون الجهة الجنوبية من مصر؛ وان مما يدل على أن أجدادهم من الساميين أن أقدم ما وصل من لغتهم يغلب فيه العنصر السامي».

ولقد جاء في كتاب «تاريخ مصر من أقدم العصور» لبريستيد، من مشاهير علماء الآثار المصرية والتاريخ المصري (ترجمة الدكتور حسن كمال) « إن جماعات من الليبيين والجالا والصومال والبجا، كانوا يطرأون على مصر منذ أقدم الأزمنة، وان المعروف إلى هذا أن أقواماً ساميين من عرب آسيا طرأوا على وادي النيل، وعمموا لغتهم فيه، وصبغوه بصبغتهم، كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة، وأن لغتهم حافظت على ساميتها مع مرور الزمن، بالرغم مما طرأ عليها من تغيير وتحريف باختلاط السكان، وان تاريخ الهجرات السامية الأولى، يرجع بلا مراء إلى ما قبل العصور التاريخية المعروفة، وان من الثابت أن هذه الهجرات تكررت مراراً في العصور التالية، وانه إذا كان من الصعب معرفة الطريق التي سلكوها، فالأقرب للذهن أن يكونوا أتوا من برزخ السويس، كما فعل العرب في بداية الإسلام».

ولقد نبّه جبرائيل هانوتو في مقدمة كتابه «تاريخ الجنسية المصرية» التي عقدها على بحث أصل سكان مصر، على بروز ميزات العنصر السامي في سحن وصور ومحنطات ملوك مصر منذ أقدم أزمنة التاريخ المصري، أو بتعبير أدق ملوك الدولة الأولى وما بعدها، والأسلاف الذين انحدروا منهم، والذين طرأوا على مصر من شمالها الشرقي ومن جنوبها الشرقي، وإن كـان اضاف إلى هذا أن الدم المصري مزيج من عناصر سامية وافريقية وأوروبية من سكان شواطىء البحر الأبيض.

ولقد قال العالم الأثري الافرنسي ويجيل في كتابه تاريخ مصر القديمة ان الساميين هم أصل سكان مصر، وانه كان منهم قبل الأسرة الأولى من الدولـة الأولى ستون ملكـاً واستمر حكمهم أكثر من ألف عام. وقال جوستاف جيكي استاذ الأثريات المصرية في كلية نيوشاتل في كتابه «تاريخ المدنية المصرية» إن سكان مصر القدماء، جاؤوا إليها من جزيرة العرب، قبل ستة آلاف سنة، وان الأسر الفرعونية الأولى من هؤلاء القادمين. وقال مثل هذا هنري بروخ الألماني، وهنري جونسون الانكليزي في كتابيهما تاريخ مصر أيضاً (وهذه الأقوال الثلاثة جاءت في بحث تاريخي للبحاثة السوري المعروف منير الشريف).

ولقد قال المؤرخ التركي أحمد رفيق، في الجزء الأول من كتابه «التاريخ العام» استناداً إلى «تاريخ مصر القديم» لإدوار ماير، و«مصر وحياتها في العصور القديمة» لادولف أرمان،

و«تاريخ مصر» لويدمان و«تاريخ مصر في حكم الفراعنة» لبرغسن و«التـاريخ العـام» لشبامـر و«تاريخ الأمم القديمة» لماكس دونكر (وهم من علماء ومؤرخي الألمان) إن معظم علماء تاريخ مصر يقررون أن المصريين القدماء قد جاؤوا من آسيا الغربية، ومنهم من جاء عن طريق باب المندب من الجنوب، ومنهم من جاء عن طريق برزخ السويس من الشمال، وأن بين لغتهم واللغات السامية في مفرداتها وصرفها ونحوها مشابهة كبيرة.

ويقرر العالم الأثري المشهور أحمد كمال على ما جاء في كتاب «تاريخ السودان العام» للدكتور حسين كمال، أن أصل اللغة المصرية واللغات العربية واحد، وأن الاختلاف الظاهـر بينهما ليس إلا نتيجة لاسقاط بعض كلمات في بلاد العرب وبقائها في وادي النيل أو العكس، ثم نتيجة لما يعتري الكلمات من القلب والابدال، وما يطرأ على اللغات من تغير من معاملة الأجانب.

ولقد وضع هذا العالم قاموساً أثبت فيه اشتراك أكثر من عشرة آلاف كلمة بين المصرية القديمة والعربية كدليل على ما قرره.

ولقد جاء في كتاب الحضارة المصرية لغوستاف لوبون: «إن كل جذور اللغة المصرية القديمة، ومعظم قاموسها القديم، يتركب من عناصر سـامية، حتى أجـروميتها، أي صـرفها ونحوها، فيما يتصل بتركيب المؤنث والمذكر والجمع. والكمات الدخيلة على الأصل السامي، ترد إلى الجنس الأسود الذي طرأ على مصر في بعض الظروف.

ولقـد جاء في كتـاب «تاريـخ السودان القديم» للدكتـور حسن كمال، ان المصـريين والسودانيين من أصل واحد. وقد جاء أسلافهم إلى وادي النيل من بلاد العـرب، عن طريق الصومال، على ما تدل عليه البحوث والاستقراءات. وقد نقل هذا المؤلف عن ديودور الصقلي قوله: إن أصل المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية، نزلوا إلى شواطىء أثيوبيا، ثم تقدموا نحو الشمال، حتى دخلوا مصر. وبسبب ذلك يقول الاثيوبيون: إن مصر من مستعمراتنا، على اعتبار أن سكانها القدماء جاؤوا من ناحيتهم.

والذي يستعرض آلاف اسمـاء القرى والمـدن والاعلام المصـرية القـديمة في كتـاب «الخطط التوفيقية» لعلي مبارك، يلمس اللمحة العربية القديمة على معظمها، ويرى دليلاً قوياً ما يزال قائماً على الصلة القديمة بين مصر القديمة والعروبة.

وإذا كنا قد اهتممنـا لإيراد أقوال المؤرخين والباحثين والأدلة على صلة مصر القديمة بالعروبة، دون بلاد الشام والعراق، فذلك بسبب كون صلة سكان هذه البلاد بالعروبة القديمة، مما هو مسلم به، ومستقر في الأذهان أكثر، فقصدنا من ذلك احباط مكر اعداء العـروبة من شعوبيين ومستعمرين ومبشرين مغرضين، وتلامذتهم وصنائعهم الذين تتجاوز مكابـرتهم كل منطق، فيتجاهلون ويكابرون حتى في ما سجلته الآثار المصرية القديمة، من محاولات التسلل العربي إلى مصر، من شمالها وجنوبها، ومن نجاح كثير من هذه المحاولات على شكل واسع

حيناً وضيق حيناً، ويتجاهلون كذلك السيل العربي الصريح الذي أخذ يتدفق على مصر منذ الفتح الإسلامي إلى الآن، عن طريق الجنوب حيناً، والشمال حيناً، دون انقطاع، ويغمر مدنها وقراها وصحاريها، والذي تفوق أعداده اعداد سكان مصر قبل الإسلام أضعافاً مضاعفة، والذي يتمثل في كل ناحية من أنحاء مصر، وفي كل مظهر من مظاهر حياتها وتقاليدها ولغتها تمثلاً شاملاً قوياً؛ استمراراً لما كان يجري قبل الإسلام، ودليلاً حياً دائماً عليه، بقصد فصل تاريخ مصر عن تاريخ العرب، ليوقروا في أذهان المصريين، وهن الصلة بينهم وبين العروبة، ويجعلوهم يعتبرون العرب الذين جاؤوا هذه المرة، تحت راية الإسلام، غزاة كسائر الغزاة الذين طرأوا على مصر، ووطدوا حكمهم فيها بالقوة العسكرية، وحسب، برغم ما هنالك من فرق، هو أنهم اعطوا مصر دينهم ولغتهم. حتى لقد جاء وقت حاربوا فيه مظاهر العروبة أشد حرب، وحاولوا أن يجعلوا النعرة الفرعونية أصلاً في الحياة المصرية، بزعم أنها تطغى مع الزمن على النعرة العربية الإسلامية، ودعوا إلى نبذ اللغة الفصحى، والاكتفاء بالعامية، ذهاباً منهم إلى أنها سوف تتطور، حتى تبتعد عن أصلها، وتغدو لغة خاصة، فتنقطع الصلة بين مصر والعروبة بزعمهم.

ولقد كان من حين لآخر يطرأ حقاً على بلاد الشام والعراق ووادي النيل موجات من غير جزيرة العرب فيتأثر بها أبناء موجات الجزيرة العربية اجتماعياً وثقافياً ولغوياً بل ودموياً. غير أن تلاحق موجات جزيرة العرب منذ أقدم الأزمنة دون ما انقطاع تقريباً كان وظل يجعل تأثرها محدوداً ويجعل خصائص الجنس العربي هي الأقوى والابرز.

- ٣ -

ومن الجدير بالذكر، أن اليونانيين، ثم الرومانيين من بعدهم، ظلوا أصحاب السلطان في بلاد الشام ومصر، نحو ألف عام ٣٣٠ ق م - ٦٤٠ ب م. وكانوا أصحاب سلطان نافذ، وأصحاب ثقافة وحضارة وعلم. واستوطن جماعات كثيرة منهم هذه البلاد، ونشروا لغتهم وثقافتهم فيها، ثم جمعهم دين واحد، نحو أربعة قرون، أي من سنة ٣٠٠ بعد الميلاد، إلى سنة ٦٤٠ . وكانت الطقوس تقام في ظروف كثيرة بلغتهم، والكتب المقدسة تكتب بها، فلم يكن كل هذا يجعلهم مستطيعين أن يبدلوا شيئاً مهماً من روح سكان البلاد وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم، بل وكان لهم تأثير غير يسير عليهم، في حين أن انسال الموجات العربية والقديمة غير الصريحة، لم يلبثوا أن أخذوا ينسكبون في بوتقة العروبة الصريحة، حتى غدت هذه العروبة طابعهم الشامل، بعد بضعة أجيال من قدوم موجة الفتح الكبرى، والذين كانوا في الشام، قد أخذوا ينسكبون في هذه البوتقة قبل الإسلام، حينما أخذت الموجات العربية الصريحة تنساح إليها، مما فيه الدليل الحاسم على وحدة السلالة والمقومات واللغة.

وهذه الظاهرة سجلت قيامها في العراق. فقد كان الفرس أصحاب السلطان فيه نحو ألف سنة أو تزيد (٤٤٠ ق م - ٦٤٠ ب م)، باستثناء بعض فترات قصيرة، وكانوا أصحاب سلطان قوي نافذ، وأصحاب ثقافة وحضارة وأبهة وعلم ولغة رنانة، وكان لهم في شمال العراق حقول

ومزارع عظيمة، يقيمون فيها عمالاً ودهاقين منهم؛ فلم يكن كل هذا يجعلهم مستطيعين أن يبدلوا شيئاً مهمّاً من روح سكان البلاد وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم؛ في حين أن انسال الموجات العربية القديمة غير الصريحة، لم يلبثوا أن أخذوا ينسكبون في بوتقة العروبة الصريحة قبل الإسلام، حينما أخذت الموجات العربية الصريحة تنساح إليه، ثم غدت طابعهم الخالد الشامل بعد بضعة أجيال من قدوم موجة الفتح الكبرى.

ولقد تسلط الترك على الدولة العباسية في القرن الثالث الهجري، ثم ظلوا أصحاب السلطان الأعلى في العراق وبلاد الشام ومصر ـ باستثناء فترة الدولة الفاطمية التي كان الترك مع ذلك عنصراً بارزاً فيها ـ تحت أسماء وعناوين متنوعة، إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري، أي أكثر من ألف عام أيضاً، وكانوا يأتون جماعات كبيرة إلى هذه البلاد يستوطنونها، وتكون جمهرة الجيوش والعمال والموظفين منهم، وتمتلىء بهم كذلك البيوت والقصور والأسواق والأعمال؛ وكان العراق خاصة أكثر من غيره انغماراً بهم، لأنه كان مركز تكثّفهم، فلم يستطيعوا أن يبدلوا شيئاً كثيراً من روح وعادات ولغة سكانه، حيث احتفظ هؤلاء بطابع جنسهم العربي ولغتهم العربية وخصائصهم القومية، بل وطبعوا الذين استوطنوا بلادهم منهم بقوة الطابع العربي القومي الذي اكتسب قوة من الاسلام والقرآن، وبفضل ما ظل ينساح إلى بلاد الشام والعراق ومصر من موجات في مختلف الأوقات.

ـ ٤ ـ

وبالنسبة لوحدة الجنس بين العروبة والبلاد المغربية نقول: انه مهما يكن من أمر جنسية البربر قبل الإسلام، وما يقوله بعض الباحثين من أنهم امتدادات لموجات عربية الجنس، طرأت على وادي النيل قبل الأزمنة التاريخية، فإن من الحقائق التاريخية أن هذه البلاد كانت مهجر موجة عربية الجنس، وهي الموجة الكنعانية الفينيقية التي كانت طرأت على سواحل بلاد الشام، حيث تمرست بالملاحة والتجارة. وكان البحر الأبيض المتوسط مجال نشاطها، وطفقت تنشىء المراكز الملاحية والتجارية التي بلغت المئات في مختلف سواحله الشمالية والجنوبية، ثم تكاثف منها في القرن العاشر قبل الميلاد وبعده، جماعات في اقليم تونس بنوع خاص، وأسست الدولة التجارية البحرية الكبرى المشهورة بدولة قرطاجنة، حيث ينطوي في هذا حقيقة تسرب الانسال والدماء العربية إلى هذه الأقاليم قبل الإسلام بقرون عديدة، ثم غدت عرضة لانسياح الموجات العربية الصريحة في عهد مبكر من ظروف الفتح الإسلامي، حيث سيّر عمرو ابن العاص، فاتح مصر، حال ما انتهى من توطيد السلطان العربي في مصر، حملة عربية نحو ليبية. ثم حذا حذوه عبد الله بن سعد الذي عين مكانه في زمن عثمان بن عفان، فسير حملة عربية نحو تونس، ثم أخذت الحملات ، أو بالأحرى الموجات العربية تتابع نحو بلاد المغرب في عهد الأمويين حتى أتمت توطيد السلطان العربي في جميع انحائها، قبل انتهاء القرن الهجري الأول. ثم قفزت منها إلى الأندلس، فوطدت فيها هذا السلطان. ولم تنقطع الموجات العربية عن الانسياح في بقية عهد الدولة الأموية، ثم في عهد الدولة العباسية والفاطمية ، حيث ظلت تتلاحق وتملأ جنبات بلاد المغرب، حتى غدا طابع العروبة بارزاً عليها، وحتى صارت

العروبة غالبة على البربر، وصارت بنوع خاص طابع جميع الدول والامارات البربرية الأرومة التي قامت في الأندلس وشمال أفريقية، من حيث النظم والألقاب والأسماء والمصطلحات، وسائر صور الحياة الرسمية والاجتماعية الشعبية، بحيث يقال بحق انها دول عربية، وأن تسميتها بالدول البربرية ليس إلا من قبيل تسمية الشيء بالأصل البعيد الذي يمت إليه وحسب، ولم يكن أمراء وملوك ورجالات هذه الدول الذين يمتون إلى أصل بربري، مثل أمراء وملوك ورجالات الدول التركية والشركسية والكردية، التي قامت في بلاد الشام والعراق ومصر في ظل الدولة العباسية وبعدها، حيث كان معظمهم أعجمي اللسان، أو ضعيفاً في البيان العربي، لأنهم طُرّاء على البلاد العربية، ولأنهم عاشوا في نطاق الجندية المنعزل عن عامة الشعب العربي، في حين كان امراء وملوك ورجالات الدول البربرية، عرب اللغة والبيان والمظهر، بل لقد كانوا مندمجين في العروبة اشد الاندماج، وشديدي الرغبة فيها، بدليل أن مؤرخي هذه الدول، بل وملوكها وأمراءها الذين كان غالبهم من قبيلتي صنهاجة وزناتة الكبيرتين، بل أكبر القبائل، كانوا ينسبون القبيلتين إلى العرب القحطانيين والعدنانيين، مما لهجت به الألسن، وردده الكتاب والشعراء والنسابون ابان قيام هذه الدول، فيقول الزناتيون الذين منهم الموحدون والمرينيون والزيانيون(١٨) مثلاً:

أيها السائل عنا أصلنا قيس عيلان بنو العز الأول
ولنا الفخر بقيس انه جدنا الأكبر فكاك الكبل

ويقول الصنهاجيون الذين منهم المرابطون والباديسيون والحماديون(١٩):

قوم لهم درك العلا في حمير وإذا انتموا صنهاجة فهم هم

وكانت الآداب والثقافة العربية هي السائدة التي ينتظم في نطاقها العرب والبربر من أهل هذه الدول على السواء.

ولقد بدأ هذا منذ عهد مبكر، وبكلمة أدق منذ القرن الهجري الأول، حيث كان هناك عشرات من الشعراء والعلماء والأدباء والمؤلفين والقضاة والدعاة والكتاب والفقهاء الذين ذاعت اسماؤهم وآدابهم وشعرهم، يمتون إلى العنصر البربري، ويعود وقت بروزهم العربي إلى القرون الهجرية الثلاثة الأولى، ثم صار العشرات مئات وألوفاً في القرون التي تلتها.

يضاف إلى هذا أن العنصر العربي الأرومة كان كثيف العدد، منتشراً انتشاراً واسعاً، حضراً وبدواً في جميع أنحاء المغرب، وكان له ضلع بارز في الأحداث السياسية والحربية والاجتماعية، في نطاق الدول البربرية، سواء من جاء منهم في حملات الفتح، واستقروا في المغرب، واندمجوا في الحياة الحضرية والبدوية في مختلف أنحائه، أم من جاء في القرن الرابع وما بعده من القبائل العربية وانتشروا في مختلف أنحاء المغرب، واندمجوا في حياته الحضرية والبدوية، مما لا يكاد يقع تحت حصر، ومما احتوت كتب التاريخ(٢٠)، اشارات كثيرة إليه، وتفصيلات في أصوله وفروعه وانتشاره وتطوره وأماكنه، في سياق مختلف الأحداث

السياسية والحربية والعلمية والأدبية والعمرانية التي جرت ببلاد المغرب، طيلة القرون الطويلة التي أعقبت الفتح الإسلامي.

ويضاف إلى هذا كذلك أن مجال الحكم والسلطان لم يكن يخلو من العنصر العربي في كثير من هذه القرون: ملوك وامراء وولاة وقواد وحكام وقضاة، فيقوى بكل ذلك الطابع العربي، ويتسع شموله، حتى غدا طابع المغرب الخالد المقدس، منذ قرون عديدة.

وفي مختلف أنحاء أقاليم المغرب اليوم عدد عظيم جداً من أبناء القبائل العربية، يحتفظون بتقاليدهم وأنسابهم العشائرية، ويمثلون صورة حية متصلة الحلقات بأصولها، ذكرتهم كتب التاريخ باسمائهم وفروعهم وأنسابهم ومنازلهم بحفاوة عظيمة، تدل على ما يشغلونه من حيز واسع في حياة المغرب، ويعدون بالألوف قبائل وفروعاً، وبالملايين أفراداً.

وقد يكون هناك بعض عناصر بربرية ما تزال تحتفظ بصبغتها ولهجاتها القديمة في الأنحاء القاصية والمنعزلة، غير أن هذا ليس من شأنه أن يؤثر تأثيراً ذا بال في صبغة العروبة الشاملة للمغرب العربي كما هو المتبادر.

ولقد ظل هذا المغرب أكثر من ثمانية قرون تحت سلطان الرومان، أي منذ أن قوضوا دولة قرطاجنة العربية الجنس في القرن الثاني قبل الميلاد، إلى الفتح الإسلامي في القرن السابع بعده، ومن أهله من جمعهم بالرومان دين واحد، في القرن الرابع بعد الميلاد إلى هذا الفتح - فلم يكن هذا يجعلهم كذلك مستطيعين أن يبدلوا شيئاً مهمّاً في روح وتقاليد ولغة أهل المغرب، في حين أنه لم يمض بضعة أجيال على موجة الفتح العربي الإسلامي، حتى أخذ يصطبغ بالصبغة العربية، ثم غدت هذه الصبغة طابعة الشامل الخالد، بفضل قدسية الطابع، ثم بما ظل ينساح إلى أنحائه من موجات عربية متلاحقة في مختلف الأوقات، بل، وربما صح هذا الاندماج، ليكون دليلاً على الأصل الجنسي العربي لسكانه القدماء الذي قرره بعض الباحثين، مثل ما كان من شأن دلالة الاندماج السريع الشامل في العراق والشام ومصر على ذلك، كما ذكرنا، من قبل.

وهكذا تكون الوحدة الجنسية متوفرة بقوة وشمول في الوطن العربي الكبير، منذ أقدم أزمنة التاريخ إلى الآن. وقد غدت العروبة الصريحة طابعه الخالد المقدس، منذ الفتح الاسلامي، بنوع خاص، بفضل الإسلام العربي[٢١]، والقرآن العربي[٢٢]، ثم بما ظل ينساح من جزيرة العرب إلى بقية انحاء هذا الوطن، من موجات متلاحقة، في مختلف الأوقات.

- ٥ -

نقول هذا، ونحن نعرف أن في مختلف انحاء الوطن العربي، جماعات تمت إلى غير الجنس العربي، وأن دماء غير عربية تجري في عروق كثير من سكانه. منهم من يتصل وجوده فيه بالأحقاب القديمة، حيث كانت موجات وغزوات آسيوية وافريقية وأوروبية، تطرأ على بعض اجزائه وتستقر فيه. ومنهم من يتصل وجوده بالأحقاب الحديثة. غير أن هذا ليس من شأنه أن

ينقض ما قررناه، من توافر الوحدة الجنسية وشمولها لجميع الوطن العربي.

فالذين يتصل وجودهم في هذا الوطن بالأحقاب القديمة، من الآسيويين والافريقيين والأوروبيين قبل الإسلام وبعده، قد امتزجوا بالعرب والبيئة العربية، وانطبعوا بالطابع العربي، ومر على ذلك احقاب طويلة، ولم يعد لهم لغة غير اللغة العربية، ووطن غير الوطن العربي. وقد وحّدت احداث التاريخ، وأحقاب الزمن بينهم، وبين الجنس العربي في الوطن والمصلحة واللغة والعادات، فصاروا عرباً تاريخياً ووطنياً، ولو لم يكونوا عرباً جنساً. وهذه الظاهرة قائمة في جميع البيئات القومية الأخرى. بل إن أكثر هذه البيئات، إنما يقوم عليها من جهة؛ وهي في البيئة العربية أقرى منها في غيرها، بسبب ا امتداد الزمن من جهة أخرى. وقد يشذ الزنوج في السودان بنوع خاص عن هذا التعميم، كما قد يشذ عنه الذين لا يزالون يحتفظون بخصائصهم ولهجاتهم من البربر. ولكن هؤلاء وأولئك قلة، بالنسبة للعرب والمستعربين في السودان وبلاد المغرب، وقلة ضئيلة جداً بالنسبة لمجموع العرب والمستعربين، في جميع انحاء الوطن العربي.

ومن الذين يتصل وجودهم في الوطن العربي بالأحقاب الحديثة، من آسيويين وأوروبيين، جماعات لا يحتفظون بطابع جنس خاص، ولا لغة قومية خاصة، وليس لهم صلة ما بوطن أو دولة غير الوطن العربي والدولة العربية. وهم مندمجون في العروبة لغة ووطناً ومصلحة. وينطبق على هؤلاء، ما قلناه بالنسبة للذين يتصل وجودهم فيه بالأحقاب القديمة بطبيعة الحال.

ومن الذين يتصل وجودهم في الوطن العربي بالأحقاب الحديثة، جماعات ما يزالون يحتفظون بطابعهم ولغتهم القومية الخاصة. وهؤلاء أقسام:

١ ـ منهم الذين لا يزالون متصلين بمواطنهم ودولهم كالطليان واليونان وأمثالهم في مصر، والطليان والافرنسيين وأمثالهم في ليبية وتونس والجزائر ومراكش. فهؤلاء يعتبرون نزلاء وجاليات، ومثلهم موجود في كل وطن. وليس من شأن ذلك أن يناقض شمول الوحدة الجنسية لسكان الوطن العربي. وهذا فضلاً عن أنهم قلة في مصر، وسبعة في المئة في شمال افريقية، بالنسبة لسكان مصر وشمال افريقية(٢٣)، ويغدون قلة ضئيلة جداً بالنسبة لمجموع سكان الوطن العربي الكبير.

٢ ـ ومنهم الذين انقطعت صلتهم بمواطنهم الأصلية، ولم يعد لهم وطن غير الوطن العربي، ودولة غير الدولة العربية. ومن أهمهم كتلة الأكراد في الأنحاء الشمالية من العراق والشام، الذين انفصلت بلادهم عن بلاد الدولة العثمانية، بعد الحرب العالمية الأولى، وأصبحت جزءاً من دولتي العراق وسورية في تكوينهما الحديث. وهم متحدون مع الأكثرية العربية الساحقة في الدين الإسلامي، ومرتبطون بالأمة العربية ارتباطاً وثيقاً، بسبب ذلك منذ الآماد الطويلة. ومنهم كثيرون يتكلمون العربية، وهم بسبيل الاستعراب والانطباع بالطابع العربي. ولن يمضي بضعة أجيال، فيما هو المتبادر، حتى يغدوا عرباً. فهم والحالة هذه

والعرب بمثابة واحدة. وعددهم في الدولتين نحو ستمائة ألف، من ثمانية ملايين ونيف، أي أن نسبتهم لا تزيد عن ٧٪ وتنقص عن ١٪ بالنسبة للمجموع العربي.

٣ ـ ومنهم الشراكسة في سورية والأردن. وقد جاؤوا مهاجرين في القرن السابق من القفقاس، وهم قلة ضئيلة لا يكاد يتجاوز عددهم في الدولتين ستين ألفاً. أي نحو ١,٣٪ من سكانهما وهم كالأكراد من حيث كونهم متحدين مع الأكثرية العربية الساحقة في الإسلام ومرتبطين بالأمة العربية بسبب ذلك ارتباطاً وثيقاً منذ الآماد الطويلة ومعظمهم ان لم نقل كلهم يتكلمون اللغة العربية. وهم بسبيل الاستعراب والانطباع بالطابع العربي، ولن يمضي جيلان أو ثلاثة حتى يغدوا عرباً هم الآخرون.

٤ ـ ومنهم جماعات من الترك، في بعض انحاء العراق وسورية. وهم أقل من الشركس عدداً، وشأنهم شأنهم من حيث الاسلام والعروبة، والاتجاه نحو الانطباع بطابعها في خلال جيلين أو ثلاثة.

٥ ـ ومنهم الأرمن. وقد جاءوا مهاجرين في أثناء الحرب العالمية الأولى، وبعدها إلى بلاد الشام من تركيا. ويبلغ عددهم فيها نحو مئتي ألف، من نحو خمسة ملايين، أي ٤٪. وقد ارتبطت مقدراتهم بالعرب، وأخذوا يمتزجون معهم، ويندمجون فيهم، ويستعربون، بحيث يقال انهم هم أيضاً سوف يغدون عرباً بعد جيلين ، أو ثلاثة على الأكثر.

٦ ـ ومنهم اليهود، وعددهم الآن نحو ثلاثمئة الف[٢٤]. ومعظمهم مستعرب لساناً وعادات. وكانوا قبل قيام الدولة اليهودية في فلسطين، بمثابة طائفة موسوية الدين، عربية اللسان. وجزءاً من سكان الوطن العربي مندمجين فيهم ومنسجمين معهم وهم الآن يتظاهرون بأنهم كذلك، غير أن مما لا شك فيه أن نفسيتهم أو نفسية معظمهم قد تغيرت، بعد قيام هذه الدولة، وغدا ولاؤهم نحوها في الدرجة الأولى. ولقد كان عددهم ضعف عدد الباقي، فتسرب نصفهم إلى فلسطين، مما فيه الدليل على تفسير نفسيتهم. ولعل من الذين بقوا فريقاً لم يثق بعد في حياة الدولة اليهودية، ولهم مصالح ومنافع تجعلهم يفضلون التريث حيث هم، ولا ريب بأن فريقاً ممن بقي قد بقي لمآرب مريبة لصالح الدولة اليهودية. وما يقع من آن لآخر من أحداث في بلاد الشام والعراق ومصر، دليل حاسم على ذلك، حيث يكشف من حين لآخر عن شبكات تجسس يهودية، وعصابات ارهاب وتشويش يهودية، ومخازن سلاح ومتفجرات.

ومهما يكن من أمرهم، فهم قلة ضئيلة جداً، بالنسبة للأقاليم التي هم فيها، وبالنسبة لمجموع سكان الوطن العربي الكبير. وليس من شأنهم نقض شمول الوحدة الجنسية لهؤلاء السكان، فضلاً عن أنهم في حد ذاتهم عرب اللسان والعادات. ومصيرهم متوقف على مصير الدولة اليهودية على الأرجح، وعلاقتها بالعرب . فاما أن ترسخ قدمها، لا سمح الله، رغم أنف العرب، فيرحلون إليها طوعاً أو كرهاً، واما أن تنهار، إن شاء الله، فيعودون كما كانوا قبلاً طائفة موسوية الدين، عربية اللسان وجزءاً من سكان الوطن العربي.

أما الذين تجمعوا منهم في فلسطين، التي هي جزء لا يتجزأ من الوطن العربي،

فأكثريتهم آريون دماً وثقافة، وأقليتهم شرقيون، وأكثر هؤلاء عرب اللسان. وتنبه العرب لخطر الدولة اليهودية ومطامعها يشتد يوماً بعد يوم. وسيكون باعثاً لهم ـ وهم محدقون بهم من كل جـانب ـ على الاستمرار في منـاضلتهم، وتضييق الخناق عليهم، إلى أن يقضـوا على هذه الجرثومة الخبيثة التي قامت في جزء من وطنهم، ويعيدوا إليه صبغته العربية إن شاء الله. وفي أحداث التاريخ ما يجعل هذا الأمل حرياً بالتحقيق، عاجلاً أو آجلاً، على ما سوف نشرحه.

- ٦ -

لقد تكررت الاشارة في هذا الفصل إلى العروبة الصريحة، والعروبة غير الصريحة. ولقد أردنا بهذا أن نقول: إن الجنس العربي الذي تكوّن واستقر في جزيرة العرب، التي انساحت منها الموجات المتتالية إلى الأقطار المجاورة، قد مر بدورين.

الأول: هو الذي لم يكن بعد قد عرف فيه بـاسم «العرب»، ولم تكن اللغـة العربيـة الفصحى التي يمثلها القرآن، أو التي كانت في سبيل التطور نحوها، لغة لهم فيه.

والثاني: هو الدور الذي عرف فيه بهذا الاسم، وغدا له علماً جنساً، وغدت اللغة العربية الفصحى، أو التي كانت بسبيل التطور نحوها، لغة له.

والموجات الأولى التي انساحت من جزيرة العرب إلى وادي النيل واثيوبيا وبلاد الشام والعراق وعمرتها، ثم سكان جزيرة العرب القدماء، وهم أهل الـدور الأول. أما أهـل الدور الثاني، فهم القبائل والدول العربية التي كانت تعيش في جزيرة العرب وأطرافها، ثم في بلاد العراق والشام قبل الإسلام ببضعة قرون، ومن جاء بعدهم مطبوعاً بالطابع العربي الصريح.

وهناك نقوش قديمة، وجدت في جنوب جزيرة العرب، وفي بلاد الشام والعراق، تدل دلالة قوية على أن هذه القبائل والدول العربية، كانت تعرف قبل الاسلام بقرون عديدة باسم العرب، وعلى أن اللغة التي كانوا يتكلمون بها لغة عربية في طريق التطور نحو اللغة الفصحى، التي بلغت أوج تطورها قبل البعثة النبوية بنحو قرن، أو أكثر قليلاً.

وإذا كان ليس من السهل تحديد الوقت الذي أصبح اسم العرب فيه علماً على الجنس العربي كافة، في دور عروبته الصريحة، فإن المتبادر أن هذا يجب أن يكون قد توطد قبل البعثة النبوية بزمن غير قصير.

فقد استعمل في القرآن تعبير «اعجمي» لغير اللسان العربي، ولغير الانسان العربي، كما ترى في الآيات التالية:

١ ـ ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلّمه بشرٌ لسانُ الذي يلحدون اليه اعجميٌ وهذا لسانٌ عربي مبين. «النحل ١٠٣»

٢ ـ ولو نزلناه على بعض الأعجمين. فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين.

«الشعراء ١٩٨ ـ ١٩٩»

٣ ـ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آيته أأعجمي وعربي . . «فصلت ٤٤»

والعبارات القرآنية مطلقة، والاطلاق يفيد الشمول، بحيث يمكن أن يقال ان اسم عربي كان يطلق على كل عربي في الجزيرة وخارجها في عصر النبي، وان العربية كانت لغة كل عربي في الجزيرة وخارجها كذلك، وان اسم كل ما عداها عند العرب أعجمياً، لأن الأمر لو كان غير ذلك، لما كان هذا الاطلاق بتقسيم البشر إلى قسمين: عربي وأعجمي، وتقسيم لغات البشر إلى قسمين عربي وأعجمي. والمتبادر أن هذا وذاك كانا مفهومين مستقرين في الأذهان، قبل نزول القرآن بمدة غير قصيرة قبل البعثة، لأن الشمول والشيوع لا بد من أن يكونا نتيجة تطور وعوامل متنوعة، مما يقتضي له الزمن المديد الذي يجب أن يكون قروناً عديدة، وخاصة في مثل حالة العرب في ذلك الوقت. سواء الذين هم في مختلف انحاء جزيرة العرب، أم في مختلف أنحاء مهاجرهم الأخرى، حيث كانوا يعيشون في أبعاد شاسعة، وكثير من الذين في الجزيرة وأطرافها، أو أكثرهم، كانوا يعيشون عيشة البداوة والجهالة معاً.

وقد قدر بعض الباحثين هذه المدة بثلاثة قرون. غير أن الذي نراه، لو سلمنا جدلاً بهذا التقدير، أنه لا يعني أن اسم العرب لم يطلق على فريق من العرب قبل هذه القرون الثلاثة بطبيعة الحال. ففي النقوش الآشورية[٢٥]، وفي نصوص أسفار العهد القديم، ما يدل دلالة حاسمة على أن اسم العرب كان يطلق على سكان أطراف الجزيرة العربية، منذ القرن التاسع قبل الميلاد المسيحي[٢٦].

الوحدة اللغوية

- ١ -

ومن أهم أركان الوحدة ومقوماتها، أو أهمها، الوحدة اللغوية، وقد كانت الأساس الأقوى لوحدة كثير من الدول قديماً وحديثاً. ولو لم يكن بين سكانها وحدة دينية أو جنسية أو تاريخية، حتى لقد شبه بعض الباحثين اللغة بحياة الأمة.

وقد يكون التاريخ قديماً وحديثاً، سجل قيام امبراطوريات كبرى، تضم أمماً مختلفة الأجناس واللغات، كالامبراطوريات الآشورية والمصرية والكلدانية والرومانية والأموية والعباسية والنمساوية والعثمانية، غير أنه سجل كذلك حوادث التفكك والتفلت المستمرة الدائمة، وحوادث النضال المديد المرير، في داخل هذه الامبراطوريات. وكانت دائماً تنتهي بانهيار هذه الأمبراطوريات، لأن الانسجام والاتساق كانا مفقودين فيها لأسباب عديدة، من أهمها عدم توفر وحدة اللغة بين سكانها.

وركن الوحدة اللغوية متوفر في الوطن العربي الكبير بسعة وقوة وشمول، فاق كثيراً، مما في دول كثيرة تحققت لها وحدتها.

فاللغة العربية هي لغة الغالبية الكبرى لسكان هذا الوطن، حيث تبلغ نسبة المتكلمين بها

من أبنائه ٩٤٪. وقد يكون هناك لهجات يمتاز بها اقليم عن اقليم، غير أن هذه اللهجات عربية صحيحة في الأعم والأغلب، ولا تعد خلافاً من شأنه أن يخل بالوحدة اللغوية. ومثل ذلك موجود في بريطانيا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا مثلاً.

والعربي الشامي، أو المصري، أو العراقي، أو المغربي، أو النجدي، أو اليمني، حينما يعيش أسابيع، بل أياماً مع الشامي أو المصري أو العراقي أو المغربي أو النجدي أو اليمني، وتعتاد أذنه النبرة والأداء المحلي، يغدو التفاهم اللغوي بينه وبينهم متحققاً.

وقد يكون في كل قطر لهجات عامية تختلف عن اللهجة الفصحى، غير أنه ليس فيها شيء غريب عن المفهوم العام للغة العربية، كما أنه قد كان في مختلف أحقاب التاريخ الإسلامي، في مختلف أقطار العرب، ولم يكن من شأنه أن يكون عثرة في سبيل تمازج وتآلف وتعارف وتواصل وتعايش وتعامل أبناء هذه الأقطار مع بعضهم في أي وقت وظرف، حيث كانوا ينتقلون من بلد إلى بلد، فيعيشون ويتعاملون معه ويستقرون فيه، ولا يلبثون أن يندمجوا فيه، ويغدوا كأنهم من أهله، مما استفاضت باخباره كتب الرحلات والتراجم والتاريخ. وهذا ما هو جار اليوم أيضاً. ففي مختلف بلاد الشام كثير من المغاربة والمصريين والعراقيين واليمانيين والحجازيين والنجديين، وهم مندمجون فيها، ومنسجمون مع أهلها كل الاندماج والانسجام. ومثل هذا يقال بالنسبة إلى ما هو موجود في مصر والعراق والحجاز وبلاد المغرب من أبناء الأقطار الأخرى.

وفي كل يوم يفد إلى كل قطر من أقطار العرب كثير من أبناء الأقطار الأخرى، فلا يرى أحد منهم نفسه غريباً، في أي مظهر من مظاهر الحياة، ووسائل التعامل والتعايش والتفاهم.

وما قد يكون من مفردات ومصطلحات في قطر خلاف قطر، وما قد يكون من لغة حديث ولغة كتابة، ولغة عامية، في كل قطر، هو بسبيل التضاؤل والتواري بفضل التعليم الآخذ بالانتشار والتعمم، والذي يجري باللغة العربية الفصحى في جميع اقطار الوطن العربي، بحيث يمكن أن يقال انه لن يمضي جيلان أو ثلاثة، إلا وتكون اللغة الفصحى هي السائدة بمفرداتها ومصطلحاتها في جميع اجزاء هذا الوطن، وتصبح هي لغة الحديث والكتابة معاً، عند مختلف طبقات الأمة. وإذا كانت لغة الحديث ستبقى جانحة نحو الاختزال الذي هو طبيعي بسبب طبيعة جنوح الإنسان إلى الاقتصاد، وعدم التقيد بالأشكال والقواعد الصرفية والنحوية في حديثه العادي تقيداً شديداً، وإذا كان لا بد من أن يظل بعض الفروق في الأداء الشفوي، بين سكان مختلف أقطار العرب، بسبب كونه طبيعياً، لأنه نتيجة لاختلاف المناخ والمنازل الجغرافية ـ حيث يلاحظ في سكان الجبال والمرتفعات نبرة تخالف نبرة سكان السهول والمنخفضات؛ وفي سكان المناطق الحارة نبرة تخالف نبرة سكان المناطق الباردة، وفي سكان المناطق الساحلية نبرة تخالف نبرة سكان المناطق الداخلية ـ فإن هذا وذاك سيبقى في حدود ضيقة جداً، لا تعدو الضرورة الطبيعية، ولا تعدو ما يكون بين الجهات والفئات المختلفة من فروق في نفس الأقليم، وما كان وسيظل في كل زمان ومكان.

ومن الجدير بالذكر أن الوحدة اللغوية ـ العربية، كانت قائمة نوعاً ما في الوطن العربي منذ أقدم الأزمنة، حيث كان معظم سكانه من جنس واحد، يتكلمون لغة واحدة متعددة اللهجات. ودليل ذلك ما يقوم من التشارك الواسع في المفردات والصيغ والقواعد والخصائص الذي يقوم بين اللغة العربية، واللغات الكنعانية والعبرانية والآرامية والسريانية والكلدانية والمصرية، والذي يتفق على تقريره جمهور علماء اللغات. وقد كان هذا من أسباب سهولة انسباك أنسال العبرانيين والكنعانيين والآراميين والكلدانيين والمصريين القدماء، في بوتقة العروبة الصريحة، حينما جاءت موجات كبرى من الجزيرة متسمة بسمتها على ما شرحناه من قبل.

ثم توطدت في ظل اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن، في معظم أنحاء الجزيرة، وفي أنحاء كثيرة من بلاد الشام والعراق، قبل الإسلام بنحو مائة سنة على الأقل، حيث وجدت نصوص لا شك في حقيقتها التاريخية تؤيد ذلك، وحيث تقوم دلائل قوية على ذلك في القرآن نفسه. فقد جاء في القرآن الآيات التالية:

١ ـ إنّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون. «يوسف ٢»

٢ ـ نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين. «الشعراء ١٩٣ ـ ١٩٥»

٣ ـ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها «الشورى ٧»

٤ ـ فإنما يسّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون. «الدخان ٥٨»

وهذه الآيات، وان كانت نزلت على النبي في الحجاز، فليس معنى ما تضمنته من عروبة لغة القرآن، وتقرير كونها لغة المخاطبين به، قاصراً على أهل الحجاز. فقد وجد نقش حجري، يعود إلى أواخر القرن السادس قبل الميلاد، على باب بيعة أنشأتها هند بنت الحارث في الحيرة لغته لغة فصحى[٢٧]. كذلك نقوش حجرية تعود إلى مثل هذا الوقت بالخط الثمودي والخط الصفوي في بعض مشارف الشام لغتها لغة فصحى كذلك[٢٨]. ومهما يكن الشعر الجاهلي المأثور موضوع تحفظ، فإن منه ما لا شك في صحته، وهو باللغة الفصحى أيضاً، وقائلوه من قبائل نجدية وعراقية وحجازية وشامية، ومثل هذا يقال بالنسبة للمنقوشات والمأثورات اليمنية. وآيات سور الدخان والشعراء ويوسف التي أوردناها آنفاً، هي بأسلوب يلهم كون نطاق اللغة العربية أوسع شمولاً من نطاق الحجاز، إذا ما أمعن فيها. وفي القرآن آيات عديدة أخرى في مثل نصها المطلق، كما نرى فيما يلي:

١ ـ وكذلك أنزلنا حكماً عربياً. «الرعد ٣٧»

٢ ـ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون. «فصلت ٣»

٣ ـ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون. قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون. «الزمر ٢٧ ـ ٢٨»

ولقد بلغ من المتواتر الذي بلغ حد اليقين:

أولاً ـ ان النبي كان يتصل بمختلف الطبقات والشخصيات المكية، ثم بمختلف الطبقات والشخصيات والقبائل التي كانت تفد على مكة في المواسم والأسواق، ويتحدث إليهم، ويتلو عليهم القرآن، ويتفاهم معهم بلغته التي هي لغة القرآن بطبيعة الحال. وكان الذين يفدون إلى مكة في هذه المواسم، هم من مختلف انحاء الجزيرة، ومشارف الشام والعراق.

ثانياً ـ إن وفوداً من العرب، مشركين ونصارى ومجوساً، كانوا يفدون إلى المدينة من اليمن ونجد والاحساء والبحرين والعراق والشام وفلسطين وحضر موت على النبي، فكان النبي يتلو عليهم القرآن، ويتخاطب معهم هو وأصحابه الحجازيون بلغتهم التي هي لغة القرآن، وأنه كان يرسل معهم قراء من كبار صحابته الحجازيين، ليعلموهم القرآن، ويفقهوهم في الدين، ويتولوا القضاء بينهم وجباية الزكاة منهم، وأنه كانت تكتب لهم الرقاع والعهود والوصايا والتشريعات بهذه اللغة. ولم ترد أي رواية تفيد أنه كان يوجد تراجمة بينهم.

ثالثاً ـ انه كانت اتصالات مستمرة بين أهل الحجاز من ناحية، وبين العرب في انحاء الجزيرة وبلاد الشام والعراق واليمن من ناحية أخرى قبل الإسلام، وفي مواسم الحج ورحلات التجارة، فكانوا يتفاهمون ويتخاطبون بلغة واحدة. وما دام الحجازيون طرفاً في هذا، فإن لغتهم كانت هي اللغة القرآنية.

ولقد ذكرنا قبل أن القرآن استعمل تعبير «أعجمي» لغير اللسان العربي، ونقول هنا: إن اعتبار كل لسان غير عربي أعجمياً، يؤيد كون اللسان الذي كان يتكلم به العرب واحداً، غير متعدد اجمالاً، وهو لغة القرآن، ما دمنا نعرف معرفة يقينة، أنها هي لغة النبي وأهل بيته، وانها التي وصفت باللسان العربي، ونص القرآن على أنه أنزل بها ليفهمه العرب. ولو كان للعرب في عصر النبي لغات عديدة فيها تغاير جوهري، لما كان هذا الجزم والاطلاق في التسمية. وما روي من أنه كان لبعض القبائل بعض تعابير واستعمالات ومصطلحات ولهجات مغايرة بعض الشيء للغة قريش، أو اللغة القرآنية، ليس من شأنه أن ينقض ما نقول، أو يكون دليلاً على وجود تغاير جوهري يمثل معنى تغاير لغوي أو تعبير «لغات متباينة»، كما يفهم من تباين اللغتين العربية والسريانية اللتين هما شقيقتان في الأصل، أو ما يقرب من ذلك.

ولقد كان القرآن يتلى على وفود من اليمن والشام، فيهم القسيسون والرهبان، فكانوا يفهمونه ويتأثرون به كل التأثر، كما تدل عليه الآيات التالية:

١ ـ ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. «المائدة ٨٢ ـ ٨٣»

٢ ـ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ان الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. «الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٨»

٣ ـ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين. «القصص ٥٢ ـ ٥٣»

ثم أخذت تتوطد بمقياس أوسع وأقوى من ذي قبل، بعد نزول القرآن بها، وانتشار موجة الفتح الكبرى التي كانت تحمل رسالة القرآن في جميع انحاء الشام والعراق ومصر وبلاد المغرب، حتى غدت موطدة شاملة لجميع انحاء الوطن العربي الكبير، خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، وغدت بالتالي لغة العرب، ومن اندمج فيهم واستعرب من غير جنسهم قديماً وحديثاً.

ولقد صار القرآن ضابطاً مقدساً للغة العربية، من حيث المفردات والتراكيب والأساليب وفنون الكلام والقواعد، بحيث صار الانحراف عن ذلك، أو قيام لغة منحرفة عنه ممتنعاً، وكلما جنح الناطقون بالعربية عن هذا الضابط، ارتدوا إليه لأنه قرآنهم المقدس الذي يتلونه آناء الليل وأطراف النهار وظلوا يتسقون معه في المفردات والتراكيب والأساليب والقواعد وسائر فنون الكلام. وقد تيسر بذلك لأي منهم، رجلاً كان أو امرأة، وكبيراً كان أو صغيراً، أن يفهم اللغة التي غدت لغة الجنس العربي منذ خمسة عشر قرناً، ويقرأها ويكتبها بنفس أساليبها ومفرداتها وتراكيبها وفنونها وقواعدها، مما ليس له مثيل في الدنيا، لأنه لا يوجد اليوم أمة يستطيع جميع أفرادها أن يقرأوا ويفهموا ويكتبوا ويستعملوا لغة اسلافهم قبل خمسمائة سنة، بل قبل ألف أو ألف وخمسمائة سنة. وفي هذا ما فيه من قوة وعمق الوحدة اللغوية التي تظلل الوطن العربي الكبير.

ولقد كانت القدسية التي تقدست بها هذه اللغة بالقرآن، حافظة كذلك لوحدة الجنس العربي القومية أبد الآبدين، لأن اللغة القومية أقوم المقومات لوحدة الجنس، واقوى أركان تميزه عن غيره. ولولا فضل الله وكتابه المقدس، لغدا الجنس العربي أمماً عديدة مختلفة اللغات، مهما تكن من أصل واحد، كما صار شأن الأمم الجرمانية واللاتينية التي صارت أمماً عديدة متميزة اللغات.

ولقد كان من تمام الحظ السعيد أن اللغة العربية الفصحى التي يمثلها القرآن، كانت قد وصلت إلى طور من أرقى الأطوار التي يمكن أن تبلغ إليها لغة بشرية، من حيث قوة البيان، وروعة الأسلوب، وبلاغة التعبير، ونفوذ المعنى، ودقة الأداء، وقوة الخيال ونصاعة الحجة، وسعة المتناول، وغزارة المادة، وتنوع الفنون والأساليب والضوابط والقواعد والاشتقاق والتعريب، وصيغ الأفعال والأسماء والصفات، وفيه دلالة في الوقت ذاته، على مبلغ ما وصل إليه أهلها في إبان هذا الطور من قوة العقل، وصفاء الذهن، وسعة الخيال، ودقة التعبير والأداء، ورقي الذوق الفني؛ وكل هذا يتمثل بطبيعة الحال بلغة العرب الفصحى الحاضرة، الممتدة إلى ذلك العهد القديم العظيم.

وكفى العرب فخراً أن تكون هذه اللغة العظيمة المزايا لغتهم، وأن تظل بجميع مزاياها لغة أجيالهم أبد الدهر.

- ٣ -

وما تقدم هو في صدد المتكلمين بالعربية اليوم من سكان الوطن العربي، وهم، كما قلنا قبل، ٩٤٪ من مجموع السكان. وليس من شأن وجود ٦٪ يتكلمون بلغة غير عربية، أو بلغة عربية مزيجة بلغة غير عربية، ونعني بهم فريقاً من الأكراد والشركس والأرمن والبربر والزنوج الذين ذكرناهم في البحث السابق، أن يخل في توافر ركن الوحدة اللغوية، بالقوة والسعة والشمول الذي قررناه في الوطن العربي الكبير.

على أن اللغات غير العربية الصرف التي يتكلم بها هذه الأقلية، سوف تتوارى شيئاً فشيئاً، وتحل محلها اللغة العربية، وتتم بذلك الوحدة اللغوية مئة في المئة، في مدة قد لا تزيد عن خمسين سنة. بل إن بعضها في سبيل التواري، فطلاب الشركس والأكراد والترك والأرمن في بلاد الشام والعراق، الذين هم رعايا الدول العربية يتعلمون اللغة العربية. وفيما يعم التعليم، ويصبح لكل فتى وفتاة من هذه الشعوب مكان في المدرسة، ثم يتخرج من مدرسته، يكون قد تعلم اللغة العربية الفصحى، وغدت لغتة التي يتفاهم بها مع الأكثرية العظمى، من أبناء الوطن الذي يعيش فيه. وفي ذلك يكون الجيل الذي يتكلم اللغة القومية الأولى قد توارى طبقة بعد طبقة. ودينونة الأكراد والشركس والأتراك بالإسلام، مما سوف يسهل تحقيق هذه الغاية، ويعجل بها أيضاً.

ويقال هذا بالنسبة للسودان الذي فيه كتل كبيرة تتكلم الزنجية، والزنجية المزيجة بالعربية، وبالنسبة لبلاد المغرب التي ما يزال فيها عناصر تتكلم البربرية، والبربرية المزيجة بالعربية.

فالسودان الآن قد ملك زمام نفسه، فقام على رأسه حكومة وطنية، أخذت على عاتقها العناية بالتعليم بقوة وسعة، على ما جاء في منهجها الذي القته في البرلمان السوداني الجديد في سنة ١٩٥٤. وستكون اللغة العربية هي لغة التعليم حتماً، في جميع ارجاء السودان، لأنها اللغة الرسمية التي يتكلم بها أكثرية سكان السودان. وبلاد المغرب سوف تتحرر عاجلاً أو آجلاً من قبضة الافرنسيين، إن شاء الله، على ما سوف نشرحه بعد، وحينما تتحرر[٢٩]، سيتولى أهله زمام بلادهم، وستكون العناية بالتعليم وتعميمه من أهم أهدافهم، وسيكون التعليم حتما باللغة العربية الفصحى التي هي لغة الأكثرية الكبرى من العرب والبربر. وحينما يعم التعليم في السودان والمغرب، ويصبح لكل طالب مكان في مدرسة ثم يتخرج، يكون أبناء الذين يتكلمون غير العربية الصرف، قد تعلموا اللغة العربية الفصحى. وفي خلال ذلك، يكون الجيل الذي يتكلم غير العربية الصرف، قد توارى طبقة بعد طبقة[٣٠].

الوحدة التاريخية السياسية

تمهيد

لقد كانت هذه الوحدة دائماً هدفاً من أهداف حركات الجنس العربي ودوله وحروبه، من أقدم أزمنة التاريخ، كنتيجة من نتائج الوحدة الجغرافية للبلاد التي نشأ فيها العرب، أو هاجروا اليها، واستقروا فيها. وقد كانت تتوفر وتتحقق كلياً أو جزئياً في مختلف حقب التاريخ القديم والمتوسط، بل والحديث، بقطع النظر عن الحوافز والأساليب.

- ١ -

ففي ادوار ما قبل العروبة الصريحة في الجزيرة، نرى أنه كان يبرز ملك أو أمير من ملوك وأمراء المناطق الجنوبية، فيكون أول همه فرض سلطانه على بقية الملوك والأمراء، وجمعهم تحت سيادته. وحينما كان بعضهم يحاول التفلت من هذه السيادة، ليعود كما كان مستقلاً منفصلاً، كان الملك السيد يبذل جهوده المتنوعة، في سبيل الاحتفاظ بسيادته، ووحدة السلطان التي كانت نتيجة لها. وإذا ما استطاع أحد الملوك والأمراء أن يتفلت من سلطان الملك السيد، ويقوى، فإن همه يتجه إلى بسط سيادته على غيره من الملوك والأمراء، وتوحيدهم تحت رايته وسلطانه.

وهكذا برز المعينيون في القرن العشرين قبل الميلاد المسيحي، فوحّدوا امارات اليمن تحت سلطانهم، ثم برز السبئيون في القرن العاشر، ففرضوا سلطانهم على جميع امارات اليمن، ووحّدوها تحت رايتهم، وحاربوا بشدة وقوة كل من حاول التفلت من هذه الوحدة ما أمكنهم ذلك. ثم برز الحميريون في القرن الأول قبل الميلاد، وفرضوا سلطانهم على امارات اليمن ووحّدوها تحت رايتهم. ولم يكن بعضهم يكتفي في ظروف كثيرة بالوحدة اليمنية، بل كان يمد سيادته إلى أطراف الجزيرة الأخرى، ويوحدها تحت رايته. وقد فعل هذا بعض ملوك الدولة المعينية، حيث اكتشفت آثار ونقوش معينية كثيرة في شواطىء البحر الأبيض، وخليج البصرة، وأعالي الحجاز، ووادي القرى، ومشارف الشام، ومنطقة معان والعقبة وبعض اطراف العراق، تدل على أن الصلات بين هذه البلاد وبين الدولة المعينية كانت قائمة، وأن بعضها كانت صلات نفوذ وسلطان. والنقوش المعينية التي وجدت في العلا ـ طريق الشام ـ يثرب، وهي أقرب إلى يثرب ـ تدل على أن هذه المنطقة كانت مأهولة بالمعينيين، وأن حكامها كانوا بمثابة نواب عن ملك معين، ويلقبون بلقب كبر أو كبير[٣١].

وقد فعل هذا بعض الملوك الحميريين، الذين انتزعوا السلطان الشامل من السبئيين في القرن الأول قبل الميلاد، حيث فرضوا سلطانهم أولاً على أمارات اليمن ووحدوها تحت رايتهم، ونكلوا بكل من حاول التفلت من سيادتهم، وصاروا يتلقبون بلقب ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات. ثم اتجهوا نحو الشمال، فبسطوا سيادتهم على تهامة والحجاز، ونحو الشرق، فبسطوا سلطانهم على شواطىء البحر الأحمر، وخليج البصرة[٣٢].

وكان هذا شأن ملوك دول الجنس العربي، قبل العروبة الصريحة، خارج الجزيرة أيضاً، وأقدم من عرف قيامه بحركة توحيدية كبرى منهم (مينا) ملك مصر، منذ ٤٠ قرناً، قبل الميلاد المسيحي. وقد أوردنا قبلُ اقوالَ عدد من ثقاة المؤرخين في صدد عروبة جنس سكان وادي النيل، وملوك مصر الأقدمين. ويظهر أن الموجات العربية التي طرأت على مصر، اقتسمت القطر على طريقة المناطق القبلية، فقام نتيجة لذلك عدد كبير من الامارات تحت حكم زعمائها، في كل من الوجهين القبلي والشمالي. ثم أخذ امراء هذه الأمارات في كـل من الوجهين يتطاحنون على السيادة، حتى نجح بعضهم، فتوحدت امارات الجنوب تحت سلطان دولة واحدة، وتوحدت امارات الشمال تحت سلطان دولة واحدة، وذلك قبل الميلاد المسيحي بنحو خمسة وأربعين قرناً.

ثم بدأ التطاحن بين ملوك الدولتين، حتى نجح (مينا)، أو أسرته، فبسط سلطانه على الدولتين، فكان ذلك بدء قيام المملكة المصرية المتحدة الأولى. وكان ذلك قبل أربعين قرناً قبل المسيح، أو قبل خمسة وثلاثين قرناً، حسب اختلاف تقدير الباحثين[٣٣].

ومن ثم أخذ ملوك هذه المملكة من الأسر المختلفة، ينشطون للسيطرة على أثيوبيا، إحدى مهاجر الجنس العربي القديمة، والتي كانت تشمل ما يعرف اليوم بالسودان والحبشة من الجنوب، وعلى بلاد الشام، احدى مهاجر الجنس العربي القديمة من الشمال، ليوحدوها مع مصر، تحت سلطانهم منذ عهد مبكر، حيث بدأ آخر ملوك الأسرة الثالثة (سان فرو)، فبسط سلطانه على بلاد النوبة جنـوباً، وسينـاء شمالاً، وحيث تـوغل أول ملوك الأسـرة الخامسة (أسركاف) في الجنوب إلى الشلال الأول، وحذا خليفته (سمورع) حذوه، فمد سلطانه إلى شواطىء الحبشة، وإلى البحر الأحمر، وإلى حدود فلسطين، بعد سيناء، في القرن السابع والعشرين، قبل الميلاد المسيحي.

ثم مد بيبي الأول أحد ملوك الأسرة السادسة سلطانه من حدود فلسطين إلى حدود فينيقية، وتوغل إلى الشلال الثاني في الجنوب، وأحدث منصباً خاصاً لحكم الأقطار الشاسعة التي ضمها إلى سلطانه، تحت رايته من شمال مصر وجنوبها.

وحاول أهل الجنوب التفلت من سلطان مصر، حينما ارتبكت شئونها في القرن الثامن عشر، فتصدى لهم امنحوتب، أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة، وأخضعهم ثانية. ومد (أسرتسن) الثالث أحد ملوك هذه الأسرة سلطانه إلى أطراف سورية شمالاً، وإلى الشلال الثاني جنوباً.

وهكذا كانت بلاد الشام ـ سيناء وفلسطين وشرق الأردن وسورية ولبنان ـ من الشمال، وبلاد النوبة والسودان والحبشة من الجنوب، وموحدة مع مصر في القرن الثامن عشر، تحت راية هذه الأسرة.

وأعقب هذا الظرف طروء موجة عربية كبرى من الشمال على مصر، هي التي عرفت باسم

الهكسوس، فبسطت سلطانها على مصر، ثم نشب نضال بينها وبين ملوك طيبة في الجنوب، حتى تمكنوا من تقويض سلطانها في القرن السادس عشر، ثم أخذوا يتوسعون في بسط سلطانهم، حتى شمل جميع بلاد الشام إلى حدود الفرات شمالاً، وجميع أثيوبيا، أي السودان والحبشة، بما فيها الصومال جنوباً، فقامت امبراطورية مصر العظمى، التي كان موحداً تحت رايتها مصر، ومعظم مهاجر الجنس العربي القديمة في الشمال والجنوب. بل لقد روي أن سلطانها شمل مملكة بابل أيضاً(٣٤)، وظل موطداً عليها إلى أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وقد تصدى الحيثيون لحركة التوسع المصري في بلاد الشام، وجزيرة الفرات، فنكل بهم تحتمس الثالث الذي بلغت عظمة الأمبراطورية الذروة قوة وسعة في عهده (١٥٠١ ـ ١٤٤٧ ق م)، واخضعهم لسطانه، كما وطد هذا السلطان ثانية على بلاد الشام، ساحلها وداخلها.

وارتبكت شئون الأمبراطورية في أواخر القرن الرابع عشر، فتفلت كثير من البلاد الخاضعة لسلطانها من هذا السلطان. فلما آل الأمر إلى الأسرة التاسعة عشرة (١٤٠٠ ـ ١٢٦٠ ق م)، نشط ملوكها إلى اعادة سلطان الامبراطورية، ووحدتها إلى ما كانت عليه، واستطاعوا أن يخضعوا جميع الأقطار المتفلتة في مختلف انحاء بلاد الشمال، وفي مختلف انحاء أثيوبيا من الجنوب.

- ٣ -

وفي هذه الأثناء، أخذت الدولة الاشورية في شمال العراق، تبرز كدولة عسكرية قوية ـ وهي من دول الجنس العربي باتفاق جمهور الباحثين ـ فجاء إليها الدور لتقيم امبراطورية عظمى، وتوحد تحت رايتها بلاد العراق والشام. وقد نشط ملوكها في بدء الأمر، إلى توحيد العراق تحت سلطانهم، ثم أخذوا يتصارعون مع مصر من جهة، والحيثيين من جهة، ويتمكنون من مد سلطانهم إلى بلاد الشام ساحلاً وداخلاً، وإلى أنحاء واسعة من شرق الأناضول وغربه وشماله، فضلاً عن جميع العراق.

وكان من أعظم ملوكهم الذين نجحوا في هذا المجال (تفلات بلاصر الأول ١١١٥ ـ ١١٠٠).

وقد كان يلم بالدولة الاشورية فترات ارتباك، تتفلت فيها بعض البلاد الموحدة تحت رايتها، غير أنها كانت لا تلبث أن تسعيد نشاطها وقوتها، وتعيد سلطانها إلى ما كان عليه. بل وقد استطاع بعض ملوكهم، في القرن الثامن، أن يمد سلطان دولته حتى يشمل جميع العراق، وبلاد مادي الأرمنية، وآسية الصغرى، وسورية وفينيقية وفلسطين، وأطراف جزيرة العرب وسيناء. وكان ذلك في حكم (تفلات بلاصر الثالث ٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق م).

وأخيراً جاء دور مصر، لتنضم إلى هذه الأمبراطورية العظمى. وقد تم ذلك على يد (سرجون ٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق م). وقد شمل سلطان هذا الملك، بالاضافة إلى مصر، والانحاء المذكورة آنفاً، امارات وقبائل عديدة في مختلف اطراف جزيرة العرب أيضاً. وهكذا توحدت تحت رايته جميع مهاجر الجنس العربي، وقسم من وطنه الأصلي.

وحاولت بعض البلاد الخاضعة التمرد، بعد موت (سرجون)، وفصم عرى الوحدة الامبراطورية، فنشط ابنه (سنحاريب ٧٠٥ - ٦٨١) للعمل، واستطاع أن يوطد هذه الوحدة. وتمردت بلاد الشام بتحريض مصر بعد موته، فزحف ابنه (اسرحدون ٦٨٠ - ٦٦٧) واخضعها ثانية، وتوغل في بلاد العرب، وبسط سلطانه على انحاء جديدة منها، ثم زحف على مصر، واخضعها ثانية.

وحاولت مصر التفلت والتحريض بعد موته، فسارع ابنه (اشور بانيبال))٦٦٨ - ٦٢٧ق م) إلى الزحف على مصر، ووطد سلطانه عليها إلى طيبة. وكانت بلاد الامبراطورية في عهده، تشمل بلاد العراق، ثم بلاد عيلام ومادي وفارس وارمينية وكيليكية وفينيقية وسورية وفلسطين وشرق الأردن ومصر، وقسماً كبيراً من تخوم جزيرة العرب.

وارتبكت الامبراطورية الاشورية، ثم انهارت، فقامت على انقاضها دولة الكلدانيين في بابل، وكانت مصر وبلاد الشام قد تمردت، فسارع نبوخذ نصر (٦١٨ - ٥٧٠) أعظم ملوك الدولة الجديدة إلى العمل، وتمكن من فرض سلطان دولته على سورية وفينيقية وفلسطين، ومصر وبلاد العرب. وهذه الدولة، هي آخر دولة عربية الجنس، قبل العروبة الصريحة التي كانت مهاجر العرب، وجزء غير يسير من وطنهم الأصلي، موحدة تحت رايتها[٣٥].

- ٤ -

ولقد قام على انقاض هذه الدولة في العراق دولة فارسية، فكان العراق، وبلاد الشام، ومصر، في مدة غير يسيرة من عهدها، موحدة أيضاً.

ثم كان زحف الاسكندر المكدوني نحو الشرق، في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، فبسط سيطرته على العراق والشام ومصر، فيما بسط سلطانه عليه من أنحاء شاسعة أخرى، فتيسر لهذه الأقسام من الوطن العربي أن تعيش موحدة تحت رايته أيضاً، لفترة من الزمن.

وعادت هذه الوحدة فانفصمت بعده، حيث قامت دولة البطالسة في مصر، ودولة السلوقيين في سورية، وهما دولتان يونانيتان، أنشأهما قائدان من قواد الاسكندر. وحيث قامت دولة الساسانيين في بلاد فارس، ومدت سلطانها فشمل العراق.

وقد نشب نزاع بين البطالسة والسلوقيين على السيادة الشاملة، وخاصة على فلسطين وشرق الأردن وفينيقية، التي كانت تتأرجح في الاتحاد مع هؤلاء، أو مع أولئك، إلى أن جاء الرومانيون في أواسط القرن الأول، قبل الميلاد، فقوضوا الدولتين، وبسطوا سلطانهم على بلاد الشام ومصر، فعادت إلى الاتحاد ثانية تحت رايتهم.

- ٥ -

وظل الأمر على هذا المنوال، إلى أن بعث الله نبيه العربي محمداً بن عبد الله عليه

السلام، بالرسالة الاسلامية، التي انتشرت في عهده، وعهد خلفائه من بعده، وعمت جزيرة العرب، وسائر انحاء الوطن العربي الكبير، فتوطدت في ظلها الوحدة الشاملة بين أجزاء هذا الوطن بمعنى جديد، ومدى أوسع من كل ما سبقه، وأسلوب مختلف عن الأساليب السابقة التي كانت تقوم على العنف والحديد والقهر، في نطاق المآرب والأهواء والمقاصد الشخصية والاستعلائية، والحربية والتسلطية والاستغلالية في الدرجة الأولى، ولا يلاحظ فيها حافز قومي أو فكرة اجتماعية؛ في حين كان الإسلام الذي اتسمت به هذه الموجة، ينطوي على فكرة الدولة والنظام، واقامة العدل بين الناس، بالاضافة إلى الفكرة الدينية، وكان من أهدافه العظمى توحيد المنتسبين اليه وبلادهم سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وتشريعياً، فضلاً عن التوحيد الروحي، ليقوم بذلك مجتمع انساني على أفضل وأعدل وأقوم وأصلح وجه للأفراد والجماعات الذين يعيشون فيه(٣٦).

- ٦ -

ولقد كان الجنس العربي وبلاده ـ المنبت والمهاجر ـ قبيل ظهور الإسلام، في أسوأ الحالات ضعفاً وهواناً وفرقة ونزاعاً، فلم يكن في جزيرة العرب سلطان عربي نافذ، بعد أن انهار سلطان الدولة الحميرية في اليمن، وآل الحكم فيها إلى الفرس. وكان السلطان في الشمال موزعاً ضيق المجال، والأثر حيث كان في المدن حكومات محلية، ليس لها ذلك الشأن الذي كان للدول العربية في جنوب الجزيرة، والمواطن العربية الأخرى، وفي البادية حكومات مشايخ، وزعماء محلية وبدوية ضيقة النشاط، بدائية المصالح، والمطالب والرغبات. وكانت العصبية القبلية المحلية ومطالبها ومآربها البدائية الضيقة، تعمل عملها، فتكثر الحروب والغزوات والثارات والدماء، فيما بين هذه القبائل. وكان الشمال إلى هذا عرضة لمطامع المتغلبين، من فرس ورومان، ومجالاً لدسائسهم وتحريكاتهم. ولم يكن كذلك سلطان عربي نافذ خارج الجزيرة. وقد انبسط سلطان الرومان على بلاد الشام ومصر، وسلطان الفرس على بلاد العراق. ومع أنه كان في العراق دولة المناذرة اللخميين العربية، وفي الشام دولة الغساسنة العربية، إلاّ أنّ الدولتين كانتا تحت سلطان الفرس والرومان الأعلى، وكانتا متعاديتين نتيجة لتحريض الفرس والرومان الذين كانوا كذلك متنازعين متعادين نتيجة للسياسة التنافسية على الشرق العربي. وقد ثارت الضغائن والثارات بين قبائل العرب التي كانت موالية للمناذرة والغساسنة، نتيجة لذلك فلم تكد الحروب تنقطع بينهما أيضاً. وهذا بالاضافة إلى ما كان من حروب ومنازعات بين القبائل اليمنية والمضرية والنزارية، وحروب بكر وخزاعة، والأوس والخزرج، وبكر وتغلب، ومراد وهمدان، وعامر وتميم، وعبس وفزارة، وقريش وكنانة، وقيس وهوازن. . الخ الخ التي تقوم لأسباب متنوعة، وتورث الأحقاد والثارات والقطيعة. . .

وهذا، بالاضافة كذلك، إلى ما كانت عليه الحالة الدينية في الجزيرة، والمواطن العربية، من سوء وانهيار، حيث كانت اليهودية والنصرانية ومعتنقيهما في حروب وعداء، وتنابذ وشقاق، ونزاع فيما بينهما، وبين كل منهما والآخر، فيتعكر بذلك صفو الديانتين، وتتطوران إلى

تأويلات وانحرافات وشذوذ، مما أثر في معتنقيهما أسوأ تأثير مادياً وأدبياً واجتماعياً وروحياً، وحيث كانت جمهرة سكان الجزيرة، سادرة في ضلالات الشرك المتنوعة وسخفه ومفارقاته، وحيث كان فريق صغير منهم في حيرة وبلبلة من أمره، يتمنى على الله أن يقيض للأمة العربية من يهديها إلى سبيل الحق، ويجمع شتاتها، ويخلصها من ضلالها وحيرتها وحروبها وأضغانها وقطيعتها وظلماتها(٣٧).

في هذا الظرف العصيب على الجنس العربي، من كل ناحية، بعث الله محمداً شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، وأنزل عليه الكتاب، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم، ويجمع شملهم، ويوحد كلمتهم، ويرتفع بهم إلى مقامات القوة والكرامة والحق والعدل، ويرشح الذين يتبعونه، ليكونوا شهداء على الناس، وخير أمة أُخرجت لهم، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويدعون إلى الخير، ويعدهم بالتمكين والاستخلاف وظهور دينهم على الدين كله، إن هم عملوا الصالحات، واتبعوا أوامر الله، واجتنبوا نواهيه(٣٨).

ولقد قامت الرسالة المحمدية على الدعوة إلى الله وحده، وتقرير ربوبيته للعالمين جميعاً، غير مختصة بأمة دون أمة، وتنزيهه عن الشريك والولد والمساعد تأويلاً ووسيلة وشفاعة وقربى، وشملت الدعوة جميع الناس على اختلاف اجناسهم وألوانهم ونحلهم، ليكونوا تحت رايتها أخوة متساوين في الحقوق والواجبات، وشددت في النهي عن الاختلاف والتنازع والتعادي والتقاطع، وفي الدعوة إلى الاتحاد والتساند والتضامن والتعاون، ووضعت لهم من الأسس والمبادىء والقواعد والتشريعات والتلقينات والخطوط ما هو كفيل بجعل دولتهم أعظم الدول، ويجعلهم أفضل الأمم قوة وسؤدداً وكرامة ومعيشة، وحضارة ونظاماً واتحاداً ونشاطاً ورفاهاً، ويجعل مجتمعهم مجتمعاً انسانياً كاملاً متساوياً في الحقوق والواجبات، لا تستقطب فيه الثروة في جانب، ويعاون القادر فيه العاجز، ويعطي الغني فيه الفقير، ولا يظلم فيه القوي الضعيف، ولا يخشى فيه الضعيف القوي، ويتضامن الجميع في السراء والضراء، ويتواصون بالصبر والمرحمة والحق والبر، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويدعون إلى الخير، ويتسابقون فيه، وتكفل الدولة لهم فيه الحرية والحماية والصيانة والكفاية والصحة والعلم والعمل ولعاجزهم الكفاف.

ولقد كان للرسالة المحمدية، من حيث السير والتطبيق، هدف عاجل، وهو جمع كلمة العرب، الذين كان لهم شرف الاختصاص بها، تحت لواء ديني واجتماعي وسياسي واحد، والقضاء على العصبية القبلية العتيقة، وتهيئتهم اجتماعياً ومدنياً وسياسياً وتنظيمياً للقيام بتحقيق الهدف العام الخالد، وهو حمل أعباء المهمة التي أناطتها بهم هذه الرسالة، وتأهيلهم للقيام بواجب مسئوليتهم عنها، في دعوة البشر إلى الدين الحق، وهدايتهم إلى الطريق الحق، وتبوؤ مركز الشاهد العدل الوسط فيهم. فما زال النبي يجاهد مؤيداً من الله والأنصار والمهاجرين وتابعيهم بإحسان، حتى أنه لم يمت الا وكانت دعوته قد عمت الجزيرة وتجاوزتها، وأخذ

الناس يدخلون في دين الله أفواجاً من مختلف الأنحاء والأديان والأجناس. وكان أساس الهدف العاجل قد توطد، بدليل أن أحداث الردة التي وقعت عقب وفاته، لم تكن لتؤثر فيما وطده النبي من مجتمع ودولة.

ولقد وطد القرآن شأن العرب في المجتمع الإسلامي الجديد، ليتمكنوا من القيام بمهمتهم في الأرض بحق ديني مقدس، حتى لا يثير تجهماً ولا امتناعاً من ناحية، وحصّنه بدعوة الخير وفعله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا يثير في نفوسهم غروراً واستعلاء من ناحية أخرى. وكان من وسائل التوطيد لهذا الشأن توطيد اللغة العربية التي كانت بلغت ذروة بلاغتها وخصائصها وسعتها.

وكان هذا التوطيد أسلوباً عملياً أكثر منه نصاً. فاللغة العربية لغة القرآن. والقرآن ركن من أركان الصلاة، لا يتم إلا بتلاوته بأدائه العربي، وهو مستند أسس الدين، ومنبع أحكامه وشرائعه، ولا يمكن أن تفهم إلا بفهم لغته فهماً صحيحاً. واللغة العربية لغة الأحاديث النبوية، وهي مستند من مستندات الدين وأحكامه وشرائعه، ولا يمكن أن تفهم إلا بفهم لغتها فهماً صحيحاً. وهذا وذاك موجب لتعليم اللغة العربية على كل مسلم مهما كان جنسه، وعامل في نشر هذه اللغة في الأصقاع التي ينتشر فيها الإسلام. واللغة ليست ألفاظاً وأوضاعاً للتفاهم وحسب،بل هي مجموعة ميول وعواطف وتقاليد وعادات وأفكار وتاريخ الأمة الناطقة بها. فانتشار العربية معناه انتشار سلطان العرب الروحي والثقافي والأدبي معاً، واندماج المسلمين جميعهم في ظل العروبة اندماجاً قوياً، مما قام البرهان على عظيم مداه وصحته فعلاً، حينما انتشر الإسلام في اصقاع الأرض في صدر الإسلام، حيث غدت اللغة القرآنية هي اللهجة العربية السائدة في الجزيرة ومهاجر العرب، وحيث اصطبغت هذه المهاجر، أي الشام ومصر والسودان والعراق، وشمال أفريقية، بصبغة العروبة الخالدة، بعد قليل من قيام السلطان الإسلامي العربي فيها، وحيث غدا نصف لغات الأمم التي يستقر سلطان العرب فيها طويلاً كالفرس والترك والكرج والسند والأفغان، أو التي لم تخضع لحكم العرب المباشر كالهند واندونيسيا والتتار والبوشناق وأواسط افريقية. . عربياً، وكان وما زال القرآن يحفظ ويتلى بالفاظه وأدائه العربي. وكانت الأحاديث النبوية، وما زالت، تحفظ وتتلى فيها بألفاظها واداائها العربي كذلك. وكانت وما تزال الصلوات والطقوس والأدعية والأوراد والتسابيح، تجري باللغة العربية والاصطلاحات العربية. وكانت وما تزال اصوات خطباء المنابر، ومؤذني المنائر، ومدرسي المساجد، تعلو باللغة العربية والنداء العربي. وقد أخذنا نشهد أخيراً بادرة جديدة، تدل على مقدار عظمة ذلك التوحيد ومداه، في الدعوة التي تدعو إليها الباكستان، وتتجاوب معها فيها اندونيسيا، كبريا الدول الإسلامية اليوم، وهي جعل اللغة العربية لغتها الرسمية خاصة، ولغة الأمم والدول الإسلامية عامة.

بهذه العدة القوية العظيمة الرائعة أعدت الدولة الإسلامية العربية الأولى التي قامت في المدينة بعد وفاة النبي، والتي كان رئيسها ورجالها من تلك الطبقة التي رضي الله عنهم من

السابقين والأولين من المهاجرين والأنصار وتـابعيهم بإحسان، الذين تشبعوا بـروح الرسـالة المحمدية، وفهمـوها أحسن فهم، وطبقـوها أحسن تـطبيق، فكانت دولتهم الـدولة المثـالية الإنسانية، في إقامة الحق والعدل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتزام حدود الله، والسير فيما أمر به من القصد والاعتدال والحدود والمبادىء، فاستطاعوا أن يقفوا في وجه بعض العواصف التي ثارت في جو الإسلام والعروبة في جزيرة العرب، وكادت تعكر صفوهما، وأن يوطدوا هدف الرسالة العاجل الذي اقام النبي أساسه أي الوحدة العـربية في الجـزيرة، وأن يوجهوا العرب تحت راية وحدتهم هذه، إلى تحرير مهاجر العـرب المجاورة للجـزيرة، من مستعمريها الغرباء، ونشر الدعوة الإسلامية فيها، وضمها إلى هذه الراية، ثم فيما وراءها.

وبهذا المعنى الجديد، والمدى الأوسع، من كل مـا سبقه، والأسلوب المختلف عن الأساليب السالفة، اتسمت موجة الفتح والتحرر العربية الإسلامية الكبرى التي اتجهت إلى بلاد الشام والعراق ومصر وشمال افريقية، بعد أن استقرت الحالة في الجزيرة، والتي كان قوادها ورجالها البارزون من تلك الطبقة المرضية من الله، فاستطاعت بأسلوب مثالي رائع، وفي وقت قصير، أن تنجح في مهمتها نجاحاً منقطع النظير، فتحرر بلاد العراق من سلطان الفرس، ثم تقوض هذا السلطان من بلاد ايران نفسها، وتحرر بلاد الشام ووادي النيل أيضاً وشمال افريقية من سلطان الروم، وأن تجعل معظم سكان هـذه البلاد يقبلون على الانـدماج في أهـدافها، ويستجيبون إلى دعوتها، لما رأوه في أسلوبها من الحكمة والروعة والتجرد والعدل والانصاف، وأن تجمع هذه الأقطار مع جزيرة العرب، في وحدة مثالية روحية وسياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية، وأن تتم سبك سكانها في بوتقة العروبة الصريحة واللغة القرآنية الفصحى، وتجعل الإسلام والعروبة طابعها الخالد المقدس. فكانت هذه الوحدة عنواناً رائعاً للدولة الإسلامية العربية الأولى، ومثالاً يحتذيه، ويجري في نطاقه من جاء بعدها.

- ٧ -

وتعكر الجو في آخر هذه الدولة لفترة قصيرة، ولكنه لم يلبث أن عاد إليه صفاؤه، فقامت الدولة الأموية العظمى التي اتسعت حدودها اضعاف ما كانت عليه الدولة الأولى، بما ضمته إلى سلطانها في المشرق والمغرب والشمال، من أقطار شاسعة غير عربية، ولقد كانت السمة التي اتسمت بها موجة الفتح الأولى سمة هذه الدولة ايضاً، من حيث الاجمال، فاستطاعت أن تنشر الإسلام واللغة العربية في الأقطار الجديدة، وأن تجعلها جزءاً من الدولة المتحدة العظمى. فكان من أثر ذلك توطد الوحدة الروحية والتشريعية والاجتماعية توطداً خالداً في سكان هذه البلاد، وترصيع لغاتهم بمفردات اللغة العربية ومصطلحاتها ونصوصها المقدسة ترصيعاً خالداً، كذلك حينما انفصمت عرى الاتحاد بينهم وبين العرب فيما بعد.

وتعكر الصفو في هذه الدولة ببعض الحركات الداخلية التي كان الباعث عليها مـآرب خاصة، ونتج عن ذلك انهيارها. فقامت على انقاضها سنة ١٣٢ هـ الدولة العباسية التي حرصت

على الاحتفاظ بدورها بتلك السمة، ثم بالوحدة القائمة بين أقطار الدولة الكبرى. ونجحت في ذلك نجاحاً كبيراً طيلة مئة سنة، وهي عهدها الذهبي، باستثناء الأندلس التي انفصلت عن الاتحاد، نتيجة لقيام الدولة الأموية الجديدة فيها، مع التنبيه على أن هذه الدولة حرصت على أن تتسم بتلك السمة، واستطاعت أن تنشىء في منطقتها عالماً خاصاً بها، وأن توطد سلطان العروبة، وأن تنشر الدعوة الإسلامية فيه، وأن تجمع الأندلس وما انضم اليها من اقطار في نطاق خاص، من الوحدة أيضاً.

ولقد تعرضت الدولة العباسية لتغلب المتغلبين، بعد المائة سنة الأولى على سلطان خلفائها، واستبد كثير من حكام الأقاليم والطامحين بالحكم فيها. غير أن مظاهر الوحدة ظلت قائمة بين الأقاليم والخلافة العباسية بشكل ما، متمثلة في الخطبة والسكة والاعلام والطرز، وبراءات التعيين والتشريف، ومخصصات من المال تقدم لخزانة الخلافة... الخ، فقد غدا مقام الخلافة ذا معنى ديني وسياسي معاً، وصار الناس لا يرون لقيام سلطان محلي في اقليم، أو لتغلب متغلب على سلطان الخليفة، مبرراً شرعياً، إلا إذا اقترن ذلك بموافقة صاحب هذا المقام، مما كان يضطر المستبدين الطامحين والمتغلبين، إلى الحصول على هذه الموافقة والرضاء، بالبقاء في نطاق وحدة الدولة العام، وإلى قبول مظاهرها المذكورة، فتكون عنواناً لهذه الوحدة بمعنى من المعاني، تظل فيه الوحدة الاجتماعية والروحية واللغوية قائمة موطدة، مهما يكن من أمر وهن مظهر وروابط الوحدة السياسية والاقتصادية والتنفيذية.

ولقد كان يطرأ على المتغلبين على سلطان الدولة ضعف أو زوال، فتقوى مظاهر الوحدة، وتتطور إلى عودة الخليفة إلى ممارسة السلطان في الدولة، كما جرى في عهد خلافة المعتمد والمعتضد والمكتفي العباسيين ٢٥٦ ـ ٢٩٥ هـ، وكما جرى في عهد الناصر والظاهر والمستنصر والمستعصم العباسيين٥٧٥ ـ ٦٥٦، حيث انكفّت يد المتغلبين الترك في الفترة الأولى، وزال تغلب السلاجقة على سلطان الدولة في الفترة الثانية.

وكان المتغلبون على سلطان الخلافة العباسية، يبذلون جهدهم في توطيد وحدة الدولة السياسية والاقتصادية والحربية بين مختلف الأقاليم المرتبطة بالخلافة. وكان منهم من ينجح في ذلك نجاحاً كبيراً، مثل معز الدولة البويهي، وعضد الدولة البويهي، وارطغرل، والب أرسلان، وملكشاه السلجوقيين، وكل ما يكون من أمر في هذه الحال، هو ضعف الخلفاء أنفسهم، وممارسة المتغلبين لسلطان الدولة، بدلاً منهم.

وقيام الدولة الفاطمية في المغرب، في أواخر القرن الهجري الثالث، قد يكون استثناء لما قررناه. غير أن حركة الذين قاموا بهذه الدولة، كانت حركة منافسة للعباسيين فقط، وكانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الحق في السلطان، فلم يكادوا ينجحون في اقامة دولتهم، حتى اخذوا يبذلون جهودهم في نزع الأقطار العربية من نطاق سلطان العباسيين، وتحويلها إلى نطاق سلطانهم.

وبتعبير آخر، لم يكن في حركتهم معنى من معاني التخلي عن فكرة قيام دولة عربية إسلامية متحدة، وعن السمة التي اتسمت بها حركة موجة الفتح.

وقد نجحوا في جهودهم نجاحاً غير يسير، فاستطاعوا أن يوحدوا تحت رايتهم وسلطانهم بلاد المغرب، ثم وادي النيل، ثم بلاد الشام إلى الفرات، ثم الحجاز واليمن، بل واستطاعوا، ولو لفترة قصيرة، مقدارها عام واحد، أن يستولوا على بغداد، ثم على البصرة وواسط وما حولها من مناطق عراقية، وأن يضطروا الخليفة العباسي إلى ترك بغداد، وأن يحكموها ويخطبوا لأنفسهم من فوق منابرها، وينشروا ألويتهم وألوانهم الخضراء فيها، وذلك نتيجة لمغامرة البساسيري الذي وجهوه إلى العراق سنة ٤٥٠ هـ في خلافة القائم بأمر الله العباسي.

على أن بلاد الشام وجزيرة العرب عادت إلى نطاق وحدة الدولة العباسية، بعد هذا الوقت بقليل، ثم عاد وادي النيل إليه عام ٥٦٧ هـ، حينما قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية، حيث كانت قد وصلت إلى حالة الضعف القصوى. وكان صلاح الدين يتولى الوزارة للعاضد آخر خلفائها، فأمره نور الدين زنكي ملك الشام الذي كان صلاح الدين قائداً من قواده، وممثلاً له في مصر، باسقاط خطبة الخليفة الفاطمي، والخطبة للخليفة العباسي، فنفذ الأمر.

- ٨ -

ومع أن بلاد الشام كادت تكون في هذه الحقبة مستقلة استقلالاً تاماً، في ظل الدولة الزنكية، ثم في ظل الدولة الأيوبية التي قامت على انقاضها، وكانت دولة امبراطورية عظمى، توحدت جميع بلاد الشام مع وادي النيل وليبية والحجاز واليمن تحت سلطانها. إلا أن وحدة هذه الأمبراطورية، مع بقية الأقطار الاسلامية الشرقية الوسطى، ظلت قائمة في نطاق الدولة العباسية العام، في الحدود التي ذكرناها قبل قليل.

ولما زالت هذه الدولة، في أواسط القرن السابع الهجري، نتيجة لغزوة التتر الكاسحة، ثم قامت في وادي النيل دولتا المماليك الترك والشركس بالتتابع ٦٥٠ ـ ٩٢٣ على انقاض الدولة الأيوبية، كان وادي النيل وليبية وبلاد الشام والحجاز واليمن، موحدة تحت سلطانهما، في وحدة متينة شاملة عسكرية وسياسية وادارية واقتصادية.

ولما غلب السلطان سليم العثماني، في سنة ٩٢٣ هـ، قانصو الغوري، ملك الدولة الشركسية، انبسط سلطان الدولة العثمانية على جميع الأقطار العربية التي كانت تحت سلطان الدولة الشركسية، ثم على تونس والجزائر والعراق بعد ذلك، فكانت البلاد العربية من الجزائر إلى خليج البصرة، موحدة بمعنى من المعاني تحت سلطان الترك العثمانيين الذين كانت تجمع سكانها معهم الوحدة الإسلامية أيضاً. وكان العرب لا يعتبرون أنفسهم غرباء، في نطاق هذه الدولة، بل شركاء بسبب ذلك. وظل الأمر كذلك، إلى القرن الرابع عشر الهجري، حيث انسلخت البلاد العربية عن الدولة العثمانية، بعد الحرب العالمية الأولى.

ويبدو من هذا الاستعراض الوجيز، أن الوحدة كانت تتوطد بشكل من الأشكال كلياً أو جزئياً، بين أجزاء الوطن العربي في مختلف حقب التاريخ القديم والمتوسط والحديث، تحت راية الدول التي كانت تقوم فيه، حقبة بعد حقبة، سواء كانت دولاً عربية الجنس، أم لا.

وقد توطدت بمعنى جديد مختلف عما سبق في أسلوبه ومداه ومقاصده، في ظل الراية الإسلامية، حتى شملت جميع أجزائه شمولاً تاماً لم يسبق له مثيل، في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين، وجزء من عهد العباسيين، ثم في عهود الدول الأيوبية والتركية والشركسية والعثمانية.

- ٩ -

وفي عهد العباسيين انقسم الوطن العربي إلى قسمين، مشرق عربي، ومغرب عربي. أما المغرب فقد كان في حالة متقلبة. فقد قامت، كما قلنا، الدولة الأموية في الأندلس، فأنشأت عالماً خاصاً بها، منفصلاً عن الدولة العباسية، واستطاعت أن توطد فيه سلطان العروبة والإسلام، وأن تجمعه في نطاق خاص من الوحدة، متسم بسمة موجة الفتح، وأهداف الدعوة الإسلامية. وقد استطاعت أن تمد سلطانها حيناً إلى اقليم مراكش، وأن توطد الوحدة بينه وبين الأندلس، بشكل من الأشكال لفترة من الوقت.

وفي أواخر القرن الثالث الهجري قامت الدولة الفاطمية في اقليم تونس، واستطاعت أن تبسط سلطانها على سائر أقسام المغرب، ثم على وادي النيل وبلاد الشام وجزيرة العرب، وأن توطد الوحدة في ظل هذا السلطان، بين هذه الأقسام التي هي معظم أجزاء الوطن العربي، حتى لقد استطاعت لفترة قصيرة، أن تبسط سلطانها على العراق أيضاً على ما ذكرناه من قبل.

ثم ضعفت هذه الدولة في أوائل القرن الخامس، فانفصمت عرى الوحدة بين المغرب والمشرق، ثم بين أجزاء المغرب نفسه. غير أنه قام في القرن الخامس في مراكش دولة المرابطين، فاستطاعت أن توطد الوحدة بين هذا الاقليم واقليمي الجزائر وبلاد الأندلس معاً. وقد كانت تذكر أسماء الخلفاء العباسيين فوق منابرها، فعادت الوحدة، ولو اسمياً بين المغرب والمشرق معاً لفترة من الزمن.

ثم ضعفت هذه الدولة، فقامت في اقليم مراكش أيضاً دولة الموحدين في القرن السادس، واستطاعت أن تفرض سلطانها على الأندلس، واقليمي الجزائر وتونس معاً، وأن توطد وحدة كبيرة شاملة لجميع اجزاء المغرب العربي لفترة من الزمن. ثم ضعفت فقامت على انقاضها دولة المرينيين في اقليم مراكش، واستطاعت أن تبقي الوحدة موطدة بين هذا الاقليم واقليم الجزائر وتونس لفترة من الزمن أيضاً.

وفي القرن العاشر استقلت مراكش، ودخلت اقاليم الجزائر وتونس وليبية في سلطان الدولة العثمانية، ثم استقل الاقليمان الأولان بشئونها، ولم يبقيا مرتبطين بالدولة العثمانية، إلا بذكر خلفائها فوق المنابر.

وظل الأمر كذلك، إلى أن تعرضت الجزائر في سنة ١٨٣١م، وتونس في سنة ١٨٨٢م، ومراكش في سنة ١٩١٣م، لعدوان فرنسا وبغيها، فاحتلت هذه الأقاليم، واحداً بعد آخر، وغدت قبضتها منفصمة العرى عن الوحدة العربية، وعن الوحدة فيما بينها معاً.

أما ليبية فقد ظلت في نطاق الدولة العثمانية والوحدة العربية الموطدة، في ظل هذه الدولة إلى سنة ١٩١٢، حيث تعرضت لبغي ايطاليا واحتلالها، ووقعت في قبضتها.

على أنه مهما يكن من أمر هذه الحالة المتقلبة، فإن اجزاء المغرب العربي قد عاشت، كما يبدو من ثنايا هذا الاستعراض، قسماً كبيراً من تاريخها الإسلامي موحدةلا فيما بينها حيناً، وفيما بينها وبين المشرق العربي حيناً آخر، مما يسوغ القول ان وحدتها فيما بينها وبين المشرق العربي أمر مألوف وطبيعي من الوجهة التاريخية.

وأما المشرق العربي فقد عاش كما ذكرنا قبل،موطَّد الوحدة بشكل من الأشكال في عهد الدولة العباسية الذي امتد نحو خمسة قرون، ثم عاش موطد الوحدة كذلك في ظل الدولة الإسلامية التي انبثقت منها، وكانت امتداداً لها، أي الدولة الأيوبية، فالتركية، فالشركسية، فالعثمانية التركية، التي امتد سلطانها إلى معظم أجزاء الوطن العربي، حتى أواسط القرن الرابع عشر الهجري، باستثناء بعض أنحاء تعرضت للعدوان الانكليزي، وخرجت من نطاق هذه الوحدة خروجاً تاماً أو جزئياً في القرن الثالث عشر الهجري. ونعني بذلك مصر وإمارات جزيرة العرب الجنوبية والشرقية.

ثم انفصمت عرى هذه الوحدة، بعد انهيار سلطان الدولة العثمانية التركية عن البلاد العربية، نتيجة لما كان من غدر الانكليز الذين حالفهم العرب استهدافاً لانشاء مُلْكٍ عربي كبير مستقل، تتوطد فيه الوحدة بين قسم كبير من أجزاء الوطن العربي، على ما سوف نشرحه بعد.

وهكذا يكون المشرق العربي حديث عهد بالوحدة، وتكون الوحدة بالنسبة إليه بمثابة عود على بدء، امتد إلى أمد قريب جداً(٣٩).

الوحدة الروحية الدينية

تمهيد

قد لا تكون الوحدة الدينية أو الروحية، في الحضارة الاجتماعية الحديثة، ضرورية لقيام الوحدة السياسية، أو ركناً من أركانها، حيث تتوطد اليوم هذه الوحدة في كثير من البلاد التي تتعدد فيها الأديان والنحل والمذاهب. غير أنه مما لا ينكر أن هذا التعدد كان إلى ما قبل مائة سنة، عقبة في طريق الوحدة، كما أن توفر الوحدة الدينية والروحية في وطن ما، يجعل قيام الوحدة بين أبنائه واجزائه أيسر تحقيقاً، وادعى إلى التواثق والترابط بين أبناء الوطن واجزائه.

- ١ -

والوحدة الدينية أو الروحية متوفرة في الوطن العربي اليوم، بأقوى مظهرها، وأوسع مداها، حيث يدخل في نطاق معظم سكان الوطن، أو بتعبير رقمي ٩٣٪ منهم، وقد كانت هذه الوحدة وما تزال من أهم مظاهر حياة سكان هذا الوطن، في مختلف اجزائه منذ قرون عديدة، تتصل في بعضها إلى أربعة عشر قرناً، وفي بعضها إلى اثني عشر قرناً، وفي بعضها إلى عشرة قرون، ولا تكاد تقل عن ذلك، مع التنبيه على أننا لا نعني بهذا أن الإسلام لم يدخل بعض اجزاء هذا الوطن إلا قبل اثني عشر قرناً، أو قبل عشرة قرون، وإنما نعني أن شموله لكل جزء دخل فيه، قد تم في ذلك، وإلا فإن الإسلام قد دخل إلى جميع اجزاء هذا الوطن بعد قليل من ظهوره، ثم أخذ ينتشر، حتى تم له هذا الشمول الذي يتمثل بالنسبة التي ذكرناها.

ومن الجدير بالذكر أن جميع المسلمين متحدون في العقائد والأركان الرئيسية للإسلام، وأن ٩٣٪ منهم سنيون، متحدون في الفروع الثانوية أيضاً، مع اختلافات مذهبية شكلية، لا تؤثر في معنى الوحدة بينهم بأي حال. ويدخل في عداد هؤلاء الاخوان الوهابيون، فهم سنيون يسيرون على فقه الامام الحنبلي، ودعوتهم قامت في بدئها على انكار البدع، والرجوع بالإسلام إلى عهد السلف الإسلامي الأول الصالح. وما علق بأذهان العامة عنهم من كونهم أصحاب مذهب خاص، أو غير سنيين أو مغالين أو منحرفين، هو نتيجة الدعاية التي بثتها الدولة العثمانية من جهة، ومحمد علي باشا، خديوي مصر من جهة اخرى، في القرن السابق، حينما ظهرت الدعوة الوهابية بقوتها، وتبناها أمير نجد، واتسع نطاقها حتى صارت قوة دينية وسياسية وحربية. واستولت على الحجاز والعسير، بالإضافة إلى نجد، وأخذت تنتشر إلى أطراف الشام والعراق، وأنحاء جزيرة العرب الأخرى، مستهدفة تعميم الدعوة، وانشاء دولة عربية اسلامية كبرى، تضم أجزاء الوطن العربي. وقد شعرت الدولة العثمانية بخطرها على سلطانها السياسي والروحي - لأنها كانت تتسم بسمة الخلافة والامامة - واتفقت مع خديوي مصر، محمد علي باشا، على قمع الحركة، وسير هذه الحملات الحربية عليها، فاقتضى الأمر بث دعاية دينية ضدها، حتى يسيغ المسلمون وجنودهم أمر قتالها.

- ٢ -

أما بقية النسبة، وهي تبلغ نحو خمسة ملايين من ٦٧ مليوناً من المسلمين، فمعظمهم من الطوائف الإسلامية الشيعية، منهم نحو مليونين زيديون في المملكة اليمنية، وليس بينهم وبين السنيين خلاف في العقائد والأركان، بل وفي كثير من الفروع الثانوية، وأعظم ما هنالك أن الخلافة عندهم لأبناء زيد بن علي بن الحسين ورهن بكون المرشح عالماً مجتهداً مجاهداً. وقد علق في الأذهان عنهم صورة مشوهة، مثل ما علق من مثلها عن الوهابيين. وسبب ذلك نفس السبب بالنسبة لهؤلاء، فقد كان للزيديين في اليمن أئمة يمارسون السلطان، قبل غزو الدولة العثمانية التركية لبلاد العرب، وانتزاع السلطان عنها من يد الدولة الشركسية سنة ١٩٢٣ م. فلما تم لها هذا، أرادت أن تفرض سيطرتها على اليمن، فتصدى لها الأئمة الزيديون، ونشب

نضال بينها وبينهم، كان ينتصر فيه هؤلاء حيناً، وقواتها حيناً آخر. وقد استطاعت في النهاية بسط سلطانها على بلاد اليمن، غير أن الأئمة أبوا أن يعترفوا به، ويخضعوا له. وكانوا يقومون بحركات جهادية ضده، فكانت الدولة العثمانية ترسل إلى اليمن الحملات العسكرية التي كان قوامها المسلمون السنيون من العرب والترك، وكانت تبث الدعاية ضد الزيديين وأئمتهم، وتصفهم بالانحراف عن الدين الإسلامي، حتى يسيغ المسلمون السنيون محاربتهم وقتالهم.

ومنهم نحو مليونين إماميون في العراق. وليس بينهم وبين السنين كذلك خلاف جوهري، والاتحاد بينهم قائم في جميع العقائد والأركان الدينية والإسلامية. والطوائف الشيعية الأخرى، كالدروز والعلويين والاسماعليين، هي تطورات عن الفكرة الشيعية.

- ٣ -

والخلاف القائم بين الشيعة والسنة، هو في أمور لا صلة لها بجوهر الإسلام ومنابعه المقدسة في الأصل، وإنما هي متصلة بالأحداث التاريخية السياسية التي حدثت في القرن الهجري الأول، وما انبثق عنها من أفكار وتيارات وأحداث.

فقد كان التنافس قائماً في مجال الحكم والسلطان بين الهاشميين والأمويين، منذ ألف وأربعمائة سنة، ثم أخذ الهاشميون يبثون دعايتهم ودعوتهم، ويمزجونهما بالدين، ويسندونهما بروايات فيها شيء من التجوّز. وكانت هناك بعض حوادث دموية أليمة، استغلت استغلالاً واسعاً في مجال الدعوة والدعاية، واندمج العجم في ذلك، بسبب نقمتهم على العرب الذين هدموا دولتهم، واطاحوا بسلطانهم، وغدوا في ذروة عزهم في عهد الدولة الأموية التي امتد سلطانها إلى الأندلس غرباً، والهند والصين شرقاً، والبحر الأسود وبحر الخزر شمالاً، وبلاد السودان جنوباً. وقد أدت دعاية الهاشميين، وتضامن العجم معهم، إلى هدم هذه الدولة، وقيام الدولة العباسية. وكانت سيوف العجم أقوى دعامة لهم. وقد بذل هؤلاء جهودهم ليكونوا أصحاب الشأن في الدولة الجديدة. وتضامن العباسيون والعجم، يعضدهما سلطان الدولة في تقوية الدعوة والدعاية، حتى يظل المسلمون فريقين، وتظل دولة العباسيين والعجم قائمة.

واتهم العلويون العباسيين بغصبهم حقهم في الملك، فعمدوا بدورهم إلى بث الدعوة والدعاية لأنفسهم ضد أبناء عمهم العباسيين، والعمل على هدم دولتهم، واندمج في هذه الدعوة والدعاية العجم أيضاً، لأن فيها توهيناً على توهين لقوة العرب عامة. وأدى هذا إلى ثورات ودماء في بلاد العرب والعجم، تنوعت وتكررت واستمرت مدة طويلة، واضعفت كيان العباسيين، ومكنت الفاطميين العلويين من انشاء دولتهم في اقليم تونس، ومد سلطانها إلى انحاء شمال افريقية الأخرى، ثم إلى مصر والشام والحجاز واليمن. وقد نشطوا في الدعوة والدعاية لعترتهم بنوع خاص، لتمكين دولتهم، فأدى كل هذا إلى قوة رسوخ الطائفية الشيعية.

- ٤ -

وهناك، بالاضافة إلى الطوائف الشيعية الإسلامية، جماعات ينتحلون الاباضية في بعض

أنحاء جزيرة العرب الشرقية ـ أي في سلطنتي عمان ومسقط ـ وفي بعض انحاء اقليم الجزائر من بلاد المغرب العربي، وهم مسلمون متحدون مع سائر المسلمين، في جميع أسس الإسلام وجوهره وأركانه، بل وفي كثير من الفروع الثانوية. وهم امتداد لفرقة من فرق الخوارج التي ظهرت في عهد خلافة علي بن أبي طالب، ثم استمرت وتفرعت، وانتشرت في عهد الدولتين الأموية والعباسية. وهذه الفرق التي منها فرقة الاباضية، تنحو نحو التمرد والعصيان على كل من يلي مقاليد أمور المسلمين، بدون موافقة ورضاء المسلمين، وعلى كل من لم يسر منهم وفق أوامر وتعليمات القرآن والسنة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين، أي أن الخلاف بينهم وبين جمهور المسلمين سياسي اجتهادي، وليس خلافاً في جوهر الدين وأركانه.

وإذا كان هناك شيء من الذهنية المتجهمة المتبادلة بين الطوائف الشيعية والنحلة الأباضية، وبين السنيين، يعكر الوحدة الروحية القائمة بين المسلمين بعض الشيء، فإنّ ذلك كان بسبب ظروف الحكم السابقة. وقد أخذ يخف، منذ استيقظ العرب يقظتهم الحديثة، وصار ينشأ في كل طائفة فئة صالحة، يزداد عددها مع الأيام، تدرك أسباب الخلاف وتنكرها، وتتأذى من استمراره بين أبناء الوطن الواحد والجنس الواحد والدين الواحد، وتعرف أن ذلك عظيم الضرر والخطر على المصلحة القومية العامة أولاً، وعلى مصلحة كل طائفة ثانياً، وعلى قضية الوحدة العربية التي هي أهم أهداف الحركة العربية الحديثة ثالثاً. ولم تعد فكرة تغلب السنيين، واضطهاد غيرهم قائمة عند الذين يتولون زمام الحكم في الدول العربية، ولا سيما أن الذين يتولون هذا الزمام مزيجون من مختلف الطوائف، وصار أبناء الطوائف غير السنية، يتمتعون في ظل اليقظة الحديثة، باعتبار مماثل لغيرهم. والتعليم اليوم في الدول العربية مختلط بدون تفريق بين طائفة وطائفة، والجميع يدركون واجب تناسي خلافات الماضي السحيق التي لا تمت إلى جوهر الدين وهدفه بأي صلة والتي زالت في الوقت نفسه أسبابها، فكل هذا مما يسوغ القول، انه لن يمضي جيل أو جيلان، حتى تندمج هذه الطوائف في المجموع، وتتوثق معه في الوحدة الروحية الشاملة.

وفي التلقين القرآني البليغ(٤٠)، تأييد للوحدة بين المسلمين على مختلف أشكالها من دينية وسياسية واجتماعية، مدد فياض يستمد منه عقلاء طوائف المسلمين في الأمة العربية لتوطيد الوحدة بينهم، وإزالة كل أسباب الفرقة والخلاف، وهو ما سوف يحدث، مع اتساع نطاق العلم والوعي والتشارك العام، في مختلف وجوه الحياة.

ومن الملايين الخمسة غير المسلمين في الوطن العربي الكبير نحو مليونين ونصف نصارى، موزعون في مصر والشام والعراق والمغرب العربي. وكتلتهم الكبرى في مصر، حيث تبلغ نحو النصف، ثم في بلاد الشام، حيث يبلغ عددهم نحو مليون. والدم العربي الصريح في كثير من النصارى من ناحية، والتاريخ واللغة من ناحية أخرى، يجمعان بين مسلمي العرب ونصاراهم، ويجعلان وجود هذا العدد من النصارى بين أكثرية سكان الوطن العربي الكبير، غير مؤثر في توفر أسباب الوحدة عامة، وغير معكر لصفاء توفر الوحدة الروحية خاصة.

فالاقباط الذين هم الكتلة الكبرى من نصارى العرب، هم من أنسال الموجات العربية القديمة، التي كانت تطرأ على مصر من آن لآخر. والأرثوذكس الذين هم الكتلة الثانية الكبرى من نصارى العرب، والمنتشرون في لبنان وسورية وشرق الأردنوفلسطين(٤١) في الدرجة الأولى، كلهم أو جلهم، من أنسال القبائل الصريحة العربية التي كانت تدين بالنصرانية قبل الفتح الإسلامي، واحتفظوا بها خلال القرون الطويلة التي عاشوا فيها خلال العهد الإسلامي. والموارنـة الذين هم الكتلة الثالثة الكبرى من نصارى العرب، هم كذلك من انسال الموجات العربية القديمة التي كانت تطرأ على بلاد الشام، من آن لآخر، سواء أكانوا عرباً صرحاء، ومن قبائل بني مراد التي اشتق من اسمها اسم «المردة» الذي عرف به الموارنة قديماً، كما يقول بعض الباحثين، أم من أنسال الآراميين والفينيقيين الكنعانيين، كما يقول باحثون آخرون، لأن الآراميين والكنعانيين، هم موجات عربية الجنس باتفاق الباحثين. وقسم كبير من الكاثوليك الذين هم الكتلة الرابعة في الكثرة من النصارى، يمتون كذلك إلى الجنس العربي. والقسم الباقي منهم ليسوا من الجنس العربي دماً، ولكنهم مندمجون في العروبة والوطن العربي لغة وتاريخاً.

ـ ٥ ـ

وليس هنـاك أي داع حقيقي لتدابـر روحي بين النصـارى والمسلمين العـرب، بسبب اختلاف الدين وطبيعته الذاتية، من شأنه أن يعكر على ما يتوفر بين سكان الوطن العربي من أركان الوحدة الجنسية واللغوية والتاريخية. فليس بين الإسلام والنصرانية تناقض في الأهداف والدعوة بالنسبة للحياة ومثلها. وكلاهما نابعان من نبع واحد. والإسلام يعترف بقداسة السيد المسيح ونبوته وانجيله. وليس هناك أي تباين بين النصارى والمسلمين في المصالح العامة، سـواء أكان في مجال السياسة والحكم والتنظيم والتشريع، أم في مجال الحقوق والواجبات، أم في مجال الاقتصـاد والاجتماع، أم في مفهوم وأهداف الفكرة العربية، وما يعود على الفريقين من منافع وعز وسؤدد من تحققها. وليس للدين والتمايز الديني أي دخل في كل ذلك، لأنـه ممارسة وجدانية، ولأن الدين الإسلامي المؤثر في حياة المسلمين، يضمن كل الضمان حقوق المواطنين من غير المسلمين وحرياتهم. والنصوص الإسلامية صريحة قوية في الحث على البر والأقساط والمودة وحسن المعاملة والوفاء نحوهم. والمسيحية النقية تبشـر بالمحبـة والسلام وتحارب الأحقاد والمآرب الشخصية. وأعداء الإسلام، من وجهة النظر الإسلامية، هم الذين يعتدون على المسلمين، ويكيدون لهم، ويؤذونهم، ويظاهرون عليهم أعداءهم، ويطعنون في دينهم.

وإذا كان هناك شيء من أعراض الحذر والانقباض والتعصب، فإن ذلك لا يمت إلى الدين بسبب، وأسبابـه سياسيـة وتاريخيـة. وقد غـذاه المستعمرون أعـداء العرب لمـآربهم السياسية. وكان دور فرنسة في لبنان خاصة في هذا المجال ألأم الأدوار وأشدها نكاية. ومع ذلك فقد أخذ هذا يخف أيضاً. فقد انكشف للنصارى نيات المستعمرين السيئة المريبة نحو العرب، مسلميهم ونصاراهم على السواء، انكشافاً تاماً في حقبـة الثلاثين سنـة الأخيرة، واستنـارت

الأفكار، وأخذت تدرك وتلمس وهن الأسس التي ترجع إليها تلك الأغراض، وعدم صلتها بالمبادىء والتعاليم الدينية والمصلحة القومية والوطنية. كما أخذت تلمس قوة التشارك بين المسلمين والنصارى في القومية والوطنية والمصلحة الخاصة والعامة، فقرب كل هذا بين الطرفين، وأزال كثيراً من آثار تلك الأعراض، وجعل النصارى يندمجون في الحركات الوطنية والنضالية التي قامت في مصر وفلسطين وسورية والعراق ولبنان ضد الاستعمار والمستعمرين، ويساهمون فيها بنصيب وافر، وجعل كثيراً منهم يستنكرون استمرار تلك الأغراض، ويلمسون فيها عظيم الضرر والخطر على القضايا القومية والوطنية، حتى ليصح أن يقال ان جمهور النصارى في مصر وسورية وفلسطين والعراق، قد أخذ يندمج في المجموع العربي العام اندماجا صادقا عاطفة ومصلحة ووطنية وقومية، وأنه لن يمضي جيلان، حتى يصبح هذا الاندماج تاماً شاملاً في هذه الأقطار.

- ٦ -

ومن المليونين والنصف، وهو الباقي من عدد غير المسلمين في الوطن العربي الكبير، نحو ثلاثمائة ألف يهودي، ما يزالون فيه إلى اليوم، خمسهم في مصر، وثلثاهم في بلاد المغرب، والباقون في بلاد الشام والعراق واليمن. ونسبتهم إلى سكان الوطن العربي ضئيلة جداً، لا تكاد تزيد على ثلاثة في الألف. ومع أنه قد يبدو أنهم غدوا مشكلة، بعد ما قام بين العرب واليهود ما قام من ثارات وأحقاد شديدة، بسبب اغتصابهم فلسطين، وجرائمهم التي اقترفوها، وما يزالون يقترفونها ضد العرب، فإنّ قلتهم الضئيلة، وانعزالهم القوي عن المجموع العربي، لا يجعلان لهم أي مشكلة في صدد الوحدة العربية عامة، أو في صدد الوحدة الروحية خاصة، على ما شرحناه في بحث سابق.

ومعظم الباقين وثنيون زنوج في السودان، ووثنيتهم هو أثر الجهل المطبق والعماية والبدائية، والعثرات التي كان الانكليز يقيمونها في سبيل نشاط التبشير الإسلامي، وليس من شأنها أن تكون مشكلة في صدد الوحدة عامة، ولا في صدد الوحدة الروحية خاصة، ولا سيما أنها لا تزيد عن ٣,٥٪ بالنسبة لمجموع سكان الوطن العربي.

ولقد استلم مقاليد الأمر في السودان حكومة سودانية وطنية، وسيكون التعليم من أهم مجالات نشاطها. ولسوف ينفتح المجال أمام التبشير الإسلامي في العهد الجديد، ويمكن بذلك اخراج هذه الكتلة من ظلمات وثنيتها، إلى نور التوحيد الاسلامي. ونعتقد أنه لن يمضي خمسون سنة، حتى تنضم هذه الكتلة، أو معظمها إلى الكتلة الإسلامية، وتندمج في أكثرية سكان الوطن العربي الساحقة[٤٢].

الوحدة التشريعية والثقافية والاجتماعية

- ١ -

ونتيجة للوحدة الروحية، ثم للوحدة التاريخية واللغوية، التي ظللت بلاد العرب تلك الأحقاب الطويلة، فضلاً عن الوحدة الجغرافية التي جمعت بين أطرافها، والوحدة الجنسية التي يمت إليها أهلها، فإن الوحدة التشريعية والاجتماعية والثقافية متوفرة في الوطن العربي بسعة وشمول أيضاً. وهذه أركان مهمة من أركان الوحدة ومقتضياتها ودعائمها، لأن توفرها يعني الانسجام والتطابق التامين، في الأشكال والأساليب والمعاملات والأصول والفروع والمظاهر والمشاهد، التي يقيم الناس مناسبتهم مع بعضهم على أساسها، ويضبطون سيرتهم بضابطها.

- ٢ -

فالتشريع لأكثرية سكان الوطن العربي الكبير، الذين تتوفر فيهم الوحدة الجنسية واللغوية والروحية والتاريخية، كان منذ أربعة عشر قرناً، وما يزال، واحداً في أصوله وفروعه، لأنه مستمد من أصول الشريعة الإسلامية، وهي الكتاب والسنة والاجماع والقياس والاستحسان أو الاجتهاد. وقد انسبك كل هذا في علم الفقه الذي اتسع نطاقه، حتى غدا كافلاً لجميع حاجات المجتمع الإسلامي القضائية، وغير القضائية، وسواء أكان ذلك في شئون الجرائم، من قتل وسرقة وزنا وقذف وجرح وضرب وسكر وشتم وقطع طريق وخيانة وشهادة زور. . الخ. أم في الشئون المدنية، من بيع وشراء وهبة وحوالة وشراكة ودين ورهن ووقف وكفالة ومزارعة وايجار ومصانعة وعمل ومقاولة. . . الخ أم في الشئون الأسروية، من نكاح وطلاق وارث ووصية ورشد وحجر، أم في شئون الضرائب، من زكاة وعشر ومكوس وخراج وركاز وغنائم وفيء. . . الخ، وقد كان المرجع القضائي في مختلف هذه الشئون، وظل إلى أمد قريب جداً واحداً، وهو المحاكم الشرعية التي كانت أصولها، بل وجزئياتها واحدة، في مختلف انحاء الوطن العربي، لأنها مستمدة من الفقة الإسلامي القائم على أصول الشريعة الإسلامية المذكورة آنفاً. ومع أنه أخذ يطرأ، منذ أواسط القرن السابق، كثير من الأشكال والأساليب والمقتبسات، إلاّ أن أصول الشريعة الإسلامية التي عاش المسلمون في نطاقها هذه المدة الطويلة جداً، ظلت على اعتبارها في الأعم الأغلب، لأنها غدت جزءاً من كيان المسلمين الذين هم أكثرية سكان الوطن العربي الساحقة.

- ٣ -

وسكان الوطن العربي، يتشاركون منذ آماد طويلة، وإلى درجة كبيرة، في معظم عادات الزواج والأعراس والمآدب والمآتم والمعاشرة والتعامل والبيع والشراء واللهو والزينة والرياضة والسمر والحياة والعمل والمعيشة والأكل والشرب، في المدن والقرى، وتقاليدها ومراسمها وأساليبها، كما يتشاركون في الأذواق والعواطف والأساليب الدينية ووسائلها، لأن معظم هذه

العادات والمراسم والأساليب والوسائل، متصل بشكل من الأشكال بالحيـاة الإسلاميـة التي يحياها، ويندمج فيها سواد العرب الأعظم منذ أربعة عشر قرناً، وبتاريخ الإسلام وجوّه وتشريعاته وتلقيناته، بل ان هذا التشارك، ليشمل في كثير من مظاهره نصارى العرب أيضاً، نتيجة للوحدة التاريخية واللغوية والجنسية التي عاش الفريقان في ظلها، إلى جانب بعضهما آماداً طويلة.

ومن الجدير بالذكر أن شيئاً من هذا التشارك يمتد إلى ما كان جارياً من عادات وتقاليد ومراسم وأساليب قبل الإسلام أيضاً، لأن أسبابه قائمة فيما اجتمع فيه أبناء الوطن العربي، من وحدة تاريخية ولغوية وجنسية.

وكما أن المصري، أو العراقي، أو المغربي، أو الحجـازي، أو الشامي، أو اليمني، يتفاهم بسهولة ويسر مع غيره من أبناء الأقطار العربية الأخرى، حينما يعيش معه أياماً قليلة، فإنه ينسجم معه في هذه العادات والتقاليد والمراسم والأساليب الاجتماعية بسهـولة ويسر. حينما يعيش معه أياماً قليلة. بل ان هذا الانسجام ليكون أسهل وأيسر، لأن اعتياد الأذن لنبرة الأداء الكلامي، وانتباه الذهن للمفردات والمصطلحات الخاصة، قد يقتضي وقتاً ما، في حين أن تلك العادات والتقاليد والمراسم والأساليب واحدة تقريباً، في مختلف أقطار الوطن العربي.

ولقد كان لوسائل المواصلات الحديثة السريعة أثر كبير في اشتداد التماثل، لأنها يسرت أسباب التواصل والامتزاج بمقياس أوسع بكثير مما كان.

ومن الجدير بالذكر أن التطور الذي ينتج عن الاتصال بالعالم الغربي وحضارته، في كثير من العادات والمراسم والأساليب والتقاليد، قد شمل معظم بلاد العرب وسكانها في ظروف متقاربة، مما فيه دلالة على قوة التماثل الاجتماعي.

على أن من الحق أن نقول: انه مع ما أخذ يطرأ من عادات ومراسم وأساليب وتقاليد غربية على الحياة العربية، فإن القديم الذي عاش العرب في ظله منها، ظل رفاف الروح والظل، لأنه غدا هو الآخر جزءاً من كيان العرب، مما ينطوي فيه قوة ورسوخ الوحدة الاجتماعية.

- ٤ -

ومثل هذا ما يقال بالنسبة للوحدة الثقافية والفنية، وخاصة بعد الإسلام، حيث تعيش بلاد العرب نتيجة للوحدة التاريخية والاجتماعية والروحية واللغوية، منذ قرون عديدة، في ظل وحدة ثقافية إلى أبعد مدى.

فالكتاب الذي يؤلف في بلد، كان وما يزال يقرأ في أي بلد آخر، ومناهج الدراسة الدينية والعلمانية وأساليبها ووسائلها، كانت وما تزال واحدة، وأساليب النظم والنثر وفنون الكتابة، كانت وما تزال واحدة، وطرز البناء والفنون الجميلة متشاركة في كل بلد عربي، حيث يستطيع الغريب أن يلم بأساليب وطرز الثقافة والفنون العربية، حينما يدرس أو يشاهد آثار ذلك في بلد ما من بلدان الوطن العربي الكبير.

ثالثاً
ضرورة الوحدة

تمهيد

إن قيام الوحدة بين العرب ليس طبيعياً وحسب، بعد أن توفرت عندهم كل مقومات الوحدة وأركانها، بل هو ضروري أيضاً، من الوجهات السياسية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية أيضاً.

الوحدة ضرورة سياسية

- ١ -

إن كل واع سليم التفكير، يعترف في قرارة نفسه، أنه لن يكون للعرب كيان محترم قوي إلا بالوحدة الفعلية، لا الأدبية والروحية فقط. ويعترف أن العرب سيظلون عرضة للازدراء والبغي والاستغلال، ما داموا لا يجتمعون في وحدة فعلية قوية وشاملة. واتجاه العالم اليوم إلى التكتل، وقيام الوحدة فيه، بين شعوب لا يجمع بينها إلّا الجوار أو المصلحة السياسية والدفاعية، مما يزيد من قوة تلك الضرورة والحافز عليها. فليس لشعب ضعيف مكان واعتبار، ولا سبيل إلى أن يكتسب قوة تضمن له المكان والاعتبار، إلا بالوحدة.

وفي ثنايا التاريخ العربي كثير من الأحداث، التي تدل على أنه لم يصب العرب وهن، أو يقع عليهم بغي وعدوان، يندحرون أمامهما، في أي ظرف من ظروفهم، إلا حينما كانت وحدتهم منفصمة أو واهنة، ودولهم وإماراتهم عديدة ومتنابذة ومتكايدة، وقواهم منقسمة موزعة، ولم يكونوا أقوياء مزدهري الحضارة والعلم والعمران، نافذي السلطان، مرهوبي الجانب، مخطوبي الودّ، في أي ظرف من ظروفهم كذلك، إلا حينما كانوا متحدين في دولة واحدة: جيشهم واحد، واقتصادهم واحد، ونظمهم واحدة.

فالخلاف الذي نشب بين علي ومعاوية، وكانت قوة الدولة العربية في اثنائه موزعة، والأفكار عن غير إنطاق هذا الخلاف ذاهلة، شجع الروم، فأخذوا يكرون على سواحل الشام وشمال افريقية بحراً، وعلى حدود بلاد الشام من ناحية الأناضول براً، ليستردوا هذه البلاد التي كانت في سلطانهم. فلما اجتمع شمل العرب، وعادت الدولة موحدة، بتنازل الحسن لمعاوية أمكن ايقافهم عن بغيهم، بل سير معاوية حملة قوية بقيادة سفيان بن عوف، اخترقت الأناضول، ودقت ابواب القسطنطينية، وكادت تقضي على دولة الروم نهائياً.

ولما نشبت الفتن، بعد مقتل الحسين، وانحاز الحجاز والعراق إلى عبد الله بن الزبير، وانقسمت قوى الدولة العربية، وشغل العرب بأنفسهم، عاد الروم إلى عدوانهم على حدود الشام الشمالية، وسواحلها، وسواحل شمال افريقية، حتى اضطر عبد الملك بن مروان إلى مدافعتهم بالاتاوة المهينة، كما اضطر العرب إلى التخلي عن كثير مما في أيديهم في شمال افريقية، بعد أن تكبدوا أعظم الخسائر، بسبب تحريض الروم للبربر، وقلب هؤلاء ظهر المجن للعرب، وارتدادهم عن الإسلام بقيادة قائدهم كسيلة.

فلما صفت الدولة لعبد الملك، وظلت صافية لابنيه الوليد وسليمان من بعده، جال العرب تحت راية الدولة الأموية تلك الجولات الجبارة، في ميادين الفتح والعمران، وتوطيد السلطان العربي، حيث أزالوا عار الاتاوة للروم عنهم، ثم مدوا أيديهم إلى الأناضول فاكتسحوه، وسيروا حملاتهم إلى القسطنطينية ثانية، مخترقين الأناضول من جنوبه إلى شماله، وحيث تمكنوا من مضاعفة رقعة المُلْكِ العربي، ونشر راية العروبة والإسلام، في أقطار الترك والخزر والسند والأفغان، حتى وصلوا إلى الهند والصين شرقاً، وبحر قزوين والقفقاس شمالاً، وحتى وطدوا سلطانهم نهائياً على شمال أفريقية، إلى شواطىء المحيط الأطلسي غرباً، ثم قفزوا إلى أوروبا، وضموا إلى تاجهم الدرة الأندلسية الثمينة، فكانت آمبراطوريتهم أعظم ما بلغ إليه سلطان العرب في تاريخ الإسلام. وقد أقاموا المنشآت العظيمة في مختلف المدن، وطهروا معالم الدولة من كل شائبة غير عربية، وعظم شعور العرب بالعزة القومية، حتى رأوا أنفسهم أنهم أسياد الدنيا، وأن ما عداهم خول وموال لهم. وغدت دمشق الشام مدينة المدائن، وقبلة هذا العالم العظيم، الذي شمله السلطان العربي.

وحينما اشتدت حركة الهاشميين في مناوأة الأمويين، في أواخر الثلث الأول من القرن الهجري الثاني، وانشغل العرب ببعضهم ثانية، وأوشكت وحدتهم على الانهيار، سارع الروم إلى انتهاز الفرصة، فاعتدوا على حدود الدولة من الأناضول، وعلى سواحلها من البحر، دون أن يلقوا مقاومة مجدية. فلما صفا الأمر للدولة العباسية، وتيسر لها خلفاء أقوياء، ذوو مواهب وشخصية قوية، استطاعوا أن يحتفظوا بالبنيان الشامخ الذي أقامه الأمويون نحو مائة سنة سليماً، وأن تكون هيمنتهم عليه قوية، ووحدته متماسكة. فكان للعرب في عهدهم خلال هذه المدة عصر ذهبي، في القوة العسكرية والعلم والعمران والحركة التجارية والزراعية

والصناعية وضخامة الملك، كما استطاعوا أن يردوا عدوان الروم بشدة وقوة، وأن يـرغموهـم المرة بعد المرة على الخضوع والجزية.

غير أن قيام الدولة العباسية على سيوف العجم، انطوى على جرثومة الضعف والوهن، وفتح الباب للعناصر غير العربيـة لتقوى وتتغلب، على الـدولة العـربية، وتعصف بـالسلطان العربي، بما كان لديها من مطامع ودسائس وحركات ثورية، ودعايات هدامة متنوعة، لم تلبث أن بدت أعراضها، وبدرت نتائجها، بعد قليل من قيام هذه الدولة. وكـانت سبباً في تعكيـر صفوها كثيراً، في حقبة المائة سنة الذهبية، ولم تلبث في أواخرها أن نمت وتفاقمت، وكانت سبباً لتصدع وحدة الدولة، بما كان من تغلب الترك والفرس على السلطان، وبما كان من استبداد حكام الأقاليم وزعمائها.

ولقد نشب النزاع والتنافس بين الهاشميين أنفسهم، فقسمهم إلى عباسيين وعلويين، في أثناء المائة سنة المذكورة، وأخذ يشغل قوى الدولة بكثير من أحداثه المعكرة، فكان سبباً آخر لتصدع وحدة الدولة، وتضعضع كيانها، في أواخر تلك الحقبة، ثم قامت الدولة الفاطمية في أواخر القرن الهجري الثالث، وأخذ تجهد في منافسة الدولة العباسية على السلطان، وانتزاع البلاد العربية من يدها. وهكذا لم ينتصف القرن الهجري الرابع، حتى كانت الدولة العباسية قد انقسمت إلى عديد من الأقاليم والامارات، الواهنة رابطتها بمركز الخلافة، وحتى انسلخ عنها أقطار عديدة، دخلت في سلطان الفاطميين.

ولقد اطمع هذا الروم، وأخذوا يعتدون على بلاد الشام، ويوغلون فيها تدميراً وتخريباً ونهباً وقتلاً، ولولا أن قيض الله لها سيف الدولة الحمداني، وجعله يصاولهم فترة من الوقت، لأمكنهم بسط سلطانهم عليها.

وفي أوائل القرن الخامس عادوا إلى عدوانهم، لأن بنيان الدولة ظل متصدعاً واهناً في معظم عهد تغلب بني بويه، فلما تغلب بنو سلجوق، وكان ملوكهم الأولون اقوياء ـ استطاعوا أن يعيدوا للدولة وحدتها وعدتها، وأن ينكلوا بالروم تنكيلاً شديـداً، جعلهم يلجأون إلى البـابا للدعوة إلى الجهاد المقدس ضد المسلمين، نتج عنها الحروب الصليبية في أواخر هذا القرن.

ـ ٣ ـ

وعهد الحروب الصليبية الذي امتد مائتي سنة، مليء بالأحداث المتناقضة، التي تدل على ما كان للتفكك في وحدة العرب، من ضرر عظيم، وللوحدة والتماسك والقوة من فضل عميم. فقد بدأت هذه الحروب سنة ٤٩١ هـ، وكانت حالة العرب والدولة العربية اشبه بحالتهم قبل حرب فلسطين. حيث كان السلاجقة في نزاع فيما بينهم، وكانت بلاد الشام منقسمة إلى عديد من الدول والامارات، التي كان ملوكها وامراؤها في تطاحن وتناحر فيما بينهم. وكانت الدولة الفاطمية في مصر في حالة ضعف ووهن قصوى. وكان امراء المغرب والحجاز واليمن في شغل شاغل بأنفسهم. ففي هذا الظرف زحف الصليبيون على بلاد الشام، فاستطاعوا أن يبسطوا

سلطانهم على فلسطين، وكثير من المدن والثغور الشامية، بأسلوب شديد من التنكيل والقسوة، وأن ينشئوا مملكة متحدة مركزها القدس. وأن ينشطوا في سبيل ترسيخ أقدامهم وتوسيع سلطانهم، وأن يطمحوا، فيما طمحوا اليه، إلى غزو المدينة المنورة والقطر المصري أيضاً. وظلت البلاد تقاسي من محنتهم البلاء العظيم خمسين سنة، وهي مفككة القوى، فلما ظهر عماد الدين زنكي في أواسط القرن السادس، واستطاع أن يوحد قسماً من بلاد الشام تحت سلطانه، استطاع أن يقوم بحركة انقاذية جهادية، أرعبت الصليبيين على ضيق مداها. وورثة ابنه نور الدين، فاستطاع أن يوطد سلطانه على جميع بلاد الشام، ويوحدها تحت رايته، بمقياس أوسع، مما كان في عهد أبيه، فساعده هذا على ازعاج الصليبيين أشد الازعاج. وآل سلطان مصر إلى صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩، ثم تمكن بطموحه ونشاطه من مده إلى بلاد الشام وليبية والحجاز واليمن، وتوحيد جميع هذه البلاد تحت رايته، فكان من أثر هذه الوحدة القوية الشاملة، ذلك النصر العظيم الكاسح الذي أوتيه على الصليبيين في فلسطين، وسائر بلاد الشام.

ومات صلاح الدين عن مملكة عربية اسلامية ضخمة موحدة قوية مرهوبة. غير أن خلفاءه اختلفوا وتناسوا وتنازعوا وتقاتلوا، فانقسمت المملكة إلى امارات ودويلات متحاربة متكايدة ضعيفة، ووصل الأمر فيما بينهم أن صار بعضهم يتحالف مع الصليبيين ضد بعض، ويتخلون لهم عن قلاع ومدن مهمة اسلامية نتيجة لذلك، ورغبة في التهادن معهم، والاستنصار بهم ضد اخوانهم. وقد سلمهم الكامل بن العادل الذي كان يتولى السلطان في مصر، القدسّ سنة ٦٢٧ هـ، وسلمهم الصالح اسماعيل ملك الشام، صفد والشقيفَ سنة ٦٣٨، وسلمهم الناصر داود صاحب الكرك طبريا وعسقلان والقدس مرة أخرى سنة ٦٤١، بعد أن استردها هو نفسه منهم سنة ٦٣٧هـ. وقد زحف الناصر واسماعيل مع حملة صليبية على مصر التي كان يتولى السلطان فيها الصالح أيوب نتيجة لمحالفة عقدها معهم، وسلماهم هذه الأماكن بموجبها.

ولقد تمكن السلطان الصالح من كسر الجيوش المتحالفة، واسترداد القدس، وبسط سلطانه على سائر انحاء الشام، وتوحيدها تحت رايته، فلم يلبث المسلمون أن قووا بذلك قوة عظيمة، وتمكنوا من كسر حملة لويس التاسع الصليبية التي غزا بها مصر سنة ٦٥٧، وأسر الملك نفسه في المنصورة.

وآل السلطان إلى دولة مماليك الترك سنة ٦٥١، فلما استطاعوا أن يفرضوا سلطانهم على مصر والشام والحجاز واليمن وليبية، ويوحدوا هذه البلاد تحت رايتهم، استطاعوا أن يصدوا التتر الذين زحفوا على بلاد الشام، بعد تدميرهم بغداد سنة ٦٥٦ هـ، ويكسروهم في عين جالوت، واستطاعوا مواصلة الجهاد مع الصليبيين بقوة ودأب، حتى طهروا بلاد الشام منهم نهائياً سنة ٦٩٢ هـ.

- ٤ -

وهذه الظاهرة تكررت أكثر من مرة في الأندلس والمغرب العربي. فقد كان الافرنج في

أوائل القرن الثاني للهجرة يزعجون العرب في الأندلس، ويزلزلون الأرض تحت أقدامهم، لأن الهاشميين في هذا الظرف كانوا يدبرون الثورة ضد الأمويين، ولأن العرب في الأندلس كانوا يتناحرون فيما بينهم، نتيجة لاشتداد النعرة اليمنية القيسية. فلما تمكن عبد الرحمن الأموي، المعروف بالداخل، من فرض نفسه، وانشاء دولة، وقضى على الفتن المحلية، وغدت قوة العرب في الأندلس مجتمعة موحدة تحت رايته، صدم الافرنج صدمة شديدة، ثم استطاع أن يتوغل في بلادهم. واستمر النضال بعده، بل استمر طيلة عهد الدولة الأموية الذي امتد ثلاثة قرون ١٣٨ - ٤٢٨. وكانت الدولة موحدة القوى جميعة الشمل، في أكثر هذه المدة، فكان العرب ينتصرون انتصارات باهرة على الافرنج، ويستولون على أنحاء كثيرة جديدة من بلادهم. وأمكن انشاء ذلك البنيان العربي الباذخ المزدهر بالعلم والعمران والثروة والنشاط العظيم.

وانهارت الدولة في الربع الأول من القرن الخامس، نتيجة لمطامع وتنافس امراء الأسرة، وانقسمت إلى عدد كبير من الامارات المتنافسة المتناحرة، فكانت فرصة الافرنج الذهبية التي أقبلوا على انتهازها، واستطاعوا بها انتقاص اطراف البلاد، والامعان في العرب قتلاً ونهباً وسبياً. ولولا أن قيض الله المرابطين، لكانوا قضوا على الدولة العربية إذ ذاك.

واستطاع المرابطون الذين انشأوا دولتهم في مراكش سنة ٤٤٧ هـ، أن يوحدوا المغرب تحت رايتهم، فغدوا قوة مرهوبة، فاستطاعوا أن ينكلوا بالافرنج في الأندلس، وأن يستردوا كثيراً مما استولوا عليه. وقد نسفوا الامارات المتناحرة، وبسطوا سلطانهم الموحد على الأندلس، فكان هذا مما شدّ من قوتهم، وأثار الذعر والرعب في الافرنج لأمد غير قصير.

ونشأت في أوائل القرن السادس حركة الموحدين في مراكش، فانشغل المرابطون بها، فضعف الدفاع العربي عن الأندلس، وعاد الافرنج إلى عدوانهم. وتمكن الموحدون من فرض سلطانهم على مراكش، ثم على الجزائر وتونس، وغدوا قوة قوية، فعبروا الأندلس، وجددوا عهد المرابطين بتوحيدها تحت رايتهم مع المغرب وصد الافرنج، ونجحوا في هذا نجاحاً عظيماً فاق النجاح الأول.

وظل هذا المظهر يتكرر في بقية عهد الموحدين، ودولتي بني مرين وبني حفص، اللتين قامتا على أنقاضهم في المغرب، ودولة بني الأحمر والامارات الأخرى التي قامت في الأندلس. فكان كلما صفا الأمر بينها، واستيقظت ضمائر ملوكها، وحفزتهم إلى التآلف والتضامن بصدق وايمان، أو استطاع أحدهم أن يفرض سلطانه على بقيتهم، ويوحد قوى المغرب والأندلس تحت رايته، أمكن صد الافرنج والاثخان فيهم. وكان كلما قام بينهم تناحر وتكايد ونزاع - وكان هذا كثير الحدوث بل الأكثر حدوثاً - بدافع المطامع والمآرب والأهواء الخاصة، ضعفت قوة المقاومة العربية، فنشط الافرنج في الغارات والعدوان، والامعان في السلب والنهب والسبي والتدمير، والاستيلاء على المدن والأقاليم.

ولقد اشتد هذا فيما بين أمراء بني الأحمر، في أواخر القرن التاسع الهجري، وكان ملوك بني مرين الذين أبلوا بلاءً حسناً في هذا الوقت، في تناحر وتكايد مع ملوك الدول المغربية

الأخرى. وكانت دولة مماليك الشركس التي كانت صاحبة السلطان في مصر والشام والحجاز واليمن، في نزاع مع الدولة العثمانية التركية، فسنحت الفرصة الحاسمة للافرنج، واستطاعوا تقويض سلطان العرب نهائياً عن الأندلس سنة ٨٩٠ هـ دون أن تجدي استغاثات غرناطة بهذه الدول شيئاً، لأنها كانت في شغل فيما بينها(٤٣).

- ٥ -

ويمدنا تاريخ الدول العربية الحديثة على قصره بأمثلة هامة على هذه الظاهرة، فإن هذه الدول التي أضاعت الفرصة التي سنحت لها، إبّان الحرب العالمية الثانية للاتحاد، واكتفت باقامة كيان جامعة الدول العربية بالنظام الفضفاض المفكك الذي قامت به، قد تعرضت لمحن عديدة، فلم تستطع أن تواجهها مواجهة قوية؛ لأن بعضها ظل يستلهم اعتباراته الاقليمية والشخصية والأسروية، أكثر من المصلحة العربية العليا، بسبب احتفاظ الدول في هذا النظام بسيادتها الداخلية والخارجية والعسكرية والاقتصادية. ولقد كانت محنة فلسطين من أشدها، وكانت النتائج الأليمة التي نتجت عنها، وجعلت اذلّ أمة في الأرض تدعي مزهوة، بأنها تغلبت على دول العرب السبع، ولو أن الدول العربية اغتنمت الفرصة التي سنحت لها، فانبثق عن المشاورات التي جرت في سنتي ١٩٤٣ - ١٩٤٤، والتي سميت بمشاورات الوحدة العربية، على ما سوف نشرحه بعد، وحدة عربية صحيحة فعّالة، عسكرية واقتصادية وسياسية - كما كان المنشود أن يكون للعرب في ظلها جيش واحد، واقتصاد واحد، وسياسة خارجية واحدة - لما كانت تلك المحنة القاسية. ولن يزال العرب يقاسون آلامها ونتائجها، ولن يزال العرب يواجهون ما يبتليهم اليهود والاستعمار به من محن، مواجهة ضعيفة، تدور الدائرة فيها عليهم، ما لم تقم بينهم الوحدة الفعلية.

الوحدة ضرورة عسكرية قومية وعالمية

- ١ -

إن المركز الجغرافي الممتاز للبلاد العربية، التي هي القسم الأعظم مما اصطلح على تسميته اليوم بالشرق الأوسط، وما فيها من منابع ثروة عظيمة ظاهرة وباطنة، وطرق مواصلات عالمية، برية وبحرية، كان وما يزال يضفي أهمية كبرى على الوطن العربي الكبير في المعترك الدولي، ويجعله عرضة لطمع الطامعين، واستغلال المستغلين، وتشادّ المتشادين على سيادة العالم قديماً وحديثاً.

وقد ازدادت أهميته اليوم كثيراً عن ذي قبل، بسبب ما طرأ على التفكير الاستراتيجي والسياسي من تغيير وتطور وشمول، ثم بسبب ما اكتشف في باطن أرض الوطن العربي من مخازن هائلة للنفط، الذي يعد اليوم من أعظم وسائل الحرب والصناعة.

ولقد كان ذلك المركز الممتاز سبباً في جعل انكلترا وفرنسا تدوران وتلفان حول بلاد

العرب، وتتشادّان عليها منذ القرن السادس عشر الميلادي، وتترقبان الفرص لوضع أيديهما عليها، حتى تمكنتا من ذلك في القرن التاسع عشر والعشرين، فكان ذلك البلاء الاستعماري الانكليزي الافرنسي الذي بليت بلاد العرب به، وقاسى أهلها وما يزالون يقاسون الأمرّين منه، على ما سوف نشرحه في فصل آخر. وقد أخذ هذا المركز الممتاز، وما في بلاد العرب من مزايا وثروات خاصة، يجلب أنظار الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية، ويدفعها إلى اللف والدوران حوله أيضاً. ثم اشتد نشاطها نحوه في أثناء هذه الحروب وبعدها، حيث خرجت منها أقوى دول الأرض، وغدت تتطلع إلى مجالات سياسية واقتصادية واستغلالية جديدة، في مختلف آفاق الأرض نتيجة لذلك. وقد تمكنت من وضع قدمها في بلاد العرب، حيث حصلت على امتيازات نفطية عظيمة في المملكة السعودية العربية، وانشأت قاعدة جوية عظمى فيها، وغدا لها مصالح كبرى؛ وانشأت كذلك قواعد جوية عسكرية هامة في مراكش وليبية، وعقدت اتفاقات اقتصادية وفنيّة مع العراق ومصر ولبنان والأردن وساهمت في شركات النفط في الكويت والعراق، فغدت بذلك صاحبة مصالح كبرى في هذه البلاد أيضاً، وصار الموقف ينذر بتطور نحو بلاء استعماري بشكل من الأشكال في مستقبل الأيام.

وفضلاً عن ذلك فإن المركز الممتاز الذي ينفرد به هذا الوطن، على اعتباره الجزء الأعظم من الشرق الأوسط، الذي يصفه الخبراء بأنه أهم ما يمكن أن يحتله اقليم في العالم، والثروات الباطنة والظاهرة التي يزخر بها، وتوافر المواد الغذائية والاستراتيجية فيه، وخاصة ما انكشف فيه من حقول النفط الهائلة، التي يقدر مخزونها بأكثر من نصف مخزون النفط العالمي، والذي يشغل اليوم أعظم حيز في التفكير الاستراتيجي العالمي، جعله موضوع تنازع وتشاد بين الكتلتين المتنافستين الكبيرتين اللتين انقسم إليهما العالم بعد الحرب العالمية الثانية، حتى ليحسب الخبراء، أنه سيكون مركز الصراع القادم، ومكان المعركة الحاسمة الكبرى بين الكتلتين المتصارعتين (٤٤)؛ وجعل الولايات آلمتحدة والدول الغربية الرأسمالية، التي يحلو لها أن تنعت نفسها بالعالم الحر، تشتد حرصاً على الحصول على المراكز الاستراتيجية الهامة بأي ثمن، وجعل الاتحاد السوفييتي، زعيم الكتلة الثانية الكبرى، يشتد في الحملات والدعايات ضد ذلك، وهيأ للعرب أن يكونوا ذوي أثر قوي فعال ايجابي وسلبي، في حفظ توازن القوى العالمية.

وكل هذا يبرز ضرورة الوحدة العربية، فهي السبيل الوحيد إلى قوة العرب، اصحاب هذا المركز العالمي الممتاز، وغدوهم جبهة موحدة قوية، لتدرأ عنهم أطماع الطامعين والمستغلين والمتشادّين. وسيظل هؤلاء يدورون ويلفون ويتشادون ويتجاذبون حوله، وستظل أصابعهم تجد المنافذ إلى تحقيق المطامع والمؤامرات ضده، وسيتعرض للتدمير والكوارث في حالة وقوع الاصطدام بين المتصارعين فيه، ما دام العرب غير مجتمعين في نطاق وحدة فعلية نافذة. فإذا ما اتحدوا في هذا النطاق، وغدت قواتهم الحربية، واقتصادياتهم موحدة، وتضافرت جهودهم في مختلف المجالات في ظل ذلك، أمكنهم أن يقفوا أمام الطامعين والمستغلين ويردوهم،

ويحملوهم على احترام جانبهم، ويدرأوا عن بلادهم الكوارث والتدمير، ويحفظوا التوازن بين قوى العالم، ويخدموا أمنه وسلامه أجلّ خدمة، وينتفعوا بمزايا المركز الممتاز الذي تتفرد به بلادهم، وبالثروة الطائلة التي تزخر بها لصالحهم دون غيرهم في الدرجة الأولى؛ وتهيأت لهم بذلك، وبما يقوم بينهم من روابط جنسية وروحية واجتماعية، تفوق ما بين غيرهم قوة وعمقاً، وبما لا يزالون يحتفظون به في أعماقهم من قوة روحية عظيمة - نضبت أو كادت تنضب من غيرهم - أسبابُ قوة تساعدهم على تبوّء المكانة المرموقة التي تتناسب مع مركز بلادهم وخصائصهم وأمجادهم في العالم عامة، وتبوّء الزعامة في الشرق الأوسط خاصة، واستطاعوا بذلك أن يعيدوا عهد عظمة العرب ومجدهم الذي تلألأ في أيام وحدتهم الكبرى، في ظل الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والعصر الذهبي من الدولة العباسية، وغدوا به من أعظم أمم الأرض بسطة سلطان، وقوة نفوذ، وأثر وازدهار حضارة؛ بل وفاقوه بما كان من تطور عظيم في مختلف مناحي الحياة ووسائلها، خلال القرون التي مرت بينهم وبين ذلك العهد العظيم.

- ٢ -

ولعل ظروف بلاد العرب، وما يدور حولها اليوم، ونحن في مطلع عام ١٩٥٧، تبرز ضرورة الوحدة من هذه الناحية، أشد من أي وقت مضى.

فقد اخذت الولايات المتحدة الأميركية تشتد في اللف والدوران حول هذه البلاد، بذريعة فراغ الشرق الأوسط، نتيجة لضعف قوة وهيمنة بريطانية وفرنسا، وتزلزل الأرض العربية تحت أقدامهما، واشتداد العزم والتصميم والجرأة على كفاحهما، وتحطيم مراكزهما فيها؛ ثم بذريعة حماية هذا الشرق من الخطر الشيوعي؛ وقد أخذت تعلن بأساليب متنوعة حمايتها على هذا الشرق، واستعدادها لاستخدام القوة العسكرية لمدافعة الاتحاد السوفييتي عنه، لابقائه في نطاق هيمنة الغرب الذي يرتبط اقتصاده به إلى اقصى درجة، وحلولها محل فرنسا وبريطانيا فيه بأسلوب ما. بل وأخذت تخطو بسبيل ذلك خطوات ملؤها الاستهتار بالعرب، والجنوح إلى فرض هيمنتها على بلادهم. ويقف بعض الدول العربية من هذه المحاولات موقفاً قوياً وحذراً، فيعلنون أنه لا فراغ في بلادهم، وأنهم هم الذين يملأونه وحسب، ويفندون تلك الذريعة الوهمية، لأن الخطر على بلادهم إنما هو واقع فعلاً من الغرب لا من الشرق، وأنهم لم يكافحوا الانكليز والافرنسيين السنين الطوال، حتى تمكنوا من زلزلة الأرض تحت أقدامهم، وأوشكوا أن يصفوا مراكزهم نهائياً في بلادهم، إلا لتكون لهم فيها السيادة الكاملة، فينتفعون بخيراتها وبركاتها، ويقوون نهضتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعمرانية، فتزدهر بلادهم، ويتكامل بنيانهم، ويستأنفون رسالتهم الإنسانية الخالدة وتكون قوتهم هي القوة المالئة للفراغ الموطدة لسلم الشرق الأوسط وأمنه، الحامية له من أي عدوان يأتي اليه. غير أن هذا الكلام يبقى كلاماً، ما لم يتحد العرب اتحاداً فعلياً. لأنهم بذلك يثبتون قدرتهم العملية على ملء الفراغ، والدفاع عن حوضهم، ضد كل من يحاول فرض هيمنته عليهم من الشرق والغرب.

الوحدة ضرورة اقتصادية واجتماعية

- ١ -

إن الوحدة لا تقتصر على نتائجها السياسية العظمى، التي تجعل الأمة العربية قوية عزيزة الجانب، مرموقة المكانة بين الأمم، قادرة على الدفاع عن حوضها، متمتعة بكامل سيادتها وحريتها - على جلالة هذه النتائج . فإن مصالح العرب الاقتصادية والاجتماعية، تجعل الوحدة ضرورة مبرمة لهم أيضاً. بل إن القوة السياسية والحربية ليست في الحقيقة إلا نتيجة من نتائج الازدهار الاقتصادي والاجتماعي الذي يمد الذين يقوم عندهم بأسباب القوة والحيوية والنشاط كما لا يخفى.

والوطن العربي متنوع الطبيعة والإمكانيات؛ واقطاره يكمل بعضها بعضاً من هذا الاعتبار - على ما شرحناه قبل - بحيث يكون من جملتها وحدة اقتصادية تامة. والانتفاع من تنوع وتوزع أمكانيات وطبيعة الوطن العربي، رهنٌ إلى أبعد حد، بالوحدة التي تربط بين أجزائه ادارة وسياسة ونظماً وتشريعاً. لأن الانتفاع بإمكانيات وثروات هذا الوطن الهائلة يتوقف على جهود عظيمة مشتركة، وأيدٍ عديدة متوائقة، وقابليات كبيرة متنوعة، ووسائل قوية متعددة، تقتضي تسهيلات في العمل والتنقل والدراسة والتشارك.

ومقتضيات حياة سكان الوطن تقضي دائماً أن يتنقل من يرى في نفسه نشاطاً أو له مصلحة، من أي بلد عربي إلى بلد عربي آخر، وأن يعمل فيه، وأن يتجر معه، وأن يصدّر اليه، وأن يستورد منه، وأن يتبادل معه المنتوجات الصناعية والزراعية، وأن يرد مناهل علمه ، وأن يتصاهر معه، وأن يقتبس ما عنده من فنون وعادات وتقاليد نافعة، بحرّية وسهولة ويسر، دون ما قيد أو شرط، وكأنما هو في بلده الخاص، فيؤدي ذلك إلى انفتاح الآفاق أمام كل فرد عربي، لأن الساحة التي ينشط فيها تتضاعف اضعافاً مضاعفة، بالنسبة للساحة الاقليمية الخاصة التي ينشط فيها - مما فيه كل الخير والفائدة للمجموع، ومما فيه في الوقت نفسه اسباب التواثق والانسجام والتعاون الاجتماعي والثقافي واللغوي، وأسباب الاستكفاء الذاتي في نطاق الوطن العربي الكبير.

ولا يمكن أن يتيسر هذا وذاك، إلا بالوحدة الفعلية، التي تنهار بها الحواجز بين اجزاء الوطن العربي، وتنحل بها عقد الحل والترحال والسمات والجوازات والتشريعات، والقيود المحلية الاقتصادية وغير الاقتصادية، والتي بها تتقارب أيضاً اللهجات والعادات والتقاليد، أكثر مما هو قائم، وبالتالي تصبح بها الشعوب العربية أمة واحدة فعلاً، لا قولاً، على أتم ما يكون انسجاماً وتعاوناً في مجالات الاقتصاد والاجتماع والثقافة والفن أيضاً، بالاضافة إلى القوة السياسية والدفاعية والعزة العظمى التي تنتج عنها. ويغدو ابن القاهرة، في بغداد والبصرة ودمشق وبيروت والرياض والحديدة وصنعاء وجدة والرباط وتطوان وفاس ومراكش وتونس

وبنغازي والخرطوم، كأنه في المنصورة ودمياط وأسوان والاسكندرية، ويغدو ابن بغداد بها، كأنه في الموصل، وابن دمشق كأنه في حلب واللاذقية . . . الخ .

- ٢ -

وتبذل اليوم في كل بلد عربي جهود عظيمة في شئون اجتماعية وثقافية واقتصادية وفنية متشابهة، نتيجة لاستقلال كل بلد عن غيره. وهنا أيضاً تبرز ضرورة الوحدة، لأنها توفر كثيراً من هذه الجهود، وتجعلها متناسقة، فلا يبذل في بلد جهد متشابه، أو صورة ثانية لجهد في بلد آخر على غير ضرورة، ويكون ما يبذل من الجهود حينئذ في نطاق الاختصاص والملاءمة الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، والمصلحة للمجتمع العربي كافة. وفي هذا ما فيه من الخير العميم.

وفي بعض أقاليم الوطن العربي كثافة سكان، بالنسبة للصالح للزراعة والحياة من مساحتها، وفي بعضها قلة سكان بالنسبة لذلك. وهنا تبرز ضرورة الوحدة، لأنها تساعد على حسن التوزع والاستغلال.

فبالرغم من أن مساحة القطر المصري مثلاً تبلغ نحو مليون كيلومتر مربع، فإن معظمها صحارى قاحلة، لا تصلح للزراعة والحياة الاقتصادية والمدنية، ولا يكاد يبلغ الصالح للزراعة الآن، من هذه المساحة العظيمة، إلا نحو سبعة ملايين فدان (٢٨,٠٠٠٠٠٠ دونم). ومهما قام من مشاريع اروائية نتيجة للسد العالي الذي يراد انشاؤه، فإن هذا المقدار لن يزيد على أكبر تقدير عن مليوني فدان (٨,٠٠٠٠٠٠ دونم). ويتكثف سكان مصر بسبب ذلك حول مجرى النيل، والدلتا الشمالية، بحيث تبلغ الكثافة ثمانين نسمة للكيلومتر المربع، بالرغم من أنها نظرياً اثنان وعشرون نسمة. و ٧٠ ٪ من سكان مصر، أو نحو أربعة ملايين أسرة مصرية ريفيون. وأقل معدل كاف للأسرة أربعة فدادين بل خمسة، ومعنى هذا أن مصر في حاجة إلى نحو عشرين مليون فدان زراعي. والموجود والممكن تيسيره، يقل عن نصف هذا المقدار كما هو واضح.

ومصر، بسبب ذلك، تعاني مشكلة اقتصادية وبشرية خطيرة، سوف تزداد مع الأيام، وتتمثل الآن في الفقر المدقع الذي عليه سكان ريفها، وحياة البؤس التي يحيونها، وفي الأصوات التي ترتفع بوجوب تحديد النسل. هذا في حين أن في السودان وسورية والعراق مساحات شاسعة صالحة للاستغلال الزراعي والسكني، تقدر بعشرات ملايين الافدنة، تنقصها الأيدي العاملة المستغلة، وينقصها السكان. ففي ظل الوحدة، يمكن أن تتيسر الهجرة من مصر لإعمار واستغلال الأراضي الصالحة في هذه الأقطار، ويمكن أن يكون التوازن في التوزع البشري، وبكلمة ثانية، يمكن أن تحل مشكلة من المشاكل الخطيرة الاقتصادية والبشرية في أقاليم الوطن العربي.

- ٣ -

ولقد كانت الوحدة الاقتصادية متوفرة في معظم أقاليم الوطن العربي الكبير لفترات طويلة، نتيجة لما كانت تعيش في ظله من وحدة سياسية وروحية واجتماعية ولغوية، فضلاً عن الوحدة الجغرافية والجنسية، وخاصة في تاريخها الإسلامي، وظل الأمر كذلك إلى أمد قريب جداً.

ولم يكن في ظل عهود الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، أي قيود وحواجز، لتنقل العربي من بلد عربي إلى آخر، والاقامة فيه، والنزوح منه، والاشتغال فيه، والاتجار معه تصديراً وايراداً، والبروز فيه إلى درجات الوجاهة والحكم والسلطان، على ما تنبىء به صفحات التاريخ. فكان ذلك مما يطمئن حاجات ومقتضيات الفرد العربي، ويُشعره بحريته وذاتيته، ويحفزه على الطموح والنشاط في سبيله، ويصيبه نتيجة لذلك الخير العظيم. وكان ذلك من أسباب ما يرويه التاريخ من الازدهار الاقتصادي والزراعي والصناعي والثقافي والفني والعمراني، والثروات الضخمة العجيبة، وخاصة في الظروف التي تكون فيها الدولة العربية قوية، مجتمعة الشمل، مستقرة النظام، خالية من الفتن والمنافسات والحركات الهدامة.

- ٤ -

ولقد ذكرت الكتب العربية المكوس وتقاضيها من التجار، فوهم بعضهم أنه كان يقام حواجز جمركية، يختل بها معنى الوحدة الاقتصادية، فرأينا أن نلم المامة بهذا الأمر، لإزالة ذلك الوهم فنقول: إن ما ذكر في كتب التاريخ عن المكوس، يدل على أنها إنما كانت مفروضة في أصلها على التجارة الخارجية، والتجار الأجانب فقط. ولقد ذكر الأمام أبو يوسف، في كتاب الخراج، الذي ألفه لهرون الرشيد حديثاً عن أصل العشر، الذي كان يعبر به عن المكوس، أن قوماً من أهل الحرب وراء البحر، كتبوا لعمر بن الخطاب، أن دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشّرنا. فشاور عمر أصحاب رسول الله فاشاروا عليه؛ وكان أول عاشر عينه عمر زياداً بن حدير، وقد روي عن هذا أنه قال: ما كنا نعشّر مسلماً، ولا معاهداً، وإنما كُنا نعشّر تجار الحرب - أي تجار البلاد الأجنبية - لأنهم كانوا يعشّروننا إذا أتيناهم.

ويظهر أنه تُوسّع في هذا بعد عمر، حيث ذكر أبو يوسف، أنه كان يؤخذ من تجار المسلمين ربع العشر، ومن الذميين والمعاهدين نصف العشر، ومن الحربيين - الأجانب - العشر كاملاً، والمتبادر أن هذا كان تابعا للأصل وهو التجارة التي تأتي من الخارج، حيث كان من الواقع أن يأتي بها أحياناً مسلمون، وأحياناً ذميون ومعاهدون، وأحياناً أجانب.

وقد كان المكس يؤخذ من المسلمين على أنه زكاة أموالهم، على ما جاء في كتاب أبي يوسف أيضاً. والمقدار المفروض عليهم يدل على صحة ذلك، لأنه بنسبة الزكاة التي هي واحد من أربعين أو ربع العُشر. وكان يقبل من المسلم أن يحلف أنه أدى من ماله الزكاة، فيعفى من العُشر.

وقد تكون الحالة تبدلت بعض الشيء، حينما قامت الدولة الفاطمية في شمال افريقيا، ومدت سلطانها في أواسط القرن الرابع إلى مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن، لأن قيامها كان في ذلك الوقت معنى من معاني العداء للدولة العباسية، والقطيعة الاقتصادية مظهر من مظاهر ذلك، ونتيجة لازمة من نتائجه. غير أن المتبادر أن الأقاليم التي كانت موحدة تحت سلطانها، لم تكن تابعة لأي مكس.

ولقد جاء في تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان(٤٥) أن ضريبة المكس لا تؤخذ من التاجر، إلا إذا انتقل من بلاده إلى بلاد أخرى، وأن الشامي إذا طاف بلاد الشام كلها لتجارته، لا يؤخذ منه مكس، وأما إذا انتقل إلى مصر فيؤخذ منه. ولم يورد مصدراً لقوله. وقد قال بعد ذلك: «والمكس على ما فرضه عمر ثلاث درجات، نصف العشر من أهل الذمة، وربع العشر من المسلم» ونسي الصنف الثالث وهو الحربي. وهذا يعني أن المؤلف هو بسبيل شرح أصل المكس. ولا نستبعد أن يكون ما رواه عن أخذ المكس من الشامي، إذا خرج من بلاده عائداً إلى ظرف قيام الدولة الفاطمية، وبعد أن خرجت بلاد الشام والحجاز واليمن من سلطانها، لأننا لم نر مصدراً ما، ذكر أنه كان هناك عشر يؤخذ من التاجر المسلم، إذا انتقل في داخل الدولة في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين.

وفي القلقشندي(٤٦) فصل عن المكوس، وأسماء الثغور والمراكز التي كان يقيم فيها جباتها، حيث كانوا يقيمون في دمياط والاسكندرية على البحر الأبيض، والقصير والسويس وعيذاب والطور على البحر الأحمر، وقطيه في طريق البر الشامي؛ وحيث كانوا يأخذون المكوس من التجار الأجانب الواصلين من البحر الأبيض إلى الديار المصرية، ومن التجار الواصلين من اليمن والحجاز وما والاهما من البحر الأحمر، ثم من التجار الواصلين من طريق قطيه من الشام والعراق. وقد ذكر المؤلف في هذا الفصل أن صلاح الدين الأيوبي قد ألغى هذه المراكز حينما آل اليه السلطان، حيث يدل هذا على صحة ما استنتجناه، من أن الفاطميين هم الذين ضربوا مكوساً على البلاد الإسلامية التي كانت خارجة عن سلطانهم وداخلة في سلطان العباسيين. فلما زالت دولتهم، وعادت مصر إلى نطاق الدولة العباسية، وحكم السلطان الأيوبي الفعلي، ألغى هذا السلطان المكوس المفروضة على تجار البلاد الإسلامية العربية، لأنها صارت جميعها موحدة في نطاق سلطان واحد، وأعيدت الحالة إلى ما كانت عليه من عدم تقاضي المكوس من المسلم حينما ينتقل من بلد عربي إلى بلد آخر.

على أن تنقل العربي والمسلم، في مختلف البلاد العربية الإسلامية، في عهد الدولة الفاطمية لم يقيد بأي قيد، حيث كان يستطيع أن يتطوف في مختلف أنحاء البلاد العربية الإسلامية التي كانت في نطاق الدولة العباسية وما يدور في فلكها، وفي نطاق الدولة الفاطمية، وما يدور في فلكها، على ما يستفاد من كتب الرحلات والتراجم والتاريخ. ولقد قال ابن جبير في رحلته، إنه حينما وصل إلى الاسكندرية من بلاد المغرب، جاء أمناء السلطان، وسألوا كل واحد عما لديه من السلع والعين ليؤدي زكاته، دون أن يبحثوا عما حال عليه الحول من ذلك أم

لم يحل، حيث يعني هذا أن تنقّل الأشخاص لم يكن مقيداً بأي قيد في عهد الدولة الفاطمية.

ولم نر ما يمكن أن يدل على أنه كان بين أقاليم المغرب العربي والأندلس فيما بينها، وفيما بين الدول الإسلامية الأخرى، ما يفيد أنه كان هناك حواجز دون حرية التنقل والاتجار والاقامة والعمل؛ ونحسب أن هذه البلاد التي كانت تعيش في كثير من فترات تاريخها الإسلامي في ظل وحدة سياسية، كانت تتمتع كذلك بحرية اقتصادية تامة.

ولم نر ما يمكن أن يدل على عودة المكوس في عهد الدولتين التركية والشركسية، اللتين خلفتا الدولة الأيوبية على مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن وليبية، لا بالنسبة لهذه البلاد التي كانت موحدة تحت سلطانها، ولا بالنسبة لبلاد المغرب العربي، حيث يمكن أن يقال انها بقيت على الغاء السلطان صلاح الدين الأيوبي.

وقد يكون أمر العملة مختلفاً بعض الشيء عن هذا النطاق، حيث كان النقد متعدداً، سواء في نطاق الدولة العباسية، نتيجة لما قام فيه في زمن التغلب من امارات ودول عربية وغير عربية، أم في بلاد الدولة الفاطمية، أم في بلاد الدولة الأندلسية الأموية، أم في بلاد الدول المغربية؛ حيث كان ملوك وأمراء الدولة الإسلامية، الذين تعددوا وكثروا، وصارت لهم شخصيات وكيانات سياسية مستقلة، يعمدون إلى تثبيت شخصياتهم وكياناتهم بنقد يضربونه بأسمائهم، هذا مع التنبيه على أن هذا النقد الخاص لم يكن يتميز في الأعم الأغلب في المعايير والأجناس. وبكلمة أخرى لم يكن هناك ما نفهمه اليوم من مشكلة تعدد النقد في البلاد العربية.

- ٥ -

وفي الربع الأول من القرن العاشر، قضت الدولة العثمانية التركية على الدولة الشركسية، فدخلت البلاد العربية التي كانت تحت سلطان هذه الدولة، أي ليبية ووادي النيل واليمن والحجاز والشام في نطاق سلطانها، ثم دخلت فيه تونس والجزائر لفترة ما، ثم دخل فيه العراق أيضاً. فتوطدت بين هذه البلاد فيما بينها، ثم فيما بينها وبين سائر أقاليم الدولة العثمانية، وحدة اقتصادية تامة، بالاضافة إلى الوحدة السياسية والعسكرية والتشريعية، بحيث كان العربي من أي قطر، ينتقل بين سائر الأقطار تاجراً ومستورداً ومصدراً ومستقراً، وينشط في المجال الاقتصادي، كما يشاء، دون قيد أو شرط ورسوم وحواجز. وقد خبر هذا ومارسه كثير ممن لا يزالون على قيد الحياة. ولم تختل هذه الوحدة وتقوم بدلها الحواجز والقيود، إلا حينما أخذت بلاد العرب المشرقية والمغربية، تتعرض للعدوان والاستعمار الباغي؛ حيث اعتدى الافرنسيون على أقاليم المغرب واحد بعد آخر، فاحتلوها وأقاموا ستاراً حديدياً بينها وبين المشرق العربي، وحيث اعتدى الانكليز على الامارات الشرقية والجنوبية في جزيرة العرب، وعلى وادي النيل، واحتلوها وضربوا ستاراً دونها، ودون سائر بلاد الدولة العثمانية، واعتدى الطليان على ليبية ففعلوا مثل فعلهم، وبقيت الوحدة الاقتصادية موطّدة بين الأقاليم العربية التي ظلت في نطاق سلطان الدولة العثمانية، أي بلاد الشام والعراق والحجاز واليمن، إلى نهاية الحرب العامة

الأولى، حيث انفصمت عراها نتيجة لمؤامرة فرنسة وانكلتره الباغيتين، أثناء هذه الحرب، على تمزيق شمل البلاد العربية المشرقية واحتلالها، فقامت نتيجة لذلك الكيانات السورية واللبنانية والأردنية والفلسطينية والعراقية والنجدية والحجازية واليمنية، بالاضافة إلى ما كان قام قبل ذلك من الكيانات الكويتية والحضرموتية والبحرينية والعمانية والمسقطية واللحجية والمصرية والسودانية والليبية والتونسية والجزائرية والمراكشية، ووجهت في وجهات متضادة، وأقيمت بينها الحواجز والعوائق الاقتصادية وغير الاقتصادية، لتباعدها عن بعضها، فلا تجتمع في نظام واحد، وتتمكن بذلك قدم المستعمرين فيها، وتغدو مرافقها وكنوزها وقواها مسخرة لمآربهم واستغلالهم.

وبعد أن كان الشامي أو العراقي والمصري أو الحجازي أو اليمني أو المغربي، ينتقل من بلد إلى بلد ويعمل فيه ويتجر معه، وبعد أن كانت السلع والمصنوعات والغلات تتبادل بين مختلف البلاد العربية المشرقية والمغربية بسهولة ويسر، صار الأردني لا يدخل سورية أو لبنان أو فلسطين التي هي أجزاء سورية الطبيعية، إلا بالسمات والجوازات، وصار يقوم في الحدود الاصطناعية المخافر العديدة للتدقيق في هوية المسافرين الذين يحملون الجوازات، كأنما هم رعايا أمة عدوة، وصارت الغلات والسلع والمصنوعات في كل بلد ترضخ لمثل ذلك التدقيق، وصار هذا كله بالنسبة للأقطار العربية الأخرى البعيدة نوعاً ما كالعراق والشام ومصر، والعراق ومصر، ومصر وبلاد المغرب أو الجزيرة أشد تعسيراً؛ فتضررت مصالح البلاد العربية وسكانها بأعظم الأضرار، وضاق أفق النشاط العربي أشد الضيق، حتى صار يضرب المثل في الدنيا، على ما نحن فيه من شذوذ عجيب، مع ما يقوم بيننا من أسباب التوافق والانسجام والوحدة الروحية واللغوية والجنسية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية، وفي حين أخذ كثير من هذه الحواجز يرتفع من بين دول لا يجمع بينها جنس ولا لغة ولا تاريخ، بقصد تيسير الانتقال، والانتفاع المتبادل بين أهلها.

ومع أن بعض الدول العربية أخذت مؤخراً تتفق على تخفيف هذه القيود على أساس المعاملة بالمثل، فإن ذلك تم في نطاق اتفاقات دولية مثل ما يتم بين دولتين أجنبيتين، وهو منوط دائماً بمزاج حكام هذه الدول وتطور الظروف والصلات فيما بينها، وليس هو أمراً مستقراً ومستمراً، فضلاً عن عدم شموله، ولا يسد بالتالي الحاجة الماسة الشديدة لما تعنيه كلمة الوحدة الاقتصادية وضرورتها في مداها القومي الواسع. ومع ذلك فإن الجنوح إلى هذا التخفيف، يدل على شعور حكام العرب بشدة حاجة الشعب العربي إلى تيسير الالتقاء، فيما بين أجزائه، وتوسيع نطاق نشاطه في هذا المجال الطبيعي.

الوحدة ضرورة إسلامية وإنسانية

- ١ -

إن الوحدة العربية، عدا أنها ضرورة قومية، هي ضرورة اسلامية دينية، وضرورة انسانية عامة أيضاً.

ولقد احتوى القرآن الذي هو الكتاب المقدس لأكثرية العرب الساحقة، بالإضافة إلى ما احتواه من نصوص قوية التلقين، أوردناها في بحث الوحدة الروحية، بوجوب وحدة العرب وتضامنهم وتواثقهم، وعدم اختلافهم وتنافسهم وتفرقهم، وبما يعود عليهم من عظيم الضرر والذل والهوان، وذهاب الريح في مخالفة هذا التلقين، احتوى نصوصاً ربطت الإسلام بالعرب والعرب بالإسلام.

ولقد نوهت الآية التالية، بما صار للعرب من شرف وكرامة بالقرآن، والرسالة الإسلامية، وحملتهم مسؤولية القيام بحقها كما ترى فيها:

«وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون». (الزخرف: ٤٤)

ولقد نبهتهم الآيات التالية إلى شأنهم العظيم في الإسلام، ورشحتهم ليكونوا أمة وسطاً شهداء على الناس، وذكرتهم بواجبهم ببذل الجهود في الله، والاعتصام به وحده، ليساعدهم وينصرهم ويقويهم:

١ ـ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً[٤٧]. (البقرة: ١٤٣)

٢ ـ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير.

(الحج: ٧٨)

ولقد وعدهم الله في الآية التالية بالاستخلاف في الأرض، وتمكينهم فيها، إذا هم أخلصوا في إيمانهم وعملوا الأعمال الصالحة كما ترى فيها:

٣ ـ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون. (النور: ٥٥)

ولقد نبههم الله في الآيات التالية، إلى أنهم سيكونون خير أمة أخرجت للناس. إذا هم آمنوا به، واخلصوا الايمان، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ودعوا إلى الخير، وأمرهم أن

يفعلوا ذلك ليفلحوا وينجحوا، ونهاهم عن الخلاف والتفرق، لما في ذلك من عظيم الضرر والخطر كما ترى فيها:

١ ـ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم. (آل عمران: ١٠٤ ـ ١٠٥)

٢ ـ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله.

(آل عمران ١١٠)

فإذا ما قام العرب بهذا الدور العظيم الذي بينه لهم القرآن، غدت مبادىء الإسلام دين الإنسانية العام، الذي يكون المجتمع الانساني في ظل مبادئه وتلقيناته وقواعده ومنابعه عالماً واحداً عقيدةً ونظاماً، وعلى أحسن ما يكون عدلاً وسلاماً وبراً وتراحماً ومحبة، وخيراً ورفاهاً وكفايةً وقوةً وتضامناً وازدهاراً وتمكناً، وصاروا هم حملة لوائه ومشعل هدايته، وبذلك يعلو قدرهم بين الأمم، ويكونون كما وصفهم القرآن: خير أمة أخرجت للناس، وأمة وسطاً عدلاً ليكونوا شهداء عليهم. وفي هذا ما فيه من خدمة انسانية جليلة، وتحقيق للرسالة الإسلامية في الوقت نفسه.

- ٢ -

وغني عن البيان أن قيام العرب بهذا الواجب العظيم، الذي فرضه عليهم القرآن، منوط بقدرتهم عليه، وتأهلهم له، وتهيئتهم أسبابه من التنظيم والحماية. وكل هذا لا يتم إلا بالوحدة. فإذا اتحدوا وغدت جيوشهم واقتصادياتهم وتشريعاتهم وثقافتهم وسياستهم ومنظماتهم موحدة، استطاعوا أن يقوموا به على أحسن وجه، بعكس ما إذا ظلوا متفرقين، حيث تظل قوتهم المادية والمعنوية عاجزة عن ادراك الهدف والتفرغ له، فضلاً عن أنهم يظلون على ما هو ماثل اليوم للعيان من الضعف والوهن والتخاذل والتكايد، مما يجعل القيام بشيء من ذلك الواجب، بله كله، متعذراً.

ومما لا ريب فيه أن عدم اتحادهم والتأهل بذلك للقيام بواجبهم الإسلامي والانساني العظيم، وبقاؤهم على ما هم عليه من الضعف والوهن والتخاذل، سيجعلهم آثمين عند الله أعظم الاثم، ومقصرين في حق الانسانية أكبر تقصير.

رابعاً
إدراك العرب لضرورات الوحدة

الوحدة
كانت هدف الحركة العربية الحديثة

ظل القسم الآسيوي من الوطن العربي الكبير، تحت سلطان الدولة العثمانية، إلى أواسط القرن الهجري الرابع عشر (١٣٣٦ هـ - ١٩١٨ م). وكان سكانه يعيشون في ظل وحدة شاملة سياسية واجتماعية وتشريعية واقتصادية وروحية، ممتدة إلى مئات السنين، قبل هذه الدولة، على ما شرحناه في فصل سابق.

ولقد ظل شعور سكان هذا القسم بهذه الوحدة قائماً، حينما أخذت الفكرة العربية القومية تنبعث في أواخر القرن الهجري الثالث عشر في سكان هذا القسم، وخاصة في سكان بلاد الشام والعراق، الذين كانوا أكثر صلة من غيرهم بأحداث العالم الغربي وتياراته السياسية والفكرية، حيث كانت الجمعيات العربية الأولى التي نشأت، قبل إعلان الدستور العثماني، في بيروت وصيدا ودمشق وباريس، مثل الجمعية العربية، وجمعية النهضة العربية، وجمعية الرابطة العربية، تهتف بأمجاد العرب وخصائصهم، وتنبههم إلى حقوقهم، وضرورة قيام كيان قومي مستقل لهم، بصورة عامة لا اقليمية.

وحينما أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، ودخلت الفكرة العربية القومية الحديثة في حيز النشاط والحركة، بدت حركة عربية قومية عامة لا اقليمية، حيث اندمج فيها رجال وشباب العرب المتنورون في بلاد الشام والعراق والحجاز واليمن، ومن كان في هذه البلاد من رجال وشباب مصر، وبلاد المغرب التي كانت خاضعة لهيمنة الانكليز والافرنسيين.

ومع أن هذه الحركة لم تستهدف في بدء أمرها الانفصال التام عن الدولة العثمانية، فإنها كانت تهدف إلى توطيد كيان قومي في هذا الدولة للعرب، وضمان مصالحهم وحقوقهم

وازدهارهم ككيان قومي واحد، وحقوق ومصالح قومية واحدة، مما فيه كذلك إدراك لتلك الضرورة، مع التنبيه على أن اقتصار هذا الادراك على بلاد الشام والعراق والحجاز واليمن، أي على سكان القسم الآسيوي من الوطن العربي، لم يكن عن قصور في إدراك معنى وضرورة شمول الوحدة لكافة أرجاء هذا الوطن، وإنما كان لأنه هو المتسق حينذاك مع واقع العرب، حيث كان القسم الأفريقي منكوباً بالاستعمار الانكليزي والافرنسي، ومضروباً بينه وبين القسم الآسيوي بستار كثيف، بدليل أن رجال الحركة العربية الحديثة، لم يكونوا من أهل القسم الآسيوي الذي كان في نطاق سلطان الدولة العثمانية الفعلي فقط، بل كان يندمج فيها مصريون ومغاربة إلى جانب الشاميين والعراقيين والحجازيين واليمانيين.

ولقد قامت على اثر اعلان الدستور العثماني في الاستانة جمعية الإخاء العربي باسم العرب، واندمج فيها رجال وشباب ونواب من مختلف بلاد العرب كظاهرة بارزة على ذلك. ولقد تكتل في هذه الظروف نواب العرب وشيوخهم في البرلمان العثماني، وكانوا مزيجاً من الشاميين والعراقيين والحجازيين واليمانيين، في كتلة نيابية عربية للدفاع عن حقوق العرب ومصالحهم، فكان في ذلك ظاهرة بارزة أخرى.

وتأسس في هذه الظروف المنتدى الأدبي في الآستانة الذي ظل قائماً نشيطاً ست سنوات (١٩٠٩ - ١٩١٥)، فكان ظاهرة بارزة على ذلك الشعور والادراك، حيث اندمج فيه شباب ورجال ونواب العرب من مختلف الانحاء العربية. ولقد كان بيتاً عربياً قومياً شديد النشاط، في مجال الفكرة العربية القومية، والدعوة اليها. وقد دأب على الاشادة بأمجاد العرب، وتطوير الفكرة العربية إلى حركة فعلية، تهدف نحو كيان عربي قومي عام، وتدافع عن مصالح العرب وحقوقهم كمجموعة قومية واحدة.

ولما أخذ الترك يبدون نياتهم الاستعلائية والتتريكية نحو العرب، أخذت تنشأ جمعيات سرية عربية، عسكرية وغير عسكرية، مثل الجمعية القحطانية، وجمعية العهد وجمعية العربية الفتاة باسم العرب، ويندمج فيها رجال وشباب العرب المتنورون من مختلف أقطار العرب. وقد كان قيامها ظاهرة بارزة تنم أكثر مما سبقها على ذلك الإدراك والشعور، حيث كانت تهدف إلى قيام كيان عربي قومي يضم جميع بلاد العرب، ويكون له استقلال ذاتي تحت تاج السلطان العثماني المشترك، على نحو ما كانت عليه المجر والنمسا قبل سنة ١٩١٤، ثم تطورت إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وانشاء مملكة عربية كبرى تشتمل على أقطارهم المتعددة حينما اشتد تجهم الترك ضد العرب، وأخذوا يقسون في اخماد حركتهم القومية بالمحاكمات والاعدامات والمطاردات والنفي والتشريد.

الوحدة
كانت من أهداف الثورة العربية

ولقد كانت الثورة العربية الهاشمية التي اضطلع بقيادتها الشريف حسين، سنة ١٩١٦،

ضد الدولة العثمانية، مظهراً قوياً من مظاهر الشعور بضرورة الوحدة، ونتيجة من نتائج تطور الحركة العربية الذي أشرنا إليه آنفاً، حيث كانت مطالب الشريف من بريطانية التي جرت الاتصالات بينها وبينه في سنة ١٩١٥ في صدد هذه الثورة، قيامَ مملكة عربية كبرى مستقلة، تشمل جميع البلاد العربية الداخلة فعلاً في نطاق الدولة العثمانية. وكانت هذه المطالب نتيجة للاتصالات التي جرت بين الشريف وأولاده من ناحية، والجمعيات العربية السرية التي تطورت أهدافها، وغدت مركّزة في الوحدة العربية الشاملة من ناحية أخرى.

وقد جاء في كتاب الشريف حسين لمكماهون المؤرخ ٢٨ رمضان ١٣٣٣ - ١٤ حزيران ١٩١٥ أن الشعب العربي بأجمعه، قد اتفق على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر، ولذلك فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو ايجاباً خلال ثلاثين يوماً من وصول الاقتراح. وإذا انقضت المدة، ولم يتلق جواباً، فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء. وفوق هذا، نحن عائلة الشريف، نعتبر انفسنا إذا لم يصل الجواب احراراً في القول والعمل، من كل التصريحات والوعود السابقة التي قدمناها.

وقد جاء في كتاب ثان للشريف، مؤرخ في ٢٩ شوال ١٣٣١، عتابٌ مرير لمكماهون لتلقي حدود المملكة العربية المقترحة بالتردد، ومما جاء فيه: اني أؤكد لكم. أن مصالح اتباع ديننا كلها، تتطلب هذه الحدود التي أقترحها، وأنها ليست لرجل واحد يمكن ارضاؤه، بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود، وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد. وهذا ما جعله يعتقد أن من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء، حيث ينطوي في هذه التوكيدات قوة الشعور بضرورة الوحدة كما هو واضح.

الوحدة كانت من أهداف المؤتمرين السوري والعراقي عقب الحرب العالمية الأولى

ولما انعقد المؤتمر السوري العام في دمشق، في تموز سنة ١٩١٩، بمناسبة قدوم لجنة الاستفتاء الأميركية، كانت الوحدة وضرورتها ماثلة في أذهان اعضائه الممثلين لمختلف مناطق بلاد الشام الساحلية والداخلية والجنوبية والشمالية. وكان هذا متسقاً مع الحركة العربية التي انبعثت في زمن الدولة العثمانية، لأن كثيراً من أعضاء المؤتمر كانوا من رجال هذه الحركة، كما كانت بلاد الشام منبت هذه الحركة ومغذيتها.

ولقد تمثل ذلك في طلب المؤتمر وحدة سورية، شاملة من طوروس شمالاً إلى رفح جنوباً، مع الاتحاد السياسي والاقتصادي مع العراق. ولم يكن الاقتصار على الوحدة السورية العراقية اغفالاً للوحدة العربية العامة، وإنما كان لأن الحركة العربية، وإمكانيات سيرها، كانت تدور في نطاق بلاد الشام والعراق، على ما ذكرنا أسبابه قبل. وقد أكد المؤتمر السوري هذا مرة ثانية، حينما قرر إعلان استقلال سورية ووحدتها بحدودها الطبيعية استقلالاً تاماً ناجزاً، غير

مشوب بأي شائبة خارجية، تحت ملكية الأمير فيصل بن الحسين، في الثامن من شهر مارس سنة ١٩٢٠ . وقد نص في قراره هذا، على وجوب قيام الوحدة السياسية والاقتصادية مع العراق، لأن ما بين القطرين من صلات وروابط لغوية وتاريخية واقتصادية وطبيعية وجنسية، تجعل أحدهما لا يستغني عن الآخر، مما فيه إدراك قوي لضرورة الوحدة.

وقد حذا هذا الحذو المؤتمر العراقي الذي انعقد في نفس اليوم (٨ مارس ١٩٢٠) في دمشق أيضاً، ليقرر اعلان استقلال العراق التام الناجز، من شمال ولاية الموصل إلى الخليج، بريئاً من أية شائبة، تحت ملكية الأمير عبد الله بن الحسين، والذي شهده كثير من رجال الحركة العربية العراقيين، حيث نص في قراره هذا على إعلان الاتحاد السياسي والاقتصادي بين العراق وبلاد الشام.

الوحدة كانت هدف المؤتمر العربي القومي المنعقد في القدس في كانون الأول سنة ١٩٣١

ولقد اجتمع عدد كبير من رجال الحركة العربية القومية المنتسبين إلى مختلف الجمعيات والأقطار العربية في القدس، في كانون الأول من سنة ١٩٣١، وتذاكروا فيما آلت إليه حالة البلاد العربية من تجزئة واستعمار، وما كان في ذلك من انحراف عن أهداف الحركة العربية القومية، وقرروا الميثاق الواجب على رجال العرب أن يسيروا عليه وهو هذا:

١ ـ إن البلاد العربية وحدة تامة لاتتجزأ. وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة لا نقره ولا نعترف به.

٢ ـ توجه الجهود في كل قطر من الأقطار العربية إلى وجهة واحدة، هي استقلالها التام كاملة موحدة، ومقاومة كل فكرة ترمي إلى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والاقليمية.

٣ ـ لما كان الاستعمار بجميع أشكاله وصيغه، يتنافى كل التنافي مع كرامة الأمة العربية وغايتها العظمى، فإن الأمة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها.

ثم قرروا ضرورة عقد مؤتمر عربي عام، في إحدى العواصم العربية، للبحث في الوسائل المؤدية والخطط الموصلة إلى تحقيق هذا الميثاق، وألفوا لجنة تنفيذية لنشر الميثاق وتهيئة الوسائل لعقد المؤتمر؛ وقد نشرت اللجنة بياناً يذكّر بأهداف الحركة العربية، وما بذل من جهود في سبيلها، بأسلوب قوي، يدل على ما كان من شدة الشعور بضرورة الوحدة هذا نصه:

«يعرف كل من اشتغل في الحركة العربية، أو تتبع سيرها على اختلاف أدوارها، ما كان من الجهود النبيلة التي شرع رجالات العرب ومفكروهم وشبانهم يقومون بها من عهد طويل، ولا سيما بعد إعلان الدستور العثماني لتكوين قضية عربية عامة، غايتها تحقيق كيان عربي مستقل، يشمل الأقطار العربية المختلفة، ويوصل الأمة العربية إلى الاستقلال الذي تتمتع به أمم العالم

الحرة. وقد اتخذ العرب لجهادهم السياسي هدفاً مقدساً، ظهرت آثاره في أعمال الجمعيات والأندية والمؤتمرات التي عقدوها، ثم كانت الثورة العربية الكبرى التي قطع للعرب فيها عهود، أملوا من ورائها الوصول إلى غايتهم الشريفة. وقد أريقت في سبيل هذه الغاية المقدسة أثناء الحرب العالمية الكبرى الدماء الزكية، وبذلت الضحايا الغالية. ولكن ما كادت تنكشف الحرب، حتى أخذ العرب يلقون من المطامع الاستعمارية غمطاً لحقوقهم وجهادهم وجحوداً لضحاياهم، ويرون حلفاءهم ينصبون لهم شر العراقيل الحائلة بينهم وبين نيل استقلالهم. وكانت نهاية ذلك أن الحلفاء ظهروا بمؤامراتهم علناً، بعد أن تواطأوا عليها سراً لتجزئة بلاد العرب، والكيد للقضية العربية التي هي من كبريات القضايا القومية في العالم، وبها تتعلق حياة أمة عظيمة من أعرق أمم العالم في المجد والحضارة والتاريخ، وهي اليوم بنفوسها التي لا تقل عن سبعين مليوناً، تشغل خير بقاع الأرض في آسيا وافريقية.

ولقد كان أحد مظاهر هذه المؤامرة المنكرة، ووسائل انجاحها، اشغال أهل كل قطر من الأقطار العربية عن اخوانهم في الأقطار الأخرى بقضايا اقليمية مصطنعة، وأوضاع محلية متقلصة، ونكبات متنوعة، حصراً للجهود في دوائر ضيقة ومناطق محدودة، وصرفاً لها عن الامتداد إلى أفق أعلى تتلاقى في مستواه أنغام القضية العربية، مترابطة الأجزاء، متضافرة الأقسام، جرياً مع السنن الكونية في نهضات الأمم وارتقاء الشعوب. وقد استغرقت هذه الشواغل المدسوسة أوقات أبناء كل قطر، بل انغمر كل فريق من العرب فيها، حتى كاد المستعمرون يدركون مأربهم من مؤامرتهم من جعل العرب اشتاتاً، لا قضية كبيرة لهم، وهي القضية التي عمل لها رجالاتهم وجمعياتهم، وذهبت في سبيلها ضحاياهم وأرواح شهدائهم، والتي غاية غاياتها الكيان العربي، موحداً مستقلاً، يستأنفون فيه ما كان لهم في سالف الأيام من حضارة مزدهرة، اتسق عمرانها خير اتساق عرفه التاريخ، وطأطأ لها العالم رأسه، وملأت جنبات الدنيا علماً وخيراً ونوراً.

ذلك ما دعا فريقاً من رجالات العرب، الذين سبقت لهم في الحركة العربية في ماضي أدوارها جهود معروفة، إلى دعوة جمهور من مندوبي البلاد العربية الذين حضروا المؤتمر الإسلامي العام المنعقد في بيت المقدس، إلى مؤتمر عقدوه في هذه المدينة مساء الأحد ـ ٤ شعبان ١٣٥٠ ـ ١٣ كانون الأول ١٩٣١، بحثوا فيه ما يجب عمله لدرء النازلات الاستعمارية التي نزلت ببلادهم، والقضايا الاقليمية التي غمرهم بها المستعمرون. واقروا الموادّ الآتية ميثاقاً مقدساً، يكون للعرب هدفاً، ولمجهودهم مقصداً وغاية في مختلف أقطارهم، فيستأنفون جهادهم في سبيل الاستقلال المنشود على نوره، ويجرون على سننه، حتى يأذن الله بإدراك المحجة والأماني كاملة.

ثم رأى المجتمعون ضرورة عقد مؤتمر عربي عام، في إحدى العواصم العربية، يبحث في الوسائل المؤدية إلى نشر الميثاق ورعايته، والخطط التي ينبغي السير عليها لتحقيقه. وقد انتدبونا، نحن الموقعين على هذا البيان، كلجنة تنفيذية، تنشر الميثاق في الوطن العربي،

وتهيىء الوسائل لعقد المؤتمر، وتكون صلة المراسلة بين الأقطار العربية في الشؤون المتعلقة بهذا الأمر. وقد بدأنا العمل مستعينين بالله عز وجل، تشد ازرنا الروح النامية الفياضة التي تجلت في ذلك الاجتماع الخطير، والتي تظهر حيناً بعد حين في مختلف الأقطار، متذمرة بعنف وقوة من هذا الطاغوت الاستعماري الذي ارهق العرب سيطرة وسلطاناً، ومزق مجموعهم بالقضايا المحلية المولدة، وعطل سير جهودهم الكبرى التي يرمي الميثاق المقدس إلى استئنافها لانجاح هذه القضية، على مقتضى هذا العهد والله من وراء القصد».

ووقع البيان أعضاء اللجنة التنفيذية: عوني عبد الهادي، وخير الدين الزركلي، وصبحي الخضرا، وعجاج نويهض، وعزة دروزة. أما الذين وقعوا على الميثاق فهم:

رشيد رضا ـ محمد بهجة الأثري ـ ابراهيم الواعظ ـ خير الدين الزركلي ـ صبحي الخضرا ـ ابراهيم الخطيب ـ علي عبيد ـ اسحق درويش ـ علي ناصر الدين ـ صلاح عثمان بيهم ـ محمد العفيفي ـ رياض الصلح ـ شكري القوتلي ـ راغب أبو السعود الدجاني ـ أحمد حلمي عبد الباقي ـ سالم هنداوي ـ محمد عزة دروزة ـ عوني عبد الهادي ـ محمد طاهر الجقة ـ عمر الطيبي ـ محمد علي بيهم ـ معين الماضي ـ نبيه العظمة ـ صالح العوران ـ مصطفى الغلاييني ـ حسين الطراونة ـ أحمد الامام ـ محمد علي الطاهر ـ عوني الكعكي ـ عجاج نويهض ـ عبد الله الداود ـ محمد طارق ـ خليل التلهوني ـ سامي السراج ـ محمد بنونه ـ سعيد ثابت ـ بشير السعداوي ـ سليمان السودي ـ محمد حسين الدباغ المكي ـ كامل الدجاني. وجميعهم من البارزين في أقطارهم من رجال الحركة العربية.

وقد بذلت اللجنة التنفيذية جهدها في سبيل عقد المؤتمر، وحصلت على موافقة الملك عبد العزيز آل سعود والملك فيصل، وكانت العراق والمملكة السعودية هما الدولتان العربيتان البارزتان في نطاق الحركة العربية الحديثة، كما قوبلت دعوتها بارتياح في مختلف الأقطار العربية، مما يدل على الادراك القوي لضرورة الوحدة والعمل لها. وكاد المؤتمر ينعقد في بغداد في ربيع سنة ١٩٣٣، وتألف فيها لجنة تحضيرية قوامها أبرز رجالات العراق مثل ياسين الهاشمي ونوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودة الأيوبي ومولود مخلص وسعيد ثابت تحت رعاية الملك فيصل، لولا مداخلة الانكليز، ثم وفاة الملك في خريف هذه السنة.

الوحدة

كانت هدف مشاورات الجامعة العربية

والمشاورات التي انبثق عنها ميثاق جامعة الدول العربية وكيانها، والتي بدأت سنة ١٩٤٣، هي في الحقيقة مظهر من مظاهر هذا الادراك، الذي اشتد في الأوساط العربية القومية، بمناسبة ظروف الحرب العالمية الثانية، بأمل الاستفادة منها في تحقيق الوحدة العربية.

وقد أشار وزير خارجية بريطانيا إلى ذلك في تصريحين، أحدهما بتاريخ ٢٩ مارس

١٩٤٢ جاء فيه: «إن العالم العربي قد خطا خطوات واسعة منذ التسوية التي تمت في نهاية العام الماضي ـ ويعني بذلك قيام جمهوريتي لبنان وسورية، والاتفاق بين بريطانيا وفرنسا على الاعتراف باستقلالهما ـ فرغب كثيرون من مفكري العرب في أن يكون للشعوب العربية نصيب من الوحدة أعظم مما تتمتع به الآن. وهم في سعيهم لبلوغ هذه الوحدة يرجون عون بريطانيا وتأييدها. فمثل هذا النداء من أصدقائنا لا يمكن إلاّ أن يلبى. وأنه ليلوح أنه من الطبيعي ومن الحق أن تتعزز الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية، بل والروابط السياسية أيضاً. فحكومة صاحب الجلالة من جانبها ستؤيد كل التأييد كل مشروع تتم الموافقة الاجماعية عليه». وثانيهما بتاريخ ٢٤ شباط ١٩٤٣، جاء فيه: «إن الحكومة البريطانية، كما أوضحت قبل، تنظر بعين العطف إلى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية بينهم، وان من الجلي أن الخطوة الأولى لتحقيق أي مشروع، يجب أن تأتي من العرب أنفسهم».

وتشجع مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر بهذين التصريحين، برغم ما قد يكون فيهما من مآرب مريبة، فاتصل بالحكومات العربية بسبيل اجراء المشاورات، ثم قدم إلى مصر ممثلو العراق فسورية فالأردن فلبنان فالسعودية فاليمن، وجرى بين كل منهم وبينه مشاورات كانت تسمى رسمياً بمشاورات الوحدة العربية. وكان الظاهر أن النحاس لم يكن بعيداً عما تعنيه هذه التسمية، على ما سجل من تصريحاته أمام البرلمان المصري، والمؤتمر الوفدي، الذي عقد في تلك الأثناء، وفي خطاب العرش والتصريحات الخاصة.

وفهمها العراق والأردن وسورية على حقيقة مداها، واطمأنوا لتشجيع الانكليز الذين كانوا أصحاب الحول والطول في بلاد العرب، فقال مندوب سورية إنه يؤثر أقوى أداة للتعاون المشترك، وهي الحكومة المركزية، فإذا تعذر ذلك أقيم نظام آخر من الاتحاد أو الاتفاق أو الحلف، منوهاً بأن ذلك من أهداف الحركة العربية والفكرة العربية التي نشأت وترعرعت في بلاد الشام، ومعلناً استعداد بلاده للتضحية بكل اعتبار في سبيل ذلك. وحذا حذوه مندوبو العراق والأردن، فقالوا انهم يرغبون في تكوين اتحاد له سلطة تنفيذية، تمثل جميع نواحي التعاون السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، ويكون لقراراتها قوة تنفيذية على الدول الداخلة في الاتحاد، على ما جاء في محضر اللجنة التحضيرية المنعقد في الاسكندرية.

ولقد كان استبشار العرب عظيماً بهذه المشاورات، لأنها تعبير عن شعورهم وادراكهم لضرورة الوحدة. ولقد كان عام المشاورات موسماً عربياً عاماً، بما كان يلقى في مناسباتها من خطب وتصريحات رجالات العرب وزعمائهم، فيها التوكيد بضرورة الوحدة والشعور بها، وما يقوم بين البلاد العربية والأمة العربية من روابط عظيمة، تجعل الوحدة بينها طبيعية وواجبة.

وإذا كانت الوحدة أو الاتحاد لم يتم على الوجه الناجع المنشود، فإن ذلك لم يكن لشعور عربي مضاد للوحدة أو الاتحاد، وإنما كان، مع شديد الأسف، بسبب الاعتبارات الاقليمية والطائفية والأسروية والشخصية، التي كان يتأثر بها بعض رؤساء وساسة العرب، وبسبب ضعف

العزيمة والارادة الذي بدا من سائرهم، فضاعت على العرب بهذا وذاك فرصة ذهبية دهرية، ادركهم شرها وأذاها في محنة فلسطين، على ما ذكرناه قبل.

ومع ما جاء عليه ميثاق الجامعة العربية من فضفضة، وبعد عن الوحدة الصحيحة الواجب تحقيقها، فإنه احتوى مواد تصح أن تكون نواة للوحدة الصحيحة. مما يعد كذلك مظهراً من مظاهر إدراك ضرورة الوحدة بين العرب بأي شكل كان، كما ترى فيما يلي:

المادة الثانية ـ الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول العربية المشتركة فيها، وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها، وصيانة استقلالها وسيادتها، والنظر بصورة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها. كذلك من أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً، بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها في الشؤون الآتية:

١ ـ الشؤون الاقتصادية والمالية، ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمارك والعملة، وأمور الزراعة والصناعة.

٢ ـ شؤون المواصلات، ويدخل في ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد.

٣ ـ شؤون الثقافة.

٤ ـ شؤون الجنسية، ويدخل في ذلك الجوازات والتأشيرات، وتنفيذ الأحكام، وتسليم المجرمين.

٥ ـ الشؤون الاجتماعية.

٦ ـ الشؤون الصحية.

المادة التاسعة ـ لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها في تعاون أوثق، وروابط أقوى، مما نص عليه الميثاق، أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض.

المادة التاسعة عشرة ـ يجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة، تعديل هذا الميثاق، وعلى الخصوص لجعل الروابط بينها امتن وأوثق.

وقد اشترك في الميثاق دول العرب السبع التي كانت قائمة وذات سيادة، وهي مصر وسورية والعراق ولبنان والسعودية والأردن واليمن. ولم يُغفل واضعو الميثاق البلاد العربية غير المشتركة بسبب عدم تمتعها بالسيادة، حيث جعلوا لها ملحقاً خاصاً، مما يدل على ادراكهم بضرورة شمول متناول الميثاق الذي يهدف إلى توطيد التعاون والتواثق والوحدة لجميع البلاد العربية وهو هذا:

«ونظراً لأن الدول المشتركة في الجامعة، ستباشر في مجلسها وفي لجانها شؤوناً يعود

خيرها على العالم العربي كله، ولأن أماني البلاد العربية غير المشتركة في المجلس، ينبغي له أن يرعاها، وأن يعمل على تحقيقها، فإن الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية يعنيها بنوع خاص، أن توصي مجلس الجامعة في إشراك تلك البلاد في اللجان المشار إليها في الميثاق، وأن يذهب في التعاون معها إلى أبعد مدى مستطاع، وفيما عدا ذلك، بألا يدخر جهداً لتعرف حاجاتها، وتفهم أمانيها وآمالها، وبأن يعمل بعد ذلك على صلاح أحوالها، وتأمين مستقبلها، بكل ما تهيئه الوسائل السياسية من أسباب».

ولما نالت ليبية استقلالها وسيادتها، طلبت الانضمام إلى الجامعة، فرحبت بها، وغدت الدولة الثامنة من الدول المشتركة في ميثاقها؛ وكذلك فعل السودان حينما نجا من الهيمنة الانكليزية، وغدا مستقلاً ذا سيادة.

وإذا كان لم يطرأ تطور على هذا الميثاق، ولم يسر خطوات جدية في سبيل تحقيق مادته التاسعة، وما تناولته مادته الثانية تحقيقاً فعالاً، برغم ما بُذل من جهود وعُيّن من لجان وعُقد من اجتماعات، ووُضع من مشاريع ولوائح عديدة في شتى المواضيع المتصلة بها، فإن هذا إنما كان بسبب الاعتبارات الاقليمية والشخصية والأسروية، على ما سوف نشرحه بعد.

مشاريع وحركات وأصوات متنوعة

تدل بقوة على إدراك العرب لضرورة الوحدة

ولقد اعتبرت كارثة فلسطين دليلاً على اخفاق نظام جامعة الدول العربية، في توحيد خطط الحكومات العسكرية والسياسية والاقتصادية، وتعاونها في هذه المجالات، تعاوناً صادقاً ومجدياً، فأخذت الأصوات ترتفع من كل ناحية بوجوب تطويره إلى نظام اتحادي. وبدا في سورية والعراق سنة ١٩٤٩ حركة ترمي إلى اقامة اتحاد بينهما، في الشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية، واندمج في هذه الحركة كثير من المخلصين من رجال الحركة العربية، لأنها كانت تعبيراً عن قوة الشعور العام بضرورة الوحدة، ما أمكن إليها من سبيل، وقوة الشعور بالضرر الذي حلّ في البلاد والأمة العربية من تأخر تحقيقها.

ولعبت الاعتبارات الاقليمية والشخصية والأسروية دورها في هذه الحركة التي بدا من خلالها مطامح شخصية أكثر من تحقيق هدف قومي، فأدى ذلك إلى حبوطها. غير أن هذا لم يكن من شأنه قتل الفكرة التي غدت عامة في العرب.

وكان من مظاهر ذلك، مذكرة مسهبة قدمها رئيس وزراء سورية، الدكتور ناظم القدسي، سنة ١٩٥١ إلى الجامعة العربية، ينبه فيها الحكومات العربية إلى الأخطار المحدقة بالبلاد العربية، وإلى الشعور العام بها، وإلى وجوب قيام اتحاد بين الدول العربية، يكون أقوى الزاماً وشمولاً من ميثاق الجامعة، معبراً بذلك عن الشعور العام بضرورة الوحدة. وقد رأينا أن نورد

نصه لما فيه من تأييد، بأسلوب قوي، لما نحن في صدد تقريره في هذا الفصل والفصول السابقة. وهذا هو:

١ ـ يتشرف رئيس مجلس وزراء سورية، بتقديم هذه المذكرة، باسم الحكومة السورية، إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، إلى أصحاب السمو الملكي والمقام الرفيع والفخامة والدولة والمعالي، ممثلي الحكومات العربية السعودية والمصرية والعراقية والأردنية الهاشمية واللبنانية والمتوكلية اليمنية، في اللجنة السياسية المنعقدة حالياً بالقاهرة، ويرجو أن تكون في هذه اللجنة موضع الدرس والتوصيات لمجلس الجامعة، كيما يتخذ هذا المجلس مقررات بشأن ما يرد فيها، في اجتماعه المنتظر القريب.

٢ ـ إن خطورة الحالة الدولية واضحة لا تحتاج إلى بيان. وتتوالى الأحداث سراعاً بشكل تمثل فيه الأخطار الداهمة للعيان. كل هذا والعرب بما هم فيه من ضعف وتفرق وتردد وتخلف وحيرة، مما يدع اقطارهم وشعوبهم عرضة لمصائر يصعب على المرء تحديدها، ومما لا يجعل لهم وهم متفرقون شأناً في الميزان الدولي، سواء استمرت الحرب الباردة، أو يوم تقع الواقعة، أو يوم يسوى الحساب.

وقد ثبت أنه لم يعد للدول الصغيرة من ذكر، ولا بد لها من تكتل يربط بينها بصلات قانونية وثقى، يتبين أثرها الفعال في السلم، ولا يشك في صمودها في الحرب.

٣ ـ وإلى جانب هذه الأخطار التي تقلق العالم جميعاً، نجد الدول العربية بليت بخطر آخر، وهو العدو اليهودي المقيم في صرة بلادنا، والمتربص بنا شراً، والذي يزداد خطره كلما رست باخرة من المهاجرين على شواطىء فلسطين.

٤ ـ وتدل الاعتبارات العسكرية السليمة، أنه يتعذر في الوقت الحاضر لأكثر الدول العربية منفردة، مجابهة هذا الخطر الصهيوني الذي كان ولن يزال همه الأكبر التفريق بين الدول العربية ومقابلتها واحدة بعد الأخرى، ليكتب له البقاء ثم التوسع. وأن الوسيلة الوحيدة حالياً لاتقاء شره، هي احاطته بسوار دفاعي من الشمال والشرق والجنوب.

وأكبر النكبات التي نخشاها على العالم العربي من جراء اسرائيل، هو الشطر بين عرب مصر وما جاورها في الغرب من جهة، وهم حوالى ستون مليوناً، وبين عرب المشرق، وهم حوالى عشرون مليوناً من جهة أخرى. وأخطر سهم وجهه اليهود إلى العرب، هو الفصل بين هذين القسمين، في مناوراتهم حول النقب، وفي قتلهم لبرنادوت لصالحهم الأكيد.

٥ ـ ولنذكر أن اليهود يطلون على البحر الأبيض المتوسط وعلى البحر الأحمر، وان لهم من إمكانياتهم في تجهيز الأساطيل التجارية والحربية، ما يعرض كل السواحل العربية المجاورة لأخطار في اقتصادياتها أو في سلامتها، وتدل مشاريعهم في العقبة خاصة على نوايا توسع كبير في تلك المياه.

٦ ـ إن هذه الأخطار من عالمية دولية أو صهيونية، تتساوى تجاهها الدول العربية جميعاً، عاجلاً أو آجلاً، مهما اختلفت هذه الدول في مواقعها الجغرافية منها، أو في عواملها المحلية. وهذه حقيقة يحسن التذكير بها. إذ ليس الأمر أن تقوم بعض الدول العربية في انقاذ شقيقات لها، بل واقع الحال أن تتدبر الدول العربية جميعهـا سلامتها، وتضمن حدودها.

إن حوادث السنين الأخيرة، إنْ في النطاق الدولي أو في فلسطين، والنوايا المبيتة للعالم العربي، شواهد ناطقة على ما نقول.

٧ ـ والمعروف أن عناصر القوة والاستعداد الحربي والامكانيات المادية، هي وحـدها التي تجعل للدول شأناً في رقعة السياسة. ويتضح أن تركيا وإسرائيل وحدهما يدخلان في الوقت الحاضر بعرف الكتلتين العالميتين، في حساب الدفاع عن الشرق الأوسط، وتحقيق الأمن فيه بالاستناد إلى جيوشهما. أما العرب في نظر قادة الحروب واخصائييهم، فكمية غير ذات شأن. ولهذا لم تُشحن لهم الأسلحة، ولم تُحقق المساعدات التي طالما مُنّوا بها، واقتصر آخر الأمر على مخابرات ودراسات وتسويفات لا طائل تحتها.

ونشير إلى أنه إذا ما ظل العـرب على حالهم، فليس الأمـر في انحيازهم إلى الكتلة الديمقراطية أو الشيوعية. فسواء انتصـرت هذه أو تلك، سيظلون على بلواهم بالصهيـونية، والضغط الخارجي من الشرق أو الغرب. إن المهم هو ايجاد القوة أولاً، ثم تقرير موقفنا على ضوء مصالحنا بثقة وإيمان، قبل التطلع إلى هذا المعسكر أو ذاك. وقد دلت أعقاب الحرب الأخيرة أن الدول القوية في قافلة المغلوب، تعامل وستعامل آخر الأمر خيراً من الدول الضعيفة في قافلة الغالب.

لهذه الاعتبارات التي قدمنا بموجز عنها، نرى لزاماً اقتراح مشروع عملي يشمل الدول العربية جميعاً، ويكفل التـوحيد في السيـاسة الخـارجية، وفي الـدفاع القـومي والاقتصادي والمرافق الرئيسية، ويكون بنظر الرأي العام العربي، وبنظر الكتل العالمية، موضع اهتمام وأمل أو خشية.

ويدل التاريخ القريب إن لهذه الوسيلة العملية ثلاثة أشكال:

أولها قيام **الدولة المتحدة العربية. وهي المثل الأعلى لكل عربي.** وقد أثبتت حوادث القرنين الماضيين، صلاحه وتأثيره في أمم أوروبا وأميركا. وهو ليس بدعاً في تاريخ العرب، فقد كانوا لاثنى عشر قرناً دولة واحدة. وهذه أقوى من الدول المتحدة.

أما الشكل الثاني، وهو أقل أثراً من الأول في نتائجه، كما أثبت التاريخ، فهو الاتحاد بين الدول العربية.

والشكل الثالث، وهو أضعفها، هو الكونفدراسيون.

وانا إذ نتقدم بهذه الاقتراحات، نعلن بأننا بارجحية الشكل الأول حتماً. وإذا كنا أشرنا إلى

الشكلين الثاني والثالث، فذلك دفعاً للصعوبات والعقبات التي قد تعترض سبيل الأول، أو تؤدي إلى البحث في الشكلين الآخرين. وانا نرى بأن سلوك هذا الطريق، توحي به المصلحة القومية. ومصدر قوة ذات شأن لها كلمتها الأولى في الشرق الأوسط، ورأي في الميزان الدولي. وهي تضمن لنا ولذرارينا سلامة الوطن، واستمرار الأمل، في هذه الظروف الدولية الخطيرة. أما بقاء الصلات بين الدول العربية على ما هي عليه، فلم يؤد إلى تقوية شأن العرب في الماضي القريب، وبالتالي لا ينتظر منه شيء كثير في الحاضر الخطير والمستقبل الداهم. ولا بد في نظرنا من الأخذ بالاقتراح السابق الذكر.

٨ ـ أما الطريق العملية لتحقيق ذلك، فنقترح أن تبدأ اللجنة السياسية في اجتماعها الحاضر باقرار الفكرة مبدئياً، وإعلانها على الملأ أولاً، حتى يحيا أمل الشعوب العربية، ويقوى عزمها في الداخل، ويوطد موقف العرب السياسي في الخارج. ثم تختار على الفور لجنة من جميع الدول، مهمتها الاتصال السريع بأولي الأمر في عواصمهم، وعرض الفكرة، وتذليل العقبات، وتأليف وجهات النظر، وتحضير النصوص والوثائق اللازمة للوضع الجديد، على أسس قوية عملية منتجة، تقوم بدراستها بامعان وتبصر، وتقترح ما ينبغي اجراؤه وتشريعه في نصوص وأحكام. على أن تنجز عملها في وقت قصير تحدده اللجنة السياسية مقدماً. وتجتمع اللجنة السياسية بعد ذلك فوراً، في موعد يتفق عليه من الآن، لتنظر في مقترحات اللجنة المختصة، وتوصي بها مجلس الجامعة في برهة محدودة الأجل، ثم يدعى هذا المجلس فوراً لإقرار ما تم عليه الوفاق.

ولما كانت الظروف الحاضرة، لا تقبل، ولا تغتفر التأجيل، أو ضياع أيام، فنرى إلى جانب ما تقدم ومنذ الآن، أن يبرم الضمان الجماعي على أساس القيادة الموحدة، وتدعى اللجنة أو اللجان العسكرية المختصة لتقوم بأعمالها، ولا سيما تنظيم القيادة في زمن السلم، وتأمين التدريب العسكري العام في الأقطار العربية.

إن هذا الجمع بين التحضير السياسي، وتحقيق التنظيم العسكري، يعيد إلى جماهير العرب ذلك الايمان الذي سطروا بفضله أروع الأمجاد في تاريخهم، والذي يمكن أن ينقذهم من أخطار تداهمهم، فيخدمون أمتهم والإنسانية بوضعهم القوي النافع، ويمنعهم من التطاحن بين الأقوياء، على ما في أرضنا من ثروات دفينة، وخيرات تتوقف المدنيّة الآلية على توفرها.

٩ ـ ومن الواضح أن قضية السلاح عقبة يتوقف حلها على تذليل قضايا معلقة، وهذا يتطلب بعض الوقت. لذا نرى أن تقوم الدول العربية فوراً، بتمرين أكبر عدد ممكن من سكانها على الأسلحة الموجودة لديها حالياً، وبطريقة سريعة وعملية، كما فعلت المانيا بالتسلح سني ١٩٣٠ ـ ١٩٣٥. فإذا فعلت الدول العربية ذلك بجد وسرعة وهمة، أيقنت حينذاك الدول المعنية بالأمر، أن حياة جديدة وأسلوباً نشيطاً بدأ العرب بسلوكه، مما يمهد للعرب حل قضاياهم المعلقة على اختلافها. لأن أهمية الدول تقاس دوماً، وخاصة في الظروف الحاضرة، بما لديها من نظام وقوة، أو على ما يمكن أن يكون لديها من قوة عسكرية في الوقت المناسب.

ونعتقد أن المهم ايجاد الرجال المدربين للدفاع عن أوطاننا، فإذا ما وجدوا، سهل توفير الأسلحة والأعتدة اللازمة لمجموعاتهم.

١٠ ـ وإننا لا نبالغ حين نقول ان فيما تقدم من مقترحات رغبة الأمة العربية الملحة في مختلف أقطارها، كما أننا نثق أن ما نذهب إليه لا يتعدى الحقيقة. فسواء تطلعنا إلى ماضي الأمة العربية فيما سلف، أو إلى صميم الواقع فيما حضر، نجد أن عوامل الوحدة كامنة موفورة راكدة، تنتظر من قادة الشعوب شارة الهبوب، لتقضي على شبح التفرقة الجاثم، والذي لا جذور له، ولا أسس في ضمائر الناس. والغريب أن نرى في العالم، ولا سيما في غرب أوروبا أو شرقها، قيام اتحادات تجمع بين أمم متنافرة في أصولها وعروقها ولغاتها وتاريخها وتقاليدها، تقف صفاً واحداً، وتوحد سياستها الخارجية، وتشترك في قواها الدفاعية، وتناسق بين إمكانياتها الاقتصادية، بينما تتفرق الدول العربية، وقد جمع بيننا الأصل والعرق واللغة والتاريخ والمعتقدات والمصلحة أيضاً. بل نرى ما هو أغرب، فيما يتعلق بالمانيا واليابان والحلفاء، إذ يتصافى اعداء الأمس القريب، في سبيل المصلحة المشتركة، وتتوحد الجيوش التي لما يمض سنون قليلة على تقاتلها الضاري، وذلك لدفع الخطر الداهم. فما أحرى اخوان التاريخ والغد، أن يتحدوا فيما بينهم.

وأخيراً نرى الاتحادات الكبرى في كل أصقاع الأرض: في أمريكا، شمالها وجنوبها، وفي المنطقة الأطلسية، وفي شرق اوروبا، وفي الشرق الأقصى. وهذه الأحلاف وحدها هي القادرة على الوقوف.

١١ ـ على أنه إذا صممنا على قيام أحد أشكال الاتحاد الثلاثة، فعلينا أن نشير بوضوح، إلى أن في الدول العربية أوضاعاً في طراز الحكم، يقضي منطق الواقع إحلالها الاعتبار الأول. ولكن يمكن التوفيق بينها، وبين ما نذهب إليه في المراحل الأولى حتى تنسجم هذه الأوضاع مع الشكل الجديد.

وفي التاريخ أمثلة كثيرة من هذا القبيل، حافظت فيها دول أو دويلات أو امارات على بعض أوضاعها الخاصة، واشتركت اشتراكاً وثيقاً في المرافق الرئيسية، فانسجمت هذه الأوضاع بتؤدة ووفاق، في اطراد الوحدة القومية المشتركة، التي آلت في النهاية على هذه الأوضاع بالخير العميم.

١٢ ـ كما نجد من الواجب الاشارة إلى أن تفاوت الدول العربية في عدد سكانها حقيقة راهنة، يقضي منطق الواقع أيضاً أن يؤخذ بنظر الاعتبار، حين تشكيل المجالس والهيئات المشرفة على الاتحاد.

١٣ ـ أما الاعتبارات التي طالما قيل انها تقف في طريق الوحدة والاتحاد، فإن في التطورات الاجتماعية، وفي الانقلابات الدولية، من بطيئة هادئة أو مداهمة صاخبة، ما لا تقف أمامه كل اعتبارات مبنية على المقياس المحلي الصرف. وان العالم يتمخض عن موجبات عاتية

طاغية لا تصمد أمامها أوضاع الدولة المنفردة. ومن الواجب تدبرها في حينه، قبل أن يفلت الزمام ويفوت الأوان.

وقد يرى البعض في ما تنطوي عليه هذه المذكرة من مقترحات، ضرباً من المشاريع البعيدة التحقيق أو الخيالية. ولكنا في يقيننا: ان بقاء العرب على ما هم فيه، تجاه الظروف الدولية الخطيرة، هو الأقرب إلى الخيال والأبعد عن الدوام.

١٤ ـ ففي رأينا الصريح أن الدول العربية ستكون عرضة لتطورات لا يمكن تجنبها. ومن الخير أن نسعى إلى الاتحاد أحراراً، وأن يكون لصالحنا، ومن صنع أيدينا، وفي اندفاع الأمة العربية وحماسها، بدلاً من أن تفرض علينا أشكال أخرى في ظروف قاهرة، وتكون علينا ولأعادينا، وأن تذوق الشعوب العربية في طريقها الأهوال.

١٥ ـ إن الوعي القومي يسبق الساسة في العالم العربي. وهذا الوعي لن يغتفر التمادي في سياسة جرّت عليه نكبة فلسطين. وقد تجر عليه أدهى منها في قطر بعد آخر. ومن الحكمة أن نستمع لارادة الشعوب، وهي منقادة واثقة، قبل أن تدخل فوضى النزاعات، مستفيدة من خيبتها في الحاضر، ويأسها من المستقبل.

١٦ ـ ولقد خيبت الجامعة العربية آمال العرب. وكانت إسرافاً في المظاهر والأقوال، وجدباً في النتائج والأفعال. وعرف الجميع أن الروح السائدة فيها لا تساير واقع العصر، وسرعة الزمن، وخطورة الأحداث، ووثبة ارادة الشعوب، لأنها لم تسلك الطريق الانشائي، في أي حقل من الدفاع أو الاقتصاد أو الثقافة أو الاجتماع، ولم يشعر الفرد العربي بوجودها، لأنها لم تؤمن له حاجة، أو تحيي له أملاً بالتطور والتقدم.

١٧ ـ وهذا الاجتماع الحاضر للجنة السياسية، ولمجلس الجامعة من بعده، هو القول الفصل بين السلم والحرب وبين الكتلتين المتطاحنتين. فإما أن تندثر الجامعة في عقيدة الأمة، إذا استقر فيها الجدل والتعليق والتأجيل والتحويل إلى اللجان والحكومات، أو أن تنبعث إذا أقرت ما يطمئن إليه الرأي العام. وما يطمئن إليه الرأي العام، هو هذا الاتحاد الذي يجمع بين إمكانيات الدول العربية، وتأتي في المقدمة القوة الدفاعية التي تنبثق عن ضم جيوشها، وتأمين لوازمها، وتحمل أعبائها التي تدفع عنه الغوائل، وتكفل له المنعة، ثم ما ينتج من الجمع بين موارد هذه الأقطار المتممة بعضها لبعض في الخصائص والموارد والشروط، من قدرة على تحقيق المشاريع الكبرى في ميادين الاقتصاد والصحة والتعليم والاجتماع، مما يرفع من مستوى العيش للفرد العربي، حتى يشعر في قرارة نفسه أن الوطن ليس بالمثل المجرد، بل حقيقة واقعة تتمثل فيما تحمل إليه حياة كل يوم من منفعة ونمو، فيندفع في الذود عن هذا الوطن وينشط في العمل في مرافقه لخدمة أمته والإنسانية.

ومع أن هذه المذكرة القوية قوبلت في مختلف الأوساط الواعية العربية بالترحيب، لأنها جاءت تعبيراً قوياً عن الشعور العربي العام بضرورة قيام الوحدة الفعلية بين الدول العربية،

وبشدة الضرر الناجم عن تأخر ذلك، فإنها قوبلت بفتور في الأوساط الرسمية، بتأثير الاعتبارات الاقليمية والطائفية والشخصية والأسروية، مما جعلها تتعثر، ثم توضع على الرف. ولكن ذلك لم يغطّ على شدة الشعور بضرورة الوحدة، وبضرر تأخير تحقيقها، فانبثق عن ذلك معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي، ليكون فيهما العوض عما دعت إليه المذكرة ثم عن ما جرى السعي في سبيله من الاتحاد بين سورية والعراق في سنة ١٩٤٩ كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل، فكانت هذه المعاهدة في الحقيقة مظهراً جديداً من مظاهر ذلك الشعور.

ولقد احتوت المعاهدة التي وقعت سنة ١٩٥١، هي الأخرى، مواد تصح أن تعد نواة لوحدة عربية عسكرية واقتصادية اشد فعالية. كما ترى فيما يلي:

المادة الثانية - تعتبر الدول المتعاقدة كل اعتداء مسلح يقع على أي دولة أو أكثر منها، أو على قواتها، اعتداء عليها جميعاً، ولذلك فإنها عملاً بحق الدفاع الشرعي الفردي والجماعي عن كيانها، تلتزم بأن تبادر إلى معونة الدولة، أو الدول المعتدى عليها، وبأن تستخدم على الفور منفردة ومجتمعة جميع التدابير، وتستخدم جميع ما لديها من وسائل، بما في ذلك استخدام القوة المسلحة، لرد الاعتداء، ولاعادة الأمن والسلام إلى نصابهما.

المادة الخامسة - تؤلف لجنة عسكرية دائمة من ممثلي هيئة أركان حرب الدول المتعاقدة، لتنظيم خطط الدفاع المشترك، وتهيئة وسائلة وأساليبه، وتحدد في ملحق هذه المعاهدة اختصاصات هذه اللجنة الدائمة، بما في ذلك وضع التقارير اللازمة المتضمنة عناصر التعاون، والاشتراك المشار إليهما في المادة الرابعة. وترفع هذه اللجنة الدائمة تقاريرها، عما يدخل في دائرة أعمالها إلى مجلس الدفاع المشترك المنصوص عنه في المادة التالية.

المادة السادسة - يؤلف تحت اشراف مجلس الجامعة، مجلس للدفاع المشترك، يختص بجميع الشؤون المتعلقة بتنفيذ أحكام المعاهدة، ويستعين على ذلك باللجنة العسكرية الدائمة. ويتكون مجلس الدفاع المشترك من وزراء الخارجية والدفاع الوطني للدول المتعاقدة أو من ينوبون عنهم؛ وما يقرره المجلس بأكثرية ثلثي الدول، يكون ملزماً لجميع الدول المتعاقدة[٤٨].

المادة السابعة - استكمالاً لأغراض هذه المعاهدة، وما ترمي إليه من اشاعة الطمأنينة، وتوفير الرفاهية في البلاد العربية، ورفع مستوى المعيشة فيها، تتعاون الدول المتعاقدة على النهوض باقتصاديات بلادها، واستثمار مرافقها الطبيعية، وتسهيل تبادل منتجاتها الوطنية الزراعية والصناعية، وبوجه عام على تنظيم نشاطها الاقتصادي وتنسيقه، وابرام ما تقتضيه الحال من اتفاقات خاصة لتحقيق هذه الأهداف.

المادة الثامنة - ينشأ مجلس اقتصادي من وزراء الدول المتعاقدة المختصين بالشؤون الاقتصادية، أو من يمثلونهم عند الضرورة، لكي يقترح على حكومات تلك الدول، ما يراه كفيلاً لتحقيق الأغراض المبينة في المادة السابقة.

وقد جاء في الملحق العسكري لهذه المعاهدة الذي اعتبر جزءاً منها في صدد وظائف اللجنة العسكرية الدائمة:

١ ـ اعداد الخطط العسكرية لمواجهة جميع الأخطار المتوقعة، أو أي اعتداء مسلح يمكن أن يقع على دولة أو أكثر من الدول المتعاقدة، أو على قواتها، وتستند في اعداد هذه الخطط على الأسس التي قررها مجلس الدفاع المشترك.

٢ ـ تقديم المقترحات لتنظيم قوات الدول المتعاقدة، وتعيين الحد الأدنى لقوات كل منها، حسبما تمليه المقتضيات الحربية، وتساعد عليه امكانيات كل دولة.

٣ ـ تقديم المقترحات لزيادة كفاية قوات الدول المتعاقدة، من حيث تسليحها وتنظيمها وتدريبها، لتتمشى مع أحدث الأساليب والتطورات العسكرية، وتنسيق كل ذلك وتوحيده.

٤ ـ تقديم المقترحات لاستثمار موارد الدول المتعاقدة الطبيعية والصناعية والزراعية وغيرها، وتنسيقها لصالح المجهود الحربي والدفاع المشترك.

٥ ـ تنظيم تبادل البعثات التدريبية، وتهيئة الخطط للتمارين والمناورات، ودراسة نتائجها، بقصد اقتراح ما يلزم لتحسين وسائل التعاون في الميدان بين هذه القوات، والبلوغ بكفايتها إلى أعلى درجة.

٦ ـ إعداد المعلومات والاحصائيات اللازمة عن موارد الدول المتعاقدة الحربية، ومقدرة قواتها في المجهود الحربي المشترك.

٧ ـ بحث التسهيلات والمساعدات المختلفة التي يمكن أن يطلب إلى كل من الدول المتعاقدة أن تقدمها، إلى جيوش الدول المتعاقدة الأخرى العاملة.

وقد تضمن الملحق نصاً في صدد القيادة العامة في الميدان وهو هذا:

تكون القيادة العامة لجميع القوات العاملة في الميدان، من حق الدولة التي تكون قواتها المشتركة في العمليات أكثر عدداً أو عدة، من كل من قوات الدول الأخرى، إلا إذا تم اختيار القائد العام على وجه آخر، باجماع آراء حكومات الدول المتعاقدة، ويعاون القائد العام في ادارة العمليات الحربية هيئة ركن مشتركة.

وقد نصت المادة العاشرة من المعاهدة على «تعهد كل من الدول المتعاقدة، بأن لا تعقد أي اتفاق دولي يناقض هذه المعاهدة، وبأن لا تسلك في علاقاتها الدولية الأخرى مسلكاً يتنافى مع اغراضها»، مما يعد جديداً ومهماً في صدد توثيق التضامن السياسي العربي، ومما لم يرد مثله في ميثاق الجامعة، ومما يدل على شعور واضعي المعاهدة بضرر خلو ذلك الميثاق منه.

ولقد عقدت اجتماعات عديدة اقتصادية وعسكرية في نطاق هذه المعاهدة، وبسبيل السير في تنفيذها وتحقيق غاياتها. ولقد وقعت احداث يصح أن توصف بأنها أحداث عدوانية مسلحة،

من قبل اليهود على الحدود الأردنية والمصرية والسورية واللبنانية، مما وضعت المعاهدة من أجله، فلم تتحرك الدول المتعاقدة ـ وهي جميع دول الجامعة العربية ـ بأي حركة في سبيل التنفيذ، وظل ميثاقها هو الآخر، وما بذل من جهود، وعقد من اجتماعات، ووضع من تقارير، في نطاق الكلام والشكليات، فضلاً عن خرق المادة الخطيرة المذكورة آنفاً مرات كثيرة، تأثراً بالاعتبارات الاقليمية والشخصية والأسروية.

فتقدم في هذه المرة، أي في كانون الثاني ١٩٥٤، وزير خارجية العراق، ورئيس وفده إلى جامعة الدول العربية، بمذكرة تضمنت دعوة إلى اتحاد فعلي بين دول الجامعة، أو بين من يمكنه منها وهذا نصها:

ليس بخاف أن سياسة العراق القومية، كانت وما زالت تهدف دائماً إلى وحدة العرب، وجمع كلمتهم. وقد أعلنت الحكومة العراقية في خطاب العرش، بتاريخ ١ كانون الأول سنة ١٩٥٣، بأن السبيل الوحيد لانقاذ العرب من محنتهم الحاضرة، ومجابهة الخطر الاسرائيلي، واقرار السلم في هذا القسم الحيوي من العالم، هو تحقيق الاتحاد العربي، وهي ماضية في هذه الخطة.

وقد لاحظت الحكومة العراقية بسرور وابتهاج، ما رددته مصر الشقيقة بلسان رئيسها وأعضاء حكومتها، من الرغبة الصادقة في اتحاد البلاد العربية. وقد بدت مثل هذه الرغبة في فترات متفاوتة، من قبل رؤساء الحكومات العربية الأخرى.

وقد رأى الوفد العراقي تحقيقاً لسياسته، واستجابة للرغبة الكريمة التي ترددت في مصر والبلاد العربية الأخرى، تقديم المذكرة التالية، وقد حرص على أن تكون اجمالية مختصرة مؤثراً ارجاء التفصيل الضروري إلى المفاوضات المرجوة، حين قبولها والشروع في تنفيذها:

أولاً:

١ ـ لم يعد اتحاد الشعوب العربية خيالاً يداعب مخيلة المعنيين بالمثل العليا، بل أصبح ضرورة قومية لازمة للأمة العربية كافة، يتوقف عليه وجودها، كما تتوقف عليه في الوقت نفسه القدرة الأكيدة على درء الأخطار التي تحدق بالأمة العربية، وحل المشاكل التي تواجهها.

٢ ـ وإذا ما سلمنا بتلكم الحقائق، أدركنا الخطر الداهم الذي يهدد الكيان العربي. فواجب محتوم على الدول العربية أن تبادر إلى الأخذ عملياً بمبدأ الاتحاد، مع تقدير احتمال أنها لا تستطيع كلها مجتمعة وبسرعة واحدة السير في طريق الاتحاد، وذلك لعوامل واعتبارات جغرافية وداخلية واجتماعية موقوتة، تخص كل قطر من الأقطار العربية.

٣ ـ إن القول بضوررة السير الاجماعي نحو الاتحاد المنشود بسرعة واحدة، من قبل الدول اعضاء الجامعة كلهم، قد أخر قضية الاتحاد العربي، التي يهدف إليها ميثاق جامعة الدول العربية.

٤ ـ وعليه فإن الواجب على الدول ذات الممكنات الراهنة لتحقيق الاتحاد، أن تشرع فوراً، وأن تمضي قدماً لتحقيقه، على أن تساعدها الدول الأخرى، ريثما تستطيع بدورها الانضمام إلى هذا الاتحاد بصورة طبيعية.

٥ ـ ولا شك في أن أي اتحاد يتم بين دولة وأكثر، يجب أن ينبعث عن قناعة شعوب تلك البلاد وحكوماتها، بما تمليه وحدة المصالح والأهداف. ولا يجوز السير بالاتحاد على أسس غير ديموقراطية، ونحن مطمئنون إلى أن شعوب الدول العربية، سائرة عاجلاً أم آجلاً نحو هذه الغاية.

ثانياً:

١ ـ تجري مفاوضات بين الدول التي تستطيع، وتريد الدخول في الاتحاد، على الأسس التي يرغب في انشاء الاتحاد عليها، وبعد التوصل إلى اتفاق في هذا الخصوص، تحاط جامعة الدول العربية علماً بذلك، وهي بدورها تحيط الدول الأعضاء علماً بذلك.

٢ ـ تشرع الدول الراغبة في الاتحاد، في سن دستور الاتحاد، ويعرض على برلماناتها لإقراره، ثم تعدل دساتيرها على هذا الأساس.

٣ ـ يستهدف الدستور الاتحادي وحدة السياسة الخارجية والدفاع والشؤون الاقتصادية المشتركة، وغير ذلك مما يتفق عليه المفاوضون، وينص على الادارة المشتركة والتنفيذية للاتحاد.

ثالثاً:

إن العراق ليعرب عن استعداده للدخول في الاتحاد، مع أي قطر من الأقطار العربية الراغبة فيه، ويرجو مخلصاً أن يلقى من لدن الأعضاء، مثل الرغبة التي يحسها ويعمل لتحقيقها.

رابعاً:

وإلى أن تنضم جميع الدول الأعضاء في الجامعة العربية إل الاتحاد، فإن الجامعة العربية تظل اداة تعمل لارتباط المجموعة العربية الكبرى بعضها ببعض.

ومع أن هذه المذكرة قوبلت بفتور، كما قوبلت مذكرة ناظم القدسي قبلها، بتأثير الاعتبارات والهواجس الاقليمية والأسروية والطائفية، بل واثيرت ضدها دعايات، وقيل أن وراءها يداً انكليزية، فإنها كانت على كل حال تعبيراً عما يعتلج في نفوس العرب من شعور شديد بوجوب قيام الوحدة، بين بلادهم، بأي أسلوب ونطاق، بعد أن ظهر عدم جدوى ميثاق الجامعة، ومعاهدة الدفاع المشترك، والتعاون الاقتصادي، التي أريد بها أن تكون بديلة من الاتحاد.

الوحدة غدت نشيد أنشاد العرب

وبرغم كل تلك الاعتبارات، فإن الشعور العربي العام بضرورة قيام وحدة فعلية، تجمع شمل الدول العربية، وعلى الأقل في الشؤون السياسية والاقتصادية والدفاعية، يزداد قوة يوماً بعد يوم، وتظهر آثاره في كل فرصة ومناسبة، على كل لسان ومنبر وقلم وكتاب وصحيفة، من مختلف فئات الأمة العربية، في مختلف أقطارها، بما في ذلك ملوكها ورؤساؤها وزعماؤها ووزراؤها وهيآتها وأحزابها وشبانها وبرلماناتها؛ حتى لقد غدت الوحدة العربية اليوم نشيد انشاد الأمة العربية، ومجمع رأيها العام الشامل، بحيث لو استفتيت استفتاء حراً من الضغط والدسائس، لجاءت النتيجة حتماً في جانب الوحدة الشاملة، التي فيها علاج ما تتخبط فيه من سيىء الحالات. ولا سيما في هذا الظرف الذي يتجه العالم فيه إلى التكتل، وتقوم فيه الوحدة أو الاتحاد بين شعوب لا يجمع بينها إلا الجوار والمصلحة السياسية والدفاعية، فكيف العرب، وهم أمة واحدة، يجمع بينها التاريخ واللغة والمصلحة والدم والمعتقد، وهي عرضة لاستغلال المستغلين، وطمع المستعمرين، واحتلال المحتلين، وقد غرز في قلوبهم خنجر مسموم، وسرطان خبيث، لا يمكن اقتلاعه أو الوقاية منه إلا بها...

ولقد أقامت سورية على هذا الدليل الحاسم، في الدستور الجديد الذي وضعته جمعيتها التأسيسية المنتخبة، عام ١٩٥٠، حيث احتوت مقدمته هذه الفقرة: «ونعلن أن شعبنا، هو جزء من الأمة العربية بتاريخه وحاضره ومستقبله، يتطلع إلى اليوم الذي تجتمع فيه في دولة واحدة، وسيعمل جاهداً على تحقيق هذه الأمنية في ظل الاستقلال والحرية»، وحيث احتوى نص قسم رئيس الجمهورية والنواب فيه «العمل على تحقيق الوحدة العربية». ولسنا نعني أن سورية هي وحدها القائلة بهذا، وإنما هي أول من تمكنت من تسجيله في دستورها، لأنها بريئة من شائبة الاستعمار والاعتبارات الأسروية والاقليمية والطائفية، التي تغطي على رغبة الجمهور العربي أكثر من غيرها.

ولقد استفتت مجلة الرأي الأردنية، في أوائل سنة ١٩٥٤ نواب المملكة الذين يمثلون الأمة تمثيلاً انتخابياً في الوحدة، فأجابت أكثريتهم العظمى بأن الوحدة أو الاتحاد العربي هو الهدف المقدس الذي يجب أن يتضامن العرب جميعهم على تحقيقه والوصول إليه، لأنه السبيل الوحيد لقوتهم ومجدهم، ودفع ما يحدق بهم من أخطار، ويحيط بهم من أسباب الذل والهوان، ويرتكسون فيه من هوة الفقر والجهل والتأخر، فضلاً عن أنه العلاج الوحيدة لحالة إقليمهم الخاص. وقد أدلى كل منهم برأيه مسهباً مشروحاً بأسلوب، فيه تعبير قوي عن شدة الضرورة وادراكها. ولقد جرت الانتخابات النيابية التي جاء هؤلاء النواب نتيجة لها، في ظرف كانت تقوم فيه حركة اتحاد بين المملكة الأردنية والمملكة العراقية، وتقدموا إلى الناخبين برأيهم الاتحادي، وفازوا في الانتخابات على هذا الرأي، حيث يصح أن يقال: إن شعب المملكة قد افتى بوجوب الاتحاد العربي الشامل، أو الثنائي إن لم يمكن الشامل، كخطوة أولى. ومن الجدير

بالذكر أن المادة الأولى من الدستور الأردني تنصّ على أن الشعب الأردني جزء من الأمة العربية.

ونحن لم نذكر سورية والأردن على اعتبار أنهما وحدهما القائلتان بالوحدة، وإنما لأن رأي شعبيهما قد أعلن رسمياً فيهما على لسان نوابهما. ونحن لا نشك في أن بقية شعوب البلاد العربية الأخرى مثلهما تماماً، إذا ما تيسر لها استفتاء حر، مما تقوم الدلائل عليه في كل مناسبة وعلى كل لسان.

ولقد عبر رئيس جمهورية مصر السابق اللواء محمد نجيب عن هذا الشعور العربي العام، في الخطاب التاريخي الذي القاه في ٢٣ تموز ١٩٥٤، يوم ذكرى الثورة المصرية فقال: «إن كل فرد في البلاد العربية، مصرياً أو سودانياً أو لبنانياً أو حجازياً أو عراقياً، أو أردنياً، أو يمنياً، أو مغربياً، أو ليبياً، أو كويتياً - يؤمن ايماناً قاطعاً بأن الوحدة الحقيقية بين البلاد العربية، هي السبيل الوحيد لتحقيق أمانيهم وآمالهم، ودرء الأخطار عنهم، وبأن موارد البلاد العربية المادية، وتراث الأمة العربية الثقافي والأدبي، وتاريخها القومي العربي، كل ذلك حري بأن يجعل بلاد العرب وأهلها من أعظم بلاد العالم، وأهمها قوة وحضارة ورخاء. وقد صدر من الرئيس جمال عبد الناصر ورفاقه الآخرين في مختلف المناسبات تصريحات عديدة قوية تؤيد هذا التعبير أقوى تأييد.

ولقد انعقد في بيروت في ٢٣ حزيران ١٩٥٤ مؤتمر خريجي الجامعة الأمريكية البيروتية، شهده أكثر من مئتي خريج من سورية ولبنان والأردن وفلسطين والعراق ومصر والسودان والمملكة السعودية، بينهم عدد كبير ممن لهم شأن بارز في السياسة والاقتصاد والاجتماع، فكان موضوع الوحدة العربية من أهم ما تناوله من مواضيع. وقد انعقد اجماعه على ضرورتها، وقرر تأليف لجنة خاصة مهمتها وضع دستور مفصل كامل لدولة اتحادية، والسعي في سبيل حمل الدول العربية على الأخذ به، دون أن يكون تفاوت الأوضاع والامكانيات بين بعض الدول العربية، سبباً في اعاقة تحقيق الدولة الاتحادية، ضمن الدستور المنشود لتأليف الاتحاد بأقرب وقت من الدول المستعدة لذلك. ثم انعقد هذا المؤتمر في القدس في ٢١ ايلول ١٩٥٥، وكان أشمل وأوسع من سابقة، حيث تحول اسمه إلى مؤتمر خريجي الجامعات والمشتغلين في القضايا العربية. وشهده نحو خمسمائة خريج من سورية ولبنان والعراق ومصر والسودان والأردن وفلسطين والمغرب والسعودية، وكان موضوع الوحدة والاتحاد من أهم مواضيعه، ونال التأييد والتوكيد، على اعتبار أنه الوسيلة المثلى إلى مجد العرب، وقوتهم وتكاملهم السياسي والعسكري والاجتماعي والثقافي والاقتصادي وحل قضاياهم.

ولقد عقدت عصبة العمل القومي التي تعمل في نطاق القومية العربية الشاملة وأهدافها منذ ربع قرن، والتي تعتبر الوحدة العربية في رأس هذه الأهداف، مؤتمراً في قرنايل في ٩ أيلول ١٩٥٥، شهده أعضاء ينتسبون إلى معظم أقاليم الوطن العربي، وكان موضوع الوحدة والاتحاد

في رأس الأبحاث التي نالت التوكيد والتأييد، وتقرر فيه وجوب بذل الجهود القوية في سبيل تحقيقها.

ولقد عقد محامو العرب في شهر آذار من عام ١٩٥٦ مؤتمراً في القاهرة، اشترك فيه أكثر من خمسمائة محام، من مختلف انحاء الوطن العربي الكبير في المشرق والمغرب. وكان مظاهرة قومية عربية كبرى، بما القي فيه من خطب، وتقرر من قرارات. وكانت الوحدة العربية من أهم القضايا التي دارت حولها ابحاثه وخطبه، كما كان قرار الدعوة إليها من أهم قراراته باعتبارها «الضامنة الوحيدة لعز العرب وسؤددهم» كما جاء في نصه.

ولقد عقد في القاهرة كذلك، وفي نفس الشهر، مؤتمر تاريخي عظيم، شهده الملك سعود، وشكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية، وجمال عبد الناصر رئيس مجلس الثورة والوزارة المصرية، فكانت الوحدة العربية ووجوب توطيدها، من أهم ما دار بين الرؤساء الثلاثة، بل عماد المؤتمر، كما كان توطيد التعاون بين الدول العربية، في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية، وتنسيقه تحقيقاً لغايتها المقدسة، من أهم القرارات التي اتخذها الرؤساء الثلاثة. وقد صدر من كل منهم تصريحات في أثناء المؤتمر، وفي أعقابه، تؤكد أن الوحدة العربية هي هدف العرب الأعظم، ومظهر الوعي القومي العام الأبرز، وأنها رائدهم في كل ما قرروه من خطط وخطوات، تجاوباً مع الشعور العربي الشامل، وتحقيقاً لعزة العرب وتكاملهم ومجدهم.

ولقد اجتمع الخبراء الاقتصاديون من مختلف الدول العربية، في ربيع عام ١٩٥٦، في مؤتمر، فأوصوا بالاجماع بوجوب قيام وحدة اقتصادية شاملة بين الدول العربية، ووضعوا لها خطوطاً عامة، على اعتبار أن هذا هو العلاج الوحيد لتحسين ورفع مستوى الحياة العربية، والانتفاع بامكانيات البلاد العربية العظيمة المتنوعة، وتحريرها من المستغل المستعمر.

ولقد اتفقت سورية والأردن في صيف عام ١٩٥٦ على اقامة وحدة اقتصادية شاملة بينهما، وعلى إلغاء الجوازات بين بلديها، فقوبل الاتفاق بأعظم مظاهر الابتهاج، ونفذ القرار الثاني في مظاهرة حماسية رائعة.

ولقد عقد مندوبو التعليم والتربية في مختلف الدول العربية، في صيف عام ١٩٥٦ مؤتمراً قرروا فيه وجوب توحيد المناهج الثقافية والدورات الدراسية، على اعتبار أن ذلك علاج ناجع، لتوطيد الانسجام الثقافي بين مختلف اجزاء الوطن العربي، فقوبل القرار بالترحيب الكبير، وتبنته الحكومات المصرية والسورية والأردنية والعراقية، وسارت خطوات كبيرة في طريق تحقيقه.

ولقد قرر مجلس الوزراء السوري، في تاريخ ٥ تموز من عام ١٩٥٦، تبني الدعوة إلى اتحاد عربي، تبدأ مرحلته الأولى بالاتحاد بين مصر وسورية. واقر مجلس النواب السوري هذا القرار بحماس واجماع، وطلب سرعة العمل على تحقيقه، على اعتباره الخطوة الأولى للاتحاد العربي الشامل، الذي أوجب الدستور السوري العمل على تحقيقه، وجعله نصاً من نصوص

اليمين التي يؤديها رئيس الجمهورية، وأعضاء مجلس النواب. وقد سارع الرئيس جمال عبد الناصر إلى التجاوب مع هذا القرار، فأعلن الترحيب به، واستعداد مصر للسير في طريق تحقيقه، الذي فيه تحقيق للمادة الأولى من الدستور المصري الجديد، التي تنص على أن مصر جزء من البلاد العربية، وشعب مصر جزء من الأمة العربية.

وقد قوبل ذلك القرار، وهذا الترحيب، بأعظم مظاهر الحماس والابتهاج، من قبل مختلف فئات الشعب العربي وهيئاته وصحافته، في مختلف انحاء الوطن العربي، واندمج في ذلك رؤساء وحكام سائر أقاليم هذا الوطن.

ولقد عاد مؤتمر المحامين العرب، فانعقد في دمشق في أواخر شهر أيلول من سنة ١٩٥٧، بحضور مندوبين من جميع انحاء الوطن العربي، مشرقه ومغربه، درس فيه مشروع دستور الاتحاد العربي الذي هيأته لجنة المؤتمر التنفيذية، بناء على توصية مؤتمر السنة السابقة واقرّه، ثم كان من أهم قراراته قرار جاء فيه: «يعلن المؤتمر أن تحقيق الوحدة العربية هو أكبر أهداف الأمة، والطريق الوحيد لدرء الأخطار الاستعمارية، وحربة الاستعمار المسمومة اسرائيل، ويطالب حكومتي مصر وسورية، بالمبادرة سريعاً إلى تحقيق اتحاد فدرالي بينهما، على أن يكون مفتوحاً لكل دولة عربية تتوفر لها مقومات التحرر، ويقرر دعوة الشعب العربي ومنظماته وحكوماته، إلى تبني الدستور الاتحادي الذي أقره، واتخاذ الخطوات اللازمة لوضعه موضع التنفيذ».

ولقد زار وفد كبير من مجلس الأمة المصرية سورية في منتصف تشرين الثاني ١٩٥٧، تلبية لدعوة موجهة اليه، فكان أسبوع هذه الزيارة مهرجاناً قومياً رائعاً، كانت الوحدة العربية أهم انشاده، ودل على أن فكرتها قد أخذت ترسخ في الأعماق، وتصبح عقيدة عربية عامة.

ولقد توجت زيارة وفد مجلس الأمة المصري لسورية، بعملية عظيمة مباركة، في صدد الاتحاد بين مصر وسورية. إذ اجتمع اعضاء وفد مجلس مصر، مع أعضاء لجنة الشؤون الخارجية للمجلس السوري، ووضعوا هذا التقرير:

«استجابة لرغبة الشعب العربي في دنيا العرب، وتحقيقاً لمبادىء الدستورين المصري والسوري، بأن شعبهما إنما هو جزء من الأمة العربية.

ولما كانت وحدة الأقطار العربية أمنية الأمة الغالية، وكان العمل لتحقيق هذا الهدف السامي المقدس واجباً قومياً على كل عربي، وأمانة في عنق الشعب العربي، وكان الاستعمار يقف عقبة كأداء في سبيل تحقيق هذه الوحدة، ويعمل على ابقاء الأمة العربية مجزأة مشتتة الشمل، بما يحيك لها من مؤامرات، ويصطنع لها من أحداث ليمنعها من الاتحاد والتحرر،

ولما كانت مصر وسورية الشقيقتان، قد كافحتا الاستعمار، فانتزعتا استقلالهما، ووطدتا سيادتهما، وانتهجتا في سياستهما الخارجية نهجاً حيادياً مستقلاً، بين القوى المتصارعة، مستوحى من مصالحهما القومية، وأهدافهما المشتركة، وأمانيهما المتبادلة، فحققتا نصراً

حاسماً في مضمار التحرر، بفضل وعي ونضال الشعب العربي الواحد،

ولما كان تحقيق ما تم بين البلدين حتى اليوم، يعتبر بمثابة الحجر الأساسي في إقامة اتحاد عربي بينهما، سواء أكان ذلك في الميدان العسكري، حيث تحقق توحيد الجيشين، وأخذت القوات المصرية والسورية تعمل تحت قيادة موحدة، وأصبح اتحاد الجيشين المصري والسوري نواة الجيش العربي الموحد، أم كان ذلك في المضمار الثقافي الذي وضعت الدولتان أسسه المكينة المتينة،

وكانت المباحثات دائرة بين القطرين لوضع نظام اقتصادي موجه متكامل وموحد، وهي في طريقها إلى الاقرار، بعد استكمال وضع أسس هذه السياسة الاقتصادية، والعمل على تنفيذها،

وكانت الظروف الداخلية والأحداث الخارجية التي تعصف بالعالم العربي، تفرض عليه أن يحث الخطى لإقامة هذا الاتحاد، حفظاً لكيانه، وتوطيداً لاستقلاله، وتثبيتاً لحريته، وتعزيزاً لكرامته، وللمساهمة في انتزاع حرية وسيادة واستقلال الشعب العربي الذي ما زال يناضل المستعمرين ويكافح الغاصبين، وللنضال الدائب لإحباط مؤامرات الصهيونية العالمية التي ما زالت تكيد للشعب العربي، وتعمل على تفكيك أواصره، وبذر الخلافات بينه، وتؤلب عليه قوى العدوان الغاشمة، وبالنظر إلى أن هذا الاتحاد سوف يحمي القومية العربية، ويقيم جبهة عربية متينة في وجه الأطماع الاستعمارية،

«لهذه الأسباب مجتمعة، فإن أعضاء وفد مجلس الأمة المصري، وأعضاء لجنة الشؤون الخارجية، المجتمعين معاً في دمشق، بجلسة مشتركة بتاريخ ٢٣ ربيع الثاني ١٣٧٧ و١٧ تشرين الثاني ١٩٥٧، وبعد اطلاعهما على الخطوات والاتفاقات التي عقدت بين الطرفين، يقترحون الاقتراع على القرار التالي:

«إن نواب المجلسين المجتمعين، إذ يعلنون رغبة الشعب العربي في مصر وسورية بإقامة اتحاد فدرالي بين القطرين، يباركون الخطوات العملية التي اتخذتها الحكومتان السورية والمصرية، في سبيل تحقيق هذا الاتحاد،

ويدعون حكومتي مصر وسورية للدخول فوراً في مباحثات مشتركة، بغية استكمال أسباب تنفيذ هذا الاتحاد».

وقد تلي هذا القرار في الجلسة التي اشترك فيها أعضاء مجلس مصر، والتي انعقدت بعد ظهر الاثنين، تاريخ ٢٤ ربيع الثاني ١٣٧٧ - ١٨ تشرين الثاني ١٩٥٧، ووافق المجتمعون عليه بالاجماع.

وقد جاء رد الفعل من مصر عاجلاً ورائعاً، حيث أبرق رئيس مجلس الأمة المصري، إلى رئيس مجلس النواب السوري، يعلمه بأن مجلس الأمة المصري اجتمع مساء الاثنين نفسه،

وقرر الموافقة بالاجماع على القرار الذي أصدره مجلس النواب السوري، بالاشتراك مع اعضاء وفد مجلس الأمة المصري، بمباركة الخطوات العملية التي اتخذتها الحكومتان السورية والمصرية، في سبيل تحقيق الاتحاد بينهما، ويدعوة الحكومتين للدخول فوراً في مباحثات مشتركة، بغية استكمال أسباب تنفيذ هذا الاتحاد...

وقد كان لهذه العملية دوي استبشاري عظيم، في نفس الشعب العربي في جميع اجزاء الوطن العربي الكبير، رددته صحفها وهيئاتها ترديداً قوياً رائعاً...

وفي كل هذا مظاهر قوية واسعة المدى للشعور العربي العام بضرورة الوحدة، وتوكيد جدي وعلني لها كما هو المتبادر.

ومن الجدير بالذكر أن الذين تدفعهم أهواؤهم الاقليمية والطائفية والشخصية، أو قلوبهم المريضة أو المريبة، إلى إقامة العقبات في سبيل الوحدة، من حكام ورؤساء وأفراد، لا يجرأون على ذلك مجاهرة، وإنما يعمدون إلى النشاط وبذل المساعي سراً، بينما هم يندمجون في العلن في تأييدها، والاشادة بها والرغبة فيها، بل إن منهم من يكون أحياناً أقوى في الكلام عن ضرورتها ومصلحة العرب فيها، مما يعني أنه ليس من أحد من العرب، مهما كان شأنه، يجرأ على مناهضة هذا الطلب مباشرة، أو القول بعدم ضرورة تحقيقه، أو مناوأته علناً، باستثناء بعض جماعات ذوي نزعات منحرفة بقوة الطائفية والشعوبية والتلقين الأجنبي، لأنه غدا مطلباً عربياً عاماً، مستمداً من شدة الشعور بضرورته وقوة الإدراك لفائدته، وتوافر المقومات والبواعث عليه، في ذاتية الوطن العربي الكبير وسكانه.

خامساً
العقبات في طريق الوحدة

تمهيد

إذا كانت الوحدة لا تتحقق الآن للوطن العربي، برغم توافر جميع مقوماتها فيه، وبرغم ضرورتها من مختلف الاعتبارات، ثم برغم ادراك العرب لهذه الضرورة ادراكاً قوياً شاملاً عاماً، كما تقدم شرحه في الفصول السابقة، فإن مرد ذلك إلى عقبات عديدة خارجية وداخلية، تقوم في طريقها.

العقبات الخارجية

الاستعمار

لقد نكبت معظم أنحاء الوطن العربي بالاستعمار، فغدا من أهم العقبات في سبيل الوحدة العربية، فضلاً عن غدوه من أهم العقبات في سبيل نجاح أي نهضة عربية، وتقدم عربي، في مجال الحكم والقوة والسياسة والازدهار والتكامل. لأنه عرف منذ بيت لهذا الوطن نية الغدر والعدوان، أن لا نجاح له ولا بقاء، ولا مجال لاستثماره واحتكاره لموارد وكنوز وأسواق ومراكز بلاد العرب العظيمة، إلا ببقاء الأمة العربية والبلاد العربية ضعيفة واهنة، متخلفة في كل شيء، متفرقة الأجزاء متخاذلة متكايدة فيما بينها. ومن ثم فإنه حرص أشد الحرص على ابقائها كذلك، ما استطاع اليه سبيلاً. وله في هذا المجال في مختلف انحاء الوطن العربي، مشرقه ومغربه، تاريخ أسود طويل، يمتد إلى أكثر من مئة وخمسين سنة. وما حل في هذه الأنحاء من نكبات، وما كان من تعثر النهضة العربية الحديثة، وما قام بين أجزاء الوطن العربي من فرقة وحواجز، وبلبلة وتدابر وتقاطع وتناقض، هو في معظم أسبابه ومظاهره، من صنعه وغدره وبغيه ودسائسه ومكائده.

ودولتا فرنسا وانكلترا، هما صاحبتا معظم صفحات هذا التاريخ الأسود الطويل في الوطن

العربي . . وهما اللتان ترسمتا، وما تزالان تترسمان العدوان عليه واضعافه وتجزئته واستقلاله، وتعطيل أي حركة تهدف إلى جمع شمله، ووحدته والوقوف في وجه أي تقدم وازدهار له.

وقد قلنا ان فرنسا وانكلترا، هما صاحبتا معظم صفحات هذا التاريخ الأسود، لأن هناك شركاء لهما فيه ومضاعفات له تمثل في غيرها. فلاسبانيا جزء منه، وهناك الولايات المتحدة الأميركية التي أخذت تساهم في تسويد هذا التاريخ، كما أن هناك السرطان اليهودي الخبيث الذي هو من مضاعفات البلاء الانكليزي.

ولتركيا الحديثة سهم ما في هذا السجل أيضاً، على ما سوف نشرحه فيما يلي من المباحث.

العقبات الداخلية

١ ـ الاقليمية والاعتبارات الطائفية والشخصية والأسروية

لعل أشد العقبات الداخلية التي تقف في طريق الوحدة العربية وتعسّرها، هي هذه العقبة. بل لعلها اشد العقبات إطلاقاً، لأن العقبات الخارجية، إنما تنجح في التعويق بسببها، واستغلالاً لها على الأغلب.

ففي كل قطر من الأقطار العربية، فئات يتجاهلون ما يربط بلادهم بالبلاد العربية الأخرى من روابط كثيرة، تجعلها وطناً عربياً واحداً، ويتجاهلون ما يربط أهلها بأهل البلاد العربية من روابط قوية، تجعلهم أمة عربية واحدة، أو يسيئون فهمها وتأويلها، ويدعون إلى الانكماش في النطاق الأقليمي، وتفريغ الجهد لبلادهم خاصة، وعدم هدر قواها خارج هذا النطاق، ويضعون العقبات في سبيل مصالح أبناء البلاد الأخرى، بحجة حفظ مصالح أبناء وطنهم الخاص.

وبين بعض الأسر الحاكمة، ضغائن وثارات تجعلهم يتربصون ببعضهم، ويعارضون كل حركة يتوهمون فيها ازدياد قوة بعضهم على بعض، بحركة توحيدية ما.

وفي بعض الأقطار العربية طوائف دينية، تتوهم الخطر على كيانها من أي اتحاد أو وحدة، فتقف من ذلك موقف الانقباض أو المناوأة.

وفي كل دولة عربية عشرات من رجال السياسة الطامحين إلى الحكم ووجاهة السلطان، يرون في بقاء دولهم منفردة مجالاً لبروزهم، قد يضيق، إذا ما قام بينها وبين الدول العربية الأخرى اتحاد أو وحدة، فيضعون العقبات في طريقهما. ويقال مثل هذا بالنسبة للمستغلين من تجار واقطاعيين وأصحاب نشاط اقتصادي ومهني، حيث يرون في الانفراد مجالاً للنجاح، والاحتفاظ بنشاطهم واستغلالهم.

وهذا فضلاً عن الشعوبيين الذين اندمجوا في العروبة ظاهراً، وظلوا يبيتون لها العداء، وكفروا بخصائصها وأهدافها، وظلت اهواؤهم ونعراتهم تسوقهم إلى الوقوف في كل موقف

مناوىء لهذه الخصائص والأهداف؛ وفضلاً عمن هناك كذلك من موتى الضمائر، الذين فقدوا كل شعور بالشرف والعزة القومية، وباعوا نفوسهم للاستعمار، وترعرعوا في أحضانه، وصاروا صنائع مأجورين له، في تنفيذ ما يترسمه من خطط ويحيكه من مؤامرات ضد النهضة العربية وأهدافها التي تأتي الوحدة في رأسها.

وفي ما يلي صور عن هذه العقبة وآثارها في تعويق الوحدة، يبين منها شدة هذه العقبة.

الاقليمية في مصر

لقد كان قيام حكم استقلالي داخلي في مصر، في أوائل القرن السابق، ثم احتلال الانكليز لمصر في أواخره، مؤدياً إلى الانكماش والانعزال والانقطاع بين مصر وسائر البلاد العربية، قليلاً أو كثيراً. كما كان مؤدياً إلى انعزالها عن الحركة العربية الحديثة، حينما انبعثت بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ م في البلاد العربية التي كانت تحت سلطان الدولة العثمانية المباشر، وخاصة في بلاد الشام والعراق، وتجاهلها بعض الشيء.

وقد نتج عن هذا وذاك شعور بالكيان الاقليمي المصري والحياة والمصرية المحلية الخاصة، استغله الشعوبيون والانكليز وصنائعهم، في تقوية الانكماش والانعزال والاقليمية.

ولقد كان للعنصر التركي الذي تنتسب إليه الأسرة الحاكمة السابقة (العلوية)، وكثير من رجالات مصر الذين برزوا على مسرح الحكم والسياسة، أثر غير يسير في تقوية روح الانكماش والعزلة عن تلك الحركة، لأنها كانت تبدو لهم كحركة مناوئة للسلطان التركي.

ولقد تأثروا بدون ريب بالدعايات التي كان يبثها رجال الاتحاد والترقي الترك ضد هذه الحركة واندمجوا فيها، وبلغ هذا الأمر ذروته حينما أعلن الشريف حسين الثورة على الدولة العثمانية، في حزيران سنة ١٩١٦، حيث نشط رجال هذه الدولة لبث الدعايات الواسعة في آفاق البلاد العربية والإسلامية ضد الحسين، وضد رجال الجمعيات العربية الذين التفوا حوله، واندمجوا في حركته، ووصفتهم بالخيانة لدولة الخلافة، والتآمر على الاسلام والمسلمين، والتحالف مع أعدائهم، واستصدار الفتاوى المتنوعة في حقهم الخ. وحيث تجاوب معهم رجال الحكم في مصر الذين كان ينتسب أكثرهم أو كثير منهم إلى العنصر التركي في هذا النشاط، وأخذوا بدورهم يبثونه في مختلف الأوساط المصرية، ويثيرون على الشريف حسين والحركة العربية ورجالها حرباً دعائية شديدة، ويقوون في هذه الأوساط نزعة السخط من جهة، ونزعة الانعزال عن الحركة العربية من جهة، ونزعة الكيان المحلي من جهة.

ولقد ادرك الانكليز أن من شأن سريان التيار القومي العربي الحديث إلى مصر، أن تقوى الروابط بينها وبين سائر البلاد العربية، وخاصة بلاد الشام والعراق التي كانت منبع هذا التيار، وأن يشتد بالتالي التواثق والتضامن ضدهم، فاندمجوا مع الفئات الحاكمة التركية في الدعاية ضد الحركة العربية الحديثة وأهدافها.

ولقد كان من آثار ذلك، تلك الدعوة التي عرفت بالدعوة الفرعونية باسم البحث العلمي والتاريخي والقومي، والتي اندمج فيها فريق من ذوي النوايا الحسنة، والتي رمت في الحقيقة إلى صرف نظر المصريين عن الفكرة العربية القومية، حينما أخذ تيارها يشتد في السنين التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، وارجاعه إلى الوراء البعيد، ومحاولة بث كون المصريين لا يمتون إلى العرب والعروبة، وإنما إلى الفراعنة أصحاب المجد والعظمة والحضارة والعمران الزاهر الذي كان أساس مدنيات العالم، وكون العرب ليسوا إلا غزاة طارئين، شأنهم شأن الفرس واليونان والرومان الذين غزوا مصر. وإن كل ما هنالك من فرق، هو أنهم استطاعوا أن يورثوا المصريين لغتهم ودينهم، متجاهلين أو منحرفين أو غافلين، عن الحقائق التاريخية الكبرى التي تقرر صلة المصريين القدماء بجزيرة العرب والجنس العربي، واستمرار هذه الصلة منذ الاسلام إلى الآن، مما شرحناه في بحث الوحدة الجنسية.

ولقد غذيت هذه الدعوة، وعضدت على ما فيها من زيف ووهن أساس ومنطق بمختلف الوسائل، واستطاع القائمون بها أن يلفتوا إليهم الأنظار، وأن يثيروا حول دعوتهم الجدل والكلام، على أمل أن يجعلوا منها قضية لها مكان في مجال القضايا القومية، أو على الأقل أن يوجدوا في نفوس الناس بصددها من الريب والشكوك، ما يشوش على تيار الفكرة العربية، ويصدم تدفقه.

ولقد ردفوا دعوتهم بدعوة أخرى، إلى اصطناع اللغة المصرية الدارجة في التعليم والأدب والصحافة والتمثيل والتأليف والصكوك والرسائل الحكومية، بحجة سهولة نشر الثقافة، وايجاد أدب مصري خاص، ولغة مصرية خاصة، وثقافة مصرية خاصة الخ، مستهدفين النأي شيئاً بعد شيء عن ضوابط اللغة العربية الفصحى، إلى أن يصبح لمصر لغة أو لهجة بعيدة قليلاً أو كثيراً عنها، فيزداد الانعزال والانكماش عن العرب والعروبة قوة وشدة.

ولقد نجحوا في هذا كله نجاحاً غير يسير في السنوات العشر التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، فظلت مصر في معزل عن الفكرة العربية وقضايا البلاد العربية، وظل رجالها الرسميون، بل وزعماؤها الشعبيون كذلك في معزل، حتى بلغ من أمرهم أن يظنوا أن النزاع القائم بين العرب واليهود في فلسطين نزاع ديني طائفي، وأن يقولوا لبعض دعاة القضية الفلسطينية، انه يحسن بهم أن يحلوا مشكلة نزاعهم هذا على النمط الذي حل به المصريون مشكلة المسلمين والأقباط، فانقلبوا بنعمة الله اخواناً في ميدان السياسة والحركة الوطنية، وأن يتجهموا لنشر نداءات فلسطين ودعاياتها في مصر في أيام محنتها الأولى، وأن تحول سلطاتهم دون ذلك في ظروف ثورة البراق عام ١٩٢٩؛ بل بلغ من أمر عزلتهم أن كان كثير من رجالهم وسياسييهم ومتنوريهم وصحافييهم، لا يفرقون، أو لا يريدون أن يفرقوا، بين مدلول الشعوب الشرقية والإسلامية والعربية، وأن يخلطوا بينها عن عمد أو غفلة، وحتى بلغ من تخوفهم من التورط في مشاكل البلاد العربية وقضاياها، أن يشبه بعض زعمائهم البارزين هذه القضايا بالميت، ليس من وراء حمله إلا التعب والتبعات.

وهكذا قام في أذهان فئات مصرية كثيرة فكرة اقليمية انعزالية بالنسبة للعروبة، والاندماج التام فيها، ثم بالنسبة لمصالح مصر الخاصة، وعدم جواز التساهل فيها، في سبيل مصالح العروبة العامة.

ومع أنه حصل تطور كبير في مصر لجانب العروبة العامة، وانخسأت الدعوات الاستعمارية والتبشيرية والشعوبية، وتبين الناس شدة صلة مصر بالعروبة منذ القديم، على ما سوف نشرحه في فصل آخر، فإن آثار هذه الدعوات ما تزال قائمة تبرز من وقت لآخر، وتبعث الخوف من أنها قد تكون من عقبات الوحدة العربية.

ولقد ظهرت هذه الآثار قوية في سنة ١٩٤٨، في أثناء الحرب الفلسطينية، وحركات النقب التي اشتبك فيها المصريون مع اليهود، ووقف الجيشان العراقي والأردني إزاءها موقفاً جامداً، حيث ثارت حملة شديدة ضد العرب والعروبة وقضيتها وأهلها، استهدفت الضغط على الحكومة المصرية لنفض يدها من كل ذلك، واثارة الرأي العام المصري عليه. ومع أن اليهود وأعداء العروبة، من استعماريين وشعوبيين، قد استغلوا الموقف وزادوا في لهيبه، وغذّوا هذه الحملة باساليبهم الماكرة، فإنها ما كانت لتثور، لو لم يكن هناك فئات مصرية كثيرة وواسعة النطاق، تنحو منحى الاقليمية الانعزالية، بالنسبة للعروبة، والاندماج فيها.

ولقد اندمج في هذه الحملة مختلف الأوساط المصرية الحكومية والشعبية، وكثير من الواعين المخلصين من صحفيين وشخصيات وهيئات لا يخطر بالبال أن يندمجوا فيها، بتأثير قوة الحملة وظروفها. واضطر القوميون إلى السكوت والتواري خجلاً وحزناً وأسى وعدم حيلة، أمام التيار الجارف المتميز سخطاً وغضباً وحقداً، والذي لم يستطع أحد أن يهتف خلاله بصوت عال، أنه ليس للعرب والعروبة وفلسطين وقضيتها ذنب في الموقف الأليم، وأن الشعب العربي في كل مكان، وفي الأردن والعراق خاصة، ساخط أشد السخط؛ ومضطرب أشد الاضطراب مثل مصر، وأن مصر ليست عابرة سبيل في العرب والعروبة، ولا ملصقة بها، أو رقعة فيها، حتى تمنّ بما قدمته وأنفقته عليها، ثم تثور ثورتها الشديدة تحاول التنصل منها، وإنما هي أصيلة فيها، بل وان العروبة فيها لأكثر صفاء، وأقل عناصر كدر، وتعكير منها من غيرها، وانها ليست بريئة مما يمكن أن يكون في العرب من شوائب وعيوب حاضرة أو غابرة، وانه ليس من شأن أمة، ولا في وسعها، أن تنسلخ من ذاتها، بسبب ما يمكن أن يكون فيها من عيوب، هي الآن بنت الزمن المديد، والجهل والغفلة وفقدان الشعور بالذاتية، وتسلط المستعمرين وأساليبهم المفسدة للخلق والروح، وأن ربح مصر بقطع النظر عن اصالة العروبة فيها من الاندماج في العروبة، لا يقل عن ربح الأقطار العربية الأخرى مادياً وأدبياً، إن لم يزد، بنسبة تفوق مصر بالكثافة والمركز.

ولقد قررت الحكومات المصرية والسعودية والسورية في شهر مارس ١٩٥٥ اقامة منظمة دفاعية سياسية اقتصادية بينها، كجبهة متحررة مناوئة للاحلاف الأجنبية، أمام جبهة حلف بغداد الذي أشرنا إليه في مناسبات سابقة، واحباطاً للمقاصد المغايرة للمصلحة القومية العربية التي

تنطوي فيه. وكان المنهج أن يكون نطاق هذه المنظمة واسعاً يقرب من الاتحاد الفدرالي في الشؤون الدفاعية والسياسية والاقتصادية. وجرت مفاوضات في سبيل وضع الخطط التفصيلية، ثم تعثرت وتوقفت. وقد عرف أن المسائل الاقتصادية خاصة، كانت العقبة، وأن الاقليميين الارقاميين في مصر، خوفوا أولياء الأمر فيها بذريعة المحافظة على المصالح الاقتصادية المصرية، وعدم التورط في تحميل اقتصاد مصر أعباء قد تؤثر في نشاطه وانطلاقه تأثيراً سلبياً.

ولقد قررت الحكومة السورية، في ٥ تموز عام ١٩٥٦، وأيدها المجلس النيابي السوري، مفاوضة الحكومة المصرية في اقامة اتحاد فدرالي يشمل الشؤون السياسية والاقتصادية والدفاعية، ويكون مفتوحاً أمام الدول العربية الأخرى المستوفية للشروط. ومع أن الرئيس جمال عبد الناصر رحب بالقرار، وأبدى استعداد مصر، فإن الموقف ظل جامداً دون حركة جدية. وقد عرف أيضاً أن المسائل الاقتصادية، كانت العقبة بتأثير الارقاميين والاقليميين في مصر. ولقد تجدد الكلام في صدد هذا القرار بمناسبة افتتاح مجلس الأمة المصري، في تموز عام ١٩٥٧، حيث اشار الرئيس جمال إليه وترحيب مصر به. ولكن المراقبين لا يزالون يخشون أن يضع الاقليميون والارقاميون العقبات التي تعوّق الخطوة الجدية الحاسمة إلى تحقيق الهدف.

وإنه لمن المؤلم العجيب، أن يغفل هؤلاء، وهم لا ينقصهم الذكاء والألمعية، عما في اتحاد مصر مع البلاد العربية من مصلحة مصرية وعربية عليا، تتسامى عن الأرقام والاعتبارات الاقليمية الضيقة التي ينطوون في نطاقها، وعن أن الاتحاد أو الوحدة بين مصر والبلاد العربيه شرقاً وغرباً وشمالاً، كانت منذ الأزمنة، وإلى ما قبل حقبة قصيرة من الزمن، سياسة تقليدية لمصر، تسعى في سبيل تحقيقها بمختلف الأساليب مختلف حكوماتها قديماً وحديثاً، ويعود عليها منها الفوائد العظمى السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهذا بقطع النظر عمّا في تفكيرهم من أخطاء موضوعية، لأن فوائد الاتحاد الاقتصادية، فضلاً عن السياسية والدفاعية لمصر، لا تقل عن فوائده لغير مصر، ولا سيما بأن المجال الاستثماري الزراعي متسع في غير مصر كسورية والعراق مثلاً اتساعاً كبيراً، يمكن أن يعود في نطاق الاتحاد باعظم الفوائد على المصريين الذي يضيق هذا المجال في أرضهم كثيراً. ومرد ذلك فيما هو المتبادر إلى شدة رسوخ الروح الاقليمية الضيقة(٤٩).

الاقليمية والطائفية في لبنان

ولقد كان وجود طائفة نصرانية مارونية كبيرة في لبنان، لها تقاليد تاريخية ودينية ترجع إلى آماد بعيدة، ثم وجود طائفة كاثوليكية غير مارونية كبيرة العدد، متسقة معها في عقيدة الكثلكة، عاملاً في قيام عقبة تصح أن تسلك في سلك العقبات الاقليمية، مع امتزاجها بالطائفية، في سبيل الوحدة العربية.

ولقد كانت مطامع فرنسا في بلاد الشام، مما جعل هذه العقبة أقوى وأشد. فإن هذه الدولة أخذت تدور وتلف حول هذه البلاد منذ القرن السابع عشر، وتعتبر نفسها حامية للكثلكة فيها.

وقد حصلت من الدولة العثمانية على منح تجارية وملاحية وثقافية في هذا القرن، والقرن الذي تلاه، انقلبت مع الزمن إلى امتيازات ملزمة، واضطرت الدولة العثمانية في عهود ضعفها الأخيرة، إلى الرضوخ لاعتباراتها. وادى هذا إلى التسليم ضمناً وصراحة، من قبل الدولة العثمانية، والدول الأوروبية، بدعوى فرنسا كونها حامية للكثلكة في بلاد الشرق العربي، وخاصة في بلاد الشام، التي يتكاثف فيها أهل المذاهب الكاثوليكية، أكثر من غيرها.

ولقد أخذت فرنسا ترسل البعثات المتنوعة إلى هذه البلاد، فتنشىء المعاهد والمدارس في ظل تلك الامتيازات فيها. وكان لبنان موضوع عناية واسعة من هذه الناحية، لأن النصارى الكاثوليك فيه ـ الذين يعد الموارنة منهم ـ هم أكبر الكتل الكاثوليكية في الشرق العربي.

ولقد أقبل نصارى لبنان، وخاصة موارنته وكاثوليكه، الذين تجمعهم الكثلكة مع فرنسا، على هذه المعاهد والمدارس، وصاروا يتعلمون فيها تاريخ فرنسا ولغتها، ويتشربون محبتها، ويتلقون فيها أنهم ليسوا من العروبة في شيء، وأن العروبة بعبع اسلامي وبداوة متوحشة، وأن العرب ليسوا إلا غزاة طارئين كسائر الغزاة، وأن الفينيقية هي الأصل الذي يجب أن ينتسب إليها اللبنانيون ويتمسكوا بها، وأن الفكرة العربية القومية ليست الا ستاراً يخفي وراءه السيطرة الاسلامية، وأن الديانة الإسلامية ليست ديانة وطنية، وإنما هي دخيلة، وأن الديانة الوطنية هي المسيحية لأنها نشأت في الشام، وأن الفكرة العربية لا تقوم على أساس علمي، لأن سكان بلاد الشام، وان تكلموا العربية، هم مزيج من عناصر ودماء متنوعة، وإنها إلى هذا فكرة رجعية وغير إنسانية حيث تستمد من العصور المظلمة المتوحشة، وترتكز على الأنانية والاثرة الخ: فكان لهذه التلقينات المستمرة على ما فيها من زيف ومناقضة للحقائق التاريخية والعلمية والواقعية، من كون صلة لبنان الوثقى بالعروبة قائمة منذ أقدم الأزمنة إلى الآن وأصيلة فيه، ومن كون الفينيقيين والكنعانيين والآراميين الذين يمت إليهم سكان لبنان القدماء، هم من الجنس العربي يقيناً، ومن كون أكثر من نصف سكان لبنان اليوم يمتون إلى العروبة الصريحة قبل الإسلام وبعده آثار ايجابية في جمهرة الموارنة والكاثوليك الذين نشأت اجيال عديدة منهم تتلقاها في المدارس والمعاهد الافرنسية، جعلت هذه الجمهرة وزعماءها الدينيين والسياسيين يتجهمون للفكرة العربية القومية، حينما قوي تيارها بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨، ثم بعد الحرب العالمية الأولى، ويعلنون رغباتهم في أن يكون لبنان منعزلاً عنها، متمتعاً بحياة خاصة تحت حماية فرنسا، ويبذلون جهوداً مختلفة في سبيل تحقيق رغبتهم، ويقفون المواقف المتسقة مع ذلك في كل مناسبة.

ولقد حاول فيصل بن الحسين، حينما انهارت الجهة التركية في فلسطين، ودخل على رأس حملته بلاد الشام، في أواخر عام ١٩١٨، وأقام حكومة عربية فيها، أن يشمل لبنان بالسلطان العربي، فأرسل شكري الأيوبي حاكماً، فاستلم الحكم، ورفع الاعلام العربية، فقابلت جمهرة النصارى، ولا سيما جمهرة الموارنة والكاثوليك هذه الحركة بالجمود، بل بالامتعاض الشديد، والشعور بالخيبة الكبيرة، ولم يهدأ روعهم، إلا حينما رأوا الافرنسيين يسارعون إلى احتلال لبنان، ويضطرون عامل فيصل إلى طي أعلامه، والانسحاب منه.

ولقد أخذ الافرنسيون الذين استقبلوا بالاغتباط والابتهاج من جمهرة الكاثوليك والموارنة وزعمائهم الدينيين والسياسيين، يعملون بمختلف الأساليب على توطيد أقدامهم، وتحقيق منهجهم الاستعماري الذي كان في مقدمته الحيلولة بين لبنان وعلى الأقل بين نصاراه وبين تيار الحركة العربية، وجعله منكمشاً في نطاقه الاقليمي الخاص، ليكون لهم موطىء قدم ثابت ومستقر.

وتجاوب جمهرة النصارى، وبنوع خاص جمهرة الموارنة والكاثوليك معهم باكراً، لأن بذور هذا المنهج قد غرست فيهم منذ عشرات السنين. وكان من آثار هذا التجاوب رحلة البطريرك الماروني إلى باريس عام ١٩١٩، لتوثيق الصلات من جديد بين فرنسا والموارنة، والالحاح على فرنسا بالثبات على موقف الحامي لهم، ولكيان اقليمي خاص بلبنان تحت اشرافهم، منعزل عن البلاد العربية الأخرى، وعن الفكرة العربية معاً. وأسفرت الرحلة عن تعاطي الرسائل بين البطريرك وكلمنصو، في توكيد أهداف الرحلة والتطابق فيها، ثم رحلة وفد آخر يرئسه داود عمون، أحد زعماء الموارنة إلى باريس سنة ١٩١٩، لمعارضة مطاليب فيصل في مؤتمر الصلح، التي كانت تشمل جميع بلاد الشام، وللمطالبة بكيان اقليمي خاص بلبنان بإشراف فرنسا ومساعدتها، ثم الاحتجاجات التي كان يرسلها البطريرك الماروني من آن لآخر، على ما كان يتقرر في دمشق من قرارات في عهد الحكم الفيصلي ١٩١٨ - ١٩٢٠، هادفة إلى استقلال بلاد الشام، ووحدتها بما فيها لبنان. وكان من آثارها كذلك، أن صار فريق من زعماء الموارنة الدينيين والسياسيين يصرحون في مختلف المناسبات، أن لبنان ليس عربياً، وأن ثقافته غربية افرنسية، وأن من الواجب بقاءه منعزلاً عن كل حركة ووحدة عربية، منطوياً في كيانه الاقليمي الخاص.

ولما تمت المساومة بين بريطانيا وفرنسا، واطلقت الأولى يد الثانية في سورية، زحف غورو إلى دمشق، فنسف حكومة الأمير فيصل في ٢٤ تموز ١٩٢٠، واقام حكماً انتدابياً فيها، فكان لهذا العمل أثر شديد على نشاط انصار العروبة في لبنان، رغم أنهم كانوا يعدلون نصف سكانه، استغلته السلطات الافرنسية استغلالاً واسعاً، حيث ضاعفت جهودها ونشاطها في منع أي حركة قومية، والحيلولة دون أي دعوة عربية، ونشرت رقابة شديدة على الصحف، ومنعت تشكيل أي حزب وعقد أي اجتماع، واصلتت سيف الارهاب، فاستولى على القوميين العرب، وعلى الطوائف الإسلامية، التي كانت قوية الشعور بعروبتها، قوية الاندماج في الحركة العربية، شيء من الخوف والانكماش عن هذه الحركة، كان من عوامل تقوية النزعة الاقليمية الانعزالية في لبنان.

ولقد كان مما عمدت إليه السلطات والدعايات الافرنسية، أن أخذت تبث في الشيعة والدروز في جبل عامل ولبنان وبعلبك دعايات متنوعة أيضاً، من حيث كون الفكرة العربية هي فكرة المسلمين السنيين، ونجاحها يعني نجاح السنيين واستعلاءهم، فإذا ما اندمجوا فيها ضاعت مميزاتهم وبلعتهم الأكثرية السنيّة، ووقعوا تحت سيطرتها واحتقارها، كما كانوا في

السابق، في حين أنهم اذا ظلوا في نجوة منها، احتفظوا بشخصيتهم وتقاليدهم، وحافظوا على مصالحهم، وتمتعوا بما تتمتع به الطوائف الأخرى ذات الكيان المتميز في الوظائف والمناصب والمراسم والوجاهة، ومختلف شؤون البلاد العامة والخاصة.

ثم أخذت تستغل طائفية سكان لبنان، وتحرص على تدعيمها، لما تعرف من التنافس والتناظر بينها، منذ أمد بعيد. فجعلت وظائف الحكومة ومراسمها، واعتبارات الحياة العامة، من مختلف مناحيها، قائمة عليها. وكان هذا من أشد الأعمال الافرنسية نكاية وبعد مدى في حياة لبنان، حتى شغل الحيز الأكبر في النفوس، لأن فيه ارضاء شهوات الافراد البارزين، الذين يملأون عادة ميدان الحركة والحياة العامة ومطامعهم، واندمج في هذا المسلمون السنيون والشيعيّون والدروز الذين هم أنصار الفكرة العربية وأهدافها، وخاصة طلاب الوظائف والوجاهات منهم، وصار قصارى همهم الدفاع عن حقوق طوائفهم، وكفالة مصالحهم ومنافعهم وكرامتهم في نطاقها الضيق، ومنهم من اندمج في فكرة كيان اقليمي لبناني مستقل والتمسك بها، والدفاع عنها، فالتقوا في هذا المجال مع جمهرة النصارى، قليلاً أو كثيراً.

ومما فعله الافرنسيون أن جعلوا رئاسة الدولة في لبنان من نصيب الطائفة المارونية، على اعتبار أنها أكثر الطوائف عدداً، حينما تحسب كل طائفة وحدة خاصة. فادى هذا إلى صبغ لبنان بالصبغة المارونية، وجعل الاقليمية الطائفية ثابتة الأساس، لأن الموارنة الذين هم أشد الطوائف حرصاً على قيام كيان اقليمي لبناني خاص، صاروا أشد حرصاً على ذلك من ذي قبل، لأن الدولة اتسمت بطابعهم.

ومع أنه حصل تطور غير يسير لصالح العروبة في لبنان، بسبب ما كان من الافرنسيين من سوء تصرف ورعونة وتصلف، وخاصة حينما اصطدموا مع العهد الوطني الذي قام سنة ١٩٤٣، برئاسة بشاره الخوري، ووزارة رياض الصلح، لاقدام هذا العهد على نسف آثار الانتداب في الدستور اللبناني والراية اللبنانية، حيث أقدم الافرنسيون على اعتقال رئيس الجمهورية والوزارة، وآخرين من الوزراء والنواب، وحيث انفجر الهياج والثورة بصورة شاملة ضد الافرنسيين، اندمج فيها جمهور اللبنانيين من نصارى ومسلمين، بما فيهم الموارنة، وحيث بادرت الدول العربية والشعوب العربية إلى تأييد لبنان وتعضيده، وأدى هذا إلى ولادة لبنان ولادة جديدة، ظهر بها بوجهه العربي الوضاح، وصار يجري بقوتها في مجرى العروبة بصورة رسمية، واندمج في جامعة الدول العربية، ومختلف القضايا العربية كقطر عربي. غير أن جمهرة النصارى، وخاصة المارونية والكاثوليكية، ما يزالون تحت تأثير التلقينات الاقليمية الضيقة المتجهمة للعرب والعروبة، ولأي وحدة ضيقة أو واسعة بين لبنان وأي بلد عربي، مما تظهر آثاره من حين لآخر، وفي مختلف المناسبات، على ألسنة بعض رجال الموارنة والكاثوليك الدينيين والسياسيين، حتى لقد يصل الأمر أحياناً إلى الخروج عن كل منطق، والاساءة لأهل لبنان خاصة، وإلى العرب عامة.

وفي كل هذا ينطوي عقبة شديدة، كما هو واضح في طريق قيام اتحاد عربي شامل، يجب

أن يكون لبنان في ضمنه، لأنه غير منفصل عن بلاد العرب والعروبة وتاريخهما منذ أقدم الأزمنة إلى الآن. ولعل العقبة الطائفية الاقليمية اللبنانية من أشد العقبات في سبيل الوحدة العربية، أو على الأقل في سبيل انضمام لبنان العربي إليها، حتى انه ليخيل للمراقب احياناً أن كثيراً من الموارنة والكاثوليك، أو أن كثيراً من زعمائهم الدينيين والسياسيين، الذين هم أصحاب الكلمة والنفوذ فيهم، يفضلون أن يعود لبنان إلى النفوذ الأجنبي، على أن يقوم بينه وبين أي بلد عربي آخر أي وحدة.

وفي كل حركة أو دعوة في سبيل الوحدة، تنبري أكثر الصحف الانعزالية التي تصدر بالعربية والافرنسية في بيروت إلى مناوأتها، وبث الدعاية ضدها، وتحذير بعض الطوائف اللبنانيةمنها، حتى ولو لم يكن لبنان ذا صلة بها، متذرعة بالظاهر بذرائع ومقاييس ومفاهيم وحجج زائفة عجيبة، مملوءة بالمفارقات والمكابرات والتناقض مع حقائق العلم والتاريخ، والواقع الشامل لمختلف بقاع الأرض(٥٠)، ومتأثرة في الحقيقة بالروح الاقليمية والطائفية الشديدة؛ حيث تفترض، على ما هو المتبادر، أن الوحدة العربية، إذا قامت واتسعت، فإنه لا مناص للبنان منها، وهو العربي الوجه والأصل واللسان.

ولقد وقفت حكومة لبنان بزعامة كميل شمعون رئيس الجمهورية الذي كان المؤثر الأقوى في سياسة الدولة، حينما انعقد حلف بغداد، في ربيع عام ١٩٥٥، وقامت على اثره الجبهة العربية المتحررة، المؤلفة من مصر وسورية والسعودية، على ما ذكرناه في مناسبة سابقة، موقفاً عجيباً بذريعة الرغبة في الوساطة والتهدئة، والتقريب بين الجبهتين العربيتين، أي حكام العراق من ناحية، وسورية ومصر والسعودية من ناحية، وكان موقفهم في حقيقته منطوياً على الضلوع مع الحلف وجبهته، والتجهم لدول الجبهة العربية المتحررة المؤلفة من مصر وسورية والسعودية والتي وقفت موقفاً شديد ضد الحلف ومقاصده وصمدت ازاء حملة التهويش والضغط والكيد والمؤامرات التي أثيرت وحبكت ضدها من دوائر الحلف والولايات المتحدة الأميركية التي تقف من ورائها وبخاصة ضد مصر وسورية حتى لقد كان لبنان وكراً للمؤامرات التي كانت تحاك ضد هذين البلدين في سنتي ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨ وكان هذان البلدان عرضة لحملة تسوئية وتشهيرية وكيدية شديدة من قبل صحف عديدة معروف علاقتها بالاستعمار ودوائره ومعروف شدة تعصب أصحابها واقليميتهم وطائفيتهم. وكانت البوادر تدل بكل قوة على أن كميل شمعون وحكومته كانوا مشجعين على ذلك كله بتأثير الاقليمية والطائفية والاندماج مع الفكر الغربي الذي كان يقف من حركة القومية العربية موقف المناوىء الماكر.

ولما أعلن ايزنهاور مشروعه، سارع حكام لبنان إلى الترحيب به، والاندماج فيه، وساهموا إلى درجة مثيرة في ترديد الذريعة التافهة التي تذرع بها ايزنهاور وتثبيتها بتصريحاتهم، وبلسان الصحف التي تعبر عن آرائهم. ولم يتورعوا في كل مناسبة عن غمز سورية ومصر، وشجب سياسة الحياد الايجابي الذي سارتا في طريقه.

ومرد هذا الموقف وذاك، في اعتقاد كثير من المراقبين، هو الروح الاقليمية الطائفية التي

يستمليها بعض رجالات لبنان. وقد رأوا، على ما يبدو، أن من شأن هذا الموقف، أن يديم التعقيد والبلبلة والتفتت في دنيا العرب، فيكون في ذلك تعويق لأي حركة اتحادية.

وتعمل هذه العقدة عملها الأليم، فيما يقوم منذ بضع سنين بين سورية ولبنان من صلات اقتصادية، وقد يكون من المناسب شرح هذه المسألة، لأن في الشرح توكيداً لشدة العقبة وقوتها.

فقد كانت سورية ولبنان في نطاق وحدة اقتصادية تامة في عهد الانتداب الافرنسي الذي استمر إلى سنة ١٩٤٦، وكان جمهرة الموارنة والكاثوليك راضين بذلك، لأن زمام هذه الوحدة ادارياً وتشريعياً ومالياً، في يد ممثلي هذا الانتداب. فلما جلت فرنسا، ولم يعد هنالك ضابط مشترك يبعد عنهم ما يتوهمونه من خطر الاتحاد الاقتصادي، انقلب الأمر، وصاروا ضد هذه الوحدة على طول الخط.

ولقد كان عهد الانتداب يجنح إلى سياسة الباب المفتوح، ولا يهتم لحماية صناعات البلاد وغلّاتها. وكانت هذه السياسة ستضر باقتصاديات البلدين ضرراً فادحاً، وكانت سورية أشد تضرراً، فأخذ السوريون يفكرون في وضع تشريعات لتحديد الاستيراد، وحماية صناعاتهم وغلاتهم، ولكن لبنان، أو بتعبير أصح بيروت التي يتكاثف فيها نصف لبنان، لم تتجاوب مع سوريا، وفضلت أن تظل الحال على ما هي عليه، ولا سيما أنها كانت في ظل الانتداب الفرنسي، بل وقبله، ماسكة بزمام التجارة الخارجية لبلاد الشام، وكان وكلاء معظم الشركات الأجنبية والتجارية والصناعية فيها، وكانت مركز الاستيراد والتصدير، وذات مرفأ بحري كبير صالح، وكانت سورية عالة عليها في كل ذلك، فقام تشادّ وتجاذب بين البلدين لهذا السبب.

غير أن ما كان بين رجال الحكم في سورية ولبنان في سنتي ١٩٤٣ ـ ١٩٤٩ من صداقة وزمالة قومية حيث كان رياض الصلح رئيس وزارة لبنان والشيخ بشارة الخوري رئيس جمهوريته وشكري القوتلي رئيس الجمهورية في سورية وجميل مردم رئيس وزارتها كان يخفف هذا التشاد والتجاذب. فلما حدث انقلاب حسني الزعيم في سورية في مارس ١٩٤٩ واقصى شكري القوتلي عن الحكم اشتد التجاذب والتشاد ولم ترد سورية أن تبقى تحت رحمة السياسة الاقتصادية اللبنانية على الباب المفتوح مع عدم وجود حواجز جمركية تحميها فعرضت على لبنان في آذار سنة ١٩٥٠ قيام وحدة اقتصادية شاملة يكون فيها النقد والجمرك والتشريع والاقتصاد موحداً، ويكون أساس التشريع مصلحة البلدين، ويحدد الاستيراد في نطاق ذلك. فرفض لبنان العرض. كان رياض الصلح رئيس وزارة. وكان من الناقمين على حكومة الانقلاب السوري وكان الرفض من قبله حيث برر ذلك بقوله أمام مجلس النواب (إن التنسيق الاقتصّادي والوحدة الاقتصادية شيء آخر ولبنان يرفض اقتراح الوحدة الاقتصادية الشاملة لأن ذلك يعود عليه بالوبال دون أن ينفع السوريين) والذي نرجحه أنه كان للعناصر التي تتخوف دائماً من أي وحدة واتحاد أثر في هذا الموقف.

وحينئذ أعلنت سورية استقلالها الاقتصادي التام عن لبنان، نقداً وجمركاً وتشريعاً،

وأنشأت على حدودها اللبنانية مراكز للجمارك، وأخذت تشدد الخناق على التهريب، كما جعلت السفر بين لبنان وسورية مقيداً، وأصدرت قانوناً نص على أن يكون وكلاء الشركات ومديروها في سورية من السوريين، وصارت البضائع المخزونة في بيروت خاضعة لجمرك جديد، إذا صدرت إلى سورية، فانسدت السوق السورية أمام لبنان، وكانت معوله الأقوى، وصارت سورية تنشط في الاستقلال عن لبنان، والاتصال المباشر بالشركات والمصانع الخارجية، وأخذت الحكومة السورية تشجع ميناء اللاذقية ليكون بديلاً من بيروت، وأصلحتها، وأخذت تهيئها لتكون كافية للحاجة، وهكذا قام بين سورية ولبنان ما عرف بالقطيعة التي تضرر منها البلدان ضرراً كبيراً، مادياً ومعنوياً، وبرزت فيها معالم الاقليمية على أشد صورها.

ولقد كان ضرر لبنان أشد وأبلغ، لأنه كما قلنا كان قابضاً على زمام التجارة الخارجية، وكانت سورية عالة عليه فيها. هذا فضلاً عما عاد على مصايفه وفواكهه وأسواقه من كساد عظيم، لأن سورية كانت معوله الكبير في كل ذلك. ولم يلبث أن أخذ يشعر بشدة الوطأة، وأن أخذت الأصوات ترتفع بالتذمر والحسرات. وأخذت الأوساط اللبنانية الاقتصادية تحبذ الوحدة الاقتصادية الشاملة، تخلصاً من أضرار القطيعة وشدة وطأتها، واندمج في هذا التحبيذ بيروت مركز ثقل لبنان، بالاضافة إلى عامة الغرف التجارية والزراعية والصناعية، وتجاوبت مع هذا الحكومة اللبنانية، وجرت اتصالات بينها، وبين الحكومة السورية، فقدمت هذه مشروع وحدة اقتصادية شاملة ينص على :

١ ـ جعل البلدين منطقة جمركية واحدة، تخضع لادارة موحدة.

٢ ـ توحيد التعرفة والتشريع والأنظمة والإدارة المطبقة في كل منهما.

٣ ـ تنسيق سياسة الاستيراد والتصدير، وتوحيد الأنظمة المتعلقة بها.

٤ ـ عقد الاتفاقات التجارية، واتفاقات المدفوعات مع البلدان الأخرى بصورة مشتركة ونصوص متماثلة.

٥ ـ تنسيق السياسة المتعلقة بالتجارة الداخلية والصناعية، وتوحيد التشريع الاقتصادي بشكل يكفل لارباب التجارة والصناعة والمهن في البلدين شروطاً متكافئة، وتوحيد تشريع العمل، فيما يتعلق بالأعباء الاجتماعية التي تؤثر في تكاليف الانتاج.

٦ ـ توحيد تشريع الضرائب، والرسوم الحكومية والبلدية، المتعلقة بالصناعة والتجارة والعقارات وتوظيف رؤوس الأموال.

٧ ـ تنسيق السياسة المالية والنقدية، وتوحيد أنظمة النقد والقطع والمصارف.

وينص كذلك على قيام مجلس اقتصادي مشترك، للاشراف على شؤون هذه الوحدة، ويحدد كيفية تأليفه وصلاحياته وجلساته وقراراته، واللجان والإدرات المشتركة التي تباشر التنفيذ الخ . . .

وحينئذ انبرت الصحافة الانعزالية إلى محاربة المشروع، واندمج في هذه الحرب كثير من الزعماء الدينيين والسياسيين والبرلمانيين، وغير البرلمانيين من الموارنة والكاثوليك، ومنذئذ، أي من سنة ١٩٥٠، والتشاد والتجاذب، والأخذ والرد، مستمران بين سورية ولبنان حول هذه القضية.

وقد تجاوبت الحكومة اللبنانية بعد هذا مع هذه الرغبات، واتصلت بالحكومة السورية، وأبدت استعدادها للنظر في مشروعها، وطلبت عقد اتفاق موقت لمدة ستة أشهر، تخفف به القطيعة، وييسر به تبادل المنتوجات الزراعية والصناعية والاقليمية، ريثما تتم دراسة المشروع، ويصل إلى مرحلته التنفيذية، واستجابت الحكومة السورية إلى هذا، ثم عينت اللجان المشتركة السورية واللبنانية للدراسة.

وقد مر على هذا أكثر من ست سنين، واللجان تؤلف، والاجتماعات المشتركة تعقد للدراسات والأبحاث، ووضع اللوائح وتعديلها وتنقيحها الخ... وتنشر من حين لآخر الأنباء بقرب الاتفاق وامكانيته، ويشتد الحنق أحياناً في أوساط لبنان الاقتصادية، فتقدم العرائض، وتوفد الوفود احتجاجاً على التأخير، وحثاً على سرعة الانجاز، وكثيراً ما توجه العرائض، وتوفد الوفود إلى سورية، التماساً للتساهل والتغلب على العثرات. ومن العادة أن تسقط الحكومات اللبنانية في كل سنة، أو في كل ستة أشهر مرة، ليخلفها أصحاب الدور، وكل حكومة تأتي تعلن اندماجها في الرغبة العامة، وقيام سياستها على الوحدة الاقتصادية، ثم تتجدد اللجان والاجتماعات والدراسات والتصريحات والعهود والتوكيدات، وتمضي الأشهر الستة، فيجدد الاتفاق الموقت ستة أشهر أخرى، على أمل الوصول إلى نتيجة ايجابية خلالها، مما غدا شيئاً رتيباً، خلال السنوات الست التي مرت، حتى لقد وصفت الحالة بالسرمدية. وكثيراً ما أعلنت البشائر بقرب الوصول إلى الاتفاق، وكثيراً ما لاح الأمل في ذلك، وكثيراً ما نشر عن تقارب الأفكار والصيغ، ثم لا يلبث أن يذهب مع الريح، وتتعثر الخطوات، لأن كل هذه الجهود والمساعي، ظلت وما تزال ترتطم بصخرة المعارضة الانعزالية. والصحافة الانعزالية لا تني عن محاربة الأصل والفرع معاً بدون هوادة، وبعض الزعماء الانعزاليين الذين لهم تأثير شديد في جمهرة أبناء طوائفهم، يندمجون اندماجاً شديداً مع هذه الحملة بتصريحاتهم وايحاءاتهم. وذلك تفادياً لخطر الوحدة السورية اللبنانية المزعوم، وايغالاً في النزعة الاقليمية الطائفية. ولقد ترسم شمعون تعديل الدستور لاتاحة تجديد رآسته ست سنين أخرى فعارضته الهيئات والشخصيات الوطنية التي اضطلعت بمناوأته بسبب سياسته وخططه ومواقفه المذكورة: ولقد زار جمال عبد الناصر دمشق بعد قليل من إعلان وحدة مصر وسورية فهُرع للسلام عليه الآلاف المؤلفة من أهل لبنان على اختلاف طوائفهم ولاظهار تأييدهم وعواطفهم نحو الحركة العربية المتحررة التي قادها، فكان ذلك ما جعل شمعون يشتد في تنفيذ ما ترسمه وفي الايغال في خططه ومواقفه المناوئة. ولما أدى ذلك إلى التوتر ثم إلى انفجار الثورة الشعبية في لبنان ضد خطط شمعون وأهدافه ومواقفه، أخذ يتهم الجمهورية العربية بالضلوع بالثورة وتجهيزها للقضاء على كيان لبنان واستقلاله بزعمه، حتى لقد قدم شكوى ضدها إلى مجلس

الأمن، ثم طلب من الولايات المتحدة ارسال قواتها لمنع تفاقم الثورة ونجاحها في اقصائه عن الحكم والحاق لبنان بركب العروبة المتحررة. وقد استجاب الأميركان في النهاية إلى طلبه فأنزلوا قواتهم في ١٥ تموز ١٩٥٨ إلى بيروت.

وهكذا جاء هذا مصداقاً لما قلناه من أن زعماء يفضلون أن يعود لبنان إلى النفوذ الأجنبي، وأن تحتله دولة من الدول الغربية حتى يتفادى الانضمام للوحدة العربية أو يجري في نطاق حركة عربية متحررة. . .

الاقليمية في العراق والبلاد الشامية

وإلى هذه الحالة الخاصة بمصر ولبنان، فقد كان قيام كيانات مستقلة في بلاد الشام والعراق بعد الحرب العالمية الأولى، وسيلة إلى انبثاق الروح الاقليمية في فئات كثيرة من أهل هذه البلاد.

فقد أدى قيام هذه الكيانات، إلى استغراق أهل البلاد التي قامت بها، بشؤون بلادهم ومصالحها ومحلياتها، وانشغالهم بذلك عن الحركة العربية القومية العامة، التي كانت، حين انبعثت قبل هذه الحرب، ناظمة لنشاطهم الذي كان يشترك فيه النشيطون من أبنائها وشبابها ومتنوريها، دون ما تمييز اقليمي.

ولقد كانت بلاد الشام والعراق، منتظمة في نطاق وحدة تامة في ظل الدولة العثمانية، وكان المميز الذي يميزهم، في هذا الظل، هو العرب والعروبة في الدرجة الأولى، ثم النسبة الاقليمية. وقد التقى شباب هذه البلاد على صعيد واحد في مدارس الآستانة، حين انبعاث تلك الحركة، فاندمجوا فيها، أو بتعبير أصح هم الذين بعثوها باسم العرب والعروبة. وحينما أخذوا يسيرون في سبيل تنظيم الحركة، ويؤلفون الجمعيات العلنية والسرية، كانوا شيئاً واحداً، لا يتسمون إلا بالعرب والعروبة، دون تمييز اقليمي إلا للتعريف. وكان من أهم المؤسسات التي أنشأوها في الاستانة المنتدى الأدبي ١٩٠٩ - ١٩١٥. وقد قام على أيدي الشاميين والعراقيين، باسم العرب والعروبة فقط. وكانت جمعية العربية الفتاة، وجمعية العهد، أهم وأدوم ما أنشأه شباب العرب المدنيون والعسكريون من التشكيلات العربية، وقد أنشأوها كذلك باسم العرب والعروبة فحسب. وكان من أهم الحركات العلنية التي قاموا بها قبل الحرب انشاؤهم حزب اللامركزية، وعقدهم مؤتمر باريس سنة ١٩١٣. وقد اندمج فيه الشاميون والعراقيون، باسم العرب والعروبة وحسب. وحينما اتصلت الجمعيات السرية بالشريف حسين وأولاده، كان الاتصال من قبل شاميين وعراقيين باسم العرب والعروبة، وبهذا الاسم اتصل الشريف بالانكليز، واتفق معهم على الثورة. وحينما أعلنت الثورة، اندمج فيها شباب العراق والشام وضباطهم باسم العروبة والعرب، ودون ما تمييز اقليمي كذلك. وحينما قامت أولى حكومة عربية في دمشق، سنة ١٩١٨، برئاسة الأمير فيصل، اشترك فيها رجال العراق والشام معاً، في

مختلف الأعمال والحركات والنشاط باسم العرب والعروبة، وبدون تمييز اقليمي، إلا للتعريف أيضاً.

فهذا المشهد القومي العربي المشترك، أخذ يتطور، بعد أن قامت كيانات اقليمية في مختلف أنحاء بلاد الشام والعراق، كنتيجة للمؤامرة الاستعمارية الانكليزية الافرنسية، وكان تطوره في بدء امره من الناحية العربية، غير منحرف عن الفكرة العربية العامة، وإنما كان بسبب النضال ضد مناهج المستعمرين الذي كان يحتاج إلى تركيز وجهد محليين. فكان أول مشاهد هذا التطور انشطار حزب العهد العربي الذي كانت الصبغة العسكرية غالبة عليه، لأن معظم أعضائه من ضباط العرب ـ إلى شطرين ـ حزب العهد العراقي وحزب العهد السوري، ثم انعقاد مؤتمر عراقي في دمشق، ليعلن استقلال العراق، تحت ملكية الأمير عبد الله، يوم ٨ آذار سنة ١٩٢٠، حينما أعلن المؤتمر السوري استقلال سورية، تحت ملكية الأمير فيصل. وقد تضمن قرار كل من المؤتمرين تقرير قيام اتحاد سياسي واقتصادي بين القطرين، نظراً للروابط التي تجعل القطر الواحد، لا يستغني عن الآخر، مما فيه دلالة على كون رجال البلدين إنما عملوا ما عملوه في اطار الفكرة العربية القومية العامة. وقد قامت هذه الدلالة في العلم الذي قرره كل من المؤتمرين كذلك، حيث كان متماثل المقاييس والألوان والأوضاع، ومتميزاً واحدهما عن الآخر بعدد النجوم الخماسية البيضاء في المثلث الأحمر، حيث جعل علم الشام بنجمة واحدة، والعراق بنجمتين(٥١).

غير أن هذه الروح التواصلية القومية العامة، أخذت تخف قليلاً أو كثيراً بعد انهيار الحكم الفيصلي في الشام. فقد توطد حكم محلي في العراق، وحكم محلي في الأردن في ظل الانكليز، وحكم محلي في سورية، وحكم محلي في لبنان في ظل الافرنسيين. وقام حكم مباشر في فلسطين. وقد حرصت الدولتان الاستعماريتان، على اشغال كل اقليم من هذه الاقاليم بمشاكله المحلية، وجعله منطوياً على نفسه، واقامتا بينهما حواجز جمركية، وجعلتا السفر منها وإليها تابعاً لجوازات وتراخيص ومراسم معقدة، وجعلتا التعامل الاقتصادي فيما بينها منوطاً باتفاقيات ثنائية، لا تخلو من العسر والضيق. وصار يعتبر ابن كل اقليم اجنبياً بالنسبة للاقليم الآخر. فنشأ من كل ذلك مفهوم شؤون ومصالح لبنانية، وشؤون ومصالح سورية، وشؤون ومصالح عراقية، وشؤون ومصالح أردنية، وشؤون ومصالح فلسطينية، ثم ذهنية ووجوب اهتمام كل اقليم بشؤونه ومصالحه. وصار هذا المفهوم الذي قام في بادىء الأمر بصنع المستعمرين وتلقينهم ذاتياً، تسير بمقتضاه الحكومات المحلية التي قامت في كل اقليم تحت ظل المستعمر، بحيث صار الناظم الأول للعلاقات التي قد تقوم فيما بينها، لئلا تطغى شؤون ومصالح اقليم على اقليم آخر، وتضر بها وتضحي في سبيلها، رغم ما في هذا من سخف وضيق افق ونظر، لأن تحسين حالة الشام، لا يغنيها كثيراً حينما تكون حالة العراق متعثرة مثلاً، وسرى هذا المفهوم لابناء البلاد، فإذا كثر عدد أبناء بلد في بلد آخر للعمل فيها عملاً حراً أو حكومياً، اعتبر ذلك مزاحمة منهم على رزق أبناء البلد، وأخذ أبناء هذا البلد المحرومون، أو المسدود في وجوههم الباب بسبب من الأسباب، يغمزون ويلمزون ويصخبون ويجأرون، وإذا بدر من ابن

اقليم في بلد آخر حادث غير مناسب، لم تنحصر الحملة من أجله على الفاعل، بل تشمل سائر ابناء بلده، بحيث يصح ان يقال ان الحالة قد تطورت إلى عقد نفسية، وطوت معنى الكيان الاقليمي، وصارت عقبة من العقبات التي تعترض سبيل الوحدة العربية.

ولقد قام في كل اقليم من أقاليم الشام والعراق حكومات محلية، وصار لها برلمانات ووزارات ورئاسات ومناصب متنوعة، يشغلها البارزون من أهلها، علماً وفناً أو نفوذاً ومالاً، فكان ذلك مما قوى تلك العقدة، لأن الفئات البارزة المذكورة صارت ترى ما أخذت تشغله من المناصب الحكومية والانتخابية أمراً مهماً بذاته، في مجال الوجاهة والنفوذ والثراء والرفاه الشخصي والأسروي، قد لا يبقى، أو ينقص من أطرافه، إذا ما قام كيان عربي عام موحد.

ولقد استغل المستعمرون هذه الرغبة الشخصية استغلالاً كبيراً، فجعلوا هذه الفئات تستغرق فيها اشد الاستغراق، بتوجيههم ورعاياتهم وايحاءاتهم، حتى غدت من أسباب اشتداد التنافس والتناظر بين رجال الاقليم الواحد، وصار التخلي عنها، أو تضييق دائرتها لأي سبب، مما لا يطيقه رجال هذه الطبقة في حال، فكان ذلك مما قوى العقدة والعقبة، في سبيل الوحدة العربية بسببها.

وإذا كان هذا قد حدث بين بلاد الشام والعراق التي كانت مجتمعة موحدة النظام الاقتصادي، وسائر الشؤون في ظل الدولة العثمانية، وكانت مبعث الحركة العربية القومية التي استهدفت قيام كيان عربي عام، واشتغل ابناؤها في هذا السبيل صفاً واحداً، ويداً واحدة، في مختلف ميادين العمل القومي، منذ سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩٢٠، فإنه كان قائماً بطبيعة الحال، وبصورة أبرز وأقوى بين بلاد الشام والعراق من ناحية، وبين البلاد التي كانت منعزلة عن الحركة العربية الحديثة، أو منفصلة عن نطاق وتأثير الدولة العثمانية قليلاً أو كثيراً من ناحية أخرى، مثل دول وامارات جزيرة العرب ووادي النيل والمغرب العربي.

ولقد كان هذا مما شعر بضرره العظيم المؤتمر العربي القومي الذي عقده رجالات العرب في القدس في ١٣ كانون الأول سنة ١٩٣١، وأنكره كل الانكار في الميثاق الذي وضعه، والذي أوردنا نصوصه في مناسبة سابقة.

ومع أن التوافق والانسجام في الشعور القومي ملموسان بقوة في الشعبين العراقي والشامي، فإن هناك فئات ما تزال تتأثر بالنزعات الاقليمية والطائفية، مما يلمس أثره في كل ما قام ويقوم من حركات ودعوات اتحادية وتوحيدية.

الاقليمية في أساس الجامعة العربية ونشاطها

شرحنا في مناسبة سابقة كيفية وظروف قيام جامعة الدول العربية. وتبين من ذلك أن الاقليمية، الممتزجة بالاعتبارات الطائفية والشخصية والأسروية، كانت أساس نظامها الراهن الفضفاض، فأضاعت على العرب فرصة ذهبية للوحدة أو الاتحاد، وأفقدت الحركة التي كانت

تسمى رسمياً بمشاورات الوحدة العربية معناها، حيث عملت هذه الاعتبارات عملها، فجعلت مصر ولبنان والسعودية، تتمسك بأساس احتفاظ كل دولة عربية بحالتها وحدودها ونظامها وسيادتها التامة، وأن لا يتعدى الأمر التعاون فيما بينها في هذا النطاق. ولو لم تقف هذه العقبة المشؤومة في الطريق، لكان من المحتمل القوي أن يقوم بدلاً من نظام تعاوني ضعيف، نظام اتحادي تنفيذي، كما طلب ممثلو سوريا والعراق والأردن، ولصار للعرب جيش موحد، واقتصاد موحد، وسياسة موحدة، تمثل خمسة وأربعين مليوناً، ولكان للعرب بذلك وزن وبروز في العالم الدولي، ولكانوا ساروا شوطاً كبيراً في سبيل التكامل والازدهار السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وتفادوا كارثة فلسطين القاصمة التي أذلت العرب ذل الأبد. . .

وقد يكون للايحاء الانكليزي أثر ما في ولادة نظام الجامعة بالشكل الذي وُلِدَ بِهِ؛ لأن الانكليز كانوا حينئذ اصحاب الحول والطول في البلاد العربية، ولأنهم ليسوا من الطيبة وحسن النية، بما يجعلهم يرضون بقيام اتحاد عربي قوي يشمل اربعين مليوناً، في منطقة يعدونها منطقة نفوذهم واستعمارهم، ويرون أهلها يظهرون لهم العداء في كل فرصة، ورأوا أن قيام الجامعة بنظامها الذي قامت عليه، هو الذي يتسق مع مآربهم الاستعمارية القريبة والبعيدة، ويهيىء لهم فرصة الهيمنة الجماعية على الدول الداخلة في نطاقة. غير أن تلك الاعتبارات في اعتقادنا كانت العامل الأقوى، وأن رؤساء العرب وساستهم لو تجردوا منها، وكانوا أقوى ارادة وحزماً، وأبعد ادراكاً، وأوسع افقاً، لكان في إمكانهم أن يجعلوا نظامها أقوى، أو أن يجعلوه نظاماً فدرالياً، لأن الحرب كانت ما تزال دائرة، وكان للعرب وزن وفائدة في نظر الحلفاء تحملانهم على المسايرة والرضا.

ومع ذلك فقد قوبل قيام جامعة الدول العربية بابتهاج واستبشار عام، على أمل أن يسار في ظل ميثاقها سيراً جاداً، وأن تكون كما قال واضعوه نواة للاتحاد أو الوحدة العربية التي ينشدها العرب.

ومع أنها على كل حال سدت فراغاً، وشغلت حيزاً غير يسير في دنيا العرب، وأدت إلى اندماج دولهم في نطاق تعاوني سياسي وغير سياسي، وعربي وغير عربي، وغدت هيئة إقليمية دولية معترفاً بها، ومخطوباً ودها، ومحسوباً حساب اصواتها قليلاً أو كثيراً، وكان لهذا آثار ايجابية مفيدة لقضايا ليبية وأندونيسيا والمغرب، وفي ظروف العدوان الفرنسي على سورية، وجلاء فرنسا عن سورية ولبنان، بحيث لا يسوغ أن يقال ليتها لم تقم؛ إلا أن عقبة الاقليمية المزيجة بالمنافسات والاعتبارات الاسروية والطائفية والشخصية، قد أصابتها بشر كبير، عاد منه على العرب اضرار بالغة أيضاً سياسية وغير سياسية، وكادت أن تشلها، وتعطل نشاطها وانتاجها، وجعلتها تقف أحياناً كثيرة مواقف أليمة من الضعف والتخاذل والتفكك، وقد قلل هذا كثيراً من فائدتها ووزنها واعتبارها في نظر العرب وغير العرب، وخيب الأمل في تطورها.

وقد أخذ جهازها منذ قيامها في سنة ١٩٤٥، يبذل جهوده في سبيل تنفيذ المادة الثانية من ميثاقها: «الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها، وتنسيق خططها

السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة استقلالها وسيادتها، والنظر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها. وكذلك من أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً، بحسب نظم كل دولة منها واحوالها في الشؤون الآتية:

أ) الشؤون الاقتصادية والمالية، ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمارك والعملة، وأمور الزراعة والصناعة.

ب) شؤون المواصلات، ويدخل في ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد.

ت) شؤون الثقافة.

ث) شؤون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين.

ج) الشؤون الاجتماعية.

ح) الشؤون الصحية.

ولقد تألفت في نطاق جهاز الجامعة لجان لكل شأن من الشؤون المبينة في هذه المادة، كما نصت على ذلك المادة الرابعة من الميثاق، منها لجنة الشؤون الاقتصادية والمالية، ومنها لجنة شؤون المواصلات، ومنها لجنة الشؤون الثقافية، ومنها لجنة شؤون الجنسية والجوازات والتأشيرات، وتنفيذ الأحكام، وتسليم المجرمين، ومنها لجنة الشؤون الاجتماعية، ومنها لجنة الشؤون الصحية، وأنشىء لكل من هذه الشؤون كذلك ادارة ومكتب في أمانة الجامعة، ليقوم بتعقيب النشاط والانجاز، وهذا فضلاً عن اللجنة السياسية التي تجتمع في كل مناسبة، ثم في مناسبة اجتماعات مجلس الجامعة، لتنظر في الشؤون السياسية وتقدم تواصيها لهذا المجلس.

ومنذ نشوء الجامعة وهذه اللجان تعقد الاجتماعات، ومكاتبها تنشط بسبيل العمل. وقد وضع كثير من المشاريع واللوائح والتقارير والاتفاقيات، ومنها ما اقترن بموافقة الحكومات. غير أنه لم يكد ينجز شيء عملي ذو بال، إذا استثنينا مكاتب مقاطعة اسرائيل ونتائجها، وبعض اتفاقيات وشؤون قضائية وثقافية واقتصادية واجتماعية وبريدية وجوية ولاسلكية، أكثرها لا يخرج عن نطاق اتفاقات تعقد بين دولة عربية ودولة اجنبية في توقيتها وشروطها ومداها، وإمكان انسحاب كل دولة منها الخ. لأن الفكرة الاقليمية، وما تثيره من اعتبارات وملاحظات كانت وظلت عقبة في الطريق، تجعل تلك المشاريع واللوائح والتقارير والقرارات، تنام في ملفاتها نوماً ثقيلاً في مكاتب أمانة الجامعة، أو في مكاتب دواوين الحكومات العربية. بل ان ما انجزته من الأمور التي ذكرناها، على ضيق مداها، لم يتم إلا بعد شهور وسنوات من اجتماعات ومراجعات ومداولات، وكانت الاعتبارات الاقليمية بارزة في الصيغ التي أمكن التفاهم عليها. ومع ذلك فإن منها ما ظل حبراً على ورق في مجال التنفيذ والتطبيق، بسبب هذه الاعتبارات.

وهذا فضلاً عن قرارات كثيرة، سياسية وغير سياسية خطيرة، صدرت من مجلس الجامعة، فتوقفت واهملت من قبل بعض الدول التي اشترك ممثلوها في اقرارها تأثراً بهذه الاعتبارات.

فقد بدا من انكلترا والولايات المتحدة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية مواقف عدائية واستفزازية واستهتارية ضد العرب، وخاصة في مراحل قضية فلسطين، وحفز هذا مجلس الجامعة المنعقد في بلودان، في حزيران سنة ١٩٤٦، إلى وضع قرارات من جملتها النظر في مقاطعة الدولتين السكسونيتين المتآمرتين اقتصادياً وسياسياً، والغاء ما لهما من امتيازات في البلاد العربية، إذا استمرتا في مواقفهما. واستمرت الدولتان في هذه المواقف بأسلوب أشد نكاية، وبكل وقاحة واصرار واستهتار، ولعبت الولايات المتحدة الأميركية الدور الأكبر الايجابي في داخل هيئة الأمم، كما لعبت بريطانيا دوراً ايجابياً كبيراً داخل فلسطين، بعد قرار التقسيم، بسبيل تنفيذه فعلاً، على ما شرحناه قبل، فلم يحفز هذا أي دولة من الدول العربية إلى تغيير سياستها معهما، فضلاً عن اعلانها العداء، والغاء امتيازاتها بتأثير السياسة الشخصية والمصلحة الاقليمية.

ولقد بدا للعرب جميعهم أن من شأن النفط العربي أن يكون وسيلة عظيمة للضغط، وحل مشاكل العرب فضلاً عن مشكلة فلسطين. ولقد بدا العراق متحمساً كل الحماس لموضوع وقف النفط والغاء امتيازاته، حينما ظلت الدولتان مستمرتين على خطتهما العدائية، وطلب مندوبه في اللجنة السياسية التي انعقدت في أيلول ١٩٤٧ تنفيذ قرارات بلودان السرية في صدد امتيازات النفط، وتقرر عرض ذلك على مجلس الجامعة. وعرض على هذا المجلس في تشرين الأول ١٩٤٧، فقرر أن قرارات بلودان قائمة وواجبة التنفيذ. اذا استمرت الدولتان على الموقف، وساعدتا على حل غير عادل لقضية فلسطين، ولعبت الدولتان دوريهما الكبيرين. وكان من جراء ذلك أن أقطع اليهود معظم فلسطين ليقيموا فيها دولتهم برغم أنوف العرب، وديست كرامة الدول العربية، وأهينت أعظم اهانة، فلم تقدم الدول العربية صاحبة النفط، أو المرتبطة مع الدولتين بامتيازات، على أي عمل تنفيذي لتلك المقررات بتأثير السياسة الاقليمية. وقطعُ العراق النفط عن حيفا بعد قيام الدولة اليهودية لم يكن تنفيذاً لقرار المجلس، لأن النفط العراقي ظل يجري من العراق إلى طرابلس الشام بعد قرار التقسيم، ولم ير العراق مانعاً من اسالة ما كان يسيل إلى حيفا، إلى ميناء سوري وآخر لبناني. وفضلاً عن هذا، فإن الدول العربية ظلت على أحسن الصلات السياسية مع الولايات المتحدة وانكلترا، ومنها من ازداد تقرباً واستسلاماً لإيحائهما وتوجيههما، وتزلفاً في سبيل نيل رفدهما، بل ومنها من أبرم مع الشركات الانكليزية والأميركية، بإيحاء وتعضيد حكومتيهما، اتفاقات نفطية وغير نفطية، بعد قرار التقسيم، بالرغم من أن قرارات بلودان السرية تحظر هذا بنوع خاص، وبالرغم من قرار جديد اتخذته اللجنة السياسية بتاريخ ٢٢ شباط سنة ١٩٤٨، في هذا الموضوع بالذات، حيث نص على «الامتناع عن منح امتيازات بتمديد أنابيب البترول، أو بتنفيذ الامتيازات التي منحت سابقاً بتمديد الأنابيب داخل البلاد العربية لمصلحة شركات أجنبية، تنتسب لدول تعمل على تقسيم فلسطين وتنفيذه، سواء

أكانت مصادر البترول في المملكة السعودية أم في العراق، وذلك ما دامت الدول التي تنتسب إلى هذه الشركات، تعمل لإرغام العرب على قبول تقسيم فلسطين».

ولقد كان من أعظم الشرور والأضرار التي أصابت العرب في نطاق جامعة دولهم، ومن جراء الاعتبارات الاقليمية والشخصية، ما كان منها في سير حرب فلسطين وكارثتها الأليمة.

فقد كان اشتراك الحكومات العربية بهذه الحرب بقرار اجماعي من مجلس الجامعة، امتداداً لما كان من اندماج هذه الجامعة في القضية الفلسطينية، منذ قيامها، وفي مختلف ادوارها. ومع ذلك فقد لعبت تلك الاعتبارات دوراً أليماً في هذه الحرب، وما بعدها، تضاعفت به مرارة الكارثة، وأدّى إلى نتائج خطيرة، كان من الممكن أن لا تكون من الفداحة على النحو الذي كان لولاها. وذلك بالاضافة إلى ما كان من عدم جدّ الحكومات العربية، وضعف استعدادها للحرب، وقلة عدد القوات التي اشتركت فيها، وشح معداتها.

ولقد ترسم الملك عبد الله منذ البدء أن يضم فلسطين إلى مملكته، وكان هذا أكثر ما شغله وبذل نشاطه في سبيله، ومن أجل ذلك أصر على أن تكون له القيادة العليا على جيوش الدول العربية الزاحفة، واضطرت الدول العربية إلى مسايرته، تفادياً من الفشل، وهي على أهبة عملية خطيرة، ولكنها في الوقت نفسه لم تندمج في هذه القيادة حين وقع الزحف. وكانت كل جبهة من جبهات القتال، تتحرك بنفسها دون أي ترابط وانسجام، وقد انعدمت فيما بينها كل ثقة واعتماد، وخاصة فيما بينها وبين القيادة العليا التي كان زمام جيشها في يد ضباط انكليز. ولقد رسمت خطة حربية قبل الزحف، فلم يتقيد بها الملك عبد الله لاعتباراته المطمحية الخاصة، وسير جيشه على الخطة التي رآها متسقة مع هذه الاعتبارات، فكان هذا مما زاد الوهن وعدم الاعتماد، وأخل بنتائج الزحف المفروضة من الخطة الأولى في الجولة الأولى.

ولما استؤنفت الحرب، بعد الهدنة الأولى، في ٩ تموز ١٩٤٨، ظلت حالة عدم الانسجام التي كانت في الجولة الأولى بين القيادة العامة وجيشها الخاص - الأردني - وبين بقية الجبهات، على ما كانت عليه، بسبب اصرار الملك، والذين في يدهم زمام جيشه على خططهم. وكانت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، قد اقرت قبل استئناف القتال مشروع قيام ادارة فلسطينية الرجال للاشراف على شؤون الأقسام المحررة من فلسطين، فرأى الملك في ذلك تحدياً له، واحباطاً، أو عرقلة لمطامحه، فاستمرت تلك الحالة التي أدت مع ما كان من مكيدة الضباط الانكليز، إلى انهيار جبهة اللد والرملة وبئر السبع في الجنوب، والناصرة في الشمال، ووقوع الكارثة الاليمة التي خسر بها العرب ربع ما كان في يدهم من مناطق عامرة، وانقلاب الميزان عليهم، بعد أن كان لهم، مما شرحناه في فصل سابق.

ثم تراءى للجنة السياسية للجامعة العربية، لأسباب وجيهة دولية وفلسطينية، أن تنشأ حكومة باسم حكومة عموم فلسطين، فخالفها الملك عبد الله، لأن هذا يعطل عليه تحقيق هدفه الذي رسمه منذ البدء. ونفذت العزيمة في تشرين الأول من سنة ١٩٤٨، فانفجر حنق الملك وسخطه، وأوعز بعقد مؤتمر فلسطيني أعلن بطلان ما وقع، وقرر ضم فلسطين إلى شرق الأردن،

واستكتب برقيات عديدة من فلسطين بتأييد قرار المؤتمر، وبدا ما يدل على أن الملك عبد الله يتحفز لتنفيذ هذا القرار، وادى هذا إلى التشادّ والتوتر، بل والمهاترة، بين الملك من ناحية، ومعظم الدول العربية من ناحية أخرى.

واستغل اليهود الموقف المرير، فنشطوا للسيطرة على النقب، ونشب بينهم وبين الجبهة المصرية صراع حربي، استطاع اليهود أن يحققوا به هدفهم، ثم انتهى الأمر إلى تلك الخاتمة الحزينة الموجعة التي انتهت اليها كارثة فلسطين، بمفاوضة مصر لليهود منفردة، وعقدها معهم الهدنة الدائمة في مطلع سنة ١٩٤٩، وحذو الدول العربية الأخرى حذوها، على ما شرحناه في فصل سابق.

وكان موقف الملك عبد الله والعراق جامداً اثناء ذلك الصراع، مما كان في رأي المراقبين نتيجة من نتائج ذلك التشادّ والتوتر والجفاء، الذي نشب بين الملك عبد الله ومصر، لأن الملك ترسم هدفاً شخصياً واقليمياً لم تسايره فيه الدول العربية، وخاصة مصر.

ولقد بدت من المملكة الأردنية حركة نحو ضم بقية فلسطين العربية اليها، فقرر مجلس الجامعة في ١٢ نيسان ١٩٥٠ قراراً اجماعياً، بأن كل دولة تخل بالحالة الراهنة بفلسطين، تعد ناقضة لتعهدها، ولأحكام ميثاق الجامعة، لقطع الطريق على تلك الحركة. ولم يعبأ الأردن بالقرار الذي اشترك فيه ممثله، فمضى في حركته، وقرر الضم في ٢٤ نيسان ١٩٥٠، وساد دنيا الجامعة العربية، ودنيا العرب معاً توتر وتجهم شديدان، واجتمعت اللجنة السياسية فقررت في ١٥ مايس ١٩٥٠ قراراً بالاجماع ـ عدا الأردن الذي قاطع الاجتماع ـ بأن الأردن نقض تعهده، وقرر أربع من الدول أنه خالف ميثاق الجامعة واستحق الفصل. وانعقد مجلس الجامعة وكان يبدو على أكثر الأعضاء، وعلى رأسهم مصر تصميم على الفصل، وقاطع الأردن الاجتماع، ثم اقترح العراق واليمن بذل الوساطة قبل البت، واقترحت بعض الصيغ لحل المسألة ولو شكلياً، ووافق الأردن عليها بصورة خصوصية، ولكن مصر لم توافق عليها، واقترحت نصاً آخر، ثم تقرر بقاء الموضوع مفتوحاً إلى الدورة التالية، حيث تستمر الوساطة. وانعقد مجلس الجامعة في ٢٣ أكتوبر من سنة ١٩٥٠، فسكت سكوتاً تاماً عن الموضوع، وانعقد في ٢٩ يناير سنة ١٩٥١، وشهد الاجتماع وفد من الأردن، وظل ساكتاً عن الموضوع، ثم ظل الموضوع مسكوتاً عنه إلى الآن، وظل الضم نافذاً. وسكنت الزوبعة التي بدت قوية عاتية دون ابداء أي سبب، أو تسجيل أي حل للانقاذ الشكلي على الأقل. وكان هذا من أثر الاعتبارات الاقليمية والأسروية.

ولقد عقدت حكومة ألمانيا الغربية مع دولة اليهود، اتفاقاً على منحها مبلغاً عظيماً. بلغت قيمته ٨٠٠ مليون دولار، كتعويضات عما فعله هتلر باليهود. فقامت الحكومات العربية وقعدت لهذا الحادث الخطير، الذي يمد اليهود بأسباب القوة والتمكين الاقتصادية والحربية، وأخذ رجالها يصدرون التصريحات القوية الانذارية والاستنكارية، وأرسلت مذكرات من الجامعة العربية إلى الحكومة الألمانية، وأرسل من قبل الجامعة وفدٌ إلى المانيا لبذل المساعي في الحيلولة دون ذلك، ولما لم تنجح هذه المساعي، قررت اللجنة السياسية للجامعة، مقاطعة

المانيا الغربية، إذا تم ابرام الاتفاق، وبذل المساعي لحمل كتلة الدول الآسيوية الافريقية على مقاطعتها أيضاً، وعرض الأمر على مجلس الجامعة، وبدا العرب هذه المرة جادين، حتى اقلق موقفهم حكومة المانيا، وجعلها ترسل الوفود تتلمس المخرج، ولم تر اللجنة السياسية فيما عرضته الوفود مبرراً للتراجع. ومع ذلك سارت هذه الحكومة حتى أبرمت الاتفاق لأنها كانت تحت ضغط الولايات المتحدة الأميركية التي لا تستطيع إغضابها، وحبس الناس أنفاسهم ليسمعوا الكلمة الداوية في تنفيذ العرب لقرار المقاطعة، ظناً منهم أن هذا واقع حتماً، لأنه ليس لألمانيا من قوة السلطان على أحد منهم، مما يجعلهم يتراجعون عنه، فإذا الحكومات العربية تخيب هذا الظن وتصمت صمت أهل الكهف. وإذا كل ما كان من هياج وانذار واستنكار وقرارات يتبخر، لأنه بدا لبعض هذه الحكومات أن يتراجع لمصلحة اقليمية خاصة، تراءت لهم دون مبالاة بما في هذا التراجع من ضربة قوية على اعتبار العرب ووزنهم ومصلحتهم العامة العليا، ولم يسع بقية الحكومات إلاّ المسايرة.

ولقد أوصت اللجنة السياسية للجامعة، عام ١٩٥١، في ظروف توتر ساد العلاقات بين الدول العربية والدول الغربية، بسبب قضية الجلاء عن القناة، وقضية السودان، ومشاريع الدفاع المشترك، وقضايا المغرب العربي وفلسطين، بعدم التعاون اقتصادياً وعسكرياً مع الدول الغربية، إلى أن تحل القضايا العربية حلاً عادلاً. ووافق مجلس الجامعة على ذلك. ومع ذلك فإن أكثر من دولة من دول الجامعة استملت مصلحتها واعتباراتها الاقليمية والطائفية والأسروية، فتعاونت وظلت تتعاون تعاوناً وثيقاً مع الدول الغربية الثلاث، وعقدت وما تزال تعقد معها معاهدات اقتصادية وغير اقتصادية.

وما سقناه هو أمثلة بارزة. وهناك أمور كثيرة وقعت، وما تزال تقع، تستملي فيها بعض الحكومات العربية تلك المصلحة والاعتبارات، فيكون لها اتصالات خارجية أو يقف ممثلوها - بتعليمات منها بطبيعة الحال - في اجتماعات هيئة الأمم ولجانها مواقف متناقضة مع قرارات مجلس الجامعة، أو تواصي لجنتها السياسية، فضلاً عن تناقضها مع واجب الانسجام والتوافق العربي العام، دون مبالاة بما يكون من أثر ذلك في الصالح العربي العام، وهيبة العرب وكرامتهم في الأوساط الدولية.

وهذا بالاضافة إلى ما كان من استغلال الدول الاستعمارية الغربية مع الولايات المتحدة الأميركية لهذه الاعتبارات استغلالاً شديداً، وما كان من جنوح بعض الحكومات العربية بتأثيرها إلى الاندماج في خطط هذه الدول الاستراتيجية، وفي مكائدها ضد شقيقاتها، برغم نص وروح تلك القرارات، بل برغم نص وروح ميثاق الجامعة نفسه، مما أدى إلى بلبلة دنيا العرب اشد بلبلة، وجعل دولهم متدابرة متهاترة، وذهب بكثير من وزنها واعتبارها، واضر بالصالح القومي أبلغ الضرر. وكان السبب الأقوى في تعذر حل القضايا العربية حلاً عادلاً، ومما أوردنا صوراً عديدة له في المباحث السابقة. وقد سرى ذلك كله إلى الجامعة، فغدت منذ أوائل عام ١٩٥٥ مشلولة أو كالمشلولة.

ومن العجيب المؤلم أن الذين تملي عليهم اعتباراتهم الاقليمية والطائفية والأسروية، أن يقفوا من حركات التوحيد، والدعوة إلى الوحدة والاتحاد مواقف المناوأة، يظلون يعلنون تمسكهم بالجامعة، واحترامهم لميثاقها، وكفايتها التامة للتعاون والتضامن العربي، في حين أن منهم من أخل بميثاقها، وناقض قراراتها أو عطلها، وساهم بالتالي في تخييب الآمال فيها، وشلها بتأثير تلك الاعتبارات. وهم اذ يعلنون ذلك، إنما يقصدون إلى سد الطريق على الدعوة إلى الوحدة أو الاتحاد أو الحركة بسببها، حيث يرون الجامعة في ميثاقها الراهن الفضفاض هو المتسق مع اعتباراتهم(٥٢).

أثر الاقليمية في معاهدة الدفاع المشترك

ولقد شرحنا في فصل «إدراك العرب لضرورة الوحدة» ظروف عقد معاهدة الدفاع المشترك، والتعاون الاقتصادي التي صارت تعرف بالضمان الجماعي بين دول الجامعة العربية. ويتبين من ذلك أن الاقليمية المزيجة بالاعتبارات الاقليمية والأسروية والطائفية، كانت من أسس هذه المعاهدة. فقد كان من أثر كارثة فلسطين الحاطمة، أن أخذت الأصوات ترتفع بالدعوة إلى اتحاد الدول العربية، كرد فعل لهذه الكارثة، التي أفقدت الأمة العربية ثقتها بنفسها، وسحقت روحها ومعنوياتها. ثم انبثق في أواسط سنة ١٩٤٩، وعقب الانقلاب العسكري السوري الثاني الذي تم بقيادة اللواء الحناوي، أو نتيجة له، حركة اتحادية بين سورية والعراق، فلقيت شيئاً من الترحيب، لأنّ فيها تجاوباً مع تلك الأصوات. برغم ما كان وراءها من مآرب أسروية. ولقد أثارت هذه المآرب فريقاً آخر من العرب فحاربوها حتى حبطت. ولما كانت الوحدة بأي شكل أو نطاق حاجة شديدة، يشعر بها العرب إذ ذاك أشد من أي وقت، بسبب الكارثة المذكورة، كما قلنا، فقد اقتُرحت فكرة الضمان الجماعي في خريف السنة نفسها على الجامعة العربية، كبديل أوفى وأشمل من الاتحاد الثنائي، فانبنت عليها معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي. واشترك في التوقيع عليها جميع دول الجامعة، بعد أخذ ورد وجذب ودفع، كان لتلك الاعتبارات أثر غير يسير فيها. وكانت نصوصها فعلاً واسعة مستوفاة، بحيث يمكن أن تكون ذلك البديل نوعاً ما.

ولقد أخذ مجلس الدفاع الأعلى، منذ عقد المعاهدة، يعقد جلساته في دورات، كما أخذت اللجان العسكرية التي نص عليها ميثاقها تنعقد هي الأخرى، وتدور في كل منهما الأبحاث والدراسات، وتتخذ القرارات، وتنشر الأنباء والتصاريح عن نشاطهما بأسلوب البشرى والتأميل، بما فيه خير العرب وقوتهم وأمنهم وسلامتهم. ولكن كل هذا لم ينتج عنه أي نتيجة مجدية ملموسة في المجال العسكري والأمن والسلامة والدفاع، مع شدة دواعي ذلك فيما كان وظل يقع بعد انعقادها من عدوان يهودي فاجر مستمر على حدود الأردن ومصر وسورية ولبنان، تذهب فيه الأرواح، وتنسف المنازل، وتسلب المواشي، وتحوّل مجاري الأنهار العربية، ويُتصرف به بالمناطق المجردة. وكان بعض هذه الاعتداءات بمثابة حركات حربية قوية، تقوم بها من جانب اليهود الكتائب العديدة المسلحة بمختلف الأسلحة الثقيلة والخفيفة، كالتي وقعت

على قبية، ثم على نحالين، ثم على حوسات، ثم على قلقيلية، في سني ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٦ في الجبهة الأردنية، وعلى منطقة البطيحة والزوية في الجبهة السورية، وعلى منطقة الكونتلا وغزة ورفح في الجبهة المصرية، والتي ذهب فيها عشرات الضحايا ودمرت فيها عشرات المساكن؛ وذلك بالاضافة إلى ما كان وظل يصدر من اليهود من تهديد ووعيد وتحرش بأسلوب قوي، ملؤه الاستفزاز والتحدي والاستهتار، وما كان وظل يعلن من أنباء الاستعدادات العسكرية اليهودية البرية والجوية والبحرية، وما كان يرسله الأردن بنوع خاص من آن لآخر من نداآت وتحذيرات، لأنه كان مركز الثقل والضعف بالنسبة لطول حدوده مع اليهود، وقلة وسائله بالنسبة لغيره.

ولقد كانت اللجنة السياسية، ومجلس الجامعة، والمجلس الأعلى للدفاع، واللجان العسكرية، تجتمع في ظروف بعض هذه الاعتداءات، ثم تنفضّ عن لا شيء. ويظهر فيما بعد، أن ما كان يجيش في صدور رؤساء العرب وساستهم تجاه بعضهم من شكوك وريب، تأثراً بالاعتبارات الاقليمية والطائفية والأسروية، هو العقبة التي كانت تحول دون جعل هذه المعاهدة فعالة، مع شدة الدواعي إلى ذلك وتكررها. هذا في حين ظل الذين تملي عليهم تلك الاعتبارات أن يقفوا ضد دعوات وحركات الوحدة والاتحاد التي كانت تظهر من حين لآخر، يسوقون هذه المعاهدة كبديل عن ذلك، وكفيل بتحقيق الدفاع المشترك الذي تستهدفه الوحدة أو الاتحاد في كل مناسبة، تنطلق فيها دعوة إلى وحدة أو اتحاد، أو تقوم حركة ما بسبيلها، ويعلنون تمسكهم بها، واحترامهم لنصوصها؛ حتى كاد يصح أن يقال: بأن المعاهدة غدت وسيلة لاحباط تلك الدعوات والحركات.

ولقد احتوت هذه المعاهدة على تعهد الدول الموقعة عليها، بعدم عقد أي اتفاق دولي يناقضها، وبعدم سلوكها في علاقاتها الدولية مسلكاً يتنافى مع أغراضها، مما خلا من مثله ميثاق الجامعة، ومما رئي ضرورة ماسة إليه نتيجة للتجارب المريرة التي مرت بالجامعة ودولها. غير أن حكومات عربية عديدة من الموقعة على المعاهدة، ظلت تستملي اعتباراتها الطائفية والاقليمية والأسروية، فلم تبال بهذه المادة ـ وهي المادة العاشرة ـ وخالفتها بعقدها اتفاقات متنوعة مناقضة لروحها ونصها، وسلوكها في علاقاتها الدولية مسلكاً منافياً لها كذلك، وباندماجها مع الدول الغربية الاستعمارية، في ما بثته من دسائس، واثارته من هواجس، وشنته من حرب اعصاب، ونصبته من مكائد، بل وقامت به من عدوان متنوع المظاهر للحكومات العربية التي أبت أن تسير في ركاب هذه الدول؛ مما كان له أبلغ الضرر للقضايا العربية والكرامة العربية، ومما أثار البلبلة والتهاتر بين الدول العربية(٥٣).

اعتبارات ومطامح اقليمية واسروية وشخصية في الحركات التوحيدية

لقد قام اثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها حركات عديدة في سبيل الوحدة والاتحاد. وكانت تدور في نطاق وحدة البلاد الشامية والعراقية أو اتحادها؛ وكان للاعتبارات والمطامح الاقليمية والأسروية يد طولي فيها ايجاباً وسلباً.

فقد نشط عبد الله بن الحسين في سنتي١٩٤١ ـ ١٩٤٣ في سبيل وحدة سورية الكبرى، اغتناماً لفرصة الحرب، فكتب أكثر من مرة للحكومة البريطانية، وقدم لها المذكرات والمشاريع المتعددة، وتلقى أجوبة منها وردّ عليها، وحمل حكومته على اتخاذ القرارات، والاتصال من ناحيتها بصفتها الرسمية بالحكومة الانكليزية. وبادأ رجال الشام بالمراسلة، وأذاع بياناً على أهل البلاد الشامية في ٨ نيسان من سنة ١٩٤٣، ذكرهم فيه بغايات الثورة الهاشمية الكبرى الاستقلالية التوحيدية، ونبههم إلى الفرصة السانحة لقيام وحدة أو اتحاد سوري، يكون نواة لوحدة عربية كبرى. ودعا إلى مؤتمر عربي شامي لتقرير الخطط والخطوات على ما يستفاد من الوثائق العديدة المنشورة في الكتاب الأبيض الأردني، الصادر عام ١٩٤٧، مما يدل على أنه كان معتقداً بأن الفرصة سانحة والظرف مُواتٍ.

وكان المقصود الأول في هذه الحركة سورية الرسمية، أي بدون لبنان، لأن الملك كان يعرف وضع لبنان، ويقدر حساسية الموارنة والكاثوليك ازاء أي حركة عربية. وكانت فرنسا الديغولية قد عادت وقبضت على زمام الأمر في لبنان، فصار له حصانة جديدة، إن صح التعبير، تجاه أي حركة من هذا النوع. وكان يهدف، على ما يستفاد من مشاريعه، ومذكراته، إلى أن تكون فلسطين أيضاً ضمن هذا الاتحاد، وأن يكون لليهود فيها كيان واستقلال ذاتي محلي.

ولقد كان، مما شعر به الجميع، أن مطمح الملك في هذا النشاط، أن تكون سورية الموحدة أو المتحدة تحت ملكيته، برغم ما أظهره من التجرد عن ذلك في كتبه ومنشوره ودعوته، واعلان الاستعداد للنزول عند رأي الأغلبية. وقد كان يتصل بالافرنسيين، ويبدي استعداده لهم لقبول شروطهم، مقابل موافقتهم على وحدة سورية تحت ملكيته، على ما رواه العارفون. فمنع ذلك رجال سورية من التجاوب معه تجاوباً مجدياً، لما كان معروفاً من سيرته وسياسته. فأدى ذلك إلى حبوط حركته، مع احتمال أن يكون لفرنسا واليهود يد طويلة في هذا الحبوط.

وفي سنة ١٩٤٣ قدم نوري السعيد مذكرته المعروفة بالكتاب الأزرق إلى الحكومة البريطانية، بواسطة كايسي وزير دولتها في الشرق الأوسط، يقترح فيها قيام اتحاد عربي، يشمل بلاد الشام والعراق، على أن يكون للموارنة في لبنان كيان واستقلال ذاتي، ولليهود في فلسطين كيان واستقلال ذاتي، في نطاق هذا الاتحاد، مذكراً انكلترا بما كان من تضامن العرب وتواثقهم معها خلال الحربين العالميتين، وما كان من وعودها لهم بكيان عربي موحد. وكان الملموح أن هذا الاتحاد سيكون بزعامة الأسرة الهاشمية التي كان يمثلها في العراق الأمير عبد الاله، بصفته وصياً على الملك فيصل والأمير عبد الله أمير الأردن؛ ولم يكن لهذه المذكرة نتيجة موضوعية، مما يمكن أن يعزى إلى أسباب ومؤثرات متنوعة، لا يبعد أن يكون للاعتبارات الاقليمية الأسروية أثر فيها.

ولقد بدأت مشاورات الوحدة العربية في مصر في أواخر سنة ١٩٤٣. وكان ذلك بعد تصريحات وزير الخارجية البريطانية، في صدد رغبة العرب في توثيق الروابط الاقتصادية والسياسية بينهم، وطلبهم مساعدة بريطانيا على ذلك، وإعلان ترحيب بريطانيا على ما ذكرناه

في بحث سابق[٥٤]؛ حيث يمكن أن يقال ان هذه المشاورات كانت من أثر تلك المساعي، فضلاً عن أثر مساعي رجال القضية العربية الآخرين، وأملهم بأن تكون الفرصة مواتية.

وحينما بدأت المشاورات، سميت كما قلنا بمشاورات الوحدة العربية، وكانت في بدئها تجري في نطاق قيام اتحاد أو وحدة. ولكنها انتهت إلى نظام الجامعة العربية. وكان للاعتبارات الاقليمية والطائفية والأسروية أثر في ذلك، على ما شرحناه قبل قليل.

ولقد اشتد نشاط الملك عبد الله، في سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧، في سبيل الدعوة إلى سورية الكبرى، حتى وصل الأمر به إلى إصدار التصريحات المثيرة، ونشر المنشورات وتوزيع الأموال، وتختيم العرائض، والاتصال ببعض ضباط الجيش السوري، بقصد القيام بحركة انقلابية عسكرية بسبيل ذلك، على ما ثبت من الوثائق التي وصلت إلى يد الرئيس شكري القوتلي. وادخل في حركته هذه البرلمان والحكومة الأردنيين، وجعلهما يقرران القرارات المتنوعة أيضاً. فأثار كل هذا ـ مضافاً إليه ما كان معروفاً من سيرة الملك، وسياسته نحو الانكليز واليهود معاً ـ الرئيس القوتلي، وجعله يقابل النشاط بنشاط مضاد، مما أدى إلى توتر العلاقات وقيام الجفاء بين الملك والرئيس وحكومتيهما. واندمج الأمير عبد الاله وصي العراق في الموقف، إلى جانب عمه، فازداد نطاق الجفاء والتوتر سعة. وكان المطمح الأسروي والشخصي، هو الدافع الأقوى إلى كل ذلك؛ ولا يبعد إن لم نقل من المرجح أن الانكليز كانوا وراء ذلك لأن سورية كانت هي الوحيدة مع لبنان من دول العرب تتمتعان باستقلالهما وسيادتهما دون أي شائبة. وكانت سورية منذ القديم مركز الحركة القومية العربية النابض ومرشّحة لتكون مركز انطلاق قومي، فأرادوا بهذه الحركة أن يجعلوها تحت هيمنتهم ويحدوا بذلك إمكانياتها الانطلاقية في سبيل الآمال القومية، لأن عبد الله كان تحت هيمنتهم. وقد كان عبد الله يتحفظ نحو لبنان ويقول إن الأمر متروك له لأنه يعرف ظروفه الخاصة، وعلى أمل أن يأتي أمر لبنان سهلاً ميسوراً إذا ما تمت الوحدة بين سورية والأردن تحت تاجه. وهذه الملاحظات هي التي كانت تدفع شكري القوتلي وزعماء سورية ورجال حركتها إلى الانكماش من حركة عبد الله بل ومناوأتها.

وشغل الناس بحرب فلسطين وحوادثها، حتى إذا انتهت، أو كادت، قام حسني الزعيم قائد الجيش السوري بانقلابه، في مارس سنة ١٩٤٩، الذي أقصى شكري القوتلي عن رئاسة الجمهورية نتيجة له؛ فسارع الملك عبد الله غداة الانقلاب، إلى تهنئته، والاعتراف بحكومته، وإرسال وفد من اخصّائه اليه. وحذا حذوه حكام العراق، فجاء وفد رسمي علي رأسه نوري السعيد، رئيس الوزارة مهنئاً معترفاً؛ مما جعل المراقبين يرون في ذلك سعياً في استغلال الظرف، وتحويل الحركة إلى عملية توحيدية سورية عراقية أردنية. بل، ولقد قيل اثناء ذلك، ان للملك عبد الله ضلعاً في الحركة[٥٥]، بقصد اقصاء شكري القوتلي، الذي صار شديد المناوأة لدعوة الملك عبد الله، ومطامحه الشخصية والأسروية، وخاصة بسبب ما لابس ذلك من دسائس واغراء وحركات مريبة ومثيرة، ويربطون بين أطراف هذه المظاهر التي تبدو عليها المطامح الأسروية والشخصية بقوة.

وتنبه الطرف العربي الآخر لذلك، فبادر إلى العمل، وكان من نتيجة ذلك أن طار حسني الزعيم فجأة إلى مصر، واجتمع سراً مع فاروق، قبل أن تعترف مصر بحكمه، ورجع في حالة جديدة، لم تلبث أن تطورت إلى توتر وتهاتر بينه وبين رؤساء العراق والأردن: ورافق هذه الحالة طموح شخصي إلى رآسة سورية، ونشط إلى تحقيق هذا المطمح، فغدا مارشال سورية، كما حلا له أن يلقب نفسه، ورئيس جمهوريتها. وهكذا حبطت آمال العراق والأردن في تحويل حركة انقلابه إلى عملية توحيدية، وكانت المطامح والاعتبارات الاقليمية والأسروية والشخصية من أسباب هذا الحبوط كما هو المتبادر؛ بالاضافة إلى ما يمكن أن يكون للمساعي الخارجية، من أثر ظهرت آثاره فيما قام من روابط وثيقة بين حسني الزعيم وفرنسة على ما ذكرناه في مناسبة سابقة(٥٦).

وفي حزيران من سنة ١٩٤٩، قام اللواء سامي الحناوي بحركة انقلابية ضد حسني الزعيم، واعتقله واعدمه، ثم تألفت حكومة مدنية برئاسة هاشم الأتاسي. ولم تلبث أن ظهرت في سورية والعراق حركة اتحاد عراقي سوري، اندمج فيها معظم أعضاء الحكومة، وخطت خطوات واسعة في هذا السبيل. وكان لها مؤيدون مخلصون كثيرون، لأنهم أملوا من ورائها قيام اتحاد حقيقي، يسد الفراغ الذي كان في دنيا العرب. ولقد كانت أصبع العراق ملموسة في هذه الحركة من أولها، وظهر أنها كانت انتقاماً من حسني الزعيم على قلبه ظهر المجنّ للعراق والأردن. ولاحظ كثير من المخلصين أن المطمح الأسروي الشخصي هو الحافز الأقوى فيها، فضلاً عما قدروه من اندماج الانكليز فيها، رغبة في بسط هيمنتهم الواقعة على العراق والأردن على سورية المتحررة من كل هيمنة، فبذلت الجهود في سبيل إحباطها، مما أدى إلى الانقلاب العسكري الثالث، الذي قام به أديب الشيشكلي في كانون الأول سنة ١٩٤٩، والذي احبطت به الحركة، وتطور إلى أن صار الشيشكلي صاحب الكلمة النافذة، ثم رئيساً للجمهورية، وامتد إلى شباط عام ١٩٥٤.

ونقول استطراداً انه من المؤسف أن هذه الحركات التي لعبت فيها المطامع والاعتبارات الأسروية والشخصية ـ متلاقية مع المآرب الاستعمارية ـ أدت إلى نتيجة أليمة بالنسبة لسورية، وبالتبعية بالنسبة للقضية العربية القومية، وهي جعل هذا البلد الذي كان مرشحاً ليلعب دوراً رئيسياً في مجال الأهداف العربية القومية بقيادة رئيسه المجاهد الذي كان من أوائل رجال الحركة القومية فاقداً للاستقرار، مضطرباً، تتقاذفه الأهواء والمطامع الشخصية خمس سنين طويلة، فتأخر بذلك عن المركز القومي الخطير الذي كان مرشحاً له أشواطاً كبيرة، إلى الوراء، أمداً غير قصير.

ومع ذلك فإن المطامح والاعتبارات الأسروية والاقليمية لم تنكف عن سورية. فقد كان حكام العراق وراء الانقلاب الذي تم ضد الشيشكلي، في شباط عام ١٩٥٤، بالتعاون مع بعض رجال الأحزاب السورية. وكانوا يستهدفون، على ما ظهر، تحقيق فكرة الاتحاد السوري العراقي التي قامت نتيجة لانقلاب الحناوي، والتي أحبطها الشيشكلي؛ وقد حصلوا على ما بدا

على وعود من بعض رجال الأحزاب الذين تعاونوا معهم على هدم عهد الشيشكلي في هذا الصدد. وتنبه لذلك الآخرون الذين لمحوا قوة المطمح الأسروي والشخصي في الحركة ـ مضافاً إليه ما كان يظن من أن وراءها الانكليز أيضاً، بقصد توسيع هيمنتهم على سورية ـ فبذلوا جهودهم في تفادي ذلك، فذهب مع الريح.

ثم انبثق في ربيع عام ١٩٥٥ حلف بغداد الذي شرحنا ظروفه ومقاصده في بحث الاستعمار الانكليزي في العراق، بعد أن رفضت مصر وسورية الاندماج في خطط المعسكر الغربي الاستراتيجية، ورفضت سورية الاندماج فيه، وتضامنت مع مصر والسعودية ضده، وصمدت بقوة للضغط الذي جرى عليها من مختلف الجهات؛ ثم عاد شكري القوتلي في صيف السنة نفسها إلى رئاسة الجمهورية، واشتد التضامن والتواثق بين سورية ومصر والسعودية، وقررت الحكومة السورية في تموز عام ١٩٥٦ اقامة اتحاد فدرالي بينها وبين مصر، كخطوة أولى للاتحاد العربي العام، فقوبل القرار بالارتياح العظيم من قبل مختلف فئات الشعب السوري، لأنه هو الأجدى في مجال البنيان العربي العام، والبريء من المطامح الأسروية والاقليمية والشخصية، والكفيل بتحقيق الاتحاد العربي العام؛ كما قوبل بالتجاوب والترحيب من قبل الرئيس جمال عبد الناصر والأوساط المصرية. فرأى حكام العراق في ذلك كله تعطيلاً لمصالحهم، فأخذوا يدبرون مع الصنائع والمأجورين والحاقدين والموتورين والشعوبيين، وفي طليعتهم الحزب القومي السوري، انقلاباً جديداً يطيح بالعهد القائم، ويحقق لهم مطمحهم. غير أن المساعي كشفت قبل وصولها إلى غايتها وأحبطت. وهي مؤامرة عام ١٩٥٦ التي ظهرت أصبع حكام العراق فيها ظهوراً قوياً وعجيباً في سياق ما كان من تحقيقات ومحاكمات. وقد ظهر أن المسعى أخذ يشتد في سبيل ذلك خاصة، بعد قرار الحكومة السورية بإقامة اتحاد فدرالي بين سورية ومصر.

ولقد ظهرت في أثناء محاكمة المتهمين بالمؤامرة أمور مؤلمة، عجيبة تدل على ما كان يسيغه أصحاب المطامح الأسروية والاقليمية والشخصية من أعمال في سبيل تحقيق مطامحهم؛ حيث كانت الحركة تستهدف قيام ثورة وفتنة دامية في مختلف أنحاء سورية، واغتيال بعض الشخصيات البارزةالسياسية. وقد أرسلت كميات كبيرة من السلاح من العراق، ووزعت بواسطة بعض المتآمرين. وكان من المحتمل أن تقوم الثورة أو الفتنة في ظروف العدوان الثلاثي المجرم على مصر، الذي كان من المحتمل لو نجح، أن يتطور إلى عدوان انكليزي افرنسي يهودي على سورية.

٢ ـ جمُود الوعي العَربي العَام وسَلبيّته وعَدَم عمقه

ـ ١ ـ

من العقبات الذاتية، أو الداخلية، جمود الوعي العربي العام وسلبيته، وعدم عمقه. فالجمهور العربي مدرك لضرورة الوحدة العربية، وتوافر مقوماتها في مختلف أقاليم الوطن

العربي الكبير، على ما شرحناه في فصول سابقة، ولكنه يبدو جامداً سلبياً غير عميق ازاء هذا الإدراك. ولو لم يكن كذلك، لكان من البديهي أن يملي إرادته على الذين يقبضون على زمام الأمور في الأقطار العربية، ويقيمون العقبات في سبيل ما هو مدرك لضرورته وتوافر مقوماته.

ويرافق هذا جمود وسلبية في الوعي القومي بمعناه الحديث أيضاً، وهو الذي كان حافزاً من حوافز الحركات القومية الحديثة في أوروبا، والذي نتج عنه حركات التوحيد السياسي فيها في أواخر القرن التاسع عشر. فالجمهور العربي اليوم مدرك لذاتيته وقوميته ادراكاً عاماً، يصح أن يسمى وعياً قومياً. ولكن هذا الوعي الجامد سلبي أيضاً. ولو لم يكن كذلك، لما تمكنت النعرات الإقليمية والطائفية والأسروية أن تلعب أدوارها في مجال الحركة القومية العربية، وتغطي على أهدافها أو تعطلها.

- ٢ -

ومرد هذا وذاك، فيما هو المتبادر، إلى حداثة الفكرة القومية بمعناها الحديث وجهل غالبية الشعوب العربية، وضعف التنظيم الشعبي في مختلف الأقطار العربية.

فالشعوب العربية ظلت تعيش أكثر من ألف عام، في ظل السيادة التركية، في عهد الدولة العباسية، وبعدها، باستثناءات قصيرة. وكانت النعرة القومية التي تنبهت وقويت في العرب في عهد الدولة الأموية الشامية قد خفتت، نتيجة لانتقال السلطان إلى العباسيين، وحلول الفرس والترك محل العرب، في معظم مناصب الدولة وأعمالها. ونتج عن ذلك تغلب النفوذ الأعجمي - الفارسي التركي - على النفوذ العربي.. وحرص المتغلبون على أن يضعفوا الروح القومية العربية، ويقروا فكرة الإسلام العامة، لأنها تهيىء لهم مبررات السيادة على العرب، واستعانوا على ذلك بكثير من علماء الدين الذين كان كثير منهم اعجمي النسب. ووجد هؤلاء آيات وأحاديث أولوها بما يتفق مع المهمة التي طُلِبَ منهم القيام بها، وتجاهلوا أو جهلوا أن في القرآن والأحاديث ما يقرر شأن العرب والعروبة في السلطان والحكم والسيادة في الشعوب الإسلامية كافة، وأن عزة الإسلام رهن في الدرجة الأولى بعزة العرب، الذين اجتباهم الله ليكونوا شهداء على الناس(٥٧).

ولقد أدى هذا مع امتداد السيادة التركية واستمرارها، واتسام سلاطين الدولة العثمانية منذ القرن العاشر الهجري بعد استيلائهم على البلاد العربية، والغائهم الخلافة العباسية المصرية بسمة الخلافة وامرة المؤمنين، إلى رسوخ تلك الفكرة، واندماج العرب فيها اندماجاً تاماً، واعتبارهم الدول التركية الإسلامية وامتداداتها - كالدولة الأيوبية والدولة الشركسية والدولة العثمانية، التي كانت تفرض سلطانها على بلادهم، بمثابة دولهم، دون ما حرج ولا ضير ولا استثقال، وإلى انعدام أي معنى من معاني التفكير القومي في أذهانهم. وظل هذا هو القائم المستمر، إلى أواخر القرن الثالث عشر الهجري. أي أن العرب ظلوا يعيشون في جو الفكرة الإسلامية اللاقومية، أكثر من ألف عام. إلى أن أخذت الفكرة القومية التي تقوم على فكرة إقامة

الدولة، على أساس القومية، وحق كل أمة متحدة في اللغة والوطن والمصالح والتاريخ أن تحكم نفسها بنفسها، وأن لا تخضع لحكم أمة أخرى تنبثق في أوروبا، وتثير فيها الحركات القومية، فأخذت الفكرة تسري تدريجياً إلى الشرق، وتثير المتنورين من أهله، ومن جملتهم الترك والعرب.

- ٣ -

وقد بدت بعض آثارها في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، متمثلة بجمعية تسمت بجمعية النهضة العربية، وأخرى بالجمعية العربية في بيروت وصيدا، وثالثة بالجمعية العربية الوطنية في دمشق، ورابعة برابطة الوطن العربي في باريس، حيث أخذت هذه التشكيلات التي أنشأها شباب وكهول مسيحيون ومسلمون، اشتراكاً أو انفراداً، تعمل بتحفظ وسرية في سبيل إيقاظ الروح القومية العربية، والتذكير بامجاد العرب، والتوجيه لاستقلال العرب الذاتي أو التام، كتابة وخطابة، عدا الأخيرة التي كانت تتمتع بحريتها بسبب وجودها في باريس، فتنشر النشرات والرسائل الصريحة الداعية إلى الاستقلال والاتحاد العربي، والتمرد على السلطان التركي، غير أن هذه الحركة ظلت ضيقة النطاق، وخفيفة المدى والأثر.

وفي سنة ١٩٠٨ أعلن الدستور العثماني، نتيجة لحركة جمعية تركية قومية، كانت تسمى تركيا الفتاة (جون تورك)، وكردّ فعل للحركة القومية التي قويت في أوروبا. وقد كان بعض ضباط العرب وشبابهم مندمجين في هذه الجمعية، استمراراً للتمازج التام القائم بين العرب والترك، في ظل الفكرة الإسلامية العامة.

ولقد توارت تلك الجمعية السرية وراء حزب سياسي علني بعد إعلان الدستور عرف باسم «جمعية الاتحاد والترقي»، وأخذ أركانها يخطون خطوات واسعة نحو الاستيلاء على الحكم والهيمنة على الدولة، كما أخذوا يبثون الفكرة القومية التركية، ويثيرون عاطفتها في نفوس الترك، وخاصة ناشئتهم، مستهدفين استعلاء العنصر التركي في بلاد الدولة.

وقد كان مما عمدوا إليه إنشاء فروع وأندية لجمعيتهم العلنية في مختلف بلاد الدولة، ومنها البلاد الشامية والعراقية، وجعل أزمتها في أيدي موظفين أو ضباط من الترك المتحمسين للفكرة القومية العنصرية، حتى لقد بلغ استهتارهم بالعرب إلى أن كانوا يرشحون نواباً تركاً في بعض البلاد العربية، وإلى التدخل علناً، وعنوة لترجيح كفة من يرشحونه.

ولقد حاول السلطان عبد الحميد الرجوع عن الدستور والتنكيل بالاتحاديين، فزحف محمود شوكت العراقي الكردي على رأس جيشه من سلانيك، وسيطر على الآستانة، وخلع السلطان. ونتيجة لذلك استولى الاتحاديون على الحكم، وغدت الدولة ودوائرها في العاصمة والولايات تحت هيمنتهم، والتزموا طريقة عدم توظيف موظف تركي أو غير تركي في وظيفة مهمة، إلا بعد أن يقسم يمين الولاء لحزبهم، كما كان من شأن هيمنتهم أن اضطر كثير من الزعماء العرب النافذين إلى موالاتهم، لأنه لم يكن يتيسر مصلحة ما ذات شأن تخص هؤلاء أو يبتغونها، ما لم يحصلوا على

تزكية ومساعدة من مركزهم وفروعهم، بل لقد كان الناس يتقدمون بعرائضهم المتعلقة بمصالحهم الرسمية إلى مركز الحزب وفروعه، حتى وقع في الأذهان أن هذا المركز والفروع هي الحكومة الحقيقية.

ـ ٤ ـ

ولقد قوي الحزب بذلك كله قوة عظيمة، وأخذ يسير نحو غاياته قدماً وجهرة ودون مبالاة، فلم يلبث متنورو العرب من شبابه وكهوله، وخاصة في بلاد الشام والعراق، أن تنبهوا إلى ما في هذه الغايات من خطر على كيان العرب، ومساس بكرامتهم، واستهتار بمصالحهم. وكان كثير من شباب العرب في مدارس الآستانة، يحتكون بشباب الترك، ويشعرون منهم بقوة التيار العنصري التركي، وكثيراً ما كان يحتدم النزاع بينهم في صدد أهداف هذه الحركة، فيلمسون فيها النيات المريبة، فيزداد بهم القلق ويقوى الحافز والتنبه.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن إعلان الدستور، وما فتحه من آفاق الحرية، واحدثه من هزة ورجة وحركة وآمال، وما انكشف لمتنوري العرب من أفكار الغرب وحركاته القومية، مما كان أيضاً منبهاً وحافزاً لانبعاث الفكرة القومية، وقوتها فيهم، استهدافاً لإنهاض العرب وتجديد حياتهم، والدفاع عن حقوقهم، وتذكيرهم بأمجادهم، وقيمتهم التاريخية والمادية والمعنوية، ليتمكنوا هم الآخرون من البروز على مسرح القومية الحديثة التي جرفت غيرهم من الأمم.

وقد خصصنا البلاد الشامية والعراقية بالذكر، لأن مصر وبلاد المغرب العربي، كانت منسلخة عن الدولة العثمانية، ومنكوبة بالاستعمار، الذي كان شديد الحرص على الحيلولة دون سريان التيار القومي العربي، وعلى بقائها منعزلة عن البلاد العربية. وقد كان للعناصر التركية التي كان لها حيز بارز في الحكم والسلطان في مصر خاصة، أثر في ذلك أيضاً، لأن الحركة العربية القومية، لم تلبث أن اصطدمت بالحركة التركية القومية، على ما شرحناه في فصل سابق. أما سكان جزيرة العرب، فقد كان اتصالهم بأحداث العالم العربي ضعيفاً بصورة عامة من جهة، وكانت حالتهم الثقافية والاجتماعية ومنازلهم الجغرافية، لا تساعد على تأثرهم بالتيار القومي بقوة من جهة أخرى، باستثناء من كان منهم في الآستانة، وبلاد الشام، حيث تأثروا بها كما تأثر بها أهل هذه البلاد.

ـ ٥ ـ

ولقد استطاع متنورو العرب وشبابهم العراقيون والشاميون، ومن كان في الآستانة وبلاد الشام والعراق من أبناء الأقطار الأخرى، أن يوجدوا تياراً قوياً للقومية العربية، مشعوراً به من قبل الترك والعرب والغرب، بما كان منهم من نشاط وحركات، وما كان لهم من تشكيلات في الآستانة وبلاد الشام والعراق، مثل جمعية الاخاء العربي، وجريدتها في الآستانة سنة ١٩٠٩. والمنتدى الأدبي في الآستانة الذي كان بيتاً عربياً قومياً، وملتقى شباب العرب ورجالهم ونوابهم

ومغذياً للفكرة العربية أقوى تغذية، والكتلة النيابية العربية التي تألفت سنة ١٩١١ في الآستانة، من نواب العرب في البرلمان العثماني للدفاع عن حقوق العرب، والجمعيات السرية العديدة التي كانت جمعية العربية الفتاة، وجمعية العهد من أهمها وأوسعها وأدومها، وحزب اللامركزية الذي نشأ علناً في مصر سنة ١٩١٢، وجعل غايته النهوض بالعرب وبلادهم في نطاق الدولة العثمانية، والحركة الاصلاحية البيروتية التي يمكن أن تعد صدى من أصداء حزب اللامركزية، والتي كانت غايتها شبيهة بغاياته، والمؤتمر العربي في باريس الذي تبناه حزب اللامركزية، وكان مهمته بحث شؤون العرب، وحقوقهم في الدولة العثمانية، ثم الثورة العربية الهاشمية التي أعلنها الشريف حسين، والتي مر ذكرها في فصل سابق.

فكان كل هذا مما ساعد على نشر الفكرة العربية القومية بين العرب، وقد كان لطغيان جمال الذي تولى القيادة العامة والسلطات العليا في بلاد الشام، وما اقترفه في حق رجال وشباب العرب القوميين من قسوة، محاكمة وسجناً وشنقاً وتشريداً وارهاباً، أثر كبير في ذلك أيضاً.

غير أن هذه الحركة التي بلغ عمرها في نهاية الحرب العالمية الأولى عشر سنوات فقط ١٩٠٨ - ١٩١٨، لم يكن في إمكانها، ولا من شأنها، أن تكون شاملة قوية الأثر عميقته، بعد تلك الغفوة اللاقومية الطويلة جداً، التي مرت على الأمة العربية. فقد اقتصر الشعور القومي في الدرجة الأولى على الأوساط النيِّرة المثقفة من السياسيين والشباب، والتي كانت ضيقة النطاق كثيراً، وفي الدرجة الثانية على من كان يتصل بها من سكان المدن، وخاصة المدن الكبيرة. أما سواد الشعب العربي، فلم يكن يتحسس بها بقوة تسمح بالقول انها قد سرت إليه، أو كان لها تأثير فعال فيه خلال السنوات العشر المذكورة. وكل ما كان بالنسبة إليه أن الحركة التي كان يضطلع بها المتنورون، قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، كانت لافتة للذهن، ومنبهة من السبات بعض الشيء، وأن ما كان من أحداث عنيفة بعد نشوب الحرب، مثل بطش جمال وتنكيله وشنقه أحرار العرب، وإعلان الثورة العربية، كان مما قوى هذا الالتفات والتنبه. ولقد كان هذا السواد مغموراً في ظلمات الجهل، وكان سواده الأعظم يسكن في القصبات الصغيرة والقرى والبوادي، منعزلاً تقريباً عن الحركات السياسية وتياراتها، فكان هذا المظهر طبيعياً بالنسبة إليه.

وإلى هذا فإن نفوذ الفكرة وقوتها في المتنورين والسياسيين والشباب كان متفاوتاً، فبينما كانت عند فريق قليل منهم عقيدة، وكانت شغلهم الشاغل، كانت عند فريق ثان، وهو الأكثر، كلمات تُلاك بالأفواه، دون أثر نافذ إلى القلب. وكانت عند فريق ثالث وسيلة استغلال وجاه ومنصب. وكان هناك فريق كبير من رجال وشباب وضباط العرب الذين يعدون في الطبقة المتنورة، قد قضوا مدة طويلة في وظائف الدولة ومختلف أنحائها، واندمجوا في جوها، حتى صار بعضهم غريباً أو كالغريب عن العروبة، بل واللغة العربية، لم يستشعروا بالفكرة، ووقفوا منها موقف المتحفظ، ومنهم من وقف منها موقف المتجهم أو العدو المهاجم. وكان هناك طبقة الوجهاء والأعيان، من الذين اعتادوا أن يعيشوا في جو موظفي الدولة، وأن يمارسوا وظائف

حكومية وإدارية دائمة وموقتة وفخرية وغير فخرية، وأن يستمدوا منها وجاهتهم، ثم طبقة المشايخ، وخاصة ذوي المناصب الدينية منهم، فهاتان الطبقتان أيضاً اللتان لا تعدان من غمار الشعب، وقفتا كذلك من الفكرة موقف المتحفظ، ومنهم من وقف منها موقف المتجهم أو العدو المهاجم.

ولقد كان مفهوم الوحدة عند هذه الطبقات هو الوحدة الإسلامية، نتيجة لاندماجها في جو الدولة العثمانية اندماجاً متأثراً بتاريخ طويل، قضاه العرب والترك في جو تاريخي وسياسي وعاطفي وروحي واحد، وبالدعايات التي اهتم لبثها السلاطين، والمتغلبون الترك، لتبرير سيادتهم على العرب، على ما ذكرناه في مناسبة سابقة. وقد رأت في الدعوة إلى الفكرة القومية العربية وأهدافها بدعة مؤدية إلى إضعاف الوحدة الاسلامية، أو هدمها أولاً، ورأتها على هذا الاعتبار تدخل في شمول ما أثر من التحذير من الدعوة إلى العصبية ثانياً، فوقفت منها الموقف الذي وصفناه. وأخذ كثير منهم يغمزون الداعين إليها، والقائمين بها بالزندقة والالحاد، وغير ذلك من التهم التي كانت رائجة، بل ومنهم من كان يعين السلطات الاتحادية التركية عليهم، ويشمتون بما يقع عليهم من اضطهاد ويفتون بحل دمهم، ويحاولون تأليب السوادعليهم، ويدبجون المقالات، وينظمون القصائد، ويلقون الخطب ضدهم، فكان كل هذا مما أوجد جواً من الكراهية للفكرة، في بعض اوساط السواد الأعظم، وضيق من نطاقها.

- ٦ -

ولقد أخذت هذه الصورة تتبدل حقاً بعد الحرب العالمية الأولى. فالأمة العربية، وبلادها صارت بعد الحرب أمام وقائع وأحداث لا محيد عنها، فهي منفصلة عن الترك، ولم يعد في هؤلاء رغبة أو مطمح فيها، وانتهى أمر الخلافة، وكثير من المظاهر والتقاليد الاسلامية، إلى ما انتهى إليه على يد الكماليين، وصار الكلام في الوحدة الاسلامية الدينية الجامعة بين العرب والترك بدون محصل في مجال العمل، واضطر العرب راضين أو كارهين، إلى الانسياق مع التيار الجديد، والتكيف بالواقع، والسير فيه، بما هو المتلائم معه نشاطاً ودعوة وجهاداً.

ولقد كانت دمشق في العهد الفيصلي ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ مزدحم أقدام شباب ورجال العرب السياسيين، من عراقيين وسوريين ولبنانيين وفلسطينيين، ومناط أملهم. فنشطت فيها الحركة العربية نشاطاً عظيماً، وغدت مركزاً للعمل على متابعة الحركة والنضال، ومناوأة ما أخذ يبدو من مظاهر غدر الحلفاء أو مطامعهم ودسائسهم. ولو قدر لهذا العهد أن يدوم، لكان من المحتمل جداً أن يكون مصدر انطلاق توسعي عظيم للفكرة العربية والحركة بسبيلها، حتى يشمل تيارها بلاد العرب جميعها، لما بدا فيها من حركة جياشة بالعاطفة والآمال القومية.

غير أن هذا العهد لم يدم إلا سنة وتسعة أشهر، ثم اطلقت بريطانيا يد فرنسا في سورية ولبنان، فزحف غورو ونسفه في ٢٤ تموز ١٩٢٠، على ما ذكرناه في فصل سابق، فكان انهياره صدمة شديدة في تاريخ وطريق الحركة العربية، متناسبة مع خطورة هذا العهد الذي تكثّفت فيه

حركة الأمة العربية وآمالها. وكان لهذه الصدمة أثر قوي متنوع المظاهر، في سائر أنحاء البلاد العربية العثمانية، التي كانت مجال تلك الحركة ومنبت فكرتها.

- ٧ -

ولقد انتثر عقد رجال الحركة العربية المنظوم، فتفرقوا أيدي سبأ، وحرموا من المجال الحر الذي أمكن أن يكثفوا فيه جهودهم، في سبيل تحقيق أهداف الفكرة، سواء بالنسبة لسائر الأقاليم الشامية أم العراق، ولم يعد يتيسر لهم بعد جو مماثل لنظم عقدهم وجمع شملهم.

ولقد لمع برق في عمّان أمداً قصيراً جعل بعضهم يتهاوون إليه، ويظنون فيه عوضاً عن المجال الحر الذي حرموه، حينما جاء عبدالله بن الحسين من الحجاز، يهتف بأنه قد جاء لأخذ الثأر، واستئناف العهد، غير أن هذا البرق لم يلبث أن خبا، بما كان من عبدالله من الجنوح إلى الرضاء بإمارة شرق الأردن، تحت إشراف الإنكليز، وإلى التجهم لرجال الحركة العربية بناء على نصائحهم. فكان من أثر ذلك أن التحقوا، أو التحق معظمهم بأقاليمهم، واندمجوا في مشاكلها المحلية التي جعلها المستعمرون شغلاً شاغلاً، يستنفد قوى أبنائها، ويصرفهم عن التفكير خارج نطاق وطنهم الخاص.

وهكذا أخذت الفكرة العربية، والحركة في سبيلها، تمران في أدوار امتحان ومحن قاسية، وأخذ يقام ويقوم في وجهها التيارات المعاكسة والحركات المناوئة التي أعاقت سيرها، وضيقت نطاقها، وبدلت أو كادت تبدل اتجاهها، وأضاعت على الأمة العربية أوقاتاً ثمينة وجهوداً عظيمة، بذلت في حركات سلبية شؤون اقليمية، كان من الممكن أن تصرف إلى ما هو ايجابي وانشائي قومي عام، لو لم يبيت حلفاء العرب للعرب نيات لئيمة من الاستعمار والتسلط والتمزيق، وينفذوا ما بيتوه لهم بكل لؤم وغدر.

- ٨ -

ولقد اتسع نطاق الفكرة العربية حقاً في الفترة التي مرت من ذلك التاريخ إلى الآن. والذين عاشوا في تلك الظروف ولا يزالون أحياء، يرون من دون ريب تطوراً واسعاً أكثر من غيرهم من هذه الناحية. فان سواد الشعب العربي في بلاد الشام والعراق حينئذٍ، لم يكن يحس بشيء من الشعور الذاتي القومي. وكان هذا الشعور قاصراً على فريق محدود على تفاوته. وكان إلى جانبهم جماعات كبيرة ونافذة متحفظة، أو متجهمة، أو عدوة للفكر العربية، على ما شرحناه، فغدت الآن الفكرة العربية والشعور بالذاتية القومية في بلاد الشام والعراق شيئاً عاماً، لا يكاد ينفقد في أحد من سكانها، ولو لم يكن متعلماً.

وكذلك الأمر في مصر، فقد كانت كما قلنا في فصل سابق، منعزلة عن الفكرة العربية، وكانت العناصر التركية تعمل على مناوأتها، والعناصر المأجورة من المستعمرين، تعمل على

مناهضتها بأساليب متنوعة، فتبذلت هذه الصورة تبدلاً عظيماً، وأخـذت الأصوات القوية تردد صراحة وحدة الجنس التي تجمع بين المصريين القدماء والعرب، بالإضافة إلى ثلاثة عشر قرناً، طبعت مصر بطابع خالد من العروبة ومظاهرها وتقاليدها، وإلى ما حل في مصر من قبائل عربية صريحة لا تحصى، غذت مدنها وريفها وباديتها بالدم العربي، وتبين ما في حملة الفرعونية والعزلة عن العالم العربي من أضرار وشطط وتناقض. ولم يلبث أن أخذ التيار العربي الإيجابي بالانتشار شيئاً فشيئاً مع الوقت، إلى أن غدا اليوم الشعور بالذاتية العربية القومية شاملاً، مهما بدا من شذوذ الشعوبيين، وانتهازهم الفرص أحياناً للتعكير والتشويش، وقد دعم هذا دعماً حاسماً تبني الحكومات التي تعاقبت على الدست منذ سنة ١٩٣٦، والأحزاب السياسية للفكرة العربية وأهدافها واندماجها فيها، وغدو ذلك من أسس سياسة الدولة، وقوته يوماً بعد يوم، حتى وصل اليوم إلى الذروة في ظل حكومة الثورة المباركة، وتمثل فيما نص عليه دستورها من أن مصر جزء من البلاد العربية، ومن أن المصريين جزء من الأمة العربية، ثم في ما أخذ يشتد في ظل هذه الحكـومة من هتـاف للعروبـة وأمجادهـا، والشعـور بهـا لـدى مختلف الفئـات في مختلف المناسبات.

وهذا شأن لبنان أيضاً، فقد حرص الافرنسيون، كما قلنا قبل، على أن يجعلوه بمعزل عن تيار الحركة العربية، ونجحوا في ذلك نجاحاً غير يسير، وخاصة في جمهرة موارنته وكاثوليكه بمختلف الأساليب التي بدأوها قبل الحرب العامة الأولى، واستمروا عليها بقوة واصرار، حينما احتلوا لبنان، وصاروا فيه أصحاب الكلمة النافذة.

غير أن هذه الصورة تبدلت هنا كذلك. فقد كان للمساعي الافرنسية ضد العروبة وآثارها الايجابية في الطوائف النصرانية، رد فعل في الطوائف الاسلامية التي يتكون منها نصف سكان لبنان، والتي كان كثير من زعمائها مندمجين في الحركة العربية منذ انبعاثها، والتي تتسق في ميولها وآمالها معها منذ الأصل، ثم التي كانت تستجيب لدعايتها وتيارها، مما كانت آثاره تظهر في مختلف المناسبات والأحداث؛ وقد كان لتميز الاقتصاد الافرنسي وتأثيره في تعطيل مصالح أهل لبنان، وشل صناعتهم وتجارتهم وشركاتهم أولاً، وما كان من صلف الفرنسيين وحمقهم وغطرستهم، وسوء استغلال موظفيهم لمناصبهم وسلطتهم، واستغراقهم في رغبة الاثراء بأي طريق، واقترافهم في سبيل ذلك كل عسف وشذوذ ثانياً، كان لكل ذلك ردّ فعل شديد في نفس كثير من النصارى بما فيهم الموارنة، حيث أدرك الواعون منهم نظرة الازدراء التي ينـظر بها الافرنسيون إلى الجميع، واستخفافهم بهم، وحيث رأوا أن تظاهر فرنسا بحب لبنان وأهله، واشادتها بتقاليدها فيه، ودعـايتها الـطويلة العريضـة في صدده، لم يكن لسـواد عيون لبنـان ونصاراه، وإنما كان وسيلة لبسط السيطرة عليه، وعلى سائر بلاد الشام وجعلها مجالاً لنفوذ فرنسا الاستعماري، وأن الروح الاستعمارية والاستغلالية هي المسيطرة على السياسة الافرنسية من جهة، والمسيرة للافرنسيين من جهة أخرى، فكان لهذا وذاك تأثير غير يسير في زلزلة البناء الذي أقامه الافرنسيون في لبنان، وتصديع السور الحديدي الـذي حاولـوا ضربـه بينه وبين البـلاد العربية، والحركة العربية، والشعور بالذاتية العربية، ولا سيما أن تلك الدعايات والمساعي، لم

تكن مستندة إلى الحقيقة والعلم في شيء، والتي لا يمكن أن تفوت عاقلاً من كون وحدة الجنس الأصلية قبل الإسلام، تجمع بين سكان لبنان القدماء والعرب، ومن كون لبنان والبلاد العربية الأخرى تعيش في وحدة تاريخية ولغوية وسياسية اجتماعية منذ ألف وثلاثمائة سنة، ومن كون أرومات وقبائل صريحة العروبة، قد حلت في مختلف أنحاء لبنان، وخلدت طابع العروبة فيه، ثم من كون لبنان ونصاراه لم يكونوا في معزل عن الفكرة العربية الحديثة، حيث كان منهم من اندمج فيها منذ انبعاثها. وقد كاد هذا التبدل يبلغ ذروته في انفجار تشرين الأول من سنة ١٩٤٣، حينما أعمت الرعونة الافرنسيين، واعتقلوا رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء وغيرهما، حيث تضامن المسلمون والنصارى معاً ضد البغي الافرنسي، وتجاوبت بلاد العرب شعوباً وحكومات مع لبنان، فكان لذلك أثر عظيم في تقوية الشعور بالذاتية العربية، وقد غدا هذا التبدل حاسماً، باعتناق حكومة لبنان التي تتألف عادة من مختلف الطوائف فكرة العروبة، وغدوها من أسس سياسة لبنان منذ هذا الوقت.

وشيء من هذا يقال بالنسبة للمغرب العربي أيضاً، فبالرغم من الخطة الباغية الرهيبة التي ترسمها الافرنسيون فيه، والتي شرحناها في مناسبة سابقة، فإن أهل المغرب ظلوا يقاومون المنهج الافرنسي، ويشتدون في التمسك بعروبتهم وتقاليدهم، إلى أن اشتد تيار الحركة العربية الحديثة في المشرق، فتمكن من أخذ سبيله إليهم شيئاً فشيئاً، والتقى القائمون بالحركة القومية العربية في المشرق والمغرب، وانخرق الستار الحديدي الكثيف الذي ضربته فرنسا بينها ليحول دون تدفق التيار، بحيث يمكن أن يقال ان الشعور بالذاتية العربية القومية من جهة، وبالأخوة العربية العامة من جهة أخرى، يشمل الآن سكان المغرب العربي، كما يشمل سكان المشرق العربي، مهما بدا أن الافرنسيين مشتدون في حرصهم على الاحتفاظ بسيطرتهم، والاستمرار على بغيهم.

- ٩ -

ولقد كان للانفصال البات بين الدولة العثمانية والبلاد العربية التي عاشت في جوها، غير شاعرة بذاتيتها وكيانها القومي، أو غافلة عنه حقبة طويلة، وما تبع هذا من الانقلاب الكمالي الذي أطاح بالسلطنة العثمانية، وكثير من الروابط التي كانت تربط العرب بالترك، أثر غير قليل في انصراف العرب إلى التفكير بذاتيتهم وقوميتهم، وانتشار الشعور بذلك في مختلف طبقاتهم منذ عهد مبكر. ثم ساعد على تقوية هذا الشعور، اتساع النطاق التعليمي، خلال الحقبة التي مرت منذ الانفصال، وما رافق هذا الاتساع من تطور في الكيفية أيضاً، نتيجة لتطور الزمن ووسائل اتصال العالم ببعضه، وسعة اقتباس الأساليب والأفكار، وهزات الحربين العالميتين الشديدة التي هزت العالم، وجعلته يجيش بالدعوات، والمبادىء والحركات والآمال والمطامح المتنوعة، مما لم يكن العرب في معزل عن تأثيره، والحركات الوطنية والكفاحية التي لم تكن تهدأ في البلاد العربية، وما كان من تجارب البلاد معها، والنشاط العربي العام الذي قوي أثناء الحرب العالمية الثانية، واستمر إلى ما بعدها، والذي كان من آثاره مواقف اجماعية رسمية

وشعبية في صدد قضايا العرب، ومؤتمرات الأطباء العرب، ومهندسيهم ومحاميهم الدورية، التي كان يجتمع فيها مئات الأطباء والمهندسين والمحامين المصريين والشاميين والعراقيين والحجازيين واليمانيين والمغاربة، في عواصم العرب، فيملأ اجتماعهم الأسماع والأفكار، بما كان يدور فيه من أحاديث العروبة، ووحدة المصالح والروابط والحوافز التي تجمع بين الشعوب والبلاد العربية، فيتكون بذلك موسم قومي عظيم يمتد أياماً، وتندمج فيه الصحافة والهيئات الاجتماعية المختلفة، ومشاورات الوحدة العربية التي امتدت سنة أو نحوها، والتي كانت تقام في أثنائها الحفلات، وتخطب الخطب، وتذاع الاذاعات، وتكتب المقالات، في آمال العرب وأهدافهم، وقوة ما يجمع بينهم من الروابط، فيتردد صدى ذلك في مختلف أوساط العرب وأقطارهم، فيملأ كذلك الأسماع والأذهان، وقيام جامعة الدول العربية الذي يعد حدثاً خطيراً مهما كانت نتائجه، وما كان يجرى في نطاقها من اجتماعات عربية، ويبحث من قضايا عربية، وينشر حول ذلك من قرارات وتصريحات، ويخطب في مناسباتها المتكررة من خطب الخ، واشتداد أزمة قضية فلسطين، وكارثتها التي غدت كارثة العرب وقضيتهم الأولى، ثم اندماج مصر الثورة في الحركة العربية، واشتداد الهتاف في مصر للعروبة، وهي تمثل نصف العرب المشارقة وجبهتهم البارزة، وما جرى من أحداث عربية هامة في العامين الأخيرين، كانت تعقد بمناسباتها الاجتماعات الكبرى، وتقوم المظاهرات، وتعلن الاضرابات التي كان يشترك فيها جميع بلاد العرب على مختلف فئاتهم؛ كل ذلك كان من مقويات الشعور بالقومية العربية، واتساع نطاقه في جميع البلاد العربية.

- ١٠ -

غير أن كل هذا لم يكن من شأنه أن يجعل هذا الوعي قوياً إيجابياً عميقاً ومتحركاً بذاته ولا شعورياً، بدليل ما نراه من جمود تجاه كثير من الأحداث الداخلية والخارجية التي حدثت بالبلاد العربية، خلال الحقبة التي مرت عليها، ثم بدليل ما نراه من تعثر الدعوة إلى الوحدة، وضعف التضامن العربي العام ازاءها، وعدم التجاوب معها تجاوباً صادقاً، مع شدة ادراك العرب لضرورتها وخطورتها في حياتهم. ولو كان هذا الوعي قوياً إيجابياً عميقاً متحركاً بذاته، لكان الرأي العام العربي في صدد الوحدة كاسحاً، قادراً على أن يملي إرادته ورغبته على رؤسائه وساسته، ولما جرؤ هؤلاء على الوقوف في طريقها، وتعسيرها بأنانيتهم ومآربهم واعتباراتهم الاقليمية والشخصية والأسروية، لأن من شأن مثل هذا الوعي أن يحطم كل عقبة، وأن يزيل كل عثرة.

ولقد يكون مرد هذا إلى قصر المدة التي مرت على العرب في دور يقظتهم الحديثة، بالنسبة للمدة الطويلة التي مرت عليهم في دور غفوتهم، لأنها نسبة أربعين سنة إلى أكثر من ألف سنة. فقد تكون هذه المدة الطويلة، قد خدرت أعصاب الشعوب العربية، ثم رسخت جذور التخدير، وجعلته ينتقل بالأسوة والتقليد والبيئة من جيل إلى جيل، فكانت هذه اللامبالاة التي هي تعبير آخر عن جمود الوعي وسلبيته.

ولقد يكون مرد هذا إلى الجهل أيضاً. فبالرغم مما كان من التقدم العظيم الذي أصابه العرب في مجال التعليم، خلال الخمسين سنة التي مرت على يقظتهم، فإن الأمية في بلاد العرب ما تزال تسود أكثريتها الساحقة. فهي في مصر والعراق والأردن نحو ٧٠٪، والشام وفلسطين ٥٠٪، والسودان وجزيرة العرب والمغرب العربي ٨٥٪ أو ٩٠٪، والجهل كان ولا يزال السبب الأقوى لما ترتكس فيه الأمة من فقر وضعف ومرض وفوضى وخمول وسوء خلق وذوق وسطحية في فهم الحياة وأهدافها والعمل لها واللامبالاة بأحداثها الهامة، ثم لما هو بارز من ضعف الانسجام والتماسك والاتساق فيها من جهة، والتفاوت العظيم بين طبقاتها من جهة أخرى، حتى ليصح أن يعد بذاته عقبة من العقبات في سبيل الوحدة العربية.

على أن هذا وذاك، ليس السبب لجمود الوعي القومي وسلبيته، على شدة أثرهما. فالغفوة الطويلة، لم تمنع من انتشار الوعي في الأمة العربية الانتشار الواسع الذي وصفناه. ومعظم سكان المدن العربية غير أميين، وفيهم جمهرة كبيرة نالوا حظاً لا بأس فيه من العلم، ومنهم آلاف مؤلفة أتموا دراساتهم الثانوية والجامعية، ومع ذلك فإن آثار جمود الوعي وضعفه وسلبيته في المدن ملموسة بقوة أيضاً. ولو كانت المشكلة مشكلة جهل وامية فقط، لكان الوعي في المدن قوياً متحركاً بذاته، ولكان من الممكن أن يكون فيه الغناء، أو شيء كبير منه، لأن المدن هي الجبهة الأمامية البارزة التي عليها المعول الأكبر في الحركات والمطالب العامة. وإنما السبب الأهم كما يبدو لنا، هو ضعف التنظيم الشعبي المتغلغل في مختلف أنحاء كل بلد، والذي هو المساعد القوي على إثارة الأفكار والأنظار والمشاعر لكل دعوة وحركة وتركيزها، واحداث رد فعل إيجابي فيها، يجعل الناس يتجاوبون مع الدعوة والحركات والقائمين بها. فهذا النوع من التنظيم، يكاد يكون مفقوداً في بلادنا، في حين أنه كان من أهم ركائز الحركات القومية والتوجيهية في البلاد التي توحدت في العصر السابق. ونعتقد أن ما كان من ثغرات أو عثرات عديدة متنوعة في أثناء النضال مع الأجنبي، أو النشاط في مختلف المجالات الأخرى، يرجع إلى هذا السبب أيضاً.

ومن المؤسف أن الذين قاموا بالحركات النضالية والحزبية من رجال العرب وشبابهم، لم يعيروا هذه المسألة العناية التي تستحقها. وقصارى ما كانوا يفعلونه أعمال ارتجالية، كانت تؤدي إلى فورات دون تنظيم وتغلغل واستمرار، يضمن توسعاً وعمقاً وتحريكاً ذاتياً. ولذلك كانت هذه الفورات لا تلبث أن تخمد، إذا ما صدمتها طوارىء خاصة وعامة ليست بالحسبان، حتى صرنا مضرب المثل «تفور ثم تغور».

ولقد كانت الفورات تصل أحياناً إلى أن يكون منها بطولات رائعة، ويكون معها تضحيات عظيمة، وتغدو كالبركان المتفجر الذي لا يقف أمام حممه شيء. ثم يطرأ بعض الطوارىء والأسباب الداخلية والخارجية، أو النفسية أو الشخصية، فيكون خمود وانكماش عجيبان متناقضان أعظم التناقض، مع ما كان من شدة الفورة والاندفاع والحماس.

وقد يكون من الأسباب المهمة لجمود الوعي القومي وسلبيته، ازاء مطلب الوحدة بنوع خاص عدم قيام جهاز متفرغ شامل وقوي يدعو إليها، ويعمل على نشر فكرتها في مختلف الأوساط، وبمختلف الأساليب والمناسبات. فليس من المعقول أن تتم الوحدة أو الاتحاد بمجرد الكلام فيها في المجالس، وتقديم المذكرات، ونشر المقالات واصدار التصاريح والقاء الخطب، وتسجيل الآراء في وجوبها وضرورتها، وتوافر دواعيها في المناسبات المتباعدة، وإنما يحتاج هذا الأمر الخطير إلى أعمال ناجعة، من أهمها جهاز قوي، يعمل له بدأب واستمرار في كل مكان، ينشر دعوته، ويفند المزاعم والشكوك التي تثار حوله، ويعقد المؤتمرات العامة والخاصة لوضع الخطط وبحث الخطوات في سبيله، ويقوم بالاتصالات الشخصية مع ذوي الشأن في صدده، ويقوي الوعي العام فيه، وينظمه، ويجعله متغلغلاً، وينتهز الفرص ويخلقها، ويبذل جهده القوي في إزالة العقبات من طريقه بأي وسيلة كانت.

ومع الأسف الشديد، نقول: إن إيمان الذين يدعون الايمان بالوحدة من العرب ليس قوياً قوة كافية، سواء أكانوا من الساسة الذين يتقلدون من حين إلى آخر مقاليد الأمور في بلادهم، أو من الفئات القومية الواعية الأخرى، لأن الايمان القوي يدفع صاحبه إلى العمل بمقتضى إيمانه، ولا يكتفي بالكلمة العابرة تكتب أو تقال، أو تساق في المناسبات.

ولقد كانت محاولات عديدة بسبيل إيجاد مثل هذا الجهاز. منها محاولة المؤتمر العربي المنعقد في القدس، في كانون الأول ١٩٣١، الذي ذكرنا خبره في مناسبة سابقة. فقد انبثق عن هذا المؤتمر لجنة تنفيذية، اضطلعت بمهمة الدعوة إلى مؤتمر عربي عام، لبحث موضوع الوحدة، والأشكال والأساليب المناسبة، ووضع الخطط الكفيلة بتحقيقها. وكان من جملة المراد تقريره إحداث تشكيلة قومية، لها فروع في كل بلد، متفرغة للدعوة إلى الوحدة، وتهيئة الأفكار والأساليب والعمل لها. وقد قطعت شوطاً كبيراً في سبيل مهمتها، وكادت أوراق الدعوة ترسل لعقد المؤتمر، في ربيع سنة ١٩٣٣، لولا وقوف الانكليز في طريقه بأسلوب ماكر، ثم وفاة الملك فيصل في خريف هذه السنة، على ما شرحناه في فصل سابق.

ولقد كان العراق يبدو إذ ذاك بمثابة بروسيا العرب، بل وينعت بهذا النعت، وكان فيصل يبدو معقد الأمل في الحركة القومية، والدعوة إلى الوحدة العربية، ولم يكن هناك بلد عربي آخر تساعد ظروفه السياسية والمحلية على عقد المؤتمر فيه، كما لم يكن هناك زعيم قوي لديه الامكانيات لتبني المؤتمر وإنجاحه. ولا نريد أن نخلي بهذا رجال المؤتمر العربي من اللوم، لأنهم كانوا جبهة الحركة العربية القومية المتلألئة، كما يستفاد من أسمائهم التي أوردناها قبل، ولو كان إيمانهم قوياً - ولا نبرىء أنفسنا لأننا كنا منهم - لما وقفوا عند هذه الصدمة، ولظلوا دائبين في سبيل المهمة التي انتدبوا أنفسهم لها.

ولقد قام في دمشق تشكيلة قومية باسم عصبة العمل القومي، من أهدافها الرئيسية العمل

للوحدة العربية، اندمج فيها كثير من الشباب الواعي، ونشأ لها فروع في أنحاء عديدة، وعقدت مؤتمراً قومياً سنة ١٩٣٤، شهده مندوبون من مختلف بلاد العرب لبحث المناهج والخطوات، وقرر قرارات مهمة في هذا الباب، ولكن همة العصبة لم تلبث أن فترت عن النشاط القومي الذي من شأنه وحده تحقيق الأهداف، مما يدل كذلك على أن الايمان الذي كان يحرك رجال هذه العصبة لم يكن قوياً قوة كافية، يجعلهم دائبين على العمل للهدف الذي وضعوه نصب أعينهم.

ولقد نشطوا في سنتي ١٩٥٤ و ١٩٥٥ بعد فترة ركودهم الطويلة، فاعلنوا عزمهم على عقد مؤتمر قومي عام، لبحث مشاكل العرب وقضاياهم، وخاصة قضية الوحدة، وعقدوا في صيف سنة ١٩٥٥ فعلاً مؤتمراً في قرنايل ـ لبنان. غير أن هذا المؤتمر، لم يكن كما فهمنا من إعلانهم، قومياً عاماً جامعاً، ولم تتعد قراراته الأماني وتقرير الآراء، تجاه مختلف القضايا العربية، ولم ينبثق عنه جهاز فعال يتفرغ للدعوة إلى الوحدة.

ولقد فكرت جمعية الوحدة العربية في مصر، بالدعوة إلى مؤتمر عربي عام، لبحث المناهج والخطوات إلى الوحدة العربية، في سنة ١٩٤٦، وألفت لجنة جمعت رجالاً بارزين من مختلف الفئات، كان منهم الشيخ حسن البنا، ومحمد صلاح الدين، ومنصور فهمي، وعبد الرحمن الرافعي، وأسعد داغر إلخ، وكان من أغراضها إحداث تشكيلة باسم جامعة الشعوب العربية، لدعم جامعة الدول العربية، أو مراقبتها، وجعلها أكثر فعالية وتجاوباً مع الرأي العام العربي، سواء في التعاون الصادق الوثيق، أم في تطوير ميثاق الجامعة إلى ميثاق اتحادي تنفيذي، وخطت بعض الخطوات إلى ذلك، حتى أرسلت، أو كادت ترسل، الدعوات لانعقاد المؤتمر في خريف سنة ١٩٤٦. ثم توقفت الحركة بتدخل بعض ساسة العرب، تأثراً بالاعتبارات الاقليمية والشخصية، ولم يكن إيمان القائمين بها أيضاً قوياً قوة يجعلهم يتغلبون على هذا التدخل، أو لا يبالون به، ثم يمضون في تهيئة أسباب إنجاح فكرتهم وعزيمتهم.

وفي سنة ١٩٥١، فكرت جمعية الاتحاد العربي في مصر برئاسة علي ماهر، بالدعوة إلى مؤتمر عربي عام للغايات نفسها، وأرسلت منشوراً بذلك إلى كثير من رجال العرب في مختلف الأقطار العربية، ثم أوفدت وفودها إلى هذه الأقطار للاتصال الشخصي، ولقيت فكرتهم ترحيباً؛ غير أن نشاطهم لم يلبث أن فتر هم الآخرون، مما يدل على عدم توفر الإيمان القوي فيهم كذلك.

ولقد ذكرنا في فصل سابق أن خريجي جامعة بيروت الأمريكية، عقدوا مؤتمراً في حزيران عام ١٩٤٥ كان من أهم مواضيعه الاتحاد العربي، وأنه قرر تأليف لجنة مهمتها وضع دستور مفصل لدولة اتحادية، والسعي في سبيل حمل الدول العربية على الأخذ به، ولم تقم اللجنة بمهمتها المذكورة في خلال الخمسةعشر شهراً التي مرت على الانعقاد الأول، والانعقاد الثاني الذي تم في القدس في ٢١ أيلول ١٩٥٥.

ولقد تحول المؤتمر إلى مؤتمر الخريجين الدائم، واتسع نطاقه حتى شمل خريجي جميع الجامعات والمشتغلين بالقضايا العربية. ولما انعقد بهذا النطاق الجديد الواسع في التاريخ المذكور، كان موضوع الاتحاد من مواضيعه الهامة. وقد قرر قرارات مفيدة وقوية في هذه المواضيع، من جملتها اتمام وضع دستور لدولة اتحادية، كما قرر الإبقاء على مكتبه الدائم، وتشكيل شِعَبٍ له في الأقطار العربية، للعمل على ملاحقة قراراته وتواصيه، مما يبعث الأمل في أن يكون لهذه المنظمة نشاط كبير مجدٍ في الحركة العربية القومية وأهدافها التي تأتي الوحدة في مقدمتها. غير أن المتبادر أنها لن تكون الجهاز المنشود لأنها أخذت على عاتقها الاضطلاع بمختلف القضايا العربية، وهذا مما لا يجعلها متفرغة للدعوة إلى الوحدة، في حين أن التفرغ أساس مهم للنجاح.

ونحن نعرف أن معظم أحزابنا تذكر في مناهجها الوحدة العربية كهدف من أهدافها الرئيسية، ولكن المشاكل والسياسات المحلية، تستغرق كل أوقاتها، وتستنفد كل جهودها، فلا يكون لذلك الهدف في الأغلب نصيب، إلا في مجال النظريات والأحداث الطارئة، دون أن يحظى باهتمام وعمل جدي خاص.

ولقد قرر الدستور السوري أن العرب أمة واحدة، وأن سورية جزء منها، وأن الوحدة غايتها المثلى، وأوجب على رئيس جمهورية سورية ونوابها العمل لها، وادخلت ذلك نصاً في القسم الذي يؤدونه، حينما يتم انتخابهم، وقبل مباشرتهم لمهامهم. وكان يقتضي أن يكون في مجلس النواب السوري لجنة باسم لجنة الوحدة العربية، خاصة لدرس ووضع الخطط والأساليب والخطوات التي تضمن تحقيق ذلك القسم.

عقبات داخلية أخرى

ويساق من قبل كثير من الباحثين عقبات داخلية في طريق الوحدة العربية منها: اختلاف نظم الحكم.

فالدول العربية القائمة في مختلف أنحاء الوطن العربي مختلفة في نظم الحكم اختلافاً كبيراً. فمنها ما هو جمهوري دستوري نيابي. ومنها ما هو جمهوري دستوري نيابي رئاسي. ومنها ما هو ملكي وراثي دستوري نيابي. ومنها ما هو ملكي وراثي مطلق. ومنها ما هو إمارات وسلطنات. ومنها ما لا تشوب سيادته أي شائبة. ومنها ما تشوب سيادته بعض الشوائب، من احتلال وارتباطات عهدية، على ما شرحناه في الفصل الأول من الكتاب. بل ومنها ما تكون الرئاسة فيه قائمة على اعتبارات دينية وطائفية.

فمن شأن هذا الاختلاف أن يجعل الدعوة إلى الوحدة، والاستجابة إليها متعثرة، لعدم امكان قيام الانسجام والتوافق اللذين لا بدّ منهما، في أي شكل من أشكال الوحدة. وكثير من الباحثين يرون بالاضافة إلى ذلك، أن نظام الحكم الوراثي والطائفي، قد يكون من العقبات في

طريق الوحدة. لأن الوحدة على أخف أشكالها لا بد من أن تقتضي تنازل أصحابه عن شيء من سلطانهم واعتباراتهم، مما يمكن أن يكون من الصعوبة بمكان عظيم.

ومنها الفوارق العظيمة بين مختلف سكان أقاليم الوطن العربي؛ حيث يبدو الشعب العربي طوائف متفاوتة تفاوتاً كبيراً في الحياة والتنظيم والدرجات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

فالجزيرة العربية مثلاً، يعيش معظم سكانها عيشة البدو، مرتكسين في الجهل، منطوين على أنفسهم، منعزلين عن الحياة الحديثة انعزالاً يكاد يكون تاماً. والذين يعيشون منهم في المدن والقرى وإن كانوا أحسن حالاً، إلا أنهم هم الآخرون منعزلون عن الحياة الحديثة انعزالاً غير يسير.

والنظام الذي يقوم في دول الجزيرة، مختلف عن النظام الذي يقوم في الدول العربية القائمة خارجها، من حيث انه يستمد وجوده ومناهجه وسيرته من تقاليد قديمة أسروية وقبلية، ومن حيث انه حكم فردي وأسروي وعشائري، ولا يكاد يوجد صلة أو تماثل بينه وبين الحكم الشعبي الذي يستمد من القوانين والأنظمة المتسقة مع الحياة الحديثة، والذي تتعين فيه التبعات والحقوق تعييناً محدداً، والذي يقوم ظاهراً أو حقيقة، قليلاً أو كثيراً، في الدول العربية خارج الجزيرة.

فمن العسير جداً في نظر أولئك الباحثين، أن يكون انسجام بين الجزيرة، وبين بقية الأقطار العربية، ليكون منها كيان واحد سياسي واقتصادي واجتماعي وعسكري إلخ.

ويقال هذا بالنسبة للسودان الذي تقرب مساحته وعدد سكانه من مساحة جزيرة العرب، وعدد سكانها أيضاً. لأن معظم سكانه في حالة تشبه حالة سكان الجزيرة اجتماعياً وثقافياً، وكل ما هناك من فرق أنه قام فيه حكومة مدنية حديثة، تشبه الحكومات العربية خارج الجزيرة.

ومنها ما يفصل بين أقطار العرب من أبعاد شاسعة وعوارض طبيعية بارزة، فبين الشام والعراق مئات الأميال من الصحارى الرملية المقفرة والعطشاء، ويقال هذا بالنسبة لأقطار الجزيرة فيما بينها، كالحجاز ونجد واليمن والشمال والجنوب والشرق والغرب، ثم بالنسبة للعراق والجزيرة، وبالنسبة لمصر والمغرب العربي، وبالنسبة للسودان الذي هو قارة برأسه إلخ.

فهذه الأبعاد الشاسعة والصحارى القفراء التي خلت من طرق معبدة وسكك حديدية وعمران وسكان، والتي تفغر فاها لابتلاع الذين يجرأون عليها، مما يجعل التواصل بين أقطار العرب، وبالتالي قيام كيان موحد عام يجمعها، عسيراً في نظر كثير من الباحثين كذلك.

سادساً

معالجة
العقبات في طريق الوحدة

مهما تكن خطورة العقبات القائمة في طريق الوحدة العربية، فإن من الحق أن يقال ان معظمها موقوت ليس من طبيعته الاستمرار، ومنها ما بدأ يتجه نحو التضاؤل والزوال، ومنها ما يمكن معالجته والتغلب على ما يقوم بسببه من إشكالات معسرة للوحدة، وبالتالي ليس فيها ما يدعو إلى التشاؤم واليأس، على ما يتضح من الشروح التالية:

مُعَالجة العقبات الخارجية

عقبة الاستعمار وإمكان التغلب عليها بالكفاح

إن الاستعمار الذي هو من أشد العقبات، مهما انبسط على أنحاء عديدة من الوطن العربي في المشرق والمغرب، على اختلاف في قوة القبضة وخفتها، لا بد من أنه صائر إلى الزوال في أمد قريب، مهما خيل للمرء أنه بعيد. ونعتقد أن هذا الأمر لن يتجاوز الخمسين سنة على أبعد تقدير، وهو أمد قصير بالنسبة للدهر. ومن بلادنا ما سترتفع عنه يد الاستعمار في عشر هذه المدة، بل ومنها ما يؤمل ارتفاعها عنه خلال سنة أو أقل.

فقوة الروح القومية، وفكرة استقلال الشعوب، وحقها في الحياة الحرة المستقلة، واستنكار الاستعمار، والسيطرة العدوانية الاستغلالية على البلاد والشعوب الأخرى، ومناوأته في البلاد التي ابتليت به، كل ذلك آخذ بالنمو والاتساع، وهو اليوم شامل لآسيا وأفريقية معاً، حتى لقد اندمج فيه زنوج كينيا ونياسالاندا وأوغندا وسناغامبيا وغيرها وغيرها، وليس في استطاعة المستعمرين تجاهل ذلك، والصمود له طويلاً، لأن مكافحيهم أكثر منهم عدداً بأضعاف مضاعفة، وستظل روح الكفاح فيهم تنمو وتقوى، حتى لا يعود للاستعمار مناص من الانهيار طوعاً أو عنوة.

والانحاء العربية التي ابتليت بالاستعمار، ووقعت تحت وطأته الثقيلة والخفيفة، لم تسكت عنه منذ ابتليت به، وهي في كفاح مستمر معه، ومنها ما ضرب في كفاحه أروح الأمثال في البطولة والتضحية والجلد والدأب، وزلزل الأرض وما يزال يزلزلها تحت أقدامه، مهما كابر ومكر وبطش وابتكر من الأساليب، وعمد إليه من المراوغات، ومنها ما أدى كفاحه إلى تحرره من نيره.

ونظرة إلى تاريخ هذا الكفاح وأطواره في مختلف أنحاء الوطن العربي، كافية للتأكد من قوة حيوية العرب وروحهم القومية النضالية، واستعدادهم للاستمرار في كفاحهم وتحمل ما يقتضيه من شدائد، وتقديم الضحايا الغالية من أموال ونفوس في سبيل الكرامة والعزة والحرية والاستقلال، إلى أن تكتب لهم الغلبة، ويقوّضوا طاغوت الاستعمار في بلادهم.

وقد يكون في سرد سيرة هذا النضال، تدليل على قوة حيوية العرب وتحملهم، وتصميمهم على الخلاص من قبضة الاستعمار، مهما لقوا من عنت وإرهاق، وعلى الأمل الكبير في تحقيق هدفهم هذا.

معالجة العقبات الداخلية

١ ـ جمُود الوعي العَام وسلبيته

قلنا في بحث هذه العقبة: إن الجهل من أسبابها المهمة، وأنه ليصحّ أن يعد عقبة بذاته، لأنه سبب قوي من أسباب ما ترتكس فيه الأمة العربية في مختلف أوطانها، من خمول وجمود وفوضى وفساد أخلاق وأذواق، وضعف انسجام واتساق، وتفاوت عظيم بين الطبقات ـ مما هو عقبات في سبيل الوحدة بذاتها. ونقول هنا: إن عقبة الجهل ليست طبيعية دائمة، وان التغلب عليها في نطاق الامكان، بل وإنها لفي طريق الزوال.

ونطاق التعليم قد اتسع اتساعاً عظيماً، وما يزال يتسع سنة بعد سنة، حتى لقد قفز في بعض بلادنا قفزات هائلة، فضاعف عدد الطلاب والمدارس عشرة أضعاف وأكثر نوعاً وكمية في خلال أربعين سنة.

والشوق إلى العلم في مختلف أنحاء الوطن العربي، ولدى الذكور والاناث معاً، عظيم جداً، حتى يكاد المرء يندهش، إذا ما قايس بين الحالة الآن، والحالة قبل أربعين سنة. والحكومات العربية تبذل جهداً كبيراً في التجاوب مع هذا الشوق، وتنشىء المدارس بأعداد كبيرة سنوياً. ولقد زاد عدد الطلاب في مصر، مثلاً، في سنة ١٩٥٣ نصف مليون، عن عددهم في سنة ١٩٥٢، حيث كان نحو مليون ونصف، فغدا مليونين، ثم غدا في سنة ١٩٥٤ - ١٩٥٥ مليونين ونصفاً(٥٨). وشيء من مثل ذلك يقع في بلاد الشام والعراق والمملكة السعودية، بل وأنحاء الجزيرة العربية الأخرى. فإذا ما استمر يسير على هذه الخطة، وهو ما تدل البوادر على استمراره، وما يجب أن تكثف الجهود في سبيله، وتشتد الدعوة إليه ـ أمكن أن يقال

بشيء من الجزم، بأنه لن يمر خمس عشرة سنة، على أكبر تقدير، حتى يكون لكل ناشىء في سن الدراسة مقعد مدرسي في معظم البلاد العربية، وخاصة في بلاد الشام ومصر والعراق، ومدن السودان وجزيرة العرب[٥٩].

وتبذل الجهود الآن في بلاد الشام ومصر والعراق، في مكافحة الأمية في الذين تجاوزوا سن الدراسة، أو الذين هم في هذه السن، ولا تمكنهم ظروفهم من الانتظام في المدارس. ويعض هذه المدارس، كسورية مثلاً، جعلت محو الأمية واجباً، ينص عليه دستورها. ومن الحق أن نقرر أن الجهود المبذولة ليست كافية لتحقيق الهدف كمية وكيفية، وأن من الواجب تشديد الدعوة إلى مضاعفتها وتحسينها، ووضع الخطط الكفيلة بذلك.

ومن الوسائل الناجعة إلى ذلك إنشاء إدارة أو مصلحة خاصة، وسن القوانين والأنظمة التي تخول هذه الإدارة السلطات التالية:

١ ـ إجبار أصحاب المصانع والمعامل والمشاغل والمزارع والمؤسسات المتنوعة الأخرى، تحت طائلة الغرامات المتضاعفة، وتحت مراقبة هذه الإدارة، على تعليم الأميين الذين يعملون عندهم خلال مدة معينة.

٢ ـ تجنيد كل من يحمل شهادة متوسطة وثانوية، من موظفي الدولة وغيرهم، في تعليم الأميين مدة معينة من الزمن، كواجب الزامي، مثل واجب الجندية، ومقابل مكافأة يسيرة.

٣ ـ الزام مديري المدارس الابتدائية والمتوسطة الحكومية والأهلية في المدن والقرى، بالاشراف على هذا التعليم، مقابل مكافأة إضافية يسيرة.

٤ ـ حق وضع اليد على كل مكان صالح لفصول الأميين ليلاً أو نهاراً، من مساجد وزوايا وأندية وقاعات وساحات، بالإضافة إلى المدارس الحكومية والأهلية، وإنشاء فصول لتعليم الأميين فيها في الأوقات المناسبة.

٥ ـ حق فرض ضريبة إضافية على الملاهي والمقاهي والدخان بصفة طابع، لضمان النفقات اللازمة للمشروع، أو تخصيص مبلغ كاف لها من ميزانية الدولة.

٦ ـ إجبار كل أمي من الذكور والاناث والصغار والكبار، على الانتساب لأحد فصول التعليم، والحصول على شهادة تشعر بزوال أميته، تحت طائلة الغرامات المتضاعفة والحبس.

ويجب إلى هذا العناية بكيفية تعليم الأميين، بحيث لا يقتصر على القراءة والكتابة البسيطة التي قد تزول بعد مدة من الاهمال، بل يجب أن تطول مدة التعليم أمداً كافياً لرسوخ القراءة والكتابة من جهة، وأن يضاف إليهما شيء من المبادىء الدينية والوطنية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية والحسابية، لينتفع الأمي بما تعلم، ويغدو به عضواً نافعاً في مجتمعه.

فإذا ما سير على خطة، مثل هذه الخطة ـ وهي ليست من الأمور المتعذرة على الجهد والجد ـ أمكن في مدة لا تزيد كذلك على خمس عشرة سنة، على أكبر تقدير، إزالة الأمية.

ولقد كان الاهتمام للتوجيه القومي في المدارس ضعيفاً بسبب هيمنة المستعمرين على برامج التعليم، ولقد زالت هذه الهيمنة عن معظم البلاد العربية التي ابتليت بها، فاشتد الاهتمام لهذه الناحية. فإذا ما اتسع نطاق ذلك، وهو ما تدل البوادر عليه، وما يجب تشديد الدعوة إليه، صار من المأمول أن تنشأ الناشئة العربية قوية الوعي القومي.

ولقد كانت المناهج والدورات الدراسية مختلفة في بلاد العرب، فاتجهت الأفكار إلى توحيدها، تحقيقاً للتناسق والانسجام الفكري والثقافي والقومي في الأمة العربية، وقد عقدت خمس دول من دول الجامعة العربية، وهي مصر وسورية والأردن والعراق ولبنان، في سنة ١٩٥٧، اتفاقات ثقافية فيما بينها، لتأمين هذه الناحية. فإذا ما عم ذلك، وسير في سبيله خطوات سريعة وجدية ـ وهو ما يجب تشديد الدعوة إليه ـ صار تحقيق ذلك الهدف في حيز الواقع، واتحدت نتيجة له الأفكار والاتجاهات، وقوي بالتالي البنيان القومي العام.

ومما لا ريب فيه أن اتساع نطاق التعليم وشموله لمختلف فئات الأمة، مع قوة التوجيه القومي، سيكون عاملاً قوياً في تبديل صفتي الجمود والسلبية في الوعي العام، وغدوه إيجابياً متحركاً بذاته، وخاصة إذا اشتدت الدعوة إلى الشباب المثقفين، بالاقدام على الاضطلاع بعبء التنظيم الشعبي المتغلغل، وبث فكرة الوحدة ومقوماتها وضرورتها وفوائدها، والعقبات الداخلية والخارجية في طريقها، بين مختلف الطبقات، وعلى أوسع نطاق ممكن، واستجابوا إليها بجد وجلد وتضحية، وهو المأمول فيهم، بل والذي لا مناص لهم عنه، لأنه متصل بصميم وجودهم ومستقبلهم، كان ذلك أيضاً عاملاً مؤثراً في تبديل صفة الوعي القومي العام، إلى الإيجابية الذاتية المتحركة، واتساع نطاقه، وغدوه كاسحاً يملي إرادة الأمة على الرؤساء والساسة، ويجعل تجاوبهم مع الرغبة العامة في التجرد عن الأنانية والاعتبارات المتنوعة، والسير في اتجاه الوحدة وتحقيقها أمراً لا مناص لهم عنه. وكل هذا في نطاق الامكان في أمد غير طويل. ولقد كثر عدد الشباب المثقف ثقافة جامعية وثانوية كثرة عظيمة، حتى ليمكن أن يقدر عدد الذين يحملون شهادات جامعية في البلاد العربية بما لا يقل عن مئة ألف، والذين يحملون شهادات ثانوية بما لايقل عن ثلاثمائة ألف. ولقد بلغ عدد طلاب الجامعات في مصر وحدها سنة ١٩٥٤ خمسة وخمسين ألفاً ونيفاً ـ عدا جامعة الأزهر التي يتجاوز طلابها الخمسة عشر ألفاً، يضاف إليهم ما لا يقل عن خمسة عشر ألفاً في جامعات دمشق وبيروت وبغداد(٦٠)، مما فيه مظهر باهر لاتساع نطاق الثقافة الجامعية، والشوق إليها في النشءالعربي، ومما سوف يزيد عدد الذين يتهيأون للعمل القومي العام. فهذه الكثرة، ستساعد إلى درجة كبيرة على ذلك، إذا ما اشتدت الدعوة إليه، وهو ما يجب على الهيئات القومية توجيه الجهود والاهتمام نحوه.

وإذا كان حقيقة أن العلم والشهادات لا تخلق وحدها الرجال الاكفاء، ولا تجعلهم ذوي جلد وإقدام، وان كثيراً ما يوصف الجيل الجديد بالميوعة الاخلاقية والوطنية التي تبعث على ضعف الثقة فيه، وعدم الجدوى في التعويل عليه، فإن من الحق أن يقال ان هذا طور طبيعي في مثل حالة امتنا، التي استيقظت من جديد، وواجهت ناشئتها من ظروف الحياة ووسائلها، ما لم

يواجهه الجيل السابق. ومما لا شك فيه أن اتساع نطاق التعليم، سيجعل الصالحين أكثر عددا، كما أن التجارب والحقائق والأخلاق ستجعل الصالحين يقبلون على الاضطلاع بواجبهم الذي شرحناه آنفاً، ويقومون به بجد ودأب. وهو ما تقوم الشواهد عليه في كل قطر من الأقطار العربية، وما أخذت تبدو آثاره الايجابية التي يرجى اتساع نطاقها يوماً بعد يوم.

٢ ـ الطائفية

مهما يكن من أمر هذه العقبة، فمما لا ريب فيه أن اتساع نطاق التعليم وشموله، وما ينشأ عنهما من اتساع نطاق الوعي القومي، وتبدل صفته من الجمود والسلبية إلى الايجابية والحركة الذاتية، سيكون عاملاً قوياً في التغلب عليها.

ولقد قلنا في شرح هذه العقبة، إنه كان لعمال الدولة العثمانية أولاً، وللمستعمرين في أيام هذه الدولة، ثم في عهد استعمارهم ثانياً، أثر كبير في إثارة النعرات الطائفية بين أبناء الوطن العربي، لأن ذلك مما كان يؤدي إلى التفرقة والتباغض بينهم، وييسر بالتالي لهؤلاء وأولئك، انبساط اليد والحكم على بلاد العرب واستغلالها لمآربهم. ولقد زال حكم الدولة العثمانية، ثم زال سلطان فرنسا عن سورية ولبنان، وسلطان بريطانيا عن مصر والسودان والأردن والعراق، وضعفت هيمنة فرنسا في تونس ومراكش أو زالت من الشؤون الداخلية والثقافية، وليس لبريطانيا وأمريكا هيمنة على هذه الشؤون في ليبيا. ولقد قام مقام سلطان الأجانب في هذه البلاد حكم وطني، يشترك فيه أبناء الوطن على اختلاف طوائفهم، ويتمتع أبناء المجتمع في ظله بجميع الحقوق، ويقومون بجميع الواجبات، ويندمجون في مختلف المصالح والأحداث والتشكيلات على قدم المساواة. فمما لا ريب فيه أن هذا قد خفف من حدة تلك النعرات، وسيستمر على تخفيفها، إلى أن تزول نهائياً.

ولقد أخذ ينشأ في كل طائفة كثير من الشباب والكهول المدركين للأسباب الصحيحة للنشأة الطائفية واتقاد نارها، وكون ذلك لا يمت إلى الدين الصحيح في شيء، وإنما هو نتيجة للدسائس الأجنبية والشهوات والمآرب الشخصية والأسروية قديماً وحديثاً، وان الدين في جوهره صاف سمح، يدعو إلى المحبة والمودة والوئام والسلام والمساواة والتعاون، ويحذر من التباغض والتنابذ والأحقاد والمنازعات، وأن الطوائف هي ضحية تلك الدسائس والشهوات، انه ليس هناك أي تضارب وتناقض بين مصالح الطوائف المختلفة في مجال الحياة على اختلاف صورها، وأن أبناء هذه الطوائف متحدون في التاريخ واللغة والروح والمصالح والعادات والتقاليد، وأن الأفضل والأوجب أن يحيا أبناء الوطن العربي حياة قومية بريئة من النعرات الطائفية وأحقادها وملابساتها. ونطاق هذه الناشئة آخذ بالاتساع يوماً بعد يوم، فهذا أيضاً قد خفف من حدة تلك النعرات، وسيستمر على تخفيفها كذلك، إلى أن تزول نهائياً.

ولقد كانت المدارس الطائفية، الدينية وغير الدينية، والأجنبية والأهلية، من عوامل إيقاظ روح الطائفية. وقد أخذ كثير من أبناء الطوائف، يدرسون في مدارس حرة وحكومية، جنباً إلى

جنب، ويتخلصون بذلك من الجو الطائفي الصرف، وخاصة من تأثير رجال الدين المتعصبين، الذين يشرفون في الأغلب على هذه المدارس الطائفية والأجنبية، ومن الأساتذة الأجانب الذين يثيرون النعرات الطائفية. ونطاق هذا الاتجاه آخذ في الاتساع، ولسوف يساعد هذا كذلك على تخفيف حدة هذه العقبة وإزالتها نهائياً.

ومن الواجب في هذا الباب، أن تشتد الدعوة إلى تعاون نبهاء الطوائف ومخلصيها، تعاوناً صادقاً على تقريب أمد زوال هذه العقبة. وذلك بالسير على خطة وأساليب من شأنها تنوير الأفكار، وتوضيح الحقائق من جهة، والجمع بين أبناء الطوائف في مختلف المناسبات، وبث روح المحبة والولاء بينهم من جهة أخرى. ومن واجب الحكومات أن تساهم في رسم وتنفيذ هذه الخطة بنصيب كبير، لأن إمكانياتها تساعدها على ذلك، وبهذا تضعف قوة التمييز والافتراق في الكبار والجيل الحاضر. أما بالنسبة للأطفال، فيجب أن تتكفل مناهج التعليم بمعالجة هذه المشكلة فيهم، بحيث يكون التعليم القومي المشترك هو سياسة التعليم العامة في الوطن العربي، حتى يسهل بذلك اندماج الجيل الجديد والأجيال القادمة، تحت لواء القومية الخفاق، اندماجاً يصبح مع الزمن كاملاً تاماً. ومن حسن الحظ أن هناك اهتماماً بهذه النقطة يتزايد يوماً بعد يوم، ومن آخر مظاهره مؤتمر المعلمين العرب الذي انعقد في القاهرة، في خريف سنة ١٩٥٦، والذي كان من جملة قراراته وجوب العناية الشديدة بتلقين الروح القومية العربية العامة، وتوافر أركان القومية العربية وشمولها، ومحاربة النعرات التي تضعف تلك الروح على اختلاف أنواعها. ثم اجتماع ممثلي الحكومات العربية في القاهرة كذلك، للنظر في توحيد المناهج الثقافية، وتقوية روح القومية العربية فيها. فإذا ما اشتد هذا الانتباه، وسير في طريق تنفيذ مقتضاه بخطوات واسعة، وهو ما يجب الدعوة إليه بقوة وسعة، كان فيه علاج ناجع لهذه العقبة.

ومن الحق أن نذكر أن من أسباب دوام النعرة الطائفية، ما درجت عليه الحكومات من مراعاة ذلك في المناصب الرسمية والانتخابية، حيث أدى ذلك وما زال يؤدي إلى استمساك الطامحين والمتحركين من أبناء الطوائف المختلفة بالكيان الطائفي، حتى يكون لهم أنصبة لا بد منها في تلك المناصب، دون كبير مبالاة بالكفاءة والمصلحة، هذا مع التنبيه على أن ذلك ليس ضرورياً لمصالح الطوائف بوجه عام، وليس هو إلا من قبيل الوسيلة التي يتوسل بها أولئك الطامحون والمتحركون للحصول على مآربهم. وهذا المظهر بارز في لبنان خاصة، على أسوأ وأوسع حالاته وأضراره وأخطاره.

فمن الواجب أن تشتد الدعوة إلى مكافحة هذا الاتجاه، والعمل على اضعافه وإزالته، ومطالبة الحكومات بجعل الكفاءة والمصلحة الضابطين للمناصب وحدهما، وبإلغاء الاعتبارات الطائفية فيها بقوة وشدة واستمرار.

ولقد قلنا آنفاً ان للمدارس الأجنبية والطائفية أثراً في استمرار النعرة الطائفية، ونقول الآن: إنه لا يجوز ترك حبل هذه المدارس على غاربها، فقد لعبت دوراً ضاراً في إثارة النعرات،

وفقدان الانسجام بين أبناء الوطن العربي، وحالت، قليلاً أو كثيراً، دون شمول الفكرة القومية، وشوهت التاريخ العربي الوضاء، وغرست في بعض ابناء الوطن ميولاً خبيثة، كانت وما تزال تؤدي إلى كثير من المواقف الضارة، وإن من الواجب إلغاءها، وتوحيد التعليم، وجعله رسمياً قومياً، ومنع الكتب التي تذكّر بالخلافات والمنازعات الدينية والطائفية. وهذا من أنجع الوسائل للقضاء على النعرات الطائفية والتغلب عليها. وللحكومات العربية كل العذر والحق ان فعلت هذا. فإن لم تفعله بالسعة التي نقترحها، فعلى الأقل يجب عليها إلغاء المدارس الأجنبية الابتدائية والمدارس الطائفية، وجعل التعليم الابتدائي الزامياً في المدارس الحكومية - وقد فعلت هذا تركيا - وفرض إشراف دقيق صارم على المدارس الثانوية، وهو ما تفعله الحكومات قاطبة، حتى لا يكون هناك مجال لتلقينات مضادة للوحدة القومية والوطنية، والمصالح المشتركة والانسجام القومي، بين أبناء الوطن العربي، وحتى يمكن تنشئة الناشئة العربية تنشئة قومية بريئة من الجو الطائفي، والتلقين المثير للأحقاد والكراهية، والذكريات المشوبة بكثير من الغلو والتشويه أو الغارس للميول الضارة، وهذا ما يجب أن تشتد دعوة الهيئات القومية إليه.

٣ - الاقليمية

وهذه العقبة أيضاً، مهما يكن أمرها، فإن اتساع نطاق التعليم وشموله، وما ينشأ عنهما من اتساع نطاق الوعي القومي وتبدل صفته، سيكون عاملاً قوياً في التغلب عليها.

ولقد قلنا في شرحها: ان للمستعمرين يداً طولى في إيجادها وترسيخها في البلاد العربية التي لم تكد إحداها تنجو من بلائهم في بدء الأمر. ولقد نجت سورية ولبنان منهم، وها هو وادي النيل والأردن والعراق ينجون منهم أيضاً. ولسوف يساعد ذلك على خفة حدة العقبة إلى أن تزول نهائياً.

ولقد أخذ المحامون والأطباء والمهندسون، يعقدون في أثناء مشاورات الوحدة العربية وما بعدها مؤتمرات دورية في العواصم العربية، يشهدها المئات من أبناء الأقطار العربية، فتكون مهرجانات قومية رائعة، تلقى فيها الخطب المنوهة، بما يربط العرب وبلادهم من روابط روحية ولغوية وتاريخية واقتصادية واجتماعية وثقافية والداعية إلى تعزيزها، والمقررة بما في ذلك من مجد العرب وقوتهم، وازدهار بلادهم، واتساع الآفاق فيهم، مما خفف ولا يزال يخفف من حدة هذه العقبة.

ثم أخذ شباب البلاد العربية يتبادلون الزيارات والرحلات الرياضية والثقافية والاجتماعية والكشفية، ويجتمعون كذلك بالمئات في صعيد واحد، ويرون بعين اليقين أنهم أبناء أمة واحدة مشتركة في المصالح والتاريخ واللغة والروح والمفاهيم والعادات والتقاليد، ويدركون أن لا معنى للانقباض والعزلة الاقليمية، ولا مصلحة لأحد فيهما، وأن تيسير التبادل والتواصل والتعامل، يوسع آفاق النشاط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، أمام جميع أبناء الأقطار، ويعود على الجميع بالفوائد الصحيحة، وأن وحدتهم أمر طبيعي، بالإضافة إلى أنها الوسيلة العظمى

إلى قوة الجميع وسؤددهم، وضمان أمنهم، وحل قضاياهم، وعلو شأنهم، وازدهار اقتصادياتهم وحضارتهم، وتبوُّئهم المكانة التي تليق بخصائصهم وأمجادهم. فإذا ما اتسع نطاق ذلك، وهو ما تدل البوادر عليه، وما يجب مضاعفة الجهود في سبيله، كان ذلك مما يخفف حدة هذه العقبة من دون ريب.

ولقد أخذ يقوم بتشكيلات وتكتلات قومية، يندمج فيها أبناء الأقطار العربية على اختلافها، غايتها أمة عربية واحدة، ووطن عربي واحد في اقتصاده واجتماعه وثقافته وتاريخه وسياسته وسلطانه، ومن وسائلها مكافحة الروح الاقليمية والانعزالية، والقضاء على وهم إمكان حياة جزء من الوطن العربي لحدته، منكمشاً عن غيره في اقتصادياته وسياسته وثقافته، مهما حسنت حالته الخاصة، وتوضيح كون التشارك والتعاون والتبادل والتواصل والاتحاد في كل هذا، أعود على هذا الجزء، وبالتالي على جميع الأجزاء بالفوائد الجزيلة والكرامة والاعتبار والقوة، وادعى إلى حل قضاياها، وإن كان يؤخذ على بعضها انشغاله بالسياسات المحلية التي تستنفد كثيراً من وقته وجهده. ويدرس الآن في مصر والشام والعراق آلاف الطلاب من أبناء الأقطار الأخرى، وفي ذلك مظهر من مظاهر التقارب القومي العام، ووسيلة من الوسائل إليه في الوقت نفسه.

ولقد عقد أساتذة وطلاب العرب مؤتمراً شبه رسمي في لبنان في آب سنة ١٩٥٥، شهده عدد كبير من أساتذة وطلاب مصر وبلاد الشام والعراق، وقرر إنشاء منظمة اقليمية قومية لها فروع في البلاد العربية، ووضع توصيات عديدة، رفعها إلى الحكومات بوجوب توحيد المناهج القومية وتقويتها. وقد شرح المراقب العام للشباب في هيئة التحرير المصرية الذي كان يرئس الوفد المصري في المؤتمر فقال: اننا سنعمل على تكتيل الشباب العربي وتفهيمه الوطن العربي، وسنحطم التقسيم الجغرافي، ونقيم الوطن العربي الأكبر ماجداً سيداً قوياً ليقود العالم، كما قاده من قبل، حيث يبدو في هذا مظهر من مظاهر التقارب القومي العام، واتجاه قوي نحوه، ووسيلة من الوسائل إليه كذلك.

ومن هذا الباب في القوة والدلالة قرار لنقابة المعلمين المصريين التي يرئسها وزير التربية والتعليم أحد زعماء الثورة، أوجب توجيه المعلمين إلى اتخاذ موقف إيجابي في الكفاح القومي لتحرير الوطن العربي الكبير، وتربية النشء على البذل والفداء في سبيل ذلك. ولقد هزّ العدوان الثلاثي الفاجر على مصر العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه هزاً شديداً، وظهر منه من التجاوب القوي ما أثبت به قوة الوعي القومي فيه، وبروز إيجابيته، وكان من عوامل إخفاق ذلك العدوان.

وأمامنا، ونحن نبيض هذا الفصل، مثل قوي للتعبير عن الرغبة في التضامن القومي العام، ودراسة القضايا العربية وحلها، وفي رأسها الوحدة، وتجاوز النطاق الاقليمي الضيق، يتمثل في مؤتمر خريجي جميع الجامعات الذي انعقد في خريف سنة ١٩٥٥، في القدس، والذي أشرنا إليه في مناسبة سابقة، والذي تطور عن مؤتمر خريجي جامعة بيروت الأميركية، ليغدو منظمة قومية كبرى دائمة، قوامها الجامعيون والمشتغلون بالقضايا العربية.

ولقد كان انعقاده في هذه السنة مظاهرة قومية عظمى، اشترك فيها مئات الجامعيين العديدة، جنباً إلى جنب على اختلاف أقطارهم، وتناقشوا في مختلف القضايا العربية القومية السياسية وغير السياسية العامة، وقرروا قرارات قوية في كل منها.

لا شك في أن هذا المؤتمر معبِّر عما أخذ يقوى في صدور شباب العرب ورجالاتهم المثقفين من الرغبة في التواصل والتضامن خارج نطاق الاقليمية، وإدراك ما حلّ بالعرب وقضاياهم ومصالحهم وفكرة وحدتهم، من الاعتبارات الاقليمية، من أضرار ووجوب نبذها.

وهذا إلى ما يرتفع على كل لسان ومنبر، وفي كل قطر من أصوات، تشتد قوة وحدة يوماً بعد يوم في شجب الاقليمية والانعزالية، وما يقوم في بعض الأذهان من نوازع واعتبارات يمليها على أصحابها ضيق الأفق أو سوء التأويل والغرض، وضرورة ووجوب التفكير القومي الواسع، وتوثيق التضامن والتعاون، وتيسير التبادل والتواصل:

ففي كل هذا بوادر تدل على إمكان التغلب على هذه العقبة التي لم تقم إلا حديثاً وبصنع الأجنبي الباغي لمآربه الاستعمارية، ولا سيما إذا تضاعفت الجهود المبذولة في سبيله، وتفرغت التكتلات القومية له، وهو ما يجب أن تشتد الدعوة إليه.

ولقد سلكنا في سلك العقبات الاقليمية والطائفية منظمة الحزب القومي السوري الاجتماعي. ونقول هنا إنه مهما يكن من أمر نشاط هذه المنظمة في سبيل مناوأة القومية العربية، وبالتالي الوحدة العربية الشاملة، فإنها في حقيقة أمرها ضيقة المدى والانتشار، وليس من شأنها أن تكون عقبة قوية في طريق الوحدة، إذا ما عولجت العقبات السابقة على النحو الذي شرحناه. ولا شك في أن من شأن ازدياد قوة الوعي القومي أن يتغلب عليها ويلاشيها. ولقد ضربتها الحكومة السورية في سنتي ١٩٥٦ و١٩٥٧ ضربات قاصمة، حينما انكشف ما بينها وبين الدول الاستعمارية، وخاصة الولايات المتحدة من صلات مريبة صريحة في سياق ماجرى من أحداث وتحقيقات ومحاكمات، وظهر من ضلوع رجالها في ما بيَّته الاستعماريون، وخاصة الولايات المتحدة، ضد سورية ومصر والنهضة القومية من نوايا، ودبروه من مؤامرات، وبثوه من دسائس، ونصبوه من مكائد. وقد اعتبرت غير قانونية، وحُلّت، وصودر مكتبها، وزج بغير واحد من رؤسائها بالسجن، وحكم على غير واحد من رؤسائها الفارين بالاعدام، وانتشرت نقمة شديدة ضدها في مختلف أنحاء سورية وفي مختلف بيئاتها، وسارع المخدوعون بها إلى التنصل منها، والانقلاب عليها، فغدت مقلمة الأظفار ضئيلة الخطر والخطورة في سورية التي هي كبرى كيانات البلاد الشامية، والتي يسودها وعي قومي قوي، من شأنه أن يحبط كل محاولة أو حركة أو دعاية لها.

وقبل ذلك ببضع سنين نزلت عليها ضربة قاصمة من حكومة لبنان، فأعدم زعيمها ومنشئها أنطون سعادة، واعتبرت غير قانونية بسبب ما ظهر من نواياها المريبة، وحركاتها الجريئة ضد النظام والمصلحة الوطنية.

ومهما بدا منها في لبنان من نشاط في سنة ١٩٥٥، وما بعدها، مما مرده إلى السياسة الخارجية التي انتهجها حكام لبنان، مما شرحناه في فصول سابقة، فإن ذلك لن يمنحها قوة تعوضها ما فقدته، أو تحييها من الضربات الشديدة التي نزلت فيها.

هذا؛ ومن المفيد في هذا المقام، أن نسجل قبل أن ننتهي من هذا الفصل، ان ثورة مصر المباركة، واندفاع مصر بعدها بقوة في تيار الحركة العربية القومية، ونشاط رجال الثورة في مختلف الميادين، وانتصاراتهم على الدول الغربية، وسياسة التحرر والحياد الإيجابي التي قادتها مصر وسورية، وما عادت به من خيرات وبركات على البلدين، والحركات النضالية التي قويت في شمال أفريقيا، وصمود مصر وسورية للمؤامرات والدسائس التي قامت بها الولايات المتحدة، وللعدوان المجرم الذي قام به الانكليز والافرنسيون مع أجيرتهم الحقيرة إسرائيل، ونية العدوان التي بدت من تركيا، بالتآمر مع الولايات المتحدة ضد سورية؛ بالاضافة إلى ما كان من سعة انتشار التعليم، وتبادل الزيارات والمؤتمرات المتنوعة التي أخذت تنعقد في مختلف أنحاء الوطن العربي، والنشاط الذي تقوم به المنظمات القومية؛ كل هذا كان عاملاً في إلهاب العواطف القومية، وتوسيع نطاق الوعي القومي وترسيخه، وإخراجه من جموده، وإضعاف النزعات الاقليمية والطائفية والشعوبية، انطوى على بشائر بأن يتسع ذلك ويزداد بعد الآن، إلى أن يبلغ ذروته المنشودة في مدى قريب إن شاء الله.

٤ ـ العقبات الأخرى

ذكرنا في فصل العقبات الداخلية اختلاف نظم الحكم والحكم الوراثي كعقبات قد تقف في طريق الوحدة العربية.

ونقول هنا إن في الأساليب الاتحادية التي جرت عليها أحداث التوحيد قديماً وحديثاً في البلاد العربية وغيرها، ما يخفف من حدة هذه العقبات، وييسر التغلب عليها في صدد الوحدة العربية، حيث يمكن أن يسار على أسلوب تتحقق فيه الوحدة الاتحادية بين الدول العربية، مع احتفاظ كل بلد بنظام الحكم فيه. وهذا ما سوف نستوفي الكلام فيه في فصل آخر.

ولقد ذكرنا كذلك، ان مما يساق من عقبات في طريق الوحدة، ما هو قائم من فوارق اجتماعية واقتصادية وسياسية بين فئات الشعب العربي وبين الدول العربية، ثم ما هو قائم من أبعاد شاسعة بين أقطار الوطن العربي.

ونقول هنا إن هذه العقبات ليس من شأنها أن تحول دون قيام وحدة أو اتحاد بين أجزاء هذا الوطن.

فالتفاوت الثقافي والاقتصادي والاجتماعي قائم على أشد ما يكون في داخل كل قطر من أقطار العرب، وفي طبقات سكانه. وبينما يوجد في كل قطر طبقة تستمتع بحياة رغيدة وثروة طائلة، وعيشة ناعمة، وقصور ورياش وخدم وحشم وأناقة، كأرقى ما يكون وأبهاه، وبينما يوجد

في كل قطر طبقة مثقفة وصلت في ثقافتها إلى أعلى الدرجات، يوجد في جانبها طبقات، بل أكثرية عظمى، ترتكس في الجهل والفقر والحرمان، وكثير منها ما يزال بدائياً فهماً وعيشة. ولم يقل أحد أن من شأن هذا أن لا يكون وحدة وطنية، كما لا يمنع هذا من أن يكون كل قطر من أقطار العرب وحدة واقعية، ينتظم فيها جميع أقاليم القطر وسكانه. فثلاثة أرباع المصريين، مثلاً، في جهل وفقر مريعين، والتفاوت بينهم وبين الربع الرابع، أشدّ في جملته من التفاوت بين مصر كمجموعة، وبين الحجاز واليمن، فضلاً عن سورية ولبنان. والتفاوت بين الريف المصري والمدينة المصرية، في جملته، أشد من التفاوت العمراني بين مصر كمجموعة وبين الحجاز واليمن أيضاً، فضلاً عن سورية ولبنان. ومثل هذا يمكن أن يقال بالنسبة إلى الأقطار الأخرى.

ومع ذلك فهذا التفاوت ليس أصلاً طبيعياً في جبلة الجنس العربي، ولا في طبيعة معظم أجزاء الوطن العربي. فالذين هم في أرقى درجات سلم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والذين هم في أدناها من جنس واحد وجوّ واحد، ومنبع واحد. وإذا استثنينا صحارى بلاد العرب وبواديها المعطشة الموحشة، فإن مناطق الوطن العربي الزاهرة بالحضارة والعمران، لا تتفوق في أي شيء من القابلية العمرانية على المناطق المتأخرة إلا في النشاط، الذي هو قدر مشترك بين الناس حينما يتكافأون في الفرص. ولقد كان في بعض أنحاء البلاد العربية التي تبدو اليوم متأخرة عن غيرها حضارة زاهرة، جعلتها تعد في طليعة البلدان المتقدمة. وبكلمة واحدة: إن زوال هذا التفاوت في الامكان البشري والعربي، ولا يصح أن يكون مبرراً لعدم شمول الوحدة العربية لمختلف الأقطار العربية، أو دعوى تعذر الانسجام بينها.

أما الأبعاد الشاسعة القائمة بين أجزاء الوطن العربي، فهناك بلاد أوسع بكثير من بلاد العرب، أو مثلها أو قريبة منها، وفيها من العوارض والمعالم والأبعاد، ما يماثل ما في بلاد العرب. فمساحة الاتحاد السوفييتي مثلاً أكثر من ضعف مساحة الوطن العربي الكبير، حيث تقدر بواحد وعشرين مليون من الكيلومترات المربعة، وفيها من الصحارى والقفار والأودية والرمال والجبال مساحات أعظم مما في الوطن العربي، بالإضافة إلى ما فيها من القفار المتجمدة الواسعة في شمال آسيا، التي تبلغ وحدها ما يقرب من مساحة بلاد العرب جميعها، وهي المعروفة بالتندرة. وفيها إلى هذا شعوب عديدة لكل منها لغته وتقاليده وطبائعه، وبينها تفاوت عظيم اقتصادي وثقافي واجتماعي كمثل ما عندنا، فلم يمنع كل هذا من أن تقوم على هذه المساحة الشاسعة الواسعة العجيبة، التي تشمل نصف قارة أوروبا، وثلث قارة آسيا دولة واحدة منذ مئات السنين.

ومساحة الصين أكبر من مساحة بلاد العرب ـ حيث تقدر بأحد عشر مليوناً من الكيلومترات المربعة وزيادة ـ وفيها كذلك شعوب عديدة لكل منها لغته وتقاليده وطبائعه الخاصة، وبينها كذلك تفاوت اقتصادي وثقافي واجتماعي عظيم، فلم يمنع هذا من انتظامها في نطاق دولة واحدة. ويقال هذا بالنسبة للهند.

ووسائل الاتصال العصرية، قد طوت المسافات، وقربت الأبعاد. ولقد كانت المساحة

التي تشغلها الولايات المتحدة، والتي تماثل مساحة بـلاد العرب قفـاراً وصحارى وأحـراشاً ومستنقعات، متباعدة الأطراف، منقطعة الاتصال عن بعضها، يسكنها بضعة ملايين من الهنود الحمر، وهي الآن بفضل العلم والعمل اللذين هما قـدر مشترك بين النـاس، واللذين أثبت الجنس العربي قابليته العظمى فيهما في مختلف أطواره وأدواره، بلاد زاهرة عامرة، ترتبط جميع أنحائها بشبكة عظمى من السكك الحديدية والطرق المعبدة، فضلاً عن الطيران الذي قرب كل بعيد.

والجميع مسلم بطبيعة قيام الوحدة بين مصر والسودان، في حين أن المسافة بين أبعد نقطتين بينهما شمالاً وجنوباً أو شرقاً وغرباً، ليست أقل من المسافة بين مصر والعراق، أو بين مصر واليمن، أو بين مصر ومنتهى بلاد العرب.

وليس من المستحيل والحالـة هذه أن تـرتبط الأقطار العـربية في المستقبـل، بل وفي المستقبل القريب، بالخطوط الحديدية والطرق المعبدة، فضلاً عن الخطوط الجوية، فيقرب ما كان بعيداً، ويسهل ما كان صعباً، ولا يصح منطقياً أن يكون هذا الذي هو في نطاق الامكان، والذي أمكن وقوعه فعلاً في بلاد مماثلة لبـلاد العـرب سبباً يساق في دعوى عدم إمكان قيام الوحدة بين أجزاء الوطن العربي بطبيعة الحال.

ولقد كانت بلاد العرب، بجميع مساحاتها هذه، وحدة في أدوار تاريخية عـديدة قبـل الإسلام وبعده، على ما مر شرحه في فصل سابق، بل كان ينضم إليها أقطار عديدة أخرى، من غير الأقطار العربية، بحيث كانت مساحة الدولة تقرب من مساحة روسيا.

ولقد شملت الامبراطورية المصرية في بعض حقب تاريخها جميع وادي النيل، ثم جميع بلاد الشام والعراق. وشملت الامبراطورية العراقية والأشورية جميع بلاد العراق وبلاد الشام ووادي النيل وأطراف جزيرة العرب، ثم بلاد مادي وعيلام وفارس والأرمن، وقسماً عظيماً من المناطق الجنوبية من الأناضول. وكانت الامبراطورية الأموية، تشمل بلاد الأندلس، وجميع بلاد المغرب العربي وليبيا، ووادي النيل وبلاد الشام والعراق وجزيرة العرب، ثم جميع بلاد فارس والافغان وتركستان والسند، إلى حدود الهند والصين، ثم بلاد القفقاس والخزر والأرمن وقسماً من الأناضول، وظلت وحدتها قائمة نافذة طيلة عهدها، ثم في حقبة المائة السنة الأولى من عهد الدولة العباسية، كما ظلت قائمة قياماً اسمياً وروحياً في معظم بقية عهد هذه الدولة، باستثناء الأندلس، وبلاد العرب، ومصر حيناً من الزمن.

سابعاً
سبيل الوحدة

تمهيد

بعد أن فرغنا من شرح امكانيات التغلب على العقبات الداخلية والخارجية التي تقف في طريق الوحدة، يحين وقت الكلام على السبيل إلى تحقيقها.

ونريد أن ننبه في مطلع هذا الفصل إلى أمر مهم، وهو أنه ليس من الضروري، ولا من المعقول تأخير السعي في سبيل الوحدة وتحقيقها، إلى أن نعالج جمع العقبات في طريقها، في مختلف انحاء الوطن العربي الكبير، وتزول. فإن هذا يعني انتظار عشرات السنين، كما يعني عدم ادراك كون الوحدة هي الكفيلة بمعالجة كثير من العقبات الداخلية والخارجية، بحيث يصح أن يقال بحق ان هذه العقبات تظل قائمة ما لم تقم الوحدة.

ولحسن الحظ، لا يقول بهذا إلاّ شرذمة، تتألف من المأجورين، أو الاقليميين والطائفيين، الذين أعمى التعصب والدعاية الأجنبية أبصارهم وبصائرهم، أو الشعوبيين أعداء العرب والعروبة، أو المغفلين، أو أصحاب المطامع والأهواء والاعتبارات الخاصة. ولا سيما أن معظم الدول العربية متحررة من الاستعمار فعلاً، أو قانوناً وعهداً، وأنها تمارس سياستها وسلطانها بحرية؛ وانه ليس هناك مانع دولي وجدّي لتحقيق الوحدة فيما بينها، إذا هي جدت ورغبت، وإن من الممكن التغلب على العقبات الداخلية التي لا يمكن ازالتها في أمد قريب بالأساليب المتنوعة، مع الزمن، وفي نطاق الوحدة، وهذا ما حدث دائماً في البلاد التي حققت وحدتها قديماً وحديثاً.

كذلك نرى أن ننبه إلى أمر آخر ولو كان بديهياً. وهي أن الوحدة التي نريد أن نبحث في سبيل تحقيقها، ليست هي الوحدة الأخوية، والتواثق الروحي أو القلبي، فيما بين الدول العربية ـ وهو ما يظل كثير من رؤساء الدول العربية وساستها يرددونه ـ ومع أن هذا حقاً أمر مهم في صدد

الوحدة، ولا بد من تحقيقه، فإن المطلوب هو قيام وحدة فعلية تنفيذية، تتنازل في نطاقها الدول عن سيادتها قليلاً أو كثيراً، ويقوم عليها جهاز حكومي تشريعي وتنفيذي.

وبعد هذين التنبيهين، نرى من المفيد، أن يسبق بحث السبيل إلى الوحدة شرح مسألتين مهمتين في هذا الباب، أولاهما ـ كيف كانت تتحقق الوحدة العربية في التاريخ. وثانيتهما ـ كيف تحققت وحدة الأمم الأخرى في العصور الحديثة. لأن في هذا الشرح قد يكون إلهام أو عبرة أو مثال يحتذى به في معرفة سبيل الوحدة.

كيف كانت تتحقق الوحدة العربية

ـ ١ ـ

إن العقبات التي تقوم في طريق الوحدة العربية، أو معظمها، ليست خاصة بحاضر العرب، بل كثيراً ما كانت تقوم في غابر تاريخهم أيضاً، وكان أسلافنا يتغلبون عليها، ويحققون الوحدة بين أجزاء الوطن العربي، في كثير من ظروف التاريخ.

وقد ذكرنا في فصل الوحدة التاريخية امثلة على ذلك، في سياق شرح حركات الفتح والاستيلاء والتوحيد، التي كانت تقوم في جنوب جزيرة العرب ومصر والعراق.

ـ ٢ ـ

ولقد كان التوحيد يقع على مراحل. حيث كان يهتم لتوحيد الاقليم الخاص، الذي يقوم فيه دول وامارات عديدة، نتيجة لطبيعة نشأة الحياة السياسية في العصور القديمة. وبعد أن يتم هذا، يتجه الاهتمام لضم الاقاليم المجاورة واحداً بعد آخر، وتدريجياً كذلك، في كثير من الظروف.

وحينما كان صاحب العزيمة والسلطان، يصادف عقبة في طريق مطمحه، يقدم على إزالتها بكل وسيلة ممكنة له.

ـ ٣ ـ

ولقد كان التوحيد يجري على أساليب متنوعة، حسب مقتضى الحال والظروف.

فكان أحياناً وحدة تامة، مصدر السلطان فيها واحد، وهو الملك أو الخليفة، في العهود الإسلامية. وكل شأن هام في الدولة يجري بأمره أو علمه أو موافقته. واقاليم الدولة تدار من قبل حكام يعينهم هو. والضرائب تجبى باسم بيت المال العام، والنفقات تنفق باشرافه، والجيش تحت سلطانه الخ . . . وكان التوحيد أحياناً **اتحادياً إن صح التعبير**. أي أنه كان يقوم على رأس الأقاليم امراء، أو ملوك مستقلون استقلالاً داخلياً، يعترفون بسيادة الملك العليا، ويؤدون إليه ما يفرض عليهم، ويذكرون اسمه في التاريخ الإسلامي على منابرهم، ويكتبونه على طرازهم

الخ . . . وكثيراً ما يكون سلطان هؤلاء الأمراء والملوك وراثياً وأصيلاً قبل التوحيد، فيرضى صاحب العزيمة بسيادته العليا، وأدائهم ما يفرض عليهم.

وكثيراً ما كان الأسلوبان يجريان في آن واحد، فيكون بعض الأقاليم تابعة للملك مباشرة وبعضها تحت امرة امرائها وملوكها الأولين أو الوراثيين، استمراراً على ما كان عليه أمرهم أو أمر أسلافهم.

- ٤ -

ومن الحق أن نقرر أن الحافز على هذه العزائم التوحيدية كان في الأعم الأغلب، وخاصة في التاريخ القديم هو المطمح الشخصي أو الأسروي، مما هو متصل بطبيعة ظروف الحياة في تلك العهود. غير أن هذا المطمح الشخصي أو الأسروي، كثيراً ما كان يمتزج بالمطمح الوطني أو القومي أو الديني، فيما قام من حركات توحيدية في الوطن العربي، سواء أكانت في داخل الاقليم الخاص، أو متجاوزة حدود هذا الأقليم إلى ما يجاوره، وهذا هو المعقول، لأن الفائدة العامة التي تعود على الأقليم الخاص بتوحيد دويلاته ومشيخاته، أو التي تعود على الأقاليم المتجاورة التي يقطنها شعوب شقيقة في الجنس واللغة والمصلحة، لا يمكن أن تخفى، أو لا يمكن أن لا تلاحظ في هذه الحركات.

- ٥ -

ولقد كانت هذه الحركات تقوم في الدرجة الأولى على القوة الحربية، وهذا طبيعي ومتصل بطبيعة ظروف الحياة في ذلك العهد. غير أن المساعي السياسية والاقناعية بالفائدة العامة التي تجنيها البلاد وأهلها من الاتحاد لم تكن تغفل، وكانت تؤثر تأثيراً ايجابياً في أحيان كثيرة.

ولا نغلو، إذا قلنا، ان ما تم من نجاح لكثير من الحركات التوحيدية في مختلف اقاليم الوطن العربي، وخاصة في تاريخ الاسلام، قد امتزج بالمساعي السياسية والاقناعية، بالاضافة إلى القوة التي هي متصلة بطبيعة ذلك العهد بل بطبيعة الحياة البشرية.

- ٦ -

وهكذا أمكن توحيد دول جنوب جزيرة العرب وإماراتها، في التاريخ القديم، تحت سلطان الدولة المعينية ثم السبئية ثم الحميرية، حيث كانت وحدة الدم واللغة والعقائد والمصلحة، تساعد كثيراً على المساعي التي يبذلها صاحب العزيمة والقوة. وكان بعض الأمراء والملوك الثانويين أحياناً، يعمدون إلى التفلت من نطاق الوحدة، فيسارع صاحب العزيمة والسلطان القوي إلى ارغامهم، مستعيناً على ذلك بالقوة من جهة، وبالفائدة العامة التي تجعل أهل الامارات والدول الشاذة، يقبلون بالواقع، وينسجمون فيه من جهة ثانية.

وهكذا أمكن توحيد كل من دول الوجه القبلي العديدة والوجه البحري العديدة في القطر

المصري، في دولتين، ثم في دولة واحدة، تحت راية الملك مينا، أو الأسرة الأولى التي ينتسب هذا الملك اليها، وكانت وحدة الدم واللغة والمصلحة عاملاً مهماً في نجاح هذا التوحيد.

وقد اتخذ مينا لتاجه شارتين، للدلالة على أنه ملك الوجهين، كما أتخذ هو وخلفاؤه من بعده لقب «بيرعوي» المنقلب إلى فرعون، والذي يتألف من مقطعين يشير كل منهما إلى أحد الوجهين. وعندئذ ظل طابع الدولة الواحدة أو المتحدة هو المستمر، في هذا القطر في معظم حقب التاريخ القديم. لأنه مستمد من تلك الوحدة التي وطدت انسجام الأمة في الدولة الواحدة.

وهكذا أمكن توحيد دول العراق وإماراته تحت سلطان بابل أولاً. ثم تحت سلطان آشور، ثم تحت سلطان بابل، وهكذا أمكن كذلك توحيد دول وامارات الكنعانيين في فينيقية، تحت سلطان صيدا، ثم تحت سلطان صور، ودول وامارات الكنعانيين في شرق الأردن تحت سلطان المؤابيين حيناً، وسلطان العمونيين حيناً، وسلطان الآدوميين حيناً، ودول وامارات سورية العمورية تحت سلطان حلب، ودول وامارات سورية الآرامية تحت سلطان دمشق حيناً من الدهر، ولا شك أن وحدة الجنس واللغة والعقائد والمصلحة، كانت عاملاً في نجاح أصحاب العزيمة والقوة.

وقد كان الأسلوب الذي يجري عليه التوحيد في هذه الحركات والأدوار مزدوجاً في الأعم الأغلب، حيث كان هناك أقاليم تدار مباشرة من قبل مركز الدولة الأعلى وسلطانها، وأقاليم يبقى على رأسها ملوكها وامراؤها الأولون أو المتغلبون، بعد أن يعترفوا بسيادة الملك الأكبر العليا، ويؤدون ما يفرضه عليهم من واجبات.

- ٧ -

وبعد أن وحدت بابل دول العراق تحت سلطانها، اتجهت نحو بلاد الشام، فضمتها إلى سلطانها، وكان لذلك العامل أثره. لأن أهل الدولة البابلية وأهل بلاد الشام متحدون في الجنس واللغة، حيث كان العموريون والآراميون في بلاد الشام الداخلية والعراق، وكانت القرابة موطدة بين هؤلاء وبين الكنعانيين الذين توطنوا في سواحل بلاد الشام وجنوبها.

واستمر الأمر كذلك إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد، ثم انبرت مصر تحت راية الامبراطورية، إلى القيام بمثل هذا الدور، فتم لها السلطان الموحد على وادي النيل وبلاد الشام، وقسم من العراق الجنوبي والشمالي.

واستمر الأمر كذلك إلى القرن الثاني عشر، ثم انبرى العراق في ظل الامبراطورية الآشورية ليمثل نفس الدور، حيث تم له السلطان الموّحد على جميع بلاد العراق وبلاد الشام، وتخوم الجزيرة العربية.

وفي القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، صار الأمر سجالاً بين العراق ومصر، وكانت

الدولتان تتجاذبان بلاد الشام، وتتنازعان السلطان عليها. وكان النجاح يحالف هذه مرة وتلك مرة. ثم استطاع العراق في القرن السابع أن يوطد سلطانه الموحد على بلاد العراق ثم على بلاد الشام ومصر وتخوم الجزيرة عوداً على بدء، تحت راية نينوى، ثم تحت راية بابل ردحاً من الزمن.

وقد كان الأسلوب الذي يجري عليه توحيد الأقطار المجاورة لقطر صاحب العزيمة على الأعم الأغلب هو الأسلوب الثاني. أي بقاء ملوك وامراء أقاليم هذه الأقطار على رأس أقاليمهم، يديرون شئونها استقلالاً بعد استيثاق صاحب العزيمة من ولائهم وخضوعهم، وتعهدهم بدفع ما يفرض عليهم.

وحينما كان أحدهم يخامر في ولائه، أو يقصر في أداء ما عليه من واجبات، ويقدر عليه صاحب العزيمة، ينكل به قتلاً أو أسراً أو عزلاً، ثم يعمد إلى تعيين ملك أو أمير آخر مكانه، يكون من أسرته، أو من أسرة منافسة لها، يتعهد بالخضوع والأداء.

- ٨ -

ولقد كانت البعثة النبوية المحمدية في معنى من معانيها، أو هدف من أهدافها حركة توحيد وتحرير للعرب، وبلادهم على ما شرحناه في فصل سابق، فكانت الفكرة العامة القومية والإسلامية هي الأقوى بروزاً، في ما تم في ظل الراية الإسلامية من حركات توحيدية، بدأت في عهد النبي بقيام الدولة الإسلامية الأولى التي توحدت تحت رايتها جميع جزيرة العرب أو معظمها.

ولما مات النبي، وحدثت الردة، جاهد خليفته أبو بكر والمسلمون الثابتون في سبيل توطيد الوحدة ثانية. وكان الحافز هو الفكرة العامة القومية والإسلامية، فحالفهم النجاح، وكان سبيلهم إلى هذا القوة من جهة، والمساعي السياسية والاقناعية المستندة إلى ما في الانضواء إلى راية السلطان الإسلامي الموحد من استجابة لدعوة الإسلام، وضمان لمصلحة المسلمين ووطنهم.

ثم حرك هذا الحافز أبا بكر وعمر وعثمان من بعده، فاستطاعوا أن يحرروا بقية مواطن العرب المشرقية، وقسماً من مواطنهم المغربية، ويوحدوها تحت راية دولة الخلفاء الراشدين؛ وكان سبيلهم إلى هذا الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والاقناع بما يعود على البلاد وأهلها من خير وبركات في ظل هذا السلطان الإسلامي العربي الموحد، وحياطة الدعوة بالجهاد ضد من ناوأها قولاً وفعلاً.

ومما لا ريب فيه أن توافر مقومات الوحدة في جزيرة العرب ومهاجرها، من عوامل ما تم من نجاح عظيم أو ميسراته، حيث كان معظم سكان العراق والشام ومصر متحدون في الجنس والميول والتقاليد، ومتقاربون في اللهجات مع سكان جزيرة العرب التي قامت فيها الدعوة الإسلامية، وانبعثت منها موجات الفتح الإسلامي.

- ٩ -

ولقد كادت هذه الوحدة أن تتصدع بسبب النزاع الذي قام بين علي ومعاوية، ولكن موقف الحسن بن علي تلافى الصدع، فكان موقفاً عظيماً حقاً، ضرب فيه الحسن لكل رئيس عربي رائع المثل على التجرد من الاعتبارات الشخصية والأسروية، استمده من دون ريب من خلق وقلب عظيمين، وكان الاعتبار القومي والإسلامي للعام عاملاً كبيراً فيه.

وعاد التصدع، فهدد هذا الكيان الموحد بثورة الحسين بن علي والزبير بن العوام ضد الدولة الأموية، ولكن الغلبة كتبت للوحدة أيضاً، تحت راية الدولة الأموية، وظلت كذلك إلى أمد غير قصير.

وقد كانت الفكرة القومية والإسلامية العامة من جهة، وتوافر مقومات الوحدة من جهة أخرى، مما استعان به الأمويون على ما تم لهم من نجاح.

ولقد استطاع العباسيون بمساعدة الفرس الناقمين على العرب وسلطانهم أن يقوضوا بنيان الدولة الأموية فانتقل السلطان العربي إليهم، فظلت البلاد العربية موحدة تحت رايتهم بقوة واحكام نحو مائة سنة، باستثناء الأندلس التي قامت فيها الدولة الأموية الثانية، مستقلة عنها استقلالاً تاماً، والمغرب الأقصى الذي قامت فيه الدولة الادريسية التي كانت هي الأخرى مستقلة عنها استقلالاً تاماً كذلك.

وقد كان الأسلوب في عهد الخلفاء الراشدين، والدولة الأموية، ومائة السنة من عهد الدولة العباسية، أسلوب الدولة ذات المصدر السلطاني الواحد. حيث كانت اقاليم الدولة تدار من قبل حكام عامين يعينون ويعزلون من قبل الخلفاء، ولا يتم شيء هام في الدولة إلا بعلمهم وأمرهم وموافقتهم، وتجبى الضرائب باسم بيت مال الدولة، وتنفق النفقات باسم الدولة، ولا يشارك الخليفة أحد في الدعاء والسكة والطراز الخ . . . مع صلاحيات استقلالية محلية واسعة، يتمتع بها الحكام العامون. وقد كان مع ذلك بعض استثناءات في بعض الأنحاء المفتوحة غير العربية، حيث كان يترك على رأسها ملوكها وأمراؤها الأولون، كحكام تابعين للحكام العامين، بعد أن يسلموا ويندمجوا في الإسلام، كما كان شأن بلاد السند والترك، وبعض أقاليم فارس والسودان.

- ١٠ -

أما بعد مائة سنة من العهد العباسي، فقد تطورت الوحدة وغدت مزيجة بالأسلوب الاتحادي. فقد ضعفت الدولة بتسلط قواد الترك والديلم على سلطانها. فاستبد كثير من حكام الأقاليم وزعمائها بالحكم في أقاليمهم. وكانت فكرة سيادة الخلفاء الشرعية سائدة، بحيث لم يكن المسلمون يعتبرون الحكم شرعياً، إلا بتعيين من الخلفاء، مما جعل المستبدين يتفقون مع مركز الدولة، على أن يكونوا مستقلين في أقاليمهم، مع بقائهم في نطاق الدولة العام، فيصدر

الخلفاء اليهم مراسيم التعيين وخلعة الامارة، وتذكر اسماؤهم على المنابر، ويؤدي الأمراء لبيت المال العام بعض الواجبات.

ولقد بلغت أحداث استبداد الحكام والـزعماء في الأقـاليم ذروتها، في أواسط القـرن الهجري الخامس وما بعده، فكان في بلاد الشام والعراق وجزيرة العرب والأندلس والمغرب العربي والأقطار الاسلامية غير العربية، التي كانت منضوية تحت راية الدولـة العباسيـة دول وامارات عديدة جداً، يقوم عليها ملوك وامراء متغلبون ومتناحرون فيما بينهم؛ وكانت الدولة الفاطمية هي صاحبة السلطان الأعلى في مصر، ولكنها كانت قد دخلت هي الأخرى في دور الضعف والانهيار، مما أوهن قوة المسلمين والعرب في المشرق والمغرب، وجعل اعداءهم يستسنحون الفرص لمهاجمة بلادهم، حيث هاجم الصليبيون بلاد المشرق، واستطاعوا أن يستولوا على فلسطين، وانحاء أخرى من بلاد الشام داخلية وساحلية، وهاجم الاسبان الأندلس، واستطاعوا أن يستولوا على كثير من مدنها وأراضيها.

- ١١ -

غير أن حيوية الأمة العربية، والفكرة الاسلامية العامة، لم تلبث أن أخذت تعمل عملها في سبيل تلافي الأخطار المحدقة بالعالم العربي الإسلامي بسبب تفكك الوحدة.

فنشطت في المشرق العربي الأسرة الزنكية، واستطاعت أن توحـد معظم بـلاد الشام والفرات تحت رايتها، ثم كان نشاط صلاح الدين الأيوبي الذي تغلب على العقبات العديدة، واستطاع أن ينشىء دولة موحدة عظمى، انضوى الى رايتها معظم اقطار المشرق العربي في الجزيرة وخارجها بما فيها ليبية. وكان من الوسائل القوية لما اصابته الأسرة الزنكية، ثم صلاح الدين من نجاح في التوحيد، الفكرة الإسلامية العامة، والجهاد ضد الصليبيين الذين غزوا بلاد الشام، ووطدوا قدمهم في فلسطين، وأنحاء أخرى من البلاد. وهو مما ينطوي في هذه الفكرة.

وقد ظلت الوحدة تظلل هذه الأقطار بشكل من الأشكال في عهد خلفاء صلاح الدين، ثم في عهد الدول التركية والشركسية والعثمانية، مع ما كان يحدث من أحداث تصدعية وتنافسية من حين لآخر، كانت الوحدة تنفصم بها أحياناً. وكانت الفكرة الإسلامية العامة وتوافر المقومات اللغوية والروحية والمصلحية، تلعب دورها في توطيد وبقاء هذه الوحدة التي استمرت بشكل من الأشكال مدة طويلة تزيد على سبعة قرون، أي من أواخر القرن السادس الهجري، إلى الثلث الأول من القرن الرابع عشر، حيث كان جمهور المسلمين والعرب مستسلمين للسلطان القائم، ومنسجمين فيه قليلاً أو كثيراً.

وكان أسلوب هذه الوحدة في البلاد العربية المشرقية على الأعم، مزيجاً من الاتحاد والوحدة، حيث كان هناك أقاليم تدار مباشرة من مركز الدولة، وأقاليم على رأسها امراء مستقلون استقلالاً ذاتياً ضيقاً حيناً، وواسعاً حيناً آخر.

- ١٢ -

ولقد كان المطمح الشخصي والأسروي عاملاً قوياً في نشوء الدولة الأموية في الأندلس؛ غير أن الفكرة القومية والإسلامية العامة، ما لبثت أن صارت طابع هذه الدولة، وكانت من أسباب ما أصابته من نجاح داخلي وخارجي، وخاصة في مجال حفظ قوة الدولة ووحدة اجزائها، وامتداد سلطانها إلى المغرب الأقصى، في أواسط القرن الهجري الرابع.

ولما انهارت هذه الدولة في الثلث الأول من القرن الهجري الخامس، انقسمت بلادها إلى عشرات الامارات الصغيرة المتناحرة فيما بينها على الأرض والسلطان، فوهنت قوى العرب والمسلمين، وتعرضت بلادهم لغارات الافرنج الشديدة وصولاتهم المخربة، وأخذت تسقط في أيديهم واحدة تلو أخرى. فلم يلبث أن قيض الله المرابطين، بزعامة سلطانهم الأول يوسف بن تاشفين، فصدَّ الافرنج، وكال لهم بكيلهم. وكان من أهم ما فعله بعد ذلك نسفه الامارات الأندلسية واحدة بعد أخرى، وتوحيد الأندلس مع المغرب تحت سلطانه. وكانت سبيله إلى هذا القوة من جهة، والفكرة الإسلامية العامة من جهة أخرى، بل كانت هذه هي الأقوى والأبرز. حيث حثه على هذا العمل العلماء، قائلين: إن مصلحة الإسلام والمسلمين تقضي به. ولقد قنع بعض الأمراء، فتخلوا عن سلطانهم طواعية، أو على الأقل متظاهرين بذلك، وحاول بعضهم الاباء فأرغم بالقوة.

وسارت دولة الموحدين التي قامت على انقاض المرابطين على غرار سالفتها، في الحرص على بقاء الوحدة موطدة بين المغرب والأندلس. وكانت الفكرة الإسلامية الجهادية من حوافزهم ووسائلهم إلى ذلك. وقد جاهدوا في الذين حاولوا فصم عرى الوحدة جهاداً قوياً متوسلين بها.

ومثل هذا يمكن أن يقال بالنسبة لدولة بني مرين التي قامت على انقاض الموحدين لبعض فترات سلطانها.

- ١٣ -

ومن هذا الاستعراض الوجيز يظهر أن الوحدة بين أجزاء الوطن العربي الكبير كثيراً ما توطدت، وكانت تنفصم ثم تتوطد ثانية. وإن المطمح الشخصي الذي كان الحافز في الحركات التوحيدية الاقليمية والشاملة، كثيراً ما كان يمتزج بالفكرة القومية أو الدينية العامة، ويستند إلى ما توافر في أقاليم الوطن وسكانه من مقومات الوحدة.

وإذا كانت عروة وحدة العرب الآن مفصومة، ورؤساء أقاليمهم ينأون عن الاتحاد أو يتخاذلون، ويتناظرون، فقد كان أسلافهم يرتكسون في مثل ذلك، ثم تحفزهم الحوافز المتنوعة الداخلية والخارجية والقومية والإسلامية، ويقيض الله صاحب عزيمة يجمع شملهم، ويجدد

وحدتهم، فيستأنفون نشاطهم وحيويتهم، ويثبتون خصائصهم وقدرتهم على الصمود أمام الأحداث الجسام بما لا مزيد عليه، وقبل الإسلام وبعده.

وفي هذا ما فيه من حوافز الهمم، وبواعث الأمل بتجدد العهد الزاهر وقيام الكيان الموحد، ولا سيما أن البواعث الداخلية والخارجية ملحة شديدة، والجمهور العربي، وفي مقدمتهم رؤساؤهم وحكامهم وساستهم ومثقفوهم مدركون ذلك أقوى الإدراك.

ولقد مر على الأمة العربية حين طويل من الدهر، استغرقت فيه في سبات لا قومي شديد، ورضخت فيه لغيرها مستسلمة ثم هبت من سباتها. ولم يمض على هبوبها إلا نحو نصف قرن، حتى تطورت تطوراً عظيماً، وتقدمت تقدماً كبيراً في مجال العلم والعمران والاقتصاد والحياة السياسية والوعي القومي، يلمسهما بكل قوة واغتباط كل من عاش قبل ذلك أو في خلاله، مع أن هذه المدة لم تخلص لها، حيث كانت وما زالت تتعثر بعثرات عديدة داخلية وخارجية، وهكذا تعود الأمة العربية فتثبت حيويتها وقابليتها.

والتقدم والتطور يزدادان يوماً بعد يوم، مما يبعث الأمل بأنهما لن يلبثا أن يتكاملا، وأن يؤتيا ثمارهما في مجال انشاء كيان موحد باذخ البنيان، مزدهر الحضارة، يساعدان العرب على تبوء مكانتهم اللائقة بأمجادهم وخصائصهم بين أمم الأرض ان شاء الله[٦١].

كيف تتحقق الوحدة العربية

- ١ -

تعليق على الأساليب التي جرى عليها التوحيد واحتمال تطورها بالنسبة لواقع العرب

يتضح من الشرح السابق، أن سبيل الوحدة بين البلاد المتشاركة في الجنس واللغة والتاريخ والمصلحة والحدود هي:

١ ـ القوة الحربية التي تتحرك بالمطمح الشخصي والتوسعي، حيث يبرز ملك دولة من دول متعددة في بلاد واحدة أو بلاد متجاورة، بينها ذلك التشارك، فيفرض سلطانه، وتغدو البلاد موحدة تحت رايته بشكل من أشكال الوحدة. وهذا ما كان يجري في التاريخ القديم.

٢ ـ القوة الحربية التي تتحرك بالمطمح الشخصي والحافز الديني معاً، حيث يبرز ملك أو قائد في دولة من دول متعددة، بينها ذلك التشارك، فيفرض سلطانه بالقوة المترافقة مع الدعوة الدينية التي تتمثل بتوطيد فكرة أو جهد جهادي، فتغدو البلاد موحدة تحت رايته بشكل من الأشكال، وهذا ما كان يجري في التاريخ المتوسط، وخاصة في التاريخ الإسلامي.

٣ ـ القوة الحربية والمساعي السياسية التي تتحرك بالمطمح الشخصي والحافز القومي

معاً. حيث يبرز ملك دولة من دول متعددة، بينها ذلك التشارك، فيتبنى فكرة توحيدها تحت رايته. ويكون في ذات الوقت افراد أو هيئات تدعو إلى هذا التوحيد، فتتضامن الحركتان، وتتوسلان بمختلف الوسائل من دعوة، إلى حرب، إلى سياسة، إلى ارغام، إلى استفتاء، حتى تتحقق الوحدة المنشودة، بشكل من الأشكال، وهو ما جرى في العصور الحديثة.

وقد تكون الطريقة الثالثة هي الأكثر انطباقاً على حالة الأمة والبلاد العربية اليوم. ففكرة الوحدة العربية اليوم، فكرة قومية، يعتنقها ويدعو إليها جمهور المفكرين والمثقفين السياسيين والعسكريين والاقتصاديين والاجتماعيين. ويعتنقها ويرددها الرأي العام العربي، ويتجاوب مع كل دعوة اليها، بل ويعتنقها ويرددها الملوك والرؤساء، والذين في أيديهم مقاليد الحكم في مختلف انحاء الوطن العربي، بقطع النظر، عما إذا كان كلهم أو جلهم يعتنقها مجاراة للرأي العام، أو عن صدق فهم وعقيدة، وبقطع النظر عن التأويل الذي يؤوله بعضهم، والإطار الذي يرسمونه لها، لأنهم لا يستطيعون المكابرة في وجوب تحقيقها، وفي كونها هدف العرب ونشيدهم، ومعقد أملهم في الحياة الكريمة العزيزة المزدهرة.

على أن التطور الذي يبدو واضحاً بين الظروف التي كانت عليها حالة أوروبا والمانيا وايطاليا في القرن التاسع عشر، والظروف التي تعيش فيها الأمة، والبلاد العربية اليوم، مما قد يغني الأمة العربية عن بعض الوسائل والحركات التي جرت في سبيل الوحدة الألمانية والطليانية.

ففكرة الوحدة العربية أكثر انتشاراً، والعرب أشد شعوراً بالحاجة إليها، ووجوب قيامها على اختلاف اقطارهم وفئاتهم، مما كانت عليه عند الألمان والطليان في القرن السابق. فضلاً عن أن توافر مقوماتها في الوطن العربي الكبير وسكانه أوسع مدى، بحيث لو استفتيت الشعوب العربية، لكانت الغالبية العظمى في جانبها.

وقوة الشعور العربي العام، بأنه لن يكون للعرب كيان محترم قوي إلا بالوحدة، التي تغدو بها أقطارهم دولة واحدة، أو دولاً متحدة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، وبأنه لم يصب العرب ما أصابهم من وهن وضعف وتعرضٍ للعدوان واندحارٍ أمامه، في ظرف من ظروف تاريخهم، إلا حينما كانت تنفصم وحدتهم أو تهن، وبأنهم لم يكونوا أقوياء محترمين مزدهري الحضارة، في ظرف من ظروف تاريخهم كذلك، إلا في ظل شكل من أشكال الوحدة، وأنهم لن يزالوا ضعفاء مهينين في عيون أنفسهم وعيون غيرهم، مستضعفين تتلاعب بهم الأهواء، ويتهضمهم الأعداء والطامعون ما زالوا غير متحدين، بادية للعيان، تقرع الأسماع، وتملأ الأجواء في كل مناسبة؛ وهي أقوى الآن منها في أي وقت مضى، حتى الملوك والأمراء والرؤساء والساسة، الذين هم متأثرون باعتباراتهم الأقليمية والشخصية، يندمجون في هذا الشعور ويرددونه في كل مناسبة، وإن كان تأويل بعضهم للهدف منه، قد يختلف، كما قلنا، عن التأويل الصحيح الذي لا يمكن أن يكون إلا الوحدة أو الاتحاد.

ولقد اشتد هذا الشعور خاصة، بعد أن تضاءل الأمل الذي انبثق في النفوس، يوم قامت الجامعة العربية التي كان يظن أنها ستسد فراغاً كبيراً في دنيا العرب وتضامنهم وتوافقهم، وتكون نواة وحدتهم الفعلية، ثم بعد أن لم يكن من وراء معاهدة الدفاع المشترك، والتعاون الاقتصادي التي انعقدت بين الدول العربية لدعم بنيان الجامعة، وسد ما ظهر فيه من فراغ، أي غناء.

ولقد اتسع نطاق الوعي القومي في الجمهور اتساعاً عظيماً، ومهما اتصف بالجمود والسلبية، فإن صفته هذه ليست طبيعية الاستمرار. والدعوة والتنظيم، واتساع نطاق العلم، مما هو في حيز الامكان، بل في حيز العمل، كفيل بتبدلها إلى الايجابية المتحركة الذاتية في وقت قريب.

ولقد كان قيام الجامعة العربية، ثم معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي، مهما قيل فيها، تجاوباً لا شك فيه مع فكرة الوحدة العربية والوعي القومي الذي اتسع نطاقه وقوته على ما ذكرناه قبل.

وكل هذا لم يكن منه شيء في ايطاليا وألمانيا في أواسط القرن الثامن عشر، ومما ييسر تحقيق الوحدة بالدعوة القوية.

- ٢ -

ضرورة تبني إحدى الدولة العربية الدعوة إلى الوحدة وحمل رايتها وترشيح مصر وسورية لذلك

من الأمور التي لا بد منها في تحقيق الوحدة العربية، أن تتبنى احدى الدول العربية الدعوة إليها، وحمل رايتها والتحرك في سبيلها، لأنها لن تأتي عفواً. وهذا ما كان في كل ظرف وحركة توحيدية، قديمة وحديثة وقومية وغير قومية.

ولقد لاح هذا التبني لفترة من الزمن، في شخص فيصل الأول ملك العراق. وفي شخص الدولة العراقية، فأخذ رجال الحركة العربية يتجهون إليها، في صدد وحدة العراق والشام كمرحلة أولى، لأن الفكرة العربية لم تكن بعد، قد سرت وعملت عملها في غيرهما.

ذلك لأن فيصلاً، هو الذي كانت الفكرة العربية القومية قد تركزت فيه بمعناها الواسع، وكانت شخصيته محببة لرجال هذه الفكرة، ومتسايرة معهم أكثر من أخيه عبد الله، ولأن حالة العراق السياسية كانت تبدو أحسن من حالة مصر وسورية ولبنان والأردن، حيث كانت مصر تحت كابوس الاحتلال الانكليزي وتحفظات تصريح فبراير؛ كما كانت أحزابها في تناحر شديد بعكس العراق الذي تركزت علاقاته بالانكليز بمعاهدة اعترفوا له فيها بالسيادة والاستقلال، وحيث كانت سورية ولبنان تحت وطأة الانتداب الافرنسي الشديدة الحمقاء، وحيث كان الأردن تحت وطأة الانتداب الانكليزي الذي كان الانكليز به أصحاب الكلمة النافذة. ولم يكن يبدو من العاهل

السعودي طموح إلى خارج الجزيرة، ولأنه كان للعراق جيش فتي قوي الروح في أفراده وقادته وضباطه، الذين كان يبدو منهم نحو الانكليز مواقف قوية، تبشر بأنه سيكون لهم شأن هام، فكان العراق بسبب ذلك كله، ورغم ما كان مرتبطاً به من معاهدة مع الانكليز، يبدو في ذلك الظرف (٩٢٧ ـ ٩٣٢)، أحسن البلاد العربية حالاً، وأقواها روحاً وطموحاً، واستعداداً لتبني المهمة التي كان يعوّل القوميون عليه في القيام بها.

ولقد ذكرنا في مناسبة سابقة خبر المؤتمر الذي عقد في القدس في كانون الأول من سنة ١٩٣١، والمؤتمر العربي العام الذي تقرر فيه الدعوة اليه للنظر في تحقيق الميثاق القومي الذي كانت الوحدة العربية في مقدمة بنوده. ولما كانت فكرة كون فيصل والعراق، هما المعوّل عليهما في الحركة القومية العربية وأهدافها مستحوذة على الأذهان في ذلك الظرف، فإن اللجنة التنفيذية اتجهت حالاً نحوهما، فاتصلت بالملك ورجال العراق البارزين، والذين كانوا من رجال الحركة العربية، المندمجين في نشاطها السري والعلني منذ الحكم العثماني، وعرضت عليهم تبني فكرة المؤتمر وأهدافه وعقده في بغداد، فقوبل العرض بالترحيب، مما ينطوي فيه توكيد لشعور ملك العراق ورجاله، بما كان من فكرة التعويل عليهم في هذه المهمة، واستعدادهم للقيام بها، ووعد فيصل بتعضيد المؤتمر مادياً وأدبياً، وتألفت لجنة تحضيرية في بغداد منهم، لتهيئة أسباب عقد المؤتمر، وأخذت لجنتا العراق والقدس تنشطان في سبيل عقده. وكانت لجنة العراق على صلة وثيقة بالملك فيصل في هذا الأمر، وأبدى العاهل السعودي توجسه من الحركة، فأرسلت اليه لجنة القدس من طمأنه وحصل على موافقته، وكاد المؤتمر ينعقد في ربيع سنة ١٩٣٣، ثم تأجل إلى خريفها، ثم مات فيصل في هذا الخريف...

ومذ مات فيصل شغل العراق بأحداثه المحلية، وضعف الأمل الذي كان رجال الحركة القومية يراودهم فيه، وفتر السعي في سبيل حركة مماثلة لفقدان المتبني القوي القادر.

ولقد كاد الأمل يعود اليهم ثانية بالحركة التي قام بها رشيد عالي الكيلاني، وبعض كبار ضباط الجيش العراقي في سنة ١٩٤١، والتي كانت تشبه إلى حد كبير الثورة العربية الهاشمية في ظروفها وأهدافها، بقطع النظر عن سيرها ونتائجها. وكان مما ادخلته في نهجها تحرير العراق من الانكليز، وتوطيد الوحدة بينه وبين بلاد الشام، غير أن الانكليز استطاعوا قمعها، فلم يدم ذلك الأمل.

وبعد هذه الحركة بسنتين، حاول نوري السعيد أن يقوم بجهد جديد في هذا المجال، حيث قدم مذكرة إلى وزير انكلترا في الشرق، في صيف عام ١٩٤٣، اقترح فيها توحيد اجزاء سورية (لبنان وسورية والأردن وفلسطين) في كيان موحد أو اتحادي، على أن يكون لليهود في منطقة تكثفهم بين تل أبيب وحيفا ادارة ذاتية خاصة، وأن يكون للموارنة في منطقة تكثفهم في جبل لبنان ادارة مماثلة، ضمن الكيان الموحد الاتحادي، ثم قيام اتحاد بين العراق وسورية الموحدة أو المتحدة، وفتح الباب لمن يريد أن ينضم إليه من الدول العربية الأخرى. غير أن هذا الجهد لم يكن من النوع الفعال بذاته، لأنه بذل مع الانكليز، وكان رهناً برأيهم، وهم لم

يفعلوا شيئاً. وكل ما كان من أمرهم تصريحات أدلى بها وزير خارجيتهم، بتشجيع أي خطوة يجمع العرب عليها في مجال الاتحاد.

وقد جرت مشاورات الوحدة العربية سنة ١٩٤٣، بناء على ذلك. ومع أنه كان من رأي ممثلي العراق الذين كان نوري السعيد على رأسهم، أن يقوم اتحاد فيدرالي بين الدول العربية، وتابعهم في هذا الرأي ممثلو سورية والأردن، فإنهم رضخوا لرأي مصر ولبنان والسعودية واليمن ببقاء كل دولة على حالتها الراهنة؛ فقامت جامعة الدول العربية على هذا الأساس.

ولقد كان من العراق بعد ذلك أعمال متنوعة في صدد الدعوة التوحيدية، فقدم رئيس وزارء العراق، في مطلع سنة ١٩٥٤، مذكرة لمجلس جامعة الدول العربية، يدعو فيها إلى الاتحاد، ويعلن استعداد العراق للاتحاد مع أي بلد يريد ذلك، فلم يكن لها صدى ايجابي.

على أن من الحق أن نقول: إن الدعوة العراقية، والحركات التي كان وراءها العراق، لم يكن من شأنها احياء فكرة الوحدة أو الاتحاد على يد العراق، والتي خبت بعد موت فيصل، وازدادت خبوّاً، بما كان من الأحداث التي أعقبت قمع حركة رشيد عالي، مما لا يتحمل المقام تفصيله، ومما كان الاستعمار الانكليزي مسؤولاً عنه إلى درجة كبيرة؛ ولا سيما أن كثيراً من رجال العراق البارزين، يقفون من الحركات العراقية الاتحادية موقف التحفظ واللامبالاة، وأنها كانت متصفة بصفة المساعي والرغبات الشخصية والمطمح الأسروي، أكثر منها بالصفة الجماعية التي يدعمها شعور قوي وجد ودأب؛ فضلاً عن أن نطاقها كان منحصراً في العراق والشام، دون وحدة عربية شاملة، ولم يكن من شأنها أن تحقق مثل هذه الوحدة التي هي الغاية المنشودة، وبالتالي لم يكن ليصح أن يوصف العراق بها، أنه تبنى الدعوة إلى الوحدة العربية، أو أراد أن يتبناها بجد وشمول.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن السياسة التي انتهجها حكام العراق، منذ مطلع سنة ١٩٥٥، وهي الانحياز للمعسكر الغربي دون سائر الدول العربية، وما نتج عنها من اتفاقية الدفاع المشترك العراقية الانكليزية وحلف بغداد، وما اثاره ذلك من بلبلة وتوتر في دنيا العرب، وادّى اليه من انعزال العراق الرسمي تقريباً عن هذه الدنيا، وما كان في ظروف ذلك من دعايات واذاعات ومشادّات، قد جعل تبني العراق للدعوة إلى الوحدة أو الاتحاد، والاضطلاع بها، من ناحية احتمال التجاوب معه، ومن ناحية استمرار الدعاية المضادة له، والشكوك منه، غير ذي موضوع.

ولقد ظهرت مصر بمثابة المتبنية لقضية الوحدة، حينما اضطلع رئيس وزارتها مصطفى النحاس سنة ١٩٤٣ بمشاورات الوحدة، حيث كانت مصر مركز هذه المشاورات، فكانت تدعو الدول العربية إلى ايفاد ممثليها للتشاور معهم، ووصل الأمر إلى أن زار ملكها فاروق الحجاز، واجتمع بالعاهل السعودي بسبيل ذلك. غير أن سير المشاورات ونتائجها، وموقف مصر منها، أثبت أنها لم تكن جادة في هذا التبني بنطاق فعال بعيد المدى.

ولقد حاولت سورية أن تقوم بحركة ذاتية، حينما قدم رئيس وزارتها ناظم القدسي مذكرته سنة ١٩٥١، التي ألح فيها على ضرورة قيام شكل من أشكال الوحدة الفعالة بين الدول العربية، بعد أن قرر أن ميثاق الجامعة العربية لم يحقق ما كان يرجى منه لتضامن العرب وتعاونهم الفعال، في مختلف المجالات والمصالح المشتركة، غير أن هذه المحاولة لم تتعد تقديم المذكرة، ووقفت عند هذا الحد، حينما ذهب أثرها مع الريح، على ما شرحناه قبل. ولا يصح أن تعد سورية بذلك أنها رشحت نفسها لتبني الدعوة إلى الوحدة الشاملة، مع أن جميع صفاتها تؤهلها لذلك، وتجعل من المفروض أن يكون صوتها وحركتها بسبيل ذلك من أقوى الأصوات والحركات؛ لأنها خالصة من أي شائبة استعمارية أو أسروية أو طائفية، ولأنها تعتبر منبت الحركة العربية الحديثة، وحاضنة أهدافها في الدرجة الأولى، ولأنها الدولة الأولى التي جعلت للوحدة العربية، وواجب العمل لها نصاً صريحاً في دستورها.

ومع ذلك، فإن عودة شكري القوتلي إلى رآستها، سنة ١٩٥٥، أحيت الأمل في قيامها بهذا الدور العظيم الذي هي أهل له بزعامته. فهو من أركان الحركة العربية الحديثة، التي كانت اقامة وحدة عربية شاملة من أهدافها الكبرى، كما هو من أكثر رجال العرب فهماً وإدراكاً وقناعة وشعوراً بها، وبضرورتها الشديدة، ولا يُتهم بأي مطمح خاص، إذا ما تبنت سورية بزعامته الدعوة اليها. وهذا بنوع خاص، وما تقدم من صفة سورية بنوع عام، يجعل المجال ميسراً لسورية لتبني هذه الدعوة، حتى ولو تأخرت الحركة إلى ما بعد انتهاء رآسته، فإن مؤهلات سورية تبقى قائمة لتبني الدعوة كما هو المتبادر.

على أن مصر أيضاً جديرة بتبني هذه الدعوة، باعتبار أنها أبرز الدول العربية، وأكثرها عدداً، واضخمها قوة، وألمعها اسماً، واملأها حيزاً، وأوسطها مركزاً. وكل هذه الصفات ضرورية في مجال تبني الدعوة إلى وحدة شاملة، والاستجابة اليها من الآخرين كما هو ظاهر؛ ثم في مجال التنفيذ أيضاً، لأن خطورة القضية، وما يحيط بها من ملابسات، تتطلب أن تكون الدولة المتبنية قوية، ذات اعتبار دولي، ولديها امكانيات جذابة، وطاقتها المادية والأدبية كبيرة، لتستطيع أن تقوم بدورها الهام في هذا الشأن. وكل هذا متوفر في مصر أكثر من غيرها؛ ولا سيما بعد أن تم فيها ما تم من الأحداث العظيمة المباركة منذ صيف عام ١٩٥٢، فزادت بها قدرتها وأهليتها على الاضطلاع بالمهمة، ثم تم جلاء الانكليز عنها نهائياً، وخلصت من كل قيد وعهد معهم، فانطلقت يدها وحريتها بقيادة زعماء حركتها المباركة، في سبيل النمو والقوة والازدهار، وسارت فيها اشواطاً عظيمة. وقد كشفت الأحداث عن قوة روحهم، وسعة أفقهم، وحسن نواياهم، واندماجهم في العروبة؛ ولا تمر مناسبة إلّا ويصدر عنهم تصريحات قوية، تؤكد اعتناقهم للفكرة العربية، وفي رأسها الوحدة واهتمامهم للقضايا العربية، والقوة العربية، والكرامة العربية، والاستقلال العربي الذاتي. وقد بدا منهم من النشاط في دنيا العرب ما فيه تصديق لذلك. وقد توجوا هذا كله، بالنص في دستور مصر الجديد، الذي صدر في صيف عام ١٩٥٦، على أن مصر جزء من البلاد العربية، وأن المصريين جزء من الأمة العربية.

ومصر بعد ليست غريبة عن مثل هذه الحركة تاريخياً، حيث كانت تسعى كثيراً في جمع شمل البلاد العربية تحت لوائها. وقد نجحت في ذلك مراراً، وكان نجاحها تحت راية صلاح الدين، واستمرار ذلك في عهد خلفائه الأيوبيين، ثم في عهد دولة مماليك الترك كفيلاً بانقاذ فلسطين، وانزال الضربة القاصمة على الافرنج الغزاة، الذين لم يكتب لهم النجاح في جولتهم الأولى إلا بسبب تشتت العرب، وانفصام وحدتهم، وتعدد دويلاتهم وتنافرها فيما بينها. وقد حاول محمد علي في أواسط القرن التاسع عشر أن يقوم بحركة شبيهة بذلك، بقطع النظر عن الظروف والبواعث، وكاد ينجح فيها، بل وبمقياس أوسع مما كان، لولا تدخل الإنكليز الذي أدى إلى انكفاف يده عن بلاد الشام، بعد أن توحدت مع مصر، وبدت تباشير مملكة عربية كبرى، تضم وادي النيل وجزيرة العرب وبلاد الشام والعراق وكيليكيا. ولقد كان للموقف القوي الذي وقفوه في صدد الدفاع العربي الذاتي الجماعي، والنأي عن الارتباط بالأحلاف الخارجية، والذي تمكنوا به من إحباط كيد المعسكر الغربي لتفتيت الكيان العربي، وجرّ الدول العربية واحدة بعد أخرى إلى عجلته، ثم للحركة البارعة الجريئة التي حصلوا بها على قدر كبير مما يحتاجون إليه من السلاح من المعسكر الشرقي، والتي كانت اعلاناً رائعاً للتفلت من هيمنة المعسكر الغربي التقليدية على البلاد العربية، أو التمرد عليها، وللسير في طريق القوة المتحررة، رد فعل عظيم في جميع بلاد العرب، وقوبلت بالابتهاج والتأييد من الحكومات والبرلمانات والشعوب، فكان في كل ذلك توطيد قوي جديد لزعامة مصر لبلاد العرب، وارتفاع اعتبارها، وبالتالي اعتبار العرب في مختلف أوساط العالم، مما زادت به قوة المبررات لترشيحها لتبني الدعوة، وقوة احتمال استجابة العرب اليها.

ويورد البعض عدم رسوخ الفكرة العربية القومية في المصريين، رسوخاً يجعلهم يدركون ضرورة الوحدة العربية الاندماجية بمعناها القومي. وقد يكون هذا صحيحا، بعض الشيء، لا لأن عروبة مصر أضعف من عروبة العراق والشام ـ لأن صفاء العروبة في مصر واصالتها لا يتحملان شكاً على ما شرحناه في مناسبة سابقة ـ وإنما بسبب تأخرها في التجاوب مع الحركة العربية الحديثة، لأسباب ذكرناها قبل. غير أن المسافة بينهم وبين الشام والعراق في ذلك، آخذة بالتناقص يوماً بعد يوم، على ما تدل عليه البوادر والمشاهدات التي ذكرنا شيئاً منها في مناسبات سابقة، والتي تظهر آثارها في كل مناسبة قولاً وفعلاً.

ونعتقد أنه لن يمر وقت قليل، حتى تصبح الروح العربية القومية، والاندماج في الفكرة العربية والحركة العربية قوياً، لا يقل عن مثله في بلاد الشام والعراق إن لم يزد، لأن ذلك هو المتسق مع طبائع الأمور والحقائق. واندماج قادة مصر في الفكرة، سوف يكون عاملاً قوياً في تقصير المسافة حتى يتم التلاقي. ولقد كان مؤتمر جميع الخريجين الذي انعقد في القدس في أواخر ايلول سنة ١٩٥٥، من أحدث المظاهر على ذلك، حيث بدا من الأعضاء المصريين الذين كانوا جمهرة كبيرة من الأساتذة والجامعيين اندماج وتجاوب قويان مع فكرة العروبة وقضاياها. ويحسن التنبيه على أمر مهم في صدد ترشيح مصر لتبني الدعوة إلى الوحدة، وقابليتها لذلك، وهو أن مصلحة مصر ومركزها، كانا دائماً يحفزانها إلى توحيد بلاد العرب، بقطع

النظر عن الحافز القومي العاطفي. وقد شرحنا هذا في مناسبات سابقة. فهما اللذان ساقا محمد علي التركي، إلى التفكير في إنشاء امبراطورية عربية، تضم وادي النيل والحجاز وبلاد الشام والعراق، وجعلاه يقوم بما قام به من حركة عسكرية في سنة ١٨٣١ نحو بلاد الشام. وهما اللذان ساقا الطولونيين والفاطميين والأيوبيين ومماليك الترك والشركس، وهما اللذان كانا يسوقان الفراعنة قبل الإسلام. وهذا قائم اليوم كما كان قائماً بالأمس وسيظل قائماً.

ويبدي البعض تخوفهم من مكاثرة المصريين، بسبب تفوقهم العددي لغيرهم وبروزهم عليهم في مختلف المجالات في نطاق الوحدة. وهذا هراء لا يتحمل رداً، ولا يقول به إلّا الإقليميون والطائفيون المتعصبون والمأجورون. فالوحدة سوف تجعل العرب امة واحدة، وأقطار العرب وطناً واحداً. وقد كان هذا، حينما كانت وحدة العرب قائمة، في ظل الخلفاء الراشدين والدولة الأموية.

وقد نسي القائلون انهم بمثل هذا القول يبررون خوف كل قطر صغير من قطر آخر، مهما كان التفاوت بينهما في العدد، وامتناعه من الاتحاد معه بأي شكل، بل أنهم بمثل هذا القول، يبررون خوف كل مدينة صغيرة من المدينة التي أكبر منها في القطر الواحد ونزوعها إلى الانفراد عنها!!

ويقوم التواثق القوي الآن بين مصر وسورية كما يبدو في البلدين، ولدى رؤسائهما ورجالهما رغبة في تزييد هذا التواثق. وكان من مظهر ذلك القوي العظيم قرار مجلس الوزراء السوري الذي أيده مجلس النواب السوري في تاريخ ٥ تموز من سنة ١٩٥٦ بالاجماع، بالعمل على اقامة اتحاد فدرالي بين البلدين، يكون نواة لاتحاد عربي شامل، وترحيب رئيس مصر ورفاقه بهذا القرار، واظهارهم الاستعداد للسير في تحقيق مقتضاه؛ حيث يؤدي هذا إلى القول، بامكان اشتراك الدولتين في تبني الدعوة، وبالأمل العظيم الايجابي في هذا التبني المزدوج. فسورية عمود الجناح العربي الشمالي الفقري، ومصر عمود الجناح العربي الجنوبي الفقري، فإذا ما تبنتا الدعوة إلى الاتحاد، صارت الاستجابة اليهما من الجناحين في حيز الأمل، والاحتمال الكبيرين.

- ٣ -

ضرورة وجود جهاز شعبي

قلنا في احد مباحث العقبات الداخلية، ان عدم قيام جهاز قومي للدعوة إلى الوحدة، كان من مظاهر التقصير والنقص في قوة الدعوة، والجهود التي كانت تبذل في سبيلها، كما كان من أسباب أو مظاهر جمود الوعي القومي العام وسلبيته نحوها.

ومهما يكن من أمر، فإن الحاجة إلى جهاز قومي، يتفرغ للدعوة إلى الوحدة، ويعمل في سبيلها، ويقوم بمختلف المساعي والاتصالات في مختلف اجزاء الوطن، ومع مختلف هيئاته

الشعبية والحكومية، تظل شديدة كحاجتها إلى دولة تتبناها، حيث يكون الجهاز عضداً شعبياً لهذه الدولة.

فلحكومة الدولة التي تترشح لتبني الدعوة، وحمل الراية، مشاكل ومشاغل كثيرة، قد تلهيها عن المثابرة، أو تجعلها تتقيد بها. ووجود مثل هذا الجهاز مفيد كل الفائدة، ولا سيما إذا كان متفرغاً قوياً في اشخاصه وبنيانه وشعبيته، بل وقد يكون ترشيح دولة تتبنى الـدعوة رهنـاً بوجوده ونتيجة من نتائج نشاطه، فالشعوب العربية، كما قلنا في مناسبات سابقة، مدركة لضرورة الوحدة. وإنما ينقصها التحريك، فإذا ما تيسر لها المحرك القوي الذي يتمثل في مثـل هذا الجهاز تجاوبت معه بقوة، وفرضت على الذين في يدهم مقاليد الأمور في البلاد العربية أن يتجاوبوا معه، ومع الدولة التي تتبنى الدعوة.

وهناك ثلاث وسائل أو صور، تتبادر لنا، لسد هذا الفراغ.

أولاها ـ أن يأخذ المكتب الدائم لمؤتمر الخريجين الجامعيين على عاتقه ذلك ويتفرغ له. وإذا نظرنا إلى قرارات المؤتمر الذي انعقد في أيلول سنة ١٩٥٥، رأينا معظمها قرارات سياسية، لا تحتاج إلى ملاحقة. وقد تم أمرها بإعلانها. والموضوع المهم الوحيد تقريباً الذي أوجب المؤتمر على مكتبه الدائم استمرار العمل له هو الاتحاد العربي ودستوره. ولقد اندمجت مصر في هذه المنظمة هذا العام اندماجاً قوياً وواسعاً بموافقة قادة مصر، ثم صار لها في المكتب الدائم بروز ونفوذ. ولقد كان من قرارات المؤتمر، أن يقوم في كل قطر مكتب فرعي للمؤتمر، وبدأت مصر بالتنفيذ، وهذا وذاك أمران مهمان في مجال الدعوة ونجاحها.

وثانيهما ـ أن تتألف في مجلس النواب السوري لجنة باسم لجنة الوحدة العربية، تتمثل فيها جميع الميول، تنفيذاً لما أوجبه الدستور على النواب، وأقسموا عليه من العمل للوحدة العربية، ومهمة هذه اللجنة بحث الوسائل والخطط الناجعة، والقيام بالاتصالات والمساعي اللازمة لتحقيق الهدف.

وثالثهما ـ أن يؤلف في بلد من البلدان العربية ـ ونحبذ أن يكون في مصـر أو سوريـة للاعتبارات التي شرحناها قبل ـ لجنة من عدد غير كبير من الأشخاص القوميين البارزين المؤمنين بالوحدة والعمل لها، وغير المتهمين بميول خاصة معينة باسم «لجنة الوحدة العربية»، ثم تتصل بمن يشاكل اشخاصها في البروز والروح والايمان والبراعة في مختلف اقطار العرب ليؤلف في كل قطر لجنة مماثلة بنفس الاسم. ثم تجتمع هذه اللجان في شكل مؤتمر غير صاخب، من حين لآخر، لوضع الخطط وتقرير الخطوات والأساليب والمساعي في سبيل الهدف المنشود وتحقيقه. ويكون هناك مكتب دائم يمثل الأقطار المشتركة في المؤتمرات للاضطلاع بملاحقة ما يتقرر فيها. وتكون لجنة كل قطر بمثابة فرع اقليمي يضطلع بما يطلبه منه المؤتمر أو المكتب.

ويوجد في كل قطر عـربي عدد من الأشخـاص القوميين ذوي المكـانة في الصفـوف الاجتماعية والسياسية المحلية والعربية العامة، يؤمنون بالوحدة، ومستعدون للعمل لها في نطاق

جهاز قومي عام، وغير متهمين في ذات الوقت، وكل ما يعوزهم أن يتقدم إلى الميدان متقدم قوي الشخصية والاسم للتجاوب معه والاستجابة اليه. وشخص قوي الاسم والشخصية، يحمل لواء الدعوة، ويدعو المؤمنين بها إلى الانضواء اليه، أمر على غاية الأهمية، وهو ما لم تقم حركة توحيدية إلا به. ونريد أن نكون متفائلين، ونقول ان الأمة العربية لا ينقصها مثل هذا الشخص.

وقد يكون من المفيد الضامن للنجاح، أن يتصل الذين يحفزهم ايمانهم على تأسيس أول لجنة بالمقامات الحكومية العربية، وشرح فكرتهم لها، وتقديم التوكيدات ببراءتها من أي ميل خاص، وبرغبتها في العمل للوحدة العربية الشاملة لصالح العرب جميعهم. فإن مثل هذا قد ينيلها من هذه المقامات تأييداً معنوياً ومادياً، وقد يبعد عنها التهجم والمناوأة والتوجس.

وعلى كل حال ان قيام جهاز قوي متفرغ للوحدة أمر ضروري، وقد آن أوانه، حتى يتجسد الكلام الكثير عن الوحدة وضرورتها والشعور بها، بعمل ايجابي، وان الشعور العام القومي بضرورة الوحدة، لما يهيىء لمثل هذا الجهاز أسباب النجاح والاستجابة، وان من واجب الصحافة والشخصيات والهيئات القومية المخلصة تشديد الدعوة والالحاح فيها، حتى يقوم هذا الجهاز في صورة من الصور الثلاث ـ التي تفضل عليها الأخيرة ـ في أقرب وقت، فيسد الفراغ البادي، ويكون قيام نقطة انطلاق ايجابية نحو الهدف المنشود.

- ٤ -

تعديل ميثاق الجامعة ومعاهدة الدفاع المشترك وعدم جدواه

ونحن نقدر أن الاعتبارات والكيانات الاقليمية والأسروية، ستكون عقبة الآن في سبيل الدعوة إلى الوحدة، ونرى أنه لا بد للدولة التي تتبنى الدعوة وتحمل رايتها، والجهاز الشعبي الذي يعمل إلى جانبها مؤيداً ومساعداً من مسايرة هذا الواقع، وليس هذا بدعاً، فقد سوير مثل هذا الواقع طوعاً أو كرهاً في كثير من حوادث التوحيد القديمة والحديثة على ما شرحناه قبل.

ويرى بعض رجال الحكومات العربية والساسة العرب، أن في تعديل ميثاق الجامعة العربية، ومعاهدة الدفاع المشترك مسايرة لهذا الواقع، وسداً للثغرة البادية في مجال التواثق العربي الفعال، والخطوة الأولى إلى الوحدة، والأيسر حصولاً، نظراً للاعتبارات المذكورة.

ولقد تبادر هذا إلى اذهان الذين وضعوا ميثاق الجامعة، فكان من جملة مواده المادة ١٩ هذه:

«يجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة تعديل هذا الميثاق، وعلى الخصوص لجعل الروابط بينها أوثق وامتن، ولانشاء محكمة عدل عربية، ولتنظيم صلات الجامعة بالهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام. ولا يبت في التعديل، إلا في دور الانعقاد التالي للدور الذي يقدم فيه الطلب. وللدولة التي لا تقبل التعديل أن تنسحب عند تنفيذه».

ومما ثبت بالتجربة حقاً أن في ميثاق الجامعة نقصاً وثغرات عديدة، ومما فيه مادة كانت على الأرجح العامل في شلّ نشاط الجامعة ووهن بنيانها، وتعطيل الجهود العظيمة التي بذلتها لجان الجامعة في دراسة كثير من المواضيع، وتحضير كثير من المشاريع والتشاريع واللوائح، خلال السنين التي مرت عليها، والتي امتلأت بها ملفات ضخمة نائمة على رفوف خزانات الجامعة، أو خزانات الحكومات العربية، وفي تعرّض كثير منها للأخذ والرد والاعادة والابداء، وجعله في حكم المعطل، ونعني بها المادة السابعة هذه:

«ما يقرره المجلس بالاجماع يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة في المجلس، وما يقرره بالأكثرية يكون ملزماً لمن يقبله، وفي الحالتين تنفذ قرارات المجلس في كل دولة وفقاً لنظمها الأساسية».

وشيء مثل هذا وارد في المادة الثانية، حيث تجعل تعاون الدول المشتركة في الشئون الاقتصادية والمالية والمواصلات والثقافة والجنسية والجوازات والصحة الخ، حسب نظم كل دولة وأحوالها.

ففي هذه النصوص إمكان دائمي لتعطيل أي عمل، أو قرار يتخذه مجلس الجامعة ولشذوذ دولة أو أكثر، عما يريد أن يقرره الباقون، فيتعطل الانسجام الاجرائي الذي أريد منه. وقد تكون القرارات خطيرة جداً، فيشتد التناقض والتغاير، وقد يكون الشذوذ سبباً لنكول الدول التي اشتركت في القرارات عنها، أو تلكؤها في تنفيذها، كما أن فيها إمكاناً دائماً لاصطدام إجراءات التنفيذ بالنظم والأحوال الجارية في كل دولة، فيؤدي ذلك إلى التعطيل والعرقلة أيضاً.

وهناك إلى هذا ثغرات أخرى في الميثاق، اثبتت التجربة أنها أدت إلى إهمال تنفيذ قرارات مجلس الجامعة، وتعطيل أعمال لجانها، والاضرار بصالح العرب، والاخلال بالتوائق والتناسق بين دولهم، وفي الجملة إلى إضعاف الآمال المعلقة على الجامعة، في نظامها الراهن مثل:

١ ـ عدم وجود نص يحدد أمداً أقصى للاجابة على مشاريع وطلبات واستعلامات لجان الجامعة، وابداء الملاحظات عليها(٦٢).

٢ ـ عدم وجود نص يحدد أمداً أقصى لتنفيذ قرارات مجلس الجامعة.

٣ ـ عدم فرض عقوبات على من لا ينفذ قرارات مجلس الجامعة، ومن اعتاد اهمال الاجابة على مشاريع وطلبات واستعلامات لجان الجامعة (٦٣).

٤ ـ الاكتفاء بايداع المعاهدات والاتفاقات التي عقدتها أو تعقدها دول الجامعة، مع أي دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها للامانة العامة، على ما جاء في المادة السابعة عشر، دون تقرير حق مجلس الجامعة بالنظر في هذه المعاهدات والاتفاقات، التي قد يكون فيها ما يلحق الضرر بصالح العرب، أو يتناقض مع قرارات مجلس الجامعة، أو مع روح ميثاقها، أو يخلّ بالانسجام والتناسق بين دولها.

٥ ـ عدم النص على عدم حظر وقوف احدى دول الجامعة في صلاتها الدولية، وفي المجالس واللجان والاجتماعات الدولية موقفاً مناوئاً لمصلحة احدى شقيقاتها، أو غير منسجم مع روح ميثاق الجامعة وغايته، أو مع قرارات مجلس الجامعة.

وقد يكون تعديل ميثاق الجامعة تعديلاً يزيل تلك الامكانيات الضارة، ويسد هذه الثغرات وأمثالها، مما يزيد في انتاج الجامعة ونشاطها وقوّتها حيث:

١ ـ تعدل المادة السابعة، بحيث يصبح قرار الأكثرية ملزماً للجميع.

٢ ـ تعدل المادة الثامنة عشرة، بحيث يحظر عقد معاهدات سياسية وعسكرية بين دولة من دول الجامعة وأخرى أجنبية، بدون موافقة مجلس الجامعة، أو على الأقل بدون أن تعرض عليه قبل ابرامها.

٣ ـ يضاف نص يحظر به وقوف احدى دول الجامعة وممثليها موقفاً مناوئاً لمصلحة احدى شقيقاتها، أو متناقضاً مع غاية الجامعة وروح ميثاقها، أو غير منسجم مع قرارات مجلسها في صلاتها الدولية، وفي المجالس واللجان والاجتماعات الدولية.

٤ ـ يضاف نص يحدد فيه أمد اقصى لتنفيذ قرارات مجلس الجامعة.

٥ ـ يضاف نص يحدد فيه أمد اقصى للاجابة على مشاريع وطلبات واستعلامات لجان الجامعة.

٦ ـ يضاف نص يخول المجلس فرض عقوبات على من يخالف نصوص الميثاق(٦٤).

وقد تقف المادة (١٩) في طريق التعديل، لأنها تسمح لأي دولة لا توافق عليه، أن لا تتقيد به، وأن تنسحب من الجامعة. ولعل هذا هو المانع الأقوى الذي يحول دون بحث موضوع تعديل الميثاق بحثاً جدياً، مع ما هناك من رغبة ملحة فيه، وضرورة حتمية اليه. ولعل وضع المادة بالصيغة التي وضعت فيها، كان نتيجة لاصرار الذين كانوا يشترطون احتفاظ كلّ دولة بنظامها، ووضعها الراهن كأساس لاشتراكهم في الجامعة، نظراً للاعتبارات الاقليمية والطائفية والأسروية.

ويقترح بعض الباحثين تعديلاً من نوع آخر للجامعة العربية، وذلك بانشاء مجلس يمثل البرلمانات والشعوب العربية، إلى جانب مجلس الجامعة الذي يمثل الحكومات، يدعم هذا المجلس، ويكون موجهاً شعبياً له، تتمثل فيه رغبة الشعوب التي ليست الحكومات إلا نائبة أو وكيلة عنها في الاعراف الدستورية الحديثة، وهو اقتراح وجيه وقوي في مجال دعم الجامعة، والتعبير عن ارادة الشعوب العربية في نطاقها.

هذا بالنسبة لميثاق الجامعة. أما بالنسبة لمعاهدة الدفاع المشترك، والتعاون الاقتصادي، فالمتبادر أن صيغتها صيغة معاهدة بين دولة عربية وأخرى غير عربية، أكثر منها بين دول عربية

شقيقة متشاركة في المصالح والوطن والتاريخ والجنس والأخطار والآلام. ويبدو هذا واضحاً في المادة الأولى، والمادة الحادية عشرة، والمادة الثانية عشرة من المعاهدة. وقد تصبح أكثر فعالية، إذا ما أدخل عليها تعديلات تؤدي إلى توحيد القيادة والجيوش والنظم في وقت السلم والحرب على السواء، ليكون هناك جيش عربي واحد، تتوزع فرقه في الأقطار العربية حسب الحاجة، ثم توحيد الشؤون الاقتصادية، واعتبار البلاد المشتركة في المعاهدة وحدة اقتصادية، ولا يكون هناك أي قيد على التنقل والاقامة والعمل، وتبادل المصنوعات والغلات العربية.

على أننا لا نرى في تعديل ميثاق الجامعة ومعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي غناء صحيحاً، عما ينبغي أن يتوطد بين الدول العربية من تعاون وثيق وشامل، حتى لو أمكن على الوجه الذي شرحناه، لأن الدول العربية ستظل على كل حال محتفظة بكامل سيادتها الداخلية والخارجية والاجرائية. وفي هذا عائق للتعاون الوثيق الفعال الذي يقتضي أن تتنازل الدول العربية عن شيء من سيادتها لصالح المجموع.

- ٥ -

محاولات أخرى غير مجدية

ولقد اتجهت مصر والسعودية وسورية، إلى عقد ميثاق ثلاثي، يوثق التعاون بينها في الميدان السياسي والاقتصادي والدفاعي، بمناسبة انفراد العراق، وتوقيعه مع تركيا، في ربيع سنة ١٩٥٥، ميثاق الحلف الذي اشرنا إليه في فصل سابق، فوقعت الدول الثلاث بياناً، على أن يعقبه ميثاق تفصيلي، قيل انه سيكون بمثابة وحدة أو اتحاد قوة ونفوذاً. غير أن الأمر وقف عند هذا الحد، دون خطوة أخرى، بسبب الاقليمية، أو الأرقامية الاقليمية التي تأثر بها بعض المفاوضين والخبراء.

على أن المستفاد من البيان المشترك، الموقع والمعلن في شهر مارس من سنة ١٩٥٥(٦٥)، من قبل ممثلي الدول الثلاث، أن هذه المنظمة لو تم قيامها، فلن تكون سوى منظمة مشابهة في مبناها ومداها لمنظمة جامعة الدول العربية، أو معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي، لأن الدول الثلاث ستظل في نطاقها محتفظة بحريتها وسيادتها التنفيذية الكاملة، ولا تتنازل عن شيء من ذلك لصالح المجموع. ومعنى هذا أن الحالة في نطاقها ستبقى على ما هي عليه، لأن العلة ليست في سعة النصوص وضيقها، حتى ولا في انسجام الدول، وصفاء ما بينها قلبياً، وإنما في التنفيذ الذي لن يضمن بجد وصدق، إذا لم تتنازل الدول عن شيء كثير أو قليل من سيادتها التنفيذية والتشريعية، ويضطلع بالشؤون التي ينبغي أن تكون الدول فيها متحدة جهاز تشريعي واجرائي اتحادي خاص، لا يبقى في وسع الدول أن تنقض ما يبرمه، في أي ظرف وبناء على أي اعتبار.

ولقد تم توقيع اتفاقات عسكرية بين السعودية ومصر واليمن، ثم بين مصر وسوريا، وبين

مصر والأردن، وبين سورية والأردن، خلال سنتي ١٩٥٥ و ١٩٥٦، من مقتضاها أن يكون بين الدول المتعاقدة قيادة مشتركة، وقوات مشتركة، وخطط مشتركة. غير أن هذه الاتفاقات دارت في نطاق احتفاظ الدول بكامل سيادتها وحريتها التنفيذية، مما يمكن أن يجعلها نصوصاً على الورق، كما كان شأن معاهدة الدفاع المشترك، والتعاون الاقتصادي التي عرفت باسم «الضمان الجماعي» ـ والتي كانت نصوصها أقوى وأشمل وألزم. وهذا فضلاً عن اقتصارها على التعاون الدفاعي، حتى إذا تفاءلنا بـأنها ستـوضع مـوضع التنفيـذ، ولا يكون من أمـرها مـا كان من أمر تلك المعاهدة. ولعل فيما كان من عصف النكسة، التي ألمت بالأردن، والتي شرحنا بواعثها وآثارها قبل، بهذه الاتفاقية فيما يتصل بالأردن من ناحية، وسورية ومصر من ناحية أخـرى، والذي لم يحتج إلّا إلى افتعال ذريعة ما، عبرة أي عبرة، بعدم جدوى هذه الاتفاقات في مجال العمل الجدي والتوحيدي. لأنها قامت في نطاق احتفاظ الدول المتعاقدة بسيادتها الاجرائية التامة، التي تجعلها مستطيعة نقضها بجرة قلم أو حركة لسان. . . .

ومثل هذا يقال في الاتفاقيات الاقتصادية التي تمت بين سورية والأردن، في آب عام ١٩٥٦، وبين سورية ومصر في أيلول ـ سبتمبر عام ١٩٥٧. لأنها تمت في نطاق احتفاظ الدول المتفقة بكامل سيادتها التشريعية والاجرائية، برغم ما احتوته من نصوص قوية. ولقـد ذهبت الاتفاقية الأردنية السورية مع الريح، نتيجة للنكسة التي ألمت بالأردن، وأدت إلى التقاطع تقريباً بين سورية والأردن. وقد تكون حالة الانسجام القوي بين مصر وسورية، اثبت وأقوى من أن تجعل الاتفاقية بينهما حبراً على ورق. ولكنها على كل حال لن تكون ذات غناء كبير، في مجال العمل الجدي التوحيدي.

ـ ٦ ـ

اتحاد الدول العربية كمرحلة اولى هو الأجدى والخطوات الاجرائية نحو ذلك

ونحن إذ نقول ما نقول، في شأن التعديلات، أو المحاولات القاصرة التي ذكرناها، لا نعني أنها غير مفيدة في باب تقوية البنيان العربي، في حالة صدق النية على التنفيذ. فهي على كل حال مفيدة في هذا الباب، وقد تكون خطوات تمهيدية إلى الوحدة؛ وهذا فضلاً عما تنطوي عليه من شعور، بشدة الحاجة إلى تدعيم التعاون بين الدول العربية، بصورة فعالة، بقدر ما يمكن. ولكن الذي نعنيه، أن الأجدى والأفضل أن لا تضيع الجهود في هذه المحاولات، لأنها لا غناء فيها من ناحية ضمان التعاون التنفيذي الشامل، وأن تركز الجهود دون تردد ولا مواربة، في سبيل تحقيق الوحدة الاجرائية التي تتنازل فيها الدول العربية عن شيء من سيادتها التنفيذية والتشريعية لصالح المجموع.

وإذا كان من الواجب والضروري أن يساير الواقع العربي الحاضر، وتـراعى الرغبـات والاعتبارات المتنوعة، فإن من الممكن أن يكون ذلك في جعل المرحلة الأولى إلى الوحدة

«اتحاد الدول العربية» الذي فيه من المسايرة والمراعاة ما يفي بالغرض. ونحسب أن الجهد الذي يقتضيه التعديل، والمحاولات القاصرة الأخرى، لن يقل عن الجهد الذي تقتضيه الدعوة إلى الاتحاد، في حين أن النتائج أعظم بما لا يقاس عليه حالاً ومستقبلاً. وهذا فضلاً عن أن التعديل، أو أي حركة قاصرة أخرى، قد تؤخر وقت الاتحاد، ثم الوحدة، لأنها ستعد من قبل البعض مرحلة يصح الوقوف عندها أمداً ما، قد يكون طويلاً.

أما الخطوات الاجرائية، نحو اخراج الاتحاد إلى الوجود، حينما تنجح جهود الجهاز الشعبي، والدولة المتبنية، فهي:

أولاً ـ وضع وتوقيع ميثاق ينص على:

أ ـ اتفاق الدول الموقعة عليه، على الاتحاد في الشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والمواصلات، باسم «ميثاق الدول العربية المتحدة».

ب ـ على جواز انضمام الدول والكيانات العربية التي قد تتأخر عن الانضمام إلى الميثاق، أو تنشأ نتيجة للتحرر من الاستعمار.

ت ـ على وضع دستور اتحادي، تحدد فيه المقاصد والحقوق والواجبات والسلطات التي تشرف على الادارة الاتحادية، من قبل مجلس تأسيسي، يتألف من أعضاء منتخبين من المجالس العامة الرسمية القائمة، في كل دولة حسب نظامها، بنسبة عضو واحد، عن كل نصف مليون من السكان، على أن لا يقل عدد ممثلي كل دولة عن خمسة اعضاء، ولا يزيد عن أربعين، ثم من خمسة أعضاء عن كل دولة تعينهم حكوماتها، ويراعي فيهم الكفاءة والخبرة.

ثانياً ـ ابرام الميثاق وفقاً للطريقة الدستورية، أو أسلوب الحكم القائم في كل دولة، في مدة لا تتجاوز الشهرين.

ثالثاً ـ انتخاب المجلس التأسيسي في خلال مدة لا تتجاوز الشهزين من ابرام الميثاق، واجتماعه بعد اسبوعين من انتخابه، برئاسة أكبر الأعضاء سناً، فيختار مكتبه، ويضع لائحته الداخلية، ويباشر مهمته التي يجب أن ينتهي منها في مدة لا تزيد عن أربعة أشهر.

رابعاً ـ إنشاء أمانة عامة للاتحاد، لملاحظة تنفيذ الميثاق واتمام خطواته، تنتهى مهمتها حينما تقوم الإدارة الاتحادية الدستورية.

خامساً ـ حينما ينتهي تشريع الدستور، تسارع الدول الموقعة على الميثاق الاتحادي، إلى تعديل دساتيرها وفقاً له، وبذلك يغدو الاتحاد في حيز التحقيق، وتتم تباعاً خطواته التنفيذية أي انتخاب المجلس التشريعي الاتحادي ثم المجلس التنفيذي الاتحادي ثم محكمة العدل الاتحادية.. الخ وفقاً لنصوص الدستور.

ومن الممكن أن تختصر بعض الاجراءات تفادياً من التعطيل والاشكالات، بحيث يناط

وضع الدستور الاتحادي بمفوضين حكوميين في مستوى عال، يكون إلى جانبهم خبراء فنيون متساوي العدد، وتكون قرارات أكثرية الثلثين هي النافذة. فقد يكون هذا ادعى إلى تطابق أولي الشأن والسلطان في الدول العربية، في مدى نطاق الاتحاد، وبالتالي إلى تيسير قيامه، وان كنا نفضل طريقة وضع الدستور من قبل مجلس تأسيسي، كما هو المقترح، لأن ذلك اقوى، وربما جاء اشمل مدى، مما يمكن أن يضعه مفوضون حكوميون. وقد يكون الأنسب من هذا وذاك، والأجمع للاعتبارين، أن يضع المفوضون الحكوميون مع خبرائهم لائحة الدستور الاتحادي، فتوضع بين يدي المجلس التأسيسي، فيقرها، أو يدخل عليها ما يراه من تعديلات.

تكوين الاتحاد من دول الجامعة العربية

والأفضل بطبيعة الحال أن يشترك في هذا الاتحاد جميع الدول العربية المعترف باستقلالها وسيادتها، أي جميع دول الجامعة العربية، وعلى الدولة التي تتبنى الدعوة وحمل الراية، وعلى جهاز الوحدة العربية، بذل الجهود القوية المتواصلة المزيجة بالحكمة والصراحة في هذا السبيل.

ومن دول الجامعة ما هو بريء من أي شائبة استعمارية وأي التزام عهدي، ومنها ما هو مقيد بمعاهدات مع الانكليز والأميركان، توجب عليهم التزامات شديدة أو خفيفة في وقت السلم والحرب، وتقيم بموجبها فيها بعض القوى والمراكز الانكليزية والأمريكية. وقد سيق هذا، وما يزال يساق، في معرض الاعتراض على قيام وحدة أو اتحاد بين الدول الطليقة والمقيدة، وكونه مؤدياً إلى دخول المستقلة في الشبكة الاستعمارية أو العسكرية التي وقعت فيها المقيدة، غير أن هذا غير وارد إذا احتفظت كل دولة بكيانها، كما هو المقترح في المنهج الاتحادي الذي شرحناه. فالمعاهدات انما تنص على التزامات ومراكز في داخل اراضي الدولة المقيدة وحسب. والاتحاد إذا تم سوف يقوم بموجب ميثاق مماثل لميثاق جامعة الدول العربية من جهة الأسلوب الفني، مبدلاً في الاسم والمدى، وقوة الالتزام والتنفيذ.

ولقد كانت تلك الحالة موجودة، حينما قامت الجامعة العربية، حيث كان هناك دول طليقة ودول مقيدة. فلم تمنع قيامها واشتراك المقيدة والطليقة على السواء فيها. وكذلك كانت موجودة حينما انعقدت معاهدة الدفاع المشترك، فلم تمنع من اشتراك الجميع فيها.

وقد يقال ان من أسباب تعثر جامعة الدول العربية، ومعاهدة الدفاع المشترك، هو اصابع الانكليز التي تندس في بعض الدول المرتبطة بها. وقد يكون في هذا القول صدق كثير. غير أن هذا إنما أمكن أن يقع نتيجة لنظام الجامعة الفضفاض، فيما نعتقد بالدرجة الأولى.

ولقد قرر علماء القانون الدولي عدم امكان تأثر الدول الطليقة بمعاهدات الدول المقيدة، إذا ما اتحدت في نطاق اتحاد فدرالي، تحتفظ كل فيه بكيانها الدولي الاستقلالي؛ بل وقد ذهب بعضهم إلى أن الاتحاد بين مثل هذه الدول، قد يطلق الدولة المقيدة من التزاماتها(٦٦).

ومع ذلك ، فإن خطر وقوع الدول الطليقة في الشبكة، لو صح وروده، انما يكون إذا نشبت حرب عامة. وفي هذه الحالة يكون الخطر واقعاً عليها، سواء أكانت متحدة مع المقيدة أم لا، لأنها محاطة بالدول المقيدة، وبالمراكز الاستراتيجية التي يشغلها الانكليز والأميركان في الشرق الأوسط براً وبحراً وجواً، وهم الذين بينهم وبين الدول المقيدة معاهدات. ومن العسير عليها حماية حيادها بالقوة إذا أرادت الحياد، كما أن الدول الكبرى لن تحترم حياداً غير مدعوم بالقوة الكافية، مما رأينا أمثلة عديدة عليه في أوروبا وآسيا، بل وفي بلادنا نفسها أثناء الحرب العامة.

وحالة الحرب ليست دائمة أبدية، ومدة السلم أطول على كل حال. والاتحاد بين الدول العربية يهدف إلى أهداف عظيمة، تتصل بصميم حياة العرب، ومصالحهم ومستقبلهم ومعايشهم وحاجاتهم اليومية، من مختلف النواحي، وفي جميع الظروف والحالات، بحيث تتضاءل أمامها الحالة السياسية التي تلاحظ وحدها، حينما تبحث شؤون الوحدة والاتحاد، والتي تتخذ مضاعفاتها وملابساتها وسيلة دعائية وتخويفية خطابية، لا تثبت على التمحيص عند التروي والتفكير، والتي تلعب فيها الاعتبارات والتوجيهات الاقليمية والأسروية والطائفية والشخصية، بل والاستعمارية الدور الأكبر، على ما شرحناه في فصول سابقة.

فالمصلحة القومية تقضي أن لا يعطل مشروع هذا الاتحاد، ويعلق إلى أن تفلت الدول المقيدة. ونكاد أن نسمح لأنفسنا بالقول: إن من الذين يقولون بتعليق الاتحاد على نجاة الدول المقيدة، من هو مريب غير سليم الطوية. لأن هذا يعني أن تتأخر أي حركة نحو الوحدة أو الاتحاد إلى أمد طويل، لأن هناك اجزاء من الوطن العربي واقعة تحت سيطرة الاستعمار بشدة، تجعل افلاتها منه في وقت قريب غير مأمول. أما الذين يقولون بهذا القول من ذوي الطوية السليمة، فيجب أن يذكروا أن تعليق الاتحاد على خلاص جميع البلاد الواقعة تحت سيطرة الاستعمار، أو المقيدة ببعض القيود والالتزامات، قد يكون مؤخراً لنجاة هذه البلاد من حيث كون هذه النجاة أكثر إمكاناً، حينما ينتظم الاتحاد جميع الدول العربية، ويغدو لها جيش متحد، واقتصاد متحد، وتشريع متحد، وسياسة متحدة، وبكلمة واحدة، حينما تغدو جبهة متحدة قوية.

على أننا إذا أمعنا النظر في حالة الدول العربية الراهنة، نجد أنه ليس هناك دولة مقيدة بشدة، ولمدة طويلة من دول جامعة الدول العربية، غير ليبية. فسورية ولبنان والسعودية واليمن ومصر والسودان والأردن طليقة. ومهما كان أمر ارتباط العراق بالاتفاق العسكري البريطاني، وبميثاق حلف بغداد، فإنه قد تحرر من المعاهدة الانكليزية التي كانت بريطانيا بموجبها تحتل جزءاً من أرضه فتحررت. وظل الارتباط في نطاق السيادة الكاملة. فليس هناك فيما نعتقد مانع من هذه الناحية الخاصة يمنعه من الاندماج في الاتحاد. وهذا فضلاً عن تهافت الحجة التي تساق، والوسيلة الدعائية التخويفية التي تتخذ، في صدد خطر الاتحاد بين الدول العربية الطليقة والمقيدة.

ولقد كان مما يتخوف السوريون منه، حينما كانت تقوم حركة اتحادية عراقية سورية حيث يقال لهم، فيما يقال: إن نظامهم الجمهوري يزول، وتغدو سورية عاجلاً أو آجلاً تحت التاج العراقي الهاشمي. ومهما يكن من أمر هذا القول، فإن الاتحاد المقترح مطمئن للسوريين، ومزيل للخوف ووسيلته الدعائية.

ولعل من صعاب قيام الاتحاد العام موقف بعض طوائف لبنان، وصعوبة اقناعهم بالاندماج فيه. غير أن الأمر قابل للتذليل فيما هو المتبادر: لأن انكماشهم آت، من ناحية حرصهم على بقاء لبنان محتفظاً بكيانه الذي يقوم على رأسه رئيس ماروني. ولما كان المنهج الذي شرحناه يكفل للبنان الاحتفاظ بنظامه وكيانه الراهنين، فليس من الممتنع اقناعهم بعد أن يروا أنهم سيصبحون في عزلة تامة عن بلاد العرب التي هم جزء لا يتجزأ منها وطناً وجنساً. وفي ذلك فادح الضرر، والخسارة لهم.

وقد يكون الأمر كذلك بالنسبة للسعوديين. غير أن اقناعهم ليس متعذراً أيضاً. فإن ما كان يبدو منهم من مواقف سلبية، ضد الحركات التوحيدية، إنما كانت حينما كان الحديث والحركات تجري في نطاق اتحاد عراقي شامي فقط، حيث كانوا يرون في هذا تقوية للهاشميين المفروض أن هذا الاتحاد سيتم تحت زعامتهم، فيحسبون حسابه في معرض الدفاع عن كيانهم. والاتحاد العام يزيل أسباب توجسهم بالمرة، ويبعث فيهم الطمأنينة على ما ذكرناه قبل. والمعروف أنهم صادقو الوطنية والعقيدة، وهم لا يفتأون يؤكدون استعدادهم لكل تضحية في سبيل مجد العرب وقوتهم وكرامتهم. ومهما أشادوا بجامعة الدول العربية، ومعاهدة الضمان الجماعي ـ أي الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي ـ وأظهروا تعويلهم عليهما فهم أذكى وأنبه من أن يجهلوا أن هذين الجهازين، لم يغنيا العرب، ولن يغنياهم عن الاتحاد الفعلي الذي يغدو العرب به جبهة واحدة: جيشهم واحد واقتصادهم واحد، وتشريعهم واحد، وسياستهم واحدة. ومن حقنا أن نتفاءل ونقول: إن اقناعهم ليس متعذراً، بأن السبيل الوحيد إلى مجد العرب وقوتهم وكرامتهم، هي الاتحاد، وفق المنهج الذي رسمناه على أقل مدى وتقدير. وهم يعرفون من دون ريب، أن الدين يأمر بالاتحاد، ولا يجهلون ما كانت عليه حالة العرب حينما كانوا متحدين، وما صارت اليه حينما انقسموا، وما هي عليه حالة العرب السيئة الآن ضعفاً وتخاذلاً وجهلاً وفقراً وهواناً، وما لبسوا بسببها من العار، وذلوا في عيون أهل الأرض، لأن اذل امة في الأرض، تهزأ بهم، وتدعي أنها كسرت دولهم السبع، وتدوس مقدساتهم، وتتصرف بتراثهم العظيم، وتظل تتحداهم وتعتدي عليهم، وتكيد لهم ولا تبالي هي ولا غيرها بهم في كثير ولا قليل.

ولقد ضعفت الأسباب التي أثارت توجسهم، حتى ليصح أن يقال انها في طريق الزوال بالمرة. وهو ما يحسن ذكره والتذكير به، ومما ييسر تلك المهمة إن شاء الله. ولقد رأيناهم يتجاوبون مع مصر في دعوتها إلى انشاء جبهة عربية موحدة خالصة، حيث يدل هذا على استعدادهم للاندماج في عملية اتحادية، لا يكون للهاشميين بروز وتفوق فيها. وهذا ما يضمنه المشروع الذي أوردنا خطوطه.

الاتفاق الذي تم بين مصر وسورية والعراق، والذي أعلن بالبيان التاريخي المؤرخ ١٧ نيسان ١٩٦٣، على إقامة اتحاد بين الأقطار الثلاثة، باسم الجمهورية العربية المتحدة، يكون مفتوحاً للدول العربية الأخرى رسم الإطار الذي سوف يكون عليه هذا الاتحاد، في هذه المرحلة من التاريخ وهو:

١ ـ أن يكون الاتحاد دولة واحدة، برآسة واحدة، وعلم واحد.

٢ ـ أن تكون الدول فيه بمثابة أقطار، وليست كيانات دولية.

٣ ـ أن يختص الاتحاد بشؤون الخارجية والدفاع والتخطيط الاقتصادي والتشريعي والثقافي.

٤ ـ أن يكون لكل قطر حكومة محلية، ومجلس تشريعي، لممارسة الشؤون المحلية الخارجة عن اقتصاد الحكومة الاتحادية.

٥ ـ أن تكون الدولة التي تريد أن تنضم إلى هذا الاتحاد مستقلة، لا يقيدها أي عهد ورابطة بالدول الأجنبية وجمهورية النظام، وتقبل بالاشتراكية المعتدلة التي تسيغ حق الحيازة والتوريث الفردي كنظام اجتماعي. لأن وحدة النظام الاجتماعي والسياسي بين أعضاء الاتحاد أدعى إلى ديمومته.

٦ ـ ان لا ينفرد حزب أو جماعة بالتنظيم الشعبي والحكم، وأن يكون ذلك منوطاً بقيادة جماعية على مختلف المستويات، تتألف من العناصر الوحدوية الاشتراكية.

٧ ـ أن يكون للعمال والفلاحين على الأقل نصف مقاعد أي تشكيل وهيئة ومجلس في الاتحاد والحكومات القطرية.

وقد أصبح هذا الاطار ـ وهو سليم المدى والمبنى ـ الأساس الواجب رعايته. ومن حسن الحظ أن الشعب العربي في مختلف أقطاره متجاوب مع هذا الأساس. وأن هناك الآن جمهوريتين مستقلتين تعتنقان النظام الاشتراكي مستعدتان للاندماج في الاتحاد، وهما الجزائر واليمن، بحيث يبلغ تعداد الاتحاد بهما ٥٥ مليوناً. وهذا الرقم يشكل نحو ٦٥٪ من مجموع الشعب العربي. والمستقبل كفيل بقوة الدفع الثوري العربي بترويض الباقي، وجعله منسجماً مع ذلك الإطار، بعد أن يتكامل قيام الاتحاد الثلاثي الذي قرب تكامله عشرون شهراً كحد أقصى.

الاتحاد على مراحل

والبدء باتحاد سورية ومصر إذا تعذر الإجماع

ويجب أن نفرض مع ما قدمناه، أن اتفاق دول الجامعة العربية قد يتعذر. فيجب أن لا يؤخر هذا قيام الاتحاد، حيث يجب أن يقوم على كل حال ولو على مراحل، حتى ولو بين دولتين

كمرحلة أولى. وهذا ما جرى في جميع احداث التوحيد، وفي مختلف العصور والأحداث والبواعث.

وكل من يعلق الاتحاد والوحدة على اجماع الدول العربية، إنما يقصد العرقلة، أو يغفل عن سير التاريخ، ومقتضى المنطق والمصلحة.

ولا يتعارض الاتحاد التدريجي مع ميثاق الجامعة، إذا أرادت دول الجامعة أن تحتفظ بمنظمتها العامة، في حالة عدم اشتراكها جميعاً في الاتحاد، فإن المادة التاسعة منه، تسوغ عقد أي اتفاق بين دول الجامعة الراغبة في تعاون أوثق، وروابط أقوى، مما نص عليه الميثاق. ونعتقد أن واضعي الميثاق، قد فرضوا احتمال رغبة بعض الدول في الاتحاد مع بعض، فوضعوا هذه المادة.

وتجري مفاوضات بين سورية ولبنان لعقد اتحاد اقتصادي شامل، ولم يخطر ببال أحد أن ذلك يتغاير مع الميثاق، أو يثير اعتراضاً بين الدول. وقد عقد العراق والأردن تحالفاً عسكرياً ولم يعترض أحد. ثم عقدت مؤخراً سورية ومصر، ومصر والسعودية، اتفاقات عسكرية ثنائية، وظلت الجامعة تسير في نشاطها.

وقد يخشى من أن يحفز اتفاق دولتين أو أكثر على الاتحاد، بعض الدول إلى الانكماش والانسحاب من الجامعة، وبالتالي إلى انهيار الجامعة، تأثراً بالاعتبارات الاقليمية والأسروية والطائفية، بالرغم من تسويغ الميثاق والوقائع، وقيام حالة تفكك بين الدول العربية. وهذا هو الذي جعل بعض سليمي النية يقولون بضرورة اجماع دول الجامعة فيما هو المتبادر. ومع أننا نرجو أن لا تقدم الدولة التي لا تريد الاتحاد على مثل هذه الخطوة، وتضع نفسها في موقف حرج يستدعي النقد والتثريب، ويترتب عليه ضعف عربي عام، قد يصيبها بأذاه قبل غيرها، فإن هذا لا يجوز في اعتقادنا أن يحول دون المضي في اقامة الاتحاد، حتى ولو بين دولتين، كما قلنا، لأن الوحدة أو الاتحاد، الذي هو مرحلة أولى لها، مطلب قومي ضروري لا يجوز تضحيته، إذا أمكن تحقيقه ولو جزئياً كمرحلة أولى بسبب أي اعتبار.

ويبدو من مختلف الاعتبارات، أن خير بداية للاتحاد كمرحلة اولى، وأكثرها إمكاناً من جهة، واقواها فعّالية في مجال تحقيق شموله من جهة أخرى، هو الاتحاد بين مصر وسورية.

فالدولتان متماثلتان في نظام الحكم، أي الجمهورية، وغير مقيدتين بأي التزام وعهد مع أي دولة اجنبية؛ وهما أولى دولتين نص دستورهما على شمول القومية العربية، وكونهما جزءاً منها.

ومصر ركن الجناح العربي الجنوبي، وسورية ركن الجناح العربي الشمالي؛ فإذا ما تم اتحادهما، صار انضمام بقية الأجنحة أيسر وأسهل، بل وبديهي. ونكاد نكون على مثل اليقين: إن الأردن والسودان والمملكة السعودية واليمن وليبيا، ستنضم إليهما بعد قليل من الوقت، اما

دفعة واحدة، أو واحدة بعد أخرى. ولن يكون مناص للعراق من الانضمام، عاجلاً أو آجلاً، ثم يأتي دور تونس ومراكش والجزائر، ثم بقية الكيانات العربية.

وأي بداية غير هذه البداية لا تضمن تحقيق الاتحاد الشامل الذي هو المنشود. ونقول هذا، ونعني ما كان يردد ويدعى اليه، ويسعى في سبيله، ويندمج فيه كثير من القوميين المخلصين، من اتحاد دول الهلال الخصيب أولاً. فإن هذا إنما كان، لأنه هو الذي كان يبدو ممكناً أكثر من غيره. أما وقد تغيرت الحالة، بعد الحركة الثورية المباركة التي قام بها شباب مصر المؤمنون الأبرار، بزعامة البطل العربي جمال عبد الناصر، والتي أخذت مصر بعدها تندمج في الحركة العربية القومية بسرعة وسعة لا قياس بينهما، وبين ما كان من قبل، ثم التي تم نتيجة لها ما تم من أعمال عظيمة في المجال الداخلي والخارجي، اشعرت العرب بكرامة وعزة لم يشعروا بمثلها قبل، وجعلت العرب، على اختلاف فئاتهم وبلادهم، يتجاوبون ويتواثقون معها أقوى تجاوب وتواثق، وبوأتها مركزها الطبيعي من زعامة الأمة العربية، واعترف معظم العرب لها بهذه الزعامة، وغدا بها اندماجها في اتحاد عربي، أو وحدة عربية في حيز الإمكان، فقد صار الأوجب والأكثر جدوى أن تكون البداية هي بداية الاتحاد المصري السوري كما قلنا. والراجح، بل نقول بشيء من الجزم، انها لن تحمل السعوديين على التوجس، في حين أن الدعوة إلى اتحاد الهلال الخصيب، والحركة بسبيله، كانتا تثيرانهم أشد اثارة، بل قد يقابلونها بالارتياح، وقد يكونون من أوائل المنضمين إليها، وهذا وذاك مهم جداً، لأن السعوديين ومملكتهم يشغلان حيزاً عظيماً جداً في دنيا العرب. والتواثق الشديد قائم بين سورية ومصر والسعودية. وهذا مما يضمن ويؤيد ما نقوله. ونريد أن نكون متفائلين فنقول: إن هذه البداية ينبغي أن لا تثير العراق أيضاً، إذا كان رجاله على عهدهم في الرغبة في تحقيق وحدة عربية، أو اتحاد عربي شامل، لأنها وحدها التي تضمن ذلك. والبعد بين سورية ومصر ليس أكثر منه بين سورية والعراق، بل يمكن أن يقال انه أقل. وطبيعة الطريق الجغرافية مماثلة، إن لم تكن طريق مصر أفضل. والاتحاد أو الوحدة بين مصر وسورية، ليست بدعاً، فقد حدثت كثيراً، وكانت تدوم طويلاً قبل الإسلام وبعده. ولا نعتقد أن انفصال مصر برّياً عن سورية الآن، قوي الورود في صدد هذه البداية. ولقد أمكن أن تتكوّن دولة واحدة من أجزاء، يفصل بينها عارض شاسع من أرض دولة أخرى، كما هو شأن دولة الباكستان التي بين قسميها الشرقي والغربي طول الف ميل من أرض دولة الهند. فإمكان الاتحاد بين دولتين ليس بينهما فاصل مهم أسهل وأقوى منطقياً. ولقد كان مثل هذا الانفصال واقعاً في مثل الظروف التي يقع فيها اليوم، أي في العهد الذي كان الصليبيون فيه يحتلون فلسطين في أواخر القرن الخامس، إلى أواخر القرن السابع الهجري. فلم يمنع أن تتحد مصر وسورية في نطاق دولة واحدة، هي دولة صلاح الدين الأيوبي وخلفائه، وأن يستمر هذا الاتحاد من بعدهم في نطاق دولة المماليك الترك، بينما كانت رحى الحرب تدور بينهم وبين الصليبيين على أرض فلسطين نفسها. ولعل ذلك كان من أسباب تيسير كفاحهم، والتغلب عليهم، لأنه يسّر فتح جبهتين ضدهم: واحدة شمالية وواحدة جنوبية، بقيادة واحدة وسلطان واحد. وهذا وارد الان تماماً. فقيام دولة اليهود الشريرة في فلسطين،

وقطعها الصلة بين أرض الوطن العربي في أفريقيا وآسيا، مما يجعل بداية الاتحاد بين سورية ومصر أشد ضرورة ولزوماً، ومما يسهل تحقيقها. فهدف العرب الآن متركز على وقف خطر اليهود، واعادة ما قطعوه من الصلة بين الأوطان العربية، ونسف دولتهم المسخ. ومصر متاخمة لهذه الدولة من الجنوب، وسورية من الشمال، فإذا ما تم الاتحاد بينهما، أمكن التعاون على تحقيق هذا الهدف، حيث تصبح اسرائيل بين شقي الرحى؛ وفضلاً عن ذلك كله، فإن وسائل الاتصال السريعة الحديثة التي في الامكان الاستعانة بها بمقياس واسع، ستساعد على وصل ما انقطع، وتسهيل ما صعب، وتقريب ما بعد جواً وبحراً وبراً، إلى أن يعود الاتصال الأرضي الذي نعتقد أنه سوف يتم في وقت قريب، إن شاء الله، سواء أكان نتيجة لنسف دولة المسخ، أو انتزاع النقب منها على الأقل، على ما شرحناه في بحث معالجة عقبة اليهود. على أن الاتصال الأرضي قاصر الفائدة على الحالة الحربية، حالة وجود اسرائيل بمثابة حدود مشتركة بين الدولتين. وهناك مصالح كثيرة اقتصادية واجتماعية وثقافية، لا تتصل بالحالة الحربية، يهدف الاتحاد إلى كفالتها، فيما يهدف، وهذه ليست منوطة بالاتصال الأرضي، كما لا يخفى.

ولقد أشرنا قبل، إلى قرار مجلس الوزراء السوري باجراء المفاوضة مع مصر، لاقامة اتحاد فدرالي بين سورية ومصر، في الخامس من شهر تموز سنة ١٩٥٦، وإلى تأييد مجلس النواب السوري الذي جاء فيه: «تنفيذاً للدستور الذي ينص على أن الشعب السوري جزء من الأمة العربية، يؤيد قرار الحكومة الذي أعلنه رئيس مجلس الوزراء في الجلسة، ويتمنى أن توفق الحكومة في السير في هذا الطريق المقدس، وأن تأتينا في القريب العاجل بالنتيجة التي تنتظرها الشعوب العربية في جميع اقطارها». وأشرنا كذلك إلى ترحيب رئيس مصر جمال عبد الناصر، وقد جاء في كلمة الترحيب: «تلقيت بترحيب بالغ قرار مجلس نواب سورية الشقيقة، بإقامة اتحاد بين جمهوريتي مصر وسورية. ففي تحقيق هذا الاتحاد لأمنية يهفو لها قلب كل عربي، يؤمن بالقومية العربية، ويعمل من أجلها، وقيام الاتحاد بين جمهوريتي مصر وسورية، إنما هو تحقيق للمادة الأولى من دستور جمهورية مصر التي تنص على أن مصر دولة عربية، وأن الشعب المصري جزء من الأمة العربية. وقد وافق الشعب المصري بالاجماع على ذلك، ولا شك في أن قيام اتحاد بين سورية ومصر، يعتبر خطوة أساسية في ذلك، ونسأل الله أن يوفقنا لإقامة وحدة عربية، تضم جميع الدول العربية، وتتيح للقومية العربية أن تقوم بدورها الفعّال في المجال الدولي». ففي هذا وذاك، ما يشجع أعظم تشجيع على بدء مرحلة الاتحاد بهذه البداية، كما فيه ما يبعث أقوى الآمال بنجاحها.

ولقد أشرنا كذلك قبل، إلى اتفاق الحكومتين السورية والأردنية، على اقامة اتحاد اقتصادي شامل وقوي بينهما. ولقد صدر في شباط عام ١٩٥٧ تصريحان مهمان: احدهما لملك الأردن، وثانيهما لرئيس وزرائه. وجاء في الأول «أننا اليوم، ونحن حريصون على أهداف ثورة العرب، نعاهد الله والتاريخ، على أن نحيا في سبيل تحقيق الحرية والسيادة والوحدة المنشودة في الوطن الكبير مهما كانت التضحية وجل الثمن». وجاء في الثاني «إن الأردن يؤمن

بوحدة الأمة العربية، وسيعمل على تحقيق الاتحاد الفدرالي مع سورية ومصر، بعد أن تحقق هذا الاتحاد فيما بينهما»، حيث يبعث هذا الأمل الكبير في أن يكون الأردن أول من ينضم إلى الاتحاد، حينما يتم بين سورية ومصر، ويتمم سلسلة الطوق كما ذكرنا قبل.

وفي مرجونا أن تسارع السعودية والسودان إلى الانضمام اليه عاجلاً أيضاً. فالتواثق قوي شديد بين مصر والسعودية وسورية في كل موقف. وقد اتفقت الدول الثلاث، على اقامة منظمة دفاعية سياسية اقتصادية، كما قلنا قبل، وبين السعودية ومصر اتفاق عسكري؛ فهذا ما يشجع على الأمل بأن السعودية ستندمج في الاتحاد، وستتبعها اليمن أيضاً. وقد تحسنت الصلات المصرية والسودانية التي أصابها بعض المعكرات تحسناً كبيراً، وصار السودانيون حكومة وزعماء، يصرحون تصريحات قوية باتحاد المصالح بين السودان ومصر، وبتأييد مصر في كل موقف. ولسوف يجد السودان في الاتحاد الفدرالي العام العوض الكبير، عما نأى عنه من اختيار الاتحاد مع مصر، بسبب تلك المعكرات مع شدة حاجته اليه، ومن ثم يبذل المتحدون جهودهم في اجتذاب الدول الباقية، وإتمام السلسلة.

وقد يحاول الاقليميون والارقاميون تخويف الرؤساء من الاتحاد الاقتصادي بنوع خاص. غير أن الذي نرجوه ونؤمله، أن تتغلب سعة أفق الرؤساء وإدراكهم لواجب التسامي عن الأرقام، في سبيل المصلحة القومية العليا، بل وادراكهم لكون الأرباح المادية والسياسية والعسكرية سوف تكون للجميع، للأكثرين والأقلين على السواء؛ وسوف تكون أعظم بما لا يقاس عليه من الأضرار الرقمية - إذا صح أن تذكر في مجال وحدة أمة واحدة - ليست أقاليمها إلا بمثابة ولايات أو مقاطعات لأمة واحدة ودولة واحدة.

وقد يحاول اعداء الاتحاد من مستعمرين ويهود ودول أخرى، عرقلة قيام الاتحاد. غير أن الذين نعتقده أن الأمر قبل كل شيء هو أمر العرب أنفسهم، والارادة إرادتهم. وعراقيل الأجنبي أنما تنجح، بما يمكن أن يجده من ثغرات أو ضعف في ارادة العرب، ورغبتهم وجدهم وإخلاصهم وتصميمهم. فإذا ما جدوا وصمموا، استطاعوا أن يتغلبوا على العراقيل ويزيلوها. والكلمة الحاسمة هي لمصر وسورية اللتين اعتقدنا أن اتحادهما هو خير بداية للاتحاد. وقد أثبتتا في مختلف الحالات العصيبة التي مرّت بهما قوة الايمان والعزيمة والصمود، وتغلبتا بذلك على المصاعب العظيمة التي أحدقت بهما. ولنا الأمل الكبير في أن تثبتا ذلك أيضاً في هذه الخطوة القومية العظيمة، التي ستكون فاتحة الخير العميم، والعهد السعيد للعرب وبلادهم، في تاريخهم الحديث.

الدولة العربية المتحدة هي الهدف الصحيح

ونحن إذ نقترح المنهج الاتحادي، لا نعني استمراره، ولكن كما نبهنا أكثر من مرة، نقترحه كخطوة أولى قد لا يكون عنها محيص نظراً لواقع العرب، وما يتخلله من اعتبارات

اقليمية وأسروية وشخصية؛ أما المنهج الصحيح الذي يجب أن تهدف اليه حركة الوحدة العربية وجهازها، والذي يجب أن يصار اليه عاجلاً أو آجلاً، فهو وحدة الدولة، أو ما يمكن أن يسمى «الدولة العربية المتحدة» أو «الولايات العربية المتحدة».

ففي مثل هذا المنهج فقط، يستطاع سبك الأمة العربية في قالب واحد، وتوجيهها إلى اتجاه واحد، والحاق المتأخر منها بالمتقدم من النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، وتكثيف جهودها وقابليتها، واستثمار إمكانياتها العظيمة، حتى تصل إلى أعلى ما يمكن من مراتب الثقافة والرفاه، والازدهار والكرامة والقوة، والصلاح الاجتماعي والفردي والاقتصادي والعمراني، وتتبوأ مركزها اللائق بها بين أمم الأرض كأمة ذات أمجاد تاريخية، وذات خصائص وقابليات عظمى.

ولم يبق في العالم بلاد تتوفر فيها مقومات الوحدة من تاريخية وجنسية ولغوية وروحية وجغرافية واجتماعية، وليست موحدة إلّا البلاد العربية، بل إن هذا قد زال اليوم من البلاد التي لا تتوفر فيها جميع هذه المقومات، ففي كل من الصين والهند وروسيا اجناس ولغات وأديان عديدة، وابعادُ بعضها ومساحاته تزيد كثيراً عن ابعاد ومساحات الوطن العربي، وفيها من العوارض الجغرافية اضعاف ما في هذا الوطن، وهي مع ذلك تخضع لنظام الدولة الواحدة، بسبب اتصال اطرافها اتصالاً جغرافياً، ثم بسبب كون الكتلة الكبرى من سكانها متحدة الجنس واللغة والتاريخ والدين، مع التنبيه على أن الجماعات الأخرى فيها ليست ضئيلة العدد، كما هو الحال في الوطن العربي.

ولقد كان في الهند إلى سنوات قليلة مئات الامارات والدول التي يقوم على رأسها ملوك وامراء ونواب ومهراجات، ورثوا مناصبهم من آباء وأجداد عريقين، فاندمجت في نطاق دولتي الهند المتحدة، وباكستان المتحدة.

وهذه كندا التي يتألف سكانها من شعبين متميزين، أحدهما افرنسي، وثانيهما انكليزي، تخضع لنظام الدولة الواحدة، لأنها وحدة جغرافية وحسب، ومثلها سويسرا التي تتألف من ثلاثة أجناس متميزة، الماني وافرنسي وطلياني، وكل ما هنالك أن دستور هذه الدول متجاوب مع طبيعة ما فيها من تفاوت وتمايز.

وقد يقال ان هناك جمهوريات اميركا الجنوبية والوسطى غير موحدة، ولا متحدة مع أن بينها تشاركاً وتقارباً، والحق أن التشاكل والتقارب بين هذه الجمهوريات لا يشبه ما بين البلاد العربية، فهناك جمهوريات برتغالية اللسان، تقوم إلى جانب جمهوريات اسبانية اللسان، والعنصر الاسباني والبرتغالي في هذه وتلك ليس هو العنصر الغالب في جميعها، ففي كل منها جماعات كبيرة من الهنود والزنوج والخلاسيين المولدين من تزاوج العناصر المتنوعة، وفي جمهوريات عديدة تؤلف هذه الجماعات أكثرية السكان، مثل جمهوريات بيرو وفنزويلا والمكسيك وغواتيمالا وسلفادور وهوندوراس ونيكاراغواي.

ويضاف إلى هذا أن حالة معظم هذه الجمهوريات مضطربة مرتبكة متعرضة للهزات والرجات التي لا تكاد تنقطع، وليس لأي منها مركز مرموق بين دول العالم، فليس من شأنها أن تكون مثالاً يحتذى ويشار إليه، في معرض تبرير بقاء الأمة العربية عديدة الدول والكيانات.

ولقد اتبعت البلاد التي تشمل اقاليم عديدة، ويقوم فيها كيانات متميزة، وتتسع اتساعاً كبيراً كالبلاد العربية نظماً اتحادية، من شأنها مسايرة هذه الأوضاع في ظل الدولة الواحدة، يصح أن تحتذى في بناء الدولة العربية المتحدة، أو الولايات العربية المتحدة، في ظل الدولة الواحدة أيضاً.

وقد رأينا من المفيد الالمام بتاريخ ونظام وأسلوب وحدة بعض هذه البلاد، لما في ذلك من عبرة للعرب، وحافز قوي للسعي الحثيث لتحقيق وحدتهم الصحيحة، في ظل وحدة الدولة، التي بها وحدها يحققون ما يصبون اليه من آمال في المجد والقوة والسعادة، ومثال يحسن بهم أن يقتبسوا منه دستوراً لها.

الخاتمة

وهناك دول عديدة أخرى، كبيرة وصغيرة، يقوم كيانها على أساس وحدة الدولة والأسلوب الاتحادي، منها ما يتألف من شعوب متقاربة في تاريخهم وأصولهم ولغاتهم وعاداتهم، ومتشاركون في مصالحهم وأوطانهم، كالمانيا ويوغسلافيا وانكلترا وليبيا، وهذه أحدث الدول الاتحادية، ومنها ما يضم اجناساً متعددة لكل منها لغته وتقاليده وعاداته، وإنما جمعتهم مع بعضهم ظروف التاريخ والجغرافيا والمصالح كسويسرا وكندا وباكستان والصين وأندونيسيا، مع التنبيه إلى أن ما يتوافر في الوطن العربي وسكانه من المقومات، لا يتوافر بمثل قوته وشموله وامتداده في التاريخ في البلاد التي بين أهلها تقارب وتشارك جنسي أو تاريخي، فضلاً عن غيرها التي تضم أجناساً عديدة مختلفة في لغاتها وتاريخها وعاداتها.

ولقد رأينا أن نكتفي بالأمثلة الثلاثة، ولم نر ضرورة إلى عقد مقارنة بين النظم الدستورية التي لخصناها، ولا إلى وضع خطوط دستورية للدولة العربية المتحدة، كما فعلنا بالنسبة لمرحلة الدول العربية المتحدة التي نراها الأقرب للتحقيق، لأن ذلك ليس عسيراً على الدارسين الذين يستطيعون أن يفعلوا ذلك، بالاقتباس من جهة، والتوفيق بين ما عند الغير وتقاليدنا وظروفنا من جهة أخرى، حينما يحين الحين، وتتهيأ الأسباب وتصح العزائم.

ولقد كان من أهدافنا في تلخيص تلك النظم الدستورية، أن نضع أمام العرب من نماذج الأحداث والدساتير التي تنطوي على العبرة والعظة، ما يكفي لحفز هممهم، وجعلهم يتجهون قدماً نحو وحدة الدولة التي بها وحدها تضمن القوة والكرامة والمجد والازدهار، لهم ولوطنهم الكبير. هذا فضلاً عن أنه ليس من المعقول، ولا المنسجم مع روح العصر، ولا المتفق مع المصلحة العامة، أن تبقى بلاد العرب دون بلاد الله، وأن يبقى العرب دون خلق الله وإلى ما شاء الله، شاذين عن هذا المظهر الدولي والاجتماعي، الذي تنتظم فيه جميع بلاد الدنيا واجناسها، بما فيها البلاد التي لا تتشاكل هذا التشاكل القوي الشامل الممتد إلى عشرات القرون، كما هو شأن بلاد العرب وأهلها. وإذا كان اختلاف نظم الحكم والحكم الوراثي والاعتبارات الاقليمية

والطائفية تقوم عثرة في الطريق، فإن في الأمثلة التي شرحناها ما يمكن الاقتباس منه، لتطمين رغبات ومطامع الأسر الحاكمة والاعتبارات الاقليمية والطائفية. وليست الخطوة بين نظام الدول العربية المتحدة الذي اقترحنا خطواته وخطوطه، وبين نظام الدولة العربية المتحدة، أو الولايات العربية المتحدة الذي يمكن أن ينسج على منوال نظم الهند، أو الولايات المتحدة الأمريكية، أو الاتحاد السوفييتي جسيمة، فإن بين مقترحاتنا وبين هذه النظم تقارباً كبيراً، سوف يسهل على الدول العربية التطور المطلوب منها بعد فترة من الوقت، تقضيها في نطاق النظام الأول.

وعلى الهيئات القومية، والشباب العربي القومي، أن يضاعفوا الجهد في سبيل ذلك، والدعوة إليه، وتكتيل القوى، وتقوية الشعور نحوه بجد ودأب إلى أن يحققوه. وقد يكون تحقيق المرحلة الأولى، أي اتحاد الدول العربية، وسيلة مهمة إلى ذلك، لأن الشعب العربي حينما تتحد دوله، سوف يقوم بينه انسجام واتساق وترابط وتمازج، أقوى بكثير مما هو الآن عليه، وسوف يلمس ما أدركه من قوة وتقدم، فيسهل اندفاعه بفضل الجهود والدعوة المستمرة إلى المرحلة الثانية التي فيها تمام اسباب هذه القوة والتقدم. ولن يستطيع أحد الوقوف في طريقه إلى تحقيقها.

وبعد، فمهما يكن من أمر، فالذي نعتقده أن الوحدة العربية في نظام الدول العربية المتحدة، ثم في نطاق نظام الدولة العربية المتحدة، أو الولايات العربية المتحدة، سوف تنتظم البلاد العربية في النهاية، كما انتظمتها في معظم ادوار تاريخها القديم والمتوسط والحديث. ومهما طال أمر تحقق الهدف كاملاً، فلن يطول فيما نعتقد أكثر من خمسين عاماً، وليس هذا شيئاً في عمر الدهر.

فالعالم العربي متطور متحرك، ولا يمكن إلّا أن يتجاوب مع حركة العالم وتطوره نحو التكتل والتوحد، وكلمة الوحدة اليوم هي، كما قلنا، في مكان آخر، على كل لسان ومنبر وقلم وناد، ويندمج في ذلك الملوك والأمراء والرؤساء والوزراء والساسة والأساتذة والطلاب والكتاب والصحافيون والأفراد والهيئات على اختلاف الأنواع والأشكال، بحيث يقال بحق انها نشيد انشاد العرب، ومهما كان بعضهم مسايراً فيما يقول، فإن الجمهور الأعظم صادق كل الصدق، ومسايرة المسايرين دليل بحد ذاتها على شمول الشعور بضرورة الوحدة، وأثر من آثار تطور الوعي نحوها، ولسوف يتسع نطاق التعليم، ثم نطاق الوعي القومي في العالم العربي، خلال السنوات المقبلة، حتى يغدو كاسحاً، يتغلب على ما يقف في طريقها من عقبات، ويحقق الهدف العظيم الذي فيه وحده ضمان ما تنشده بلادنا وامتنا من حياة حرة كريمة إن شاء الله.

ملحق

لتسجيل لمحة عن الأحداث التاريخية الهامة التي تمت في سبيل تحقيق الوحدة والاتحاد اثناء طبع الكتاب

١ ـ الجمهورية العربية المتحدة

نحمد الله أعظم الحمد، على تيسيره الخطوة المباركة العظمى، إلى ما دعونا إليه في هذا الكتاب، قبل انتهاء طبعه. وهي وحدة مصر وسورية، التي انبثق بها الجمهورية العربية المتحدة بشكل أوسع مما فرضناه للمرحلة الأولى، من مراحل الوحدة، فأتاح لنا أن نفرح فرحة كبرى، بشهود تحقيق ما كنا من أول الداعين اليه، وثبوت صواب ما دعونا اليه ورسمناه من خطط، وأقام الدليل على ما بثه في أمتنا العربية من حيوية عظيمـة، واستعداد لـلانطلاق في سبيـل الخير والصلاح والكرامة حينما تصفو قلوب رجالها وقادتها، ويتسامون عن المآرب الخاصة، ويسيرون بقوة الايمان والمصلحة القومية العليا. وقد تمثل كل هذا اصدق تمثيل، في رئيسي سـورية ومصر، ورجال حكومتيهما، وأعضاء مجلسي الأمة، في كل من سورية ومصر الذين يمثلون مختلف الميول والنزعات.

ولقد كان قرار مجلس النواب السوري، الذي اتخذ في دمشق في جلسة ١٨ تشرين الثاني ١٩٥٧، باشتراك وفد مجلس الأمة المصري، باعلان رغبة الشعب العربي في مصر وسورية في الاتحاد، وبدعوة الحكومتين المصرية والسورية، إلى اتخاذ الخطوات الايجابية إلى تحقيق ذلك، والتجاوب السريع الذي كان من مجلس الأمة المصري في نفس اليوم بالموافقة على قرار مماثل، نقطة الانطلاق السريع في هذا المضمار(٦٧)، حيث واصل رئيسا مصر وسورية، ورجال حكومتيهما، المفاوضات حتى إذا نضجت، وتم التفاهم على الخطوات والخطط، انتقل رئيس سورية واعضاء حكومته إلى مصر، واجتمعوا مع رئيس مصر واعضاء حكومته، واتفقـوا على الميثاق التاريخي التالي:

«في جلسـة تاريخية، عقدت في قصر القبة، في القاهرة، في ١٢ رجب ١٣٧٧ هـ، أول شباط ١٩٥٨ م، اجتمع فخامة الرئيس شكري القوتلي، رئيس الجمهورية السورية، وسيادة

الرئيس جمال عبد الناصر، رئيس جمهورية مصر، بممثلي جمهوريتي سورية ومصر السادة: صبري العسلي وعبد اللطيف البغدادي وخالد العظم وزكريا محيي الدين وحامد الخوجه وأنور السادات وفاخر الكيالي ومأمون الكزبري وحسين الشافعي وأسعد هرون والفريق عبد الحكيم عامر وصلاح الدين البيطار وكمال الدين حسين وخليل كلاس ونور الدين طراف وصالح عقيل وفتحي رضوان واللواء عفيف البزري ومحمود فوزي وكمال رمزي استينو وعلي صبري وعبد الرحمن العظم ومحمود رياض. وكانت غاية الاجتماع أن يتداولوا في الاجراءات النهائية لتحقيق ارادة الشعب العربي، ولتنفيذ ما نصّ عليه دستور الجمهوريتين، من أن شعب كل منهما جزء من الأمة العربية.

ولذلك تذاكروا ما قرره كل من مجلس الأمة المصري، ومجلس النواب السوري، من الموافقة الاجماعية على قيام الوحدة بين البلدين، كخطوة أولى نحو تحقيق الوحدة العربية الشاملة، كما تذاكروا ما توالى في السنين الأخيرة من الدلائل القاطعة، على أن القومية العربية كانت روحاً لتاريخ طويل، ساد العرب في مختلف اقطارهم، ولحاضر مشترك بينهم، ومستقبل مأمول من كل فرد من أفرادهم. وانتهوا إلى أن هذه الوحدة التي هي ثمرة القومية العربية، هي طريق العرب إلى الحرية والسيادة، وسبيل من سبل الانسانية للتعاون والسلام. ولذلك فإن من واجبهم أن يخرجوا بهذه الوحدة من نطاق الأماني إلى حيز التنفيذ، في عزم ثابت وإصرار قوي. ثم خلص المجتمعون من هذا المجلس، إلى أن عناصر قيام الوحدة بين الجمهوريتين السورية والمصرية، وأسباب نجاحها، قد توافرت، بعد أن جمع بينهما في الحقبة الأخيرة كفاح مشترك، زاد معنى القومية العربية وضوحاً، وأكد أنها حركة بناء وتحرير، وعقيدة تعاون وسلام. لذلك يعلن المجتمعون اتفاقهم التام، وإيمانهم الكامل، وثقتهم العميقة، في وجوب توحيد سورية ومصر في دولة واحدة، اسمها الجمهورية العربية المتحدة، كما يعلنون اتفاقهم الاجماعي على أن يكون نظام الجمهورية العربية ديموقراطياً رئاسياً، يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة، يعاونه وزراء يعينهم، ويكونون مسؤولين امامه، كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعي واحد، ويكون لهذه الجمهورية علم واحد، يظلل شعباً واحداً، في وحدة يتساوى فيها ابناؤها في الحقوق والواجبات، ويدعون جميعاً لحمايتها بالأنفس والمهج والأرواح، ويتسابقون لتثبيت عزتها، وتأكيد منعتها. وسيتقدم كل من فخامة الرئيسين شكري القوتلي وجمال عبد الناصر، ببيان إلى الشعب، يلقى أمام مجلس النواب السوري، ومجلس الأمة المصري، في يوم الأربعاء ١٦ من رجب ١٣٧٧ الموافق ٥ شباط سنة ١٩٥٨، يبسطان فيه ما انتهى إليه هذا الاجتماع من قرارات، ويشرحان أسس الوحدة التي تقوم عليها دولة العرب الفتية، كما سيدعى الشعب في مصر وسورية إلى استفتاء، خلال ثلاثين يوماً، على أسس الوحدة، وشخص رئيس الجمهورية.

والمجتمعون، إذ يعلنون قراراتهم هذه، يحسون باعمق السعادة، واجمل ألوان الفخر، إذ شاركوا في الخطوة الايجابية في طريق وحدة العرب حقبة بعد حقبة وجيلاً بعد جيل. والمجتمعون إذ يقرون وحدة البلدين، يعلنون أن وحدتهم تتوخى جمع شمل العرب، ويؤكدون

أن باب الوحدة مفتوح لكل بلد عربي يريد أن يشترك معها في وحدة أو اتحاد، يدفع عن العرب الأذى والسوء، ويعزز سيادة العروبة، ويحفظ كيانها. والله نسأل أن يكلأ هذه الخطوة وما يتلوها من خطوات بجميل رعايته الساهرة، وبفضل عنايته السابغة، وأن يكتب للعرب النصر في ظل الوحدة العزيزة والسلام».

ثم كانت الجلستان التاريخيتان اللتان عقدهما مجلس النواب السوري في دمشق، ومجلس الأمة المصري في القاهرة، مساء يوم الأربعاء، حسبما جاء في الميثاق، واللتان استمع المجلسان فيهما إلى خطابين تاريخيين رائعين، ألقاهما رئيسا الجمهوريتين كل في مجلسه، فأشادا فيهما بخصائص الأمة العربية، ونمو وعيها، وكفاحها في سبيل حريتها وكرامتها، وعمق شعورها بضرورة الوحدة لضمان حقها في الحياة الكريمة العزيزة في بلادها. وقد وافق كل من المجلسين موافقة اجماعية على الميثاق، وعلى المواد الدستورية الموقتة التي تقوم الجمهورية العربية المتحدة على أساسها، وهي:

١ ـ الدولة العربية المتحدة جمهورية ديموقراطية مستقلة ذات سيادة. وشعبها جزء من الأمة العربية.

٢ ـ تتكون الجمهورية العربية المتحدة من اقليمين هما مصر وسورية. ويكون لكل اقليم مجلس تنفيذي يرأسه رئيس، يعين بقرار من رئيس الجمهورية، ويعاونه وزراء يعينهم رئيس الجمهورية، بناء على اقتراح رئيس المجلس.

٣ ـ الحريات مكفولة في حدود القانون.

٤ ـ الانتخاب العام حق للمواطنين على الوجه المبين في القانون. ومساهمتهم في الحياة العامة واجب وطني عليهم.

٥ ـ يتولى السلطة التشريعية مجلس يسمى مجلس الأمة. ويشترط أن يكون نصف الأعضاء على الأقل من بين أعضاء مجلس النواب السوري ومجلس الأمة المصري. ويحدد أعضاء هذا المجلس ويتم اختيارهم بقرار من رئيس الجمهورية.

٦ ـ يتولى رئيس الجمهورية السلطة التنفيذية.

٧ ـ الملكية الخاصة مصونة، وينظم القانون اداء وظيفتها الاجتماعية، ولا تنتزع الملكية إلّا للمنفعة العامة، ومقابل تعويض عادل وفقاً للقانون.

٨ ـ انشاء الضرائب العامة، أو تعديلها، أو الغاؤها، لا يكون إلّا بقانون. ولا يعفى أحد من أدائها في غير الأحوال المبينة في القانون.

٩ ـ القضاة مستقلون، لا سلطان عليهم في قضائهم لغير القانون.

١٠ ـ كل ما قررته التشريعات المعمول بها في سورية وفي مصر، يبقى ساري المفعول

في النطاق الاقليمي المقرر له عند اصدارها. ويجوز الغاء هذه التشريعات أو تعديلها.

١١ ـ تبقى احكام المعاهدات والاتفاقيات الدولية المبرمة، بين كل من سورية ومصر، وبين الدول الأخرى، سارية المفعول في النطاق الاقليمي المقرر لها عند ابرامها، وفقاً لقواعد القانون الدولي.

١٢ ـ تبقى المصالح العامة والنظم الادارية القائمة معمولاً بها في كل من سورية ومصر، إلى أن يعاد تنظيمها وتوحيدها، بقرارات من رئيس الجمهورية.

١٣ ـ يكوّن المواطنون اتحاداً قومياً للعمل على تحقيق الأهداف القومية، ولحث الجهود لبناء الأمة بناءً سليماً من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتبين طريقة تكون هذا الاتحاد بقرار من رئيس الجمهورية.

١٤ ـ تتخذ الإجراآت لوضع الدستور الدائم للجمهورية العربية المتحدة.

١٥ ـ يجري الاستفتاء على الوحدة، وعلى رئيس الجمهورية العربية المتحدة، في يوم الجمعة ٢١ شباط الجاري (١٩٥٨).

ثم رشح رئيس سورية المجاهد البطل شكري القوتلي[٦٨] جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية الجديدة، مشيداً بما يتمتع به من صفات النزاهة والجرأة والاقدام، وبتفانيه في خدمة أمته وقوميته العربية، معلناً ثقته بأنه سيعمل على اعلاء شأن الجمهورية الفتية بكل تجرد وصدق، لما فيه عزّها ورخاؤها وسعادة مواطنيها، وما فيه خير العرب في جميع ديارهم. وقد وافق المجلسان على الترشيح، وجرى الاستفتاء في يوم الجمعة الموافق لتاريخ ٢١ شباط ١٩٥٨، على الاتحاد وشخص الرئيس المرشح الوحيد، وهو البطل العربي الملهم جمال عبد الناصر، فكانت موافقة اجماعية في مصر وسورية. وقامت نتيجة لذلك الجمهورية العربية المتحدة دولياً، بعد أن قامت، منذ غرة شباط، ثم في الخامس منه، قياماً شعبياً بسهولة ويسر، لم يكد يسبق لهما مثيل في التاريخ القريب والبعيد، دل على قوة الوعي العربي، وعمق ادراكه، وشدة حيويته، ورغبته في الانطلاق. وقوبل قيامها الدولي، كما قوبل قيامها الشعبي قبل، بأعظم مظاهر الابتهاج والحماس والتأييد الشعبي في مصر وسورية، وسائر انحاء الوطن العربي الكبير، لأنه جاء معبراً أصدق تعبير عن توافر مقومات الوحدة في الأمة العربية، ووطنها الكبير، وازدياد بواعثها قوة وإلحاحاً، وعن عمق شعور العرب بضرورة تحقيقها، لأن بها وحدها يضمنون لأنفسهم وبلادهم القوة والكرامة والعزة والتكامل والازدهار، وملء الفراغ في الشرق الأوسط، واقرار السلام فيه، وتطهير أرضهم من رجس الغاصبين والمستغلين والمستعمرين، وازالة كل عائق وحاجز بين أجزاء بلادهم الممتدة، من ساحل الأطلسي غرباً، إلى خليج البصرة وبحر الهند شرقاً، ومن جبل طوروس شمالاً، إلى أواسط أفريقيا جنوباً، واستئناف رسالتهم الانسانية الهادية، التي ملأوا بها الدنيا نوراً وحضارة ومثلاً علياً، حينما كانت تظلهم راية الوحدة.

ولقد فتح قيام الجمهورية العربية المتحدة باب الآمال الواسعة بتحقيق تكامل الوحدة

العربية، وشمولها في أسرع ما كان يقدر بإذن الله وحوله؛ ولا سيما أن اقطاب الحكومتين كانوا حكماء بارعين، حينما أعلنوا فتح الباب للدول العربية للانضمام إلى الدولة الجديدة، بالأسلوب الذي تختاره، من وحدة في نطاق دولة واحدة، أو اتحاد تحافظ به على كيانها، وشكل نظامها الراهن؛ كما كانوا حكماء بارعين حينما قرروا أن يكون لكل من أقليمي مصر وسورية جهاز حكومي محلي، لأن ذلك يتفق مع أوضاع البلاد العربية وحاجاتها، ويفي برغباتها، ويتسق مع ما شرحناه من أسس، وعرضناه في الكتاب من أنظمة، سارت عليها الدول الاتحادية الأخرى سيراً ناجحاً.

ومن المؤسف أن نسجل أن الملك سعود قد ارتاع من فكرة الوحدة بين مصر وسورية، منساقاً في ذلك وراء الفكرة السعودية القديمة، بوجوب منع أي وحدة واتحاد، واحتفاظ كل دولة عربية بنظامها الراهن، على ما شرحناه في مناسبة سابقة، فلم يتورع عن محاولة رشوة بعض ضباط سورية، للقيام بحركة عسكرية، تمنع قيام الوحدة بين سورية ومصر، حيث ظهر من الوثائق المنشورة، والحقائق الأرقامية اليقينية، أنه قدم لعبد الحميد السراج أحد ضباط الجيش السوري الأقوياء الأذكياء الذي كان يشغل رآسة المكتب الثاني مبلغ ميليوني جنيه استرليني، محولة لأمره من البنك العربي بالرياض، رشوة له ولمن يريد من رفاقه، لمنع قيام الوحدة، ولاغتيال جمال عبد الناصر، إذا اقتضى الأمر وأمكن بسبيل ذلك. وقد أخبر السراج الرئيس بالأمر، حينما جرى الاتصال به من أجل ذلك، فطلب منه متابعة الاتصال للنهاية، حتى جاءت الشكوك، وصارت الجريمة جرماً مشهوداً، فأذاعها الرئيس في احدى مواقفه الخطابية بعد قليل من قيام الجمهورية العربية المتحدة...

في ٢٨ أيلول ١٩٦١ قام فريق من ضباط الجيش السوري منهم حيدر الكزبري وعبد الكريم النحلاوي وموفق عصاصة وهشام عبد ربه بحركة انقلابية لفك الوحدة بين مصر وسورية متذرعين بما سموه اخطاء جسيمة دمرت معنى الوحدة وروحها وقلبت سورية إلى مزرعة مصرية ومعلنين في بادىء الأمر أنهم قاموا بحركتهم لتصحيح الأوضاع. وقد ثبت بالوثائق الدامغة التي نشرت ومحاضر محاكمات بعض الضباط والمدنيين التي جرت في سنة ١٩٦٢ أن الملك حسين كان وراء هذه الحركة بأمواله وتحريضاته وأنها حركة قصد بها فك الوحدة عن مصر. وقد سارع بعض السياسيين الموتورين والحاقدين والاقليميين والاقطاعيين والاستغلاليين التجار الذين حرموا من المكاسب والمناصب والاحتكار والاستغلال إلى تأييد الحركة، وثبت أن منهم من كان ضالعاً بها قبل حدوثها... غير أن جمهور الشعب العربي في سورية في المدن والقرى وجمهور الجيش العربي في سورية من ضباط وصف ضباط وجنود ومن ورائهم الشعب العربي في مختلف انحاء الوطن العربي برغم ما شنته الأقلام المأجورة الخائنة من حملة مسعورة دنيئة من الأكاذيب والشتائم والتهويلات والتحريضات وتشويه الحقائق ضد مصر وعهد الوحدة وضد جمال عبد الناصر التي كان وراءها المستعمرون واليهود وحسين وسعود وعبد الكريم قاسم على ما كان ملموساً بكل قوة بل وعلانية، وبرغم ما أصلته سلطات العهد الانفصالي من سيف الارهاب الشديد والقمع العنيف، ظلوا متعلقين بالوحدة وجمال عبد الناصر

مستمدين ذلك من وعيهم القومي وما صار للعروبة في عهد الوحدة من سؤدد وقوة وما فتحته من آفاق ويسرته من أسباب التحسين في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فلم ينوا عن المقاومة والتمرد بمختلف الأشكال والأساليب والظروف طيلة المدة المشؤومة التي استمر فيها عهد الانفصال حتى انفجرت ثورة جيشه في ٨ آذار ١٩٦٣ فدمرت عهد الانفصال وعزلت رجاله عن الحياة السياسية وقدمت رؤوسهم للمحاكمة على ما اقترفوه من جرائم. وكان العراق قد انفجر قبل شهر فأطاح بعهد الطاغية المجنون عبد الكريم قاسم وأعاد العراق إلى الركب العربي. ثم جرت الاتصالات والمساعي وتمت اللقاآت بين رجالات العراق وسورية ومصر خلال شهور شباط وآذار ونيسان ثم تتوجت بتاريخ ١٧ نيسان ١٩٦٣ بالاتفاق على اقامة وحدة بين الأقطار الثلاثة في نطاق دولة واحدة ورئاسة واحدة باسم الجمهورية العربية المتحدة وبعلمها مزيداً عليه نجمة ثالثة. وهكذا تيسر للعروبة أن تصمد أمام الزعازع وأن تحبط المكائد ضدها وأن تعيد وحدتها الأولى بقوة أكثر مفتوحة للأقطار الأخرى والله المسؤول أن يسدد الخطى ويحبط كيد الكائدين، مايس ١٩٦٣.

٢ ـ الدول العربية المتحدة

ولقد كان رد الفعل في هذا الصدد سريعاً، بما كان من مبادرة المملكة اليمنية، إلى إعلان رغبتها في الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة على أساس الاتحاد، ومسارعتها إلى إرسال وفدها إلى القاهرة، ويرأسه ولي العهد الأمير البدر، غداة جلستي مجلس الأمة في سورية ومصر، ودخوله في المفاوضات مع الجانب المصري، وسير هذه المفاوضات سيراً حثيثاً مرضياً جداً، لأن الايمان هو الرائد، ولأن الوحدة تنبع من الضمائر والأعماق، كما قال أحد وزراء اليمن، وأحد أعضاء الوفد اليمني، وانتهاء المفاوضات إلى اتفاق مبدئي تام، حمل صيغته الأمير البدر في السابع عشر من شهر شباط إلى اليمن لعرضه على جلالة الامام.

وقد عاد سمو الأمير البدر، مزوداً من قبل والده جلالة الامام، بالتوكيل اللازم للموافقة، على انضمام المملكة اليمنية إلى الجمهورية العربية المتحدة، على أساس الاتحاد. وجرى توقيع الاتفاق النهائي من قبل رئيس الجمهورية العربية المتحدة من ناحية، والأمير البدر، ولي عهد المملكة اليمنية من ناحية أخرى، يوم السبت الموافق للسادس عشر من شهر شعبان ١٣٧٧، الموافق للثامن من شهر آذار ١٩٥٨. وهذا هو نص ذلك الميثاق التاريخي:

الباب الأول

الاتحاد

١ ـ ينشأ اتحاد، يسمى «الدول العربية المتحدة»، يتكون من الجمهورية العربية المتحدة، والمملكة المتوكلية اليمنية، والدول العربية التي تقبل الانضمام إلى هذا الاتحاد.

٢ ـ تحتفظ كل دولة بشخصيتها الدولية، وبنظام الحكم الخاص بها.

٣ ـ مواطنو الاتحاد متساوون في الحقوق والواجبات العامة.

٤ ـ لكل مواطن في الاتحاد، حق العمل وتولي الوظائف العامة في البلاد المتحدة، دون تفرقة وفي حدود القانون.

٥ ـ حرية التنقل في الاتحاد مكفولة في حدود القانون.

٦ ـ تتبع الدول الأعضاء السياسة الخارجية الموحدة التي يضعها الاتحاد.

٧ ـ يتولى التمثيل السياسيَ والقنصلي للاتحاد في الخارج هيئة واحدة في الأحوال التي يقرر فيها الاتحاد ذلك.

٨ ـ يكون للاتحاد قوات مسلحة موحدة.

٩ ـ تنظيم الشؤون الاقتصادية في الاتحاد، وفقاً لخطط مرسومة، تهدف إلى تنمية الانتاج، واستغلال موارد الثروة الطبيعية وتنسيق النشاط الاقتصادي.

١٠ ـ ينظم القانون شؤون النقد في الاتحاد.

١١ ـ ينشأ بين البلاد المتحدة اتحاد جمركي، وذلك بالشروط والأوضاع التي يحددها القانون.

١٢ ـ ينظم القانون مراحل ووسائل تنسيق التعليم والثقافة في الاتحاد.

الباب الثاني

السلطات

١٣ ـ يشرف على شؤون الاتحاد مجلس يسمى «المجلس الأعلى»، يشكّل من رؤساء الدول الأعضاء.

١٤ ـ يعاون المجلس الأعلى في مباشرة سلطاته مجلس يسمى «مجلس الاتحاد».

١٥ ـ يشكل مجلس الاتحاد من عدد متساوٍ من ممثلي الدول الأعضاء. ويبين القانون عدد اعضاء المجلس ومدة عضويتهم والأحكام الخاصة بهم.

١٦ ـ تكون رئاسة مجلس الاتحاد سنوياً بالتناوب بين الدول الأعضاء، وترشح الدولة التي تحل نوبتها من يتولى الرياسة، على أن يكون للرئيس نائب أو نواب من الدولة أو الدول الأعضاء في الاتحاد.

١٧ ـ يختص المجلس الأعلى برسم السياسة العليا للاتحاد، في المسائل السياسية والدفاعية والاقتصادية والثقافية، وإصدار القوانين اللازمة في هذا الشأن، وهو المرجع الأعلى في تحديد الاختصاصات، وتصدر قرارات المجلس بالاجماع.

١٨ ـ يصدر المجلس الأعلى القوانين الاتحادية التي يختص بإصدارها، وفقاً لأحكام هذا الميثاق، وذلك بعد موافقة السلطات المختصة في كل دولة.

١٩ ـ يعين المجلس الأعلى القائد العام للقوات المسلحة للاتحاد.

٢٠ ـ تصدر الميزانية العامة للاتحاد بقرار من المجلس الأعلى. ويعين القانون مواردها، والحصة التي تؤديها كل دولة من الدول الأعضاء.

٢١ ـ مجلس الاتحاد هو الهيئة الدائمة للاتحاد، ويتولى النظر في الشؤون السياسية، ويضع البرنامج السنوي المتضمن النظم والتدابير المؤدية إلى تحقيق الوحدة.

٢٢ ـ تعرض قرارات مجلس الاتحاد والبرنامج السنوي الذي يضعه على المجلس الأعلى للاتحاد للتصديق عليها، ويبت المجلس الأعلى في القرارات التي أصدرها مجلس الاتحاد، واعترضت عليها إحدى الدولتين أو الدول.

٢٣ ـ يتبع مجلس الاتحاد الهيئات الآتية: أ ـ مجلس الدفاع ـ ب ـ المجلس الاقتصادي ـ ج ـ المجلس الثقافي.

وتعرض قرارات هذه الهيئات على مجلس الاتحاد للتصديق عليها.

٢٤ ـ يبين القانون طريقة تشكيل الهيئات التابعة لمجلس الاتحاد واختصاصاتها.

الباب الثالث

أحكام عامة وانتقالية

٢٥ ـ يصدر بتعيين المقر الدائم لاتحاد الدول العربية وحدوده قرار من المجلس الأعلى. ويعقد مجلس الاتحاد والهيئات التابعة له جلساته في المدينة التي يحددها بصفة دورية.

٢٦ ـ يبين القانون القواعد التي تسري على اقليم المقر الدائم للاتحاد.

٢٧ ـ يكون للقوانين الاتحادية قوة الزامية في البلاد المتحدة. ويعمل بها بعد خمسة عشر يوماً من تاريخ نشرها في الجريدة الرسمية للاتحاد، ما لم ينصّ القانون على غير ذلك.

٢٨ ـ يعين رئيس كل دولة وزيراً لدى الدول العربية المتحدة، ويختص بالاشراف على تنفيذ قرارات الاتحاد في الاقليم الذي يتبعه.

٢٩ ـ يعين رئيس كل دولة وزيراً نائباً عنه، لدى رئيس، أو رؤساء الدول الأخرى، ويكون له صفة الوزراء المحليين.

٣٠ ـ يلغى التمثيل السياسي بين الدول اعضاء الاتحاد.

٣١ ـ تسري القواعد الجمركية المعمول بها في الدول اعضاء الاتحاد، إلى أن ينظم الاتحاد الجمركي بينها، وفي خلال ذلك يجوز أن يضع القانون نظاماً جمركياً خاصاً للعمل به بين الدول الأعضاء.

٣٢ ـ يعمل بهذا الميثاق من تاريخ الموافقة عليه، وذلك إلى حين وضع النظام الدائم للاتحاد.

وهكذا تمت بمثل هذه السرعة والسهولة خطوة أخرى، جاءت كنموذج للنظام الاتحادي الذي يمكن أن يسير جنباً إلى جنب مع نظام الجمهورية العربية المتحدة. وهو متطابق مع ما رسمناه، في بعض فصول كتابنا.

ومواد الميثاق مرنة قابلة للتوسعة والتعديل، إذا ما أظهر التطبيق حاجة إليهما، وخاصة ان مادته الأخيرة تفيد أنه نظام مؤقت، إلى حين وضع النظام الدائم.

لقد كانت تجربة هذا الاتحاد فاشلة. لأن الامام أحمد لم يكن جاداً فيه، ولم ينفتح على مقتضياته التطورية. ولم يفسح أي مجال لذلك. ولم يلبث أن أخذ يعاكس مشاريع الجمهورية العربية المتحدة الاقتصادية والاجتماعية، ويراوغ فيما تريده من مساعدة وتطوير لليمن، ويمالىء أعداءها من الرجعيين. فلم يسع رئيس الجمهورية العربية المتحدة إلاّ نفض اليد من الاتحاد، وإعلان حله في أواسط سنة ١٩٦٢، وفي أوائل شهر أيلول ١٩٦٢، توفي الإمام أحمد، فحل ابنه البدر مكانه. غير أنه لم يلبث أن فوجىء في ٢٨ أيلول ١٩٦٢ بحركة انقلابية عسكرية، قادها ضابط يمني برتبة زعيم اسمه عبد الله السلال، استطاعت أن تطيح بالنظام الملكي للإمام، وأن تشرد البدر، وأن تقيم حكماً جمهورياً. وهزت الحركة السعوديين، ومن ورائهم الملك حسين، ملك الأردن، وأخافتهم من عواقبها القريبة والبعيدة، فانبروا لتحريض الإمام، ثم البدر الذي كان مفقوداً وظهر بعد حين على المقاومة ، وأخذوا يمدونهم بالمال والسلاح والرجال والدعاية. واستنجد السلال بالجمهورية العربية المتحدة، فبادرت إلى نجدته بكل قوة وسرعة، حيث أرسلت تباعاً قوات مسلحة برية وجوية مجهزة بكل أجهزة الحرب، حتى بلغ عددها (٣٠) ألفاً، مع عدد كبير من الطائرات والدبابات والمصفحات والسيارات والمدافع والمؤن واللوازم المتنوعة. وأخذت هذه القوات بالتضامن مع حركة الانقلاب التي أيدها جمهرة كبيرة من الشعب اليمني، تتعاون مع قوات الاماميين المؤيدة بالمال والسلاح والرجال من السعوديين والملك حسين.

ولقد أخذت حكومة الانقلاب تحصل على اعتراف الدول تباعاً، فاعترفت بها الدول العربية ذات الحكم الجمهوري، ثم الدول الإسلامية، ثم الدول الشيوعية، ثم أخذت الدول المغربية تعترف أيضاً. وفي أواخر سنة ١٩٦٢ اعترفت بها الولايات المتحدة الأميركية. وعلى أثر ذلك قررت هيئة الأمم أولوية مندوبها بالمقعد الدولي من مندوب النظام القديم.

وقد تلكأت بريطانية، وما زالت متلكئة في الاعتراف، لأنها على ما يظهر تجعل ذلك

منوطاً باعتراف النظام الجديد بدولة اتحاد الجنوب العربي التي انشأتها تحت حمايتها وسلطتها، والنظام الجديد ينأى عن ذلك لأن بلاد هذا الاتحاد يمنية يجب تحريرها من ربقة الاستعمار. وقد حاولت بريطانية بطرق ملتوية من الجنوب بواسطة شريف بيحان أحد أمراء الاتحاد المذكور تعضيد الاماميين. وقد كانت على ما رجحه المراقبون من وراء موقف السعوديين الأردن من مثل ذلك. غير أن كل ذلك لم يغنها ويغنهم شيئاً، لأن المساندة القوية المستمرة من جانب الجمهورية العربية المتحدة، أحبطت كل كيد ومقاومة، ووطدت نظام الحكم الجديد.

وهكذا أثبت جمال عبد الناصر الذي دلت كل الدلائل على أنه وراء هذه المساندة، على قوة ايمانه بالعروبة، واندماجه فيها، وعلى أنه حلق في هذا الموقف إلى المستوى الرفيع المتناسب مع حركة التحرر التي قامت في اليمن لتخليصها من أشد العهود ظلماً وظلمات، برغم ما تحملته مصر من جراء ذلك من تضحيات جسيمة، كما فعل بالنسبة لحركة الجزائر وكما أعلن استعداده بمساندة أية حركة عربية تحررية أخرى.

وقد ردف مساندته العسكرية بمساندات مالية وتنظيمية في مختلف المجالات بسبيل انشاء نظام حكومي حديث، فأثبت بذلك عمق إدراكه لواجبه القومي والسير بسبيله إلى أبعد الغايات.

ولقد كان استمرار السعوديين وملك الأردن في مساندة الإماميين سبباً لتوتر شديد بين النظام اليمني الجديد والجمهورية العربية المتحدة من جهة، وحكومتي السعودية والأردن من جهة. وهدد الفريق الأول بنقل الحرب إلى أرض السعوديين وقصف مراكز التسلل والتجمع على الحدود السعودية مرة بعد مرة. وكبدها خسائر فادحة. وروي فيما روي أنه أبيدت كتائب كاملة من السعوديين والاردنيين تسللت إلى أرض اليمن. ورغم ما كان انتصار القوات العربية اليمنية ضد الإماميين فقد كانت اذاعات الأردن والسعودية تذيع أنباء عن معارك وانتصارات للاماميين على النجدات المصرية والقوات اليمنية منها حتى صارت هذه الاذاعات موضوع تندر وتفكّه من الصحف العربية وغير العربية على السواء، لأن ما كانت تذكره من أرقام الخسائر التي كبدها الإماميون لهذه النجدات والقوات يبلغ عشرات الألوف. ولقد دأبت خلال ثلاثة أشهر بعد الثورة على القول ان الاماميين يحاصرون صنعاء ويقطعون طريقها فضلاً عن مدن ومواقع أخرى كذباً وتخييلاً.

ولقد خشيت الولايات المتحدة من تطور الموقف وما قد يكون لذلك من آثار على مصالحها في السعودية، فبذلت جهودها في سبيل حل يزول به التوتر. ثم سعت مع الأمانة العامة لهيئة الأمم لتبذل بدورها جهودها أيضاً. وانتهت الجهود المزدوجة المبذولة في شهر شباط ١٩٦٣ إلى اتفاق مؤداه:

١ ـ تعهد السعوديين بقطع امداد الاماميين بالمال والرجال والسلاح وعدم السماح بالتسلل إلى اليمن و ٢ ـ تعهد النظام اليمني الجديد بعدم العدوان على الحدود السعودية. و ٣ ـ تعهد الجمهورية العربية المتحدة بسحب قواتها تدريجياً. مع إعلانها عزمها على مساندة النظام

الجديد باستمرار وعدم الانسحاب بالمرة إلّا بعد الحصول على طمأنينة تامة على النظام الجديد. وزوال أي خطر يتهدده من أي جانب. وبدأت بسحب كتائبها في شهر مايس ١٩٦٣.

ولقد كان قيام الحركة الانقلابية في اليمن ونجاحها وبخاصة ما أخذ يذيعه زعيمها السلّال الذي رفع إلى رتبة مشير واسندت إليه رئاسة الجمهورية اليمنية من استعداد للسير باليمن قدماً نحو التطور والتقدم في مختلف المجالات حدثاً عظيماً في تاريخ العرب الحديث يكاد يكون معجزة كبرى قوبلت بعظيم الارتياح والحماس من مختلف الأوساط العربية التقدمية والمتحررة. لأنها أطاحت بنظام حكم شديد الخمود والرجعية والطغيان مغلق تجاه أي احتمال لتطور سياسي واجتماعي جعل اليمن يعيش في عهد ظلم وظلمات في مختلف الاعتبارات. وكانت النقمة على السعوديين وملك الأردن شديدة جداً في الأوساط العربية المتحررة بل وفي الأوساط الخارجية لمساندتهم لهذا العهد المظلم الظالم. لأنه مشابه في روحه ومداه لنظامهم وتفادياً من تأثير نجاح الحركة الانقلابية عليهم. . . ومن الجدير بالتسجيل أن ملكي المغرب وليبيا لم يجاريا الدول الأخرى في المبادرة بالاعتراف بنظام الحكم اليمني الجديد. ولم يعترفا به إلّا بعد أن أعلنت التسوية التي تمت بواسطة هيئة الأمم! اما الأردن والسعودية فلم يعترفا به إلى الآن (مايس ١٩٦٣).

ومنذ أن توطدت الحركة الانقلابية والمشير السلال يعلن ايمانه بالوحدة العربية والاشتراكية العربية ورغبة في تنظيم حكومته على أسس جديدة متطورة وسيره بسبيل ذلك اشواطاً متنوعة بمساندة الجمهورية العربية المتحدة وتعلقه بهذه الجمهورية. وحينما بدأت الاتصالات واللقاآت بين مصر وسورية والعراق في شهور شباط وآذار ونيسان ١٩٦٣، أعلن وظل يعلن رغبته في الاندماج في ما سوف تسفر عنه هذه اللقاآت من وحدة عربية. وهكذا قام بدل ذلك النظام الذي فشلت معه عملية (الاتحاد) نظام جديد متفتح للتطورات الواسعة ومستعد للاندماج في وحدة ايجابية. وصار المرجو أن تلتحق اليمن بالركب العربي التقدمي المتحرر والحمد الله كثيراً. لاسيما والجمهورية العربية المتحدة تعلن عزمها على مساندته وتواصله وقد أخذت سورية والعراق تفعل ذلك وأخذت الدول الاشتراكية والغربية تبادر إلى عرض عروض لمساعدته بمختلف الأساليب وفي مختلف الميادين والحمد الله (مايس ١٩٦٣).

٣ ـ الاتحاد العربي (الهاشمي)

ولقد قوبلت الخطوة المصرية السورية من قبل الأوساط الحاكمة في الأردن والعراق بالسكوت المتجهم دون الشعب في البلدين الذي عبر بشتى الأساليب عن شدة ابتهاجه بها وتأييده لها؛ ثم جرت اتصالات بين ملكي الأردن والعراق وحكومتيهما في صدد اتخاذ خطوة ما تجاه ذلك، وتم الاتفاق على توثيق الروابط بين المملكتين في نطاق اتحاد فدرالي تحتفظ كل منهما فيه بسيادتها ونظامها الراهن. وجاء الملك فيصل من العراق إلى عمان في الحادي عشر من شباط وصحبته بعض اعضاء حكومته ثم التحق بهم ولي العهد الأمير عبد الإله وجرت

المفاوضات النهائية بينهم وبين الجانب الأردني برئاسة الملك حسين. ويوم الجمعة الموافق لتاريخ ٢٤ رجب ١٣٧٧ ـ ١٤ شباط ١٩٥٨ تم توقيع وإعلان الميثاق التالي في عمان:

«لما كانت الثورة العربية الكبرى التي قادها جلالة المنقذ الأعظم الحسين بن علي ايذاناً لبزوغ فجر جديد للأمة العربية تمثلت بالتضحية والفداء في سبيل تحرير الوطن العربي الكبير، وتوجيه شعوبه وأقطاره لاستعادة مكانة العرب بين أمم العالم وللمساهمة في تقدم الحضارة الإنسانية، ولما كانت تلك الثورة المباركة قد انبثقت عن ارادة العرب في الحرية والوحدة مستندة في ذلك إلى ماضيها المجيد وايمانها بنفسها وبرسالتها القومية الخالدة؛ ولما كانت رسالة الثورة العربية التي قضى باعثها في سبيلها قد انتقلت إلى الأبناء والأحفاد يتوارثونها جيلاً بعد جيل لتبقى المشعل المنير الذي يهدي أمة العرب في سيرها نحو آمالها وأمانيها المنشودة في الوحدة الشاملة المستكملة لجميع أسباب الحرية والسيادة والقوة لاستعادة الأمجاد والمحافظة على التراث والمقدسات والتطلع إلى مستقبل مشرق في ظلال هذه الوحدة المباركة، فقد قررت الدولتان الهاشميتان انشاء اتحاد بينهما يقوم على هذه الأهداف السامية. وتحقيقاً لهذه الغايات والأماني القومية تم الاتفاق على ما يلي:

أولاً ـ ينشأ اتحاد عربي بين المملكة الأردنية الهاشمية والمملكة العراقية باسم الاتحاد العربي اعتباراً من يوم الجمعة ٢٤ رجب ١٣٧٧ هـ ـ ١٤ شباط ١٩٥٨ م ويكون هذا الاتحاد مفتوحاً للدول العربية الأخرى التي ترغب في الانضمام اليه.

ثانياً ـ تحتفظ كل من الدولتين بشخصيتها الدولية المستقلة وبسيادتها على أراضيها وبنظام الحكم القائم فيها.

ثالثاً ـ تكون المعاهدات والمواثيق والاتفاقات الدولية التي سبق أن ارتبطت بها كل من الدولتين قبل قيام الاتحاد بينهما مرعية بالنسبة إلى الدولة التي عقدتها وغير ملزمة للدولة الأخرى. أما المعاهدات والمواثيق والاتفاقات الدولية التي ستعقد بعد قيام الاتحاد والتي تدخل ضمن موضوعات الاتحاد فتكون من اختصاص وسلطة حكومة الاتحاد.

رابعاً ـ اعتباراً من تاريخ الإعلان الرسمي لقيام الاتحاد تنفذ اجراآت الوحدة الكاملة بين دولتي الاتحاد في الأمور الآتية:

أ ـ وحدة السياسة الخارجية والتمثيل السياسي.

ب ـ وحدة الجيش الأردني والعراقي باسم الجيش العربي.

ج ـ ازالة الحواجز الجمركية بين الدولتين وتوحيد القوانين الجمركية.

د ـ توحيد مناهج التعليم.

خامساً ـ يتفق الطرفان بأسرع وقت ممكن على اتخاذ الاجراآت اللازمة لتوحيد النقد وتنسيق السياسة المالية والاقتصادية بين الدولتين.

سادساً ـ عندما تقضي الضرورة والمصلحة توحيد أي أمر من الأمور الأخرى غير الواردة في المادة الرابعة تتخذ الاجرآت اللازمة بموجب دستور الاتحاد لادخال ذلك الأمر ضمن اختصاص وسلطة حكومة الاتحاد.

سابعاً ـ يكون علم الثورة علم الاتحاد وعلم كل من الدولتين.

ثامناً ـ أ: تتولى شؤون الاتحاد حكومة اتحادية مؤلفة من مجلس تشريعي وسلطة تنفيذية.
ب: ينتخب كل من مجلس الأمة الأردني والعراقي أعضاء المجلس التشريعي من بين أعضائهما بعدد متساوٍ لكل من الدولتين.

ج ـ يعين أعضاء السلطة التنفيذية وفق أحكام دستور الاتحاد لتولي الأمور التي تدخل ضمن اختصاص حكومة الاتحاد.

تاسعاً ـ يكون ملك العراق رئيساً لحكومة الاتحاد. وفي حالة غيابه لأي سبب من الأسباب يكون ملك الأردن رئيس حكومة الاتحاد. ويحتفظ كل من الملكين بسلطاته الدستورية في مملكته. وعند انضمام دولة أخرى إلى الاتحاد يعاد النظر في وضع رئاسة الاتحاد حسب مقتضيات الأحوال.

عاشراً ـ يكون مقر حكومة الاتحاد بصورة دورية في بغداد لمدة ستة أشهر من السنة وفي عمان لستة أشهر أخرى.

حادي عشر ـ أ: تضع حكومة الاتحاد دستور الاتحاد وفق الأسس المبينة في هذا الاتفاق، ويعدل دستور كل من الدولتين إلى المدى والحدود التي تقتضيها أحكام دستور الاتحاد. ب: تتخذ التدابير والاجرآت اللازمة لاقامة حكومة الاتحاد ووضع دستور الاتحاد خلال مدة لا تزيد عن ثلاثة أشهر من تاريخ توقيع هذا الاتفاق.

ثاني عشر ـ يبرم هذا الاتفاق وفق الأصول الدستورية لكل من الدولتين».

وقد وافق البرلمان الأردني في ١٨ شباط ١٩٥٨ والبرلمان العراقي في ١٧ شباط ١٩٥٨ على الميثاق فأصبح نافذ المفعول.

ومهما يمكن أن يقال في حقيقة الباعث على هذه الحركة ومداها وملابساتها فإنها على كل حال تعبير عن قوة الوعي العربي وشدة الشعور بضرورة الوحدة بين اجزاء البلاد العربية واستجابة له، وعدم استطاعة حكام العرب انكار ذلك أو اهماله، ورد فعل لا ريب فيه للخطوة المصرية السورية، وحركة توحيدية من شأنها إذا خلصت النيات وصحت العزائم أن تربط شعب العراق والأردن برباط وثيق عملي يتجاوز الكلام والعاطفة، وأن يوحد نشاطه وفعاليته ونضاله ضد المآرب والمكائد والخطط الاستعمارية، وأن تقوي وعيه وتضامنه، وأن يغدو جيش البلدين بها واحداً وسياستهما واحدة وتمثيلهما واحداً واقتصادهما واحداً. وفي هذا الخير والقوة اللذان ينشدهما العرب ويريدون الوحدة لأجلهما. وقد عبر عن ذلك الرئيس جمال عبد الناصر أقوى

تعبير في البرقية التي أرسلها إلى الملك فيصل غداة اعلان الميثاق والتي دللت على صفاء روحه القوية وبراعته السياسية واخلاصه العميق للعروبة وخيرها، والتي جاء فيها «ان الاتحاد العربي الذي وحد اليوم ما بين العراق والأردن هو خطوة مباركة تتطلع اليها الأمة العربية كلها بأمل كبير باعتبارها اتجاهاً يستمد قوته من أعماق الضمير العربي. وإننا لواثقون تمام الثقة بأن الاتحاد العربي سوف يكون قوة لكل العرب على كل اعداء العرب. إن الأيام التي تعيشها الأمة العربية الآن أيام خالدة مجيدة. وما من شك بأن الأحداث التي عاشتها امتنا في الفترة الأخيرة تبشر بأن فجر الوحدة الذي اشرق على كل الآفاق العربية هو مطلع تاريخ جديد للأمة العربية المناضلة. وإن القومية العربية لتفتخر وتعتز بالخطوة التي اتخذتموها في عمان اليوم واثقة بأنها تقرب منا يوم الوحدة العظيم. وما من شك في أن شباب جلالتكم وايمانكم وصادق إخلاصكم سوف تكون من أقوى القوى الدافعة في سبيل تحقيق حلم العرب الكبير. وانني إذ أبعث إلى جلالتكم بتحياتي أتمنى من صميم قلبي أن يوفقكم الله وأن يسدد خطاكم وأن يبارك شعبكم العظيم».

ومن المؤسف أن الجواب الذي أرسله الملك فيصل على هذه البرقية العظيمة خلا من أي اشارة إلى وحدة مصر وسورية التي أعلن ميثاقها قبل إعلان الاتحاد العراقي الأردني وكل ما احتواه شكر على البرقية ثم تنويه بسلسلة الجهاد التي امتدت اربعين سنة والتي كان الاتحاد العراقي الأردني ثمرة من ثمراتها! وكان واجب الأخوة والروح الطيبة تقتضي أن تقابل البادرة الحسنة بمثلها. ولم يرسل العراق والأردن كذلك تهنئة للرئيس جمال عبد الناصر بعد الاستفتاء العام في سورية ومصر الذي أسفر عن الاجماع على رئاسته وعلى الوحدة، ولا اعترافاً بالجمهورية العربية المتحدة التي انبثقت منه أسوة بسائر الدول العربية، ثم بمعظم الدول الشرقية والغربية، ومقابلة للبادرة الأخوية الطيبة التي بدرت من الرئيس جمال في البرقية التي أرسلت إلى ملك العراق؛ بل ظلا في حالة تجهم عجيبة ازاء الجمهورية العربية التي قوبلت كما قلنا من جميع الدنيا بالدهشة والاعتراف وغدا للعرب بها وزن وقوة لا يمكن أن يقاسا بما كان لهم قبل قيامها، وانفتح أمامهم بها باب الآمال العظيمة في تحقيق أهداف العرب وحل قضاياهم حلاً كريماً. ولو انسجما معها في تعاون وتوادّ لزاد كل ذلك قوة وشدة مما يبعث في النفوس المرارة والألم والعجب! والاشتمئزاز والتساؤل عن صدق وجدّ حكام العراق والأردن في الدعوى العريضة في الجهاد والتضحية في سبيل العروبة والوحدة.

ومع هذا فلا نرى محلاً للتشاؤم. لأن الفرحة العظمى التي غمرت جميع العرب في جميع اجزاء وطنهم الكبير بالخطوة المباركة التي تمت وانبثق منها الجمهورية العربية المتحدة، والتأييد العظيم الشامل الذي قوبلت به ينطوي على أعظم أسباب التفاؤل بما يدل عليه من دلالة عظمى على ما وصل إليه الوعي القومي من قوة، والرغبة العربية العامة في الوحدة من شمول، وعلى ما يعلقه العرب على هذه الخطوة من آمال جسام في استكمال اسباب الوحدة التي فيها قوتهم وعزهم ومجدهم وازدهار بلادهم وتطهير أرضهم المقدسة من رجس المستعمرين والغاصبين. وكل هذا يغلب بدون ريب أسباب التشاؤم التي لا تعبر إلّا عن مآرب شخصية لن يكتب لها بإذن الله نجاح ولا دوام. وقد قال الله عز وجلّ «كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما

الزبد فيذهب جُفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض» وقال «ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار. يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء».

نسجل أن هذا قد تحقق في ١٤ تموز ١٩٥٨ حينما قام الجيش العراقي الباسل بانقلابه الناجح الذي سيطر به على الحكم في العراق وقتل الملك فيصل وخاله عبد الإله ونوري السعيد وأعلن إلغاء الاتحاد الهاشمي الذي وصفه بأنه إنما كان لحماية العروش وليس لمصلحة القومية العربية. فكان ذلك معجزة قومية عظمى قوبلت بأعظم مظاهر الحماس والابتهاج في العراق ومصر وسورية وبلاد العرب اجمع كما قوبلت في الدوائر السياسية بالدهشة والذهول وإذا كان انحراف عبد الكريم قاسم أحد القواد الذين قادوا حركة الانقلاب قد عكر هذاالنصر وما أثاره من فرحة عربية كبرى فقد كانت حركة ٨ شباط ١٩٦٣ التي اطاحت بعهد هذا المنحرف معيدة إلى النفوس أملها وفرحتها، وقد شرحنا ذلك في تعليق آخر فلا نرى ضرورة للاعادة.

هذا، ولقد دعونا في أحد فصول الكتاب إلى انشاء جهاز قومي على مستوى عال ليبذل جهوده في تقريب وجهات النظر وازالة العوائق والعقبات والتغلب على الاعتبارات المتنوعة بين حكام العرب تيسيراً للوحدةالعربية. ونعتقد أن ضرورة هذا الجهاز مستمرة بل لعلها الآن أشد منها من قبل، كما أن امكان نجاح جهودها أقوى منها من قبل أيضاً بعد أن دخلت حركة الوحدة والاتحاد في حيز الواقع والنفاذ. ولهذا فإننا نؤكد دعوتنا إلى ذلك ونرى أن الواجب القومي يقضي باشتداد الدعوة اليه.

مراجع الكتاب

القرآن الكريم

أسفار العهد القديم والجديد

العصور القديمة — برستد ترجمة قربان

تاريخ العرب قبل الإسلام — جواد علي ـ جزآن

تاريخ العرب قبل الإسلام — جرجي زيدان

قلب جزيرة العرب — فؤاد حمزه

جزيرة العرب في القرن العشرين — حافظ وهبه

جغرافية البلاد العربية — بسام كرد علي ورفقاه

جغرافية الشرق الأدنى — وصفي عنبتاوي وسعيد الصباغ

الجغرافية الاقليمية لبلاد العرب — داود صليبا وعزة النص

الشرق الأوسط — البكباشي عبد الرحمن زكي

السياسة الاستراتيجية في الشرق الأوسط — حسين فوزي النجار

تاريخ ابن خلدون

تاريخ الطبري

أبو الفداء

سيرة ابن هشام

طبقات ابن سعد

فتوح البلدان — البلاذري

مروج الذهب — المسعودي

نفح الطيب — المقّري

صبح الأعشى — القلقشندي

بدائع الزهور ووقائع الدهور	ابن اياس
تاريخ اليعقوبي	
العقد الفريد	ابن عبد ربه
الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل	محيي الدين الحنبلي
تاريخ اللغة السامية	اسرائيل ولنغستون
المفصل في اللغة السريانية وآدابها	عطية الأبراشي
الأساس في اللغات السامية والأمم السامية	عطية الأبراشي
مقال في العبرانيين	المطران الدبس
تاريخ سورية الكبير	المطران الدبس
لبنان	لجنة من الأدباء
الأثر الجليل لقدماء وادي النيل	أحمد نجيب
تاريخ مصر قبل الفتح وبعده	سفيدج والاسكندري
الحضارة المصرية	لغوستاف لوبون
تاريخ السودان القديم	الدكتور حسن كمال
تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته	نعيم شقر
مذكرات أحمد عرابي الموسومة بكشف الأستار عن سرر الأسرار في النهضة المصرية والثورة العرابية	أحمد عرابي
البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب	المقريزي
مصطفى كامل	عبد الرحمن الرافعي
ثورة مصر	عبد الرحمن الرافعي
تاريخ احتلال مصر والسودان	عبد الرحمن الرافعي
عصر اسماعيل	عبد الرحمن الرافعي
تاريخ الحركة القومية	عبد الرحمن الرافعي
في أعقاب الثورة	عبد الرحمن الرافعي
مجموعة الوثائق السياسية (المصرية)	راشد البراوي
الكتاب الأخضر (محاضر ومباحثات مصر وانكلترا ووثائق المعاهدات)	وزارة الخارجية المصرية
تاريخ العراق	العزاوي
مقدرات العراق السياسية	محمد طاهر العمري
تاريخ الوزارات العراقية	الحسني
تاريخ كلده وآشور	دي شير
تاريخ الكويت	عبد العزيز رشيد

تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان	السالمي
تاريخ اليمن	عمارة اليمني
خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام	ابن رحلان
تاريخ حضرموت السياسي	صلاح الدين البكري
هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن	أحمد بن فضل العبدلي
تاريخ الأندلس	عبد الله عنان
تاريخ الجزائر العام	العكاك
تاريخ الجزائر	المدني
خلاصة تاريخ تونس	حسن حسني عبد الوهاب
تاريخ طرابلس الغرب	محمد بن غليون
الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى	السلاوي
هذه تونس	منشورات اللجنة المغربية
مجموعة رسائل عن مراكش	منشورات اللجنة المغربية
تاريخ شرق الأردن	ترجمة طوقان
الكتاب الأبيض الأردني عن سورية الكبرى	
الكتاب الأبيض السوري عن سورية الكبرى	
مذكرات الملك عبد الله	
الكتاب الأسود الأردني	
عصر النبي وبيئته قبل البعثة	محمد عزة دروزة
سيرة الرسول	محمد عزة دروزة
تاريخ التمدن الاسلامي	جرجي زيدان
الحضارة الاسلامية	ترجمة أبي ريدة
الحضارة الاسلامية	الحسامي ورفقاه
عمرو بن العاص	الدكتور حسن ابراهيم
صلاح الدين الأيوبي	الدكتور أحمد البيلي
الحروب الصليبية	رفيق التميمي
يقظة العرب	انطونيوس ترجمة الركابي
حول الحركة العربية	محمد عزة دروزة
مشاكل العالم العربي	محمد عزة دروزة
الثورة العربية الكبرى	أمين سعيد
محاضرات في نشوء الفكرة القومية	ساطع الحصري
العروبة بين دعاتها ومعارضيها	ساطع الحصري
نحو عروبة متحررة	المحامي طاهر الخياط

الأهداف القومية والدولية للجامعة العربية	برهان غزالي ورفقاه
الوثائق والمعاهدات العربية	منشورات جريدة الأيام
مجموعة المعاهدات والوثائق التاريخية العربية	توفيق جانا
تاريخ القرون الوسطى	محمود عابدين
تاريخ العصر التاسع عشر	محمد قاسم
الوحدة الطليانية	ترجمة طه الهاشمي
محاضرة في الوحدة الطليانية	الدكتور صبري
تاريخ الشعب الأميركي	فرحات زيادة
الولايات المتحدة الأميركية	من منشورات وزارة الخارجية الأميركية
الدستور الأميركي	
ملامح الهند وباكستان	محمد عبد المنعم الشرقاوي
الدستور الهندي	
دستور الاتحاد السوفييتي	
الفدرال (نظام الاتحاد السويسري)	الدكتوربديع شريف

محاضر مجلس الجامعة العربية مع محاضر المشاورات١٩٤٣ ـ ١٩٥٣ مايس

مجموعة تقارير مكتب المقاطعة الرئيسي	١٩٥١ ـ ١٩٥٣
مجموعة نشرات مؤسسة اللاجئين السورية	١٩٥٢ ـ ١٩٥٥
مجموعة جريدة الأهرام المصرية	١٩٥٣ ـ ١٩٥٧
مجموعة جريدة النصر الدمشقية	١٩٥٣ ـ ١٩٥٧
مجموعة جريدة الحياة البيروتية	١٩٥٣ ـ ١٩٥٧
مجموعة جريدة الرأي الأردنية	١٩٥٣ ـ ١٩٥٧
مجموعة مجلة آخر ساعة	١٩٥٣ ـ ١٩٥٥
مجموعة مجلة المصور	١٩٥٣ ـ ١٩٥٥

حولية الثقافة لساطع الحصري الأولى ـ إلى الرابعة

هوامش الفصل السابع

(١) كتب هذا الكتاب لأول مرة في خريف عام ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤ م، ثم أعيد النظر فيه لآخر مرة في خريف عام ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م.

(٢) بسام كرد علي [وآخرون]، جغرافية البلاد العربية.

(٣) المصدر نفسه. لم نذكر جبال العراق، لأنها ليست متصلة بهذا الاطار، مع التنبيه على أن منطقتي العراق الشمالية والشمالية الشرقية، هما منطقتان جبليتان، يصل ارتفاع بعض الجبال فيها إلى ٢٥٠٠ متر.

(٤) منهم في سورية نحو ٣٥٠٠٠٠٠، والأردن نحو ١٥٠٠٠٠٠، ولبنان ١٥٠٠٠٠٠.

(٥) هذا توزيعهم التقريبي بالملايين: مصر ٢٢,٥، السودان ١٠، جزيرة العرب ١٢، العراق ٤,٥، سورية ٣,٥، الأردن ١,٥، لبنان ١,٥، ليبيا ١، تونس ٣,٥، الجزائر ٩، ومراكش ٩.

(٦) هي جامعات القاهرة والاسكندرية وعين شمس وأسيوط والأزهر والجامعة الأميركية في مصر، والجامعات الأميركية والافرنسية والوطنية الرسمية في بيروت، والجامعة السورية في دمشق والجامعة العراقية في بغداد.

(٧) كان في مصر سنة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ مليونان وربع، وفي سورية ٣٦٤٠٠٠، وفي العراق ٢٩١٠٠٠، وفي لبنان ٢٣٠٠٠٠، وفي الأردن ١٠٠٠٠٠ طالب وطالبة وقدرنا الباقي للباقي. وفي مصر نحو ٧٥٠٠٠ طالب وطالبة في الجامعات الخمس، وفي سورية نحو ٦٠٠٠، وفي بيروت نحو ٦٠٠٠، وفي العراق نحو ٤٠٠٠.

(٨) كان الدخل القومي في مصر سنة ١٩٥٤ نحو ١٠٠٠ مليون جنيه مصري، وفي العراق ٢٠٠، وفي سورية ١٣٠، وفي لبنان ١٢٠، وفي الأردن ٣٠، وفي السعودية ١٤٠ وقدرنا الباقي للباقي. وفي أرقام العراق والسعودية والكويت دخل النفط الذي هو بالتوالي نحو ٦٥ و ٧٥ و ٥٥ ولم ندخل الدخل العائد للمستوطنين الافرنسيين والاسبان في اقطار المغرب الثلاثة في الحساب. هذه الأرقام زادت زيادة كبيرة بين سنتي ١٩٥٤ و ١٩٦٣ حتى تضاعفت في أكثر الأقطار.

(٩) كانت ميزانية مصر سنة ١٩٥٤ نحو ٣٦٠ مليون جنيه، والعراق ٩٥، وسورية ٣٥، والأردن ١٥، والسعودية ١٢٠ والباقي للباقي. وفي رقم العراق والسعودية يدخل مورد النفط. وفي رقم الأردن اعانة الجيش التي تأتي من الخارج. وقد ازدادت كل هذه الأرقام سنة بعد أخرى في السنين الثلاث التالية ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧، فغدا عدد طلاب مصر سنة ١٩٥٧ ٢٧٥٠٠٠٠، وطلاب جامعاتها ٩٥٠٠٠، وميزانيتها ٣٠٠ مليون جنيه، ودخلها القومي مليار وثلاثمائة مليون جنيه. وغدا عدد طلاب سورية نحو ٤٠٠٠٠٠، وطلاب جامعتها ٨٠٠٠، وميزانيتها ٤٥ مليون جنيه، ودخلها القومي ١٥٠ مليون جنيه؛ وشأن السعودية والعراق ولبنان كذلك. وقد ازدادت هذه الأرقام زيادة كبيرة بين سنتي ١٩٥٧ ـ ١٩٦٣ أيضاً.

(١٠) اللغة العبرانية التي هي لغة اسفار العهد القديم، واللغة السريانية الآرامية التي هي لغة اسفار العهد الجديد، هما من اللهجات العربية القديمة، التي سميت خطأ باسم اللغات أو اللهجات السامية.

(١١) نشرت جريدة الرأي العام الدمشقية في عددها تاريخ ٥ آذار ١٩٥٧، تصريحاً أدلى به الملك سعود إلى عبد الله اليافي أحد رؤساء الحكومة في لبنان، جاء فيه توكيد بأن قاعدة الظهران لن تستخدم لأغراض حربية مطلقاً، بل لأغراض تجارية بحتة ولن يسمح باستخدامها لأي غرض عسكري. وفي هذا التصريح توضيح قوي لصفة المطار الذي تستأجره الولايات المتحدة.

(١٢) من مراجع هذا الفصل، أنظر: فؤاد حمزة، **قلب جزيرة العرب**؛ حافظ وهبه، **جزيرة العرب في القرن العشرين**؛ كرد علي [وآخرون]، **جغرافية البلاد العربية**؛ وصفي عنبتاوي وسعيد الصباغ، **جغرافية الشرق الأدنى**؛ داود صليب وعزة العنص، **الجغرافية الاقليمية لبلاد العرب**؛ البكباشي عبد الرحمن زكي، **الشرق الأوسط**، وحسين فوزي النجار، **السياسة الاستراتيجية في الشرق الأوسط**.

(١٣) إن تسمية الأقوام التي تنتسب إلى جزيرة العرب بالأقوام السامية ابتكرها المستشرق النمساوي شلوزر سنة ١٧٨١م، استناداً إلى الأنساب الواردة في سفر التكوين، وليس لها سند من تاريخ وعلم وآثار صحيحة. والتسمية الصحيحة التي لها سند من كل ذلك هي «الأقوام العربية». فإن جزيرة العرب مقر هذه الأقوام أخذت تذكر باسم العروبة في كتب اليونان والرومان القديمة منذ ألفين وخمسمائة سنة، واسم العرب الصريح أخذ يطلق على أهلها المستقرين في داخلها، أوعلى تخومها الشمالية جزئياً أو كلياً، منذ ألفين وخمسمائة سنة كذلك، على ما تدل عليه النقوش الآشورية ونصوص أسفار العهد القديم. واللغة التي تكلم بها سكان الجزيرة والبلاد المتاخمة لها منذ ألفين وخمسمائة سنة هي اللغة العربية، بقطع النظر عن تعدد اللهجات وبعد هذا قليلاً، أو كثيراً عن اللغة العربية على ما تدل عليه نقوش وأسماء وأعلام السبئيين والحميريين والأنباط الذين برزوا في مجال الحضارة والحكم داخل الجزيرة وخارجها قبل الميلاد المسيحي وامتد إلى بعده. فإطلاق تعبير الأقوام العربية على سكان جزيرة العرب والبلاد المجاورة لها أصبح علمياً وتاريخياً وواقعياً من تعبير «الأقوام السامية» على ما هو المتبادر، لأنه يمتد في سنده إلى حقبة سحيقة في القدم، ويتصل بالواقع الراهن. وقد قال بهذا باحثون عديدون، منهم الدكتور جواد علي في كتابه: تاريخ العرب قبل الإسلام، وعطية الأبراشي في كتاب: الأساس في الأمم السامية ولغاتها.

(١٤) سنشرح هذا التعبير فيما بعد.

(١٥) هذه الأسماء وغيرها وردت في نقوش الملوك الآشوريين شلمانصر الثالث وتفلات بلاسر الثاني وسنحريب وأسرحدون وآشور بانيبال الذين حكموا بين القرن التاسع والقرن السابع قبل الميلاد. انظر: جرجي زيدان، تاريخ العرب قبل الإسلام؛ علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ٢، ٣، و ٤؛ أدي شير، تاريخ كلدو وآشور، ج ١، وجميل المدور، تاريخ بابل وآشور مثلاً.

(١٦) انظر مثلاً: زيدان، المصدر نفسه، وكتب صبح الأعشى، والعقد الفريد، والمبتدأ والخبر لابن خلدون، وطبقات ابن سعد.

(١٧) زيدان، المصدر نفسه، والكتب المذكورة آنفاً.

(١٨) الموحدون والمرينيون هم ملوك مراكش وكان سلطانهم يمتد إلى الجزائر وتونس والأندلس أحياناً والزبانيون ملوك اقليم الجزائر وكانت عاصمتهم تلمسان.

(١٩) المرابطون هم ملوك مراكش وقد امتد سلطانهم إلى الجزائر والأندلس. والباديسيون والحماديون ملوك اقليمي تونس والجزائر.

(٢٠) تاريخ ابن خلدون، وصبح الأعشى للقلقشندي، ونفح الطيب للمقري، والدولة المصرية للسان الدين الخطيب، والاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي، وتاريخ الجزائر العام للعكاك، وتاريخ الجزائر للمدني.

(٢١) ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً...﴾، القرآن الكريم، «سورة الرعد،» الآية ٣٧.

(٢٢) ﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً...﴾، المصدر نفسه، «سورة طه،» الآية ١١٣.

(٢٣) عددهم في مصر نحو ٧٠٠٠٠، وفي ليبيا ٥٠٠٠٠، وفي تونس ٢٥٠٠٠٠، وفي الجزائر ١٠٠٠٠٠، وفي مراكش ٤٠٠٠٠٠، ولعل عددهم في بلاد الشام والعراق لا يزيد عن عشرة آلاف إن لم ينقصوا.

(٢٤) منهم نحو ٦٠٠٠٠ في مصر، و ٢٠٠٠٠٠ في شمال افريقية والباقون في بلاد الشام والعراق واليمن.

(٢٥) انظر نصوص هذه النقوش في: شير، تاريخ كلدو وآشور، ج ١؛ المدور، تاريخ بابل وآشور؛ زيدان، تاريخ العرب قبل الإسلام، وعلي، تاريخ العرب قبل الإسلام.

(٢٦) من مراجع هذا البحث انظر: الأبراشي، الأساس في الأمم السامية ولغاتها؛ اسرائيل ولنغستون، تاريخ اللغات السامية؛ علي، المصدر نفسه؛ زيدان، المصدر نفسه؛ طبقات ابن سعد؛ القلقشندي، صبح الأعشى؛ تاريخ ابن خلدون؛ العقد الفريد، الاسكندري وسفيدج، تاريخ مصر قبل الفتح وبعده؛ فيليب خوري

حتي، تاريخ العرب؛ شير، المصدر نفسه؛ نعوم شقير، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها؛ أحمد نجيب، الأثر الجليل لسكان وادي النيل؛ حسن كمال، تاريخ السودان العام؛ غوستاف لوبون، الحضارة المصرية؛ الخطيب، الدولة المصرية؛ عبد الله عنان، تاريخ الأندلس؛ تاريخ الطبري؛ العكاك، تاريخ الجزائر العام؛ المدني، تاريخ الجزائر؛ المقري، نفح الطيب؛ السلاوي،الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى؛ جمس هنري بريستيد، تاريخ مصر في أقدم العصور؛ أحمد كمال، العقد الثمين، وشاروبيم، الكافي.

(٢٧) زيدان، تاريخ العرب قبل الإسلام.

(٢٨) ولنغستون، تاريخ اللغات السامية.

(٢٩) لقد حقق الله، وله الحمد، كثيراً من الأمل قبل طبع الكتاب، حيث اضطرت فرنسة إلى الاعتراف باستقلال وسيادة مراكش وتونس، وقامت فيهما حكومتان وطنيتان، تضطلعان بصورة فعلية بشؤون الحكم والتعليم وغير ذلك.

(٣٠) من مراجع هذا البحث: الأبراشي، الأساس في الأمم السامية ولغاتها؛ ولنغستون، تاريخ اللغات السامية؛ المفصل في اللغة السريانية وآدابها، ومحمد عزة دروزة، عصر النبي وبيئته قبل البعثة.

(٣١) علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١ و٢.

(٣٢) المصدر نفسه، ج ٢، وزيدان، تاريخ العرب قبل الإسلام.

(٣٣) انظر مثلاً: بريستيد، تاريخ مصر من أقدم العصور؛ أحمد كمال، العقد الثمين، وشاروبيم، الكافي، ج ١.

(٣٤) المدور، تاريخ بابل وآشور.

(٣٥) الاسكندري وسفيدج، تاريخ مصر قبل الفتح وبعده، ج ١، وشير، تاريخ كلدو وآشور، ج ١.

(٣٦) انظر مثلاً: القرآن الكريم، «سورة آل عمران،» الآيات ١٠٣ - ١١٠؛ «سورة النساء،» الآية ٥٨؛ «سورة الحج،» الآيات ٣٨ - ٤١، و«سورة النور،» الآية ٥٥.

(٣٧) انظر مثلاً: القرآن الكريم، «سورة البقرة،» الآية ٢٥٢؛ «سورة آل عمران،» الآيات ١٩ - ٢٤؛ «سورة النساء،» الآية ١٥٤؛ «سورة المائدة،» الآيات ١٢ - ١٩ و٧١؛ «سورة الأنعام،» الآيات ١٥٥ - ١٥٧، و«سورة فاطر،» الآيتان ٤٢ و٤٣.

(٣٨) انظر مثلاً: المصدر نفسه، «سورة آل عمران،» الآيات ١٠١ - ١١٠؛ «سورة الحج،» الآيتان ٤١ و٧٨، و«سورة النور،» الآية ٥٥.

(٣٩) من مراجع هذا الفصل: علي، تاريخ العرب قبل الإسلام؛ زيدان، تاريخ العرب قبل الإسلام؛ الاسكندري وسفيدج، تاريخ مصر قبل الفتح وبعده؛ شير، تاريخ كلدو وآشور؛ المدور، تاريخ بابل وآشور؛ عنان، تاريخ الأندلس؛ تاريخ البصري؛ تاريخ أبي الفداء؛ تاريخ ابن اياس؛ الدبس، تاريخ سورية؛ رفيق التميمي، الحروب الصليبية؛ سيرة ابن هشام؛ سيد علي، تاريخ الدولة العثمانية، والرافعي، تاريخ الحركة القومية.

(٤٠) انظر مثلاً: القرآن الكريم، «سورة آل عمران،» الآيات ١٠٢ - ١٠٧؛ «سورة الأنفال،» الآية ٤٦، و«سورة الحجرات،» الآيتان ٩ و١٠.

(٤١) اعتبرنا نصارى مصر الكتلة الكبرى، بقطع النظر عن صفة المذهب، ولذلك وصفنا الارثوذكس بأنهم الكتلة الثانية في العدد. وعدد المقيمين في بلاد الشام يزيد عن نصف مليون.

(٤٢) من مراجع هذا البحث: محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج ٢؛ الرافعي، تاريخ الحركة القومية؛ عصر اسماعيل، والاحتلال الانكليزي.

(٤٣) مراجع هذا البحث هي مراجع بحث الوحدة التاريخية والسياسية السابقة.

(٤٤) حسين فوزي، السياسة الاستراتيجية في الشرق الأوسط.

(٤٥) ج ١، ص ٢١٧.
(٤٦) ج ٣، ص ٤٦٠ - ٤٧٤.
(٤٧) وسطاً تأتي بمعنى الخيار والعدول، وقد فسرها بعضهم بمعنى الواسطة بين الناس والمرشد لهم.
(٤٨) نص إلزام الأعضاء بقرار أكثرية الثلثين، يعد خطوة جديدة بالنسبة لما نص عليه ميثاق الجامعة، من أن قرار الأكثرية غير ملزم لمن لا يشترك فيه.
(٤٩) كتب هذا الفصل ودفع للمطبعة قبل تحقق الجمهورية العربية المتحدة، بوحدة سوريا ومصر، واستقبال الشعبين المصري والسوري الحماسي الرائع لها. وسيفرد لهذا ملحق خاص في آخر هذا الكتاب.
(٥٠) انظر نماذج عديدة لذلك في: ساطع الحصري، **العروبة بين دعاتها ومعارضيها**، ط٣، ص ٦ - ٦٨.
(٥١) كان علم الشريف حسين ثلاثة خطوط أفقية أخضر فأبيض فأسود، وعليها من جهة السارية مثلث أحمر، فظل هكذا في قرارات مؤتمري سورية والعراق في دمشق في ٨ آذار / مارس ١٩٢٠، مع زيادة نجمة خماسية بيضاء في المثلث الأحمر بالنسبة لسورية، ونجمتين بالنسبة للعراق. وظل علم العراق هكذا إلى الآن. ولما كان الأردن شامي الأصل، فإنه احتفظ بشكل العلم السوري الأول. ولما عقدت سورية مع فرنسة معاهدة الاستقلال، وقامت أول جمهورية مستقلة فيها عام ١٩٣٦، جعلت علمها بشكله الراهن الذي وضعت فيه ثلاث نجوم حمراء في لونه الأبيض، لأنه لم يعد في الامكان الرجوع إلى العلم السوري الأول الذي صار علم شرق الأردن. والألوان الأفقية في العلم العربي تمثل الدول الأموية والعباسية والفاطمية (والأبيض شارة الأمويين والأسود شارة العباسيين والأخضر شارة الفاطميين) واللون الأحمر يمثل امارة الحجاز الشريفة. وهكذا كان علم الثورة العربية، أو علم الشريف حسين يمثل أمجاد العرب بدولهم العظمى مع امارة أسرته.
(٥٢) من مراجع هذا البحث: محاضر جلسات الجامعة، ومجموعات: **الأهرام، والنصر، والحياة** للسنوات ١٩٤٨ - ١٩٥٧.
(٥٣) من مراجع هذا البحث: محاضر جلسات الجامعة العربية، ومجموعات: الأهرام، والحياة، والنصر للسنوات ١٩٥٠ - ١٩٥٧.
(٥٤) بحث «الوحدة العربية هدف مشاورات الجامعة العربية».
(٥٥) مما روي أن الملك اجتمع سراً مع حسني الزعيم في المفرق، قبل حركته بمدة قصيرة. وليس هذا مستبعداً، لأن الملك كان يسعى في الاتصال ببعض ضباط الجيش السوري في سنتي ١٩٤٦ و١٩٤٧، ويغريهم بالقيام بحركة انقلابية، على ما ذكرناه في المتن. وبالاضافة إلى هذا، فقد قال لي شخص كان مقرباً من حسني الزعيم، وتولى عملاً هاماً في عهده: ان حسني الزعيم كان على صلة وثيقة بالعراق، إبان إشغاله قيادة منطقة الجزيرة الفراتية.
(٥٦) بحث الاعتبارات الخاصة الافرنسية التي تجعلها تشتد في عرقلة الوحدة العربية.
(٥٧) ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليكم ﴾، **القرآن الكريم**، «سورة الحج،» الآية ٧٧. وفي حديث مأثور «إذا ذلت العرب ذل الإسلام».
(٥٨) وهو اليوم ١٩٥٦ - ١٩٥٧ نحو ٢٨٠٠٠٠٠.
(٥٩) مما أعلنه وزير التربية والتعليم بمصر ان هذا سيكون ميسوراً بالنسبة لمصر في سنة ٩١٦١، والراجح أن هذا سيكون ميسوراً كذلك بالنسبة لبلاد الشام والعراق في مثل هذه المدة على ما تدل عليه البوادر.
(٦٠) إن هذه الأرقام قفزت خلال سنتي ١٩٥٥ - ١٩٥٦ و١٩٥٦ - ١٩٥٧ الدراسيتين قفزات كبيرة أيضاً فصار عدد طلاب الجامعات المصرية بما فيها الأزهر في السنة الأخيرة نحو ٨٥٠٠٠، وصار عدد طلاب الجامعة السورية وحدها ٨٠٠٠ مثلاً.

(٦١) مراجع هذا البحث هي مراجع بحث الوحدة التاريخية والسياسية .

(٦٢) قد يرى البعض أن هذه النقطة إدارية لا تتحمل أن يكون لها في الميثاق محل . غير أن الشكوى مستمرة في صددها من اللجان وما أدت إليه من تعطيل الأعمال والمشاريع الكثيرة التي منها ما هو مهم وخطير على ما يستفاد من محاضر الجامعة جعلنا نراها جوهرية .

(٦٣) المادة الثامنة عشرة من الميثاق تنص على أن للمجلس أن يعتبر أي دولة لا تقوم بواجبات الميثاق منفصلة . والمتبادر لنا أن هذا شيء وفرض عقوبات على من لا ينفذ قرارات الجامعة شيء آخر.

(٦٤) المادة العاشرة من معاهدة الدفاع المشترك نصت على تعهد الدول المتعاقدة بعدم عقد أي اتفاق يناقض المعاهدة وبعدم سلوك أي دولة منها في علاقاتها الدولية مسلكاً يتنافى مع أغراضها، وهذا النص يدل على أن الذين وضعوا مواد المعاهدة لحظوا الثغرة التي لحظناها . غير أن هذا النص ضيق المدى ولا يغني فيما نعتقد عن اضافة نص إلى ميثاق الجامعة على النحو المقترح . ولقد قرر مجلس الجامعة بناء على توصية اللجنة السياسية في نيسان/ ابريل ١٩٥٠ فرض عقوبات على الدولة التي تعد منفصلة بسبب اقدامها على الصلح المنفرد مع اليهود مثل قطع العلاقات السياسية والقنصلية واغلاق الحدود ووقف العلاقات الاقتصادية والتجارية ومنع كل اتصال مالي وتعامل تجاري مباشرة أو بالواسطة، مما يدل على أن الثغرة بدت لمجلس الجامعة في ظرف من الظروف غير أن المجلس قد عالجها علاجاً ضيق المدى فضلاً عن أن القرار ليس له قوة الميثاق. والمقترح هو توسيع هذا المدى بحيث يكون شاملاً ونصاً من نصوص الميثاق ومن الممكن أن تكون العقوبات المذكورة مثالاً ومقتبساً.

(٦٥) النص منشور في الأهرام (آذار/ مارس ١٩٥٥).

(٦٦) يقول ارنولد ماكير في كتابه قانون المعاهدات، ان الرأي السائد بالنسبة للنتائج المترتبة على دخول دولة من الدول في اتحاد فدرالي، هو أن مصير المعاهدات التي تربط تلك الدولة، يعتمد على ما إذا كانت هذه الدولة تفقد شخصيتها الدولية، وقدرتها على ابرام المعاهدات؛ وعلى ما إذا كان دستور الدولة الاتحادية يعطي الدول الأعضاء حق ابرام المعاهدات منفردة . وفي هذا الكتاب نص تطبيقي لهذا الرأي، وهو أن التقرير المؤرخ في ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٨٥٧ الذي اعده مكتب محامي التاج البريطاني بالنسبة للمعاهدة المبرمة بين بريطانيا وجمهورية تكساس ومصيرها، بعد انضمام تكساس إلى الولايات المتحدة، يظهر أن وجهة نظر بريطانيا بالنسبة لانضمام دولة من الدول لاتحاد فدرالي من طراز الولايات المتحدة، هو أن هذا الانضمام يسقط تماماً سائر المعاهدات التي كانت ترتبط بها تلك الدولة. مجلة الرأي (الأردن)، عدد ٢٠ رمضان ١٣٧٣.

(٦٧) من الحق والواجب أن نسجل للتاريخ أن نقطة الانطلاق الأولى في هذا المضمار كانت قرار مجلس الوزراء السوري في ٧ تموز/ يوليو ١٩٥٦ الذي أقره مجلس النواب السوري بالاجماع على ما ذكرناه في أحد فصول الكتاب، وأن الجانب السوري هو الذي اقترح أن تكون العملية وحدة تصبح فيها الجمهوريتان جمهورية واحدة، مع إعلان استعداده للانسجام في التنظيم الذي تسير عليه مصر في نطاق اتحاد قومي بدلاً من الأحزاب، فكان ذلك نقطة انطلاق أخرى يسرت سير العملية إلى النهاية التي انتهت إليها.

(٦٨) من الحق والواجب أن ننوه في هذه المناسبة أيضاً بما بدا من قوة ايمان الرئيس القوتلي، وتساميه على كل اعتبار، وجهوده وتوجيهاته العظيمة، مما يسّر اتمام الخطوة المباركة على أوسع شكل، وأحكم أسلوب، فكان موقفه تاجاً مجيداً، كلل جهاده الطويل، وسجل اسمه في سجل الخالدين، ومثلاً رائعاً من أمثلة النبل والتجرد، لهج به العرب وغير العرب على اختلاف ميولهم. ولقد أشاد جمال عبد الناصر بموقف الرئيس القوتلي وكفاحه وايمانه وتساميه، يوم اعلان الميثاق، وقال: ان الجمهورية العربية هي النتيجة الكبرى لجهاده في سبيل الوحدة، وفي سبيل القومية العربية، وان الشعب العربي سوف يذكر على مر الزمن ما قام به. ولقد أشاد رئيس مجلس النواب السوري أكرم الحوراني في خطابه الافتتاحي في جلسة الأربعاء ٥ شباط/ فبراير بالرئيس القوتلي، وقال: انه الذي زكت نفسه التضحية، وملأ قلبه الايمان، وتوجت هامته سلسلة الأمجاد، وحمل آمالنا في الحرية والكرامة والاستقلال والجلاء، وجاء اليوم يحمل أمنيتنا في تحقيق وحدتنا؛ فاللهم اشهد أنه حقق الرسالة، وأدى الأمانة، فله

تقدير الوطن، ومشارف المجد وهامات الخلود. وفعل مثله مجلس النواب السوري في قراره التاريخي في اليوم نفسه فقال: إن المثل الرائع الذي ضربه السيد شكري القوتلي بصدق جهاده، وعمق إيمانه، وعظيم إيثاره، سيظل الهدى الذي تهتدي به أجيال الأمة العربية.

ثبت بمؤلفات الأستاذ محمد عزة دروزة المطبوعة وغير المطبوعة

١ . رواية تمثيلية «وفود النعمان على كسرى أنو شروان»، الطبعة الأولى مطبعة صبرا، بيروت ١٣٣١ - ١٩١١.

٢ . رواية تمثيلية «السمسار وصاحب الأرض»، ١٩١٣، مفقودة، مثلت في نابلس.

٣ . رواية تمثيلية «عبد الرحمن الداخل»، ١٩٢٣، مفقودة، مثلت في نابلس.

٤ . رواية تمثيلية «آخر ملوك العرب في الأندلس»، ١٩٢٥، مفقودة، مثلت في نابلس.

٥ . كتاب «مختصر تاريخ العرب والإسلام»، جزءان (٤٩٣ صفحة)، طبعة أولى وثانية وثالثة، المطبعة السلفية بمصر، ١٩٢٣ - ١٩٢٥.

٦ . كتاب «دروس في فن التربية»، «القسم النظري»، تأليف جبرائيل كومبايرة Gabriel Compayre بالافرنسية، ترجم ونشر ملحقاً بمجلة التربية والتعليم في بغداد ١٩٢٨ وجمع في كتاب (نحو ٢٣٢ صفحة).

٧ . دروس التاريخ القديم - خاص بالمبتدئين - (٢٠٣ صفحات).

الطبعة الأولى ١٣٥٠ - ١٩٣٢، المطبعة السلفية في القاهرة.

الطبعة الثانية والثالثة، ١٩٣٦، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، القدس.

٨ . دروس التاريخ المتوسط والحديث - للمدارس الابتدائية - الطبعة الأولى المطبعة السلفية، القاهرة.

الطبعة الثانية، مطبعة دار الأيتام الاسلامية، ١٣٤٩ - ١٩٣٣.

الطبعة الثالثة (٢٣٥ صفحة)، مطبعة الترقي بدمشق، ١٣٥٧ - ١٩٣٨، مكتبة المعرفة.

٩ . دروس التاريخ العربي - الطبعة الأولى، المطبعة السلفية، القاهرة.

طبعات متعددة، دار الأيتام الاسلامية في القدس.

الطبعة العاشرة، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٣٩، مكتبة عرفة بدمشق.

١٠ . «كتاب مفتوح إلى اللجنة المالية الانكليزية»، مطبعة دار الأيتام الاسلامية، القدس، ١٣٤٩ - ١٩٣١.

١١ . بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى، بالافرنسية تأليف جان بيشون، مُعرب عن التركية، ترجمة «حسين جاهد يالشين».
الطبعة الأولى، مطبعة الكشاف، بيروت ١٩٤٦ .
١٢ . تركيا الحديثة، مطبعة الكشاف، بيروت ١٣٦٥ ـ ١٩٤٦، الطبعة الأولى .
١٣ . عصر النبي (ص) وبيئته قبل البعثة .
الطبعة الأولى، مكتبة ومطبعة دار اليقظة بدمشق، ١٣٦٥ ـ ١٩٤٦ .
طبعة ثانية منقحة، (٨٤٧ صفحة)، مكتبة ومطبعة دار اليقظة، بيروت ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤ .
١٤ . سيرة الرسول (صلعم) صور مقتبسة من القرآن الكريم ـ جزءان ـ
الطبعة الأولى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ١٣٦٧ ـ ١٩٤٨ .
طبعة ثانية (٣٥٧ صفحة جزء أول، ٤٦٩ صفحة جزء ثاني)، المكتب التجاري، دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٥ .
طبعة ثالثة (٣٥١ صفحة جزء أول، ٤٧١ صفحة جزء ثاني)، «طبع على نفقة سمو أمير قطر بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية»، ١٤٠٠ هـ .
١٥ . القرآن والمرأة، الطبعة الأولى، (٦٤ صفحة)، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٥١ .
١٦ . القرآن والضمان الاجتماعي، الطبعة الأولى، (٣٤ صفحة)، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٥١ .
١٧ . القرآن واليهود، الطبعة الأولى بإشراف المرحوم الشيخ مصطفى السباعي صاحب مجلة الحضارة الإسلامية بدمشق، ١٣٦٧ ـ ١٩٤٩ .
١٨ . القرآن المجيد، الطبعة الأولى، (٣٠٥ صفحة)، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٥٢ .
١٩ . حول الحركة العربية الحديثة، ٦ أجزاء (١٧٠٠ صفحة)، الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ . الأجزاء ٣ ـ ٤ ـ ٥، طبعة ثانية، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٦١ .
٢٠ . القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، جزءان (حوالى ٨٥٠ صفحة)، الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٦١ .
الطبعة الثانية، المطبعة العصرية، صيدا .
الطبعة الثالثة، دار الجاحظ للطباعة بدمشق، ١٩٨٤ (على نفقة منظمة التحرير الفلسطينية دائرة الاعلام والثقافة).
٢١ . مشاكل العالم العربي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، (نال جائزة من الجامعة العربية) الطبعة الأولى، (٢٦٧ صفحة)، دار اليقظة العربية بدمشق، ١٩٥٢ .
٢٢ . الدستور القرآني في شؤون الحياة. (حوالى ١١٠٠ صفحة الجزءان).
جزء واحد، الطبعة الأولى، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٦ .
جزءان، الطبعة الثانية، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩ .
جزءان، الطبعة الثالثة، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٤٠١ ـ ١٩٨١ .

٢٣ . الوحدة العربية، (نال الجائزة التشجيعية من المجلس الأعلى للفنـون والآداب والعلوم الاجتماعية، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦١).
الطبعة الأولى، (٧١٠ صفحات)، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ١٣٧٦ - ١٩٥٧.

٢٤ . التفسير الحديث، ١٢ جزء، (٢٩٨٥ صفحة)، الطبعة الأولى، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣٨١ - ١٩٦١، ١٩٦٢، ١٩٦٣ (عيسى البابي الحلبي).

٢٥ . تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم، (٥٤٩ صفحة).
الطبعة الأولى، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر، ١٣٧٧ - ١٩٥٨.
الطبعة الثانية، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، ١٣٨٩ - ١٩٦٩.
طبعة شعبية، الدار القومية للطباعة والنشر، مطابع شركة الاعلانات الشرقية، كتاب اخترنا لك رقم ٨٣ - ٨٥ - ٨٧، ١٩٦٠ - ١٩٦١.

٢٦ . تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة، ٨ أجزاء، الطبعة الأولى، (٢٢٠٠ صفحة)، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٥٨ - ١٩٦٤.

٢٧ . العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي ، (٢٢٢٨ صفحة).
الطبعة الأولى، ٨ أجزاء، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٦٠ - ١٩٦١.
الطبعة الثانية، ٩ أجزاء، المكتبة العصرية، صيدا، ١٤٠١ - ١٩٨١.
(الجزء التاسع ١٤٠٣ - ١٩٨٣).

٢٨ . مأساة فلسطين (رسالة)، الطبعة الأولى، (١٣٢ صفحة)، دار اليقـظة العربيـة للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م.

٢٩ . فلسطين وجهاد الفلسطينيين ١٩١٧ - ١٩٤٨ (نشرته الهيئةالعربية العليا لفلسطين)، الطبعة الأولى (١٠٨ صفحة)، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٧٩ - ١٩٥٩.

٣٠ . عروبة مصر - قبل الإسلام وبعده - (١٩٥ صفحة).
الطبعة الأولى، دار «الكتب القومية»، القاهرة، مطابع الدار القومية، القاهرة، ١٩٦١. عدد ممتاز ٨١، ٨٩.
الطبعة الثانية، المطبعة العصرية، صيدا، ١٩٦٣.

٣١ . المرأة في القرآن والسنة (٢٥٩ صفحة).
الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٣٨٨ - ١٩٦٧.
الطبعة الثانية، المطبعة العصرية، صيدا، ١٣٩٧ - ١٩٧٦.
الطبعة الثالثة، المطبعة العصرية، صيدا، ١٤٠٠ - ١٩٨٠.

٣٢ . الاسلام والاشتراكية، (٢٥٠ صفحة).
الطبعة الأولى، المطبعة العصرية، صيدا، ١٣٨٨ - ١٩٦٨.

٣٣ . الجذور القديمة لأحداث بني اسرائيل واليهود وسلوكهم وأخلاقهم.
الطبعة الأولى، مكتبة أطلس، دمشق، ١٣٨٨ - ١٩٦٩.

٣٤ . قصة الغزو الصهيوني ، (٧٢ صفحة).
الطبعة الأولى، نشرته مجلة الوعي الإسلامي في الكويت ملحق لها، ١٩٧٠.
٣٥ . نشأة الحركة العربية الحديثة، (٥١٠ صفحات).
طبعة أولى، المكتبه العصرية، صيدا، ١٩٧١.
٣٦ . القرآن والمبشرون، (٤٦٣ صفحة).
طبعة أولى، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢.
طبعة ثالثة، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩.
٣٧ . القرآن والملحدون، (٤٢٧ صفحة).
طبعة أولى، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٩٣ ـ ١٩٧٣.
طبعة ثانية، دار قتيبة، دمشق، ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠.
٣٨ . الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث.
طبعة أولى، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥.
٣٩ . في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية ومن وحي النكبة، (٥٢٤ صفحة).
طبعة أولى، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٧٣.
٤٠ . عبرة من تاريخ فلسطين ، (١٢٠ صفحة).
طبعة أولى، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٧٨.
٤١ . العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث ومراحل الصراع؛ جزآن،
جزء ١ ـ ١٩٧٩ ـ (٢٥٢ صفحة).
جزء ٢ ـ ١٩٨٠ ـ (٢٩٠ صفحة).
طبعة أولى، دار الكلمة للنشر، بيروت.
٤٢ . صفحات مهملة ومغلوطة من سيرة القضية الفلسطينية وحركة المقاومة العربية فيها، (٧٥ صفحة).
طبعة أولى، المكتبة والمطبعة العصرية، صيدا، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠.
٤٣ . اليهود في القرآن الكريم، (١٤٦ صفحة).
طبعة أولى، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠.
طبعة ثانية، دار الجليل، دمشق، ١٩٨٣.
٤٤ . القواعد القرآنية والنبوية في تنظيم الصلات بين المسلمين وغير المسلمين، (١١٥ صفحة). طبعه أولى، دار الجليل، دمشق، ١٩٨٢.

غير مطبوعة

١ . في سبيل القضية الفلسطينية والوحدة العربية ومن وحي النكبة وسبيل معالجتها، الجزء الثاني.

٢ . خمسة وتسعون عاماً في الحياة، مذكرات وتسجيلات، ٢٠ جزءاً (تحت الطبع) حوالى ٦٠٠٠ صفحة.

٣ . مقالات صحفية في جريدة الحقيقة، بيروت، لصاحبها كمال عباس، ١٩٠٨ ـ ١٩١١.

٤ . رواية «روفائيل» مترجمة عن الافرنسية.

٥ . محاضرة «التقليد»، ألقيت في نادي جمعية الشبان المسيحيين (١٩٢٨).

٦ . دولة «الاثينيين» أرسطو، نقلها عن التركية باذن من مترجمها الأستاذ سعاد باي بورو، مطبوعة في أنقره، ١٩٤٣، مطبعة المعارف.

٧ . القواعد الاسلامية الدستورية في شؤون الحياة.

٨ . مجموعة مقالات سياسية نشرت في مجلات وصحف دمشق بعد ١٩٧٣ حول القضية الفلسطينية.

٩ . مجموعة مقالات اسلامية نشرت في مجلات اسلامية في الكويت ودمشق وعمان بعد ١٩٦٥.

١٠ . مجموعة مقالات «بأقلام الآخرين».

١١ . ١٤ محاضرة أدبية/ اجتماعية/ تاريخية تربوية كان يلقيها على طلاب مدرسة النجاح.

١٢ . مسودة رسالة وجيزة في الوحدة العربية (بناء على تكليف من وزارة الثقافة وافقت على طبعها وتأخرت طباعتها حتى قام الانفصال وبقيت محفوظة في الوزارة).

فهرس

(أ)

(ب)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ي)

- الهجرة الى النفط .. طبعة ثالثة (٢٤٠ ص ـ ٥ $) .... د. نادر فرجاني
- العرب وافريقيا... طبعة ثانية (٨٢٤ ص ـ ١٦.٥٠ $) .... ندوة فكرية
- الطاقة النووية العربية: عامل بقاء جديد... طبعة ثانية (١٥٦ ص ـ ٢ $) .... د. عدنان مصطفى
- الديمقراطية وحقوق الانسان في الوطن العربي... طبعة ثالثة
(سلسلة كتب المستقبل العربي (٤)) (٣٥٢ ص ـ ٧,٥٠ $) .... مجموعة من الباحثين
- الحياة الفكرية في المشرق العربي ١٨٩٠ ـ ١٩٣٩ (٢٣٦ ص ـ ٤,٥٠ $) .... اعداد مروان بحيري
- التحليل السياسي الناصري: دراسة في العقائد والسياسة الخارجية ... طبعة ثانية
(سلسلة اطروحات الدكتوراه (٣)) (٣٩٦ ص ـ ٨ $) .... د. محمد السيد سليم
- العمالة الأجنبية في أقطار الخليج العربي (٧١٢ ص ـ ١٤ $) .... ندوة فكرية
- انتقال العمالة العربية: المشاكل ـ الآثار ـ السياسات (٣١٢ ص ـ ٦ $) .... د. ابراهيم سعد الدين
ود. محمود عبد الفضيل
- جامعة الدول العربية: الواقع والطموح (١٠٠٤ ص ـ ٢٠ $) .... ندوة فكرية
- الصراع العربي ـ الاسرائيلي: بين الرادع التقليدي والرادع النووي (٢٤٨ ص ـ ٥ $) ... طبعة ثانية .... أمين حامد هويدي
- ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الأول: المؤلفون ـ القسم الأول: بالعربية
(١٠٦٠ ص ـ ٢١ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الأول: المؤلفون ـ
القسم الثاني: بالانكليزية والافرنسية (١٠٩٦ ص ـ ٢٢ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الثاني: العناوين
ـ القسم الأول: بالعربية (٤٠٠ ص ـ ٨ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الثاني: العناوين
ـ القسم الثاني: بالانكليزية والافرنسية (٣٦٨ ص ـ ٧,٥٠ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- ببليوغرافيا الوحدة العربية ١٩٠٨ ـ ١٩٨٠ ـ المجلد الثالث:
الموضوعات (ثلاثة اقسام) (٢٢٧٢ ص ـ ٦٥ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية
- النظام الاقليمي العربي... طبعة خامسة جديدة ومطورة (٣٢٤ ص ـ ٦,٥٠ $) .... جميل مطر ود. علي الدين هلال
- التطور التاريخي للأنظمة النقدية في الأقطار العربية... طبعة ثالثة (٤٧٢ ص ـ ٩,٥٠ $) .... د. عبد المنعم السيد علي
- مصر والعروبة وثورة يوليو (سلسلة كتب المستقبل العربي (٣)) (٤٠٠ ص ـ ٨ $) .... مجموعة من الباحثين
- الفكر الاقتصادي العربي وقضايا التحرر والتنمية والوحدة... طبعة ثانية (٢٤٨ ص ـ ٥ $) .... د. محمود عبد الفضيل
- المواصلات في الوطن العربي... طبعة ثانية (٤٠٤ ص ـ ٨ $) .... ندوة فكرية
- السياسة الامريكية والعرب... طبعة ثانية مزيدة ومنقحة (سلسلة كتب المستقبل العربي (٢))
(٣٦٨ ص ـ ٧,٥٠ $) .... مجموعة من الباحثين
- دراسات في التنمية والتكامل الاقتصادي العربي... طبعة ثالثة
(سلسلة كتب المستقبل العربي (١)) (٤٧٦ ص ـ ٩,٥٠ $) .... مجموعة من الباحثين
- التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية... طبعة ثانية (٥٢٨ ص ـ ١٠,٥٠ $) .... ندوة فكرية
- المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية... طبعة ثانية (٥٥٦ ص ـ ١١ $) .... ندوة فكرية
- الامكانات العربية... طبعة ثانية (١٣٦ ص ـ ٣ $) .... د. علي نصار
- صور المستقبل العربي... طبعة ثانية (٢١٢ ص ـ ٤ $) .... د. ابراهيم سعد الدين وآخرون
- النظام الاجتماعي العربي الجديد... طبعة ثالثة (٣٠٤ ص ـ ٦ $) .... د. سعد الدين ابراهيم
- تجربة دولة الامارات العربية المتحدة... طبعة ثالثة (٨١٦ ص ـ ١٦,٥٠ $) .... ندوة فكرية
- التصور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠ ... طبعة ثالثة
(سلسلة اطروحات الدكتوراه (٢)) (٤١٦ ص ـ ٨,٥٠ $) .... د. مارلين نصر
- البعد التكنولوجي للوحدة العربية... طبعة ثالثة (١١٦ ص ـ ٢,٥٠ $) .... د. انطوان زحلان
- القومية العربية والاسلام... طبعة ثانية (٧٨٠ ص ـ ١٥,٥٠ $) .... ندوة فكرية
- التكامل النقدي العربي: المبررات ـ المشاكل ـ الوسائل... طبعة ثالثة (٧٤٠ ص ـ ١٥ $) .... ندوة فكرية
- سلسلة التراث القومي: الأعمال القومية لساطع الحصري /٣ مجلدات
(٣١٢٤ ص ـ ٦٢,٥٠ $) ....
- مجلة المستقبل العربي: المجلدات السنوية ٩ سنوات (ثمن مجلات السنة الواحدة ٤٠ $) .... مركز دراسات الوحدة العربية

سلاسل الناشئة

- سلسلة «ربوع بلادي»، ٨ اجزاء... طبعة ثانية (دولار واحد لكل جزء) .... شريف الراس
- سلسلة «فتى العرب» ٧ اجزاء... طبعة ثانية (دولار واحد لكل جزء) .... شريف الراس

- الوطن العربي: الجغرافية الطبيعية والبشرية (٣) (١٨٤ ص ـ ٢ $) .... ناجي علوش
- جامعة الدول العربية ١٩٤٥ ـ ١٩٨٥: دراسة تاريخية (٤) (١٢٨ ص ـ ١,٥٠ $) .... احمد فارس عبد المنعم
- الجماعة الاوروبية: تجربة التكامل والوحدة (٥) (٢٨٨ ص ـ ٣ $) .... د. عبد المنعم سعيد
- التعريب والقومية العربية في المغرب العربي (٦) (٢٠٠ ص ـ ٢ $) .... د. نازلي معوض أحمد
- الوحدة النقدية العربية (٧) (١٦٨ ص ـ ١,٥٠ $) .... د. عبد المنعم السيد علي
- اوروبا والوطن العربي (سلسلة الثقافة القومية (٨)) (٣٦٨ ص ـ ٣,٥٠ $) .... د. نادية محمود محمد مصطفى
- المثقفون والبحث عن مسار: دور المثقفين في اقطار الخليج العربية في التنمية (٩) (٢٤٤ ص ـ ٢,٥٠ $) .... د. اسامة عبد الرحمن
- نحو عقد اجتماعي عربي جديد: بحث في الشرعية الدستورية (١٠) (١٠٨ ص ـ دولار واحد) .... د. غسان سلامة
- السياسة الامريكية تجاه الصراع العربي ـ الاسرائيلي ١٩٧٣ ـ ١٩٧٥ (١١) (١٤٤ ص ـ ١,٥٠ $) .... د. محمد الاطرش
- معوقات العمل العربي المشترك (١٢) (١٥٦ ص ـ ٢ $) .... د. وليد عبد الحي
- رحّل في ارض العرب: عن الهجرة للعمل في الوطن العربي (١٣) (١١٦ ص ـ ١,٥٠ $) .... د. نادر فرجاني
- التجزئة العربية كيف تحققت تاريخياً؟ (سلسلة الثقافة القومية (١٤)) (٣٢٤ ص ـ ٤ $)) .... د. احمد طربين

- موقف فرنسا والمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ ـ ١٩٤٥ (١) (٥٤٠ ص ـ ١١ $) .... د. علي محافظة
- تطور الوعي القومي في المغرب العربي (سلسلة كتب المستقبل العربي (٨)) (٣٦٠ ص ـ ٧ $) .... مجموعة من الباحثين
- الوحدة الاقتصادية العربية: تجاربها وتوقعاتها (جزءان)، (١٢٩٦ ص ـ تجليد عادي ٢٦ $/ تجليد فني ٣٠ $) .... د. محمد لبيب شقير
- تطور الفكر القومي العربي (٤٠٨ ص ـ ٨ $) .... ندوة فكرية
- نحو علم اجتماع عربي: علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة، (سلسلة كتب المستقبل العربي (٧) (٤٠٨ ص ـ ٨ $) .... مجموعة من الباحثين
- تهيئة الانسان العربي للعطاء العلمي (٥٤٨ ص ـ ١١ $) .... ندوة فكرية
- التصحر في الوطن العربي (١٧٦ ص ـ ٣,٥٠ $) .... د. محمد رضوان الخولي
- كيف يصنع القرار في الوطن العربي (٢٦٠ ص ـ ٥ $) .... د. ابراهيم سعد الدين وآخرون
- صناعة الانشاءات العربية (٣٩٢ ص ـ ٨ $) .... د. انطوان زحلان
- التراث وتحديات العصر في الوطن العربي: الاصالة والمعاصرة (٨٧٢ ص ـ ١٧,٥٠ $) ... طبعة ثانية .... ندوة فكرية
- السياسات التكنولوجية في الأقطار العربية (٥٢٨ ص ـ ١٠,٥٠ $) .... ندوة فكرية
- الفلسفة في الوطن العربي المعاصر (٣٣٦ ص ـ ٦,٥٠ $) ... طبعة ثانية .... ندوة فكرية
- نحو استراتيجية بديلة للتنمية الشاملة... طبعة ثانية (١٩٦ ص ـ ٤ $) .... د. علي خليفة الكواري
- الاعلام العربي المشترك: دراسة في الاعلام الدولي العربي... طبعة ثانية (١٦٤ ص ـ ٣,٥٠ $) .... د. راسم محمد الجمال
- صورة العرب في صحافة المانيا الاتحادية... طبعة ثانية (سلسلة اطروحات الدكتوراه (٨)) (٢٢٠ ص ـ ٤,٥٠ $) .... د. سامي مسلّم
- ازمة الديمقراطية في الوطن العربي (٩٢٨ ص ـ ١٨,٥٠ $) ... طبعة ثانية .... ندوة فكرية
- التنمية العربية: الواقع الراهن والمستقبل.. طبعة ثانية، (سلسلة كتب المستقبل العربي (٦)) (٣٦٠ ص ـ ٧ $) .... مجموعة من الباحثين
- التكوين التاريخي للامة العربية: دراسة في الهوية والوعي... طبعة ثالثة (٣٣٦ ص ـ ٦,٥٠ $) .... د. عبد العزيز الدوري
- دراسات في القومية العربية والوحدة (سلسلة كتب المستقبل العربي (٥)) (٢٨٤ ص ـ ٧,٥٠ $) .... مجموعة من الباحثين
- الثروة المعدنية العربية: امكانات التنمية في اطار وحدوي... طبعة ثانية (١٥٢ ص ـ ٣ $) .... د. محمد رضا محرم
- البحر الاحمر والصراع العربي ـ الاسرائيلي: التنافس بين استراتيجيتين، طبعة ثانية (سلسلة اطروحات الدكتوراه (٧)) (٣٦٠ ص ـ ٧ $) .... د. عبد الله عبد المحسن السلطان
- التعاون الانمائي بين اقطار مجلس التعاون العربي الخليجي: المنهاج المقترح والأسس المضمونية والعملية (سلسلة اطروحات الدكتوراه (٦)) (٤٩٢ ص ـ ١٠ $) ...... د. فؤاد حمدي بسيسو
- المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي... طبعة ثانية (٥١٦ ص ـ ١٠,٥٠ $) .... د. حليم بركات
- مصر والصراع العربي ـ الاسرائيلي: من الصراع المحتوم... الى التسوية المستحيلة ... طبعة ثانية (٢٥٦ ص ـ ٥ $) .... د. حسن نافعة
- اللغة العربية والوعي القومي... طبعة ثانية (٤٨٤ ص ـ ٩,٥٠ $) .... ندوة فكرية
- الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق...طبعة ثالثة (سلسلة اطروحات الدكتوراه (٥)) (٤٨٦ ص ـ ٩,٥٠ $) .... د. وميض جمال عمر نظمي
- السياسة الامريكية تجاه الصراع العربي ـ الاسرائيلي ١٩٦٧ ـ ١٩٧٣ (سلسلة اطروحات الدكتوراه (٤))... طبعة ثانية (٢٤٤ ص ـ ٧ $) .... د. هالة أبو بكر سعودي

هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب مختارات من تراث محمد عزة دروزة، يقدمها مركز دراسات الوحدة العربية في اطار مشروعه لتقديم تراث رواد الفكر القومي ومفكريه.

ومحمد عزة دروزة (١٨٨٧ ـ ١٩٨٢) واحداً من اعلام الفكر القومي العربي ومن أبرز مناضليه. انغمس في العمل القومي بكل قواه. واعطى للحركة القومية نفسه. وشارك نظرياً وعملياً في معاركها.. عندما كتب فاقت اسهاماته في الكتابة التاريخية والسياسية اسهامات كثيرين من زملائه. وعندما انغمس في العمل السياسي برز دوره في كل النشاطات التي شارك فيها. ولكنه، للاسف، كجمع من أقرانه لم يلق الاهتمام والتكريم الواجبين، وظل جانباً مهماً من تراثه غير منشور أو متناثر.

وهو صاحب رؤية قومية للتاريخ العربي، عُني بتأصيلها، كما عني بأن يؤسس مفاهيم وقيماً تربوية. وتعكس مؤلفاته العديدة عطاء موفوراً، أسهم من خلالها في تعميق الوعي القومي والتاريخي، وشارك في بلورة خط سياسي قومي وتحرري. ودافع عن الاسلام وقيمه، وعن الوطن العربي، والامة العربية. وظل وفياً لقيمه حتى مات.

وتقتصر المختارات الواردة في هذا الكتاب على اسهامات المفكر العربي القومية فقط والتي تتصل باهتمامات المركز. وإذا كانت اعادة طبع هذا التراث سوف تساعد الباحثين المعنيين بشؤون العمل القومي. فهي في الوقت نفسه تكريم للرجل ولدوره في خدمة العمل القومي.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون
ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٠٢٢٣٤
برقياً: «مرعربي»
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي. فاكسيميلي: ٨٠٢٢٣٣

الثمن